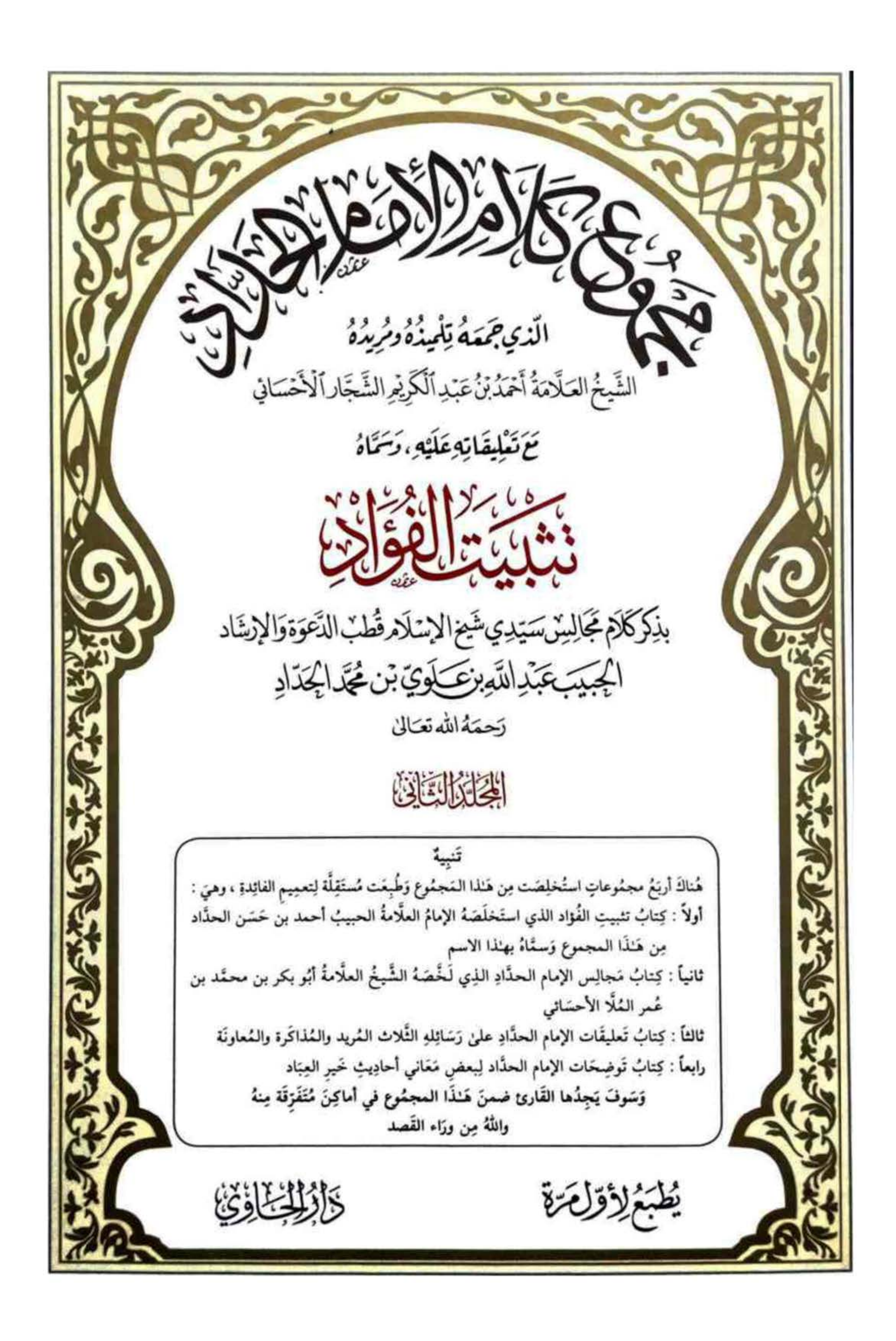


مجموع كلام الإمام الحداد

الذي جمعه تلميذه ومريده

الشيخ العلامة أحمد بن عبد الكريم الشجار الأحسائي

مع تعليقاته عليه، وسماه

تثبيت الفؤاد

بذكر كلام مجالس سيدي شيخ الإسلام قطب الدعوة والإرشاد

الحبيب عبد الله بن علوي بن محمد الحداد

رحمه الله تعالى

المجلد الثاني

تَنبيهٌ

هُناكَ أربَعُ مجمُوعاتٍ استُخلِصَت مِن هَـٰذا المَجمُوع وَطُبِعَت مُستَقِلَّة لِتعمِيمِ الفائِدةِ ، وهيَ :

أولاً : كِتابُ تثبيتِ الفُؤاد الذي استَخلَصَهُ الإمامُ العلَّامةُ الحبيبُ أحمد بن حَسَن الحدَّاد مِن هَـٰذَا المجموع وَسمَّاهُ بهـٰذا الاسم

ثانياً : كِتابُ مَجالِس الإمام الحدَّادِ الذِي لَخَّصَهُ الشَّيخُ العلَّامةُ أبُو بكر بن محمَّد بن عُمر المُلَّا الأحسَائي

ثالثاً : كِتابُ تَعليقَات الإمام الحدَّادِ علىٰ رَسَائِلِهِ الثَّلاث المُريد والمُذاكَرة والمُعاونَة

رابعاً : كِتابُ تَوضِحَات الإمام الحدَّاد لِبعضِ مَعَاني أحادِيثِ خَيرِ العِبَاد

وَسَوفَ يَجِدُها القَارئ ضمنَ هَـٰذَا المجمُوع في أماكِنَ مُتَفَرِّقَة مِنهُ

واللهُ مِن ورَاء القَصد

يُطبَعُ لأوّل مرّة

دار الحاوي

مجموع كلام الإمام الحداد

الذي جمعه تلميذه ومريده

الشيخ العلامة أحمد بن عبد الكريم الشجار الأحسائي

مع تعليقاته عليه، وسماه

تثبيت الفؤاد

بذكر كلام مجالس سيدي شيخ الإسلام قطب الدعوة والإرشاد

الحبيب عبد الله بن علوي بن محمد الحداد

رحمه الله تعالى





إله الورى سهِّل على كل من قرا تصانيف حداد العُلا ما تعسَّرا

وأصلِح له كلَّ الشؤون وجُدْ له بعافيةٍ كبرى وأحسِنْ له القِرى

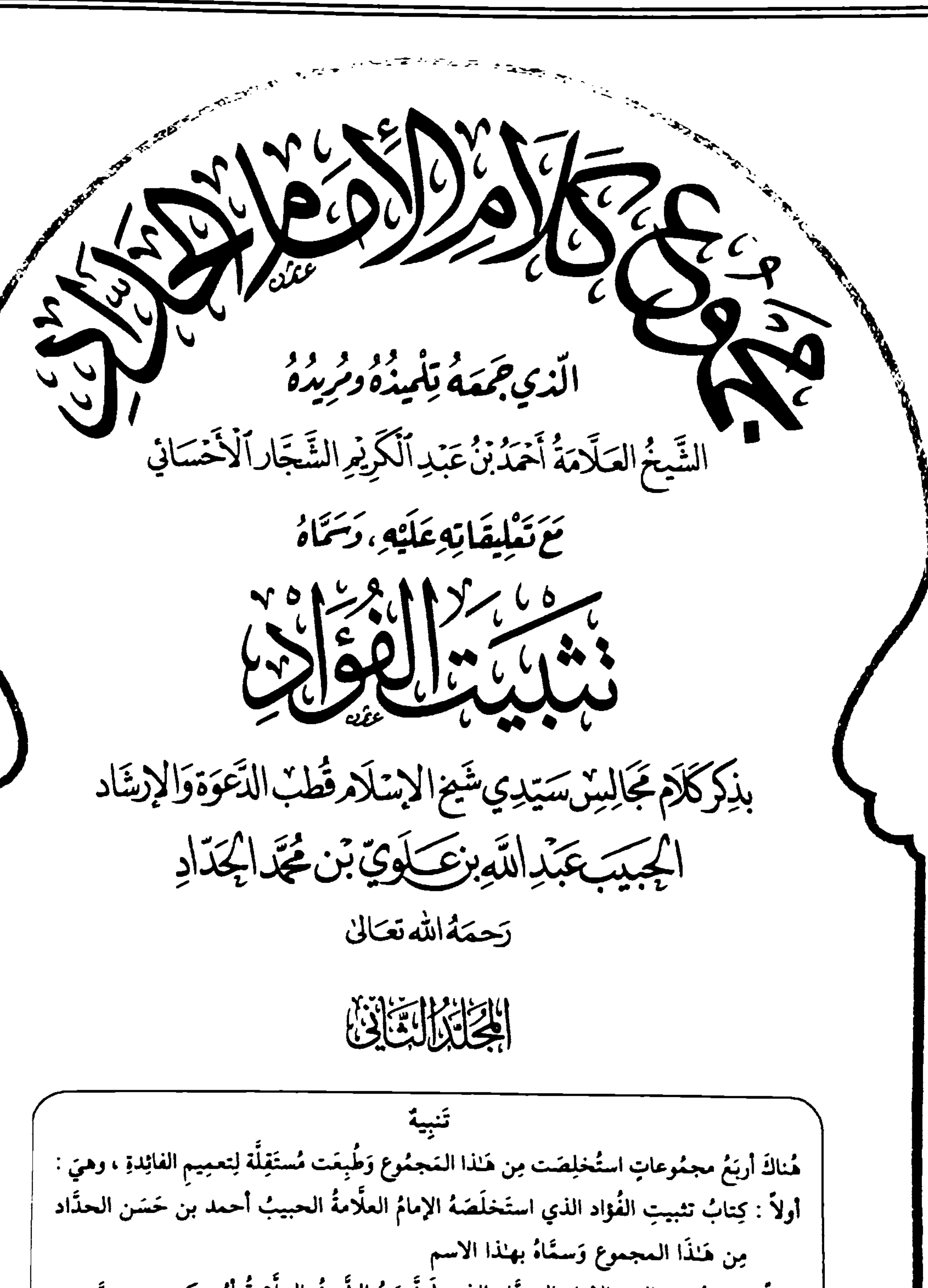
وجدِّد له في كلِّ حين كرامةً وفضلاً وأنعشْهُ إذا ما تعثَّرا

وهب يا وليَّ الخير أنساً وراحةً ورزقاً حلالاً واسعاً ومُيَسَّرَا

الأبيات الثلاثة الأولى
في ديوان الحبيب أحمد بن عمر بن سميط
والبيت الرابع
منسوب للحبيب طاهر بن عمر الحداد

الطبعة الأولى
١٤٤٢

حقوق الطبع محفوظة للناشر



مجموع كلام الإمام الحداد

الذي جمعه تلميذه ومريده

الشيخ العلامة أحمد بن عبد الكريم الشجار الأحسائي

مع تعليقاته عليه، وسمّاه

تثبيت الفؤاد

بذكر كلام مجالس سيدي شيخ الإسلام قطب الدعوة والإرشاد

الحبيب عبد الله بن علوي بن محمد الحداد

رحمه الله تعالى

المجلد الثاني

تَنبِيهٌ

هُناكَ أربَعُ مجمُوعاتٍ استُخلِصَت مِن هَـٰذا المَجمُوع وَطُبِعَت مُستَقِلَّة لِتعمِيمِ الفائِدةِ ، وهيَ :

أولاً : كِتابُ تثبيتِ الفُؤاد الذي استَخلَصَهُ الإمامُ العلَّامةُ الحبيبُ أحمد بن حَسَن الحدَّاد مِن هَـٰذَا المجموع وَسمَّاهُ بهـٰذا الاسم

ثانياً : كِتابُ مَجالِس الإمام الحدَّادِ الذِي لَخَّصَهُ الشَّيخُ العلَّامةُ أبُو بكر بن محمَّد بن عُمر المُلَّا الأحسَائي

ثالثاً : كِتابُ تَعليقَات الإمام الحدَّادِ علىٰ رَسَائِلِهِ الثَّلاث المُريد والمُذاكَرة والمُعاونَة

رابعاً : كِتابُ تَوضِحَات الإمام الحدَّاد لِبعضِ مَعَاني أحادِيثِ خَيرِ العِبَاد

وَسَوفَ يَجِدُها القَارِئ ضمنَ هَـٰذَا المجمُوع في أماكِنَ مُتَفَرِّقَة مِنهُ

واللهُ مِن ورَاء القَصد

يُطبعُ لأوّل مرّة

دار الحاوي

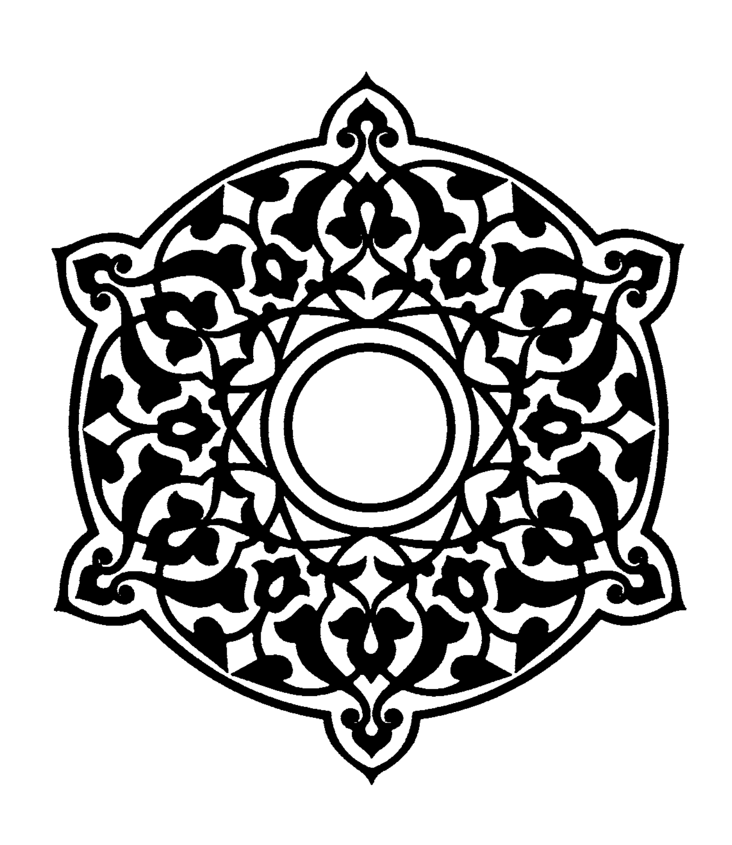
مواضيع المجلد الثاني (٢)

ماذا قال للأحسائي في جلسة خاصة معه ؟ • الدعوات الثلاث التي قالها الإمام للأحسائي • عادة الإمام الحداد حينما يجلس على الدكيكة على طرف ساقية الحاوي في عشية رمضان • تشديد الإمام على عدم نقل شيء من كلامه إلى الآخرين إلا بعد مقابلة جيدة • تحذيره من نقل أي كلام منقوص عنه أو محرَّف • من هو القرندلي ؟ • العوادات بدعة ما لها أصل في السنة • سند الإمام إلى ابن حجر • مكاشفته للأحسائي عندما أمره بإحضار (ليم) من السبير • صفة ختم القرآن لحفيده محمد باقر بن الحسين بن عبدالله الحداد • صفة خروجه ودخوله ليلة العيد ودعوة الغرباء للغداء قبل صلاة العيد • بيان العطل الرسمية لمجالسه خلال العام • خمسة أنواع من المال تأكل أصحابها • تحذير شديد لخادمه نبيهان من التشبه بالأكابر • التحذير للأولاد والأخدام من حضور جلسات السماع • تعلق المريد بالشيخ وهو غائب عنه أفضل من حضوره بدون تعلق • قصة أصحاب المركب من المسلمين والكفار الذين أشرفوا على الغرق فتخلصوا من الكفار بطريقة عجيبة جدًّا جدًّا • شرط مطالعة الإحياء • إذا لم يكن في البلد أربعة أشياء تسارع إليها الهلاك • بيان الولائم والعزومات التي كان يقيمها في رمضان • عزيمة الحجاج • عتاب وتوبيخ لخادمه نبيهان لعدم حضوره الوليمة • ثمان آيات دواء من العين • كيفية مسحه على رؤوس الأطفال • كلام مهم عن المناقب •

نهيه عن التواجد والتحرك أثناء الذِّكر • ثلاث إن لم تظلمهم ظلموك • الأحسائي يسمع الإمام يذكر الله طوال الليل من خلوته المجاورة للغيلة التي فيها الإمام • حضور الإمام للحزب في رمضان بعد الظهر وبيده سبحة ألفية • رجل بكى عند الإمام فماذا قال له ؟ • ماذا قال الإمام لصبي أراد الحج • الكلام عن الرجل الذي يدَّعي أنه من أتباع الإمام وهو يكذب • قصة السبحة التي أرسلت له • هل تتولى المرأة القطبية ؟ • لماذا أمر الإمام أحد الحاضرين في مجلسه بالتحول من مكانه إلى مكان آخر ؟ • انظر مفهوم الإمام في معنى قوله تعالى : (وجزاء سيئةٍ سيئةٌ مثلها) كيف سمى الجزاء سيئة ؟ • كراهية النومتين في يوم واحد • التحذير من الجهر بالقراءة خلف الإمام • التطويل بالنية عند تكبيرة الإحرام • الإنشغال بالكلام بعد إحرام الإمام حتى يركع • الحبيب أحمد بن زين يفسر رؤيا للحساوي • ماذا قال الإمام الحداد قبل وفاته بيومين وهو في حالة اصطلام ؟ • الأبيات التي أنشدها منشد من الجن في سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه • ما حدث للأحسائي وهو في المدينة المنورة يدل على عناية الإمام الحداد بأتباعه حتى بعد وفاته • العلاج بالعنبر وواقعة الأحسائي في ذلك • قصة سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه وتصديق قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم : (كفِّي وكفُّ عليٍّ في العدل سواء) •

ابتداء مرضه الأول ٢٧ رمضان ١١٣٠ ثم عاوده في نفس الوقت ٢٧ رمضان ١١٣٢ ، أي بعد سنتين ، وهي التي وهبها للشيخ حسين بافضل أعيدت له • معنى قولهم : لا يستوي العطار والبيطار • قصة المرأة التي أهدت للإمام الحداد عباءة فأرسل إليها سبحة • قصة الشيخ أبي بكر بن سالم لما دفع القروش لأولاده • انظر كلامه على التخبير والتقصيف • ما حدث لسلطان حضرموت عمر بن جعفر • معنى قوله : (المضطرب في المحنة كالمضطرب في الحبل) • حكم دعاء أعضاء الوضوء لمن يتوضأ في الجوابي • معنى الإعلاق • همة العادة وهمة الفتوح • انظر كلامه القيِّم الذي قاله في الغيلة بعد الظهر يوم المولد عام ١١٢٥ للأحسائي بمفرده • كيف ينتفع المريد بالشيخ • كيف كان الإمام يتعامل مع خادم له كثير النسيان • الكلام عن الدنيا وما حدث في البصرة عام ١١٠٢ • الحث على الخروج للنزهة والتفرج وترويح القلوب في الأوقات المناسبة • الكلام على مقامات الدين وحديث جبريل • الإمام العيدروس ترك زيارة التربة بسبب الناس • الفرق بين التأني والتواني • ماذا قال الإمام لقاضي البلد عندما دخل عليه ؟ • قصة الماشي في الوحل • كلامه للسيد أحمد بارقبة عندما طلب منه الدعاء لأخيه محمد بالثبات • ما المراد بالتجديد في الدين ؟ • أصل المقولة المشهورة (ياسين عليه) • ماذا تعرف عن مسألة الظبية ؟ • ما هو الميزان المذكور في القرآن ؟ • كلام قيِّم عن الأدب • الإمام الحداد يعطي حفيده أحمد بن حسين قرشاً ليرجع إلى البيت • قصة حفيده أحمد بن حسين عندما ألبسه جدُّه عمامة • بناية جبانة تريم • طريقة الإمام الحداد في الإلباس • كلام الإمام مع السيد سالم بن عمر • عادة الإمام الحداد في حراثة أرضه في بيت جبير • كلامه عن المساكين وهو في طريقه من الحاوي إلى السبير • نهيه عن كثرة المطالعة في كتب الحقائق مثل كتاب معراج الأرواح أو قراءتها في المجالس العامة • برنامج الإمام الحداد وترتيبه في يوم الجمعة من كل أسبوع • قصة الإمام علي بن موسى الرضا مع زينب الكذابة • مزاحه مع الأحسائي وهو داخل الضيقة • معنى قول الإمام الحداد : (أهل الزمان كبرت جسومهم وصغرت عقولهم) • موعظة قيمة من عبدالرحمن بن القاسم للخليفة المنصور • من يسعى من الورثة في تبطيل الثلث فهو فاجر • مصير أولاد الصالحين والأتقياء وأولاد الأغنياء المتظاهرين بالصلاح • كلامه عن البيوع المحمودة والمذمومة • نصيحته للسلطان بدر الكثيري • ذكر قصة صاحب الساقية السيد عمر بن أحمد المنفر (وهو جد والد الإمام لأمه) مع النقيب المتسلط باغوث • كلامه عن الدولتين الأموية والعباسية وعن الأئمة الأربعة • قصة عيسى بن بدر بشبام وموته بعينات • ما يحكيه الإمام عن جدته الشريفة سلمى بنت عمر بن أحمد المنفر • ذكر الحاوي والأراضي التي ورثها الإمام عن والده من جدته المذكورة وشراؤه لأسهم إخوانه ثم استوطنه بعد ذلك • كافات الشتاء السبع • واقعة كبيرة في رؤية هلال شهر رمضان عام ١١١٧ وموقف الإمام الحداد منها • بيان الكتب التي كانت تقرأ في مجالس الإمام الحداد وأسماء القرَّاء • إشارات من الإمام الحداد للأحسائي

تظهر بعد ثلاثين سنة • توجيه الإمام الحداد للمنشدين بمراعاة المناسبات • ما يقال لتسهيل أمر المعيشة • الأحرف النورانية وأسرارها • وغير ذلك كثير .



قال رضي الله عنه : « الطالب الصادق ، يجيء فيأخذ ما يكفيه ، ومن جاء بحسن ظنٍّ وصدقٍ ومع أدب ، مثل من يحمل من الماء ما يكفيه ويشرب حتى يروى . ومن كان ليس معه أدب كالذي يشرب ويحمل ثم يبول في الماء ، ومن يعمل الأعمال الصالحة لِيُظْهِر فضله فهو مذموم » .

فقلت : إنما يريد الإنسان الإستقامة على الصراط المستقيم لله تعالى ، ويطيعه كما يجب ، فكيف الوصول إلى ذلك ؟ ، فقال رضي الله عنه : « بما أنت عليه من ظاهر الصلاة ، ومن الباطن - يعني الخشوع - ما أمكنك ، وتعليم متعلّم ، والله سبحانه هو المعطي » .

فقلت : إنما مددنا منكم ، فقال : « إنما المدد من النبي ﷺ ، ونحن ما مددنا إلا منه ، ولو كنتَ بعيداً مِنَّا ظهر لك أشياء لا تظهر لك هنا » .

فقلت : ما أرى النفس إلا لاعبة علينا ، ولا نقدر عليها في شيء ، فقال : « والسلامة أن تبقى مستوراً أحسن ، تؤدي حقوق الله . ألا ترى إلى أناس إذا جاؤوا جذبوا ، وأنت معك شيء ما أنت داري به . والحاصل إنك ما زلت عندنا لا يظهر لك شيء ، بل إذا رحت . فإن مِتَّ قبلنا ، فأنت كَنَجْم غاب مع ظهور القمر ، وإن بقيتَ بعدنا فأنت شيخ ، فإن أظهرك الله ووسَّع عليك الرزق ، فَخُذ منه حاجتك بقدر الضرورة ، وإلا فإن الخير في التقلل من الدنيا » .

ودعاني إلى عنده في الغيلة يوم السبت ٢٠ ربيع الثاني سنة ١١٢٦ ، وجرى بيني وبينه رضي الله عنه كلام كثير ، من جملته أن قال : « ما يقع شيء إلا في بلادك » .

فقلت : أريد معرفة الله ببركاتكم ، فقال : « إن كنت تحتمل معرفة الله ، فيكون ذلك إذا بلغت بلادك» ، فهذا وعدٌ منه على شَرْطِهِ ، وأرجو ذلك ببركته . ثم ذَكَرَ حينئذ أن إبراهيم الأعزب - وهو ابن بنت السيد أحمد الرفاعي ، والمقدَّم بعده - سَلَبَ من أصحابه أحوالهم وقال لهم : « تعيشون هكذا في الدنيا أسلم لكم ، ونردها عليكم بعد الموت » ، ثم قال : « ولعل هذا هو السبب في تذبذب الرفاعية» .

ثم ذكر قصة الذي كان يحفظ قصيدة الشيخ أبي بكر العدني : « ببسم الله مولانا ابتدينا » ، وكان عَشَّاراً ، فرآه بعض الناس بعد موته ، وإذا مَلَك قابضاً به يريد يدخله النار ، فاعترضه مَلَك آخر فقال: « خلِّ سبيله » ، فقال له : « إنه عَشَّار ، وقد أُمِرتُ بإدخاله النار » ، فقال : « إنه يحفظ قصيدة الشيخ أبي بكر » ، فقال : « إنه يغلط فيها » ، قال : « ولو لم يكن فيها إلا قوله :

وَذِكْـرُ العَيْـدَرُوسِ القُطْـبِ أَجْـلَى عَـنِ القَلْـبِ الصَّـدَأ لِلصَّادِقِينَـا

فخلِّ سبيله . فقلت لسيدنا : إذا سمعنا كلامكم في الرجاء بمثل هؤلاء ، لا يكاد يقطع الرجاء من أحد ، وإذا رأينا أفعالهم يكاد الرجاء ينقطع منهم ، *فقال رضي الله عنه* : « **ارْجُ لغيرك ما ترجو لنفسك، وارْجُ لنفسك ما ترجو لغيرك ، فقد يكون ما في نفس الأمر خلاف ما في الظن ، كما رأى النبي ﷺ قطف عنب في الجنة لأبي جهل، فأحزنه ذلك وقال : ما لِعَدُوّ الله أبي جهل وللجنة . حتى ظهر تأويله بإسلام ابنه عكرمة ، لأن الأمور بالخواتيم . إلا إنك جانب أهل المعاصي وعِظْهم وذكّرهم من غير أن تتكبر عليهم ، أو ترجو لنفسك خيراً منهم** » .

ثم سألته حينئذ عن حالَيْ رجلَيْن ، أو رجل في إحدى الحالَيْن ، أيهما أحسن وأحب إليكم ، أحدهما غائب عنكم وهو متعلّق بكم كثيراً ، وآخر عندكم ولكنه ليس كالأول في التعلق ، *فقال* : « **المتعلّق أحسن حالاً من الآخر ، وإن كان حاضراً لأن في التعلّق منافع كثيرة لا تحصل بدونه ، وإن حصل مع الحضور منافع أُخَر** » .

فقلت : ما يحصل للحاضرين من رؤيتكم والإجتماع بكم ، والصلاة معكم والتعلم منكم وغير ذلك ، لا يقابِل تعلق الغائب ، *فقال* : « **لا ، لأن مع المخالطة لا يكاد يستقيم له شيء يحصل ، بل يفوت بسبب المخامرة ، كالذي يكون مشتاقاً للطعام فإذا شبع مَلَّه ، وفي البعد تغلب رؤية الخصوصية على رؤية البشرية ، وفي الإجتماع تغلب رؤية المماثلة والبشرية على رؤية الخصوصية . وقد قال الشيخ أبوبكر بن سالم : لو سألتُ الله ، أو قال : شُفِّعْتُ في أحد من الكفار ولعيالي وأخدامي ، لرجوت الإجابة لأولئك الكفار دون الآخرين . لأن المخامرة إذا قُلْت : هات كذا، وافعل كذا . تُذهِب الإحترام ، ولهذا كانوا إذا جاء الطالب ، يمكث شهر أو أكثر لا يكلّمونه بكلمة ، خوفاً أن يألَف الكلام معهم ، ويقل احترامه** » ، انتهى . وكان ذلك بمسجد إبراهيم بن السقاف الذي هو شرقي الحاوي ، قبلي مسيلة عدم، يوم الثلاثاء ٢ ربيع ثاني سنة ١١٢٦ .

وسألت سيدي رضي الله عنه أيضاً ، وذلك في البلاد ضحى السبت ٨ صفر سنة ١١٢٨ : عن حال الرجل يكون في البُعد متلهّفاً إلى الشوق إليكم كثيراً ، وفي الحضور سالياً عن هذا فارغ البال منه ، أي الحالتين خير ؟ *فقال رضي الله عنه* : « **حالة الحضور خير ، وليس في ذاك من الخصال المحمودة إلا التلهف والشوق إلى الإجتماع فقط ، وهذا يزيد عليه ببقية الخصال ، وإن كان خالياً من التلهف الحاصل لذاك ، لأن الإنسان في الطبع لا يشتاق إلى الحاضر ، فلهذا لا يكون الشوق في الجنة ، وإنما فيها الإشتياق . وقد قال السيد أحمد الهندوان لفلان – رجل سماه – : مالنا لمَّا كُنَّا في الهند نتحابب كثيراً ، ولما صرنا هنا قلَّ**

ما نتَّفق » هـ .

أقول : واختلاف الجوابَيْن على السؤال الواحد ، نظراً في كلٍّ منهما إلى أحسن ما فيه ، فنظر إلى شدة التعلق في الأول فرجحه على الثاني ، ثم نظر في الثاني إلى فوائد الخصال الحاصلة فيه ، فرجحه على الأول هـ .

ودعاني يوم الأربعاء ، آخر أيام التشريق سنة ١١٢٦ بين الظهر والعصر إلى الغيلة ، لأطالع عليه في كتاب « الشفاء » للقاضي عياض ، فبعد المطالعة ناولني وريقة ، **وقال : « انقلها في السفينة »** ، وإذا فيها أبيات لفخر الدين الرازي بخطِّي، أمرني بنقلها في رمضان ، وبقيت ضامها عنده ، فنقلتها فيها وهي : نهاية إقدام العقول عقال ...[1] ، ثم بعد ذلك قال لي : « **تقبَّلك الله وتقبَّل منك** » ، ثم قال : « **فتقبَّلك** » - أي تقبَّل ذلك واستشهد بقوله تعالى : ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ - « **وتقبَّل منك**»، أي تقبَّل الله أعمالك . فقلت له - مع رجاء ذلك بسبب قوله - : أرجو أن يحصل كل ذلك ببركاتكم .

أقول : ومثل هذا الأُنس معه ما أحلى منه إلا دخول الجنة .

ولما فرغتُ من كتابة كتاب : « منهاج العابدين » للإمام للغزالي رحمه الله ، وَضَعتُهُ في يَدَيْه الكريمتَيْن عندما خرج لصلاة العصر ، وجلس في الضيقة وذلك ٦ القعدة سنة ١١٢٤ ، فتصفَّحه *ثم قال* : « **كم كراريس ؟** » ، قلت : نحو عشرة ونصف ، *فقال* : « **جعلت الفقه الأكبر في عشرة كراريس ونصف ، داخلت الخط**»، وجعل يتصفحه ويروزه ، فقلت : ادع لي فيه بالبركة . فأنطقه الله لي بثلاث دعوات دعا لي بها ، وأنا أرجو من الله الكريم ذي العرش العظيم حصولها ببركته ، وهي أنه *قال* : « **الله يبارك لك فيه ، ويستعملك به ، ويجعلك من أهله** » ، فقلت : آمين حقَّق الله ذلك .

وقال لي سيدي يوماً : « **حسِّن أخلاقك ، وعليك بسعة الأخلاق ، ففي سعة الأخلاق وفر الخلاق** » ، *ثم قال* : « **رح اعط هذه الكلمة من يشرحها لك** » .

فمضيتُ بها إلى السيد الجليل أحمد بن زين الحبشي فقال عليها : « أمر رضي الله عنه بسعة الأخلاق، التي من ثمراتها طيب الكلام ، وبشاشة الوجه واعتدال الأمور ، ونبَّه على أن في ذلك وسع النصيب

---

(١) فراغ في الأصل .

والحظ في الآخرة والدنيا » .

وقبل ذلك بمدة ، وذلك عشية الجمعة ٢١ شوال سنة ١١٢٢ ، وكنت أريد الخروج إلى الحاوي ، وهو يريد المبيت في البلاد ، فلما صاحبته للخروج *قال* : « **أتريد أن نجعلك نقيباً أم خادماً ؟** » ، فقلت: الذي تريدونه ، لا أختار معكم شيئاً، *فقال* : « **أنت خادم أمين من خدام أهل البيت** » .

ثم بقي يكلم ولده الحسن فقال له : « **إن الحاج فلاناً ، له عندنا الآن مدة سبع سنين ، نرجو أن يفتح له باب نور من الله تعالى ، أو من النبي ﷺ ، لأنا إنما نحن تابعين ما نحن بمتبوعين ، ولكن النور ما يظهر مع بقاء الشمس** » .

قلت له : يا سيدي ما لي عمل أرجوه وأثق به سوى رؤيتكم والإجتماع بكم ، *فقال* : « **لكنك الزَم، والأثر على قدر الحال والزمان ، ورؤية أهل البيت وزيارتهم ما هو قليل** » .

ودعاني إلى عنده ، وكان جالساً على الدكيكة على طرف ساقية الحاوي ، وذلك عشية الخميس ٣ شهر رمضان سنة ١١٣١ ، وكان من عادته يبرز هذا الوقت في هذا المكان كل ليلة في وقت القيظ ، بعد أن يقوم من مجلس قراءة العصر إلا لعذر كمطر ورياح . ثم أمرني أن أجني رُطَباً من نخلةٍ حمراء إلى جانبه ، فلما ناولته إياه ، قسَّم منه على من حضر ، وما كان هناك إلا صبيان صغار ، وأعطاني من جملتهم، وهكذا كان عادته ، ثم لما أراد القيام *قال* : « **الله يتقبَّل من فلان ، ولئن عاش بعدنا ليكونن له مظهر ، وإنما لم يكن له حال حياتنا ، لأن الإنسان – أو قال : المريد – لا يكون له ذلك في حياة صاحبه**». كذا قاله بلفظ الصحبة ، وما قال شيخه . وكان للشيخ علي الأهدل جارية تخدمه ، فلما مات الشيخ أقبل الناس عليها بالزيارة والتعظيم ، وصاروا يجون إليها كما كانوا يجون إلى الشيخ ، على أثر الشيخ .

وكنت يوماً أسايره خارجاً من البلاد إلى الحاوي كما هو العادة ، وذلك يوم الثلاثاء ٥ ربيع الثاني سنة ١١٣٢ ، وكان قبل ذلك بنحو أسبوع وصل اثنان أخوان من بغداد ، من أولاد الشيخ محمد الرجبي مفتي بغداد ، وطلبوا أن ينقلوا شيئاً من القصائد من الديوان ، فقال حينئذ – أي حالة خروجه ذلك – : « **لا تخلِّ أحداً من الأعراب الذين يَصِلون إلى عندنا إذا حَصَّل شيئاً من الرسائل أو من القصائد يسافر به ، إلا حتى تقابله بيدك ، واكتب عليه : بَلَغَ مقابلة على يد فلان ، واذْكُر اسمك واسم المصنِّف أو الناظم ، أن هذا من نَظْم فلان أو تصنيفه ، لأنك معروف بتحصيل الكتب – أي كتبه – وأي**

شيء ينفع الكتاب المغلوط ؟ وربما زاد حرفاً أو نقص حرف ، أو زادت نقطة أو نقصت أو غير ذلك ، فتغيّر المعنى ، فقرأوه على الخطأ ونُسِب إلينا ذلك ، ولم يعرفوه . فالحذر تخلِّي أحداً يكتب شيئاً ويسافر به حتى تقابله وتكتب اسمك على مقابلته واسم المصنِّف أو الناظم » ، يعني نظمه هو ومصنفاته .

وكان يوماً رجل يقرأ في « رسالة المذاكرة » ، فمَرَّ على قوله فيها : « تنشأ من ضعف الإيمان أمور مذمومة، مثل ترك العمل بالعلم وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأماني المغفرة بلا سعي لها ، والإهتمام بالرزق ، وخوف الخلق إلى غير ذلك من الأخلاق المشؤومة » ، فغلط القاريء وكان ضعيف العبارة فقال : « الأخلاق المسمومة » ، فرَدَّ عليه سيدنا المصنِّف غلطته ، *ثم قال* : « أكثر ما أنا خائف ، من أحد ينقل هذه الرسائل وفيها الغلط والتحريف ، فينقله عنا ويقول : قرأته على المصنِّف . فاشهدوا على ذلك ، وإنما نحن خدام الشريعة ، فمن أتانا فنفعه الله بنا أو بكلامنا فلا نكْرَه ، وإلا فلا حاجة لنا بأحد ، فمن سمع عنَّا بكلام غير مستقيم أو مخالفاً للكتاب والسُّنة ، إما لِغَلَطِهِ أو اعوجاج لسانه ، فلا يُصَدِّق . والغيار كله من قلة الفهم أو العجلة ، حيث يسمع بعض الكلام ويفوته البعض ، فينقله . فينبغي أن يستمعه كله ويفهمه»، أو كما قال ، عشية السبت سلخ ربيع أول سنة ١١٢٩ .

أقول : قوله : « وفيها الغلط والتحريف » ، يعني ينقله بغلط وتحريف منه .

قوله : « فاشهدوا على ذلك » ، أي اشهدوا على قولنا : « إنما نحن خدام الشريعة » ، فمن نَقَلَ عنَّا ما يخالفها ونَسَبَهُ إلينا « فلا يُصَدَّق » .

وذَكَرَ القراءة *فقال* : « ماشي في هذا الزمان بركة ، وشغل الوقت أنه يجلس بالقراءة ، ولتعود بركتها على بقية الأوقات » .

أقول :أي وإلا فما شِي حِفْظ ولا عناية بالعلم .

وحَصَلَتْ بيني وبين سيدنا نفع الله به مجاراة في الكلام ، وذلك بين الأذان والصلاة ، يوم الإثنين وهو يوم تاسوعاء ١١٢٧ ، فجاء ذِكْر الصيام وصيام رسول الله ﷺ *فقال* : « كان عليه السلام لا يعلم أحد بصيامه ، إذ لا قهوة ، ولكثرة أبياته، كلٌّ يحسب أنه أكل في البيت الآخر ، حتى إنهم لم يعلموا أهو صائم أو مفطر نهار عرفة في الحج ، حتى جاءته أم الفضل بطعام فأكَلَهُ ، فعَلِمُوا أنه مُفطِر ، وكان عليه السلام له قوة لا يطيقها البشر . وكذلك كان قوة في الأولياء ، لأنهم جاهدوا أنفسهم بالرياضة ، حتى اطمأنَّت نفوسهم بقِلَّة الأكل ، ولم يعوِّلوا على القوت » .

فقلت له : فذلك باختيارهم أو من غير اختيار منهم ؟ ، فقال : « باختيارهم، لكنهم لو بلغوا ما بلغوا ، ما رأوا ذلك ولا نسبوا لأنفسهم منه شيئاً . وقد كان الشيخ عبدالقادر الجيلاني والإمام الغزالي وأمثالهما ، مع شدة مجاهدتهم يذمون أنفسهم ، حتى أن من سمع كلامهم في أنفسهم ، قال : ما معهم شيء . ومن رأى أحوالهم عرف أنهم بلغوا ما بلغوا . وجميع ما تسمعه عن الصالحين ليس من الدنيا، إنما هو من الآخرة ، من رؤية حورٍ وقصورٍ ، ومَلَك ، أو مكاشفة ، أو حصول شيء من الدنيا ، فلم يشغلهم عن الله ونحو ذلك ، فكل هذا من الآخرة » .

قلت : فلم لو تكلف اليوم الإنسان شيئاً ، ما أمكنه أن يحصل مثل ذلك ؟ ، فقال : « ليعرف قَدْرَه ، ولا يَتَعَدَّى طَوْره ، وقد قال سيدنا علي رضي الله عنه : رحم الله امرءاً عرف قَدْرَه ولم يتعَدَّ طَوْره . ولهذا إذا سمع منهم وصدَّقهم كان مؤمناً وإذا أحبَّهم كان معهم . وأين الناس اليوم ؟ وكم بينك في الوقت وبين وقت الشيخ عبدالقادر ؟ إنما أنت في القرن الثاني عشر . فهل سمعتَ هذا القرن يُذْكَر في شيء من الكلام أو في كتاب ؟ إنما حَدُّ ما يُذْكَر القرن الحادي عشر على الندور أيضاً ، واليوم قد ضَعُفَت الهِمَم وضعف كل شيء عن الحال الأول ، حتى الشجر والنبات » .

قلت : فماذا يفعل الإنسان ؟ ، قال : « يُحكِم الإسلام والإيمان ، فهذا هو الذي عليه ، وإذا أراد الله شيئاً فما هو ببعيد » .

قلت : ما مراد الإنسان إلا حصول كمال التوحيد والعبودية ، قال : « ليعرف الإنسان حال نفسه، ويحبهم ويكون معهم تشمله المعية ، ويكفيك ما قال الله تعالى لموسى عليه السلام : ﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ » .

وقلت له : إن فلاناً طلبني - أحمد باحسن - ، قال : « أي يوم ؟ » .

قلت : يوم الأحد ١٥ ، فقال : « أنت هذه الأيام على البِيض ، أو الإثنين والخميس ؟ » ، يعني في الصيام .

قلت : على الإثنين والخميس ، وإن حصلت همَّة على البِيض في بعض الأشهر كالحُرُم كان ذلك، فقال : « لعلك أن تكون قَرَنْدَلِيًّا ، وهو دون الملامتي ، وهو الذي يطلب ما فيه راحة قلبه ، وأعلاهم الصوفي ثم الملامتي ثم القَرَنْدَلي . وقد فصَّلهم في العوارف ، وترانا با نخلِّي أحد يقرأ فيه ، فخذ أنت نسخة فاستمع فيها » .

فقلت : ما أحد يقنع بالدون مع القدرة على الأعلى - وذلك لما فضل بين الأصناف الثلاثة - ، فقال : « إنما أنا قاسِمٌ والله المعطي ، وما لأحد اختيار في نفسه، ولو كان لكان كل أحد يكون في الدرجة

العليا » ، فقلت : الترقي مرجو ببركاتكم ، قال : « إن شاء الله » .

قال رضي الله عنه : « طريقة السادة آل باعلوي : العقيدة التامة ، والتعلُّق بالشيخ والإعتناء من الشيخ ، والتربية بالسِّر . وهي طريقة السلف كالحسن البصري وغيره وليس من شَرْطها الأربعينية ولا بأس بذلك ، وقد فعله كثير منهم . ومن لم يجتمع قلبه بَعْدُ على شيخ معيَّن ، فلا يختص بأحد منهم ولا ينتسب إليه ، بل يُكثر من لقاء المشايخ ويتبرك بهم ما دام كذلك ، حتى يجتمع قلبه على واحد ، فحينئذ يلزمه ويختص به وينطرح تحت نظره » ، أي ويكون منسوباً إليه .

وقال لي عشية يوم الخميس ١١ ربيع أول سنة ١١٢٥ : « من طَلَبَ وأرادَ شيئاً من أحوال الصالحين، فليطلب ذلك ويستثمره بالأعمال الصالحة الخالصة والأخلاق الحسنة ، ويطلبه من الله بذلك ، ولا يطلبه منه بغيرها ، ثم يطلب منه لها الزيادة والترقِّي ، فإن هذه الأمور تُثْمِر له ذلك إن كان له نصيب، والله هو الفاعل إذ ما كل حَبَّة تجيب سبول . فتراك ترى كثيراً من الناس ، يا صلاة ويا صيام ، ولا حصَّلوا شيئاً، لعدم ترقِّيهم ، فإنهم بقوا جامدين على ذلك ولم يطلبوا الزيادة والترقي ، ولكنهم على خير لا يخلون منه . ولا عاد نوصي إلا بالإحياء كما أوصى به السلف ، وفي الفقه : المنهاج لأنه مغربل ، وفي كل كتب الحديث خير : البخاري أو مسلم أو رياض الصالحين أو الأذكار ، إلا أنه لا يُمعِن جدًّا – أو قال: لا يتقَعَّر – لأن ذلك يريد قوة في الإدراك والفهم والتحقيق ، وما ندري ماذا يصير الأمر بعدنا . ولكن احفظوا عنا ما ذكرناه ضحوة وقت القراءة من أمر الدجال ، لأن النبي ﷺ قال : إن ظهر وأنا فيكم ، فأنا حجيجه ، وإلا فكل امريء حجيج نفسه » .

يشير إلى ما قد ذَكَرَ ضحى هذا اليوم في مجلس القراءة من أمر المسيح الدجال ، فقال : « ما جاء أنه يمسح الأرض – أي يمر عليها – لا يلزم من ذلك أنه يعمّها كلها ، بل يطلق هذا على الأكثر ، ويحصل به العموم . لأنه جاء أنه لا يدخل مكة ولا المدينة ، وفي الجبال حِصن حصين منه ، فعلى من خافه بها ، إلا إن كان يرسل لمن بعد منه ، لكن ما له رُسُل ولا طلائع يبعثهم ، وإنما هو مفرد برأسه ، وقد مَرَّ علينا في آثار ضعيفة جداً ، أن من كان في الأموات ممن لو حضره لأجابه ، يجيبونه من قبورهم ، ولكن لا يصح هذا » ، أو كما قال .

وبعد مجيئنا من دوعن مع الحبيب علوي يقول : « أعجبتك زيارة دوعن ؟ » ، فقلت : لما عَلِمتُ بخروجكم إلى بيت جبير ، تأسَّفتُ أن لا أكون خرجت معكم، فقال : « هذا شيء آخر لا تعده ، أما

سمعتَ ما ذُكِر عن الشيخ أبي السعود من أصحاب سيدنا الشيخ عبدالقادر الجيلاني رضي الله عنه ، أنه جاءه الخضر ، فرفع رأسه ثم ردَّه ، ولم يظهر منه الفرح به ولم يعبأ به . فقال له الخضر : أما عرفتني ؟ فقال: بلى عرفتك ، ولكن الشيخ عبدالقادر ملاني من قدمي إلى رأسي ، فلا أعبأ بأحد سواه . فهذا شيء آخر » ، أو كما قال رضي الله عنه ونفعني به .

قال رضي الله عنه : « إنا لا نترك ولا نَدَع المتَّصل بنا - أو قال : المتمسِّك بنا - سواء كان دويلاً أو جديداً . والتمسك إنما هو من الطالب » ، ومراده بالتمسك : العقيدة التامة والإعتقاد الصحيح ، ومرة قال : « ولا نُسَيِّبه ، وإن هو سَيَّبنا » .

وذَكَرَ يوماً ما حصل من الرحمة في الأرض ، ثم كان من كلامه حينئذ : « سبحان الله الذي علَّق الأشياء بالمشيئة ، فقال : ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾، فكيف لو علَّقها بالمحبة ؟ فلو كان ذلك لما أعطاها إلا من يحب » ، *وقال* : « كل بلاء يتبعه رحمة وعافية ، وهذا بلاء ساقوه ألَّا بأنفسهم إلى المسلمين بلا نية وبلا صلاح » ، *وقال* : « حرث السماء يضاهي التجارة في بركته ، فهو أقرب إلى الحِل ، وفي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾» .

ثم سأل عن استهلال الشهر في بلاد دوعن ، هل هو كما هو هنا في يوم واحد؟ فقيل : « فيه تقديم عندهم » ، يعني شوال من سنة ١١٣٠ ، شهدوا به في يوم السبت وهناك بالجمعة . فلام الناس في تساهلهم في الرؤية حيث اختلفوا والمطلع واحد ، *فقال* : « ما عاد نحن عند شيء ، إنما يتعيَّن عليهم أن يراعوا الأحكام المتعلِّقة بالأوقات من العِدَد ، وتأجيل الديون والنذور وغير ذلك ، فإن بتقصيرهم با يحصل التقصير ، في هذه الأحكام » .

ثم قال : « أحوال وأمور ، لو تصوَّرها الإنسان قبل وقوعها ، هل يمكن وقوعها ؟ لم يجوِّز ذلك ، بل يستبعده ويستحيله . ولكل شيء حكمةُ ، فإذا تصور الأمور الإلهية فلها حكم آخر » .

ثم دخل عليه السيد زين العابدين بن مصطفى العيدروس ، وذلك في مرضه سنة ١١٣٠ ، *فقال* سيدنا له : « الحمد لله حصلت العافية - أو : العافية حاصلة - وإنما هي حُمَّى خفيفة ، وإذا كان الإنسان يروح ويجيء ، ويقيم صلاته ، ولو كان معه أمراض خفيفة ما يخالف . وإنما المرض ما أقعد الإنسان ، وقد لي نحو سنتين ما أصلي إلا وأنا ماسك بالحائط ، ومنذ مكثت في الدار لا أخرج ، إنما أصلي جالساً واسترحت بذلك . والعافية من الله سبحانه ، والعبد ضعيف ، وفي بعض الأحاديث: أن النبي ﷺ جعل يصف الحمَّى لرجل ، ثم قال له النبي ﷺ : أتريد أن أزيدك من وصفها ؟ فقال : لا ، لو لم يكن

إلا ما ذَكَرْتَ ، أو يكفيني ما ذَكَرْت » .

ودخلوا عليه يعودونه في مرضه هذا ، فقال بعدما حيَّاهم واطمأنَّ بهم المجلس: « الحمد لله ، العافية حاصلة ، وعافية الكبير ألَّا على قدرها - يعني ضعيفة - ولو هو ألَّا من حيث الشاغل ، ولو أراد شيئاً أو أراد أحد منه شيئاً ، وشيء من الشواغل من حيث الحقيقة ، وشيء من حيث العادة » .

ثم أذن لهم يوماً آخر ودخلوا عليه ، فما زاد أن سأل كل واحد عندما يصافحه: « أنت من ؟ » ، كما هي عادته .

ولما صافحته وكان معي حُمَّى ، فقال : « عساك أشكل ؟ » ، أي أهون . فقلت : بخير ، فقال : « مسكين الحاج ، وكلنا ذلك المسكين » ، ثم قرأ هذه الآية : « ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾» .

ثم ذكر هارة وقعت في البلاد سنة ١٠٣٠ ، قال : « ما أحصي من مات فيها لكثرتهم » ، قال : « وهي الهارة التي مات فيها الشيخ أحمد بن الحسين العيدروس » .

والهارة : وقت الوباء . وحين ما وصلت حضرموت سنة ١١١٥ كان فيها هارة، حتى حزروا من مات بين العيدين ، عيد رمضان وعيد عرفة ، نحو أربعة آلاف نَفْس ، وفيها أيضاً قحط شديد ، ثلاثة أرطال تمر بأوقية ، وهي المحمدية ، وذلك نحو عشر ونصف عشر قياسة الأحساء .

ثم دخلوا عليه يوماً آخر ، فتكلم لكل واحد بما يناسبه ، ثم قال : « ومع الكِبَرَ الإنسان لا يستوفي نوم الليل كله ، ولا أكله كله . وقد يكون إما لِكِبَرٍ أو لعادة والشاب لا يكفيه ذلك ، بل يريد نوم الليل كله ، وفي النهار ، ويأكل أكثر من العادة . وقد قيل : إن خلاك الموت ، ما خلاك الكِبَر . والحاصل إن الدنيا دار عقوبة منذ خُلِق آدم ، فبقي ذلك في ذريته خِلقة للمثوبة فراح يدور للعقوبة ، وإلا فما أحد يخالف الحبيب ويطيع العدو ، ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾» .

ودخلوا عليه يوماً ، فلما فرغوا من المصافحة ، جعل يتكلم في رؤيتهم الشهر ويخطئهم فيها ، قال : « تمضي ثلاثة أشهر ما خرجوا يشوفونه ، فإذا كان شهر لهم فيه أكل خرجوا له ، والناس ما هم فيما يتعلق بذلك ، لا فرق في أكلة تأخَّرت أو تقدَّمت ، وإنما الحرج فيما تتعلَّق به الأحكام من الأشهر كمدخل رمضان وخروجه وشهر يوم الحج ، وكذلك العقود والأنكحة والعِدَد وغير ذلك . وهم

عمّال يدوّرون الإشكالات ، الإشكالات ما هي في الدين ، كيف يشهدون به ولا يُرى ثاني ليلة ؟ وقد لا يُرى ثالث ليلة ، كيف يكون ذلك ؟ ورؤيته تحتاج معها إلى معرفة حساب وهندسة ، ليعرف محل النظر إليه فيه ، ويعرف إمكان رؤيته . ولكن هذا الزمان ما سكت ولا خلّى أحد يتكلم ، إن سكت ما صبرت، وإن تكلمت ما لحقت أحداً يقبل ، كالذي يضرب بالفأس على حجر ، وما معك من الزمان اليوم إلا كما حُكِي عن رجل، كان ينظر إلى أمْرَد حَسَن وهو في الطواف ، فما درى إلا بضربة جاءته في وجهه، فقال : آه . فقيل : اسكت ، وإلا جاءتك أخرى. فما لهم إلا مثل هذا ، ولو كان ذلك إلا من سلطان قاهر » - أي وإلا فما يرجعون عمّا هُم عليه - ثم قال : « وتسهَّنه - يعني ترجوه ، أي شهر الحجة - أن يتثبَّت رؤيته بالإثنين من غير اشتباه ، وأن تكون الأمور صالحة والفتن ساكنة والشر منطفيء » ، يعني سنة ١١٣٠ .

ثم دعاهم للدخول عشية الإثنين يوم التروية ، فدخلوا عليه ، فلما اطمأنَّ بهم المجلس تكلم ، فكان كلامه كله تَنَفُّس ، كالفاقد لمجالسه المعتادة ، والمتعطش لجريان المذاكرة بعد انقطاعها ، فمما تكلم به ، وما نُسِيَ أكثر ، وهذا أيضاً ما فهمته مع ضعف حفظي وركاكة فهمي :

صافحه صبي فسأله من هو ، فأخبره ، فقال له : « بارك الله فيك » ، ثم قال : « إن بعضهم قال : ينبغي إذا أراد أن يقول لأحد بارك الله فيك ، أن يقول : بورك فيك. لئلا يكثر ذكر اسمه تعالى في كل لفظ ، وفي كل محل غير لائق ، فيكون فيه شبه الإخلال بالحرمة . وكذلك الإتيان به في الألفاظ المذمومة، كأخزاك الله ونحو ذلك، إذا كثر تكرر الإسم الشريف فيها ، يخل بالتعظيم الإلهي . ويعرف ذلك من حيث العلم الذوقي أو العلم الكشفي ، ولكن لا يفهمون بكثرة التعليم ، وقد تَعْوَجُّ الألفاظ في أَلْسِنَةِ العامَّة ، فيقلِّبونها ولا أحد ينكرها عليهم ، فيحتاجون إلى تعليم ، وقد جاء رجل إلى عند النبي ﷺ فقال : عليك السلام يا رسول الله . فقال ﷺ له : وعليك وعلى أمك . الحديث ، وألفاظ كثيرة بكثرة الإعتياد ما يحس الإنسان إلا قد وضعها في غير محلها بحكم الإعتياد ، كألفاظ الطهور والخلاء ، وقد يقع لي أنا هذا كثيراً » .

ثم ذَكَرَ كثرة أشغال الدنيا واستغراق الناس فيها ، فقال : « اتباع أمور الدنيا هي قولك : با أفعل كذا ، وأفعل كذا . فهذه هي الشُّعَب ، شُعَب الدنيا التي من تتبَّعها لا يبالي الله في أي وادٍ من أودية جهنم أهلكه ، ولكن إنما هي أقوال تتبعها أوهام وتتبعها الأعمال ، وأهل الزمان يريدون صبراً » .

ثم ذَكَرَ صبر أهل العلم على العامة ، فقال : « وأهل العلم والدِّين يصبرون ، وذلك شرط ، قد يكون إما ابتلاء أو طلب فائدة ، فالإبتلاء كمن يُبْتلى بأحد سيء الخلق في جامع أو مجلس تعلم أو

صحبة سفر . كما في قصة الرجل الذي صحبه في سفر رجل سيء الخلق ، فجعل يصبر عليه مدة ما هو معه ، حتى إذا فارقه جعل يبكي ، فقيل له : ما يبكيك ؟ فقال : أبكي على صبري عليه مدة ، ثم فارقني وبقي خلقه معه » ، وهذا الباكي إبراهيم بن أدهم .

ثم قال في قولهم : « فيها أفلاك » : « يحذفون الكلمة ، ومعناها فيها أفلاك دائرة ، يعني تدور عليك بما تحب بعدما كنت فيما تكره » .

ثم قال في قولهم : « إذا ضاق الأمر اتّسع » ، وتقدم هذا ، ثم قال : « إن الله هو الذي يضيّقه ما هو أنت ، فإذا ضيقته من حيث الأعمال ، فاذهب إلى أهل العلم يعرفونك . وقد قال بعضهم في المعاملات: معاملة الحق بالحقيقة والسُّنة ، ومعاملة الخلق أيضاً بالحقيقة والسُّنة ، ومثّلوا لذلك بقصة صاحب الدَّين الذي جعله لغريمه في الخشبة ، ورماها في البحر ، ثم بعد ذلك سافر له بدَينه ، فهذا عمل بالحقيقة والشريعة ، فمن حيث اعتمد على الله في وصولها إليه ، وطاب خاطره فوصلت إليه معاملة بالحقيقة ، ومن حيث وصوله إليه بدَينه معاملة بالشريعة ، إذ لا يكفي الأول في ظاهر الشرع ، لتوقفه على إقرار منه أو بينة بالوصول . ومعاملة الحق بالحقيقة فقط ، ومثلوا له بأصحاب الغار الثلاثة في انطباق الصخرة عليهم ، ومعاملة الخلق بالسنة .وأما الذي يعامل الخلق بالظلم فلا تبالي بما يقع له ، فإنه لا يموت مستوراً بحال ، لتهاونه بأخذ أموال الناس » ، أو كما قال .

وقد اخْتَلَفَتْ أفهام الجماعة الحاضرين في ذلك ، وهذا على ما فهمته .

ثم أمر منشداً ينشد حتى يفرغ من الدخون ، فأنشد : « ما في الوجود » ، و « سلام على إخواننا والأحبة » ، و « سقى الله ربعاً حلَّ فيه الذي أهوى » ، و « لجيران لنا بالأبطح العلم » ، ثم ختم ، ثم قال لي في معرض المزح : « ولو قد قال لك أحد : هيا نروح الليلة نحج ، ولكن بشرط أن لا تُخبِر أحداً ، يمكنك تسكت؟ » ، فسكتُّ ، فقال : « لا ، لا ، أستغفر الله . ولو حتى رؤيا ، إلا إن قال لك: إن أخبرت أحداً تموت . فلعل » ، ثم قال : « ما ندري أين جاء خبر بيت الشريف في اختلافهم ، ما هو ألَّا لكونهم قرابة وإخوان ، فالإختلاف غير لائق ، بل ينبغي أن يقول : الذي يقع لي ، يقع لأخي » ، ثم قال : « وقد رأيت قبل أن تحصل لي الحمى : كأني قائم تحت الكعبة عند الحجر ، وكأني أمس محله أملس ليس فيه كسر ، ولكن نفس الحجر ليس موجوداً » .

فقال له السيد عقيل باعقيل : « ماذا أوَّلتوها ؟ » ، ثم قال : « ما أوَّلناها بشيء، لأن التأويل سمح يقع ، ذاك ألَّا في الزمن الأول ، إذا أوَّلت تأخرت مدة ، وإنما نؤوِّلها بأمر حادث » .

ثم قرأ الفاتحة ودعا ، ثم صافحوه وفي جملتهم جماعة كانوا مرضى ، فسأل كل واحد : « كيف

أنت؟ » ، قال : « بخير » ، وهذا آخر دخول عليه بنية العيادة ، وأفسح مجلس في المجالس المذكورة . ثم منَّ الله ببروز طَلْعَتِهِ البَهِيَّة وغُرَّته السَّنِيَّة .

بِغُرَّتِـهِ قَـدْ أَوْدَعَ اللهُ أَرْبَعـاً　　نُشَاهِدُهَا كَالشَّمْسِ عِنْدَ التَّأَمُّلِ

تَسَـلٍّ لمهْمُـومٍ وَأَمْـنٍ لخائـفٍ　　وَرُشـدٍ لِـذِي غَـيٍّ وَيُسْرٍ لمقْلِـلِ

وخرج إلينا ليلة العيد ، ونحن في الدرس من أول « الأعراف » ، وجلس يقرأ معنا إلى آخر سورة « يونس » .

أقول : ومراده بالسُّنَّة : الشريعة ، وهي ما أضيف إلى الخلق على قانون الحق . والحقيقة : ما أضيف إلى الله . ولذلك لما طَلَبَ منه كفيلاً قال : « كفيلي الله » ، فرضي وطلب منه شهوداً فقال : « كفى بالله شهيداً » ، فرضي ، ثم رمى بالمال في وسط الخشبة معتمداً على الله في وصوله ، فوصل . ثم إن العمل بمجرد الحقيقة لا يجوز ، وتقدم أنه زندقة ، فما اكتفى بذلك حتى أتاه به وهو مقتضى الشريعة .

ودخلنا عليه ضحى يوم العيد للمعاودة ، كما هي العادة في هذا اليوم ، واستأذن عليه جماعة ليهنُّوه بالعيد فأذِنَ لهم ، وأَمَرَ لهم بقهوة ، وما كان أمر بها في مجالس العيادة المتقدِّم ذِكْرها ، فكان مما تكلم به أن *قال* : « **أبداً ما تخلَّفت عن شهود صلاة عيد عرفة إلا هذه المرة ، لِقِلَّة الإختلاف فيها – أي في الشهر – وعدم اتفاق مرض في هذا الوقت ، وأما صلاة عيد الفطر ، فتخلَّفنا عنها ثلاث مرات ، غالبها بسبب الإختلاف وخطئهم في رؤية الشهر ، فمرة أفطروا ولم نفطر ولا حَضَرْنا الصلاة ولكن أَمَرْنا النساء والصغار من أهل بيتنا ، بأن من أراد منهم يصوم أو يفطر هو بالخيار . ومرة أفطرنا ، ولكن لم نحضر العيد لحصول الشبهة ، ولكنها في هذه المرة ضعيفة ، وفي الأولى قوية** » .

– *أقول* : قد صلى صلاة هذا العيد في مصلى الحاوي بخطبة وجماعة ، وقد حضرت معه في هذه الصلاة ، وهي أظن سنة ١١١٨ –

« **ومرة تخلَّفنا عنها لبقية مرض حصل معنا ، وهذه أخف أمراضنا ، وإلا فقد مرضنا سنة ١٠٧٠ مرضة شديدة جداً ، نسيت بسببها القرآن ، حتى لما برئت حاولت أن أقرأ شيئاً فلم أعرف منه إلا بعد مدة ظَهَرَ لي ، وأول ما ظَهَرَ لي منه سورة الحشر . ونحن ألَّا في لطف كبير ، وإلا فكم ناس من الأكابر يمكث الواحد الشهرين وأكثر وهو غائب لا حِسّ معه . وأنا أود أن أخرج أكثر من هذا ، والمشي أيضاً يسهل عليَّ ، وإنما يشق الركوب ، ولكن الناس يناتفون الإنسان مثل سارق عينات في نوف وعلى الفَرَس فيشغلونا ، وإذا عُلِّم واحد ما تعلَّم غيره ، وأهل الأرض هنا عامة وجلفان** » .

قلت : إنهم كان يكفيهم منكم الرؤية بلا المصافحة ، *فقال* : « **ويا الله إن وقع لهم مِنَّا هذا ، ولكن ما عاد معنا إلا الصبر عليهم ، والأمور إن شاء الله ألا جميلة** » ، ثم قرأ الفاتحة ودعا وخرجوا .

ثم جاء جماعة آخرون معاودون فاعتذر الآن ، ووعدهم العصر ، *وقال* : « **وعدكم العصر إن اتفق ذلك منا ومنكم** » ، فلما كان العصر حَشَدوا وتجمَّعوا ، فلما أُخبِرَ بهم أَمَرَ لهم بقهوة وأَذِنَ لهم بالدخول، فلما اطمأنوا جالسين ، *قال* : « **المعاودة هذه ما لها أصل في السُّنة ، وإنما هي بدعة حادثة ، ولا تعرف لها ذِكْر إلا إن كان في الآداب ، وإنما السُّنة الزيارة وعيادة المريض** » ، ومرة قال : « **المعاودة بدعة قوَّتها السُّنة الأصلية ، وهي الزيارة** » .

ثم أمر منشداً فأنشد بقصيدةٍ مُدِحَ بها ، وفيها تهنئة له بالعيد ، للشيخ عبدالرحمن باكثير ساكن الشحر ، فلما فرغ سأله : « **لمن هي ؟** » ، فأخبره ، *ثم قال* : « **نحن ما نستثقل من هذه الأشياء ، لأن ما وقع لنا منها طرحناه في بحر النبي ﷺ ، وناس يكرهونها ، أحد كذب ورياء ، وأحد من نفسه . وقد قال الإمام الشافعي رحمه الله: من عرف نفسه لم يضره المدح** » .

فقيل له : الحمد لله حيث خرجتم البارحة ، *فقال* : « **نعم ، نقول عسى ساعة قبول أو ساعة رحمة، والدنيا سمّوها ساعة فهي ساعة لا ينبغي أن تُجعَل إلا في طاعة ، وما بعد هذه الساعة إلا ساعتان ، إما ساعة نعيم دائم ، أو ساعة عذاب دائم** » ، ثم قرأ الفاتحة ودعا ، فخرجوا ، ثم إنه كل من أتى زائراً أو معاوداً أو لأمر آخر ممن يُؤبَه له لا يرجع ، بل يأذن له في الدخول ، ويعطيه من المجلس والجبر كما يريد .

ثم خرج لصلاة عشاء ليلة الجمعة ١٢ عرفة ، وحضر من الذِّكْر ما كان يعتاد يحضره ، نحو ثلثيه. وصلاته منذ حصل عليه هذا العارض جالساً إلا الركعة الأولى حيث تقام الصلاة ، وحين يدخل فيحرم قائماً ، ويركع قائماً ، ويتم الصلاة قاعداً ويتكلف القيام ، ويستند بيده على الجدار ، وتَرَكَ التقدُّم في الصلاة . وصعد السطح ليلة فتعب في الدرجة ، وذلك في بيت آل فقيه ، ليلة مبيته عندهم ، *فقال* : « **الكِبَر قده مرض ، فما حصل معه من مرض آخر فهو محاوش - أي معين - له** » .

ودخل عليه ضحوة يوم هذه الجمعة جماعة معاودين ، فانبسط لهم وتأنسوا عنده ، وعشية هذا اليوم دخلوا عليه حاشدين معاودين وأمرني بالإنشاد ، وهي أول مرة أمرني به بعد مرضي ومرضه ، فأنشدتُ بقصيدته : « **خلها تجري بعين الله** » ، وبـ« **مرحباً بالشادن الغزل** » .

ودخلوا عليه عشية الأحد ١٤ حاشدين بكثرة ، فتكلم كثيراً في أحوال الناس عام وخاص ، ثم قال : « لا عاد تدعو إلا بالصلاح ، فإن ما العزيز في هذا اليوم إلا الصلاح . وأما الدنيا فلا عبرة بها، فقد تكون عند أقوام ، ثم تنتقل عنهم إلى آخرين ، فلا ينبغي أن يحرص الإنسان إلا فيما يُرضِي الله ورسوله ، فكلما كان لله ورسوله فما منه بدل ، وكلما أخلصت في ذلك فهو العمدة ، ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾، ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ﴾، وكل شيء فهو في القرآن إلا إن الناس ما عَلِموا معناه، وقد قال الفضيل بن عياض : لو عَلِمتُ من القرآن أولاً ما علمتُ منه اليوم لما كَتَبتُ الحديث . يعني أنه انكشف له من معاني القرآن آخر وقته ما لم ينكشف له أولاً » .

ثم قال في تعاطي الأسباب وعدم الإعتماد عليها : « كل الأشياء من الله ، ولكن لا تنسب إلى المليح إلا المليح ، والشر ليس إليك . وأما قولك : كله من الله ولله . فلا يعرفه إلا العلماء الأكابر ، وإذا قال : هذا وقع لي من الله . فلا شك أنه من الله ، ولكن بأسباب موقوفة على أسباب ، فخذ الشيء من الوجه الذي أذن لك فيه . ولا تكن كالذي رأى في يد رجل شيئاً فَنَهَبَهُ منه وقال : هذا جاءني من الله . فَنَهَبَ هو منه شيئاً آخر فقال : وهذا أيضاً جاءني من الله . فإذا كان أحد معه شيء فقال : هذا من الله . فلا ينبغي لآخر ليس معه شيء أن يقول : كيف يعطيك ولا يعطيني ؟ فإذا أراد مثل ذلك ، فينبغي أن يعرف الوجه الذي حصل له هذا منه ، فيعمل فيه مثل عمله ، ليحصل له مثل ما حصل له ، وناس كثير يغلطون في الصواب ، فيحتاجون إلى التعليم ، ولو أراد شبام أو الشحر مثلاً لاحتاج إلى جمّال أو من يعرِّفه الطريق إذا لم يعرفها ، فينبغي أن يعرف أمور الدين بهذا الوجه ، وإذا قال : أعطانيه الله . فيحتاج إلى شاهِد من الشريعة ، قال الله تعالى في قِسم الفيء : ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾، ثم قسمه تعالى بنفسه ، بقوله : ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾» ، ثم قال : « والدنيا كلها مفروغ منها ، والناس فيها بين ناجٍ وفائز، وهذه أمور قد فرغ منها ، فلا مدخل للعمل فيها ، ولكن إذا مات الإنسان على الإسلام والتوحيد فلا يبالي بشيء » ، أو كما قال . ثم أمر بدخون ، ثم قرأ الفاتحة بلا نشيد ، ثم دعا وصافحوه وخرجوا .

ثم دخلوا عليه عشية الإثنين بعده ، وهو يوم النصف من عرفة سنة ١١٣٠ وهم كالتي قبلها في الكثرة ، فشكى إليه رجل ضيق الحال ، فقال : « ما عاد معك اليوم إلا الرضا والتسليم ، لكن بشرط موافقة الأمر ، فإذا وافق الأمر الرضا بالقضاء والقدر » ، ثم أمرني بتقسيم أسْوكة ، وبقي يتكلم وما عقلتُ منه شيئاً ، ثم أمر منشداً فأنشد بقصيدة تنسب للشيخ أبي بكر بن عبدالله العيدروس صاحب عدن ، مطلعها : « أغالب دهري حيناً وحيناً يغالب » ، ثم قرأ الفاتحة ودعا وخرجوا .

ثم دخلوا عليه عشية الجمعة ، فكان غالب كلامه في الناس الذين كان يعرفهم وأدركهم ، وفي الأماكن التي يعرفها وكان يتردد إليها أيام طَلَبِهِ وحين شبابه ، فذَكَرَ محلًّا كان فيه حسارة - يعني شجرة تسمى بذلك - ، قال : « **هل هي باقية ؟** » ، فقيل : « لا ، ولكن محلها معروف ينسب إليها ، فيقال : محل الحسارة » .

ثم ذَكَرَ جماعة كان يعرفهم ، وذَكَر منهم رجلاً اسمه : أحمد عبديد ، وإنه كان عالماً فاضلاً ، وله اطّلاع على العلوم ، وله معرفة في علم النحو ، وذَكَرَ من أحواله شيئاً ، ثم قال : « **كل هؤلاء كانوا بين الستين إلى السبعين** - أي بعد الألف - **وكانوا كلهم متوافرين ومتناصرين ومتعاونين ، وما أحد يشح على صاحبه في مثل أمور الدنيا ، فإذا مال أحدهم منهم ، قام عليه صاحبه بالأمر بالمعروف** » .

ثم قال : « **وكم أشياء نعرفها ما عاد يعرفها أهل الزمان ، فإنه كم وجوه راحت** » ، ثم أمر بالإنشاد ، ثم أمر بدخون ، ثم ذَكَرَ أَخْذَهُ في علم النحو ، وقال : « **حفظت الملحة على** [1] ، **وما تأسَّفت إلا على القطر ، حيث ما قرأته** » ، ثم ذَكَرَ أَخْذَه في الفقه ، قال : « **قرأت الخطبة من الإرشاد على** [2] ، **وإلى محرمات الإحرام على باجبير قبل يسير الهند** » .

وقال : « **حصل لنا من الفقيه باجبير الإسناد إلى ابن حجر ، على اثنين : أبوه ، وأبوبكر بافقيه . فأخذ عن أبيه ، وهو عن بافقيه ، وهو أخذ الفقه عن ابن حجر** » .

قال : « **كان ابن حجر يذكر مسائل من الإحياء ، وإذا ذكرها جاء بعبارة الإحياء كما هي حفظاً ، وكان يحفظ من الإحياء** » .

ثم قال للذي يدير الدخون : « **تَمَّ الدخون ؟** » ، قال : « عاده » ، قال : « **تِمْ، الطِّيب ألّا مبارك وهو أقرب إلى السُّنة من القهوة ، إلا أن القهوة لما كان أصلها وظهورها من عند الصالحين ، اتَّخذوها لأجل السهر والنشاط على الطاعة ، فهي خير . وما كان أصله إنما نشأ من خير ، فهو خير مما أصله من الأشرار واتُّخِذَ لأجل الهوى** » - يشير بذلك إلى التنباك - ثم قرأ الفاتحة ودعا وخرجوا .

ودخلوا عليه عشية الإثنين ٢٢ ، فكان غالب كلامه في قبائل الأرض من أهل الخلاء وأهل البلد ، فذَكَرَ : « **إن آل باشيخ وباسالم ، إنهم يرجعون في النسب إلى أصل واحد ، وآل أحمد وآل جيد إلى أصل واحد ، وآل باجذيع وآل باغوث كذلك** » .

---

(١) فراغ في الأصل .

(٢) فراغ في الأصل .

ثم ذَكَرَ باغوث الذي كان خادم الدولة ، *وقال* : « ما هو قليل ما فعل ، فإذا جاءنا الناس يشكون منه ، قلنا : لا بد ما ينصف الله المظلوم من الظالم . فقال عليوان بن دامس – وهو خادم سيدنا – : مرادنا نشوف ما يفعل الله بهم ، فقلنا : هذه شماتة والشماتة مذمومة ، والظالم مأخوذ ، ألا إما أبطأ وإلا أسرع، ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ ، وقد عاقب الله هذا الظالم وأخذه أشدّ أخذة » .

أقول : سمعت من خبره ، أن رجلاً من آل كثير من بلد جعيمة جاءه قاصداً قتله محتدًّا عليه ، من أجل أنه دفع خادماً له في تريم فخسَّره مالاً وما راعاه لأجله حيث أنه من جماعة السلطان – وهو ابن رواس – فجاء إلى سيدنا ، وقال : « يا سيدي ، اقرأوا لي الفاتحة على ما بنفسي » ، وعادة سيدنا يقول : « على ما يرضي الله ورسوله » ، فنسي حينئذ وقرأ له الفاتحة فمضى إليه . ثم ذَكَرَ سيدنا ذلك بعد ساعة، فأرسل خلفه رسولاً يقول له : يقول لك السيد : « الفاتحة ألَّا على ما يرضي الله ورسوله » ، فما جاءه حتى خلص منه ، جاءه وهو مُحْتَبي في سكة الصَّوَغ منتفخاً بكِبْره ، فضربه بجَنْبيَّة في جَنبِهِ حتى خَرَجَت من جَنبِهِ الآخر ، *قال* : « ورجع جماعته يطلبون على الأبواب ، بعدما كان من صولته واستضعافه المسلمين ، وهكذا جرت سنة الله في عباده » ، ثم قرأ الفاتحة ودعا ، وخرجوا .

وعزم على الطلوع إلى البلد ، يوم الجمعة ٢٦ عرفة ، لصلاتها على العادة ، فجاءه ابن أخيه عمر بن علي الحداد إلى الحاوي ، تقدَّمه بيومين وأخذ منه وَعْداً ليكون وقت الغداء عنده ، فوَعَدَه بذلك طيبة لخاطره ، ففعل لذلك مأدبة ، وأحضر معه غالب عياله ومن يسايره ، فأخذ عنده مجلساً طويلا ، فمما تكلم به في ذلك المجلس أن *قال* : « نتمنى الوصول إلى الحرمين ، اليوم حسن السفر من الشحر إلى اليمن ، وذلك ١٠ في البطين » ، *ثم قال* : « لو أن أحداً فيه طاقة ، لسافر إلى الحرمين في هذه الأيام، ما دام وقت الحج متراخياً ، ومكث في الشحر إلى أن تتفق ساعية مناسبة يطمئن بها الخاطر ، ونلَقِّيها إلى المدينة، ونحضر زيارة الرجبية ، وإن اتفق موت فلا فرق أن يكون بتريم أو بمكة أو في غير ذلك . وقد سافر جماعة من أهل التصوف في آخر أعمارهم كالشيخ عبدالقادر الجيلاني رضي الله عنه ، حجَّ وهو ابن ٩٥ سنة ، حتى أن ابنه كان يقود به الناقة ، وذلك تواضعاً منه ، وإن كان يقدر على إمساكها، وحجَّ السهروردي وكان قريب المائة يُحمل على أعناق الرجال من بغداد إلى مكة ، فهذه أسفارهم بأبدانهم ، والأمور السماويات على حالها كما هي ، لا تعلق لها بذلك . وقد قيل لواحد من آل با سهل، كان من أهل الخطوة : يقال أنك تحج متى أردت ، فكيف ذلك ؟ فقال : يخطر ببالي الحج ، فما أحس إلا وأنا بمكة . وهذه الأمور ما هي ألَّا هكذا ، ومولى الشبيكة قال لعياله وأصحابه : إذا أردتم تُطوَى لكم الأرض ، أو أردتم شيئاً فاذكروا اسمي . وكذلك البقَّال وهو ألَّا عامي يبيع البقل ، لما رأى ابن

الفارض قال : ما يُفتح عليك إلا في مكة ، قال : وأين أنا من مكة؟ فقال له : هذه مكة . فالتفتَ فرآها، ولكن تقدَّمت هذا رياضات ومجاهدات » .

ثم قال : « والعجب من أناس يُذكَرون في التواريخ أن الواحد منهم عُمِّر مائة سنة ، ومائة وعشر ، ومائة وعشرين ، وأكثر من ذلك في هذه الأمة من بعد النبي ﷺ وجاي ، كيف يستقل أحدهم بالحركة والتصرف في حوائجه ؟ » ، ثم قال لي : « انشد » ، فأنشدت بالقصيدتين : الأولى :

خَلِّهَا تَجْرِى بِعَيْنِ اللهِ فِي ... بَحْرِ أَقْدَارِ الْمُهَيْمِنِ ذِى الْعُلَا

والأخرى : « بروق الحمى وقت السحير تلوح » ، ثم مكث قليلاً ثم قُرِّب الطعام ، وبعده قال : « اختم بسوح المقام - يعني القصيدة التي أولها : قل لأحبابنا بسوح المقام - وآتِ من أثنائها » ، فأتيت منها من قوله :

فَدَعِ الْعَجْزَ وَالتَّكَاسُلَ وَاسْلُلْ ... صَارِمَ الْعَزْمِ يَا لَهُ مِنْ حُسَامِ

إلى آخرها ، وخصَّها لما فيها من ذِكْر الحج والحرمين ، وذِكْر الزيارة ، وترحيل منازل السفر إلى ذلك ، وكيفية فعله لذلك لما سافر له ، وكل ذلك شوقاً منه إلى تلك المناسك والأماكن المعظمة . ثم قرأ الفاتحة ودعا ، فخرجنا وبقي هو قليلاً يسلِّم عليه النساء والأطفال من أهل بيته ، وهم بنته وأولادها وبناتها . ثم جاء إلى الدار ، وجلس في الدّرع بعدما خلي من عوض بن صباح بعد موته ، وكان مُوَضِّعاً حوائجه فيه ، قال سيدنا : « عِلِمْنا بدخوله من حين وُلِد علوي » ، يعني ابنه علوي ، وعلوي حينئذ أبو عيال ، وكَرِهَ دخوله لسوء طبع ابن صباح .

ثم ذَكَر يوم كان يجلس فيه لمقابلة الإحياء في الليل قبل توضيعه فيه ، قال : « لا بد ما قد مر علينا جميعه - أي الإحياء - ١٥ مرة » ، وذَكَرَ أناساً كان يقرأون عليه ، وقال : « من العجائب أن باجبير قبل يروح الهند كُنَّا نقرأ عليه في الفقه ، فلما جاء قرأ علينا الإحياء » .

ثم قرأ الفاتحة ودعا ، ثم قام وطلع السطح ، ثم جلس في الغيلة مجلساً آخر ، وحضره من كان حضره في الدّرع ، وهو موضع يدخل إليه من الدهليز ، موضع حصين يجعل أهل حضرموت فيه القوت والأموال ، ويجعلون بابه أقوى أبواب البيت وأمنعها .

ثم جاءت إلى المجلس قهوة من السيد أحمد بن زين الحبشي ، وكان حالًّا في البيت ، وهو موضع نزوله إذا جاء للزيارة مدة إقامته ، وغالبها شهر ، وربما زاد أو نقص ، ثم جرى بين سيدنا والسيد أحمد الكلام ، حتى قال لسيدنا : « الحمد لله أنتم بخير ، أقوى مما كنت أظن » ، فقال : « الحمد لله على

نعمه وعافيته ، وكنت أردت أطلع الجمعة التي قبلها وبيني وبين عمر فيها وَعْد ، ولكن جرَّبت نفسي بالحركة والقيام والقعود أني ما أطيق لشاغل الناس ومناتفتهم » ، يعني في مصافحتهم له .

فقال السيد أحمد : « إنها شاغل كبير » ، فقال : « شاغل من لا يدري - أي ما يدري شغله من ذلك - وبلونا بكثرة المصافحة ، وقد هَمَمْت أن أقول لواحد يقول لهم : بالقلوب ، لا أحد يصافح . أي ابقوا على المحبة بالقلوب ولا تصافحوا، أو أني أصلي العصر في الجامع ، لكن قلت : لأي شيء ، لا أنا قاعد لهم ، ولا هم قاعدين لي. وأهل البلد في طبعهم جفاء وبداوة » ، ثم قرأ الفاتحة ودعا وتفرَّقوا .

وبعد دخول الوقت ، جلس الجماعة مشاوفين له يمضي إلى الجامع ليروحوا معه إلى صلاة الجمعة على العادة ، فأمر العيال أن يسيروا وَهُم ، كلهم إلى الجامع لصلاة الجمعة ، وجلس هو ولم يمضِ ، كما تقدَّم من قوله : « جرَّبت نفسي بالحركة .. إلخ » ، فلما انصرفوا من الصلاة وجاؤوا إلى الدار ، جلس في المجلس على عادته، وضاقت الغيلة من الناس لمَّا تسامعوا به ، وخُتِمَ المجلس بأذان العصر ، ثم قرأ المقرأ قاريه ، ثم قرأ الفاتحة ودعا وقوّض المجلس ، فانصرف أكثرهم ، وبقي من بقي ليشهد معه صلاة العصر ، فدخل المجلس الذي في الغيلة ليصلي فيه سُنَّة العصر، ثم صلاها ، ثم خرج إلى الجماعة ، ثم أقيمت الصلاة ، ثم أمر السيد أحمد بن زين أن يتقدَّم يصلي بالجماعة ، وصلى هو إلى السهم الأوسط مستنداً إليه مأموماً، وكان عادته إذا أراد أحداً من العيال يتقدَّم للصلاة ، وكان السيد أحمد حاضراً قدَّمه، فإن تقدَّم هو ، كان هو إمام الجميع .

وقد قَلَّ تقدُّمه في هذه الأيام جدًّا بعد هذا العارض ، وما رأيته متقدِّماً بعده إلا نحو مرتين أو ثلاث لغيبة العيال ، وذلك لأنه يحتاج في الصلاة إلى زيادة نشاط ، لما يقاسيه فيها من تعب ، من نصيبه من إرثه من جدِّه ﷺ من القول الثقيل الذي ألقاه الله عليه ، كما قال الله تعالى : ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝﴾ ولهذا ترى سيدنا حين يدخل في الصلاة ، يتحمَّل تحمُّلاً كثيراً ، فتراه يجعل يده في الحائط ويعتمد عليها مستنداً عليه ، فيتبيَّن لمن يراه أنه يعجز عن القيام مستنداً لولا استناده إليه ، ولهذا كان كثيراً في صلاته أو الأكثر يصلي قاعداً ، ولعل ذلك سبب عدم تقدمه .

وهذه الجمعة التي تأخَّر عن المسير إليها تاسع جمعة لم يَشْهَدْها في مرضه المذكور فشهد جمعة ٢١ في شوال ، ثم لم يشهد إلا جمعة يوم ٢٦ ذي الحجة ، وبينهما نحو ستين يوماً . ومدة انقطاعه من الخروج إلى المصلى في الحاوي نحو خمس وأربعين يوماً .

ودخلوا عليه عشية الأحد ١٨ عرفة ، وصافحه عبود بن إسحاق ، فقال له : « من أنت ؟ » ، قال :

« ابن إسحاق » ، فالتفت إلى السيد أحمد بن زين وقال : « لله حِكْمة في ذِكْر إسحاق ، وهو أن الله تعالى إذا ذَكَرَهُ وذَكَرَ إسماعيل معه ؛ قدَّم إسماعيل ثم ذَكَرَ إسحاق بعده ، لأن إسماعيل هو الأكبر ، وإن ذَكَرَ إسحاق أولاً أفرده ولم يَذْكُر معه إسماعيل . هل على بالكم هذا ؟ » ، قال : « لا » .

قال : « وقد استبعد أهل العلم كون الذبيح إسحاق ، لأنه منقول عن أهل الكتاب أرادوا ذلك لكون إسحاق جدّهم ، ومآثر الذبح إنما هي في الحرمين والحاضر هناك إذ ذاك إسماعيل ، وإسحاق كان في الشام ، وكان إبراهيم عليه السلام يجيهم زائراً في خفية عن سارة ، فإن لم يتّفق بإسماعيل أوصى زوجته بالسلام ويوصيها بكلام تبلغه إليه » .

أقول : ثم أمر السيد أحمد بالقراءة ، فلما تَمَّ أمرني بالإنشاد ، فأنشدتُ قصيدة البرعي « أتأمرني بالصبر والطبع أغلب » ، وهي نحو ٩٠ بيتاً وكان يستحسنها ، وبعد التمام قال له : « هذه قصيدة غريبة هي لعبدالرحيم ، هل سمعتموها ؟ » ، قال: « نعم » . ثم قرأ الفاتحة ودعا وخرجوا .

وبعد إشراق يوم الإثنين ٢٩ اجتمعوا ، فدعاهم للدخول فدخلوا ، وقرأوا - وهي أول قراءة بعد انقطاعها تلك المدة ، قراءة الإثنين والخميس - وبعد تمام القراءة ، قال للسيد أحمد : « قد تفعلون الذِّكر في خلع راشد ؟ » ، قال : « نعم » .

قال : « عندكم من يشل مليح ؟ » ، فَذَكَرَ ناساً يلحنون ، فقال : « إن شلَّ الذي يلحن يفرِّق الباطن ويشوّشه ، ولا يقيم الباطن إلا المستقيم . والأمور في هذا الزمان يحتاج فيها إلى المجاوزة ، لكن لا في كل الأمور ، بل في الأمور التي يقع فيها الخلل ، كالذين يقرأون القرآن ويلحنون فيه ، فَتَرْكُهم للقراءة أولى منها » ، ومراده بالمجاوزة ، يعني يجاوزها ويتركها فلا يفعلها .

ثم سكت قليلاً ثم قال : « الفاتحة » ، ودعا وخرجوا .

وبين الظهرين من هذا اليوم ، أشرف عليَّ ابنه سيدي الحبيب حسن بأمره وقال: « طالع لوحك ، شف باتقع قراءة ، وقل لفلان ولفلان يطالعون ألواحهم » ، ثم بعد صلاة العصر دخلنا عليه وقرأنا قراءتنا المعتادة عشية ، وهذه أيضاً أول قراءة تُقرَأ عشية بعد انقطاعها ، فاتفق ابتداء القراءتين في يوم واحد ، قراءة من يقرأ ضحى الإثنين والخميس ، وقراءة من يقرأ عشية كل يوم ، في يوم واحد وهو يوم الإثنين ٢٩ ذي الحجة سنة ١١٣٠ .

ومما تكلم به هذا المجلس العشية المذكورة أن قال : « قال أهل التجربة من أهل الحكمة : ستة - أو قال : سبعة - لا ينبغي أن يسكن إليها » ، ذَكَرَ من جملتها : « الطبيب والنهر » .

ثم انجرَّ الكلام حتى **قال** : « **حكمة المرتبة للأمور بعضها على بعض ، حتى أن الإنسان إذا تفكَّر في توارد الألفاظ الواردة في الكتاب والسُّنة في هذا الباب يظنها متضادة ومتناقضة ، حيث لم يعلم وَجْهها، فإذا تأمَّل في معاني مجاريها واطَّلع عليها عَرَفَ أنه لا تناقض هناك** » ، أو كما قال .

ثم لما أتموا القراءة ، قرأ الفاتحة ودعا وانصرفوا .

واجتمعوا عشية الثلاثاء سلخ ذي الحجة ، فأَذِنَ لهم في الدخول إليه في الغيلة ، فأمر بالقراءة في الكتب المعتادة قراءتها يوم الثلاثاء ، وهو أول ثلاثاء اتفق فيه ذلك بعد انقطاعها تلك المدة ، ثم ختم المجلس بقراءة الفاتحة والدعاء ، وخرجوا .

ثم دعاهم للدخول بعد صلاة عصر يوم الأربعاء - غُرَّة المحرم عاشور - وفاتحة سنة ١١٣١ ، للقراءة فدخلوا وحشدوا ، وقرأ القراء ، والقراءة لأهل البلاد وما انقضى هذا المجلس إلا غروب الشمس ، ومما تكلم به في هذا المجلس **قال** : « **إذا نَقَلَ أحدٌ كلام أحدٍ فَلْيَذْكُر الكلام كله من أوله إلى آخره ، فإن الكلام يُذكَر بالكلام ، ويُعرَف معنى بعضه من بعض ، ولا يذكر بعضه ويترك البعض . فلو سمع رجلاً يقول : إن فَعَلَ فلان كذا ؛ فلا خير فيه . فيقول : سمعته يقول : ما في فلان خير . فليس الكلام على هذا الوجه ، وأحسن التكلم نَقْل الكلام على وجهه** » ، إلى آخر ما تقدَّم في المقدِّمة في أول هذا النقل ، إلى قوله : « **وإنما يحمد التواضع للأكابر وأهل العلم** » ، ثم قرأ الفاتحة ودعا وخرجوا .

ودخلوا عليه بكرة يوم الخميس ثاني المحرم سنة ١١٣١ للقراءة في الغيلة ، فصافحه بعض الأشراف **فقال** : « **فلان - يعنيه - صار إماماً في السقاف - أي مسجده - ، ولا هناك كبير مُؤْنة ، والمعونة تحصل من الله ، ولكن يجتهد الإنسان في التقوى والورع** » ، ومرة **قال** : « **ما يعين الله العبد على أمر يفعله حتى يَشْرَع فيه، فإذا شَرَعَ فيه أعانه** » ، **وقال** : « **المنسأة المراد بها العصا ، ولا ذلك على بال أكثر الناس، وربما ظنوها غير ذلك ، يوم ما يطلبون العلم ، ولو أنهم طلبوه لحصلوا منه ما تيسَّر أو المهم . وأشياء بعض الناس قائم فيها على التَّرك بالكُلِّيَّة ، وأحد منهم على التوسط ، وآخرين على المهم ، وأحد يُمعِن فيها جدًّا ويتصور وقوعها** » .

وقد طال عليه المجلس ضحى هذا اليوم وعشيته ، فحصل منه مجلسان طويلان في يوم واحد ، مع ما انضمَّ إليهما من قُرْبِ عهده بالمجلس الطويل من عصر يوم الأربعاء إلى غروب الشمس ، وهو قريب عهد بالحُمَّى ، فعوَّدت عليه هذا اليوم يوم الخميس ثاني المحرم ، وهي خفيفة ، فلم يمتنع بسببها

من قراءة العشية ولا لخروج صلاة عشاء ليلة الجمعة ، لكنه لم يطلع ضحى يوم الجمعة للبلاد ، ولا ليلة السبت للمبيت عند السادة على العادة لذلك .

ثم طلبهم للدخول بعد صلاة عصر يوم الجمعة في الحاوي ، فدخلوا وفيهم كثرة لتوقعهم ذلك، فأمر السيد أحمد أن يقرأ على قراءته في « الموطأ » ، وأن يقرأ في الكتب المعتاد قراءتها في البلاد في هذا الوقت ، وكان هذا المجلس في الحاوي في الغيلة هو المجلس في البلاد المعتاد .

واستخلف حينئذ السيد عقيل باعقيل مسافر إلى دوعن ، وطلب منه الفاتحة ، فقرأها ودعا ، فلما صافحه قال له يوصيه : « **الله الله في الدعاء إلى الخير ، والوصية بما يحسن منك أن توصي فيه لمن يليق به ذلك ، كل على قدر حاله** » ، ثم انفضُّوا قبيل الغروب .

ثم إنهم تجمَّعوا عشية الإثنين ٦ - يعني القُرَّاء وغيرهم - فلم يأذن لهم ولا دَخَلَ عنده أحد ، واعتذر بأنه طال به مجلس القراءة ضحوة ، وبأنه مع ذلك استأذن عليه جماعة بعد الظهر أَقْبَلوا من الشحر ، فأذن لهم ، وطال بهم المجلس عنده ، وبأنه يريد ليلة الثلاثاء يحضر صلاة العشاء ، ويطلع البلاد للمبيت على العادة ، فكان ذلك ، فجاءه السيد زين العابدين في البلاد وقرأ ، وطال به المجلس، وكثرت المذاكرة والكلام ، ولم أرَ هنا لي نَقْلاً .

ويوم الجمعة - وهو يوم عاشور - توهَّمنا أنه يطلع لصلاة الجمعة فلم يطلع ولم يفتح لأحد بعد العصر ، بل سأل عن السيد أحمد ، ومراده يُدْخِله ويُدْخِلهم بدخوله ، ولكنه لم يخرج في ذلك اليوم إلى الحاوي . وكان الجماعة كلهم في ذلك اليوم متعطِّشين إلى زيارته ، ومتشوقين إلى رؤيته ومصافحته ، فلما لم يدخلوا دَخَلتُ وتوصَّلتُ إليه ، وصافحته ونويت ما نووا ، وسألني عنهم ، فأخبرته بهم واحداً واحداً ، وسمَّيتُ له كل واحد بإسمه فقال : « **هؤلاء أَلّا أهل المكان** » ، يعني فلا نحتاج نتكلف لهم بإدخالهم . وكان صائماً هذا اليوم ، فلا يحب من أجل الصوم كثرة الكلام ، مع أنه يشق عليه مع عدمه، وبالإجتماع يحتاج معهم لكثرة الكلام .

ولا خرج ليلة السبت للبلاد ، ولا ليلة الثلاثاء ، فتفحَّصتُ عن السبب المانع له عن ذلك ، فقيل : « أحسَّ ببرد » ، وكان إذ ذاك الوقت بارد ورياح فيها شدة وبرد ودامت أياماً ، وفي الليل أكثر ، والنجم

آخر الثُّريَّا وأول البركان عند دخول الأربعانية ، وسمعته غير مرة يقول : « **إن القدماء من أهل الجهة كانوا يقولون : نجوم البرد ستة : الثُّريَّا والبركان والهقعة والهنعة والذراع والنثرة ، ثلاثة من فصل الشتاء ، وثلاثة من فصل الربيع** » .

أقول : وعُرْف الجهة المتعارف أن عندهم فصل الشتاء هو فصل الخريف ، وأن فصل الربيع هو فصل الشتاء ، فأول الثريَّا تاسع وعشرين من برج العقرب ، وأول النثرة يوم تاسع من الدلو .

ومراد سيدنا يعني أن البرد معروف عادة غالبه أنه يشتد في هذه النجوم الشتائية الستة ، ويخف فيما بعدها . وقد تتخلَّف هذه العادة ، فتمر الثلاثة النجوم الأُوَل بلا شدة ، ويشتد فيما بعدها ، ويبقى قريباً من شِدَّته إلى آخر الفصل ، فلا يحصل الدفاء إلا مع دخول العوَّاء . والذي رأيته في تلك الجهة من هذه العادة ، أن البرد إذا تقدَّم من أول فصل الشتاء الذي هو الخريف يكون خفيفاً فيما بعد بلا شدة ، فإن لم يحصل برد من أول الفصل المذكور اشتدَّ في باقي السنة . ففي سنة ١١٢٦ الوقت حار كأيام الصيف إلى النصف من الهقعة ، ثم اشتد في آخرها حتى أحرق، وخفَّ في الهنعة وأحرق في الذراع ، وسنة ١١٢٩ تقدَّم البرد ، فكانت ضرباته التي في العادة يحرق فيها مثل بقية أيامه .

وتخلَّف عن الطلوع يوم الجمعة ثامن صفر ، فقال عشية هذا اليوم : « **ضاقني البرد والماء - أي للوضوء - حيث اجتمع ضعف الكبر مع ضعف المرض ، فخطر لي أنه ربما نتكلَّف الطلوع فيحصل ضعف عن صلاة الجمعة ، أو مع الغسل قد يحصل نافض ، فيبقى ولا ينقطع ، فلا يمكن حضور الجمعة ، فمع الضعف والكبر قد تحصل مثل هذه الخواطر ، ويتوقع مثل هذه العوارض ، ولكن الله لطيف والعبد ضعيف** » ، ويوم الأحد سلخ ربيع الأول عشر في نجم الطرف ، كسفت الشمس ، فأمرنا بصلاة الكسوف ، فصليناها في المصلى جملة الفقراء ، ولم يحضر أحد من العيال .

وخرج إلى السبير يوم الثلاثاء ٢٣ ربيع الثاني ، وخرجنا معه ولم يخرج معه غير العيال وابن أخيه السيد عمر بن علي الحداد والسيد عمر حامد ، وصلى بنا العصر في مسجده في السبير ، وهي أول صلاة صليناها معه بعد ذلك العارض . فصلى بنا صلاة صبح الأحد ٢١ شوال سنة ١١٣٠ ، ولم تتفق لنا صلاة معه بعدها إلا هذه ، صلاة عصر الثلاثاء المذكور ٢٣ ربيع ثاني سنة ١١٣١ ، وكان فيما بين ذلك إذا حضر الصلاة صلى مأموماً .

وليلة السبت لعله خامس جماد أول بات في داره في البلاد ، وبعد الإشراق زار التربة ، وهي أول زيارة له بعد ما ذُكِر ، وله منها من شعبان من السنة التي قبلها ، ومما تكلم به وهو ماشٍ قاصداً إلى الزيارة وقد ذُكِر له حينئذ : أن رجلاً من دوعن غضب على ابنٍ له ، فحذفه بشَفْرَة فكان فيه حتفه ، فاسترجع *ثم قال* : « **هذا بسبب الغضب ، والغضب من الشيطان ، فينبغي للإنسان أن لا يعمل شيئاً حالة الغضب أبداً ، لأن كل شيء يفعله في تلك الحالة غير سديد ، ويُرَيِّض الإنسان نفسه بتكلُّف الصبر والإمساك عن ما يقتضيه الغضب ، حتى يتعوَّد ذلك فلا يغلبه الغضب ، وقد أمر النبي ﷺ إذا كان قائماً فليقعد ، أو قاعداً أن يقوم** . **وفلان** - ابن إسحاق - **لا يملك نفسه عند الغضب ، حتى يفعل ما يدعوه إليه** » ، وسمى رجلاً من آل فلان في الحاوي .

وليلة السبت حادي عشر جماد أول مضى إلى عند السادة للمبيت على عادته ، وهو أول مبيت عندهم بعد المدة التي قطعها .

وبات عندهم ليلة الثلاثاء ٤ رجب ، وظَلَّ عندهم ذلك اليوم ، وضحوته جلس مجلساً متوسطاً لم يحضره من خارج غير السيد عبدالله بن أحمد الجفري ، فسأله عن غَرْسِ نخلٍ غَرَسَه في المسيلة، فأخبره بما فعل به السيل ، فشله حتى لم يَبْقَ له أثر - وقد أشار عليه قبل يغرسه أن لا يكثر منه - فلما أخبره *قال له* : « **ما سمعت الكلام ، وأهل الإشارة لهم نصيحة ، وإذا جيتهم مستشيراً فالْزَم الصدق معهم ، ولا يبقى لك عندهم رأي ولا إختيار ، والْزَمْ قولهم ، فمن خالفهم فلا يلومنَّ إلا نفسه ، وإذا أشار عليك بخمس وعشرين فلا تلقي ثلاثين** » ، ثم بعد القهوة ختم المجلس بالفاتحة ودعا، ثم قام وقام من حضر .

وبين الظهرين إلى العصر أقرب ، سار إلى مسجده الأوابين ، على ما كان من عادته ، وله منه نحو سنة ، وصلى بنا فيه صلاة العصر قائماً ، وهي ثاني صلاة صليناها خلفه معه بعد العارض ، فإنه بعده ما يصلي إلا مأموماً ، سوى مرة قبل هذه ، وهذه الثانية .

ويوم الخميس ٦ رجب ، فعل لابن ابنه السيد محمد باقر بن السيد حسين خَتْم قرآن ، وكان قد خَتَمَ قبل ذلك بأيام ، فأرسلني أدعو جماعة لحضورها ، ومنهم السيد شيخ بن مصطفى ، *قال* : « **ادعه، وقل له : يسلِّم عليك ، ويقول : تفضَّل تعال على فنجان قهوة . ورُحْ للسبير هات لِيَم** » ، فقلت في نفسي : أروح أجيب لِيَم ، ثم أروح للسيد . فقفَّيت من عنده قاصداً للسبير ، فلما أبعدت دعاني ، فجئته

فقال : « لا تقل : أروح أجيب لِيْم ثم أروح للسيد . إلّا رُحْ للسيد أول ، ثم رُحْ هَتْ لِيْم » ، فعجبت من هذه المكاشفة .

وحضر تلك الضيافة جماعة فيهم كثرة ، كالسيد أحمد بن زين ، وليس من عادته يجيء هذا الوقت ، وإنما كانت عادته يجيء للزيارة في عاشور ، فكان مجيئه حينئذ اتفاقاً ، ومنهم حضر السيد زين العابدين وصِنْوه السيد شيخ المذكور ، وغيرهم في جماعة من السادة وغيرهم .

ثم قوّض هذا المجلس ، وخرج لصلاة الظهر ، وصلى بنا هذه الصلاة قائماً ، وهي ثالث صلاة صلاها بعد العارض ، وبعدها أمر المنشدين بالإنشاد ، وأُدِيرت قهوة وبخور إلى نحو نصف الوقت بين الظهرين ، ثم جاء الخاتم ، ومعه آخرون من إخوانه وذويه ، ملبسهم كل واحد قُبْعاً ، وهذا هو العادة عند الختم ، ومعهم معلّمهم ، وابتدأ الخاتم يقرأ على حبيبه من سورة الكوثر .

فلما شرع في القراءة درَّت السماء بمطر له صوت ودوي ساعة ، ثم أَقْلَعَت وانقشع السحاب ، وذلك مدة ما قرأ من سورة الكوثر إلى آخر القرآن من جنب اللوح ، ثم قرأ بقية الآيات المعتادة قراءتها في جنبه الآخر ، وهو : « الفاتحة ، وإلى : « المفلحون » ، و « آية الكرسي » ، وآخر البقرة من : ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ، ثم قرأ دعاء مُختَصَر يُعتَاد يقرأه الخاتم مع دعاء بِرِّ الوالدين ، وبعده قرأ المعلم دعاء أبي حربة . ثم أمر بالإنشاد ، وهكذا حتى أذن العصر ، فركع وركعوا ، وأمر السيد زين العابدين بالتقدُّم في الصلاة فاعتذر ، فأمر السيد أحمد . وبعد الصلاة ، أمره بالقراءة في كتاب قراءته المعتاد ، وهو « الموطأ » إذ ذاك، ثم أَمَرَ بقية القُرَّاء فقرأوا .

ويوم الثلاثاء ١٨ رجب ، سأل عن رجل مريض ، فقيل : « به ضعف » ، قال : « **هذا أثر المرض، فإن الأثر يتأخر عن المرض ، ونحن الآن ما عاد نستنكر شيئاً بعد ذلك العارض ، وإنما الباقي الآن ضعف الكبر ، وهو المرض الذي لا يزول وهو لا يزول عن الكبير ، وإن زال مرضه** » .

وعشية هذا اليوم ، سأل عن رجل مسن فقيل له : « إن أكثر ما يعوقه رُكَبه » ، فقال : « **هذا من الكبر ، ونحن كذلك من حيث ضعف الركب ، فإن سببه الكبر ، وقد قيل : لو خلاني الموت ما خلاني الكبر ، وقد كتبناه إلى السيد علي بن عبدالله** » ، يعني قوله : « **لو خلاني .. إلخ** » .

وخرج بعد صلاة صبح يوم السبت ٢٢ رجب سنة ١١٣١ إلى ثبي ، عند آل عمر لما حلّوا ، ومكث يومه ذلك ، وخرج لصلاة العصر وصلى بنا ، وهي رابع صلاة صلى بنا بعد مرضه هذا ، وأدير دخون

وقهوة ، وأمر بالإنشاد ، ثم دخل .

وبات عندهم ليلة الأحد ، وبعد الإشراق رَكِبَ ومَرَّ على مصلى بناه السيد علي عيديد عند غرفته، وقد تقدَّم منه طلب لذلك من سيدنا ، وَوَعَدَهُ بالمرور وأراد منه أن يتبارك بركوعه فيه ، فركع فيه ركعتين ، وسمعته يقرأ : ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴾، وبعد السلام دعا ، ثم قال : « آمال الخير هي النية، وقد وعد أن آخر الزمان تكثر المساجد ويقل الساجدون ، ولكن الله يصلح النيات » .

وذَكَرَ قلة الخريف الموجود تلك السنة فقال : « إن العبد لَيُحْرَم الرزق بالذنب يصيبه - وتقدَّم ما تكلم به - وما بهم إلا ذنوبهم ، ذنوب بلا توبة ولا ندم ولا إستغفار » . ثم مكث أقل من مدة قهوة ، ثم قرأ الفاتحة وقوله تعالى : ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾، و « لإيلاف قريش » ، ثم دعا وقام ، وخفَّف هذا المجلس خوفاً من حُمُوّ الشمس ، ووصل الحاوي وقت قيامه من درس الإثنين والخميس .

وذَكَر النخل و الخريف في غير هذا المجلس ، وما كان عليه حال السلف في ذلك، وَرَغَّب في تعاهد النخلة وعدم التساهل بها ، ثم قال : « والبخت والبركة ما أحد داري أين هما ، وعلى هذا عوايد السلف ونياتهم ، فإذا فات الإنسان العمل ما فاتته النية . وكان من عاداتهم الخروج للمزاهد[1] ، ولا قصد لهم إلا حصول الإجتماعات وحضورها ، وكانوا يرغبون في ذلك ، فربما يحصل في المجمع رجل صالح ، وكان أهل ذاك الزمان إذا قيل لأحدهم : هاك . قال : أنت أحق به . لزهادتهم وقناعتهم ، وكانت أمور الدنيا لا تضيق بهم ، واليوم ألَّا يتناهبون ، ما تحسبهم إلا أعداء . وفي تخبيرهم لو ما دعت عليهم إلا القبور ، حيث يخَبِّرون وهو بِسْر ما فيه تمر ، وأيش يسكِّن قلوبهم الملآنة حرصاً ، لأن الحرص ألا نار » .

وعرَّض لرجل بالمحلَّة ، فقال : « إذا خرجوا للمحلة واجتمعوا ولو ماشي خريف ، يرجى من الله لهم حصول الرحمة ، لأن الله سبحانه حيي كريم ، إذا رأى اجتماعهم راجين لفضله ورحمته رافعي أيديهم، يستحيي سبحانه أن يرفع عبده إليه يده يدعوه فيرده خائباً . الخلق مع الله أقل من الأطفال مع أهلهم ، إن منعوهم من شيء بكوا ، وإن أعطوهم ضحكوا ، وهو سبحانه ما يمنع إلا لحِكْمَة ، وما يعطي إلا لحكمة » .

وسأل منه الدعاء بالرحمة ، وألحَّ عليه في ذلك فقال : « ادعوا ربكم ، فإنه سبحانه يحب كثرة القرقعة على بابه ، ولعل المانع من ذلك ذنوب الناس ، ولكن يُرجى منه أن يَرْحم المذنبين لأجل البهائم

---

(١) هكذا في الأصل ، ولعلها : المزارع .

والصغار ، فإن كان أولئك ليس فيهم خير ، فهؤلاء ليس منهم شر . وأيضاً ليس كل المكلَّفين أهل معاصي ، بل فيهم أهل الخير ، وقد بَلَغَنا أن البهائم كل يوم تشكو إلى ربها من بني آدم وتقول : إنما مُنِعنا الرحمة بذنوبهم . فإذا أردتم الرحمة ؛ فأطيعوا ربكم ، فإن الرب ما يرحم إلا أهل الطاعة ، والطاعة ما تكون إلا فيما يخالف هوى النفس ، وما ينفع القلب والدين من الأعمال إلا ما لم يكن للنفس فيه هوى» .

وليلة الخميس ١٧ رمضان ، بعدما تقنَّط الناس ، أمر بِشَدِّ الفَرَس ولم يُعلَم أين يريد ، وركب وسرتُ معه ثالث ثلاثة ، وقائد الفرس عكيمان ، وقال له : « قبِّل طريق الساقية » ، وقال له : « أتظن أين نريد ؟ » ، قال : المسجد ، وقال لي : « وأنت ما تظن ؟ » ، قلت : كنت أظن التربة ، فلما كان طريقكم هذا يكون المسجد ، قال : « نعم ، والتربة ما هذا وقتها » ، فقصد مسجده مسجد الأوابين ، وركع فيه وحضر الوترية ، وحَضَرَت قهوة وأمَرَ بدخون يُدار، ثم خرج إلى الحاوي ، وسمعته يقرأ في إحدى الركعات : ﴿لَا يَسْتَوِيٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾، إلى آخر سورة الحشر ، وتكلم في الطريق ، قال : « قد أوقَفْنا نخلاً على المسجد قبل نَبْنِيه ، وكُنَّا أردناه عند سدة باشريف، ولكن أشار علينا الصنو علي أن يكون في ناحية النويدرة ، وأن يكون في ذبر له اشتراه ، فاشتريناه منه وفَعَلْنَا فيه المسجد » .

أقول : كان بناه سنة ١١١٤ ، أتاه مال من الهند ، فاختار أن يبني به له مسجداً فبناه ، وفي مثل هذا الوقت ليلة الثلاثاء ٢٢ أمر بِشَدِّ الفَرَس ، ورَكِبَ وأمر القائد أن يشَرِّق ، ولا يعلم أحد أين يريد، فسلك طريق السبير ، *ثم قال* : « مرادنا المسجد نركع فيه » ، يعني مسجده بالسبير ، وأمطر علينا مطر يبل الثياب ، فمَرَّ إلى الغرفة، وكان فيها ابنه الحبيب علوي حالّا ، وهو إذ ذاك في المسجد في جماعة يقرأون الوترية، فلما أحسَّ المطر جاء إلى الغرفة فرأى أباه فبقي عنده ، وبقي سيدنا إلى أن ختموا الوترية وتفرَّقوا .

ثم أحضر السيد علوي سحوراً ، ثم خرج سيدنا إلى المسجد وتوضأ وصلى فيه ما بدا له ، ثم جلس وجلسنا منتظرين الفجر ، ثم سأل عن الوقت ، فما مِنَّا من جَزَمَ فيه بشيء من قوة السحاب والقمر ، فقال : « اركعوا ، فإنه فجر » ، يعني صلُّوا السُّنة . وكان أعرف بهذا الوقت خاصة ، وكذلك غيره من البصراء الناظرين بأعينهم، فإنه في مدة ما أنا عنده ما يخرج لصلاة الفجر إلا بعد أن يركع سُنَّة الفجر داخل البيت ، عندما يعلم بدخول الوقت ، ولم يُعلِمه به أحد ، وقد وَرَدَ في حديث : « إن الله يهب ريحاً في الجنة عند طلوع الفجر ، ثم تنتشر في الدنيا ، فيشمها أكابر الأولياء فيعرفون بها الوقت » ، فيعرف سيدنا الوقت بها ، وقد يسأل عن الوقت إذا كان في غير الحاوي ، وهو أعلم به . وصلى بنا هذه الصلاة

في مسجد السبير ، وهي سابع صلاة صلاها بنا بعد ذلك العارض ، ولما فرغ من أذكار بعد الصلاة ، وفَرَغْتُ من قراءة سورة يس كما هو مرتب قراءتها بعد الصلوات ، ومُدرِّك بها المؤذن مع دعائها المرتب بعد قراءتها أمر بشَدِّ الفرس وطلع إلى الحاوي .

وسمعته غير مرة يقول : « **إنما بنينا هذا المسجد - يعني مسجد السبير - في هذا الموضع ، لأنا سمعنا الوالد يقول : رأيت كأن في هذا الموضع عند بئر العسلة مسجداً ، فلما توفي الوالد تَمَّمْنَا نِيَّتَهُ ، وصَدَّقنا رؤياه فَبَنَيْنَاه** » .

ومسجده هذا سماه : « مسجد الأبرار ومسجد العابدين » ، ومسجد الحاوي : « مسجد الفتح ومسجد التائبين » ، ومسجد النويدرة : « مسجد الأوابين » ، ومسجد سيئون : « مسجد باعلوي » ، ومسجد شبام : « مسجد النَّقر » ، ومسجد مدودة : « مسجد الأسرار » ، وله في سيحوت مسجد بني بإسمه ، وكذلك في أرض ابن عبدالواحد ، وفي بلاد العوالق ، وفي أماكن أخر .

وليلة عيد الفطر من سنة ١١٣١ وهي ليلة الخميس ، حضر صلاة العشاء ، وحضر من قراءة القرآن للإحياء نحو خمسة أجزاء ونصف جزء ، ثم دخل وتوضأ داخلاً ، ثم خرج وركع وجلس في الخلفة . وبعد تمام ١٣ جزءاً دخل ، ثم خرج لصلاة فجر يوم العيد ، وبعد قراءة يس ودعائها، كَبَّر تكبيره المعتاد وهو : الله أكبر « ٣ » ، لا إله إلا الله والله أكبر ، الله أكبر ولله الحمد . هكذا ثلاثاً، ثم : الله أكبر كبيرا ، والحمد لله كثيرا ، وسبحان الله بكرة وأصيلا ، لا إله إلا الله ، ولا نعبد إلا إياه مخلصين له الدين ولو كره الكافرون ، لا إله إلا الله وحده ، صَدَق وَعْده ، ونَصر عَبْده ، وهزم الأحزاب وَحْده ، لا إله إلا الله والله أكبر ، نقول كل ذلك ٣ مرات . ثم أمر بدخون ، ثم قرأ الفاتحة ودعا وقام ودخل ، وبعد قليل أمر بإدخال الجماعة ومَن هناك بالمصلى من الفقراء والغرباء للغداء ، فدخلوا وجلس تغدَّى معهم ، ثم قرأ الفاتحة وأمر بِشَدِّ الفَرَس وطلع للبلاد لِيَشْهَد صلاة العيد ، وبعد أن توضأ وصلى الإشراق ، خرج إليها راكباً ، وبعدها جلس مجلسه المعتاد في الدار ، كما هو العادة من النشيد والقهوة ، ثم خرج إلى الحاوي وحضر ختم القرآن ، ختم ست شوال ، وصلاة صبح ذلك اليوم .

وزار التربة يوم السبت ٩ ذي القعدة ، فلما كان في الطريق إلى الحاوي ، ذكرت له الأسعار وأنها رخيّة ، فقال : « **ضمّوها للناس ، وباؤوا بإثم احتكارها وحدهم ، لأن المحتكر ملعون ، وذلك من**

غير اختيار منهم . ومن أبغضه الله وأراد به شرًّا ، يسَّره لِفِعْلِ الشرِّ شاء أم أبى ، ومن أحبه الله وأراد به خيراً يسَّره لفعل الخير شاء أم أبى ، وكل فعلٍ يفعله الإنسان باختياره في الظاهر أو في الباطن ففيه المدح والذم » .

وصلى بنا عشاء ليلة الأحد ٢٤ ذي القعدة ، وما كان أحد من العيال ، وكذا ليلة الإثنين ٢٥ ، ويوم الثلاثاء ٤ ذي الحجة ، مضى إلى مسجد الأوابين ، وصلى بالناس العصر .

ويوم الخميس ٦ ، جاءت لسيدنا ورقة من قاضي سيئون أن الشهر - أي عرفة - ثبت عنده بشهادة ناس مقبولين بالجمعة ، مع أن ذي القعدة قَبْله ثبت بالجمعة أيضاً ، فأفتى قاضي تريم بثبوته على ما ثبت في سيئون ، وخفَّ به أهل البلاد ، حتى أن المعلِّمين مع الصغار طلعوا الجبل على عادتهم يوم الجمعة على أنه ثامن الشهر ، ومن يعتاد يذبح يوم الثامن من مناصب البلاد ونحوهم فَعَلَ ذلك .

وأما سيدنا عبدالله نفع الله به فتوقَّف عن أن يفعل شيئاً من ذلك المعتاد في هذا اليوم ، واستبعد أن يتَّفق دخول الشهرين بيوم واحد ، فيكون الشهر ذو القعدة ٢٨ يوماً ، فكتب سيدنا إلى السيد عبدالله بن علوي العيدروس في بلاده بور أن يراجع قاضي سيئون ، فراجعه فجاء جواب السيد عبدالله المذكور أنه راجَعَه ، وأنه قال : « إنه غلط ، وأن مراده كان أراد أن يذكر أنه ثَبَتَ بالسبت ، فكتب بالجمعة » .

وجاءه أيضاً كتاب من ذلك القاضي بنحو ذلك أنه غلط ، أنه أراد يَذْكر ثبوته بالسبت ، فغلط بالجمعة ، فنادوا في البلاد تريم أن الحجَّ بالأحد والزينة بالإثنين على رؤية السبت ، وبَقِيَ أهل البلد أي تريم يوم السبت كما هم في سائر الأيام ، ليس معهم الحركة المعتادة يوم السبت ، حيث كان ذلك منهم يوم الجمعة ، والحبيب فإنه فَعَلَ عوائده في الثامن يوم السبت على الصواب ، حيث أخطأه أهل البلد . والتوفيق والتسديد لا يعطيه الله كل أحد .

وكان من عادة مناصب البلاد وأغنياهم يوم الثامن يذبحون رؤوساً من الغنم المُكْثِر بكثرته والمقِل بِقِلَّتِهِ ، ويقسِّمونها على الفقراء والمساكين ومن لا يقدر على شيء . عادة سنَّها لهم أوائلهم ممن تقدَّم من سَلَف صالحي البلد ، وجرى عليها عنهم الخلف ، كما سمعت سيدنا غير مرة يقول : **« تريم مؤسَّسة على علم وتقوى وهم على هذا . حتى إن الحرَّاث العامي الجاهل إذا دخل المسجد نوى الإعتكاف فيه إلى أن يخرج منه ، وإذا رأى من يتم صلاته بعد الإمام اقتدى به على مذهب الإمام الشافعي ، وكان لا يُعرف في الجهة غير مذهبه »** .

وكان من عادة سيدنا أن يذبح يوم الثامن نحو عشرة رؤوس من الغنم ، ويقسِّمها على المحتاجين

من الفقراء والمساكين ، فكان فَعَلَ ذلك على الصواب في هذه السَّنة التي زلَّ فيها الناس عن الصواب .

ثم إن عشية هذا اليوم ثامن ذي الحجة ، لم يقرأ في هذا على العادة ، بل في كتب يوم الثلاثاء ، وكان من عادته ترك القراءة المعتادة في أيام معروفة في السنة : ففي شهر عرفة من ثامنِهِ إلى رابع عشرِهِ ويبتديها من ١٥ ، وتاسوعاء ، وعاشوراء ، ويوم المولد ، وأول يوم من رجب لأنه يوم نافلة عندهم، وأول يوم شعبان كذلك ، ورابع عَشَرِهِ ، ويوم بعده ويبتديء بالسادس عشر ، و ٢٩ منه فإنه نافلة أيضاً ، فإن تَمَّ قبل دخول رمضان قرأ يوم ٣٠ .

ومدة شهر رمضان لا قراءة فيه لكل من يعتاد قراءة في كتاب ، ولا عادة قراءة يوم الثلاثاء ، بل في كتب أخرى في مناقب الصالحين ، ككتاب « روض الرياحين » للإمام اليافعي أو إرشاده . والعادة في القراءة فيها لي ، وفي « مجمع الأحباب » لابنه الحبيب علوي ، وشيء من كتب الحديث : كالمستصفى وسنن أبي داود للسيد عمر حامد . وكذلك يومَيْ العيدَيْن والقراءة فيهما ، وست شوال في كتب رمضان . وبعدها الإبتداء في الكتب المعتادة المختصة بأربابها ، كل كتاب بمن يقرأ فيه .

وفي هذه الأيام المذكورة لا قراءة للقُرَّاء فيها ، بل يقرأ فيها ابنه الحبيب علوي « مجمع الأحباب » في المناقب ، والسيد عمر حامد في الحديث . وكذا لا قراءة معتادة في يوم الثلاثاء ، بل في كتب الأدب: كمقامات الحريري ، وكتاب الفرج بعد الشدة ، وربيع الأبرار للزمخشري ، وديوان ابن الفارض . والقُرَّاء فيه هم القراء في رمضان .

ويوم الجمعة بعد العصر في كتب أخرى ، والقُرَّاء فيه اثنان : ولده الحبيب علوي والسيد عمر حامد ، والقراءة في داره في البلاد ، كل هذا بترتيبه .

والليالي التي يعتاد يُحيِيها بقراءة القرآن في المصلى عنده : ليلتي العيدين الليل كله ، وليلة النصف من شعبان بعض الليل قدر ثلث القرآن أو أكثر .

ومن عادته إذا صلى صلاة صبح يوم العيدين ، وفرغ القاريء من قراءة سورة يس ، أمر بإدارة بخور على الحاضرين ، وعندما يبتديء الداير ، يكبِّر تكبير العيد المعروف المتقدِّم ذِكْره وَصِفَته ، ثم يقرأ الفاتحة ويدعو ويختم المجلس .

وفي الإحياء بعد كل حلقة - أي حزب من القرآن - يأتي بصيغة التكبير المذكورة مرة . وكذلك بعد كل صلاة من صبح يوم عرفة إلى عصر آخر أيام التشريق ، وفي طريقه خارجاً إلى صلاة العيد : الله أكبر « ٣ » ، لا إله إلا الله والله أكبر ، الله أكبر ولله الحمد ، فقط حتى يَصِل ، ويأمر من يسايره أن ينقسموا نصفين ، يكبِّر أحدهما بمثل هذا التكبير ثم يسكتون ، ويكبِّر الآخرون ثم يسكتون ، ويكبِّر

الساكتون ثم يسكتون ، ويكبِّر الساكتون .

ولا يخرج لصلاة عيد الفطر حتى يأمرنا بغداء لكل من يأكل في مائدته من أهله وفقرائه ، وفي صلاة عيد النحر لا يكون ذلك حتى يرجعوا منها ، وبعد صلاة العيدين يجلس في داره في البلاد للمعاودة على ما تقدَّم تفصيله في عيد الفطر .

ولما خرج لشهود صلاة صبح يوم عرفة من هذه السنة سنة ١١٣١ ، إذا معه أثر زكام وحُمَّى خفيفة، ومع ذلك صام هذا اليوم يوم عرفة ، ولا خرج لصلاة العصر ولا صلاة العشاء ليلة العيد، ولا أحياها. وخرج لصلاة صبح يومه ، وبعدما تقدم ذِكره دخل . ولما كان بعد الإشراق انسدح ، فأخذته عينه قليلاً فنام . وقد أمر بعض العيال علوي وحسن للطلوع لصلاة العيد ، ويجلس مجلسه المعتاد للمعاودة ، ولم يطلع هو لها ، وصلَّاها في الغيلة ، وتخلَّفتُ أنا لِتَخَلُّفِهِ فصلَّيت معه صلاة العيد ، وحضرها من العيال السيد حسين وزين وفقيه فهم أربعة وخامسهم كلبهم .

ولما انقضت الصلاة بعدما سَبَّح وذَكَرَ الله ودعا ، قرأ الفاتحة ، ثم دعا بها فيه مجامع الخيرات في الدنيا والآخرة ، وغالبه في صلاح المسلمين ، فلما خَتَمَ الدعاء تكلم بكلام يجلو الفؤاد ، *ثم قال* : **« ما تخلَّفتُ عن صلاة عيد عرفة إلا مراراً قليلة، وقد تخلَّفت في صلاة الفطر أكثر »** ، ثم قال لي : **« كم شهدتها معنا ؟ »** ، قلت : أظن هذه الثالثة .

ثم تكلم قليلاً ، ثم أراد أن يطلع عنده أحد من أهل البيت من النساء ، *فقال* : **« قم اجلس في الضيقة ، نرسل لك قِسْمك من القهوة ، ومن قطعان الريق »** .

وجاء إليه هذا اليوم كثير من الناس للمعاودة ، فلم يأذن لأحد في الدخول ، وكان الحُمَّى تعاوده في هذه الأيام ، وما خرج إلا صبح يوم الجمعة ، وبعد الحزب دخل وحسيت حرارتها من يده ، ولا طلع للجمعة ، ولا لمبيت ليلة السبت ، ولا قراءة يوم الاثنين ، وكانت الحُمَّى معه ، وكانت هذه هي آخرها ، فما رَجَعَت إليه بعد هذه ، وطلع ليلة الثلاثاء للمبيت ، ثم استمرَّ على عوائده كلها .

وصلى بالجماعة صلاة العصر يوم الثلاثاء ٣ صفر من سنة ١١٣٢ لغيبة العيال ، وكذلك صبح يوم الخميس ١٠ ، وجلس لقراءة الإثنين ٥ ربيع أول في الغيلة ، وأمر بإطْلَاعِهِم إلى عنده ، فلما صافحه أول رجل منهم ، *قال* : **« استدفينا الجلوس هنا ، فَثَقُلَ علينا الهبوط إلى الضيقة ، والنفس من طبعها الإعتياد ، وكذلك التنقُّل من طَبْع النفوس ، لكن مع عدم البرد والنزوح من مكان إلى مكان ، كما قيل :**

مَـا يَنْفَـعُ النَّفْـسَ إِذْ كَانَـتْ مُدَبِّـرَةً   إلا التَّنَقُّـلُ مِـنْ حَـالٍ إلى حَـالِ

وطَلَبَهُ السيد زين العابدين يجيء إلى عنده إلى داره ، فَوَعَدَهُ بذلك ، فبقي منتظراً مجيه ، وذلك في عاشور ، فلم يتَّفق له مجيء إليه إلا يوم السبت ٢٠ من جماد آخر ، فظلَّ عنده ذلك اليوم إلى اصفرار الشمس ، بحيث وَصَلَ الحاوي وقت المغرب ، وما جرى منه من الكلام منقول في غير هذا الموضع ، ومنه أنه قال له السيد زين العابدين بعدما طال به المجلس : « أتنامون قليلاً ؟ » .

قال : « نعم ، وأنا قليل ما يجيني النوم ، وإنما هو السكون سكون الأعضاء ، فيحصل لي بذلك سكونان : سكون الأعضاء وسكون اللسان ، وقدني أقول لهم : افصلوا بيني وبين الدَّاخلين عليَّ ، إن أرادوا يتكلمون وحدهم أو يسكتون ، وإلا فلا يطلعون ، وأما إنهم يحيلون الكلام علي فلا . وكذلك إذا كان غريب يشاور في أمر ، وقلنا : انظر ما تستحسنه أنت . قال : لا ، ألَّا الذي بغيتم . حتى إن وقعت زينة أو غير ذلك - أي يحصل عند ذلك إما حمد أو ذم ولا يريدهما - قال : هذا بسبب شوركم. فمثل هذا ما يحسن ، والكلام فصول يُجُر بعضه بعضاً ، فبينما أنت تتكلم بكذا ، انجَرَّ الكلام إلى كذا ، كالخواطر التي تتردَّد في الصدر إلى غير حد » .

وكان ليلة وهي ليلة الثلاثاء أول ليلة في رجب سنة ١١٣٢ طالعاً إلى البلاد فلما انحدر في مسيلة خيلة عند ملتقى مقطب مسيلة ثبي فيها ، وانفصل قليلاً عن الحاوي **قال : « إن كان عادنا رحنا إلى عند آل عمر يوم يحلّون ، أو نَدَرْنَا بيت جبير بانطلب الفالكي نركب فيه ، ما عاد مني شيء لركوب الفرَس، لأن السيد علي بن عبدالله هَدَّ قواي ، جملة كافية »** ، فأشغَلَنا كلامه ذلك ، فقلت : عسى الله يعوضكم منها - أي القوى - فظنَّ أني قلت : منه .

فقال : « ما عاد أحد مثله - يعني السيد علي - ونرجو أن نكون نحن وإياه ممن يظلهم الله تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله ، رجلان تحابَّا في الله اجتمعا على ذلك وتفرَّقا عليه . ونحن وهو لم نزل متحابَّيْن في الله في حال الإجتماع الحِسِّي وفي البُعد ، لم نَتَنَاكر أبداً في حال الحضور ومع الغيبة ، ولو كان السيد علي في غير بلاد الهند ، كما في الشحر أو عدن أو بعض بلاد اليمن ، ولم يتَّفق له المجيء للزيارة ، سِرْنا إليه نزوره . ولكن لا يمكن ذلك في الهند ، سيما لمن هو مُعتقَد ومعروف عند الناس ، وإلا فعلوا له مثل أهل الذيبي ، حيث مَرَّ بهم بعض السادة من أهل الفضل فاعتقَدُوه كثيراً ، فأرادوا قَتْلَه ليجعلوا مقاماً له عندهم يزورونه ويتبرَّكون به ، ولم نزل نرى منهم مثل ذلك كثيراً . ولم نَعْلَم أحداً من السادة

بقي ٦٠ سنة في الهند مع توقُّعه للخروج إلا هو ، حتى إن السيد علي شاطري قال : ما جَلَسْنَا معه مَجْلساً إلا ذَكَرَ تريم وتمنَّى الوصول إليها .

وقد رأيته في المنام مراراً ، جاء إلى تريم مراراً في الخلاء ومراراً في البلاد ، وكل ذلك وهو يريد الرجوع إلى الهند ، وأنا أشير عليه بالجلوس وعدم الرجوع ، وهو عازم على الرجوع ، فكان ذلك زيارة روحه ، وحفرته هناك . ولكن الغريب شهيد، لأن موت الغربة كثيب ، وإن كان بين أهله وولده ، وقد توفي بعض الصحابة في غير بلده ، فقال النبي ﷺ : هو شهيد ، يُقَاس له من مَوْضِع قبره إلى منتهى أثره. وقد رأيت السيد علي مرة ، وكأنَّا في السبير في غرفة السيد عبدالله بن أبي بكر ، وكأنَّا في جَمْع من السادة وغيرهم مجتمعين لأمرٍ يُوجِب الإجتماع ، كعرس أو ختان ونحوه ، وكأني جالس إلى قِبْلة ، وهو جالس إلى شَرْق ، وكأنَّه بعدما تفرَّق الناس قام وخرج وسار مشرِّقاً ، فخرجتُ في قفاه وعالجته في الرجوع فامتنع . فأوَّلتها أنه يموت بالهند ونحن هنا » ، أو كما قال في تأويلها .

قال : « ولما خرج مسافراً إلى الهند خرج متخفِّياً عني ، وما استودع مني ، خاف أني أعوِّقه عن السفر، لكن لما وصل الشحر كتب لي ورقة حق الوداع ، ويعتذر فيها بأنه إنما أخرجه دَيْن عليه ، وأراد أن يتيسَّر له وفاء ويرجع في عامِهِ ، وهو هكذا يتوقَّع الخروج إلى أن توفي » ، أو كما قال هـ .

أقول : ومنذ بلغه وفاته ، قَلَّ أن يجلس مجلساً أو يسير في طريق إلا ذَكَرَهُ ، وأطْنَب في ذِكْرِه ، كما ترى مما ذَكَرْنَاه هنا . وقد رأى ليلة وفاته ، وهي ليلة الإثنين ١٨ شوال سنة ١١٣١ رؤيا تدل عليها ولم يعلم تأويلها حتى جاء خبر وفاته في أوراق المقربين به - وذَكَرُوا وفاته أنها في تلك الليلة - في ربيع الثاني من السنة بعدها ، سنة ١١٣٢ ، فكَتَبْتُها وأرَّختها ، فذكَّرته أن ذلك ليلة رؤياكم التي ذكرتوها ، قال : « سبحان الله » ، وهي مذكورة هنا في غير هذا الموضع ، لكنَّا نَذْكرها لئلا تشرف نفس من يقف على هذا الكلام على الوقوف عليها وهي : أنه يوم الثلاثاء في يوم ليلة الرؤيا ، اجتمع عنده في الغيلة الأولاد والسيد زين العابدين فذَكَرَها ، قال : « رأيت كأنه دخل عليَّ رجلٌ أعجمي في الغيلة ، وجلس على هذا الكرسي - كرسيه الذي يجلس عليه - فقال الرجل : الليلة مات القطب ، الليلة مات القطب. وكَرَّر ذلك مراراً » .

فأصبح من تلك الليلة السيد محمد بن سقاف متوفياً ، فقال : « الرؤيا ما تصدق عليه » ، حتى جاء خبر وفاة السيد علي قال :« صَدَقَتْ عليه » ، قال : « وكنت أظن أني وإياه نموت في عام واحد » .

لكن تأخر وفاة سيدنا عن عام وفاة السيد علي ١٨ يوماً .

ويوم الخميس ١٧ رجب المذكور طلع البلاد مدعوًّا عند ابن أخيه السيد عمر بن علي الحداد ، فعل دعوة لختم القرآن ، ختم ابنه « أحمد سالم »[1] ، وبلغ من حضر من الرجال نحو ثلاثمائة ، ومن صبيان العُلمة نحو مائة وسبعين ، وبعدما تفرَّق جميعهم خرج سيدنا .

ثم خرج لصلاة الظهر في مسجد باعلوي ، وبعدها جلس فيه في جَمْع ، وأنشد المنشدون وأدير البخور والقهوة ساعة ، ثم جاء الخاتم معه معلِّمه ، ورجل حامل له اللوح الذي يقرأ فيه كما هي العادة، فقرأ الخاتم في اللوح من سورة الكوثر إلى آخر القرآن ، ويكبِّرون بعد كل سورة ، وهذا مكتوب في جنب اللوح ، وفي جنبه الآخر : « الفاتحة ، وإلى : المفلحون ، وإلهكم .. الآية ، وآية الكرسي ، ولله .. إلخ » . فقرأه أيضاً بعد الأول ، ثم قرأ دعاء مختصر مرتَّب لختم القرآن ، ثم قرأ دعاء بر الوالدين ، ثم قرأوا جميعاً برفع الصوت ما يُقْرَأ في ختم الحزب ، ثم دعا سيدنا بالحاضرين ، ثم قرأ المعلِّم دعاء أبي حربة ، ثم ختموا ، ثم عادوا في النشيد وإدارة الدخون والقهوة - وهكذا تعوَّدوا ذلك واعتيد ختم الصبي القرآن - وهكذا إلى أن حَضَرَت صلاة العصر فصلّوها ، وكان ذلك مجلساً عميماً ومَجْمَعاً عظيماً، قال سيدنا : « **وما حضرت في مسجد باعلوي لختم قبله قط** » ، وامتلأ المسجد وغصَّ من الزحام . ثم بعد صلاة العصر انفضَّ أكثر الناس وبقي بعضهم ، وأمر سيدنا السيد أحمد بن زين أن يقرأ على قراءته في كتاب « شرح السُّنة » للإمام البغوي ، فقرأ إلى نحو قيامه من القراءة في الحاوي ، ثم قرأ الفاتحة وصافحوه وخرجوا .

ويوم الأربعاء ٢٣ رجب ، صلى بنا صلاة الصبح لغيبة العيال ، وعصر الثلاثاء ٢٩ ، وصبح يوم الأحد ١١ شعبان ، وما زال مواظباً على عاداته كلها من حضور الصلوات ومجالس القراءات، سيما عشاء كل ليلة من شهر رمضان ، وصبح كل يوم منه وعشاياه ، إلا عشية يوم الخميس ٢٧ من رمضان سنة ١١٣٢ ، فما خرج لصلاة العصر ولا للقراءة ، بل أمر بأن يقرأوا في المصلى على عادتهم في حضوره وهو يسمع ، وهو جالس يسمع عند الخلفة في الغيلة ، وكانت قراءتي إذ ذاك في « إرشاد اليافعي » ، ووَقْفِي على قصيدته التي أولها : « قفا حدثاني فالفؤاد عليل »، فقرأتها فقط .

وبعد انقضاء وقت القراءة قال : « **ما قرأت كثيراً** » ، قلت : نعم ، اكتفيت بالقصيدة وحدها .

وخرج لصلاة عشاء ليلة الجمعة وتراويحها ، ولا خرج لصلاة الجمعة ، ولما كان وقت خروجه

---

(١) اسم مركّب .

قال لي : « **اطلع ، ما بايقع لنا طلوع ، لأنه أشغلنا احتباس راقة الظاهر ، ولا أدري له سبباً ، أمن يُبْس أو غيره ، وقد يحصل لي ذلك لكن وقت يسير ويذهب ، وفي هذه المرة طال قليلاً ، حسيت من طول المجلس يحصل به ألم ، ولكن كما قال الإمام الشافعي : لا أستر للإنسان من العافية ، وقد قال النبي ﷺ : وعافيتك هي أوسع لي . فادعُ لنا بالعافية** » .

فقلت : الله يتم عليكم عافيته ونِعَمه كلها ، إذ كل مجلس يحصل [1] منكم ، أو أي عادة ، يكون فيه تعب على الناس .

وقد ابتدأ به هذا يوم الأربعاء ٢٦ ، ولا انقطع من شيء يعتاده إلا من يوم الخميس ٢٧ ، وقد قال يوماً : « **ما المرض إلا ما أقعد الإنسان** » ، وكان هذا ابتداء مرض وفاته مع أوجاع متعدِّدة ، كما سيذكر والله المستعان .

ثم بعد صلاة الجمعة ، جلس العيال مجلسه في دار البلاد مقدار نحو الجزئين ، قدر ما قريء من : ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ ﴾ إلى أن وقفوا على « سورة النساء » ، وكان سيدنا مرتِّباً في رمضان أن يقرأ القرآن في المجلس بعد صلاة الجمعة الذي يكون فيه النشيد وإدارة القهوة في غير رمضان . وبعد وقوفهم على سورة النساء ، خرج مع العيال إلى الحاوي وصلينا فيه العصر ، وقرأنا فيها كُنَّا نقرأ فيه من الكتب المعتادة ولا خرج ، وقرأت من « الإرشاد »[2] القصيدة المخمَّسة التي أولها : « من بان عن ربع من تهواه والطلل » ، وخرج لصلاة العشاء وصلاها ، فلما أشار إليهم لصلاة التراويح بالتنحنح ، وذلك عادته، دخل . وكانت هذه الليلة ليلة السبت ٢٩ ختم مصلى الحاوي ، وما حضر ، وما تركه وهو يمكنه .

وبعد صلاة عصر الأحد سلخ رمضان ، دعاني فطلعت عنده في الغيلة فصافحته وهو مسدوح على سريره في الغيلة ويده حارة وهو محموم وله أنين، وسألني *قال* : « **كيف أنت ؟ طيب ؟** » ، وتحادثت معه ساعة ، وسأل عن قراءتي ووقفي ، وأي باب انتهيت فيه من « الإرشاد » ، وسأل عن الباب الأخير الطويل في الترغيب والترهيب وقال : « **تأخر تمامه ، وظنناه يتم قبل هذه المدة** » ، *ثم قال* : « **امضِ أحضر القراءة** » ، وفرغت من قراءة « الإرشاد » وأتممته بتمام ست شوال ، وهي آخر مرة لي فيه وفي غيره . ولا خرج لصلاة عشاء ليلة عيد الفطر ، ولا للإحياء ولا لصلاة العيد ، وأشار إلى العيال بشهودها ، وتخلَّفتُ أنا فيها لتَخَلُّفه ، وما كان يجد من سبب الراقة خَفَّ عليه ، بل زال عنه . ثم عرض

---

(١) كلمة غير واضحة ، لعلها : كل مجلس يطل منكم ، أو يتوقف .

(٢) كتاب (الإرشاد والتطريز ، في فضل كتاب الله وتلاوة كتابه العزيز) ، للشيخ عبدالله بن أسعد اليافعي .

له لاكِز في جنبه ، وما عرفوه ، بل من قائل : هو ذات الجنب ، ومن قائل : هو غيره . كما اختلفوا في الأول أنه حصر البول أو الحرقة .

وسيأتي تفصيل أمراضه عند ذِكْرِ وفاته آخر الكتاب ختم المجالس .

ثم جاء إليه يوم عيد الفطر السيد زين العابدين وأخوه السيد شيخ معاودَين ، فجلس لهما مجلساً مليحاً فسيحاً وتأنّس بهما ، *وقال* : « **سبب ذلك بعد تقدير الله فيما ظهر لي ، أني قصَّرت في بعض الأمور، كالتأديب ، وذلك أني خرجت إلى السادة آل فقيه ليلة الأربعاء ٢٦ ، وقد كان النبي ﷺ يترك أمور الدنيا في هذه الأيام في العَشْر من رمضان ، وكان النبي ﷺ يعتكف فيها ولا يَبيت عند أحد من نسائه كعادته ، لكن استمراراً على إجراء الحقوق والإقامة بالخير من غير داعية لشيء ، ولا عاد معي طلب لشيء** - ثم قال هنا كليمة يمزح بها مع السادة ، وهي قال : - **ولو كان مع الإقامة بذلك استعمال ، وكنت خرجت ليلة ختم الحاوي ، وصليت العشاء والركعتين بعدها ، ولكن مع الحرقة الحاصلة أحس معي لاكز في الكلوة ، فما أمكنني المقام ، وأنا عازم إن تنشَّطت رجعت ، ولكن ما ينبغي أن يكلّف الجسم عمله الهمة ، وقد قالوا لا ينبغي أن يكلّف الجسم الضعيف عمل الهمة القوية .**

واللاكِز قد يحصل لي ، لكن أداويه بالزَّباد وغيره فيصح ، ولا يحس به أحد، وهذا فيه زيادة على ذلك . ولكن الحمد لله حيث أن العافية حاصلة ، ولا شيء زيادة ، وقد رأوا العيال في كتب الطب عندهم أنها علة خفيفة ، وأنا قد حكيت لكم بالرؤيا التي رأيت فيها السيد علي بن عبدالله ، وهي أني رأيت كأني وَرَدتُ عليه وهو في مجلس مستطيل ، وهو في طَرَفِهِ الشرقي وأنا في القِبْلي ، وبيني وبينه مسافة ، وكأنّا جئنا لسبب يُوجِب الإجتماع كالعزاء ونحوه ، ومعنا من الصغار كثير جاؤوا في جرّتنا ، وقد كنت قبل وفاته أظن أني وإياه متقاربين الوفاة ، فلما رأيت ما بيني وبينه من المسافة في المجلس قلت: هذا يكون مسافة مدة ما بيننا وبينه في الوفاة ، والحمد لله . وقد ذَكَرْنَا لكم المعمرين من آل باعلوي » .

أقول : وكلامه يدل على أن هذا مرض موته ، وسيأتي في آخر المجالس .

ثم ذَكَرَ الأطعمة المناسبة ، *فقال* : « **يناسبني الرُّطَب كثيراً ، حتى أني لم أدع كل ليلة عند العشاء من أخذِ حبَّتَيْن أو ثلاث** » .

فقال السيد زين العابدين : « يناسبكم التين ؟ » ، *قال* : « لا ، لأنه حار ، وأرى الصغار يتولّعون به فأُعطيهم إياه ، وإلا فهو عندنا هذه السنة فيه كثرة » ، وكان عنده بستان في نَخْلِهِ السبير فيه شجرة ليمون لا ينقطع منها الليمون شتاء ولا صيفاً، وشجرة تِيْن يوجد فيها التين في الصيف والشتاء ،

وشجرة رمان حلو .

ثم أمر بالقهوة ، وبعدها بالبخور ، وبعده قرأ الفاتحة ، ثم دعا . فمما دعا به : « **اللهم إنا نسألك العافية في الدنيا والآخرة ، اللهم إنا نسألك الهدى والتُّقى والعفاف والغِنى ، اللهم متِّعنا بأسماعنا وأبصارنا وحَوْلِنا وقُوَّتنا ، اللهم متِّعنا بالعافية ومُنَّ علينا بدوام العافية . اللهم إنَّا نستحفظك ونستودعك أدياننا وأنفسنا وأولادنا وأهلينا وأصحابنا وجميع من معنا وما معنا ، اللهم اجعلنا وإياهم أجمعين في حِفظك وكَنَفِك وأمانِك وجِوارِك . اللهم أصلح أمور المسلمين اللهم ارحم المسلمين واسقهم الغيث والرحمة، برحمتك يا أرحم الراحمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ، والحمد لله رب العالمين** » .

وفي كل وقت يطلب الناس الدخول عليه وهو يعتذر ، سيما وهو وقت معاودة ، حتى وعدهم عشية الأربعاء بعد صلاة العصر ثالث الفطر ، فاجتمعوا لذلك ، ثم أُعْلِم بهم ، فأَذِنَ لهم ، فكان غالب كلامه في شبه كلام أهل الحقائق ، فأول من صافحه بعض الشيبان من السادة ، فقال له : « **الله الله في الدعاء بالعافية واللطف ، وفِعْل الله كله فضل وعدل ، وما جاء من الله سبحانه للعبد يكون على قدره تعالى ، لا على قدر العبد ، فينبغي أن يتنبَّه لذلك من كل الوجوه أو من بعضها ، وما نحن ألَّا من جهة الرحمة بكم ، والشفقة عليكم** » ، ثم أمر بإدارة ماء وَرْد ، وهذا ونحو كلامه إلى أن فرغ منه ، فقرأ الفاتحة ودعا : « **اللهم اقسم لنا من خَشْيَتِكَ** .. – الدعاء ، إلى أن بلغ : – **ولا تجعل الدنيا أكبر همِّنا ولا مَبْلَغ عِلْمنا ، ولا تسلِّط علينا بذنوبنا من لا يخشاك ولا يخافك ، اللهم أصلح أمورنا وأمور المسلمين ، واسقنا الغيث والرحمة ، وولِّ علينا خيارنا واصرف عنَّا شرارنا** » ، ثم ختم .

وكلما صافحه إنسان مستودعاً سأله : من هو ؟ فإذا قال : فلان ، دعا له بخشوع ورحمة ، حتى صافحه رجل ، فأوصاه بمال رجل مات من أقاربه وما يتعلق به ، فكأنه استثقل أن يتعرَّض فيه وقال: « عسى يكون فلان – لرجل آخر قريب له – ولكنه قلنا له ، فاعتذر » ، فقال سيدنا : « **إنما هو قضاء حاجة ، ما في ذلك طمع ، والكلام ما ينفع في ذلك ، ما المطلوب إلا العمل والنصيحة ، وما ذكر الله القول مجرداً ، ولا على مجرد القول عمل عند الأكابر ، ومن كان مراده ألَّا الأكل والإستيلاء ، ولو على مال يتيم بالظلم فلا تعدّه شيئاً ، وقد أوحى الله إلى بعض الأنبياء ، وأظنه داود : أن حَبِّب إليَّ عبادي ، فقال : وكيف أحبِّبهم إليك ؟ قال : تذكرهم نعمائي** » .

ودخل عليه السيد زين العابدين اصفرار يوم الجمعة خامس شوال ، وكان جالساً مستنداً إلى الجدار متوشِّحاً بشَمَط ، وليس من عادته لبسه ، فكلَّمه وآنسه وأثَرُ العافية بادٍ عليه ، *فقال* : « **ما أظن بي إلا حرارة ، وأوصيناهم يدورون لنا كزَام ، لأنه في غاية من البرودة ، وقد قطعوا النخل لأجل ذلك، فعله بعض الخلفاء** ».

أقول : أشار بذلك إلى ما رُوِيَ أن هارون الرشيد مَرَّ في سفره أو متنزَّهه في حرَّان بنخلتين طويلتين جداً قديمتين ، كانتا من غراس الأكاسرة ، فأصابته حرارة فأمر بتجذيب أحدهما ، فأكل من جذبها وهو لُبُّها وهو الكزام الذي ذَكَر، فما نشبت الأخرى أن ماتت بعد صاحبتها ، وكانت العرب تَضْرِب بهما المثل في طول صحبتهما ، وقالوا في ذلك الأشعار ، وسيأتي هذا الكلام وما بعده في آخر الكتاب هـ .

قال رضي الله عنه : « **إذا تعارَضَ الدَّاعِيَان في الإنسان ، فيترجَّح أحدهما إما بحُكم شريعة ، أو بحُكم طبيعة أو عادة ، إما يرجِّحه هو بنفسه ، أو يرجِّحه له غيره ، وكل ما تحدَّث به نفسك مما لا فائدة فيه ، فاشتغِل عنه بلا إله إلا الله والذِّكْر والاستغفار** » هـ .

أقول : انظر هذا الكلام ما أبدعه وأبلغه وأغزر معانيه ، وغيره مما يصدِّق ما قال : « **كلامنا لا يعرفونه إلا عند متكلمه ، فإذا فقدوه فليأتوا بمن يقول لهم مثله** » هذا بمعناه كما نقلته من نَقْلِ ابنه السيد علوي بخطِّه عنه .

وقد كنت يوماً جالساً مع سيدي عبدالله وحْدَنا ، وما معنا أحد من الخلق ، فرأيته يفكِّر ساعة ، ثم الْتَفَتَ إليَّ *وقال* : « **لو أنَّ أحداً نظر إلى مخروجنا ومدخولنا ؛ لرأى مخروجنا أكثر من مدخولنا** » ، يعني ما يدخل علينا وما نُخْرِجه .

فعند ذلك خطر لي وقلت في خاطري : لأيِّ شيء يكون المخروج أكثر من المدخول ، كان ينبغي أن يكون أقل أو مثله لا يزيد عليه . فالْتَفَتَ إليَّ التفات المُزْرم اللائم لي على ذلك ، *فقال* : « **لا يكمل العبد أو لا يكون العبد كاملاً ، حتى يكون بينه وبين الله أسرار لا يطَّلع عليها الخلق** » ، فرضي الله عنه ما أكمل حاله ومقاله .

ومعنى ذلك أن هؤلاء الكُمَّل تَنْفَعِل لهم الأشياء من الأرزاق وغيرها وَتُيَسَّر من باب خرق العادة دون أسباب ظاهرة معتادة ، ولكن لا يريدون ذلك إلا بأسباب ظاهرة تحصل بها الأشياء ، فإذا

حَصَلَت تلك الأسباب ، وحَصَلَت تلك الأمور المطلوبة بها ، وحَصَلَ معها من باب الكرامة أكثر منها أضعاف كثيرة وكانت مستورة معها بتلك الأسباب ؛ فتظهر للناس تلك الأسباب ، ولا يطَّلعون على ما في طيِّها من الكرامات وخوارق العادات . فلهذا يُنفِقون من مادة تلك الكرامات أضعاف أضعاف ما يظهر للخلق من مدخول تلك الأسباب الظاهرة ، كما ذُكِر عن الشيخ عبدالله العيدروس أنه كان يُنفِق في عيد عرفة في كساوي عياله وخدامه نحو خمسمائة أحمر ، وما كان يحتوي بيته على أحمر واحد ، كل ذلك بهذا الوجه .

وأما في إنفاق سيدنا عبدالله الحداد نفعنا الله به ، فقد تغيب الشمس وما في البيت ما يتعشى به إنسان واحد ، وفي البيت نحو أربعين نفساً من عيال وعيال العيال والأخدام وعيالهم والفقراء القاطنين في الحاوي ، فما نصلي المغرب إلا وقد أمرنا بالدخول للعشاء .

وأخبرني رجل ثقة عن السيد سالم الشاطري بتريم قال : « تذمَّمْتُ يوماً لرجل من السادة ، وقلت له: بسم الله نروح البيت ، فجئنا البيت على أن هناك غداء كامل وحشمة ، فما وجدتُ غير ثلاثة خماسية، فاشتريت بها قِشْر وفعلتُ قهوة ، وما هناك شيء أغدِّيه به ، وإذا برسول سيدي عبدالله الحداد عكيمان ، قد أتاني من عنده بقرشين ، ونصف قهاول بُر ، وقهاول ذرة . فاشتريت رأس غنم وخبزنا من البُر وقدَّمناه مع لحم رأس الغنم ، وتَمَّ لنا الأمر » ، فانظر لمكاشفته لهذا الشريف واطلاعه على حالِهِ وإعانته في شدَّتِهِ .

ومرة أخرى يُخبِر بذلك المخبر عن السيد سالم المذكور قال : « دخل علينا شهر عرفة ، فلما كان يوم التروية ثامن الشهر ، والناس سيما السادة في بشبشة وسرور وعندهم ذبائح وانبساط ، وما أجد في بيتنا شيئاً نفرح به ونفرِّح به العيال ، وأنا لذلك في همٍّ وشغل بال ، وإذا برسول سيدنا عبدالله قد جاءني من عنده بثلاثة قروش حجر ، فاشتريت بذلك واشتريت لأهلي رأس ، أو قال رأسين غنم وبُر ، وعيَّدنا كما الناس » هـ .

قال رضي الله عنه : « **إذا أراد الله من عَبْدٍ أمراً ، أجراه على خاطره ، وأرسل عليه داعية إلى فِعْله ، وأنساه الأمر الآخر المقابل له ، ليمضي الله فيه ما أراده منه** » .

وقال : « **إن الله لم يجعل أسراره** - أو قال : ولايته - **إلا في من يصلح لذلك ، فإنه يؤهِّله له وينظِّفه ، فإذا صلح فعل ، فما كان إلى اختيار العبد فعلى التدريج ، وما كان إلى الله ففي لحظة ، كما إن أحدكم إذا أراد أن يضع شيئاً عزيزاً في مكان ، فإنه يَحُمُّ المكان وينزِّهه ثم يطرحه** » ، وربما قال : « **وإذا أراد للعبد خفَّف عليه ما هو باختياره ويسَّره** » .

وقال : « **العلم مع الرعونة** - أي الكِبْر - **وغيره لا ينفع ، كَوَضْع المِسْك على الوسخ ، وكان الأولون لهم حاجة إلى رياضة النفس** » هـ .

أقول : أي يرغبون فيها ويعتنون بها ، ويفعلوا بها لضرورة هذا الأمر لها وحاجته إليها ، لينظِّفوا نفوسهم من « **الرعونة** » ، وهي الأخلاق المذمومة كالكِبْر ، لتتأهَّل لِفَيْض العلوم اللدنية من باب الفضل والكرم .

وأركان الرياضة : استعمال الأمور الأربعة التي صار بها الأبدال أبدالاً ، وفيها قال قائلهم :

بَيْتُ الوُلايَةِ قَسَّمَتْ أَرْكَانَهُ ... سَادَتُنَا فِيهِ مِنَ الأَبْدَالِ
مَا بَينَ صَمتٍ وَاعْتِزَالٍ دَائِمٍ ... وَالصَّومِ وَالسَّهَرِ النَّزِيهِ الغَالي

ولسيدنا فيها قصائد متعددة ، منها في التائية :

وَكُنْ فِي طَعَامٍ وَالْمَنَامِ وَخِلْطَةٍ ... وَنُطْقٍ عَلَى حَدِّ اقْتِصَارٍ وَقِلَّةِ

وفي العينية :

وَالنَّفْسَ رِضْهَا بِاعتِزَالٍ دَائِمٍ ... وَالصَّمتِ مَعْ سَهَرِ الدُّجى وَتَجَوُّعِ

وفي الرائية الصغرى :

وبالرِّياضَةِ مِنْ صَمْتٍ وَمَخْمَصَةٍ ... مَعَ التَّخَلي عَنِ الأضْدَادِ وَالسَّهَرِ

وفي اللامية :

لَقَدْ عَلِمَتْ ذَوُو الأَلْبَابِ طُرًّا ... بِأَنَّ الخَيْرَ فِي طَلَبِ الكَمَالِ

بِفَطْمِ النَّفْسِ عَنْ مَأْلُوفِ حَظٍّ وَرَفْضِ الْفَانِيَاتِ بِلاَ احتفَالِ
وَفِي ظَمَأِ الهَواجِرِ وَاعْتِزَالِ عَنِ الأَشْرَارِ مَعْ سَهَرِ اللَّيَالي

وغير ذلك ، وما تعدَّد ذِكْره لها في القصائد إلا من شدة الإعتناء بها والحث عليها والمبالغة في شأنها، لتوقف ذلك الأمر عليها ، لتنظيف القلب عن قاذورات الأخلاق المذمومة ، والتي هي قاذوراته ووسخه التي يمتنع بسببها حصول مِسْك الأسرار ، ووَضْع العلوم اللدنية فيه .

ومرة ذَكَرَهَا فقال : « **يعني إذا دخلوا الخلوة ، وعملوا بهذه الأربعة الأمور ، حصل لهم فيها فتوح عظيم ، وجَرَت عليهم أمور ليست في طاقة البشر** » ، وسيأتي صورة لفظه .

قال رضي الله عنه : « **إنهم بَنَوا أمورهم على العلم ، ولكنهم يعلمون الأصول أولاً ، وإذا احتاجوا إلى الفروع النادرة يحصل لهم فيها فتوح من الله تعالى** » .

أقول : يعني كما قد قال غير مرة : « **إنا قد قرأنا قليلاً وطالعنا كثيراً ، وفُتح علينا بأكثر** » .

وقال في قول النبي ﷺ : « **من عمل بما يعلم** » ، *قال* : « **هو العلم الشرعي** » ، « **أورثه الله علم ما لم يعلم** » ، *قال* : « **هو العلم اللدني** » .

وقال : « **العالِم إذا لم يعمل بعِلْمِه ، لا يقال له عندنا عالم ، إلا أن يقال عالم فاجر ، بأن يوصَف بالفجور ، والجهل على هذا أسلم له ، وتقريبه مع هذا الوصف فيه هدم للدِّين أكثر** » هـ .

أقول : أي أكثر من نفع علمه ، فإن أكثر المفاسد الواقعة في الدين إنما حصلت من العلماء والفجرة، كما قال : « **ما أفسد على الناس دينهم إلا العلماء ، ولكن بعد فساد دينهم** » .. إلى آخر المقالة ، ومن فسادهم في الدين : أن أحدثوا فيه بيع العُهْدة للناس في المعاملات ، وهي ربا صريح ، وأَخْذ الأُجرة على العبادات ومن جملتها قراءة القرآن ، يحتجُّون بحديث : « **أفضل ما أخذتم عليه أجراً كتاب الله** » ، والأجر المراد به أجراً في الآخرة ، يعني أجرةُ أفضل أجور أعمالكم ، فأوَّلوا الأجر بالآخرة في الدنيا تلبيساً في دين الله وإضلالاً لعبيد الله . والإحتياط في العماية والضلال ، كإعادة الظهر بعد صلاة الجمعة على الصحة ، يرون هذا إحتياطاً في الدين . ويأكل أحدهم البعير بسنامه من الحرام، ولا يرون الورع والإحتياط في تركه ، فلا جرم لا ينفعهم احتياطهم ، بل هو ضرر عليهم ، وإنما تُعَاد الصلاة إذا تحقَّق بطلانها ، فمع تحقُّق صحَّتها لم تُعَدْ ، وإذا عَلِمَ أنه إنما يصلي صلاة باطلة

- التي هي الجمعة - فلا يجوز له يصلِّيها .

ولا عُلِم ذلك عن السلف الصالح ، وإنما ذلك تنطُّع من تأخَّر عن سَلَفِ الأمة ، وكل ذلك من بدع العلماء الفجار ، الذين ذَكَرَ أنه لا يُطلَق عليهم اسم العالم إلا مُقيَّداً بِوَصْفِ الفجور هـ .

قال رضي الله عنه : « **جامع التقوى : فعل الطاعات وترك المعاصي خشية من الله سبحانه ، ورجاء ثوابه وامتثال أمره** » هـ .

أقول : العبادة التي خَلَق الله الخَلْق لأجلها كما قال الله تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ على نوعين : أفعال ظاهرة وهي فعل الطاعات وترك المعاصي ، ومعاني باطنة وهو فعلها بالمعاني الثلاثة المذكورة : الخشية من الله ، ورجاء ثواب الله ، وامتثال أمر الله . وهذه الحالة هي التقوى، وهي أداء العبادة على الوجه الأكمل المرضي عند الله ، ولهذا أوصى الله بها جميع خلقه المؤمنين ، من الأولين والآخرين ، يعني هذه الأمة ومَن كان قبلها من الأمم ، وذلك قول الله تعالى : ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾، ولا يُعَدُّ الإنسان من كُمَّل المؤمنين إلا بها .

قال رضي الله عنه : « **كان الصالحون تُستر كراماتهم وقت حياتهم ، حتى عن من يطلع عليها قبل موتهم ، بحيث لم يفهموا أن ذلك كرامة إلا بعد موتهم ، وكذا قد تستر ما داموا في الدنيا ، حتى عنهم أهل الكرامات أنفسهم** » هـ .

أقول : لما كان الزمان في الوقت الأول صالحاً ، قد تظهر كراماتهم ويراها الناس ، ولكن مع ظهورها قد تستر عنهم بحسب حالهم ، حتى لا يعتقدونها كرامة ، ولا من يطلع عليها ويراها .

وقد ذكروا أن الولي على نوعين : منهم من يعلم أنه ولي ، فقد يراها كرامة ولا يضره ذلك ، والغالب أنه لا يراها كرامة . ومنهم من لا يعلم أنه ولي ، فلا يراها كرامة كغيره ممن يراها منهم من لا يراها كرامة إلا بعدهم . فقد رأينا من سيدنا عبدالله كثيراً مما لم يخطر في البال أنه كرامة إلا بعد وفاته، ولو لم يكن من ذلك إلا معرفته بدخول أوقات الصلوات - سيما وقت الفجر - قبل يعرفه الناس ، حتى إنه يعرفه ويركع سنة الفجر ، ثم ينزل إلى الضيقة ويجلس إلى أن يتبيَّن للجماعة الفجر ويركعوا السنة ، ثم يأتيه الخادم عكيمان يُؤذِنه للصلاة، فيدخل المصلى ، فحين يدخل تقام الصلاة . فهذه عادته وترتيبه دائماً كل يوم مدى الدهر ، كما هي عادة النبي ﷺ ، يجلس ينتظر الصلاة حتى يأتيه بلال يؤذنه للصلاة.

فكل أموره وأحواله وعوائده في عباداته وعاداته مؤسَّسة ومبنِيَّة على الكتاب والسُّنة ، على قَدَمِ الإقتداء بالنبي ﷺ ، لا يخرج عن ذلك قيد شِبْرٍ قط في جميع الأحوال ، حتى إني أراه كل يوم إذا سلَّم من الركعتين الأوليتين من الأربع الركعات التي قبل صلاة العصر ، أسمعه يقول : « **السلام على ملائكة الله المقرَّبين وعلى أنبياء الله المرسلين ، وعلينا وعلى عباد الله الصالحين** » ، ولا علمتُ لذلك أصلاً ، وأردتُ أن أسأله فَهِبْته ، وبقي في نفسي من ذلك شيء ، فمَرَّ علينا في قراءة من يقرأ بعد العصر في سنن أبي داود بإسناده إلى سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، عن النبي ﷺ أنه كان يصلي قبل العصر أربعاً يفصل بينهما بالتسليم على الملائكة المقربين وعلى الأنبياء والمرسلين ، وعلى عباد الله الصالحين . فتحقَّق لي بذلك تحقيق كمال متابعته لجَدِّه سيد المرسلين ، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين .

وربما أشكل على الجماعة معرفة الفجر ، لا سيما مع شدة ضوء القمر وقوة تراكم السحاب ، فإنه يصعب معرفته إذ ذاك جداً ، فيُعلمهم هو بأنه وقت ، فيركعوا السُّنة، فما يفرغون منها حتى اتضح الوقت في الحال . ولقد كُنَّا معه يوماً في السبير ، فركع في الغرفة ثم جاء إلى المسجد للصلاة ، وحينئذ هناك شدة ضوء القمر مع قوة تراكُم السحاب ، والجماعة حائرون في الوقت ، فقال لهم : « **اركعوا فإنه وقت** » ، فركعوا وما سلَّموا من صلاة السُّنة إلا والوقت واضح ، فأقيمت الصلاة .

فهكذا كان شأنه ، فأي كرامة عظيمة أعجب من هذا ، وكل أحد يرى ذلك منه ويعرفه ، ولم يخطر في باله أنه كرامة خارقة للعادة ، وإنما تبيَّن ذلك لكل أحد وظهر أنه كرامة بعد وفاته ، وعرف الناس أنه من أكبر الكرامات ، سيما للجماعة الملازمين للصلوات معه ، ولم يتبيَّن إلا بعد وفاته ، وسِتْره أيضاً من الكرامات ، وهذا مصداق لقوله في هذه المقالة .

وكل أحواله وأقواله وأفعاله وسيره كرامات ، لكن أين العقول التي تفهم ؟ فَدَيْت من يفهم ، وغير ذلك كثير مصداق لما قال نفع الله به . لكن افهم المعنى الذي كثيراً ما نشير إليه في أقواله ، فإنه قال هنا : « **كان الصالحون تستر كراماتهم .. إلخ** »، وها هو كما بَيَّنَّا لك من أقواله وأفعاله وأحواله كما نراه عياناً ، فاعرف بذلك أن الأمور التي يشير إليها من غيره ، أن كل ذلك تَوْرِية منه بذلك الغير ، وإنما المراد إنما ذلك هو ، وذلك لشدة رغبته في الخمول والستر ، كما حكينا عنه من قوله لما حكيت له من رؤيتي له في النوم في قصتنا في البحر ، لما أدركنا الغرق وأصابنا الطوفان من كل مكان ، وببركة رؤيته سلَّمنا الله وأغاثنا فقال : « **قال الشيخ عمر المحضار : نرد موسومتنا ولو هي بالصين** » ، فقال الشيخ عمر ذلك ، فورَّى سيدنا بنسبة القول إليه ، وإنما المعنى أن سيدنا هو الذي يقول لي بذلك ، كما قال الشيخ عمر . وكذلك أن سيدنا كان يوماً أزعله بعض الناس وغضب عليه ، فتكلم عليه كثيراً ثم

قال : « **قال الشيخ عبدالله** - يعني العيدروس - : **كان في تريم أسود تنهم وما بقي اليوم إلا هذا الأسد النَّهَّام** » ، يعني نفسه ، وكذلك سيدنا وَرَّى به .

وقوله : « **إن أهل الكرامات من الأولياء قَلَّ ما يظهرونها في هذا الوقت** » ، وفيه أيضاً تورية ، ويعني ذلك أنَّا نحن أيضاً قَلَّ ما نُظهرها ، كما تقدَّم من قوله : « **إن أهل الزمان ما يستاهلون إظهار الكرامات ، لو ظهرت لهم لم ينتهوا عن غَيِّهم ولم يُقِرُّوا ، بخلاف أهل الأزمنة الماضية** » .

وقوله : « **قد كان الصالحون تستر كراماتهم** » ، وفيه تورية ، ومعنى ذلك أي ونحن كذلك ، كما بَيَّنَّا مما ظهر لنا من ذلك بعد وفاته مما خَفِيَ أيام حياته ، وما لم يظهر لنا ولغيرنا أيضاً أكثر ، وغير ذلك مما لم يمكن حَصْره مما ورَّى به ، كما ترى منه كثيراً في هذا النَّقل ، وقد نَبَّهنا على المعنى المذكور عند كل لفظة يرد فيه ذلك .

وقوله : « **حتى عنهم أهل الكرامات أنفسهم** » ، لعل ذلك مبني على علم الولي بكونه وليًّا ، فيطَّلع على كرامات نفسه ، وإن لم يعلم بولايته لم يطلع على كرامته ، كما ذَكَرَ ذلك بمعناه الشيخ أبوبكر بن سالم في كتابه « معراج الأرواح » وغيره ، وفي نَقْلِنَا هذا من كلام سيدنا ما يشير إلى ذلك ، وقد يكون أخفاهما - أعني الولاية والكرامة - عن الولي وعن غيره ، وقد يكون ذلك عنه ويطلع عليه من هو أكمل منه ، وقد يكون إخفاء الكرامة عنه وإن كَمُل وعلم هو بولايته لأمرٍ يريده الله ، والله أعلم هـ .

قال : « **من اصطنع معروفاً إلى من يخاف من لسانه ، نُظر إلى اصطناعه إلى أهل الخير والمستحقِّين ، فإن كان نحو تسعة أعشاره ، وإلا فهو رياء وكذب** » هـ .

أقول : قوله : « **تسعة أعشاره** » ، يعني إذا ادَّعى أن له نية خالصة لله في ما يعطيه لمن يخاف لسانه ، فإن كان ما يعطيه لأهل الخير والمستحقِّين مثله تسع مرات ، بأن يكون ذلك قدر العُشر ؛ **فهو صادق في دعواه ، وإلا فهو رياء وكذب في دعواه ذلك** هـ .

قال رضي الله عنه : « **أهل الزمان تغلب عليهم العادة ، سواء صلحت أو فسدت ، لأنهم عدموا من يقتدون به من الأخيار ، فبقوا على آرائهم ، وهذا الزمان قليل الأخيار ، من أخيار الدين وأخيار المروءة**» هـ .

أقول : مفهومه أن الزمان كثير الأشرار ، أشرار الدين : أي الفسقة والظَّلمة والفَجَرة ، وأشرار المروءة : أي اللئام أهل الشح والبخل الزطوط الغدرة ، قَطَعَ الله دابِرَ الكل ، لأن أهل هذه الأوصاف

من أصناف الناس مع كُمَّل المؤمنين ضدان متلازمان ، إذا فُقِدَ أحدهما وُجد الآخر .

وأهل هذه الأوصاف الخبيثة هم اليوم أكثر أهل الأرض ، ولو لم يَبْقَ من هذه الأمة من أهل الخير في جميع أقطار الأرض إلا واحد ، لصَدَقَ عليها أن الخير فيها باق لم ينقطع ، وصدق به قول الملائكة والنبيين : « أبشر يا محمد ، فإنا نرى الخير فيك وفي أمتك إلى يوم القيامة » ، ولو لم يَبْقَ على الحق المرضي عند الله من هذه الأمة على وجه الأرض كلها إلا واحد ، لصَدَقَ به عليها ، أنها لم تجتمع على ضلالة، وصدق به قوله ﷺ : « لم تجتمع أمتي على ضلالة » ، فضلاً عن أنه قد صَحَّ عنه ﷺ أنه قال: « إن طائفة من أمتي ، لم تزل قائمة على الحق لا يضرها من خالفها ، حتى يأتي أمر الله ، حتى إنهم ليقاتلون المسيح الدجال » ، فهكذا وَعَدَ به الصادق الأمين ، كما جاء عنه في الأحاديث الصحيحة ، كما في الصحيحين وغيرهما . وسئل عليه الصلاة والسلام عن تلك الطائفة : « من هم ؟ » ، فقال : « الذين هم على ما أنا عليه وأصحابي » ، يعني في العقائد والأعمال والأخلاق ، يعني عقيدة أهل السُّنة التي قرَّرها الإمام الغزالي في عقيدته في الإحياء ، وأعمالهم من صلاة الجمعات والجماعات ، وإقامة الصلوات والزكوات، ومباني الإسلام كلها ، وجميع الطاعات من الأعمال والأقوال ومكارم الأخلاق وترك سفسافها .

وإنما مراد سيدنا أن الناس اليوم اختلَفَت أحوالهم في الديانات والمروءات والعادات الحسنة إلى ضدها عن الحال الأول ، وذلك لِقُربهم من قيام الساعة ، وكونهم أقرب إليها من أهل الزمان المتقدِّم ، وهكذا كلما قربوا منها نزلوا ، وذلك موعود به من عند الله تعالى على لسان رسوله الصادق الأمين : « إن الناس لم يزالوا يتناقصون في دياناتهم ومروءاتهم وتقواهم ومحاسن أحوالهم وأفعالهم ، حتى لا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق » ، وقد بَيَّنَ الإمام السيوطي كيفية نقصهم ، وَمَثَّلَ له فقال : « عند قرب قيام الساعة إذا تكامل نقصانهم ، يقوم الرجل لزوجته فيجامعها والناس ينظرون فما أحد ينهاه غير رجل كان أطيبهم يقول له : مِلْ من هنا أو من هنا لا يراك الناس ، فلا يطيعه ، ثم ينقصون أيضاً عن ذلك ، حتى يقوم الرجل إلى المرأة الأجنبية فيجامعها بالزنا بين الناس وهم ينظرون ، فلا أحد ينهاه ، فعند ذلك تقوم الساعة » ، أي ينفخ النفخة الأولى التي يموت بها كل حي .

يعني أن هذه الحالة غاية الفساد والنقص في الدِّين ، وورد : « لا تقوم الساعة حتى يتهارج الناس تهارج الحُمُر » ، فهذا الحال منهم هو تهارج الحُمُر ، أي يرتكبون الزنا جهاراً بمرأى من الناس ، كَفِعْل الحُمُر المتراكبة ، حتى وَرَدَ أنهم يرجعون إلى عبادة الأصنام .

وتلك الطائفة المتَّصفة بالحق مع كل هذا الفساد في الزمان ، وهي على ما هي عليه من الإستقامة، لا يضرها ذلك شيئاً ، وكل هذا التناقص إنما هو فيما يتعلق بأحوال الخلق مما يتعلق بمعاملاتهم مع ربهم ، ومع بعضهم بعضاً فقط ، وهذا من جملة تدبير الله تعالى في خلقه وحكمه وتقديره ، وتخصيص

كل مقتضى بوقته ، حتى قضى أشياء من أحكامه الشرعية وخصَّصها بأوقات تأخَّرت عن وقت ما شرع فيه أحكامه في وقت نبيه ﷺ ، كما أظهر أحكام البغاة في وقت سيدنا علي كرم الله وجهه ، وأظهر أحكاماً في وقت سيدنا عيسى إذا نزل من السماء ، كوضع الجزية عن أهل الكتاب ، ولم يقبل منهم إلا الإسلام وإلا قوتلوا ، وكَسْره الصليب وقَتْل الخنزير . وقد شرعها على لسان نبيِّه وأجَّلها إلى تلك الأوقات ، وكذلك ما وعد الله به رسوله من نَصْر دِينه وإعزازه ، وفتح كبار الأمصار كفارس والروم ومصر وغيرها ودخولهم في دِينه ، وأظهر ذلك في أوقات أصحابه رضي الله عنهم .

وكذلك في جميع المقدرات من المقضِيَّات التي أجَّلها إلى أوقاتها ، فما من نَفَسٍ نُبْدِيه إلا وله تعالى فيه قدر يبديه لا يبتديه ، فقضى هذه الأمور وقدَّرها في هذه الأوقات ، وإن خصَّ سبحانه تلك الطائفة الشريفة لشريف الأحوال في أوقات الظلمات المنعكسة فيها أمور الخير إلى أضدادها ، على ما اقتضته إرادته وعجيب حكمته . وأما ما يتعلق بالقدرة الإلهية والإرادة الأزلية ، فكل شيء على ما هو عليه ما اختلف عن حاله ، ولا يختلف ما دام هذا العالم ، حتى يأتي أمر الله .

ويجب على الإنسان العاقل الراغب في الخير الكاره للشر ، إذا رأى التناقص في هذه الأمور - سيما الديانات والمروءات - أن يرفع نفسه عن النقص في أمر دينه ومروءته إلى الكمال فيهما ، لأن الكامل مِن الخلق من كَمُل فيهما ، والناقص من نقص فيهما ، ولا يرضى لنفسه بنقص الحظ في الخير ، ولا ينجذب إلى النقص بِمَيْلِ طَبْعِهِ لمخالطته لأهل وقته ، ويدعو إلى الكمال من ساعده من أولاده وأهله وأقاربه ومن يُشفِق عليه ، فلعله إذا كَمُلَ أن يلتحق بتلك الطائفة المبجَّلة ، أو كملوا أن يلتحقوا بها ، ويلوم نفسه ويذمها على التقصير في ذلك ، ويلوم غيره مما خالف ذلك ويُعِينه عليه ويدعوه إليه ويحثّه عليه .

وهذا شأن سيدنا عبدالله نفعنا الله به ، ومقامه وحِرْفَتِهِ وسِيْرته ، ولهذا تكرر منه في كل كلامه ذِكْر أحوال أهل النقص والتقصير وذمهم ، ومَدَح أهل الكمال في الدين والمروءة ، ويرغِّبهم في ذلك ، وحثَّ المقصِّرين عنهم أن يجتهدوا في اللحوق بهم والعمل بعملهم ، وذلك كما سيأتي قوله للسيد محمد بارقبة : « **الله الله في المعروف والصدقة ، واقتد بجَدِّك عبدالله باعلوي ، فهذا هو العيش لا غيره** » ، في كلام كثير يوصيه ويحثُّه على الخير والمعروف والإقتداء بجدِّه السيد عبدالله ، وكان هذا السيد محمد كثير المال ، ومن أغنياء أهل البلد ، ولذلك حثَّه على ذلك .

وكان سيدنا عبدالله بن علوي بن الفقيه المقدم كثير المعروف والصدقات ، وكان يتلمَّس بطون صغار أولاد جيرانه ، ويسألهم : « هل عندكم عشاء ؟ » ، فإن قالوا : لا ، أمر لهم بكل ما يحتاجون إليه. وأُخبر ليلة أنهم باتوا بلا عشاء ، فراح إليهم ولامَهُم وخاصَمَهم وقال لهم : « الله لا يحلّلكم إن تناموا طاويين ولا تخبرونا أتريدون أن يخسف الله بنا حيث تباتون بلا عشاء ، وأنتم جيران لنا » ، وتصدَّق

على مسجد آل باعلوي بصدقات جزلة جمّة ، وأوْقَفَ في السوق القفَّان لمصالح المسلمين ووكل به جماعة ، وأوقف عليهم لذلك نخلاً .

هكذا كان دعاؤه سيدنا إلى التشمير ، لكن من وراء تدبيرنا لله تدبير .

وذَكَرَ النخل **فقال** : « **إن النخلة تقول : اعطني ، أعطك . والمعطي حقيقة إنما هو الله ، وقد عجز الناس إذ قد حصلت عليهم أمور** » هـ .

أقول : أي حصل عليهم ظلم شديد من الولاة ، حتى عجزوا عن القيام بها .

ومَرَّ في الترمذي أحاديث القدر ، **وقال** : « **هذه الأمور تُعتقد ، والعمل أمر آخر غيرها . فالإعتقاد غير العمل** » .

وأمر منشداً يوم الإثنين بعد القراءة ثاني عشر ربيع ثاني سنة ١١٣٢ ، فأنشد بقصيدة للبرعي ، فلما فرغ من الإنشاد **قال سيدنا** : « **سمعنا فيما سمعنا ، ولكن لعله لم يصح ، أن له من النظم ثلاثة آلاف قصيدة : ألف في الإله سبحانه ، وألف في النبي ﷺ ، وألف في الصالحين . وأول الأمر كان يمدح النبي ﷺ ، ولا له شيء في الإله فرأى النبي ﷺ في النوم يقول له : يا عبدالرحيم ، إن الرب غيور . فأنشأ القصائد الإلهيات ، وكل ما مع الأنبياء والمرسلين والصالحين وسائر الخلق إنما هو من فضله سبحانه. وأين الأمور الإلهية من مدارك الخلق ؟ إنما يرمز إليها ويمثل لها لتُعرف ، وما هي إلا محبته وطاعته والنصيحة له** » .

أقول : أي في عبادته ، ومراده ما مع الخلق من جانبه الذي يقدرون عليه إلا محبته وطاعته ، والنصح في القيام بحقّه في عبادته ، بأن يكملوا في فِعْل ما يُرضِيه والرضا بما يفعله ، والذي يُرضِيه فِعل جميع أوامره وتَرْك جميع نواهيه ، والرضا بكل ما يفعل من كل ما تكرهه النفس من طبعها .

وذَكَر الشيخ عبدالقادر رضي الله عنه وأحواله ، **فقال** : « **هذه الأمور إنما هي من أمور الآخرة ، لأنهم جاهدوا أنفسهم وراضوها ، وفعلوا أشياء دونها الموت ، مخلصين فيها لله** » .

وذَكَر رؤياه المشهورة في باعلوي ، وهي أنه رأى الشيخ علي بن أبي بكر في المسجد ، وفيه أيضاً جماعة من السادة من جملتهم أخوه الشيخ عبدالله بن أبي بكر، فقال الشيخ علي لأخيه الشيخ عبدالله : «

هناك رجل يريدك » ، يشير إلى الرائي سيدنا ، قال : « فجاء إليّ » ، إلى هنا حد ما ذَكَر . وسمعنا عن من عنده من ذلك علم : أنه أعطاه الطريقة ، وأخذ عنه وأعطاه أمانة ، على كيفية ما سمعنا عنه في الواقعة عند قبره .

وقلت لسيدنا يوماً : لو أن رجلاً اجتمع ببعض المشايخ ، ولم يكن معه إذ ذاك هِمَّة في العبادة ، فبعد مفارقته للشيخ حصل له باعث العبادة ، هل يكفيه اجتماعه بذلك الشيخ عن لقاء شيخ بعد ذلك ، ويكون ذلك شيخه وهو تلميذه وينسب إليه ؟ فقال : « **نعم ، يكفيه ذلك ويكون شيخه وهو تلميذه . والطريق معروفة ، ولا عليه إلا أن يسلكها ، والفتوح من الله يأتيه** » .

وتقدم قوله : « **إن الله لا يترك المؤمن من إحدى هِمَّتَيْن : إما هِمَّة العادة ، أو هِمَّة الفتوح .. إلخ** » .

وقال : « **الفلاني إذا أراد يسير إلى بلاده نأذن له أن يحكِّم لنا ، لا لنفسه ، ويُلبس الخرقة ، ونحن ما أذِنَّا لأحد أن يُلبِس مطلقاً ، بل يُلبِسوا من أرادوا من أهلهم وأولادهم** » ، وتقدَّم ما رأيته في النوم بقوله وهو في جَمْعٍ : « **فلان مُهَيَّم القلب .. إلخ** » .

قال رضي الله عنه : « **من لم يزهد في الدنيا كيف يطلب الجنة ؟ فترى الإنسان يحزن على فوات لقمة أو خرقة ، وعاده يحدِّث نفسه لحصول الجنة ، فإن مثل هذا لم يكن متأهِّلاً للجنة** » هـ .

أقول : ظاهر هذا أنه لم يتأهَّل لدخول الجنة إلا كاملٌ في الزهد في الدنيا وفي شهواتها ، جَلَّت أو قَلَّت ، ولكن فضل الله يبلِّغ من قَصُر عن ذلك إلى فضل الله لمن أراد بها أراد هـ .

قال : « **ينبغي لمن طلب العلم أن يتعلم المسائل التي تقع غالباً ، فإن حصلت مسألة لا علم عنده فيها ، فيأخذها من الكتب إن أحسن أن يأخذها منها ، وإلا سأل عنها العلماء أهل الدين** » .

قال : « **أكثر زلَّات أهل الزمان في ألسنتهم ومعاملاتهم الفاسدة ، ويظن أحدهم أنه يتعدَّى شجرة إلى فوق يريد الجنة ، وعاد العلم وعاد العمل ، وإذا نظر الإنسان إلى أهل طبقتَيْن وتفاوتهم ، يرى بينهم بُعْداً ، حتى إنهم ما يتعارفون . فإن الزمان إلى نزول** » .

وذُكِرَ عنده جملة من صالحي الزمان ، فما أعجبه حالهم بالنسبة إلى صالحي الزمان المتقدم ، فجرَّحهم: « **بأن فلاناً يجيء عند الدولة ، وفيهم كذا ، وكانوا أهل يقظة وانتباه . وقد كان بعض**

الصالحين له صاحب ، فرأى أنه يناوله شيئاً يأكله، فتأمله فإذا هو خري الجرذان ، فحكى له ، فقال : نعم ، إن لنا جماعة مالهم غير حلال، يجيبون لنا شيئاً فنرده ، ولكن قد دخَّنتك بشيء من دخونهم . ثم امتنع منه ولا عاد عالَقَه ولا صارَمَه » .

وقال له رجل : « خاطركم ، ادعوا للناس بالرحمة ، فإن الدواب أدركها التعب » ، *فقال* : « **لعل الرحمة تحصل لأجل الدواب ، فإن في بعض الأخبار : إنما يُسقى الناس بسببها ، لعدم تكليفها . ولو رحموا لم يرجعوا إلى الطاعة ، فقد كانوا إذا قحطوا يشغلهم أمر المعاش عن الذِّكْر والطاعة ، وما مطلوبهم إلا السلامة من ذلك ليتفرَّغوا لهما . وأما اليوم فلا ، ولكن ادعوا ربكم فإنه كريم رحيم ، إن أعطى أعطى برحمة ، وإن مَنَع ؛ مَنَعَ بِحِكْمَة** » هـ .

أقول : يعني أهل الورع لا أهل الطمع ، لأن الطمع ذهاب الدِّين ، والورع مِلاك الدين - أي عمدته واستقامته - ، كما في قصة سيدنا علي مع الحسن البصري لما دخل جامع الكوفة ، فرأى قُصَّاصاً كثيراً ، وعند كل واحد منهم جماعة يقُص عليهم ، والحسن من جملتهم ، وعنده جماعة يستمعون لما يقول ، فسمع سيدنا علي كلامهم ، فما أعجبه كلامهم غير الحسن ، فأعجبه كلامه ، فترك الحسن وزَبَرَهم وأقامَهُم عن المسجد ، فسأل الحسن ليرى ما عنده من العلم ، فقال له : « ما مِلاك الدِّين ؟»، قال : « الورع » ، قال : « ما ذهاب الدين ؟ » ، قال : « الطمع » ، فأعجبه جوابه ، فقال له : « مثلك يصلح أن يفتي الناس » . وإنما أعجبه لما رأى في كلامه من الكلام الحق المخلص لوجه الله ، فسمعه يزهِّد في الدنيا ويرغِّب في الآخرة ، ويبيِّن علامات الإخلاص ، ويذكر آفات الأعمال ونحو ذلك ، فأعجبه . وهذا هو الفقه الأكبر الحقيقي ، كما قال الحسن لفرقد السنجي لما أفتى في مسألة ، فقال له فرقد - أي للحسن - : « الفقهاء يخالفونك في ذلك » ، فقال له : « ثكلتك أمك فريقد ، وهل رأت عيناك فقيهاً قط ؟ إنما الفقيه من رهب الله في سمائه ، ورضي بقضائه ، وشكر لنعمائه ، الزاهد في الدنيا الراغب في الآخرة ، القائم ليله الصائم نهاره ، الذي لا يداري ولا يماري ولا يرائي ، ينشر حكمة الله في خلقه، وإن قُبِلَت منه حمد الله ، وإن رُدَّت عليه حمد الله ، فهذا هو الفقيه الحق » .

فمثل هذا هو الذي أراد سيدنا بقوله : « العلماء أهل الدين » ، لا علماء الدنيا الذين يبذلون علمهم ودقائق علمهم في محصولها ، وكيفية استخراج الحِيَل في تحصيلها ، وينصبون لها الحِيَل والشبكات في قنصها ، مالاً وجاهاً بجاذب النفوس الرذلة وتلبيسها لتحصيل ذلك ، كما أشار سيدنا إلى معنى ذلك في قصيدته ، يصف به نفسه ويذمها به ، وهو شأن أهل الكمال ، ولو كملوا لفعلوا ، ولو أُريد لهم لنالوا ، ولكن ما كل أحد ممدوداً بالتوفيق ، قال سيدنا :

يَا وَيْحَ نَفْسِيَ الْغَوِيَّهْ عَنِ السَّبِيلِ السَّوِيَّهْ
أَضْحَتْ تُرَوِّجُ عَلَيَّهْ وَقَصْدُهَا الجَاهُ والمَالْ

أي تُلَبِّس عليَّ بدعوى الصلاح ، وإنما قصدها ما ذَكَر ، وهذا اتهامٌ لنفسه وهو عين الكمال ، وهذا خلاف حال الراضين عن أنفسهم ، وهو عين النقص ، وهو حال غالب علماء وقتك كما تراهم من اعتقادهم في أنفسهم الكمال ، وربما تكلموا بذلك ، فلا يظن بنفسه ظن السوء إلا الكامل من الكُمَّل من الرجال ، وأما أهل الصنف الآخر من العلماء الذين نهاك عن سؤالهم ، فهم عبيد مملوكون لنفوسهم، لا يحيدون عن مخالفتها طرفة عين .

وإذا أردت أن تعرف الفرق بين الفريقَيْن ، فإن علماء الدين أهل الحق قد تطلب على أحدهم نفسه شهوة ، فلا يجيبها إليها وهو يقدر عليها ، ولو مكثت تطالبه خمسين سنة ، وبعضهم ترك أحب الأشياء إلى نفسه جملة كافية ، كالشيخ عمر المحضار نفع الله به ، ترك أكل الرُّطَب أربعين سنة ، فقيل له في ذلك فقال : « إنه أحب شهوات نفسي إليها ، فتركته لله » . وأما الصنف الآخر من علماء الدنيا ، فلو طَلَبَت نفسُه عليه شيئاً ولم يقدر عليه سعى في تحصيله بكل ممكن ، إلى أن يبلغها مرادها . ونوع آخر من هؤلاء لو وَجَدَ ما تطلبه عليه نفسه أعطاها ، وإن لم يجده إلا بسعي تأخر عنه ، وتركها عجزاً لا لله ، فهم أشبه وأقرب إلى أهل الكمال من أولئك وفيهم يقال : « أفضل العصمة أن لا تقدر » ، وأحسن أحوال أولئك الذين يُبلِّغون نفوسهم مرادها أن يكون ذلك حلالاً لا حراماً .

ففرق بين الصنفَيْن من العلماء - علماء الدين وعلماء الدنيا - على أن هنا أقواماً يعدون أنفسهم أنهم من كبار الصوفية ، ويعتقدون في أنفسهم أنهم أصلح الصلحاء ، يسعون في تحصيل المال الحرام بكل ممكن ، ولا يرون فرقاً بينه وبين الحلال ، وإنما الحلال عندهم ما حلَّ بأيديهم ، والحرام ما حرموه ، ولا يردهم عن الحرام إلا العجز ، لا الورع والتقوى ، ويُلَبِّسُون على الناس يدَّعون الصلاح ، فهم السبب في فساد الدين وخراب الأرض ، كما قال : « **ما أفسد على الناس دينهم إلا العلماء ، ولكن بعد فساد دينهم** » ، يعني هؤلاء الصنف .

فكيف يعتمد على قولهم وفتواهم في الأمور الدينية الإحتياطية ، فلهذا أَمَالَكَ عن سؤالهم ، كون العلماء المسئولين عن الدِّين من أهل الدِّين ، وهم أهل الصنف الأول الموصوفين بما ذَكَرَ من الورع والتقوى والإحتياط ، لا أهل الصنف الآخر أهل الطمع واتباع شهوات النفوس ، على ما ذَكَرَ من وَصْفِهم ، فإلى هذا الوَصْف المذموم انقلب الناس عن الدين ، وعَزَّ أوصاف أهله من أهل الصنف الأول إلى أحوال أهل الصنف الآخر ووَصْفِهم ، وتحقَّق لك قوله : « **في هذا الزمان انقلبت الأمور**

عن أوضاعها ورجعت إلى أضدادها » ، فهكذا كما رأيت وسمعت من تغيرها عن أصلها إلى ضدها .

وهذه الكلمة من بديع كلامه ، كما تراها صَدَقَت في أمور وأحوال وأشخاص، فهكذا صدقها في أمور الديانات بعدما كانت يطلب بها وجه الله وامتثال أوامره وطلب ثوابه ، كيف صارت اليوم يطلب بها الدنيا لبعض الناس وفي بعض الأحوال . وصَدَقَت أيضاً في أمور المروءات ، أن الرجل كان معروفاً بالمعروف والسماحة والمروءة وحسن الظن في الصالحين ، كيف هو بنفسه اليوم على العكس من ذلك من عدم المعروف وقلة المروءة ووفور الشحاحة المفرطة ، وسوء الظن بالصالحين . وكذلك صَدَقَت كَلِمَته هذه في انعكاس الأمور ، أنك ترى الرجل من ذرية ناس أخيار وأولياء وزُهَّاد في الدنيا ، كيف صار اليوم يشح بالواجب وبأقل شيء ، إلا لهوىً تدعوه نفسه إليه لبعض الناس ، ويتكالب مع كلاب الدنيا عند الحكام على النزر الحقير ، ويتلاغا معهم على الشيء اليسير ، لا يسوى كلمة واحدة .

فانظر كيف تغيَّرت هذه الأشياء عن أوضاعها إلى أضدادها ، وترى الناس عَمَّال ينقصون عن أفعال الخير وعوائد المعروف إلى عوائد الضرر ، ويزيدون في هذه وتَضْمَحِل منهم ، وفيهم الخصال المحمودة ، وتحدث فيهم وتزيد الخصال المذمومة طبعاً ومروءة وشرعاً ، كما ترى ذلك في تزايد من خصال الشر ، وتناقص من خصال الخير ، وهكذا إلى قيام الساعة ، حتى لا تقوم إلا على شرار الخلق .

وتصدق تلك الكلمة أيضاً على معانٍ كثيرة جداً ، أكثر مما ذُكِر بكثير ، كما تظهر لمن تأمل في تغير الأحوال بمرور الزمان في أحوال وأشخاص وأوقات ، وقد أشار إلى الأمور الحادثة في هذه الأزمنة مما تَسْتَنكِرها النفوس وتمجها الطباع ، فقال : **« لو أَخبرتُ عن هذه الأشياء التي وقعت قبل وقوعها أنها ستقع ، ما صُدِّقت بذلك »** ، ومرة قال : **« لو أخبرنا رجل أن الزمان يصير على هذه الكيفية ، ما صدقه الناس »** .

وَذَكَرَ له بعضُ السادة ليلة بعد الراتب بعضَ الفقراء من المتعلقين ببعض السادة آل باعلوي ، ثم قال الرجل : « ما عادهم من الفقراء إلا كذا » ، وذَكَرَ كلمة تُشْعِر بنقصهم ، ***فقال سيدنا*** : **« كلهم هكذا بمثابة واحدة على هذا الوَصْف في صور فقراء، وهِمَمهم هِمَم الرعاع ، وكان الناس بالعكس صورهم صور رعاع ، وهِمَمهم هِمَم فقراء ، فانظر كيف انعكس الأمر ، لكن عسى اللطف ، عسى اللطف »** .

هكذا كررها مرتين ، ***ثم قال*** : **« هذا بسبب النزول ، فإن الزمان ينزل إلى أسفل ، وما زال الناس في نزول من أعلى إلى أسفل وما بينهما ، فالعلو لأهل العلو ، والسفل لأهل السفل ، ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ٦﴾، وكل هذا ليعمر الله سبحانه بهم الآخرة ، فكما عَمَرَ بهم الدنيا،**

كذلك يعمر الله بهم الآخرة » ، إلى هنا تَمَّ قول سيدنا .

والشريف الذي يخاطبه السيد محمد بارقبة الذي تقدَّم ترغيبه له في المعروف ، وكما هو شأن السيد عبدالله باعلوي ، وكان هو من ذريته ، وذَكَرَ له شيئاً من وَصْفِه ليرغِّبه .

أقُولُ : وأول النزول كما يشهد لقوله ، ما جاء في الحديث : أن النساء كُنَّ يصلين مع رسول الله ﷺ صلاة الفجر في صفٍّ منفردين وحدهنَّ عن الرجال ، وبعد الصلاة يخرجن في غَلَسٍ لا يُعرفن، ومنهنَّ أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، فلما كان بعد رسول الله ﷺ أرادت أسماء تخرج لصلاة الصبح في الجماعة على تلك العادة ، فأراد زوجها الزبير منعها من الخروج ، فأبت وقالت : « لا أقطع عادة تعودتها مع رسول الله ﷺ » ، فقال لها : « إن الناس اليوم ليسوا كالأول » ، فلم تمتنع ، فوقف لها في محلٍّ مظلم ، فلما خَرَجَت تريد البيت ، قبض على ذراعها وعصره ، فحاولت أن تنفكَّ منه وخجلت أن يراها أحد ، ثم تركها ومضت ، ثم بعد ذلك تركت الخروج ، فقال لها : « ما منعكِ أن تخرجي ؟ » ، فقالت : « الناس اليوم فسدوا » ، وأَخْبَرَتْهُ أن رجلاً قبض يدها ورآها خجلة جدًّا ، فقال لها : « هوِّني عليك ، أنا الذي عصرت يدك » ، فاستراح خاطرها واستمرَّت على عدم الخروج وقالت أختها عائشة رضي الله عنها : « لو علم رسول الله ﷺ ما أحدث النساء ، ما ترك امرأة تخرج إلى المسجد » .

وهكذا الزمان من ذلك الوقت ما زال يتناقص إلى اليوم إلى يوم القيامة ، ولهذا قال سيدنا : « **ولما رأينا الزمان يتناقص من ذلك الوقت إلى الآن ، بَنَيْنَا أمْرَنا في الإبتداء على ثلاثة أمور : أن لا نكون تحت أحد ، ولا يكون أحد تحتنا ، ولا نفيد ولا نستفيد إلا مِن مُتأهِّل للإفادة والإستفادة** » ، ومرة ذَكَرَ مثل هذا وقال : « **أن لا نتحكَّم لأحد ولا نُحَكِّم أحداً ، ولا نفيد ولا نستفيد إلا من متأهِّل للإفادة والإستفادة** » ، وهو مذكور هنا في غير هذا الموضع .

ومن اختلال الزمان ورجوع الأمور فيه عن أوضاعها إلى أضدادها ، بعد ما كان الناس – سيما المتشبهة بطلب العلم – على التقلل من الدنيا ، إما زهادة أو قناعة ، صاروا اليوم – سيما المتنسبين إلى العلم – يتهافتون تهافت الفَرَاش على النار على خمسة أنواع من المال ، يظنون أنهم يأكلونها ، وإنما هي تأكلهم : أولها : التولي على ثلث ميت ، وقد سمعت رجلاً يقول لسيدنا عبدالله نفع الله به: « يا سيدي، أشكو إليك أنه لا يعيش لي ولد » ، فقال له : « **هل عندك ثلث ميت متولٍّ عليه ؟** » ، قال : « نعم » ، قال له : « **من هو متولٍّ على ثلث لا يعيش له ولد، وإن عاش له ولد لا يكون فيه بركة** » ، ولقد رأيت أناساً كان الرجل منهم متسبِّباً في طلب الحلال ، وعليه أثر الغنى ، ويفد منه معروف كثير للضعفاء والمساكين والمحتاجين ، ثم تولى ثلثاً ، فأكله الثلث حتى افتقر وصار لا يفد من المعروف ، لا قليل ولا كثير ، فهذه المشاهدة تكفيك عن الخبر .

ثانيها : أموال الوظائف والأوقاف المعينة على شيء ، كأوقاف المساجد يتهافتون عليها ، ويطلبونها على ظن أنهم يأكلونها ، وإنما هي تأكلهم ، قال بعضهم : « ما رأينا رجلاً قط استغنى من الوظائف ، بل الفقر بادٍ عليهم أكثر من الفقراء الذين لا يملكون شيئاً » . ثالثها : أموال التولِّي على أموال الأيتام، إذ لا بركة فيه ، بل الشر فيها أكثر ، والضرر من ذلك غالب مما يضر في الدين والدنيا والآخرة كما هو مشاهَد. رابعها : الأموال الحاصلة من أيدي الحكام والسلاطين والأمراء ، فقد كانوا في أموالهم الحلال هو الأغلب ، وكان أهل الورع يتوقون من أموالهم جهدهم ، مع أن العبرة بالغالب ، فما بالك بسلاطين هذا الزمان الذين لا يُعرَف عندهم الحلال، فقدِّر أن علماءهم لا ورع فيهم عن الحرام ، أما يخشون من السُّم القاتل الذي فيه ، فإن المال المتحقّق حُرمته فيه سُمٌّ يُذهِب للعقل والجسم ، مع إذهابه للدِّين أيضاً. خامسها : مال الصبرة ، وهو شرٌّ طالما فيه من تلبيس الحرام بالحلال ، واعتقاد حلّيته ، واعتقاد حل ما أُجمع على تحريمه كفر ، لكنهم لَبَّسوا عليه بصورة الحق على الباطل ، وظنوه يَسْلَم بذلك، ولا سَلِمَ منه ، قال بعضهم : « ما عنى النبي ﷺ بقوله : لعن الله آكل الربا وموكله وكاتبه ، إلا هي ، فإنه ليس في نوعٍ من أنواع الربا أكل وموكل وكاتب غيرها » ، وأشار في الحديث لعمومها فيما سيأتي من الزمان بقوله ﷺ : « سيأتي زمان لا يبقى فيه أحد إلا أكل الربا ، فإن لم يأكله أصابه من غباره» ، لا جزاه الله خيراً من سَنَّها للمسلمين ، فقد قال ﷺ : « مَن سَنَّ سُنَّة سيئة في الإسلام فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة » ، فكم فَوَّتَت من أموال وكم غَيَّرت من أحوال .

وقد وقع بيني وبين بعض الطلبة كالمباهلة فيها ، سمعته يمدحها عند أهل الدنيا ويرغِّب فيها، فقلت : « هي ربا صريح ، لا مرية فيه ، وما أتلف أموال أهل البلد في برٍّ وبحرٍ بعد تقدير الله إلا مخالطتها لأموالهم » ، قال : « لا حول ولا قوة إلا بالله » ، قال : « لك مندوحة عند هذا الكلام ، الآن عرفتك » ، قلت : « اعرفني ، وإن ما عرفتني ، عرَّفتك بنفسي » ، فشبَّهَني بناس أرفاض ، فحَجَّ تلك السَّنة ، فوقع بينه وبين بعض البدو كلام عند بعض الموارد على الماء ، فضربوه حتى غشي عليه ، فحُمِلَ إلى رَحْلِهِ ، ثم مات من يومه ، فكان هذا عقوبة له على مَدْحه لها، نعوذ بالله من الإنعكاس ، فهذا من إنعكاس الأمور عن أوضاعها ، إن طلبة العلم يمدحون الربا ويزيّنونه للناس .

فاعرف هذه الأنواع من المال المُذهِب للدِّين والدنيا بأكلها لأربابها الذين يظنون أنهم يأكلونها ، وإنما هي تأكلهم وتُتلِف أعمارهم مع إتلاف دينهم ودنياهم، نعوذ بالله من الوقوع في الشر في معرض الخير ، ونستجير بالله من أنواع الشر والبلاء.

وسمع سيدنا رجلاً دخل عليه الضيقة وقت الضحى ، وهو جالس للدرس يوم الإثنين أو

الخميس، وهو يسعل - وهو نبيهان - فقال له يمازحه : « ما لك تسعل - بلفظه على لغة حضرموت - أخاف ألاَّ بغيت تموت ؟ » ، فقال الرجل كلمة أبي الدرداء رضي الله عنه : « مرحبا به حبيب ، جاء على فاقة ، لا أفلح من ندم » ، فغضب سيدنا عليه لذلك فقال له : « حتى تصير مثل أبي الدرداء ، إن أبا الدرداء كان طول دهره ليله قائماً ونهاره صائماً ، ولا يوقد في بيته نار لطعام لشدة زهده ، فإذا رأوا في بيته دخاناً علموا أن عنده ضيفاً ، وأنت تدوّر الحجّات في كل مكان ، فأين أنت وهو ؟ تذكر في نفسك كلام الأكابر ، وأنت أصغر من الأصاغر، فالحذر عادك تقول هذا ، فإن سمعتك تقوله مرة أخرى منعناك من الدخول إلى الضيقة ، فلا تدخل علينا ، فإنَّا لا نجالس المغترِّين ، وكل هذا من مطالعة الكتب بلا بصيرة - أو قال : بغير بصيرة - فقد يرى فيها بعض الجهال المغترِّين شيئاً يُذْكَر عن الأكابر فينسبه إلى نفسه دعوى وغروراً » هـ .

أقُولُ : قوله له في مزاحه معه : « أخاف ألا بغيت تموت » ، هذه الكلمة من أصدق الكلام - كحارث وهمام - كما في الحديث : « كلكم حارث وهمام » ، أي وكلكم ميت .

وقوله : « مطالعة الكتب بلا بصيرة » ، فلا يقول ما ليس من شأنه مما لو امتُحِن به لتبيَّن كذبه ، فيكون كذَّاباً ومُدَّعياً - كهذا القائل - أتراه يفرح بالموت على ما ادَّعى ، كما فرح به أبو الدرداء ؟ لا والله قط أبداً . وهذا هو الذي أغضب سيدنا، ثم بَيَّنَ ما يكذِّبه مما يدل على طلبه الدنيا ومحبَّته البقاء فيها بقوله : « وأنت تدور الحجات » ، وبيَّن ما يدل على صِدْق أبي الدرداء من شدة زهده وكونه دائباً على قيام الليل وصيام النهار ، وكونه لا يوقد في بيته نار لطعام إلا لضيف ، فكم فرق بين الحالين ، من حال ما يصدق قول أبي الدرداء ومن حال ما يكذب الآخر .

فالكلمة واحدة ، وحال القائلَيْن لها تختلف ، كما قرأ بعض الصالحين آية من القرآن على رجل من الإنس طرقه رجل من الجن ، فخرج منه في الحال ، ثم بعد مدة عاوده فقرأ عليه رجل آخر تلك الآية، فهزئ به الجني ولم يخرج ، وقال : « الآية هي الآية ، ولكن القاريء غير القاريء » ، فتبيَّن بهذا أن الإنتفاع بالقراءة إنما هو على مقتضى حال القاريء في الكمال والنقص .

فغضب سيدنا من قول الرجل بقول أبي الدرداء كالمدَّعي لحاله ، وليس من شأنه ، ولو كان من شأنه وعلم صِدْق مقاله وحاله لما غضب .

والمغتر هو الذي يدَّعي كذباً وزوراً ويرفع نفسه بذلك ، فيحب أن يُحمد بما لم يفعل ، ومثل هذا المدَّعي حال القاريء الآخر ، حيث ادَّعى أن قراءته تنفع كما نفعت قراءة القاريء الأول ، وقرأ الآية بعَيْنِها فما نَفَعَت قراءته كما نَفَعَت قراءة الأول .

فانظر كيف جعل هذا الشيطان من شياطين الجن يستهزيء بهذا القاريء الآخر ولا الْتَفَتَ إلى قراءته وعصى عن الخروج بقراءته ، والفرق بينهما كمال التقوى والحضور مع الله ، والإعتماد عليه في جلب النفع ودفع الضرر ، ونقصان ذلك أو عدمه من القاريء الآخر . فافهم ذلك ولا تدَّع ما لستَ من أهله ، فتزداد مقتاً عند الله وعناداً من الأعداء ، إذ الله مع أهل الوصف الأول دون أهل النقص المتشبِّهين بهم وليسوا مثلهم هـ .

قال رضي الله عنه : « **الأشياء تكون بأوقاتها لا بأسبابها ، ألا ترى الأمور تتم أسبابها فلا تقع ، وقد تقع بأدنى من ذلك ، وما على الإنسان إلا أن يطلب الفرج واللطف ، ولا عاد يبالي من أي وجه يجيء، وقد تكون العقوبات على أشياء سبقت وأشياء نُسِيَت ، لأن العلم إليه سبحانه ، وما يكون من الله سبحانه مَظْهر عذاب إلا وترى فيه الرحمة أكثر ، من أجلِ أن الله سبحانه وتعالى سبقت رحمتُه غضبَه ، كالريح فإنه تعالى أهلك بها قوماً ، وقد رحم بها على ما ذُكِر في القرآن أقواماً كثيرين** » هـ .

أقول : كان مراده بهذا الكلام التسلية على السامعين من شدة ما يشكون من شدة التضرر من جَور السلطان ، وقحط الزمان وغلبة الظلم والظلمة ، وتسليط من لا يرحمهم عليهم ولا يخاف الله فيهم، فأخبرهم أن سبب هذه العقوبات معاصي صدرت عنكم وسبقت منكم ، نسيتوها وقد حفظت عليكم ، فترون أنه وقع بكم هذا البلاء بلا جريمة منكم ، فانوُوا الخير واتركوا ما يُغضب ربكم ، ثم اطلبوا الفَرَج واللطف فيأتيكم من حيث لا تحتسبون ، فمن وَجْهٍ تعلمونه ومن وَجْهٍ لا تعلمونه ، فلا تبالوا من حيث جاءكم ، فلا تروا مظهر عذاب فتخافوا منه ، فما من مظهر عذاب إلا وترى فيه الرحمة أكثر ، لأن رحمتَهُ سبقت غضبَه ، فيكون ما مظهره عذاب عذاباً على العاصين ورحمة على المطيعين ، فاتقوا الله وأطيعوه ولا تخافوا ، ولا تحكموا بعقولكم فتقولون : إنما يأتينا من كذا وكذا .

فأنتم ارجوه مع ترك ما يسخط عليكم ربكم ، وفعل ما يرضيه ، ولا تبالوا من أي وجه يأتيكم ، فربما وُقِّتَ بوقت ، فيأتي إذا حضر وقته ، ولو رأيتم أسباباً ظاهرة فما يكون إلا في وقته ، فإن الأشياء بأوقاتها لا بأسبابها ، وإن رأيتم من الأسباب ما يوجب المقت والعذاب ، فمع الإمتثال لا تيأسوا ، فرُبَّ سبب شرٍّ يجعله الله سبب خير ، كالريح جعلها الله سبب هلاك لقوم عصاة ، وجعلها سبب رحمة لقوم طائعين .

ومثله الطاعون كان في قوم عذاباً وعقوبة ، وفي آخرين - وهم هذه الأمة - شهادة ومثوبة ، وكذلك فالأصل فيه أنه رحمة ، وكل يطلبه لذلك ، وقد يجعله الله نقمة ، فكان طالبه إنما يطلب نفعه لا ضرره ، فيطلبه مطلقاً من حيث أنه مطر وماء مبارك نزل من السماء تبركاً ، ومطلبه نفعه . ومثله الولد

إنما يراد مباركاً صالحاً بارًّا نافعاً ، لا مجرد كونه ولداً ، ولو ضارًّا عاقًّا ، إلا إن كان أحد شريراً يطلب مطلق الولد ولو شريراً ، فلا بد أن يعامله الله بما نوى .

واعلم أن العلم إليه سبحانه في كل ما يدبِّره مما لا يدركه عقلك ، فقد يكون بضدِّ ما تظن ، فقلَّ ما يكون منه سبحانه مظهر عذاب إلا وترى فيه الرحمة أكثر ، لأن رحمتَهُ سبقت غضبَه ، وهذا من معاني ذلك . ومن معانيه : أن عادته سبحانه ما يبتلي عبده ببلاء إلا ومعه من اللطف بقدره ، كما ذَكَرَه ابن عطاء الله في « الحِكَم » حيث قال : « من ظنَّ انفكاك لطفه عن قدره ، فذلك لقصور نظره » .

ومن معنى كون رحمتِهِ تعالى سبقت غضبَه : أن جعل ملائكة الرحمة وكلاء على ملائكة العذاب ، وأن الواحد من ملائكة الرحمة يغلب أمره على أمر كثير من ملائكة العذاب ولو بلغوا ألوفاً ، كما ذُكِرَ ذلك في وقائع تشهد له ، منها أن كاتب الحسنات موكل على كاتب السيئات ، لا يكتب سيئة إلا بإذنه، وأنه كما ورد إذا أراد كتابتها منعه من ذلك كاتب الحسنات إلى أن تمضي ست ساعات ، لعله يتوب فيها ويستغفر فلا يكتبها ، فإذا مضت ولا استغفر كتبها بأمْرِهِ واحدة ، وإن كاتب الحسنة مستبدٌّ برأيه لا يتوقف في كتابتها على رأي غيره . ومن معاني ذلك أن الحسنة بعَشْر ، وتُضاعَف إلى سبعين إلى سبعمائة إلى أضعاف كثيرة ، وأن السيئة بواحدة ، ومضاعفة الحسنة بحسب درجاتها عند الله على حسب حال عامِلها في معرفته بالله وكماله عند الله ، فليس حسنة العارف الكامل كحسنة الجاهل الناقص ، وعلى حسب خصال القبول التي تقدمها عند الله بسببها سَبَقَ درهم مائة ألف درهم ، من ذلك لما سئل رسول الله ﷺ : « ما أفضل الصدقة » ، قال : « جهد من مُقِلٍّ مشى به إلى فقير سرًّا » .

فجهد المقل مثلاً إذا كان عنده درهمان فقط أخرج أحدهما لله تعالى ، فقد خرج له من نصف ماله ، فقدَّمه على مائة ألف أخرجها من لكوك كثيرة ، ما يبلغ ما أخرج عُشْر عُشرها ، وأبلغ من أحد الدرهمين ما لو لم يكن له إلا درهم واحد فأخرجه ، فقد خرج من كل ما يملكه لله ، فكيف لا يقدِّمه على من ترك بعد ما أخرج شيئاً كثيراً ، كونه خرج به سرًّا ، قدَّمه على مخرج الكثير علانية ، لأن صدقة السر تضاعف على صدقة العلانية سبعين ضعفاً ، فالواحدة في العلانية إذا كانت خالصة بِعَشْر ، فمضاعفتها إلى السبعين بسبعمائة ، ثم مضاعفة السبعمائة على ذلك بهذا السبب المتقدِّم لها أبلغ ، ثم إلى ما لا يعلمه إلا الله بسبب ما تقدَّمها كذلك، وأنه مشى به سرًّا يقدمها ويضاعفها ، وكون المعطي فقيراً محتاجاً أيضاً يقدمها ويضاعفها، لما ورد : « إذا أراد الله قبول صدقة متصدِّق هيأ لها فاقة محتاج » . فكل هذه المعاني مما يقدِّم الصدقة ويضاعفها .

وكل هذه المعاني المذكورة في هذه المادة من فضل الله وكرمه ، وما ذُكِر في غيرها أيضاً من مزايا الفضل ، مما يدل على جزيل مزايا فضل الله - لمن قبله - وكرمه ، كلها من بركات هذا النبي الكريم ،

جعلها الله كرامة ممن تبعه أو اتبع ما يدعو إليه على لسان من ناب عنه من الأنبياء والمرسلين ، أظهرها الله تكرماً وتفضلاً على عباده نتيجة عن وصْفِهِ الشريف الأجَل سبحانه : « أن رحمته سبقت غضبه » .

فافهم هذه المعاني والإشارات التي زَحْزَحها عن كُمُونها قوله رضي الله عنه من : « أن رحمته تعالى سبقت غضبه » ، حتى في ما جرى منه سبحانه من مظاهر العذاب لمن ظهر منه مظاهر المعصية ، جعل الله فيه كوامن الرحمة لمن ظهر منه مظاهر الطاعة والإنقياد فافهم .

قال : « **قيل لبعضهم أيها أوسع ، العلم أو الجهل ؟ فقال : العلم أوسع للمتحري والجهل أوسع للمتجري** » .

وذَكَرَ يوماً العنبر وأنه نافع للدماغ - أي التبخُّر به - وأنه يتداوى به من قَرْص الحيَّات ، *قال* : « **لأن سُمَّها في البرودة في الدرجة الثالثة ، وقال الإمام الغزالي : فإذا انتقل إلى البدن صار في الدرجة الرابعة من البرودة ، فإذا قوبل بحرارة العنبر حصل الشفاء** » .

ثم ذَكَرَ أنواع الطيب ، من الدخون والماء وَرْد ، *ثم قال* : « **إنا نحتاج إلى أمثال هذه الأشياء كثيراً لأن علينا في هذا مداراً كبيراً ، فنعطي من ذلك خيار الناس ، القريب في البلد وفي البلاد البعيدة ، غير ما نأخذه لأنفسنا ، فلا يستكثرنَّ أحدٌ لنا ذلك . وقد ذَكَرَ بعضهم أنه ينبغي أن يكون الخرج على قدر الدخل ، والأحسن أن يكون الخرج ربع الدخل ، وأما نحن فلو أن أحداً تأمَّل في مدخولنا وما يخرج ، رأى الخارج أكثر من الدخل** » .

فخطر لي عند ذلك خاطر : لأي شيء يكثر الخارج إذا كان الداخل قليلاً ؟

فالتفت إليَّ في الحال التفات اللائم المغضب ، *فقال* : « **لا يبلغ الإنسان درجة الكمال الباطن أو الكمال الظاهر ، حتى يكون له أسرار تخفى** - أو قال : **يخفيها** - **حتى عن ثيابه التي عليه** » ، ومرة *قال* : « **لو نعمل بكل ما نعلم لعادانا كل شيء حتى ثيابنا التي علينا** » .

وتقدَّم قصة الرجل من السادة أنه عزم رجلاً على الغداء ، فلما دخل معه البيت ما رأى فيه ما يغدِّيه به ، فابتلش جداً وفشل ، فلقي ثلاثة خماسية ديوانية ، فاشترى بها قِشْراً وجعل يفعل له قهوة ، والرجل ينتظر الغداء ، وما درى صاحب البيت ما يفعل ، وإذا رسول سيدنا عبدالله نفع الله به عكيمان ، مُرسِله له بقرشين حجر ، فأخذها واشترى رأس غنم وبُرًّا ، وفعل له غداء حمله معه ، فاستراح خاطره .

قال ذلك الرجل من السادة : « **ومرة دخل علينا شهر عرفة وما في البيت شيء قط** » ، ومن عادتهم يستعدون له بذبائح وأطعمة ، بُر وغيره ، قال : « **فتشوَّش خاطري جدًّا ، فإذا بخادم سيدنا عبدالله**

- عكيمان - قد أرسله بثلاثة قروش حجر ، فاسترَّ خاطري ، وشريت لي منها أضحية وما يحتاج إليه البيت لعيد عرفة » .

فهذه كانت صنائع معروف سيدنا عبدالله ، وهذا رجل واحد من السادة أَدْرَكَتْهُ كرامته وكرمه في أضيق أحواله ، فكيف بالكثير من فقراء السادة ممن يبلغون ألوفاً غيره ، فما ظنك بخفايا صدقاته ومعروفه الذي لا يُحد ، فلو أَتَتْهُ جميع أموال الدنيا فما تكون شيئاً بالنسبة إلى ذلك . وكل ذلك قليل من كثير من كراماته ومعروفه وصدقاته وتصرفاته وخوارق عاداته ، ويحبونها تأتي بأسباب ظاهرة تخفى فيها عن أن تكون بمجرد قدرة ، ستراً لها ، وقد يكون الأكثر منها لمجرد قدرة تستر بالبعض القليل الحاصل منها من باب الحكمة ، فلا تستبعد إذاً قوله : « **ولو أن أحداً تأمَّل مدخولنا وما يخرج ، رأى الخارج أكثر** » ، فوالله إنه لصدق كما سمعت ، ورأى من رآه ، ورأى سيرته وأحواله .

ومن تصرفاته العجيبة الجليلة ، أنه يؤذن المغرب وما في البيت عشاء ، وفيه نحو أربعين نفساً ، فما نصلي المغرب إلا والخادم يقول : « ادخلوا للعشاء » ، هذا للضيفان والفقراء الذين يتعشون في الدهليز، وأما العيال وأهل البيت فعلى طبقاتهم كل طائفة من العيال وأهل البيت وحدهم ، والأخدام أيضاً وحدهم .

ولما حفظتُ منه ما ذَكَرَ من هذا مع العنبر ، فاتفق أن ابن خالٍ لي قَدِمَ من اليمن تاجراً ، ومعه شيء من العنبر ، فأرسلت له أطلب منه شيئاً من العنبر ، فأرسل لي بكسرة صغيرة ، فجعلتها في جيبي إلى يوم الجمعة لأتطيب بها لصلاة الجمعة ، فسمعت عن بعض الأصحاب الإخوان مرض مرضاً أشرف فيه على الموت ، حتى إن زوجته أرادت تدخل العِدَّة ، فقيل لها : « حتى تتحقَّقي موته ، ولا بقي فيه شيء من علامات الحياة » ، فقصدت إليه وأردت الدخول عليه ، فأبى أهله وقالوا : « ما عاد يندخل عليه » ، وعالجتهم أن يأذنوا لي في الدخول عليه فأبوا ، فتركتهم ودفعت الباب ، وكان مردوماً بحصاة، ودخلت عليه وهم كارهون ، وصعدتُ السطح إليه ، وكان في غرفته مسجًّى فوق قعَّادته، وتشوَّشوا جدًّا من دخولي عليه ، فإذا هو مُيَمَّماً على القعَّادة ، فناديته فلم يشعر بندائي ، فحسست أعضاءه وعروقه فلم أحس فيه حركة الحياة ولا علامة تدل عليها ، ووضعت كفي على خيشومه فما حسيت أثر نفس ، وكنت ناسياً لكسرة العنبر ، فلما أردت النزول ذَكَرْتُها ، وذَكَرْتُ كلام سيدنا في العنبر ، فرجوت غارة منه وكرامة عند استعمال ما أشار إليه ، فأشرفت على الخادم وقلت : ائتني بَجَمْرٍ في المبخر ، فقالت: « ما عندنا ضوء » ، فقلت : ائتِ بها من خارج البيت . فأبت ، فقبضت حجارة وأشرت إليها بها ، وقلت: إن ما رحت حذفتك بهذه الحجارة ، ولو أصابت أحد عينيك هاتين .

وكانت أخته وزوجته جالستين عند باب ليوانهم ينتظران ما يقع عليه من أمر الموت ، فقالتا : «

تراك ألا شوَّشت علينا اليوم » ، قلت : اصبرا على تشويشي اليوم فما أنا كل يوم جالس عندكم أشوّش عليكم . فما سارت إلا بعلاج ، فجاءت بالجَمْر ، فوضعتُ عليه كِسْرة العنبر ، وجعلت فم المبخر عند خشمه ، وجعلت أرد الدخان بيدي إلى خشمه ، فإذا به يتروَّح ريحه وينتشقه ، ويجذب نَفَسه بخشمه ليتروَّح ريح العنبر ، ثم فتح عينيه بعد تغميضهما ، ثم نظر إليَّ وشعر بي ، فناديته فأجاب ولبَّى ، فقلت : كيف أنت ؟ قال : « طيب » ، قلت : أين كنت ؟ قال : « أنا هنا » ، قلت : الآن أنت هنا ، وإلا قبل الآن كنت ناديتك فما أجبتني ، وأحركك فما تحركت . فتحاييت معه ودخلت معه في كلام أنس ومؤانسة ، ثم استودعتُ منه وسلَّمت عليه ، ثم نزلت من عنده وقلت لأهله : اصعدوا إليه . وعاش بعد ذلك نحو أحد عشر سنة .

وهذه كرامة باهرة من كرامات سيدنا عبدالله ، وإنما أنطقه الله بذلك ليظهر نتيجته لهذه الفائدة بعد قوله بنحو سبع وعشرين سنة ، ولغير هذه أيضاً . وقد قالوا: « إن كلام الأكابر مراهم شافية لأمراض القلوب والأبدان ويضمه الله لوقت حاجته ، أبطَتْ أو أسرَعَت ، فإذا احتيج إليه أظهره الله لحاجته» ، أي كهذه القصة ، ومثَّلوا لذلك كالبذر والنبات ، فوقت البذر ويريدون به وقت قطفهم به ، غير وقت النبات ويريدون به وقت الحاجة إليه ، فالبذر له وقت ، والنبات له وقت آخر . وكثير من كلام سيدنا عبدالله وإشاراته كذلك كما سمعتَ ورأيتَ .

ومن كلامه المُدَّخر لوقت حاجته أنه قال لي في شعبان سنة ١١٢٨ : « **إذا سرتَ إلى بلادك ، سِرْ بَرْ ، ولا تجاور في الحرمين ، فإنا نهينا عن المجاورة** » ، فكتبت هذا في وريقة كالإصبع ، ومن حيث كتبتها جعلتها في الكتب ، ولا عِلْم لي بها ، وضاعت من يومها .

فلما سافرت بعد وفاة سيدنا ، وكنت في المدينة يوماً بعدما اصفرَّت الشمس ودنت للغروب في آخر عاشور سنة ١١٣٤ ، وكان الحاج الحساوي يريد السفر بعد صلاة الصبح من الغد ، وكنت عازماً على المكث بعده أربعين يوماً ، ثم أسافر على جدة ، ونسيت قوله : « **سافر بَرْ** » ، فاتفق أن قلَّبتُ كُتُبي تلك الساعة المذكورة ، فَفَرَّت لي تلك الوريقة من وسط الكتب ، فرأيت فيها قوله : « **سافر بَرْ** » ، فعزمت حينئذ على السفر مع الحاج ، إذ لا يمكنني السفر بر إلا معه ، فكانت تلك الساعة وقت حاجتها ، فانضمَّت لي إلى هذه الساعة ، وأنا لا عِلْم لي بها من اليوم الذي كتبتها نحو أربع سنين ونصف .

فاقضِ العَجَب من ذلك ، وفيه مصداق لقولهم : « إن كلام الأولياء مراهم شافية وينضم إلى وقت حاجتها » ، وكلما بَعُدَت حاجتها كان أبلغ لذلك وأعظم لكشف قائلها ، كما قدَّمنا من قول سيدنا : « **كلما بَعُدَ ما أخبر به الأولياء من المغيبات كان أعظم للكشف** » ، فافهم ذلك هـ .

أقول : قوله رضي الله عنه لما ذكر من درجات الحكمة : الدرجة الثالثة والرابعة، وهي كلمات تمر في عبارات الكتب ولم يعرف معناها . وقد قال الإمام العلامة عبدالله بن أحمد مخرمة رحمه الله : « مسألة: قول الأطباء في الأغذية والأدوية ونحوها : هذا بارد ، وفي الدرجة الأولى أو في الدرجة الثانية وما أشبه هذا . ما المراد بالدرجة وما أصل ذلك ؟

الجواب : إن الغذاء ونحوه إذا وصل إلى باطن الإنسان ، وطبخته الطبيعة ، فلا يخلو إما أن يحصل تغيّر في الطبيعة أو لا ، إن لم يغيّر فهو المعتدل ، وإن غيّر بحرارته أو برودته أو يُبْسِه أو رطوبته فلا يخلو إما أن يظهر التغيّر على ظاهر الجسد ، أو يقتصر على الباطن فلا يظهر . إن لم يظهر قالوا : حار أو بارد، أو رطباً أو يابس في الدرجة الأولى . وإن ظهر التغير ولم يطل زمنه ، قالوا : في الدرجة الثانية . وإن طال زمنه ولم يكن قاتلاً ، قالوا : في الدرجة الثالثة . وإن كان قاتلاً قالوا : هو في الدرجة الرابعة .

هذا اصطلاح الحكماء ، اصطلحوا عليه في تعريف طبائع الأغذية ونحوها ، وأخذوا معرفتها من التجربة ، وغاية طبائعها عندهم أربع درجات ، من أدنى تغير إلى الهلاك كما وَصَفْنَاه : فالدرجة الأولى عندهم : عبارة عن التغيّر باطناً . والثانية : عبارة عن ظهور التغيّر . والثالثة : عن طول زمنه . والرابعة: عبارة عن كونه قاتلاً . ولكل درجة عندهم أول وآخر ، والله أعلم » ، انتهى .

وقالوا في العسل إنه حار في الرابعة ، فهو مع أن فيه شفاء للناس قاتل على مقتضى هذا الكلام ، وقد أفتى الإمام الغزالي أن أكله للصفراوي في فصل الصيف وقت شدة الحر حرام ، لأنه حينئذ اجتمع فيه ثلاث حرارات : حرارة الطبيعة ، وحرارة الوقت ، وحرارة العسل ، فهو قاتل ، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾.

وإذا لم يظهر التغيُّر فلا يكون في إحدى الدرجات ، فيعرفه مستعمله من نفسه على ما يحس من نفسه بعد استعماله من اختلاف حاله قبله ، وما فوق ما سمعت من اختلاف حال الذي بخّرناه بالعنبر، ورجوعه إلى حال الحياة في لحظة بعدما كان في حالة الأموات ، ولما مرض مرض موته أرسل بعد نحو ١١ سنة ، أرسل لي فقال : « بخِّرني ، فإني متبارك بتبخيرك » .

فأرسلت جوابه : هيهات ذاك وقت وحال ، وهذا وقت وحال آخر هـ .

قال رضي الله عنه : « **الحكيم من يدبِّر الخوف بالحزم ، ويدبِّر الرجاء بالأمل** » ه .

أقول : قوله : « **يدبِّر** » ، أي لا يهمل ، فيعمل للخوف الحزم ، أي يعرف ما يؤمِّنه من الخوف فيستعمله له ، وهذا هو الحزم . فالرجل الحازم الذي يستعد لكل أمر عدته ، فيستعد للخوف بما ينجيه عنه ، وللرجاء بما يُدنِيه منه ، ومثاله : إذا سلك طريقاً مخوفاً استعدَّ له بالرجال والسلاح أو ما يُبَذْرِقه، وهو الخفير الذي يستأمن معه . وهذا هو الحزم ، أي يعامل الخوف بالحزم ، كما يقال : « الحزم سوء الظن » ، أي تُقَدِّر ما يسوءك فتستعد له عُدَّته التي تَقِيكَ منه ، وإن أخطأ ظنُّه فلا يضره ذلك، فما بالحزم من بأس .

قوله : « **ويدبِّر الرجاء بالأمل** » ، يعني يعمل لرجاء الأمل ، وهو أن يستوفي أسبابه ويتحيَّن لها وقتها الذي يحصل بها فيه ، فإذا حصل السبب في الوقت المؤقت له ، فهو الأمل ، فيكون حينئذ آملاً ، أي قاطعاً بحصول مطلوبه ، وفي غير الوقت لا تفيد الأسباب ، كما قال : « **الأشياء بأوقاتها لا بأسبابها** » ، ويدل على أن الأمل اجتماعهما معاً ، أعني السبب والوقت وأن العيش يطيب بذلك ، قوله في القصيدة :

عِشْ بِالرَّجا وَالأَمَلْ يَاصَاحْ   وَحَسِّنِ الظَّنَّ بِالمَعْبُودْ

أي فيحسن ظنك لقطعك بحصول مقصودك لاجتماعهما - أي السبب والوقت الذي هو الأمل - فالمعنى يعمل للخوف الحزم ، ويعمل للرجاء الأمل ، وهو فعل الأسباب في أوقاتها ، فيصير حينئذ آملاً - أي راجياً - وبدون ذلك يكون متمنِّياً مغترًّا .

قال : « **من أكثر الظلم وامتَحَنَ أهل البيت أزاله الله ، كما هو مُشاهَد** » .

أقول : قوله : « **مُشاهَد** » ، أي مجرَّب ، فإذا جُرِّب الشيء وتحقَّق أمره فكأنه مشاهَد يُرى بالعين، ولو أنه إنما يكون في وقته ، فإذا جاء الإِبَّانُ تَجِي ، وهذا متعلِّق بقوله : « **الأشياء بأوقاتها لا بأسبابها** » ، ومتَّصل به وإن انفصل عنه زمناً ومجلساً ، ولذلك انفصل عنه في النقل هنا ، فهو متصل به معنى ومادة، وهذا من بلاغته ، فإن الله تعالى هو الذي ينطقه فيقومه ويسدِّده ، وهذا من توسعة اللغة العربية، ويشبهه في الكتاب العزيز قوله تعالى : ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ ﴾، فثبت بهذا الدليل أنه أنزل في شهر رمضان ، ثم قال تعالى : ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴾، وليس للضمير هنا اسم يعود عليه ، وإنما يعود على لفظ القرآن المذكور في سورة البقرة مع بُعد اسمه عنه العائد إليه وانفصاله منه ، فدلَّ قطعاً أنه أُنزِل في ليلة القدر ، وأنها في شهر رمضان قطعاً ، خلافاً لقول من يقول أنها قد تكون في غير

شهر رمضان ، وأنها متنقِّلة في السَّنة ، بل هي متنقِّلة في شهر رمضان .

قال رضي الله عنه : « **إذا اعتقد الصالح في نفسه الصلاح بَطَلَ صلاحه** » .

ثم قال : « **احفظوا ذلك** » هـ .

أقول : هذا يؤيِّد قوله المتقدِّم : « **من قال : أنا أهل ، وإن كان أهلاً ، قيل له : لستَ بأهل . وعكسه إذا قال : أنا لستُ أهلاً ، وهو كذلك ، قيل له : أنت أهل** »، فما الفرق إلا رؤية النفس ، ينفي عنه الأهلية مع وجودها ، وعدم رؤيتها ينيله الأهلية مع عدمها .

قال : « **لا بُدَّ للقطب من أربع خصال : حُسْن السيرة ، والسريرة ، والصورة** » .

كذا رأيت في الأصل الذي نَقَلتُ منه هنا ، والذي نَقَلته تلقاءه عندما تفوَّه به ، فلا أدري أنسيتُ الرابعة أو هكذا ما ذَكَره هـ .

قال رضي الله عنه : « **نحن الملوك والباقون لنا تبع ، فإن تُركنا على ما نحن عليه بقينا خاملين ومستترين على ما مضى عليه أسلافنا ، فإن ألجأونا إلى شيء أعطيناهم ما يُعجِزهم ويُسكِتهم ، فإن لم يُصَدِّقوا فليجرِّبوا** » هـ .

أقول : يقول هكذا ، ولكن تغلب عليه الرحمة والشفقة كما تفهم من فحوى ما سنذكره . وكلامه مطلق لكل معاند ، ولكنه يشير به إلى يافع وأعوان الدولة ، لأنهم هم الذين ظهر منهم العناد ، فحصل لهم ما رأوا معاينة ، ولمن لم ير أخباراً ، وقد وقع عليهم مراراً كثيراً بسبب أذاهم ما آذاهم وأعجزهم وأسكتهم .

فنذكر قصة تدل على كثير مما لم يذكر ، كما يدل الأنموذج على الباقي ، فمن ذلك أن يافعيًّا صعد نخلة لسيدنا ليجني منها رُطَباً ، فقيل له : « إنها للسيد عبدالله » ، فقال : « ولو كانت له ، يكون ماذا؟ »، فلِعُتُوِّه وتجبُّره ما بالى ولا اكترث ولا هاب لما ذُكِرَ له ، فصعدها وجنى منها ما أراد وأكل ، وكان قد وضع تِفقَه مكيولاً تحته ورَقَى ، فحين نزل أثار التَّفق ، فما ثار من فَمِه وإنما ثار من أسفله ، فثقب الباروت من أسفله مما يلي صدره ، فأحْرَقَ صدْرَه ولحيتَه ووجهَه ، فأوجعَه وأقْلَقَه ، وبقى منه في شدة ألم وقلق يومه إلى الليل ، فما أمكنه إلا أن انزعج ، ومضى إلى الحاوي معتذراً ، وطلب من الخادم

يدخل على سيدنا يعتذر له ، ويطلب له منه يقرأ له في ماء، فدخلت الضيقة حينئذ ، وكنت جئت من زيارة سيدنا أحمد بن عيسى مع السيد حسن بن سيدنا عبدالله ، فرأيت اليافعي يحوط في الضيقة ولم يستقر للجلوس مما أقْلَقَه من الوجع ، فسألت عن أمره فأُخبِرتُ بِقِصَّته ، فطردته وأخرجته من الضيقة وقلت له : تفعل خبثك وتجتريء بتجبرك ، وبعد تجيء إلى هنا ؟

وإذا الخادم قد جاء له من سيدنا بقليل ماء وَرْد قد قَرَأ له فيه ، وأمره أن يمسح به ما أصابه ويؤلمه، فلما رآه ، وأُخبِر أني أخرجته من الضيقة ، فدخل وأخبر سيدنا وقال : « طرده الحساوي » ، فضحك رضي الله عنه وأمره أن يسير له إلى بيته ، فسار إليه وقال له : « يقول لك الحبيب : امسح به على ما أصابك » ، ففعل ، فقام بارئاً كأن لم يكن به شيء ، فرأى ما أعجزه وأسكته هو وغيره .

وهو مصدِّق لما قال سيدنا ، فقال ذلك إلا لما غلب عليه من الرحمة ، فإن الأكابر قد خلَّقهم الله سبحانه بأخلاقه ، ومن أوصافه سبحانه أن رحمته سبقت غضبه ، وفي الحديث : « تخلَّقوا بأخلاق الله»، ولولا ذلك لكان مثل هؤلاء الجبابرة يستحقون دوام العذاب .

وإذا فهمتَ هذا المعنى في المخلوق الذي مثلك ، تدرك معنى أوصافه كما تدركها من نفسك ، فلا تظن أن معناها في حق الله مثل ذلك ، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً بل أوصافه تعالى إلهية ، لا يدركها ولا يعلمها إلا هو ، وإن كان في المخلوق ما يُسمَّى بذلك ، فما بينهما مناسبة إلا المشاركة ، فليس صفات العلم والحياة والقدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام في الخالق والمخلوق سواء ، ولو سُمِّيَت كلتاهما بذلك فما اشتركا إلا في الاسم فقط دون المعنى .

وبعد ذلك ما أحد منهم تعرَّض لشيء ، فهذه واقعة واحدة من وقائع كثيرة ، تصدِّق ما قال ، وتدل على أن أقواله مرتبطة بالأفعال الإلهية المصدِّقة لأقواله ، فما من قول من أقواله إلا وتبعه العمل من الله مصدِّقاً له ، فليس هو قول باللسان فقط كقول المدَّعين الكذبة الملبِّسين على الناس - وما أكثرهم اليوم - وهم سبب الفساد في الأرض والخلق ، وتنزل بهم من الله عقوبات كثيرة بسبب كذبهم وتلبيسهم ولا يرتدعون لما غلب على قلوبهم من محبة الجاه والمال ، الذي هو مطمح نظر المدَّعين ، ففرق بين قول أهل الحق وأهل الباطل ، فإن أهل الحق يقولون ويصدِّق الله أقوالهم بأفعاله هو ، كما صدَّق سيدنا بما فعل بذلك اليافعي .

وأهل الباطل يقولون ، يشبهون أحوالهم بأهل الحق في أقوالهم ، ولكن الله يكذِّبهم بعدم وقوع ما يقولون ، ولو حاولوا تصديق أقوالهم بالتلبيس لعلهم يصدقون ، فلا يصدقون .

وقد ذَكَرَ سيدنا نقيباً كان في البلاد يقال له باغوث ، **قال** : « **ليس بقليل ما فعل بالمسلمين ، فإذا شكوا إلينا منه ، قلنا لهم : اصبروا ، فسترون ما يفعل الله به** » .

قال : « **فقال حميدان بن دامس : نريد ننظر ما يفعل الله به . فقلنا : هذه شماتة، والشماتة لا تنبغي . فأخذه الله ، ثم ذلَّ بعده أصحابه بعد نخوتهم به ، ورجعوا يطلبون على الأبواب ، وهكذا جرت عادة الله في الظَّلمة ، وقد ورد** - أو قال : جاء- **عن الله تعالى أنه قال : أنا الظالم إن لم أنتقم من الظالم** » .

أقول : يعنى جاء ذلك على لسان أحد من الأنبياء ، أو في شيء من الكتب السابقة . وسمعت في حضرموت في قصة باغوث : أن ابن رواس - رجل من آل كثير من بلد جعيمة - جاء إلى تريم قاصداً قَتْل باغوث ، لأنه أشغل خادماً له ، وآذاه أذىً كثيراً ، فراح إليه يشكوه إليه ، وكان هو من أقارب السلطان ، فمَرَّ على الحاوي واجتمع بسيدنا وقال : « يا سيدي ، اقرأوا لي الفاتحة على ما في نفسي» ، وكان عادة سيدنا إذا أحد طلب منه يقرأ له الفاتحة قال له : « **على ما يرضي الله ورسوله** » ، فنسي أن يقول ذلك لابن رواس ، فقرأها له ثم سار ، ودخل البلاد وقصد باغوث، فرآه مُحْتَبِياً في سكة الصَّوَغ - وهكذا كان عادته وعادة كل نقيب- فوجد هذا مُحْتَبِياً منتفخاً من كِبْره ، فضربه بخنجر في جَنبِهِ حتى خرجت من جَنبِهِ الآخر . ثم ذَكَرَ سيدنا تلك الكلمة ، فأرسل إليه يقول له : « **الفاتحة ألَّا على ما يرضي الله ورسوله** »، فما وصله إلا بعدما خلص من باغوث .

وكذلك عيسى ، ظَلَمَ بشبام وما قاربها ، فقنع في الظلم ، وكان نوى الهرب من الجهة ، فأراد يجمع له مالاً ويروح به ، فَذُكِرَ لسيدنا كثرة ظُلمِه وأذاه للمسلمين ، وذلك يوم الإثنين ١٤ شهر ربيع أول سنة ١١٢٣ ، فغضب من ذلك غضباً شديداً وقال : « **هذا الظالم ماله ألَّا الكثيب الأحمر** » ، يعني مقبرة عينات . وكان هو بشبام ، وبينها وبين تريم مسيرة يوم إلى جهة الجنوب ، وبين تريم وعينات مسيرة ضحوة إلى شرق . فلما كان صبح الثلاثاء غبش عيسى إلى عينات ، وعزموه السادة وذبحوا له ذبيحة، وفعلوا له عشاء . وكان سيدنا يوم الثلاثاء خرج إلى مسجد إبراهيم المقابل للحاوي ، وهو على طريق عينات ، وظلَّ سيدنا في ذلك المسجد يومه إلى الليل هو وأولاده وفقراؤه ، فلما صلى المغرب ونافلته، ركب معهم إلى الحاوي ، فالتقاه في الطريق محمد بلْفَقْيَه الصعدي من أهل شبام - وهو من أخدام سيدنا ويحفظ ديوانه - فصافحه وجعل يتغوَّث من ظلم عيسى وجوره ويتظلَّم ، فقال : « **يا حبيب ، أما ترى ظلم هذا الظالم وما فعل بالناس ؟** ظلم فلاناً وفلاناً ، وغرَّم فلاناً مائة قرش ، وفلاناً سبعين قرشاً ، وأنا غرَّمني خمسين قرشاً وعادتي خمسة » ، فقال سيدنا له : « **فإذا ظلمكم حاكمكم ، فما تريدني أفعل ؟** » ، قال : « ماذا أريدك تفعل ، أريدك تقبض بحَلْقِه، فتخنقه فتقتله وتريحنا من شرِّه » ، فعند ذلك تبسَّم سيدنا وسكت ، فَجَرَرْته عنه وقلت له : قد أشغلته عن وِرْده وآذيته ، فاسكت عنه ولا عاد

تكلمه . فجر يده من يدي وقال : « ما سيبك مني أنا وحبيبي » ، فسكت سيدنا وما تكلم بعد ذلك .

فكان من قضاء الله وقدره حين قال : « أريدك تقبض بحَلقِه وتخنقه » ، وكان يتعشى مع السادة آل الشيخ أبي بكر بن سالم في عزيمتهم له ، فنشبت لحمة في حَلْقِه وما قدر يصيغها ، فلا هي دخلت بطنه ولا خرجت إلى فمه ، فخرجت روحه في الحال وهو قاعد على العشاء ، فما وصلنا الحاوي إلا ومندوب السادة قد سبقنا ليُخبِر سيدنا بموته ، فسألت الرسول عن خبره ، فذَكَرَ ما ذَكَر من قصة اللحمة حين أكلها ، وقُبِرَ في الكثيب الأحمر على ما أشار سيدنا إليه بالأمس من قوله : « **ما له ألَّا الكثيب الأحمر** » .

- وهو شبيه بما ذَكَرَهُ عبدالله بن إسحاق ، أن سيدنا عبدالله لم يزل يتوعَّده بوادي الدواسر ويقول له : « **إنك ستحل في وادي الدواسر** » ، قال : وكلما أرسلني في حاجة ، قال : « **ما لك ألا وادي الدواسر** » ، فظنه وعْداً ، وإذا هو تَوَعُّد . فحين ما وصل عبدالله وادي الدواسر ، عازم على الحلول فيه على الوعد ، جاءه أجله ، فَقُبِرَ فيه ، فبان أنه توَعُّد -

وما بين قول سيدنا : « **ما له ألَّا الكثيب الأحمر** » ، ودفنه فيه إلا نحو يوم وليلة .

فانظر هذه الآيات الباهرات الخارقة للعادات ، مما لم يدركه عبدالله باشراحيل ولا عبدالعظيم باشراحيل ، وإلا كانا أَثبَتَاه في مؤلَّفَيْهما اللَّذَين ألَّفاهما في كرامات سيدنا عبدالله نفع الله به ، فقد ذَكَرا منها ما هو أهون من ذلك .

قال رضي الله عنه : « **نحن جميع الناس يحبوننا ، ولا يبغضنا إلا منافق ، لأنا نحبهم ونحب لهم الخير، ولا نضايقهم في طلب جاه أو دنيا أو شيء من الأشياء ، بل نترك لهم جميع ذلك** »

- يعني أن مطالب الناس اليوم كلهم إلا القليل ، إنما هي مطالب دناوية ، وهي التي يقع بسببها الحسد والبغض لمن يضايقهم فيها ، ويطلبها كما هم يطلبونها فحينئذ يبغضونه ويحسدونه إن حصل له نصيب من ذلك - .

« **فإذا كنا تاركين لهم ذلك طوعاً منا لِزُهْدِنا وقلة رغبتنا فيها ، فعلامَ يبغضوننا ؟ فإن هذه هي سبب العداوة والبغضاء ، فَلِمَ تكون العداوة ؟ فما تكون العداوة والحسد بعد ذلك إلا من نفاق وخبث في القلب ، حيث لم يكن مِنَّا لهم سبب للعداوة** » ، ومرة *قال* : « **إنما أحبَّ الناسُ الصالحين واعتقَدُوهم، لكونهم تَرَكُوا الدنيا لهم ولم يزاحموهم فيها** » .

قال رضي الله عنه : « **من أتانا يطلب الطريق العامة أَخَذْنَا بخاطره وآنسناه ، ومن أتانا طالباً للطريق الخاصة استخدمناه وابتليناه ، مجابرة للأول باللائق لجنسه ، واختباراً للثاني وكسراً لنفسه** » هـ .

أقُولُ : الطريق العامة : أي العامة فهي لكل الناس ، لا خصوصية فيها لأحد على أحد في ظاهر الأمر ، وهي طريق أصحاب اليمين ، وهي طريق الصبر المشار إليها بذلك في الحديث . وأما الطريق الخاصة : طريقة الخواص المختص بها الخصوص ، طريقة المقربين السابقين ، ففيها خصوصيات تختص بها ، ومزايا تميزها عن الأخرى ، وتميز أهلها عن أهل تلك الطريقة .

أولها : رياضة النفس وتهذيبها ، لتطمئن على متابعة الشرع ، منقطعة الهوى الذي يجذبها إلى مخالفته - أي الشرع - وتَسْلَم من متابعته - أي الهوى - فلهذا قال في حقه : « **اختباراً له وكسراً لنفسه** » .

وقال في حقِّ طالب الطريق العامة : « **أخذْنَا بخاطره وآنسناه** » ، لأنه ضيف تستحب مؤانسته والأخذ بخاطره ، وهذا هو المطلوب في حقِّ عموم الناس القاصرين عن منال تلك الدرجة ، ولهذا قال : « **مجابرة له باللائق لجنسه** » ، وأكملهم الواقف على الحد ، لا يحيد عنه وهو في طرفه . وأما الطريق الأخرى: طريق الخواص المشار إليها في الحديث بطريق الرضا وهم السابقون ، ويقال لهم: « **المقربون**»، المتعلِّقة قلوبهم بالله ، لا يرون إلا الله في جلب كل نفع ودفع كل ضر ، وظواهرهم متمسكة بطريقة أصحاب اليمين ، وهي التمسك بالشريعة في العبادات والعادات ، الكاملون الإقتداء بالنبي ﷺ ، ومع ذلك أُعطوا نصيباً من ذلك السِّر الشريف ، الذي يقوى به الإيمان المشار إليه في حقِّ سيدنا أبي بكر رضي الله عنه في الحديث ، بقوله ﷺ : « **ما فَضَلكم أبوبكر بكثرة صوم ولا صلاة ، وإنما فضلكم بِسِرٍّ وَقَر في صدره** » ، فصار بذلك أنه لو وُزِن إيمانه بإيمان الأمة لرجحها . ولا بد لكل ولي من نصيب

منه، وبحسب ما وهبه الله منه يقوى إيمانه ويقينه ، وهو وهب الولي الذي يؤتاه ، وبقية أفعاله هو كسبية على موافقة الشرع ، وهو المشار إليه في قول سيدنا لما سئل ، فقيل له : « ما أجزاء الولاية؟ »، فقال في الحال بديهة من غير تأمُّل وتفكُّر : « أربعون جزءاً » ، قيل : « هل هي مكتسبة أو هي موهوبة؟»، قال: « كلها مكتسبة إلا جزءاً واحداً ، فإذا وصل إليه اندمجت فيه كلها ، فصارت كحلقة ملقاة في فلاة » .

ويريد به ذلك النصيب من ذلك السر المذكور ، فحينئذ يصير كلامه كلام الحال الذي هو أبلغ من كلام المقال ، كما قالوا : « كلام الحال أبلغ من كلام المقال » ، وهو كلام من لم يبلغ ذلك ولم يحصل له ما هنالك ، أي ما استقام على طريق المتابعة كما ينبغي ، يعني ما تمسك بجد على ذلك ، ولم يحصل له نصيب من ذلك السر ، كما هو كلام خطباء الزمان ، فكلام الحال على هذا الوصف يقهر السامع على العمل بما سمع ، وكلام المقال لا يحرِّك سامعه لعمل ، لأن كلام القلب يحرك القلب دون الآخر ، وكل كلام عليه كسوة القلب الذي خرج منه ، وحال صاحب كلام الحال، غير حال صاحب كلام المقال ، فعين الجواد فُرَارُهُ ، يعني رؤيته تدل عليه ويُعرَف حاله برؤيته ، كما يُعرَف أمر الفرس بفرار أسنانه .

وقول سيدنا : « أربعون جزءاً » ، يعرف معنى ذلك هو ، ومن أوتي حظًّا من ذلك السِّر ، ويمكن أن ذلك العدد كما في اللغة إشارة إلى كثرة الأعمال المتقرب بها إلى الله ، كلفظ السبعين كما قال الله سبحانه وتعالى :﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾، أي ولو استغفرتَ لهم مراراً كثيراً ، لن يغفر الله لهم ، لشدة نفاقهم ومعاندتهم للإسلام ، كما قال سبحانه في الآية الأخرى : ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾، والمعنى أن أجزاء الولاية ، أي الأعمال التي يتقرب بها إلى الله ، حتى يحصل له مقام الولاية كثيرة لا تحصى ، من فعل جميع المأمورات وترك جميع المنهيات .

وقد ذَكَرَ الفريقين في كتابه ، فقال في الخواص : ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾، أي كل ما ملك أحدهم – قلَّ أو كثر – فيه حقٌّ للمذكورين ، ولو عشاه الذي أراد يتعشى به ، ففيه حقٌّ لهما، وهذا في المندوب . وقال في حق أصحاب اليمين : ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾، أي قدر نصاب الزكاة ، وقدر ما يلزمه إخراجه في الزكاة ، وهو المعلوم الذي ذَكَرَه ، وهذا في الواجب . فمدح الأولين على ما ندب ، ومدح الآخرين على ما وجب ، فمدح الكل على تأديتهم ما ندب وما وجب ، فدَلَّ على أن الإعتناء بالمندوب كالإعتناء بالواجب ، وكلاهما ممدوحان عند الله .

وذَكَرَ النبي ﷺ في حديثه الفريقَيْن أيضاً ، فقال للخواص : « لا عدوى ولا طيرة » ، فقال رجل : « إني أنيخ بعيري السليم بجنب البعير الأجرب فيعديه ، فيجرب مثله » ، فقال ﷺ : « إن كان أعداه، فمن أعدى الأول ؟ » ، وأكل ﷺ مع مجذوم ، فسمَّى وقال : « بسم الله » ، ثقة بالله وتوكُّلاً عليه ، وقال للعامة : « فِرَّ من المجذوم فرارك من الأسد » ، وبين الخطابَيْن من الفرق كما بين المقامَيْن .

والأصل في تقسيم الدين المحمدي ومن يدين به إلى هذَيْن المقامَيْن - مقام الخواص ومقام العامة- قول النبي ﷺ : « اعبد الله على الرضا ، فإن لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خير كثير » .

فالعبادة على الرضا هو مقام الخواص ، وهو أن يرضى بكل ما فعل الله به إن أمرضه أو أفقره ، أو فعل به أي أمر تكرهه نفسه ، مع إقامته بالمأمور . لأن معنى العبادة أن يرضى بكل ما فعل به المعبود ، ويفعل كل ما يرضي المعبود ، فإن لم يقدر على الرضا ، وكرهت نفسه ما يخالف هواها ، فيلزمه أن يصبر ولا يتضجَّر، ولا يتبرَّم ولا يشتكي ، فإن فعل من ذلك شيئاً خرج به عن مقام الصبر ، فصار خارجاً عن مقامَي العبادة والدين بالكلِّيَّة ، وصار مع أصحاب الشمال ثالث المقامات الثلاثة ، الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ۝ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾، وهم العامة أصحاب الصبر المذكور في الحديث، ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾، وهم الذين خرجوا عن المقامَيْن المذكورَين في الحديث: العبادة على الرضا ، والعبادة مع الصبر ، على الشرط المذكور أن عدم الضجر والتشكِّي فيه خير كثير إذا عجز عن الأول ، ثم قال : ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾، وهم أهل العبادة على الرضا ، الذي هو مقام الخواص .

فافهم هذه المقامات الثلاثة : مقامَي العبادة والدين ، والثالث الخارج عنهما ، واختر ما تختاره لنفسك ، ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ۝ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾، ومراده بالظالمين: من خرج عن طريقَي العبادة جملة، العبادة على الرضا والعبادة على الصبر ، فذَكَرَ أصحاب المقامات الثلاثة وأنهم جميع الناس ، على ما كانوا عليه في الدنيا ، مع ما أعدَّ لكل فريق منهم في الآخرة . ثم ذَكَرَ أحوالهم عند الموت ، وما هم عليه من الأحوال حينئذ ، وشأن أرواحهم عند الخروج من الدنيا .

وبعد هذا قوله : « المطلوب من عبد ابتلاه الله ببلية ، أن يصبر ويُظهِر التجلُّد رجاء الثواب وأن يعافى من ذلك ، فإن ابتلي بسبب جَور أو مخالفة أمر فليجتنب ذلك ، ويواسي بين الأمور ، فإن أظهروا المعك والخلاف ، زِيْد عليهم وهذا مشاهد مُجرَّب . وأهل هذا الزمان يعكسون الأمر ، فالغالب على الأكثرين منهم التورط بهذا السبب ، ومثاله بين الناس : أن من أراد أن يضرب عَبْداً له عشرةَ أسواط مثلاً، فرأى منه السكون والتسليم ، اكتفى منه بسوط واحد ، وربما تركه رحمة له ، وإن أظهر المعاندة والتفظّظ لم يكتفِ منه بذلك - أي بالعشرة - بل ليس ينحصر ما يحصل عليه منه ، وهذا ضابط

مُجَرَّب » هـ .

أَقُولُ : يعني أن العبد لا يخلو من إحدى حالتين ، فلله عليه فيهما حقَّان ، فإن كان في حال نعمة بأن كان معافاً مكتفياً ، فحق الله عليه فيها الشكر ، وهو في ثلاثة مواضع منه : في اللسان ، بأن يثني عليه بما هو أهله ، فيكثر من لفظ : الحمد لله رب العالمين ، حمداً يوافي نعمه ويكافيء مزيده . وأنواع لفظ الحمد كثيرة وسَنَذْكُر منها : شكر في الأركان : أي أعضاء الإنسان بأن يستعمل تلك النعمة في ما يرضي الله ويستعين بها على عبادته ، فإن كانت عافية في بدنه ؛ فيكثر من الطاعة والعبادة من مباني الإسلام الخمس ، وإن كانت في مالاً في يده ؛ فيكثر المعروف والصدقة بعد إخراج ما يجب . وشكر في الجنان: بأن يعتقد أنها نعمة مَنَّ الله عليه بها من غير استحقاق منه لها ، بل تفضل منه سبحانه على عبده. فلما كان الشكر عزيزاً على هذا الوجه في الثلاثة المواضع ، قال الله سبحانه : ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾، أي القليل من يشكر بها على وجهها في الثلاثة، وإن كان في حال محنة ، بأن كان فقيراً مُبْتَلى في بدنه ، فحق الله عليه فيها الرضا إن كان من الخواص ، كما تقدَّم في الحديث ، أو الصبر إن كان من العامة كما تقدَّم فيه أيضاً ، كما قال في القصيدة :

إذا مَـا ٱبتَـلاكَ اللهُ فَالصَّـبرُ حَقُّـهُ ... عَلَيكَ وَإن أَوْلاكَ فَالحَقُّ فِي الشُّكْرِ

وذَكَرَ الصبر ولم يذكر الرضا ، جرياً على الأغلب من الناس ، لأن العامة أكثر من الخاصة بأضعاف كثيرة ، ومن حق الله عليه في البلاء إن أصابه بسبب معصية ومخالفة أمر ، فليَنْزَع عنه ويتوب منه .

وقد رأيت رجلاً كان يكتب للدولة ، ومن جملة ما يكتب ما يطلبونه على المسلمين من المكوس ظلماً وجوراً ، فسلَّطهم الله عليه بمعصيته تسليط من لا يرحمه ، فغرَّموه ونهبوا بيته وآذوه ، فترك خدمتهم والكتابة لهم وتجرَّد عنها ، ولكن الله مع ذلك عاقبه ، فابتلاه في ثلاثة أصابعه التي كان يقبض بها القلم حين كتابته بِجَرَبٍ شديد يؤلمه جدًّا ويشتد عليه أحياناً ، ويسهره ويمنعه من النوم، فإذا اشتدَّ عليه جاء إلى سيدنا وطلب منه أن يتفل عليه ، فيتفل عليه ويقول له : « **هذا محل القلم السوء** » ، انتهى . وسنذكر لك كما وعدناك شيئاً من مجامع الحمد مما ذكر الشيخ عبدالسلام بن برجان الأندلسي، في شرح أسماء الله الحسنى ، عند شرح اسمه تعالى الحميد ، قال : « فالجد الجد في إحضار ذهنك وإيقاظ نفسك ، واكتساب العلم بمحامده ، ثم تذكر من عظمة الله عز وجل أعظم ما تقدر عليه ، حتى يمتلىء قلبك إجلالاً وحبًّا له ، ثم أرسل الثناء بالحمد على لسانك ، وجوارحك خاشعة، وقلبك حاضر، حتى تعلم أن جماع الثناء كله على التحقيق الأقصى له في ذلك ، وأن له الحمد على أن له الحمد، وكذلك له الحمد على ما وفَّقك للحمد ، وله الحمد حمداً على حمد أبداً ما صعد علمك ، واستصحب حمده . فمتى فعلتَ ذلك رجوت لك الظفر إن شاء الله تعالى . وللعلماء بالله عز وجل ،

وللمعتبرين إلى ملكوته ، وصالحي سلفنا رحمة الله عليهم ورضوانه تحميد وتمجيد ، سوى المذكور منه في القرآن العزيز، وحديث رسول الله ﷺ ، ذهبنا أن نذكر منها فقراً تستعملها عند مطالعة اعتبارك ، وتتقرَّب بها في أوقات خلواتك ، وترسلها عند صعداء أنفاسك .

فمن ذلك ما جاء في القرآن العظيم : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾، وهو جماع الحمد كله ، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾، ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴾، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا﴾، ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ ﴾.

ومما جاء في غير القرآن العزيز : الحمد لله الذي تتابعَتْ علينا نِعَمُه ، وترادفَت لدينا مِنَنُه ، الحمد لله الذي أكمل في مخلوقاته حُجَجَهُ بواضح البيان ، ونيّر البرهان ومحكم آي القرآن ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾، الحمد لله الأول بلا زمان ، والآخر بلا أوان ، الذي غاب عن الحواس فبطن ، وظهر لقياس العقول فعلن ، الحمد لله ذي الفضل المضيف والصنع اللطيف ، الحمد لله الذي لا ييأس من فضله ، ولا ييأس من رَوحه ، الحمد لله المرجو لإزالة اللأواء ، وإنالة النعماء ، الحمد لله الذي مواهبه لا يفي الشكر بجزائها ، ولا بأقل جزء من أجزائها ، الحمد لله الذي خلق الخلق لا على مثال سبق ، ولا من شيء خلق ما خلق ، الحمد لله الذي خلق الخلق بقدرته ودبَّرهم بمشيئته ، الحمد لله قابل الحمد والمجازي به وواهبه والمثيب عليه ، الحمد لله حمداً يصعد ولا ينفد ، ويزيد ولا يبيد ، الحمد لله فقراً إلى نعمته ، واعترافاً بفضله ، وشكراً على حياطته ، وفزعاً إلى كفايته ، الحمد لله على ما ساء وسر ، ونفع وضر ، وحلا ومر ، الحمد لله الذي جعل الحمد وصلة إليه ، وأمتَّ شفيع لديه ، الحمد لله على ما خلق وأنعم به ورزق ، الحمد لله على قديم ما أبلى وحديثه ، وخاصه وعامه ، حمداً يبلغ رضاه ويحوي مداه ، الحمد لله بجميع ما حمد به ، على جميع ما استُحمد عليه ، الحمد لله حمداً لا انقطاع له ولا نفاد ، حمداً لا يحيط بكنهه سواه ، الحمد لله المحمود على بلائه ، وعدل في قضائه ، محمود على نعمه ، ومستعان على شكره ، الحمد لله كما ينبغي لكرم وجه ربي ، وعز جلاله ونور كبريائه ، الله محمود على نعمه ومستعان على شكره ، مرغوب إليه في إتمام ذلك وإدامته ، الحمد لله إذعاناً من عبده بقصور نهاية الشكر عن بعض حوادث نعمه ، وترادف مِنَنه ، الحمد لله الذي جعل ما أنعم به من المعرفة بنعمه عاصماً من تكليف إحصائها ، الحمد لله حمد معترف بعجز حمده وشكره عن أداء حقِّه ومفترضه ، الحمد لله حمداً

يوازي رضوانه ، ويستدعي إحسانه ، ويكافيء حسن بلائه ، الحمد لله على نعمة الإعتراف والمعرفة ، الحمد لله حمداً يوجب شكراً ويتابع مزيداً ، الحمد لله حمداً لا انقضاء له دون بلوغ رضاه واستيجاب مزيده .. إلخ » .

قال : « **خذوا هذه الكلمة حكمة ووصية : إذا اشْتَبَهَتْ عليكم الأمور فاسلكوا الوسط** » ﻫ .

أقولُ : أي ما لا يُسْتَنْكَر من الجانبين في الفعل والترك ، والمراد ما لا تقفون على دليل عليه من كتاب أو سنة ، كما توقَّف الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه عن أكل البطيخ ، حيث لم يقف على دليل على كيفية أكل النبي ﷺ له ، بعد ثبوت أَكْلِهِ له ، فكان تَرْكُ ذلك هو الوسط الذي لا يُسْتَنْكَر ، لو ثبتت الكيفية أو لم تثبت ، حيث أنه من العادات ، وأما لو كان في شيء من العبادات لتفحَّص عنه هو وغيره عن كيفية ذلك ، حتى يقفوا عليه ، لأن العبادات هي التي تهمهم دون العادات ، وخطاب سيدنا هذا لخواص الناس ، الذين يتقيَّدون بقوله دون غيرهم ممن لا يتقيَّد به ﻫ .

قال رضي الله عنه : « **الظلم المرتب خير من العدل المسيَّب ، فما بالك بعكس الأمر فيهما** » ، أي في العدل المرتب بغاية حسنه ، وفي الظلم المسيَّب بغاية قبحه .

و « **الظلم المرتب** » : ما كان على قانون معلوم يقف عنده ، ولا يتعدَّاه كل من تولى على الناس ، كالمكوس والجبايات المعيَّنة - كما تراها الآن ، وهي من سابق الزمن - وهي التي عناها في الحديث الصحيح في البخاري ومسلم : « من سنَّ سُنَّة سيئة في الإسلام ، فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة » ، وعكس ذلك، « من سَنَّ سُنَّة حسنة في الإسلام ، فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة » . وأما الظلم المسيَّب : فما كان على غير قانون يقفون عليه ، بل كل من تولى ظلم على ما يريد، فلا تسأل عن زيادته إلى ما لا يحد ، ولا تسأل عن كثرة فساده إلى غير نهاية .

وأما « **العدل المسيَّب** » : فهو ما ليس له قانون يقف عليه ، أَوْ لَهُ قانون شرعي ولا يقف عنده ، فيتولى حين يتولى ، ويزعم أنه سيعدل ويقف عند حدود الشرع ، فلا يفعل ، أو ربما فعل في ابتداه ، ثم يغلب عليه الهوى ، لا سيما في ولاة هذا الزمان، وآخره يرجع إلى ظُلم أشد من الظلم الذي رتَّبه من قبله من الولاة ، ولذلك فضَّله على عدل هذا الذي ضَرَّ الناس في ابتداه ، ثم أَضَرَّ بهم وآذاهم في انتهاه، فقد أخرب على نفسه دينه ودنياه ، كذلك الذي خنقه سيدنا كما بيَّنَّا أمره فيما قدَّمناه . وأما العدل المرتب: فهو المقيد بحدود الشرع وأوامره ونواهيه ، ولا يقوم به كذلك على وجهه كما ينبغي إلا من

امتلأ قلبه من الإيمان والتقوى وحب الله ، وزهد في الدنيا ، وليس أحد كذلك بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبدالعزيز ، إلا من قلَّ أن يكون فيه كل هذه الخصال ، بل ربما أحد فيه واحدة منها ، فهو خير من غيره ممن لا فيه منها شيء ، فما بالك بمن كانت فيه كلها كما قال : « **فما بالك بعكس الأمر** » في العدل المرتَّب ، أي الذي هو هكذا ممن اجتمعت فيه كل هذه الخصال ، المستجاب الدعوة كالخمسة المشار إليهم . وهذه الطريقة مع سابقة السعادة ، هي طريقة الإستقامة في العبادة ، المُفْضِيَة بصاحبها إلى السعادة الكبيرة ، إذ :

مَا كُلُّ مَن طَلَبَ السَّعَادَةَ نَالَهَا　　　كَلَّا وَلا كُل الرِّجَال فُحُولُ

والرجل الفحل الممدوح بهذا الكلام ، هو من نال المقصود ، ولا يناله إلا بالمقدور الذي هو الحظ والبخت المتقدِّم ذِكْره ، المقدَّر له المكتوب له عند الله ، كما قيل :

إنَّ السَّعَادَةَ أَمْرٌ لَيسَ يُدْرِكُهُ　　　صِنْفٌ مِنَ النَّاسِ إلا بالمَقَادِيرِ

ممنُوعَةٌ مِن أُنَاسٍ طَالِبِينَ لها　　　وَقَدْ تُسَاقُ إلى قَومٍ بِتَيْسِيرِ

والعيان يكفي عن البيان ، ويكفي دليلاً في هذا المعنى حديث الصحيحين عن عبدالله بن مسعود الهذلي رضي الله عنه قال : « حدَّثنا رسول الله ﷺ ، وهو الصادق المصدوق » ، الحديث في الأربعين النووية ، إلى أن قال : « فوا الذي نفسي بيده ، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة ، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها » ، وقد تقدَّم معنى ذلك في مقصوده من معنى الحديث . والذراع عبارة عن قُرب زمنه من الموت ، والكتاب عبارة عن مراد الله ، فكل ما أراده مكتوب في اللوح ، فيعبر عن كل ما أراد الله بالكتاب ، فقوله : « فيسبق عليه الكتاب » ، فعند قُرب موته يغلب عليه ما أراد الله به من عمل سعادة أو عمل شقاوة فيعمله ، فيختم له به ، فيموت عليه ، فإن كان على عمل سعادة ، قيل : حسن الخاتمة، وأفضى به ذلك إلى السعادة ، وهي ما يجازي الله به السعداء . وإن كان بعكس ذلك، قيل : سوء الخاتمة، وأفضى به إلى الشقاوة ، وهو ما يجزي الله به الأشقياء ، قال سيدنا عبدالله الحداد نفع الله به : « **إنما قال: الصادق المصدوق . لأن رُبَّ صادق غير مُصَدَّق ، ورب مصدوق غير صادق ، وهو ﷺ حوى الوَصْفَيْن جميعاً** » هـ .

قال رضي الله عنه : « كل أمر متوسط لا يطول ، كثرة الظلم وكثرة العدل ، إلا يستحقه أهل الزمان، لأن فيهم من لا يستحق الظلم ، وفيهم من هو جدير به » .

قال : « قال سيدنا علي : عليكم بالنمط الأوسط ، يتبعكم الغالي ويلحقكم التالي » ، ومرة قال : « عليك بالتوسط في الأمور يتبعك ، ويتبعك بالإفراد » .

قال : « إن الله لم يُعن الشخص إذا نوى فِعْل خير ، حتى يَشْرَع فيه » .

قال رضي الله عنه : « الإحتكار سُحت ، وقد وجدنا كثيراً من الناس فعلوا ذلك قاصدين الربح والفائدة ، فأصبحوا فقراء لا يجدون كفاية ، إذ لا بركة في اغتنام الناس » .

وتقدَّم أن رجلاً قال له : « إن الأسعار رخيّة » ، فقال : « ضموها للناس ، وباؤوا بإثم احتكارها وحدهم ، ووَرَدَ : من احتكر الطعام أربعين يوماً ، ثم تصدَّق به لم يكن كفارة لإثم احتكاره ، وإن المحتكِرين يُحشَرون مع قَتَلَة النفوس ، وإن المحتكِر ملعون ، وهو الذي يشتري الطعام ويضمه للغلاء. ووَرَدَ في إثم الذي يتمنَّى الغلاء على المسلمين تشديدات كثيرة ، ولا شك أن المحتكِر يتمنَّى غلاء سلعته ، وكان أناس من السلف الصالح لا يتسبَّبون في بيع الطعام والكساء ، خوفاً من تمنِّي غلاها على المسلمين » هـ .

قال رضي الله عنه : « من تأمَّل أحوال الصحابة رضي الله عنهم ، بعد ما فتح الله عليهم الفتوح الكثيرة ، رآهم مع كثرة الدنيا في أيديهم ، ما شُغلهم إلا بالله ، والذي في أيديهم كأنه ليس هو لهم ، ولا بينهم وبين غيرهم فيه مزيَّة ، إلا بكونهم يتصرَّفون فيها فقط . فقد كان الزبير رضي الله عنه له ألف عَبْد يؤدُّون له الخراج ، فإذا جاؤوه به في مجلس ، ما يقوم حتى لم يَبْقَ له منه درهم ، ويفرقه في الحال . وما الدنيا المذمومة إلا ما أشغل عن الله ، وما لم يُشغِل عنه فهو زاد الآخرة ، وعلى هذا قد يكون الإنسان خليًّا من الدنيا وهو مذموم الحال ، حيث يشتغل باهتمامه بها عن ذِكْر الله ، وقد يكون معه من الدنيا شيء كثير وليس مشغولاً به محمود الحال » .

أقول : كان من عادة سيدنا الزبير ، وهو ابن عمة رسول الله ﷺ - أمه عاتكة بنت عبدالمطلب - كان الناس من أهل الجهات البعيدة ، يستودعون عنده الأموال الجزلة ، وكان كل من استودعه شيئاً قال له : « هو سلف علينا » ، فيجيبونه لذلك ، ويغيبون المدة الطويلة ، فإذا جاؤوه يطلبونها ، فإن كان عنده شيء أوفى ، أو استدان لهم ما يوفيهم . حتى إنه لما حضرته الوفاة ، كان عليه من الديون آلاف كثيرة ، فأوصى ابنه عبدالله بن الزبير وأكَّد عليه في وفاء ديونه ، وكان ليس معه من المال إلا الغابة ، فأوصاه يبيعها ويوفي ديونه منها ، فاشترى منه معاوية وعبدالله بن جعفر الذراع بكذا ألف درهم ،

حتى اجتمع له ألوف كثيرة ، فأوفى ديون أبيه كلها، وبقي شيء كثير . وكان له أربع زوجات ، فأصاب كل واحدة نصيبها من الثمن جملة ألوف ، وكان أوصاه إذا أصابتك كربة في وفاء دَيْني ، فقل : « يا ربَّ الزبير ، أوفِ عن الزبير » ، وكان كل ما كربه أمر في الوفاء قال ذلك ، حتى أوفاه على أكمل وجه، ويسَّر الله له ألوفاً على أتم حال ، وأنزل له البركة .

قال رضي الله عنه : « **لا يُمسك الدنيا إلا الأوعية الدَّنسة ، لأن في إمساكها شكًّا ، والأوعية الطاهرة لا تمسكها ، ولا يبالي أحدهم إن أصبح بِلاَ غداء ولا عشاء** » هـ .

أقول : مراده بـ « **الأوعية** » : القلوب ، فالذي قلبه مدنَّس بحب الدنيا وشهواتها يمسكها ويحرص على حفظها لمحبتها ، وليتمكن بها من شهوات نفسه وحظوظها لحرصه ورغبته في ذلك . والذي قلبه طاهر من محبتها وشهواتها لزهده أو قناعته فلا يبالي بها ، ويقنع بما تيسَّر ، يَسْلَم من عناها وتعبها ، ويرى أن فواتها مع الراحة أرجح من حصولها مع التعب .

قال : « **والإفراط في محبة الدنيا تغيِّر العقل والدين ، لأن طبعها الإسكار** » .

أقول : يصدقه قوله : « **هذا ما ترى كثيراً من الناس ، كان في أيديهم شيء من الدنيا وعقولهم إذ ذاك ثابتة لا اختلال فيها ، ثم ذَهَبَتْ من أيديهم وخَلَتْ منها فذَهَبَتْ عقولهم وجُنُّوا واختلَّت أحوالهم، وبقوا مجانين لا يهتدون لما ينفع ولا يجتنبون ما يضرهم في دينهم ودنياهم** » ، فانظر ما أصدق قوله ، وقِسْ به صِدْق مقاله في كل ما قال ، لا يختلف في شيء قط ، وقد رأينا من اختلَّ عقله وحاله بعدما ذهب ماله أناساً كثيراً .

وقد سمعت سيدنا غير مرة يقول ما معناه : « **كانت امرأة من أهل الشحر كان يغير بها الجنون أياماً، ثم يزول ويرجع إليها عقلها أياماً ، ثم يعاودها الجنون ، ثم يرجع إليها العقل ، وهكذا كانت مدة، وكان لها مال ولها ولي ، فكان وليُّها كلما جاءها الجنون قبض مالها ، وكلما رجع إليها العقل ردَّه عليها ، وبقي على هذا مدة، ثم أشار إليه بعض الناس وقال : إلى متى تقبضه وترده ؟ فاقبض حتى تعقل كما ينبغي ، فلا يعاودها الجنون ، فإذا عقلت فرده عليها مرة واحدة . فقبضه لما جنَّت فعاودها العقل فلم يرده عليها ، ثم جنَّت فلم يعاودها العقل بعد ذلك** » .

قال : « **والدنيا سنيها سبات** » .

قال : « علامة اليُسر في الأمور والعُسر فيها يُعرَف من أوائلها ، إن رأيته يُسراً فالباقي كذلك ، أو بالعكس فالباقي مثله » .

قال : « محبة الطاعة دليل العناية ، ومحبة الشر دليل الخذلان ، فعناية الله تظهر على الإنسان ، وكذلك خذلانه ، لأن أفعال الله باطنة ، ولا تعرف إلا بظهورها » ، ومرة **قال : « يظهر عليه طبعه المجبول عليه من صغره »** ، وأن بعض مشايخه كان حين يراه ، ينشد هذا البيت :

وَإِذَا العِنَايَةُ لاحَظَتْكَ عُيُونُها   نَـمْ فَالمخَـاوِفُ كُلُّهُـنَّ أَمَـانُ

وشيخه هذا هو السيد عبدالرحمن بن عقيل السقاف ، وذِكْره العناية هنا كما ذَكَرها كما سيأتي من قوله : **« نحن مع الناس اليوم ألَّا بالعناية ، وأما الأسباب فقد أتينا منها بكل ما يمكن ، فلم نحصل منها شيئاً »** ، فتبَيَّن هنا أن علامتها تظهر على الإنسان من صغره ، كما رأى الشيخ المذكور علامتها على سيدنا ، حتى إنه أنشد البيت المذكور عند رؤيته له متمثِّلاً لهذا المعنى .

وقوله : **« أفعال الله باطنة »** ، أي غيبية ، لا يطلع عليها الخلق إلا حتى تظهر في الحس ، لأنها من عالمهم ، فلا يعرفونها حتى تظهر في عالمهم ، لأنهم من عالم الحس الذي يدرك بالحواس الخمس : العين بالنظر ، واليد باللمس ، والريح بالشم بالخيشوم ، والمسموع بالسمع الذي هو حاسة الأذن ، والطَّعم بالذوق الذي هو حاسة الفم . وكل هذه من هذا العالم الحسي المدرك للآدمي .

وأما العالم الغيبي فهو عالم الملائكة ، وإطلاعهم عليه كإطلاع الادمي على العالم الحسي ، فالقضاء الذي حَكَمَ الله بوجود الأشياء في غيبه ، ثم القدر ظهورها من عالم الغيب إلى عالم الحس ، كل شيء في وقته المؤقت له ، وعلى صفته المقدرة له من الله ، فإذا أبداه الله من ذلك العالم إلى هذا العالم عالمنا أطلعنا عليه هـ .

قال : « العمدة على اجتماع الأرواح ، وبالأبدان يكون الإجتماع في الدنيا ، وبالأرواح يكون الإجتماع في الآخرة ، ولا عبرة باجتماع الأبدان مع مفارقة الأرواح » هـ .

أقول : أي اجتماع بلا محبة ، لأن الإجتماع الحسي حظ الأبدان ، والمحبة حظ الروح ، ولا يتم الإجتماع ويكمل إلا باجتماعهما ، إذ لا يكون جسم إلا بروح وإلا فهو ميت ، ولا يستقيم روح إلا في جسم ، وإلا فهو أمر غيبي لا يدرك ولا يعلم به هـ .

قال رضي الله عنه : « سمعنا في بعض الكتب أربع كلمات تقال حال الوقاع استحسنّاها ، ولا بأس أن يأتي بها بعد الوارد ، وهي : الحمد لله الذي جعله في حلال ولم يجعله في حرام ، وجعله في طاعة ولم يجعله في معصية ، وجعله في ستر ولم يجعله في هتك ، وجعله في أخيار ولم يجعله في أشرار » .

قال رضي الله عنه : « أهل الزمان يسمعون ما وَرَدَ في الحديث من مَدْح حسن الظن بالله ، فيفعلون المعاصي ويصرُّون عليها ، ويغترُّون ويظنون أن ذلك هو حسن الظن المطلوب ، بل إنما هو سوء ظن بالله ، وإن كلَّمته - أي نصحته - قال : ما أنا صالح ، وأنا من شق الناس . وما الذي يمنعه من الصلاح ومتابعة نبيه ؟ ويتوكلون في ترك الطاعات ولا يتوكلون في ترك الدنيا . ومن علامة المؤمن من المنافق، أن المنافق جميع ما تراه في أفعاله وجميع أحواله يتتبَّع الرُّخَص ، والمؤمن يحتاط ، وهذا منافق في العمل دون الدِّين ، وإن أنكر على من يرد عليه ، فهو منافق في الدين أيضاً ، ولكنك اجتهد أن لا تدانيهم ، ولا تطلع على أحوالهم ، وإلا وقعتَ معهم في محنة ، وإن بُلِيتَ بأحدٍ منهم فاجتهد في سلامة دِينك ونَفْسك من شَرِّه » هـ .

أقول : يعني أهل الزمان ، سيما من ينكر على من يرد عليه .

قوله : « وإن كلَّمته » ، أي لمته في ذلك ونصحته ، فيقول : إنما يفعل ما دعوتني إليه الصالحون وأنا لست كذلك ، إنما أنا من سائر الناس العامة .

ومنافق العمل : الذي عمله على غير قانون الحق ، وإن ادَّعى مع ذلك أنه على حق وصواب ، فهو منافق في الدِّين ، أي في الإعتقاد والعمل . فاجتهد أن لا تخالطهم ، لئلا يستمد طبعك من طباعهم ، فيخف على قلبك وَقعُ مخالفة دين الله عملاً واعتقاداً ، ذلك هو الخسران المبين هـ .

قال : « لا يستقيم ويتيسر للإنسان أمر الطاعة إلا بخصلتين : الرغبة والفراغ ، وأحدهما أنفع من الأخرى ، الرغبة أنفع من الفراغ » .

قال رضي الله عنه : « من لا يعرف قواعد الصوفية يظن أنه تُفَاض عليهم العلوم كذا بلا شيء وهم جلوس . لا ، بل لا بُدَّ من الإقامة بالكتاب والسُّنة أولاً ، ثم يفتح الله بعدُ عليهم بها ، وهي علوم عين اليقين ، بعدما تنظَّفت قلوبهم من المذمومات وتحلت بالمحمودات ، وهو حاصل من الإقتداء بالكتاب والسُّنة ، وهو معنى المجاهدة التي وُعِد عليها بالهداية ، فَمِنْهُ تحصل العلوم اللدنية . ومن جلس ينتظر من غير اتِّباع لهما ، من أين يحصل له ذلك ؟ وقد كانوا يحصل لهم من الأنوار والعلوم والمعارف ما لم يعبَّر عنه ، وأما اليوم فقد تغيَّرت القلوب من أكْلِ الحرام والشُّبَه » هـ .

أقول : أي يعني لا يعرف ما عادتهم واعتمادهم عليه ، وهو أمران : فعلٌ ظاهر : وهو العمل بظاهر أحكام الكتاب والسنة ، واعتقادٌ باطن : وهو بعد إحكام الأحكام ، يرجو أن يكون قد كتب له نصيب من الفتوح ، ولا يكون ذلك إلا بذلك، ويُسمَّى : « الإستعداد » كما تقرَّر هنا في أماكن متعددة ، لتأكيد التفهيم لمعناه، ويتعلَّق رجاه واعتماد قلبه بربه ، ولا يلتفت بقلبه إلى عمله ، ويجتهد في عمارة قلبه وتنظيفه من مذمومات الأخلاق ، وتزيينه بالأخلاق المحمودة وهذا من أعظم قواعدهم ومعتمدهم. ومجمع الأمرين هو الإقتداء بالكتاب والسُّنة ، وهذا هو ما إلى العبد ، وما وراء ذلك هو إلى الله ، والله يفعل ما يشاء ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾، ويؤتي الفضل من يشاء، ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾، ومن عجز عن ذلك فإنما ينال بإعانة الله وتوفيقه وتسديده .

وقوله : « **المجاهدة التي وُعِد عليها** » ، أي الهداية في قوله تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ ، وتقدَّم قوله : « **إن أكَلَ الحرام ولا يعلم بحُرمَتِهِ لا يأثم ، ولكن يؤثِّر في القلب إظلام** » ، فهذا الأثر هو الذي مَنَعَ حصول الأنوار والعلوم والمعارف ، وهذا مع عدم الحرمة لعدم المعرفة ، فكيف به إذا اجتمع معها وحصل معه الإثم أيضاً ، ونبت اللحم عليه وصارت النار أولى به . ولذلك عُدِمَت أيضاً همة الفتوح التي ذَكَرَها ، فصار ذو التقوى يأثم أيضاً في هذا الزمان ، كالمضطر الذي يأكل الميتة لسَدِّ الرَّمق .

وذَكَرَ سيدنا حديث : « لو كانت الدنيا دماً عبيطاً ، لكان قوت المؤمن منها حلالاً » ، *ثم قال* : « **لأن المؤمن الكامل الإيمان لا يأكل إلا للضرورة ، لا للتشهي . كمن يأكل للضرورة لسدِّ الرَّمق كأكل الميتة، فإن كان حلالاً فذاك ، وإلا كان أكله للضرورة مباحاً ، فيكون أكله حلالاً على كل حال** » .

وتعريف المؤمن في الحديث : أي المؤمن المعهود وهو الكامل الإيمان ، حيث أطلق لفظ المؤمن في الكتاب والسنة ، فيُرَاد به هو دون غيره من سائر المؤمنين ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، إلى آخر هذه الآيات وغيرها ، وكما في الحديث : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » ، وليس كل المؤمنين كذلك ، ولو خصَّصنا الإيمان بمن هو على هذه الأوصاف لأَخْرَجْنَا أكثر الأمة عن الإيمان من كل من أقَرَّ بلسانه وصدق بجنانه وعمل بأركانه ، سيما وقد حصر الإيمان في الآيات المذكورة بأداة الحصر ، وهو لفظة : « إنما » من اتصف بتلك الأوصاف ، ونفى في الحديث المذكور الإيمان عن من لا يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، فدَلَّ على أن المراد بالمؤمن في كلام الله وكلام رسوله، المؤمن الكامل .

ويناسب ما في الحديث من قوله : « دماً عبيطاً » ، أن الشيخ أحمد بن عبدالقادر باعشن صاحب الرباط من بلاد دوعن - وكان من أهل الحقائق ، وطريقته شاذلية - كان مجاوراً في المدينة مع جماعة من أهل بلده ، فاجتمع فيها برجل شاذلي من أهل المغرب ، فأخذ عنه تلك الطريقة وفتح الله عليه : رأى أنه وقع سيل من دم طَبَقَ الأرض كلها ، وأنه تعلَّى هو وأصحابه فوق تلٍّ مرتفع ، ولا أصابهم منه شيء، فأخبر شيخه بالرؤيا ، فقال له : « من أين تأكلون في بلادكم ؟ » ، قال : « لنا أراضي في بلادنا ، نرثها عن آبائنا عن أجدادنا ، فإذا جاءها السيل حرثناها فأكلنا مما حصل لنا منها » ، فقال له شيخه : « إن الحرام قد طَبَقَ الأرض كلها ، وأنتم تأكلون حلالاً » ، أو كما رأى وكما قال له .

وقول سيدنا : « **لا بد من العمل بالكتاب والسُّنة أولاً ، ثم يفتح الله بها** » ، أي بتلك العلوم : علوم علم اليقين ، وحق اليقين ، وعين اليقين ، على ما ذَكَرَه الشيخ أبوبكر بن عبدالله في آخر قصيدته : « هبَّت نسيم المواصلة » ، التي شرحها سيدنا عبدالله ، فانظره ترى العجب العجيب .

وهذا معنى قوله المتقدم : « **يحصل العلم من وجهين : إما من الفهم ، أو من العمل** » ، فهذا هو الذي من العمل المشار إليه في الحديث : « من عمل بما يعلم ورثه الله علم ما لم يعلم » ، أي علَّمه علم الوراثة ، المخصوص به الصدِّيقون ، الذي علَّمه الله الخضر ، كما قال تعالى : ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ ولقوله تعالى : ﴿مِن لَّدُنَّا﴾ ، يسمى العلم اللدني ، وهو علم الإلهام الذي أشار إليه في الحديث: « إن من الناس محدَّثين منهم عمر » ، أو كما ورد . ومنه مكاشفته سارية ، وكلامه في بعض أمور ونزل بها القرآن ، كقوله : ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ ، وقوله : « يا رسول الله احجب نساءك لئلا يدخل عليهن البر والفاجر » ، فنزلت آية الحجاب . وقرأ النبي ﷺ على عمر : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢﴾.. إلخ ، فتعجب عمر فقال : « تبارك الله أحسن الخالقين » ، ثم ختم الآية بها وهي آخرها ، فقال ﷺ : « سبقتني بها وإنها منها » ، أو كما وقع وغير ذلك .

وهذه المقالة من قوله إليه في المقدِّمة ، أني قرأته على الشيخ الزين المزجاجي صاحب التُّحَيتا من أعمال زبيد ، فتمعَّر وجهُهُ وظهر عليه أثر الحنق ، ثم قال : « يا ولدي ، أنصحك لوجه الله لا تنقل كلام المشايخ » .. إلى آخر ما تقدَّم .

وسألت سيدي عبدالله نفعني الله به : ما المراد بالعلوم التي ذَكَرَ الإمام الغزالي في كتاب « الأربعين الأصل » ، أنه اختلف في سبب تحصيلها النُّظَّار والصوفية ، وذكر سبب ذلك عند كل منهما ؟

فقال رضي الله عنه : « **تلك حقائق العلوم ، التي هي غاية كل علم ، فإن كل علم له حقيقة وسبب يُتَوَصَّل به إلى حقيقته ، كمعرفة الملائكة وما ذُكِر من أمور الآخرة فتوصل الصوفية إلى تحصيلها بالمجاهدة ،**

حتى بلغوا حقَّ اليقين فيها الذي لا شك فيه ، فصار قولهم قولاً واحداً . وأما النظار الذين توصَّلوا إلى تحصيلها بالقياس والدليل ، وتشبيه الشيء بالشيء فيُقَاس عليه ، فلم يبلغوا من حقيقة اليقين مثل ما بلغ إليه أولئك ، ولهذا ترى لهم في المسألة عشرة أقوال ، لكون مبلغ علمهم الظن ، فيقولون لكلِّ قولٍ من العشرة : لعل هذا هو حقيقة اليقين . والصوفية إنما كان قولهم قولاً واحداً ، لما حصل معهم من تحقّق حقيقة اليقين » ، قلت : فالأمر الذي رأوه عندهم لا شك فيه ، كالذي رأى الشيء بعينه لا يشك فيه ؟ قال : **« نعم »** .

قال رضي الله عنه : **« لا يفتح على أحد في العلم حتى يطلبه ، ويعتقد أنه خلي منه ، لأن المظاهر الدنياوية قد تُنقص من المظاهر الأخراوية »** هـ .

أقول : **« قد »** هنا للتحقيق لا للتقليل ، يعني تحقيقاً أنها تُنقص ، ولهذا تركها الأنبياء والأولياء والصديقون خوفاً من تنقيصها ، وقد ورد : « أن من نال من الدنيا حظًّا ، نقص من حظه عند الله بقدر ما نال من حظ الدنيا ، ولو كان له منزلة عالية عند الله » ، أو كما قد ورد . وهذا يحقِّق معنى قوله هذا ، وأن : **« قد »** للتحقيق ، ولهذا تركها المذكورون .

وهذا أيضاً إذا حصل بحسب القسمة والنصيب ، لا في مقابلة عبادة ، كما دلَّ عليه سير الأكابر المذكورين ، فإنها تتحاشى أن يطلبوا الدنيا في مقابلة أمر ديني، وفي هذا رد على من زعم من الدَّرسة والمتظاهرين بالتديُّن المتهافتين على جلب أطماع الدنيا بعباداتهم من صلاة بجماعة بأجرة ، وقراءة كتاب الله طول العام بسفساف طمع الدنيا ، لقد خابوا وخسروا واشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً ، ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴾، وأي خسران أعظم ممن باع ثواب كل حَرف بعَشْر حسنات بطمع دنيا ، فإنه جاء أن كل حَرف يقرأ في الصلاة قائماً بمائة حسنة ، وقاعداً بخمسين ، وخارجها على وضوء بخمس وعشرين ، وعلى غير وضوء بعشر .

فإذا باع ذلك بأطماع الدنيا ، ﴿فَقَدۡ خَسِرَ خُسۡرَانٗا مُّبِينٗا ﴾، ومع ذلك يُمَنِّيهم الشيطان بغروره أن ذلك لا ينقص أجر تلك الأعمال الموعود به عليها ، بشرط الإخلاص فيها لوجه الله لا لشيء آخر ، كما قال تعالى : ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾، فيزعمون أن فعل العبادة بطمع الدنيا لا يُبطِل الإخلاص ، ولا يلتفتون إلى ما شَرَطَ على تحصيله ، كقوله ﷺ : **« من توضأ وخرج من بيته إلى المسجد للصلاة ، لا ينهزه إلا الصلاة ، فله بكل خطوة تكتب له حسنة، وتمحى عنه سيئة ، وترفع له درجة »** ، قوله : **« ينهزه »** ، أي لا يُنهضه للقيام إلا مجرد الصلاة ، فإن كان ما أنهزته الوظيفة فما يقال في ذلك ، فقد أخَلَّ بالشرط، وإذا فُقِد الشرط فُقِد المشروط ، وهذه قاعة مطردة ، كما لا تصح الصلاة

مع فَقْد شرطٍ من شروطها .

وتقدَّم عند قوله : « **من تحرِّكه الرغبات الدنيوية لم يكن للرغبات الأخروية أهلاً ، كمن يسمع أن من صلى الضحى تيسَّر رزقه ففعل لذلك ، فلا يقل : أرجو به الجنة** » ؛ ما فيه كفاية ، وهذا مع أن لصلاة الضحى طالب تيسير الرزق من الله لا ممن سواه ، فكيف إذا طلب الرزق بالعبادة من المخلوق ، فلا أقبح ولا أفحش من ذلك .

قوله: « **ويعتقد أنه خلي منه** »، يُفهِم هذا المعنى قوله تعالى : ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ﴾ ، فإنه شَرَطَ في حصول العلم خلوه من الكِبر وهو التواضع ، وإذا استشعر في نفسه أن عنده علماً سمجت نفسه فتكبَّر ، ففاته العلم المشروط في حصوله التواضع ، وقد شرطه في حصوله ، سيما العلم اللدني ، فإذا اعتقد خلوه من العلم ، تواضع وانكسرت نفسه عن الكِبْر ، والله عند القلوب المنكسرة .

قال الشعراوي : « ونحن نعلم أن ثَمَّ عِلْماً اكتسبناه من أفكارنا ومن حواسنا ، وثَمَّ عِلْماً لم نكتسبه بشيء من عندنا بل هبة من الله تعالى أنزله في قلوبنا وعلى أسرارنا ، فوجدناه من غير سبب ظاهر . وهذه مسألة دقيقة ، فإن أكثر الناس يتخيَّلون أن العلوم الحاصلة عن التقوى علوم وَهْب وليس كذلك، وإنما هي علوم مُكْتَسَبة بالتقوى ، فإن التقوى جعلها الله تعالى طريقاً إلى حصول هذا العلم فقال: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾، وقال تعالى : ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾، كما جعل الله الفِكْر الصحيح سبباً لحصول العلم ، لكن بترتيب المقدِّمات ، وكما جعل البصر سبيله لحصول العلم بالمبصرات ، والعلم الوهبي لا يحصل عن سبب ، بل من لدنه تعالى .

فاعلم ذلك حتى لا يختلط عليك حقائق الأسماء الإلهية ، فإن الوهاب هو الذي يكون إعطاؤه على هذا الحد ، بخلاف الإسم الإلهي الكريم أو الجواد ، فمن لا يعرف حقائق الأمور لا يعرف حقائق الأسماء ، ومن لا يعرف حقائق الأسماء لا يعرف تنزيل الثناء على الوجه اللائق به .

فَتَنَبَّه يا أخي ولا تكن من الجاهلين ، فقد عَلِمْتَ أن علوم الوَهْب كلها لدنية غير مكتسبة بحكم الإرث لرسول الله ﷺ ، وأما غير الوهبية فهي مُكْتَسَبة ، كالذي يعمل بما عَلِم فيورثه الله علم ما لم يكن يعلم . وهكذا كل ما للإنسان فيه تعلُّم وطلب بالخلوة والرياضة ونحوها كَسْبي لا وَهْبِي ، ثم لا يخفى أن الله تبارك وتعالى ما أعطى أحداً من العلم إلا بقدر ما يَقْبَله استعداده كثرة وقِلَّة ، وما لم يطق الخلق حمله لم يُعطِهم الله تعالى » ، انتهى كلام الشعراوي .

قال كاتبه : تقدَّم لنا أن معنى الإستعداد هو ما كتبه الله للعبد في سابق أزله من كل شيء قد يناله قلَّ أو كثر ، وأراده سبحانه له ، فلا يحصل له إلا بقدر ما كتبه له ، والكتب عبارة عن إرادة الله سبحانه

ذلك له ، فكل ما أراده سبحانه كتبه في اللوح المحفوظ ، فكل ما ذكر الكتب فيراد به ما أراده سبحانه، كقوله تعالى : ﴿وَٱبۡتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾، أي ما أراده لكم .

ومثل الإستعداد البخت والحظ والنصيب ، فكل ذلك المراد به ما كتب له ، أي أراد له أنه يناله ، فيناله لا محالة ، فإذا حصل له ذلك فيقال : فلان له بختٌ وحظٌّ ونصيب ، وعكسه إذا لم يرده له فلا يناله بوجهٍ ، فيقال : فلان ما له بختٌ ولا حظٌّ ولا نصيب . واستحقاقه له بالكتبة هو الإستعداد ، لا أنه حصَّله باجتهاده وحَوْلِهِ وقُوَّته ، ولو أنه سعى فيه واجتهد ، فلولا الكتبة له به ما ناله ، وهو معنى قول الشعراوي : « إن الله تعالى ما أعطى أحداً من العلم إلا بقدر استعداده » ، أي بقدر ما أراده الله له وكتبه .

فافهم هذا المعنى فإنه دقيق ، لغفلة أكثر الناس عن الله في أفعاله الصادرة على أيديهم ، فلا يرون إلا ظاهر الحال أنه حصل لفلان ما حصل باجتهاده وسعيه ، وغافلون عن هذا المعنى ، حتى إن أفعالهم في تسببهم في حصول الأشياء خلق لله لقوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ۝٩٦ ﴾ ، فمن أراد له الجزاء بالخير يسَّره لفعل الخير وأعانه عليه وجزاه عليه بما وعده به ، ومن أراد له جزاء الشر جذبه إلى فعله وجزاه عليه .

وافهم هنا معنى آخر دقيقاً : أن الأسباب الجارية على أيدي الخلق لا تفيد شيئاً من مسبباتها قط إلا إن وافق الكتبة - أعني إرادة الله - ومع ذلك حضر وقته الذي وقَّته سبحانه به ، فإنه سبحانه لمَّا حَكَمَ بوجود الأشياء قدَّرها في أوقات مخصوصة لكل واحد منها وقتٌ لا يتقدَّمه ولا يتأخَّره ، فإذا وافق سببه وقته الذي وقَّت له حصل بإرادة الله أن يكون الأمر كذلك ، وإلا فلا . وهو معنى قول سيدنا : « **الأشياء بأوقاتها لا بأسبابها** » ، فإنا نرى كثيراً من الأسباب تقع ، ولا تقع مسبباتها إلا في أوقاتها .

ومثاله : أن العلة لو كان لبرئها ألف دواء مجربة ، لا يقع البرء إلا في وقته الذي وقَّته الله به ، فمن جرَّبه رآه حصل بسببه ، وقد حضر وقته ، فوافقه السبب ، فينظر إلى ظاهر السبب وما علم بموافقته وقته ، فأطلق القول أنه مجرَّب مطلقاً ، وليس كذلك إلا في وقته ، وقال سيدنا : « **إن المقادير كامنة في الأسباب كُمُون الأرواح في الأشباح ، فالأسباب تظهر في الدنيا وتخفى في الآخرة ، والمقادير تخفى في الدنيا وتظهر في الآخرة** » ، أو كما قال .

قال : « ما جَرَّ إلى خير فعاقبته إلى خير ، وإن كان في ظاهره شرًّا ، وما جَرَّ إلى شر فعاقبته إلى شر ، وإن كان في ظاهره خيراً ، والعاقبة للخواتيم » هـ .

أقول : الذي يظهر لي أن مثال الأول : الأمراض والإمتحانات ، إذا لم تكن عقوبة على معاصي ، فإن ظاهرها شر وبلاء ، وهي تجرُّ إلى خير وهو الثواب وتكفير الذنوب . فعاقبتها ، أي الذي يعقبها خير وهو الثواب ، كما ورد : « حُمَّى يوم ، كفارة سَنَة » ، ومثال الثاني : الظلم والمعاصي ، فإنها شرٌّ وتجرُّ إلى شر وهو الإثم ، فعاقبتها وما يعقبها الإثم والعذاب ، وإن كان في الظاهر في الدنيا فيها لذة للنفس، ويراه خيراً .

قوله : « **والعاقبة للخواتيم** » ، أي كل أحد يعقب فعله خاتمته ، فما تقتضيه الخاتمة ، إن خيراً فخير وإن شرًّا فشر ، من أي القسمين كان ، على ما تقدَّم مما نقل من حديث ابن مسعود : « إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة .. » إلى آخر معنى الحديث ، فإن كانت عقوبة على معاصي ومات على الإسلام فهو في مشيئة الله هـ .

قال رضي الله عنه : « **كأن هذا الوقت مقدَّمة للحشر** » .

ثم قال : « **أعني غير الحشر المنتظر ، لأن كلًّا يقول : نفسي نفسي ، فقط** » هـ .

أقول : يعني لسان حال الناس في هذا الوقت ، حيث أن كلًّا مشغول بما تهوى نفسه من شهواتها في الدنيا ، مع غفلتهم عما ينفعهم في الآخرة ، ولا يلتفت إلى سوى ذلك ، فكأنه يقول : نفسي نفسي ، كما يقوله الشفعاء من الرسل في الحشر إذا طلب منهم الشفاعة ، فما بالك بغيرهم ، فهذا شغلهم كما اشتغل أهل موقف القيامة بأحوالهم ، لا يلتفت أحد إلى أحد ، فكذلك الناس اليوم في شَبَهِهِم بهم ، فلا يبالي أحد بحقِّ أخيه أو يرحمه ، أو يأوي له من محنة هو فيها أو ضرورة يكابدها، ويرجو ثواباً في الآخرة بقضاء حاجة مسلم ، إنما همهم مقصور على نَفْع أنفسهم في الدنيا فقط ، لا نظر لهم إلى نفع الآخرة ، ولا أحد يهتم لأخيه أو يهمه ما يهمه ، إذا حصل له ما يهواه لا يبالي بأمر غيره ، كما هو شأن أهل المحشر .

وقد قال في بعض مكاتباته لبعض تلامذته في وصف أهل الزمان فقال : « **وهذا زمان قد رُفِعَت فيه الأمانة ، ورقت فيه الديانة ، وكثرت في أهله الخيانة، وأصبح الناس في أمرٍ مَريج ، مقصوراتٌ هِمَمهم على البطون والفروج ، سيَّان عندهم الهبوط والعروج ، لا يبالي أحدهم إذا نال مشتهاه من دنياه، كيف منزلته من مولاه ، فالله المستعان . ما هذه والله أخلاق المؤمنين ، ولا سجايا الموقنين ، بل هي شِيَم الجاحدين وشمائل الشياطين ، فَفِرَّ يا أخي من أهل الزمان فرارك من الأسد ، واجتهد في إصلاح المضغة التي إذا صلحت صلح سائر الجسد** » هـ .

قال رضي الله عنه : « إن الله أمر بأداء الواجبات ، من صلاةٍ وزكاةٍ وصوم وحجٍّ وغير ذلك ، والعبد يفعل ويرجو القبول ، وهو فيها أقرب من غيرها ، لأنها دَين لله ، والله مطالِب بها ، وقليل ما أحد يرد دَينه إذا أوصله المديون إليه ، ولو كان فيه خلل . وأما النوافل فهي تبرُّع ، فلا تُقبل إلا إن كانت على الوجه الأكمل » .

قال رضي الله عنه : « لا يكون من الأرض شيء من المنافع والفوائد إلا وله سبب سماوي ، وبالعكس، لا يحصل شيء من السماء من العقوبات مِن مَنْع قَطْر أو عاهة أو أي شيء إلا وله سبب أرضي . وإذا اعتبرتَ رأيتَ جميع الخيرات الدينية والدنيوية كلها إنما هي من السماء ، أو سببه من السماء ، فالقرآن نزل من السماء ، وهو السبب في الهداية ، والماء نزل من السماء ، وهو السبب في النبات » هـ .

أقول : يعني قد تكون تلك المثوبات والعقوبات مجازاة لأفعال من الخلق ، غير الأفعال العادية من الإرادة الإلهية ، يعني فالقرآن سبب حياة القلوب والأرواح ، والماء سبب حياة الأجسام والأشباح ، وكلاهما نزل من السماء ، وهذا كله هو خير الدنيا وخير الآخرة ، فجميع خير الدارين وسبب حياة الدارين من أمر الأرواح والأشباح نزل من السماء .

ولفظة : « ال » ، التي للتعريف في الماء للإستغراق ، يعني جميع المياه النازلة والنابعة والخيرات الدنيوية والأخروية ، كلها أصلها من السماء تحقيقاً لما قال رضي الله عنه . والدليل على كون النابعة أيضاً من السماء قوله تعالى : ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، وقوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

فدلَّت هاتان الآيتان وما في معناهما من الآيات ، أن الماء النابع أصله من السماء هـ .

قال رضي الله عنه : « العافية هي الستر للإنسان ، وعليها المعوّل في طلب الدين والدنيا » .

وذَكَرَ رجلاً ادَّعى ما ليس هو له أهل ، **فقال** : « أحد من الناس يشمخ بنفسه ، ولم يكن شيئاً » ، **ثم قال** : « أقل أحوال أهل الحق أنهم يتواضعون وينصفون إذا ما رأوا صفاتهم المذمومة . وأقل ما في حال الداعي إلى الله أنه يتكلم على الناس بما يرقِّق قلوبهم ، وإن تعدَّدوا من قائم ظاهر للناس يدعوهم، إن كان هو القطب فذاك ، وإلا فهو نائب عنه . والقطب إن كان من أهل الخمول ، ينصِّب أحداً ظاهراً ويدعو له ، فيعيش ذاك في بركته ، ومن افترقت الكلمة بسببه فيدعوا عليه الباقون » ، أي القطب ونوابه.

وسألته عن كلامٍ تكلَّم به في مجلس القراءة في الداعين إلى الله ، القطب أو من ينوب عنه ، **فقال** :

« القطب إذا لم يتأهَّل للظهور – أي لا نصيب له فيه ، أي لم يرد الله له ذلك – في الدعوة إلى الله ، يستنيب من فيه أهليَّة – أي من له فيه نصيب – وذَكَرْنَا كلام الشعراوي ، وهو ألَّا في من كان شيخاً ومعه تلامذة، وجاء آخر ومعه كذلك، ودَعْوَتهم مختلفة ، فيدعون عليه – أي الداعون إلى الحق – القطب أو من ينوب عنه، لأنه معترض باغ . ولهذا لا يجوز إمامان في وقت واحد ، وإن كان قصدهم كلهم الدعاء إلى الله ، فيسلِّم أحدهما الأمر للآخر ويصير تابعاً له ، حتى إن بعض الداعين إلى الله من مشايخ مصر يقال له الحسن ، أتاه شيخ يقال له يوسف ، وكلاهما على الطريقة ، قال الحسن ليوسف : إما أن تكون تابعاً لي ، وإلا أنا أكون تابعاً لك . واختار الحسن أن يكون تابعاً ، فبقي كأنه من تلامذته .

وحُكِيَ أن موسى عليه السلام لما كثرت عليه بنو إسرائيل وتدافعوا على بابه ، سأل الله أن ييسِّر من يدعو إلى الله معه ويعينوه على ذلك ، ويخفُّوا من تزاحمهم عنده ، فأوحى الله في تلك الليلة إلى مائة أو مائة وعشرين ، فكان هؤلاء أنبياء ، فتفرَّقوا عنه حتى لم يَبْقَ عنده منهم أحد ، واجتمعوا على أولئك الأنبياء، فلما رأى ذلك غار فدعا عليهم ، فماتوا كلهم في ليلة واحدة . ولما بعث الله إلى موسى عليه السلام ملك الموت لِقَبْضِهِ ، ثقل عليه الموت ، فأوحى الله إلى يوشع بن نون فنُبِّئ ، وقال الله تعالى : لا تُعلِم موسى بأنَّا أوحينا إليك . فرأى موسى كأن الله أوحى إلى يوشع، وأَمَرَه أن لا يُعلِمه ، فلما أتى يوشع إلى موسى، سأله موسى : بماذا أوحى الله إليك ؟ فأبى أن يُعلِمه ، وقال له : أما كان يوحى إليك قبلي ، فلا تُعلِمني بما أوحِيَ إليك ولم أسألك عنه ، فلِمَ تسألني ؟ فقال موسى عليه السلام : أما الآن فلا طيبة لي في الحياة .

ونحن إذا رأينا من يدعو إلى الله على الطريق العامة ويُعَلِّم الناس ، وإن لم يكن صَحِبَنَا نفرح بذلك، وإنما نتكلم على من يدَّعي أنه من أهل الطريق الخاصة ، ويرى أنه من أهل الباطن ويدعو إلى ذلك ، فننظر إن كان حقًّا ما يقول ، فيسلِّم لمن هو أكمل منه ، وإلا كان مفتناً ، وإن قدرنا على منعه منعناه .

وقد جاء رجل من جماعتنا – أي السادة – جاء من الحرمين ومعه إجازات من جملة مشايخ ، وقال: اجتمعت بفلان وفلان . وجاء إلى تريم يريد يصير صاحب طريقة ، وبقي يتلقَّط الذين قد صحبونا ، فقلنا له : إن هؤلاء قدهم مربوطين ، فخذ من لم يصحبنا ولم يجتمعوا بأحد . فبقي على ذلك ، فرأيت في النوم كأني خارج من مسجد الهجيرة إلى الطريق الشارعة ، وهو ضيق ، وإذا بالشيخ محمد بن علوي صاحب مكة قائم في الطريق ، وذلك الرجل ومن معه قائمين في جانب الطريق ، فقال لي السيد محمد بن علوي : أنا أمر ، وأنت مر بعدي . فمَرَّ السيد محمد ومريت بعده ، ولم يمر أولئك وبقوا ، وبعد هذه الرؤيا ما استقام لذلك الرجل أمر ، فرجع يقرِّي في الفقه .

ونحن ما بيننا وبين الناس شيء ، ومن يدعو لنا في جميع أقطار الأرض ويحبونا أكثر من الذين يبغضونا ، لأنَّا ما نازعناهم في شيء من أمور الدنيا ، ولا طلبناهم أموالهم » .

وتكلَّم كثيراً ، ثم قال : « **أمسكوا الحبل بطرفيه ، ليمتسك لكم الأمر ، وإن أخذتوه بطرفٍ واحد انْتَثَرَ عليكم** » أو كما قال ، وهذا ما أدركناه من جملة ما تكلم به في هذا المجلس المنور ، وهو ضحى يوم الأحد في السبير داخل بستان الليمة ١٣ صفر سنة ١١٢٤ .

ولما فرغ من كلامه هذا قلت له : يا سيدي نسمع كلامكم هذا وأمثاله ، فنحرص على حفظه ونكتبه على ما فهمنا ، فلا ندري هل فهمناه على ما يوافق مرادكم أم لا ، ولكنا نتحرى لفظكم إن أمكن ، وإلا كتبناه على ما ظهر لنا ، وربما حصل زيادة أو نقصان ، فقال : « **اكتبه ، وعادك تعرفه** » .

وتقدَّم أني رأيت سيدنا ليلة الجمعة في المنام ، وذلك ١٣ من ربيع الأول سنة ١١٢٦ في جَمْعٍ في مسجد السبير ، وهو يتكلم عليهم ، فسمعته يقول ، وهو يعنيني بهذا القول « **فلان** - أي الحساوي - **مهيَّم القلب ، والقلب المهيَّم لا يتأهَّل للواردات الإلهية ، ولا يحصل الهيام إلا لقلب فارغ** » ، ثم إني أخبرته بذلك وبالرؤيا بجملتها يقظة ، وقلت : أأكتبه في جملة ما أكتب ، مما أسمعه وأحفظه من كلامكم ؟ فقال : « **اكتبه** » ، ثم إنه رضي الله عنه شرحه فقال : « **الهيام أو الغرام من أسماء المحبة ، والهيام هو الواردات الإلهية بنفسها . فلا يتأهَّل : أي لا يحتمل القلب المهيَّم من الواردات أكثر مما هو فيه ، ولا ترد إلا على القلب الخلي** » ، انتهى ما فسَّره به .

وقوله : « **الخلي** » ، أي من الأخلاق المذمومة .

وقوله المتقدم : « **والقطب إن كان من أهل الخمول ينصِّب أحداً ظاهراً** » ، يعني أن الظهور والخفاء نصيب مقسوم من الله لمن قسم له ، من فاضل أو مفضول، فقد يكون للمفضول منه نصيب كبير ، ولا يكون للفاضل منه شيء ، فعند ذلك إذا لم يكن للقطب الداعي إلى الله من الظهور نصيب ، استناب من له منه نصيب، فيظهر للناس ويعلِّمهم ويدعوهم إلى الله ، وإن كان له فيه نصيب ، ظهر للناس بنفسه ودعاهم إلى الله كالشيخ عبدالقادر والشيخ عبدالله العيدروس وغيرهما نفع الله بهم، وإذا لم يكن له نصيب في الظهور استناب ظاهراً بقي يمده ، كحال غالب ساداتنا أبي علوي ، كالفقيه المقدم والشيخ عبدالرحمن السقاف وغيرهما . وأما ابنه الشيخ عمر المحضار نفع الله بهم فكان له في الظهور نصيب ، ولهذا ذُكِرَ عنه أن عشرين خلفه وعشرين أمامه ، أن كلهم في مقامه ، ولكن لا نصيب لهم في الظهور، فأقاموه نائباً عنهم في الدعوة ويمدونه .

وسيأتي هذا الكلام مُبَيَّناً معناه عن قول سيدنا عبدالله ، وقد يكون لهم بعض ظهور ، وبودِّهم إن لم يكن ، ويفرحون بعَدَمِهِ ، ويَشْهَد لذلك أن الإمام مالك رضي الله عنه كان تأتيه القوافل من مصر والشام إلى المدينة يروون عنه أحاديث ربيعة بن عبدالرحمن ، التي رواها عن الصحابة رضي الله عنهم،

عن رسول الله ﷺ وحفظها عنهم ، وربيعة جالس في زاوية من المسجد يستمع ذلك ، وما أحد روى عنه حديثاً ، ولو حدَّثهم ما أقْبَلوا عليه كما أقْبَلوا على الإمام مالك ، فقال له رجل : « ما بال الناس يروون حديثك عن مالك ، ولا يروونها عنك ؟ » ، فقال : « إن مالكاً أُعطِيَ نصيباً وافراً من الظهور ، ومثقال من الظهور أعظم من مائة بهار من العلم » ، أي أعظم في الشهرة والظهور .

فانظر كيف ظهر تلميذه وحدَّث عنه وخفي هو ، حتى ما التفتوا إليه ، فَتَعْلَم أن ما الشهرة والظهور إلا بالنصيب والقسمة من الله للعبد ، ولا للعبد في تحصيله حول ولا قوة ، وهو معنى ما تقدَّم من البخت والنصيب والإستعداد والحظ ، بمعنى أنه لا يُنال منه شيء ، لا ذلك ولا غيره ، إلا بالقسمة الإلهية ، والأسباب لا تفيد شيئاً إلا بالقسمة وموافقة الوقت المؤقت له .

ولذلك قال لي عشية يوم الخميس ١١ ربيع الأول سنة ١١٢٥ : « **من طلب وأراد شيئاً من أحوال الصالحين ، فليطلب ذلك ويستثمره بالأعمال الصالحة الخالصة والأخلاق الحسنة ، ويطلبه من الله بذلك ، ولا يطلبه منه بغيرها ، ثم يطلب منه لها الزيادة والترقِّي ، فإن هذه الأمور تُثمِر له ذلك إن كان له نصيب ، والله هو الفاعل إذ ما كل حبة تجيب سبول . فتراك ترى كثيراً من الناس ، يا صلاة ويا صيام ولا حصَّلوا شيئاً لعدم ترقِّيهم ، فإنهم بقوا جامدين على ذلك ، ولم يطلبوا الزيادة والترقِّي ، ولكنهم على خير لا يخلون منه . ولا عاد نوصي إلا بالإحياء ، كما أوصى بها السلف ، وفي الفقه : المنهاج، لأنه مُغَرْبَلْ ، وفي كل كتب الحديث خير ، البخاري أو مسلم أو رياض الصالحين أو الأذكار ، إلا إنه لا يُمعِن جدًّا** - أو قال : **لا يتقعَّر - لأن ذلك يريد قوة في الإدراك والفهم والتحقيق ، وما ندري ماذا يصير الأمر بعدنا . ولكن احفظوا عنا ما ذَكَرْنَاه ضحوة وقت القراءة من أمر الدجال ، لأن النبي ﷺ قال : إن ظهر وأنا فيكم فأنا حجيجه ، وإلا فامرءٌ حجيج نفسه** » .

وقد ذَكَرَ ضحى هذا اليوم في مجلس القراءة المسيح الدجال ، *فقال* : « **ما جاء أنه يمسح الأرض - أي يمر عليها - لا يلزم من ذلك أنه يعمّها كلها ، بل يطلق هذا على الأكثر ويحصل به العموم ، لأنه جاء أنه لا يدخل مكة ولا المدينة ، وفي الجبال حصن حصين منه ، فعلى من خافه بها ، إلا إن كان يرسل لمن بَعُدَ منه ، لكن ما له رُسُل ولا طلائع يبعثهم ، وإنما هو مفرد برأسه . وقد مَرَّ علينا في آثار ضعيفة جداً أنّ مَن كان في الأموات ممن لو حضره لأجابه ، يجيبونه من قبورهم ، ولكن لا يصح هذا** » ، أو كما قال .

وهذا ما أشار إليه أنه ذَكَرَه في مجلس القراءة من أمر المسيح الدجال ، ومن أشدِّ ما ورد من فتنته أنه إذا دعا أحداً وأبى من إجابته أن ما عنده من المال يطير إليه ويترك صاحبه ابتلاء من الله ، والقلوب اليوم متعلِّقة بالأموال ، فنعوذ بالله من الإبتلاء والفتنة .

قوله : « لعدم ترقِّيهم » ، يفهم أن ذلك سبب مانع لهم عن المحصول . وفي الحقيقة إنما مُنعوا من ذلك السبب لعدم القسمة لهم في ذلك ، وأيضاً لو فعلوا مع عدم القسمة ما حصلوا ، ويدل عليه قوله: « فإن هذه الأمور تثمر له ذلك إن كان له نصيب » ، أي فمع عدم النصيب لا تثمره .

قال : « خُذْ نَفْسَك ما سَهُل عليك - أي من العمل - واحْكِمْهُ ، ثم تَرَقَّ إلى ما هو أعلى منه ، وهكذا الأول فالأول ، وترَقَّ من درجة إلى ما هو أعلى منها ، ولو فعلتَ بعضاً من هذا وبعضاً من هذا لبقي كلٌّ منهما محجوزاً - أي ناقصاً - ولكنك تِمّ الأول ثم ارجع إلى الثاني وهكذا . وخذ من العمل ما تطيق ويمكنك المداومة عليه، ولا تكثر حتى تمل ، فتفعله حينئذٍ مع الملل والتكلف ، فإن هذا وَصْف المنافقين، قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ ﴾ ، فذمهم بالفعل مع الكسل لا بعدم الفعل. ولا تقصِّر بحيث لا تعمل شيئاً ، فإن الله ما كلَّف العبد بشيء إلا وجعل له من المعونة أضعافه . ونحن وإن لم نُحكِم كل المقامات بالعمل ، فنحكِمها بالعلم ونعمل بعمل العامة ، ونأخذ الناس بأعمال العامة ، على ما سَهُلَ عليهم وتيسَّر أولاً ، ثم نرقِّيهم ونأمرهم بما يناسبهم أولاً ، ثم إلى أعلى منه ، وبهذا السبب تَبِعَنا ناس كثير ، أكثر ممن اتبع المشايخ ممن مضى ، لأنَّا نعلم ضعف الناس اليوم وعجزهم ، ولو كلَّفناهم أن يعملوا بما نعمل - أو قال : بما نريده منهم - لنفروا عنَّا بمرة .

انظر عمر بن عبدالعزيز ، لم يساعده زمانه على الكلام الذي قاله له ابنه عبدالملك وهو في القرن الأول ، أفيساعدنا على ذلك زماننا هذا ونحن في القرن الثاني عشر ؟ ولو قلنا لأهل تريم : افعلوا كذا . ونأمرهم بما أردنا ، لما جاءنا منهم واحد ، وهذا هو الذي منعنا من الكلام في هذه العلوم ، لأن الكلام فيها يؤيِّسهم ، وهل تحاول الغزل المبلول إذا اشتبك بما تحاول به الحبال القوية من القوة ؟ لا ، بل باللطف والسهولة . فخُذْ من العمل ما خَفَّ وسَهُلَ عليك ، ثم ترقَّ من شيء إلى شيء، فسيروا إلى الله عرجاً ومكاسير » هـ .

وكلامه هذا كله تكلم به من حين جلس في الضيقة - أي الدهليز - خارجاً لصلاة العصر يوم الأحد ٦ شوال سنة ١١٢٦ ، كما هي عادته الجلوس حين خروجه لصلاة الظهر والعصر ، ثم يتكلم بما اتفق فيما يجتمع الجماعة ، ثم يدخل المصلى ليصلي بهم . وهذا كلامه إلى أن قام داخلاً ، وآخر كلمة قالها بعدما وضع رِجْله في حوش المصلى داخلاً ، وهي قوله : « فسيروا إلى الله عرجاً ومكاسير » ، من شدة اعتنائه بهذا الكلام ، لرغبته للناس العمل عليه ، والله الموفق .

وسمعته قبل هذا بزمان يقول : « لو عملنا بكل ما نعلم ، لعادانا كل شيء حتى ثيابنا التي على ظهورنا » .

وقوله في المنهاج أنه : « مغربل » ، يعني تداول على أيدي كثير وجرَّبوا بركته .

وقول ابن عمر بن عبدالعزيز لأبيه الذي أشار إليه ، هو أنه قال لأبيه : « يا أبتِ ، ما يمنعك أن تمضي لما تريد من العدل ؟ فوالله ما كنت أبالي لو غُلِيَت بي وبك القدور في ذلك » هذا قوله ، ثم أجابه أبوه بما أشار إليه سيدنا بقوله : « إنه ما ساعده عليه زمانه » ، فقال له : « يا بني ، إنما أروِّض الناس رياضة الصعب ، إني لأريد أن أحيي الأمر من العدل ، فأؤخِّر ذلك حتى أُخرِج معه طمعاً من أطماع الدنيا ، فينفروا من هذا ويسكنوا لهذا » ، ودخل على أبيه يوماً فقال له : « يا أمير المؤمنين ، ما تقول لربك إذا أتيته ، وقد تركتَ حقًّا لم تُحيِه ، وباطلاً لم تُمِتْه ؟ » ، فقال : « اقعد يا بني ، إن أجدادك خدعوا الناس عن الحق ، فانتهت الأمور إليَّ ، وقد أَقْبَلَ شرُّها وأَدْبَرَ خيرها ، ولكن أرجو أن لا تطلع عليَّ شمس يوم إلا وقد أَحْيَيْتُ فيه حقًّا ، وأمتُّ فيه باطلاً ، حتى يأتيني الموت وأنا على ذلك إن شاء الله » .

قال كاتبه : وقد أعانه الله ، وأتمَّ له نيَّته ، فأحيا أشياء كثيرة من الحق ، وأمات أشياء كثيرة من الباطل ، قال ابن حجر : « فملأ رضي الله عنه الأرض عدلاً كما ملئت جوراً ، حتى قال بعض التابعين: لا مهدي غيره ، فإن يكن المهدي غيره فهو عيسى بن مريم » .

ومما يدل على حسن سيرة عمر بن عبدالعزيز أنه كتب إلى أهل الموسم : « أما بعد ، فإني أشهد الله وأبرأ إليه في الشهر الحرام والبلد الحرام ويوم الحج الأكبر ، أني بريء من ظُلْم من ظَلَمَكم ، وعدوان من اعتدى عليكم ، أن أكون أنا أمرتُ بذلك أو رضيتُ به أو تعمدته ، إلا أن يكون ذلك وهماً مني، أو أمراً خفي عليَّ لم أتعمده، وأرجو أن يكون ذلك موضوعاً عني مغفوراً لي ، إذا علم مني الحرص والإجتهاد على اتباع الحق . ألا وإنه لا إذن على المظلوم دوني ، ألا وأي عامل من عمالي زلَّ عن الحق ولم يعمل بالكتاب والسنة ، فلا طاعة له عليكم ، وقد صيَّرتُ أمره إليكم حتى يراجع الحق وهو ذميم، ألا وإنه لا دولة بين أغنيائكم ، ولا أثرة على فقرائكم في شيء من فيئكم ، ألا وأي واردٍ وَرَدَ في أمر يصلح الله به خاصة أو عامة ، فله ما بين مائة دينار إلى ثلاثمائة دينار ، على قدر ما نوى من الحسبة وتجشم من المشقة ، فرحم الله امرءاً لم يتعاظمه سفر يحيي الله به حقًّا لمن وراءه ، ولولا أن أشغلكم عن مناسككم لرسمت لكم أموراً من الحق أحياها الله تعالى لكم ، وأموراً من الباطل أماتها الله تعالى عنكم ، فلا تحمدوا غيره ، ولو وكلني إلى نفسي كنت كغيري ، والسلام عليكم » .

انتهى ما عنَّ لنا من ذِكْرِ الخليفة العادل عمر بن عبدالعزيز ، حيث طرأ ذِكْرُهُ في كلام سيدنا عبدالله، وهو منقول من ترجمته من كتاب « مجمع الأحباب » ، وقد طوَّل فيها كثيراً كما هي عادته إذا ترجم ، أن يَذْكر حال المترجم له من حين يولد ونشوئه ، إلى أن بلغ ما بلغ .

وقد رأى سيدنا هذا الكتاب ببلاد تعز من بلاد اليمن ، عام مضيه إلى الحج ، فأعجبه جدًّا ، فعزم

على شرائه إذا قَفَلَ من الحج ، وكان في ثلاثة مجلدات كبار ، فلما قدم ومرَّ بتعز رأى الجزء الثالث قد بيع، وبقي اثنان فاشتراهما ، وقَدِمَ بهما إلى تريم ، وبقي يتحذر على الجزء الثالث . فاتفق أن بعض السادة المتنسبين من معتادي السفر إلى صنعاء دخل بلاد تعز ، فرأى ذلك الجزء عند صاحبه ، وطلب منه يبيعه إياه ، ونوى إهداه لسيدنا ، فباعه إياه فاشتراه وأهداه له ، فتَمَّ الكتاب ثلاثة أجزاء عنده .

فكان يرتِّب قراءته في شهر رمضان ، ويأمر ابنه علوي بالقراءة فيه بعد العصر فيتمه في مدة الشهر وست شوال هـ .

قال رضي الله عنه : « **قيل : كل كلام يخرج وعليه كسوة القلب الذي خرج منه ، فإن كان القلب منوَّراً خرج منه الكلام وعليه النور وإن كان الكلام مظلماً . وإن كان القلب مظلماً خرج منه الكلام وعليه الظلمة وإن كان الكلام منوَّراً** » هـ .

أقول : القلب المنوَّر : قلبٌ متجرِّد عن الدنيا بقلبه وقالبه ، وتجرَّد لعبادة الله سالماً من أشغال الدنيا وهمومها ، فكلامه إن كان منوَّراً ، بأن كان يرغِّب في خير وينهى عن شر ، فذاك وإن كان مظلماً بأن كان في هوى أو مباح بلا نية استعانة به على خير ؛ فهو مظلم من حيث مادته ، وعليه نور القلب .

والقلب المظلم : قلب المتعلِّق بالدنيا محبة ورغبة ، فكلامه المباح مظلم ، وإذا رَغَّب في خير أو نهى عن شر ، فالكلام منوَّر ، وعليه ظلمة من مادة ما تعلق به قلبه من محبة الدنيا .

فإذا كان القلب منوَّراً والكلام منوَّراً أثَّر في قلب السامع تأثيراً عظيماً ، كما ذَكَر أن الشيخ عبدالقادر رضي الله عنه : « **كان إذا تكلم على الناس ، يُسمع لهم الصياح والبكاء والأنين ، ويتوب كثير مما كانوا مصرِّين عليه من المعاصي ، وأسْلَمَ من سماع كلامه ألفان من اليهود والنصارى ، وكان في لسانه لُكنَة لأنه كان أعجميًّا . وسافر بعض بنيه وطلب العلم واللغة والنحو وغير ذلك ، حتى أتقن علوم الآلات، فجاء واستأذن أباه أن يتكلم في مكانه على الناس فوق الكرسي ، فأذِنَ له ، فلما خرج إليهم وصعد على الكرسي ، جعل يتكلم ويتفصَّح في الكلام ، ويجتهد في الإعراب ، ويستدل بآيات وأحاديث ويستشهد بأشعار ، فصاح منه الناس واستغاثوا بالشيخ والده ، وطلبوا منه أن يأمره بالنزول، وسدُّوا آذانهم بأيديهم عن استماع كلامه عليهم ، فأمره بالنزول عن الكرسي ، ثم صعد الشيخ وتكلم** » ، أو كما قال هـ .

أقول : ورأيت في ترجمة الشيخ عبدالقادر في القصة ما معناه ، لما استأذنه في الكلام على الناس ، قال له : « **إن هذا ليس بالفصاحة والبلاغة ، وإنما هو سر** » ، وتوقَّف عن الإذن له ، فألحَّ وأبى إلا أن يأذن له ، فأذِنَ له يصعد الكرسي ، وتكلم عليهم فتبرَّموا من كلامه ، ووقع ما ذَكَر ، ثم أمره بالنزول ،

فلما نزل صعد الشيخ فقال : « اسمعوا أيها الناس ، إن أم الفقراء - يعني زوجته - طبخت لي دجاجة ووضعتها في غضارة ، فجاء الهر وأكلها » ، فحصل لهم عندما سمعوا قوله هذا خشوع عظيم وصراخ وبكاء ، ثم نزل وقال لابنه : « ألم أقل لك أن ذلك إنما هو بسِرٍّ ، وليس بالفصاحة والبلاغة ؟ » .

وقال سيدنا عبدالله في حِكَمه : « **كلام أهل الإخلاص والصدق نور وبركة وإن كان غير فصيح، وكلام أهل الرياء والتكلُّف ظُلمة ووحشة ، وإن كان فصيحاً** » ، فهذا بيَّن المعنى المتقدِّم من القلب المنوَّر والمظلم ، والكلام المنوَّر والمظلم، وعلى كل من الكلامَيْن أثر القلب الذي خرج منه .

والمراد بكلامهم المنوَّر هذا ، هو الكلام النافع ، وهو كلام الحال ، وهو أبلغ من كلام المقال في جَذْب القلوب إلى العمل الصالح وتأثُّرها به ، كما تأثَّرت قلوب سامعي الشيخ عبدالقادر من تلك الكلمة التي لا وَقْع لها ، ولم تتأثَّر بكلام الولد مع فصاحته وبلاغته ، وإنما يكون كلام القائل كلام حال ، بعدما تجرد للعمل الصالح الخالص لله وأَلِفَه ، وتحقَّق به عملاً وقولاً ، فصار قوله هو لسان حاله ، يعني يحكي عن حاله ، كالذي يتكلم في الزهد فهو يحكي حاله ، ويدل كلامه على زهده ، ومع ذلك صار له نصيب من ذلك السِّرِّ الذي ذَكَرَهُ الشيخ عبدالقادر ، الذي يَقْوَى به الإيمان - كما تقدم ذِكْره - الذي كَمُلَ به إيمان سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه حينما قال رسول الله ﷺ في حقِّه : « ما فضلكم أبوبكر بكثرة صوم ولا صلاة ، إنما فضلكم بِسِرٍّ وَقَرَ في صدره » ، وقال : « لو وُزِنَ إيمان أبي بكر بإيمان الأمة كلها لرجحها » ، أي بسبب ذلك السِّر الذي وهبه الله .

وكلٌّ من الأولياء له منه نصيب بقدر ما قسم الله له ، فيصير حينئذ كلامه هو كلام الحال ، ويكون قاهراً لمن سمعه على العمل به شاء أم أبى ، ولو كان أبخل خَلْق الله وأَمَرَهُ صاحب كلام الحال بالخروج من ماله كله ، لخرج منه طوعاً بسهولة لا بتكلف ، وهو - أي كلام الحال - هو الذي عناه سيدنا بقوله في بعض مجالسه حيث قال : « **قال بعضهم : عمل واحد في ألف شخص ، أبلغ من ألف قول في شخص واحد** » ، أي عمل صاحب كلام الحال وقوله ، فقولٌ واحدٌ منه أو عملٌ واحدٌ منه أيضاً أبلغ من ألف قول ، أو ألف قول من كلام أو فعل غيره ، أي من هو متحقِّق بما ذكر من التحقُّق بالزهد والعبادة والتقوى والسيرة الصحيحة الشرعية، مصحوباً بنصيب من ذلك السِّر ، فقوله أو فِعْله في جلب القلوب إلى فعل الخير أبلغ من ألف قولٍ أو فِعلٍ ممن لم يكن كذلك .

ومن قول صاحب كلام الحال المذكور قول من قال - كما ذَكَرَ اليافعي وغيره وذَكَرَهُ الشيخ عبدالقادر بن شيخ العيدروس في كتابه « الزهر الباسم » ، في مناقب شيخه الشيخ حاتم الأهدل صاحب المخا - عن بعضهم أنه قال وكان فوق جبل : « لو أن رجلاً قال لهذا الجبل تحرَّك لتحرَّك » ، فتحرَّك الجبل ، فقال له : « اسكن ، فإني لم أُرِدْكَ بذلك » ، فسكن الجبل ، قال : « فإنما كان قولهم يتبعه

العمل ، لتحقُّقهم بالإتباع لمراضي سيدهم » .

أقول : « قوله لو أن رجلاً » ، أي من الرجال المعروفين أهل كلام الحال .

ومثله كلام السري السقطي وكان يوماً يتكلم في الصبر ، وعقرب تلسعه بشوكتها مراراً ، وهو لا يلتفت إليها ولا قطع كلامه ، فإنما أثر كلامهم ، حيث صَحِبَهُ الحال ، فلو جزع السري عند كلامه في الصبر ، لما كان لقوله وَقْعٌ ولا أثر ، وكان كلامه بخلاف حاله ، وكان كأنه يحكي كلام غيره ، فمن هو على هذا الوَصْف المشهور في وَصْف حال كلام صاحب كلام الحال . وأما كلام القائلين بلا عمل ، فكلام لسان لا وَقْع له ولا جدوى ، ولا يؤثِّر في قلب السامع ، وهو المراد بقوله : « **ألف قول** » ، أي من قول اللسان ، قول من لا يتحقَّق بالعمل ولا تمرَّن على السيرة السوية ، ولم يَحصُل له نصيبٌ من ذلك السِّر ، فهو قولٌ لا نَفْعَ فيه ولاجدوى له ، وهو كلام وعاظ هذا الزمان في مواعظهم في خُطَبهم، فما أثَّر وعظُهم في القلوب، ولا اهتدى بها أحد ، سيما مع شدة قساوة القلوب اليوم ، لشدة تعلقها بالعاجلة ، وقوة غفلتها عن الآخرة . فلو التفتت قلوبهم إليها لرقَّت ولانَتْ قَسْوَتُها ، لكنها قَسَت ﴿ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾الآية ، وأراد الله لها ما أراد من هذه الحالة ، ومع إرادة الله لا تنفع إرادة أحد بخلافها ، ولكن إذا أراد الله سبحانه هداية عبده ، هداه على ما به من قوة موانع الهداية وأزالها .

وقد كان سيدي السيد محمد بن عبدالخضر الرفاعي نفع الله به من أهل كلام الحال على الوَصْف المتقدِّم ، ومن أهل الكشف الكامل ، فكُشِف له عن وقوع الطاعون بالبصرة – وهو الرِّجز المذكور في القرآن في قوله تعالى : ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ ﴾، حتى كان يموت به من بني إسرائيل بالمائة ألف في لحظة – ومكاشفة السيد محمد بالطاعون في نحو آخر جماد آخر من سنة ١١٠٢ .

فجمع جماعة من المتردِّدين عليه من كان منهم حاضراً ، ومن غاب أرسل إليه فحضروا ، وتكلَّم عليهم وأوصاهم بالتقوى والعمل الصالح ، فامتلأت قلوبهم من عِظَمِ وَقْع كلامه ، وعزموا كلهم على العمل بما أوصاهم وما أمرهم به ، لأنه كلام حال لا كلام مقال . وكان والدي من جماعته المتردِّدين عليه ، وهو من جملة الحاضرين الذين سمعوا كلامه ، وقد أخبر جماعة بذلك وكنتُ حاضراً ، وسِنِّي إذ ذاك نحو تسع سنين ونصف ، قال : « فقال لنا السيد محمد : يريد يجيكم شيء – أو قال : أمر – ما يلحق الوالد على ولده ، ولا الولد على والده ، فمن قدر منكم على أمر من أمور العبادة والطاعة فلا يقصر في شيء » ، أو كما قال . وكان كلامه على الشَّرط الذي ذَكَرْناه في وَصْف صاحب كلام الحال ، فمن أولئك الجماعة الذين سمعوا كلام السيد محمد مَن خَرَجَ مِن مالِهِ كلِّه لله وتصدَّق به ، ومنهم من جَعَل يقوم الليل ، ومنهم من جَعَل يصوم النهار وغير ذلك ، ولولا وجود ذلك الشرط في المتكلِّم – الذي

هو السيد محمد - ما قام واحدٌ منهم بخصلة واحدة مما ذكر، فافهم. وكان الوالد عمله بقول السيد أن خَرَجَ من نصف ماله ، واشترى به طاقات ثياب كثيرة ملأ بها داراً ، يريد أن يكسي بها العراة ، وبقي يدور على العراة ليكسوهم، ويتطلَّبهم فما وجد أحداً .

وصبَّ علينا - ثاني يوم من كلام السيد - ذلك الطير الذي يطير في الجو ، الذي يسمى بلغة أهل الحساء « بو بشير » ، وفي لغة حضرموت : « خال الجراد » ، وطَبَقَ الجو ، حتى لا يقدر الانسان يفتح عينه منه إلا مغطياً عينيه بيديه ، حتى غَمَّ عينَ الشمس ، فلا ترى منه إلا كما ترى في الغيم الثقيل ، وبقي كذلك أياماً نحو ستة أو سبعة ، يختفي في الليل وينتشر في النهار ، وحُكِيَ لنا أنه وقع في الحساء كذلك .

وحين انقطع ، ابتدأ الطاعون في مدينة البصرة ، وكان كالسيل الجاري ، يبتدي من طرف البلد من بلدانها إلى طرفها الآخر ، وهكذا يجري من بلدٍ إلى بلد ، وما يخرج من بلد ويُبْقِي فيها من الألف إلا نحو واحد أو إثنين أو ثلاثة وعلى هذا .

ولما خرج من مدينة البصرة قَفَرَ في السراجي ، ثم في البلد التي شرقها ، وهكذا مشرِّقاً إلى أن وَصَلَ السّبيليّات بلاد السادة الرفاعيين ، فحين وَصَلَها دخل السيد محمد قبة جده السيد رجب ، وأغلق على نفسه بابها واختلى فيها ، وأمر أن لا يفتحوها عليه إلا بعد ثلاثة أيام ، ثم بعد الثلاث فتحوا عليه ، فوجدوه قد توفي ، وخف الطاعون بعد وفاته ، وكانت في شعبان . واشتهر في البلد وتداول بين الناس، أن السيد محمد فدى الناس بنفسه ، فجُهِّز ودُفِن في القبة .

ثم نَقَزَ الطاعون منها إلى البلد التي تليها ، وهي نهر خوز ، وبينها وبين السّبيليّات نهر يسمى : بو مغيرة ، وكنا نازلين بها بجوار بيت السيد محمد فيها ، فأول من بدأ الطاعون به من تلك البلد بي أولاً، وما عَلِمْنا به أنه هو لكونه على غير نَسَقِهِ في الناس ، فإنه حصل لي في الإبط الأيسر ورم به ألم شديد، وتزايد إلى ثالث يوم ، وبقيت مادًّا ذراعي لا أقدر أقبضه ، ويوم الرابع ابتدأ الألم يخف إلى أن بريء إلى يوم سابع ولم ينقص ، وذلك بخلافه في بقية الناس ، فإنه يأتيهم في أحد الفخذَيْن غالباً وفيهما في بعض الناس . ورأيت رجلاً ضربه في أحد عينَيْه ويتتبَّع براق اللحم، ولا يتعدى الإنسان في تلك الحالة سبعة أيام ، فإن تعدَّاها فالغالب عليه السلامة ، ويبتديء بورم معه وجع ، ويتزايد به إلى ثلاثة أيام ثم ينقص، وفي الغالب يغيب فيها إلى يوم السابع ثم ينتقل غائباً ، وربما أصحى ساعة فيرجع ، فإن رجع إلى الغيبة توفي ، وربما لم يرجع فَيَسْلَم ، وقليل من لا يغيب .

ومن لا يغيب فالغالب عليه السلامة ، وعلى من أصحى بعد الغيبة ولم يَعُد إليها ، فإن عاد إليها فلا سلامة له منه .

فما رأينا أحداً عاد إلى الغيبة بعدما أصحى عاش قط ، ومن جملتهم والدنا ، أصحى اصفرار الشمس لحظة مقتربة ، وتكلَّم بقليل من الكلام ، ثم رجع غائباً قبل الغروب ، وانتقل وقت العشاء ، وكلهم هكذا لا يبطي من أصحى ثم غاب إلا قليلاً ثم ينتقل . والسبعة الأيام هي الحد ، لا يتعداها إلا من أراد الله له السلامة، وكذلك من لا يغيب وهم نادر ، وبعد السبعة ولو ثاني يوم يليها يبين عليه أثر العافية ، ويتصرَّف في حوائجه .

ولما بدأ بي في بلدنا ، قبل يُعرف أنه هو ، وقبل يشتهر في الناس من أهل البلد، اشتغل بي الوالد شغلاً كثيراً إلى يوم ثالث ، وأما الوالدة فتوفيت أولاً قبل وقوع الطاعون . ثم يوم ثالث ما أصابني بدأ بالوالد وضربه في الفخذ كما هي العادة غالباً، فاشتغل بنفسه عني ، لكنه خفَّ عني من حينئذ ، ثم بدأ بعمِّي سليمان ، وأصابه في الفخذ كذلك ، فصارت تلك الثياب التي أراد يكسو بها العراة - عملاً بقول السيد محمد - كلها أكفان للموتى من أناس حساوية ضعفاء بقاقيل ، لا يجد الواحد منهم كفناً ، فقطع الوالد منها ثلاثة أكفان : له واحد ، ولأخيه سليمان كفناً ، ولي كفناً. وأخبر أولئك الحساوية أن عندنا أكفاناً ، فمن توفي ولا يجد له كفناً فليأتنا أهله يأخذون له كفناً ، فكانوا كل من مات ولا معه شيء جاء أهله يأخذون له ، وقال لي ولأخيه : « ليحفظ أحدكم كفنه ، فيأخذه إن قام ويتوسَّده إن نام » ، وأما هو فمتوسِّد كفنه إلى أن مات ، قال : « ومن جاء يطلب ، قطعوا من تلك الثياب»، فنقطع لهم حتى كفن كلهم أو غالبهم منها حتى خلصت ، وطلب ناس بعد ذلك، فأخبرني أن أدفع لهم كفني ، ثم جاء من يطلب ، فأمر أخاه يدفع كفنه لهم ، ثم جاء من يطلب فقلنا : « ما بقي إلا كفنك » ، فجمعه تحت خدِّه وتوسَّده وقال : « ما أعطي كفني أحداً » ، فاتفق أن مات وعِشْنا . وكل أولئك الذين كُفِّنوا ضعفاء منقطعين ، حتى ما وُجِدَ من يوصلهم إلى المقبرة المعتادة ، فَقُبِروا لهم على تلٍّ بجنب البلد وفضاه خلية ، بجنب العرافة المسماة العلوة ، وكانت تحت يد الوالد ، وصارت لهم مقبرة كبيرة واسعة بجنبها من الشمال فوق التل، وتحته من شرق وجنوب وقِبْلَة وشمال .

ولما مات الوالد أراد عمي من يوصله معه إلى المقبرة المعتادة فما وَجَدَ أحداً ، قد مات أكثر الناس وما بقي إلا من هو غائب لا يشعر ، أو من هو عاجز لا يقدر على القيام ، حتى حصَّل ثلاثة أشخاص كلهم مطعونين ، فتكلَّف هو معهم على حَمْلِهِ فَحَمَلُوه إلى المقبرة المعتادة ، ودُفِنَ تحت قبة مقدَّمها الشيخ أبا الحمد ، يقال أنه من ولد محمد بن الحنفية ، وأنه أخو مقدم صاحب خريرة خارج معه محمد أو ابنه أو ابن عمه .

ولما رجع أولئك الأربعة الذين حملوا الوالد ، مات منهم في الطريق اثنان ، ثم إن الناس بعد ذلك في أواخره صاروا لا يتدافنون ولا يُغَسَّلون ولا يكَفَّنون ولا يُصَلَّى عليهم ، بل من مات تُرِكَ في محله

لقلة الناس ، ولعدم من يحتفل بفرض الكفاية ، فترى الرجل ملقى كالجيفة ، وترى البيت مغلوقاً على أهله موتى فيه .

وقد رأيت بيت أناس من أهل الخست والشباني ، وهم نحو سبعة عشر بين امرأة ورجل وصبي وبنية ، وهم في بيتهم مردوماً عليهم موتى ، وقد ولدت امرأة منهم ببنية ، وجعلتها في مَهدٍ ووضعتهُ تحت شجرة توت في بستان السيد صالح بن السيد محمد المتقدِّم ذِكْره ، وقد توفي السيد صالح في صفر قبل وقوع الطاعون ، فمرة تصيح البنية ومرة تسكت ومرة تنام ، وفي الليل تبات تحتها العواوي ، وأمها قد اشتغلت بنفسها عنها ، ثم ماتت أمها وأبوها وإخوانها وأخواتها ، وبقوا في بيتهم ميِّتين ما أحد جهزهم ولا التفت إليهم ، ثم ماتت تلك البنية ، وإذا جاءت المدَّة في الشط جاءت بأموات من ذلك الصوب ، أي من حافته الشمالية .

ومن العجيب أن رجلاً مباركاً كان اسمه مُلَّا معروف ، كان كلما سمع بميت سار إليه وغسَّله وخيَّط كَفَنه ، وكفَّنه وتيمَّم في الصلاة عليه ، ودخل قبره وألْحَدَه إن كان رجلاً ، حتى صار هذا متعارفاً ، حتى إنه إذا مات أحد سألوا عنه ، هل جاء مُلَّا معروف أم لا ؟ ، وهذا ديدنه قبل الطاعون وفيه ، حتى كثروا عليه فصار على حسب ما يمكنه ويتخيَّر من له خصوصية ، ثم توفي هذا الرجل في آخر شعبان بعد وفاة السيد محمد ، فحصل في يوم موته ريح شديدة رَمَتْ بنخيل كثيرة ، وكسَّرت جذوع كثيرٍ من النخل ، وحسر ماء الشَّط عن أماكنه إلى مكان بعيد ، وبقي الطين كأنه الدرج من رفيع إلى أخفض منه ، ثم إلى أخفض وهكذا ، حتى إن العطشان لا يقدر يصل إلى الماء وإلا غاصت رجلاه في الطين ، فيدور البراريد التي هي السقايات ليشرب منها . ومدة الطاعون آخر جماد الآخر ، أظن بعد العشرين منه إلى دخول رمضان وشدته إلى أن توفي السيد محمد ، وانتهاؤه مع انتهاء الريح المذكورة ، وهي قبل رمضان أظن بنحو ثلاثة أيام أو قريباً من ذلك سنة ١١٠٢ .

وسافرنا إلى الحساء - أظن سلخ شعبان أو أول رمضان - وسمعنا أن كثيراً من قبائل البحر دخلوا بيوتاً في البصرة قد خَلَتْ من أهلها ، وأخذوا أموالاً جزلة من ذهب وفضة ، وحملوها معهم في مراكبهم ، فمات آخِذُها وما انتفع بها ، وما حصَّل منها إلا الإثم الشديد والحسرة والندامة . ومَرَرْنَا في مَوْضِعٍ من النخيل واسع الأطراف عند الجزائر ، وتسرح فيه وتنتشر جواميس أهل ذلك الطرف، يقدِّر الناظر أن عددها يزيد على الألف ، لو يسوقها كلها أحد ما رأى أحداً يعترضه فيها ، فسبحان الدائم بعد فناء خلقه ، تعزَّز بالبقاء وقَهَر العباد بالموت .

والفرق المميِّز بين الحال قبل الطاعون وفيه وبعده ، أن الطريق في البصرة لا ينقطع منها المار ليلاً ولا نهاراً ، حتى وسط الليل وآخره ، وفي أيام الطاعون وبعده لا ترى في العشرة الأيام وأكثر مارًّا في

الطريق ، ولا واحداً لا في نهار ولا في ليل .

انتهى ما أردنا ذِكْره من شأن الطاعون ووَصْفِهِ ، ووَصْفِ أحوال أهلهم فيه وذِكْر شأنهم ، لما جَرَّ إلى ذلك من ذِكْر السيد محمد ، فجرَّنا إلى كرامته ومكاشفته الناس بالطاعون ، وحثهم على عمل الخير وفعل المعروف والعبادة خوفاً منه ، وليموتوا مختوماً لهم بعمل الخير ، وذِكْر انقياد الناس لقوله ، وتصديقهم به وامتثالهم له وائتمارهم لما به أمر ، وما ذاك إلا لكون كلامه كلام الحال القاهر من سَمِعَه على العمل به ، ممثلاً لهذا المعنى بذلك ، من كون كلام الحال يؤثِّر في السامع وينهضه قهراً على العمل به ، بخلاف كلام اللسان الذي هو غالب كلام الناس اليوم في خطبهم ومواعظهم ، فلذلك ما انتهض لكلامهم أحد ، وأن السيد محمد اجتمع فيه شروط كلام الحال كما قدَّمنا ، ولقد أثَّر كلامه في من سمعه، وقهره على العمل فيعمل شاء أم أبى .

وجرَّ إلى ذلك قول سيدنا : « **إن كلَّ قول يخرج وعليه كسوة القلب الذي خرج منه منوَّراً أو مظلماً، وسواء كان الكلام منوَّراً أيضاً أو مظلماً** » ، وقوله : « **رُبَّ عمل واحد يؤثِّر في ألف رجل ، ما لا يؤثِّر ألف قول في رجل واحد** » ، ومراده بالمؤثِّر من العمل ، عمل صاحب كلام الحال المؤثِّر له ، ويؤثِّر عمل واحد منه في ألف رجل، كما يؤثِّر كلمة واحدة منه في ألف رجل أيضاً ما لا يؤثِّر ألف عمل وألف من قول صاحب كلام اللسان ، بخلاف كلام صاحب كلام الحال وعمله فيؤثِّران، كما أثَّر كلام السيد محمد ، وكذا يؤثِّر عمله في من رآه يعمل ، فعمل اقتداء به ، انتهى .

وإنما مثَّلنا للسامع بقول السيد محمد وتأثيره ، ليفهم المعنى ، فلولا التمثيل ما فُهِمَت أكثر المعاني ، واعلم أن كلام القائلين بلا عمل منهم بكلامهم فهو كلام لسان لا ينفع ولا يؤثِّر في قلب السامع ولا يُنهِضه للعمل ، وإنما ينفع ويؤثِّر في القلب كلام العامل بقوله ، وصحبه لسان الحال ، وحصل له مع ذلك نصيب من السِّر المذكور ، فالعمل الصالح والسيرة الحسنة هو كسب العبد ، وأما النصيب من ذلك السِّر فهو وَهْبٌ من الله لمن قسم الله له ذلك .

قال السيد أحمد بن زين الحبشي : سمعت رجلاً سأل سيدنا الحبيب عبدالله الحداد : « كم أجزاء الولاية ؟ » ، فقال في الحال من غير تفكر : « **أربعون جزءاً** » ، قال : « مكتسبة أو موهوبة ؟ » ، قال : « **كلها مكتسبة إلا جزءاً واحداً ، فإذا وصل إليه اندمجت فيه كلها ، حتى صارت كأنها حلقة ملقاة في فلاة ، فالأجزاء التسعة والثلاثون هي أعماله الكسبية كلها ، وهذا الجزء تمام الأربعين هو نصيبه من ذلك السِّر ، وهو الموهبة من الله التي لا تفاوتها جميع أعمالها** » .

وإنما لم ينتفع أحد في هذا الزمان بسماع موعظة ، لخلو الوعاظ في هذا الوقت من العمل بما يقولون، ولم يكونوا من أهل كلام الحال ، والسامعون مع ذلك قلوبهم منصرفة إلى أمور الدنيا ، وقاسية من أكل

الحرام والشُّبَه ، فأنّى يتأثّر بموعظة أو كلمة حكمة ؟ ولكن إذا أراد الله تعالى هداية عبد هداه على كثرة ما معه من موانع الهداية فأزالها عنه . وإن كان الغالب من الناس على ما هم عليه من الغفلة والمَيْل مع الدنيا ، فإن هذا إرادة الله لهم ، وهو حظّهم المبخوس إن ماتوا عليه ، والله أعلم .

ولمّا خَرَجَ بعد صلاة الظهر يوم الأربعاء ١٦ ربيع ثاني سنة ١١٢٩ وجلس في الضيقة ، فصافحه بعض الفقراء عليل الرِّجل - هو فلاح - *فقال* : « **الإنسان ضعيف ، ما يريد بطبعه إلا العطاء دون المنع، والعافية دون البلاء ، وهذا لا يكون. ولكن عطاء ومنع وعافية وبلاء ، وكذلك في كل شيء ، ولكن إذا نزل بك شيء من ألم تريد دفعه ، أو نفع تريد حصوله ، فاسْعَ فيه بما له من الأسباب ، كتداوي المرض حتى يجيك ما يغلبكَ ، حتى لا يبقى لَك قدرة على شيء ، فحينئذ تَنَحَّ عن طريق القضاء والقدر، ولو كان للإنسان عبد ، ما يريد منه إلا العطاء الدائم وكل ما يحب، ولا يحتمل من سيِّده ما يكره ، ضاق منه سيِّده وباعه في الحال . وهذا سِرّ الرياضة والإنقياد ، كالزئبق لو قُتل حصل بقَتْلِهِ قَلْب الأعيان ذهباً وفضة ، ونحن وإياكم على ما قال الله تعالى لموسى عليه السلام : ﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾** » ، أو كما قال هـ .

أقول : قوله : « **فاسْعَ فيه .. إلخ** » ، أي افعل الدواء ونحوه على المعنى الذي قدمناه ، وهو أن ترجو أن الله أبقى فيه خاصيته التي هي البراء من الداء ، فإن فَعَلْته ولا رأيته أفاد ؛ فاعرف أن الله تعالى أبقى تلك الخاصية ، فحينئذ قد جاءك ما يغلبك من عدم النفع بالدواء وعجزك عنه ، فحينئذ تنحَّ عن طريق القضاء والقدر ، أي اصبر لحُكْمِ ربك ، حيث أعْجَزَتْكَ الحيلة في دفع مرضك وسلِّم ، فربما للبراء وقتٌ ما حضر بعد ، أو كان قد جعل الله ذلك المرض سبباً للموت ، فلا يفيد فيه التداوي بحال .

قوله : « **وهذا سِرّ الرياضة والإنقياد** » ، يعني الرضا والتسليم والإنطراح تحت حُكْم قضائه وقدره، فإذا أَلِفَت النفس ذلك وانقادت له صادقة ، صارت كالزئبق إذا قُتل صار إكسيراً عظيماً ، إذا وُضِعَ منه قليل على نحاس انقلب ذهباً إبريزاً ، أو جعل على رصاص انقلبت فضة خالصة ، لكن قَتْله مشقٌ جدًّا ، وما يُحسِنه إلا كبار الحُكَماء الماهرين في علم الكيمياء . كذلك النفس ما يقدر على قَتْلِها إلا أكابر الصديقين والأولياء ، فنفوسهم قد صارت إكسيراً غالياً في الإنطراح تحت حُكْمِ الله ، ولسان حالهم يقول : صبرت لحُكْم الله ، وسلَّمت لأمر الله ، ورضيت بقضاء الله . وتحقَّقوا بحقيقة العبودية كما قال رسول الله ﷺ : « **اعبد الله على الرضا ، فإن لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خير كثير** » .

فمقام الرضا : مقام الخواص خيار الأمة ، وصارت نفوسهم منقادة للحُكم تحقيقاً ، فهؤلاء هم الذين قُتِلَت نفوسُهم وصارت إكسيراً في فنها ، كالزئبق المقتول في فنه . أعني أن فن الأول الزئبق

المقتول في الدنيا ، وفن الثاني النفس المقتولة في الدين ، والأول لنفع الدنيا ، والثاني لنفع الآخرة .

وأهل مقام الصبر قاصرون عن أحوال أولئك ، وهم العامة من هذه الأمة .

فصار هوى نفوس الخواص تبعاً لما جاء به النبي ﷺ ، كما في الحديث : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » . أي صار إيمانه إيماناً كاملاً ، فهو المقصود من المعاملة من العبد لربه ، فهذا هو الإكسير الديني ، عكس ما تهواه نفوس العوام ، من كون هواها مجرد تلذذ في الدنيا ، وكان ضرراً في الآخرة .

واعلم أن المقادير في الأسباب إذا بقيت فيها خاصيتها ، كالأرواح في الأجساد، فتنفع الأسباب حينئذ ، فإذا نُزعت منها الخاصية ، صارت الأسباب كالأجسام الميتة لا نفع فيها .

وقد كان في العادة أن المؤذن هو الذي يبتديء القراءة وقت العصر ، قبل سائر القُرَّاء ، وَجَعَل عليَّ وظيفة الأذان ، وأخذتُ على ذلك من البداءة بالقراءة تسع سنين كغيري ممن تقدَّم من المؤذِّنين ، وهي عادة مستمرة منذ زمان طويل ، فلما كان عصر يوم الأربعاء ١٨ ربيع الثاني سنة ١١٢٩ ، **قال لي : « لا تَعُد تبتديء أنت كل يوم ، إلا مرة ومرة ، لأن هذا يحرِّك منك داعية الرياء ومن غيرك الحسد . وأنتم ما تعرفون هذا الأمر ، ولا رضتوا نفوسكم ، ونحن أعرف به منكم »** .

ثم قال : « كل كلمة تخرج من الأكابر للتلميذ فيسمعها منهم ، تكون على نفسه كالحجارة ، تزيد بها نفوسهم رياضة وخموداً ، ومن لا يكون كذلك لا تزيده إلا قوة نفس ، ولا يزداد إلا حسداً ، ويعمل بخلاف ذلك » .

أقول : فو الله ما قط خالجني الرياء بالإبتداء إلا ذلك اليوم ، فأطْلَعه الله على ما في نفسي ، فنهاني .

قوله : « **لا يكون كذلك** » ، أي على طريقة المريد .

وبعد صلاة ظهر يوم الأربعاء ، أمر بإطلاع رجل مسمَّع عنده إلى الغيلة ، كأنه أراد أن يوصيه بأنه يريده يسمِّع له ، أن لا يغيب الليلة ، فصعَّده عنده ، فغبطته بصعوده عنده وَوَدَدْتُ لو حَضَرْت ، لكن ما يمكن بلا إذن ، فكأنَّ الله أَطْلَعه على ما في ضميري ، فلما خرج لصلاة عصر هذا اليوم وجلس في الضيقة وجلست عنده ، **قال رضي الله عنه** وهو ملتفت إليَّ : « **الحسد يدخل - أو قال : يظهر - على الإنسان في كلامه وأحواله من غير شعور منه ، وهو لا يظن ذلك من نفسه ، بل يرى أنه بريء منه ،**

وهو من أكبر الذنوب ، وبه هلك إبليس وقابيل ، ولو كان فيكم أهلية لقرأنا عليكم مقاطع القرآن ، فاقرؤوا : ﴿وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ﴾، فماذا تقول لو جاء جماعة من أهل الحساء فطلّعناهم وخليناك ، فماذا ترى يقع عندك ؟ » .

قلت : إني أود لو جاؤوا كلهم يلتمسون منكم وينظرون إليكم ، قال : « لا ، وهذا معنى قولنا لكم: إن طريقة الإمامة طريقة مُظلِمة لا يهتدى فيها » .

- أقول : قال لنا هذا غير مرة ومراراً ، قال : « نحن طريقتنا طريقة الإمامة ، وهي طريقة مُظلِمة، فلا ينبغي للمبتديء فيها أن يقول لمن اقتدى به : خُذْ من هنا أو خُذْ من هنا » ، ومرة قال : « فلو كان في المسجد في قراءة قرآن وهذا عنده نور ، فقال له : قُم اجلس في السوق ، واشتغل ببيع وشراء . وهذا عنده ظلمة ، وما عرف مقصود الشيخ ، فربما رآه ومعه رياء ، فأراد يكسر عنه ذلك بجلوسه في السوق»، وتقدم هذا الكلام بأبسط من هذا -

فقلت له : فالحاصل أن كل مجلس يفوتني من مجالسكم ولا يحصل لي فيه الحضور يحصل لي من فواته تعب كثير ، قال : « قد عَلِمْنا منك ذلك ، وما خاطبناك بهذا إلا لِعِلْمِنا بذلك منك ، أرأيت إن كان مجلس يضرك في دينك ، أتحب أن تحضره ؟ » .

قلت : أنتم أعرف ، قال : « ومجالسة الأكابر كثيراً منهي عنها ، ولذلك أكثر ما يُحرمهم أهلهم ومخالطوهم ، وذاك لو كنت تدير القهوة والأخدام جالسين ، يعني كان ذلك عذراً يستدعي حضورك».

قلت : وما في ذلك كبير أمر ، قال : « كيف والعيال ما داموا عليه ، فابقوا على الإمتثال بارك الله فيكم » .

أقول : وشاهد قوله : « ومجالسة الأكابر كثيراً منهي عنها » ، ما قدَّمنا عن السيد يوسف - نقلاً من كتاب رحلته - لما ذَكَرَ أحوال نفسه لما كاشفه الأولياء بأن له شيخاً ما يعرفه ، فكان كلما سمع بشيخ قصده ، يرجو أنه هو ، وتعب في تحصيله كثيراً ، وبقي كذلك سنين كثيرة ، حتى ساقَتْهُ المقادير إلى الشيخ أبي بكر بن سالم ، ببيان بعض المغاربة جاء من الهند ، وأخبر السيد يوسف بأنه لمَّا وصل من الهند، مَرَّ على حضرموت ثم إلى عينات بلاد الشيخ أبي بكر ، فقال : « إني رأيت شيخاً من السادة آل باعلوي ، وسمعته يقول : ما تبلعني الأرض حتى يجيني من المغرب رجل شريف حسني اسمه يوسف . قال : وما أراه إلا أنت ، تمضي إليه تزوره » ، فاستغنم السيد يوسف قوله ومضى إلى اليمن ، ثم إلى بيحان . قال : « فوجدت فيها السادة الحمزات الحسنيين، ونحن وهم على جَد، وهم يسمعون بنا وما سمعنا بهم »، قال: « فأركبوه في قطار سائر من عندهم إلى حضرموت ، وجعلوه مع من يوصله إلى الشيخ أبي بكر .

فلما وصله حيَّاه وسمَّاه بإسمه واسم أبيه وكنية جماعته ونسبتهم إلى أبي الوكيل ، قبيلة من بني إدريس . قال له : يا ابن أبي الوكيل - وهذا لقب جماعته - تحيَّرتَ علينا يا يوسف » ، قال : « أوَ تعرفني يا سيدي ؟ » ، قال : « نعم أعرفك ، وقد رأيتك وأنت في ظهر أبيك عابد بن أبي الوكيل ، ولقد حضرتُ ولادتك يوم ولدتك أمك ، وما زلتُ أربِّيك وأراعيك بحُسن نظري إلى أن أتيتني الآن » .

فتركه عنده ثمانية عشر يوماً ، ثم أمره أن يصعد إلى بلاد العوالق ، فسار وأخذ أياماً قليلة ، ثم رجع فتركه نحو يومين ، ثم أمره يغيب عنه ، فغاب أياماً يسيرة ، ثم رجع فتركه نحو يومين أو ثلاثة ، ثم أمره يغيب عنه إلى موضع آخر ، وقال له : « لا تجِ حتى أرسل إليك » ، فغاب نحو ستة أشهر ، ثم أرسل إليه ، فجاء ومكث نحو يومين ، ثم بدأ بالشيخ أبي بكر مرض الموت ، فتوفي في الحجة ورأسه على فخذ السيد يوسف كما تقدَّم تفصيله من رحلته .

ثم إن سيدنا بعدما دخل من الراتب تلك الليلة ، ليلة الخميس ١٩ ربيع الثاني المذكورة من السنة المذكورة ، أعني سنة ١١٢٩ ، دعا ذلك المسمِّع وفعل سماعاً ، وكان ذلك من عادته في أيام متراخية نحو مرة في السنة أو مرتين ، ومن عادته أن لا يحضر أحد السماع ، ولا يتركه يحضر ، كذا سمعته يقول، كما قال لي : « أرأيت لو كان مجلساً يضرك حضوره في دينك » ، يعني كما تنزل العامة الغزل عند سماعه على ما يعرفون من أوصاف النساء ، أو على شيء لا يجوز تنزيله عليه . فلذلك لا يترك أحداً يحضره ، خوفاً عليه من ذلك .

فلما كان تلك الليلة الخميس المذكور ، طلبني لحضور السماع المذكور ، ولم يطلبني لذلك قبلها قط، فلما دخلت مجلسه ذلك صافحته وقبَّلت يده وجلست، كان فيما تكلم به أن قال : **« ليس من عادتنا أن نطلب أحداً يحضر السماع ، وذلك من عهد قديم ، ولا يحضرنا أحد إلا إن كان من العيال أو خادم واحد يحتاج إليه ، ولكن من استمع من بعيد كما من تحت الباب أو حيث يسمع لا نعنِّف عليه ، ولا نلومه ولا حرج عليه ، ومثل ذلك في كل أمر نفعله ، فهذا حالنا إذا كنا في البيت . وأما لو كنا في خلاء في السبير أو غيره ، فحضر جماعة مخصوصين مقتربين ، الذين يحصل بهم الأنس وباجتماعهم . وهنا عندنا في البلاد عادة ، أن الإنسان إذا كان في داره ، فقلد على نفسه ما أحد يجيه ، وإذا فتح الباب ضاق بالناس المكان ، حتى لا يسع أحداً ، كما ترون في عواد وغيره ، ودخل فيهم الشريف والوضيع من رعاع وغيرهم ممن لا يعرف الأدب ، ولكن الرعاع من عادتهم إذا حضروا بمجالس الأشراف ، فإن رأوهم متأدِّبين تأدَّبوا، وإن رأوهم على خلاف ذلك زادوا عليهم في إساءة الأدب ، فاحفظوا هذا ولا تنسوه » .**

ثم قرأ الفاتحة ثم دعا ، وقال : **« اللهم احفظنا في ديننا وقلوبنا ، وأرنا الحق حقًّا وارزقنا اتباعه،**

وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه » ، ثم ختم الدعاء بالصلاة على النبي ﷺ ، ثم بالحمد لله رب العالمين ، ثم أمره يشل وهو أول ماخذ ، فلما تَمَّ منه المسمَّع وسكت ، قرأ سيدنا : ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾.

وسكت ساعة ، وجعل يتكلم بما يناسب الحال والمجلس ، ثم أمره يشل ، فلما فرغ أمر بإحضار القهوة ، فجعلت أصبها وأديرها حتى فرغت ، وهو في كل ذلك يتكلم . ثم أمره أيضاً ، فلما فرغ قال لي : « **هل ظهر لك من هذا شيء لم يكن لك على بال ؟** » ، قلت : الله أعلم ، **قال** : « **هل سمعت ما لم تكن تسمع ؟** » ، قلت : نعم .

ثم التفت إلى ابنه الحبيب حسن ، **فقال** : « **إنه ما يريد إلا مثل كرامات الشيخ عبدالقادر الجيلاني نفع الله به ، تكون منه الكرامات الظاهرة الباهرة على التواتر ، وهذه أشياء لا يجوز إظهارها ، فلا هي نبوة حتى يجب إظهارها ، وإنما هي بحسب الحاجة والضرورة الداعية إليها ، كما في قصة الحنفي مع تلميذه في المشي على الماء . وقد كان من كرامات بعض من شهد للشيخ عبدالقادر ، أنه عرض عليه طبيب مُقعَداً وصحيحاً في صندوقَيْن ، ليختبره : هل يعلم أيهما المُقعَد والصحيح . فقال : تريد اختباري بذلك ؟ هذا هو المُقعَد ، وهذا هو الصحيح** » .

ثم قال سيدنا : « **وأنت لو كنت في بلادك لَبَرْهَنْت ، ولكن الضوء لا يظهر مع الشمس ، وذلك بالنبي ﷺ لا بنا ، لأنه عليه الصلاة والسلام هو الشمس ونحن الظلال ، وقد أمر هو بالتمسك بأهل البيت النبوي وبكتاب الله وقال : لن يفترقا حتى يَرِدا عليَّ الحوض . وقد كان رجل من المتعلقين بنا انقطع فقلنا له : وانقطاعك ماذا يحصل لك ؟ أتندفع عنك به حُجَّة أو تثبت لك به الحُجَّة ؟ فبقي يتردد كما يتردد هؤلاء الذين يترددون ، وخليناهم على ترددهم لأنهم كانت لهم حبال ، والحبال إذا ثبتت لا يجوز قطعها** » هـ .

أقول : الذي ظهر لي أن مراده بالحبال : العقيدة التي كانت لهم ، والمحبة الصحيحة أولاً ، ثم اختلَّت وتغيَّرت ، فتركهم الآن كما كانوا في ظواهرهم ، وإن خلت من ذلك بواطنهم - وهذا قوله : « **مَن وَضَعْنا عليه النظر لا نسيّه ، وإن سيّب هو** » ، يدل عليه قوله : « **رأينا ناساً كثيراً ، نقصوا عما كانوا عليه كثيراً** » ، وقوله : « **الناس عَمَّال ينقصون وينكصون** » ، وغير ذلك من كلامه الدال عليه والله أعلم - لكنهم بترددهم لا يخلون من خير ، وإن لم يكن كما الأول . وذَكَرَ الشيخ عبدالقادر مرة في غير هذا المجلس فقال : « **ما أحد من الأولياء بلغت كراماته عدد التواتر إلا الشيخ عبدالقادر** » .

ثم بعد كلامه في هذا المجلس الذي آخره قوله : « **لا يجوز قطعها** » ، أمره أن يشل ، وقال : « **اختم**»، فشل إلى أن تم ، فختم به السماع .

فلما ختم قرأ سيدنا الفاتحة ودعا ، ومن جملة دعائه بعد الحمد لله : « **اللهم صلِّ على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ، اللهم يسِّر أمورنا وأمور المسلمين وأنزل أمطارهم وأرخص أسعارهم ، اللهم الطف بنا في قضائك ، وعافنا من بلائك، وأوزعنا شكر نعمائك ، وَهَبْ لنا ما وَهَبْته لأوليائك وأهل طاعتك ، اللهم جمِّل أحوالنا وأصلح أعمالنا ، وطهِّر وحسِّن أخلاقنا ، وطيِّب ووسِّع أرزاقنا ، واقضِ بفضلك ديوننا ، واصلح بكرمك شؤوننا ، واجعل رحمتك ورضاك ومجاورتك في دار كرامتك منقلبنا ورجوعنا ومصيرنا** » ، ثم ختم الدعاء وانقضى هذا المجلس المبارك الميمون نفعنا الله به ، أو كما وقع والله اعلم .

ثم نزلنا من عنده من الغيلة ، ومن حضر من الأولاد كلٌّ إلى محله ، فلما وصلتُ إلى المكان الذي كنت فيه نازلاً ، تناولت القرّاعة فَقَدَحتُ الزِّناد وأَغْلَقْتُ السراج ، وكتبت هذا المذكور الذي بقي في خاطري ، وأظن أني نسيت أكثر منه ، ولو لم أكتبه حينئذ وأبقيت كتابته إلى الصباح ، لنسيت هذا أيضاً .

وما أشار إليه من قوله : « **لو كنت في بلادك .. إلخ** » ، كله وقع ، وذلك ببركاته ، وهو من باهر كراماته وصِدْق إشاراته وغرائب كلماته ، بل كلما أشار إليَّ به رأيته ، حتى أنه قلَّ ما تقع لي واقعة إلا ويذكرني كلاماً له تقدَّم منه لي فيه ، كإشارته إلي في أمر العيال ، وفي من قال كما قال له حسين بافضل، وأمره لي أن أقول له كما قال هو لبافضل ، وغير ذلك مما لا يحصى . فاقضِ العجب ولا تستبعد ذلك من شأن السيد عبدالله الحداد نفع الله به ، واستبعد مثله من غيره .

وحضرتُ مرة عنده سماعاً قبل هذا ، في نخل ابن أخيه السيد عمر بن علي الحداد لما حلُّوا ، فقال المسمِّع – وهو هذا المسمِّع – هنا في أبيات لباختار ، قال : « **هات محزم ، وخذ لك ألف محزم** » ، هذا ما ظهر لي من لفظه . فرأيتُ سيدنا عند ذلك رفع رأسه متبسماً ضاحكاً، ثم صوبه وخفضه ، وإذا به يبكي ودموعه تتقاطر هـ .

وطلب مني بعض السادة من أهل الشحر أن أكتب له شيئاً من القصائد من ديوان سيدنا ، فقلت له : إن فلاناً من السادة من أهل الشحر ، طلب مني شيئاً من القصائد ، فقال : « **اختر له** » ، قلت : إنه يريد التوالي ، قال : « **مليح ، ونحن ما جعلناهن قصاراً قريبة اللفظ إلا لهذا القصد ، ليسهل حفظها على من أراده ، فاختر له إن كنت تحسن الإختيار** » ، قلت : إن اخترتوا له أنتم فهو أحسن من إختيار

غيركم وأولى .

فتبسَّم وسكت قليلاً ، *ثم قال* : « أنت تسمع ولا تعقل ، ودائرة العقل أوسع من دائرة السمع ، وقد ذمَّ الله سبحانه بعدم العقل أبلغ مما ذمَّ بعدم السمع ، فقال تعالى : ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾، فلو قال : ويعقلون ؛ لكان أهون ، فلما نفى عنهم العقل أيضاً مع نفي السمع كان ذلك في أقصى غاية من الذم ، أما سمعت في القصيدة قولنا فيها : الجسم المُشَبَّه بالبَوِّ ؟ تشوفونا نخرج وندخل ولا أنتم دارين ، فما ترون حال من يخطر في باله أنه يصلي قائماً أو قاعداً ، ويتخوَّف السقوط كل حين ، فخذوا مِنَّا القليل ولا تطلبوا الكثير ، فإن القليل ممن هذا حاله كثير ، كالرجل المريض إذا جاء عنده أحد يستند ويتحمَّل بالقوة ، ولكنه يغلبه ما يجد ، وأهله يريدونه يأكل شيئاً ويسقونه الماء ، كل ذلك يريدون عافيته وحياته ، لنفعهم واحتياجهم إليه ، أو لرغبتهم في حياته ، وهو في كل ذلك مشغول عنهم بما هو فيه » هـ .

أقول : يشير إلى قوله في القصيدة حيث قال :

وآهٍ عَـلَى الأَحْبَـابِ بالحـيِّ إِذْ غَـدَوْا	وَرَاحُوا وَمَا فِيهِمْ عَلَى الحيِّ من يَلوِي
فَهَـلْ عَـوْدَةٌ للنَّازِحِـينَ إِلَى الحِمَـى	وَمِنْ وِرْدِهِمْ أَرْوَى وَعنْ فَضْلِهِمْ أَرْوِي
وَيَحْيَـا بِهِـمْ مَيْـتُ الصَّبَابَـةِ وَالجَـوى	مِـنَ الْقَلْـبِ وَالجِسْـمِ المُشَـبَّهِ بِالْبَـوِّ

وكان سِنُّه يوم وَصَفَ نفسه بذلك لما أنشأ القصيدة : واحد وسبعين سنة ونصف وثلاثة أشهر وسبعة أيام . وما دام يصلي الفرض قائماً ، لكن سنة ١١٣٠ حصل له مرض أتعبه جداً وأضعفه ، فكان بعده إلى أن توفي يصلي الفرض قاعداً في الغالب .

وسمعت السيد أحمد بن زين الحبشي رحمه الله ، وكان له غوص مكين في فهم معاني كلام سيدنا يقول : إن قوله : « **فآه على الأحباب** » ، يعني به السيد أحمد بن هاشم الحبشي يرثاه بالقصيدة . وكان السيد أحمد بن هاشم إذ ذاك حيًّا ، فإن نظم القصيدة يوم ثاني عشر ذي القعدة سنة ١١١٥ ، ووفاة السيد أحمد بن هاشم في خامس ذي الحجة منها ، فيكون قد رثاه في حياته كشفاً منه بقُرْبِ وفاته ، فإن بين إنشاء القصيدة وبين موته ثلاثة وعشرون يوماً .

وكان السيد أحمد بن هاشم ابن عمِّ والدة سيدنا ، ورفيقاً له في صغره وكبره ووقت تعلمه القرآن ووقت طلبه العلم ، وشيخهما كلاهما الشيخ محمد بن علوي السقاف ، ولكن السيد أحمد رؤيته للسيد محمد ومخالطته كثيرة ، وسيدنا عبدالله بغير اجتماع ، إنما هو بالمكاتبة ، وتوفي قبل مسير سيدنا للحج بثمان سنين ، ولكنه فاقَهُ هو وغيره ، لأن الإجتماع الحسي لا يلزم عندهم ، فكم فتح الله على ناس ببركة

مشايخهم بغير اجتماع بهم ، كالشيخ عبدالقادر بن شيخ العيدروس هو في سورت، وشيخه السيد حاتم بن أحمد الأهدل بالمخا وما اجتمع به بل بالمكاتبة ، قال : « وآخر كتاب كتبته إليه سألته عن سؤالات في الطريقة احتجت لها ، وقلت لحامل الكتاب : إن لقيته حيًّا ، فادفع الكتاب له ، وإن رأيته قد توفي فضع الكتاب على قبره » ، قال : « فحين دخل المخا ، رأى الناس راجعين من دفنه ، فوضع الكتاب على قبره ، ثم بعد أيام جاءني منه الجواب على أكمل وجه » .

أقول : وقد اجتمعت بالسيد أحمد بن هاشم في شِعْب السيد أحمد الحبشي ، جدِّه وجدِّ أم سيدنا عبدالله ، وأخبرنا بما وقع له مع سيدنا عبدالله من وقائع متعددة ، ومن جملة ذلك قال : جاء من السيد عبدالله الحداد للسيد محمد بن علوي كتاب يسأله إلباس الخرقة ، فاعتذر منه أولاً ، وكتب له كتاباً يعتذر بأنه لا يمكنه ذلك إلا بأمرٍ من رسول الله ﷺ ، ثم بعد ذلك اهتمَّ لزيارة النبي ﷺ ، فسار للزيارة وسِرْنا معه ، فلما كان في المواجهة حصل عليه كالغَيبة ، وجعل يتصبَّب منه العرق حتى وقع على الأرض ورمى بثيابه وما بقي عليه إلا سروال ، ثم سُرِّي عنه ولبس ثيابه ، ثم قال لي : « آتني بدواة وقرطاس ، نكتب للسيد عبدالله الحداد كتاباً غير الأول » ، فأتيته بالدواة والقرطاس ، ثم قال : وأملى عليَّ : « اكتب .. » ، فكتبت .

قال سيدنا : « **كل كتاب يجينا من السيد محمد بن علوي ، يقول في ابتدائه : من الداعي بطول البقاء وعلو الإرتقاء محمد بن علوي ، إلى السيد كذا وكذا ، عبدالله بن علوي الحداد** » .

قال السيد أحمد : « فقال في إملائه عليَّ كتابه : اكتب : إنك كتبتَ إلينا تطلب منَّا إلباس الخرقة ، وإنَّا اعتذرنا إليك أنه لا يمكننا ذلك إلا بأمرٍ من رسول الله ﷺ، وأن رسول الله ﷺ قد أمرنا بإلباسك، وها هو واصلك الإلباس » ، قال السيد أحمد : « فوقع في نفسي شيء كالحسد ، فقلت : يُلبِس السيد عبدالله الحداد وهو في حضرموت ، ولا يُلبِسنا ونحن عنده » .

أقول : وقد سمعت من سيدنا عبدالله غير مرة يقول : « **رأيت في النوم أني قابض بتلابيب السيد أحمد بن هاشم ، وماسِك على حَلْقِه ، أقول له : امْشِ أحاكمك إلى رسول الله ﷺ** » ، ولعله بسبب ذلك. وأما سِنُّ سيدنا عبدالله يوم تكلم بكلامه هذا المذكور ، وذلك يوم الخميس ١٢ جماد أول من سنة ١١٢٨ ، فسِنُّه حينئذ ٨٥ وثلاثة أشهر وستة أيام ، وبين قوله بالقصيدة وكلامه هذا ١٣ سنة ونصف ، ويتأثر البدن في كل سنة بالضَّعف تأثراً كثيراً .

وكان حاضراً كلامه ذلك عبدالله بن فلاح ، فقال : « ما هذا إلا بخت لأهل الزمان يوم يرونكم

كل حين » ، فقال رضي الله عنه : « لكن أهل الزمان ما يُحسِنون يضمون البخت ، ولا يعرفون قدر البخت إلا فيما بعد ، كالمرأة السوء ما تضم البخت ، بل كلما مسَّ يدها يريدها جرَّت برِجْلِه » .

فقلت : إن الأمر لكذلك ، فماذا ترون ؟ ، قال : « خذ بالرفق ، لأنك خذها قاعدة : كلُّ أمرٍ انْبَهَم عليك فلا تدري حقيقته ، خذ فيه بالرفق » .

قلت : الإنسان مع خِسَّة حاله يطلب الكمال ويرجوه ويطمع فيه ، قال : « نعم، لا ترى الشيء خاصًّا بك ، كما إذا كان عندك قوت طيب ومعك ناس ، فإن كان كثيراً يكفيك وإياهم فتضلع منه ، وإن كان قليل لا تأخذه عليهم ، وخذ منه قدر حصتك ، وخلِّ لهم الباقي » .

قلت : فإن اعتمد الإنسان على المقادير تعطَّل ، وإن عمل ما أحسن ولا عرف كيف العمل ؟

قال : « أشياء من المقدَّرات مقدَّرة مع العمل ، فلا المقدَّر يمنعك من العمل ولا العمل يمنعك من المقدَّر ، ولا بُدَّ لك من كِلَا الأمرَيْن ، فتعمل بظاهرك وتعتمد على الله بباطنك ، فلا بد لك أن تَزِن نفسك بالأمرين جميعاً ، أما سمعتَ الشيخ علي في الحدائق ، كلما ذَكَرَ حديقة قال : وكيفية الموازنة » هـ .

أَقُولُ : قوله : « فتعمل بظاهرك .. إلخ » ، هذا مذهب أهل السنة ، ومراده بقوله: « تعمل » ، أي أعمال العبد كلها ، يعني أسبابه التي يتوصَّل بها إلى مصالح دينه ودنياه ، فالناس فيها على ثلاثة مذاهب :

مذهب القدرية : وهو ملاحظة الأعمال والإعتماد عليها ، ولا يرون النفع إلا من جهتها ، وغافلون عن مسبِّب الأسباب ، فهذا مذهب باطل ، وسَمَّى النبي ﷺ أهل هذا المذهب القدرية ، وذمَّهم وذمَّ مذهبهم ، وقال : « أولئك مجوس هذه الأمة ، إن مرضوا فلا تعودوهم ، وإن ماتوا فلا تشهدوهم » .

والمذهب الثاني : مذهب الجبرية ، القائلين : الناس مجبورون على ما يفعلون ويذرون ، وليس لهم اختيار في شيء ، وكل شيء من الله ، فلا سبب خير ينفع ولا سبب شر يضر ، ويتركون الأسباب والأوامر على هذا المنوال ، فمذهبهم باطل نعوذ بالله منه .

والمذهب الثالث الحق : مذهب أهل السنة الذي أشار إليه ، وهو أن يعمل الأسباب امتثالاً لأمر الله، ويعتمد بقلبه على الله ، فيعتقد أن الله سبحانه هو النافع في الأسباب ، لا أنها هي النافعة بذاتها، وأنه هو الذي وضع فيها خاصية النفع ، وعلَّق فيها هذه الخاصية تعالى ، بحسب مراده لا مطلقاً ، فإن أراد سبحانه جعل تلك الخاصية في السبب فنفع ، وإن أراد نزعها منه فلا ينفع السبب . ومثاله في أعضاء الإنسان ، كالنظر في العين ، فإن أراد سبحانه جعل فيها ما وضع فيها من الخاصية فَنَفَعَت وحصل فيها النظر ، وإن أراد نزعها منها فبقيت تحلق بلا نظر ، كالمسورق في نظره .

ومثله السمع في الأذن ، والبطش في اليد ، والمشي في الرجل، والنطق في اللسان ، فما تُنكِر من لسان الناطق ولسان الأعجم شيئاً سوى نزع تلك الخاصية ، فيفوت من لسان الأعجم نطقه ، أو إبقاؤها في الناطق فيحصل منه النطق. والنافع فيه تلك إن أُبقيت فيه ، وإن نُزعت منه فلا يعني شيئاً ، وكما أن السبب لا يفيد بذاته إلا أن يشاء الله ، فكذلك إذا شاء الله شيئاً يسَّر له سبباً ، وفعل سبحانه في السبب، فالمقادير مخفية في الأسباب في الدنيا ، وفي الآخرة تظهر المقادير وتخفى الأسباب، كذا سمعت سيدنا يقول غير مرة ، وغير ذلك، وهذا جارٍ في جميع أسباب الخير وأسباب الشر ، وأسباب الدنيا وأسباب الآخرة ، فافهم ذلك .

فإن التعلق بالبيع والشراء مثلاً سبب في تحصيل المال ، وقد رأينا أناساً أفنوا في ذلك أعمارهم طمعاً في حصوله ، ومازالوا فقراء يُعطَون من الزكاة ، وكذلك في أسباب الدين ومنافع الآخرة ، فإن خيرها في الإيمان والطاعة ، وشرها في الكفر والمعصية ، فلا ينفع هذا الخير إلا مع سابقة السعادة ، ولا يضر ذلك الشر إلا مع سابقة الشقاوة ، وإلا فكما قال الإمام الغزالي : « ما كل من صام أو صلى دخل الجنة، ولا كل من عصى وخالف دخل النار ، فربما كُتِبَت له السعادة فوفِّق لتوبة نصوح تجبُّ عنه الذنوب »، فتأمل في هذه المعاني الدقيقة التي ما يفهمها إلا من فتح الله عين بصيرته .

وقول سيدنا : « **فتعمل بظاهرك وتعتمد على الله بباطنك** » ، يشير به إلى مذهب أهل السُّنة ، الذي خرج من بين المذهبَيْن المذكورَيْن كما خرج ، ﴿مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾.

وقوله : « **لا بُدَّ لك أن تزن نفسك بالأمرين جميعاً ، أما سمعتَ الشيخ علي في معارجه ، كلما ذَكَرَ حديقة قال : وكيفية الموازنة** » ، أما الأمران ، فقوله : « **تعمل بظاهرك وتعتمد على الله بباطنك** » .

قال الشيخ علي بن أبي بكر بن الشيخ عبدالرحمن السقاف في قصيدته من « معارج الهداية » ، وأبياتها ١٠٨٤ بيتاً ، وجعلها فصولاً ، وسمَّى كل فَصْلٍ حديقة ، فقال : الحديقة الأولى ، الحديقة الثانية، إلى أن قال : « الحديقة الرابعة ، في الإشارة إلى ذِكْرِ شيء من علوم أسرار السلوك وحقائق الموازنة » ، وكقوله في التاسعة : « الحديقة التاسعة ، في الإشارة إلى ذِكْرِ شيء من عزيز مطالب الصوفية وغريب الموازنة » ، وكقوله في الثانية عشر : « الحديقة الثانية عشر ، في الإشارة إلى ذِكْرِ شيء من علوم الطرائق والحقائق وغرائب من الموازنات » ، وغير ذلك .

ذِكرُ كلماتٍ خاطبني بها وحدي ، في مجالس كنت معه خالياً وحدنا خالية فارغة من الناس ، ليس أحد حاضراً غيري وغيره ، وهي كثيرة ، وما استحسنت من ذِكرِ ذلك إلا هذا الذي ذَكَرْت ، كما إذا خرج لصلاتي الظهر والعصر كل يوم ، وجلس في الضيقة ساعة ينتظر اجتماع الجماعة ، حتى إذا اجتمعوا دخل للصلاة ، فصلى بنا قائماً ، وذلك قبل مرضه سنة ١١٣٠ ، وبعد ذلك يخرج ويصلي مأموماً قاعداً ، وربما حضر إذ ذاك واحد أو اثنان من الفقراء ، ولا خطاب لهما . وكما إذا خرج إلى أهله في الصالح وإذا رجع منه ، وإذا خرج إلى السبير أو رجع منه ، وأوقات أخر تعرض غيرها فارغة من الناس وكثرتهم ، فيتكلم معي ومادة الكلام وفحواه تدل على ذلك . وأما المجالس العامة التي يكثر فيها الحاضرون – كمجالس المدارس – كمدرس عشية كل يوم ، ومدرس ضحوة الإثنين والخميس ، ويوم الجمعة في دار البلاد وضحوة ، وبعد الصلاة وبعد العصر ، وغير ذلك كما في زيارة التربة ، وغير ما ذُكِر ، والكلام فيها أكثر ، وكله أو أكثره منقول هنا في هذه المجالس ، بفضل الله ومعونته ، ومادته أيضاً تدل عليه .

فمن الكلام الذي خاطبني به في الفراغ ، ما تقدَّم من قوله : « **طريقتنا طريقة الإمامة ، وهي طريقة مُظلِمة** » ، أي لا يهتدى فيها بالعقل ، على ما تقدَّم تفصيله وبيانه .

ومنه أنه ذَكَرَ الإلباس ، *فقال* : « **الإلباس لا يُرَاد لصورته ، ومن لبس لصورة الإلباس ما حصَّل شيئاً ، وإنما هو لمعنى فيه وهو الرابطة . وقد رأى أبو يزيد رجلاً يماشيه ، فيضع قدمه في موضع قدمه، فقال له : لِمَ تفعل هكذا ؟ فقال : لأسير على طريقك ، فقال : لو سلختُ جلدي فلَبِسْتَهُ ما نفعك ، حتى تدحق على طريقي التي سلكتها إلى الله عز وجل** » .

فقلت لسيدنا : أيقتضي هذا أنه لا بد بعد الإلباس وحصول الرابطة به أن يقتدي بمن لبس منه ؟ *قال* : « **نعم ، بما أمكنه ولو بعض اقتداء ، بحيث لا يصير مخالفاً له ، ويكون منتسباً إليه** » .

قلت : فهل يشترط في هذا أن يراه ؟ *قال* : « **لا ، بل بحيث يكون على الطريق لا يميل عنها ، وإن لم يَرَ السائرين عليها ، فإن المائل عن الطريق لا يصل إلى المقصود ، والسائر عليها وإن بَعُدَ عن من أمامه يصل ، فأين نحن من الشيخ محمد بن علوي ونحن في تريم ؟** » هـ .

– *أقول* : يعني أن السيد محمد المذكور المتقدم ذِكْره ، وأنه أرسل له الخرقة عن أمْرِ النبي ﷺ له بإلباسه أنه شيخه ، وهو سائر على قَدَمِهِ ، وهو بمكة وسيدنا في تريم ، ولم يجتمع به ، وتوفي قبل حج سيدنا بنحو ثمان سنين ، كما سيأتي –

فقلت لسيدنا : رأيت في شيء من الرسائل - أي رسائله - أنكم قلتم فيها : « **أن طريقتنا الكتاب والسنة ، ولو جاءنا صادق لبينا ذلك له** » ، ولَوددت أنكم ذكرتم من ذلك ما تيسَّر ، فتبسَّم ضاحكاً وسكت قليلاً، وكان ذلك عادته إذا خوطب بكلام يحب أنه لم يُذكَر له ، *ثم قال* : « **هي الطريق وإن اختلفت الطرق ، فهي عليها وهي واحدة ، ولكن ما كل أحد يعلمها ويعمل بها ، فلو صلى رجل مثلاً من غير طمأنينة ، فلا يخلو إما أن يكون عالماً ببطلان صلاته ، فهو مخالف للعلم ، وإلا فهو جاهل . والزمان اليوم إلى وراء ، وقد أدركنا جماعة نقصوا عما كانوا عليه كثيراً ، هذا بالنسبة ، وأما الكامل على القدم المحمدي فما أدركنا عليه أحداً** » .

ومرة في غير هذا المجلس *قال* : « **وما يزال الناس ينقصون وينكصون ، فينكصون أولاً عن مقام الإحسان ، ثم عن مقام الإيمان ، ثم يكادون يخرجون عن مقام الإسلام والعياذ بالله** » .

ثم ذَكَرَ قصة الذي ذَكَرَهُ اليافعي أنه مر عليه الشيخ مع تلميذ له والطبل في عنقه وكان في جماعة أو قال : « من جماعة يُسَمَّون السَّناكم ، يأكلون الميتات ويشربون الخمر ، وهم يلعبون ويرقصون ، وهذا يضرب لهم الطبل ، فأخذه وضربه بحزمة قضبان ذرة ، حد شرب الخمر ، ثم علَّمه الوضوء وصلى بهم صلاة العصر ، ثم فرش له سجادته على الماء في البحر ، ثم أمره أن يجلس عليها ، فجلس عليها وسار يمشي على الماء » .

قال سيدنا : « **فيقول السامع متعجباً، كما قال تلميذه ذلك الذي معه : أنا لي معك كذا كذا سنة ، ما حصل لي هذا ، وحصل لهذا في لحظة . فالجواب ما قاله الشيخ له : من أنه ليس الأمر في ذلك إليه ، بل إنما الأمر فيه إلى الله سبحانه فقط لا غيره ، حتى قال الشيخ : أنا وَدَدْتُ لو كان ذلك حصل لي ، وإنما أنا عبدٌ مأمور ، قيل لي : فلان من الأبدال توفي ، فأقِمْ فلاناً مكانه . فامتثلت كما يمتثل الخدام** » ، ثم قال سيدنا : « **وهذا الأمر لا بد فيه من جذبة أو سلوك** » هـ .

أقول : يعني في الغالب والأكثر من أحوال الناس ، وإلا ففي الكثير قد يكون ذلك بدون ما ذكر ، كقصة هذا ، وقصة البهلول ابن عرس ، وذي النون، وابن عبدربه وغيرهم ، فإن ذلك يكون بحسب النصيب من النفحات المؤقتات بالأوقات إذا حضر وقتها ، كما في الحديث : « **إن لربكم في أيام دهركم نفحات ، ألا فتعرضوا لها** » ، والأمر بالتعرض حثٌ على الإقبال على الله في دوام الأوقات ، لعله أن يصادفها وهو كذلك ، وإلا فإنها إذا جاء الإبّانُ تجي ، على أي حالة كان .

وهذه عادة الدعاة إلى الله كسيدنا ، وكل من أقيم في مقام الدعوة إلى الله ، يحثون الناس ويرغِّبونهم في الإقبال على الله ، وهذا هو مقامهم وكسبهم وتسببهم . وأما ماهو وهبهم وحظهم من الله ، ففي

الوقت الذي يريد على الوجه الذي يريد لمن له يريد ، وهو قوله كما تقدَّم من أن أجزاء الولاية أربعون جزءاً ، تسعة وثلاثون هو ما اكتسبوا ، وجزءاً واحداً تمام الأربعين ، وهو ما وهبوا . فالكسب هو السلوك الذي أشار إليه ، والجزء الوهبي هو الجذب الذي ذَكَر ، لكن كسب العبد لا نسبة له مع وَهْب الرب ، وهو معنى قوله : « **اندمجت فيه ، وصارت فيه كحلقة ملقاة في فلاة** » .

ولما خرج سيدنا لصلاة الظهر يوم السبت ١٣ جماد أول سنة ١١٢٩ ذَكَرَ لي الكتب التي في خزانة كتبه واستخبرني عنها ، ومن جملتها : الصحيحين ، فقلت : أودُّ لو حصل لي كتاب جَمَعَ بينهما ، لجعلتُ جلَّ مطالعتي فيه ، *فقال رضي الله عنه* : « **أنت فيك فضول تحب جمع الكتب ، خلِّ عنايتك بالعلم والعمل دون جمع الكتب، افهم كلاماً قليلاً يغني عن كلام كثير ، فما ينفع كثرة الكتب ، ﴿ كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًاۢ ﴾ ، فخلِّ همَّك همًّا واحداً ، ولا يتشعَّب قلبك في طلب العلم ، والناس ما صحبوا أهل التصوف إلا لهذا المعنى . ومن تَتَبَّع الشُّعب لا يبالي الله به في أي وادٍ أهلكه ، ويبقى قلبه يتتبَّع الشُّعب حتى في صلاته ، لأنه متتبِّع الشُّعب في طلب العلم ، حتى يتتبَّعها في النساء والثياب وما شاكل ذلك، وكتاب واحد من كتب الإحياء يكفي من جميع الكتب . والعلم المطلوب منه العمل ، وإلا فما تنفع لفلفة الكتب، فكم ناس جمعوا كتباً ولفلفوها فما نفعهم ذلك ، فلا عاد أحد يخبرنا بالكتب ، فما مَرَّ عليك بعضه ، قد مَرَّ علينا كله مرتين أو أكثر ، لأنَّا من سن خمسة عشر سنة إلى الآن– وسنه حينئذ ٨٥ سنة –ونحن في الكتب** » ، ثم أنشد هذا البيت :

وَمِـنْ عَجَـبٍ إِهْـدَاءُ تَمْـرٍ لِخَيـبَرٍ　　　وَتَعْلِيمُ زَيدٍ بَعْضَ عِلْمِ الفَرَائِضِ

انتهى . وتقدَّم ما يشبه هذا الكلام مع إنشاده هذا البيت أيضاً، والمذاكرة قد ترد في المجالس مراراً، فيتكرر الكلام المتعلِّق بها بتكرارها .

وكان يوماً طالعاً من الصالح يريد الحاوي ، وذلك يوم السبت ١٨ جماد آخر من سنة ١١٢٩ ، **فقال** : « **إن سَلِمَ الفلاني – الحساوي – ووصل إلى بلاده ، صار لهم مثل حديث خرافة : رحت أنا مع فلان– السيد عبدالله – إلى مكان كذا ، وجئنا من مكان كذا** » ، وكان الأمر كما قال رضي الله عنه .

فقلت : إن كان الأمر ألا هكذا ، فإن الحجة فسلة ، *فقال رضي الله عنه* : « **كل شيء له حُكْمُه ، للظاهر وأمور الأجسام حكمها ، وللباطن وأمور الأرواح حُكْمها، فما قول : لا عبرة بالأكل ولا بشيء من الأمور التي تتعلَّق بالجسم ، وهو لا يسمح بترك أكلة ؟ وقول بعض المتصوفة : أنا أعمل لا لحصول**

الجنة ولا خوف من النار ، ولا للحور والقصور . وهو متعلِّق قلبه بنكاح النساء وبسائر الملذات ؟ فما هو إلا من حيث أن مطلوب الأرواح غير مطلوب الأجسام . أفهمت هذا القدر ؟ » .

قلت : قريب منه إن شاء الله ببركاتكم .

ثم ذَكَرَ قصة الذي عزم على أن لا يأكل الطعام مدة أربعين يوماً ، قال : « ثم اشتدَّ به الجوع ، فخرج من غير شعور منه بنفسه إلى السوق ، فرأى رجلاً يقول : أشتهي كذا من الحلوى ، وكذا من كذا ، وذكر شهوات أخرى . فقال ذلك الرجل في نفسه : إن هذا الثقيل- أي على الخاطر - يتمنى هذه الشهوات ، وأنا أشتهي كسرة ما حصلت لي » .

قال : « ثم بعد ساعة حصل لذلك الرجل المتشهِّي ما أراد ، فأتى به لذلك الآخر وقال له : من هو الثقيل منَّا ؟ الذي قطع عَزْمَهُ وآذاه الجوع ، أو من يتشهَّى الحلال ؟ فَخُذ هذا ، واقطع الأربعين شيئاً فشيئاً ، ماهو بمرة واحدة . فهذا كله بالنسبة إلى الأرواح والأجسام ، فافهم ذلك واعرفه » .

إلى هنا انتهى كله ، بلفظه حرفاً حرفاً ، القصة وما تقدَّمها وما تأخرها ، مشيراً بكل ذلك إلى معنى آخر حيث قال : « فهذا كله بالنسبة إلى الأرواح والأجسام » ، فالْقِ بالَكَ إلى معنى ذلك ، فإنه سيشير لك إليه .

وخرج في اليوم الذي بعده إلى السبير - وذلك يوم الأحد - فتكلم في الطريق وذَكَرَ أحوال الفقراء في الردِّ والأخذ ، فقال : « للردِّ شروط لا بد منها ، أوَ كل أحد يحسن الرد ؟ » ، فقلت : أوَ يشترط في الردِّ كما فعله من فعله ، أن يستوي عنده المال والحجر سواء؟ قال : « نعم » .

قلت : إن ذلك لشديد وأمر غريب ، فقال رضي الله عنه : « كل أمور الصالحين غريبة ، لأن تعلقهم وأمورهم من الآخرة ، فأي شيء من أمورهم ليس بغريب ، واعتَمِد على ذلك الكلام الذي ذَكَرْنَاه لك في طريق الصالح ، فإنه يفهمك أموراً لم تكن في بالك ، ويحل لك إشكالات كثيرة ، ويوضح لك أشياء إن سُئلت عنها - أو قال : ربما تُسأل عنها - » .

أقول : يعني بكلامه الذي ذَكَرَهُ في طريق الصالح ، هو ما قلت لك : فالْقِ بالك إلى معنى ذلك ، فإنه سيشير لك إليه ، وهو تلك القصة وما تقدَّمها وما تأخَّرها من قوله : « كل شيء له حُكْمه ، للظاهر وأمور الأجسام حُكْمها ، وللباطن وأمور الأرواح حُكْمها » ، إلى أن قال لي : « أفهمت هذا القدر ؟ » ، قلت : قريب منه إن شاء الله ، إلى أن قال آخره بعد تقريره وتبيينه ، وضَرْب المثل له بالقصة إلى أن قال : « فافهم ذلك واعرفه » ، وهو معنى عجيب ، ما سمعته قط إلا منه ، ويحق له أن يطلع على جواهر

الأصداف ، ودرر معاني العُرَّاف ، رضي الله عنه ونفعنا ببركاته وأسراره في الدنيا والآخرة .

وكان يوماً طالعاً من الصالح إلى الحاوي ، وذلك بعد الإشراق يوم الجمعة ٢٤ جماد آخر من السنة المذكورة سنة ١١٢٩ ، فسأل عن غريب قَدِمَ له يومان ، ظاهر حاله التجرد وتقليل الطعام ، ويزنه بالجريد ، حتى إنه امتنع من الدخول مع الجماعة للعشاء ، ويصوم الدهر ، *فقال* : « **هل له قيام بالليل؟** ». قلت : ما رأيته ، *فقال* : « **قلة الأكل ، وقلة النوم متلازمان** » .

قلت : وكثير من الغرباء عند مجيهم يعملون على هذا ، ولكنهم ما يثبتون عليه كما في قصة فلان، حيث أراد يدخل أربعينية ، واستأذنكم في ذلك وما أذن له - حيث أنه كما تقدَّم قال : « **هذا الزمان لا يصلح لدخول الأربعينية والخلوة ، لخلوه من الحلال** » - ، *فقال رضي الله عنه* : « **ليس ذاك الأربعينية المذكورة في طريقة السابقين ، وتريم فيها أربعينية ؟ وإنما هي أربعينية كذا في طريقة أصحاب اليمين، وهذه الطريق ليس فيها أربعينية ، بل هي طريقة سهلة تُفضِي بالإنسان إذا واظب عليها باللحوق بأهل تلك الطريقة ، فربما حصل له في هذه الطريقة فتوح ، فالتحق بأهل تلك ، وليس فيها من طريقة السابقين إلا من كل شيء جزء يسير ، وهي طريقة سهلة ولا أربعينية فيها ولا مشقة ولا خطر . وأما طريقة السابقين فهي مُشِقَّة، وفيها أربعينية ولكنها مُخطِرة ، يُخشَى فيها حتى على أمور الدين من تغيُّر العقل والعقيدة ، وكثير من الناس إذا رأوا شيئاً من ذلك خرجوا من الأربعينية ، كيف وقد قال النبي ﷺ ، وهو مؤيَّد بالوحي والعصمة : لقد خشيت على نفسي ؟** » .

قلت : قال ذلك لما رأى الملَك ، *قال* : « **وهذا أيضاً ربما رأى الملَك ، مَلَك الإلهام لا مَلَك الوحي ، وأيضاً النبوة فيها مَلَك وحي ، ولا سبيل للشيطان مع مَلَك الوحي، وأما مَلَك الإلهام فربما حضر معه الشيطان ، وقريش إنما استنكرت من النبي ﷺ لما رأوه مخالفاً لهم ، وقالوا : نخشى أن يكون أصابه الشيطان ، وأرادوا ينظرون له طبيباً يداويه . ولا يليق بأهل هذا الزمان إلا هذه الطريقة السهلة دون الأخرى، أين الناس اليوم ؟ وأكثر ما يحصل التغير في الأربعينية لمن يدخلها بغير شيخ أو من غير امتثال. وقد كان جاء إلى عندنا رجل يعمل لنفسه رياضات ، وأدخل نفسه الأربعينية ، ويزن القوت بالجريد الأخضر ، فقلنا له : اترك هذا ، واعمل على تلك الطريقة السهلة ، فعل الأوامر الظاهرة ، والإقتصاد في العمل مع المداومة عليه ، فأبى . فقلنا له : تكذب في عملك هذا ، أنت ما بعد أحْكَمْتَ طريقة أصحاب اليمين ، فكيف يمكنك سلوك طريقة السابقين ؟ فسافر من عندنا ، فتعوَّقت عليه الطريق ، حتى رجع نحو ثلاث مرات ، حتى تيسَّر له السفر فيما بعد .**

ونحن ما نتأسَّف على فعل الخير ، وإنما نتأسَّف على كلمة صَدَرَتْ مِنَّا لأحد ، وكان يسعنا فيها

العفو عنه والتجاوز والإغضاء . ومنذ ابتدائنا إلى الآن ما أشهرنا أنفسنا بطريقة السابقين ، لا سابقاً ولا لاحقاً ، ولا سلَكْناها بين الناس ، ولا سلَّكنا فيها أحداً . وأين الزمان من الزمان ؟ والناس من الناس؟ طالباً أو مطلوباً » .

قلت : فإذا جاءكم أحد لا يعرف طريقة السابقين ، ولا طريقة أصحاب اليمين فماذا يفعل ؟

قال : « **يعمل على ما نحن عليه ، فما يرانا نفعله يفعله ، كما ترى من إقامة الصلوات وقراءة القرآن وترتيب الأذكار وطلب العلوم النافعة ، مع الدوام على ذلك ، فهل رأيتَ أحداً دام على ذلك من علماء الحرمين أو غيرهم ؟ أو سمعتَ أحداً يُنكِر هذه الطريقة ؟** » .

قلت : لا ، *فقال* : « **فهذه طريقة أصحاب اليمين ، وهي اللائقة . فينبغي أن يطلق لأهل الزمان طريق العموم ، لتعذّر طريق الخصوص ، وإلا فكم واحد يظن بنفسه أنه مثل الشيخ عبدالقادر ، وهو ما يكون مثل شوكة في رِجْلِه** » .

قلت : فالطمع طبع ، يطمع في كل شيء أن يكون له من الحظ الأوفر ، *فقال* : « **الطمع يكون في أمور الدين ؟! فإذا كان الطمع في أمور الدنيا مذموماً ، فكيف به في أمور الدين ؟** » . انتهى .

أقول : قوله : « **حتى تيسَّر له السفر فيما بعد** » ، سمعت عن بعض الجماعة الملازمين لسيدنا وهو السيد محمد بن شيخ الجفري ، قال : « إن رجوعه في الثلاث المرات من باجلحبان ، بأسباب وعوارض من المضار تعرض له من تصرُّفات سيدنا ، حيث يسافر من غير رخصة منه ، ثم بعد الثالثة أذِنَ له ، فسافر ولم يعرض له من ضرر يرده عن السفر » ، أو كما قال بمعناه .

وتكلم يوماً كلاماً كثيراً حتى *قال* : « **أكثر ما يغار الإنسان من أمثاله ، ولو حضر أربعة متماثلون في جنازة ، لطلب كلٌّ منهم أن يكون هو المتقدِّم في الصلاة، ولو جلس مثلاً رجل من غير الأشراف للتدريس من آل بافضل أو غيرهم لما استنكف الأشراف من الحضور عنده** » ، *ثم قال* : « **ولو قد رحت إلى بلادك ، وجاء واحد ليتقدَّم عليك ، كرهت ذلك ؟** » .

فقلت : نعم ، ولكن إلى متى الإنسان على هذه الحالة ؟ ، *فقال* : « حتى يخرج عن حُكْم الطبيعة » .

فقلت : وبأي شيء يخرج منه ؟ *فقال* : « ذلك باختيار الله ، وليس بكسب الإنسان ، وإنما هو بالبخت والنصيب فكل من أراد شيئاً لا يحصل له إلا بالبخت والنصيب ، أما سمعتَ قولهم : وما هو إلا بالبخت والنصيب » .

أقول : هذه الكلمة في بيت من قصيدة للشيخ أبي بكر بن عبدالله العيدروس نفع الله بهما قال فيها : [1] .

والمراد بالبخت والنصيب كما تقرَّر مراراً في كل أمر يحصل من دين أو دنيا أو سعادة في الدارين وفي كل ما يطلب ، هو حكم الله بحصوله له في سابق أزله وكَتْبِه له في سابق الأزل ، حين أمَرَ القلم أن يكتب في اللوح المحفوظ كل ما أراد وقوعه ، وذلك قبل خلق المخلوقات ، بسببٍ على أيدي الخلق ، وبلا سببٍ على أيديهم ، الأول يسمى : من باب الحكمة ، والثاني : من باب القدرة . فإن كان بواسطة نبي قيل له : معجزة ، كإحياء أولاد جابر وثباته ، أو بواسطة ولي قيل لها : كرامة ، كإحياء الدجاجة التي قد أُكلت بواسطة الشيخ عبدالقادر .

والمحكوم به لا بد أن يكون مؤقَّتاً بوقت ، ولا بد له أيضاً من سبب ، فإذا حصل لعبد أمر قد حُكِم له به ووافق سببه وقته ، ولا يكون بالسبب إلا مع موافقة الوقت وهو القدر ، وهو نتيجة الحكم السابق ، قيل : لفلان بخت وحظ ونصيب، وعكسه إذا لم يسبق في الحكم القديم له بِنَيْلِهِ ، فلا يحصل لا محالة ، ولو تسبَّب له بكل سبب له ، فيقال : فلان ما له بخت ولا حظ ولا نصيب ، وليس نيله بواسطة الآدمي وإن تسبَّب فيه وسعى له ، وإنما هو بحسب الإرادة الأزلية والكتبة الإلهية .

وما أراد الله سبحانه من وقوعه وحصل وقته ، يسمى الإستعداد ، يعني أنه بذلك صار مستعدًّا لحصوله ، سواء توقَّف على سعيٍ وبسببٍ من الخلق أو لا ، فإن وقفه سبحانه على ذلك يسَّره له ، أو على الأمر الذي يتوقَّف عليه كذلك ، فإذا حصل الكتبة والوقت والسبب صار بذلك مستعدًّا له .

والإستعداد على وجهين : الإستعداد الأصلي : وهو الحقيقي المنسوب إلى الله بكتبه له ، مثل سبق السعادة له بحصول الخير ، والثاني المجازي : المنسوب إلى العبد، وهو استيفاء جميع أسبابه وشروطه مع موافقة وقته ، وهو الإجتهاد المنسوب إلى العبيد ، الذين قال الله فيهم : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٦٩ ﴾، فهؤلاء حصلت لهم الثلاثة : الكتبة من الله، والتسبب منهم ، مع موافقة الوقت . فحصل لهم ما وعدهم الله به ، من أن هداهم سبله ووصفهم بالإحسان ، وهذا وعدٌ منه سبحانه لهم بالهداية إلى الحق في الدنيا ، وأنه يوفيهم ما وعدهم به في العقبى ، ولو كان ظاهر هذا المعنى الذي تعلَّق به الحكم الشرعي المخاطَب به كافة الخلق إنهم عملوا صالحاً فجوزوا عليه خيراً ، وعكسهم من عملوا سوءاً فجوزوا عليه شرًّا .

والمعنى الغامض في ذلك ، وهو الحق الموافق للحق ، أن الله سبحانه أراد أن يجازي كلاً من

---

(١) فراغ في الأصل ، ولعله : (من حبه الله ما شقي ، فذاك بالبخت والنصيب) . ديوان الإمام العدني ص٢١٦ .

الفريقين بجزاء عمله ، قبل وجودهم وقبل وجود أعمالهم ، فأجرى على كلٍّ منهما في الدنيا عمل ما أراد أن يجازيهم به في العقبى ، وذلك قبل خَلْقِهم وقبل عملهم ، ولهذا كتب السعادة وجزاء عملها لأهلها الذين كتبهم سعداء ، وكتب الشقاء وجزاء عملها لأهلها الذين كتبهم أشقياء .

فافهم هذا المعنى ، وقد تقرَّر عليك مراراً لِتَتَفَقَّهه وتَتَفَهَّمه وتَعْرِفه ، فإن الله سبحانه إذا سبق منه إرادة العبد بخيرٍ أو شرٍّ سبق منه تعالى إرادة بحصول أسباب ذلك وشروطه ، فإن كان النصيب من الخير وافراً كان السبب فيه وافراً بإعانة الله، وإن كان دون ذلك كان بقدره – كما تقدَّم من قوله : « أشياء من المقدورات مقدرة مع السبب » – وكذلك قد يكون لشيء من الأعمال مزيَّات وفضائل تفوق بها غيرها، فتضاعف على ثوابها الموعود به عليها في العموم وهو النصيب أضعافاً كثيرة ، كما ورد: « سبق درهم مائة ألف درهم » ، وورد أيضاً : « أن بعض الأعمال يضاعف من عشر إلى سبعين، إلى سبعمائة ، إلى أضعاف كثيرة » . وكذلك قال الله سبحانه : ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ﴾، فاتفق معنى الحديث والآية في أن الحبة الواحدة أثمرت سبعمائة ، والعشر إذا ضوعفت سبعين بسبعمائة، ولكن لم يوقف ذلك على هذا ، حتى قال : « إلى أضعاف كثيرة » ، أي لا يعلمها إلا الله ، ولذلك ما حدَّها بعدٌ ، ولا دليل يتشبث به العقل في سبب حصول هذه المزايا إلا قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ ﴾ .

فتبيَّن لنا بذلك أن لا سبب إلا مشيئة الله سبحانه لمن شاء له بقدر ما شاء ، ولا أرى ذلك إلا بسبب صدق خلوص النية وصحَّتها واستقامتها ، وكثرة رغبة الفاعل في طلب مرضاة الله ، كما ورد في الحديث : « أن رجلاً قال : يارسول الله ، ما أفضل الصدقة ؟ قال : أفضل الصدقة جُهد من مقِلٍّ مشى به إلى فقير سرًّا » ، فبين أن المقِل المحتاج، ما يُخرج شيئاً لله إلا مُؤثِراً به على نفسه لوجه الله ، فدلَّ على أن رغبته في طلب مرضاة الله أقوى من رغبة المُؤْثِر ، فربما أن ذلك الدرهم ما يملك صاحبه غيره، فقد خرج من ماله لله ، وبقي لا شيء في يده ، وأن صاحب المائة الألف ترك مثلها أضعافاً كثيرة ، فشتان ما بينهما .

فكلما قويت النية في الفعل كانت المزية أبلغ ، فإن كان المكتوب من الله غير متوقِّف على سبب ، ولكن لا بد من الوقت ، فإذا حضر صار به بدون السبب والسعي مستعدًّا ، كالمجذوب الذي سلك بعد الجذب ، فإن الجذب ما تقيد منه بسبب ، وما حصل إلا بعد حضور وقته المؤقت له ، والأول الذي حصل له بعد السبب ، كالسالك قبل الجذب . والمقصود الذي وصلا إليه واحد ، فلا يحصل خير الدين والدنيا والسعادة في الدارين ، إلا بالإستعداد لذلك ، الذي هو البخت والنصيب ، الذي

هو سبق القضاء والقدر ، وقد يعبر عن أحدهما بالآخر ، بصدق كل منهما على معنى واحد كما قيل :

مَا قَدْ قُضِي يَا نَفْسُ فَاصْطَبِرِي لَهُ وَلَـكِ الأَمَـانُ مِـنَ الـذِي لم يُقْـدِرِ

أي الذي لم يقضِ ، والمعنى الذي اتَّحَدَا فيه : أن الله سبحانه إذا أراد وقوع شيء ، فلا يكون إلا في وقت عين له ، فهو الشيء المحكوم بوقوعه ، وهو الواقع في وقته ، إذ الزمان ظرفٌ لوقوع المقضيات ، فيقع كل مقضيٍّ من الله في جزء من الزمان وقد يكون في وقت معيَّن من الله له بحصوله فيه . فحكمه سبحانه بوقوع الأشياء هو القضاء ، وذلك حتمٌ وقوعه ، وكون وقوعه في الوقت المؤقت له على صفته التي أراد تعالى أن يكون عليها هو القدر ، فإذا قضى الله لعبد بحصول شيء وحضر وقته فهو الإستعداد . كذا سمعته من السيد الكامل : أحمد بن زين الحبشي رحمه الله ، قال : « قد سمعت ذلك من سيدنا عبدالله ، قال : وفهمته وحفظته من كلامه وكلام غيره ، أن معنى البخت والنصيب : هو قضاء الله له بحصوله ، وإن ذلك يسمى الإستعداد أيضاً » هـ .

قال رضي الله عنه : **« إنما قيل في النفس أنها أعدى الأعداء ، لكونها تُنكِر الشيء من غيرها وتكرهه، وفيها مثله . فلو رأيتَ إنساناً في أمرٍ كرهت منه أشياء ، فلو قُمتَ أنت في ذلك الأمر ، ظَهَرَت منك تلك الأشياء التي كرهتها من غيرك ، فيكرهها غيرك منك . فالطباع سواء ، والنفوس على طبعٍ واحدٍ في مَيْلِها عن الصواب ، ولكن يظهر الشيء ويخفى »** .

ولما خرج لصلاة العصر يوم الثلاثاء ٢٣ جماد أول سنة ١١٢٩ ، سألني عن رجل فقير غريب سافر في هذا اليوم ، وهو الذي لم يخبر باسمه ، وإذا سُئل عن اسمه قال : « التراب » ، وسمَّاه سيدنا : « أبو الفتوح الشامي » ، وكان من أهل حلب ، فسأل : « **هل معه زاد ؟** » ، ثم ذَكَرَ أحوال أهل التجريد ، *فقال* : **« كانوا إذا احتاج الرجل منهم ، وعرض له شيء ، أخذ حاجته فقط وردَّ الباقي ، وإن لم تكن حاجة ردَّ الكل ، ولا يخطر في قلبه الحال في الوقت المستقبل »** .

ثم ذكر قصة ذلك المتجرِّد الذي احتاج ، فجاءه رجل بحاجته ، فقال له : « إني رأيت النبي ﷺ في النوم يقول لي : اذهب بكذا وكذا إلى فلان في المكان الفلاني فإنه محتاج لذلك » ، فأتيتك به ؛ وقال: « متى احتجتَ فتعال إلى عندي أقضي حاجتك ، وأنا في المكان الفلاني » ، فقال له : « لا آتيك ، فإذا أنا احتجت يأتي بك أو بغيرك ، من أتى بك الآن » ، الحكاية بمعناها . وفيها أن ذلك الرجل الذي أتى بما أتى به ، اشتَهَت عليه زوجته شهوة لا تحصل إلا بدينار ، فجعل يكدح في تحصيله إلى أن حصله، فاشترى به ذلك ، وإذا ذلك الفقير قد اشتهاه أيضاً ، وكان في المسجد ، فأراد يقدِّمه لأهله ، فكأنه

أخذته سِنَة نوم ، فرأى فيها النبي ﷺ يأمره بتقديمه للفقير أولاً، وقال له : « يأكل منه الفقير ما تيسَّر ، ويجعل الله لكم البركة في الباقي » ، فقدَّمه إليه ، فأكل منه ما تيسَّر وترك الباقي ، فبورك لهم فيه .

فقلت لسيدنا : إن مثل هذا وَقَعَ بصيغة خرق العادة من حيث الكرامة ، ولا يكون ذلك إلا نادراً، فمتى يكون مثل ذلك في كل حين ، والضرورة تتكرر دائماً ؟ *فقال* : « **نعم ، إذا خرقتَ من نفسك العوائد ؛ انخرقت لك العوائد ، وهو أمر قد ذَكَرَ الإمام الغزالي أنه لا يُوصَل إليه بالهوينا ، بل بعد اللتيا والتي** » .

قلت : يعني بهذا شدة الصبر على مثل ذلك ، *قال* : « **نعم ، إذا صبر عليه لأجل الله ، كتقوية اليقين، لا لأجل هوى ، وإلا ترى رهبان وفلاسفة ونحوهم يتخلون ويتريضون ما حصلوا شيئاً . أما سمعت قول بعضهم : قف على الباب لا لتُفتح لك الأبواب ، تُفتح لك الأبواب . واخضع لا لتخضع لك الرقاب ، تخضع لك الرقاب ؟** » ، فقلت : إن هذا أمر عَسِر جدًّا ، وكلٌّ غافل عنه ، ومع ذلك كل يريده، *فقال* : « **هذه الأشياء إنما هي بالبخت والقسم** » هـ .

أقول : يعني به كما تقدَّم سبق القسمة له بذلك من الله ، في علم الله وحكمه وقضائه ، لا باختيار العبد وسعيه .

ولما استخلف منه ذلك الغريب المتقدِّم ذِكْره ، مسافراً في يوم الثلاثاء المذكور قال سيدنا له : « **مع الله نتلاحق إن شاء الله في مكة** » ، ثم عقَّب ذلك بقوله : « **إما في اليقظة ، وإما في النوم . والله الله في دينك، واحذر من الرئاسة لا يكون لك بها تعلُّق ، وخلِّ الأمور تمر عليك ولا تخطر ببالك ، وكن في الإقامة حيث ما يستقيم قلبك ، ودم على لا إله إلا الله ، إما باللفظ أو بالقلب حسب الفراغ ، إلا إذا كان لك في وقت وِرْدٌ مُعَيَّن لذلك الوقت ، فاشتغِل به فيه . وأمر الدنيا لا يخطر ببالك ، وإن دخل يدك منها شيء ، فَخُذ منه حاجتك . وإن خرج من يدك ، فلا يخالف** » ، انتهى ما أوصاه به .

وقلت له في كلمة تقدَّمت ، وهي قوله : « **قد نجد في نفوسنا على أحد من الناس .. إلخ** » ، وسيأتي بعد أربع ورقات ، وذلك في الغيلة بعد ظهر يوم الأحد سادس ربيع الثاني من هذه السنة ١١٢٩، وقلت : كثيراً ما توسوس للإنسان نفسه بأن في خاطركم عليه شيئاً ، فإن كان من ذلك شيء لأمر حدث مني أخبروني به لأنتهي عنه ، وإلا فربما يخسر الإنسان ما يرجوه في ساعة واحدة . ونحو هذا مما يتبسَّط به الخاطر معه في بعض الأوقات في حالة الفراغ ، نفعنا الله به . *فقال رضي الله عنه* : « **لا ، ما يقع في الخاطر عليك شيء ، لأنك أنت والعيال ما نحاذركم ، وإنما نراعي - يعني نحاذر - أناساً يجون**

وهم كذا وكذا ، للإبقاء عليهم ، وإلا فإذا جزمنا على الأمر - أو قال: جزمنا بشيء - ما بالينا بهم ، ولا راعيناهم . وترى أناساً صفتهم كذا ، يجون إلى عندنا ، ما يرجعون بلا شيء » ، ونسيتُ ما وَصَفَهم به .

وسألته في مثل هذا المجلس في هذا المكان ، في اليوم الذي قبله ، يوم السبت خامس من ذلك الشهر ربيع الثاني : ما الفرق بين أمر القضاء والقدر ، وبين أمر الشرع ؟ *فقال رضي الله عنه* : « القضاء والقدر : هو الشرع ، فمن أمرك بالإيمان به إلا الشرع ، فاعرف الحق واعمل به ، واترك الباطل ولا عليك ، فإن المبتدعة ضلَّلوا أهل السُّنة بالقضاء والقدر ، قالوا لهم : أما رضيتم حتى كذبتم ربكم ؟ والإعراض عن مثل هذا أحسن ، فإن الغلو في مثل ذلك ما يحصل منه إلا التضليل وفساد الدين » .

واستأذنته يوم الثلاثاء ٦ ذي الحجة منها - أعني سنة ١١٢٩ - عندما خرج لصلاة الظهر ، أن أنقل من كتاب « اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر » للإمام الشيخ عبدالوهاب الشعراوي رحمه الله، أبياتاً كتبها يهودي إلى الإمام القونوي ، يسأله فيها عن حُكم من رَضِي بالقضاء والقدر ، وفيها بلاغة جمَّة ، فأجابه بأبياتٍ أخرى طبقها في البلاغة وعلى وزنها ، وقد مَرَّ علينا ذلك في الدرس في قراءة السيد الجليل أحمد بن زين الحبشي رحمه الله في ذلك الكتاب ضحى يوم الإثنين قبله *فقال رضي الله عنه* : « الحذر تنقلها ، فهي في غاية الإشكال ، وقد حذَّرناك وقُلْنا لك : لا تنقل شيئاً إلا بعد أن تشاور » .

ثم سكت ساعة ، *ثم قال* : « هذه مسألة صعبة جدًّا ، ولا أحد من العلماء بلغ قعر بحرها ، وقالوا: لا يتضح أمرها إلا في الآخرة . وأنت تريد تدخل لجة البحر من غير سباحة ولا سفينة ، فما لك ولهذا الأمر ، اترك الخوض فيه رأساً ، ولك شغل شاغل في العمل الصالح والأخلاق الحسنة عن هذه الأمور، فهل سمعتَ هذا من قول ابن عربي ؟ : احذروا هذه الطريقة ، فإن أكثر الزنادقة ما خرجوا إلا منها » ، قلت : لا .

ثم قال : « فإذا كان علم الفقه وعلم الحديث في كلٍّ منهما فضول لا حاجة إليه ، فكيف هذا ؟ ولو أن الشعراني مثلاً استشارنا في تصنيف هذا الكتاب، كان قلنا له : لا تصنِّفه . وقد أجملنا في رسالة المعاونة ما يتعلق بهذه المسألة بما فيه كفاية ، وذكرنا من الكتب مافيه تفصيل لها ، وذَكَرْنَا أنه لا ينبغي مطالعة تلك الكتب، وإنَّ غلط من يقول أنه يفهم ، أكثر من غلط من لا يفهم ، فاعطِ الكتاب مولاه ، وإياك أن تتصفَّحه ، وقل له : اطرحه في الخزانة في محله الذي كان فيه » هـ .

أقول : وذَكَرَ في تلك الرسالة أن العالم إذا تكلم في هذه المسألة بما يوضحها ، فما يزيدها ذلك إلا غموضاً وإشكالاً ، ثم إن السيد أحمد بعد ذلك ترك القراءة في ذلك الكتاب ، نهاه عن ذلك . فرضي الله عنه ما أشفقه على كل مسلم في دينه ودنياه وفي قلبه وجسمه .

وقد تقدَّم من كلامه في هذه المادة مثل ذلك ، عندما طلب منه ذلك الشريف كتاب « موجبات الرحمة في اختلاف الأئمة » ، ليقابل عليه نسخة عنده منه ، فقال له : « **إن كان المقابل معك فلان أو فلان** - لرجلين ذكرهما - **أعطيناكه ، وإن كان غيرهما فلا نعطيكه** » ، ثم قال له : « **عِلْمان لا نأمن عليهما متفقهة الزمان : علم الحقائق ، وعلم اختلاف الأئمة** » ، كما تقدَّم تفصيله . ولعل ذلك منه خوفاً من مطالع علم الحقائق أن يتوهَّم في نفسه أنه حصل له شيء من تلك الأحوال، كما نرى أناساً ادَّعوا ذلك وهم لا يعرفون معنى كلمة واحدة منها ، فضلاً عن اتِّصافهم بها . وقد قال الشيخ أبوبكر بن سالم نفع الله به ، مع كثرة ما فتح الله عليه به من تلك العلوم ، وكثرة ما تكلم به منها ، حتى ملأ الأرض من ذلك في مؤلفاته كمعراج الأرواح ، فإنه إذا غاص فيه وتكلم كثيراً، ثم ظهر كلامه في الظاهر ، قال : « وها هنا ملتقى البحرين » - يعني بحر علم الحقيقة ، وبحر علم الشريعة - قال : « وجميع ما تكلمنا به من علم الحقائق ، إنما هي ذرة أُذِنَ لنا فيها من مائة ألف بهار » .

وأما علم اختلاف الأئمة ، فلعله خاف على مُطالعِهِ من تتبُّع الرُّخص ، فإن تتبع رُخَص المذاهب مروقٌ من الدِّين ، والذي ينبغي للمتقي أن يتتبَّع ما فيه الإحتياط لا ما فيه الرُّخص .

وقال : « **هذه مسألة صعبة جداً.. إلخ** » ، فحسبك من صعوبتها أن ثلاثة من الأنبياء ، ومنهم اثنان من كبار أولي العزم سألوا ربهم سبحانه وتعالى عنها ، متعجِّبين من أمرها مما يرون من وقوع الأشياء على خلاف الأمر ، يقول لسان الحال : يالله العجب ، كيف تكون أمور نهى الله عنها ، أفيكون في ملكه ما لا يريد ؟ أفيُعصى ربنا قهراً ؟ فلما سألوا ربهم تعالى عنها أسكتهم ، ولم يُجِبْهم عنها بشيء .

وقصة ذلك كما ذَكَرَ الإمام السيوطي في « الدر المنثور في التفسير بالمأثور » ، عند قوله تعالى : ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ : « عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما بَعَثَ الله موسى عليه السلام ، وأنزل عليه التوراة قال : اللهم ، إنك ربٌّ عظيم ولو شئتَ أن تُطاع لأُطعت ، ولو شئت أن لا تُعصى ما عُصيت، وأنت تحب أن تُطاع ، وأنت في ذلك تُعصى ، فكيف هذا يا ربِّ ؟ فأوحى الله إليه : أني لا أُسأل عما أفعل. ثم سأل عُزَير مثل ذلك ، فأجابه : أني لا أُسأل عما أفعل . فأَبَتْ نَفْسُهُ حتى سأل أيضاً ، فأوحى الله إليه : أني لا أُسأَل عما أفعل . فأبَتْ نَفْسُهُ حتى سأل أيضاً ، فقال له تعالى : أتستطيع أن تصر صُرَّة من الشمس ؟ قال : لا أستطيع ، قال : أفتستطيع أن تجيء بمكيال من ريح ؟ قال : لا ، قال : أفتستطيع أن تجيء بمثقال من نور ؟ قال : لا ، قال : بقيراط ؟ قال : لا ، قال : فهكذا لا تقدر على الذي سألت

عنه ، إني لا أُسأل عما أفعل ، أما إني لا أجعل عقوبتك إلا أن أمحو إسمك من ديوان الأنبياء فلا تُذكر فيهم ، فمَحَا اسمه من الأنبياء فليس يذكر فيهم ، وهو نبي .

فلما بَعَثَ الله عيسى ، ورأى منزلته من ربِّه وعلَّمه الكتاب والحِكْمة والتوراة والإنجيل ، ويبريء الأكْمَهَ والأبرص ويُحيِي الموتى ، سأل ربه عن ذلك فقال : اللهم ، إنك ربٌّ عظيم .. إلى آخر ما تقدَّم من سؤال موسى ، فأوحى الله إليه : إني لا أُسأل عما أفعل ، وأنت عبدي ورسولي ، وكَلِمَتي ألقيتُك إلى مريم ، وروحٌ مني خلقتُك من تراب ، ثم قلت لك : كُن فَكُنتَ ، لئن لم تَنتَهِ لأفعلنَّ بك كما فعلتُ بصاحبك بين يديك ، إني لا أُسأل عما أفعل . فجمع عيسى عليه السلام من تبعه وخطبهم خطبة بليغة، فقال : القدر سِرُّ الله ، فلا تكلفوه ، وبحرٌ عميق فلا تلجوه .

قال الضحاك : لا يُسأل الخلَّاق عما يقضي في خلقه ، والخلق مسؤولون عن أعمالهم . قال ابن عباس : ما في الأرض قوم أبغض عند الله من القدرية ، وما ذاك إلا لأنهم لا يعلمون قدرة الله تعالى .

وعن جابر عن رسول الله ﷺ قال : إن في بعض ما أنزل الله من الكتب : إني أنا الله ، لا إله إلا أنا ، قدَّرتُ الخير والشر ، فطوبى لمن قدَّرت على يده الخير ويسَّرته له ، وويلٌ لمن قدَّرت على يده الشر ويسَّرته له ، إني أنا الله ، لا أُسأل عما أفعل وهم يُسألون ، وويلٌ لمن قال : كيف وكيف .

وعن ابن عباس قال : لمَّا خلق الله النون - وهي الدواة - وخلق الألواح ، فكتب فيها أمر الدنيا حتى ينقضي ما كان من خلق مخلوق ، أو رزق حلال أو حرام أو عمل بر أو فجور ، ثم قرأ هذه الآية: ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ۝﴾ ، ثم وكَّل بالكتاب حفظة ، ووكَّل بخلقه حفظة ، فينسخ حفظة الخلق من الذِّكْر ما كنتم تعملون في كل يوم وليلة ، فيجري الخلق على ما كل به مقسوم ، على من وكل به ، فلا يغادر أحداً منهم ، فيجرون على ما في الكتاب ، فلا يغادر منه شيء ، قيل: ما كنَّا نراه إلا كتب أعمالنا ، قال : ألستم بعَرَب ؟ هل تكون نسخة إلا من شيء قد فرغ منه ؟ ثم قرأ هذه الآية : ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝﴾ » ، انتهى .

فانظر رحمك الله هذا الزَّجر الشديد والتخويف البليغ والتهديد العظيم منه سبحانه لخواص أكابر رسله من أولي العزم ، حيث تعرَّضوا للسؤال عن هذه المسألة العظيمة ، العظيم موقعها ، ليتحقَّق لك كمال صِدق قول سيدنا نفع الله به : « **إنها مسألة صعبة جدًا** » ، وشدة تقريعه لِمُحِبِّهِ عن نَقْلِ ذلك السؤال والجواب عنها وتعرضه لها ، فالسلامة في السكوت عنها أَسْلَم ، وهو قوله : « **والإعراض عن مثل هذا أحسن** » .

وذَكَر في رسالته الكتب المفصلة فيها ، ونهيه عن مطالعتها لذلك ، وقوله في الرسالة : « **إن من**

ادَّعى فهمها إنه مخطيء ، وإنه يُخاف عليه أنه قد فهم خلاف المعنى المطلوب ، وإن من لم يفهم أسْلَم حالاً ممن ادَّعى الفهم » ، وكل ذلك وأكثر منه نَبَّه عليه في « رسالة المعاونة » ، نُصحاً منه للمسلمين ، كما هو شأنه وحاله ، من الشفقة على عباد الله .

ويدل على شدة صعوبتها ، ما ذَكَرَهُ الله سبحانه ، حتى قال تعالى لمن سأل عنها من الأنبياء المذكورين، بعدما بيَّن له عجزه عن أمور دنياوية ، فأقرَّ بالعجز عنها، من قوله تعالى له : « أتستطيع أن تصر صُرَّة من الشمس ؟ أفتستطيع أن تجيء بمكيال من ريح ؟ أفتستطيع أن تجيء بمثقال من نور أو بقيراط ؟ » ، وفي كل ذلك يقول : « لا أستطيع » ، ثم قال له : « كذلك لا تقدر على جواب الذي سألت عنه » .

فإذا كان هذا شأن هؤلاء الأكابر من أولي العزم ، فكيف هذا المدَّعي الكذاب ، الذي يدَّعي أنه فَهِمَ ما لم يفهمه هؤلاء الأكابر من الرسل ؟ فَدَعْوَاه تدل على قوة جهله ، وشدة ضعف عقله، وعظمه في نفسه ، حيث ادَّعى ما عجز عنه أكابر الرسل ، لكن في القرآن بالإجمال ما يصلح أن يكون جواباً لهم، وهو قوله تعالى : ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ .

وهذا من المعاني التي زاد بها القرآن على ما تقدَّمه من الكتب ، فلو كان فيها لعلَّمه أولئك الرسل، وما احتاجوا بعده إلى السؤال ، ولكن خَصَّ الله تعالى بعِلْم ذلك نبيَّه محمداً ﷺ ، وذَكَرَه له في كتابه الذي هو أعظم الكتب ، ولِتَعْلَمَهُ أمَّته التي هي أشرف الأمم ، وخصَّهم بمعرفة ذلك كرامة لرسولهم، وقد علم الله سبحانه أنهم لا يضرهم ذلك ، بل يزيدهم ذلك إيماناً وتسليماً ، وعلم الله سبحانه أنَّ كَشْفَ ذلك للأمم السالفة مُضِر لهم في دينهم ، فلم يُطلِع عليهم أنبياءهم ، ولا ذَكَرَهُ في كتبهم ، فربما يتهافتون في الكفر والعصيان ، ويحتجُّون بأن الله تعالى أراد ذلك منهم ويرونه عذراً لهم ، كما روي أن سيدنا عمر رضي الله عنه رأى الشيطان في صورة رجل ، فقبض بتلابيبه وقال : « يا عدو الله ، ما لك تضل عباد الله ؟ » ، فقال له : إن كنت أضللتهم ، فمن أضلني ؟ فامسِك أدبك ، فإني مُمتثِلٌ ما به أُمِرت، كما أنت مُمتثِلٌ ما أُمِرتَ به ، أما سمعتَ أمر الله لي بقوله : ﴿ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ ﴾؟ كيف وهو خلاف الدين الذي بعث الله به المرسلين ؟ .

كما قال سيدنا في كلمته المتقدِّمة ، وبين فيها معنى الحقيقة ومعنى الشريعة ، وهي قوله رضي الله عنه : **« الخلق مكلوفون على ما خُلِقوا له ، لأن الحق تعالى أراد بهم وأراد منهم ، فالسعيد من وافق ما أراد به الحق وأراد منه ، والشقي من اختلفت به الأمور »** . تمت تلك الكلمة ، على ما بيَّنَّا من معناها .

وملخصه : أن قوله : « **مكلوفون** » ، أي على إرادة الله تعالى منهم ، كما قال في بعض المكاتبات : « **والخلق مقهورون في عين اختيارهم لما يريده منهم** ، ﴿فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾ » ، وقوله : « **لأن الحق أراد بهم** » ، أي أراد بأحد سعادة وأعمالها وجزاء ذلك بالخير في الدنيا والآخرة ، وأراد بأحد شقاوة وأعمالها وجزاء ذلك في الدنيا والآخرة . كما قال تعالى : ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾ ، أي عذاب الدنيا لانقضائه ، ﴿دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ ، أي عذاب الآخرة لدوامه ، « **فالسعيد من وافق ما أراد به الحق** » ، من السعادة وأعمالها وجزاها ، « **وأراد منه** » ، وهو اتباع الشريعة ، « **والشقي من اختلفت به الأمور** » ، أي وافق ما أراد به الحق من الشقاوة وأعمالها وجزاها ، ولم يوافق الشريعة من الإتباع بالأعمال الصالحة والسيرة الحسنة ، فبسبب اختلاف أعمال الخلق - بين الخير والشر - ما أراده سبحانه من اختلاف جزاء الفريقين بما أراده منهم ، من إرادته السعادة وأعمالها وجزاها لأقوام بما وعدهم به من دخول الجنة ، ولهذا وعد الجنة بملئها من هؤلاء ، وما أراده الآخرين من الشقاوة وأعمالها ، ووعدهم به بدخول النار ، ولهذا وعد بالنار بملئها من هؤلاء .

ووعْدُهُ سبحانه لا يُخلف ، ووَصَفَ نفسه بأنه ﴿لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾، فإذا ثبت الأمر كذلك، فلا بد من اختلاف الأعمال ، ليتم وعْدَه للدارين بما وَعَدَهُما به ، ولا يتم الوعد إلا بالخاتمة لكل من الفريقين على عمله المقتضي لأحد الدارين التي أريد به لها ، فقد وَعَدَ سبحانه كلًّا من الدارين بملئها ، ووعْدُهُ تعالى لا يُخْلف وَوَصَفَ نَفسَهُ بقوله : ﴿ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

فاقتضت حكمته البالغة التي لا تختلف ولا تتبدَّل ، أنه لا يدخل الجنة إلا من عمل بعمل أهلها وهو الإيمان والطاعة ومات عليه ، وأن لا يدخل النار إلا من عمل بعمل أهلها من الكفر والمعصية ومات عليه ، فاقتضى هذا الأمر منه سبحانه وتعالى أن يُجري العَمَلَيْن على الفريقَيْن المذكورَيْن ، عمل أهل الجنة على أهلها ، وعمل أهل النار على أهلها ، فسلَّط على كلٍّ منهما حكم القضاء والقدر ، فيَجُرُّ كلًّا منهما إلى عمله بكلاليبه القهرية ، طوعاً في كره ، وبلطف في عنف ، وبغضب في رضا ، ليدخل كلًّا منهما إلى الدار التي وعده بها ، إذا عمل بعمل أهلها ومات عليه ، ووعدها به أيضاً في جملة ملئها ، ليتم بذلك وعده سبحانه لذلك العامل ، وللدار الموعودة به ، فيتم بذلك وعده سبحانه كلا من الدارين من كل من الفريقين ، وما وَعَدَ به كل واحد من الفريقين من إحدى الدارين ، وليظهر أيضاً بذلك في أهل الخير فضله وفي أهل الشر عدله ، وقد جاء في الأخبار الصحيحة أن ما وَعَدَ به تعالى كلًّا من الدارين من ملئها ، عدد معلوم لكل منهما لا يزيد من عدد ملئ أحد منهما واحد ، ولا ينقص منه واحد .

انتهى ما قرَّرنا من أمر هذه المسألة الصعبة ، التي استصعب سيدنا أمرها ، واستصعبه أكابر الرسل، حتى سألوا ربهم عنها فَأَسْكَتَهُم عن ذلك ولم يُجِبْهُم .

وقوله : « وإنها لا تتضح إلا في الآخرة » ، المعنى أنه لما كانت المقادير في أفعال العباد كامنة ، كَكُمُون الأرواح في الأجساد ، فكما لا يطَّلعون على أرواحهم وهي معهم ، وبها صاروا أحياء إلى أن تُنزَع منهم فيندرجون في الأموات ، فكذلك لا يطَّلعون على مقادير الله وهي مشيئته تعالى في أفعالهم، كما قال تعالى : ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾، ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾، ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ۝﴾ ، وغير ذلك . فلا يطَّلعون عليه في الدنيا التي هي محل التشبيه والتلبيس ، واشتباه المعاني بالصور وخفاء الحقائق فيها ، وأما في الآخرة فتظهر الحقائق على ما هي عليه ، ولا يجري فيها التلبيس والتمويه ، فعند ذلك تظهر معاني الأفعال والعقائد ، ويظهر معنى هذه المسألة الصعبة وحقيقتها على ما هي عليه .

فإذا تأمَّلتَ في كل هذه المعاني التي ذَكَرْتها في هذه العبارة ، فلعلَّك أن يتَّضح لك شيء من معناها، حيث أَجْمَلَهُ سيدنا في قوله : « **القضاء والقدر هو الشرع ، فمن أمرك بالإيمان به إلا الشرع ؟ فاتَّبع الحقَّ واجتنب الباطل ولا عليك بعد ذلك** » ، يعني إذا اتَّبعتَ الشرع وجَعَلْتَ سيرتك عبادة وعادة ، على قانون الشرع لا تميل عنه في شيء قط دقَّ أو جَلَّ ، فقد اهتديتَ وصِرْتَ على الحق ، ولا عليك من ضلال من ضلَّ بعد أن تأمر وتنهى كما أمرك الشرع .

ثم من ختم الله له بسوء العمل فلا يضرك شيئاً ، فلعل الله سبحانه أن يتم به كلمته من وعده للنار بملئها إن مات على الكفر ، وإن مات على المعصية وقلبه مطمئن بالإيمان ، فذاك في مشيئة الله ، وإن أتى حدًّا وأُقِيمَ عليه في الدنيا فذلك كفارة له ، وإلا فهو في خطر المشيئة .

فلو أطاع كل الخلق وحتى لم يكن منهم عاصٍ ، لتمَّت كلمته تعالى بتمام وَعْدِهِ للجنة وتخلف وَعْد النار ، ولو عصوا كلهم حتى لم يكن منهم مطيع لتمَّت الكلمة للنار بتمام وعدها ، وتخلف وَعْد الجنة، وَوَعْده سبحانه لا يخلف . فكان اقتضاء كمال حِكْمَتِهِ تعالى أن يحصل العملان من الفريقين : عمل الجنة من أهلها الموعودة بهم ، وعمل النار من أهلها الموعودة بهم ، ويتم الوعدان بالدارين للفريقين ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾، وبهذا كتب سبحانه السعادة في أزله لأهل عملها الموعود عليه بالجنة قبل وجودهم ووجود أعمالهم ، وكتب الشقاوة في أزله لأهل عملها الموعود عليه بالنار قبل وجودهم ووجود أعمالهم ھ .

انتهى ما تكلمنا به في أمر هذه المسألة ، والله أعلم بالصواب .

وطلبتُ من سيدي الدعاء ليلة الأحد تاسع وعشرين من شهر رمضان سنة تسع وعشرين ومائة وألف ١١٢٩ ، وذلك بعد ما فرغ من ختم مصلى الحاوي وأدعيته وما يتعلق بالختم ، ودخل الضيقة

يريد الدخول إلى داخل الدار ، فدخلت الضيقة قفاه ، وقلت : يا سيدي ، الله الله فيَّ بالدعاء في هذه الليلة المباركة ، فلعلها أن تكون آخر شهر رمضان ، فادعوا لي فيها ، *فقال رضي الله عنه* : « **ادع أنت لنا ولنفسك ، لأن لك حقَّيْن : حق الغربة ، وحق الطلب . فإنك غريب وطالب ، ولا تَدْعُ لنفسك إلا بأن الله يتولاك مع اللطف والعافية ، فإن الولاية الخاصة فيها ابتلايات كثيرة** » ، قلت : دعاكم لي بصلاح القلب بالخصوص وغيره بالعموم ، *فقال رضي الله عنه* : « **الله يتولاك بولايته ، الله يتولى الجميع** » .

أقُولُ : المراد بِذِكْرِ ذلك حيث قال : « **الولاية الخاصة فيها ابتلايات كثيرة** » ، ليكون من كَثُرَ ابتلاؤه فرحاً يرجو بسبب ذلك أن يكون من أهل الولاية الخاصة المحبوبين عند الله ، فقد ورد : « إذا أحب الله عبداً ابتلاه ، فإن صبر اصطفاه ، فإن رضي اجتباه » ، فمع المحبة الإبتلاء ، ومع الصبر الإصطفاء ، ومع الرضا الإجتباء ، فسارع إلى ذلك ، وكثير من نظم سيدنا يشير إلى ما خصَّ به من ذلك لخصوصيته، كقوله :

وَكَـم محْنَـةٍ كَابَدْتُهَـا وبَليَّـةٍ ... إلى أَن أَتَانَـا اللهُ بِالفَتْـحِ وَالنَّـصْرِ
صَبَرْتُ لَهَا حَتَّى انْقضَى وَقْتُهَا الذي ... بِه وُقِّتَتْ فِي سَابِقِ العِلْـمِ وَالذِّكْـرِ
وَلَـوْ أَنَّنِـي بَادَرتُهَـا قَبْـلَ تَنْقَـضِي ... بِـمَا تَقْتَضِيهِ النَّفْسُ فِي حَالَـةَ العُسْرِ
مِنَ الجَـزَعِ المَذْمُومِ وَالغَمِّ وَالأَسى ... لَكُنْتُ قَـدِ اسْتَجْلَبْتُ ضُرّاً إِلى ضُرِّ
وَما جَـزَعُ الإنسـان في حَالـةِ البَلاَ ... سِوى تَعَبٍ فِي الحَالِ يَذْهَبُ بالأَجْرِ
إذا مَـا ابْتَـلاكَ اللهُ فَالصَّـبرُ حَقُّـهُ ... عَلَيكَ وَإن أَوْلاكَ فَالحَقُّ فِي الشُّكرِ
وَمَـنْ عَـرَفَ الدُّنيـا تَحقَّـقَ أَنَّهـا ... بِلا مِرْيَةٍ مُستَوطَنُ البُؤسِ و الشَّرِّ
فَـلاَ بُـدَّ للإنسَـانِ طُـوْلَ حَيَاتِـهِ ... وَمَـا دَامَ فِيهـا مِـنْ مُلاَزَمَـةِ الصَّـبْرِ
فَطُوبَـى لعَبْـدٍ قَـد تجَـافَى نَعِيمَهـا ... وَآثَـرَ دَاراً خَيْرُهَـا أَبـداً يَجْـرِي
هِـيَ الجَنَّـةُ الخلـدُ التي طَـابَ نُزْلُهَا ... لِقَـومٍ أَطاعُـوا اللهَ في السِّرِّ وَالجَهْـرِ
رَجَـالٍ كِـرامٍ عَظَّمُـوا حَـقَّ رَبِّهِـمْ ... و قَامُوا بِـه فى حَالـةِ العُسْرِ وَاليُسْرِ
أَقَامُـوا كِتَـابَ الله واسْتَمْسَـكُوا بِـه ... و بالسُّـنَّةِ الغَـرَّاءِ و الأَنجُـمِ الزُّهْـرِ
هُـداةِ الـوَرَى طُوبـى لعَبْـدٍ رَآهُـم ... وجَالَسَـهُمْ لَـوْ مَـرَّةً مِنْـهُ فِي العُمْـرِ

وقوله :

يَـا صَابـراً أَبـشِرْ وَبَـشِّر مَـنْ صَـبَرْ ... بِالنَّصْرِ والفَرَجِ القَرِيبِ وَبالظَّفَرْ
نَـالَ الصَبَّـورُ بِصَـبْرِهِ مَـا يَرتَجِـي ... وَصَفَتْ لهُ الأوْقَاتُ مِن بَعْدِ الكَدَرْ
فَاصْبِرْ عَلَى المحَنِ القَوَاصِدِ وَ انْتَظِرْ ... فَرَجـاً تَـدُولُ بِـهِ دِوَلُ القَـدَرْ
وَ إِذَا الحـوادِثُ أَظْلَمَـتْ وَ تنكَّـرَتْ ... فاسْكُنْ وَ إِيَّـاكَ التَّحَـرُّكَ وَ الحَـذَرْ
إِنَّ النَّوَائِـبَ كَالسَّـحَائِبِ تَنْجَـلِي ... فِي سُرْعَةٍ وَ وُجُودُهَـا يُضْحِي خَبَرْ
وَ إِذَا تَطُـولُ إِقامَـةٌ مِـنْ حَـادِثٍ ... كانـت مُبَشِّرَةً بِطُـولِ المُنْتَظَـرْ
فَاصْـبِرْ هَـدَاكَ اللهُ صَـبْرَ الأتقِيـا ... الأبْرِيـاءِ الثَّابِتِـينَ لَـدى الغِـيَرْ
وَاعلَـمْ بِـأَنَّ الكَـوْنَ مَطْبُـوعٌ عَـلَى الـ ... تَّغْيِـيرِ وَالتَّكْدِيـر فَامْعِـنْ فِي النَّظَـرْ
وَاغنَـمْ زَمَانَـكَ رَاحَـةً وترَوُّحـاً ... وَدَعِ الهمُـومَ فَإِنَّهَـا مَحْـضُ الـضَّرَرْ
وَادْخُـلْ مَيَادِيـنَ التَّـوَكُّلِ وَالرِّضَـا ... وَاشْكُرْ عَلَى مَا سَاءَ مِنْ حَالٍ وَسَرْ
وَاقتَـدْ بِتَـاجِ الأصْفِيَـا عَلَـمِ الهُـدَى ... زَيْـنِ الوُجُـودِ مُحَمَّـدٍ خَـيْرِ البَـشَرْ

وغير ذلك كثير من نظمه .

ومما تكلم به على هذه القصيدة : قوله : « فاسْكُن » ، قال : « سكون صبر لا تَشكّي » ، « وإيَّاك التَّحَرُّك » : « لأن التَّحَرُّك وقت زوالها يزيدها شدة » ، « مطبوع .. إلخ » : « أي في أصل خلقته » ، « وَدَعِ الهموم » ، قال : « لأنها لا تخلو إما أن تكون في واقع ، فيكون بدونها لا محالة ، وإن وجدت فيه فهي شغل بلا فائدة ، أو في غير واقع ، فلا تفيد إلا مجرد الشغل . لكن الهموم أيضاً مقسومة كما قُسمت وقُدِّرت سائر الأشياء ، ومن الناس من قسم له منها في أمر واقع ، ومنهم في غير واقع ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : من آمن بالقضاء والقدر استراح قلبه من الهم » .

ثم قلت لسيدي ليلة ٢٣ من رمضان سنة ١١٣٢ : ادعوا لي في هذه الأيام بدعوة مباركة ، فقال رضي الله عنه : « قدنا ندعو لك ، لكن زيادة : جَعَلَكَ الله من عبادِهِ الصالحين المصلحين الناصحين، الهادين المهتدين » ، ثم بقي يردِّد هذا وحْدَهُ وهو طالع إلى السطح ، ويظن أني قد خرجت ، وأنا قائم أسمعه يقول : « اللهم اجعله من عبادك الصالحين ، المصلحين الهادين المهتدين » ، وكرَّر ذلك مراراً في طريقه .

وليلة الجمعة ٢٧ رمضان الذي قبله سنة ١١٣١ ، فقد بقي من الليل نحو الثلث ، قلت لسيدي نفع الله به : يا سيدي ، ادْعُ لي في هذه الليلة المباركة بتوبة نصوح ، وكنت توهَّمتُ أنها ليلة القدر ، *فقال رضي الله عنه* : « **لا تزل كذلك ومتعرِّضاً لما هنالك ، تاب الله علينا وعليك وعلى جميع المسلمين توبة نصوحاً، وادْعُ لنا أنت** » .

وخرج يوم الثلاثاء ٦ ذي الحجة سنة ١١٢٩ بعد الإشراق من دار آل فقيه إلى دار آل السيد عمر الحداد عايداً لهم من مرضٍ بأحدٍ من العيال ، فكان مما تكلم به في الطريق وليس معنا أحد ، وهو قابضٌ على يدي ، *قال* : « **إذا عاش الإنسان زماناً طويلاً أنكر ما يراه من الناس ، لأنهم جاؤوا بعده ، فينكر أفعالهم وأحوالهم ، يراهم يطلبون غير ما يطلب ، ويفعلون غير ما يفعل ، ويهوون غير ما يهوى ، فهو مُباينٌ لهم في كل شيء . فانظر إذا عشتَ بين أهلك ، كيف تستنكر أمورهم ، فتكون وأنت بينهم كأنك منفرد عنهم وحدك ، أو كأنك غريب عندهم ، كما قال المتنبي** » .

ذَكَرَ له بيتاً ونسيته في الطريق ، ولعله هذا البيت أو في معناه قوله :

وَمَا أَنَا مِنْهُمْ بِالْعَيْشِ فِيهِم ... وَلَكِنْ مَعْدِنُ الذَّهَبِ الرَّغَامُ

قال : « **لأنه – أي المتنبي – إنما عاش ٦٠ سنة** » .

قلت : فما يصنع الإنسان مع هذا في حال نفسه وما يتعلق بالناس ؟ ، *فقال رضي الله عنه* : « **ففي حال نفسه : يتبع الحق وما أُمِر به ، ولا يميل إلى الباطل ، فاعتبر بنفسك . ومعهم : تسايرهم بالتي هي أحسن ، وتُقِيم عليهم حقَّ الله إن كان لا عذر له منهم ، بأن كانوا أهله وقرابته ، وإن كانوا غيرهم ممن له منهم بد ، فيجانبهم ولا يتابع أحداً إلا فيما يجوز ، ويتحرى لنفسه الصواب وما فيه الإحتياط، وهذه الأمور لا يلزم النظر فيها إلا من كان من الخلفاء ، إما خلفاء الظاهر أو خلفاء الباطن ، لأن الله سبحانه جعل أحداً في الخصوص وأحداً في العموم وما خَلَقَهُم على حالة واحدة ، ولا دبَّرهم تدبيراً واحداً ، ولا عيَّن للفعل وجهاً واحداً، فيختلف النظر باختلاف التدابير ، ولا يجوز أن يدبِّر العالم تدبيراً واحداً ، ولو كان كذلك لحصل من الضرر والفساد والإختلال شيء كثير ، بل دبَّره سبحانه وتعالى تدابير شتى ، ولو عيَّن فعلاً على وجه مخصوص لَلَزِمَ الأخْذُ به ولا جاز لأحد يتعدَّاه** » هـ .

أقول : الذي فهمت من معنى كلامه هذا : أن الأمر على ما وَصَفَ ، وأنه إذا كان الحال كذلك فلا يحصل له معهم راحة واجتماع خاطر وخلو بال ، وإن كانوا أولاده وأهله ، ولا يجون له ومعه على ما

يريد ، فلا يزال معهم في تشويش ، كما رأينا من ذلك .

فكان كلامه هذا لي إشارة منه إليَّ قبل يجيني الأولاد ، وبين كلامه وحصولي معهم نحو ٣٠ سنة، وتقدَّم أيضاً من كلامه لي مما يتعلق بالأولاد شيء كثير ، وكثير من كلامه إشارات إلى أمور ستقع لنا، فوَقَعَت وما عَرَفتها من إشاراته إلا لما رأيتها ، فكثيراً ما أنسى الإشارة ، فإذا وَقَعَت ورأيتها ذَكَرْتُ كلامه وعَرَفْتُ أنه من إشاراته .

فمن طبائع الأولاد في هذا الوقت أنهم لا نفع لك منهم ، ويطلبون منك النفع ، فبعدما تحمَّلتَ مؤنتهم صغاراً ، أرادوك تتحمَّلها لهم كباراً ، ولو عندهم مال ما عاونوك منه بشيء في مؤنهم ، وتأمرهم بالخير وتنهاهم عن الشر فلا يأتمرون ولا ينتهون ، ولا يحترمونك ولا يتأدبون معك ولا يلتفتون إليك، ويستحيون من غيرك ويأتمرون له دونك ، فأنت معهم على هذا الحال في تعب عظيم ومقاساة شديدة، ومن كلامه في هذا المعنى قوله :

وَأَنِّي مُقِيـــمٌ فِي مَوَاطِــنِ غُرْبَــةٍ   عَلَى كَثْرَةِ الأُلاَّفِ فِي جَانِبِ وَحْدِي
قَرِيــبٌ بَعِيــدٌ كَائِــنٌ غَــيْرُ كَائِــنٍ   وَحِيدٌ فَرِيدٌ فِي طَرِيقِي وَفِي قَصْدِي

وغير ذلك في هذا المعنى من نَظْمِهِ كثير .

وقوله : « **وهذه الأمور لا يلزم النظر فيها إلا من كان من الخلفاء ، إما خلفاء الظاهر أو خلفاء الباطن** » ، يبيِّنه قوله : « **لأن الله سبحانه .. إلخ** » ، فليس خطاب الخواص كخطاب العامة ، كما ذَكَرَ من اختلاف حال أهل الطريقَيْن ، وكما ميَّز بينهم في الحديث من قوله ﷺ : « اعبد الله على الرضا ، فإن لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خير كثير » ، وكما ميَّز بينهما في القرآن وبين أوصافهم، فذكر أن في أموال أهل الرضا : ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ۝١٩﴾ ، وذَكَرَ أن في أموال العامة: ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ۝٢٥﴾، والفرق بينهما : أن الخواص أهل مقام الرضا في كل ما مَلَكُوه حقٌّ للمذكورين حتى في عشاء أحدهم أو غداه ، وأولئك العامة أهل مقام الصبر ، إنما في أموالهم للمذكورين حقٌّ معلوم، وهو الزكاة من قدر النصاب ، وقدر ما يجب .

ففرقٌ بعيدٌ بين المقامَيْن ، وهو قول سيدنا : « **إن الله تعالى جعل أحداً في الخصوص ، وأحداً في العموم** » ، ودَبَّر أحوال كلٍّ بما يليق به ، ومنه قوله ﷺ : « أُمِرتُ أن أخاطب الناس على قدر عقولهم»، حتى قال أبوهريرة : « حفظتُ من رسول الله ﷺ وعائين ، فأما أحدهما فَبَثَثْتُهُ فيكم ، وأما الآخر فلو تكلمتُ به لَقُطِعَ مني هذا البلعوم » ، ومعناه ما هو خطاب للخواص وما هو خطاب للعامة ، وهو المتعلق بأحكام الشرع ، وهو الذي بَثَّه ، وأما الآخر فهو الذي كَتَمَهُ ولم يَذْكُره ، لأنه ليس من شأن

العامة .

وخلفاء الظاهر : هم القائمون بأحكام الشريعة ، وخلفاء الباطن : القائمون بأحكام الحقيقة ، والشريعة : ما نُسِب إلى الخلق ، والحقيقة : ما نُسِب إلى الحق .

وفي قول سيدنا : « **إذا عاش الإنسان ..** » ، إلى قوله : « **أو كأنك غريب عندهم**»، شاهدٌ لقول ابنه الحبيب حسن بن سيدنا الحبيب عبدالله ، في كتابٍ وصلني منه إلى الأحساء ، جواب من كتاب مني إليه ، حيث قال : « وأما الفقير إلى الله ، فهو اليوم غريبٌ من غير غربة ، ووحيدٌ من غير وحدة ، لعدم المجالِس والمجانِس وقلّ المؤازِر والمؤانِس ، ولكن ليس مع الله تعالى غربة ولا وحدة ، وعسى وعسى، والزمان كما تعرف وترى » هـ .

وجلس إليه الوفائي المصري يوماً ، فشكى إليه حاله وما به من الإبتلاء والفقر ، وأنه على هذا مع الغربة ، فقال سيدنا له : « **ليس مع الله ولا مع أولياء الله غربة ، ومن ساعة إلى ساعة فرج ، فتزوَّد فيها من الطاعة ، ومن التقلل من الدنيا** » ، فقال : « وأي دنيا عندي ؟ وما تمنيتها ولا طلبتها » ، فقال: « **أحسن ، وما القل من الدنيا إلا قربة، أوَ ما عليك ذنوب تستغفر منها ؟** » ، قال : « بلى » ، قال : « **لكن إن أُعطيت من غير سؤال فَخُذ** » ، قال : « فإن قيل لي : أتريد كذا وكذا ؟ » ، فقال : « **لا ، إنما هذا مشاورة** » ، والتفت إليَّ نفع الله به ، وقال : « **وكم من عَطِيَّة بَلِيَّة ، وكم من بَلِيَّة عَطِيَّة . احفظ هذه يا حساوي** » ، وذلك في الضيقة لما جلس فيها خارجاً لصلاة العصر ، يوم الثلاثاء ٤ محرم سنة ١١٣٠ . ولكن شكواه تكذب قوله : « ما تمنيتها » .

ولما عرض لنا من قول سيدنا مما يتعلق بالأولاد ، من عدم قيامهم بحقوق آبائهم ، وعدم برِّهم بهم وقيامهم بما يلزمهم من حقوقهم ، حيث قال جبريل عليه السلام : « بَعُدَ من أدرك أبويه الكِبَرَ أو أحدهما فلم يُدخِلاه الجنة » ، فأمَّن النبي ﷺ على دعائه ، فقال : « آمين » . ومعنى « يُدخِلاه الجنة » : يعني يبر بهم برًّا يرضاه الله منه ، فيدخلهم به الجنة .

فعَنَّ لنا عند ذلك ذِكْر حديث : « أنت ومالك لأبيك » ، صححه ابن القطان، وله طريق أخرى عند البيهقي والطبراني ، عن جابر قال : « جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ، إن أبي أخذ مالي . فقال النبي ﷺ : ائتني بأبيك . فنزل جبريل على النبي ﷺ ، فقال : إن الله تعالى يقرئك السلام ، ويقول لك : إذا جاءك الشيخ، فَسَلْهُ عن شيء قاله في نفسه ، ما سَمِعَتْهُ أذناه . فلما جاء الشيخ ، قال له النبي ﷺ: ما بال ابنك يشكوك ، تريد أن تأخذ ماله ؟ فقال : يا رسول الله ، هل أنفقته إلا على إحدى

عماته أو خالاته أو على نفسي ؟ فقال له النبي ﷺ : إيهٍ ، دَعْنا عن هذا ، أخبِرني عن شيء قُلتَه في نفسك ما سَمِعَتْهُ أذناك ، فقال الشيخ : والله يا رسول الله ، ما يزال الله يزيدنا بك يقيناً . ثم أنشد :

غَذَوْتُـكَ مَوْلُـوداً وَعِلْتُـكَ يَافِعـاً ... تُعَـلُّ بِـما أَجْنِـي عَلَيْـكَ وَتَنْهَـلُ

إِذَا لَيْلَةٌ ضَاقَتْكَ بِالسُّقْمِ لم أَبِتْ ... لِسُقْمِكَ إلا سَـاهِراً أَتَمَلْمَـلُ

كَأَنِّي أَنَـا المطْـرُوقُ دُونَـكَ بالَّـذِي ... طُرِقْـتَ بِـهِ دُونِي فَعَيْنَـيَّ تَهْمِـلُ

تَخَـافُ الـرَّدَى نَفْسِي عَلَيْـكَ وَإِنَّـهَا ... لَتَعْلَـمُ أَنَّ المـوْتَ وَقْـتٌ مُؤَجَّـلُ

فَلَـمَّا بَلَغْـتَ السِّـنَّ وَالغَايَـةَ التِـي ... إِلَيْهَا مَـدَى مَا كُنْتُ فِيـكَ أُؤَمِّـلُ

جَعَلْـتَ جَزَائِـي غِلْظَـةً وَفَظَاظَـةً ... كَأَنَّـكَ أَنْـتَ المنعِـمُ المتَفَضِّـلُ

فَلَيْتَـكَ إِذْ لم تَـرْعَ حَـقَّ أُبُـوَّتِي ... فَعَلْـتَ كَـمَا الجَـارُ المجَـاوِرُ يَفْعَـلُ

تَـرَاهُ مُعِـدّاً لِلْخِـلافِ كَأَنَّـهُ ... بِـرَدٍّ عَـلَى أَهْـلِ الصَّـوَابِ مُـوَكَّلُ

قال : « فحينئذ أخذ النبي ﷺ بتلابيب ابنه ، وقال : أنت ومالك لأبيك » .

وعند الزمخشري في الإسراء من كشّافِه : « شكى رجلٌ أباه إلى النبي ﷺ ، وأنه يأخذ ماله ، فدعا به ، فإذا هو شيخ يتوكأ على عصا ، فسأله ، فقال : إنه كان ضعيفاً وأنا قوي ، فقيراً وأنا غني، فكنت لا أمنعه شيئاً من مالي ، وأنا اليوم ضعيف وهو قوي ، وأنا فقير وهو غني ، وهو يبخل عليَّ بماله . فبكى النبي ﷺ وقال : ما من حَجَرٍ ولا مَدَرٍ يسمع هذا إلا بكى ، ثم قال للولد : أنت ومالك لأبيك » ، وفي حديث آخر : « أما عَلِمتَ أنك ومالك من كَسْبِ أبيك » ، وفي حديث آخر : « إن أولادكم من طيب كَسْبِكُم ، فكُلوا من أموالهم » ، انتهى هذا الحديث المبارك ، وأظن أني كنت نقلته من كتاب « حياة الحيوان » .

ولما خرج سيدنا يوماً للصلاة وجلس مجلسه المذكور ، سأله عبدالله بن فلاح الخولاني ، فقال : « ما السبب في أن الإنسان في بعض الأوقات يحس في نفسه نشاطاً للطاعة وداعية إليها ، وفي بعض الأوقات خلاف ذلك ، يكسل عنها وتميل نفسه منها ؟ » .

فقال رضي الله عنه : « إن كان الباعث على فعل الخير من جانب الحق ، بأن شاهد في نفسه أمراً من جانب الحق تعالى ، فذلك إلى الله سبحانه لا مَدْخَل للعبد فيه ، وإلا فهو رجل دنياوي لا قَدْرَ له ،

بأن كان إذا تيسَّرت له أمور الدنيا وتوتَّت له نشط للعبادة ورَغِبَ فيها ، وإذا تعسَّرت عليه وانقبضت عنه أمور معيشته كسل واشمأزَّ من الطاعة ، فإنَّ باعثه ذلك باعث دنياوي وهو خسيس الهمة ، لكن النشاط في الطاعة مليح ، وخذ نفسك بالتي ، كالغريم الظالم ، خذ منه كل ما سمح واتفق، والنفس إلا غريم ظالم » ه .

أقول : قوله : « **ظالم** » ، أي مماطل مع القدرة ، لقول النبي ﷺ : « **مَطْلُ الغني ظلم** » ، وهذا إذا كان بنية الوفاء ، فإن لم يَنْوِهِ وَوَدَّ لو نسي غريمه ماله ليأكله ، فهذا من أظلم الظالمين ، بخلاف العاجز ونِيَّته الوفاء ، ففي حقِّ هذا وَرَدَ عذره في الشرع ، لقوله تعالى : ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ ، وجاء في الترغيب في الصبر عليه لوجه الله : أن لصاحب المال كل يوم بقدره صدقة . وجاء أيضاً أنه من كان عليه دَيْن ينوي أداه ، لو مات ولا أدَّاه ، أنه لا يطالب به في الدنيا ولا في الآخرة، بخلاف كما لم يَنْوِ الأداء ، فإنه يأثم بِنِيَّتِهِ ، وإذا مات على هذا كان أشد ضرراً ، سيما مع القدرة على الوفاء ، ويكفيه غاية في الذم أن وَصَفَهُ رسول الله ﷺ بالظلم .

وإنما سمَّى النفس : « **غريم ظالم** » ، لكونها تترك العمل الصالح وهي تقدر عليه ، تكاسلاً ومَيْلاً إلى الترفّه ، كالغريم الذي يقدر على الوفاء ولا يوفي ، ولذلك سمَّى فعله هذا في الحديث ظلماً ، وإنما مطل النفس بالعمل ، وذلك لعدم الباعث عليه ، لعدم الرغبة في الخير والعمل الصالح ، فلو ألقى الله عليها ذلك الباعث القوي على العبادة ، يزعجها ويحملها على ما يرضي الله ، لانْبَعَثَتْ له ، وهو الذي أراد بقوله : « **إن كان الباعث من جانب الحق .. إلخ** » ، وهو الذي أشار إليه في أول « رسالة المريد » ، حيث قال : « **أول الطريق باعث قوي ، يُلقِيه الله في قلب العبد ، يزعجه ويقلقه ويُقبِل به على الله وعلى الدار الآخرة ، ويشغله عن ما الخلق مشغولون به ، من عمارة الدنيا وجمع حطامها ..** » ، إلى آخر ما قال في وَصْفِهِ . فإذا أحْسَسْتَ من نفسك بشيء من ذلك ، فاغتنم فرصتها وخذ منها ما قلَّ وكَثُر كما تأخذ من الغريم الظالم ، وقوامها على العزم القوي منك إن أمدَّك الله بذلك ، وإلا فهي لا تزال كسلانة ، وهذا طبعها الذي تميل إليه : الكسل والترفّه . وقد قالوا : « من خِسَّة النفس أنك لو تَوَسَّلْتَ إليها بكل نبي مُرسَل في تَرْكِهَا حظًّا من حظوظها ما أجابتك إلى ذلك ، ولكن إذا رأت منك العزم القوي على مخالفتها أذْعَنَتْ وانقادَتْ » ، وذكروا : إن ما في النفس من الخصال المحمودة إلا أنها إذا عُوِّدت على شيء تعوَّدَتْهُ وأَلِفَتْهُ ، فليعوِّدها فعل الخير والخصال الحميدة، لِتَأْلَفه وتَعْتاده .

وكان سيدنا يوماً خارجاً من البلاد إلى الحاوي – وذلك يوم الثلاثاء ١٨ محرم سنة ١١٣٠ – فقال : « **النفس تحتاج إلى الترويح والفسحة ، لتستجم ويقوى الإنسان وينشط ، ولو كان دائماً كذا** » .

وذكر كلاماً كثيراً نسيته في الطريق ، معناه : لو كان دائماً يكد نفسه وذهنه في أمور الجد بلا تروُّح في بعض الأوقات ، لكان يخشى على مزاجه ودماغه ، ولكن التروُّح في بعض الأوقات ينشطه للأمور الجدية ، كما قال بعض الصحابة - لعله ابن مسعود أو ابن عباس - : « إني لأستجم نفسي بشيء من اللهو ، ليكون عوناً لي على الحق » . أو كما قال الصحابي ، وهو من كلامه . وذكر بيت :

مَـا يَنْفَـعُ النَّفْـسَ إذْ كَانَـتْ مُدَبِّـرَةً　　　إلَّا التَّنَقُّـلُ مِـنْ حَـالٍ إلى حَـالِ

فقلت : لكن النفس فيما يلائمها وتشتهيه تَأْلَفه وتعتاده بسرعة ، ولو كان في أمر خير وطاعة لم تَأْلَفه وتعتاده إلا بمشقة ، فقال : « **نعم ، لأنه خلاف طبعها ، والأصل فيها الهوى وخلاف العمل بالطاعة واتباع الشهوات ، فإذا جاء خلاف ذلك كان غير مستقل حتى يعتاد ويثبت ، وإذا غلبت النفسُ العقلَ كان الحُكْم لها، وإذا غلبها العقل كان الحُكْم له . والنفس مع العقل كالرجل مع المرأة، فإذا كان الرجل تابعاً للمرأة في كل ما تريده ، كان التدبير تدبير إمرأة ، وبالعكس . ولن يفلح قوم ولَّوا أمرهم إمرأة، وأخرج الله النفس للإنسان من نفسه عدوًّا ضارًّا - أو قال : قريناً ضارًّا - كما أخرج حواء من آدم ، فصارت هي عليه سبب الشر ، حتى قيل أنها سقته الخمر حتى أكل من الشجرة . والإنسان ولو قد خرج من أَسْرِ نفسه بالرياضة والتهذيب ، فيحتاج أن يتعهَّدها ولا يغفل عنها ، وقد ذَكَرَ الإمام الغزالي في رسالته إلى الفتح الدمشقي : أنه فَتَّش عن حال نفسه وَتَقَصَّى عن حالها . وكذلك الذي طَلَبَتْ نفسه الجهاد** » ، أو كما قال .

يعني أنهما مع كمالهما وانقياد أنفسهما إلى اتباع الحق اتهما أنفسهما وما وَثِقَا بها ، فكيف بغيرهما ، فكل من ادَّعى أنه غلب نفسه ؛ دلَّ ذلك منه على جهله ، كيف والنبي يوسف عليه السلام قال : ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝﴾، فإذا لم يَثِق الأنبياء بنفوسهم فما بال المدَّعي الكذاب ، يدَّعي ما لم يدَّعه الأنبياء .

قوله : « **وأخرج الله النفس للإنسان قريناً ضارًّا..** » ، إلى قوله : « **حتى أكل من الشجرة** » ، يشبه ما تقدَّم لنا من مذاكرة الشيخ الزين بن صديق المزجاجي صاحب التُّحَيتا من أعمال زبيد اليمن ، من قوله: « كما أن حواء خُلِقت من آدم ، وهي سبب دخول إبليس إلى الجنة ، ووقوع آدم في المعصية بسببها من غير اختيار منه » ، وهذا يؤيِّد قول سيدنا المذكور إلى قوله : « **حتى قيل أنها سَقَتْهُ الخمر حتى أكل من الشجرة** » . ومرادهما ومعنى قولَيْهما : أنه كما أن حواء خُلِقت من آدم وكانت سبب الشر عليه ووقوعه في المعصية ، فكذلك النفس خُلِقت من العقل فصارت سبب وقوعه في الشر والمعاصي ، وهو معنى قول سيدنا : « **النفس مع العقل كالرجل مع المرأة** » أول الأمر أن الرجل والمرأة آدم وحواء ، ثم بنوهما كهما ، إلى هلم جرا .

ومن قوله : « **النفس تحتاج إلى الترويح** » ، إلى هنا الكلام مرتبط ما ينبغي قطعه، والآن نذكر ما يناسبه : وهو ما روى مسلم عن شَقِيق قال : « كان ابن مسعود يذكِّر الناس في كل خميس ، فقال له رجل : يا أبا عبدالرحمن ، لوددت أنك ذكَّرتنا في كل يوم . قال : أما إنه يمنعني عن ذلك أني أَكْرَهُ أن أُمِلَّكم ، وإني أَتَخَوَّلُكُم بالموعظة ، كما كان رسول الله ﷺ يَتَخَوَّلُنا بها ، مخافة السآمةِ علينا » .

وروى البخاري عن عكرمة ، أن ابن عباس قال : « حَدِّث الناس كل جمعة مرة ، فإن أَبَيْتَ فمرَّتين ، فإن أكثرتَ فثلاث مرارٍ ، ولا تُمِلَّ الناسَ هذا القرآن ، ولا أُلْفِيَنَّكَ تأتي القومَ وهُم في حديثٍ من حديثهم ، فَتَقُصَّ عليهم فتقطعُ عليهم حديثهم فَتُمِلُّهُم ، ولكن أنصِت ، فإذا أمروك فحدِّثهم وهم يشتهونه ، وانظر السجع من الدعاء فاجْتَنِبْه ، فإني عَهِدتُ رسول الله ﷺ وأصحابه لا يفعلون ذلك » ، انتهى .

ودعاني بعض الحبايب - وهو السيد عمر البار - أن أصل إليه إلى بيت أصهاره آل الحبشي ، وقال: « استأذن حبيبك في ذلك ولا بد » ، فاستأذنته في ذلك فأذن ، *فقال* : « **مليح** » ، فقلت : الشور ما يحتاج إليه ، لكنه ألزمني به ، فقال : « **نعم الشور مليح ، وربما نحتاج إليك** » ، *ثم قال* : « **لكن اجتماع الأصحاب والمحبين ألّا خير ، ومن راح معه فهو عندنا كمن راح مع بعض العيال** » .

فقلت : كلٌّ مِنَّا يحب الإجتماع بالآخر ، وإنما غالب ما نتذاكر فيه إلا فيكم وفيما يتعلق بكم ، ولكنه وسوس ربما إنكم لا ترضون ، *فقال* : « **لا ، إن المحب قطعة من الجسد ، وإنما المحبة زائدة** » .

وفي يوم السبت ١٤ من جمادى أول سنة ١١٣٢ ، وهو عام وفاته ، مَرَّ بوادي ثبي راجعاً من عند آل عمر لما حلّوا ، فرأى الوادي معطشاً جدًّا ، والنخيل قد أضرَّ بها العطش ، فرحمهم ودعا لهم بالغيث، فحصل ليلة الإثنين ١٦ ، قدر الحاجة أولاً ، ثم زاد على الحاجة ، وكان ذلك ليلة ٦ في نجم الصرفة، فحصل في أودية تريم سيول عظيمة فوق الحاجة ، حتى تضرر الناس منها ، فأشرف من الغيلة على المصلى وناداني ، وذلك حين بقي نحو ربع من الليل ، *وقال* : « **استغفروا الله من هذه السيول الهائلة ، فإنها بلاء أصابهم بذنوبهم ، واقرؤوا يس ، بنيَّة دَفْع الضرر** » ، فاستغفرنا ودعونا وقرأناها بهذه النية ، واستغفر هو ودعا وقرأها كذلك .

وقد جاء تلك الليلة في ثبي ودمون وعيديد سيول ما رأوا مثلها من زمن قديم ، حتى صار الطريق بين الأسوار وغيره من الأماكن كالبحر لا ينْمَر منه ، فقطعوه إلى المسيلة ، فما بين ما كانوا يتمنون ذلك

ويطلبونه إلى أن ملوه وضجروا منه إلا مقدار ساعة من ليل ، فسبحان القادر القوي المقتدر العلي .

وسيأتي ذِكْر هذه القصة أو قصة تشبهها ، ويعرف ذلك من التاريخ .

وهذه القصة تشبه القصة المذكورة في الصحيحين : « أن أعرابياً جاء إلى رسول الله ﷺ وقال : يارسول الله ، هلك المال والكُراع ، فرفع النبي ﷺ رأسه إلى السماء، وكانت مصحية لا سحابة فيها، ورفع يديه وقال : اللهم أسقِنا الغيث والرحمة ، ولا تجعلنا من القانطين . فنشأت سحابة كالترس ، ثم انتشرت حتى طبقت السماء، وانهلت من ذلك اليوم ، وهو يوم الجمعة إلى الجمعة الأخرى ، فَمَلَّه الناس . فجاء رجل ووقف تلقاء رسول الله ﷺ وقال : يارسول الله ، هلك المال والكراع - الأول من العطش ، والثاني من الغرق - فرفع رسول الله يديه حتى بدت إبطاه وقال : اللهم حوالينا ولا علينا . فتقطَّع السحاب وأصحت ، وهؤلاء ما ملوه إلا بعد أسبوع ، وأولئك ملوه في ليلته .

قال رضي الله عنه : « **الطالب الصادق يجيء فيأخذ ما يكفيه ، ومن جاء بحسن ظن وصدق ومع أدب ، مثل من يحمل من الماء ما يكفيه ، ويشرب حتى يروى، ومن كان ليس معه أدب ، كالذي يشرب ويحمل ثم يبول في الماء ، ومن يعمل الأعمال الصالحة ليظهر فضله ، فهو مذموم** » .

فقلت : إنما يريد الإستقامة على الصراط المستقيم لله تعالى ، ويطيعه ويعبده كما يجب ، فكيف الوصول إلى ذلك ؟ *فقال* : « **بما أنت عليه من ظاهر الصلاة ، ومن الباطن - أي الخشوع - ما أمكنك ، وتعليم متعلِّم ، والله سبحانه هو المعطي** » .

فقلت : إنما مددنا منكم ، *فقال* : « **إنما المدد من النبي ﷺ ، ونحن ما مددنا إلا منه ، ولو كنتَ بعيداً مِنَّا ظهر لك أشياء لا تظهر لك هنا** » .

فقلت : ما أرى النفس إلا لاعبة علينا ، ولا نقدر عليها في شيء ، *فقال* : « **والسلامة ، وأن تبقى مستوراً أحسن تؤدي حقوق الله . ألا ترى إلى أناس إذا جاؤوا جُذِبوا ، وأنت معك شيء ما أنت داري به ، والحاصل إنك ما زلت عندنا لا يظهر لك شيء ، بل إذا رحت . فإن متَّ قبلنا ، فأنت كنجم غاب مع ظهور القمر، وإن بقيتَ بعدنا ، فأنت شيخ . فإن أظهرك الله ووسَّع عليك الرزق ، فَخُذ منه حاجتك بقدر الضرورة ، وإلا فإن الخير في التقلل من الدنيا** » .

ثم ذَكَرَ : « **إن إبراهيم الأعزب سَلَبَ من أصحابه أحوالهم وقال لهم : تعيشون هكذا في الدنيا أَسْلَم لكم ، فنردَّها عليكم بعد الموت . ولعل هذا هو السبب في تذبذب الرفاعية ، وهو ولد بنت الشيخ أحمد الرفاعي رضي الله عنه ، وكان قطب رحى الطائفة الرفاعية** » .

وذَكَرَ قصة الذي كان يحفظ قصيدة الشيخ أبي بكر العدني : « ببسم الله مولانا ابتدينا » ، وكان عَشَّاراً، فرآه بعض الناس بعد موته ، وإذا مَلَك من ملائكة العذاب قابض به يريد يدخله النار ، فاعترضه مَلَك آخر من ملائكة الرحمة ، فقال : « خَلِّ سبيله » . فقال له : « إنه عشَّار ، وقد أُمِرت بإدخاله النار » ، فقال له : « إنه يحفظ قصيدة الشيخ أبي بكر » ، فقال : « إنه يغلط فيها » ، قال : « أما يحفظ هذا البيت مستقيماً :

وَذِكْـرُ العَيْـدَرُوسِ القُطْـبِ أَجْـلى   عَـنِ القَلْـبِ الصَّـدَى لِلصَّادِقِينَـا

قال : « بلى » ، قال : « فخلِّ سبيله ، ولو لم يكن فيها إلا هذا البيت » ، فخلَّى سبيله .

فقلت لسيدنا : إذا سمعنا كلامكم في الرجاء لمثل هؤلاء ، لا يكاد ينقطع الرجاء من أحد ، وإذا رأينا أفعالهم يكاد الرجاء ينقطع منهم ، *فقال رضي الله عنه* : **« ارْجُ لغيرك ما ترجو لنفسك ، وارْجُ لنفسك ما ترجو لغيرك ، فقد يكون ما في نفس الأمر خلاف ما في الظن ، كما رأى النبي ﷺ قطف عنب في الجنة لأبي جهل، فأحزنه ذلك وقال : ما لعدو الله أبي جهل وللجنة ؟ حتى ظهر تأويله بإسلام ابنه عكرمة بن أبي جهل . ثم إنه استُشهِدَ بعد ذلك ، لأن الأمور بالخواتيم ، إلا إنك جانِب أهل المعاصي وعِظْهم وذَكِّرهم ، من غير أن تتكبَّر عليهم أو ترجو لنفسك خيراً منهم » .**

وسألته عن حالَتَيْ رَجُلَيْن ، أو رجل في إحدى الحالتَيْن ، أيهما أحسن وأحب إليكم ؟ أحدهما غائب عنكم وهو متعلِّق بكم كثيراً ، وآخر عندكم ولكنه ليس كالأول في التعلق ، *فقال* : **« المتعلِّق أحسن حالاً من الآخر وإن كان حاضراً ، لأن في التعلُّق منافع كثيرة لا تحصل بدونه ، وإن حصل مع الحضور منافع أخر » .**

فقلت : ما يحصل للحاضر من رؤيتكم والإجتماع بكم والصلاة معكم والتعلم منكم وغير ذلك، لا يقابل تعلق الغائب ، *فقال* : **« لا ، لأن مع المخالطة لا يستقيم له شيء يحصل ، بل يفوت بسبب المخامرة ، كالذي يكون مشتاقاً إلى الطعام ، فإذا شبع مَلَّه . وفي البُعْد تغلب رؤية الخصوصية على رؤية البشرية ، وفي الإجتماع تغلب رؤية المماثلة والبشرية على رؤية الخصوصية . وقد قال الشيخ أبوبكر بن سالم : لو سألت الله – أو قال : شُفِّعت – في أحد من الكفار ولعيالي وأخدامي لرجوت الإجابة لأولئك الكفار دون الآخرين ، لأن المخامرة إذا قُلتَ : هات كذا أو افعل كذا ؛ تُذهِب الإحترام ، ولهذا كانوا إذا جاء الطالب يمكث شهراً أو أكثر لا يكلِّمونه بكلمة ، خوفاً أن يألَف الكلام معهم فَيَقِل احترامه»، أو كما قال .**

كل ذلك تكلم به بمسجد إبراهيم بن السقاف ، المقابل للحاوي من شرق ، وكان خرج إليه متفسحاً مع تبعيته من العيال والفقراء ، وذلك يوم الثلاثاء ثاني من ربيع الثاني سنة ١١٢٦ .

ويشهد لقوله هذا ما تقدَّم في قصة السيد يوسف الفاسي ، على ما نَقَلْنَا من قوله في رحلته لَمَّا قَدِمَ على الشيخ أبي بكر بن سالم ، فغَيَّبه عنه مراراً ، حتى لم يجتمع به إلا ثلاث مرات ، على ما تقدَّم من قول سيدنا أيضاً.

وكذلك لما جاء الشيخ أبو فلاح إلى شيخه الشيخ مبارك بن سلمة القيسي من عبدالقيس ، ثم من عبدل المعروفين في الحساء ، من ذرية عبدالله بن علي بن إبراهيم بن محمد العيوني ، نسبة إلى بلاد العيون العبدي ، نسبة إلى عبدالقيس أهل جواثا ، وكان هذا النسب متصلاً إليهم ، فمكث الشيخ أبوفلاح مدة طويلة لم يكلِّمه الشيخ مبارك بكلمة ، ولا بشَّ له ولا أظهر له الأنس المطلوب عند الإلتقاء - كما ورد في الحديث : « إذا التقى المسلمان فتصافحا وتكاشرا ، قسمت بينهما مائة رحمة ، تسع وتسعون لأحسنهما بِشراً ، وواحدة للآخر » ، فحثَّ على البِشْر بقوله : « تكاشرا » ، أي كشر عن فمه كهيئة المبتسم ، لأن هذا دليل على البشاشة التي بها استحق الأكثر من المائة الرحمة ، وهذا في طريق العامة المشروع لعامة المسلمين أهل مقام الصبر ، المعيَّن في الحديث المتقدِّم وعليه غالب أحكام الشرع الذي شرعه الله على لسان نبيه ﷺ ، ولهذا كان أكثر الناس بشاشة ، الدالة على حسن الخلق ، ولهذا أثنى الله عليه ﷺ بحُسن خلقه وعظَّمه ، فقال تعالى :﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾، فعَظَّم خُلُقه لحسن بشاشته - فكان يَبُشُّ بكل من وَفَدَ عليه من قبائل العرب ، ويجيزهم بجوائز على حسب أحوالهم ، ويدل ذلك منه على كمال البشاشة ، ترغيباً للناس في دخول الدين . وأما هذه الحالة التي ذَكَرْنا عن المشايخ في سيرهم مع مريديهم : ففي طريق الخاصة أهل مقام الرضا المبيَّنين أيضاً في ذلك الحديث المشار إليه ، فإن ذلك معاملة مع من امتلأ قلبه من الإيمان ، وأحكموا طريق العامة ، وأرادوا الدخول في طريق الخاصة ، تمريناً لنفوسهم على خلاف ما تهوى ، مما تهواه نفوس العامة من البشاشة والإيناس .

فلما استوحش الشيخ أبو فلاح من قلة إلتفات الشيخ إليه وعدم بشاشته به ، فشكى من ذلك إلى زوجة الشيخ مبارك ، فكلَّمَتْهُ بما طيَّب خاطره واستأنس به ، وقالت ما معناه : « وما يدريك أن الشيخ قلبه معك وكُلِّيَّته لك ، ولا لهؤلاء الذين تراه يبش لهم إلا ما ترى من ظاهره وباطنه معك » ، فسَرَّه ذلك ، وكانت إمرأة منورة ، ثم إنها لامَت الشيخ على قلة جبره وتأنيسه وتطييب خاطره ، وقد جاء إليه من بلده ، قاصداً من أرض بني ياس من بلاد عمان ، وكان هو من بني ياس ، فقال لها الشيخ في شأنه ، مثل ما قالت هي ، فقال : « وما يدريكِ أن قلبي وكُلِّيَّتي له ، وما لهؤلاء مني إلا ظاهري » .

وغير ذلك مما يشهد لقول سيدنا ، وسيأتي قريباً سؤالي له هذا السؤال بِعَيْنِهِ ، وجوابه لي بخلاف هذا

الجواب ، لتعرف بذلك اتساعه في العلم ، وأن جوابه عن كل ما سئل عنه ، بحسب الوارد الذي يُورِده الله عليه ، على مقتضى الحال في الوقت الحاضر حال السؤال ، ويُسَمَّى لسان الوقت في اصطلاحهم ، فتبيَّن بهذا أن الألسنة ثلاثة : لسان المقال ، ولسان الحال ، ولسان الوقت .

فلسان الوقت : هو ما يُورِده الله على قلوبهم في كل وقت ، بحسب ما يُورِده فيه ، وقد فصَّله القشيري في « الرسالة » ، والأولان قد تقدَّما ، وحاصل ذلك أن لسان المقال : ما يتكلم به من ليس على السيرة السوية . ولسان الحال : كلام من كان عليها ومع ذلك حصل له نصيب من السِّر ، الذي يقوى به الإيمان الذي أوتيه سيدنا أبوبكر ، حتى رجح إيمانه بسببه على إيمان الأمة كلها . وهو الجزء الذي هو تمام الأربعين من أجزاء الولاية الذي اندمجت فيه التسعة والثلاثون من أجزائها ، حتى صارت فيه كحلقة ملقاة في فلاة ، كما أجاب به سيدنا حين سئل : « كم أجزاء الولاية » ، كما تقدَّم .

ولسان الوقت كما ذُكِر ، ومثاله كما أجاب سيدنا بجوابَيْن على سؤال واحد وقد سئل عنه في وقتَيْن، فأجاب عنه في كل وقت منهما بما أورده الله عليه فيه ، ومثاله بعدما ذَكَرَهُ الإمام القشيري في « الرسالة»: « أن الجنيد سئل عن سؤال فأجاب السائل عنه ، ثم قال له : رُدَّه عليَّ ، فإني لم أحفظه . فردَّه عليه مرة ثانية بعبارة أخرى، فقال السائل : ما يمكنني أن أحفظه فَرُدَّهُ . فَرَدَّهُ بعبارة ثالثة ، فقال: أَمْلِهِ عَلَيَّ. فقال: إن كنت أُجريه فأنا أُمليه » ، فانظر كيف أجرى الله في قلبه تلك العبارات المختلفة عن ذلك السؤال الواحد في مجلس واحد ، بحسب ما يجريه الله على قلبه .

وهذا سؤالي المتقدِّم مع ما تقدَّم من جوابه ، أني سألت سيدي رضي الله عنه عن حال الرجل يكون في البُعد متلهِّفاً إلى الشوق إليكم كثيراً، وفي الحضور سالياً عن هذا وفارغ البال منه ، أي الحالتين له خير ؟ *فقال رضي الله عنهُ* : « **حالة الحضور خير ، وليس في ذاك من الخصال المحمودة إلا التلهف والشوق إلى الإجتماع فقط، وهذا يزيد عليه ببقية الخصال ، وإن كان خالياً من التلهف الحاصل لذاك ، ولأن الإنسان في الطبع لا يشتاق إلى الحاضر ، فلهذا لا يكون الشوق في الجنة ، وإنما فيها الإشتياق ، وقد قال السيد أحمد الهندوان لفلان** - رجل سماه - : **ما لنا لما كُنَّا في الهند نتحابب كثيراً، ولما صِرْنا هنا قلَّ ما نتَّفِق** » ، أو كما قال ، وذلك في البلاد ضحى يوم السبت ليلة ٨ صفر سنة ١١٢٨ .

وقلت لسيدنا : لو أن رجلاً اجتمع ببعض المشايخ ، ولم يكن معه إذ ذاك همة في العبادة ، فَبَعْدَ مفارقته للشيخ حصل له باعث العبادة ، هل يكفيه اجتماعه بذلك الشيخ عن لقاء شيخ آخر بعد ذلك، ويكون ذاك شيخه ويُنسَب إليه ؟ *فقال* : « **نعم يكفيه ذلك ، ويكون شيخه وهو تلميذه ، والطريق معروفة ولا عليه إلا أن يسلكها ، والفتوح من الله تعالى يأتيه** » .

وسألته مرة قبل هذه عن هذا السؤال ، *فقال* : « **نعم ، إذا كان قد رباه بظاهر العلم** » ، وتقدم قوله:

« **إن الله لا يترك المؤمن من إحدى هِمَّتَيْن ، إما هِمَّة العادة ، أو هِمَّة الفتوح** » ، وَبَيَّن هناك هِمَّة العادة ، ولم يبيِّن هِمَّة الفتوح ، لكونها من العلوم الذوقية ، بل قال : « **وأما همة الفتوح فيَعْرِفْها من ذاقها ، لأن العلوم الذوقية لا تُعرَف بالتعليم قط ، كما لو تعلم الطفل مراتب الأعداد ، فلا يعرفها إذ ذاك ، فإذا كبر عرفها من غير تعليم ، كما يعرف الطفل من نفسه إذا كَبُر مراتب العدد من غير تعليم** » ، ويعني بهمة الفتوح ، يعني بها هذا الباعث الشريف ، كما ذكره في أول « رسالة المريد » ، وعَظَّمه ومدحه وقال : « **فليعرف قَدْرَه من ذاقه ، ولْيَعْلَم عظيم مِنَّة الله عليه به** » ، وذَكَرَ أنه أول الدخول في هذه الطريق ، وقال: « **فَلْيُجِبْهُ ولا يتوانى** » ، وأقول : إن أكثر المختلِين من الناس عن مخالطة الخلق ، من كان قد حصل له منه نصيب ، فيبعد عن مجالسة الغافلين ، وهم أكثر الناس خوفاً من أن يسترق طبعه من طباعهم ، فيذهب عنه ويرجع إلى الغفلة مثلهم ، كما ذَكَرَ الإمام الغزالي أن المخالطة تسري في المخالط ، حتى أن مجالسة الزاهد تزيد في الزهد ، ومجالسة الحريص تزيد في الحرص ، وإن رجلاً كان يصلي في جبل أبي قبيس بصلاة الإمام في المسجد الحرام من شدة خوفه من ضرر المخالطة في ذلك المعنى المذكور .

أقول : قول سيدنا : « **والفتوح من الله يأتيه** » ، يعني زيادة له وقوَّة ، ومعارف وإمدادات من الله وراء ذلك ، على حسب ما قسم له ، كما تقدَّم من قوله : « **وما يحصل شيء إلا بالبخت والنصيب** » ، وبيَّن هناك تفصيل ذلك .

وقلت لسيدي يوماً : عسى ببركاتكم يحصل لي باعث على طلب الأمور المحمودة وتجنب الأمور المذمومة ، على ما هو مذكور في أول « رسالة المريد » ، فسكت قليلاً وكأنه كَرِهَ مني صدور هذه الكلمة، فإن من عادته إذا سئل عن شيء وكَرِهَ السؤال ، أن يسكت قليلاً كهذا ، وربما تبسَّم ضاحكاً في سَكْتَتِهِ ثم يجيب السائل على مقتضى حاله وبقدر فهمه ، ثم قال حينئذ : « **اعملوا ولا تستعجلوا ، وجزاء العمل إنما يكون آخر العمل** » هـ .

أقول : يشير بذلك إلى أن ذلك الباعث إنما هو جزاء عملك ، فاعمل أولاً، ثم إن كان قد أراد الله لك ذلك أرسله في وقته الذي عيَّنه له .

...

وسألته : ما معنى نسبة أمور إلى العبد لا اختيار له فيها ، كأمره بكمال الإخلاص واليقين وغير ذلك من الأمور الباطنة التي هو يتمنَّاها ولا يقدر عليها ، وقلَّ ما تحصل له ؟ *فقال* : « **هذا لأجل النسبة أمر نسبة ، يعني ينسب إليه مجازاً ، لأنه من أنواع العبودية المنسوبة إلى العبد ، لكونها معاملة منه لربه بما**

أمره به ، وهذه من الأوامر المطلوبة منه » .

وذَكَرَ من مجاهدات الأكابر الذين سلفوا كالشيخ أبي بكر بن سالم ، *فقال* : « **كانوا يترصَّدون لملئ الحيضان في الليل حتى لا يراهم أحد ، ويحيون الليل بالصلاة والتلاوة ، ومرادهم بهذه الأشياء كلها وجه الله ، فيخفُونها عن الخلق** » ، وكان هذا عادة الشيخ أبي بكر بن سالم ، يسْري في كل ليلة من عينات إلى تريم ، ويملي سقاياتها التي على الطريق ، وربما حمل الماء من بعد في قِرَب ، وصبَّه في السقاية ليشربه المارُّون في الطريق .

فقلت له : فما هذه الهمة التي كانت بهم ؟ *فقال* : « **بهذا حصل لهم ما حصل ، أوَ أعطاهم الله ذلك بلا تعب ؟ أوَ يجلسون جالسين ويطلبون ذلك ؟ كان سَوَّى الله بين الناس ، ولم يتميَّز أحد منهم على أحد** ».

فقلت : إن الله سبحانه قد أعطاهم هذه الهمة العظيمة ، فبها سبقوا غيرهم ، *فقال* : « **عرفوا الحقَّ فطلبوه ، لأن من عرف ما يطلب ؛ هان عليه ما يبذل** » هـ .

أقُولُ : اعلم أن الأمر في الحقيقة أن الله تعالى لما أراد لهم بلوغ ذلك المقام ، أرسل عليهم زاعجاً يزعجهم إلى العمل بالأعمال الموصلة لهم إليه ، لا يقدرون على مخالفة ذلك الزاعج ، ولا يستطيعون ترك تلك الأعمال ، فحصل لهم بذلك الإستعدادان: الأصلي الحقيقي : المنسوب إلى الله بإرادته تعالى لهم ذلك وَكَتْبَهُ في سابق الأزل ، والمجازي : المنسوب إلى العبيد ، وهو استيفاء جميع أسبابه وشروطه مع موافقة وقته المؤقت له . فهذا هو الجهاد المنسوب إلى العبيد الذين وُعِدوا عليه بالهداية ، كما قال تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ ، وما يتم المقصود إلا بالثلاثة الأمور ، والأمر الحقيقي هو عمدتها ولا ينفع العمل بدونه ، ولا يتم إلا بالثالث ، وهو موافقة الوقت المؤقت لذلك ، فافهم. ولو أراد سبحانه للمتخلفين عنهم ما أراد لهم ، لأزعجهم ليعملوا مثل عملهم ، فحصل لهم مثل ما حصل لهم، و « **كان سَوَّى الله بين الناس ، فلم يتميَّز أحد منهم على أحد** » ، ولكن ما حَقَّ من الله سبحانه من الوعد للدارين ، جعلهم مختلفين فيه بين فعل الخير وفعل الشر .

فاعلم إنما العمدة في كل الأشياء من الأعمال وما تفضي إليه بنوعَيْها ونوعَيْ جزاها ، متوقِّف على الإرادة منه سبحانه لا غير ، وقد تقدَّمت منه سبحانه الإرادة بالنوعَيْن من العملَيْن والجزائَيْن لمن أراده به وله ، قبل وجود العامِلِين وعملهم ، فلهذا كتب لهم وعليهم السعادة والشقاوة قبل وجودهم .

وذَكَرَ يوماً كلاماً قد تقدَّم ، وهو أنه إذا اجتمع اثنان أو أكثر ، كل منهم يدَّعي أنه من أهل الباطن ،

قال : « فإن كانوا صادقين ، يسلِّمون الأمر لواحد منهم ، ويبقى الباقون تحته ، وإلا كانوا مفتنين ، وإن قدرنا على مَنْعِهِ مَنَعْنَاه ، ولهذا لا يجوز اجتماع إمامَيْن في وقت واحد » .

ثم ذَكَر قصة سيدنا علوي بن الفقيه المقدم مع الغريب الذي جاء إلى تريم ، ومكث فيها مدة ، قال : « وَمَوَّه على الناس ، وادَّعى الصلاح ، وأظهر لهم خوارق فاعتقَدُوه واجتمعوا عليه ، وأَقْبَلُوا عليه إقبالاً كُلِّيًّا ، وكان سيدنا علوي يرى ذلك وهو ساكت ، وكان هو وأسلافه أهل خمول يكرهون الظهور ، وكان دائماً ملازماً للجلوس والإعتكاف في مسجد آل باعلوي ، حتى إنهم كانوا يسمونه حمامة المسجد . فلما رأى ذلك الغريب ما حصل له من المنزلة عند الناس ، قال ذات يوم في مجلسه ، وفيه كثرة من الناس ، قال : كل الناس جاؤوا إلى عندنا ، إلا عليوي بن الفقيه . وفي المجلس خادم لسيدنا علوي، فلما سمعه لم يتمالك نفسه ، حتى قام عليه فضربه بِنَعْلِهِ على وَجْهِهِ ضربات كثيرة وانهزم ، فخوَّفه الناس من الرجل ، وقالوا له: إنه يفعل بك ما يُهْلِكك . فجاء إلى مسجد آل باعلوي ، وفيه سيدنا علوي معتكفاً ، وكان ملازم الإعتكاف فيه ، فسمّوه : حميمة المسجد ، فلصق بجنبه خائفاً مما خوَّفه الناس من ذلك الرجل ، ولازَمَه ، فقال له : ما بك ؟ فما قدر يتكلم من شدة ما به من الخوف ، فتركه حتى سكن ثم سأله ، فأخبره بالقصة ، ولازمه ولم يفارقه فلما رآه كذلك أخذ نعله وقام ، وكان للمسجد بابان ، شرقي وشمالي ، فخرج من الباب الشرقي قابضاً بنعاله ، وأومأ بيده بالنعل في الهواء فسمع صياحاً ، ثم رجع إلى داخل المسجد ، ثم خرج من الباب الشمالي ، ثم أومأ بيده بنعله كذلك ، فسمع صياحاً أيضاً ، ثم رجع وجلس في محل معتكفه وجلوسه في المسجد .

- وأرى من جلس فيه في هذا الزمان نوى الإعتكاف ، والناس هناك على مذهب الشافعي يجوز الاعتكاف ولو لحظة ، ومحل معتكَف سيدنا علوي هو محل معتكف أبيه سيدنا الفقيه المقدم ، وهو عند المعصورة ، ومن دخل المسجد وجلس في ذلك المعتكف وبه هَمٌّ وكَرْبٌ أزال الله هَمَّه وفرَّجَ كَرْبَهُ ، والناس اليوم يرغبون في الجلوس فيه والصلاة فيه ، وينوون الإعتكاف -

فقال الرجل لسيدنا علوي : ما هذا الصياح ؟ يعني الذي سمعه عند بابي المسجد حين أومأ بيده بنعله . قال : هذان جِنِّيَّان كان ذلك الرجل- يعني الغريب المدَّعي الكذاب - كان يموِّه بهما على الناس ويلبِّس بهما عليهم ، فَقَتَلْنَاهُما فلم يَبْقَ معه الآن ما يُلبِّس به . ثم إن ذلك الرجل الغريب عجز بعد ذلك عما كان يُظهِره للناس ، فافتضح وخزي عند الناس ، فهرب ليلاً ولم يُعلَم له بخبر » ، أو كما قال في لفظ الحكاية ومعناها ، وقد ذكرها في كتاب « الجوهر الشفاف في مناقب السادة الأشراف بني علوي»، وفي غيره من كتب مناقبهم « كالغرر » للسيد محمد خرد ، « والترياق الشافي » للسيد محمد باشيبان ، وغيرها .

قال : « وقد كُوشِفَ بهذه القصة أبو الغيث بن جميل ، من كبار أولياء اليمن ، قبل وقوعها بنحو عشرين سنة » ، أو كما قال .

أقول : وهذا يدل على أن ذلك الغريب مكث بتريم مدة طويلة ، وكان بتريم ناس كثير من أهل الأحوال ، ولو أراد واحد منهم أن يطيِّره بنفخة لفعل ، لكنهم عرفوا أن مطلبه خسيس ، إنما مراده الدنيا والجاه والمال ، فتركوه وما أراد ولا الْتَفَتُوا إليه ، فلمَّا طغى وجاءهم منه البلاء في حلوقهم ، طيَّروه بأدنى أمر من تصرفاتهم ، وتركوا شأنه للسيد علوي نفع الله به تأدباً معه ، ولكنه أراد أدنى سبب يعذر به في شأنه ، فلما حصل السبب تعرَّض أدنى تعرُّض ، ففضحه الله وأخزاه وأذهبه عنهم وعن بلادهم . وكذلك من فَعَلَ كَفِعْلِهِ ، وموَّه على الناس بتلبيسه وكذبه ، أخزاه الله وفضحه بين الخلق، الذي يطمع أن تكون له الرئاسة عندهم والجاه والمنزلة في قلوبهم .

وقصة أبي الغيث في مكاشفته بالقصة ، وذلك أن رجلاً من أهل تريم سأله قبل وقوعها بنحو عشرين سنة ، قال : « أريد أن أسألك عن ثلاث رجال في بلادنا » ، قال : « من هم ؟ » ، قال : « ما تقول في علوي بن الفقيه ؟ » ، قال : « ما بلغنا منزلته حتى نَصِفَه » ، قال : « ما تقول في عبدالرحمن باقشير ؟ » ، قال : « رجل صالح » ، قال : « وما تقول في فلان ؟ » ، يعني ذلك الرجل الغريب ، قال: « إنه مُلبِّس كذاب وسيفتضح على يد أحد من أولاد الفقيه محمد بن علي علوي » ، ففضحه الله على يد سيدنا علوي على ما تقدَّم ذِكْره . فأين إدراك العقول من ذلك الأمر الذي فعله سيدنا علوي ؟ فاعرف من هذا أن الأمور الإلهية التي أطلع الله عليها الأولياء ، ومكَّنهم من التصرف فيها ، أنها كلها من وراء طَوْر العقل ، وكذلك شؤون الله لا يطلع عليها الخلق ، قال الله تعالى: ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ ، ولذلك صفاته لا يعلم حقيقتها إلا هو ، ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾، والخلق لا يدركون بعقولهم إلا ما كان مخلوقاً مثلهم .

وكان سيدنا علوي يعرف السعيد من الشقي ، وذَكَرَ في ترجمته في « الجوهر » ، أنه - أي سيدنا علوي - جلس مع جماعة عند قبر النبي هود عليه السلام ، ففقده الجماعة من محله ولا رأوه قام ، ثم تبيَّن لهم وظهر ورأوه جالساً في محله ، فسألوه : « أين رحت ؟ » ، قال : « كنت عند النبي هود ، فأخذ عليَّ العهد والميثاق أن لا تصلي على نبيكم إلا وتصلي علي معه » ، فلهذا كان زوار النبي هود إلى اليوم يقولون حال زيارته : « الصلاة والسلام عليك وعلى نبي الله ، الصلاة والسلام عليك وعلى رسول الله ، الصلاة والسلام عليك وعلى حبيب الله » ، ويُكثِرون من الصلاة والسلام عليه وعلى النبي ﷺ كثيراً بكثرة أوصافه هـ .

ثم قال سيدنا في مجلسه هذا ، وفي مجالس أخر قال : « **جاء رجل من جماعتنا – يعني من السادة آل باعلوي – من الحرمين ، ومعه إجازات من جملة مشايخ ، وقال : اجتمعت بفلان وفلان ..** » ، إلى آخر ما تقدَّم من قوله في ذلك المجلس في بستان الليمة ، إلى قوله : « **فقال : اكتبه وعادك تعرفه** » ، وهو مذكور قبل هذا بسبعة عشر ورقة .

وكنت يوماً أسايره خارجاً من البلاد إلى الحاوي كما هي العادة ، وذلك يوم الثلاثاء ٥ ربيع الثاني سنة ١١٣٢ ، وكان قبله بنحو أسبوع وصل اثنان أخوان من بغداد ، وهما من أولاد الشيخ محمد الرحبي مفتي بغداد ، وطلبا أن ينقلا من الديوان شيئاً من القصائد ، *فقال* : « **لا تخلي أحد من الأغراب الذين يَصِلُون إلى عندنا ، إذا حَصَّل شيئاً من الرسائل أو من القصائد يسافر به حتى تقابله بيدك ، واكتب عليه : بَلَغَ مقابلة على يد فلان ، واذكر اسمك واسم المصنِّف أو الناظم ، وإن هذا من نَظْم فلان أو تصنيف فلان ، لأنك معروف بتحصيل الكتب – أي كتبه هو ، فالتعريف للعهد لا للإستغراق – وأي شيء ينفع الكتاب المغلوط ، وربما زاد حرف أو نقص حرف ، أو زادت نقطة أو نقصت أو غير ذلك ، فاختلَّ المعنى ، فقرأوه على الخطأ ونُسِب ذلك إلينا ولم يعرفوه ، فالحذر تخلِّي أحداً يكتب شيئاً ويسافر به حتى تقابله ، وتكتب اسمك على مقابلته واسم المصنِّف أو الناظم** » .

قال كاتبه : انظر هذا الحث الشديد والتأكيد الأكيد منه في المقابلة ، وأمره بإضافة النظم والتأليف إلى ناظمه ومؤلِّفه ، وإضافة المقابلة إلى المقابل بكتب اسمه على ذلك ، وهذا التأكيد منه في ذلك هو السبب في تصريح جامع هذا النَّقل بإسمه في ابتداء جَمْعِهِ له ، لأنه إذا كان من سيدنا هذا الحث في التأكيد في المقابلة ، ونسبة النظم إلى الناظم ، ونسبة التصنيف إلى المصنِّف ، وقد اشتهر أمر نسبتها إليه، ففي هذا النَّقل الذي لا يعرف نسبته إلى القائل إلا من جانب الناقل ، أولى بِذِكْرِ اسمه وتعيين نفسه، ليعرف الناقل والمنقول عنه ، لتتحقَّق النسبة ، وإضافة الكلام إلى المتكلم ، كما قد سمعتُ بعض الأخيار في بلاد الأحساء ، لمَّا أسمعته شيئاً من كلام المجالس قال : « **إنَّا نرى يحصل ذوق من كلام المجالس أكثر مما يحصل من كلام المؤلفات** » ، فينبغي لكل من وَقَفَ على كلامه هذا ، حيث حثَّ به ، **أن يعمل به ، فيصحِّح ما يرى مختلًّا من نَظْمِهِ ومؤلَّفاته ، ويُصلِح ما يرى فيها من غلط ، ويقابلها ولا يَدَعْها بلا تصحيح** ، سيما إن قيل قد قريء هذا الكتاب على مؤلِّفه ، وقد ردَّ الغلط حين قُرِئ عليه ، وسمعه وأمر بإصلاحه ولا أصلح ، فيعتقدون صِحَّته مع غلطه .

وقد قُرِئ على سيدنا وقت الدرس في شيء من مؤلفاته ، فاتَّفق تقديم بعض الكلام على بعض وتأخير البعض ، فردَّ ذلك الغلط على القاريء ، ثم قال : « **إنه قد يحصل الإبتداع في الدين بزيادة كلمة**

أو نقص كلمة ، ومثل هذه الأشياء هي التي أَوْجَبَت الإنكار والطعن على الأكابر » .

وقرأ يوماً بعض القُرَّاء الذين يعتادون القراءة في حضرته في قراءة العصر وكان القاريء صبيًّا ركيك العبارة ، وكانت قراءته في « رسالة المذاكرة » ، في فصل : « **وأما ضعف الإيمان فيحصل منه كذا** .. » ، وذَكَرَ أشياء مذمومة تنشأ عنه ، ثم قال : « **وغير ذلك من الأخلاق المشؤومة** » ، فغلط القارئ وقال : « من الأخلاق المسمومة » ، فاختلَّ المعنى بذلك ، وقال سيدنا بعدما ردَّ غلطته : « **أكثر ما أنا خائف، من أحد ينقل هذه الرسائل وفيها الغلط والتحريف ، فينقله عنَّا ويقول: قرأته على المصنِّف . فاشهدوا على ذلك ، وإنما نحن خدام الشريعة ، فمن أتانا فنفعه الله بنا أو بكلامنا فلا نَكْرَه ، وإلا فلا حاجة لنا بأحد ، فمن سمع عنَّا بكلام غير مستقيم أو مخالف للكتاب والسنة ، إما لغلط أو اعوجاج لسانه ، فلا يصدَّق . والغَيار كله من قلة الفهم أو العجلة ، حيث يسمع بعض الكلام ويفوته البعض فينقله ، فينبغي أن يسمعه كله ويفهمه** » ، أو كما قال عشية السبت سلخ ربيع الأول سنة ١١٢٩ .

وقد تقدَّم هذا الكلام كله بلفظه ومعناه لمناسبة لذلك هناك في مجلس ، وذِكْره هنا في هذا المجلس أيضاً لمناسبة له هنا ، وقالوا : « الكلام إذا تكرَّر تقرَّر » ، وسبب إعادته هنا ، والمناسبة لذلك ما جَرَّ إليه من طلب الرجلَيْن البغداديَّيْن أن يَنْقُلا شيئاً من القصائد ، فقال : « **لا تخلِّي أحداً من الأغراب إذا حصَّل شيئاً من القصائد والرسائل يسافر به حتى تقابله** .. » إلى آخر ما قال ، فهذا الكلام هو بعينه انجَرَّ بعضه إلى بعض .

وقال لي يوماً حين جلس في الضيقة خارجاً لصلاة الظهر ، يوم السبت ٢٩ صفر منها : « **عاد آل فلان أرسلوا لك ؟** » ، وهم أهل سيدي السيد عمر البار في بيت آل السيد عبدالرحمن الحبشي المتقدِّم طلب السيد عمر البار مني الإستئذان من سيدنا للوصول إليه في بيتهم ، وذاك الطلب منه لما جاء من بلده دوعن لزيارة سيدنا ، فإذا جاء كان مقامه عندهم عند زوجته بنت السيد عبدالرحمن ، وهذا الطلب الذي سأل عنه سيدنا ، طلب منهم في غيبته لحاجة عرضت لهم ، وكنت متوقِّفاً لهم في حوائجهم في غيبته .

فقلت لسيدنا : نعم ، أرسلوا لي واعتذرت .

وإنما اعتذرت لمعرفتي بكراهته لذلك ، وقد تقدَّم في هذا كلام ، فقال : « **إذا كان لك في شيء هوى ، ما عاد تعرف الصواب من الخطأ ، وأنت امْتَثِلْ ولا عليك أن تعرف وَجْهَه ، فإن الطريق العامة والطريق الخاصة كل منهما مُظْلِمة ، لا يهتدي الإنسان بنفسه فيهما إلى الصواب ، فيحتاج أن يجعل يده**

في يد العالم بذلك ولا يتكلم ، كالأعمى أو من هو في ظُلْمَة ، يجعل يده في يد البصير ، أو من هو أعرف منه ولا عاد يقول له : خُذ من هنا ، أو الطريق من هنا ، ونحو ذلك . ونحن جميع أقوالنا وما نتكلم به مع الناس في هذا الزمان إنما هي في طريق العامة . ومعنى كونها مُظلِمة : أنك لو قلت للرجل منهم في صلاة أو زكاة ونحو ذلك من أمرٍ بمعروف أو نهيٍ عن منكر ، اشتَغَلَ من ذلك ولا يحب من يذكِّره ويعلِّمه ، وقد نَجِد في نفوسنا على أحد من هذه الحيثية ، حتى على أغراب وفقراء ، لكنَّا بحمد الله لا نظهر شيئاً من ذلك . وأما الطريق الخاصة فقد قال بعضهم : إنها قد اندرست منذ زمان بعيد ، ومن لم يسلِّم لذلك ؟ » .

قال : « معنى دروسها ، أنه كلما تأخر الزمان زادت خفاء ، وأنت طالب نفسك بحقِّ الله عليك وهو التقوى ، ولا عليك تكليفها ما وراء ذلك . ومرادنا نُعَلِّمك حتى تعرف الصواب فتنتفع وتنفع ، فقد مَرَّ بعض المشايخ بعبدٍ أسود في عنقه طبل ويشرب الخمر ، ومع الشيخ تلميذ له » ، وذَكَرَ القصة حتى قال : « فأمر التلميذ أن يضرب العبد بحزمة قصب ، ليستوفي الحد منه بذلك ، ثم أَلْبَسَهُ ثوباً وصلى بهما صلاة من الخمس ، ثم فرش له السجادة على البحر ، وكانوا بقرب الساحل ، وقال له : اركب . فركب على السجادة ، فمشى على الماء حتى غاب ، فجعل ذلك التلميذ يتلهَّف ويقول للشيخ: لي معك كذا وكذا ما حصل لي هذا ، وهذا حصل له في هذه اللحظة . فقال الشيخ : يا ولدي ، ما بيدي شيء ، وأود أنا لو حصل لي ذلك ، وإنما أنا عبدٌ مأمور ، قيل لي : فلان من الأبدال قد توفي ، فأَقِمْ فلاناً مقامه . فامتثلتُ كما يمتثل الخدام » ، وكثيراً ما يذكر سيدنا هذه القصة ، ولها كل ما ذَكَرَها معنى يدلُّ على معنى كلامه الذي ذَكَرَها معه، شبيهاً بتكرير البخاري الأحاديث في الأبواب ، فإن كل حديث مكرر فيه شاهد في الباب .

فقلت : هل التقوى من أول الطريق الخاصة ؟ ، فضحك متبسماً وسكت ساعة، *ثم قال* : « أولها الإعتقاد الصحيح » هـ .

أقول : قوله : « مُظلِمة » ، أي غامضة لا يستقل بمعرفتها وسلوكها بلا معلِّم مرشِد ، ينطرح تحت نظره ، ثم لا يختار معه ، وهو معنى قوله : « لا يقول له : خُذْ من هنا ، ولا الطريق من هنا » .

قوله : « نَجِد في نفوسنا من هذه الحيثية » ، أي تشتغل وتحنق على من لا يَقْبَل الحق إذا أرشد إليه ، ويَكْرَه من يعلمه بالصواب ، لأن هذا يدل منه على الفجور وإنه لا يبالي بما يَلْقَى به ربه من خيرٍ أو شرٍّ، وذلك من سيدنا حيث أُقِيمَ مقام الدعوة ، فيحب من يطيع إذا أُمِر ، وينتهي إذا نُهي وزُجر .

قوله : « لكنَّا بحمد الله لا نُظهِر شيئاً » ، يعني ولو غضبنا لا يظهر الغضب ، ولا يظهر علينا له أثر،

ومرة قال : « **نحن نغضب مما يغضب منه الناس ، ولكن الفرق بيننا وبينهم : أنهم أدنى غضب يظهر عليهم من أقوالهم وأفعالهم ، ونحن وإن غضبنا كثيراً لا نتكلم به ولا نُظهِره ، ولا يظهر علينا له أثر ، فلا يعرفون أنّا غضبانين ، فهذا فرق ما بيننا وبينهم** » ، يعني فهذا حال أهل الكمال دون الناقصين وإن عمَّ الجميع الطبع البشري ، فالكامل إذا غضب لا يظهر عليه ، والناقص أدنى غضب يظهر عليه .

وقد بيَّن النبي ﷺ طبقات الناس في الرضا والغضب ، فقال ﷺ في خطبة خطبها من صلاة العصر إلى مغيربان الشمس ، قال الراوي : « فما ترك شيئاً من أحوال الدنيا والآخرة إلا ذَكَرَهُ في خطبته» ، قال فيها : « من الناس من هو سريع الغضب بطيء الرضا ، فهذه بهذه » ، يعني أن سرعة الغضب خصلة مذمومة ، وسرعة الرضا خصلة محمودة ، فهذه بهذه يعني مَحْمَدَة هذه تقاوم مذَمَّة تلك. قال : « ومنهم بطيء الغضب بطيء الرضا ، فهذه بهذه » ، أي فتقام مَحْمَدَة بطء الغضب من مذمَّة بطء الرضا . « ومن الناس بطيء الغضب سريع الرضا » ، يعني فكلتاهما محمودتان ، حتى قال : « ألا إن خير الناس بطيء الغضب سريع الرضا » ، فجعل هذا خير الناس في هذه الخصال . وقال الإمام الشافعي رضي الله عنه: « من استُغضب ولم يغضب فهو حمار ، ومن استُرضي ولم يرض فهو شيطان » .

وفي بعض المواضع لماذ ذَكَرَ القصة ، قال : « **لو قيل لك مثل ما لذلك التلميذ ، ما تقول ؟ أترضى بذلك ؟** » ، فقلت : الأمر في ذلك إلى الله ثم إليكم ، وما حد يرضى بالدون ويمكنه الأكمل ، *ثم قال* : « **لكن الجواب ما قاله الشيخ ، إنما قيل لي : إن فلاناً من الأبدال توفي ، فأَقِمْ فلاناً مقامه . فامتثلتُ كما يمتثل الخدام ، حتى قال : وأنا وَدِدْتُ لو حصل لي ذلك** » .

فقلت : هل التقوى أول الطريق الخاصة ؟ ، فسكت ساعة وهو يتبسَّم ، وقد ذكرتُ مراراً أن هذه عادته عند مثل ذلك إذا كلم بما لم يوده ، أو بَعُد عن المعنى ، ثم قال : « **أولها الإعتقاد الصحيح** » ، ثم قام إلى الصلاة - صلاة العصر - وكان كل ذلك الكلام في الضيقة عند خروجه للصلاة .

وهذه الخطبة المتقدِّم ذِكْرها ، أحببتُ أن أذكرها ، وهي ما ذَكَرَه الإمام السيوطي رحمه الله في « الدر المنثور في التفسير بالمأثور » ، قال : « أخرج الطيالسي وأحمد والترمذي ، وحسنه الحاكم والبيهقي ، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : خَطَبَنا رسول الله ﷺ خطبة إلى مُغَيْربان الشمس ، حَفِظَها من حَفِظَها ، ونَسِيَها من نَسِيها ، وأخبر بما هو كائن إلى يوم القيامة ، حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد، فإن الدنيا خَضِرة حُلوة ، وإن الله مُستخلِفكم فيها ، فناظرٌ كيف تعملون ، ألا فاتقوا الدنيا واتقوا النساء . ألا إن بني آدم خُلِقوا على طبقاتٍ شتَّى ، فمنهم من يُولَد مؤمناً و يَحْيى مؤمناً ويموت مؤمناً ، ومنهم من يُولَد كافراً ويَحْيَى كافراً ويموت كافراً ، ومنهم من يُولَد مؤمناً ويَحْيَى مؤمناً ويموت كافراً، ومنهم من يُولَد كافراً ويَحْيَى كافراً ويموت مؤمناً ، ألا إن الغضب جمرة تُوقَد في جوف ابن آدم، ألم

تَروا إلى حُمرةِ عينَيْه وانتفاخ أوداجِه ؟ فإذا وجد أحدكم من ذلك شيئاً فَلْيَلْزَق بالأرض ، ألا إن خير الرجال من كان بطيءَ الغضب سريع الفيء ، وشر الرجال من كان بطيءَ الفيء سريع الغضب ، فإذا كان الرجل سريعَ الغضب سريعَ الفيء فإنها بها ، وإذا كان بطيءَ الغضب بطيءَ الفيء فإنها بها ، ألا وإن خير التجار من كان حَسَن القضاء حَسَن الطلب ، وشر التجار من كان سيء القضاء سيء الطلب، فإذا كان الرجل حَسَن القضاء سيء الطلب فإنها بها ، وإذا كان الرجل سيء القضاء حَسَن الطلب فإنها بها ، ألا لا يمنعن رجلاً مهابة الناس أن يقول بالحق إذا علمه ، ألا إن لكل غادر لواء بقدر غَدْرَتِهِ يوم القيامة ، ألا وإن أكبر الغدر غدر أمير العامة ، ألا وإن أفضل الجهاد من قال كلمة الحق عند سلطان جائر . فلما كان عند مغرب الشمس قال : إن ما بقي من الدنيا فيما مضى منها كَمثل ما بقي من يومكم هذا في ما مضى منه . وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : أكمل الناس إيماناً أحسنهم خُلُقاً ، وأفضل المؤمنين إيماناً أحسنهم خُلُقاً ، وخياركم خياركم لنسائهم»، انتهى.

واستأذنت سيدنا في بعض مجالسه في الضيقة ، خارجاً لأجل الصلاة ، بين أن أنقل شيئاً من « مشكاة المصابيح » ، *فقال* : « **نعم ، ما بقي من وقتك فاصْرِفْه في الخير ، ولكنك حصِّل واعمل وأخلص في ذلك ، لا ليقال ، وإلا كنتَ كَمَن أَسَّس بناه على الماء** » .

ثم قلت له : ما معنى نسبة أمور إلى العبد لا اختيار له فيها ، كأمره بالإخلاص واليقين وغير ذلك من الأمور الباطنة التي هو يتمنَّاها ولا يقدر عليها ؟ *فقال* : « **هذا لأجل النسبة أمر نسبة ، يعني يُنسَب إليه مجازاً ، وإلا فحقيقته إنما هو هبة من الله ، كما جرت عادته أنه سبحانه يهب لعبده ما أراد له من الفضائل ، ثم يثني عليه بما وهبه من الفضائل ، فالثناء على العبد بذلك يعود إلى الله ، لأنه سبحانه هو المحمود بكل الفضائل اللازمة والمتعدية** » ، أعني الفضائل التي قد وُهِبها أحد من خَلْقِه ، أو المدَّخرة عنده سَيَهَبُهَا لمن يشاء منهم . وقوله في الخطبة : « فَلْيَلْزَق بالأرض » ، أي فليبالغ في التواضع جداً ، فإن كمال التواضع ينفي شدة الغضب .

قوله : « ألا إنَّ خير الرجال .. إلخ » ، فثبت بهذا الدليل من قوله ﷺ أن هذا الرجل المُتَّصِف بهذا الوَصْف أنه خير الرجال ، وأن المُتَّصِف بضده شر الرجال، فخيرهم بطيء الغضب سريع الفيء ، وشرهم عكسه الذي هو سريع الغضب بطيء الفيء ، وإنما الذي فيه المحمودة من الخصلتين ، إما إنه بطيء الغضب بطيء الفيء ، أو كونه سريع الفيء سريع الغضب ، ففيه الخصلتان متكافئتان ، ما لحقه من ذمِّ المذمومة يستره حمد المحمودة ، وهو معنى قوله : « فإنها بها » .

وحَسَن القضاء من التجار من يقضي ما عليه بتمامه ، بلا بطءٍ يشغل البال ويكدِّر الخاطر ، سيما في

هذا الزمان السيء حال أهله ، حتى إنه يتَّهم من أبطأ عليه ويظنه يريد يأكل ماله ، فكيف يأكل مال مسلم من في قلبه إيمان ، وقد قال رسول الله ﷺ : « من أخذ مال امرئ مسلم وهو يريد أداه أدَّاه الله عنه ، ومن أخذه وهو يريد إتلافه - أي لا ينوي الوفاء - أتلفه الله » ، فما الذي يصده عن حصول أداء الله عنه دَينه إلى الوقوع في إتلافه له ، فما يفعل ذلك من له عقل ودِين ، فهذه بعض عقوبات الله تعالى له في الدنيا ، وأما عقوبات الله له في الآخرة ، فمنها ما ورد : « أن الله تعالى يوم القيامة يأخذ بالدرهم الواحد من الظلمة سبعين صلاة مقبولة » ، وأما أهل الزمن المتقدِّم على زماننا ، كان إذا أوفى المديون ديَّانه قال له : أخِّره . لما يرجون من الوعد الثابت عن رسول الله ﷺ أنه قال : « من أَنْظَرَ مُعسِراً فله كل يوم بمثله صدقة إلى أن يقضيه دينه » ، فقضاه هو حق الدنيا ، وما حصل له من خير فهو حق الآخرة ، وطمع الدنيا مع قِلَّته وضعفه أرجح في قلوب أهل الزمان من حق الآخرة مع جزالته وعِظَمِهِ، فلهذا يؤثر الحاضر القليل المختص بالدنيا دون المضاعف للآخرة .

وقال لي يوماً في مثل هذا المجلس - أي في الضيقة خارجاً لإحدى الصلاتين الظهر أو العصر - : **« خُذْ في كل ما يشكل عليك في حقِّ الله ويُوهمك فيه شيئاً بالتسليم ، واتركه على ما هو عليه مع التنزيه له سبحانه عن صفات الحدث . وقد جاء في القرآن والسُّنة كثير مما يُوهم ذلك ، ولكن للسلف فيه طريقان : التسليم ، والتأويل مع التنزيه . وأين صفات الرب سبحانه من صفات خَلْقِه ، ففي وَصْف أحد الملائكة من الأمور ما تعجز العقول عن إدراكها ، فكيف بالباري سبحانه »** . وإلى هنا انتهى ما أردنا نقله مما يخص الناقل من الكلام ، وما بعد ذلك مما يخص ويعم في المجالس العامة .

وكلامه هذا هو الكلام الفصل في العقيدة ، وما أحسن قول الإمام تقي الدين أحمد بن تيمية الحراني الحنبلي ، في معنى القول بالتسليم :

يَـا سَـائِلِي عَـنْ مَذْهَبِـي وَعَقِيْـدَتِي ... رُزِقَ الهُـدَى مَـنْ لِلْهِدَايَـةِ يَسْـأَلُ

اسْـمَعْ مَقَـالَ مُحَقِّـقٍ فِي قَوْلِـهِ ... لا يَنْثَنِـي يَوْمـاً وَلا يَتَبَـدَّلُ

حُـبُّ الصَّحَابَـةِ كُلِّهـم لِي مَذْهَـبٌ ... وَمَـوَدَّةُ القُرْبَـى بِهَـا أَتَوَسَّـلُ

وَلِكُلِّهِـمْ قَـدْرٌ وفضـلٌ سـاطعٌ ... لَكِنَّـما الصِّدِّيـقُ مِنْهُـمْ أَفْضَـلُ

وَأَقُـولُ فِي القُـرآنِ مَـا جَـاءَتْ بِـهِ ... آياتُـهُ فَهُـوَ القَدِيـمُ المنَـزَلُ

وَأَقُـولُ قَـالَ اللهُ جَـلَّ جَلَالُـهُ ... وَالمصْطَفَـى الهـادِي وَلا أَتَـأَوَّلُ

وَجَمِيعُ آياتِ الصِّفَاتِ أُمِرُّهَا حَقّاً كَما نَقَلَ الطِّرَازُ الأَوَّلُ
وَأَرُدُّ عُهْدَتَهَا إلى نُقَّالِها وَأَصُونُها عَنْ كُلِّ مَا يُتَخَيَّلُ
قُبْحاً لِمَنْ نَبَذَ القُرَانَ وَرَاءَهُ وَإِذَا اسْتَدَلَّ يَقُولُ قَالَ الأَخْطَلُ
وَالمؤْمِنُونَ يَرَونَ حَقّاً رَبَّهُمْ وَإِلى السَّماءِ بِغَيرِ كَيفٍ يَنْزِلُ
وَأُقِرُّ بِالمِيزَانِ وَالحَوْضِ الذِي أَرْجُو بِأَنِّي مِنْهُ رَيّاً أَنْهَلُ
وَكَذَا الصِّرَاطُ يُمَدُّ فَوْقَ جَهَنَّمٍ فَمُسَلَّم نَاجٍ وَآخَرُ مُهْمَلُ
والنَّارُ يَصْلاهَا الشَّقِيُّ بِحِكْمَةٍ وَكَذَا التَّقِيُّ إلى الجِنَانِ سَيَدْخُلُ
وَلِكُلِّ حَيٍّ عَاقِلٍ فِي قَبْرِهِ عَمَلٌ يُقَارِنُهُ هُنَاكَ وَيُسْأَلُ
هَذَا اعْتِقَادُ الشَّافِعِيِّ وَمَالِكٍ وَأَبي حَنِيفَةَ ثُمَّ أَحْمَدَ يُنْقَلُ
فَإِنِ اتَّبَعْتَ سَبِيلَهُمْ فَمُوَفَّقٌ وَإِنِ ابْتَدَعْتَ فَما عَلَيْكَ مُعَوَّلُ

تمت ، فهذه العقيدة على هذا الوجه عليها الإجماع .

وقوله : « قُبْحاً .. البيت » ، يَردُّ به على طائفة حَقِيْقِينَ بالردِّ عليهم ، يقولون القرآن كلام الله مجازاً لا حقيقة ، لدلالته على كلام الله ، وهذا كلام فظيع يَكْفُر معتقده ، والحق الواجب اعتقاده كما قال الإمام الشيخ عبدالله بن أبي جمرة : « إن القرآن كلام الله حقيقة لا مجازاً ، ميسَّراً باللغة العربية ، كما قال الله تعالى : ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾، ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾، وقال تعالى : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ » ، قال : « والدليل على كون القرآن كلام الله حقيقة ، تأكيده بالمصدر، كما قال تعالى : ﴿وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾، ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾، والعرب لا تؤكِّد بالمصدر إلا ما كان حقيقة ، ولا يؤكد به ما كان مجازاً » .

واستدلت تلك الطائفة على قولها هذا الباطل ، بقول الأخطل النصراني :

إِنَّ الكَلَامَ لَفِي الفُؤَادِ ، وَإِنَّما جُعِلَ اللِّسَانُ عَلى الفُؤَادِ دَلِيلا

بأن الكلام هو الخواطر المترددة في الصدور ، وإنما عُلِم ذلك بتعبير اللسان عنه ، فقاسوا القرآن عليه لأنه معبَّر عن كلام الله ، الذي هو الحقيقة الذي ليس بحرف ولا صوت ، فإن كان إنما الدليل على ذلك إلا هذا ، فليس بدليل يؤخَذ به ويُحتَج به في الديانات ، سيما في الإعتقادات التي هي صفات الحق ، فيجعل ما يدركه بعقله من صفات الخلق ، هي بِعَيْنِها صفات الحق ، فنعوذ بالله من الضلال .

فكيف يصح أن يقول : خواطري هي كلامي ، وما جرى به لساني معبِّر عما في جناني ، فهو في المخلوق كذلك ؟ فكيف تقول أنت أيها الضال المبتدع الفاجر أنه يكون الأمر كذلك في حقِّ الحق ؟ وأن القرآن معبر عنه ، تعالى الله عن ذلك ، فقد خالفت قول الله سبحانه : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، وأنت جعلتَ له مثلاً ، إذ قِسْته على نفسك .

وصَدَقَ قول سيدنا عبدالله حيث قال رضي الله عنه : « **الخلق ما عرفوا إلا صفات نفوسهم** » ، يعني : وأما صفات الحق فتعالَتْ وتقدَّسَت عن أن يدركها الخلق .

والذي نقوله ونقطع به : أن كلام الله صفة من صفاته ، ولا يعلم حقيقة صفات الله إلا الله ، لأن المخلوق حادث ولا يطلع الحادث إلا على ما هو حادث مثله ، كما قال الإمام جعفر الصادق رضي الله عنه : « **ما خطر ببالك فهو هالك ، والله بخلاف ذلك** » .

فمن تعقَّل صفات الله وظنَّ أنه اطَّلع على حقيقتها ، واعتقَدَ في وَصْفِ الله أنه هو ذلك ، فهو مخطيء . فإنه لم يطَّلع إلا على صفات نفسه ، فأين هو من الصواب كما قال سيدنا في هذه المقالة : « **فأين صفات الرب سبحانه من صفات خَلْقِه ، وفي وَصْف أحد الملائكة من الأمور ما تعجز العقول عن إدراكه ، فكيف بالباري سبحانه** » .

ومرة قال : « **إن الآدمي لم يطَّلع إلا على صفات نفسه ، فلا يظن أنه اطَّلع على صفات الله** » .

قال رضي الله عنه : « من راعَ رُوعِي ، أنت تريد من الله أن يراعيك ، فراعِ حقَّه أنت حتى يراعيك، فمن لم يكن في وقته الحاضر صاحب خير ويقظة ، لا تسهن - أي لا ترجو - له في باقي الوقت يقظة، واليوم ما معهم مما مع أهل الزمن المتقدِّم حتى غباره ، ولكنَّا أردناهم يستيقظون لأنفسهم . إذا كان الإنسان على قهوة يقرأ ما تيسَّر من القرآن ولو جزءاً أو مثل هذا ، ولا يضيِّعون أوقاتهم بلا شيء ، فإنَّا نعرف رجلاً كان بعد الفراغ من المدرس بعد القراءة قبيل الغروب يأتي بألْفَيْ تهليلة . وهؤلاء ضَعُفَت هِمَمُهُم حتى سَهُلَ عليهم تضييع أوقاتهم ، مع إنهم يسمعون العلم ولا ينهضهم ، فيصير حُجَّة لهم ، إلا إذا كان لهم هوى فعلوا كما يفعل النساء من الإعطاء ولم يفعله أزواجهن ، وهم أولى بذلك ، لكن هذا مليح ، ينتفع المُعْطَى وإن لم ينتفع المُعْطِي ، وهو أحسن من ماشي » .

وَرَغَّبَ في الإطعام ، ومرة قال : « باللُّقَم تُسْتَدْفَع النِّقَم » ، ومرة قال : « باللُّقم تُتَّقى النِّقَم » هـ .

أقُولُ : وفي الحديث : « صنائع المعروف تقي مصارع السوء » ، وقد رأينا هذا عياناً هـ .

قال : « ولكن مع كثرة التخاليط ، قَلَّ أن ينتفع الإنسان بشيء ، إلا إن كان من حيث لا يحتسب ، وإنما حصل للأولين بأعمالهم ما حصل ، لخلوص نياتهم وزكي أعمالهم » هـ .

أقُولُ : وبهذا سَبَقَ درهم واحد مائة ألف درهم هـ .

قال : « ومن رأى أفعاله تعالى الرحموتية والجبروتية خافه ، فيعرف أنه يأخذ في ساعة ، ولا جاء في بالي أن مع هذه الهملة يجيء هذا السيل الهائل ، وفيه كمال التنبيه ، لأنه أول ما يُخَوِّف وينذر ، ثم يأخذ. وهذا بسبب المظالم التي هم مقيمين عليها من قديم إلى الآن ، واختلط الحلال بالحرام ، ولا تناهوا فيها بينهم ، فقد أهلك الله قوماً من بني إسرائيل مع انتهائهم عن المحارم ونهيهم عنها ، إلا إنهم ما جانبوا أهل المعاصي ، فأخذهم الله معهم . لكن عسى في هذا كفَّارة للذنوب ومُذَكِّر بالآخرة » هـ .

أقُولُ : قوله : « الهملة » ، يعني رش المطر من غير قوة مطر ، حتى لا يَبُلّ ثوب الماشي فيه ، ولا رعد فيه ولا برق . ولكن لهذا الوادي المسمى « عدِم » ، أودية بعيدة يصب ماؤها فيه ، وهي مِنْهُ على نحو ثلاثة أيام تصب المطر فيها ، ثم وَصَلَهُ في تريم على غفلة ، وليس هو لهم على بال ، فأخذ نخيلاً كثيرة في ممرِّه ألقاها في البحر ، حتى ذُكِرَ أنه خَمَّ نخيلاً تبلغ أياماً وذلك في بيت مسلمة ، وكان معظم نخيلهم فيه ، وكان لا تُرى فيها الشمس لكثرة نخيلها وتزاحمها ، لأنهم لا يفرِّقون بين النخلتين إلا نحو ثلاثة أذرع .

وهذا سيل الحوت جاء آخر يوم منه ، فنُسِبَ إلى الوقت ، والحوت هو نجم الرشا على حساب الشبامي ، وكان مجيه ضحى يوم الأربعاء ٢٦ شهر رمضان سنة ١١٢٤ ، وكان قبله بيومين - وهو يوم الإثنين - ذُكِرَ أن جماعة من عسكر يافع جلسوا في مجرى مسيلة عدِم - الوادي المذكور - مساء ، مجاهرين يأكلون عصيدة بعد العصر ، فما أمهلهم الله إلا يوم الثلاثاء ، وأوقع بهم هذا السيل الهائل .

وسماه سيدنا : « نابر » ، لأنه نَبَرَ النخيل فأخرجها من أماكنها ، فمن شدة جَرْيِهِ يضرب النخلة بالنخلة في حُمُوَّةِ جَرْيِهِ فيحذفها ، وذَكَرَ الناس وتداول بينهم : أن إمرأة أو رجلاً كان راكباً على جِذْعٍ مَرَّ به السيل وقت الفجر في الوادي على نخل السبير يوم الأربعاء ، ورُوِيَ أن صبح الخميس سقط الجذع الذي عليه في البحر في سيحوت وقت الفجر ، وهو مسيرة ١٥ يوماً بسير القطار المعتدل . فيا للعجب ، وما من أمر الله عجب . فلمّا جاهر أولئك العصاة بأكلهم العصيدة في نهار رمضان ، وأي معصية أشنع وأفظع من هذه ، عوجلوا بالعقوبة بسرعة ، خاصة بالنخل الذي هذا مجرى مسيل مائه .

وتكلم سيدنا في أمر هذا السيل بكلام كثير في مجالس متعددة ، وسيأتي كثير مما تكلم به من جانبه في مجالسه تلك ، كله أو أكثره ، مجموعاً في موضع واحد .

وبعد صلاة صبح يوم الإثنين المذكور ٢٤ من شهر رمضان المذكور ، كنت مع جماعة في حلقة نقرأ القرآن بحضرة سيدنا في مصلى الحاوي ، وكنت مستنداً إلى الجدار الشرقي ، والحبيب جالس في المحراب وأنا مقابله ، فبعدما قرأت المقرأ غطني النوم ، فرأيت قبة في وسطها قبر ، وفيها ثقبان : قبلي وشرقي ، وكأن عتم مسقى ماء يدخلها من الثقب القبلي ، ويسفح على القبر يجري عليه كله ، حتى لم يَبْقَ من القبر شيء إلا وَطَمَا فوقه الماء ، ثم يخرج الماء من الثقب الشرقي بعدما جرى على القبر ، ثم ينفذ إلى نخيل كثيرة وبساتين يسقيها كلها ، وكأن ذلك القبر قبر النبي ﷺ ، فوقفت على القبر أنظر كيف يجري الماء عليه ، ومتعجِّباً كيف يُتْرَكُ الماء يجري على القبر الشريف ، وأقول في نفسي : يا للعجب ، هذه البقعة التي ضمَّت أعضاءه الشريفة ، أفضل من العرش والكرسي ومن كل شيء ، وتُتْرَكُ هكذا يجري عليها الماء ، وكأنّي أَتَمَثَّل بهذا البيت من قصيدة الشيخ محمد بن أبي الحسن البكري :

قَدْ حَسَدَتْهَا سِدْرَةُ المُنتَهَى   لِما حَوَتْ وَالفَلَكُ الأَكْبَرُ

وطالت بي الرؤيا هكذا ، حتى وصلني المقرأ فَنُبِّهْتُ له بعد قراءة نحو سبعة أشخاص لسبعة مقاريء ، فتعجَّبتُ من هذه الرؤيا ، فلمّا فرغنا من القراءة بعد طلوع الشمس ، وركع سيدنا صلاة الإشراق ، ثم دخل ودخلت معه إلى الضيقة قابضاً بيدي على العادة ، فأخبرته بالرؤيا على وجهها المذكور ، فقال : « سبحان الله، هذا با يقع أمر ما يتحمَّله إلا هو ﷺ » ، فلمّا كان ضحى يوم الأربعاء ،

جاء هذا السيل الهائل على غفلة من الناس ، من غير ما يظنُّون أو يتوهَّمون ، إذ لا هناك إذ ذاك قوة مطر إلا رشاش سهل ، لا يكترث الإنسان من المشي فيه ، كما قال سيدنا : « **ما ظننت ولا جاء في بالي أن مع هذه الهملة يجيء هذا السيل الهائل** » .

وذَكَرَ هذا السيل يوماً *فقال* : « **إذا طال العهد بالمصيبة لم يبالوا ، وهُم فيه كقصة من قال : ضاع ثوبي ، بركة ما أنا فيه . ولو جاءهم ليلاً حالِّين نياماً كان راح بهم** » هـ .

أقول : يعني أن من لطف الله أنه ما جاء إلا بعدما طلعوا من المحلة آخر يوم من نجم الحوت للشبامي ، ولهذا سُمِّي : سيل الحوت .

وقوله : « **إذا طال العهد بالمصيبة لم يبالوا** » ، يعني أنهم طال بهم العهد من سيول كبار قبل هذا ، فنسوا أمرها ، كسيل الإكليل الأول والثاني ، ورأيت بخطي عن قوله : « **إن سيل الإكليل الأول سنة ١٠٤٩** » ، وسِنُّه إذ ذاك ٥ سنين هـ .

قال رضي الله عنه ، في قوله تعالى : ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ الآية : « **لم يقل : نُبيِّض وجوهاً ونُسَوِّد وجوهاً ، لأنه أحال ذلك إلى أعمالهم ، لأن أعمالهم هي التي بَيَّضَتها وسَوَّدَتها ، والله سبحانه بعدما أعلمهم أنه خالق للخير والشر أحالهم على أعمالهم ، ولو شاء لخلقهم بيضاً وأدخلهم الجنة ، أو خلقهم سوداً وأدخلهم النار ، والإيمان بالقضاء والقدر واجب ، والإحتجاج به بدعة .**

وكان بعض أصحاب بعض المشايخ يتعاطى أموراً محرمة ، فنهاه شيخه عنها مراراً ، وهو يقول: مكتوبٌ عليَّ . فلما رآه مُصِرًّا على ذلك ويحتج بهذا الكلام ، استعدَّ له يوماً بحملة – أو قال : بحزمة – من جريد النخل ، فلما رآه فعل المنهي أمر به ، فبُطح وأمر بضربه بتلك الجرايد ، حتى كُسرت على ظهره، فصاح بالشيخ ، فقال له الشيخ : هذا مكتوب عليك ، فلا تصح .

ومن رأيته وهو عالم يعمل بخلاف العلم ، فاعلم أن العلم لم يصل إلى قلبه ، وإن رأيته يستدل لذلك ، سيما علماء الوقت ، فإنهم يحتجُّون للعامة ويعلِّمونهم الحِيَل ويكتبون لهم المناذرات الباطلة ، وليس هذا من شأن علماء الدين ، إنما هم الذين يعلِّمونهم ويهدونهم ويبيِّنون لهم الحق ، ولو كُنَّا والين على هؤلاء ، أو معنا وال يسمع الكلام ، فَعَلْنَا لهم أشياء ما يعرفونها ، بل يعرفون أنها حق فقط ، فإنهم لا عهد لهم به – أي بالحق – فإذا رأوه ربما ينكرون ما لا يعرفونه » هـ .

أقول : قوله : « **لا عهد لهم به** » ، أي بالحق . و « **ما لا يعرفونه** » ، أي الحق .

وقوله : « **يحتجُّون للعامة .. إلخ** » ، يعني بذلك المفسدين من العلماء ، الذين قال في حقِّهم : « ما

أفسد على الناس دينهم إلا العلماء ، ولكن بعد فساد دينهم » .

قوله : « **ويعلِّمونهم الحِيَل والمناذرات** » ، يشير به إلى بيع العهدة ، المسماة بيع التطوع ، وهي الصبرة، نعوذ بالله منها ، التي لعن رسول الله ﷺ متعاطيها بقوله : « لعن الله آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهده » ، الحديث . فليس في جميع أنواع الربا كاتب وشاهد سواها ، فيتوجَّه اللعن لفاعلها من الآخِذ والمعطي ، وسمعت سيدنا عبدالله غير مرة يقول : « **سئل عنها الشيخ عبدالله بن عبدالرحمن بلحاج بافضل صاحب مختصر بافضل** - الذي يتعاطى القراءة فيه الشوافع - **فقال : إنها مسألة مظلمة، أرجو أن الله يقيِّض لها من يزيلها** » .

وكل من قال إنها حلال في مذهب من المذاهب الأربعة فهو كاذب على ذلك الإمام وهو خصمه إذا وقف بين يدي الله تعالى ، فإنها ما حدثت إلا بعد الأئمة ، وما أحد منهم تكلم فيها بشيء ، بل لو سمعوها لأفتوا بأنها ربا صريح ، ولوجَّهوا لعن الشارع إلى متعاطيها . ومن قال أن ابن حجر أفتى بجوازها فليس بمصيب، فإن ابن حجر سئل عن بيع الناس ، وهي تُسمَّى بذلك في الحرمين ، فقال : « بيع الناس ، ولا أعلم ما بيع الناس ؟ فما وافق شروط البيع فهو جائز ، وإلا فهو باطل » ، فهذه عبارته في فتاويه ، فكيف يدَّعي الكاذب عليه أنه جوَّزها ؟

وإنما إذا غلب الهوى على متعاطيها حتى أعمى عين قلبه ، جعل يحتج لنفسه ويكذب على العلماء، بأنهم على ما يقول ، كما كَذَبَت الرافضة أن معنى هذه الآية : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾، ما أنزل إليك من مناقب علي ، وإن لم تبلِّغها فما بلَّغت الرسالة ، هكذا زعموا .

قوله : « **ولو شاء لخلقهم بيضاً وأدخلهم الجنة** » ، قد تقدَّم ويأتي في غير موضع أن مشيئة الله تعالى هي الأصل في وجود جميع الأشياء ، لكن رتَّب سبحانه المجازاة على حسب الأعمال ، بمشيئته القاهرة إجراءً للتكليف على وجهه على عبيده ، حيث أعطاهم الإختيار وهو محل التكليف ، وبيَّن لهم طريقَي الخير والشر، كما قال تعالى : ﴿وَهَدَيْنَـٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾، يعني طريقَي الخير والشر ، وأعلمهم بجزاء الأمرَيْن ليختاروا الخير وينووه ، ويتركوا الشرَّ قصداً ويهجروه ، وقال تعالى : ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ وقال تعالى : ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾، فيُظْهِر تعالى فضله لمتَّبِعِي الخير بتوفيتهم ما وعدهم به من دخول الجنة ، ويتم للجنة ما وعدها به من ملئها منهم ، ويُظْهِر سبحانه عدله لمتَّبِعِي الشر بتوفيتهم ما وعدهم به من دخول النار ، ويتم للنار ما وعدها به من ملئها منهم ، فيتم وعده للعاملَين بما عمِلا ، ويتم وعده للدارَيْن في من ضَلَّ واهتدى .

والعجب أنك ترى الإنسان يتعمَّد فعل الشر ، وهو يعلم بما يؤول إليه ، فما الذي قهره عليه لولا

أن سلاسل القضاء والقدر جَرَّته قهراً إلى فعل ما أراد الله أن يجزيه بجزاه ، لتعلم بذلك أن مشيئة الله نفذت في العبد بما شاء قبل وجوده ووجود عمله ، وقال تعالى في أمره بالخير : ﴿وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾، وقال تعالى في نهيه عن الشر : ﴿فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾، فأخبر تعالى أن الفلاح وهو السلامة من العذاب والفوز بالثواب في فعل الخير وفي ترك الشر .

انظر قوله تعالى : ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴾، كيف علَّق التعذيب والرحمة هنا على المشيئة دون عمل ، ليعلم أنها هي الأصل ، وإنما الأسباب من الأعمال تابع لها وعلى وفقها تكون الأعمال ، فلا بد من العمل إتماماً للحُجَّة لمن رُحِم بعمل الصالحات ، وقطعاً للحُجَّة لمن عُذِّب بفعل السيئات . فافهم أن الأعمال تابعة للمشيئة الإلهية وعنها نشأت ، وإذا جاء الجزاء معلَّقاً بالعمل فهو جري على المتعارف بين الناس ، وعليه جَرَت أحكام الشرع كلها ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾، مع أنه سبحانه أراد للأبرار جزاء البر ، وأراد للفجار جزاء الفجور ، قبل وجود الفريقَيْن وأعمالهم ، فجَرَت أعمالهم على وفق ما أراد . ولغموض هذا المعنى اشتبه على كبار الرسل ، حتى سألوا ربهم عنه فلم يُجِبْهم ، فإن المتعارف بينهم أن لا يعامل أحدٌ أحداً بنفع إلا على عمل حسن منه يقتضي ذلك ، ولا يعامله بما يضر إلا على عمل سوء اقتضاه .

لكن ليس مجازاة الخالق مثل مجازاة المخلوق ، فإن صفات الرب كلها لا تشبه شيء من صفات الخلق ، ولو كان فيها ما يُسَمَّى بإسمها كالسميع البصير ، فلا يتَّفقا إلا في الاسم ، لقوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ﴾، فجعل تعالى جزاه بمقتضى فضله وكرمه ووسع عطائه ، بالحسنة الواحدة عشراً وقد تُضاعَف إلى سبعين إلى سبعمائة إلى أضعاف كثيرة ، والسيئة بواحدة . وأما المخلوق ، ولو هو أكبر ملوك الدنيا ، إذا جازى بحسن ربما نقص عن القدر المستحق ، وإن جازى بسيء ربما زاد .

ومن المتعارف بينهم أن العبد المملوك يلزمه القيام بخدمة سيده بقضاء حوائجه والقيام بأمره والإنتهاء لِنَهْيِهِ ظاهراً ، والنصيحة له باطناً ، بأن يطلب بخدمته رضاه وطيب خاطره وسرور قلبه فقط ، لا لأجل طمع منه ، فإن ذلك يقدح في خدمته ويخل بمعاملته ، وإذا عَلِمَ سَيِّده بذلك أبغضه وكَرِهَ خدمته ، وكذلك إن ضربه سيده أو فعل به أمراً يكرهه خضع له ورضي به وسَلَّم لأمره ولا حقد عليه في أمرٍ ما ، فكذلك وَرَدَ الشرع بتكليف العبد بِفِعْلِ كل ما أمره به سيِّده ومولاه ، وترك كل ما نهاه عنه وَكَرِهَ منه فِعْله ، وأن يصبر على ما فعل به ، إن أمرضه أو أفقره مخلصاً وراضياً به من قلبه غير معترضٍ ولا كارهٍ ، ناوياً به امتثال أمره وطلب مرضاته ورغبة في ثوابه . وهذا هو العبادة التي خلق العبد لأجلها ، كما قال تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾، والعبادة : هي فِعْل العبد ما يُرضي ربه من فِعل ما أمره به وترك ما نهاه عنه ، وأن يرضى بما فعل به ربه من كل ما تكرهه نفسه، مخلصاً

في ذلك في قلبه ، ناوياً به امتثال أمره وطلب مرضاته ورغبة في ثوابه ، فإن لحظ في ذلك أمراً دنيوياً أو نواه بعمله أو الْتَفَتَ فيه بقلبه إلى الخلق بطمعٍ أو نفعٍ ، كان ذلك مُوجِباً لِمَقْتِهِ وسقوط قَدْرِهِ ومنزلته ، وقادحاً في عبادته .

فافهم أن جميع أحكام الشرع جاءت على حسب المتعارف بين الناس ، وقال سيدنا في حِكَمِهِ : « **ما ترك من الإنصاف شيئاً ، من أقام نفسه من ربه مقام عبده من نفسه** » ، ولهذا ما كلَّفهم إلا ما يطيقون ، ولا واخذهم بما لا يعلمون .

وقال تعالى : ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ ، وسمَّاها باسْمِها لشبهها بها، وإلا فالأولى هي السيئة والأخرى مجازاة ، وهذا في حكم العموم ، وفي حكم الخصوص أمور فوق ذلك ، منها قوله تعالى : ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ ، فإن الله سبحانه جعل في الخلق العموم والخصوص ، وخاطب كلًّا منهما بخطاب يخصه في ما يخصه من العمل ، ووَصَفَ كل واحد بما يخصه من الأوصاف الحسنة، وجازاه بما أراد له من الجزاء الحسن ، على قدر ما أراد له من أعلى وأدنى ، وعكس ذلك في من أراد لهم الشر الشديد ، ودون ذلك . وقد قال سيدنا كما قدَّمنا : « **إن الله سبحانه جعل أحداً في الخصوص، وأحداً في العموم ، وما خلقهم على حالة واحدة ، ولا دبَّرهم تدبيراً واحداً ، ولا عيَّن للفعل وجهاً واحداً ، ولا يجوز أن يدبر العالم تدبيراً واحداً ، ولو كان كذلك لحصل من الضرر والفساد والإختلال شيء كثير ، بل دبَّره سبحانه تدابير شتى ، فيختلف النظر باختلاف التدابير ، ولو عَيَّن فِعلاً على وجهٍ مخصوص لَلَزِمَ الأخْذُ به ، ولا جاز لأحدٍ يتعدَّاه** » ، انتهى ما قاله .

وهذا في ما يتعلَّق بمعاملتهم فيما بينهم وبين ربهم ، وفي ما بينهم وبين الخلق بعضهم بعضاً ، بتكليفهم ، أعني خطابه للفريقين الخصوص والعموم ، وفي مجازاته لهم . انظر وَصْفَه للخصوص حيث قال : ﴿وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾ ، أي في كل ما دخل أيديهم حق للمذكورين قَلَّ أو كَثُر، وخطابه للعموم : ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ۝ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾ ، يعني لا حقَّ للمذكورين في أموالهم إلا ما بلغ النصاب ، فزكاته الواجب إخراجها هو حقهم من أموال هؤلاء .

فانظر الفرق البعيد بين الوصْفَيْن ، تعرف به فرق ما بين الفريقَيْن ، فدبَّر سبحانه كلًّا من الفريقين غير ما دبَّر به الآخر ، ووَصَفَ كل واحد غير ما وَصَفَه به الآخر ، ورقَّى الخواص من الأعمال فوق ما رقَّى به الآخرين ، وجعل الخواص من الجزاء في الآخرة فوق ما ذَكَرَه من جزاء الآخرين ، فقال في وصف الخواص : إنهم يشربون من عين التسنيم خالصاً ، وإن الآخرين يشربون من رحيق مختوم ختامه مسك ، ممزوجاً من التسنيم لا خالصاً ، وسمَّى الخواص المقرَّبين والسابقين ، وعباد الله أضافهم إليه ، وسمَّى تلك العين سلسبيلاً ، والتسنيم والرحيق والكافور .

وسمَّى الآخرين الأبرار وأصحاب اليمين ، قال تعالى : ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝﴾ ، ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ۝ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ۝ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ۝ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ۝﴾ ، ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ۝﴾ ، وغير ذلك . وقال في جزاء الخواص السابقين : ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ۝ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ۝ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ۝ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ۝ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝﴾، أي خالصة ، وما ذكر مَزْجاً كما ذَكَرَ في حقِّ الآخرين ، وإنما قال : ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ۝﴾، أي لا تألمهم رؤوسهم ولا تختل عقولهم منها لعظم لذاتها .

وفصَّل في سورة الواقعة أحوال الفريقين وأعمالهم وأحوالهم عند الموت ، وجزاءهم في الآخرة ، وفَرَّق بينهم في كل ذلك ، فشتان ما بينهما ، وقال سيدنا : « **لو كانوا سواء ، ما فرَّق بينهم في سورة الواقعة** » ، يعني فصَّل أحوال فريقَيْ أهل الإيمان الخواص منهم والأبرار ، وفَصَّل معهم فيها أحوال الفريق الثالث أصحاب الشمال في أعمالهم في الدنيا وأحوالهم عند الموت وجزاهم في الآخرة كما قال تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً﴾إلى آخر ما فصَّل في السورة من أحوال الثلاثة الأقسام حتى ختمها .

وأما ما كان من وصفه سبحانه في نفسه ومراده في خَلْقِهِ وتدبيره لهم ، فعلى وجوه كثيرة لا تحصى، كما قال : « **ودبَّرهم بتدابير شتى ، وجعل أحداً في الخصوص وأحداً في العموم** » ، فكل ذلك بحسب مراده فيهم ، وما أراد لهم وأراد منهم ، وجعل أحداً في الحكم الظاهر ، وأحداً في الحكم الباطن ، ودبَّرهم في الحالَيْن بتدابير لا تحصى ، وجعل في كلٍّ من الفريقين خلفاء ورؤساء ، تقوم على أيديهم تدابيره على حسب مراده ومشيئته في ذلك من وراء ذلك ، فربما ارتقى عام إلى خصوص ونزل خاص إلى عموم ، كما أراد وجرى به علمه ونفذ به حكمه .

فيتعيَّن على كلٍّ من الفريقين الرجاء والخوف ، إذ كلهم يجرون على وفق ما سبق لهم منه ، من خير إلى خير منه ، أو شر إلى شر منه ، أو من خير إلى شر ، أو من شر إلى خير ، وأمثال هذه الأشياء هي تدابيره ، وكلها ما حدثت إلى هذه الوجوه إلا بحسب ما أراده وكتبه في سابق علمه في الأزل ، ووقَّتها إلى وقتها الذي ظهرت فيه . انظر إلى ظهور شقاوة إبليس بعد عبادة ثمانين ألف سنة ، وما علم ما سبق له في علم الله من الشقاوة التي كتبها الله عليه ، ووقَّتها بوجود آدم ، حتى ظهرت عليه الشقاوة حين ظهر آدم ، وألقى في وجهه نور النبي ﷺ ، فجعل يتلألأ كما تلألأ الكوكب الدُّرِّي ، فأمر الله تعالى الملائكة بالسجود له تعظيماً لشأنه ، وأملى بمحبته وتفخيمه في قلوب الملائكة ، وكان جالساً بينهم ، ويُسمَّى معلم الملائكة قبل ذلك ، فأظهر الله رَقْم شقاوته المكنونة حين حضر وقته .

فهذا مثالٌ تفهم به ما يُفْهِمك من شأن كل مكتوب قضى الله به وَحَكَم بإيجاده، وقرَّره في وقته الذي قدَّره فيه ، أنه لا يكون قبل وقته ولا يتعدَّى وقته إذا حضر ، كما مرَّت تلك المدة الطويلة على الشقي لم يتبيَّن أمره حتى حضر وقته ، فلما حضر لم يمكث حتى تبين فيه . ولذلك قال سيدنا : « **الأشياء بأوقاتها لا بأسبابها** » ، يعني كما ترى من كثرة الأدوية للمرض فلم تُجْدِ فيه سبباً ، حتى إذا حضر الوقت المؤجل من الله لعافيته ، حصلت بأدنى أمر .

فالخلق يجرون بحسب ما أراد لكل أحدٍ له به من خيرٍ أو شرٍّ ، لأنه خلق جنة وناراً ، ووَعَدَ كلًّا منهما بملئها ، ممن ختم له بعملها ، إذ عيَّن لكل واحدة منهما عملاً وأهلاً يعملون بعملها ، فإن ختم لعاملٍ من أيهما بعمل أيهما ، استحقَّ دخولها وكان من الموعودة بهم ، وخصَّ أحداً بأعلى أعمال أهل الجنة ، وخصَّهم منها بأعلى درجاتها ، وهم الخواص السابقون المقربون ، وخصَّ أحداً بأدنى أعمال أهل الجنة ، وخصَّهم منها بأدنى درجة منها ، وهم العامة الأبرار أصحاب اليمين ، حتى إنهم لينظرون إلى الخواص في درجات الجنة كما ينظر أهل الأرض إلى الكوكب في السماء ، فهذا تفاوت ما بينهم في المنازل ، ولكن قد نزع الله ما في صدورهم من غلٍّ ، فلا يرى أحدٌ منهم أن أحداً أفضل منه ، كما قال تعالى : ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ۝٤٧﴾، فهؤلاء الذين وعد الله الجنة بملئها منهم . وأما أهل النار الذين وعدهم بملئها منهم ، فخَصَّ أحداً منهم بأشرِّ أعمال أهل النار ، وخصَّهم منها بأشرِّ مكان ، بأن سلَّط عليهم سلاسل القضاء والقدر ، وهو عبارة عن نفوذ مشيئته التي لا يغلبها غالب تجرُّهم إليها ، حيث أراد لهم جزاء تلك الأعمال ، فإذا وقعوا فيها كان حُجَّة عليهم ، فلا يرون أنهم أُخِذوا بغير جريمة ، وخصَّ أحداً منهم بأهون أعمالها ، وخصَّهم منها بأدنى مكان ، لأنه أراده لهم .

فقد بيَّنَّا أن كل ذلك بحسب ما أراد تعالى لهم من ما علا وَدَنَا من الأعمال ، حَسَنِها وسَيِّئِها ، بحسب ما أراد لهم من الجزاء من أعلى وأدنى من الجزاء الحسن ، وأشد وأهون من سيء الجزاء . فافهم ذلك مما خصَّ الله به كل واحد من الأزواج الثلاثة في سورة الواقعة ، حيث قال تعالى : ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ۝٧ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۝٨﴾، كرَّر ذِكْرَهم مبالغة في شأنهم المحمود ، ﴿وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ۝٩﴾، كرَّر ذِكْرَ هؤلاء مبالغة في شأنهم المذموم ، ففي اللغة يكرر الإسم للمبالغة في الأمر ، محموداً أو مذموماً ، ثم قال تعالى : ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ۝١٠ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ۝١١﴾، كذلك تعظيماً لشأنهم ورفعة لقدر هؤلاء ، ذَكَرَ جزاءهم من قوله : ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾، إلى قوله : ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ هذا للمقرَّبين السابقين . والذي للأبرار من أصحاب اليمين قوله تعالى : ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾، إلى قوله تعالى : ﴿فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ۝٣٦ عُرُبًا أَتْرَابًا ۝٣٧﴾، هذا لأهل فريقَي الإيمان والدين ، الخاص بخصوصه والعام

بعمومه ، وهم أهل الجنة الأعلين منهم والأدنين المقربين وأصحاب اليمين . ثم ذَكَرَ جزاء الزوج الثالث من جملة أصناف بني آدم الثلاثة ، أصحاب الشمال أهل النار ، فقال تعالى : ﴿فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ۝ وَظِلٍّ مِن يَحْمُومٍ﴾، ثم ذَكَرَ جزاء عموم الثلاثة الأصناف بعدما ذكر أعمالهم ، فقال : ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾، ثم ذكر أحوالهم عند الموت بقوله تعالى : ﴿فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ إلى آخر السورة .

ولذلك قال سيدنا : « **لو كانوا سواء ، ما فاوت بينهم في سورة الواقعة** » .

فانظر الفرق بين أحوال الخلق حالهم ومآلهم ، وما تؤدِّيهم إليه أعمالهم ، وكل ذلك على حسب مشيئة الله لهم ، وما خلقهم له ، فإنه جعل أحداً للمثوبة وأحداً للعقوبة ، وخلقهم ليتم به وعده للدارين ، فوعده لا يخلف .

وختم بذلك أيضاً وَعْدَهُ للعاملين بما وُعِدوا به على أعمالهم ، وشَرَطَ ذلك وَأَوْقَفَهُ على حسب الخاتمة ، فيتم به فرح أهل السعادة ، ويتضاعف به الحزن أضعافاً كثيرة بما وعد به أهل الشقاوة ، إذا تم لكل منهما ما وعد به على عمله ، إذا ختم له به ، والختم على وفق إرادته تعالى .

فإذا فهمتَ هذا التفصيل والتنويع ، علمتَ وتحقَّقتَ إنما الأمور على مقتضى إرادته سبحانه وتعالى، فكل يرجع إليها سواء أَوْقَفَها على الأسباب أو أطلق ذلك ، فإن أراد أوقف الخير والشر على عمل ، وإن أراد أجراه بلا عمل ، فإن أَوْقَفَه فذلك على مقتضى حِكْمَتِهِ ، وفيه حُجَّته على خَلْقِهِ ليرد الحُجَّة للعاملين ، ويردها على الناكصين ، وإن أراد أجراه بلا سبب ، وذلك آيته في خلقه ، وإظهار قدرته ، وله في كلٍّ من الأمرَيْن تدابير لا تحصى .

والأعمال التي هي الأسباب مما خاطب به خلقه ، وطلب منهم فيها الإمتثال لإظهار العبودية وقياماً بحق الربوبية ، والقدرة والإرادة منه سبحانه من وراء ذلك تعمل عملها ، بلا توقف على عمل وسبب ، وإلا فأي عمل لذلك العبد الذي في عنقه الطبل ، وكان مع قوم يضرب به لهم ، وهو وهم يشربون الخمر ويأكلون الميتات ، وكانوا مُصِرِّين على كبائر المحرمات ، ولا يعرفون الصلوات وأمور الديانات ، فما الذي بلَّغه مراتب الأبدال التي قصر عنها فحول الرجال مع هذه الحال في لحظة واحدة ، وصار في الحال يمشي على الماء ، لولا عناية رب العالمين ومشيئته القاهرة ، وإرادته القاهرة التي لا تتوقف على سبب .

وكثيراً ما تتكرر قصته في كلام سيدنا في مجالسه ، يشير بها إلى هذا المعنى لمن يفهم ، ومن لا يفهم لا خطاب له ولا التفات إليه ، فمراده أن يفهم الإنسان أوامر الله ، ويمتثلها بظاهره مع خلوص قلبه للعبودية ، والإعتماد بقلبه على ربه ، ولا يلتفت إلى سبب ما ، ولا يدَّعي بالسبب الذي يعمله ، فالأمر الذي عليه العمدة هو المعنى الذي أشار إليه بعض مشايخ سيدنا ، بتمثله له بهذا البيت كل ما رآه يشير

إليه به :

وَإِذَا العِنَايَةُ لَاحَظَتْكَ عُيُونُهَا نَـمْ فَالمخَـاوُفُ كُلُّهُـنَّ أَمَـانُ

وقول آخر من مشايخه أيضاً ، يشير به إليه :

وَمَنْ رَعَتْهُ العِنَايَةَ في المجِيء وَالذَّهَابْ فَلا يُبَالي وَمَنْ خَانَتْهُ الأقدار خَابْ

وكلهم يشيرون إلى المعنى المذكور ، من أن العمدة على الإرادة الإلهية دون الأسباب ، ولا تنفع الأسباب إلا بموافقتها ، وهو معنى قوله في تلك المقالة العجيبة : « **فالسعيد من وافق ما أراد به الحق وأراد منه** » .

وقد مرَّت قصة هذا العبد في كلام سيدنا مراراً كثيرة ، وتأتي أيضاً ، وفي بعض المرات قال : « **وربما يستبعد بعض الناس هذا** » ، يعني ما ذَكَرَ من شأنه ، ثم قال : « **والجواب عن ذلك ما قاله الشيخ بنفسه، لمَّا قال له تلميذه الذي معه : أنا لي معك مدة طويلة ما حصل لي هذا ، وهذا حصل له في لحظة . فقال له الشيخ : ليس هذا إليَّ ، إنما قيل لي : إن فلاناً من الأبدال قد توفي ، فأَقِمْ فلاناً مقامه . فامتثلت كما يمتثل الخدام ، ففعلتُ ما أُمِرت به ، وأود لو حصل لي ذلك** » ، ورأيت أنه توفي بأرض الحبشة ، وربما أنه كان من المدرك لتلك الجهة .

فانظر إلى هذا الأمر العجيب الذي ما يمكن فيه إلا التسليم لأمر العزيز العليم ، من تصرف الإرادة الإلهية التي لا تدركها العقول . فافهم أن الأعمال إنما هي لإقامة الحجة لمن أجاب وعلى من لم يجب ، والقدرة مع المشيئة تعمل عملها بلا تقيد بسبب ، كما قدَّمَت ذلك العبد بلا سبب ومع الموانع التي هو مرتكبها من الكبائر على ذلك التلميذ المتمسك بالديانة وإقامة الأسباب ، مع صيانته عن الموانع من المحرمات القاطعة عن الله .

وأفهمت القصة أنه إنما ينال خصوصية الله من أرادها الله له ، على يد أحد من أهل الخصوص بأمر الله ، كما حَصَلَت لذلك العبد على يد هذا الشيخ كما قال : « **إنما أنا عبدٌ مأمور ، قيل لي : فلان من الأبدال مات ، فأَقِم فلاناً – يعني ذلك العبد – مكانه** » ، فقيل له : ذلك من باب الإلهام الذي هو العلم اللدني ، عِلْم الخضر الذي استشكله سيدنا موسى عليه السلام ، وهو علم حقيقي كما قال تعالى في حق الخضر : ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ۝٦٥﴾، وهذا العلم باق في مَنْ مَنَّ الله به عليه إلى يوم القيامة . وأما علم الوحي الذي ينزل على الأنبياء والرسل فانقطع بموتهم ، وتقدَّم قول سيدنا : « **إن الشيطان قد يحضر مع مَلَك الإلهام ، ولا يحضر مع مَلَك الوحي** » .

وإذا فهمتَ ما فصَّلنا في هذا الكلام مما يتعلق بالحقيقة كما قلنا : إن أصل كل الأشياء ترجع إلى المشيئة الإلهية ، وما يتعلق بالشريعة من طلب الأسباب لإقامة الحُجَّة على من امتثل وعلى من لم يمتثل، عَلِمتَ أن معنى الآية : أنَّا نُبيِّض وجوهاً ونسَوِّد وجوهاً ، بسبب أعمالها إذا أوْقَفْنَا ذلك عليها ، وإلا فنفعل ما أردنا من أي الأمرَيْن لمن أردنا من أي الفريقَيْن ، وكذلك نجري هذا في أهل الجنة وفي أهل النار ، نجازي من أردنا منهما بما أردنا ، فله تعالى أن يثيب العاصي ويعاقب المطيع، إذ كلهم خلقه وملكه وعبيده يتصرَّف فيهم بما شاء ، فَيَمُنُّ على من يشاء بفضله، ويعذِّب من يشاء بِحُكْمِ تصرُّفه وعَدْله . ولكنه سبحانه وعد أنه لا يعاقب إلا عاصياً ، وربما عفا عنه ، وأنه يثيب المطيع ، حتى ذَكَروا في قوله تعالى : ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧﴾، ويجازي عليه ولا بد ، ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ۝٨﴾، إما جُوزِيَ به أو عُفِيَ عنه ، فلا بد من الجزاء في الخير ، وفي الشر إما الجزاء وإما العفو . فهذا وعدٌ منه سبحانه لا يخلف ولا يختلف وبُني الرجاء عليه وأُسِّس ، لا يتخلَّف عن هذا قط، فإنْ أوقف المجازاة على عمل يقتضيها فعلى مثل ما عمل ، ومثل ذلك في أسباب الدنيا إن أُوقِفت على عمل إنما تكون به وفي وقته ، وإن لم توقف عليه حصلت بلا عمل منه ، كالميراث وغيره فلا عمل فيه .

ومن المتعارف بين الناس أن كلًّا لا يعرف إلا لغته ، ولا يفهم إلا كلامه ، وأن الله سبحانه خاطب خَلْقَه بكلامه القديم على أَلْسِنَة أنبيائه ورسله ، كل قوم بما يفهمون ، فقال تعالى : ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ﴾، ويسَّر القرآن الشريف بلسان محمد ﷺ ، فقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾، ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ﴾، ومن العجيب أن في سورة القمر كلما ذكر إهلاك أمة من الأمم قال : ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾، يشير إلى أن كل أمة من المذكورين لهم لسان ولغة يتعارفون بها ، فَبَيَّنَّا لكم أحوالهم المتعارفة بينهم في لغاتهم مع اختلافها ، وما حلَّ بهم في كتابكم بلغتكم ، لتفهموا ما جرى منهم وما جرى عليهم ، فهل منكم أحد معتبر بهم ؟ ، و ﴿مُّدَّكِرٖ﴾: أي متأثِّرٌ قلبُهُ وخاشعٌ وخائفٌ مما حلَّ بهم أن يقع عليه بعصيانه جزاءها، كما حلَّ بهم جزاء ما عملوا .

فانظر كيف يَسَّر كلامه القديم الذي لا يشبه كلام الخلق ، ولا يدركه المخلوق، ولا يشبه كلامهم ، على وجه يفهمونه ويدركون معناه ، وأما ما تشابه منه فيؤمن به كما جاء على الوجه الذي يليق بجلال الله ، مع تنزيه سبحانه عن كل معنى منه تدركه عقولهم ، فإن ذلك لا يجوز في حقه تعالى ، ومعناه الذي يجوز في حقه سبحانه لا يعلمه إلا هو ، وقال رسول الله ﷺ : « أُمرتُ أن أخاطب الناس بما تدركه عقولهم » ، وقال عليه الصلاة والسلام : « كلِّموا الناس بما يفهمون، أتريدون أن يُكَذَّبَ اللهُ ورسولُه» أو كما قال ﷺ ، انظر قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ﴾ ، كيف تَنَزَّل سبحانه في الخطاب لِخَلْقِهِ على قدر معقولهم ، والمتعارف بينهم أن بعض الأشياء أهون من بعض،

قال: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾، ليفهمهم بحسب ما يفهمون ، وإنما الأشياء كلها في قدرته تعالى سواء ، ولكن بحسب فهمهم أن إيجاد ما له مثال أهون من إيجاد ما لم يكن له مثال .

ولهذا أوقف الشرع كثيراً من الأحكام على العُرْف المتعارف بين الناس ، حتى أنه تعالى نص في قوله : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾، فدَلَّ ونصَّ على كون صيد البحر لحماً ، ولكن المتعارف بين الناس أنه لا يعد لحماً ، فأوقف الشرع الحكم على العرف أنه لو حلف بالطلاق أو حلف يميناً أن لا يأكل لحماً فأكله فإنه لا يحنث ولا تطلق امرأته ، لمخالفته المتعارف بين الناس بأنه لا يعد لحماً . وكذلك قوله تعالى لزكريا : ﴿ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ ﴾، لمَّا استبعد حصول الولد لما وهن من العظم، وبلغ من الكبر عتياً ، واشتعل منه الرأس شيباً ، ومع ذلك كانت امرأته عاقراً ، وكل هذه في العادة موانع من الحَبَل بالنسبة إلى النظر إلى الأسباب العادية ، فخاطبه ربه بالنظر إلى المشيئة الربانية والقدرة الإلهية التي لا تتوقف على الأسباب ، بأنه عليه هيِّن ، فلا تيأس من ذلك بعدما طمعت فيه، فإنه لمَّا غلب عليه التعلُّق بالقدرة والإرادة الإلهيين ، وغاب عن قلبه النظر إلى مراعاة الأسباب ، فدعا ربه في تلك الحالة بحصول الولد ، وهو عالم بتلك الموانع ، وقد غاب عنه شهود النظر إليها بما غلب على قلبه حال ما دعا من مشاهدة القدرة والغيبة عن الأكوان ، فاستجاب الله دعاءه في تلك الحالة ، وَوَعَدَهُ بحصول الولد، فلما أصحى عن تلك الحالة ، ورجع إلى مراعاة الأسباب ، استبعد حصوله بالنظر إلى هذه الحالة من عدم الأسباب وحصول الموانع ، فأجابه ربه بمقتضى تلك الحالة، بالنظر لمجرد القدرة والإرادة ، دون النظر إلى الأسباب .

وحالته الأولى : تعلُّقٌ بالحقيقة ، بأن لا يرى فاعل ولا نافع ولا ضار إلا الله ، وغاب عن شهوده النظر إلى الخلق . وحالته الثانية : تعلُّقٌ بالشريعة ومراعاة أسبابها ، مع دفع موانعها .

فافهم من جميع ما تقرَّر أن أمور الدنيا ومصالحها متوقِّف على أمرَيْن :

على اتباع الشريعة : وهي أفعال الخلق ، بمراعاة الأسباب مع اجتناب الموانع . وعلى اتباع الحقيقة: وهي التعلق في الباطن بالله ، واعتقاد أنه الفاعل على مقتضى إرادته ، وأنَّ فِعْله لا يتوقف على حصول سبب ودفع مانع ، وإنه هو النافع وهو الضار ، لا معقب لقضائه ، ولا رادَّ لحكمه .

فافهم جميع ذلك ، وقد تكرَّر عليك مراراً لتفهمه ويتقرَّر في ذهنك ، وأن القدرة والإرادة لا تتعلق في إيجاد ممكن على حصول سبب ولا دفع مانع ، وإنما ذلك في المتعارف بيننا ، فقد خلق سبحانه آدم بلا أب ولا أم ، وخلق عيسى بلا أب .

قال رضي الله عنه : « أَشَرْنَا على فلان - رجل سَمَّاه - بشيء فلم يفعل ، وذلك لغباوة فيه لا مخالفة ، والغباوة يفوت بسببها من الإشارات أكثر مما يفوت بالتعمُّد ، لأن المتعمِّد مخالف ، وهو كمن يصب الماء - أي يهريقه - وأما الغبي الذي لم يفهم فله حال آخر ، وهو معذور . وكلام أهل الحق كله إنما هو بالإشارة ، ولو أشاروا على أحد بشيء ، فخالف ثم قال : با ارجع أعمل بالإشارة ما قال لي فلان وفعل، فما عاد ينفعه » .

ومرة تكلم في الإشارة ، ثم قال : « والإشارات الباطنة غير هذه ، لأن تلك أسرار لا يجوز إذاعتها وإطلاع الناس عليها ، فمن أراد سفراً مثلاً فاستشارك ، وعلمتَ أنه بعد شهر يموت أو يقع عليه شيء، أفتخبره بذلك وتأمره بالجلوس من أجله ؟ لا ، فلم يفعله النبي ﷺ ولا الصحابة ، وهم المكاشفون بالحقيقة ، وأَحْرى بالكشف من غيرهم ، وهي أمر خاص ، لا يشار به إلا على أهل الخصوص » .

وذَكَرَ رجلاً من السادة سافر إلى الهند ، بعدما أشار عليه أن لا يسير إليها ، فقال : « محل الشور الأشياء الإختيارية ، وما عداها فهو مضطر مقهور ، بأن تعلَّق قلبه بأمر وجَزَمَ على فِعْله ، فلا ينبغي أن تشير عليه بتركه ، فإنك إن أَشَرْتَ عليه خالفك ، وإن أجاب فَبِكُرْهٍ وتكلُّف » ، ثم قال : « إن أهل حضرموت عليهم دعوة ولي بلا شك في مسير الهند ، وإلا فأحدهم ما يصدق على الله يشوف تريم ، ثم ما تحس به إلا رجع إلى الهند » ، ثم قال : « الخلق مكلوفون .. » إلى آخر المقالة ، وهو قوله : « والشقي من اختلفت به الأمور » ، ثم قال لي : « فاحفظ هذه الحكمة إن كنت حافظاً » ، وهي مذكورة في غير هذا الموضع ، مع ما أدَّت إليه من المعنى .

أقول :قوله : « دعوة ولي » ، يعني دعوة مستجابة لا محيص لهم عنها ، كما يبيِّنه شاهد أحوالهم .

قوله : « كلام أهل الحق كله إنما هو بالإشارة » ، أي كما ترى في هذا النَّقل من كثير إشاراته ، من أشياء نَبَّهنا عليها وأشياء سكتنا عنها ، وأكثرها ما فهمناه من إشاراته إلا لما رأيناه في بلدنا ، فذكَّرتنا رؤيتُها قولَه ، وإشارتها ظَهَرَت ورأيناها، ولكن ما فهمنا أنها من إشاراته إلا بعد نحو ست وعشرين سنة - كما ذَكَرَ قول حسين بافضل له ، وقوله هو له ، حتى قال لي : « اعلم ذلك واعمل عليه » - وأشياء بعد ثلاثين ، فهذا كله يحقِّق قوله رضي الله عنه ، وكلما بَعُد وقوعه عن قوله، كان أعظم كشفاً ، لقوله : « كلما بعُد ما أخبر به الأولياء من المغيبات ، كان أعظم للكشف » .

والإشارات منهم كالنفحات ، إنما تقع في أوقات ، فإذا وقعت في وقت وفوَّتها عن وقتها فاتت كما قال : « ولو أشاروا » ، إلى قوله : « فما عاد ينفعه » ، إلى أن تقع له مرة أخرى ، وذلك في حياتهم ، وبعدها لا عود لها .

والنفحة إذا لم يتنهض لها في وقتها فاتَتْهُ ، وأقرب مَثَل لها الهبوب للمركب السائر ، فإن تبعها وأجابها ومشى ؛ وصل . وإلا بقي مُلقى ، كما قال تعالى : ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ۝ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝﴾، فإذا فاتَتْهُ، فيبقى إلى أن تهب له مرة أخرى ، لكن تفويت الحاصل بلا غرض لرجاء المتوقع حُمق وجهالة وغباوة ، ويفهم قوله : « **وكلام الإشارة ، لا نسمح به كل حين** » .

قال له رضي الله عنه رجل من السادة : « ادع لنا » ، *فقال* : « **وما مع الإنسان ما يصل به أخاه إلا الدعاء ، والدعاء علامة المحبة ، ولم يجعل الله دعاء المؤمن لأخيه بظهر الغيب مقبولاً إلا لما فيه من الإخلاص المقترن بالمحبة ، ولهذا جاء الترغيب في ذلك ، والأشياء إنما تُعرَف بأصولها لا بالفروع ، فإذا أخذتَ بالفروع فَتَرَقَّ منها إلى الأصول ولا عكس ، فإذا أخذتَ بالأصول لا ترجع إلى الفروع** » .

ثم قال له يوصيه : « **خفِّف على نفسك من العلائق ، ومِن اتخاذ الدَّين ، فليس الشأن من العاقل إذا وقع في الأمور أن يتخلص منها متى شاء ، إنما الشأن منه أن لا يقع فيها أصلاً** » .

ثم قال له : « **أتعلم سورة الملك كم آية ؟** » ، قال : « لا » .

قال : « **إنها ٣٠ ، وتعلم سورة الجرز كم هي ؟** » ، قال : « لا » .

قال : « **هي ٢٩ ، ولله في القرآن من حيث الحروف والآيات والسور أسرار وحكم ، وإلا لاستغنوا عن التنزيل واكتفوا بسورة واحدة** » هـ .

أقُولُ : الذي ظهر لي ، أن مراده بالأصول : أعمال القلوب ، لقوله : « **لما فيه من الإخلاص المقترن بالمحبة** » . والفروع : أعمال الجوارح ، يعني أن أعمال الجوارح تحتاج إلى أعمال القلوب كالنية والإخلاص، وأعمال القلوب وحدها كافية ، لحديث : « نية المؤمن خير من عمله » ، فاجعل عنايتك بها ، وإن اجتمعا تم الأمر ، فحصل الأصل والفرع، كاجتماع الروح والجسد ، والجسد بلا روح ميت، كالعمل بلا نية فإنه فاسد . وأما الروح وحده فإنه باق بعد مفارقته للجسد ، والجسد ميت بعد فراق الروح، كما جعل نية المؤمن وحدها خير من عمله وحده بلا نية ، ولهذا جعل القلب وأعماله هي الأصل ، وجعل الجسد وأفعاله هي الفروع ، والفروع بلا عمل تحتاج إلى الأصول، كما تحتاج الثمار إلى الأشجار ولا عكس ، فلا تحتاج الأشجار إلى الثمار، لكن الغرض من الأشجار الثمار ، فطُلِبت لأجلها . كذلك الأعمال تحتاج إلى الأجساد ، وشرط صحَّتها بأعمال القلوب ، وإلا فما تنفع ، كما لا تنفع الأشجار بلا ثمار .

وقوله : « **فلا عكس** » ، أي لا تهمل النية والإخلاص ، وتجعل اهتمامك بالعمل مجرداً ، وهو معنى قوله : « **فإذا أخذت بالأصول فلا ترجع إلى الفروع** » ، وقوله : « **والأشياء إنما تُعرَف بأصولها** » ، يعني كما أن الدين لا يعرف ولا يتم إلا بأصوله التي هي مباني الإسلام فأحْكِمها أولاً ، ثم اعمل فروعها التي هي نوافلها ، فإن في كلٍّ نوافل من جنسه ، فإذا أخذت بها قبل أن تُحْكِم أصولها فترقَّ إلى إحكام الأصول ، ثم ارجع إلى عملها ليكون عملها كاملاً نافعاً ، وإذا لم تُحْكِم الأصول لا تنفع الفروع ، فكذلك في كل شيء من الأمور لها أصول وفروع فَخُذ بالأصول منها قبل الفروع ، ثم الفروع بعدها، فإن أخَذْتَ بالفروع قبلها ، فترقَّ منها إلى الأصول ، لتحتكم لك الفروع وتنفعك وإلا فلا هـ .

قال رضي الله عنه : « **لم توضع الأسرار إلا في الأوعية الطاهرة النقية ، لا الملآنة من القذر والتخليط ، ولو كان هو أولى بإرثه من غيره ، فقد يرثه غيره ، لوجود هذا الشرط في ذلك الغير ، وخلو ذلك القريب منه ، فقد يكون صاحب السر بحضرموت مثلاً ويرثه إنسان بمكة أو في غيرها من الأماكن البعيدة ، ولا يرثه القريب** » ، ثم حكى : « **إن الشيخ أحمد بن علوي باجحدب علوي نفع الله به لما مات ما عرف في البلاد مَن وَرِثَهُ** – أو قال : **من أقِيمَ في مقامه – فبقي بعض السادة يتقصى عن ذلك فلم يظهر له ، فأمر خادمه أن يقف مسرعاً على باب الجامع يوم الجمعة بعد الصلاة ، وينادي : من حفظ منكم الضالة ؟ وبقي كذلك ينادي ساعة ، وفهم له بعض السادة ، وكان هو ، فقال : إنها محفوظة . فعرفوه حينئذ** » هـ .

أقول : كانت وفاة السيد أحمد المذكور ١٧ رمضان سنة ٩٧٣ .

وقوله : « **الأوعية** » ، أي الآنية ، المواعين يريد بها القلوب ، و « **الطاهرة** » : النظيفة من النجاسة ، و « **النقية** » : السالمة من الوسخ كحب الدنيا وهو القذر ، و « **التخليط** » : تعاطي الذنوب .

قوله : « **فقد يكون .. إلخ** » ، العمدة في حصول كل خير ودفع كل شر مشيئة الله ، حتى خصَّصَت ذلك العبد – على ما ذَكَرَ من وَصْفِه ، وعلى بُعدِه – بمقام بَدَلٍ من الأبدال توفي بأرض الحبشة بلا قُربٍ ولا قرابة ولا عمل صالح ، وإنما تَمَّ له ذلك الشرط بملاقاة الشيخ ، وضربه بحزمة القصب ، وتعليمه الوضوء والصلاة، ثم بعد ذلك حصل له ذلك المقام ، وكل ذلك بعناية رب العالمين .

وتوفي في وقتنا في تريم رجل من أهل السِّر ، وذلك يوم ١٩ من شهر صفر سنة ١١٢٢ – وهو السيد أحمد الهندوان – فقلت لسيدنا : إنا لم نعلم له من وارث ، فهل يكون من الملازمين له أو المنسوبين إليه ؟ *فقال* : « **قد يكون الموروث هنا ، والوارث في الصين . وأما المنسوبون إليه فلا وَرِثَهُ منهم أحد ،**

لأنهم لم يتربّوا ولم يتأهّلوا ، وقد كانوا إنما يجيء أحدهم إلا عند فراغه » .

فقلت : بأي شيء يتأهّل لذلك ؟ ، *فقال* : « بالإقتداء بهم واحترامهم ، وتأويل ما يشكل عليه مما يصدر منهم ، مما ينظره أنه يُنكَر شرعاً ، ولا يقتدي بهم فيه ، ومحبتهم وامتثال أوامرهم ومراعاتهم ونحو هذا » ، وهذا خاصٌ في شأن المذكور ، وهو كذلك عامٌ في شأن كل صاحب سر .

قال رضي الله عنه لرجل : « أخلص العمل لتأخذ أجرك من ربك ، وإن لم تخلص قيل لك : خذ أجرك ممن عملتَ له . ومن كان مُعتَقَداً يعسر عليه الإخلاص ، وخصوصاً في ما يؤكد الإعتقاد فيه ، كَشَلِّ الأذكار ، والرئاسة لها سُكْرٌ كَسُكْرِ الخمر ، ولكن عندنا قلة اعتقاد الصالحين والتعلق بهم نفعت العاملين ، وإن تقمّح غيرهم ، وويلٌ لمن راح وخسر من عمل الآخرة ، ﴿وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًاۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾» هـ .

أقول : قوله : « وويلٌ .. » ، إلى آخر المقالة ، يشير به إلى أقوام يبيعون عباداتهم بطمع دنيوي ، فهم قد خسروا من عمل الآخرة كما قال : « وويل لمن راح وخسر من عمل الآخرة ، ﴿وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًاۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾» ، وهم الذين عناهم بقوله هذا ، ومع ذلك يدعون أن ثواب عملهم هذا الذي نووا به الطمع وأخذوه عليها باقٍ مُدَّخر لهم ، هيهات بئس ما يتوهَّمُون ، فإن عمل الآخرة وما يتقرب به إلى الله ، ويقصد به وجهه الكريم منزَّه مُصان عن نيَّات مطالب الدنيا وأطماعها بالدلائل القطعية من كلام الله تعالى وكلام رسول الله ﷺ وكلام الصالحين ، كما قدَّمنا عند قوله : « من تحرِّكه الرغبات الدنيوية ، لم يكن للرغبات الأخروية أهلاً » ، فانظره هناك ترى العجب .

قال : « قال الشيخ أبوبكر العدني : رئاسة تريم منوطة بأوباشها ، فأُفٌّ لرئاسة تُناط بهم ، أُفٌّ لرئاسة تُناط بهم ، أُفٌّ لرئاسة تُناط بهم » .

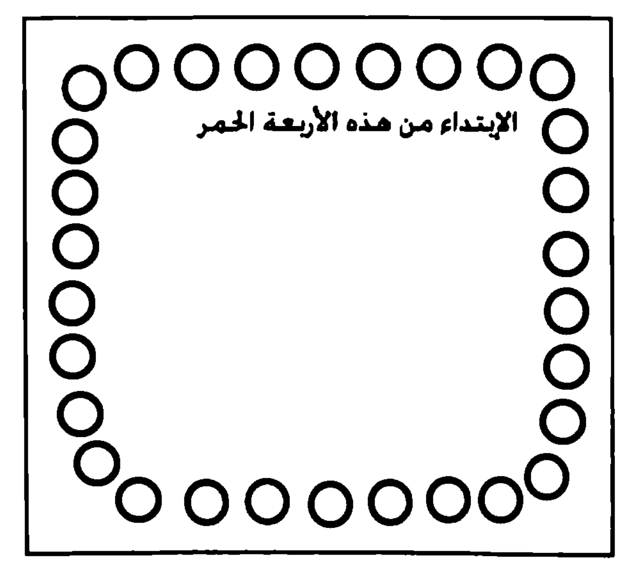
قال رضي الله عنه : « يُراعى حال الأكثر في كل أمر ، فلو كان عشرة يريدون أمراً يضطرون إلى فِعله سوى واحد منهم يتضرر بفِعله ، فيُراعَون دونه . وقد كان جماعة عابرين في سفينة ، وفيها مسلمون وكفار عددهم سواء ، فحصلت عليهم شدة احتاجوا أن يرموا ببعض العابرين لسلامة الباقين ، فبقي كل من الصِّنفَين يريد أن يرمي بالآخرين ويَسْلَمُون هُم ، فَفَعل رجلٌ كان فيهم مسلمٌ عاقلٌ هذا البيت، وقال :

اللهُ يَقْضِيْ بِكُلِّ خَيرٍ وَيَرْزُقُ الضَّيْفَ حَيثُ شَاء

أقول : مراده في هذه المقالة معنيان : الأول منه : إذا كان لا بُدَّ من إضرار الأقل أو الأكثر ، فالأولى

الأقل ، لأن المطلوب البُعد عن الضرر والشر قليله وكثيره ، فإذا كان لا بُدَّ منه فالقليل منه أَسْلَم من الكثير ، لأنه أقل شرًّا ، كما ذُكِرَ أن السيد محمد بن عبدالخضر الرفاعي فَدَى الناس من الطاعون بنفسه ، حتى أنه لما توفي انقطع الطاعون ، وقصته في إخباره به ، وحث الناس على العبادة ، وكيف شأن الناس فيه قد تقدَّمت ، وكذلك قصة عبيد بن الأبرص لما فَدَى الناس بنفسه من الجني وسنذكرها . والمعنى الثاني من معاني المقالة : أنه إذا اجتمع أناس أخيار مع أناس فجار ، واحتيج إلى إهلاك أحد الصِّنْفَيْن لسلامة الآخر ، فالأولى إهلاك الفجار لسلامة الأخيار ، ولو كان الفجار أكثر عدداً ، كما إذا كانوا في سفينة ، وحصل عليهم طوفان ، احتاجوا بسببه إلى التخفيف بحذف أحد الصنفين لسلامة الآخرين .

وأشار إلى قصةٍ وَقَعَت بقوله : « **وقد كان جماعة عابرينٍ في سفينة** » ، ومراده ما رأيت في بعض الكتب ، قال : إن مركباً كان على ظهر البحر الأعظم في اللُّجَّة وفيه مسلمون وكفار ، فأشرفوا على الغرق ، وأرادوا أن يرموا بعضهم إلى البحر ليخف المركب ، فينجوا بعضهم ويَسْلَم المركب ، فقالوا: « نقترع ، ومن وَقَعَت القرعة عليه ألقيناه » ، فنظر الرئيس إليهم وهم جالسون على هذه الصورة ، فقال: « ليس هذا حُكْماً مُرضِياً ، وإنما الحُكْم أنَّا نعد الجماعة ، فكل من كان تاسعاً ألقيناه - يعني وعبَّأَهُم ورتَّبَهم على هذه الكيفية - فارتضوا بذلك » ، فلم يزل يعدهم ويلقي التاسع فالتاسع ، إلى أن ألقى الكفار أجمعين ، وسلم المسلمون . وهذه صورة ذلك ، والمسلمون الحمر ، وابتداء العدد منهم أولاً ، ويبتدي بالعدد من أول الأربعة الحمر إلى جهة الشمال ، فينتهي التاسع إلى آخر السود الخمسة ، ثم يبتديء بالأحمرين ، بالعدد هكذا، إلى أن تلقى السود بأجمعها ، يعني وبعد الأحمرين الواحد الأسود ، ثم الثلاثة الحمر ، ثم الواحد الأسود ، ثم الواحد الأحمر ، ثم الإثنين الأسودين ، ثم الإثنين الأحمرين ، ثم الثلاثة السود ، ثم الواحد الأحمر ، ثم الإثنين الأسودين ، ثم الإثنين الأحمرين ، ثم الواحد الأسود. هكذا رتَّبهم في تعبئته ، وعدد كل واحد من الفريقين خمسة عشر ، هكذا صورة ترتيبهم .



والرئيس المذكور ، هو الذي أشار إليه بقوله : « **ففعل رجل كان فيهم مسلم عاقل هذا البيت** » .

قال صاحب ذلك الكتاب : ولقد ذَكَرْتُها لنور الدين علي بن إسماعيل الصفدي ، وهو كان من الذكاء في الغاية ، فأعجبته وأخذ يكرر عليها فيقول : « أربعة مسلمون ثم خمسة كفار ، ثم مسلمان ثم كافر ثم ثلاثة مسلمين ، ثم كافر ثم مسلم ثم كافران ، ثم مسلمان ثم ثلاثة كفار ، ثم مسلم ثم كافران ثم مسلمان ، ثم كافر .. وهكذا » ، ثم يعود يريد بذلك حفظ ترتيبها ، فقلت له : « هذا مُتعِب ، وقد يشذ عنك وقت الحاجة » ، فقال : « كيف أصنع بحفظ هذا الترتيب ؟ » ، فلما رأيت تشوقه لذلك، قلت له : « الضابط في هذه بيت واحد ، تجعل حروفه المعجمة للكفار ، والمهملة للمسلمين » ، وهو هذا :

وَلَـمَّا فُتِنْـتُ بِلَحْـظٍ لَـهُ　　　عَذَلْتُ فَمَا خِفْتُ مِنْ شَامِتِ

فلما امتَحَن ذلك وصَحَّ ، قال : « كشفتَ عني غمَّة » .

وبعضهم يحفظ له بيتاً آخر ، وهو هذا :

اللهُ يَقْـضِيْ بِـكُلِّ يُـسْرٍ　　　وَيَحْفَظُ الضَّيْفَ حَيْثُ شَاء

وهذا البيت هو الذي ذَكَرهُ سيدنا ، وإن اختلف بينهما بعض اللفظ . انتهى ما أردنا نَقْلَه من ذلك الكتاب ، تأييداً لقول سيدنا وتبييناً له ، وإلا ففيه كلام أكثر من هذا تركته .

وسنذكر قصة عُبيد بن الأبرص التي وَعَدْنَا بِذِكْرِها ، وفيها ثلاثة معان ، وهي كونه واحداً أراد يفدي أناساً كثيراً بنفسه ، وهو معنى قوله : « **يُراعى حال الأكثر في كل أمر** » ، وفيها أنه ينبغي أن يبذل المعروف لكل أحد ، سواء قام بحقه المبذول له أو لم يقم ، فإن ضاع عند الخلق ما ضاع عند الله ، وفيها أن معرفة حق صاحب المعروف ومكافأته متعيِّن عند أهل المروءات وذوي الفضل وعند الكرام ، ولو ضاع عند اللئام والأنذال ، والقصة هذه : روى يحيى بن أكثم قال : « دخلت على هارون الرشيد ، وهو مُطرِق متفكِّر ، فقال لي : أتعرف قائل هذا البيت ؟ » .

الخَيْرُ أَبْقَـى وَإِنْ طَـالَ الزَّمَـانُ بِـهِ　　　وَالـشَّرُّ أَخْبَـثُ مَـا أَوْعَيْـتَ مِـنْ زَادِ

فقلت : « إن لهذا البيت لشأناً مع عُبيد بن الأبرص » ، فقال : « عَلَيَّ بعُبيد بن الأبرص » ، فأُحضِر، فقال له هارون الرشيد : « أخبرني عن قصة هذا البيت » ، فقال : « كنت في بعض السنين حاجًّا ، فلما توسَّطتُ البادية في يوم شديد الحر ، إذ سمعت ضجة في القافلة ألحقت أولها بآخرها ، فسألت عن القصة ، فقال رجل من القوم : تقدَّم ترَ . فتقدَّمتُ إلى أول القافلة ، فإذا أنا بأسْوَد فاغراً فاه كالجذع،

يخور خوار الثور ، ويرغو رغاء الإبل ، فهالني أمره وبقيت لا أهتدي إلى ما أعمل في أمره ، فعدلنا عن طريقه إلى ناحية ، فعارضنا ثانياً . فعلمتُ أن له شأناً ، ولم يجسر أحد يقاربه ، وإذا رُمِيَ بسهم نبَا عنه ولم يعمل فيه شيء . فقلت في نفسي : أفدي بنفسي هذا العالَمَ .

فأخذتُ قربة ماء فتقلَّدتها ، وسَلَلْتُ سيفي وتقدَّمت ، فلما قربت منه سكن ، وأنا متوقِّع منه وَثْبَة يُردِيني فيها ، إذ فَغَر فاه ، فجعلتُ فَمَ القِربة في فِيه ، وصَبَبْتُ الماء كما يُصَبُّ في الإناء ، فلما فَرَغَت القربة تَسَبْسَبَ في الرمل ومضى ، فعجبت من تعرضه لنا وانصرافه عنا من غير سوء لحقنا منه . فحَجَجْنَا وَعُدْنا في طريقنا تلك ، وخططنا محطتنا تلك في ليلة ظلماء مدلهمة مخيفة ، فأخذت سطيحة من الماء، فعدلت إلى ناحية من الطريق فقضيت حاجتي وفرغت من صلاتي ، والقافلة على حالها ، فجلست مكاني أسبح الله تعالى ، فأخَذَتْني عيني فنمتُ مكاني ، فلمَّا أخذتُ في النوم بقسطي واستيقظت ، وإذا قد ارتَحَلَت القافلة ، وبقيتُ منفرداً ، فلمَّا لم أرَ أحداً ولم أهتدِ إلى ما أعمل ، إذ أنا بهاتفٍ يقول هذه الأرجوزة :

يَـا أَيُّهَـا الشَّـخْصُ المضِـلُّ مَرْكَبُـهْ   مَـا عِنْـدَهُ مِـنْ ذِي رَشَـادٍ يَصْحَبُـهْ

دُونَـكَ هَـذَا البكْـرُ مِنِّـي فَارْكَبُـهْ   وَبكْـرُكَ الميمُـونُ أَيضـاً جَنِّبُـهْ

حَتَّـى إِذَا اللَّيْـلُ تَجَلَّـى غَيْهَبُـهْ   وَانْقَضَـتِ الجَـوْزَا وَلَاحَ كَوْكَبُـهْ

فَحُـطَّ عَنْـهُ رَحْلَـهُ وَسَـيِّبْهْ   فَعِنـدَ ذَاكَ تَحْمَّـدَنَّ مَرْكِبُـهْ

فنظرت ، فإذا أنا بِبَكْرٍ قائم ، وبَكْرِي إلى جانبه ، فأَنَخْته ورَكِبته ، فلما سِرتُ قدر عشرة أميال ، لاحَت إليَّ القافلة ، وانفجر الصبح ولاح ، وتبيَّن كوكب الجوزاء فوقف البَكْر ، وعلمت أنه حان نزولي عنه ، فتحوَّلتُ إلى بَكْرِي ، وأنشأت أقول شعراً :

يَـا أَيُّها البكْرُ قَدْ أَنْجيتَ مِنْ كُرَبِ   وَمِـنْ فَيَـافٍ تُضِـلُّ المدْلِجَ الهـادِي

أَلَا تُخَبِّرنَـا بِـالله خَالِقِنَـا   مَنْ ذَا الذِي جَادَ بالمعْرُوفِ بِالوَادِي

ارْجَـعْ حَمِيـداً فَقَـدْ بَلَّغْـتَ مَأْمَنَنَـا   بُورِكْـتَ مِـنْ سَائِمٍ بَلْ رَائِحٍ غَادِي

فالتفتَ إليَّ البَكْر وأنشأ يقول :

أَنَـا الشُّـجَاعُ الـذِي أَلْفَيْتَـهُ رَمِضـاً   نِصْفَ النَّهَارِ عَلى الرَّمْضَاءِ في الوَادِي

فَجُـدْتَ بالمـاءِ لمـا ضَـنَّ حَامِلُـهُ   أَرْوَيْـتَ مِنْـهُ وَلم تَهـمـمْ بِإِنْـكَادِ

الخَيْرُ أَبْقَى وَإِنْ طَالَ الزَّمَانُ بِهِ وَالشَّرُّ أَخْبَثُ مَا أَوْعَيْتَ مِنْ زَادِ
هَذَا جَزَاؤُكَ مِنِّي لا أَمُنُّ بِهِ فَسِرْ حَمِيداً رَعَاكَ الخَالِقُ الهَادِي

فقد صحَّ أن المعروف عند الخالق والمخلوق ، إذا كان عن رشد وأصل صحيح لا يضيع » ، انتهى من بعض كتب الأدب ، يقال له : « كتاب أدب النفس» ، من الباب الحادي عشر منه ، في اصطناع المعروف . وتقدَّم أن الجن لهم على وَجْهِ الارض مُدُن وبُلدان ، ولكنهم مخفيُّون عنَّا ، ويتصوَّرون بصُوَر حيوانات شتى ، وقدَّمنا قصة تزوج أبي بلقيس ، وهو من سبأ ويرجع إلى عاد إرم ذات العماد ، وأمها جِنيَّة من قومٍ من الجن ، يقال لهم : عدم ، وبلدهم تسمى : مأرب ، باسم مأرب مدينة سبأ ، وهي خارجها في صحرائها ، انتهى .

وكثيراً ما أسمع سيدنا يذكر شطر هذا البيت : « **فأين الله والقدرُ** » ، مراراً متكررة في أوقات متعددة في أزمنة متطاولة ولم أعرفه ، ولا ما قبله ولا ما بعده ، ولا سألته عنه ، حتى رأيته في بلد الحساء في جملة أبيات ، و هي هذه :

يَا مَنْ أَلَحَّ عَلَيهِ الهَمُّ وَالفِكَرُ وَغَيَّرَتْ حَالَهُ الأَيَّامُ وَالغِيَرُ
أَمَا سَمِعْتَ لما قَدْ قِيلَ في مَثَلٍ عِنْدَ الإِيَاسِ فَأَيْنَ اللهُ وَالقَدَرُ
خَلِّ الخُطُوبَ إِذَا أَحْدَاثُهَا طَرَقَتْ وَاصْبِرْ فَقَدْ فَازَ أَقْوَامٌ بِمَا صَبَرُوا
فَكُلُّ ضِيقٍ سَتَأْتِي بَعْدَهُ سَعَةٌ وَكُلُّ فَوْتٍ سَيَأْتِي بَعْدَهُ الظَّفَرُ

وقَدِم رجل ، فقال حين قدم : « أريد أن أقرأ » ، فقال له : « لا تَعْجَل ، ما هكذا يكون الطلب . فقد كانوا يأتي الطالب ويمكث سنة لا يُعرَّف به ، لأن أمور الدين عزيزة عند أهلها ، منقبضين عليها ، وأما أمور الدنيا فإن كان عندهم منها شيء فهو مبذول . وهذا هو الفرق بين أهل الدين وأهل الدنيا ، إن الدنيا مبذولة عندهم ، أقل الحال المأكول والمشروب ، ولو كل من أراد القراءة خليناه يقرأ ، لامتلأ منهم المسجد ، ولكنهم قرأوا وما حصَّلوا ، وقد كانوا يكفي أحدهم النظرة ، لكون قلوبهم ملآنة من العقيدة والتعظيم وحُسن الظن ، والمدد في المشهد ، ونحن بواطننا سليمة على أهل الزمان ، وما بيننا وبينهم شيء . وأتى رجل ذا النون المصري ، يطلب الاسم الأعظم ، فمكث عنده سنة – أظنه قال : لا يكلِّمه– ، وقال أبو عبدالله القرشي : كنت آتي شيخي ، وأجلس تحت سور البلد سَنَةً لا يعرفني أحد » ، أو كما قال عشية الأربعاء ١٤ جماد الأول ١١٢٥ .

وقال لذلك الرجل يوصيه : « **كن رجلاً مليحاً لربك ، يَكُن كل شيء لك مليحاً ، فمن كان مليحاً لربِّه كان له كل شيء مليحاً ، ومن كان بخلاف ذلك كان كل شيء له كذلك ، لأن الأشياء تابعة لخالقها** » ، ويشهد لقوله في قصة الشيخين ذي النون وأبي عبدالله ، ما تقدَّم في قصة الشيخ أبي بكر بن سالم مع السيد يوسف الفاسي ، وقصة الشيخ مبارك بن سلمة مع الشيخ بوفلاح ، وقدَّمنا أن الشيخ الزين المزجاجي أتاه رجل من الروم طالباً منه الطريقة النقشبندية ، فأقامه مؤذِّناً في مسجده ، ووعده بها بعد السنة ، وأن لا يعطيه إياها إلا بعد تمام السَّنة ، وهكذا عادة المشايخ مع الطالبين الصادقين .

واستأذنه بعض السادة في مطالعة « الإحياء » ، فقال له : « **إذا أحْكَمْتَ التواضع ما ننهاك عن مطالعة الإحياء ، ومن لا يعرف حقيقة التواضع تكبَّر بمطالعة الإحياء، فإن أردتَ أن تتواضع فطالع فيه . وفيكم يا أهل الزمان فشار من غير حقيقة شيء، وإذا رأيت كتاب الغرور خلاك قائم بلا شيء، وصَفْوة الإحياء ربع المنجيات ، لأن الإمام مخضه حتى انتهى إليها جعلها خلاصته . ونحن مع حضورنا في أوقات فاضلة ، واجتماعنا بناس أهل فضل ، لم يخطر ببالنا أن نقرأ على الشيخ فلان المعروف بالخصوص** » .

ثم تكلم كثيراً في أحواله في تلك الأوقات ، وذَكَرَ جماعة ممن كان فيها ، وذَكَرَ أقواماً كان أَلِفَهم وأَلِفوه أيام الصغر ، وعادته إذا ذَكَرَ تلك الأوقات وأهلها يسهب الكلام ، فلما طال به الكلام في ذلك وقال : « **الحديث شجون يجُرُّ بعضه إلى بعض ، ومن طال سِنُّه كثرت شجونه ، إلا أنه يصدق في بعض دون بعض** » ، حتى انتهى إلى ذِكْر هذا الوقت الحاضر ، فذمهم أبلغ من ذم الكلب العقور ، وذمَّ أحوالهم وأعمالهم ، فقال : « **إذا جاك أحدهم فقال : أريد أن أقرأ في الكتاب الفلاني . فقلت له : خلِّ هذا، واقرأ في كتاب آخر . حنق ، فما نعد هؤلاء ، ولكنَّا ما بالينا بهم وما استأنسوا معنا ، ولا نبالي بمن حنق ومن لا يحنق ، ولكنَّا نأخذ البعض منهم بالبعض** » ، ثم أعطاه كتاب « المنجيات » ، فقال له : « **طالعه ، واجتهد في العمل به والإتِّصاف بما فيه ، واحذر أن تفوش وتتكبَّر ، فإن إبليس أول من فاش وتكبَّر** » .

قوله : « **وإذا رأيت كتاب الغرور خلاك قائم بلا شيء** » ، أي تزهد في عملك فلا ترى أن عندك شيئاً ، ولا أنك أهل لشيء ، لما ترى فيه من التدقيق في آفات الأعمال .

قوله : « **تفوش** » ، أي تنتفخ كبراً .

ثم تكلم في أهل المناصب ، *فقال* : « **من هو في هذا الحال ينبغي مداراته للإبقاء عليه ، ومثلها كمثل النار ، كلما زاد لهيبها زاد إحراقها ، فالعاقل هو الذي يأخذ خيرها ويترك شرها ، فإن لم يتميَّز له الأمران تَرَكَهما جميعاً** » هـ .

أقول : فخير المناصب بأنه إذا كان مسموع الكلمة أن ينصر المظلوم ويفرِّج عن المكروب ، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويشير بالصواب ، وبالجملة يسعى في كل ما يحبه الله ، ويتجنَّب المكاره، ويأمر بالخير وينهى عن الشر مما يتعلق بأمور الدين والدنيا ، كما تقدَّم من قوله : « **إذا كنت مسموع الكلمة عند الناس في أمور دنياهم ، فكن مسموعاً عندهم أيضاً في أمور دينهم** » .

قوله : « **تَرَكَهما جميعاً** » ، أي تَرَكَ المنصب ، وسَلِمَ من تلك المطالبات المتعلِّقة به هـ .

قال رضي الله عنه : « **إذا قيل فلان أَخَذَ عن فلان ، ليس معناه أنه أَخَذَ عنه في كتاب ، أو أنه قرأ عليه في كتاب ونحو ذلك ، إنما معناه أنه اقتدى به في سيرته بأخلاقه وأفعاله وأقواله ، فإذا فعل ذلك فذاك شيخه الذي أَخَذَ عنه ، وهو له مريد** » .

وقال : « **ينبغي أن يأخذ الإنسان من الأعمال على قدر ضعفه وضعف زمانه ، ولا يدَّعي القوة في غير موضعها ، لأن أمور الدين كالمِسْك ، كلما ازددت له شمًّا نَقَصَتْ رائحته عندك** » .

وقال : « **من له تعلق ومَيْل إلى أحد من الصالحين ، حصل له المدد من جميع الصالحين ، لأنهم لا مشاحنة بينهم ، ولا مشاحة في شيء أبداً ، بل لو قال هذا المتعلق بأحدٍ منهم لآخر منهم : أريد أن أترك فلاناً وألازمكم . لم يطعه ولم يوافقه على ما قال ، بل يقوله له : كن متعلِّقاً بشيخك الأول ، والمدد لك مِنَّا يحصل** » هـ .

أقول : وقد سمعت رجلاً من المتعلِّقين بالسيد أحمد بن زين الحبشي يقول لسيدنا : « **خاطركم ادعوا لي** » ، فقال له : « **قل لحبيبك يدعو لك ، أنتم تريدون تشتتون عقيدتكم – أو قال : تفرّقون عقيدتكم – خلّه هو يدعو لك ، ودعانا نحن من وراء ذلك** » ، أو كما قال .

قال : « **من رأيت له أدنى تعلق بطاعة وإن قَلَّت ، أو مَيْلاً إليها ، أو بأحد من الصالحين ، أو ميل ما إليه ، فارج فيه الخير** » .

ثم ذَكَرَ قصة الرجل الذي كان من أعوان الدولة ، وكان يحفظ قصيدة الشيخ أبي بكر العيدروس

كما تقدَّمت ، وكثيراً ما يَذْكر قصته في المجالس ، وقصة العبد حامل الطبل المتقدِّمة ، يشير بكل منهما إلى معنى ، وكل معانيهما تشير إلى تفرد الإرادة الإلهية بالأشياء ، دون نظر إلى وجود سبب ولا دَفْع مانع .

فالعبد يشير به إلى أن الله تعالى أراد له بلوغ رتبة الأبدال ، مع وجود الموانع من الكبائر الملابس لها، وعدم سبب من طاعة ، ولم يحصل للتلميذ المُلابِس للأسباب وعدم الموانع ، وذلك المكّاس المتلبِّس بالموانع الصادَّة عن الخير الجاذبة للشر ، فجذب إلى الخير ، وكل ذلك في القصتين راجع إلى مجرد القدرة والإرادة الإلهيين ، دون نظر إلى وجود سبب ولا دَفْع مانع ، لكن للمكّاس سبب وهو حب الصالحين واعتقادهم .

وما أكثر نفع ذلك في الدنيا والآخرة ، كما تبيَّن لك هنا في غير موضع ، وما أشد ضرر سوء الظن بهم كما قد بَيَّن أيضاً ، وقال : « **ما جرَّ إلى خير فعاقبته إلى خير ، وإن كان في ظاهره شرًّا . وما جرَّ إلى شرٍّ، فعاقبته إلى شر ، وإن كان في ظاهره خيراً والعاقبة للخواتيم** » .

قال رضي الله عنه : « **سبحان الله ، الرجل من أهل هذا الزمان فيه الأخلاق السوء والأعمال السيئة، ثم هو مع هذا يظن ذلك في غيره ، ولا يظنه في نفسه . فينبغي أنه إذا كان فيه هذا النقص أن لا يظنه بغيره، فيكون نقصاً آخر . ولكن كأن النقائص يتبع بعضها بعضاً** » ، ثم مَثَّل لذلك بالرجل يترك الزكاة، ثم إذا دخل المسجد ورأى الجابية غير حارة ، فيقول : « يأكلون الوَقْف ولا يقومون بالمسجد»، وأنه ما قال ذلك إلا لمجرد هواه ، لا إنكاراً للمنكر .

وذُكِرَ له أن ناساً وزَّعوا أموالهم وفرَّقوها ، فتَعْسُر الزكاة على هذا ، *فقال* : « **لعل لا نية لهم في إخراج الزكاة ، فإذا أردتَ تعرف ذلك ، فانظر إلى صلواتهم وكيف يؤدونها ، فبذلك تعرف قلة رغبتهم في الدين** » .

قال رضي الله عنه : « **نصلي خلف كل برٍّ وفاجر ، كما في الحديث ، ولا نعيد ، لأن هذا تعنّت وغلو في الدين ، وقد صلى الأئمة خلف الولاة الظلمة والمبتدعة كدول بني أمية وبني العباس وغيرهم ، وإذا صلينا جمعة لا نعيد ظهراً ، والدين شبه الطريق ، والأئمة كالأدلاء فيه ، فمن وجد طريقاً سلكها أحد من الأخيار فليسلكها** » هـ .

أقول : أرى الفقهاء من الشافعية يتنطَّعون ، فيعيدون الظهر بعد صلاة الجمعة، ومقرر عندهم أن الإمام الشافعي دخل بغداد وفيها جُمَع متعددة ، فصلى جمعة ولا عاد ظهراً ، فما بالهم لا يقتدون به ، ونية الإعادة تبطل الجمعة ، ولو نوى إمام الجمعة إعادَةَ الظهر بَطَلَت جمعة كل مالكي صلى خلفه الجمعة،

ومع هذه الأخطار وانجذاب هذه المضار كلها ، لا يدَّعون ذلك ، وقد ذاكرناهم فيه وذكَّرناهم ولُمْنَاهُم وما الْتَفَتُوا للملام ، ويرون أن ذلك احتياطاً للدين ، وهم يأكلون أموال الظلمة ، ولا احتاطوا لدينهم في ذلك ولا تورَّعوا عنه ، ويأكلون البعير بسنامه من قلة الورع والتقوى ، وهذا مثل فيه مبالغة في ذَمّ أكَّالة الحرام مع دعواهم الورع والإحتياط .

وقد رأى سيدنا علي ، جماعة يقصُّون على الناس في مسجد الكوفة ، كل واحد منهم عنده جماعة ، فطردهم وشتَّت شَمْلَهم ، ومن جملتهم الحسن البصري ، فسمع جُلَّ كلامه في بيان الإخلاص ومعرفة آفات الأعمال ، فأعجبه ، وسأله سؤالاً يريد يرى ما عنده من العلم ، فقال له : « ما مِلاك الدين ؟» - يعني مقصوده وعمدته وأساسه - فقال : « الورع » ، قال : « ما ذهاب الدين ؟ » ، قال : « الطمع»، فاستحسن جوابه وأعجبه ، فقال له : « مثلك يحسن أن يقصّ على الناس » ، فتركه وأمره بذلك ، فعلى هذا فأكثر الدَّرسة في هذا الزمان من المدَّعين العلم أَذْهَب دينهم الطمع ، لكونهم أكثر علومهم وأعمالهم إنما يبذلونها لطمع الدنيا ، وقليل من يخلص فيها لوجه الله .

قال رضي الله عنه لرجل جاء من الحج : « هل حَجَجْتَ قبلها ؟ » ، قال : « نعم ، إلا أني كنت إذ ذاك ما معي شيء ، وأحب ما تحصل لي بلا شيء » ، *فقال* له : **« الرزق والمال كله لربك ، ولا فرق بين تعطي غيرك أو يعطيك غيرك ، فكلكم عبيده ، والذي في أيديكم رزقه ، يعطي منكم من شاء بالآخر، ويعطي بعضاً على يد بعض، فالرزق من حيث الحقيقة واحد ، وكل الناس فيه سواء ، وإنما اختلف وضاق فيه الأمر من حيث الشريعة »** هـ .

أقولُ : يعني إن الشرع خصَّص كل إنسان بما هو في يده ، مما وصله بمُسَوِّغ شرعي ، فإذا تعدَّى منه إلى غيره كذلك ، فهو مختصٌّ به ، ولا يجوز لأحد يتعدَّى عليه فيه إلا بمسَوِّغ ، ويجتمع في ذلك الأمران معاً : الشرع والحقيقة . ويحصل فيه ما أشار إليه في المقالة المتقدمة من قوله : **« فالسعيد من وافق ما أراد به الحق وأراد منه »** ، فإن اختصَّ بالحقيقة دون الشريعة واعتقد حِلَّه فهو الزندقة ، كما تقدَّم من قوله وقول السيد أحمد الهندوان ، وهما رؤساء أهل الدين اليوم ، وفيه إشارته في المقالة المذكورة من قوله: **« والشقي من اختلفت به الأمور »** ، يعني وافق ما أراد به من الشر من حيث الحقيقة ، ولم يوافق ما أراد منه من الخير من حيث الشريعة، يعني أنه خالف الشريعة ووافق طَرَفَيْ الحقيقة ، من إرادة الشر وجزاه من الله لمن عمله ، وقول سيدنا الذي أَشَرْنَا إليه ، حيث قال : **« الحقائق إذا تبعتها طرائق ، سلَّمنا لصاحبها ، وإن لم توافقها فإنما هي أخت الزندقة »** ، ومراده بالطريق أحكام الشريعة إذا وافقت الحقيقة، فإن تجردت عنها فهو الزندقة ، وإن جرى ذلك من مسلم ، ولذلك سمَّاها أختها ، وإلا كانت

هي بنفسها .

وقول السيد أحمد : « من عمل بمجرد الحقيقة تزندق » ، قلت له : فإن عمل بمجرد الشريعة ؟ قال : « فإن عمل بالشريعة فقد عمل بالحقيقة أيضاً » ، فانظر غزر كلام هؤلاء الأكابر ، حتى تعرف الدين على وجهه ، فتعطي الحقيقة حقَّها على وجهها بأن توافق الشريعة وتعطي الشريعة حقَّها على وجهها ، بأن توافق الحقيقة ، فالشريعة عمل مجرد ظاهر ، والحقيقة إعتقاد باطن ، فتفعل أوامر الشريعة بجسمك، وتعتقد أن الله هو الموفِّق لك للعمل والذي أَقْدَرَكَ عليه ، وتُخلص فيه جهدك ، وترجو من الله قبوله .

ومن المسوِّغات ما ذَكَرَه الإمام الغزالي في كتاب الحلال والحرام من « الإحياء »، قال : « لو انقلبت أموال الدنيا كلها حراماً ، حتى لم يَبْقَ درهم حلال ، انقلبت كلها حلالاً لم يبق منها درهم حرام ، ونرجع نستوفي القواعد » ، أي نعمل بالمسوِّغات الشرعية ، وهي البيع والهبة والإرث ونحوها من الوجوه الشرعية . فالمراد من العبد أن يعمل ما أراد به الحق وهو الحقيقة ، وأراد منه وهو الشريعة فيجمع بين الإرادتين ، وهو السعيد الذي ذَكَرَهُ في تلك المقالة ، ولا يقتصر على ما أراد به فقط دون ما أراد منه ، وهذا هو العمل بمجرد الحقيقة التي هي الزندقة ، وهذا هو الشقي الذي اختلفت به الأمور كما قال ، فإنه عمل بالحقيقة وترك الشريعة ، فلا تقوم له حُجَّة عند الله هـ .

قال : « صار الناس اليوم غنائم بعضهم لبعض ، هذا يمد يده من مال غيره ، والآخر يمنع الحق من ماله ، وما كان هذا عادة الأولين ، إنما كان أحدهم يمنع يده من مال غيره ، ويرى أن أَخْذه للتمرة منه جمرة نار يأخذها ، والآخر يعطي الحق من ماله ، ويرى أن التمرة يخرجها من ماله جوهرة يحتسبها، وكلاهما يغدو ويروح لما طلب » هـ .

أقول: يعني كان الأولون فقيرهم يتورع حتى عن التمرة من مال غيره، وغنيهم دأبه يُخرج من ماله جهده محتسباً لوجه الله ، حتى يرجو في التمرة عند الله ما يعدل الجوهرة ، ففي ماله حقٌّ للسائل والمحروم ، وفيه أيضاً حقٌّ معلوم للسائل والمحروم ، يعني الصدقة الواجبة والصدقة المندوبة ، وكلٌّ من فقيرهم وغنيِّهم « **يغدو** » : أي يخرج أول النهار ، « **ويروح** » : أي يخرج آخره في طلب ما أراد من التورع ، ومن بَذْل المعروف وجوباً وندباً ، ففرقٌ بعيدٌ وبَوْنٌ أكيدٌ بين الأولين المتقدمين وبين المتأخرين ، فافهم .

وذَكَرَ أناساً في أَخْذِهم الأجرة على الحج ، فقال : « اجعل الحج والمسير إلى الحرمين للدين لا للدنيا،

إلا ما كان ضرورة للدين ، ولا تجعل أمور الدين وسيلة إلى أمور الدنيا » .

ثم قال : « أمور الدنيا إنما هي سُلَّم أو رقاد - أي درجة - لا يحسن المقام فيه ، وإنما هو وسيلة إلى الطلوع - أي الصعود - إلى المكان المقصود ، وكل من زاد على المحتاج إليه في ذلك فهو ناقص ، ولولا ذلك لما رغَّب الله تعالى في الآخرة وزهَّد في الدنيا ، ولكان رغَّب في الدنيا ، أليس كلاهما له ومُلكه ؟ » .

قال رضي الله عنه : « ينبغي لمن يريد التوبة أن ينظر ما خلفه وأمامه أولاً ، وأن لا يخاف عليه أن ينكث التوبة » ، قال ذلك لرجل حظَّاء بعد أن قال له سيدنا : « تُبْتَ عن الحظي ، ثم نكثتَ وعُدتَ إليه ، فتُزَيِّن به الدنيا للناس ، فيرغبوا فيها ويحبوها » .

وقد شكى إليه حينئذ تعطل حرفته منذ مدة ، وما بقي ينتفع منها ، فقال له : « خذ مخزن ، فإن فيه بركة ، والقليل منه كثير ، لا بد إذا فعل الإنسان شيئاً أن يجازى به في الدنيا قبل الآخرة من خير أو شر، كما ذُكِرَ أن بعضهم كان على حمار ، فجعل يضربه ، فقال له الحمار : ضربك على رأسك ، أكثِر منه أو أقلل . وذُكِرَ أن رافضِيًّا كان والياً في بعض البلدان وكان ظالماً ، وهناك يهودي ، فمات الرافضي ولم يُصِبه شيء ، فمضى ذلك اليهودي إلى بعض الصالحين وأسلم على يديه ، وقال : ظننتُ أنه لا يموت حتى يُقَطَّع ، ولكن هذا ببركة الإسلام ، ويكون نفعه في الآخرة أكثر » هـ .

أقُولُ : ويشهد لقوله رضي الله عنه : « لا بُدَّ إذا فعل الإنسان شيئاً أن يجازى به في الدنيا قبل الآخرة»، ما ذكر رجل قال : « إنه سرق ، فاتُّهِم بسرقته غيرُه ، فَقُطِعَت يد المتهوم » ، قال : « ثم سرق غيري فاتُّهِمْتُ بسرقته ، فَقُطِعَت يدي » ، قال : « فهذا جزائي أن قُطِعَت يدي بسرقة غيري ، حيث قُطِعَت يد غيري بسرقتي » .

قال سيدنا لرجل يخاطبه بهذا : « ما كان بينك وبين أهلك فهو صالح على أي حال ، وإن كان على غير ذلك - أي على غير الصلاح - ولكن اجعل ما بينك وبين الناس يكون صالحاً » .

وذَكَرَ المراء والجدال ، فقال : « هو الذي نُسَمِّيه : المعاشاة ، وهو أن تقول أنت: الأمر كذا ، ويقول الآخر : لا ، إنما هو كذا . وكلٌّ منكما يحتجُّ بقوله يريد ظهوره ، سواء كان حقًّا أو باطلاً . وإن كان صاحبك مُحِقًّا فاتَّبعه ، وإن كان مُبطِلاً فاتركه حتى يَتَبَيَّن له الحق في وقت آخر ، وإنما يُبنَى للمُحِقِّ بيتٌ في أعلى الجنة لكون السكوت من المُحِقِّ شديد . وأما سؤال المريد لشيخه ، فعلى ما قُرِّر في رسالة المريد، لكن بشرط إن قال له : اترك السؤال . أو عادك تسأل في وقت آخر ، أو إنه سيأتي في الكتاب ، أن يمتثل،

وهذه الآداب عند أهل الباطن دون غيرهم . كما استدل فيها بقصة موسى والخضر، وقصتيهما أيضاً إنما هي لبعض أهل الباطن لا كلهم ، وبعضهم إنما رأيه موافقة أهل الظاهر لأجل سلامة نفسه منهم، ولسلامتهم أيضاً من الإنكار والوقوع في الإشكال ، وقد شَرَطَ على موسى أن لا يسأله ، فلمّا لم يوافق ذلك العلم الذي هو عليه لم يمكنه السكوت » ، أو كما قال .

وتقدَّم قوله : « إني لم يُقسَم لي في المراء والجدال نصيب .. إلخ » .

قال رضي الله عنه : « كل علم له أصول ، إذا ضبطها تكاد تنضبط له الفروع ، ومن أراد أن يتبحر في فن ؛ فليأخذ بأصوله لِتَتْبَعها الفروع » .

قال : « من يقرأ القرآن لا يمكنه أن يقول بالجهة ، فيُفَرِّق بين معراج النبي ﷺ وكلامه تعالى لموسى من الشجرة ، لأن الأمور الإلهية لا يدركها أحد ، وما أَوْهَمَ إشكالاً من كلام المحقِّقين فلا ينبغي أن يسارع إلى الإنكار ، بل يَدَعهم ، ويَسَعهم الكتاب والسُّنة ، ويجعلها من قبيل المتشابهات الواردات في الكتاب والسنة ، ولِمَ جاءت هكذا حتى احتاج الناس فيها إما إلى التسليم وإما إلى التأويل ، والصوفي لا ينبغي له أن يُنكِر على أحد ، بل يترك الإنكار يصدر من غيره ، وإنما هو يوجِّه ويؤوِّل » .

وقال : « إنما الإيمان في الأمور الغيبية ، فلو كان ألَّا في الأمور الحسية لما احتاج إلى التشبيه عليه ، وفي هذا تفاوت بعيد » ، وهنا صدر منه كلام اشتبه عليَّ ، رأيت أني تركت في محله بياضاً حتى أَذْكُره ، أظنه قال : « انظر إلى حساب الميت » .

ثم قال : « لا تستبعده وإن كان منك قريباً ، لأنه أمر غيبي ، فانظر إلى حال النائم بجنبك ، يرى الرؤيا وأنه كذا وكذا ، وأنت لا تعلم به ، وربما صاح ، فيظهر لك » ، وما فهمت ما بعد هذا هـ .

أقُولُ : إنما ورد في الكتاب والسُّنة شيء من المتشابه تَنَزُّلاً من الله ورسوله للخلق على مقتضى عقولهم ، لغاية التبيين لهم ، كما قدَّمنا من تيسير كلامه سبحانه للخلق بلغتهم .

وإنما ذَكَرَ « المتشابهات » بعدما أسس العقيدة الحق ، على أن ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله ، وأن لا يدرك الخلق قط صفات الحق ، فمن أراد أن يتعقَّلها ويظن أن ما أدركه عقله هو المقصود من ذلك ، كمن يفهم من الإستواء الإستقرار ، فإنه إنما أدرك صفات الخلق من نفسه وأبناء جنسه فقط ، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً ، ومن وَصَفَ الحق بصفات الخلق واعتقد ذلك ، فقد أضمر الكفر في قلبه ، وإن أظهر الإيمان ، فحاله حال المنافق ، فجزاء المنافقين عند الله أن يسكنهم الدرك الأسفل من النار ، لتلبيسهم بإظهار الإيمان مع إضمار الكفر .

ومن فائدة ذِكْر المتشابهات زيادة ثواب من آمن به على الوجه الذي أراده الله ، مع تنزيهه له سبحانه عما تدركه عقول الخلق ، وأعلى منزلة من هو كذلك عند الله ، كما مدَحَهم ووَصَفَهم بأنهم من الراسخين في العلم ، وأن الآخرين من أهل الزيغ كما قال تعالى : ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝﴾، فإذا كان قد قال تعالى : ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، فما بال الزائغ القلب المنافق يدَّعي معرفته ، فكذب بقول الله ، فتحقَّق كفره ظاهراً مع ثبوت كفره باطناً هـ .

وذَكَرَ رجلاً مات وأوصى بوصايا باطلة وحِيَل فاسدة ، حتى جعل ماله بنذرٍ لأولاده الذكور دون الإناث ، وهذا هو الذي أنشأ فيه تلك القصيدة ، حيث قال :

لَيْسَ دِيْنُ اللهِ بِالحِيَلِ   فَانْتَبِهْ يَا رَاقِدَ المُقَلِ

عِشْتَ في لَهْوٍ وَفي لَعِبٍ .. إلى آخرها .

فقال : « **هذه الأموال جاءت من وجوه حرام ، فراحت في وجوه حرام ، وهذه قاعدة : إذا أشكل عليك مال أحد ، هل هو حلال أم حرام ؟ فانظر فيما يُصرَف ، فإن صُرِفَ في حرام فهو كذلك ، أو حلال فهو كذلك . وكل ما خالف الشرع لا تحسب أن فيه بركة ، وعاد هؤلاء إن طال بك زمان إلى نحو عشر سنين ، تراهم يبيعون ما معهم** » .

قال : « **العلم تقرير المسائل ، وأن يذكر مع كل مسألة ما يناسبها ، لا بمجرد مرور الكتاب ، ولو أن أهل الزمان ما معك منهم شيء ، إلا إنه ما عاد منَّا شيء للتطويل ، وشيء من الكتب قد قرئت علينا ونسينا حتى أسماءها ، وأما الإحياء فقد مَرَّ علينا ثمان مرات ، غير الأبعاض منه** » .

وذَكَرَ الإخلاص والرياء ، **فقال** : « **على الانسان أن يعمل ويلوم نفسه ولا يغالطها ، وإن حصل التقصي بطل العمل ، حتى هنا في الدنيا فضلاً عن حالة الوقوف بين يدي الله تعالى** » .

واستأذنه رجل في الحج ، **فقال** له : « **اعزِمْ على ذلك ، ولا تعلِّق نفسك بأَخْذِ الأجرة فيه ، وأمر الخير اِنْوِه ، فإن كان قد قُدِّر لك وقع ، وإلا فالنية ما هي قليل . وكذا انوِ كل فعل خير بَعُد وقته ، أو عسر عليك فعله** » .

وذَكَرَ حديث : « **كم من صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش ، وكم من قائم ليس له من**

قيامه إلا السهر » الحديث ، فقال : « ليس هذا إغراء بالتَّرك ، إنما المراد منه الحث على الإخلاص » .

وذَكَرَ وادي دوعن ، فقال : « فيها آثار من الصالحين وآثار علماء ، ولهذا لا ترى أحداً يروح إليها ولو لقضاء حاجة إلا بنية الزيارة ، فظاهر أمره الزيارة ، بخلاف وادي عمد ، فلا يروح إليه أحد للزيارة بل لغير ذلك ، وسبب ذلك ما ذَكَرْنَاه من آثار الصالحين فيه ، لأن بهم تحيا بهم كل أرض ينزلون بها ، سواء كانوا أحياء أو أمواتاً ، لأن في الأحياء مع الخصوصية البشرية ، وفي الأموات مجرد الخصوصية » .

وذَكَرَ القراءة على القبور ، فقال : « من أوصى بهوى وغرض ، لا ينفعه . فمن لا نفعه عمله ، ما نفعه عمل غيره ، فلا أحد يحدِّث نفسه بذلك » .

قال : « ما كل علم ينتفع به كل أحد ، ولا كل علم يَحْسُن من كل أحد ، ولا عذر للجاهل أن يسكت العالم بجهله أو يسكت عنه لذلك ، ولو قال : كم يموت كل يوم ؟ فماذا تقول ؟ ما معك إلا ما شاء الله ، وذلك موكول إلى علم الله ، حتى الملائكة لم يكن ذلك من شأنهم ، لأنهم مخلوقون لأمور جُعِلت عليهم ، منهم في الأرض ومنهم في السماء ، حتى الحفظة على الإنسان ما دام حيًّا ، هم على عملهم في الأرض ، فإذا مات رجعوا إلى ملائكة السماء حتى يُبعث ، فإذا هم قيام عليه بعمله ، فمن كان سائلاً فليسأل عما يحتاج إليه ويعنيه » .

قال : « الدين كله بصائر ، ومن قال : ما سيبك مني ، ما عليك له كلام ، إلا إن كان معك قهر تقهره » .

قال رضي الله عنه : « قَلَّ ما اجتمع الصبر والبصيرة في شخص واحد إلا نادراً، بل الغالب أن يكون أحدهما وبعض الآخر » ، وقال : « الحازم من مسك الحبل بطرفيه » هـ .

أقول : يعني تحرَّى واحتاط في الأمور هـ .

قال لرجل : « استمِد واستعِد للإقامة في القبور أطول من الإقامة في الدور » .

قال : « الرجل قبل التزوج قنديل ، وبعده زنبيل » .

قال رضي الله عنه : « الرجاء أوسع من الخوف ، لأن النفس مغرورة ، ومن لا معه معرفة بقدر خوفه يخشى عليه الإنقطاع ، إن وَضَع على عبده عدله ما نفعه عمل ، وإن عامله بفضله يُرجى له السلامة بأدنى شيء ، والخوف أهم من الرجاء، لأن فَقْده مضر ، ويسوق إلى المعاصي . والنفس كالمرأة السوء، كن شديداً عليها في الظاهر مع التحنُّن عليها في الباطن ، وهي قط لا تدعو إلا إلى الشر . ومِن لازِم الرجاء الخوف ووسع المعرفة ، وأما هؤلاء فيرجون بلا خوف ولا معرفة ، وقد قيل: الخوف كله

للراجين ، والرجاء كله للخائفين » .

وقال رضي الله عنه : « طبيعة النفس طبيعة أجنبية ، ما هي من طبائع الدين ، بل هي طبيعة جاءته من جهة الطين ، وأحوج الإنسان إلى قدر الضرورة من الدنيا ، ولو اكتفوا عنها مثل الملائكة لاستراحوا ، وأولئك - أي الصالحون - قد ضعفوها بكثرة الأعمال الصالحة وأعمال الدين . وأنت اليوم كلّما لك تجدَّد على نفسك ما يشغلك ويؤذيك ، وما زاد على الضرورة فهو عندك بمنزلة الأمانة ، وعاده متعلق به شواغل وأمور أخرى ، ولكن لم يتم لك شيء ، فإن الإنسان خلق محتاجاً ، وخلق مبلي - أي ذو عبث - ومثل ذلك قد أسَّسها لهم آدم ، إذ أخرجه الشيطان من الجنة ، ولكن عليك بتذكّر ما يسلّيك، فإذا لم يعزِّك أحد فعزِّ نفسك » .

وقال رضي الله عنه : « إذا نصحتَ شخصاً فَذَكَرَ لك عيبك أو تعلَّل ، فَدَعْ منابذته ، كما إذا لم تره يصلي فأمرته بالصلاة ، فقال : وأنت لِمَ لا تفعل كذا ؟ أو أَطْعِمْني أو اكْسُني وأصلي . فمثل هذا لم تمكن مُحاجَجَته ، فاتركه ، ومثل ذلك في كل أمر بمعروف أو نهي عن منكر » .

قال رضي الله عنه عن بعضهم أنه قال : « استحسان المصافحة بعد صلاة الصبح وبعد صلاة العصر ، رجاء أن توافق المصافحة نزول الملائكة الحفظة الموكلين بحفظ أعمال المكلفين ، فقد ورد أنهم ينزلون عليهم في صلاة الصبح وفي صلاة العصر ، ويقولون أتيناهم وهم يصلون ، وتركناهم وهم يصلون ، فليس تخصيصها بهذين الوقتين من السُّنَّة إلا أن يؤخذ ذلك من العموم » هـ .

أقول : وهذه العادة من المصافحة حينئذ ، عادة في جهة حضرموت لا غير ، وما رأيتها في غيرهم .

وقوله : « من العموم » ، أي عموم سُنِّيَّة المصافحة ، كما ورد : « إذا التقى المسلمان فتصافحا وتكاشرا ، قسمت بينهما مائة رحمة ، تسع وتسعون لأحسنهما بِشْراً ، وواحدة للآخر » ، وقوله : « تكاشرا » ، أي فتحا بأفواههما على هيئة المتبسم ، لأنه يدل على البشاشة وحسن الخلق ، ولهذا زاد أحسنهما على الآخر ، فأُمِرَ بتحسين المخالقة لِنَيْل الأكثر ، فهكذا وَرَدَ مُطلقاً لا تُقَيَّد بوقت مخصوص ، فيشمل هذين الوقتَيْن وغيرهم والتخصيص للمعنى المذكور .

قوله : « بحفظ أعمال المكلفين » ، هكذا رأيته في الأصل الذي نَقَلْتُ منه الذي نَقَلْته تلقاءه حين تكلم به ، وإلا فهم الحفظة للأبدان غير الحفظة للأعمال ، وهم الذين ذكروا في هذه الآية : ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾، وجاء أنهم ثلاثمائة ينزلون على الإنسان في هذين الوقتَيْن في الصلاتَيْن فينزل عليه في صلاة العصر ثلاثمائة ، وهم حَفَظته بالليل، وينزل عليه في صلاة الصبح ثلاثمائة ، وهم حَفَظته بالنهار ، فيسألهم سبحانه وهو أعلم بهم : « ماذا تركتم عبادي ؟»،

فكل من الخافقين يقول : « أتيناهم وهم يصلون ، وفارقناهم وهم يصلون » .

قال العلماء : « وفي السؤال وطلب ذلك الجواب منهم تذكيراً لهم ، لقولهم : ﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا﴾، وتبكيتاً عليهم بسبب قولهم ، ولأجله يباهي بالمؤمنين الملائكة في كل اجتماع على عبادة، من اجتماعهم في جمعة أو جماعة أو وقوف بعرفة أو اجتماع في الجهاد في سبيل الله أو في ذِكْر الله وغير ذلك » . فأشار كلامه إلى الفهم أن معنى المصافحة لموافقة نزولهم - أي قرب نزولهم- فإن نزولهم في حالة الصلاة ، والمصافحة بعد الصلاة والأذكار الثلاثة والدعاء ، وفي سؤالهم وجوابهم أيضاً تنويه بذِكْر المؤمنين عند الملائكة ، يعني فانظروا ما ترون من عبادتهم مع كثرة الصوارف لهم عنها ، التي أنتم سالمون منها من الشهوات والأهوية المركَّبة فيهم ، فعباداتهم مع ذلك أمكن من عباداتكم ، إذ أنتم سالمون مما اعتراهم ، فقد رأيتم عباداتهم وعرفتوها الآن .

وهنا أمرٌ عجيبٌ وأمرٌ غريبٌ ومعنى دقيق ينتج عن الفهم البليغ الصافي ، يدل على وسع تبحر علم سيدنا في فهم علوم الكتاب والسنة ، ودقائق عمله بهما في فحصه وغوصه على اتباع آثارهما والإهتداء بهديهما ، وهو أنه رضي الله عنه ولو أنه كان كثير الإستعمال للطِّيب في أكثر أوقاته ، بل هو طيِّبٌ معنىً وحسًّا بتطييب الله له في طهارة وطيب أهل البيت النبوي الطيبين الطاهرين ، وما خصَّه الله به من الطهارة والطِّيب وراء ذلك ، ولكني أراه يخصُّ التطيُّب في هذَيْن الوقتَيْن خاصة أكثر من غيرهما - أعني لصلاة العصر وصلاة الصبح - فلا يخرج إليهما إلا متطيِّباً، وفيه كما ذُكِرَ من وَصْفِ النبي ﷺ أنه كان يُرى وَبِيصُ الطِّيب من مفرق رأسه ، فإنه يُرَى أثرُه عليه كثيراً .

وسألت بعض الجماعة وتذاكرتُ معه في سبب ذلك ، وما ترجَّح عندنا إلا أنه لمقابلة تلك الملائكة بالطِّيب ، وما اجترأتُ أن أسأل سيدنا عن ذلك ، لما فيه من قلة الأدب - والرجل المذكور هو السيد محمد بن شيخ الجفري رحمه الله - .

ومن دقائق غوامض كمال اقتدائه بالنبي ﷺ أني كنت أسمعه يقول إذا سلَّم من الركعتين الأوليَّين من الأربع الركعات التي قبل صلاة العصر : « **السلام على ملائكة الله والمقربين ، وعلى أنبياء الله والمرسلين ، وعلينا وعلى عباد الله الصالحين** »، ولم أعلم أَصْلَ ذلك ولا سألته عنه ، فمَرَّ علينا في درس العصر في قراءة من يقرأ في « سنن أبي داود » حديث بسنده إلى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، قال: « كان النبي ﷺ يصلي قبل العصر أربعاً ، يفصل بينهن بالتسليم على الملائكة والمقربين وعلى الأنبياء والمرسلين وصالح المؤمنين » أو كما ورد ، فعرفت حينئذ أن مراده العمل بهذا الحديث ، رضي الله عنه ونفعنا ببركاته وأسراره في الدنيا والآخرة .

وشكى إليه رجل ضعف بصره ، فقال له : « **نور الله بصيرتك ، فإنه إذا استنارت البصيرة لا تحتاج من البصر إلا إلى قليل منه ، ونور البصيرة هو العمدة ، بل نور البصيرة يكفي عن نور البصر** » .

وشاهِد هذا المعنى شأنه هو ، فإنه قال كما قد سمعت منه مراراً ، أنه كُفَّ بصره وهو ابن أربع سنين بسبب الجدري ، وقد عوَّضه الله عنه بنور البصيرة ، وهو أبلغ وأنفع منه .

قال : « **الزمان زمان جهل ، وإذا رجع الإنسان ما رجع إلا إلى جاهل ، وكان في الناس أهل علم وتقوى ، إذا رجع الجهال إليهم أرشدوهم إلى الحق والصواب، واليوم لا يهدونهم إلا إلى الحِيَل والمخادعات ، كما فعل بنو إسرائيل في حِيَلهم ومخادعاتهم في قصة الإصطياد وغيرها ، ولو قَدَّرنا أن أهل البلاد - أي تريم - أرادوا أن يتوبوا ويتحاللوا ، ما عاد لهم إلا الإسلام واليد ، فمن يده على شيء، ولم يُعلم له فيه شريك ، فاليَدُ له . ولو أن والياً على يتيم له عنده عشر نخلات في جملة ماله ، ما يميِّزها له ، ولا عاد ينفع في ذلك منهم إلا السيف ، ورَدّ الأموال المجهولة إلى الفقراء والمساكين والأمور العامة - أي العام نفعها للمسلمين - وما مع الإنسان إلا الدعاء بالخلاص لنفسه ولهم ، كما قال بعضهم : اللَّهم سَلِّم ، ثم قال آخر بعده بزمان : اللَّهم خلِّص . لأنه إنما يطلب السلامة من لم يقع ، وأما من وقع فإنما يطلب الخلاص** » .

وقال له رجلٌ أتى بأهله للزيارة وقد عَرَّضَ بالإستشارة في الإقامة بهم أو المسير، *فقال* له : « **كِلَا الأمرين من حيث الدين سواء ، ولكن انظر ماذا يرجح منهما طبعك ، لأنه إذا اتفق الدين مع الطبع في طلب أمر مستحسن ، فمن كان يغلب طبعه ينبغي أن يراعي من حيث الدين ، ويراعي أيضاً من غلبه طبعه ، لأن غلبة الطبع تدعو إلى أمور فضول لا فائدة فيها ، وإن استوى أمران في الدين فليراعِ الطبع** » هـ .

أقول : يعني فلا بأس حينئذ بمراعاة الطبع مع استواء الدين ، لأن في ذلك معونة على الدين ، كما قال الصحابي : « إني لأستجم نفسي بشيء من اللهو ، لأستعين به على الحق » كما تقدم ، وتقدم أيضاً قوله : « **إذا استوى عنده أمران فليرجح أحدهما بمرجح ، فإن لم يحسن يرجح ، فليرجح له غيره** » ، أو كما قال .

* *

قال رضي الله عنه : « إن الإنسان خُلِق متحركاً ، وطُلِب منه السكون ، فعَسُرَ ذلك عليه ، فكل ما قيل لك أنه زال فصَدِّق ، وإن قيل لك إن الطبع يزول فلا تصدِّق ، وقال بعضهم : إن الإنسان خُلِقَ كالكُرَة على الصفا ، لم يزل يتحرك ويتدحرج إلى أن يمسكه شيء » .

وتقدَّم قوله : « خُلِقَ الإنسان متحركاً ، حتى إنه لم يطق السكون عن الحركة في بطن أمه ، ولكنه كلما كبر كان زيادة في عقله وسكونه ونقصاً في حركته » ، أو كما قال .

قال رضي الله عنه : « ما دام الإنسان معه خبر عن نفسه ، فما هو شيء أصلاً ، ولأن يكون معه خبر عن الخلق خير له من أن يكون معه خبر عن نفسه ، والخبر عنهم أن يسمعهم يروون عنه ، ويُعرف ذلك عنهم من خارج ، والخبر عن نفسه على هذا الوجه أن يرى أن له منزلة أو أنه خير من غيره ، أو يذكر فضائله » .

وتقدَّم من قوله في هذا المعنى كلام كثير ، كقوله : « كل مُدَّعٍ مخذول ، ولا بُدَّ أن يقيِّض الله له من يعجزه فينخذل عند ذلك ، ولو كان كثير العلم » ، وقوله : « من قال أنا شيء ، وهو كذلك ، قيل له : لستَ بشيء . ومن قال : أنا لستُ بشيء ، وهو كذلك ، قيل له أنتَ شيء » ، وغير ذلك .

وقلت له : هل ظاهر كلام الشيخ ابن عراق ، حيث يذم المتعاطين للسماع أنه يُنكِره فلا يقول به أصلاً ، أو ينكره من أحد دون أحد ؟ *فقال* : « إنما يُنكِره إذا صَدَرَ من غير أهله على غير الوجه المطلوب منه ، ومع المداومة عليه واتخاذه عملاً ، وعلى هذا الوجه ، حتى من يقرأ القرآن ، ويَذكُر على غير وجهه ، مذموم حاله ، فكيف بالأشعار ونحوها ، والشيء المنهي عنه قد يكون لذاته ، وقد يكون لعارض ، فإذا فُعِل الشيء على وجهه ، عُرِف الحكم منه من كونه مباحاً أو منهيًّا عنه أو مندوباً إليه » ، أو كما قال .

وتكلم في علامات المنافق الثلاث ، *فقال* : « ما هو أنه لا يَصدق أبداً ، فقد يصدق ويوفي ولا يخون ، ولكنه لأدنى غرض يكذب ، ولأدنى داعية يخون ، ولأدنى عذر يخلف ، وذلك لعدم التقوى فيه » .

وقيل له : « لفلان - وهو سلطان الجهة - فيكم عقيدة » ، *فقال* : « عقيدة هؤلاء في أَلْسِنَتِهِم ، فإذا أردتَ تعرف إعتقاد أحد فانظر إلى فعله ، واعتقادهم تبع لأهويتهم ، ومن له عقيدة في بعض الصالحين ثم زالت ، فلا عاد يسأله الدعاء ، إذ لا ينفعه الدعاء حينئذ ، لعدم الواسطة - أي العقيدة والمحبة - كالمطر يرجى حصوله من غير سحاب ، وسحاب الصالحين تعلق القلوب » ، أي بالمحبة والعقيدة .

وأوصى إلى ذلك الظالم من ولاة الجهة ردًّا على يد من يتردَّد عليهم ، *فقال* له : « إن سألك عَنَّا فَقُل له : إنه ما يسلِّم عليك ، ولا هو راضٍ عنك ، ويقول لك: الواسطة التي بينك وبيننا قد انقطعت عنك

من العام »، ثم قال : « ومن له عقيدة في بعض الصالحين .. » .

وذَكَرَ الأرزاق والزوايا ، ثم قال : « كانت الزوايا فيها خبايا من صالحين وعاملين لله ، فلمّا ذهبوا ذَهَبَت الأرزاق ، والدنيا إنما خلقها الله إعانة لأهل طاعته ، وهي لهم بلاغ وللكفار متاع ، وأهل الزمان ينفِّرون النِّعم عنهم مع إقبالها عليهم بقلة الشكر عليها ، وإنما بَذَلَ الله الرزق لكافة الناس لكونهم فيهم أهل الطاعة والفقر والمسكنة ، فيكون لغيرهم بسببهم ، ولو لم يكن في الدنيا إلا العصاة ما أعطاهم لقمة» .

وذَكَرتُ له رجلاً اشتهر بالعلم ، فقال : « هل رأيتَ أحداً مثل المذكورين في مجمع الأحباب ؟ وكل من رأيته مشغولاً بنفسه فلا تعدّه شيئاً ، إلا إنه لا يخلو من خير ، لأن الخير له أطراف وحواشي ، كالجند الذين يمضون إلى الجهاد ودرجاتهم شتى ، بعضهم أعلى درجة من بعض ، وليسوا في درجة واحدة ، فكذلك الخير ، بعضه أعلى من بعض » .

وذَكَرَ ضعف الناس في طلب العلم ، فقال : « ما يربِّي الناس في أمر دينهم ودنياهم إلا الملوك، تربيهم سيرهم وأحوالهم ، وكذلك تفسدهم . فإذا رأيت فساداً فابحث عنه تجد سببه من الملوك الظلمة» .

قال : « من أراد الهلاك فليظلم ولا عليه ، لأن الظلم كالمغناطيس في جذب الشر ، والعدل كالمغناطيس في جلب الخير ، ألا ترى كيف يرد الله المراكب في البحر إلى ظفار وغيرها لظلم فلان » .

أقول :وقد سمَّاه ، وهو عمر بن جعفر الذي تقدَّم آنفاً ، أنه قال لذلك الرجل : « إن سألك عنَّا ، فقل له : إنه ما يسلِّم عليك .. » ، إلى آخر الكلام المتقدِّم .

قال : « من كلام الحكماء ، إذا لم يكن في بلد أربعة أشياء تسَارَعَ إليها الهلاك : طبيب ، وسلطان ، ونهر » ، ونسيت الرابع ، فقال لي بعض الفضلاء الثقات ممن حضر ذلك المجلس ، وسمع كلامه هذا قال : « ومفتي » ، أي عالم يفتي الناس بِدِينهم ، ويبيِّن لهم أحكام الشرع .

وذَكَرَ أقواماً من أهل الجهة إنهم في حالة تعب شديد ، فقال : « كأنَّ البلاء ألَّا يدوّر لأهل حضرموت من أين ما كانوا ، فترى الإنسان منهم يُؤذى ويُشغَل ، ثم يُؤخَذ ماله ، وولاة الجهة خاربة ، وإذا أردتَ خراب بلد فدلهم عليها ، فيغيِّرون حتى قبالها ، وتصير كما في قصةِ عَمَرَ بهم المساجد الداثرة - يعني المأمون وعامله في قصة تطول - والذي ينبغي للولاة أن يسعوا في إصلاح البلدان ، ولكن هؤلاء زبانية

الدنيا » .

وأمر يوماً بنخلة مثمرة أن تُسقى ، وبأخرى لا ثمرة فيها أن لا تُسقى - أقول : يعني في ذلك الوقت فقط ، وإلا فدايم أن يسقي الكل - *ثم قال* : « **إذا راعيتها ولم تثمر فاقْطَعْهَا ، وافعل ذلك** - أي السقي - **في المثمرة ، كالصاحب الذي لا يراعي من يُحسِن إليه ، إذا أساء إليك مع إحسانك إليه فاقْطَعْهُ** - أي اقطع إحسانك عنه - **ويكون الإحسان في شاكر أحسن منه في غيره ، إلا أن تخاف شره ، أو كان ذا رَحِم فلا تَقْطَعْهُ لإساءته ، والأشجار والدواب في أوائل درجة الآدمي ، وقد قال سفيان الثوري : أخسر الناس من يفعل المعروف مع غير أهله** » .

أقول : فإن قلت ليس ذلك إليها حقيقة - أي الثمرة - فكذلك ليس الإحسان إليها شريعة ، وفي بعض الأحاديث : « أخسر الناس في الدنيا والآخرة ، من يصنع المعروف إلى من لا يشكره » ، وفيه تأويل عند العلماء : « أن المراد من الشجرة حصول الثمرة ، فإذا حصلت فيها فينبغي مراعاتها وعمارتها وسقيها لتصلح الثمرة ، فإذا لم يكن ثمرة فلا حاجة إلى ذلك » .

ومن العجيب أني رأيت في كتاب « حياة الحيوان » ، أن النخلة إذا لم تُثمِر ، فيقبض رجل فأساً ونحوه ويشير إليها ، كأنه يريد يضربها به ، ويقول : « يا فاعلة ، لم لا تحملي ثمرة » ، ويقبضه رجل آخر ، كأنه يمسِكه ويقول : « اتركها ، وهي تحمل ثمر » ، أنها بعد ذلك تُثمِر . وقد جرَّبتُ ذلك في حضرموت وفي الحساء ، وهذا من مشابَهَة النخل للآدمي ، كما شابَهَتْهُ بكون النخل فيها ذكور وإناث، وأن الأنثى تحتاج إلى الذَّكَر في حصول تمام النتاج .

وألبس سيدنا يوماً جماعة الخرقة ، *ثم قال* : « **لبسناها من الشيخ عمر العطاس لكن بشدة ، ما طاع يلبسنا إلا بمعالجة ، وأرادنا نحن نلبسه ، لأنه كان متواضعاً جدًّا ، والتواضع وإن كان حَسَناً من كل أحد ، لكنه من أهل الفضل أفضل وأحسن ، فالمنظور بين الناس ليس تواضعه كتواضع واحد من أطراف الناس** » هـ .

- *أقول* : سمعته يقول : « **زُرْنَاه ثلاث مرات في بلده ، ففي ثنتين لقيناه في بلده حريضة ، والثالثة لقيناه في حورة ، وفي الأولى سألناه إلباس الخرقة ، فأبى أن يلبسني حتى ألبسته كوفيتي ، فألبَسَني كوفيَّته ، وترك كلٌّ مِنَّا كوفيَّته للآخر** » ، ولهذا كل منهما يعد الآخر شيخه -

قال : « **ولما وقفتُ عند الباب قبل نتكلم ، نزل إلينا من السطح . وكان السيد عمر العطاس رحمه الله في غاية من الزهد في الدنيا ، حتى إن قميصه الذي هو لابسه عارية ، وكوفيَّته عارية ، وسُبحته**

عارية، وليس يملك من الدنيا شيئاً ، وَوَهَبَ له بعض الناس عِلباً - وهو السدرة - لأنها عندهم يُعتنى بها لثمرتها كالأشجار المثمرة ، فقال : قَبِلتُ الهِبَة ، ثم قال في الحال لمن حضره حينئذ : أُشهِدكم أني قد أوْقَفته لوجه الله » .

وقد رأيت جماعة من الصالحين الصادقين في زهدهم ، تركوا الدنيا لوجه الله تعالى ، ثم صار ذريتهم بعدهم أهل ثروة وسعة في الدنيا ، رأيت ذلك في حضرموت ، كذرية السيد عمر المذكور في ثروتهم وتوسعهم في الدنيا ، وفي الأحساء كشيخٍ لنا كنت أقرأ عليه في الفقه ، وكان غاية في الزهد ، حتى إنه إذا شرى من السوق وعاء تَمْر لِبَيْتِهِ يُخرِجُ زكاته ، وهو الشيخ محمد بن صالح بن دغان، فهذا ابنُ ابنٍ له في سعة من الدنيا رحم الله الجميع .

وقد أدركت من أولاد الشيخ عمر المذكور ، ابنه السيد حسين بن عمر ، وكان من التواضع وصغر النفس بمكان ، حتى كان البدو الجلفان يستطيلون عليه بالكلام في مجلسه ، حتى إن أحدهم يحتبي في جنبه ، ويلزق كتفه بكتفه ، وزعلت أناس فعلهم ، ويسيئون الأدب في مجلسه ، فلا يؤثِّر في خاطره شيئاً، وعددت ذرية السيد حسين مع بعض أولاده ، فبلغوا أربعة وستين ، وهو بَعْدُ في الحياة .

وذَكَرَ سيدنا يوماً كرامات الأولياء وغاراتهم ، *ثم قال* : « **قد قيل : إن كرامات الأولياء وغاراتهم قد طُوِيَت ، حتى رُوِيَ أن بعضهم جاء بحزمة سيوف إلى آخر منهم ، وقال : هذه أحوال الصالحين قد طُوِيَت** » ، *ثم قال* : « **ما الإنسان يريد الصلاح ولا الصالحين لأجل هذه الأمور ، إنما يريد ذلك لطاعة الله والدار الآخرة** » هـ .

أقُولُ : والله إن غارات سيدنا عبدالله إنَّا نراها معنا في كل شدة تحصل علينا ، من أذى مؤذي أو إرهاق أمرٍ مُضِر ، وذلك فضل من الله وخصوصية منه تعالى لسيدنا في محبِّيه ومن ينتمي إليه .

قال : « **الصالحون خاملون في حياتهم وموتهم ، وإنما أشهرهم ملوك الناس ، إذا أشهروا أحداً اشتهر عند الناس ، مثل ابن عربي ، فما أشهره إلا آل عثمان ، لأنهم بلغهم عنه الإخبار بأن بعض أجدادهم سيملك ، فبنوا عليه قبة وشهروه ، وكانوا إذا ظهرت منهم الكرامات يوصون من عَلِمَ بها أن يكتمها ، ولكن عُدِمَت في هذا الزمان الكرامات ، وإنما مُنِعوا الأسرار لعدم كتمهم الأسرار ، لو رأى أحدهم رؤيا راح يحوِّل بها ، فلمَّا لم يكن لهم أسرار كذبوا بإدِّعاء الأسرار** » .

ومعنى : « **يحوِّل بها** » ، أي يصيح بها ، وهذه كلمة من حضرموت ينادى بها على مجيء السيل

لفرحهم به ، ليعلم به من لم يعلم .

وذَكَرَ ليلة الإثنين ١١ شوال سنة ١١٢٥ كرامات الأولياء ، *فقال* : « **أهل الزمان ما هم بشيء ، فلا تظهر لهم كرامات الأولياء ، وهم لا يريدون منها إلا ما يزيد في دنياهم ، ولو كان - أي وجد -أحدٌ من المكاشفين فرح بكل ما يحصل لهم من نقص في دنياهم ، والكرامات لا تظهر إلا لأسباب وإذن من الحق تعالى ، إما لتحصيل التشمير لمن يراها مثل من ظهرت له ، أو ليعترف من نفسه ويتحقَّق أن ما معه شيء . وذَكَرَ بعضهم أنَّ ذِكْرَ الكرامة لأحد من السادة المتقدِّمين فيها مضرَّتان : أن يغتر من هو من ذريته ويتكبَّر بكرامة جدِّه ، والثانية : أن يقول من لا عقيدة له ، انظر كيف لما كان جدّك صالحاً ظَهَرَت له الكرامات ، وأنت لما فَسَدْتَ لم تظهر لك . وأهل الزمان مثل قوم وقعوا في نهر وغرقوا فيه ، ولكن استنقذ الله قليلاً منهم وقليلٌ ما هم ، وما دام الروح في الجسد فلا ييأس من رَوح الله ، وهو سبحانه قادر على أن ينقذه** » هـ .

أقول : يصدِّق قوله : « **ولو كان أحد من المكاشفين .. إلخ** » ، ما سمعت : أن رجلاً غريباً من الصالحين جاء إلى تريم ، ولم يدخل البلد وإنما يبقى في الأطراف، ولا يتكلم ولا يَقْبَل ما يُهدى إليه سوى اللبن ، وبقي مدة ثم سافر ، وبقي على هذه الكيفية ، وينتقل في البلدان هكذا ، حتى وصل إلى صنعاء اليمن ، فدخل ، فبصر به الحضارم ، فوجدهم محزونين من أخبار جاءتهم عن بلادهم ، أن الدولة قد غرَّموهم غرائم منكرة وأخذوا أموالهم ، وأن البلد مقحطة وفي أطرافها خوف، ويُؤخَذون في الطريق كل حين ، فلمَّا علم بذلك منهم انبسط وانبشَّ وتكلم وفَرِحَ بذلك جدًّا ، فقالوا له : « تفرح بما يسوء المسلمين ؟ » ، فقال لهم : « إن أجدادكم قد دعوا لكم باللحوق بهم ، فرحتم إلى طلب الدنيا وتركتم اتباع طريقتهم ، ولا يمكنكم اللحوق بهم على هذا إلا بهذه البلايا والمحن ، فأنا فرح لكم باللحوق بأجدادكم » هـ .

قال رضي الله عنه : « **إنما فائدة بلوغ الإنسان حد التكليف الترقِّي ، فإن لم يترقَّ فموته قبل ذلك أحسن ، لأنه لم يبلغ الحِنث ، ويكون حينئذ على الفطرة** » هـ .

أقول : يشهد لقوله هذا ، ما قال سيدنا علي كرم الله وجهه : « **ما أحب أن أموت صغيراً حتى أكبر، فأعرف ربي** » ، **فالمعرفة هي الترقِّي ، فكل من توفر نصيبه منها كان أعلى في الترقِّي من غيره** هـ .

قال رضي الله عنه : « إن أهل الزمان لا يحتملون شيئاً ، لكنّا نجعله لهم في الطعام ولو علموا ما في طعامنا لسارعوا إليه ، ولازدحموا عليه » هـ .

أقول : كل الصالحين موردهم واحد ومقصدهم واحد ، وقد سَبَقَه إلى ذلك الشعراوي ، فقال : « أُخِذ علينا العهود إذا دخل النصف الثاني من القرن العاشر وفاض معنا شيء من المدد أن نجعله في طعامنا وشرابنا وفي كلامنا ، ونمد بأكله أو شربه من شاء الله من عباده بحيث لا يشعرون ، فيقوم ذلك مقام التَّلقِين من غير إظهار مشيخة في ذلك الزمان الذي استتر فيه الأولياء .

وقد كانت هذه طريقة لسيدي إبراهيم المتبولي رحمه الله ، كان إذا جاءه أحد ودخل الزاوية يسأل عن الشيخ ، يقول : اصبر . ثم يأمر النقيب أن يقدِّم له الطعام ويقول : هذا الشيخ . ومعناه أن المراد من الشيخ المدد لا غير ، وقد وضعه في ذلك الطعام » انتهى كلام الشعراوي ، وبيَّن أن المدد يجعلونه في الثلاثة : الطعام لمن أكله، والشراب - أي الماء - لمن شربه ، والكلام لمن سمعه .

وسيدنا ما ذَكَرَ إلا الطعام إكتفاء بِذِكْرِهِ عن ذِكْرِ الإثنين ، لأن ما صدق على البعض صدق على الكل ، كما ذَكَرَ الشعراوي الثلاثة أولاً ، ثم ثانياً ذَكَرَ اثنين ولم يذكر الثالث ، إكتفاء بِذِكْرِهِمَا عن ذِكْرِه .

وقول سيدنا : « **لا يحتملون شيئاً** » ، وهو لفظ مُبهم ، فبيَّنه قول الشعراوي : « وفاض معنا شيء من المدد » ، أن المراد باللفظ المبهم قوله : « **شيئاً** » ، يعني من المدد .

وإذ ثبت ذلك فنرجو أن كل كلامه هذا الذي نَقَلْنَاه عنه في هذه المجالس - هذا النَّقل - محشو من المدد ، فهنيئاً لمُطالِعِه والمتأمِّل له ، وكذلك في كل كلامه مما اشتملت عليه مجالسه ومؤلفاته ، ولو في كلامه المتعلق بأمور المعاش ، ككلام الشيخ الحسين بن الشيخ أبي بكر بن سالم ، وحَفِظَه عنه الشيخ عمر العطاس المتقدِّم ذِكْره ، ثم أمر تلميذه الشيخ علي باراس أن يشرحه ، فشرحه بمجلَّد ، لخَّصته في ما أذكره ، وهي ست كلمات ، قال الشيخ علي باراس :

« قال سيدنا عمر رضي الله عنه ونفعنا به : أتيت ذات يوم إلى حضرة سيدنا شيخ شيوخ العصر ، وقدوة أهل البَر والبحر ، الشيخ الحسين بن الشيخ القطب أبي بكر بن سالم علوي ، نفعنا الله به آمين ، فأردتُ منه مذاكرة في طريق القوم ، وكان ذاك بحضرة خلق كثير ، فقال : يا عمر ، من لم تنفعه الإشارة ما نفعته العبارة . وهذه الأولى من الست كلمات .

قال الشارح (ش) : وصدق رضي الله عنه ، إذ ما تُفهم الإشارة إلا بنور إلهي ، ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ .

قال الحسين : ومن لم يفهم التلويح ما فهم التصريح .

هذا تمام الكلمة ، (ش) لأن التصريح بعلومهم ما يزيدها إلا غموضاً .

قال عمر : فأُلقي في رَوعي - أي ضميري - أن الكلام الصادر بعد هذه الكلمة أنها مذاكرة ، لعلمي بأنه لم يخرج من مجلس المحاضرة وبسط المسامرة ، فقال لبعض الأخدام : يا فلان . فشاهدت عياناً أن ما المنادى إلا أنا بلسان الحال ، لا المنادى بلسان المقال ، فلسان الحال أبلغ من لسان المقال - قال كاتبه: تقدم بيانهما ، والفرق بينهما - قال عمر : فقال : سِرّه لِسِرّي - وتوريته للخادم - وضعوا النخل كباره وصغاره .

هذه ثاني الكلمات ، (ش) أي وضعوا نفوس المريدين المبتدئين ، ردوها كارهة عن تعدِّي حدود الله إلى الإتيان بأمر الله ، هذا صغاره . وأما كباره ، فعن التِّيه والشَّطح في غَلَبات الأحوال ، فإن شيخ الإهتداء كالذي يفخط النخل ويوضع خريفها وينفضه ، أن يدخله شيء من محبطات الأعمال ، من رياء أوعجب وغير ذلك ، لأن أسرارهم ترعى خواطر مريديهم ، فيكون المريد محفوظاً بغير شعور منه بتلك الرعاية المعنوية، فهذا لا يعتريه شك ، فإنه قد جرب ، فلا يُنَبِّئُكَ مثل خبير .

فقد قال لي سيدي عمر رضي الله عنه : التربية قد عزَّت منذ زمان ، وإنما بقي اليوم إلا التربية بالباطن ، ومهما رأيتَ منه في حالة من الحالات نقصاً فهو بَشَر ، فعامِلْهُ في هذه النقيصة بالأخوة ، فإن اليوم من جعل الله له هدى على يد أحد مِنَّا فإن تربيته نظرنا ، فنظرنا له رياضة ، لأن مثلنا كمثل طير في البحر ، لا يخرج ساعة في ليل أو نهار ، ويطرح بيضه في البر ، فكل طير ينجح بيضه بجناحه، ونحن ننجحها بنظرنا ، فيشج بيضته بنظره ، ويُعِد ولده بنظره حتى يستقوي ويطير ، فيجذبه إليه بِنَظَرِهِ حتى يَصِل من غير شعور منه بتربيته له ، لا يشعر أن هذا هو الذي ربَّاه ، ولا غيره يشعر بذلك . انتهى كلامه .

وما قاله رضي الله عنه حقٌّ ، لأنهم ينظرون بنور الله ، ونور الله ما وقع على شيء إلا صلح في الحال، فهذه تربية قطب المدد ، أعني به شيخ الإهتداء . وأما شيخ الإقتداء فهو من أخذ عنه العلوم النَّقلِيَّة الظاهرة ، وقد يجتمعان في واحد ، فإن شيخ الإقتداء ما له مدخل في الفخطة والتنفيض ، وإنما وظيفته إلا أن يبحث مسقاها ويبري الشجر منها ، والغالب أن الإنسان يظهر بلا خريف ، وهي حالته في الجهل ، قال الله تعالى : ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾.

- *أقول* : ونوعا المشيخة من الإهتداء والإقتداء ، والتربية بالسر والرعاية ، الكل قد اجتمعن في سيدنا عبدالله الحداد نفع الله به ، وقد سمعته مرة يقول : « **من ربَّيناه يفوق غيره ، لأنا نُرَبِّيه تربية لا يحس بها** » -

قال شيخنا حسين نفعنا الله به : يا عمر ، معنا سبي فقأ ليِّنه .

هذه الكلمة الثانية ، (ش) وجرت العادة الإلهية أن النخلة إذا نبتت وسقيت أنها تفقأ ، لكنه أيضاً مختلف نوعاً وقوتاً ونعومة وكثرة ثمر وقلة ، على اختلاف الأرض المغروس فيها إذ الروح الكلي كالأرض ، والخلق يخرجون منه كالنبات في الأرض ، فكل بقعة منها لها نَبْتٌ لا يصلح فيها إلا هو ، وهي أرض واحدة ، فكل نخلة تظهر على حسب ما غرست فيه من تلك الأرض ، فشيء منه طينه طيِّباً حسناً ، وماؤه قريب عذب، فما تسقى فيه النخلة إلا سَقْيَة أو سَقْيَتَيْن ، وهم أهل البيت النبوي ، أشار إلى أن طريقتهم طريقة أهل التعريف ، مسلوك بهم مسلك أهل الجذب ، وبقية الأرض مختلفة على حسب طينها ، وعلى حسب بُعد مائها وقربه ، فشيء سبخ وجول وبطاح وصليب ورخو ، ما يتأتى فيه إلا شجر الشوك ، وإن تأتى فيه السبي فهو بكلفة ، وهم أهل التكليف ، ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ .

قال الشيخ – يعني الحسين – رضي الله عنه : أملحوا إدمان الصيد .

وهذه الكلمة الثانية ، (ش) أشار بالصيد إلى المريدين لِقِلَّتِهِم ، لأنه اصطادهم من برِّيَّة الأهواء ، وليس كل شيخ قانص .

وأشار بالإدمان وملحها ، إلى الرياضات الظاهرة كالصلاة والصوم وغير ذلك ، لأن ذلك لنفس المريد كالملح للجلد لينضج دبغه ، فإن المريد كالديم ، وإن الديم إذا ملح اعتصرت منه بقايا ، هي أصل خباله ، كذلك نفس المريد إذا مُلِّحَت بذلك الملح اعتصرت منها شهوات هي أصل خبالها ، ولهم رياضات بعد ذلك تستلزم هذا ضرورة ، كعلْق الشعر والدبغ ، فإن علْق الشعر أشد من الملح ، لأنه يزيل بقايا زهومات ، كذلك نفس المريد إزالة شعرها هو إزالة عاداتها المستلزمة لها عادة ، كاستلزام الشعر للأديم ، وهذه أشد .

وأشار بالملح إلى فعل المأمورات ، وبإزالة الشعر إلى قطع المألوفات ، إذ هي أشد ، لأن ذوق المرارة أسهل من مفارقة الحلاوة ، قال النبي ﷺ : أذيقوها مرارة الطاعة ، كما أذقتموها حلاوة المعصية . ومخالفة النفس عندهم الموت الأحمر ، لأن ما أَلِفَته النفس يعسُر مفارقته غاية ، ولكن تبقى أمور فيها بعد ذلك خفية غامضة لم تنل إلا بالبلايا المترادفة ، ولا تُعرف هذه إلا بنور التوحيد ، فإنه يكشف ذنوب إضافات الياءات إليك ، وهي أخفى من دبيب النمل ، وهي بي ولي ، ولا يزيل ذلك إلا الدبغ، وهو عبارة عن ترادف البلايا .

قال الشيخ – أي الحسين – رضي الله عنه : امنعوا قوت الخيل عن أطفال الحُمُر وجحوش البقر .

هذه الكلمة الثالثة ، (ش) أشار بالخيل إلى النفوس المطمئنات والهمم العليّات المرابطات لجيوش الهوى والشيطان ، ومن كان فيه صفة الحمر من الحماقة والشهوة، أو من صفة البقر من البلادة وقلة العفة ، فجدير أن يشير إليه القوم بهذه الإشارة وأن يعبروا عنه بهذه العبارة ، لمناسبتهم لها صفة ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾، سيما صغارهم الذين ما بعد أتقنوا الرياضة بالحمل والعمل، فأَمَرَ بمنع قوت هذه الخيل المذكورة عن هذه الدواب المذكورة الممنوعة عن هذا القوت المختص بهذه الخيل، وهم أبناء الدنيا المنهمكين فيها الغافلين عما يُراد بهم الراضين بها المطمئنين إليها ، لأن الحمير والبقر غالباً ما تُستعمل إلا في الدنيا وما نُسِب إليها، وليست الخيل كذلك ، لأنها لا تُقتَنى غالباً إلا للمرابطة والجهاد ، ومفهوم أن قوت تلك الخيل الحكمة ، فقوت قلوب الحكماء العارفين واردات أنوار الأسرار المقدسة عن تطلع الأفكار المنورة ، عن أهل الجحود والإنكار ، المنبرجة لذوي الأسرار الصافية عن غبار الإنكار ، فكما أن القوت الحسي يقوي الخيل الحسية على الجهاد والإنتصار، فكذلك القوت المعنوي وهو الحكمة ، وأصناف الأذكار في العشي والإبكار ، والتضرع بالأسحار يقوي الخيل المعنوية على قتال الخواطر الردية والأفكار في المعاصي والإستبكار .

وأما من كانت صفته صفة الحمير والبقر ، فليس عليه جهاد في هذا الميدان ، فواضح أن الجهاد لا على حمير ولا بقر بل على الخيل ، قال الله تعالى : ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾، فمن حَمَلَ حكمة لغير أهلها فقد آثر جحوش البقر وشعالة الحمير بقوت الخيل ، وأهلها كل من أَهَّله الله لها ، هو أهلها . فانظر كيف أوصاه ، لأنه جعله لتلك الخيل سائساً ، لأنه لمطعمهن ومشربهن مقايساً ، وليخرج عنها بالرياضة غامضات الدسائس ، فمن أين لنا مثله في تفصيل هذا العلم وَحَلِّه ؟ لأنه أوضحه لنا بالحال والمقالة ، فلقد عدم عندي في وقتي هذا مثاله ، فكم تحفة أوصلها الله إلينا على يديه ليلاً ونهاراً . فبالجملة كله وغيره من طوافح رشح ولوامع لمح سيدي عمر بن عبدالرحمن ومجالسته يقظة ورؤيا، فجزاه الله عنا أفضل الجزاء ، وأمدَّني ومن أمَّن على ذلك من بركات نظراته ، ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾، فافهم .

قال الشيخ الحسين : كلما يبست الحَمضة وأبطت على الجِمَال هي أقوى لهن .

وهذه الكلمة الرابعة ، (ش) أشار بالجمال والله أعلم إلى المريدين الصادقين ، الذين سلكوا طريق التكليف ، فجعل الإشارة بالجمال إليهم ، لأنهنَّ في رأي أعيننا في جهتنا وما قرب إليها لا نعرف أكثر حملاً وأشد صبراً منها ، وإلا ربما عاد أكثر منهن حملاً ، لكنه مثَّل لنا بما نعرف نحن لا هو ، ولو أتاه مريد من قُطرٍ بعيد ، يعرف شيئاً من الأصناف في الحَمل والصبر يزيد على الجمال لأوضحه له بالمقال .

وأشار بذلك أيضاً لما يلقى المريدون وذووا السلوك مما يعجز عن حَمْلِه الفلوك ، وما يعجز عن

سيره كل جموح غيره ، وجعل قوتهن الحمضة ، وهي شجرة ما تطلع إلا بتكليف ، فكلما كلفوا في إطلاعها وسَقْيِها زادت في قوتهن ، لكن يابسة في الحال طرية في المآل ، لئلا تعجبهم طراوتها وحلاوتها في الحال ، فجعلت قوتهم يابسة ، ولم يشعروا أنها التي كلفوا إطلاعها ، حيث لم يروا طراوتها ، ولولاها ما قدروا على السير بالليل والنهار في الفيافي والقفار .

فإن الأوراد هي قوت قلوب المريدين ، والذين ظهرت لهم أنوار الأوراد في الحال ، أكلوها خضراء طرية ، ولم يعلموا ما في تأخيرها عليهم من صلاح النية ، ومن منافع كثيرة ، من نفي كِبْر وعجب ورياء وسمعة ورئاسة وحب جاه ومدحة، وغير ذلك من الآفات الداخلة على من ظهرت عليه أنوارها مع ضعف يقينه ، وأما من أكلها يابسة مع كدٍّ ونَصَب ، ولم يشاهد من الخضرة والطراوة ما شاهده السابق ذكره ، فحري أنه وإن كان في غاية الإجتهاد ، لا يرى لنفسه حظًّا ، لأنه أبداً لم يستحسن منها خُلقاً ولا عملاً . فلما فرغ من ذلك وأنهى الكلام على ما هنالك ، لَوَّحَت له الإشارة وأفْصَحَت له العبارة برفع الستور ، وأعطي من الحبيب منشور مُؤذِن بتقريب الزائر من المزور فلاحت له بوارق النور ، مشيرة أنه لا يصح دخول هذه الحضرة إلا بعد كمال الطهور ، فجد في أسبابه .

فقال رضي الله عنه - أي الحسين - : قربوا الطهور .

وهذه الكلمة الخامسة ، (ش) وهو المشهور بطهور صاحب الطور ، الذي برَّأه الله به مما قالوا ، وبعد ذلك يأتي إبَّان اتصال النور بالنور في الخبر المأثور : اتصل نور أبي بكر بنور النبوة .

فارفع أولاً حَدَث العين بالنظر إلى الله ، وإلى ما مِن الله في جميع حالاتك ، والإعراض عما سواه ، فإن نجاسة نظرها إلى السوى نجاسة مغلظة ، تحتاج إلى سبع غسلات إحداهن بتراب ، ورفع الحدث بعد ذلك .

فافهم أن شهود النظر إلى غير الله في الدنيا مانع من الشهود لوجه الله في الآخرة حيث لا مرخص، كما أن الحَدَث مانع من صحة الصلاة حيث لا مرخِّص ، وارفع حَدَث اللسان بذِكْر الله ، وحدثها أن تستعملها في غير ما خلقت له ، وهو كل ما لا يعود عليك نفعه في الآخرة ، وكذلك في كل عضو ، فإذا حصل الطهور التام فقد خلا عن الحدَثَ المذكور ، وحلَّاهن بذلك الطهور ، وجلَّاهن بالشهود بين يدي المعبود ، شعر :

تَطَهَّرْ يَا مَحْبُوبْ طُهْراً تَرُومُهُ ... أَبَحْنَا لَكَ المَيدَانَ أَنْتَ المقَدَّمُ
وَهَذَا بُرَاقُ الوَصْلِ شُدَّتْ حُزُومُهُ ... وَهَذِي حَضَائِر قُدْسِنَا فَتَقَدَّمُوا

وَهَذَا طُلُوعُ السُّعْدِ آضَتْ نُجُومُهُ وَهَذِي جِنَانُ القُرْبِ فِيهَا تَنَعَّمُوا

ثم قال رضي الله عنه - يعني الحسين - : شدُّوا الفرس نريد نطلع الحضرة .

وهذه الكلمة الخامسة ، (ش) أشار بالطلوع إلى الترقِّي إلى حال بعد حال ، ثم إلى شأن بعد شأن، ﴿ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾، فهذا أوان السير في الله إلى الله بالله ، فلا لهم في ذلك انتهاء في الآخرة ، فضلاً عن زهرة الدنيا ، فكان السير إليه فيه به ، فالحضرة حضرة جمع ، فهناك لم يكن له نظر ولا سمع ، إلا ما أعارته إياه من تلك الحضرة ، فافهم . فهناك تجري لهم منازلات ومخاطبات ومسامرات ومحاضرات ، وغير ذلك مما لا تجوز إذاعته ، آه آه عليها من موارد لم نألف بها كدراً .

ثم قال رضي الله عنه - أي الحسين - : الفاتحة .

وهذه الكلمة السادسة ، (ش) فأخذ في قراءة السبع المثاني ، فأول ما رآه ما سواه فَانٍ وليس معه سواه ، فالسبع المثاني بحر يفضي بداخله إلى البحر الذي تاهَتْ فيه السُّفن ، وغرق فيه من غرق ، وحرق فيه من حرق .

انتهى ، ونستغفر الله من خوضنا فيما لا علم لنا به ، إذ لا يعرف كلام العارفين إلا عارف ، لأنوارهم محادثاً ومقارف ، ولم يصرفه عن مناهلهم صارف ، لكن محب العارفين عارف ، قال عليه الصلاة والسلام : المرء مع من أحب ، ويقال : المرء على دين خليله . وفي التشبه بهم من غير دعوى لحالاتهم غاية الفلاح ، إذ في إدارة ألفاظهم على اللسان تثبيت للجنان ومبشر بالأمان ، كما أن مضحك آل فرعون دخل الجنة لتشبهه بكلام ابن عمران عليه السلام ، قال الشيخ العارف بالله السهروردي رحمه الله ، شعر :

فَتَشَبَّهُوا إِنْ لم تَكُونُوا مِثْلَهُم إِنَّ التَّشَبُّهَ بِالْكِرَامِ فَلاحُ

تشبَّهوا حالاً ومقالاً وأفعالاً وأخلاقاً وسيرةً وحلماً وصبراً واجتهاداً واحتمالاً وعفةً وورعاً وتقشفاً وتخشعاً وحياءً ومروءةً ، وغير ذلك من أخلاقهم وأحوالهم وأعمالهم ومراعاة آدابهم ، فهذا هو التشبه الذي يحصل به الفلاح الذي ذَكَرَه الشيخ، والتشبُّه المطلوب الذي يحصل به الفلاح هو الذي جاء في آخر الفرقان : ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾.

وأما التشبه الكاذب ، فهو الذي يدَّعي ما ليس هو له أهلاً والعياذ بالله ، قال الله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾، وقال تعالى : ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ ﴾ .

هذا آخر ما لخَّصنا من شرح باراس على كلمات سيدنا الحسين ، لما أمره بذلك شيخه الشيخ عمر العطاس نفع الله به ، بياناً لما أمدَّه به الشيخ الحسين من معاني هذه الكلمات العامية ، مما اشتملت عليه من المعاني المذكورة ومما لم يَذْكره ، وفهم منها الشيخ عمر أيضاً معاني غيرها ، ليتحقَّق لك أنهم يمدون الطالب بشريف المدد في أقوالهم ، كما يمدُّونه في طعامهم وشرابهم .

وكنت نقلتُ هذا ولخَّصته من شَرْحِهِ في بَلَدِهِ الخريبة ، طلبته من بعض أولاده لما زرت دوعن مع السيد حسن بن سيدنا عبدالله ، وكان نَقْله هناك يوم ٢٠ من شهر رجب سنة ١١٢٣ في ورقة مفردة ، فتقطعت قطعاً ، ثم نقلته منها هنا تمام نقله يوم الخميس ٢٨ من شهر رمضان سنة ١١٧٠ .

ومما يشير إلى ما ذَكَر وذَكَره الشعراوي من قوله : « إذا فاض معنا شيء من المدد أن نجعله في طعامنا ، إلى أن قال : يقوم ذلك مقام التلقين » ؛ ما قال سيدنا في بعض مجالسه ، أنه سافر إلى دوعن فيما سبق من الزمان ، قال : « **فزرنا الشيخ علي باراس** - يعني المذكور - **لأنه من تلامذة شيخنا الشيخ عمر العطاس ، فأراد منَّا أن نأخذ عنه الطريق فامتنعنا ، وقلنا : قد أخذنا عن من أخذتَ أنت عنه ، الشيخ عمر ، والسادة إنما مددهم من بعضهم بعضاً ، وغيرهم إنما يستمد منهم . وألحَّ في ذلك ، فلما رأى امتناعنا من الأَخْذ عليه ، فعل لنا عصيدة وأرادنا نتغدَّى عنده فأبَيْنا من ذلك ، فانكَسَرَت البُرمة وسَقَطَت العصيدة في الرماد ، فقرأنا الفاتحة وخرجنا** »، هكذا بهذا اللفظ ، ومعناه ذَكَرَه يوماً في مجلسه بالسبير ، وذَكَرَ ذلك أيضاً غير مرة في مجالس متعددة .

وأخبرني رجلٌ حضر مجلسه عند باراس ، قال : « إنه لما أراد القيام من ذلك المجلس ، قال باراس: يا سيد عبدالله ، قد عجزنا عنك من كل وجه » ، قال : « وإن بعض السادة من آل الجفري من أهل الخريبة ، كان بِلِيْسَر تلك الليلة التي بات سيدنا فيها بالخريبة ، بعد قصته مع باراس ، فحكى ذلك السيد أنه رأى تلك الليلة رؤيا ، قال : رأى أن سيدنا عبدالله أَقْبَل على باراس فاتحاً فاه وحنكه الأسفل بالأرض وأعلاه في السماء ، وبا راس بين يديه كالعصفور ، أَقْبَلَ عليه لِيَلْتَقِمَهُ ، وإذا بالسيد عمر العطاس معترضه يقول له : لا يا سيد عبدالله ، لا يا سيد عبدالله، اتركه لأجلنا ، فتركه » ، ولم يعلم الرائي بالقصة ، فلما جاء إلى بلده الخريبة حكى برؤياه المذكورة ، فأُخبِرَ عند ذلك بما وقع له معه - أي لسيدنا مع باراس - فعجب هو - أي الرائي - وكل من سمع بالواقعة والرؤيا .

وإنما فعل باراس العصيدة لما امتنع سيدنا من الأَخْذ عليه ، لأن أَكْل الزاد عندهم أَخْذٌ للطريقة ، فمراده أنه إذا أكل فهو قد أخذ عنه كما قد تقرر ذلك ، حتى إن من أكل زاده فقد أخذ عنه ، كما تقدم من قول سيدنا وقول الشعراوي أنهم يجعلون المدد في الزاد لمن لم يُمكِنه الأخذ ، سيما في هذا الزمان ولغالب الناس، ويقوم لهم مقام التلقين ، وبه يصير من تلامذتهم والمنسوبين إليهم ، وبه يحصل له المدد

منهم . وفي كلام الشيخ عبدالقادر الجيلاني نفع الله به ، ذَكَرَهُ في كتاب « جلاء الخاطر » مما يتكلم به على الناس فوق المنبر ، قال رضي الله عنه : « يا هذا ، سِر مِيْلاً أو مِيلَيْن، كُل من عندي لقمة أو اشرب من عندي شربة ، أو اسمع مني كلمة » ، كل هذا للمعنى المذكور من وَضْعِهم المدد في الثلاثة المذكورة ، كما صرَّح به ، فصرَّح في كلامه هذا بالثلاثة التي ذكر الشعراوي كلها : الأكل والشرب والكلام .

فكان نفع ذلك من وضع المدد كذلك في وقته ، والوقت إذ ذاك أصلح من وقتنا ، وكان الكثير أو الأكثر من الناس فيهم أهلية للأخذ عن الأكابر ، حتى إن أحدهم قد يكتفي بالنظرة فتُغنيه وتكفِيه ، لكمال الإستعداد من صِدْقه في الزهد في الدنيا ، مع موافقة الإرادة الإلهية . وأما اليوم لما ضعفوا عن ذلك لعدم الشرطَيْن في الكثير أو الأكثر ، لما أراده الله من نزول الناس مع استمرار الزمان ، كما تقدَّم من قول سيدنا : « **ولما رأينا الزمان يتناقص ، بنينا أمرنا على ثلاثة أمور** » ، وتقدَّمت مع تفصيلها ، فالنفع بما ذُكِر - أي من الثلاثة أو أحدها - أكثر وأبلغ .

وقول باراس : « يا سيد عبدالله ، عجزنا عنك من كل وجه » ، يعني أنَّا قلنا لك وعالجناك بالقول فما ساعَدْتنا على ما أَرَدْنَا منك ، ثم أَرَدْنَاك من الوجه الذي ينوب منابه عند عدمه ، وهو أكل الزاد ، فما ساعَدَتنا القدرة على ذلك وانكسرت البُرمة وتبدَّد الزاد في الرماد ، فقد عجزنا عنك شريعة وحقيقة ، ومن حيث الحكمة ومن حيث القدرة .

والعجب من باراس كيف عالج سيدنا كل هذه المعالجة ، على أن يأخذ عنه ، مع أن شيخه الشيخ عمر العطاس مع جلالة قَدْرِهِ وكماله وعلو شأنه وعظيم أمره احتقر نفسه وتصاغرت عنده أن يكون شيخاً للسيد عبدالله الحداد لما أتاه سيدنا إلى بَلَدِهِ حريضة طالباً منه الطريقة وأن يلبسه الخرقة ، قال : « لستُ أهلاً لإلباسك ، بل ألبسني أنت » ، وعالجه سيدنا كثيراً ، فما أَلْبَسَه حتى أَلْبَسَه سيدنا وأَخَذ عنه أولاً واتَّخذه شيخاً ، ثم بعد ذلك أَلْبَسَه وتتلمذ لسيدنا واتَّخذه شيخاً ، واعتَقَد كلُّ واحدٍ منهما أن الآخر شيخه ، لشدة التواضع منهما ، قال سيدنا : « **فما ألبسني إلا بعلاج ، حتى ألبَسْته كوفِيَّتي وألبَسَني كوفِيَّته ، وترك كلٌّ مِنَّا كوفِيَّته للآخر** » .

وهو - أي الشيخ عمر العطاس - القائل : « إن السيد عبدالله الحداد ثوبٌ طُوِيَ ، نُشِرَ لأهل هذا الوقت سعادة لهم ، وإنما هو من أهل القرن السادس » ، فأُخبِر سيدنا بقوله ، فقال : « **لولا الأدب مع النبي ﷺ وأصحابه ، لقلت : أني من أهل القرن الأول ، وما فيه إلا النبي ﷺ والصحابة رضي الله عنهم ، ولكني من أهل القرن الثاني ، فانظروا بيني وبين أهل الزمان إن كنت أشبههم أو يشبهوني** » .

وكل هذا - أعني قول الشيخ عمر وما بعده - قد تقدَّم في أول الكتاب ، وإنما جرَّنا إلى ذِكْره هنا فحوى هذا الكلام ، وقصة باراس في معالجته ، كما قال بعضهم: « من أوتي حظًّا من أحوال الصالحين

من السادة ، كان محفوظاً بحِفظ الله عن الإنتفاخ بالكِبْر والعجب والدعوى » ، وإنما يكون ذلك ممن أوتيه من غيرهم ، فما يلبث أن طَغَت نفسه وبَغَت ، كما ذُكِرَ من شأن الشيخ عمر العطاس وتصاغُر نفسه إليه أن يكون شيخاً لسيدنا عبدالله ، حتى أخذ هو عنه وصار تلميذاً له ، ومعالجة باراس أن يكون سيدنا تلميذاً له ، فما ساعده على ذلك الإمكان ولا القدرة .

وكما قال الشيخ عمر أيضاً ، قال شيخه أحمد بن ناصر صاحب الشحر ، كما سيأتي من قوله : « ما أسعدكم يا أهل حضرموت برؤية السيد عبدالله الحداد ، حيث ترونه كل حين ، وما ساقه الله إلينا إلى الشحر إلا سعادة لنا ، حتى نراه ونلتمس منه» ، وذلك لما وصلها ماراً عليها يريد الحج ، سنة ١٠٧٩ . وقال أيضاً: « السيد عبدالله الحداد عطِيَّة من الله في هذا الزمان الذي خَفِيَ فيه الخير » ، وتقدَّم هذا وأكثر منه .

وتذاكرتُ في بلد زبيد اليمن ، مع السيد الكامل الفاضل العلامة يحيى بن عمر الأهدل ، في أحوال سيدنا عبدالله ، فقلت له : إن شيخه السيد عمر العطاس قال: « هو من أهل القرن الرابع ، طُوِيَ وأُخرِجَ لأهل هذا الزمان » ، فقال : « ينبغي من أهل السابع » ، وهو الواقع وإنما أنا غلطت ، وكان عنده علم من ذلك ، وقال: « إن السيد عبدالله علومه ، هو العلم الذي قال النبي ﷺ : اطلبوا العلم ولو في الصين، وهو العلم الواجب » .

ومن مثله ؟ ومن يلحقه في الفضل ؟ فنرجو أن ينفعنا الله وأهل زماننا هذا ببركاته ، حيث كان فيه، وجَمَعَ الكُلَّ وقتٌ واحد ، فإن أهل هذا الزمان كلهم مُجمِعُون عليه في كل مكان وكل طبقة ، والناس اليوم ما بقي لهم فعل فضيلة ، ولكن صحبة لأهل الفضل .

كذلك جَرَت بيني وبين ابن أخته ، السيد الفاضل أحمد شريف الأهدل مذاكرة في سيدنا عبدالله ، فقال : « سمعنا ذلك الكلام – يعني كلام السيد عمر العطاس– ولكن لم يتحقَّق عندنا وقوعه ، والآن تحقَّقنا وقوعه » ، وذَكَرَ الإجماع على تفضيل سيدنا عبدالله على كل من سواه .

وكذلك تذاكرت في سيدنا عبدالله مع الشيخ الكامل صاحب المكاشفات والكرامات الشيخ الزين بن صديق المزجاجي النقشبندي صاحب التُّحَيتا من أعمال زبيد ، وسأل عن مرض سيدنا ، فذكرت له بعض ذلك ، فقال : « أهل الطب يذكرون أن الروح باردة لمخالطتها التراب ، وأهل الله يقولون إنها حارة ، لأن الروح إذا غَلَبَت التراب أَحْرَقَتْه ، فلم يَبْقَ له معها سلطان » ، ومراده بالتراب الجسم إذا غلبته الروح ضعف ، كما هو حال سيدنا عبدالله نفع الله به .

وقرأت عليه التائية من الديوان ، ثم تناول مني الديوان وأخرج العينية ، وقال : « اقرأها عليَّ » ،

فقرأتها عليه ، فطلب أن أكتبها له مع سلسلة سيدنا في لبس الخرقة ، فكتبتها له من الحديدة وأرسلتها له . وقرأت عليه شيئاً من كلام سيدنا في المجالس ، فقال : « هذا كلامُ محقِّق » ، وهو مذكور فيها ومنبه عليه ، ثم قال ثاني يوم : « أنصحك لوجه الله ، لا تنقل كلام الصالحين » ، كما تقدَّم أول الكتاب ، وأول ما لقيته قال : « جاءني منذ أيام كتاب من السيد عبدالله ، وما عَلِمتُ بمضمونه إلا يوم جاءنا خبر وفاته» ، فعلمتُ أنه مستودع .

وذُكِرَ لسيدنا رجلٌ قد أخذ عن بعض مشايخه ، *فقال* : **« قد اجتمعنا به أول مرة وثاني مرة ، وفي الثالثة ما رحنا عنده ، لأنه حصل لنا رؤيا من جهته ، وكذلك رأى بعض السادة رؤيا ولا حكى لنا بها إلا ونحن هناك »** .

أقولُ : هذا الرجل المشار إليه هو باراس ، وقد سار سيدنا إلى دوعن ثلاث مرات ، ففي الأولتين مر عليه لِسُنَّةِ الزيارة ، ولكونه تلميذاً لشيخه الشيخ عمر العطاس ، لكنه لما عاجله في الثانية على الأَخْذِ عنه ففي المرة الثالثة ما عاد مر عليه .

وقوله : **« رأى بعض السادة رؤيا »** ، يعني رؤيا السيد الجفري المتقدِّمة ، أنه رأى أنه أراد يبتلع باراس ، وتوجه السيد عمر العطاس عليه أن يتركه لأجله فتركه .

وقوله : **« حصل لنا رؤيا من جهته »** ، فما حكى لنا برؤياه هذه ، ولا جَسَرْتُ أن أسأله عنها ، فإن كان قد ذَكَرَها في بعض المجالس فلعلها تأتي في ذِكْرِ مرائيه .

ثم انجرَّ به الكلام كثيراً في هذا المجلس ، *ثم قال* : **« ولا أعلم ، يتعلق بالرجل أم لا ، لكنه كلام عام ، المعنى فيه وفي غيره »** ، *قال* : **« إذا أَشْغَلَنَا أحد - أو قال : آذانا أحد - لا ندعو عليه ولا نكرهه ، ولكن نحب أن نكلِّمه بكليمة حتى نتنفَّس بها من جهته ، لئلا يبقى في خاطرنا عليه شيء ، فيأخذه الله بذلك ، لأنا جرَّبنا ورأينا من عادة الله أنه ما آذانا أحد إلا أَخَذه الله »** هـ .

أقولُ : الكليمة التي ذَكَر ، كليمة علاق تدل منه على الغضب عليه ، وقد جَرَّب أن بذلك تتعدَّاه العقوبة ، فيفعل ذلك للرد عنه ، ولا يفعله إلا لمن يحبه ويخشى عليه ويشفق .

وقوله : **« ما آذانا أحد إلا أَخَذَه الله »** ، كما قد ذَكَرْنا من قصة الدمشقي والعسكري اليافعي .

وقوله فيما تقدم : « **إن أهل الزمان لا يحتملون شيئاً** » ، أي من أحوال الصالحين لكثرة ما معهم من الموانع من ذلك ، وأعظمه تفجع قلوبهم في محبة الدنيا ، ولو وقع لهم مع علمهم به لا يحتملون مجاورته معهم ، فربما طغوا وعَتَوا بسببه .

قال : « **فنجعله لهم في الطعام** » ، من حيث لا يشعرون به ، فيبقى نفعه مدخراً لهم في الآخرة ، ولو شعروا به ومُكِّنوا من التصرف به لجردوه لنفع الدنيا فقط ، لعدم التمكين منهم ، وإنما ينضبط مع الأحوال من مكَّنه الله وغلب الأحوال ولا تغلبه الأحوال مثله هو ، وإنما الغالب والأكثر من تغلبه ، كما ذَكَرَ فيما تقدَّم عن بعضهم قال : « **ملأوا الأرض زعاريط بلا شيء** » ، يعني دعاوي وتكبُّر كما ترى كثيراً ، لظنهم في أنفسهم أنهم نالوا شيئاً ، فإن قلت : فمن أوتي شيئاً من ذلك الأمر لا يكون إلا زاهداً في الدنيا ، فكيف يبذله لنفع الدنيا ؟

فاعلم ، أنه ولو كان زاهداً زهداً ما ، فيعطى منه على قدر زهده ، لأن الزهد الكلي الكامل قلَّ ما يوجد ، إلا عند الحبيب عبدالله الحداد وأضرابه من السابقين قبل هذا الوقت ، وأما غيره ولو زهد وحصل له شيء ، فلا بد ما يجري عليهم شيء من مظاهر الوقت من محبة الدنيا والطمع والشح والبخل ، كما ترى في أكثر فقراء الوقت ، فليسوا أهلاً لذلك - أي لظهور أحوال الصالحين عليهم - فيجعله لهم في الطعام من حيث لا يشعرون ، ويبقى مُدَّخراً لهم في الآخرة .

فإذا كان الأمر كذلك ، فقد كثر إمداد سيدنا للناس من إمدادته الشريفة لهم في الطعام من حيث لا يشعرون ، فاتخذ عوائد كثيرة من الولائم لذلك ، وسمَّاها بأسماء أسبابها الظاهرة ونَسَبَها إليها ودعا الناس إليها ، وهم يعتقدونها على هذا الوجه منسوبة لأسبابها ، ومراده بها ذلك المعنى المذكور ، من إيصاله المدد إليهم بها ، وذلك لا يخطر لأحد على بال قط .

فاتخذ عادة وليمة للحُجَّاج إذا تكامل مجيء الجايين من الحج ، ويعزم معهم كثير من الناس من السادة وغيرهم ، وسمَّاها : « **عزيمة الحجاج** » ، هذا اسمها وسببها الظاهر عند الناس ، ومعناها ومقصودها عنده لا يشعر به أحد ، ولا يخطر بباله .

وله في مدة شهر رمضان عزايم كثيرة ، كل ليلة منه ، يدعو جماعة للإفطار عنده غير من دعا أولاً ، حتى يعم في كل الشهر أكثر أهل البلد من الفقراء والمساكين من السادة وغيرهم ، وله عزايم كبار غير ذلك ليالي ختوم مساجده ، مسجد الأوابين ليلة ٢٣ ومسجد الهجيرة ليلة ٢٧ ، وختم مصلى الحاوي ليلة ٢٩ ، وله ليلة العشرين من شهر رمضان عزيمة كبيرة جليلة عليها البهاء والسناء ، يدعو فيها الوجوه من السادة وأهل الفضل ومن غيرهم ، ويرسل لهم يدعوهم ، ويحب من يحضرها من غير دعاء من المحبين والمتسببين ، ويلوم من لا يحضرها منهم ولو ما دُعِي ، وأناس من السادة والفضلاء

يحضرونها من غير دعاء ، ولو كان معه عذر يمنعه من الحضور ، ولا يسمح بفواتها ، ويعتقد التبرك بطعامه ولو كان غافلاً عن ذلك المعنى ، حتى إنه عتب على رجل ممن يتخدَّم له ويتردَّد إلى مجالسه ، أن لم يكن حضر هذه الوليمة العظيمة وليمة العشرين ، وهو مع ذلك لم يُدْعَ ، واعتذر بعدم الدعاء ، فقال له : « **أتتأخَّر ؟ لم تَجي ، وأنت تطيق ولا عُذر معك يمنعك ؟ ما هذه حالة المتعلِّقين ، والتغصَّاب ما ينفع ، ألا ترى فلاناً** - وهو السيد زين بن سميط - **حضر وهو مارُود - أي محموم - وما طلع إلا راكباً ، ولو أُخبرتَ بحجَّة في شبام سِرْتَ إليها ، فقد عَلِمْنا إنك لما كنت تدوّر الحجَّات لا يجيء منك شيء ، لأن حُبَّ الدنيا ذنب لا يغفر** » .

فقال الرجل : يا سيدي ، الآن عمري سبعون سنة ، وليس معي منكم شيء ، ولا عُرف لي بكم اتصال ولا نسبة ، فعسى ببركتكم يقع لي شيء ، فقال رضي الله عنه : « **أوَ أنا أطرح فيك ما ليس فيك؟ إنما الأنبياء والأولياء مهيِّين ما جعله الله في العبد ، ومن لم يجعله الله فيه ، فماذا يفعلون به ؟قال ﷺ : إن الله هو الرزاق ، وإنما أنا قاسم . لكن معك القرآن ما يسيِّبك ، ولو إنك لم تعرف منه إلا لفظةُ دون معناه، وما أحد يسيِّب الدِّين للدنيا ، لأن أمور الدنيا معروفة من محارثها وتجاراتها ، وما سيب كار الدين منها:** ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾، ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾، **لكنَّك أكْثِر من قراءة القرآن والإستغفار والصلاة على النبي ﷺ ، إن سقطتَ من هذا ما سقطتَ من هذا ، ولو أنك على الطريق التي دخلتها لكان الناس اليوم يتبركون بك ، ولكن انْذُر القابلة إلى الحاوي أفْطِر ، والسباق إلى هناك يا فلان ، فإذا بسط بساط الكرم فلا أحد يغتر به** » ، فبكى الرجل عند ذلك بكاء كثيراً .

أقُولُ : الرجل هذا : نبيهان ، وكان يحفظ القرآن ، وكل هذا خصام له حيث لم يحضر تلك العزيمة الكريمة والوليمة العظيمة ، المشتملة على كثير الإمدادات من فضل الله وكرمه ، وكرامة سيدنا نفع الله به واعتنائه ، ولولا ذلك لما كان احتاج معه إلى كثرة هذا العتاب ، وإنما ذلك لشدة اعتنائه بالرجل ، لأنه كان من صغره من المترددين عليه وممن يحضر مجالسه ، فلذلك ثَقُل عليه عدم حضوره تلك الوليمة وما اشتَمَلَتْ عليه من كثرة المدد والبركة ، ويدل على معنى ما ذكرت قوله له : « **قد عَلِمنا منك أنك لما كنت تدوّر الحجَّات لا يجيء منك شيء** » ، يدل ذلك منك أنك لستَ أهلاً لذلك ، ولامَهُ بقوله : « **وما أحد يسيِّب الدين للدنيا** » ، وبقوله : « **لأن أمور الدنيا معروفة من محارثها وتجاراتها** » ، يعني لا يستحق ذلك الأمر المشار إليه من الإمدادات الإلهية بأكل طعامهم وحصول مراتب الولاية من يسيب الدين للدنيا ، بأن يقصد بالحج الذي هو من أمور الدين للدنيا ، بأخذ الأجرة عليه ، لأن أمور الدنيا معروفة كان ينبغي أن يطلبها بها ، لا بأمور الدين .

وهذا شاهِد لما قلنا : أن الإنسان ولو زهد وحَصَلَ له من ذلك الأمر بقدر زهده ، لا يُؤمَن أن

تغلب عليه مظاهر الوقت ، من شدة محبة الدنيا ، لأن الناس بأزمانهم أشبه منهم بآبائهم ، كما قال سيدنا علي : « **فلا يؤمن أن يستعمل ذلك فيها** » ، هذا مع عدم طلب الدنيا بأمور الدين ، وأما من طلبها بها فلا يجد منه شمة ، وإن ظن في نفسه وأحسن ظنه بها ، واعتَقَدَ أنه حصل له منه نصيب وافر، ثم انتفخ كِبْراً وعَجِبَ بنفسه وتجبَّر على الناس بما ظنه ، وطالت وعرضت دعاويه ، فكل ذلك لشؤم حظّه ، ولا بُدَّ أن يعاقبه الله ويخذله في الدنيا ، ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾، انظر قول سيدنا لذلك الرجل : « **ولو أنك على الطريق التي دَخَلْتَها ، لكان الناس اليوم يتبرَّكون بك** » ، ثم قال له : « **لكن اندر القابلة إلى الحاوي أفطِر** - أي لعله ينوب لك مناب ما فاتك من تلك الوليمة - **وأكْثِر من قراءة القرآن والإستغفار والصلاة على النبي ﷺ** » ، أي لعلك أن تتأهَّل بذلك لذلك ، وكل هذه علامات تدل منه على ذلك المعنى .

وكان لسيدنا بهذه الوليمة خاصة اعتناء كثير وشأن خطير ، وبمن يحضرها دون غيرها ، وبغير دعاء آثر عنده ممن يُدْعَى ، ويرغب لكل من يحبه أن يحضرها ، ويسوءه أن أحداً من محبِّيه لم يحضرها ، وإن كان شأن غيرها أيضاً كذلك ، لكن لهذه زيادة ، حيث جعلها في هذا الوقت الشريف ، عند ابتداء العشرين من هذا الشهر الجليل ، الذي تفيض من الله سبحانه فيه الإمدادات الكثيرة ، وفيها أكثر وأَجَل وأَفْخَم من غيرها ، سيما وفيها مرجوَّة ليلة القدر ، التي هي خيرٌ من أَلْفِ شهر .

وعلى ما قال سيدنا ، وقال الشعراوي ، ونقله عن الشيخ إبراهيم المتبولي : « إن أَكْلَ طعامهم ينوب عن التلقين لحصول المدد الذي جعلوه فيه » ، وخصَّها سيدنا أيضاً بهذا الوقت ، زيادة في حصول كمال ذلك ، حتى إن كثيراً من الناس لمَّا عَلِمُوا منه بذلك ، حرصوا على حضورها دُعُوا أو لم يُدعَوا، ولو كان معهم عذر يعذرهم كالحُمَّى يتكلَّفُون الحضور ، ولو لم يقدروا إلا راكبين أتوا كذلك، كالسيد زين بن سميط ، خرج إليها وهو محموم ومن غير دعاء ، وكان العذر يَسَعه ، فلم يعذر نفسه من حضورها لما رجا مما ذَكَر ، ولهذا طال عتابه لذلك الرجل ، فرضي الله عنه ما كان أَشْفَقَه على أصحابه وأخدامه ومن انتمى إليه ، وما أرْغَبه وأحْرَصه على حصول الخير لهم ، فإذا كان أنه يمد الناس من هذا الوجه الواحد الذي هو أَكْل الزاد بهذه الإمدادات العظيمة ، ثم بغيره كثيراً من الوجوه الكثيرة ، من تلقينٍ وإلباسٍ وكلامٍ وطرحِ النظر ، وغير ذلك من وجوهٍ لا تُحصى ، فلهذا قال : « **الذين انتفعوا بنا ، أكثر ممن انتفع بالمشايخ المتقدمين** » ، يعني الذين سبق وقتهم قبل وقته ، سيما هذا الوقت الذي عَمِيَ فيه البصر وحار فيه الفكر ، رضي الله عنه و نفعنا به في الدارين .

وقوله فيما تقدَّم : « **إن الأنبياء والأولياء مهيِّين ما جعله الله في العبد** » ، أي ما أراده الله له في سابق أزله ، وكَتَبه في اللوح المحفوظ ، فإذا حضر وقته المؤقت به ، عملوا معه كما يعملون مع المريد الصادق .

ومثل قوله هذا ، قوله المتقدِّم : « **نحن اليوم مع الناس ألَّا بالعناية ، وأما الأسباب فقد أتينا منها بما أمكن ، فما جئنا منها بشيء** » ، وهو معنى قوله هنا : « **وإذا لم يجعل الله في العبد شيئاً ، فما نصنع به؟** »، يعني إذا لم يُرِد الله له شيئاً ، ولا كتب له شيئاً فماذا نعطيه نحن وما نفعل به ؟ يعني فمعاملتهم معه أسباب ، والسبب لا يكون إلا فيما كتب ، لقوله تعالى : ﴿وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾، والإبتغاء هو التسبب، وما كتب الله هو الذي أراده ، وما لم يُرِدْهُ لم يكتب ، فلا يفيده التسبب ، وهو قوله : « **وأما الأسباب فقد أتينا منها بما أمكن ، ولا حصَّلنا بها شيئاً** » ، وأما المراد المكتوب فهو العناية ، ولا بُدَّ أن يؤقَّت بوقت ، فإذا حضر وقته حصل لا محالة ، وهو معنى قوله : « **نحن مع الناس اليوم ألا بالعناية** »، يعني ملاحظة المكتوب لا غير دون ملاحظة الأسباب ، كما قدَّمنا أن جميع الأسباب الدينية والدنيوية والأخروية لا تفيد شيئاً إلا بالمشيئة على ما سبق للعبد ، ولا يموت إلا عليه ، خيراً كان أو شرًّا، لكنَّا في هذه المادة وهذا الميدان إنما الكلام في الخير وأسبابه خاصة دون ما سواه، وهو موضع اتفاق مَجْمَع البحرين الشريعة والحقيقة ، الذي هو طريق السعادة الموافق ما أراده الحق من العبد وأراده به ، أي ما أراد سبحانه أن يجزي به عبده .

وأنشد منشدٌ بين يدي سيدنا بقصيدة أُنشِدت فيه مُدِحَ بها ، ***فقال*** : « **نحن ما نشتغل من هذه الأشياء ، لأن ما وقع لنا منها طرحناه في بحر النبي ﷺ ، لأن النبي ﷺ منبع الفضائل كلها ، وهو الممدوح بها كلها ، فكل مَن مُدِح بعده بفضيلة فإن مدحه يعود إليه ﷺ لأنه السبب في حصولها . والشيطان منبع الرذائل كلها ، فكل من ذُمَّ برذيلة فذمُّه عائد على الشيطان ، لأنه السبب في حصولها ، وناس يكرهونها ، أحد كذب ورياء ، وأحد من نفسه . وقد قال الإمام الشافعي رحمه الله : من عرف نفسه لم يضره المدح** » هـ .

أقول : يعني أن النبي ﷺ هو السبب في حصول الفضائل والخيرات والسعادات ومنه عُرِفَت وبه اتُّبِعَت وعُمِلَ بها ، ولولاه ما عُلِمَت ولا عُرِفَت ولا دُرِيَ بها ، ولهذا يعود عليه ويرجع إليه مدحها ومدح من عمل بها ، وله أجرها وأجر من عمل بها مضاعفاً مع أجْرِهِ إلى يوم القيامة .

ومعنى المضاعفة : أن أول من علمها منه وعمل بها فله الحسنة بعَشْر ، وآحاده عشرات للنبي ﷺ. يعني كل واحدة من عَشْرِ الأوَّل بعَشْرٍ للنبي ﷺ ، فتكون عشرة بمائة للنبي ﷺ ، فإذا تعلَّمها آخرٌ من الأول وعَمِلَ بها ، فله الحسنة بِعَشْرٍ، وعَشْرة بمائة للأول ، وللنبي ﷺ بألف . وعلى هذا التعداد والزيادة في درجات النبي ﷺ وفضله إلى ما لا يحصى إلى يوم القيامة ، يعني ولو علم من الثاني آخر وعمل بها ، صارت حسناته له عشرات ، وللثاني الذي قبله مئات ، وللأول الذي قبل هذا ألوف ،

وللنبي ﷺ ألوف ألوف ، وقِسْ على هذا .

والشيطان عليه وزر أهل الرذائل مضاعف إلى يوم القيامة ، ولكن لا كذلك التضعيف ، لأن السيئة الواحدة بواحدة ، فتكون الواحد للآخر ثنتين ، والعشر عشرين ، وللآخر بعده بواحدة ، فتكون للأول بثلاث ، وللثاني بثنتين ، وله العشر بعشرين ، وللأول بثلاثين ، وهكذا ، كما ورد في : مَن سَنَّ سُنَّة حسنة فله أجرها وأجر من عَمِلَ بها إلى يوم القيامة ، ومن سَنَّ سُنَّة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة . ومثل ذلك من دعا إلى خيرٍ أو إلى ضلالة .

قوله : « وناس يكرهونها » ، يعني المدائح ، أي يُظهِرون كراهتها كما ذَكَر ، فمنهم من يُظهِر كراهتها كذباً ورياء ، ومنهم صدقاً . وفي « المواهب اللدنية » ، قال : « قال الشافعي رحمه الله : ما من خير يعمله أحد من أمة النبي ﷺ، إلا والنبي ﷺ أصلٌ فيه .

قال في « تحقيق النصرة » : فجميع حسنات المسلمين وأعمالهم الصالحة في صحائف نبينا ﷺ ، زيادة على ما له من الأجر ، مع مضاعفة لا يحصيها ويحصرها إلا الله ، لأن كل مهتدٍ وعاملٍ إلى يوم القيامة يحصل له أجر ، ويتجدَّد لشيخه مثل ذلك الأجر ولشيخ شيخه مثلاه ، وللشيخ الثالث أربعة ، وللرابع ثمانية ، وهكذا تضعيف كل مرتبة بعدد الأجور الحاصلة بعده إلى النبي ﷺ .

وبهذا يُعلَم تفضيل السلف على الخلف ، فإذا فرضتَ المراتب عشرة بعد النبي ﷺ ، كان للنبي ﷺ من الأجر ألف وأربعة وعشرون ، فإذا اهتدى بالعاشر حادي عشر صار أجر النبي ﷺ ألفين وثمانية وأربعين ، وهكذا كلما ازداد واحد ، يتضاعف ما كان قبله أبداً ، كما قاله بعض العارفين .

ولله در القائل ، وهو سيدي محمد وفا رحمه الله :

فَلَا حُسْنَ إِلَّا مِنْ مَحَاسِنِ حُسْنِهِ ... وَلَا مُحْسِنٌ إِلَّا لَـهُ حَسَـنَاتُهُ

- قال كاتبه : لله در قائل هذا البيت ، ما أكثر محاسنه لفظاً ومعنى - .

قال : « وبهذا يُجاب على استشكال دعاء القارئ له ﷺ ، بزيادة الشرف مع العلم ، لكماله عليه الصلاة والسلام في سائر أنواع الشرف ، فكأنَّ الداعي لَحَظَ أن قبول قراءته يتضمن لمعلمه نظير أجره، وهكذا حتى يكون للمعلم الأول - وهو الشارع ﷺ - نظير جميع ذلك كما قرَّرته » ، انتهى ما نقلته من المواهب اللدنية تأييداً لقول سيدنا : « فكل من مُدِح بفضيلة فإن مدحه يعود عليه ﷺ » ، وكل ذلك يُفهم من قوله ﷺ : « من سَنَّ سُنَّة حسنة ، أو سيئة في الإسلام » .. إلى آخر الحديث المتقدِّم ذِكْره هـ .

* * *

قال رضي الله عنه ، في معنى قولهم : « الطرق إلى الله بِعَدَدِ أنْفَاسِ الخلائق » ، قال : « **هي أعمالهم التي يتقرَّبون بها إلى الله تعالى ، فكلٌّ أعماله طرائقه ، بل لو سَبَّح مائة تسبيحة مثلاً وقُبِلَت ، يقال : هذه مائة طريقة . وعلى هذا** » .

قال : « **ما عليك إلا أن تَسْلَم من شواغل الخلق ، وشواغل خواطرك ونفسك، ويتنزل لك الأمر إن كان فيك بابه ، على قدر حالك** » هـ .

أقول : معنى ذلك ، إذا أراد الله لك نصيباً مما أعطى عباده الصالحين ، سلَّمك من شواغل الخلق وشواغل خواطرك ونفسك ، وَنَزَّل لك ذلك الأمر على قَدْر ما أهَّلك له - أي كتبه لك - وهو معنى قوله : « **إن كان فيك بابه** » .

وقوله : « **على قدر حالك** » ، أي على قَدْرِ نصيبك الذي أراده لك فافهم هـ .

قال رضي الله عنه : « **إياك أن تضع الدنيا التي هي عدوة الله في قلبك - أي الذي هو موضع نظر ربك - بل ضَعْها في رِجْلِك كالحذاء ، فإذا فقدت ، تكون حذاء بدل حذاء . وأهل الزمان تعلَّقوا بالدنيا جدًّا ، فتفاخروا بها وتحاسدوا عليها ، فصارت لهم محبوباً ، ومن كانت هذه حالته يوشك أن تكون هي معبوده من دون الله ، وقد كان السابقون عرفوا الدنيا بالله ، وهؤلاء عرفوه بالدنيا** » .

قال رضي الله عنه : « **أصول المعاصي ثلاثة : الكِبر ، وهو أصل معصية إبليس ، حيث تكبَّر على آدم فقال : أنا خير منه . والحرص ، وهو أصل معصية آدم حيث حرص على الأكل من الشجرة . والحسد، وهو أصل معصية قابيل ، حيث حسد أخاه فقتله** » .

قال : « **خُذْ من دينك بيمينك ، لأنها للأمور الحسنة ، وكذلك الآخرة . وخذ من دنياك بشمالك ، لأنها للأمور القذرة ، وكذلك الدنيا** » هـ .

أقول : يعني خُذْ في دينك وآخرتك بقوة ، وابذل جهدك ومجهودك في ذلك، وخُذْ في دنياك بإجمال واعتناء أقل من الأول . ومراده أي حصِّل ما تقدر عليه بكُلِّيَّتك في طلب العلم النافع والعمل الصالح الخالص ، وخُذْ من دنياك قَدْرَ ضرورتك وما تحتاج إليه ولا تزيد عليه هـ .

⁂

قال رضي الله عنه : « **تراحموا ؛ تُرْحَمُوا ، وارحموا فقراءكم ، فلو أتاك فقير وغني، كلٌّ منهما يطلب حاجة ، فالأولى تقديم الفقير . وقد دخل الهوى على الناس حتى في طاعاتهم ، ولكن إن سبق الدين**

ولحق الهوى أَبطَله ، أو بالعكس ، تزلزلت قواعده » .

قال : « تأنَّ في كل أمرٍ تحاوله ، فإن الشرع أطلق المدحَ في التأنِّي والذَّمَّ في العجلة ، فإن كان من طبعك العجلة فَرَيِّض نفسك وكَلِّفها التأنِّي ، فإن لم تنفع فيك الرياضة في ذلك فاترك كُلَّ أمرٍ تضر فيه العجلة لا تفعله ، وليفعله غيرك » .

وذَكَر الأسباب ومسبِّباتها ، فقال : « إنه مكتوب في اللوح المحفوظ وقوع كل شيء مع سببه ، إن كذا يقع بكذا ، وكذا بكذا ، وعلى هذا ، والعالَم من أوله إلى آخره مُدَبَّرٌ على أيدي الملائكة ، لا على أيدي بني آدم ، حتى بنو آدم مُدَبَّرون بالملائكة ، حتى إن الإمام الغزالي ذَكَرَ أنَّ في باطن الآدمي سبعة ملائكة يدبِّرون غذاءه ، هذا يدفع القوت إلى المعدة ، وهذا يستخرج الفضلة منها ، وهذا يدفع الدم إلى الكبد ، وعلى هذا . هذا في السفلي من العالم ، وفي العلوي هذا يسوق السَّحاب ، وهذا يحمل الماء .

وإنما تدبير أمر الأرض وأحوال الدنيا بأيدي بني آدم ، لإقامة أمر الله أحكامِهِ وإذا أردتَ أن الله تعالى يُجري لك على العادة من لطفه وكرمه ، فاجرِ أنت لى العادة من طاعته وعبادته ، فـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾، وإذا أراد الله أمراً سَبَّبَ له أسباب ، وظهر سبحانه في الأسباب ، ولا يظهر بالقدرة في الدنيا ، إنما يظهر بالقدرة في الآخرة ، فالقدرة في الدنيا تابعة للأسباب ، وفي الآخرة الأسباب تابعة لها ، والقدرة في الدنيا خافية في الأسباب ، والأسباب ظاهرة بها ، وفي الآخرة القدرة ظاهرة والأسباب خافية فيها ، ويجعل سبحانه لكل أمر سبباً غير سبب الآخر ، لِيَعْلَم الناس وُسْع قدرته تعالى » هـ .

أقولُ : الكلام هنا في الأسباب التي يجعل الله فيها المنافع ، دون ما لا يجعل فيها نفعاً ، مما نَزَعَ منه خاصيته على ما تقدَّم فيها من الكلام ، فيخلق الله المنافع في الأسباب الظاهرة ، ولا يعلم الناس إلا أنَّ تلك المنافع ظهرت من تلك الأسباب، فهذا معنى خفاء المقادير في الدنيا وظهور الأسباب . وأما في الآخرة فلا أسباب هناك ، إنما الأسباب تقدَّمت في الدنيا ، وما بقي هناك إلا مقادير مجرَّدة ، فترى الطير يطير في الهواء ثم يقع ، فيأكل منه الرجل من أهل الجنة لحماً نضيجاً ، ثم يطير . وأين هذا من إدراك العقول في الدنيا ؟ حيث الخواطر متعلِّقة بالأسباب ، وفي الآخرة انعزلت العقول عن الأسباب ، وما لهم نظر إلا إلى القدرة مُجَرَّدة عن الأسباب هـ .

قال رضي الله عنه : « رُبَّ مُسَخَّرٍ للقضاء والقدر مأجور للشرع ، ورُبَّ مُسَخَّرٍ له مأجور في الشرع، وكل أحد مُسَخَّر للقضاء والقدر ، ولكنه لا حُجَّة لأحد ، لأنه لا جبر » .

وقال : « الأشياء من القضاء والقدر لا من الأسباب ، والأسباب مظهر ، ومنه طول العمر بالبر ، والأسباب وما تعلّق بها من القضاء والقدر » ، وتقدم قوله : « الخلق مكلوفون لما خُلِقوا له ، لأن الحقَّ أراد بهم وأراد منهم ، فالسعيد من وافق ما أراد به الحق وأراد منه ، والشقي من اختلفت به الأمور » ، تقدَّمت هذه المقالة بما عليها من الكلام هـ .

قال رضي الله عنه : « مسألة القضاء والقدر إنما هي اعتقادٌ في الباطن ، لا مسألة احتجاج بها وإظهار لها ، ومن أظهرها ضَلَّ ، فَتُعْتَقَد ، ولا تكون في الأعمال ، أليس تحريكك يدك باختيارك ؟ فهذا هو الكسب والإكتساب ، ولا يظهرها أو يتكلم بها للعامة إلا من أراد أن يَضِلَّ ويُضِل . وقد قيل : إنها مسألة غامضة لا تَتَّضح إلا يوم القيامة ، وقالوا : الرضا بالقضاء أن تفعل ما يرضى الله به ظاهراً ، وترضى بما يقضيه باطناً . فهذا هو الحق والصواب، وما كان غير ذلك فهو باطل ، وماذا وقع للعامة من قولهم في كل ما فعلوه : هذا مُقَدَّر عليَّ ؟ فإذا جاء ما فيه هواهم وغرضهم ، قالوا ذلك، وإذا جاء خلاف ذلك ضاقوا به ذرعاً وقامت عليهم القيامة » هـ .

أقول : قول : « هذا مُقَدَّر عليَّ » ، أرادوا يعذرون أنفسهم فيما فعلوا من تَرْكِ واجب أو ارتكاب محرم ، فالصواب والحق والسعادة في اتباع الإرادة الشرعية ، ولا يتبعها إلا بموافقة الإرادة الأزلية من وجه الخير ، فهذا هو السعيد الذي وافق ما أراد به الحق وأراد منه ، وإذا لم يوافق الإرادة الشرعية فقد وافق جانب الإرادة الأزلية من وجه الشر ، وهذا هو الشقي الذي اختلفت به الأمور هـ .

وذَكَرَ أيضاً في بعض مجالسه القضاء والقدر ، *فقال* : « القضاء والقدر بحرٌ عميقٌ ، وقد جاء أن الله تعالى لمَّا عصى إبليسُ ، قال له : لِمَ عصيتني ؟ قال : يا ربِّ ، لأنك قَدَّرتَ عَلَيَّ المعصية ، فلا محيص لي مما قَدَّرتَ عليَّ ، قال : بِمَ عَلِمْتَ أني قدَّرت الذنب عليك ، قبل فعله أو بعده ؟ قال : بعده ، فقال تعالى: بهذا أَخَذْتُك » .

ومرة قال سيدنا في هذه الحكاية : « متى عَلِمتَ .. إلخ » ، *قال* : « ومذهب القدرية خيرٌ من مذهب الجبرية ، وإن كانا باطلين ، لأن الأولين إنما نسبوا لأنفسهم قُدْرَة ، وأما الآخرين فإنهم عَطَّلوا الأحكام الشرعية ، وهذا هو الزندقة بِعَيْنِها . ومذهب الجبرية هو الغالب الجاري على أَلْسِنَةِ العامة وأفعالهم ، فهم زنادقة ، إلا إنهم ما علموا بذلك ، لكونهم لا يعرفون العلم ، أليس أحدهم يأكل باختياره ويفعل باختياره ، وهو بقضاء الله وقدره ، ولكنه في ذلك مختار ، وما جعل الله سبحانه وتعالى للإنسان اختياراً إلا ليختار ما اختاره الله ، والأسباب من الله تعالى ، وهو الفاعل في الفعل ، فليفعل من الأمور الشرعية

المطلوب ، وينتهي عن المنهيات في كل ما له اختيار فيه ، وإذا ذهب عنه الإختيار حصل له العذر حينئذ .

فما الفرق في رجلَيْن أحدهما سقط في بئر مع غفلته عن ذلك - أي ومات - حتى أنه يُصَلَّى عليه ويُجَهَّز ويُدعَى له ، ويُقال : هو شهيد ، وحاله ممدوح ، ثم إذا سمع آخر بِمَدْحِ ذلك رمى نفسه في البئر ، هل يكون مثله في المدح ؟ لا ، بل يكون مذموم الحال ، مستوجباً للعقاب ، ولو عَطَّل الناسُ الأحكامَ واعتلُّوا بالقضاء والقدر ، لبقوا مثل الحمير والبهائم » .

وقال في مجلس آخر : « لله أسرارٌ وحِكَمٌ في ترتيب الأسباب وارتباط منافعها بعضها إلى بعض ، واحتياج البعض منها إلى البعض ، وهذا عالم الأسباب : جميع أموره تتوقف على الأسباب ، وهو موضع قوله تعالى : ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ ، قال تعالى : ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۝ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ۝ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۝ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۝ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ۝ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ۝ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ ، وأما عالَم الأمر : فهو شيءٌ آخر لا حُكْم فيه للأسباب ، ولا للكاف والنون ، ولا احتياج إليها » .

وقال : « الناس كلهم يخدمون القضاء والقدر ، لأنهم يسعون في تنفيذه ، ويعرف تخصيصه بظهوره عليهم ، ولو قلتَ لشخصٍ : سِرْ إلى البلد الفلاني لتموت فيها ؛ لأبى ، ولكنه يسير لقضاء حاجته ، وقد قضى أجله فيها فيموت بها ، وكلٌّ يسعى في نَفْع نفسه ، فيصير النفع لغيره بسببه ، وينتفع بعضهم من بعض ، ولا أحد قصد إلا نفع نفسه » .

وقال : « يكفي الإنسان بعد الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر ، ذِكْر الوعد والوعيد عن الخوض في مسألة القضاء والقدر ، لأن فيها إشكالاً لا يَنْحَل إلا يوم القيامة ، وكل من تكلم في حلِّها زادها إشكالاً » .

أقول : فلا مَطْمَع إذاً في حلِّها ، كيف وقد سأل عنها كبار من أولي العزم فلم توضح لهم ، فكيف بغيرهم ؟ .

وذَكَرَ رؤية الأشياء من الله ، فقال : « لو أن رجلاً أتاه سائل فأعطاه شيئاً ، لا شك أنه يرجو عليه ثواباً ، ويرى أنه فَعَل شيئاً ، وينسى أن الله تعالى هو الذي أَقْدَرَه على الفِعل ، وأنه هو الذي يَسَّر له ما تصدَّق به ، وأنه هو الذي ساق إليه السائل » هـ .

أقول : ولأجل إرادة الله من خَلْقِهِ فِعْل المعروف ، رَغَّب فيه وساق إليه السائل وقال رسول الله ﷺ : « هدية الله إلى المؤمن السائل على بابه » .

قال : « وفي المعاصي ، النفس تدعو إليها ، والشيطان يزيِّنها له وينسيه عاقبتها ، ليطمئن بها قلبه ،

وينوي العَوْد إليها ويصر عليها » هـ .

أَقُولُ : ولمَّا ذَكَرَ سَوْق السائل إليه في معرض الإمتنان وجعله مِنَّةً ثالثة المِنَّتَيْن ، فدَلَّ على أن سَوْقَه إليه أيضاً من مِنَن الله ونِعَمِه عليه هـ .

قال رضي الله عنه بعد ما فرغ القاريء من القراءة في كتاب الزهد من الإحياء *قَالَ* : **« ما عاد في الناس أحد ظاهر في مقام الزهد على هذا الوجه ، إلا إن كان في البراري والقفار ، لأن هذه الأمة أمة مرحومة ، وإنما هم إلا بين راغبٍ وأرغب ، ومن أنشب مخاليبه في الدنيا فأمره مُخطِر ، والمنهمك فيها كالنائم الذي يخط - أي ينفخ - ودونه الذي يتحرك ، ودونه الذي مسح وجهه من النوم ، ومثل هذا وكلهم يشملهم النوم . والصالح من أهل الزمان لا تراه حتى متزهِّداً ، بل إن حَسُنَ حاله يكون ليس منهمكاً وغارقاً فيما غَرِقَ فيه أهل الدنيا ، ونحن لا نحب من يَذْكُر الرجاء حتى يفرط ، والخوف حتى يفرط ، إنما نحب الوسط فيهما »** هـ .

أَقُولُ : قوله : « حتى متزهِّداً » ، أي فضلاً عن أن يكون زاهداً .

والزاهد من زَهِدَ في الدنيا بقلبه وعَزَفَت نفسه عنها بالكُلِّيَّة ، وهذا أول الفتوحات التي يفتح الله بها على أوليائه ومبدؤها ، ولا يحصل شيء من الفتوحات الإلهية مع عدم الزهد الصادق في الدنيا ، وقليل ما يوجد اليوم الزهد الصادق ، وهو ما قرره في الكتاب المذكور ، ووصف الزهد الذي أشار إليه سيدنا بقوله على هذا الوجه ، فإن محبة الدنيا قد تمكَّنت في قلوب الناس الخاص والعام ، وذَهَبَت بهم كل مذهب ، وذلك من علامات الساعة ، كما أشار إليه حديث : « وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان » . والمتزهِّد : من زَهِدَ في الدنيا بظاهره وتقلَّل منها ، ولم يَبِعْ في طلبها مع محبته لها دِينَه وعباداته ، وشتان ما بينهما ، وهذا شأن خواص فقراء الوقت ، وإلا فأكثرهم يسعى لطلبها ولا يبالي في طلبها بأي وجهٍ تحصل له ، من حلالٍ أو حرام ، ويبيعون دينهم وعباداتهم في طلبها، فإن كان حراماً توسع وقال: « هذا يحل لنا » ، كأن الشرع تابعٌ له فيما يريد ، فيحل له ما لا يحل لغيره ، وفي الحديث : « يأتي رجالٌ يوم القيامة ومعهم من الأعمال كجبال تهامة ، فتُجعَل هباءً منثوراً ، فقالوا : يا رسول الله أيصلّون هم؟ قال: كانوا يصلّون ويصومون ، ويأخذون هِنَةً من الليل ، ولكنهم إذا لاحَ لهم شيء من الدنيا وَثَبوا عليه » ، قيل في شرح الحديث : « لا يبالون حلالاً كان أو حراماً » ، فهكذا تكون أعمال من يَثِب على الدنيا لشدة رغبته فيها هباءً منثوراً ، فالحذر منها الحذر هـ .

❊ ❊ ❊

قال رضي الله عنه : « صاحب العادة لا بد فيه شيء من الحقيقة ، إلا إنه ضعيف والعادة فيه أقوى ، وصاحب الحقيقة لا بد أن يكون فيه عادة ، إلا إنها ضعيفة والحقيقة فيه أقوى . وكلما قَوِيَت الحقيقة ضَعُفَت العادة ، حتى ربما يتوهَّم فَقْدها ، ولا يمكن أن تُفقَد بالكُلّيّة ، وإنما تَضعُف . وكلما قَوِيَت إحداهما ضَعُفَت الأخرى، والإضافة إلى إحداهما بحسب الأغلب والأقوى ، لأن من أَكْثَرَ من شيءٍ عُرِف به ، ومن عُرِف بشيءٍ نُسِبَ إليه » هـ .

وكنت يوماً مع سيدنا عبدالله في الخلاء بالسبير في جَمْعٍ من الناس ، فأمرني بالإنشاد ، فأنشدتُ عند ذلك بين يديه بقصيدته التي مطلعها :

سَقَى اللهُ رَبْعاً حَلَّ فِيهِ الذِي أَهْوَى وَمَنْ حُبُّهُ وَالقُرْبُ كَالمنِّ وَالسَّلْوَى

ثم بعدما فرغت قدَّم طعاماً للحاضرين ، فقال سيدنا حينئذ : « ما يكون الرجل عندهم رجلاً حتى يكون فيه من كل جزءٍ من أجزاء الإنسانية نصيب ، وينقص منه جزءٌ من كلِّ جزءٍ من أجزاء النفس ، ويختلف الناس في ذلك ، كلٌّ على حسب مرتبته ومنزلته عند الله تعالى ، فالأولياء في ذلك مختلفون ، حتى ينتهي إلى مرتبة القطب ، فهو أكمل في ذلك من غيره ، ولا أحد استوفى من ذلك أكثر من النبي ﷺ، وكلما كَمُلَ العبد صارت الغلبة للأعمال الروحانية ، وانغمرت فيها أمور النفس حتى يتوهَّم فَقْدها » .

قال : « الإنسان إذا نزل من درجة الإنسانية إلى درجة الحيوانات ، بأن غَلَبَ عليه الهوى والشهوة جداً ، بحيث تذهب منه المروءة ، فيصير حيواناً بحسب ما غَلَبَ عليه ، لأن كل حيوان تَغْلب عليه صفة من هذه الصفات يُعرَف بها ، ومَن غَلَبَت عليه واحدة منها من بني آدم نُسِبَ بسببها إلى ذلك الحيوان الموصوف بها ، فإذا أراد الوصول إلى الله يحتاج إلى مجاهدة ، حتى يصل إلى درجة الإنسانية أولاً ، وهي ما يختص بها الإنسان دون بقية الحيوانات ، ثم يجاهد أيضاً حتى يَصِل إليه » .

واستودع من سيدنا رجلٌ ضعيف الحال يريد الحج ، فقال له : « الله الله في الهِمَّة ، جِدَّ الهمَّة واعزِم ولا تتردَّد ، فتقول : ليتني ما هَمَمْتُ ، أو ليتني ما خَرَجت . فإن التردُّد في الهمَّة يضعف أمر الثواب إن تطلبه أو تصبر عليه ، إلا إن كان يضرك في دينك ، وما دامت الهِمَّة قوية يأتيه المدد من الله تعالى ، فإذا ضَعُفَت الهِمَّة دخل الشيطان يغويه » .

قال رضي الله عنه : « معاملة الله كلها ينبغي أن تخرج فيها بكُلّيَّتك من حَجٍّ وجهاد فتُخلِص له حتى يزلفك - أي يقرِّبك - وإلا فهو غنيٌّ عنك وعن عملك ، ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ الآية ، والتردُّد فيها كالإرتداد - أي الرجوع عنها - بخلاف أمور الدنيا ، فإن التردد فيها يكون كفارة

لها ، كأن كان خادم دولة ، فقال : ليتني ما خدمتهم » .

ومدَّ له إنسان يديه ، وبهما ألم يمسح ويتفل عليهما ، فقال له : « لعل ذلك من عين ، فإنها حق . وفي الحديث : إن العين قد تُدخل الرجلَ القبرَ ، والجَمَلَ القِدر ، وأكثر ما تكون من فرط التعجب ، إما من مُحِبٍّ كالأب والأم والأخت والخالة ونحوهن ، أو حاسدٍ ومُبغِض ، إلا أن المحب مستكثر مع محبة ، والحاسد والمبغض مستكثر مع بغض » هـ .

أقول : الإستكثار والغبطة من كل منهما ، المحب أو الحاسد المبغض مُضِر ، وذَكَرُوا أن الناظر مع استكثار وتعجب ، تنفصل من عينه إلى المنظور زهومة سُمِّيَّة تضر وتؤذي كما يفعل السُّم ، فإن وافت أجلاً كانت سبب حَتْفه ، وإلا تضر إلى مدة مقدَّرة ، وفي « المواهب اللدنية » : « العين تكون مع الإعجاب ولو بغير حسد، ولو من الرجل المُحِب ومن الرجل الصالح ، وإنه ينبغي أن الذي يعجبه الشيء يبادر إلى الدعاء للذي يعجبه بالبركة ، ويكون ذلك رُقْيَة منه ، فإن الإصابة بالعين قد تقتل . وأخرج مسلم من حديث ابن عباس رفعه : العين حق ، ولو كان شيءٌ سابَقَ القَدَر لَسَبَقَتْهُ العَيْن ، وإذا اسْتُغْسِلْتُم فاغسِلُوا . أي الإصابة بالعين شيءٌ ثابتٌ موجود ، وهو من جملة ما تحقق كونه . وإذا اسْتُغْسِلْتُم فاغسِلُوا ، أي إذا طُلب منكم الإغتسال ليمسح بماء غسلكم المعيون فاغتَسِلوا له ، وظاهر الأمر الوجوب. وحكى المازري فيه خلافاً وصحَّح الوجوب ، وقال : متى خشي الهلاك ، وكان الإغتسال مما جَرَت به العادة بالشفاء به فإنه يتعيَّن ، وقد تقرَّر أنه يُجبَر على بذل الطعام للمضطر ، وهذا أولى . ولم يبيِّن في حديث ابن عباس صفة الإغتسال ، قال الحافظ ابن حجر : وقد وقفتُ على صِفَتِهِ في حديث سهل بن حنيف عند أحمد والنسائي : أن أباه حدَّثه أن النبي ﷺ خرج وساروا معه ، حتى إذا كانوا بشِعب الخرار من الجُحفَة اغتسل سهل ، وكان أبيض حَسَن الجسم والجلد ، فنظر إليه عامر بن ربيعة فقال : ما رأيت كاليوم ولا جلد مخبأة ، فلَبَطَ سهل - أي صُرِع - وسَقَطَ إلى الأرض . فأتى رسول الله ﷺ فأُخبر ، فقال : هل تتَّهمون من أحد ؟ قالوا : عامر بن ربيعة . فدعا عامراً فتغيَّظ عليه، وقال : علام يقتل أحدكم أخاه ؟ هلَّا إذ رأيتَ ما يعجبك برَّكت عليه ؟ ثم قال : اغتسل له . فغسل وجهه ويديه ومرفقيه وركبتيه وأطراف رجليه وداخِلة إزاره في قدح ، ثم صبَّ ذلك الماء عليه رجل من خلفه على رأسه وظهره ، ثم كفأ القدح ، فلما فعل به ذلك قام سهل ، فراح مع الناس ليس به بأس .

قال المازري : داخلة إزاره ، الطرف المتدلِّي الذي يلي حقوه الأيمن . قال ابن بكير ، رواية عن مالك: إنه كناية عن الثوب الذي يلي الجلد . وإذا خاف على أحد من العين كولده ، قبض على ناصيته وقال : ما شاء الله، لا قوة إلا بالله ، ﴿ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ۝ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴾، وقرأ سورة القدر ، فذلك مُجرَّب لِدَفْعِ العين » ، انتهى ما أردت نقله من « المواهب اللدنية» .

وسمعت سيدنا عبدالله نفعني الله به غير مرة يقول : « **ثمان آيات دواء من العين ، الفاتحة مع البسملة سبع آيات ، والثامنة آية الكرسي** » ، وكيفية الإغتسال المذكورة ، وجَمْع الماء في قدح ، وصبّ الرجل ذلك الماء عليه من خلفه على رأسه وظهره ، ثم كَفِي القدح بعد ذلك ، كل ذلك من تعليم رسول الله ﷺ ، وأمره للعاين بالإغتسال ، وأن يغسل تلك المغسولات المذكورة . وتفهم العبارة أن الذي صبَّ الماء غير العاين ، وأن الذي صبَّ الماء هو الذي كفى القدح ، فبذلك علم رسول الله ﷺ عن الوحي عن الله سبحانه ، وأمر به دواء للمعيون عن العين ، فليعلم ذلك ويعمل عليه .

وأما التبريك المذكور في الحديث ، فما وقفتُ على كيفيَّته من قول أحد ، إلا ما رأيت من عمل سيدنا عبدالله عليه ، فلنأخذ كيفية ذلك من عمله ، فكثيراً ما أسمعه إذا سلَّم عليه بعض الأطفال ، مسح رأسه وقال : « **بسم الله ، اللهم بارك فيه ولا تضره** » ، فإن كان ذلك الطفل يتيماً مسح رأسه من مؤخره - أي قفاه - إلى مقدمه - أي ناصيته - حذو جبهته ، وإن كان غير يتيم ، مسح رأسه من مقدمه - أي من ناصيته تلقاء جبهته إلى مؤخره ، وقال : « **هكذا ينبغي ، لأن اليتيم لإنكسار خاطره ، ربما إذا قَابَلْتَه بيدك ، يظن أنك تريد تصفعه ، فإذا مَدَدْتَ يدك من قفاه لا يراها ، فلا يتوهَّم ذلك ، فيُراعى هذا المحذور في اليتيم محافظةً على جبر خاطره ، ومحاذرةً عما يُوهِم ضد ذلك** » ، أو كما قال بمعناه ، وفي الحديث : « من مسح على رأس اليتيم ، فله بعدد كل شعرة مرَّت عليها يده حسنات » .

وقال لرجل استخلف - أي استودع - منه مسافراً : « **لا تخلِّ الزيارة إن أمكنك وإلا فلا تعجز عن الكتاب . والله الله في طلب العلم النافع ، ومطالبة النفس بالعمل به ، فإنها قد تطلب العلم ويسهل عليها ، ولكن العمل عليها شاق** » هـ .

أقُولُ : قالوا : العلم النافع : هو ما جذبك إلى الله ، وأَقْبَل بقلبك عليه وقرَّبك إليه ، وصرف قلبك عن الدنيا ، وميله إلى الآخرة ، وهذا ليس هو إلى العبد ، بل هو إلى مشيئة الله وفضله .

وأما العلم الشرعي : فهو شرطٌ للأول المذكور ، وهو علم الرقائق ، ولكن العلم الشرعي إن عمل به وعَلَّمَه فهو علم قد نفع ، وإذا لم يعمل به ولا عَلَّمَه فهو علم نافع ضائع وما نفع ، إذ لا فضيلة للعالم إلا بالعمل به ، وإلا صار من علماء الدنيا ، الذين يدعون على أنفسهم في الآخرة بالويل والثبور ، وقال بعضهم - أو هو حديث يروى - : « العلماء كلهم هلكى إلا العاملين ، والعاملون كلهم هلكى إلا المخلصين ، والمخلصون كلهم هلكى إلا الوَجِلين ، والوَجِلون على خطر » .

وقال لآخر مُحترِف : « الله الله في النصيحة في حِرْفَتِك على قدر جهدك ، واحذر فيها من الغش ، ففي الحديث : شرار أمتي الصَّوَّاغون » ، وكان صَوَّاغاً .

وقال لآخر : « استعد للنوائب سورة يس ، وإذا ظُلِمْتَ فلا تنتصر لنفسك ، وسلِّم الأمر لربك لينتصر لك ، فإن من انتصر لنفسه لا يكون له من الله نُصرة » .

قال رضي الله عنه : « الأشياء من القضاء والقدر ، لا من الأسباب . والأسباب مظهر لها ، ومنه طول العمر بالبِر وقصره بالفجور ، والأسباب وما يتعلق بها من القضاء والقدر ، فإذا بَرَّ طال عمره أو فَجَرَ وقصر عمره ، فهو مقضي عليه أن يفعله ، ومقضي عليه أن يحصل له من العُمْرَين ما حصل » .

أقول : قوله : « والأسباب مظهر لها » ، أي يظهر للناس أنها منها ، وتتعلق عقول الناس بالأسباب في الدنيا ، إن ما حصلت من تلك الأشياء ، إنما هي تلك الأسباب ، من حيث أن غالب الأسباب الدنيوية على أيديهم ، وبذلك جاءت الشرائع على مقتضاها ، وتبيِّن أحكامها ، وبيان أن أصلها من المقادير . والناس غافلون عن المقادير في الدنيا ، ولا يظهر لهم إلا الأسباب ، ولا يتبيَّن لهم من المقادير في الأسباب إلا ما ليس في أيديهم ، كالسحاب بالنسبة إلى المطر ، ثم يتحقَّق لهم إنما نشوء السحاب وصب المطر إلا بإرادة الله وقدرته .

كذلك في جميع الأسباب مع مسبِّباتها دينية ودنيوية ، وهو معنى قوله : « الأشياء من القضاء والقدر لا من الأسباب » ، فإن الأسباب كالأشباح ، والمقادير كالأرواح ، فهل ترى جسماً يتصرف بلا روح ؟ ولا يتصرف جسمٌ ميِّت ، وكذلك المسببات لا تتأتَّى إلا بالمقادير ، فإذا جَرَت بها المقادير رُكِّبت لها الأجسام فَجَرت فيها ، كذلك المسبِّبات إذا جرت بها المقادير رُكِّبت لها الأسباب فجرت بها ، وهو معنى قوله : « الأسباب وما تعلق بها من القضاء والقدر » ، فمراده بقوله : « وما تعلق بها » ، يعني وقوع المسببات بالأسباب ، فهو ما تعلق بها ، أي وقوعها بها .

ومن القصص الواقعة في زيادة الأعمار بسبب البِر ، ونقصانه بسبب الفجور، ما جاء في الأثر : أن مَلَك الموت جلس في صورة رجل في مجلس النبي داود عليه السلام وعيَّن له رجلاً من الجالسين في المجلس ، فقال : « أنا مأمور بقبض روحه بعد ثلاثة أيام » ، فرآه النبي داود بعد عشرين يوماً ، فقال للمَلَك : « أنت تقول : إنك مأمور بقبضه بعد ثلاثة أيام ، وها هو بعد ذلك حي » ، فقال المَلَك : « إنه لما خرج من عندك ، وصل رَحِماً له كان قَطَعها ، صِلَةً قَبِلَها الله ورضي بها عنه ، فأمرني بتأخيره عشرين سنة » .

وتقدَّم ذِكْر اختيار ابن عباس ، أنه قال في هذا المعنى : « إن للإنسان أجلاً معلوماً في الدنيا إلى وقت

وفاته ، وأجلاً معلوماً في البرزخ إلى أن يُبعَث ، فإن بَرَّ زِيدَ من أَجَله البرزخي في عمره الدنيوي ، وإن عَقَّ وقطع رَحِمَهُ نقص من عمره الدنيوي وزِيد في عمره البرزخي » ، وقال سيدنا : « **هذا هو الذي نختاره** » ، فتبيَّن لك من هذه القصة بيان هذا المعنى ، والفرق بين انقضاء عمره بعد ثلاثة أيام بسبب قطع الرحم ، وبين تأخره بعد ذلك عشرين سنة ، بسبب صلة الرحم .

وإنما كان منه الصلة لأنه مقضي عليه أن يفعلها ، وحصول العشرين السنة زيادة في عمره مقضي عليه أن يحصل له ، وستر الله قضاه في هذه الزيادة في عمره في سبب صِلَتِهِ ، فتبيَّن بذلك أن صِلَتَهُ وزيادة العشرين السنة له في العمر أنه قضاء محتوم ولهذا حصلا ، وأن قصر عمره إلى الثلاثة الأيام مع قَطْعِهِ كان قضاءً معلَّقاً ، ولهذا تعدَّاه ولم يحصل عليه ، وهو معنى قول سيدنا : « **فإذا بَرَّ وطال عمره ، أو فَجَر وقصر عمره ، فهو مقضي عليه أن يفعله** - أي الصلة - **ومقضي عليه أن يحصل له من العُمْرَين ما حصل** » ، أي قضاء محتوماً .

فافهم هذه التفاصيل ، فقد مرَّت عليك مراراً كثيرة بعبارات متنوعة ، فافهم مقاصدها كلها ، ولِوُسع معانيها وغُزْر قَعْر بُحُورها ، قال سيدنا : « **إنها مسألة صعبة لا تتَّضح إلا في الآخرة** » .

وقال له رجل من أهل القارة : « قد حصل عندنا في بلدنا ريح شديدة مع مطر ، حتى إنه أصبح تحت النخيل كثير من الطيور مات من شدة الريح ، ملأوا منها زنابيل لكثرتها » ، *فقال رضي الله عنه* : « **ذِيْبُهْ تحدث في الوقت حوادث** » .

ثم قال : « **اللهم اجعل مرادك فينا خيراً . لكن ما معنى هذا المراد ؟ والمراد قد سبق ، إلا إن كان بالصبر والرضا ، أو ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾** » .

أقول : قوله : في المقالة الأولى : « **الأشياء من القضاء والقدر لا من الأسباب**»، أي سبق بها القضاء والقدر ، مع ما تقدَّم عليها من الكلام ، وتقرر معنى ذلك مراراً، سيما عندما مثَّلنا لذلك بالأعضاء بالنسبة إلى منافعها وأن الأعضاء أسباباً لها ، لكن إذا أراد الله أن يُجرِي منافعها فيها أجراها ، وإلا فتبقى تلك الأعضاء خالية من المنافع ، إذ لا فرق بين الأعمى والأصم والأبكم ، وبين الناظر والسامع والمتكلم في هذه الأعضاء من العين والأذن واللسان ، فإنها موجودة في الإثنين ، وإنما فُقِدت منها المنافع من النظر والسمع والكلام لما نَزَعَ الله منافعها هذه منها ، فافهم ذلك في جميع الأسباب الدينية والدنيوية ، أنه إن وَضَعَها فيها حَصَلَت ، وإن نَزَعَها منها ما حَصَلَت المنافع مع وجود الأسباب ، فإن المنافع أشياء أُخر يخلقها الله إذا شاء معها ، وإن شاء نَزَعَها عنها وعَطَّلها منها ، واستدللنا لهذا المعنى

بآية : ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾، فقد جعل الله سبحانه جميع الأشياء من أسباب الدنيا والدين ومسبباتها كلها منسوبة إلى إرادته وفعله ، وإنها إنما نشأت عن ذلك ، وبه وُجِدت لا غير ، وعزل المسببات عن أسبابها .

وبَيَّنَ سيدنا هذا المعنى بهذه المقالة ، وهي قوله : « **الأشياء من القضاء والقدر لا من الأسباب** » ، بل الأسباب أيضاً من القضاء والقدر ، ومسبباتها التي هي منافعها المقصودة منها شيء آخر غيرها ، وهو موقوف على إرادة الله ، إن شاء جعلها فيها – أي في الأسباب – وإن شاء عطَّل الأسباب من تلك المنافع . هكذا فافهم واعتقِد؛ حتى الغني بالمال إن جعل معه الغنى كان ذلك ، وإن نَزَعَه منه فلا يكون غني مع المال ، كما ترى أناساً كثيري المال وهم أفقر من الفقراء ، حتى إنهم ليطلبون أمور معاشهم من الفقراء ، فما أغناهم المال ، حيث نَزَعَ الله عنهم الغنى به .

ثم ذكر سيدنا كلمة الدعاء : « **اللهم اجعل مرادك فينا خيراً** » ، والمراد هو القضاء والقدر بعينه، وهو قد سبق وكتب ، والسؤال يقتضي أمراً سيكون فيما يأتي ، فصار بين هذه الكلمة وبين الواقع من كونه قد سبق ما يشبه الخلاف المقتضي للإختلاف والإستشكال ، فكان هذا سؤالٌ منه عن هذا الإشكال بصورة من سأل عن أمرٍ بقصد الجواب عنه ، وقد جاء هذا الوجه في القرآن في مواضع منها قوله تعالى : ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴾، ثم ذَكَرَ قصَّته مع ضيفه، وقوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴾، ثم ذَكَر القصة ، وغير ذلك . كذلك سيدنا ذَكَرَ هذا السؤال بإشكاله، ثم أجاب عنه بقوله : « **إلا إن كان بالصبر والرضا ، أو ﴿ يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ﴾** » ، فبيَّن بهاتَيْن الكَلِمَتَيْن أنواع القضاء والقدر ، الذي قد سبق أنه على نوعين :

أحدهما : المحتوم المبرم الذي لا بُدَّ من وقوعه ولا علاج في دفعه ، ولا يمكن دفعه بحال ، ولا يفيد فيه الرقى والتداوي ، ولا يدخله المحو والإثبات قط ، فأشار إلى أن يقابل هذا النوع ما يكره منه بالصبر لمن هو من أهل مقام الصبر ، أو بالرضا لمن هو من أهل مقام الرضا .

وهذان المقامان هما مقاما الدين المؤسَّس عليهما لا يتعداهما ، كما بيَّنه الحديث المتقدِّم : « **اعبد الله على الرضا ، فإن لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خير كثير** »، فهكذا حصر العبادة التي خلق الله الخلق لأجلها ، حيث قال تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ ، في هذين المقامَيْن: مقام الرضا – مقام الخواص المقربين – ومقام الصبر – مقام الأبرار أصحاب اليمين – ، وما وراء هذَيْن شيء من الدين ، فأشار إلى أنَّ تلقِّي هذا النوع من القضاء بالرضا من أهله أو بالصبر من أهله ، هو الخير السابق الذي طَلَبَ في الدعوة أن يكون مراد الله من العبد .

ويشهد لذلك قول ابن عطاء الله في الحِكَم : « لا يكن طلبك تسبُّباً إلى العطاء منه فيقل فهمك عنه، وليكن طلبك لإظهار العبودية ، وقياماً بحق الربوبية » . كيف يكون طلبك اللاحق سبباً في عطائه السابق ، فالصبر والرضا في هذا هو الخير الذي طلب أن يكون مراد الله فينا في هذا النوع المحتوم من القضاء والقدر .

والنوع الثاني من القضاء والقدر : المعلق منه ، وهو الذي يدخله المحو والإثبات، وتنفع فيه الأسباب والرقى والتداوي بالأدوية والصدقة والدعاء وغيره، وإياه عَنَا بقوله : « أو ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾» ، يعني أن هذا هو الخير الذي طَلَبَ أن يكون مراد الله فينا في هذا النوع من القضاء والقدر ، بأن يمحو الله عنَّا الشر ، ويُثبِت لنا الخير .

فيتبين بما تقرَّر معنى قوله : « اللهم اجعل مرادك فينا خيراً » ، أن المراد بالمراد بالخير في القضاء المحتوم الصبر لأهل مقام الصبر ، والرضا لأهل مقام الرضا ، وفي القضاء المعلَّق المحو والإثبات ، يعني محو الشر وإثبات الخير ، فيا للعجب من أي بحرٍ يغترف ، فما أوسع بحور علومه رضي الله عنه ونفعنا به في الدارين .

وقد علَّق سبحانه وقوع الأشياء كلها من وقوع خيرٍ أو دَفْعِه أو وقوع شَرٍّ أو صَرْفِهِ ، بِفِعْلِهِ وإرادته ومشيئته في هذه الآية قوله تعالى : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾، ويمتحي القضاء المعلق بأسبابٍ يُجريها الله فيه ولا يُجريها في المحتوم ، فإنه لا يمتحي بشيء قط . ومن المحتوم : الرزق والأجل والسعادة والشقاوة وغير ذلك ، وقوله تعالى : ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ ، أي أصله الذي لا يتبدَّل ، وهو اللوح المحفوظ، وسُمِّي محفوظاً لأن ما فيه محفوظ من المحو ، باقي لا يتحول ولا يتبدل ، وقد يُسَمَّى المعلَّق بالمبرم ، لتأكُّده وتأكُّد سببه الذي يتحول به ، كما جاء : « إن الدعاء يرد القضاء المبرم » ، ولا يراد به المحتوم ، فلو كان هو ؛ ما ردَّه الدعاء ولا غيره ، فلا دعاء أفضل ولا أَقْمَن بالإجابة من دعاء رسول الله ﷺ ، ولا رَدَّ الدعوة الثالثة المحتومة من دعواته الثلاثة الآتي ذِكْرها ، ومن المحتوم فرض الصلاة الخمس ، لا علاج في التخفيف منها .

ومن المعلق : الخمسون لما قضاه الله سبحانه قضاء مُعلَّقاً ، وقال للنبي ﷺ ليلة المعراج : « إني كتبت عليك وعلى أمتك يوم خَلَقْتُ السماوات والأرض خمسين صلاة فخفَّفت إلا الخمس » ، وفي رواية لمسلم - أي بعد الخمس - : « فرجعت إلى ربي فسألته التخفيف ، فقال تعالى : إني يوم خلقت السماوات والأرض فَرَضْتُ عليك وعلى أمتك خمسين صلاة ، فخمس بخمسين ، فقُم بها أنت وأُمَّتك، فعرفت أنها أمر الله صرى ، يقول : حتم » .

فلما كان ما فوق الخمس مُعلَّقاً أرصدَ الله سبحانه سيدنا موسى عليه السلام يأمره يسأل التخفيف، قال أهل الإشارات : « إنما خصَّ موسى بذلك ، لكونه سأل الرؤية فلم تحصل له ، لأنها في الدنيا مخصوصة برسول الله ﷺ، فكأن لسان الحال يقول : يا مَن طلب أن يرانا ، تمتَّع برؤية من قد رآنا » ، فكان يتلذذ برؤيته في كل مرة، فلما اجتاز عليه ، قال لسان حاله :

يَـا وَارِداً مِـنْ أُهَيْـلِ الحَـيِّ يُخْـبِرُنِي   عَـنْ جِـيْرَتِي شَـنِّفِ الأَسْـمَاعَ بِالخَـبَرِ
نَاشَـدْتُكَ اللهَ يَـا رَاوِي حَدِيْثِهِـمُ   حَدِّثْ فَقَدْ نَابَ سَمْعِي اليَوْمَ عَنْ بَصَرِي

فأجاب لسان حال نبيينا وسيدنا محمد ﷺ :

وَلَقَـدْ خَلَـوْتُ مَـعَ الحَبِيـبِ وَبَيْنَنَـا   سِرٌّ أَرَقُّ مِـنَ النَّسِـيمِ إِذَا سَرَى
وَأَبَـاحَ طَـرْفِي نَظْـرَةً أَمَّلْتُهَـا   فَغَـدَوْتُ مَعْرُوفـاً وَكُنْـتُ مُنَكَّـرَا

فأَمَرَهُ موسى بِطَلَب التخفيف حتى خفَّف المعلَّق وهو ما فوق الخمس ، وبَقِيَت الخمس المحتومة، إذ لا علاج في دَفْع القضاء المحتوم .

وقد سأل النبي ﷺ في مواقف الحج ثلاث دعوات ، إحداهنَّ محتومة فلم تحصل ، واثنتان من المعلَّق فحصلتا دونها ، والدعاء في تلك المواقف مستجابٌ من غيره ، فكيف به ، قال ﷺ : « سألت ربي في مواقف الحج ثلاث دعوات، فأعطاني ثنتين ومنعني الثالثة ، قلت : اللهم لا تسلِّط على أمتي عدوًّا من غير أنفسهم ، فيستبيح بيضتهم فيهلكهم ، فأعطانيها . وسألته : أن لا يسلِّط على أمتي سَنَة - أي قحط - تهلكهم بأكل بعضهم بعضاً فيهلكوا ، فأعطانيها ، وسألته : أن لا يجعل بأس أمتي بينهم ، فيقتتلوا ويهلك بعضهم بعضاً فيهلكوا ، فمنعنيها » ، وهذه هي الدعوة المحتومة ولا علاج فيها ، ودليل حَتْمِها قوله تعالى لآدم وحواء: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًاۢ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾، والضمير لهما ولذريتهما وقال ﷺ : « رأيت ليلة المعراج عند العرش سيفاً يقطر دماً ، فقلت : يا ربِّ ، ارفع عن أمتي السيف ، فقال الله سبحانه : يا محمد ، إني أرسلتك إلى أمة تقتتل بالسيف » ، فكان من هذه الدعوة المحتومة التي لا علاج في ردِّها كل ما وقع في هذه الأمة من الحروب ، سيما ما وقع بين أخيارها من الصحابة رضي الله عنهم ، ولما منع هذه الدعوة الثالثة ، تلطَّف الله سبحانه له بالجواب ، فقال : « يا محمد أعطيتك الثنتين ، فَدَع عنك هذه » ، أو كما ورد عنه ﷺ .

والكلام في هذه المادة طويل عريض لا حَدَّ له ، كما تراه يتكرر كثيراً في كلام سيدنا مراراً متعددة كما هنا ، وفيما تقدَّم وفي ما سيأتي ، وقد تكلم به في أوقات متفاضلة ومجالس متعددة ، فننقله على ما تلفَّظ

به ، وما مرادنا إلا نقْلِ كلامه ، وما مرادنا مما نذْكر معه من الكلام إلا تأكيداً له وتقريراً لمعناه وتحقيقاً لصِحَّتِهِ لا غير ، فليعذر من يلوم .

وحاصل الكلام في النَّوعَيْن من القضاء ، أن المحتوم : تحقيق ما وعد الله به في خَلْقِهِ من إرادته بقومٍ بالفضل وبآخرين بالعدل ، فحتم لأهل الفضل بالسعادة وأعمالها ، وخَتَم لهم بحُسن الخاتمة والموت على تلك الأعمال الصالحة ، وتحقيق ما وَعَد به من البعث ، من قوله : ﴿بَلَىٰ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا﴾، وبميعاد يوم القيامة قوله : ﴿كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ﴾، وتحقيق ما وَعَدَ من نصر المؤمنين على الكافرين قوله : ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، فكل هذه وغيرها من مجاري القضاء المحتوم ، ومنها ما وعد من خاتمة السوء على مقتضى الأعمال الصادرة من أهل الشقاوة الذين أراد بهم طريق العدل ، كل ذلك تحقيقاً لحصول الفضل للذين أراده لهم وأرادهم به ، وآخره دخول الجنة ، وتحقيقاً لحصول العدل للذين أرادهم به وأراده لهم ، وآخره دخول النار ، كما وعد الفريقَيْن بدخول الدارين ، ووَعَدَ كلًّا من الدَّارَيْن بِمِلئها من الفريقين ، وكل ذلك منه حكمة وتصرفاً في خَلْقِهِ على وفق مشيئته وإرادته ، فأفعاله كلها فضل وعدل وحكمة .

والنوع الثاني : المعلَّق ، كل مجاريه من باب الفضل ، لأنه إما تفضل على عبيده بتخفيف بعض الأحكام عن تشديد إلى تخفيف ، كنسخ الخمسين الصلاة بالخمس ، وجعل ثواب الأكثر في الأقل منها ، أو بنسخ حُكمٍ بحُكمٍ خير منه ونحو ذلك ، ولو بعد ملام ، أو نسخ كنسخ حرمة الوقاع في ليالي رمضان بعد النوم ، فعوقب فاعله بقول رسول الله : « أنت حقيقٌ بذلك يا فلان » ، ثم نسخ بآية : ﴿أُحِلَّ لَكُمۡ لَيۡلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمۡۚ﴾الآية ، وعوتبوا على أخذ الفداء يوم بدر بقوله تعالى : ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ۝٦٧ لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾، ثم نسخ هذا الحُكم بقوله تعالى : ﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمۡتُمۡ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

وغير ذلك مما يَعْرِفه من له اطِّلاعٌ على العلم ، فإذا عَلِمْتَ ذِكْراً أو وِرْداً أنَّ من قرأه لا يرى ما يكره أو لا يصيبه الضرر الفلاني فأصابه ، فاعلم أن ذلك من القضاء المحتوم الذي لا يرده شيء ، وأن المراد أن ذلك إنما يدفع القضاء المعلَّق .

قال رضي الله عنه : « **أمور الدين كالبيوت ، لا يثبت بناء القصر إلا بعد إحكام الأساس ، كذلك الدِّين أساسُهُ كلمة التوحيد والتصديق ، ثم الأحكام الواجبة ، ثم قراءة القرآن ، ثم ما يندب بعد ذلك، قال تعالى** : ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾، **فالتأسيس بإثبات العقائد والنيات والصدق ، ثم البناء يتم لك بعد ذلك ، وخذ أصل العلم الذي لا بُدَّ لك منه في نفسك ، ولا تفتن الناس بطلب العلم بلا عمل** » هـ .

أقول : مراده بالأحكام الواجبة ، مباني الإسلام الخمسة التي قدَّمنا أحاديثها والكلام عليها .

وقوله : « **ثم ما يندب** » ، يعني نوافل الخمسة المذكورة ، على ما فصَّلناه معها من كون كل واجب منها له نافلة من جنسه ، من أن الذِّكر بأنواعه نافلة من واجب شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، سيما التهليل من جملة الأذكار بعد واجبها الشهادة مرة واحدة بِنيَّة الدخول في الإسلام، وأن الصلاة واجبها الخمس فنافلتها كل صلاة نافلة ، والزكاة واجبها المقرَّر في الشرع ونافلتها كل صدقة لوجه الله ، والصوم واجبه رمضان ونافلته كل ما عداه من الصوم ، والحج والعمرة واجبة مرة في العمر ونافلتها كل ما تكرَّر منها ، فهذه نوافل أركان الإسلام الواجبة التي ما نقص منها وقت الحساب زِيْدَ له فيه من نَفْلِه .

وقوله : « **قراءة القرآن** » ، قد يطلق ذلك على العمل به وإن لم يقرأه ، ومراد سيدنا الأمران : قراءته والعمل به ، وسُمِّيَ العامل به قارئاً له ، لقول سيدنا عمر لولده أبي شحمة لما أقام عليه الحد ، ومات تحت السياط : « أقرئ رسول الله ﷺ مني السلام ، وقل له : هكذا تركتَ عمر يقرأ القرآن » .

يعني يقيم الحدود المأمور بها فيه هـ .

وحضَّ سيدنا يوماً ورغَّب في تعلُّم العلم وتعليمه ، *ثم قال* : « **كُنَّا سابقاً نسأل عن العالم العامل بعِلْمِه ، فإن لم يكن به عاملاً لم نعبأ به ، وأما الآن فنحن نسأل عن العالم وإن لم يعمل ، لما رأينا من غَلَبَة الجهل والغفلة عن التعلُّم ، وعدم الهمة في طلب العلم ، والرضا بالجهل والعمل على مقتضاه ، فإن عمل به فهو الغاية ، وإن لم يعمل فيُعَلِّم الناس ويهديهم إلى الصواب ، فينتفع به غيره وإن لم ينتفع هو في نفسه** » .

وقال رضي الله عنه : « **ينبغي أن يعرف الإنسان العِلم وقواعده ، وبعد ذلك إن أراد الله له توفيقاً عمل بذلك وعَلَّم ، وإن لم يُرِد له ذلك وأراد له الخذلان والعياذ بالله كان على الضد ، فلا يعمل ولا يعلِّم ، ولا**

يتحقَّق في معرفة العلم ، وربما اجتنب بعض الجهال أهل العلم ومجالس العلماء ، خوفاً من أن يعرف ما يلزمه العمل به ، يظن أن في ذلك عذراً له ، وهيهات ، إنما ذلك يزيده تشديداً ومطالبة ، لأنه أعرض عن أحكام الله علماً وعملاً ، فهو أشد . وغاية العذر في أشياء تكون لمن رُبِّي في البادية وبُعدٍ عن أهل الإسلام ، ومن هو مسلم وآباؤه مسلمون ونشأ بين المسلمين ؛ أنَّى له العذر ؟ » .

وذَكَر أشياء من مناقب الصالحين ، ثم قال : « طلب المناقب - أي الكرامات - شأن الصغار - أي ضعاف العقول - وفَرَّاكات المغازل - أي النساء - والكامل إذا سَمِعَها أحسن الظن ، واعترف له بالفضل ، واحتقر في جنبه نفسه . وفيها خصلتان تغر العامة وتجرّئ السفهاء ، فيقول من له أب صالح هو يكفيني ، ولو كفاه لكفى الناس جميعهم النبي ﷺ لأنه أبو الكل - أي أصلهم في الدين - ويقول المتجرِّئ - أي السفيه - : إن كان فيك شيء افعل مثل آبائك ، وأين تروح من الأعراب أولاد نبَّاشة القبور - أي الذين يُقِرُّون بكرامات الأموات دون الأحياء - وإذا بلغك عن أحد منقبة ، فابحث أولاً إن كان قد قدَّم شيئاً ، لأن الأشياء لا تجيء إلا بالتعب ، ولو إنك غرسْتَ نخلة لا بُدَّ لك فيها من تعب ومقاساة ، فكيف هذا الأمر ؟ وإنما المناقب : التقوى والزهد والحِلم والصبر والتواضع والخمول - هذا الذي ذكر هو أصل الدين والأخلاق المحمودة ، وما عداها تبع لها - وما عدا ذلك فَفِتْنَة .

وأنت ادْفِن نفسك في الخمول ، فإن كان فيك شيء فهو ينبت ، وإن لم يكن أعطيت أمراً حَسَناً ، وإن كنت متسبِّباً في شيء ، فتسبَّب في الخمول ، فإن أُظْهِرتَ من غير اختيار منك فلا عليك . وقد شكينا الشهرة لمَّا حَصَلَت علينا للشيخ عمر العطاس ، فقال : إن بعضهم اعتقده الناس وازدحموا على تقبيل يدَيْهِ ورِجْلَيْهِ ، حتى إذا لم يتمكَّنوا من ذلك قَبَّلوا حافر بغلته . فقيل له في ذلك ، فقال : إنهم ما عظَّموني إنما عظَّموا الله ، فلا أمنع أحداً من تعظيم الله » ، ثم قال : « إنما عظَّموه لله لا لشيء آخر » ، ثم قال : « وفي هذا إشارة إلى أن تعظيمهم له إنما هو لله » .

ثم ذكر سيدنا حكاية : « أن رجلاً من السادة من أهل الخمول من آل باعبود في تريم ، إذا أراد الجامع يمر في السوق ، فلا يقوم يصافحه رجل واحد ، وله صاحب من آل بافضل ، معه مخزن يبيع فيه ، ويعتاد هذا السيد التردد إليه ، ويجلس عنده في مخزنه ، فقال له صاحب المخزن : أنا متعجب من حرمان أهل البلاد ، كيف تمر في السوق ويرونك ولا يقوم لك رجل واحد ولا يصافحك أحد ؟ فقال ذلك السيد : وما تريد بمصافحتهم وقيامهم ؟ فأما إذا قلت هذا ، فانظر . فإذا الناس قد ازدحموا عليه في المخزن في الحال ، حتى لم يسعهم وضاق بهم المكان ، فلم يتمكن من الوزن والبيع ، وبقي صاحب المخزن يدفعهم وتأذى بهم ، فقال : حبيب ، إن كان كذا فاخرج من المخزن ، فقد ضيَّقتوا علينا ، فقال: أرأيت هذا ؟ هذا كله منك ، لتعرف أن المنع مِنَّا لا منهم » .

قال : « **وبلغ السيد محمد بن علوي ما شكونا للسيد عمر ، فأرسل إلينا رسولاً وقال : قل له : يقول لك فلان : عليك بالخمول جدًّا ، فإنا قاسينا من الشهرة مشقَّة شديدة** » ، وكان هذا - أي الخمول - حال السيد محمد المذكور ، وهو من هذا المقام في الحال الأتم .

فقال له الرسول : « إنه يقلد بابه ، ويصل الناس فيرجعون ولا يفتح لهم » ، فقال : « ولو كان ، عادك قل له : يقول لك : الله الله الحذر » ، ثم قال سيدنا : « **وإذا اندفنت فلا يُظهرك إلا منكم** » ، أي السادة بعضهم بعضاً . وسيأتي أن سيدنا قال : « **قد عالجنا طريقة الخمول ، حتى إنه يأتيني الشيبة من السادة وأنا في الدار فلا أفتح له ، فيرجع . فكأنَّا ما نحن مُرادين لها** » ، أي للخمول، وهو كذلك كما يدل عليه قوة شهرته عند جميع طوائف الخلق ، من الإنس والجن والملائكة ، وذكرنا مكاشفة ذلك الولي الذي في أقصى بلاد المغرب ، بأن سيدنا عبدالله الحداد هو قطب هذا الزمان ، وأشهره الله - حتى عند أهل البوادي والعوام وأهل الجهل ممن لا يعرف علماً ولا عالماً - في جهة حضرموت وغيرها ممن قَرُبَ منها أو بَعُدَ عنها ، حتى إني في مسيري إلى حضرته في ربيع الأول سنة ١١١٥ ، سِرتُ من الصِّير إلى مَسْكَتْ بَرًّا ، وكرويي بدوي من بادية عمان ، ما أظن أنه سمع بالسادة آل باعلوي ، فكنت يوماً أقرأ هذه القصيدة من نظمه :

اِلْزَمْ بَابْ رَبِّكْ   وَاتْرُكْ كُلَّ دُوْنْ

فقال : « هذه القصيدة للسيد عبدالله الذي باليمن » ، وقرأتها يوماً في المركب، فسمعها بعض البحرية من المهرة ، لا يصلي ولا يعرف الصلاة . فقال : « هذه للحداد الذي بحضرموت » ، وقرأتها في الطريق ما بين سيحوت وحضرموت ، فسمعها كرويي من آل تميم بدوي عامي لا يصلي ولا يَذْكُر الله ، فقال : « هذه للحبيب عبدالله الحداد » .

فقضيت العجب من شهرته بين هؤلاء الجهال القحوح ، فكيف بها عند الأكابر من العلماء والأولياء ، حتى كاشفوا بِذِكْرِهِ من لا سمع به ، حتى عرفه من لا يعرفه ، وتمكَّنت محبّتُه واعتقادُه في القلوب ، وهكذا هو عند العلماء ووجوه الناس ، بل عند الجن والإنس بل عند الملائكة والملإ الأعلى، وعند أهل الظاهر وأهل الباطن ، فسبحان من أشْهَرَه كل هذه الشهرة وألْبَسَهُ أسرارها ، وجعله عَلَماً مشهوراً ، ومقصداً مذكوراً لمن قصد المعاد والمعاش والظاهر والباطن .

وفي ذِكْرِه قصة الشريف الذي من آل باعبود ، يدل على أن لسان حال سيدنا يقول : كذلك نحن، نمنع الناس عنا ، كما قدَّمنا من قوله : « **من أَرَدْنَاه جَذَبْنَاه ، ولو كان في أقصى الأرض ، ومن كرهناه نفيناه عنَّا ، ولو كان بين أَرْجُلِنا** » ، وقد تقدَّم قصص شاهدة لذلك كقصة الدمشقي ، وكذلك لمَّا

ذكَّرته جواب كتاب جاءه من بعض الناس وَصَّاني في كتابٍ جاءني منه أن أُذَكِّر سيدنا بجواب كتابه ، فلما ذكّرته قال : « اصبر ، اصبر ، أما علمت أن آخر أسماء الله الحسنى الصبور ؟ وإن أردتَ وَضَعْنا عليه مغناطيس الطلب ، فما تحس به إلا وهو عندك هنا » ، ومثل ذلك كثير من قوله وفعله رضي الله عنه .

وقد أشهره الله في هذا الوقت المُظلِم المكدَّر ، شهرة لا يقاس بها شهرة أحد من الأكابر ، إلا إن كان الشيخ عبدالقادر الجيلاني أو الشيخ عبدالله العيدروس ، عند جميع طوائف الخلق من الإنس والجن ، مع شدة كراهة سيدنا للشهرة ، حتى إن بعض خدامه جمع مؤلَّفاً في كراماته ، فغضب عليه وأمره أن يغمسه في الماء ، حتى دخل عليه جماعة من أعيان السادة أن يُبقِيه ، فتركهم وما أرادوا .

وآخراً إن ذلك المؤلَّف صار لي ، دفعه إليَّ ابنه الحبيب علوي بأمْرِهِ .

قال رضي الله عنه : « لو ترك أحد الدنيا ، واشتغل بها لا بُدَّ له منه ، أتاه منها ما يحتاج إليه ، وهذا مُجَرَّب » ، *وقال* في قوله تعالى : ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ : « هذا يتحقَّق في حقِّ الكافر ، وأما المؤمن فلا يخلو عن شيء منه ، إما نفاق أو شيء من المعاصي الظاهرة ، أو الباطنة كرياء وعُجب وغير ذلك » .

قال رضي الله عنه : « ينبغي أن يسير مع اليُسْر والإحسان في كل الأمور من أمور الدين والدنيا ، وإلا فما معنى يتنفَّل ويترك الفريضة ، حتى لا يحصل له ثواب فرض ولا نَفْل ، فإن من ضَيَّع الفرض واشتغل بالنافلة لا يَقْبَلها الله منه ، وما ينفع الكلام فيهم ، والشيطان قائم لهم بالمرصاد ، فمن حيث شقَّ عليه الدخول عليهم من جانب دخل عليهم من جانب أسهل منه ، حتى إن له كما ذَكَرَ الإمام الغزالي سبعة مداخل التي يدخل منها على الإنسان ، ذَكَرَ منها العَجَلة في الشيء حتى لا يحسنه ، وليس للشيطان مراد إلا أن يضل الإنسان بأي وجهٍ كان ، إذا لم يتبعه من هذا الجانب دخل من الجانب الآخر ، بخلاف النفس فإنها تطلب منه مطلباً واحداً لا تتعدَّاه وتصمِّم عليه » هـ .

أقُولُ : قوله هذا ، هو معنى قوله الذي تقدَّم : « إذا أردتَ أن تعرف الباطل لِتَجْتَنِبَه ، فانظر كل ما يحبه النساء ونحوهم ويعوِّلون عليه ويهتمُّون به ، فذلك هو الباطل ، سواء كان عبادة أو عادة » .

فالعادة واضح بطلانها لأنها منهنَّ غالباً لا تكون صواباً ، وأما العبادة منهنَّ فالمراد بها ما كان على هذا الوجه ، من تَرْكِ الفرض وفِعْل النَّفْل ، أو بلا إخلاص ولا إحكام للشروط ، ومراده بـ : « نحوهم» : من يفعل ذلك مثلهن ، فالنفس مُشَبَّهَة بالنساء ، فمن غلب عليه داعية النفس فهو كمن غلب عليه داعية النساء، كما كانت حواء داعية آدم للأكل من الشجرة التي نهاهما الله عن الأكل منها ،

وحواء سبب وقوعه في هذه الخطيئة ، كذلك النفس أكبر جنود الشيطان ، وأشد داعية له إلى المعاصي، وهي أشد من سبعين شيطاناً ، كما قال القائل :

تَـوَقَّ نَفْسَـكَ لا تَأْمَـنْ غَوَائِلَهَـا   فَالنَّفْسُ أَخْبَثُ مِنْ سَبْعِينَ شَيْطَانَا

قال الشيخ عبدالله بن أبي بكر العيدروس : « لو يجوز قراءة الشعر في الصلاة ، لجازت قراءة هذا البيت فيها » ، فكل عاصٍ تابع لهوى نفسه فمن اتبع هواها فهو عاص مثلهم هـ .

وسأل سائل منه الدعاء بالرحمة ، وألحَّ عليه في ذلك ، فقال : « ادعوا ربكم ، فإنه سبحانه يحب كثرة القَرْقَعَة - أي الإلحاح في الدعاء - على بابه ، ولعل المانع من ذلك ذنوب الناس ، ولكن يُرجى منه سبحانه أن يَرْحَم المذنبين لأجل البهائم والصغار ، فإن كان أولئك ليس فيهم خير ، فهؤلاء ليس فيهم شر ، وأيضاً ليس كل المكلفين أهل معاصي ، بل فيهم أهل الخير . وقد بَلَغَنا أن البهائم كل يوم تشكو إلى ربها من بني آدم ، وتقول : إنما مُنِعنا الرحمة بذنوبهم ، فإذا أردتم الرحمة فأطيعوا ربكم ، فإن الرب ما يرحم إلا أهل الطاعة ، والطاعة ما تكون إلا فيما يخالف هوى النفس ، وما ينفع القلب والدين من الأعمال إلا ما لم يكن للنفس فيه هوى ، وخزائنه سبحانه كلها مملوءة ، ولا بُدَّ من مطر في الدنيا كل ليلة من ليالي السنة ، إلا إن كانوا مطيعين جعل الله الغيث حيث ينفعهم - أي في الزمان والمكان - وإن كانوا عاصيين ، قال تعالى : أخِّروه في الخزائن . وما بالناس - أي ما ضارهم - إلا المداينات - أي ما يتعاطونه من الربا - ومظالمهم بعضهم لبعض .

وقد ورد : إن البهائم إذا قَحَطَت تدعو على بني آدم وتقول : إن الله واخَذَنا بذنوبهم ، إذ ليس لهنَّ ذنوب ، ولم يَمْنَعهم سبحانه إلا ليؤدِّبهم ، فإن العبيد إذا لم يكونوا مستحقِّين ، فالسيد الكريم يؤدِّبهم ، وذلك لأنفسهم لا لنفسه ، ليؤدبوا بذلك غيرهم ، فإن الآدمي محتاج إلى الرزق ، وإلا لجعلهم كالملائكة غير محتاجين للأكل ، وعدم الإحتياج إلى الشيء إما لكون بُنْيَتُهُ لا تَقْبَله كالملائكة لا غذاء لهم في الطعام، أو لكون الله تعالى لم يجعل لهم فيه غذاء وجعله في غيره ، كالبُر قوت الآدمي ، والقضب - هو القت - قوت الدواب ، وإنما قوت الملائكة الذي يتلذَّذون به القُرب ، وهذا شأن الأرواح ، كما أن الأكل شأن الأجسام ، ولذة الأرواح في غير ما تلتذ به الأشباح ، ولا يلتذ الروح بما يلتذ به الجسم إلا من حيث المجاورة ، وكل ما يُذكَر من معاني القُرب واللقاء وكونه لا يشتاق إلى جنة ولا يخاف من نار ، ونحو ذلك مما قد يجري في كلام القوم ، فكل ذلك من صفات الروح ، لأنه لا يأكل ، وإلا لاحتيج إلى أكْلٍ في القبور » هـ .

أقول : ولما كان شأن الروح مخالف لشأن الجسم في التغذي وغيره ، قال سيدنا ما تقدم من قوله : « **ما أنزل الله الروح إلى الجسم ، حتى أخذ عليه العهد والميثاق** » ، يعني بأن يبقى على مَطَالِبِه ، ولا يتابع الجسم في مَطَالِبِه ، بل يستميل الجسم إلى مَطَالِبِه قليلاً قليلاً ، إلى أن تطمئن النفس وتصير مطمئنة ، بعدما كانت أمارة تأمر بالسوء ، ثم لوامة تلوم على السوء ، ثم مطمئنة تأمر بالخير وتنهى عن السوء هـ .

قال رضي الله عنه : « **من فيه خيرية وكان ذا دين ، لم يزل يستفيد من خيِّر وشرِّير، لأنه يرى فائدته فيأخذها ، ولا ينظر إلى من سمعه منه** » .

وقال : « **نحن لا نمشي إلا على الطريق الأكبر المستقيم ، التي لا يكون فيها اعتراض لأحد ، وهو المهيع الواسع ، قال الله تعالى** : ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾**، والسُّبُل : هي الأمور الخفِيَّة ، يكاد من يَسْلكها أن يقع في البدع ، ومن وقع فيها فاعترض عليه أحد فلا لوم عليه ، إلا إن كان له حظ - أي هوى - فمن اعترض على ذي صلاح ، واعتراضه بشرع ممتزج بحظ ، كأن أراد تنقيصه أو حط مرتبته بين الناس ، فهذا يهلك ، إلا إن كان اعتراضه لمجرد الشرع - أي خالصاً لوجه الله - ويكون ظاهره وباطنه واحداً ، سلم من المعترض عليه، وإلا هَلَك . فقد ذُكِرَ أن ابن المُقْرِي ما سَلِمَ من إبراهيم الجبرتي إلا لكونه ليس له حظ في اعتراضه بل لمجرد الشريعة** » هـ .

أقول : كان الشيخ إبراهيم قد يستعمل السماع في المسجد ، وله في ذلك نية صالحة صحيحة ، ولابن المقري قصيدة في إنكاره ، أولها : « صارت مساجدنا للهو واللعب » ، وكلٌّ من الشيخَيْن إبراهيم وإسماعيل من أهل زبيد ، جمعهما مكان وزمان ، وكلٌّ منهما كامل في فَنِّه ، إبراهيم كامل في علم الحقيقة، وإسماعيل كامل في علم الشريعة .

فإذا كَمُلَ الإنسان فلا يكون منه إلا الكمال ، فلا يكون الإعتراض لمجرد الهوى أو ممزوجاً به إلا من الناقص ، ولا يلحق الإعتراض بصواب إلا الناقص ، لكن ربما أن بعض ما خَفِيَ من أمور الحقيقة يرى أنه مخالف للشريعة ، وله وجه عند أهله يسوِّغه في الشرع ، والكل صواب . لأنَّا نرى أناساً قد كَمُلُوا في علم الشريعة، وصنَّفوا فيه كتباً ، صاروا عند موتهم متعلِّقين بالسماع ، كالشيخ الفقيه عبدالله بن عبدالرحمن بلحاج بافضل مؤلِّف « المختصر » الذي شرحه ابن حجر ، وهو عمدة المتعلِّقين بعلم الفقه ، فكان الفقيه المذكور في آخر عمره لا يصبر عنه لحظة، حتى في مرض موته ، ولم يزل يُعمَل عنده حتى توفي والسماع يُضرَب عنده ، وما اعترض عليه في ذلك أحد ، لإعتقادهم أنهم ما بلغوا درجته في

العلم ، فما يقول المعترض على السماع إذا علم بحال الفقيه وأمثاله ؟ فلعلَّه اطَّلع في شأن السماع على ما اطلع عليه الأكابر قبله ، كالشيخ أحمد الرفاعي وأمثاله ، فإنهم كَشَفَ الله لهم عن أصوات أذكار الملائكة في أماكنها من حَمَلة العرش ، والطائفين بالبيت المعمور كل يوم سبعون ألف لا يعودون إليه إلى يوم القيامة ، وأهل سدرة المنتهى ، وسكان السبع سماوات وغيرهم ، فسمعوا أصوات بعضهم في ذِكْرِه كصوت الطار - أي السماع - وكصوت الطبلة ، وكصوت الحديدتين عند ضربهما ، وكصوت الجرس، فلما سَمِعُوا ذلك وجدوا به لذة عظيمة ، وذاقوا به وسَكِرُوا من طِيبه ، فلمَّا كُشِفَ لهم تلك الساعة ثم حُجِبَ عنهم فما صبروا عنه ، فصنَّفوا هذه الأصوات يتذكَّرون بها تلك الأصوات ، فإذا سَمِعُوا هذه طَرِبوا بها طرباً شديداً ، لما تذكُّرهم من تلك الأصوات الشريفة .

والدليل على هذا المعنى الذي ذَكَرْنَا ، ما نسمع من صوت الرعد ، فإنه شبيه بصوت الطار ، وخُذ دليله من كتاب الله : ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾، فثبت بهذا الدليل أنه تسبيح، وفي الصحيحين في بدو الوحي ، وقد سأل سائل رسول الله ﷺ فقال : « يا رسول الله ، كيف يأتيك الوحي ؟ » ، فقال : « يأتيني أحياناً مثل صلصلة الجرس ، فَيُفْصَمُ عني وقد وَعَيْتُ ما قاله » ، فثبت بهذا الدليل أنه قد يأتي الوحي من الله إلى رسول الله ﷺ ، إما بنزول آية من كتاب الله ، أو أَمْرٍ من عند الله بهذا الصوت .

فمن ذاق هذا المعنى وعرفه فلا يجوز الإنكار عليه ، ومن تطفَّل عليه بلا معرفة ولا ذوق إلا كمن قيل له : « أين تروح ؟ » ، قال : « معهم » ، فهذا إمَّعة ينكر عليه، لحديث : « اعرفوا الحق واتبعوه ، ولا تكونوا إمعة ، يقولون : نسير مع الناس حيثما ساروا » ، وعلى هذا كل أهل الدوائر الذين ترى إمَّعة لا يعرفون معنى ، ولا يذوقون لذة ، ولهذا قال الشيخ عبدالله بن أبي بكر العيدرس نفع الله به : « يهتدي بهذا السماع رجل واحد ، ويضل به ألف » .

والشيخ عبدالله له مواقف كثيرة في السماع ، وكان هو أكثر السادة آل باعلوي تعاطياً له ، مع أنه يُنكِره على بعض الناس ، على ما ذَكَرْنَا من قوله ، وقال : « ثلاث أشياء نفعلها ، وننهى أصحابنا عنها: تعاطي السماع ، ولبس الثياب الفاخرة ، ومجالسة الحكام » .

وقد سمع الشيخ ابن حجر عن السيد الشيخ عبدالله بلفقيه مولى الشبيكة أنه يتعاطى السماع كثيراً ، هو وجماعته يتقافزون حتى تتساقط عمائمهم ، فوصل إليه للإنكار عليه ، وهو ساكت عن السماع ، فلما رآه مُقبِلاً أمر بالسماع ، فجعل هو وأصحابه يتقافزون ، فوصل إليهم ابن حجر وهم كذلك ، فجعل يقفز معهم حتى سَقَطَتْ عمامته مثلهم ، فقال له أصحابه : « كيف هذا يا شيخ ؟ » ، فقال : « والله ما رأيت ولا سمعت إلا الأكوان كلها تَذْكر الله ، فطربتُ من ذِكْرِهم » ، فصنَّف بعد ذلك كتاباً سمَّاه :

« كف الرعاع عن حضور السماع » .

وذَكَرَ بعض الفقراء من أهل وقتنا قال : « كنت يوماً بعدما صليت الصبح ، أقرأ وِرْدي مستنداً إلى الجدار في المسجد ، فغطَّني النوم ، فرأيت كأني مع جماعة متحلِّقين حلقة جالسين ، وكان يقابلنا في السماء فُرْجة ، وحولها جماعة من الملائكة على صور الآدميين متحلِّقين مقابلين لنا » ، قال الرائي: « فألقيتُ سمعي إليهم لأسمع ما يقولون ، إن كان أصواتهم تشبه ما ذَكَرْنَا مما كُشِفَ للأكابر من أصواتهم، وإذا بواحد من أولئك المتحلِّقين عند فُرْجة السماء يزعق عليَّ ويقول : يكفيكم ما تسمعون من صوت الرعد ، فإنه تسبيحٌ بنصِّ القرآن » .

فالحاصل : إن المتحقق بالحقيقة - وعلامته أن لا يكون مخالفاً للشريعة - إذا عمل على الحقيقة لا ملام عليه ، كما تقدَّم من قوله : « **الحقائق إذا تبعتها طرائق سلَّمنا لصاحبها ، فإن لم تتبعها طرائق فإنما هي أخت الزندقة** » ، وقول السيد أحمد الهندوان : « من عمل بمجرد الحقيقة فهذا تزندق » ، فإن عمل بما لا يخالف الشريعة فتَوَهَّم من قصر عِلْمه أنه مخالف لها ، واشتبه عليه كما تقدَّم من قول سيدنا : « **إن طريقة الخصوص مُظلِمة** » ، وإن معنى كونها « **مُظلِمة** » يعني لا يدركها العقل ، ويلزم فيها التسليم والإنقياد ، فإنه حق وصواب لا يعرفه إلا أهله ، كقول ذلك الشيخ لتلميذه في المشي على الماء على ما تقدَّم من قصته .

فإذا أنكر العارف البصير بجميع أمور الشريعة ، ما ظهر مما يخالف ظاهر الشريعة ، فلا عتب عليه، لكن على الشرط الذي شَرَطَه ، بأن لا يكون لمجرد هوى ولا ممزوجاً بهوى ، ومع ذلك فالإعتراض لا يقتضي نقصاً في المعترض عليه ، لا في حاله ولا في فعله ولا في مقاله ، وربما يتبيَّن بعد ذلك عذره للمعترض .

ويشهد لكل ذلك قصة سيدنا موسى مع الخضر ، وقد استأذن سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام ربَّه سبحانه في المسير إليه ليتعلَّم منه ، وذلك أن موسى خطب في بني إسرائيل خطبة بليغة ، فقال له رجل : « هل على وجه الأرض أحد أعلم منك ؟ » ، فأجابه على مقتضى الحال ، أنه الرسول إلى أهل وقته ، وليس في المرسل إليهم أحد أعلم من الرسول إليهم ، فقال : « لا » ، أي لا أحد أعلم مني، وما عَلِمَ بما في عِلْم الله ، فعَتَبَ الله عليه حيث لم يردّ العلم إليه ، أي حيث أطلق بمقتضى قوله : « لا » ، إن ما على وجه الأرض أحد أعلم مني ، وما استثنى من إطلاق هذا العموم ، يعني كان ينبغي أن يقول لما سُئِل : « الله أعلم » ، أي يمكن أن يكون على وجه الأرض من هو أعلم مني ، فأراد الله تعالى أن يبيِّن له خلاف ما ادَّعاه ، أن هناك من هو أعلم منه .

وهكذا جرت عادة الله : أن كل من جَزَمَ بأمرٍ بمقتضى عِلْمه ، ولم يضف الأمر - أيّ أمرٍ كان- إلى

عِلْم الله ، ويعزل عِلْمه عنه ، أن الله يبيِّن له أن الأمر بخلاف ما يقول ، وما تألى به على الله وادَّعاه، فيكذب دعواه . وهذه حالة تصيب بعض الناس من الكاملين كالأنبياء والمرسلين والأولياء والصالحين ، كما ذَكَرْنا من القصص الواقعة في ذلك عن المذكورين ، عند قوله : « **كل مُدَّعٍ مخذول، ولا بُدَّ أن يقيِّض الله له من يعجزه فينخذل عند ذلك ، ولو كان كثير العلم** » ، ووقوع هذه الغَفلة والجَهَالة من الكامِلِين قليل ، ووقوعها من الناقصين كثير .

فلمَّا كان الأمر كما ذَكَرْنا ، من أنه لا بُدَّ ما يبيِّن الله لمن وقع منه ذلك ، فأراد الله أن يبيِّن لسيدنا موسى أمره ، فقال له لما قال : « لا ، بلى عبدنا خضر هو أعلم منك » ، وأباح للخضر خَرْق السفينة ، وقَتْل الغلام لهذا الأمر خاصة ، وما أباح قَتْل غلام قبله ولا بعده ، وإقامة الجدار ، فقال : « يا رب ائذن في لقيه » ، فأذِنَ له، فقال : « أين ألقاه ؟ » ، قال : « في ملتقى البحرين » ، أي يلتقي البحر المالح مع الحلو، وهو المسمى بـ « فَيْلَكا » ، وعلى موضع إلتقائهما مشهدٌ مشهورٌ يُزار ويُتَبَرَّك بزيارته ، والدليل على أن هذا موضع اجتماعهما ما ذَكَرَ المفسِّرون في قوله : ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبًا﴾، أنه ملك عمان ابن الجلندي ، فإن عساكره وجنوده تصل إلى هذا الموضع ، ولو كان فيما بعد عنه إلى جهة الشمال ما وَصَلَتْ إليه ، فقصده سيدنا موسى من جهة الشام وبيت المقدس إلى هذا الموضع مع بُعْدِه ولذلك قال : ﴿لَقَدۡ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾، وذلك أراده الله له من التعب في لُقِيِّ من أخبره الله أنه أعلم منه ، فانظر كيف يكون شأن من رأى من نفسه خصلة فوق غيره ، كيف يُعيِنه ويُتعِبه ثم يبيِّن له خلاف ما ادَّعى ، ولو كان ذا منزلة عالية عند الله .

فيكفيك ما سمعتَ مما قاسى سيدنا موسى ، وكان من أكابر أولي العزم الذين هم أفضل الخلق عند الله ، وما فوقه في الفضيلة والمنزلة عند الله إلا سيدنا إبراهيم الخليل ، وفوق الجميع والكل سيدنا رسول الله محمد ﷺ خاتم النبيين والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، فإياك والدعوى ، فإن المدَّعي لا بُدَّ هنا يفضحه الله ويبيِّن عَوَاره للناس ، كما تراه من شأن الكَذَبَة المدَّعين .

وأتى سيدنا موسى إلى الخضر في حالة طالب متعلِّم يطلب منه الإستفادة ، قائلاً : ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدًا ۝ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرًا﴾، أي حالي وما يقتضيه عِلْمي لا يناسب حالك وما يقتضيه علمك ، ولو كان كلٌّ منهما من عند الله ، كما قال آخراً: ﴿وَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِيۚ﴾، بل إنما هو عن أمر الله ، لكن عِلْم سيدنا موسى ومقتضى حاله على حكم الشريعة ، لأنه في مقام دعوة الخلق إلى الله ، فإنه رسول الله إليهم ليدعوهم إليه ، ويعلِّمهم كيفية أحكامه ، ولا يخاطب أحداً ولا يكلِّمه إلا بأمور الأحكام الشرعية، فلهذا أنكر ما رأى من الخضر مما يخالف سيرته وشأنه، وهو - أي ما أنكره - من أمر الله أيضاً ، حيث أمر الله الخضر بذلك ، خلافاً لما عليه موسى، ليعلم

أن مما وراء علمه وأحكامه وأوامره لله عِلمٌ وأحكامٌ وأوامر ، وكل سِيَر موسى شريعة لكن موافقة للحقيقة ، وكل سِيَر الخضر حقيقة لكن موافقة للشريعة ، وإلا لم تنفع حقيقة بلا شريعة ، فإنها زندقة .

ومع سيدنا موسى من الحقيقة أكثر مما مع الخضر منها ، ومع الخضر شريعة على دين موسى ، لأن في العادة كل شريعة تأتي من عند الله ناسخة للشريعة التي قبلها ، وكل مسلم في وقت موسى فعلى شريعته ، فالخضر وغيره حينئذ كلهم عليها ، فكل ما كان الخضر في وقت رسول ذي شريعة - على القول بحياته - كان على تلك الشريعة ، فتبع شريعة عيسى ، ثم شريعة محمد ﷺ الناسخة لجميع الشرائع ، وما وقع لموسى من الخضر إلا ما أراه من أمور تخالف ما عنده ، وهي من عند الله أيضاً ، فأنكرها لمخالفتها ما عنده ، لأنه إنما أظهر له أشياء من علوم الحقيقة من وراء ما عنده ، لأنها بحور واسعة ، ولو أظهر له مما عنده من علم الشريعة لعرفها ، لأن جميعها ما جاءتهم إلا من عنده .

وهذه القصة تبيِّن أمور كثيرة منها : أنه فُهِمَ من ذلك أن الله سبحانه إذا أراد أن يوصل علماً إلى من أراد ، أوصله إليه إلى الأنبياء والرسل من طريق الوحي بواسطة المَلَك ، ومن طريق الإلهام ، أيُّ عِلْم كان إلى مَن كان ، آدمي أو غيره ، حيوان أو جماد ، وإلى جميع طوائف الخلق ، كما أوحى سبحانه إلى النحل ، وعلى أي حال كان كل ذلك ، فوحي المَلَك خاصٌّ للأنبياء ، ووحي الإلهام للأولياء وغيرهم .

والإلهام نوعان : باطن ، يكون للباطن من علم الحقيقة ، والآخر : ظاهر ، يكون للظاهر من علم الشريعة ، وهذا للعموم وذاك للخصوص ، وهذا عمل وأحكام على الأجسام ، وذاك أعمال وأحوال وأحكام على القلوب والأرواح ، وهذا كلامٌ يُلقى على القلوب والأرواح لعمل الأجسام والأشباح ، وذاك خطاب يُلقى عليها لها .

وفُهِمَ من ذلك سعة علم الله ، وأنه سبحانه يوصِل ما أراد من العلم إلى من أراد من الخلق ، على أي وجه أراد . فانظر إنه تعالى لما علم وأراد من أمر أم موسى في موسى ما أراد من إلقائه في اليم ، وأنه سيوصله إليها بعد ذلك ، قال تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ ، وهذا وَعْدٌ منه سبحانه لها برَدِّه ، إلى أن قال تعالى : ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ ، أي برده إليها ، ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ ، أي بِوَعْدِهِ لها برَدِّه ، وكل ذلك من طريق الإلهام ، أوصله إليها من غير واسطة نبي يخبرها بذلك ، فاعلم ذلك .

وكذلك إن الله تعالى سمَّى نبيه محمداً ﷺ محمداً في سابق أزله ، قبل خَلْق المخلوقات كلها من العرش والكرسي والسماوات والأرض ، وأشْهَرَه عند الملائكة حتى عرفوا محمداً وفضله قبل أن يعرفوا آدم ونَسْلَه ، وكتب اسمه محمداً على قوائم العرش وعلى أبواب الجنة ، ثم إنه لما ولد أَلْهَمَ اللهُ جَدَّه عبدالمطلب يوم سابع ولادته أن يسمِّيه محمداً بذلك الاسم الذي سمَّاه الله به ، كما هو عند الله

تعالى « محمد » ، فقيل لعبد المطلب : « لِمَ سمَّيتَ ابنك محمداً ، ولم يكن من أسماء آبائك ؟ » ، قال : « رجوت أن يحمده أهل السماء والأرض » ، فحقَّق الله رجاه ، فانظر إنه تعالى لما أراد كما سبق في علمه أن يسمِّيه محمداً ، أَلْهَمَهُ ذلك فسمَّاه به ، وذلك في الجاهلية الجهلاء ، لا سَمِعُوا عِلْماً ولا قرأوا كتاباً .

فاعرف أنه سبحانه وتعالى يوصل ما أراد من عِلْمه إلى من أراد من خَلْقه ، من جاهل أو عالم أو عاقل أو مجنون ، بل إلى جماد ، كما قال تعالى في شأن الأرض : ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴾، وكذلك قوله تعالى للسماء والأرض : ﴿ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ وما منهما قول ولا نُطْق بلسان ، لكن أوصل معرفة خطابه إليهما فعرفا وامتثلا الأمر ، وبَانَ بهذا إن جميع المخلوقات طوعاً لخالقها ، ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝ ﴾، بل أوصل وأنزل من عِلْمه وكلامه القديم القرآن العزيز على هذا الأسلوب على نبيه ﷺ لكافة خَلْقِه، فيسَّره لهم ليحفظوه ويعرفوا معناه ، ويمتثلوا أوامره ونواهيه كما أمر ونهى ، وإلا فلا طاقة للخلق المحدَثِين على فهم كلامه القديم وإدراك معانيه ، فقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ ﴾، ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝ ﴾، وكذلك ما أنزل الله تعالى على جميع المرسلين وأوحى به إليهم .

ولهذا لمَّا رَكِبَ موسى مع الخضر في السفينة ، وقع عصفور على حَرْفِ السفينة وغطَّ منقاره في الماء وشرب ، قال الخضر لموسى عليه السلام : « يا موسى ، إنما عِلْمي وعِلْمك وعِلْم جميع الخلق في جنب عِلْم الله ، إلا كما أخذ هذا العصفور من البحر » ، وفي مجموع هذه الأمور غاية الإستفادة والتحصيل، فافهم . وقصة الخضر هذه واقعة حال لا يُقاس عليها ، فلا يجوز لأحد بعدها فعل مثلها ، إنما جعلها الله عبرة لسيدنا موسى عليه السلام ، ليعلم أن من وراء علمه من عِلْم الله ما لا يخطر في البال ، وفيها تنكيل للمدعين وإن كانوا صادقين فضلاً عن الكاذبين ، فلا يجوز تعاطيها . ومن وقائع الأحوال ما رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري قال : « صلَّيت خلف رسول الله ﷺ من الصلوات جَمْعاً سبعاً وثمانياً من غير مرض ولا سفر » ، قال الذي روى عنه : « لِمَ فعل ذلك؟ » ، قال : « أراد أن لا يحرج أمَّته » ، أي أن لا يضيِّق عليها ، فصلى الظهر والعصر جمعاً ثمانياً ، وصلى المغرب والعشاء جمعاً سبعاً . قال العلماء : « هذه واقعة حال » ، أي لا يعمل عليها ويُحتَج بذلك ، لأن هذه إنما وَقَعَت مرة في العمر، فلو كان يعمل على ذلك لكان تكرر منه مراراً ، فلما لم يكن إلا مرة واحدة كانت واقعة حال، وقالوا : « وقائع الأحوال إذا تطرَّق إليها الإحتمال ، كُسِيَت ثوباً من الإجمال ، وسقط الأخذ بها والإستدلال »، ومعنى كونها واقعة حال ، يعني اقتضى حاله في تلك المرة أن يفعل ذلك لأمر هو يعلمه هـ .

قال رضي الله عنه : « علوم المكاشفات غير مخالفة لعلوم المعاملة ، لأن معانيها صحيحة ، إلا إنها تختلف بإختلاف المجاهدات ، ومن أَمْكَنه مطالعة علم ينتفع به في دينه ومعاشه ، وهي كتب الإمام الغزالي ، خيرٌ من التعرض للشتم - أي الذم - وقد طوى - أي الإمام الغزالي - علوم المكاشفة ، وقال: إنها لا تُسطر في الكتب . وقد حَوَت كتبه ما في كتب غيره » .

وسألته : هل الإعتقاد الحق منحصر في عقيدة الأشعري ، وما خرج عنها هو باطل ؟ : « عقيدته هي الحق ، وما خرج عنها فيه حق وباطل ، وإنما فاق غيره لكونه قال : آمنت بالله ، وبما جاء عن الله ، على مراد الله ، وفوَّض الأمر إلى الله » .

يعني إن هذا مِلاك عقيدة الأشعري وأساسها الذي بُنِيَت وأُحْكِمَت عليه ، وهذه منه من الكلمات الجامعة المستمدة من جميع جوامع الكلم الذي أوتيه جدُّه رسول الله ﷺ ، كما قدَّمنا الكلام فيه عند قوله : « إذا أخذ الناس منه بِسَهم ، أَخَذْنا منه بسهمَيْن » ، يعني من ميراث رسول الله ﷺ من العلم، يعني سَهْم بالقرابة النبوية ، وسَهْم بالخصوصية والمزيَّة التي خصَّه الله بها ، فجعله بها داعياً إليه ، فافهم، وقد تقدَّم تفصيل ذلك ، فإنه ميراثه الذي أرثه كما قال : « إنَّا معشر الأنبياء لا نورث ديناراً ولا درهماً ، وإنما ورثنا العلم » .

ويشهد لذلك قول بلال المتقدِّم ، أن النبي ﷺ ، كان أمره أنَّ كلَّ من قدم مسلماً عارياً جائعاً أن يستلف ويُطعِمهم ويكسُوهم ، ففعل حتى كثرت عليه الديون ، حتى همّ أن يَبِقّ إلى الأحياء التي خارج المدينة من المسلمين ، وشاور النبي ﷺ في ذلك ، فقال له : « لا تستعجل » ، قال : « فصلَّيت العشاء خلف رسول الله ﷺ ، وتوسَّدتُ سيفي وَدَرقتي عازماً على أني إذا صليت الصبح خلف رسول الله أن أبق، فعندما أخذني النوم إذا منادي رسول الله ﷺ يدعوني ، قال : رسول الله يدعوك ، فدخلتُ عليه، فإذا عند بابه أربع ركائب بأحمالهن مناخات ، فقال لي : أرأيت الأربع الركائب ؟ قلت : نعم ، قال : فإنه أهداهنَّ لنا بما عليهنَّ عظيم فَدَك، فاقبضهنَّ وبِعْهنَّ مع عدولهن ، وأوفِ دَيْنك . فبعتهنَّ وأحمالهنَّ وأوفيتُ كل ما عليَّ من الدَّين ، وبَقِيَت بقية ، فأخبرت النبي بذلك بعد صلاة العشاء ، فقال : انظر أن تريحني من هذه البقية ، فما أنا بداخل على أحد من أهلي حتى تريحني منها . فبقي في المسجد ليلته ويومها إلى الليل ، فلما كان بعد المغرب ، لقيتُ فقيراً فَدَفَعْتُها إليه، فقلت : يا رسول الله ، قد أراحك الله منها »، أظنه قال : « فسجد شكراً لله » ، قال: « فدخل إلى أهليه ، فسلَّم عليهنَّ واحدة واحدة ، لغيبته عنهنَّ تلك الليلة ، ثم بات عند التي عندها مبيته تلك الليلة » ، فقال الراوي عن بلال له في ذلك ، فقال : « خاف أن يدركه الموت وعنده شيء من الدنيا » ، فهكذا كان شأن رسول الله ﷺ، فدلَّ ذلك أنه لم يورث قط شيئاً من الدنيا ، وهكذا حاله وشأنه وسيرته .

فتبيَّن بذلك أن مراد سيدنا بمقالته - حيث قال : « **لا تفعل من الدنيا شيئاً إلا لضرورة حاضرة ، ولا تقل : ربما تدعو إليه حاجة ، فحاجة الدين والآخرة أهم من ذلك** » - إن هذا وصف حال رسول الله ﷺ ، حيث لم يترك تلك البقية ، وما قال : « ربما تدعو إليه الحاجة » ، وما صَدَّق على الله تخرج من يده ، وما دام خاطره مشغولاً منها وما استراح إلا حتى خرجت .

وهكذا وَصْف حال سيدنا لقوة متابعته لجدِّه ، فقد جعل الله الدنيا خادمة له، حتى إنه قد تغيب الشمس وما معهم عشاء ، وفي البيت نحو أربعين نفساً ، وما نصلي المغرب وركعَتَيْه إلا والخادم ينادينا للعشاء . وكان قد ولد له مولود ، وما وجدوا ما يحنّكون به المولود ، وعادتهم هناك يحنّكون المولود بالعسل ، فبينما هو جالس تلك الليلة في الراتب ، إذ سمعت وقعة شيء عند رجله ، فمدَّ يده وأخذه ، وإذا هو قرش حجر ، فنادى الخادم فدفعه إليه وقال : « **أعطهم هذا ، يقضون به غرضاً** » ، فأعطاهم إياه ، فأخذوا منه عسلاً لتحنيك المولود . هكذا سمعته يحكي ، وكان قبل وصولي إلى حضرته . ومن تأمل في أحواله في أمور المعاش ، رأى كلها كرامات خارقات للعادات .

وذَكَرَ الأولياء يوماً - وهو يوم الأحد ١٥ صفر سنة ١١٢٥ - وذلك في طريقه سائراً إلى السبير، **فقال** : « **الأولياء يقلّون ويكثرون في كل زمان ومكان ، ولا يبلغون عدد الأنبياء ، إلا إن كان الولاية العامة من كل مؤمن ، فيبلغون أكثر . وأما الولاية الخاصة ، من كونه مؤدِّياً للواجبات ، تاركاً للمنهِيَّات أو قليلها فلا ، وقد كثروا في وقت الشيخ عبدالقادر ، وما بلغ قدرهم إلا اثني عشر ألفاً . وأهل الزمان إنما يطلبون الكرامات لأهواء نفوسهم ، فيريدون أن يتمكَّنوا من قَلْب الأعيان ذهباً وفضة ، ليستكثروا من الدنيا ، ومن هو على هذا الوصف فسَتْر الكرامات عنه رحمة به ، ومن مُكِّنَ منها وفعل نحو هذا سُلِبَ - أي سُلِبَ التمكن منه - فلا بُدَّ من فَعَل ما لا ينبغي له ، أن يُقَيِّض له أحد من الصالحين فَيَسْلبه ، وكل من سُلِب منه حاله منهم إنما هو لسوء أدبه فيه ، والكرامة ما كانت ثابتة ، وإنما الكرامة الإستقامة**» ، فقلت له : إنما يطلب الإنسان قوة اليقين ، والخروج من غوائل النفس ، **فقال** : « **اليقين إنما هو من السماء ، فاطْلُبه من الله تعالى ، ولا تُعْرَف غوائل النفس إلا عند التجربة** » .

أقول : قوله : « **اليقين من السماء** » ، أي من عند الله ، يمنُّ به على من شاء من عباده ، ولهذا قال : « **فاطْلُبه من الله** » ، لأنه من مواهب الله الخاصة ، لا يحصل بالجهد والإجتهاد إلا بِوَهْبٍ من الله ، ولو اجتهد ، فإذا كان مكتوباً للعبد أراد الله له ذلك ، فسعى فيه وحصل ، فليس ذلك بكَسْبه واجتهاده ، كما قال تعالى : ﴿ وَٱبۡتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ ﴾، ومثل قوله : « **اليقين من السماء** » ، قوله فيما تقدَّم: « **كل خير فهو نازل من السماء** » ، فالقرآن غذاء الأرواح وهو نزل من السماء، والماء غذاء الأشباح وهو نزل

من السماء ، على ما بيَّنَّاه في موضعه في ما تقدَّم .

وسألته عن رجل صَحِبَ بعض المشايخ ، قبل أن تحصل له الهمة في سلوك طريق القوم ، ثم حَصَلَت له بعد فراق الشيخ ، هل يحتاج حينئذ إلى شيخ ، أو تكفيه صحبة الأول ؟ *فقال* : « **تكفيه ، إذا قد ربَّاه بظاهر العلم ، ولكن إذا أمكنه صحبة من ينتفع به أيضاً وتحصل له منه فائدة فحسن ، فقد كان فلان – سمَّاه ونسيته – من أكبر تلامذة الشيخ أبي مدين ، قال له : امض إلى الشيخ عبدالقادر واصحبه – أظنه قال : فيعلِّمك الأدب – فلمَّا صحبه قال له الشيخ عبدالقادر يوماً وزوى له الأرض: ماذا ترى من هنا ؟ فقال : أرى الكعبة . قال له : ومن هنا ؟ قال : أرى شيخي أبا مدين ، فقال : تريد أن تصل إليه ؟ قال : نعم ، قال : تريد ذلك في لحظة أو كما جئت؟ قال : كما جئتُ ، فودَّعه وسار . وصَحِبَ ابن عربي جملة مشايخ ، والشعراوي نحو مائتي شيخ** » .

أقول : وذَكَرَ سيدنا أن مشايخه يزيدون على المائة ، ذَكَرَهُ في إسناد إلباس الخرقة هـ .

قال : « **إذا صحبت إنساناً ، وثبتت لك معه الصحبة ، فلا بأس أن تتردد إلى من ترجو منه البركة ، ولكن بعد أن تتمسَّك** » ، ومرة *قال* : « **إذا لم يجتمع قلبك بَعدُ على أحد ، فكلما أكثرتَ من التردد على المشايخ فهو أحسن ، حتى يجتمع قلبك على واحد ، فإذا اجتمع عليه فالْزَمْه ، ولا تمضِ إلى أحد إلا بإذنه** » .

أقول : هذا معنى قوله : « **بعد أن تتمسَّك** » ، وأفهمَ كلامه المتقدِّم ، مع كلام السيد أحمد الهندوان، أن معنى الإجتماع عليه : أن يعتقد أن ما على وجه الأرض أحد أفضل منه ، فذلك هو شيخه الذي ينتفع به ، ويَصِل إلى الله على يديه . قال السيد أحمد : « **إذا اعتقدتَ في إنسان أنه أفضل أهل زمانه ، فذلك الإنسان هو شيخك الذي تَصِل إلى الله على يديه ، ولو كان أجهل خلق الله** » .

أقول : يعني إن انتفاعك بحسب عقيدتك ، لا بحسب كمال شيخك ، ولهذا انتفع بعقيدته في أجهل خلق الله ، كما قال ناصر الدين :

وَالمرْءُ إنْ يَعْتَقِدْ شَيْئاً وَلَيْسَ كَمَا ... يَظُنُّـهُ لم يَخِبْ وَاللهُ يُعْطِيهِ
وَلَيْسَ يَنْفَعُ قُطْبُ الوَقْتِ ذَا خَلَلٍ ... في الإعْتِقَادِ وَلَا مَنْ لَا يوَالِيهِ

قال سيدنا : « وإذا اندفنتَ فلا يُظهِرك إلا منكم » ، أي السادة بعضهم من بعض هـ .

قال : « وقد ذُكِرَ أن عبدالله بن أحمد - يعني بلفقيه - لمَّا صَحِبَ الشيخ أحمد القشاشي ، وعَلِمَ به السيد محمد بن علوي ، حنق عليه كثيراً ، كيف يروح إليه يصحبه وهو موجود فلا يصحبه أولاً ؟ مع اعترافه له بالفضل » ، أي اعتراف السيد عبدالله للسيد محمد .

فقلت لسيدنا : لا يكون إنبات السادة إلا من بعضهم بعض ، فقال : « نعم، لأنهم مرتبطون بسبب النسب ، من حيث أن هذا أبو هذا ، أو أخوه أو عمه أو قرابته ونحو ذلك ، وعقيدة البعض منهم متعلِّقة بالبعض ، وقد يأخذ الرجل منهم عن أبيه أو قريبه ، ثم يروح يأخذ من آخرين ، لأن في الأصل ما أَخْذ الناس إلا عن الناس » .

قلت : وهل يكون ذلك منهم لغيرهم أيضاً ؟، قال : « نعم ، يكون ذلك منهم لغيرهم . وقد قال الشيخ عبدالله العيدروس رضي الله عنه : أُذِن لي في تحكيم ربع أهل الدنيا ، وقال جدُّه الشيخ عبدالرحمن السقاف رضي الله عنه : من لا شيخ له فأنا شيخه » .

قلت : ولا يمنعهم تغيُّر الزمان من ذلك ؟ ، قال : « لا ، ويكون ذلك على قدر الحال ، والنخلة في ابتداء أمرها لا تكون كما في آخره ، ولا على الإنسان إلا الأهليَّة ، فإذا تأهَّل حصل له مقصوده في أي زمان كان » ، قلت : وما الأهلية ؟ وبأي شيء تكون ؟ فقال : « بفضل الله » .

فقلت : إذاً لا حيلة لنا في ذلك ، قال : « الحيلة منه وإليه ، ولا بلوغ إلى شيء من المقاصد إلا بتوفيقه، وإصلاح النفوس في هذا الزمان المعكوس يَعْسُر » .

قلت : كيف الحيلة في تذليلها ؟ ، قال : « لا يمكن إلا بإعانة وتوفيق ، واذْكُر قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾، كلما استعصت عليك ، وقوله تعالى : ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾، ولا أحسن للإنسان في هذا الزمان عند وُرُود عُجُب أو كِبْر أو نحو ذلك من الإستغفار كلما وَرَدَ عليه ، ويكون ذلك عند وُرُوده في الحال » .

انتهى ما حَصَلَ من الكلام حالة الإستئناس معه ، في مجلسٍ خاص ليس هناك أحد ، وهو مما يختص بي من الكلام . وكلامه هنا ، صرَّح بالمعنى الذي قدَّمناه ، من أن المراد بالأهلية والإستعداد والحظ والبخت والنصيب ، كل ذلك بتقدير حصول ذلك من الله وسبق إرادته له بذلك وكَتْبه ، فالكَتْب عبارة عن سبق إرادته تعالى ، وفي المكتوب ينفع التسبب دون ما لا يُكتب ، فلا يفيده التسبب لقوله تعالى: ﴿وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾، أي تسبَّبوا فيه فإنه يحصل ، فإذا كان الأمر كذلك، فكل ذلك أمره إلى الله ، ليس للعبد فيه مَدْخل بوجهٍ من الوجوه ، كما صرَّح به كلامه هنا وغيره ، وما له فيه

مَدْخل من التسبب والجد والإجتهاد لنيل القصد ، والمراد فهو تابع لذلك هـ .

قال رضي الله عنه : « **ما مقصد الصالحين بعد رياضاتهم ومجاهداتهم إلا مُلْك نفوسهم وقَتلها ، فإذا حصل لهم ذلك منها وقعوا على الإكسير الأعظم ، لأنها في هذا الباب أعظم الأجزاء ، ولا يتم الأمر إلا بِقَتْلِها ، وهي فيه كالزئبق في الكيمياء ، ولا يحصل المقصود منه إلا بِقَتْلِهِ ، ويعسُر قَتْل كل منهما ، ولا يحصل المقصود من كل واحد منهما في بابه إلا بِقَتْلِهِ** » .

فقلت له : إنما نتشفَّع إلى الله بعد رسوله في حصول أمر ما في وقتنا بكم ، كما أن من أراد من الله شيئاً في زمنه ﷺ جاء إليه يدعو الله له به ، *فقال* : « **تلك خصوصيات له عليه الصلاة والسلام** » .

قلت : وتلك الخصوصيات أيضاً يكون منها في ورثته من ذريته - بدليل قوله المتقِّدم في الإرث النبوي حيث قال : « **فمن ورث منه بِسَهْمٍ ، فلنا منه الإرث بسهمَيْن** » على ما قدَّمنا - .

فقال رضي الله عنه : « **عهدة ذلك عليك ، ونتوقف فيه حتى نرى عليه دليلاً** » .

وتكلم حينئذ - أي في هذا المجلس - كلاماً كثيراً ، فقال بعض الحاضرين من الغرباء المقيمين : « إني لا أرى أثر النَّبت ظاهراً عليَّ » ، والنَّبت : العلامة الدالة على حصول شيء من ذلك الأمر ، يقول: ما أرى عليَّ علامة تدل على ذلك ، *فقال* : « **إن هذا أحسن ، خوفاً من الإعجاب ، وقد نَبَتَّ وَبَقِلْتَ** - يعني نَبَتَّ في لغتهم - **وغُصْتَ أيضاً زيادة ، ولكن قاعدة : إنه لا يظهر على الإنسان ما دام في حضرة من تعلَّم منه ، ولكن إذا سار إلى بَلَدِهِ ونَشَرَ ما عَلِم ، حصل له الفتوح في أرضه ، وإذا أردت أن تسير ، نجعل لك إن شاء الله وصية ، تكون لك قائدة ، كالحبل في عنق الدابة ، كلما بَعُدَت عن مَرْبطها جَرَّها حتى تعود إليه** » هـ .

أقول : انتهى ما حصل في هذا المجلس المبارك من قولي : وسألته عن رجل صحب بعض المشايخ .. إلخ ، إلى هنا ، وهو متقدِّم على ذِكْرِه للأولياء في طريق السبير ، فذَكَرَه لهم يوم خامس صفر سنة ١١٢٥ ، وهذا المجلس المذكور عشية الأربعاء ٢٤ صفر سنة ١١٢٤ .

وقد طال به وقت المجلس ، فطال به الكلام ، وذلك لغيبة القُرَّاء ذلك اليوم ، حتى لم يحضر منهم واحد ، وذلك على غير العادة ، فلما خلا منهم المكان تكلم بما ذُكِر ، فكان هذا مجلس فسحة وانبساط وأنس . وكل مجالسه أنيسة مأنوسة ينشرح فيها الخاطر ويستأنس بها الصدر ، ويذهل عن الدنيا وهمومها .

وقوله في هذا المجلس : « **إن الأهليَّة بفضل الله ، وإن الأمر منه وإليه** » ، أي لا حيلة فيه إلا بفضل

الله ورحمته ، يؤيِّد ما تقدَّم مراراً .

وذَكَرَ من توفَّرت فيه القابلية ، غير شرط واحد ، فتعطل الأمر لفقده ، فقال رضي الله عنه – وذلك في مجلسه في هذا الموضع عصرية يوم بعد الدرس ، وحضره جماعة من جملتهم السيد عمر البار ، فَنَقَلَ كلامه كما نحن نَنْقله ، وهذا نَقَلْتهُ من نَقْلِهِ بخطِّه – *فقال رضي الله عنه* : « **أهل الزمان قَلَّ ما تتم الشروط فيهم ، إلا إن حصلت كلها ، فُقِدَ واحد ، فتعطل جميعها لذلك ، فلم يحصل بسبب ذلك المطلوب ، كما في علم الكيمياء إذا أتي بشروطها وبقي شرط ، تعطل عليه عمله . والكيمياء أحد خصلتين : إما أن يؤتيه الله زهداً ، فيستوي عنده الذهب والتراب ، وإما أن يؤتيه الله الكفاف ويشغله بطاعته . ونحن نقول : الكيمياء ، قل هو الله** .. » ، هذا حد ما نَقَلَهُ السيد عمر ونَقَلْتهُ من خطِّه ، وسمعت سيدنا قال بعد قوله : « **قل هو الله ، والعمدة على صفاء القلب واجتماع الأرواح ، وإلا فكثافات الخلق لا حاجة إليها ، خذ ما صفا لك ، ودع أمر الخلق يكون وراء** » .

قال رضي الله عنه : « **فلان إذا أراد أن يسير إلى بلاده نأذن له أن يحكِّم لنا لا لنفسه، ويُلبِس الخرقة ، ونحن ما أَذِنَّا لأحد أن يُلْبِس مطلقاً ، بل أن يُلبِسوا من أرادوا من أهلهم وأولادهم** » ھ .

أقول : المراد من هذا معرفة أنه تجوز النيابة في التحكيم والإلباس ، وأن الإختيار لهم كما أرادوا في الأولاد والأقارب فقط لا مطلقاً .

ومرة *قال* : « **المراد من الإلباس معنى ، وهو حصول الرابطة لا مجرد الإلباس ، ومن لبس أو ألبس لمجرد الإلباس ما حصَّل شيئاً** » ، أو كما قال .

قال رضي الله عنه في حديث : « **إن الله جميلٌ يحب الجمال** » : « **معناه ، أي ينبغي للعبد أن يتجمَّل ، لكن بحيث لا يحب التزين ، ويتشهَّى كل ما يرى ، ولا يحب أن يرى متجملاً ولا يفاخر في ذلك ، ولا يغبط من هو كذلك ، بل المؤمن لا يحب إلا ما يحبه الله ، فإذا كان كذلك فيفعل ما يليق ويحسُن ، ويأخذ الأمر بأوله وآخره، أي يكون على حالة واحدة لا يختلف فيها ، ولا يتبع هواه في أمثال هذه الأشياء ويستدل – أي يحتج – بهذا الحديث ، لأن فيه – أي في ذلك – إتلاف النفس ، وإتلافها عَسِر** »، أي يتبع المذكورات ويحتج لهوى نفسه بهذا الحديث ، فهو مهلك .

قال رضي الله عنه : « المزاحمة في الدين مطلوبة ، زاحموهم بالرُّكب - أي قاله بعض السلف - وبعض الناس غَلَبَت عليه العوايد » ، ثم فسَّر العوايد ، فقال : « أي المزاحمة في أمور الدنيا من جاه ومال ونحوهما ، وحتى يثقل عليه أن يقال له حال الزحام : تأخَّر قليلاً . ويضيق حاله من ذلك » .

وأمرني يوماً أن أقرأ عليه « مقصورة ابن دريد » ، وبعد تمامها قال : « إنها تصلح للمهمومين - أو قال : المغمومين - من الحكماء » هـ .

أقول : ذَكَرَ العلماء أن المهموم : من يتوقع نزول المكروه به ، فهو يهتم خوفاً منه، والمغموم : من قد نزل به المكروه هـ .

قال : « إذا حصل عليك أمرٌ تكرهه ، لك فيه خيرة ، فلا تحزن ، ولو كان سارق سرق عليك شيئاً. وأنت من أهل الحق في أمان ، ولاتأمن أهل الباطل » .

قال رضي الله عنه : « كلام الأكابر يحتاج إلى تأمُّل ، ولا يزال يردِّده ويتأمَّله حتى يظهر له » .

وقُرِئ عليه يوماً شيء من قصائد ابن الفارض ، فقال : « هو كلامُ قلبٍ حي في جسم ميت » .

وقال : « لا يتم النشيد إلا بثلاثة أمور : بحُسْن الصوت ، والنظم ، والإعراب ورابع- ولعله - طيب الوقت » .

أقول : يعني لا يكون هناك مشوش ولا تشويش ، ولو ثم رجلاً ثقيلاً ، ولو لم يكن إلا من يستثقل من حضوره طبعاً ، فإن الثقيل على الخاطر يُسَمَّى : حُمَّى الروح هـ .

وأُنشِدَ بين يديه بشيء من نظم ابن الفارض فيه غزل ، فقال : « كل هذا مليح ، ويُنَزَّل على الروح وعلى الجنة ، لا على الحقيقة الإلهية خالق الكل » .

ومرة قال : « إذا تكلم المخلوق بوَصْفِ المخلوق ، فاللائق به أن يكون في المخلوق » ، ومرة ذكر هذا وقال : « فهو بالمخلوق أحق » .

ثم ذكر ابن عربي فقال : « فنُّهما واحد ، إلا إن ابن عربي الغالب عليه الصحو ، والغالب على ابن الفارض الإستغراق . وذُكِرَ لابن عربي كلام ابن الفارض فقال : كلامنا واحد ، وإنما كلامه ميدان لكلامي » .

وأمرني سيدنا يوماً أن أنشد ، وكان ذلك في محضر في جماعة كثيرة ، في دار السيد عمر بن علي الحداد، ضحى يوم الجمعة ثاني شهر ربيع الأول سنة ١١٢٤ ، فأنشدت بقصيدته : « مُحِبٌّ لَيْسَ يَدْرِي مَنْ يُحِبُّ .. إلخ » ، فقال : « هذه الأبيات من القصيدة التي أولها : إذا هبَّت ، وإن سجعت ، وإن مَرَّت، وإن عرضت ، هي معنى ما ذَكَرْنَاه في التائية » ، في قوله :

يُذَكِّرُهَا العَهْدَ القَدِيْمَ سَمَاعُهَا   لِتَرْجِيْعِ تَالٍ لِلْمَثَانِي الكَرِيْمَةِ

أي الروح إلى آخر الأبيات .

ثم قال : « إن الإنسان ما زال محجوباً بكثافات نفسه وعوارض جسمه ؛ فحجبه كثيرة - أو قال: كثيفة - ولا يمكنه أن يلتذ بما يسمعه من الأصوات الموزونة والنغمات الطيبة ، ومعرفتها من علم الموسيقى . ومتى خرج من ذلك بالمجاهدة والرياضة ، لم يزل يترقَّى في معرفة الأشياء حتى يطَّلع ويعرف ما لم يكن يعرفه أولاً ، وحينئذ ربما سمع دوران الأفلاك ، ويحصل له فيها من اللذة ما يستغرقه ويذهله عن شهوة الأكل ، لأن لذلك لذة يجدها الروح ، حُجِبَ الإنسان عنها بشهواته الحسية .

ولأي شيء يَسْكر الإنسان عند سماع شيء من تلك الأصوات ؟ لأن فيها بعض لذة له حينئذ ، ولا نسبة بينها وبين لذة سماع الفلك ، وإن حصل له شيء من الأمور الإلهية ، فيحصل له فيها من اللذة والإستغراق شيء عظيم ، لا يقاس بلذة الأفلاك. وفي هذه الأشياء ترقٍّ وتنزُّل ، ولهذا لمَّا أراد الله تعالى أن يبلغ النبي ﷺ غاية الكمال، لم يزل يرقِّيه ويُطْلعه على الموجودات شيئاً فشيئاً ، حتى بلَّغه إلى درجة التكلم معه، وأهَّلَه لسماع كلامه مشافهة - أي ليلة المعراج - مع قُرْبٍ ، وتَنَزَّل لموسى عليه السلام حتى أسمعه كلامه من الشجرة . فانظر الفرق بين الأمرَيْن الإلهيَّيْن ، ولا تنظر ما بين النبِيَّيْن ، وإن كان كلٌّ منهما في مرتبة عالية ، وعلى هذا التنزُّل والترقِّي ما وقع لإبراهيم الخليل عليه السلام من رؤية الكوكب، ثم القمر ثم الشمس ، ثم التوجه إلى الحضرة الإلهية ، حضرة الذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما كان من المشركين » ، هذا ما حفظته مما تكلم به في المجلس المذكور .

قال رضي الله عنه : « النفس تَحِنُّ إلى السماع أكثر من حنين الروح ، لأنها تطرب إلى هذه الأمور ، وإنما لذة الروح بالمعاملة - أي العبادة وسماع القرآن - والنفس كثيفة تحب هذه الأمور ، أما ترى الضعفاء - يعني الفلاحين - كيف يرقصون عند سماع الأشعار ، وكل هذه حظوظ النفس ، وإنما مَيْل الروح إلى العالم العلوي ، ومن نَزَل منه نَزَل إلى أسفل السافلين ، وإن الله ما أنزل الروح إلى الجسم إلا بعد ما أخذ عليه العهد ، فكل ما تعلق بالحادث فهو ناكث . وذكر بعضهم : إنه إذا بالغ في الرياضة ، إن الروح تسمع طنين العرش ، فتجد لذلك من اللذة ما لا يدخل تحت الوَصْف » .

وحضر بعض العامة من الفلاّحين مجلس سيدنا عبدالله الحداد نفع الله به ليلة الجمعة وقت الذِّكر، وكان ذلك الرجل قد تَفَقَّر فتحرك، فعاتبه سيدنا ولامَه على ذلك، **فقال** له: « **أنت على طريقة العيدروس أو طريقة ابن علوان ؟** »، فقال: « بل على طريقة العيدروس »، **قال**: « **فلم تتحرك ؟** »، فقال: « لضيق يحصل في قلبي »، **قال**: « **هذا من الشيطان، لأنه يضيّق القلب إذا دخله، وأما الحق فإنه يوسع القلب، قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾، وقال ﷺ: إن النور إذا دخل القلب انشرح له وانفسح. فإذا حصل عليك مثل ذلك، فليقرأ عليك أحد شيئاً من القرآن، وإلا فَقُم امْشِ خطوات، والعامي الذي لا يعرف الطريق يدخل الشيطان في صدره، والشيطان إذا دخل القلب لم يُرِد أن يبقى من الانسان للحقِّ بقية. وقد ذكر ابن عربي: أنه حضر محضراً فيه سماع، قال: وكان في المجلس رجل صالح مكاشف يعتقده الحاضرون، فَبَيْنَا كذلك، إذ به يقول: إن الشيطان دخل إلى الحلقة، وأنه دخل في صدر فلان. فما تَمَّ كلامه حتى قام الرجل الذي ذَكَرَهُ يَسْتَوْجِد** » هـ.

أقول: إنه لما ذَكَر أن « النفس تَحِنُّ إلى السماع » وتَطْرَب إلى سماع الأشعار، ولهذا ترى العامة لما غلب عليهم هوى النفس يطربون من سماع الأشعار، ويهزهم الشيطان إلى الطرب بها والوَجْد، وإن الروح بعكس ذلك، إنما لذَّته بالمعاملة من العبادة وقراءة القرآن، والميل إلى الأمور الإلهية والعالم العلوي، وإن الله لذلك ما أَنْزَل الروح إلى الجسم حتى أخذ عليه العهد والميثاق، يعني ما أنزله إلى الجسم مدة الحياة إلا لإقامة أوامره واتباع أحكامه، وأخذ عليه العهد عند نزوله أن يبقى على مطالِبِه ومآربه الإلهية، ولا يتابع النفس في مطالبِها ومآربها الهوائية النارية، بل يدعوها إلى اتباع مآربه ومطالِبِه شيئاً فشيئاً، فَبَعْد ما كانت أمّارة – وهي نفوس العامة – تأمر بالشرّ وتنهى عن الخير، إذا جاءه من الله المدد والعون عليها صارت أولاً لوَّامة تأمر بالخير، وقد يغلب عليها الهوى فتأمر بالشر، فإذا فعله لامَتْه عليه وحَسَّفته على فِعْله وخوَّفته، فإذا جاهَدَها بعد ذلك مع حصول المدد من الله والمعونة منه سبحانه، فتصير بعد ذلك مطمئنة، أي استقامت على مطالب الروح واطمأنّت بها، ولم تَلْتَفِت إلى مطالِبِها التي كانت عليها، وهي نفوس الأنبياء والصدِّيقين والصالحين بحسب درجاتهم عند الله، ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

وهنا يحسن ذِكْر قوله المتقدِّم: « **صاحب العادة لا بُدَّ فيه شيء من الحقيقة، إلا إنه ضعيف والعادة فيه أقوى. وصاحب الحقيقة لا بد أن يكون فيه عادة، إلا إنها ضعيفة والحقيقة فيه أقوى، وكلما قَوِيَت الحقيقة ضَعُفَت العادة، حتى ربما يتوهَّم فَقْدها، ولا يمكن أن تُفقَد بالكلية، وإنما تَضْعف، وكلما قويت إحداهما ضَعُفَت الأخرى، والإضافة إلى أحدهما بحسب الأغلب والأقوى، لأن من أَكْثَرَ من شيء عُرِفَ به، ومن عُرِفَ بشيء نُسِبَ إليه** »، وكذلك قوله، لما قُدِّمَ طعام له ولحاضري مجلسه:

« ما يكون الرجل عندهم رجلاً حتى يكون فيه من كل جزء من أجزاء الإنسانية نصيب ، وينقص منه جزء من كل جزء من أجزاء النفس . ويختلف الناس في ذلك كُلٌّ على حسب مرتبته ومنزلته عند الله تعالى، فالأولياء في ذلك مختلفون ، حتى ينتهي إلى مرتبة القطب ، فهو أكمل في ذلك من غيره ، ولا أحد استوفى من ذلك أكثر من النبي ﷺ ، وكلما كَمُل العبد صارت الغلبة للأعمال الروحانية ، وانغمرت فيها أمور النفس حتى يتوهَّم فَقْدها » هـ .

أقول : وهذه الأمور كلها مواهب من الله لا بكسب العبد ، دلَّ على ذلك قوله : « كلٌّ على حسب مرتبته ومنزلته عند الله » ، وقوله : « كلما كَمُلَ العبد ..إلخ » .

قوله : « ولا يمكن أن تُفقَد بالكُلِّيَّة » ، يدل على أنه ما دام في الحياة لا بُدَّ ما يكون فيه شيء من العادة ، حتى يخرج من الدنيا ، فحينئذ يتجرد منها ويكون في الحضرة الإلهية ، ولهذا قال : « الأولياء من أهل البرزخ في حضرة الله ، فمن توجَّه إليهم توجَّهوا إليه » ، على ما تقدَّم ، وذَكَرْنا هناك شيئاً من كرامات الشيخ أبي بكر العيدروس نفع الله به ، حَصَلَتْ لمن توجَّه إليه بالمحبة والعقيدة من حصول السقيا لأهل المراكب المعطشين ، وحصول الصرة الدراهم للواقف عند قبره يستغيث به كما قدَّمنا ذِكْر ذلك .

وأمرني يوماً أن أنشد ، وذلك بعد صلاة عصر يوم الثلاثاء ٢٨ ربيع الأول من سنة ١١٢٤ ، في مسجده مسجد الأوابين ، فأنشدت بقصيدته :

يَا قُلْ لأَحْبَابِنَا يَا قُل لِجيرتِنَا يَا قُلْ لِخِيرتِنَا مِنْ جُمِلَةِ النَّاسِ

فقال رضي الله عنه : « إن في خاطري أن أسأل عن هذه القصيدة ، وكُنَّا نَظَمْنَاها منذ أيام ، ولا بقي معي خبر عنها ، فاتفق أن أنشَدْتَ بها ، وهذا منك ما هو مكاشفة ، إنما هو نور التوفيق » .

وكان السيد الجليل الحبيب أحمد بن زين الحبشي حاضراً ، *فقال* له : « اكتب ما ظَهَرَ لك وفَهِمتَهُ من معنى هذه القصيدة ، وأَرِناه لِنَرى كُنْهَ فهمك » .

فتناول النسخة من يدي حينئذ ، وكتب تحت القصيدة ما فَهِمَهُ ، وأَسْمَعَه إيَّاه فاسْتَحْسَنَه ، وهذا صورة ما كتبه ، وهو : قوله : « قل لأحبابنا » : من نحبه ويحبنا ، و « الجيرة » : المجاورون في الأمور والأحوال والديار ، و « الخيرة » : من يختار وينتخب ، و « الوسائل » : جمع وسيلة وهي الواسطة ، و « المقاصد » : جمع مقصد ومقصود ، و « المدخور » : المدَّخر لغير الملائم المُعَد للبؤس والبأس ، يُسمَّى ذخيرة جمعه ذخائر . ثم طلب من الله – المنفرد بالعطاء والكرم – أن لا يُوحِشَ منهم لكونهم أُنسَهُ، ثم

طلب المنَّ بالإيناس ممن ذِكْرُهُ ينير السرائر ، التي هي محلُّ السِّرّ ، ويميطُ الهمَّ والوسوسة عن الصدر - الذي هو صدر البدن ورأسه - بانشراحه بنور السريرة ، فلا يبقى فيه غير الحق الجلي ، فتنزعج النفس عن غفلتها بتجافيها عن دار الغرور ورجوعها إلى ربها بالرضى . فحينئذ يبطُلُ كيدُ الشيطان لضعفه في نفسه ، وإنما قوَّاه في المؤمن إلا غفلة النفس ، فلا يبقى لوسواسه شرٌّ ولا استتباعٌ للقلب ؛ لإنزعاجه ورجوعه إلى ربه . وإذا ذهبت الشياطين جاءت الملائكة بخواطر الخير ولوامعه وطوالعه ، للمجانسة حينئذٍ بطهارة القلب المجانس للملائكة بالأصل .

و « **الميمون** » : هو المبارك ، و « **الملك** » : هو المرسل بالخير ، الذي لا يُقبِل إلا بالخير من الخيِّر ، و « **المرؤوس** » : التابع ، « **كالرأس** » : المتبوع ، و « **صعود الروح** » : ترقِّي القلب بخُلُوصه عن القيود الجسمِيَّة والصفات البشرية والصور الهيكلية ، في رَوح الترَوحن ونَفَسِ الإنطلاق .

فإذا صعَّد الروح وترقَّى إلى معهده الأصلي الأَمْرِي ، ورجعت النفس إلى حالها الأصلي الذي قبل نزولها إلى تدبير الجسم والإنقهار والإنفعال لمطالِبه الطالبة بحالها؛ لتدبيره وحفظِها إيَّاه وفعلِها به ، فإذا رجعت الروح إلى ربها ؛ لَقِيَتْهُ ، وتبوَّأت حضرة عِنْدِيَّتِهِ ، وسَعِدَت بواردات حضرته القدسيَّة ، وذلك لا يستقيم إلا للمستقيم المتوجِّه إلى الحضرة الربانية بإقامة العبادة الخالصة ، وتحقيق التقوى ، واجتناب الشبهات . وملاك ذلك هَوَ : أنَّ الحظوظ العاجلة ، والأمور الفانية على القلب ، وصلى الله على من هَدَانا به محمد ، وآله وعترته ، وعلينا معهم وسلَّم . فلما سمعه وافق عنده وأعجبه ، انتهى ما تكلم به السيد أحمد بن زين على القصيدة ، حيث أمَرَه بذلك سيدنا .

قال *رضي الله عنه* : « كل ما يكون من كلام الغزل فيُحمَل على مخاطبة النفس للروح ، ولا يُحمَل على الأمور الإلهيَّة ، لأن أمرها عَسِر غامض لا يكاد يفهمه إلا أكابر الصدِّيقين ، ولا تطيقه القوى البشرية ، فقد حُكِيَ أن رجلاً جاء إلى نبي من الأنبياء ، وسأله أن يدعو الله له أن يرزقه ذرة من محبته ، فدعا الله له بذلك ، فأخَّر إجابته إلى وقت آخر ، وأَعلَمَ النبيَّ بالوقت ، فلما جاء وقت الإجابة حصل على الرجل غَيْبة ، وأُخِذَ عن حِسِّه ، ولم يَبْقَ يهتدي لشيء ، فرجع يستغيث بذلك النبي، فسأل النبيُّ ربَّه عن ذلك، فأوحى الله إليه : إن مائة ألف رجل سألوني ما سألتَ له، وأخَّرتُ إجابتهم إلى هذا الوقت ، فلما جاء قسمت بين الجميع ذرة من محبتي ، فهذا سَهْمه .

ومعاني المحبة تلطف وتجل جدًّا عن إمكان التحدث بها ، لأن العبارة لا تأتي على معانيها ، ولا يمكن التعبير بالمعاني بحال ، لأنها لا تدركها العبارة ، ولهذا ترى أهل المحبة لما أدركوا من معانيها ما يجل وَصْفه ولا يمكن كَشْفه واحتاجوا بسبب ذلك إلى التنفس والتروح ، إنما يعبِّرون عنها بقوالبها

التي هي صورها ، والمعاني أرواح قائمة بها ، فلما عجزوا عن التعبير بالمعنى ، عبَّروا بالقوالب والصور، وذلك كتغزلهم بليلى وسُعدى ولُبنى وهند ودعد وغير ذلك » هـ .

أقول : قوله : « أدركوا » ، أي ذاقوا من معانيها ما وَهَبَهم الله هبَة منه وفضلاً ، وليس معنى ذلك الإحاطة ، جلَّت صفات الله ومواهبه لأوليائه عن الإحاطة بها، فإن ما أحاطت به العقول قد يدركها غير الأولياء ، ولذلك قال سيدنا : « أحوال الأولياء وأمورهم إنما هي من الآخرة لا من الدنيا ، لأن عقولهم متعلِّقة بالآخرة »، أو كما قال .

ولسيدنا الشيخ أبي بكر بن عبدالله العيدروس قصيدة ، ذَكَرَ فيها شيئاً من هذه الأسامي ، ثم قال : « إنما أعني بها أعلى المقامات » ، وذلك تَنَزُّل منهم للعامة ، ليفهموا معنى المحبة من صورة هذه الأسماء، لأنهم لم يعرفوا ذلك إلا من جِهَتِها، فيعرفوا أن ثَمَّ محبة عالية ، لا تتصوَّر في العقول ، فيتوصَّلوا إلى معرفة معانٍ وراء ذلك .

وقد رأيت في بعض تراجم سيدنا الشيخ عمر المحضار نفع الله به ، أن خادماً له شكى حاله إليه ، وقال ما معناه : « إن نفسي الخسيسة ما همّها إلا الأكل كالدواب ، حتى في الصلاة يخطر لها ذلك ، وهذه حالة بئس الحالة ، فعسى ببركاتكم يبدلني الله بحالة خير منها » ، فقال : « هذه أَرْوَح لك وأسهل عليك » ، وعالجه على ذلك فأبى ، فلما رآه مُجِدًّا في طلب ذلك ، مدَّ له كُمَّه وقال : « أَدْخِل رأسك فيه»، فأدخل رأسه وتركه قليلاً ، ثم قال له : « ارفع رأسك » ، ونزع كُمَّه عن رأسه، فإذا به قد صار سكراناً لا يحس ولا يعقل ولا يشعر بشيء ، فتركه يومه ذلك . ثم إن الرجل ضاق من تلك الحالة جداً ، وأَقْبَلَ على الشيخ عمر وقال : « ردَّني إلى حالتي»، قال له : « ابْقَ كذا » ، قال : « لا طاقة لي بذلك » ، وعالجه أن يرجعه إلى حالِهِ ، فوضع كُمَّه على رأسه ثم رفعه ، فإذا هو على حالِهِ الأول . فهكذا ما ترى وتسمع من تصرُّف الأكابر ، وما يمكِّنهم ربهم فيه من التصرفات ، فأين ذلك من مدارك العقول ؟

وإنما وضعه رأسه في الكُمّ ، إظهاراً للسبب ستراً لإظهار القدرة في الدنيا ، كهَزِّ النخلة الميتة في وقت الشتاء ليتساقط الرُّطَب على مريم لما ولدت عيسى ، ولو أن القدرة ظهرت في عيسى بإيجاده من غير أبٍ خصوصاً له لما سبق به القضاء فيه ، وفي آدم بغير أبوين فقط ، وباقي المخلوقات بالأسباب الظاهرة المعتادة مخفية فيها المقادير في الدنيا ، وهي محل الأسباب ومحل قوله تعالى : ﴿كُن فَيَكُونُ﴾، كما تقدَّم ذلك من قول سيدنا : « ثم تظهر المقادير في الآخرة ، وتخفى فيها الأسباب ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾» .

قال رضي الله عنه : « **الأشياء كلها صادرة من حضرة الإرادة ، إرادة الله تعالى، ولكن الطاعة مظهر نور وخير ، وتنزل إلى حضرة الملائكة إلى حضرة المؤمنين ، والمعصية مظهر نار وظلمة ، وتنزل إلى حضرة الشياطين إلى حضرة الفاسقين ، ولا عُذْر مع الإختيار في تجاوز الأحسن إلى ضده** » ، أو كما قال .

أقول : يعني في تجاوز الطاعة إلى المعصية .

قال : « **الناس مُسَخَّرٌ بعضهم لبعض ، ولما يريده الله منهم ، فترى الإنسان يفعل الأمر مما ينفع غيره بقصد وبغير قصد ، يظن أنه إنما يسعى في حاجة نفسه فقط ، وإنما الحاجة أو معظمها لغيره ، وحاجته من ذلك قليل** » .

وتكلم ليلة في وَصْف الإنسان ، *فقال* : « **مسكين الإنسان ، إذا قُتِّر عليه رزقه جزع وتبرَّم ، وإذا وُسِّع عليه طغى وغفل ، وفي طبعه الدَّعوى ورؤية نفسه ، وإن لم يكن ثَمَّ شيء** » ، وأكْثَرَ في هذا .

ثم قال : « **ولهذا سُئل بعضهم عن الإنسان فقال : هو أنفٌ في السماء ، وأُسْتٌ في الماء** » هـ .

أقول : هذا مَثَل عند العرب يُضرَب لمن يتكبَّر في أقواله ، وهو حقير في أفعاله وأحواله .

وتكلم رضي الله عنه في ضعف الهِمَم عن فِعل الخير ، *فقال* : « **من كان له هوى في الشيء لو نهيته عنه ما انتهى ، وإذا لم يكن هوى ، فكأنك تجرُّه في شخر** » - أي شوك - ثم أنشد للمتنبي :

إنَّـما تَنْفَـعُ المَقَالَـةُ في المَـرْءِ إذَا صَادَفَتْ هَـوَىً في الفُـؤَادِ

وقال رضي الله عنه - بِنَقْلِ السيد عمر البار رحمه الله - : « **أهل الزمان أَفْرَطَ بهم حب الدنيا ، وقد ذمَّ الله من سوَّى بين محبة الله ومحبة غيره ، وأثبت لهم محبة الله بقوله : ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾، وخرج بهم حب الدنيا من البر إلى البحر ، لأنهم الآن في بحر ، والبحر قد أكل دوابه بعضها بعضاً ، وليس شيء من الحيتان يقتات من البر** » .

انتهى ما نَقَلتُ من نَقْلِ السيد عمر البار .

قال : « **من رُبِّيَ على الإحسان خرج منه الإحسان ، ومن رُبِّيَ على العدل خرج منه العدل ، ومن رُبِّيَ على الجَوْر جرى منه الجَوْر** » .

قال : « **القربات لا تغني عن الشهوات ، فإذا اشتغل قلب الإنسان مثلاً من الجوع ، فالطاعة فاسدة، إنما تسلِّي عليه ، والسماء غير الأرض ، غير أن الأرضين سبع ، فتكون مثلاً العليا كالمباحات** » هـ .

أقول : هذا إشارة إلى أن المعارف من الأمور العلوية ، وأن الشهوات حِسِّيَّة أرضية ، يريد أن الطاعات هي السماء - أي عالية - والشهوات هي الأرض - أي سافلة - .

وقوله : « إنما تسلِّي عليه » ، أي تريح خاطره ، بأن يرى في نفسه أنه عمل طاعة فقط ، وإلا فإن طاعته كما قال : « فاسدة » ، أي أشغله ألم الجوع عن الخشوع ، فلا تعد صلاة ، كما في الحديث : « إنما له من صلاته ما عقل منها » ، وهذا ما عقل من صلاته شيئاً .

ومراده أن الأرض « العليا كالمباحات » ، لأنها أعلى مما عداها ، ولا بلغت إلى علو السماء ، فالمباح الذي لا إثم فيه ولا ثواب ، هو أعلى مما عدا المطلوب ، الذي سمَّاه سماء ، وهو الطاعات ، وما بعد المباح إلا ما فيه خطر الجناح من الإثم والشبهات ، فالمباح الذي هي الأرض أسفل من السماء التي هي الطاعات ، فهو أسفل ، والعليا أمثل هـ .

وتكلم ليلة بعد الراتب في ذِكْر الرحمة والتوسعة لبعض الناس دون بعض ، وفي وقتٍ دون وقت، وتقدَّم الكلام فيه في مبحث ذِكْر الأرزاق .

قال رضي الله عنه : **« إذا أُقِيمَ الولي في مقام الرحمة العامة ، فيكون إذا عَلِمَ برحمة قوم فَرِحَ لهم فيُرْحَمُون برحمته لهم ، وإذا عَلِمَ بالتشديد على آخرين رقَّ عليهم وساءه ذلك ، فيُرحمون على حسب ما يَطْلبه، وحينئذ تبقى شائبة الطبع فيه ضعيفة . والرب سبحانه عليه قول كُن ، والملائكة عليهم المباشرة ، ولكنهم لا يتصرَّفون في شيء إلا بأمره ، ومع ضعف داعية طَبْعه لا يذهب ، فلا يمكن ذهابه بالكُلِّيَّة، وإنما يكون ضعيفاً . وأفْهَمَ كلام الإمام الغزالي أنه لو فُقِدَ وجب تحصيله ، وكلٌّ فيه هوى ، وليس الشأن أن يذهب الهوى ، إذ لا يتصوَّر ذلك ، بل الشأن أن يعمل على خلاف ما يقتضيه مع وجوده ، وهذا يضعفه . وكلما ازداد من العمل على ذلك ازداد ضعفاً، حتى ربما يتوهَّم عدمه ، وليس بمعدوم ، بل ضعيف جدًّا ، والعمل على موافقته يقويه ، وكلما ازداد من ذلك ازداد قوة ورسوخاً ، وكلما كَمُلَت خصوصية الشخص قَلَّت دواعي نفسه ، وكلما قَلَّت الخصوصية كَثُرَت دواعي النفس » هـ .**

أقول : قوله : **« وإذا عَلِمَ بالتشديد على آخرين رقَّ عليهم ، وساءه ذلك فيُرحمون »** ، قد قدَّمنا أن سيدنا مرَّ في وادي ثبي ، فرآه معطشاً ونخله مصفرًّا من العطش ، فساءه ذلك . فما بقي بعد ذلك إلا يوماً واحداً حتى سقاه الله بسيل تعدَّى حدوده ، وبقي عليهم المطر أياماً حتى سالت أودية تريم كلها، وحتى ملّوه ، حتى أنه صاح بي ليلة من وسط الليل وقال : **« إستغفروا الله من هذه السيول الهائلة ، وادْعُوا الله واقرأوا سورة يس بنِيَّةِ قَطْعِه »** ، فقرأناها ودعونا ، وقرأها هو ودعا ، فانقطع بحمد الله ، فما

كان أحرص الناس على ذلك ، ثم ما كان أسرع ما ملّوه .

وسألت سيدنا يوماً ، وكان في بستان الليمة بالسبير : ما الشاهد الذي يعلم به الإنسان صدق نفسه في ما تدّعي من فِعل أمور طاعة أنها أرادت بذلك وجه الله والتقرب به إليه ؟ *فقال رضي الله عنه* : « **ليس لها صدق أبداً ، بل هي كالمرأة السوء والعبد السوء والطفل ، لا يؤمَنون . وإنما يستجلبها ويتّهمها دائماً، أما سمعتَ قصة الذي دَعَتْهُ نفسُه إلى الجهاد فأبى أن يسير إليه ، فلم يزل يتّهمها حتى ظهر له أنها أرادت أن يُقتل ويُعرف بأنه قُتِلَ في الجهاد ، وطَلَبت حصول الرياء بعد الموت . وقال صاحب القصة: إنها قالت له نفسه : إنك كلَّ يوم تقتلني بمخالفتك هواي مرات متعددة ، وفي الجهاد تحصل لي قتلة واحدة أتخلص منك بها ، ويحصل لي الإستشهار بالشهادة** » .

قال : « **والنفس عدوٌّ محبوبٌ وسارقٌ في الدار - أي في البيت - فإذا كان سارقك في دارك ومن أهلك فأمره مُشكِل ، ولا يقدر عليه إلا بأمرٍ من الله** » .

وقال مرة : « **إنما قيل في النفس أنها أعدى الأعداء ، لكونها تنكر الشيء من غيرها وتكرهه وفيها مثله ، فلو رأيتَ إنساناً في أمرٍ كَرهتَ منه أشياء ، فلو قمتَ أنت في ذلك الأمر ظَهَرَت منك تلك الأشياء التي كرهتها من غيرك ، فيكرهها منك آخر . فالطباع سواء ، والنفوس على طبعٍ واحد في مَيْلِها عن الصواب ، ولكن يَظْهَر الشيء ويخفى** » هـ .

أقول : يعني فإذا كانت عدوًّا لك ، فإنها تسعى دائماً في مقتضى هواها وهو يضرك ، فهي على الدوام تسعى في ضررك ، وأنت تحبها وتسعى لها فيما تحب ، ولا تسمح لها بما يضر ، فأمرك معها على هذا مُشكِل - أي متعب - ، ومثَّل لذلك في أمرك معها ، كالولد لك في بيتك يسرقك ويضرك ، وأنت تحبه وتنفعه ، فهو عدوٌّ محبوب ، وهذا خلاف العادة من كون العدو إنما يُبغَض ولا يُحَب ، وهذا من جملة ما تُنكِره من غيرك ولا تُنكِره من نفسك ، فإن النفس لِعَدَمِ إنصافها تُنكِر عيوب الناس ، ولا تُنكِر عيوبها، بل ولا تطَّلع عليها ، لحبها لنفسها ، وحبك للشيء يعمي ويصم .

وَعَيْنُ الرِّضَا عَنْ كُلِّ عَيْبٍ كَلِيْلَةٌ وَلَكِنَّ عَيْنَ السُّخْطِ تُبْدِي المسَاوِيَا

ولهذا ما أَوْضَح عيوب العدو وما أَسْرَع الإطلاع عليها ، دون عيوب الصديق فلا تكاد تعرف ، وأخفى منها عيوب النفس .

قوله : « **فالطباع سواء ..** » إلخ المقالة ، يعني فالطباع الخلقية سواء ، وإنما بعضها يكمل ويترقَّى عن ذلك كثيراً ، حتى لا يظهر عليه ذلك الطبع الخلقي ، ويخفى حتى لا يعلم به أحد ، وإن ترقَّى

دون ذلك فربما عَلِمَ بذلك بعض الناس دون بعض ، كما قدَّمنا قوله في مَن كَمُلَ كثيراً وترقَّى جمّاً عن الطبع الجِبلِّي حيث قال: « **نحن نغضب كما يغضب الناس ، ولكن الفرق بيننا وبينهم أنّا ولو غضبنا، لَكِنَّا لا نُظهِره ولا يَظْهَر علينا منه أثر ، بخلافهم فإنهم بأدنى شيء يظهر منهم الغضب** »، وقوله : « **والنفوس على طبع واحد في مَيْلِها عن الصواب ، هذه نفوس الناقصين القاصرين الباقين على الطبع الأصلي الجِبلِّي ، ولمْ يسافروا عنه** » ، ومرة قال : « **نَفْسُك عدوٌّ لك من أهلك، فإذا كان عدوك من أهل بيتك فأمره مُشكِل** » ، ويعني أن النفس كالثلاثة الذين ذَكَرَهم ، وسنذكرهم الآن وهي رابعتهم في هذا الوَصْف ، وتقدَّم لهم ذِكرٌ أيضاً، حيث قال : « **وقد قال أهل الحكمة : ثلاثة إن لم تَظْلمهم ظَلَمُوك: المرأة والولد والعبد** » ، والذي تقدَّم فيهم أنه قال : « **ثلاثة إن أكْرَمتهم أهانوك ، وإن أَهَنْتَهم أكرموك**»، وذَكَرَ هؤلاء الثلاثة ﻫ .

أقول : يعني إن هؤلاء الثلاثة متمكِّنون من مالِك ، فمتى غفلتَ عنهم ولا أَرْعَيتهم بالك سرقوك وآذوك ، وهذا ظُلْمهم لك وإهانتهم ، وإن أخذتَ حذرك منهم وراعيتهم بالك ، حتى لم يتمكَّنوا مما ذُكِر ، فقد سَلِمْتَ من ظُلمِهِم وإهانتهم وصار ذلك إهانة لهم ، ويعدّونه في طباعهم ظلماً ، حيث مَنَعْتَهم مما هُم متمكِّنون منه . والنفس كذلك تفعل ، وهي رابعتهم في الشر ، فَيَلْزَمك أن تعامِلها معهم بما ذُكِر ، فَفِعْلهم المذكور ظلمٌ منهم لك وإهانة ، ومَنْعُكَ لهم منه حتى لا يُمكَّنوا ظلمٌ لهم وإهانة ، وسلامتك من شرِّهم إكراماً لك منهم ، حيث حصل منهم لك نفعٌ مع سلامتك من شرِّهم .

فهذا معنى : « **إن لم تَظْلمهم ظلموك ، وإن أَهَنْتهم أكرموك** » ، إذ النفس لما تعوَّدت الشر كان ذلك طبيعة خامسة فيها ، فظُلمك لهم وإهانتهم أن تَسْلَمَ من شرِّهم ، وإهانتهم لك وظُلْمهم أن يؤذوك، فالحزم سوء الظن ، فلا تغفل عنهم إن أردت السلامة منهم . فإن من تعوَّد أمراً ولو باطلاً إتَّخذه حقَّاً لازِماً ومالاً مستحقَّاً لا يرى فيه ملام ولا يعتقد أنه حرام ، وإن اعتَقَد الحُرمة رأى معها العذر ، لِتَعَوُّدِهِ ذلك ورسوخه في قلبه بالتعوُّد ، سيما مع الجهل والفجور وعدم التقوى ، كما ترى من المكوس المضروبة والمظالم الخبيثة ، فيرونه حقَّاً لازماً ، حتى إنهم ينقضُّون على الفلس منه ، ويرون أن من مَنَعَهم منه إنه ظالمٌ لهم . فكذلك الثلاثة المذكورون يرون ذلك كذلك ، حتى إن أهل المكُوس لو جاء حاكمٌ صالحٌ متبعٌ للحق وأَبْطَلَ تلك المظالم ، إعتقده أولئك الظَّلمة ظالماً لهم ، حيث عمل بخلاف ما يأْلَفُون ويعتادون ، وخلاف المألوف مُنكَر غير معروف عند من لا يعرف الحق والمعروف .

فكم أُوذِيَ عمر بن عبدالعزيز وأُنكِر عليه ، سيما من أقاربه الظالمين حتى سقوه السُّم ، كل ذلك حيث أنكر المنكَر وأَبْطَلَ الظلم واتَّبع الحق ، فاعتَقَدوه ظالماً ومخالفاً للحقِّ بِمَنْعِهِ لهم من الظلم . فكذلك هؤلاء الثلاثة المذكورون ، لـمَّا كانوا في الأغلب مُهمَلين فيما يهوون ومتمكِّنون مما يريدون ،

وتدرَّبوا وتمرَّنوا على ذلك لا يرون ذلك مُنكَراً ، ولا يُنكِر عليهم مُنكِر ، ويرون أن ما هم عليه من الظلم والخبث هو المعروف وخلافه المنكر ، فإذا قَهَرْتَهم ومَنَعْتَهُم من الظلم ورَدَعْتَهم عنه وأَهَنْتَهم بمنعهم منه فهو ظُلمهم الذي يرونه ظلماً ، فافعل ذلك معهم واظْلمهم بفعله وأَهِنْهُم به ، وإلا فعلوه هم معك ، فظلموك - أي خانوك - في مالك بما تشتهي أنفسهم ، وهذا ظلمهم لك . فاظلِمْهُم كذلك لئلا يَظْلمُوك ويفعلون بك ذلك، يعني فاظْلمهم أنت بمنعهم أن يُفسِدوا بمالك ، قبل أن يَفسدوا . وهذا ظلمٌ مطلوبٌ مستحبٌّ شرعاً وعقلاً وطبعاً ، وهو من باب الحزم المطلوب ، الذي هو سوء الظن، بأن تظن فيهم السوء ، فتستعدَّ بالحذر ، فهو ظلم لفظاً لا معنى هـ .

قال : « وقد يكون العبد العاقل والخادم والولد ، إذا أمرتَه بأمرٍ وعَلِمَ أن الصواب خلافه ، يجيبك على قدر مرادك الذي أردتَه في الحال ، ويُخفِي عنك خلافه ، ثم بَعْدُ إذا ظهر لك ، وتبيَّن أن الصواب هو ما عمله بخلاف ما أردتَه ، فتحمده حينئذ . فإذا وجدتَ من العبيد والخدام من هذه صِفَته ، فأمسِك عليه » ، ومرة قال : « إذا تيسَّر لك في الخادم ثلاث خصال ؛ فاقْبِض عليه : حُسْن المعرفة بالأمر ، والأمان ، والنصيحة » هـ .

أقول : قوله : « **قد يكون العبد العاقل ..** » ، إلى آخر المقالة ، فقد يكون من يشبهه صورة ويخالفه معنى ، فقد نَجِد من يخالف الأمر إلى رأي نفسه ، ويرى أن رأيه هو الصواب فيعمل عليه ، ثم يتبيَّن أنه فَعَلَه على خطأ ، وأن الصواب ما أمرته به هـ .

قال : « ويترقَّى نفسه ، فإذا أحسَّ منها بعض رغبة في خير وإن قلَّ ، ويَسْتَجْلِب منها الزيادة ، ومن تدعوه نفسه إلى معصية وهو يمنعها ، فهو مجاهد . وأما الصالح فلا تدعوه نفسه إلى معصية ، ولا تخطر بباله أبداً » .

قال رضي الله عنه : « القلوب الدَّنِسَة المشغولة بالنظر إلى الخلق ، والتزيّن لهم وبمراءاتهم ومحبة المنزلة عندهم ، متى تطهر ؟ لو جئتَ بوعاء وسخ لرجل تريد منه سمناً أو عسلاً أو نحو ذلك ، قال لك : رح اغسله أولاً . هذا في أمور الدنيا ، فكيف توضع الأسرار في القلوب الوسخة ؟ » .

قال رضي الله عنه : « تعلق القلوب بمهماتها إذا صلحت رجعت دينية » هـ .

أقول : يعني إذا صلح القلب رجعت همومه وما يدعو إليه كلها للدين ، وما يتعلق به حتى همومه بعاداته ، والعادات منه تنقلب كلها لله ، وما يزلف لديه بعد ما كانت دواعيه كلها للنفس ، فصارت

لله، وينقلب إكسيراً عظيماً ويصير نحاسه - وهو دواعي النفس فيه - ذهباً خالصاً ، وهو تجرد دواعيه لله تعالى . وهو معنى قوله : « إذا صلحت » ، يعني هذا شرطٌ في هذا المعنى لا بُدَّ منه ، وأما قبل ذلك حين غلبت دواعي النفس عليه فليس بصالح ، فإذا صلح كذلك رجعت عاداته كلها عبادات يُثاب عليها ، ويَطُول تفصيل ذلك . ولهذا وَرَدَ : « إن من الذنوب ذنوباً لا تكفِّرها الصلوات ولا الزكاة ولا الصوم ولا الحج ، ويكفِّرها الهمُّ بالمعيشة » ، فما يقصر عن تكفير هذه الذنوب من هذه العبادات الدينية التي هي مباني الإسلام ، ويتركَّب عليها مجامع الإيمان وإقامة الأحكام ، ويكفِّره الهمُّ بالمعاش إلا لصلاح القلوب المهتمة به ، وصلاح مقاصدها ونياتها في ذلك ، تحقيقاً لقوله نفع الله به .

فقوله هذا إخبارٌ عن حاله هو ، أَفْصَحَ عنه بمقاله ، فدلَّ ذلك على أن جميع حركاته وسكناته وأفعاله في عاداته فضلاً عن عباداته ، إنما كلها عبادات وفضائل يتقرَّب بها إلى الله ، وأقوالُه تصدِّق أفعالَه ، وأحواله وأفعاله تصدِّق أقواله وأحواله، وأي أمرٍ ديني أعظم من ذلك ؟ ولا يحصل هذا على كماله إلا لِقُطْبٍ مثله هو ولا يكون لغيره ، إلا بعد موت النفس ، وسلامته من تشغيبها ، كما قال : **« ما مقصد الصالحين بعد رياضاتهم ومجاهداتهم إلا مُلْك نفوسهم وقَتْلِها ، فإذا حصل لهم ذلك منها، وقعوا على الإكسير الأعظم »** ، ولكن كما قال أيضاً : **« وإصلاح النفوس في هذا الزمان المعكوس يَعْسُر »** ، يريد أن إصلاح القلوب على ما ذَكَرْنَا من إنقلاب همومها كلها دينية ، يَعسُر حصوله والعثور عليه ، لأنه أمرٌ وهبي ، لا يهبه الله إلا لمن أحبَّ ممن سَبَقَت له منه العناية ، كما أشار إليه في قوله : **« نحن اليوم مع الناس ألَّا بالعناية »** ، أي حيث لم تنفع الأسباب ، كما قاله أيضاً .

وإنما ضربوا المثل في الحالتَيْن ، وسمّوا تلك الحالة الناقصة بالنحاس ، وسمّوا هذه الحالة الكاملة بالذهب الإبريز - أي الخالص - ترغيباً للنفوس المتعلِّقة بأمور الدنيا ، كالذهب في الإنتقال من حالة النقص المسماة نحاساً ، إلى حالة الكمال المسماة ذهباً ، وإنما يكون ذلك بحصول العناية من الله ، مع مصادفة وقتها ، كما أشار إليه .

وحصول ذلك هي النفحات التي في الأوقات ، كما نَبَّهَنَا على ذلك رسول الله ﷺ عن الله ، كما وَقَعَ ذلك ورؤي عياناً ، فكم أَحْيَت من قلوبٍ ميتة ، وكم أقَامَتْ راقداً غفلةً فانْتبَهَ من غفلته وقام من رَقْدَته ، فكل ذلك بفضل الله ورحمته ، ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾، ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾، فقال ﷺ : **« إن لربكم في أيام دهركم لنفحات ، ألا فتعرَّضوا لها »** .

وإنما يكون التعرُّض لأمرٍ يدريه ويرتقبه ، والنفحة من العناية إنما تأتي بغتة كالساعة لا يدريها ولا يحتسبها ، كما يعرف ذلك من أحوال من وَقَعَت له ، كما ذُكِرَ عن الفضيل أنه كان على حالة النقص من قَطْع الطرق وغيره ، فسمع قارئاً يقرأ : ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ

ٱلْحَقِّ ﴾الآية ، وصادف ذلك وَقْتها الذي وُقِّتَ به ، فأصابت قلبه بِسَهْمٍ ، فقال : « بلى قد آن » ، فتاب ، فأَقْبَلَ على ربه ، وقد سمعها مراراً حيث لم يحضر وقت النفحة حينئذ فما تأثر بها ، فلمَّا صادف سماعها الوقت تأثَّر بها ، وكان من أمْرِهِ ما كان .

وكذلك البهلول المسمى : « ابن عرس » ، وكان أيضاً قاطع طريق ، وكان مع أصحاب له يترقَّبون لمن مرَّ في الطريق ليأخذوه ، فرأوا رجلاً قد تزوَّج في بلدٍ غير بلده ، وبين البلدين مسافة أيام ، فسار بزوجته في رفقةٍ يريد بلده ، فالتقاهم ابن عرس مع أصحابه ، فأخذوهم وتقاسموا النهب ، فصار حصة ابن عرس البعير الذي عليه المرأة وما حمل . فمضى بالبعير يسوقه إلى بيته ، وبقي البعير يسير وهو يلتقط من الحشيش النابت على الندى ، ويُسَمَّى الندى باسم مائه الذي نبت عليه، فقالت المرأة :

سِرْ يَا جَمَلَ الهَنَا وَلَا تَرْعَى النَّدَى اليَـوْمَ دُنْيَـا وَالملتَقَـى غَـدَا

فسمع ابن عرس الكلمة فكأنها سهمٌ ضرب فؤاده ، وكان قد أراد الله له نفحة ، وله منه عناية ، وأصاب ذلك وقتها ، فغشي على قلبه وغاب عن حسِّه ، فصعد الجبل وهام فيه ، ولا علم بالمرأة ولا بجملها . وغير ذلك كثير ، وفضل الله لا يُحصى ، فمن أين علموا بذلك ؟ فلا علموا ولا احتسبوا ، وإنما جاءهم فجأة بغتة .

وقوله في الحديث : « ألا فتعرَّضوا لها » ، يطلب ﷺ من أمَّته أن يبقوا دواماً مراقبين لأمر الله وطاعته ، وأن لا يغفلوا عن ذلك .

وقولنا : إنما تأتي – أي النفحة – بغتة كالساعة ، أي عِلْمها عند الله ، كما قال تعالى في شأن الساعة: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾، وقال بعضهم : « إذا نفد من الزمان سنين كعدد لفظ : بغتة ، قامت الساعة » ، وهو ١٤٠٧، قدر ألف وأربعمائة وسبعة هـ .

قال رضي الله عنه : « **الأمور الإلهية كلها ترفعك ، وعليك بقراءة القرآن ، فإن عجزت عنه لا تعجز عن الذِّكر ، فهو يوصلك إلى حيث أَرَدْتَ من أمور الدين، والصعود إلى العالم العلوي عسر ، كما يطلع الإنسان البئر ، إلا إنه فرق بين من يطلعه بحَبْل يشلونه به ، وبين من يطلعها بلا حَبْل ، وهذا هو الفرق بين السالك والمجذوب** » هـ .

أقول : هذا المعنى شبيه بالمعنى في المقالة قبلها ، فإن حالة المجذوب هي حالة من حصلت له العناية بحصول النفحة ، فينجذب إلى الإقبال على الله لا محالة كالمجذوب ، وقبلها يتكلَّف في الترقِّي من حالة النقص إلى حالة الكمال ، إلى أن يمن الله عليه بالنفحة لمن أراد ، وهو إذ ذاك كالسالك ، وإنما يترجَّى الترقِّي ويدأب في العبادة ، وهو معنى التعرُّض . ولكن لا عِلْم له بوقت النفحة ، كما لا عِلْم للسالك بوقت حصول الجذب ، وهو أيضاً من النفحات المأمور بالتعرُّض لها هـ .

قال رضي الله عنه : « **إنما لم تظهر كرامات الأولياء في هذا الزمان ، لأنهم ما هم شيء ، فلا يستاهلون ظهورها ، ولهذا أنكروها . كيف وقد قال رجل في حضرة السقاف ، وقد قرئ عنده روض الرياحين : واتريباه ، ما فيها من هؤلاء واحد ؟** » هـ .

أقول : هذا مثالٌ ضَرَبَهُ سيدنا لعدم ظهور الكرامات في هذا الزمان ، وعدم الإطلاع عليها لعدم معرفتهم بها ، وعدم الإعتقاد لمن تَظْهَر على يديه . فانظر إلى هذا القائل وأمثاله ، كيف لم يظهر له شيء من كرامات السقاف ، لعدم اعتقاده ، فقال ما قال ، فالناس اليوم – إلا القليل – يشتهون أن يكونوا على مثل حاله ، ولهذا عمَّ أهل الزمان بالقول ، ولم يَسْتَثْنِ منهم أحداً ، ولو فيهم قليلاً بخلاف ذلك ، فإن العبرة بالأكثر ، ويُعَبَّر عن الأكثر بالكل ، ويُطلَق اللفظ على الأكثر .

وما في « روض الرياحين » ممن ذَكَرَهم مثله – أي السقاف – لا في الحال ولا في المقام ولا في الدين ولا في الطين ، إلا من كان من أهل البيت النبوي مثله في المقام والحال ، وإنما قيل له : « السقاف » ، لأنه سَقَفَ على مقامات الأولياء ، أي غطَّاها كما يغطِّي السَّقْفُ ما تحته .

وكان ذلك القائل حَرَّاثاً جاهلاً لا يُؤبَه له ، ولا يطَّلع مثله على أحوال الأولياء وكراماتهم ، ولا تقع من قلبه موقعاً ، حتى إن الناقص من الناس الذين يتطلَّعون إلى كرامات الأولياء ويفرحون بها، الذين قال سيدنا في حقهم : « **التطلُّع إلى الكرامات من شأن فرَّاكات المغازل** » ، أي النساء أحسن حالاً من هذا القائل .

وكأنَّ سيدنا لمَّح أن أكثر الناس اليوم على هذا الحال ، حال ذلك القائل ، على ما ذَكَر ، بل الحال

اليوم أَفْمَن بِوَصْفِ القائل ، لصلاح ذلك الوقت وأهله ، خيراً من هذا الوقت وأهله ، وفي كل وقت لله فيه خواص يختصهم عن غيرهم بخصوصيات لا يطَّلع عليها أحد ، كما قال الشيخ أبوبكر بن عبدالله رضي الله عنهما : « هذه مواهب ليس بالمكاسب ، يا حاسدين » هـ .

قال : « وأهل الروض قد خالفوا نفوسهم من قبل حتى ارتاضت ، فلما كان بعد لم يحتاجوا إلى رياضتها ، لأن رياضتها ومخالفتها عسرة جدًّا ، لو احتاجوا إليها حينئذ لقطعتهم عن أمرهم » .

قال رضي الله عنه : « وظيفتنا الذِّكْر ، ونحن به مشغولين عن غيره - أو قال : مستغرقين به عن غيره - وإنما نقرأ مع الجماعة - أي قراءته في جماعة - لِنَيْل فضيلة القرآن ، وهذا هو الأمر الحقيقي الذي ينبغي ، فإنَّ مَن تجرَّد لشيء اشتغل به عن غيره ، وهو الذي دعا أهل الروض إلى التجرد عن أهلهم وأولادهم ، لما تجرَّدوا لله اشتغلوا به عمَّن سواه . وينبغي لكل أحد أن يأخذ وظيفة في الخير يستغرق بها وقته ، ثم يأخذ من كل وظيفة غيرها طرفاً » هـ .

أقول : فلذلك كانت أوقاته مرتَّبة من حين يُصبح إلى حين يُمسي ، على ترتيب البداية وأبلغ منه ، حتى إني في الليل وأنا في خليوة في سطح المصلى مقابل الغيلة - أي الغرفة - التي هو فيها ، ولها روشن مقابل مكاني ، بحيث لو ضرب أصابعه سمع من ذلك المكان ، فكنت لا أعي ساعة من الليل من أوله أو وسطه أو آخره إلا وأسمعه يَذْكر الله ، هذا ما ظهر من جهره ، وما أسر أكثر ، وما بطن منه من الذِّكْر القلبي أكثر وأبلغ .

وكان من عادته في شهر رمضان أن يجلس في حَلَقة قراءة القرآن بعد الظهر ، فَيَذْكُر الله ويقرأ معهم القرآن ، ومرتِّباً من يستمع على الجماعة عن الغلط ، فيقرأ مع الجماعة القرآن ، وفي يده سبحة عددها ألف ، فيمرها في هذا الوقت مرتين بألفين وفي هذا الوقت في غير رمضان يمرها مرة واحدة بألف ، كذا نراه يفعله ، وكذا سمعته يقول ذلك . ولما سألته الإجازة في ترتيب هذا الألف ، قال : « **هل عندك سبحة ؟** » ، قلت: نعم ، قال : « **إن فلاناً - ذَكَرَه - أعطانا سبحة ألف ، وقال : رتِّبوها بعد صلاة العشاء ، فإني كنت أرتِّبها كذلك فعجزت عنه ، فرتَّبناها في ذلك الوقت مدة ، ثم عَيِينا عن ذلك، فَجَعَلنا نُرتِّبها بعد صلاة الظهر في رمضان مرتين، وفي غيره مرة . فرتِّبها أنت بعد صلاة العشاء أو بعد الظهر ، وإن تركتها لعذرٍ من مرضٍ أو شغلٍ أو غير ذلك فلا يخالف** » ، رضي الله عنه ونفعنا به .

وسألت سيدنا عن أولياء كل زمان : هل يفضل أحد منهم أحداً بسبب تقدُّم زمانه ؟ قال : « **نعم،**

يكون الزمن المتقدِّم متوفرة فيه الخيرات ودواعيها ، فينال فيها أكثر من المتأخر » ، فظاهر هذا الكلام إنما فضل المتقدِّم بزيادة الخير لتوفره في وقته أكثر من وقت المتأخر ، فينال منه أكثر مما نال المتأخر ، فإذا حصل الخير أكثر حَصَلت الأفضلية تقدَّم أو تأخَّر .

وقلت له : هل الأقطاب كذلك يفضل المتقدِّم المتأخِّر بسبب كثرة الخير؟ *قال* : **« المرتبة معروفة ، مرتبة القطبية . فكل من هو فيها فهو قطب ، وإنما يتفاضلون بسبب فضيلة أخرى ، تكون في الفاضل ولا تكون في المفضول ، فَضَلَه بسببها ، كمن يكون عالماً بالظاهر والباطن وانتفع الناس به ، أو تعدَّى منه نَفْع إلى الناس ولم يكن ذلك في الآخر ، فيفضل بهذه المزايا الآخر . لأن النفع المتعدِّي أفضل من اللازم، هذا في القطب الواحد الذي هو الغوث ، ولا يكون إلا واحداً ، وأما في غيره فكل من فاق غيره في فَنِّه فهو قطب ذلك الفن ، كما يقال : الإمام الغزالي قطب العلوم ، والشيخ سهل بن عبدالله قطب الأحوال ، ونحو ذلك »** .

انتهى ما أدركته من كلامه في هذا المجلس بلفظه ومعناه ، إلا قوله : **« كما يقال .. إلخ »** ، فمن مجلس آخر ، ذَكَرَ هذا الكلام بمعناه ، وزاد هذا فَجَعَلْته معه نَسَقاً تمثيلاً لبيان المعنى هـ .

قال رضي الله عنه : **« كلٌّ من الصالحين إنما يستعظم ما وَهَبَهُ الله ، ولا يرى ما وَهَبَ لغيره ، وإن كان الكل حقًّا ، ولهذا قال بعض الصالحين في ابن الفارض وأمثاله : إنهم ملأوا الدنيا زعاريط بلا شيء ، لأن لكلٍّ من الروح والنفس تَيهان ، إلا إن تَيهان الروح بحق ، وتَيهان النفس بباطل ، كما فعل فرعون » هـ .**

أقول : إنما استعظم كلٌّ منهم ما له دون ما لغيره ، لأنه لم يعرف إلا ذلك ، ولم يطَّلع إلا على ما عنده، دون ما عند غيره ، وتعظيمه لذلك شكرٌ له ، لأن شُكْر النعمة باستعظامها ، ورؤية المِنَّة لله عليها فضلاً من الله ونعمة .

وما ذكر عن ابن الفارض وأمثاله مما اعترض عليهم فيه من لم يَذُق مذاقهم ، كما ذَكَرَ شيئاً من ذلك في التائية الكبرى ، مما قاله حال الغيبة ، كقوله :

وَحُـزْنِيَ مَـا يَعْقُـوبُ بَـثَّ أَقلُـهُ ... وَكُلُّ بَـلَا أَيُّـوب بَعْـضُ بَلِيَّتِـي

وَطُوفَـانُ نُوحٍ عِنْدَ نَوْحِي كَأَدْمُعِي ... وَإِيْقَـادُ نِـيرَانِ الخَلِيـلِ كَلَوْعَتِـي

وَلَـوْلا زَفِـيرِي أَغْرَقَتْنِـيَ أَدْمُعِـي ... وَلَـوْلا دُمُوعِـي أَحْرَقَتْنِـيَ زَفْـرَتِي

ونحو ذلك ، بل كل القصيدة مشحونة بأحوال الحقيقة ، التي يصعب إدراك معانيها على فحول

الرجال ، وكذلك قوله في الرائية :

وَإِذَا سَـأَلْتُكَ أَنْ أَرَاكَ حَقِيقَـةً   فَاسْمَحْ وَلَا تَجْعَلْ جَوَابِي لَـنْ تَـرَا

وغير ذلك ، وهذا وأمثاله مما اعترض عليه ، ولكن لأهل النَّظم في نَظْمِهم توسُّعات وتفنُّنات تَسَعها اللغة . وكان سيدنا مرتِّباً قراءة ديوان ابن الفارض عصرية الثلاثاء ، وكان ذلك في جمع ، ويأمر القاريء أن يتجاوز التائية ، وكان هكذا دائماً ، غير مرتين أمرني بقراءتها عليه في خلوة ، وكلما ختم الديوان أمر بإعادته .

قوله : « تَيهان الروح بحق » ، أي بصواب ، كشطح الصالحين ، فإن اشتبه على من لم يفهمه فلهم فيه معانٍ يفهمونها لا تخالف الشريعة مما غلب عليهم من الحقيقة ، وإنما ذلك لعظم ما استعظموه من عظيم مواهب الله لهم .

ووجه الإمام الغزالي لهم بأنه على لسان الحق ، بأن الحقَّ هو أَنْطَقَهُم ، فتكلموا على لسانه ، كما إذا سمعنا من يقول : « إني أنا الله لا إله إلا أنا » ، فتحقيقاً إن الله تعالى هو القائل ذلك ، فمن قولهم المشتبه، قول الشيخ أبي بكر بن سالم :

أَنَـا عَرْشُـهَا وَالكُرْسِي   أَنَـا لِلسَّـمَاءْ بَانِيهَـا

ونحو ذلك من كلامه في هذه القصيدة وغيرها . وسمعت عنه فيما أظن ، أو أني رأيته في ترجمته، أنه قال : « جميع ما تكلَّمنا به من الحقائق ، إنما هو ذرة – أو قال: نقطة – من مائة ألف بهار مما وَهَبَنا الله » هـ .

وذَكَرَ أقواماً يدَّعون أنهم فقراء للشيخ أحمد بن علوان ، وآخرين أنهم فقراء للشيخ أحمد الرفاعي يقال لهم : « الرفاعية » ، يتعاطون أموراً ، **فقال : « إنهم دفاعية لا رفاعية ، والشيخ أحمد الرفاعي مناقبه عندنا ، ليس فيها هذه الأفعال ، وإنما هي بدعة . وإذا رأيتَ بدعة فتقرَّب إلى الله بمخالفتها ، وكان الشيخ أحمد الرفاعي غايةً ونهايةً في التواضع ، وما سَمِعنا عن أحدٍ في التواضع أكثر مما سَمِعنا عنه ، والتواضع هو التقلل من كل شيء ، من مَلْبَس ومَسْكَن ومَرْكب وكلام ونوم ، وجميع ما يحتاج إليه يقتصر منه على الحاجة إلى القلة »** ، أي مع الحاجة إلى أقل ما تستقضى به .

قال : « والشيخ أحمد بن علوان إنما طلب العلم ليكون في منزلة أبيه عند السلطان ، وكان كاتباً له، فلمَّا أَحْكَمَ العِلم راح إلى أبيه ليكون مكانه ، فجلس على صخرة فانْفَلَقَت الصخرة ، وظَهَرَت له يدٌ

وسَمِعَ صوتاً يقول له : قبِّل هذه اليد ، وهي يد أبي بكر الصديق وهو شيخك ، فَقَبَّلها . فلمَّا حَصَلَت له العناية عمل بعِلْمِهِ فانتفع إذ ذاك ، وكان يقول : ما لي شيخ ، إنما شيخي أبوبكر الصديق » .

ومرة قال : « وما انتفع بعِلْمِهِ إلا لمَّا حَصَلَت له العناية ، عمل بعِلْمِهِ فانتفع به ، وكان أبوه علوان كاتباً حَسَنَ الخط ، فكتب البيان ووصل إلى العراق ، وقالوا : ما ظننا أن في اليمن إنسان ، حتى جاءنا البيان بخطٍّ علوان » .

قال : « الإنطراح مع التواضع يُحمد إذا خلي من الذلة والطمع ، وأما معهما فقد يفعل أشد من ذلك، ولا يُحمد للمؤمن . ومن تكبَّر ترى الناس يشمتون به ويبغضونه ، ويفرحون بمصيبته ، ويقولون: يستاهل بذلك ، وما وقع عليه إلا بشؤم كِبْره . والمتواضع يرحمونه ويَرْثون له ، وإذا نزل به مكروه توجَّعوا عليه ودعوا له ، فكم فرق بينهما » .

قال رضي الله عنه : « من تعلَّقت هِمَّتُهُ بالله حَصَلَ له مطلوبه ، ووَقَعَ في بحرٍ ما له طرف ، وإن عَلَت هِمَّتُهُ وضَعُفَ بدنه حصل له بها ما لا يقدر عليه بدنه ، وتعجز عنه هِمَّته » .

ثم ذَكَرَ عند ذلك قصة صاحب الشجرة الذي أرسله مَلِك العرب إلى مَلِك الصين يسأله ، وهي مذكورة في هذا النَّقل في غير موضع ، بحسب ذِكْرِها في المجالس إذا مَرَّ ذِكْرُ معنىً بمعناها ، فَيَذْكُرها استشهاداً كما هي عادته في ذِكْر ما يستشهد به كلما مَرَّ معناه إذا اتَّسع له المجلس وانفسح له الخاطر هـ .

قال رضي الله عنه : « إذا كُنتَ ماسك الحبل بيدك فسَيَّبتَ ، فاللوم عليك لا على الحبل ، فمن سيَّب سُيِّب ، فإن الأولياء والصالحين يعتنون بك بقدر إعتنائك بهم ، حتى إن رجلاً قال لأبي العباس المرسي: خاطرك معي ، فقال له : خاطرك أنت معي. لأن أهل مراتب الولاية لهم نُوَّاب يقومون في مراتبهم عنهم ، من حيث يشعرون ومن حيث لا يشعرون ، ولا ينتفع إلا صاحب القلب القوي المنوَّر ، وذو القلب الضعيف والقلب المظلم لا ينتفع » .

ثم ذَكَرَ قصصاً من كرامات الأولياء ، *ثم قال* : « من قال لك : إن عاد في هذا الزمان شيء من الكرامات إلا إن كان من نُور النبوة فقد وهم » .

أقول : قوله : « إذا كنت ماسك .. إلخ » ، هو إشارة إلى العقيدة والمحبة ، التي هي عمدة الإنتفاع، فلولاها ما انتفع أحد ، وهو معنى قوله : « سيَّب » ، أي ذَهَبَ من قلبه المحبة والعقيدة ، و « سُيِّب»، أي تُرِكَ بلا انتفاع ، وهما التوجُّه إلى الأولياء الذي تقدَّم عند قوله : « الأولياء من أهل البرزخ في حضرة الله ، فمن توجَّه إليهم توجَّهوا إليه » ، على ما ذَكَرْنا على هذا المعنى من القصص الخارقة للعادة، المقتضية غاية العجب .

وقوله : « بقدر اعتنائك بهم » ، يعني إنتفاعك بهم ، وحصول المدد ذلك منهم وتيسير مطالبك من الله ببركاتهم ، كل ذلك بحسب عقيدتك فيهم ومحبتك لهم ، فإذا قَوِيَتْ عقيدتُك ومحبَّتك فيهم ، كَمُلَ لك من الله الحفظ والعطاء ، وإن نَقَصَ ذلك منك نَقَصَ ما لك ، وإن انقطع منك ذلك انقطع عنك العطاء والمدد ، وهو قوله : « من سَيَّب سُيِّب » ، ثم لا تَسْلَم مع ذلك من العقوبة الواقعة بمن أساء الظن بالصالحين ، كما ذَكَرْنَا عن ذلك الغريب بتريم ، لما ساء ظنُّه بسيدنا ، أصابته العقوبة في آخر عمره، فسقط من المركب في البحر ، فمات غريقاً ، والله أعلم بما يكون من أمره في الآخرة ، فانظر إلى أبيات الشيخ علي بن أبي بكر التي ذَكَرْناها في أول هذا النَّقل ، وغير ذلك كثير مما حلَّ بمن أساء فيهم الظن .

وقوله : « لأن أهل مراتب الولاية هم نُوَّاب يقومون في مراتبهم عنهم ، من حيث يشعرون ومن حيث لا يشعرون » ، يعني كذلك الذي حَجَّ ومكث مدة ، ثم جاء إلى وطنِهِ أظن مصر ، وكان له جماعة كثيرة وحَلَقَة كبيرة ، ولم يَفْقِده جماعته وأهل حَلَقَتِهِ ، ورآه رجل من بلده في موقف عرفة ، وقطع عليه بالمعرفة ، فلما رجع قال لأهل الحلقة :« من قام فيكم مكان الشيخ مدة سفره إلى الحج ؟ »، فقالوا : « ما غاب عنَّا الشيخ ، ولا فقدناه » ، فقال للشيخ : « أما حججتَ ورأيتك في موقف عرفة ؟ » ، قال : « بلى، فاسكت ولا تتكلم » ، فسَكَتَ ، وغير ذلك مما لا يحصى .

قال الشيخ الصوفي عبدالله بن سعيد العمودي رحمه الله : ذاكرتُ سيدنا السيد الجليل الأستاذ عبدالله بن علوي الحداد نفعنا الله به عن خدام الحضرات الإلهية ، فقال : « **إن لكل حضرة خداماً كثيراً ، يتصرَّفون على حسب أهل الولايات من غير شعور لأهل تلك الأحوال ، ويسند ذلك إلى أهل الأحوال، وذلك من لطف الله بهم وعليهم** » .

قال عبدالله بن سعيد : « ووقع في قلبي أن تلك الخُدَّام المشار إليهم هم روحانية لطيفة ، ليس من بني آدم ولا من الملائكة ، وليس بجان أيضاً ، بل جعلهم الله على مظاهر أطوار الحقيقة ، وخلقهم من لطائف سرِّ نور الحقيقة ، وألْزَمَهُم بها يتصرَّفون فيها على قانون إرادة الحق ، حيث ناب الحق عن صاحب هذه المرتبة ، أو على قانون إرادة صاحب المرتبة هذه ، حيث هو نائب عن الحق ، وفرق بين من ينوب عنه الحق ، وبين نائب عن الحق ، والله أعلم » ، انتهى كلام عبدالله بن سعيد .

أقول : ودلَّ هذا الكلام على أن ذلك الرجل الذي حَجَّ وما فقده أصحابه ، أنه كان من أهل الخطوة، فأرصد الله من خُدَّام المراتب من يقوم مقامه وعلى صِفَتِهِ، بحيث لم يستنكروا من صاحبهم شيئاً ، وإذا استغاث أحدٌ ببعض المشايخ من شِدَّةٍ، يُقيِّض لهم من يقوم لهم مقامه من خُدَّام مرتبته ، ﴿يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾، ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، ويجعل لهم علامة تدل على حصول الفرج لهم من الله .

وقد وَصَلَ من بعض أهل الحساء إلى بيت سيدنا قوصرة تمر ، وذلك خلاف العادة أن يؤتى بالقواصر إلى حضرموت ، فوقع في خاطري أن لها سبباً ، فسألت العيال عن ذلك ، فما علموا لها بخبر، وقال الذي قرأ ورقة الرجل على الحبيب ، وهو ابنه السيد علوي ، قال : « ليس في ورقته إلا أن قال : صَدَرَ إليكم قوصرة من تمر البصرة ، تفضَّلوا بقبول ذلك » ، فألفانا رجل من أهل الشحر جاء زائراً لسيدنا، فأخبرني أن رجلاً من أهل الحساء جاء إلى الشحر في صحبة أربعة مراكب طراريد، قال : « كُنَّا استأجرنا أربعة مراكب ، جئنا من البصرة مشحونة تَمْراً ، فلما كنَّا بغُبَّة فارس ، حصل علينا طوفان عظيم كاد البحر أن يبتلعنا بمراكبنا ، فقال رجل في مَرْكِبِنا : استغيثوا بالسيد عبدالله الحداد وانذروا له نذراً . فاستغاثوا به ، وصاحوا بباقي المراكب أن يستغيثوا به ، فاستغاث الجميع به ، فَقَفَزَت من مؤخر المستغيثين أولاً سمكة من فوق العرشة ، ومرَّت وسط المركب بين الجبال وبجنب الدقل كالسَّهم ، حتى سَقَطَت في البحر من صدر المركب ، فعند ذلك سكن الطوفان وسَلِمُوا » ، فكانت غاية نذرهم تلك القوصرة ، فبئس همة منهم .

فأخبرت سيدنا بهذه القصة ، فقال : « **المراتب لها خُدَّام** » ، وما زاد على هذه الكلمة ، فلما أراد الله

سلامتهم عندما استغاثوا بسيدنا، أرْصَدَ الله في مرتبته خُدَّاماً ينوبون عنه، وجعل تلك السمكة علامة للنجاة.

وتقدَّم في المقدمة نظيرٌ لهذا في مبحث الكلام، حيث قال: « **إذا تكلَّمنا في مجلسٍ فإن عَرَفَه الحاضرون وأخذوا به كان حُجَّة لهم، وإلا فله من يسمعه غيرهم لا يرونهم** »، ومرة قال: « **إذا تكلَّمنا بكلام، فإن عمل به الحاضرون وإلا فيتلقَّاه منَّا مَن حَضَرَ من آدميين أو ملائكة أو أولياء، لأنَّا إنما نحن مُسْتَنْطَقِين لا متكلِّمين من ذات أنفسنا** »، فإذا كان كلامهم لا يجعله الله يضيع سدى، حتى يجعل له من يتلقَّاه لينتفع به، فكذلك مراتبهم لا يجعل الله عملها يضيع، حتى يجعل الله فيها عمالاً يقومون مقامهم فيها، فسبحان مَن هذا تدبيره، وجلَّ وتقدَّس من ذلك تقديره.

فقوله: « **إذا كنتَ ماسك الحبل بيدك فَسَيَّبْتَ، فاللوم عليك لا على الحبل** »، هذا استعارة لمثلٍ ضَرَبه لمن تعلَّق بأحد من الصالحين بالمحبة والعقيدة، ثم مال عن ذلك، فأصابه ما يضره ويؤذيه فلم يغيثوه، فاللوم عليه لا عليهم، كما قال: « **فمن سَيَّب سُيِّب** ».

واعتناؤهم بك بحسب رغبتهم لك في حصول ما يسرّك ودفع ما يضرّك، فيفعل الله لك ذلك، كما تقدَّم من قوله: « **إذا أُقِيمَ الولي في مقام الرحمة العامة** »، فيفرح لهم بالرحمة والنفع، ويسوؤه ما يضرهم، فيرحمون ويدفع عنهم السوء على حسب ما يطلبه، ويكون ذلك منهم لك ما دُمْتَ متمسِّكاً بالحبل - أي العقيدة والمحبة - وإذا مِلْتَ عن ذلك تركوك، ولم يكن لك ذلك منهم، أي إذا فقد منك لهم المحبة والعقيدة، لم يرغبوا في حصول النفع لك ودَفْع الضَّرر عنك، فيعاملك الله بذلك، من عَدَم حصول النفع لك ووقوع الضرر بك.

ولهم أيضاً في مراتبهم نُوَّاب ينوبون عنهم في ذلك، لمن أحبَّهم واعتقدهم، بِجَلْبِ الخير لهم من ربهم وصَرْفِ الشر، كما ترى في وقائع لهم، يرون أشخاصاً تظهر لهم على أيديهم حصول منافع ودَفْع كربات، ويُسمَّى بعضها الخضر.

ومعنى يغيثوه: أي يشكف الله كَرْبه بنَيْلِ ما يطلب ودفع ما يكره، ببركة محبَّته لهم وعقيدته فيهم، فإذا اختلَّ ذلك منه وانحرف قلبه عنه لم يكشف الله كَرْبه، هذا معناه، لا إنهم لا يفعلون أمراً إلا بإرادته سبحانه وتصريفه في ذلك، وهذا أمرٌ يُعرَف في مقام الولاية تعجز عنها العقول، كما يسمعون كلام الموتى وخطاب الهواتف، فيفهمه الكاملون العارفون، ويجهله القاصرون الجاهلون.

وهذا في الحقيقة مجرد فعل الله، لا مدخل فيه للخلق، وإنما نُسِبَ للأولياء كنسبة السبب للمتسبِّب، إجراءً له على أحكام الدنيا المتعلِّقة بها أحكام الشرائع، كحصول الرُّطب بهزِّ مريم - بأمر الله لها بذلك -

لنخلةٍ ميتةٍ يابسةٍ في وقت الشتاء، فجعل الهز سبباً لذلك ، كالمحبة والعقيدة هنا ، والكل حقيقة من عند الله . فتبيَّن بهذا أن السبب لا يكون منه ذلك النفع ، وإنما هو مجرد من عند الله ، يُجرِيه إذا شاء بمباشرة السبب ، ستراً للقدرة في الدنيا ، وإجراءً على ظاهر أحكام أسباب الدنيا ، هكذا شؤون الله في الدنيا ، ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾، وأما في الآخرة يوم الدين ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ۝﴾، أي مجرد قدرة لا تدخلها الأسباب .

فإذا بَلَغَ العبد مقام محبة الله فأحبَّه الله ، أعطاه ما يُحِب في من يُحِب ، فبلغها على ما فصله الله في هذا الحديث القدسي ، على ما فصَّلناه فيما تقدَّم ، وهو قوله تعالى : « ما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه .. إلى أن قال : فإذا أحببته ، كنت سمعه .. إلى أن قال : ولئن سألني واستعاذني » ، يعني لنفسه أو لغيره ، وما بلغ محبة الله هذه إلا بعد تركه لمحاب نفسه لوجه الله ، كما قال سيدنا عمر المحضار وقد ترك أكل الرُّطَب ثلاثين سنة : « كان أحب شهوات نفسي إليها ، فتركته لله»، لأن محبة الله حق ، ومحبة النفس باطل ، ولا يجتمع الحق مع الباطل ، فإذا ذهب أحدهما ثبت الآخر ، فلمَّا ذهب عنه الباطل بالكُلِّيَّة ، توفَّر له النصيب من الحق ، وهو محبة الله ، حتى صار بحيث يفعل له ما يُحِب في من يُحِب .

وهذا عناية من الله سبحانه ، وعلامة محبة الله ، أن لا يفعل بتلك الأعضاء – المذكورة في الحديث– إلا ما يحبه الله ، لأن أصل وينبوع الطاعات والمعاصي من تلك الأعضاء ، وبقيَّتها إلى السبعة من لسانِهِ وبطْنِهِ وفَرْجِهِ ، فإنها على عدد أبواب جهنم على حسب معاصيها ، وعلى عدد أبواب الجنة على حسب طاعاتها ، وثامنها القلب إذا صلح ، فإن فسد فإثمه داخل في إثم الأعضاء ، كل واحد منها منه نصيب، لأنها إنما اجترحت السيئات بأمره ، فثوابه في مقابلة باب من أبواب الجنة ، وإثمه مقسم على أبواب النار ، فمنها رضاه تعالى وغضبه .

فإذا جرَّدها لفعل ما يرضي ربه ، وجنبها ما يسخطه ، فقد تمَّت محبة الله له ومحبته لله ، فلهذا قال تعالى : « فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به .. » إلى آخر الحديث ، وحينئذ يحصل من الله سبحانه الإغاثة لمن استغاث به ، والنفع لمن طلب منه النفع ، سواء كان ذلك المحبوب عند الله حيًّا أو ميتاً ، كما ذَكَرْنَا من السحابة التي أرسلها الله ، وسَقَت المعطشين أهل السبعة عشر المركب ، لما استغاثوا بالشيخ أبي بكر العيدروس نفع الله به ، وكذلك الذي وقعت له عند قبره الصُّرة الدراهم التي شرى منها نخلاً وبنى منها بيتَيْن ، بيتاً في البلد تريم ، وبيتاً في نخلِهِ ذلك .

وقوله : « نُوَّاب وخُدَّام » ، أي أشخاص يخلقهم الله ، يجري الإغاثة لمن استغاث بالصالحين على أيديهم نيابة عنهم – أي عن أهل مراتب الولاية – كقصة هذا الذي أعطى الرجل الصُّرة ، وكقصة الذي استغاث بالشيخ عبدالقادر في بريَّةٍ دهماء مَهْمَهٍ قفراء ، ولا زاد معه ولا ماء ، وَبَرَكَت به راحلته

وأَبَت أن تقوم، وتلك البرية مخوفة تسمى: « الدهناء »، فعندما استغاث بالشيخ، جاءه شخص متقنِّع بإحرام أبيض وعليه ثياب بيض، وقال له: « اركب »، فركب، ثم ضَرَبَها ذلك الرجل بِرِجْلِهِ، فقامت تهرول به. فهذا شخص خلقه الله، ناب عن الشيخ عبدالقادر في مرتبته، كما ناب الأول عن الشيخ أبي بكر، وليس هُمَا هُمَا، بل هم غير أهل المراتب الذين استغيث بهم، لأنهم ربما كانوا أمواتاً من زمان بعيد، قبل زمن طالب الإغاثة، فإن قلت: إن مرتبته قد أقام الله فيها غيره من الأولياء بعد وفاته. فالأمر كذلك، والمرتبة كما هي، والمنزلة عند الله أيضاً. وهكذا جميع الأولياء في مراتبهم، لا يموت وليٌّ إلا أُبْدِل في مرتبته غيرُه، ولهذا سمُّوا أبدالاً، فمن استغاث بالحي الذي في المرتبة، أو الميت الذي كان فيها، جعل الله النائب في تلك المرتبة سبباً لإغاثة من استغاث به، وربما يُسَمَّى بإسمه، كما يرى الصالحون الخضر ويخاطبهم، ويقول: « أنا الخضر »، وإنما هو النائب عنه.

ولهذا اختلف أئمة الحديث والصوفية في وجود الخضر، فنفاه أهل الحديث، ومن كبارهم الشيخان البخاري ومسلم وكفى بهما، أي نفوا أن يكون ما يرونه هو خضر موسى عليه السلام، لقوله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾، ولحديث الصحيحين: « أرأيتكم ليلتكم هذه، فإن على رأس مائة سنة منها، لا يبقى ممن هو على ظهر الأرض أحد »، أو كما هو لفظ الحديث. وعلى رأس المائة مات من الصحابة أبو الطفيل، وهو آخرهم موتاً.

وأثبته الصوفية، لكونهم يرونه كثيراً، وليس الخبر كالمعاينة، ولهذا قال السيوطي: « وقد اختلف في وجود الخضر وعدمه، والأصح وجوده »، ووجَّه النووي في شرح صحيح مسلم لهذا القول، بأن الخضر حين قال النبي ﷺ ذلك، ليس هو على ظهر الأرض، إنما هو إذ ذاك في جزائر البحر.

ولا شك أن المسألة التي كثر فيها الإختلاف، إنه يحير فيها الناظر، ولكن من حُجَّته الكتاب والسُّنة فحُجَّته تغلب كل حُجَّة.

قال السيوطي في « طراز العمامة » في من اعترض عليه حيث قال: « إني أعلم خلق الله قلماً وفماً - أي في ما أقوله أو أكتبه من العلم - أن هذه المقالة تعم الملائكة وعيسى والخضر، فهذا كلام من خلا من العلم وصغر، لأن الكلام أولاً: في أهل الأرض لا السماء، وثانياً: في من يفتي ويصنِّف ويدرِّس، وهو معنى قولي قلماً وفماً، وثالثاً: وهو الجواب الجامع المفيد الذي قرَّره العلماء فيما يشبه هذه العبارة للمستفيد، أن كل ما صدر من هذا العموم في حديث أو أثر أو كلام عالم، فالمراد به أهل عالم الشهادة، وكل من نطق بذلك فإنما أراده، لأن كلام المتكلم إنما يشمل أهل عالمه، ولا يدخل في عمومه أهل عالم آخر عند تكالمه، هذا جواب أَطْبَقَ عليه العلماء، وخرجوا عليه ما ورد في حديث أو أثر ونحوهما، من ذلك حديث: أرأيتكم ليلتكم هذه .. »، وذكر الحديث المذكور، ثم قال: « أُورِدَ عليه الخضر،

وزريب والدجال وإبليس ، وآخرون ممن هو على ظاهر اللفظ ، وَرُدَّ فأجيب : بأن العموم مختص بأهل الشهادة، وأما من هو في عالم الغيب ، فمنفي الإرادة ، ولولا هذا التقرير لم يجز لأحد التلقيب بقاضي القضاة وأقضى القضاة ، لأن هذه العبارة تشمل كل قاضٍ من الأنبياء والمرسلين، حتى الباري عزَّ جلاله وجلَّ رضاه ، وإنما استجازوه لتقديرهم أن مثل هذا اللفظ في بيانه يختص عرفاً بعالم المقول وزمانه . وقد استعمل عبارة « صحابة » و « أئمة » من العلماء ، وبهم اقتديت . ومن راجع كتب الحديث والعلم اهتدى بهم كما اهتديت ، وأما الخضر بخصوصه ، فأهل الحديث لا يثبتون الآن له وجوداً ، وما يروى في حقه رأوه في ديوان الموضوعات معدوداً . وأما أنا ، فلا أقول فيه نفياً ولا إثباتاً ، ولا أنطق في حقِّه بنبإٍ ولا ياء ولا تاء ، مراعاة لأهل الحديث والصوفية ، ولعدم أدلة بإثباته » .

وفيه قال كاتبه : وعلى قول أهل الحديث أن كل شخص يُرى ، يجري الله على يديه تفريج كربة مكروب أو إغاثة ملهوف ، فهو من باب : ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾، ولا يلزم من ذلك أنه الخضر المعروف صاحب القصة مع سيدنا موسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام ، كما لم يكن صاحب الثياب البيض المتقدِّم ذِكْره ، هو الشيخ عبدالقادر .

كيف وقد تقرر كما تقدم : أن لمراتب الولاية نُوَّاباً وخُدَّاماً ، يقومون عنه ينوبون منابهم لمن استغاث بهم أحياء كانوا أو أمواتاً ، وهم أولئك الأشخاص الذين يرونهم ، فإذا كان الأمر كذلك فلا يلزم من أولئك أن يكونوا الخضر ، لما يلزم من التعدد . فلو استغاث عشرة أو أكثر بواحد من الأولياء ، فقيَّض الله لكل واحد شخصاً حصلت له الإستغاثة على يديه ، فنقول يكون الخضر عشر أشخاص أو أكثر؟! وما أحد قال ذلك .

فوجَّه هذا القول لهذا المعنى ، ولدليل الآية والحديث الصحيح ، وهذا الذي يراه الصوفية ، وقطعوا أنه الخضر ، فهو من الأشخاص التي يخلقها الله ، جرياً مع ظاهر الأسباب في الدنيا، حيث هي محل أجسام الأسباب ، الكامنة فيها أرواح المقادير التي بها حصلت الإستغاثة لا غير ، ونسبتها كنسبة هز مريم النخلة لتساقط الرُّطب ، فهذا المعنى يشمل القولين فلا يتنافيان .

وقول الإمام السيوطي : « لا أقول في الخضر بنفي ولا إثبات » ، وذلك لأنه معدود من الفريقين: الصوفية ومن تبعهم ، ومن المحدثين . بل من كبار الفريقين ، فلا استحسن أن يتظاهر بينهما بموافقة أحدهما عن الآخر ، كما قال : « مراعاة لأهل الحديث والصوفية » ، وقوله : « لعدم أدلة بإثباته » ، وفيه يدل على أنه مختار لهذا القول ، قول المحدثين ، وفاقاً للآية والحديث .

والجمع بين القولين أن نقول : إن الله تعالى يخلق تلك الأشخاص النائبة في المراتب عن أربابها ، لكل أمر يريده الله ، ولو لم يكونوا هم بأنفسهم ، والقدرة صالحة لكل شيء ، فمن يقطع بأن الذي

يرونه هو الخضر صاحب موسى عليه السلام ؟ ، بل لو قال : أنا هو ، وذكر قصته معه فيصدق ذلك على وجه من التوسعة في اللغة والتجوز فيها ، ويعني به أن هذا هو الذي أراد الله أن يغيث به من أراد أن يغيثه بمن هو في مقام الخضر ، كما تسع اللغة الإخبار عن ما لم يقع بَعْدُ بأنه وقع ، ويؤتى بلفظه على صورة الماضي إذا تحقَّق وقوعه قطعاً بلا شك ، كقوله تعالى : ﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ ﴾، أي الساعة ، حيث أنه لا شك فيها إنها واقعة لا محالة .

وقد وقفت على قصة تحقِّق المعنى في هذا الباب ، والقصص في المعاني كضرب الأمثلة ، فبها يتبيَّن المقصود وتوصل المعنى إلى القلب ويتثبَّت بها ، كما قال تعالى : ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾، ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾:

رأيت القصة بحضرموت في دوعن عند السيد عمر البار ، بخط السيد عبدالرحمن الحبشي ، وكثير من الكتب بخطه عند سيدنا عبدالله كالبخاري والإحياء وغيرهما ، فنقلتها . فلما جئت إلى الأحساء رأيتها أيضاً بخط الشيخ مفتي المسلمين حسين بن عبدالرحمن بن كثير ، فقابلتها عليها ، فما اختلفا في حرف ، ثم رأيتها في كتاب « مختصر فضائل شهر الله المعظم رمضان » ، تأليف الشيخ الإمام علي الأجهوري رحمه الله ، من كبار أئمة المالكية بعد الألف ، يقال : إنه خاتمة السبعين الألف – الذين يدخلون الجنة بغير حساب – الأصول هو آخرهم ، وما بقي بعده إلا الفروع – الذين هم تَبَع لهم – الذين ورد مع كل واحد من السبعين الألف سبعون ألفاً ، وهم باقون إلى خروج المهدي .

يروي القصة عن الشيخ ابن عربي ، وتَكَرُّر المواضع كتكرُّر الشهود في ثقة الخاطر بالصحة ، فإن كان فيها بُعدٌ على العقول فانسبها إلى القدرة ، وتنحَّ عن طريقها ، فإن العقول قاصرة عن ذلك ، وما حظها من الأمور القدرية إلا الإيمان والتسليم ، كما تقدَّم من قول سيدنا في الأمور الخارقة للعادة : « **إذا عجز عنها العقل فانسبها إلى القدرة ، وابق على إيمانك** » – أي تصديقك – واجعلها كرؤية سيدنا عبدالله للشيخ عبدالله بن أبي بكر من قبره يقظة وأعطاه أمانة ، قال : « **ما يحملها إلا المهدي ، أو أربعون من أصحابنا** » ، ومرة قال : « **أو ستون من أصحابنا** » . وكمن سمع الشيخ الحسين بن أبي بكر بن سالم من قبره يقول : « لو أردنا الولاية لوليناها هذا الحمار » ، وغير ذلك .

وذكر قبلها عن أبي سعيد السمعاني بإسناده إلى أبي خزيمة بن ثابت ، قال : « كان النبي ﷺ إذا استعمل المشط ، قرأ في يمين عارضه فاتحة الكتاب ، وفي شماله ألم نشرح » ، ثم قال : « من قرأهما فتح الله عليه في جميع الأمور » ، قال : « قلت : وواظبت على ذلك واعتمدته وجربته ، فوجدت بركته ونفعه» . ثم قال : « فائدة ، ذكرها سيدي محيي الدين في كتابه المسامرة ، فقال : أخبرني بمكة رجل ثقة من التجار ، يقال له : ابن الصواف ، من أهل الإسكندرية ، وكان عدلاً صالحاً ثَبْت الحديث فطناً ،

ولا أزكي على الله أحداً . قال لي : أخبرني بعض التجار أنه اتَّجر ببلاد الهند ، فعامَلَ رجلاً من أهل ذلك البلد إلى أَجَلٍ معلوم ، فتوفي التاجر الهندي قبل حلول الأجل بغتة ، فأَسِف التاجر الغريب على تلاف ماله ، فقصد دار الهندي ليشهد جنازته باكياً على ما كان له عليه ، فقال بعض أهل الميت : ما شأنك تكثر البكاء ؟ فذَكَرَ المال الذي له عند الميت ، فقال : لا بأس عليك ، تأخذ مالك مُوَفًّى . فقال : وكيف ذلك ؟ فقال له : إن الميت عندنا يُحْيِيه الله بعد ثلاثة أيام من دفنه ، فيفتح دكانه إن كان صاحب دكان، ويذكر ما له وما عليه ، ويقرأ جريدته - أي دفتره - ويعطي للناس ما لهم عليه من الحقوق ، فإذا لم يَبْقَ عليه تبعة - أي طلب - قام وأغلق دكانه ، وسلَّم المفتاح إلى وَرَثته ، وانصرف من حيث جاء ، لا يتبعه أحد ، ولا نراه بعد ذلك .

قال التاجر : فتحَيَّنْتُ لخبره ، وهان علي تلاف المال لو تلف لمشاهدة هذه الأعجوبة ، قال : فاتبعنا الجنازة حتى دفناها ، وبَقِيتُ أترقَّب ، فلما كان بعد ثلاث ، إذا منادٍ ينادي : يا معشر الناس ، من كان له عند فلان الذي مات حق فليأتِ إلى دكانه ، فقد قعد يعطي الناس حقوقهم . قال : فأسرعت إلى الدكان ، فوجدتُ صاحبي بعينه ، لا أنكر منه شيئاً ، وجريدته - أي دفتره - في يده ، ومن له شيء عنده قد حضر ، فما زال ينظر في الجريدة ، فيقول : أين فلان ؟ ويجيبه ، فيقول : كم تسألني ؟ فيقول له : كذا وكذا ، فيعطيه ، إلى أن دعا بإسمي ، فقال : كم تسألني ؟ فقلت : كذا وكذا . فنظر في الجريدة فقال : صدقت . فَوَفَّاني حقي وشكرني ، واعتزلتُ أنظر آخر أمره ما إليه يؤول ، فلمَّا جاء وقت العصر وتمكَّن وفرغ من شغله ، قفل الحانوت - أي الدكان - وانصرف الناس ، فأخذ المفاتيح وسلَّمها للورثة، وسلَّم عليهم وانصرف ، فلم يتبعه أحد .

فانصرفتُ خلفه أسأله عن شأنه ، فإني رأيت عجباً ، فما دخل زقاقاً إلا وأنا خلفه ، أجهد نفسي في أثره ، فلمَّا ألْحَحْتُ عليه ، وقف وقال : يا هذا ، ألم تأخذ حقك ؟ قلت : بلى ، قال : فانصرف ، قلت له : أريد أن أتعرَّف شأنك ، فإني ما شَكَكْتُ في موتك ودفنك ، فكيف قصتك ؟ وأقسمتُ عليه أن يخبرني، فقال : نعم أخبرك ، أما صاحبك التاجر الهندي ، فقد انقلب إلى الله ، وأما أنا فَمَلَك على صورته ، أرسلني الله تعالى ، ففعلت ما رأيت ليفتنهم ، وقد أجرى الله لهم العادة في ذلك ، فلست صاحبك ، فانصرف عافاك الله . حتى انصرف . قال التاجر : ثم التَفَتُّ فلم أره ، وقد عرفت خبره ، فكتمته في نفسي ، وجبر الله علي مالي » . تمت هذه القصة العجيبة ، وأنشد :

وَالْعَارِفُ ابْنُ عَرَبيٌّ قَدْ ذَكَر ... إِنَّ بِبَعْضِ بِلَدٍ فِي الهِنْدِ قَرْ
حَيَاةُ مَيْتٍ لِثَلاثٍ تَمْضِيْ ... مِن مَوتِهِ لِنَحْوِ دَيْنٍ يَقْضِي

وَبَانَ بَعْدُ أَنَّ مَنْ يَأْتِي مَلَكْ   مِنْ رَبِّنَا عَلَى مِثَالِ مَنْ هَلَكْ

فإذا كان الأمر كذلك ، فما يمنع أن يكون الخضر أيضاً قد انقلب إلى الله ، وأن هذا الذي يرونه الخضر مَلَكٌ على صورته ، يرسله الله فيفعل ما يفعله بأمر الله ، كما قال خضر موسى : ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ ، وإنه ليس بصاحبهم الذي يقولون أنه الخضر ، وإن رأوا صورته بعينه لا ينكرون منه شيئاً ، وإن قال : أنا الخضر ، اتباعاً للآية الشريفة والحديث الصحيح وموافقةً لأئمة الحديث ، الذين هم أعرف بمعاني الحديث ، مع إبقاء ما يراه الصوفية ، ويقولون أنه الخضر على حاله .

كما أن أهل تلك البلد مُجمِعُون على أن ذلك الذي يوفي ديون الميت أنه هو بعينه لا يشكُّون فيه، ثم تبيَّن أنه غيره ، وأنه مَلَك رصَدَه الله لذلك ، فلا فرق في ذلك ، وأن القائلين هو الخضر هو كما يرون ويقولون أنهم صادقون فيما يدَّعون بزعمهم . كما ذُكِرَ أن الشيخ سهل بن عبدالله حج بالخطوة، ورآه رجل من معارفه في موقف عرفة ، فذَكَرَ ذلك لأصحاب سهل ، فما صدَّقوه ، فحلف بالطلاق أنه رآه هناك ، ولم يفقدوه في موضعه وبلده ، وحلف واحد منهم بالطلاق أنه ما غاب يوم عرفة عن بيته ، فجاءه الاثنان الحالفان يستفتونه ، فقال : « لا تأتوني جميعاً ، كل واحد منكما يأتيني وحده » ، فأتاه واحد منهما وحده ، فقال له : « أمسِك عليك زوجك » ، ثم أتاه الآخر وحده فقال له مثل ما قال للآخر : « أمسِك عليك زوجك » . فصحح قول الاثنين ، وأفتى لكلٍّ منهما بصحة ما قال ، وأنه يمسك عليه زوجه ، وما وقع الطلاق على واحد منهما .

فإذا كان كذلك فما يمنعنا أن نصحح القولَيْن المذكورين : قول المحدِّثين لاتباع الكتاب والسُّنة ، وقول الصوفية لما يرونه معاينة ، ونحكم بأن ما يرونه كرؤية ذلك المَلَك ، وكرؤية الرجُلَيْن لسهل ، وإن أخطأ ظن رائين المَلَك أنه الميت ، فإن ما لنا إلا الظاهر ، ولا نُخَاطب بما في نفس الأمر ، وتجري على ذلك الأحكام الشرعية من وفاء الدَّين وبراءة الذمة ، وعدم وقوع الطلاق كما أفتى به سهل ، وإن هذه الأحكام صحَّت في الظاهر على ما رأى كل منهما وأقرَّه عليه سهل ، فإن الأحكام الشرعية منوطة بما ظهر ، ومبناها على الظاهر ، دون ما هو في نفس الأمر ، وإن المعنى الذي أشار إليه الآية والحديث ، هو على الحقيقة ، كما هو في نفس الأمر ، ونحكم أيضاً بأن ذلك يصدق على خبر إلتقاء الخضر وإلياس كل سنة بعَرَفة على تلك الكلمات المذكورة عنهما ، بل على كل قضية تُحقِّق وجود الخضر ، وأن ذلك منوطٌ بالظاهر ، وكل الأحكام الشرعية مبنِيَّة على الظاهر وعلى الغالب من أحوال الناس ، لقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ ، ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ ، والظاهر هو حد وسعهم ، ولهذا قال السيوطي : « الأصح وجوده ، تحقيقاً للحكم الظاهر الشرعي ، وإن كان في نفس الأمر بخلافه » .

فإن قيل : خوارق العادات كخطاب الأحياء للأموات ، وكهذه القصة - يعني قصة سهل - إنما هي كرامات تقع للأولياء ، فالحاصل إنها على حسب الإرادة منه سبحانه ، إن أراد وَقَعَت كرامة ولي، أو من غير واسطة ولي ، كهذه القصة - يعني قصة أولئك الذين يقولون يَحْيَى عندهم الميت بعد دفنه - فخذ المعنى ، وما اعْتَوَصَ عليك انسبه إلى القدرة والإرادة ، واترك العقل عنك بمعزلٍ في ذلك خاصة. أي ما اعْتَوَصَ مما يتعلَّق بالقدرة ولم يتعلَّق بسبب ، أي ما عجز عنه العقل من أمور القدرة ، وأَطْلِقْهُ في أمور الشرع يتبعه في كل أموره ، ما جلَّ ودقَّ ، ولا عليك .

وقول سيدنا المتقدم : « **القلب القوي .. إلخ** » ، « **والقلب الضعيف .. إلخ** » ، يعني الضعيف في العقيدة ، بأن قوي اعتقاده في الصالحين أو ضعف ، والقلب المظلم من لا عقيدة له .

وقوله : « **من نور النبوة** » ، أي لمن حَسُن اتباعه وكَمُل اقتداؤه بالنبي ﷺ في كل ما جَلَّ ودَقَّ في العبادات وفي العادات ، مثله هو ، كما ذَكَرْنَا من دقائق متابعته ، ومما لم نطَّلع عليه ولم ندركه نحن ولا من تقدَّمنا ، وأنَّى لنا بذلك ولا غيرنا ، فلا يطَّلع على غوامض أحواله ومعاملاته إلا ربه فيما بينه وبينه، وفيما بينه وبين الخلق ، وإنما كمال حسن الإتباع وعلى أكمل وجوهه في هذا الزمان خاصٌّ به ، ومَن لغيره أن يكون كذلك ؟ إلا إن كان في الغيب ، ممن لا يعلمه إلا الله ، أو من أطلعه الله عليه ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، فمثل ذلك إن وجد في هذا الزمان فيمكن أن يظهر عليه شيء من الكرامات من آثار نور النبوة .

وقد ذاكرتُ سيدنا مراراً في كرامة تواترت عنه ، سمعتها في بلادنا الأحساء قبل أن أصل إلى حضرته ، ثم في حضرموت سمعتها متواترة بين الناس ، وذُكِرَت في ترجمته من كتاب « المشرع الروي في مناقب السادة بني علوي » للسيد محمد بن أبي بكر شلية باعلوي ، واجتمع بسيدنا عام حج ١٠٧٩ وأخذ عن سيدنا ، كما ذَكَر في « المشرع » ، وهي قصة حسين بافضل لما مرض بالمدينة ، وقال أصحاب سيدنا له : « اقرأوا عليه ، لعل الله يشفيه » ، قال في « المشرع » :

فلما جاء إلى عنده ، قال لهم : « دعونا نَصِل إلى مواجهة النبي ﷺ ، ننظر إن كان فيه علاج عالجنا، وإن كان لا علاج فيه رضينا وسَلَّمنا » ، يعني إن كان مرضه من القضاء المعلَّق الذي يدخل فيه المحو والإثبات ؛ تعرَّضنا وتسبَّبنا ، وإن كان من القضاء المحتوم الذي لا علاج فيه ولا يدخله المحو والإثبات بأن حضر أجله ؛ سلَّمنا ورضينا .

وإنه مضى إلى عند القبر الشريف ، ووقف في المواجهة ، وحصل معه حضور ، ثم قال : « فيه علاج، فاجمعوا له شيئاً من أعماركم ، كُلٌّ يعطيه من عمره شيء » ، فأول من أعطاه من عمره محمد أمين الدين - هم نازلون في بيته - فقال : « وَهَبْته من عمري ثمانية عشر يوماً » ، فقال سيدنا : « هذه عدد

اسمه تعالى حي ، ومنها ١٢ يوماً توصلنا إلى مكة ، وستة أيام نتملى فيها بمكة » .

ثم تتابع الجماعة ، كلٌّ منهم أعطاه شيئاً ، وأعطاه سيدنا من عمره شيئاً ، وسمعت بعض أولاده قال : « سنتين » ، وهما السنتان اللتان عاشهما بعد مرضه ١١٣٠ ، حتى ابتدأ به المرض ١١٣٢ ، في اليوم الذي ابتدأ به في الأول إلى ليلة ٨ ذي القعدة ، وابتدأ يتشاوى حتى تمّت عليه العافية ، فخرج ليلة العيد وجلس مع الجماعة للإحياء ، إلى أن قرأ معهم ثلاثة أجزاء ، وعاش السنتين اللَّتَيْن وَهَبهما الحسين بافضل ، ثم رُدَّتا عليه حتى ابتدأ به مرض الموت يوم ٢٧ رمضان كالأول ، وما زال يتزايد به المرض حتى توفي ليلة ٨ ذي القعدة سنة ١١٣٢ .

ثم إنه أمرهم أن يكتبوا ما وهبوا من أعمارهم لحسين في ورقة ، فأخذها وتوجَّه بها إلى قبر النبي ﷺ ، وتشفَّع ودعا وغُيِّب عن إحساسه ساعة ، ثم سُرِّي عنه وقال : « **قضى الله الحاجة واستجاب ، ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾** » ، ثم قال : « **روحوا شوفوه** » ، فراحوا إليه فوجوده طيباً متعافياً ، وعاش تلك المدة الموهوبة . حتى إن سيدنا في تريم قال لما انقضت تلك المدة : « **اليوم انقضت مدة حسين ويموت في هذا اليوم** » ، فَوَرَّخوا في تريم يوم وفاته ، وأُرِّخ في مكة ، وإذا هو يوم واحد ، ذلك اليوم الذي أشار إليه سيدنا .

وقد ذَكَرَ سيدنا قصَّته لما حجَّ ، وأن حسين أرسل إليه ليلفى عليه ، قال : « **وكُنَّا نعرف من طبع حسين أنه حار** » - لأن أصله من تريم - وله به خبرة ، قال : « **وخفنا أن طبعه لا يتوافق مع طبعنا ، فاعتذرنا منه ، لكنه وصَّى حامل الورقة ، قال : إن اعتذر من ذلك ، فقل له : إنه بنى بيتاً ، وأراد أن أول من ينزله أنتم . فأَجَبْنَاه لذلك ، ثم قلنا له : لا تتكلَّف لنا بشيء ، فإن حوائجنا معنا ، أكثرها بجدة ، وجئنا معنا منها ببعضها ، وإذا احتجنا لها أرسلنا من يأتي بها من جدة ، فقال : الليلة لا بُدَّ من ضيافتكم، لأنكم في بيتنا فيلزمنا لكم ذلك . قلنا : مليح . فلما كان من الغد أرسل لنا عشرة حروف ، فلُمْنَاه ، فقال: إنما هذا قيمة حطب للقهوة ، حتى لا تطلبون . آخر الأمر إنه قام بالأمور كلها ، ولا خَلَّى لنا عذراً، حتى إنه كَارَى لنا كراء مرجَّع** - يعني يوصلهم المدينة ويتركهم مدة ، ثم يجيهم فيرجعهم إلى مكة ، ووعده حسين عشرين يوماً - **فلما كان ليلة العشرين ، وحضر وَعْدنا مع الجمَّال ، وقد شدينا الرحال للسفر ، وفي نفسي الإقامة بعد ذلك ، فرأيت ليلة وعْد الجمَّال : أن امرأة جاءتني تريد تصافحني، فَلَفَفْتُ يدي بكمِّي لئلا أمس يدها ، فقالت لي : ما أشبه هذه الكف بكفِّ السيد محمد بن علوي** » ، يعني شيخه الذي كان متوطناً بمكة ، وتوفي قبل حجه بثمان سنين ، ولم يجتمع به ، وإنما هو بالمكاتبة .

قال : « **فسألتُ المرأة عن اسمها ، قالت : اسمي رحمة ، وإن جدّك النبي ﷺ يقول لك : لا بعد تسافر ، نريدك بعد تقيم عندنا . فخطر في خاطري أن رحمة من أسماء المدينة ، تصوَّرَت بصورة إمرأة .**

فلما أصبحنا أُخبِرنا أن الجمَّال قد شَرَدَ عنَّا ، ولا جاء لِوَعْدِه . وفكَّ محمد أمين كتاب خلاصة الوفاء في أخبار دار المصطفى ، وذَكَرَ أسماء المدينة ، وفي جملة أسمائها رحمة » ، وفاقاً لما خطر بباله .

قال : « وأصبح حسين بافضل مريضاً » ، هذا حد ما تكلَّم به ومعناه ، وما بعد ذلك من أمره أن يجمعوا له من أعمارهم ، وتوجُّهه إلى النبي ﷺ في أن يمد الله له قدر ما أعطوه من أعمارهم .. إلى آخر القصة ، فذاك هو الذي سمعته متواتراً بالأحساء وحضرموت ، وهو الذي سألت عنها سيدنا ، ومرادي أن أسمع منه ما يشير إلى تحقيقها ، وإن لم أشك فيها ، فسألته مراراً متعددة ، فمرة سكت ولم يرد لي جواباً ، وقد فهم سؤالي فَسَكَتُّ لسكوته ، ولا أجسر على سؤاله إلا في وقت انشراح الخاطر وصفاء البال ، فرأيته كذلك فسألته ، فتحيَّنتُ لذلك وقتاً آخر مثله ، فسألته فقال : « ذَكَرَها شلية ، وهو ثقة » ، يعني صاحب « المشرع » في ترجمته ، على ما فصَّلناه حفظاً منه ، وقوله : « وهو ثقة » هو مرادي ، فحيث وثَّقه فقد صدَّقه .

ومرة بعد ذلك بمدة في مثل الوقت والحال سألته فقال : « ذلك ببركة المتابعة » ، أي حيث هي منه على أكمل وجوهها ، وبَيَّنَّا يسيراً منها على حسب ما تبيَّن لنا منها ، وهو نقطة من بحر مما لم نَتَبَيَّنه ولم نطَّلع عليه ولا غيرنا ممَّن هو أكمل وأبلغ في الإطلاع كالسيد أحمد بن زين وأمثاله ، وقليل المتابعة يحصل به خير كثير ، فكيف بكثيرها ، سيما في هذا الزمان المظلم ، فإذا قد سمعتَ النَّزر من شأن السيد عبدالله الحداد ، فقل لي : هل رأتْ عيناك أو سَمِعَتْ أذناك من يشبهه أو يحاكيه في حال من الأحوال كما قدَّمنا من قوله : « هل رأيتني أُشْبِهُ أهل الزمان أو يشبهوني ؟ » لا والله ، فأين المتعلِّق بالله من المتعلِّق بالدنيا ، شتان وهيهات .

وأود لو قد جرى هذا الأمر على خاطري في حياة سيدنا عبدالله نفعنا الله به - أعني اختلاف الفريقين في الخضر على القولين المذكورين - لكنتُ سألته عنه ووَقَفْتُ على ما قال ، وقطعتُ الشك باليقين ، ووقَفْتُ على نص ما أمرني به ولا أتعدَّاه ، وأظن بل أقطع أن لا يقول إلا على ما قال الله ورسوله ، وإن لم يتكلم بهذا القول ظاهراً ، فإن السكوت عنه عنده أحسن .

وهذا نظير ما تقدَّم من قول سيدنا عبدالله ، يحكيه عن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: « ودِدتُ أني سألت رسول الله ﷺ عن الكلالة » ، وعن تلك المسائل التي قدَّمنا ذِكْره لها ، من حيث الإرث . وقد رأيت سيدنا عمر فيما يرى النائم ، وذلك في منارة مسجد آل باعلوي مرتين ، إحداهما مع عسكره ، وكأنه قدم بهم من الجهاد ، وعليه مرقَّعته المشهورة المذكورة لابسها ، وفيها كما ورد عنها اثني عشر رقعة ، بعضها من جلد ، وجعلتُ أعدّها واحدة واحدة إلى اثني عشر . وبعدها بمدة سنين وذلك بعد وفاة سيدنا ، ليلة عَزَمتُ على السفر في صبيحتها من تريم ، ليلة خميس رابع عشر

عاشور مبدأ سنة ١١٣٣، رأيتُ كأني زرت التربة وضرائح السادة بها جميعاً ، حتى ختمتُ بضريح سيدنا عبدالله نفع الله به ، ثم كأني بعد الزيارة دخلتُ البلاد إلى دار السيد علي عيديد - وكان من المترددين لزيارة سيدنا وحضور مجالسه ، ويزور معه التربة ، قال في بعض الزيارات : سمعت سيدنا عبدالله حين خرج من قبة الشيخ عبدالله العيدروس وتوطّى إلى زيارة والده ، وَضَع رِجْله في موضع قبره ، قال : « ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾ » ، قال : فقلت في نفسي : ربما إن الحبيب يُقبَر في هذا الموضع وتُبنى عليه قبة ، فحين خطر لي هذا الخاطر ، إلْتَفَتَ إليَّ وقال : « **يا سيد علي، القبة ما هي لنا ، إنما القبة لآل العيدروس** » ، قال : فتعجَّبتُ من سرعة مكاشفته لي بهذا - .

تمام الرؤيا : كأني دخلت بيت السيد علي المذكور مع أولاد سيدنا الخمسة في عزيمة ، وحاضرها جمع كثير ، فبينما نحن كنا جالسين في السطح ، إذ جاءني رجل يكلمني ، وقال : « هَابَط صبي يريدك» ، فنزلت إليه ، وإذا بيده وريقة صغيرة كالإصبع ، فناولنيها منشورة وقال : « أعطانيها لك رجل إلتقيت معه في طريق دمون ، وقال : أعطها الفلاني تراه في دار فلان » ، وإذا فيها هذا اللفظ بحروفه حرفاً حرفاً، بلا زيادة حرف ولا نقصانه وهو هذا : « صح ، أنت أمير المؤمنين عمر بن الخطاب » .

فتعجبت من ذلك وتأملته كثيراً ، فلم يظهر لي تأويله ومعناه ، لكن سرَّني جدًّا عرضة سيدنا عمر في الرؤيا ، ورجوت أن ذلك دال على خير إن شاء الله ، فلما وصلت إلى حضرة سيدي العَلَم القدوة الحبيب أحمد بن زين الحبشي ذَكَرْتُها له ، وطلبتُ منه تأويلها ، فقال : « تأويلها أنك أشبهتَ عمر بن الخطاب رضي الله عنه في كونك إذا جزمتَ بأمرٍ أمضيته ولا تبالي بلومة لائم ، ولا تراعي في ذلك لوم أحد ، ويكون ما جزمت به وعملت عليه على خلاف قول اللائم ، حقًّا موافقاً للحق ، كما هو معروف من شأن عمر رضي الله عنه ، كما قد فعل أشياء وأُنكِرَت عليه ، ونزل بها القرآن وتبيَّن أنه الحق ، وقال النبي ﷺ في حق عمر : تركه قوله الحق ، وما له في الناس من صديق » ، انتهى كلام السيد أحمد رحمه الله .

ومن الخدام حيوانات يُظهِرها الله لمن ابتُلِيَ ببلوى ، إذا استغاث بأحد من الصالحين وتوسل بهم، تكون علامة له على سرعة حصول الفَرَج ، كالسمكة التي تقدَّم ذِكْرها في قصة أهل المراكب الذين أصابهم الطوفان في غبة فارس ، فاستغاثوا بسيدنا فأخرج الله لهم من البحر تلك السمكة ، التي خَجَت وسط المركب من العرض إلى صدره ، ثم سقطت في البحر ، فعند ذلك في الحال انقطع عنهم الطوفان ونجَّاهم الله من الشدة والكرب العظيم الذي هو الغرق ، ولما ذكرت له القصة وأمر السمكة قال : « **المراتب لها خدام** » ، وتحت هذه الكلمة علوم جمة .

وكذلك لما أصابنا الطوفان في غبة قمر ، وصار الماء يسقط من جوانب السنبوق ، وكنا في سنبوق صغير كسنابيق الصيادين ، جملة أهله أربعة أشخاص والعبرية ثلاثة ، فتوسَّلتُ بالسادة الذين توسَّل بهم سيدنا في قصيدته :

نَـادِ المَهَاجِـر صَفِـيَّ الله   ذَاكَ ابْن عِيسَى أَبَا السَّـادَات

إلى آخرها ، فلما أتممتها أخذني النوم ، فرأيت سيدنا عبدالله ، فكانت رؤيته مُبَشِّرَة لنا بالفَرَج ، فحين انتبهت من النوم ، طَفَرَت لنا سمكة عظيمة من البحر إلى السنبوق ، وَجَعَلت تضرب ضرباً شديداً ، فركَّدناها بثلاث قواصر وضعناها عليها إلى الصبح ، ثم بقينا نحو ثمانية أيام نطبخ منها كل يوم ثمانية قدور ، قدر ما يكفي من في المركب وهم سبعة . ولما وصلنا سيحوت نَزَلتُ فيها ، ونزَّلتُ بباقي السمكة وهو نحو ثلثها ، فهذه علامة لحصول الفَرَج ، وضيافة لنا بعد السلامة من الكرب العظيم . وأخبرت سيدنا بالقصة ، فقال : « **قال الشيخ عمر** - يعني المحضار - : **نرد موسومتنا ولو بالصين** » ، يعني سيدنا أنه هو القائل ذلك لنا ، كما قال الشيخ عمر ذلك لأصحابه ، فَورَّى سيدنا بنسبة القول إلى القائل ستراً للحال ، وإلا فهو قائل ذلك ، كما قاله الشيخ عمر ، وإلا فما معنى ذِكْره لذلك لما سمع القصة .

ومثل ذلك ما أخبرني به الأخ الصالح محمد المصري الأزهري الأحمدي : « أن باشا ولي مصر ، وكان في قلبه شحناء على العلماء وأهل الفضل خاصة ، يقول : إنهم يتَّجرون بالعلم ، ويجمعون المال ، فيتركهم الحكام ولا يأخذون منهم شيئاً . وجعل خبثه وضرره عليهم ، وجعل يطلب عليهم ، وترك أهل الدنيا فاحتصروا في الجامع الأزهر ، فرسم عليهم على أبواب الجامع - يعني جعل عساكر تحصرهم على الأبواب - فاجتمعوا على قراءة سورة الأنعام بأصواتٍ متفقة معاً ، لا يتقدَّم في القراءة ولا يتأخر أحدٌ عن أحد ، وذلك مجرَّب لحصول الفَرَج ، فعند ذلك خرج كلب أسود من مزبلة بقرب الجامع وجعل ينبح عليهم ، ففي الحال اختبصوا واختبطوا واقتتلوا بعضهم مع بعض ، فهلكوا عن آخرهم ، وهلك باشتهم في يومهم » ، وكان ذلك الكلب كالسمكة ، علامة على نجاة أولئك الذين اجتمعوا على قراءة السورة ، وحصول الفَرَج لهم ، وهلاك عدوهم . وغير ذلك وقائع متعددة ، والله يخلق ما يشاء ، وإذا أراد تعالى أمراً فإنما يقول له : ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ .

وتلك النواب والخدام في مراتب الأولياء والعلامات المبشرة ، وإن كان الأمر من جانبهم مجرَّد قدرة بلا تسبب ، لكن الله سبحانه جعلها أسباباً يجري الفَرَج على أيديهم ، على مبنى حُكْم هذه الدار المبني أمرها على الأسباب ، ليظهر السبب ، وإن خفيت فيها المقادير ، لأنه تعالى حَكَم بأن أمور هذا العالم الدنيوي لا تكون إلا بالأسباب الظاهرة ، وهي حكمة الله تعالى التي أجراها لعباده ، وحكمه

الذي شرعه لهم ، وسُنَّته التي قد خلت ، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾.

والقدرة كامنة في الأسباب كُمُون الأرواح في الأجسام ، والأسباب ظاهرة في الدنيا ظهور الأجساد، كما قدَّمنا ذلك في مادة الأسباب عند قوله : « **إن الأسباب ظاهرة في الدنيا ، والمقادير خافية فيها . وفي الآخرة المقادير ظاهرة والأسباب خافية** » ، بأنها تقدَّمت في الدنيا ، ولا ذِكْر لها هناك . كما ورد : أن الرجل من أهل الجنة إذا اشتهى اللحم يأتيه طير يطير ، ثم يقع قدامه ، فإذا هو لحم مشوي ، فيأكل منه إرادته ، ثم يطير . فهل هذا إلا مجرد قدرة ، ليس للسبب ولا للعقل فيه مجال ، وغير ذلك . فكل ذلك جَرْي على قواعد هذه الدار ، كما ذَكَرَ ابن أبي جمرة في حديث : « سيحون وجيحون والنيل والفرات ، كلٌ من أنهار الجنة » ، فثبت بهذا الحديث أن هذه الأنهار التي في الدنيا أنها من أنهار الجنة ، فإذا شرب منها أهل الجنة كان الخارج منهم رشح عرق ريحه كريح المِسْك ، على طبع دارهم التي هم فيها ، يعني الجنة . وإذا شرب منها أهل الدنيا ، كان الخارج بولاً وغائطاً ، كما هو طبع دارهم التي هم فيها وهي الدنيا ، فإذا كان الأمر كذلك ، فجملة الخلق على حُكْم الأسباب ، كما هو حُكْم هذه الدار في الدنيا ، وفي الآخرة هم على حُكْم المقادير ، كما هو حُكْم تلك الدار الآخرة .

كما قال سيدنا وتقدم ذلك من قوله : « **لله أسرار وحكم في ترتيب الأسباب ، وارتباط منافعها بعضها إلى بعض ، وهذا عالم الأسباب جميع أموره متوقف عليها ، وهو موضع قوله تعالى : ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾، قال تعالى : ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۝ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ۝ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۝ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۝ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ۝ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ۝ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ۝ ﴾، وأما عالم الأمر فهو شيء آخر لا حُكْم فيه للأسباب ، ولا للكاف والنون ، ولا احتياج إليها** » ، انتهى ما تقدَّم من قوله .

وأقول لمن سمع كلامي هذا : لا تظن أني أُنكِر قول الصوفية ومن تبعهم بإثبات وجود الخضر ، ولكني أريد أن أثبت قولهم وقول أئمة الحديث لما احتجّوا به من الكتاب والسُّنة ، ومن كانا حُجَّته فقد خصم كل ذي حُجَّة ، فإن من خالفهما قيد شبر فقد أخطأ وضلَّ ضلالاً بعيداً ، وما ثبت فيهما فهو يقين لا شك فيه ، وما خالفهما فهو شك لا يقين فيه ، وهما أصدق من قول كل قائل ، ومما يشاهد بالعيان إذا خالفهما فقد يدخل فيه التلبيس والتشبيه والوهم ، فترى المشعوذ يريك أشياء تراها بالعين لا حقيقة لها وليست على ما ظننت ، وأما ما ثبت في الكتاب والسُّنة ، فلا يدخله شيء من ذلك قط .

فإذا ثبتت نواب المراتب من باب القدرة والإرادة ، وذَكَرها الأكابر كسيدنا وغيره ، ورأيت بالعيان كما رأى الصوفية الخضر بالعيان ، فحصل لنا بذلك الجمع بين القولين ، وتصديق الكل ، فلا حرج ولا بأس إذاً ، وذلك لما أن ثبت نواب المراتب ، وأن كل مرتبة ولي لها نواب تنوب عنه ، وأن أول كل المراتب مرتبة الخضر ، وتقديم الأول بالذِّكر أولى وأشهر ، فصار كل من استغاث بولي ، فصيَّر الله له

شخصاً أجرى الله له الفَرَج على يديه ، يسمى الخضر . كذلك الرجل المتقنّع بالإحرام الأبيض ، قيَّضه الله لمن استغاث بالشيخ عبدالقادر لما بَرَكَت به راحلته في مهلكة ، وأَبَت أن تقوم وليس معه ماء ولا زاد ، فهل ترى أن هذا هو خضر موسى ، يأبى ذلك العقل ويساعده الشرع ، ولكن يقال له : الخضر ، كما هي العادة إن من وقع في شدة واستغاث بولي فقيّض له شخصاً كذلك وفرَّج له بسببه ، قال : رأيت الخضر . ويقال عنه أنه رأى الخضر ، ولا يتنافى القولان .

وقد قال رجل من تلامذة سيدنا أحمد بن علوي باجحدب باعلوي ، وكان مقدَّم السادة آل باعلوي نفع الله بهم ، وكان الرجل من أهل بلدة بور ، قال له : « يا سيدي ، أرني الخضر » ، فاعتذر ، وألحَّ عليه حتى حلف عليه بالله ، فقال له : « إذا سِرْتَ إلى بلادك ، فاسلك طريق المعجاز فتراك تراه، ولكن ما تقدر عليه » ، أي ما تتمكَّن منه . قال الرجل : إنه سار على المعجاز على طريق الجبل ، وترك الطريق القوية ، فرأى فوق الجبل عبداً أسود نوبي كبير الشفتين يرعى غنماً ، فما الْتَفَتَ إليه ولا سلَّم عليه ، وهو راجي أن يلتقي بالخضر على وَعْدِ شيخه ، فلما رآه العبد مقفياً ولا الْتَفَتَ إليه ، ناداه العبد وسمّاه بإسمه، وقال : « يا شيخ فلان ، السلام عليكم ، قد قال لك السيد أحمد : إنك ما تقدر عليه » ، فلما سمعه قال هذه الكلمة ، وتذكَّر قول السيد أحمد له ذلك ، فرجع وطلبه ودوَّره طول الجبل فما رآه ولا رأى الغنم ، فلما اجتمع بالسيد أحمد تبسَّم السيد له وقال له : « يا محروم ، تريد الإجتماع بالخضر ونفسك - أظن قال : شامخة - وما أنت أهلاً للإجتماع به » ، هذا تمام القصة .

أتظن أن هذا العبد النوبي كبير البراطم هو الخضر المذكور في القرآن قصته مع سيدنا موسى ؟ يأبى ذلك العقل والنقل ، فما بقي إلا أن هذه أشخاص يريهم الله إياها ، ولا تدرك العقول ما أصلها وكُنْهها، وهو الذي يراه الصوفية ومن تبعهم ، ويقولون هو الخضر اشتهاراً من الله لمرتبة الخضر ، فلا بأس ولا حرج فافهم .

ومما يؤيِّد ذلك ويحقِّقه من كل ما تستبعده العقول ، وأنه بالنسبة إلى القدرة واضح لا بُعْد فيه ، أن الإمام جلال الدين السيوطي وغيره من فحول العلماء ، ذَكَروا أن أناساً كثيراً تكلَّموا بعد ما ماتوا ، وأن رجلاً دخل مسجداً فرأى فيه جماعة من الأموات ، رآهم بصورهم وهو يعلم أنهم ماتوا ، رآهم مجتمعين ، فقال : « السلام عليكم » ، فلم يردوا عليه السلام ، وجعلوا يسألونه عن أشياء ، وعن أناس من الأحياء ، فقال لهم : « لِمَ لَمْ تردُّوا عليَّ السلام ، وهذا أنتم تتكلمون ؟ » ، فقالوا : « رد السلامة حسنة، وقد حيل بيننا وبين الحسنات » .

وذكر أناسٌ ثقاتٌ عن رجل كان من المتردِّدين على سيدنا وقرأ عليه ، وهو محمد بامؤذن - توفي بمكة - فرأوه وهو على المغتسل يغسَّل غسل الميت يُصَب عليه الماء ، فجلس قاعداً ثم رجع إلى حاله

وما تكلم ، ثم أتموا غسله وتجهيزه .

فهذه الأمور ولو هي مستبعدة في العقل لعدم إِلْفِهِ لها ، لكن القدرة الإلهية لا بُعْدَ فيها ، ولا عجب من أمر الله ، كما استبعدت مريم أن يكون لها ولدٌ من غير أب ، ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ۝٢٠﴾، إلى أن رد عليها الملك ، ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾، وزوجة إبراهيم لما بُشِّرت بإسحاق ، ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ۝٧٢ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾.

فإذا كان لا عجب من أمر الله ، فكذلك ما يرونه الخضر ويعتقدونه أنه هو لا بُعْدَ فيه ، والقدرة صالحة لكل ما يريده الله سبحانه ، وما المحال إلا ما لا يريده ، وإن العقل حد مقدوره الأمور التكليفية الشرعية ، فعلاً وتركاً ، وأنه لا يتعداها . إذ أمور الشرع كلها إنما جاءت على المتعارف بين الخلق ، كما ذَكَرْنا من قول سيدنا : « الأمور الخارقة للعادة ماهي بعيدة في كرم الله وقدرته لمن أكرمه ، ولا هي بعيدة من أعمال الشياطين .. إلخ » ، كما تقدم هـ .

قال رضي الله عنه : « إذا رأيتَ إنساناً يعمل عملاً له وجهان ، وجه يدل على الخير ، ووجه يدل على الشر ، فسلِّم الأمر وأحسن الظن ، وإن كان إنما له وجه واحد يدل على الشر ، فما لحسن الظن وجه ، إلا أن تظن أنه لا يصر عليه ، بل يتوب عنه ويستغفر منه . وَأْمُرْ وَانْهَ على حسب ما بلغك ، ولا تَتَقَصَّ عن بواطن أحوال الناس ، وإذا تبيَّن لك بطلانه فانْهَ ، وتَرْكُه للحياء أو إنهم حبايبنا ما نقول فيهم إلا خيراً ؛ ليس هذا بِدِين ، وهو معنى لا تأخذه في الله لومة لائم ، وخُذْ من الطاعات ما هو ظاهر من غير خلاف ، وأنه طاعة ، واجتنب من المناهي ما هو ظاهر ، مع الإحتياط بما تقدر عليه في الأمرين ، فبذلك تدرك درجة أصحاب اليمين ، إن لم تقدر أن تكون من السابقين » هـ .

أقول : ما أشبه قوله : « فبذلك تدرك .. إلخ » ، من قول جدِّه ﷺ : « اعبد الله على الرضا ، فإن لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خير كثير » ، فمقام الرضا المعجوز عنه هو مقام السابقين ، ومقام الصبر الذي هو حد المستطاع ، هو مقام أصحاب اليمين . فدل كلام كل منهما - الجد والإبن - أن الشأن المقصود هو الأعلى من المقامين وهو مقام الرضا مقام السابقين ، فإن عجز عنه فلا ينزل عن مقام الصبر مقام أصحاب اليمين ، اللَّذَين نَصَّا على أن هذَيْن هُمَا حد مقامَي الدين ، فما بعدهما إلا مقام الخارجِين عن الدِّين ، مقام أصحاب الشمال ، على ما ذَكَر الله من شأن الثلاثة في سورة الواقعة ، من قوله سبحانه : ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ۝﴾ وعدها ، وبَيَّنَ سيدنا أن بما ذُكِر يدرك مقام الصابرين أصحاب اليمين .

وقوله : « إن لم تقدر أن تكون » ، في مقابلة قول الحديث : « فإن لم تستطع » ، فالكلام والمادة واحدة، وفي ذلك دليل قاطع على أن هذا النهر الواسع من ذلك البحر المحيط ، ولا يختص لفظ البحر بالمالح ، فإن معنى البحر هو الواسع ، فيشمل البحرين كما لفظ به القرآن .

قوله : « وإنهم حبايبنا .. إلخ » ، إِنْهَ عن المنكر إذا تحقَّقته ، ولا تراعِ فيه أحداً ، من شريف أو مشروف .

فقد أكثر في هذا المجلس من ذِكْر اختلاف الأزمان ، واختلاف الآمِرين والناهِين فيها ، فذَكَر : « إن رجلاً دخل على سفيان الثوري ، فرآه يبكي والدم يخرج من حَلْقِه ، فقال له في ذلك ، فقال : انفتحت في الدين قناة ، فأردت أن أسدها ، فانفتحت منه أبحر . هذا وهو في القرن الثاني وهو قريب العهد برسول الله ﷺ والصحابة » .

وقوله : « أبحر » ، أي أمور واسعة ، وهو مؤكِّد للكلام المتقدِّم ، وإذا كان هذا شأن سفيان مع

كماله في وقته الصالح ، فكيف بالناقصين عن شأوه في الأوقات الفاسدة ؟

ثم ذكر سيدنا حينئذ عن مَنْ أَمَرَ ونهى في القرون الماضية ، حتى وصل إلى ذِكْر أهل القرن العاشر ، فذَكَر عن السيد الشيخ عبدالرحمن بن أحمد الجفري صاحب تريس ، *فقال* : « **إنه كان قد طلب العلم ، وعمل وسَلَّك ، ولقي مشايخ ، وكان إذا أمر ونهى لا يبالي بمن يأمره أو ينهاه كائناً من كان ، وإنه رأى رجلاً في المسجد يقرأ القرآن وهو لا يحسن القراءة ، فبَعْد الصلاة سأل عنه ، فقال له رجل من أصحاب الدولة : إنه ألثغ وهذا مقدوره ، فقال له : وأنت تصلي ولا تطمئن ، يا فاعل ، يا تارك . وبقي يصيح عليه حتى انهزموا من المسجد ، وكان يكتب لبعض سلاطين الجهة : إلى فُلَيِّن - يعني يصغر اسمه - مَرْدَم جهنم ، وأما زماننا هذا فما بقي للدين فيه ذِكْر ولا معول ، ولا نسبة بينه وبين ما قبله من الزمان** » .

انتهى ما تكلم في هذا المجلس وقت القراءة ، عشية الإثنين حادي عشر شعبان سنة ١١٢٤، وذلك من قوله : « **إذا رأيت إنساناً يعمل عملاً له وجهان ..** » ، إلى هنا وهو قوله : « **ولا نسبة بينه وبين ما قبله من الزمان** » ، ولا يدخل فيه ما تخلله من الكلام ، وهو واضح منه ومنعزل عنه .

وقد قيل للإمام الشافعي رضي الله عنه في صبيحة يومه الذي مات بعده : « كيف أصبحت؟»، فقال : « ما حال من أصبح يطلبه ثمانية : الرب بكتابه ، والنبي بسُنَّته ، وأهل بيته بالقوت ، والنفس بالشهوات ، والشيطان بالمعاصي ، وملك الموت بقبض الروح ، والحفظة بما ينطق ، والدهر بصروفه » هـ .

*

قال رضي الله عنه : « **ما مضى عليه السلف من قبل الشيخ عبدالله العيدروس إلى وقته ما يسعنا إلا تقليدهم والإتباع لما مضوا عليه ، وما كان من زمنه إلى وقتنا هذا فلا نتبع إلا ما مروا عليه ، ومن ابتدع شيئاً فعلى مبتدعه** » هـ .

أقول : مراده بالسلف كلما ذَكَرَهم في هذا الموضع وفي غيره : سلف ساداتنا آل باعلوي ، يعني من سلف منهم ومضى ممن تقدَّم الشيخ عبدالله إلى وقته ، كما صرَّح بذلك هنا ، وهو أي الشيخ عبدالله آخر من ذَكَر منهم - أي السلف - لأن أولئك السلف المذكورين كانوا أعرف مما بعدهم بالله وبأحكام الله ، وبجميع أمور الدين ما ظهر منها وما بطن ، معاينة وكشفاً ، وكانوا مطَّلعين على حقائقه وأسراره وغوامضه ، لا يخفى عليهم منه شيء ، وإن دقَّ وخفي أكثر من غيرهم ، وإن ظهر لضعيف المعرفة في بعض الأشياء أنها خلاف الشرع ، كما ستأتي الإشارة إليه .

لأن أولئك السلف كانوا الدين هو همّهم ومَبْلغ علمهم ، ومطمح نظرهم وكُنْه هِمَّتهم ، وبه تعلق ظاهرهم وباطنهم ، ومثلهم سيدنا وعلى قدمهم كما ستفهمه من كلامه في إشاراته وأشواره ، وردَّه على من يزعم الصواب في غير ما مضى عليه السلف . وبعد الشيخ عبدالله وقبل وقتنا أناس أيضاً على هذا الوصف ، ووقتهم خير من وقتنا ، فلا شك إنهم أعرف بدين الله وأَقْمَن بذلك من غيرهم ، وإنما هم في بركتهم وما همّهم أمر يخالف ما مروا عليه ، وما يهم سيدنا الإقتداء إلا بالشيخ عبدالله ومن تقدَّمه ومن بعده على سَنَنِهم ، كأناس سيذكرهم ، ومن تأخر عنهم أيضاً ، فهم على هذه الأوصاف . وأما من بعدهم إلى وقتنا ، فشدة حذاقتهم ومطمح نظرهم وقوة اهتمامهم إنما هو في الدنيا والإعتناء بشأنها ، على ضد ما يهم المذكورين ويعتنون به ، فأنّى لهم أن يعثروا على حقيقة الصواب في أمر الدين مثلهم ، وإن اعتقدوا أمراً صواباً ، كما سيأتي تمثيله في سياق الكلام .

وقد استأذن المعلم باغريب سيدنا - وأنا أسمع - بأن يجعل في الغبرة جابية كبيرة تجمع ماؤها ليكون قلتين فأكثر ، فلا ينجس ماؤها بملاقاة النجاسة التي تعرض لذلك الماء كثيراً ، فأبى عليه ، وقال : « **شيء مضى عليه السلف الصالحون ولا غيَّروه فلا تغيِّروه ، فاتبعوهم ولا تبتدعوا ، فلستم بأعرف ولا أورع ولا أتقى لله منهم** » ، أي فلهذا كانوا هم القدوة ، ومن اقتدى بهم سلم من الفتنة .

والغبرة : موضع ظلال واسع تحت جبل ، ويصب من أعلى الجبل ماء يسير ، كشخب حليب الضرع ممتد كالخيط ، يقع على حصاة واقفة من الجبل ويسيل منها إلى الأرض ، فيجتمع في حفرة صغيرة يقدِّرها الناظر تملأ كوزاً ، ومع هذا يَكْشت الناس أيام القيظ غالباً إلى هذا الموضع ، ويأخذون من ذلك الماء لطبخ الشربة في قدور كبار ، تأخذ القِدْر نحو سبع قياس الأحساء إلى العشر ، ولا ينقص ذلك الماء اليسير ، ويغسلون في وسطه اللحم بدمه والكروش بما فيها من الرّوث ولا يتغيَّر ، ولا يسع الناس في هذا إلا مذهب الإمام مالك ، وقد مرَّت عليه السلف ولا غيَّروه عن حاله ، وإنما مادته إلا ذلك الذي كشخب الحليب . فأراد المعلم لما شاور سيدنا ، أن يفعل بركة كبيرة يجتمع فيها الماء قلَّتين لئلا تحمل النجاسة على مذهب الإمام الشافعي ، رضي الله عن الإمامين ، فأبى سيدنا على المعلم أن يفعل ذلك - خوفاً من الخلاف - لما مضى عليه السلف ، ونظرهم خير ، وغير نظر غيرهم ، ولو استحسن هذا من يدَّعي العلم والعقل ، فالإقتداء خير من الإبتداع ، كما ردَّ عليه بذلك ، ويسعه ما يسعهم ، والإقتداء بالسعيد سعادة ، ومخالفة طريق أهل الخير توقع في الشر ، فاقتد بهم ولا عليك من بأس .

وسمعته غير مرة يقول : « **قال لنا السيد أبوبكر بافقيه : إن هذه التكابير ما تنبغي ، لأن فيها هتكاً**

للمروءة ، فقلنا له : لا تخوضوا لنا في الأمور التي مرَّت على السلف والأكابر ، والذي لا يُحسِن النظر في الجليَّات ، لا ينبغي أن يخوض في الخفيَّات » .

ثم ذكر قصة الذي قال للنبي ﷺ : « علِّمني من دقائق العلوم .. إلخ » ، ثم قال : « هذا – أي الذي سيذكره من أمر السماية – قد مرَّ على أكابر أيضاً ، وقد قال الشيخ عبدالله العيدروس نفع الله به في سماية مسجده : الدرهم بجوهرة في الجنة ، فلذلك يقصدونها من أماكن بعيدة وبلدان متنزحة ، لأجل ذلك الوعد الشريف منه ، يفعلها الإنسان لنفسه ولمن هو أحب الناس إليه من أولاده ووالديه، ولمن يعز عليه ، بحسن اعتقاد وتصديق بذلك الوعد . يقولون : إنه لما وَعَد بالجوهرة في الجنة ، فهذا منه رضي الله عنه وَعْد بدخول الجنة ، فكل يعمل لذلك ، وكل أحد يطمع في دخول الجنة ، فيقصدوا أن يدفعوا في السماية دراهم لدخول الجنة لأنفسهم ولمن أحبوا من آبائهم وأبنائهم وأقاربهم وأصحابهم أحياءً وأمواتاً ، تصديقاً بوَعْد هذا السيد القطب ، وإيماناً بما قال ، وطمعاً فيما به وَعَد ، ومن رجا الله ما خاب » .

والسماية ليلة ختم المسجد : يجلس جماعة مع نائب المسجد ، ويجلس بدواة وقرطاس ويجمع جماعته، يقول الرجل : « آت فلان درهم » ، إن عنده شيء أعطاه وكتب : « درهم حاضر » ، وإن ما عنده شيء كتب : « درهم في الذمة » ، ويفعل ذلك لنفسه ولمن أراد ، ويسمي الرجال ، وفي النساء يقول : « بعض الناس » ، ويدفع له في رمضان أو بعده ، يجمعون دراهم هي للمؤذن ، وربما ليس للمسجد وقف ، ويقنع بهذا قلَّ أو كثر الدرهم .

قال : « وقد قالت بنت أخِ السيد عمر بن أحمد المنفر له : يا عم ، ترى شيابة يرقصون – وسمى أحداً منهم – فقال لها : عمك ما عاد يقدر ، وإلا كان قام معهم . ومثل هذا هو اللهو واللعب الذي كانوا يتنفَّسون به عند الملل والضجر » .

أي إنه مسموح لهم في ذلك بلا لوم في شرع ولا مروءة ، فلا يخل هذا بالمروءة ، حتى قال سيدنا عبدالله بن مسعود الصحابي رضي الله عنه : « إني لأستَجِمُّ نفسي بشيء من اللهو ، لأستقوي به على الحق » ، فأهم الأمور عند سيدنا الإقتداء بالسلف المذكورين ، في كل أمر من عبادة وعادة ، والسكوت على ما مر عليهم ، وإن استنكره واستبشعه أهل هذا الزمان .

وقد مرَّ أمر السماية على أكابر من السلف آخرهم الشيخ عبدالله ، كما قد قال في سماية مسجده ما وعد به من الجوهرة ، وقال السيد عمر بن أحمد المنفر – وهو من أكابرهم ممن تأخر عن الشيخ عبدالله–

لبنت أخيه ما قال من قوله : « عمك ما عاد يقدر ، وإلا كان قام معهم » ، والسيد عمر المذكور ، جد والد سيدنا عبدالله لأمه ، فأم السيد علوي الحداد - أب الحبيب عبدالله - : سلمى بنت السيد عمر بن أحمد المذكور .

وذَكَر زيارة النبي هود على نبينا وعليه الصلاة والسلام ، فقال : **« كل من رَوَّح ما له زيارة ، لأنه خالف ترتيب السادة وما درجوا عليه ، فكأنه مُراغِم لهم - أي معاند لهم - وما جعل الشيخ أبوبكر بن سالم الحضرة إلا ليجتمع الناس ساعة يذكرون الله ويدعونه ، ويقرأون مولداً لحصول البركة بالإجتماع، ومن سرح بعد ما حضر الحضرة له نصف زيارة ، ومن نفر فله زيارة تامة ، فربما شيء من الأمور الإلهية مرتب على ما رتبه السادة »** .

وذكر شيئاً من فتوح العارفين ، فقال : **« وممن دخل الأربعينية قد يرى لدوران الأفلاك وحركاتها لذة عظيمة ، فربما رأى شيئاً يفزعه ، ومثل هذه الأشياء لا ينبغي تطلبها ، لأن في طلب تحصيلها خطراً، بل الأحسن أن يتركها ، وهي تأتي من حيث هي تكون . وقد أدركنا الناس متعلِّقين بهذه الأشياء ، فيقولون : فلان دخل الأربعينية ، وفلان خرج منها ، وفلان حصل له كذا . وأما اليوم فصار الناس في عالَم آخر ، إنما يقولون : فلان سافر إلى كذا ، وفلان جاء من المكان الفلاني »** هـ .

أقول : يعني إنهم كانوا إنما حديثهم في أمور الدين ، وما حصل لهم من الفتوح ومن حصل له ذلك، وذلك من عام واحد وستين ٦١ ، إلى عام واحد وسبعين ٧١ ، نحو أحد عشر سنة أيام كان - مرابطاً في خلوة مسجد الهجيرة ، هذه المدة كما سمعته يقوله - هو والسيد أحمد الهندوان والسيد محمد مديحج يتردَّدون على السيد عمر العطاس ، يطلبون منه يدعو لهم بالفتوح . وسيدنا أول من فُتِح عليه منهم في تلك المدة ، وفيها كما ذَكَر أول زواج تزوجه بإمرأة عربية من ناحية مسجد الهجيرة ، المسجد الذي كان يتعبد ويختلي في خلوته .

وقوله : « **وممن دخل الأربعينية .. إلخ** » ، من : للتبعيض ، أي لبعضٍ منهم لا كلّهم .

* *

وذَكَر ليلةً الناس وقلة حصول الغيث لهم مع كثرة دعائهم بذلك ، فقال : **« إنما مُنِعوا الإجابة لكثرة ذنوبهم ، والأمر لا يتم إلا بالأمور الخَلْقِيَّة والأمور الحقِّية جميعاً ، وإذا حصلت الأمور التي من الخلق حصلت التي من الحق ، وأمور الخلق أجسام ، وأمور الحق أرواح . فهل تستقيم أجسام بلا أرواح ؟ ولما كان ذلك كذلك ، احتاج الخلق إلى الأكل والشرب ، ولم يحتج إلى ذلك الملائكة »** .

قال : « وذُكِرَ أن سليمان بن داود أرسل بعض الجن – أو قال : بعض الشياطين . ومرة في بعض المجالس ذَكَر ذلك وقال : أرسل عفريتاً – إلى موضع ، وأمر آخر أن يتبعه ، ويسمع كل ما يقول ، ويُعْلمه بذلك ، فمضى معه ولم يسمعه تكلم بشيء ، إلا إنه مَرَّ بسوق وفيها كثرة من الناس ملتهين ببيعهم وشرائهم ، فوقف ورفع رأسه وقال : سبحان الله . ووضعه ، وقال : سبحان الله . فأخبر سليمان بذلك ، فسأله عن ذلك ، فقال : تعجَّبتُ من هؤلاء الفوقيِّين وسرعة ما يكتبون ، ومن هؤلاء التحتيِّين وسرعة ما يملون » .

ثم *قال رضي الله عنه* : « ومن عظيم لطف الله أن جعل الحسنة بعشر أمثالها ، والسيئة بمثلها ، وجعل كاتب الحسنات وكيلاً على الذين يكتبون السيئات ، وهذا من سِرِّ كون رحمته تعالى سبقت غضبه . فانظر حال سليمان عليه السلام ، وما أُعطِي من الوحي والنبوة ، ما عَلِمَ الحال من هذا حتى سأله ، ليعلم أن عِلْم الغيب مختص بالله تعالى ، ومن ادَّعى أنه يعلم الغيب يكذِّبه الله تعالى ، لأنه ادَّعى شيئاً لم يدَّعه الأنبياء ، وكذلك موسى عليه السلام عندما يكلمه الله ، إنما يمضي إلى طور سيناء فيغشيه عند ذلك بالسكينة ، فيعلم خطاب الله ، إلا أن كلام الله له على قدرِهِ ، وليس خطاب الكليم كخطاب الحبيب عليه الصلاة والسلام ، فإن الله كلَّم موسى عليه السلام في الأرض من الشجرة ، وكلَّم نبينا محمد ﷺ في السماء ، بين قاب قوسين أو أدنى . فانظر الفرق بينهما » .

أقول : قوله : « فانظر الفرق بينهما » ، وفي بعض المرات في بعض المجالس ، وذَكَره قال : « فانظر الفرق بين الأمرَيْن الإلهيَّيْن ، لا بين النبيَّيْن » ، وإن كان كلٌّ منهما في منزلة عالية .

وقد تكرر منه هذا الكلام كله مراراً في المجالس ، من قصة النبي موسى والنبي سليمان ، وأمْرُ نبينا ﷺ ، فتكرر نقله مراراً في هذا النَّقْل من مجالسه ، وما أحسن المعنى الذي أشار إليه ابن أبي جمرة ، في شرح حديث : « لا تفضلوني على يونس بن متى » ، قال : « مراده أي في القرب من الله سبحانه ، فإنه قد حصل التفاوت بينهما في الحس ، إذ يونس قد كان في بطن الحوت في أسفل قعر البحر ، ونبينا بقاب قوسين ، ومع ذلك قال ما قال ، فلم يَبْقَ إلا أنهما في موضعَيْهما بالنسبة إلى قربهما منه سبحانه سواء » ، انتهى . أي مع ما للنبي ﷺ من المزية في قربه وحاله ، مما لا يقاربه فيه مخلوق .

قال كاتبه : وقد خطر لي أن النبي ﷺ ، لما كان يتردد إلى ربه لطلب التخفيف من الصلاة ليلة المعراج ، هل هو في كل مرة يرجع إلى موضعه الذي خاطبه الله فيه في فرض الصلاة ، وهو قاب قوسين؟ أو إلى موضع دونه ؟

فرأيت في بعض نُسَخ المعراج ، وغالب نَقْلِه من الصحيحين ، أنه في المرة الأولى رجع إلى الشجرة

- لعلها سدرة المنتهى - فغشيته السكينة ، فخفَّف الله عنه ما خفَّف حينئذ ، ولم يذكر ذلك إلا في أول مرة ، ففهمنا بل علمنا من ذلك أنه في كل مرة كذلك .

والمعنى المراد من ذلك التردد ، الإشارة إلى أنه طلب الله منه التسبب بحركة السعي في طلب ما ينفعه وينفع أمته ، فأرصد الله موسى مذكِّراً له ذلك ومشيراً عليه به ، وإلا فيجوز أن يطلب ذلك وهو في موقفه مع موسى ، أو في أي موضع كان ، مع ما أراد سبحانه من التخفيف عن خَلْقِهِ من هذا القضاء المعلق غير المحتوم ، فلو كان محتوماً ما أراد خلافه ، فخفَّف عن خلقه تحمل مؤنة الخمسين صلاة ، فضلاً منه ورحمة لخلقه ، وكرامة لنبيه ﷺ ، مع ما أراد لموسى عليه السلام من فائدة التذكير منه خاصة دون غيره من الأنبياء ، وذلك حيث لم يحتِّم الخمسين ، وأراد ما أراد من ذلك وغيره ، وإنما حتَّم الخمس ولهذا لم يخفِّفها ، حتى إن في بعض روايات مسلم أنه طلب ذلك منها ولم يحصل .

وذَكَرُوا من بعض معاني تخصيص موسى بذلك دون غيره ، حيث أنه سأل الرؤية فلم تحصل له ، وحصلت لنبينا ﷺ ، حيث إنها في الدنيا له خاصة دون غيره ، ومخصوصة به في الدنيا ، وكان الشوق يُقلِق موسى لذلك ، فقيل له : « تَسَلَّ بمخاطبة الحبيب ، وأَكْثِرِ السؤال منه والخطاب ، لتسعد برؤية من قد رأى » ، كما قيل :

وَأَسْتَنْشِقُ الأَرْوَاحَ مِنْ نَحْوِ أَرْضِكُمْ ... لَعَلِّي أَرَاكُمْ أَوْ أَرَى مَنْ رَآكُمُ
وَأُنْشِدُ مَنْ لاقَيْتُ عَنْكُم عَسَاكُمُ ... تَجُودُونَ لِي بِالعَطْفِ مِنْكُمْ عَسَاكُمُ
فَأَنْتُم حَيَاتِي إِنْ حَيِيتُ وَإِنْ أَمُتْ ... فَيَا حَبَّذَا إِنْ مِتُّ عَبْدُ هَوَاكُمُ

وقد مَرَّ هذا الكلام منه ، مع ما ذَكَرْنَا معه من الكلام والإستشهاد بهذه الأبيات قبل هذا ، ولا بأس بذلك ، ولما قال العفريت : « عجبت من هؤلاء الفوقيِّين وسرعة ما يكتبون ، ومن هؤلاء وسرعة ما يملونه » ، فإنما يكتبون ما يثاب الناس عليه وما يأثمون به ، فناسب أن قال بعد ذلك : « **ومن عظيم لطف الله .. إلخ** » .

* * *

وأشغله يوماً الزوار بكثرة المصافحة ، فأردتُ أن أؤخرهم عنه ، **فقال : « دَعْهُم ، إن هذا منهم حسن ظن ، ومِنَّا حسن خُلُق . وكلٌّ مِنَّا مأمور بذلك ، إلا إن الإنسان لا يبقى على حدِّ الوسط ، بل يجاوزه إلى حدِّ الإفراط أو التفريط ، لأن في طبيعة ابن آدم الميل عن حَدِّ الوسط »** .

وقال بعض الفقراء : « سبق مني شيء من الكلام ، توهَّمتُ أنه وَجَد عليَّ بسبب ذلك » ، لأنه قال

عند ذلك : « **عاد هنا من هو أولى منك بذلك** » .

وقلت له يوماً : يا سيدي ، إنه جاء عن أحد من الصحابة أنه ربما قال للنبي ﷺ شيئاً فغضب عليه السلام حتى عرف الغضب في وجهه ، حتى قال ذلك القائل : « ليتني ما قلت له ذلك » ، أو « وَدِدتُ أني ما قلت له ذلك » ، فهل يضر الصحابة أمثال هذه الأشياء ؟ *فقال رضي الله عنه* : « **أما الذين قالوا له عليه السلام تعنُّتاً ، فكان عاقبتهم أن صاروا منافقين . وأما من قال مثلَ هذا من الأعراب ، فإنه لم يضرهم ، لأن معهم سلامة وقرب عهد بالإسلام . وأما من حصل منه مثل ذلك من أكابر الصحابة، فإن أولئك قوم قد امتلأت قلوبهم إيماناً ، فلا يضرهم ذلك شيئاً . وأنت ميِّز بين طبقات الناس واختلاف الأحوال والمجالس والخطاب ، وبين من امتلأ قلبه من الإيمان . والإنسان ينبغي أن يقف عند حدِّه فلا يتعداه** » هـ .

أقول : أي لأن من تعدَّى حدَّهُ رجع إلى ضده ، وقليلٌ من يقف عند ذلك كما تقدَّم قوله ، لأن في طبيعة ابن آدم الميل عن حدِّ الوسط .

قال ذلك الرجل : « فقلت : وإن لم يعرف الإنسانُ حدَّه ؟ » ، *فقال* : « **فربما مع الإنسان أولاده وأهله وأقرب الناس إليه ، فلا يتعدى عليهم من هو دونهم** » .

قال : « فقلت : أنتم منكم لنا التعليم ، ومِنَّا لكم الإمتثال » ، أو كما قال – وهذا الكلام أنا قد حضرته وسمعته ، وإنما أضفته إلى صاحبه – *فقال* سيدنا لذلك الرجل : « **عليك بالأخلاق ، فإن الأخلاق خير من الـخَلَاق ، ومن حسن خُلُقه يأكل حق الناس ومع ذلك يمدحونه . ومن ساء خُلُقه يأكلون حقه ومع ذلك يذمونه . فانظر الفرق بينهما** » .

وصافحه رجل بشدة حركة وعنف ، *فقال* له : « **اتركوا هذه الشراجة ، ولو نقدر لفعلنا لكم كما تفعلون مرتين ، ودعونا نتمتع بكم وتتمتعون بنا ، والله أعلم بالصادق من الكاذب . وقد قال الشيخ عبدالله بن أبي بكر العيدروس نفع الله به : شم اليد عندي كقطعها ، ولولا الرغبة في طلب الجمعات والجماعات وشريف الأوقات لما خرجنا إليكم ، وخذوا العلم من الكتاب والسُّنة** » هـ .

أقول : قوله : « **قال الشيخ عبدالله** » ، هذا من الكلام الذي نبَّهنا عليه مراراً ، أن لسان حاله هو القائل لذلك كما قاله من أضافه إليه ، وإنما أضاف القول لقائله ستراً للحال .

قوله : « **ولو نقدر .. إلخ** » ، يعني لو فينا قوة لقبضنا بأيديكم في المصافحة أقوى من قبضتكم مرتين ، لا إنَّا نفعل لكم من الشراجة كفعلكم مرتين ، كما قد يتوهَّم السامع لذلك من ظاهر اللفظ ، فلا ينبغي أن يتوهم ذلك . و « **الشراجة** » : الكثافة .

قوله : « **خذوا العلم من الكتاب والسنة** » ، أي تعرفوا الحق والصواب منهما ، فتعرفون الحث الأكيد في طلب المحافظة على الصلوات والجمعات والجماعات ، وحفظ الأوقات بشريف الأذكار والدعوات ، حتى لقد سمعت سيدنا يقول : « **ما ثبت أن النبي ﷺ صلى فريضة من الخمس منفرداً ولا صلاة واحدة** » ، وفي الكتاب ، قال الله تعالى : ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ﴾ ، ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ﴾، وفي السنة ، قال رسول الله ﷺ : « **الصلاة مكيال ، فمن وَفى وفي له ، ومن طفَّف فقد علمتم ما قال الله في المطففين** » ، والتوفية هي الإقامة ، فقد اتفق قول الله في قول الكتاب ، وقول رسول الله في السُّنة، وكل أوامر الله في كتابه مجملة ، وكل أوامر رسول الله ﷺ في سُنَّته مفصَّلة ، ومع ذلك فصَّله العلماء تفصيلاً واسعاً ، وكل ما أجمله الكتاب فصَّلته السُّنة .

مثال ذلك : إن القرآن قال : ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ﴾، وما عَلِمنا بعَدَدِها وعدد ركعاتها وأوقاتها إلا من السُّنة ، وكذلك الزكاة أمر في الكتاب أن تؤتى - أي تؤدَّى - وما عَلِمنا بشروطها ونصابها وما يجب إخراجه إلا من السُّنة ، بل أهلها الذين تدفع إليهم حصرهم في الثمانية الأصناف ، وأخرج عنهم غيرهم في إستحقاقها . فاعلم ذلك من جميع الأحكام ومباني الإسلام ، كما بيَّنه العلماء الأعلام .

وكان سيدنا يتمنى كما قال : « **أود أن أرى رجلاً متبحراً في علم الحديث ، لأسأله عن السبعة عشر الصلاة التي مرَّت على النبي ﷺ في مرض موته كيف صلاها ؟** » ، أي هل صلاها معه أحد أم لا ؟ قال : « **وآخر صلاة صلاها بالجماعة حين ابتدأ به المرض صلاة المغرب ، قرأ فيها بالمرسلات وسورة عم ، وما خرج لهم بعدها حتى توفي** » .

وكان ﷺ من شدة ترغيبه في صلاة الجماعة قال : « **لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد** » ، أي لئلا يصلي في بيته منفرداً ، فإن صلى معه أحد فقد صلى في جماعة ، لكن صلاة فريضة مع جماعة في المسجد تفوق صلاة في البيت بأضعاف ، مع ما يكتب له إذا تجرَّدت نيَّته للصلاة ، بكل خطوة تُمحى عنه سيئة وتكتب له حسنة وتُرفع له درجة . وأكثر الناس جهال لا يعلمون التفاوت بين صلاة الجماعة وصلاة الإنفراد ، ولهذا لا يبالون إن صلوا جماعة أو فرادى ، فإن علموا مع ذلك فهو من ضعف الدين ، وإلا فكيف يرضى بواحد عن سبع وعشرين ، لما في السُّنة : « **إن صلاة الجماعة تفضل على صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة** » .

وَمَثَّل الأكابر لذلك - كالإمام الغزالي - لمن يشتري متاعاً بدينار ، ثم يبيعه بسبع وعشرين ديناراً . فأي فائدة أعظم من هذه ؟ فإن قنع عن ذلك برأس ماله دينار واحد ، فأي غبن أشد من هذا ؟ حيث يمكنه ذلك الأكثر ، وقنع عنه بذلك الأقل ، فأي فائدة له في طلب العلم إذا فوت ذلك ؟

وحضر بين يديه ذات ليلة رجل فبكى ، وكأنه متشمّم لشيء ، فقال له : « البكاء إنما هو للنسوان ، والرجال إنما تبكي قلوبهم ، والأحوال لا تحصل بالبكاء إنما تحصل بالمجاهدة » .

ثم قال مخاطباً لجملة الحاضرين : « لا بُدَّ للأولياء من إحدى خصلتين : فمنهم من يحفر على كنز ، ومنهم من تتعلق روحه بالعرش . لا بد من إحدى هذين ، ومن الأولياء من لا يحمل حاله إلا أربعون رجلاً ، ومنهم من يُقَسَّم حاله على ستين » هـ .

أقول : وكأنه يشير بذلك إلى حالة نفسه ، فإنه قال مراراً : « عندنا أمانة لا يحملها إلا المهدي » ، ومراراً قال : « أو أربعون من أصحابنا » ، وغير مرة قال : « أو ستون » ، ففهمنا هنا معنى الأمانة التي قال . وقدَّمنا قوله : « عندنا أمانة » ، وأوَّلنا معناها هناك أنها مقام القطبية ، ومقام الدعوة إلى الله ، وهو مقام النبي ﷺ ، ومن أُقِيمَ فيه فهو نائب عن النبي ﷺ ، ولا يقوم بأعبائه من كل وجوهه بعد سيدنا عبدالله إلا المهدي ، ولذلك قال : « لا يحملها إلا المهدي » .

ثم ذكر هنا ما هو أعم من ذلك ، أنه حال أكمل الأولياء ، لا يحمله إلا أربعون وقد يقسم على ستين ، وهذا أشمل مما أوَّلنا ، فيدخل فيه ما قلَّ وكثر .

ثم قال سيدنا لذلك الرجل الباكي : « إبْقَ على حالك ، وهو يأتيك نصيبك من الكتاب » هـ .

أقول : يعني نصيبك المكتوب لك ، وقوله : « إبْقَ على حالك » ، أي من كمال المحبة والعقيدة وقوة الرجاء من الله لحصول ما رجوتَ وأمَّلتَ هـ .

قال رضي الله عنه : « **الشيخ أبو يعزى المغربي والشيخ أحمد البدوي في المقام الموسوي ، أعني عليهما هيبة وجلالة ، حتى إن الشيخ أبا مدين لما أتى إلى الشيخ أبي يعزى ليأخذ منه الطريقة ، بمجرد رؤيته له غشي بصره ، وهذا معنى كون الولي في مقام النبي ، فيكون مشابهاً له في الدرجة الأولى ، وإلا فلا يقام الأولياء في مقام الأنبياء ، وأكملهم من يقام في المقام المحمدي ، ويكون كرامة كل ولي مثل معجزة ذلك النبي ، وأعظم معجزة لنبينا ﷺ القرآن ، فمن كان في مقامه فيكون قائماً على حُكْم الكتاب** » هـ .

أقول : فكأنَّ مراده بقوله : « في مقامه » ، أي فيه شيء من وَصْفه الظاهر ، فكما كان حال سيدنا موسى عليه السلام الظاهر عليه الجلال ، حتى إنه إذا غضب تقف كل شعرة في بدنه حتى تخرج من ثوبه كالإبر . وهذان الشيخان المذكوران : « **أبو يعزى المغربي ، والشيخ أحمد البدوي** » ، فيهما شيء من هذا الوصف الجلالي ، ولهما منه نصيب وافر ، فلذلك قال سيدنا فيهما ما قال ، بل تسع اللغة أبلغ من ذلك، حتى يسمى المتَّصِف بإسم الموصوف بذلك ، كما يقال للشجاع من الرجال : أسد ، لأن الشجاعة وصف لازِم للأسد ، فيسمى الآدمي بوَصْف ذلك الحيوان ، من أجل أن فيه شيئاً من وَصْفه. وهذا وأمثاله من توسعات اللغة العربية ، كما تقدَّم تفصيله في وَصْفِ من قصر عن درجة الإنسانية ، وسُمِّي باسم بعض الحيوانات لمشاركته له في وَصْفه ، محموداً كان كالأسد في الشجاعة ، أو مذموماً كالكلب إذا شاركه في وصفه من كثرة الأكل ، ويشهد لهذا المعنى من قوله هنا حديث : « لله في أرضه ثلاثمائة، قلوبهم على قلب آدم ، وأربعون قلوبهم على قلب موسى ، وله سبعة قلوبهم على قلب إبراهيم ، وله خمسة قلوبهم على قلب جبريل ، وله ثلاثة قلوبهم على قلب ميكائيل ، وله واحد قلبه على قلب إسرافيل، فإذا مات الواحد ، جعل الله مكانه من الثلاثة .. » إلى آخر الحديث .

ويُبْدَل كلٌّ ممن ذَكَر قبله ، فإذا مات من الثلاثمائة ، جعل الله مكانه من العامة ، بهم يدفع الله البلاء عن هذه الأمة ، وما صار كل نبي على قلب مَلَك ، أو ولي على قلب نبي أو مَلَك ، إلا لما جعل الله فيه شيئاً من وَصْفِه على الوجه والمعنى الذي ذَكَر سيدنا ، ولا يعلم حِكْمَته سبحانه في ذلك إلا هو .

وقد ذكر الشيخ عبدالقادر باعشن - من أهل الرباط من دوعن - لسيدنا رؤيا رآها ، وذَكَرها في كتابٍ أرسله له ، قال : إنه رأى كأنه زار بعض الفضلاء ، فرآه متغشياً بغشاء ، وإنه كلمه أولاً ثم فتح غشاه ، فَغَشَاه به ، فَغَشِيه عند ذلك نور عظيم حتى إنه لا يطيق فتح عينيه ، فانتبه وفي قلبه حلاوة لقائه ، فقال سيدنا في جوابه : « **والرجل هذا يكون في المقام الموسوي ، لأن النور الظاهر كان يغلب على موسى عليه السلام ، حتى إنه بعد رجوعه من المناجاة يتبرقع من شدة نوره ، وقد أقيم في هذا المقام السيد الشريف أحمد البدوي شيخ مصر** » ، انتهى . فافهم قوله : « **أقيم** » كما تقدَّم تفصيله هـ .

قال رضي الله عنه : « ما تُعرف الرجال إلا بالرجال » ، حتى قال : « ذَكَر باهارون - أظنه قال : علي باهارون - : لو سمعت كرامات الأولياء ما صدَّقت بها ، حتى رأيت كرامات خالي دحيم باهارون ، فعرفت كراماته فصدَّقت بها من سائر الأولياء . وكان الشيخ أحمد باجحدب يقول : إن دحيم باهارون في مقام الجنيد » هـ .

أقول : الشاهد في هذا الذي ذَكَره عن الشيخ أحمد باجحدب ، قوله : « ما يعرف الرجال إلا الرجال » ، فانظر وتعجب كيف عرف الشيخ أحمد بن علوي باجحدب أن الشيخ دحيم باهارون في مقام الجنيد ، فيدل على أنه عرف مقام الجنيد ، وعرف أنه فيه . وفي هذا دلالة على أن الشيخ أحمد باجحدب بلغ مقام الجنيد وتعداه ، فإنه ما يعرف مقام الولي إلا من بلغه وتعداه ، وإلا فقد يعرف المقام من هو فيه ، ولكن لا يعرفه من كل الوجوه إلا من أحكمه ثم تعدَّاه ، بدليل قول الشيخ أبي الغيث بن جميل لما سئل عن الثلاثة الأشخاص الذين كانوا في تريم ، من جملتهم سيدنا علوي بن الفقيه ، فقال: « أما علوي فما بلغنا مقامه حتى نَصِفَهُ » ، فدلَّ قوله على أنه دون مقامه ، وأنه ما يعرف المقام إلا من بلغه أو تعدَّاه هـ .

وهنا فائدة ينبغي التنبيه عليها : وهو أن أكابر السادة ، قلَّ ما يُذكرون إلا بالمشيخة ، فيقال : الشيخ فلان . كما ترى في سياق كلام سيدنا عبدالله ، كما قال هنا : « كان الشيخ أحمد باجحدب » ، وغيره ، ولا يُذكرون بالسيادة ، فيقال : السيد فلان . فاعلم أن الرجل من الأكابر إذا ذُكِرَ إنما يذكر بالموهبة التي حصلت له من الله ، وبالعناية التي خصَّه الله بها حتى فاق غيره ، ويكون في ذِكْرِه بذلك ترفيعاً لحظه وتشريفاً لِقَدْره ، فذِكْره بذلك أولى من ذِكْرِه بغير ذلك .

فالسيادة خِلْقة جِبِلِّيَّة ومجرد خصوصية ، لا مدخل له في ذلك ، ولو أنه له بذلك غاية الرفعة ، على من لم يكن شريفاً ، وأما المشيخة فهي مجرد وهب وخصوصية من الله وعناية منه له بتوفيقه من أجل ذلك للأعمال الصالحة الخالصة ، والأخلاق الكريمة الحسنة ، فبلَّغه الله بذلك إلى أعلى المقامات وكريم العطيات ، فإذا ذُكِرَ بذلك كان أبلغ في التنويه بقدره من ذِكْرِه بالنسب ، ولو فيه أيضاً شرف وعلو ، لكن إذا ذُكِرَ بالمواهب والعطيات كان جامعاً للوجهَيْن إن كان شريف النسب ، وإن كان غير شريف نسب فإنما نوه به وشرف بِذِكْرِه المواهب الإلهية فقط .

وانجرَّ بنا هذا الكلام كله من قول سيدنا : « ما تعرف الرجال إلا بالرجال » ، وقد قال : « الكلام شجون يجر بعضه بعضاً » هـ .

❊ ❊ ❊

قال رضي الله عنه : « الناس يجعلون الصالحين حُجَّة لهم على أنفسهم ، وأهل الزمان يجعلون الصالحين حُجَّة لأنفسهم للذبِّ عن دنياهم ، فيطلبوا منهم أن يذبوا لهم عنها » .

أي يريدونهم يبذلون جاههم عند الحكام إذا أرادوا يظلمونهم ويأخذون من مالهم ، فإذا تعرَّض لهم الصالحون كفُّوا عن ظلمهم ، وتركوا ما أرادوا أخذه منهم ، فتوفرت لهم دنياهم ، فأرادوا الصالحين لمجرد ذبِّهم ، وهذا هو حظهم منهم . وقد كان الناس - يعني أهل الزمان المتقدم - يحتجُّون بالصالحين على أنفسهم ، فإذا رأوا سماحتهم بالدنيا وعدم مبالاتهم بها ، قاموا على أنفسهم أن تكون كذلك مثلهم، أو رأوهم همهم ما يقربهم إلى الله ومجتهدين في العمل بذلك ، ثاروا على أنفسهم بأن تكون هكذا ، واقتدوا بهم في الأعمال والأحوال، فهؤلاء هم الذين انتفعوا بالصالحين ، حجة وقدوة لهم ، وأما الآخرون فهم حُجَّة عليهم ، حيث ما انتفعوا بهم ، ولا نالتهم بركتهم .

وقال لسيدنا بعض السادة : « إن كل ما نُقِلَ عنكم من مصنَّف أو كلام ، نُقِلَ على وجهه من غير اختلاف في ذلك » ، **فقال رضي الله عنه : « لأن صاحب الزمان ينطقه الله بما يوافق أهل زمانه ، يباشرونه ويرونه ويأخذون عنه مشافهة ، لا كمن يُنْقَل عنه ويُرْوَى . وقد مضى أقوام من المشايخ أكبر وأقدم مِنَّا ما انتفع بهم إلا القليل ، ومن أقاربهم أيضاً فضلاً عن غيرهم ، حتى إن الشيخ عبدالله العيدروس مع مناداته على نفسه ، ما اشتُهر ممن أخذ عنه إلا السيد عمر صاحب الحمراء ، وكذلك الشيخ أبو بكر بن سالم ، مع أنه متأخر ، ما أحد » ﻫ .**

أقول : قوله : « لأن صاحب الزمان .. إلخ » ، يعني عالم كل زمان كما ورد : « إن الله ينطق علماء كل زمان بما يوافق أهل زمانهم » .

وقد تَحدُث في بعض الأزمنة أمور لا تُعرف من قبل ولا يُدرى ما حكمها ، فيلهم الله علماء الوقت لها دليلاً يردها إلى أحد الأحكام الشرعية الخمسة ، إما فهموه من الكتاب أو السُّنة ، أو يرونه مشابهاً لبعض الأشياء التي فيها دليل ، فيلبسوه عليه في الحكم ، كما فهموا من شأن الخنزير أنه أسوأ من الكلب ، فردوه إلى حُكْمِهِ في النجاسة . وربما لم يكن له نظير ، ولا فيه دليل ، ففهموا حُكْمه من مقتضى الحال ، فأجروا الحكم عليه ، ولو فهم آخرون خلاف ذلك ، وأجروه على خلاف ذلك الحكم ، فتبين للعلماء ترجيح أحد القولين كالقهوة لما اشتهرت ، وليس لها دليل يبيِّن حُكْمها ، حتى تجنَّبها أناس كثير ، عامتهم من أهل المغرب ، لكن لما كان فيها معونة على قيام الليل ، وابتدأها لأجل ذلك أناس صالحون ، فاقتضى الحال تحليلها ، ورجع إليه كثير ممن قال بتحريمها ، منهم السيد عمر المغربي ، وكان

جلالي الحال ، إذا أنكر شيئاً لا يبالي بمن يتعاطاه ، ولو كان جليل القدر ، فينكره ويشنع عليه جدًّا .

حتى إنه مرَّ على الشحر مقبلاً من اليمن ، فسمع بالشيخ أحمد بن ناصر - أحد مشايخ سيدنا عبدالله ، وكان من آل الشيخ أبي بكر بن سالم - فمرَّ عليه يزوره ، فأمر له بقهوة ، ثم صبَّ له في الفنجان بيده إكراماً له ، ومده له ، فرده عليه وأنكر عليه ، وتكلم عليه بكلام فاحش في الإنكار ، بمقتضى طبيعته الحارة طبيعة المغاربة . فأخذ السيد أحمد الفنجان من يده وشربه ، وما ردَّ عليه كلاماً ، ثم ملاه في مرة أخرى ، ثم وضعه على الأرض ، فسار الفنجان يجري على الأرض إلى عند السيد عمر ، فقال له السيد أحمد : « خذ الفنجان واشربه » ، فأخذه وشربه ، لأنه لما رأى هذه الكرامة العظيمة ، ما أمكنه يخالف، ثم قال له السيد أحمد : « أسقيناك القهوة ، وزوجناك بنجدية » ، يعني بإمرأه من أهل نجد . ثم بعد ذلك كان له دلَّتان للقهوة ، واحدة تُصَب له ، وواحدة على النار تُطبَخ له ، فيشربها بعدها ، وتزوج بإمرأة نجدية جاءت له ببنت اسمها : « المشتري » ، أدركت حياتها ، وكانت لها صيت ، وللناس فيها عقيدة تامة ، وتوفت منذ نحو عشر سنين . أخبرني بذلك ابن بنته السيد عمر بن السيد محمد المغربي من المازون .

أحببت أن أذكر هذه القصة لما فيها من تلك الكرامة للسيد أحمد المذكور ، وذِكْر وَصْف من لا تأخذه في الله لومة لائم ، وذِكْر الجلال الذي كان عليه سيدنا موسى عليه السلام ، وفي الشيخين المتقدِّمَيْن المشبَّهَيْن له بما لكل منهما من النصيب من هذا الوصف ، حتى قيل فيهما أنهما في المقام الموسوي، لأجل ما لهما من ذاك النصيب .

قوله : « **حتى إن الشيخ عبدالله العيدروس ، مع مناداته على نفسه .. الخ** » ، يعني إن الشيخ عبدالله كان يقف في محضر للوعظ كالشيخ عبدالقادر ، فينادي الشيخ عبدالله يقول : « يا غلام ، سر إلى عندي، اسمع مني ما أقول ، اسمع مني كلمة ، واحفظ عني موعظة ، كلمة أنا قائلها ثلاثاً ، وهي من سوابق القَدَر على لسان المتكلم : أن كل من اتبع نصيحتي هُدِي ، ومن لم يتبعها صار في ضلال مبين ، وإني ما أردت أن أتكلم بها إلا إني ما خُلِّيت ، وإنها خرجت عليَّ رغم أنفي ، وإن الأولين غصبوني على إخراجها » ، هذا كلامه ، ونحو ذلك الذي أشار سيدنا إليه .

قوله : « **الشيخ أبوبكر بن سالم مع أنه متأخر ، ما أحد** » ، أي ما أحد اشتهر أنه أخذ عنه ، وهذا من حيث الشهرة ، وأما الإنتفاع فقد انتُفِع بهم .

وسمعت سيدنا مراراً كثيرة قال : « **الذين انتفعوا بنا ، أكثر من الذين انتفعوا بالمشايخ ممن قبلنا** » ، يعني حتى من تلك الوجوه التي ذَكَرْنَاها فيما تقدَّم ، من الإمدادات بالطعام وغيره ، عند قوله : « **لو يعلم الناس ما في طعامنا ، لاستبقوا عليه وسارعوا إليه** » ، وقوله : « **الناس اليوم لا يحتملون شيئاً، لكنا**

نجعله لهم في الطعام » ، يعني المدد . وقوله : « لا يحتملون » ، أي ما فيهم أهلية له ، لا بعمل ولا بنية، ولا يقع في بالهم ، لكن ما نتركهم وهم على حالهم هذه يخيبون بلا شيء ، حتى نجعله لهم في الطعام الذي هو همهم ، فيأكلونه بلا نية منهم ، فينتفعون وما يشعرون .

ومرة قال : « وهؤلاء الذين يأتون بلا نية ما يخيبون » ، ومرة قال : « ومن ربيناه يفوق غيره ، لأنا نربِّيه تربية لا يشعر بها » ، ومثل هذا يصدر منه كثير ، مما يزيد به رجاء الراجين .

ولما قال : « الذين انتفعوا بنا أكثر ممن انتفع بالمشايخ قبلنا ، ولا اشتهر أحد أخذ عنهم » ، قلت : ولا أولادهم ؟ ، *فقال* : « ما عليك ، أما في الأولاد فيتبعون لا عذر لهم ولو في غير الحق ، لأجل القرابة، ألا ترى إلى بني هاشم وبني المطلب كيف حبسوا أنفسهم مع النبي ﷺ في الشعب ، ولو حارب أحداً قاموا معه ، وهم مع ذلك على الكفر ، كل ذلك بسبب القرابة ، فاتباع الأولاد ونحوهم ما يُستكثر ، فما الذي منع أن لا يكون نحو العشرين من آل باعلوي أخذوا عن الشيخ عبدالله أقل الحال » .

ومرة ذكر مثل هذا الكلام والمادة ، *ثم قال* : « ولو جلس مثلاً رجل من غير الأشراف للتدريس من آل بافضل أو غيرهم ، لما استنكف الأشراف من الحضور عنده » .

قلت : فلم كثر اللابسون والآخذون عن المعلم باجابر لما دخل تريم في مدة ثلاثة أيام ، فأخذوا عنه ما لم يأخذوا عن الأشراف ؟ ، *فقال* : « لأنه دخل بإشارة شيخ البلاد وبالضمانة ، الشيخ أحمد باجحدب وضمن له اثنين : أحدهما من أهل الباطن ، وهو الشيخ أحمد بن الحسين العيدروس ، والثاني: من أهل الظاهر ، وهو الشيخ محمد بن حسن بن الشيخ علي . وكان هو كافٍ عنهما ، ولكن ضمنهما زيادة في طمأنينة خاطره » .

أقول : يعني بشيخ البلاد الشيخ أحمد بن علوي باجحدب ، لأنه الظاهر المتقدِّم في وقته ، كالشيخ عمر المحضار في وقته ، لأن السادة آل باعلوي لهم في كل وقت شيخ منهم ظاهر مقدَّم ، وأكثرهم خاملون يُجمِعون على تقديمه ، فيظهر ويخملون ولو فيهم في الفضل والحال مثله ، كما قالوا : « إن في وقت الشيخ عمر المحضار أربعون ، من خلفه عشرون وأمامه عشرون ، قدَّموه كلهم ، فظهر وخملوا»، ومعنى خلفه وأمامه : أي الذين خلفه خملوا جداً ، والذين أمامه لهم بعض ظهور لا كظهوره، فإن الظهور نصيب مقسوم ، يظهر بَقَدَرِهِ . والذي له منه حظ وافر يُقَدَّم ، فهؤلاء الأربعون كلهم في مقامه، لكنهم قدَّموه لوفور نصيبه من الظهور ، وخملوا لعدم نصيبهم منه ، فقد يكون القطب الذي هو في مقام الدعوة لا نصيب له منه ، فيستنيب من له منه أوفر حظ ونصيب ينوب عنه ، فإذا قدَّموا

واحداً ظهر وخملوا ، وأمدوه بالدعاء والحال ، ويكون هو المستشار في الأمور والمستأذن فيها ، والذي إليه المرجع في الرأي ، وكلهم يرجعون إلى رأيه وقوله ، ولا أحد يخالفه في أمر ، ومن خالفه يرى غِبَّ خلافه ما يكره . وكانوا أولئك المتقدمون يوم كان الزمان صالحاً ، متبينين ومعروفين ، ولما فسد الزمان ما تبيَّنوا وما عُرفوا ، ولو تبيَّن منهم أحد ، ما انقاد له أحد ، وخالفه الكل أو الأكثر . وكان سيدنا آخرهم تقدُّماً وظهوراً ، ونرجو أن لا ينزع الله السر من أهله .

قوله : « **وبالضمانة** » ، يعني إنه أَذِنَ له ، ومع إذْنِهِ ضَمِنَ له اثنين من السادة ، وذلك أن المعلم باجابر كان تلميذاً لسيدنا الشيخ أحمد بن علوي باجحدب - وهو من أهل بلاد عندل من جهة الكسر من حضرموت ، بين بلديهما مسيرة نحو ثلاثة أيام - فتاقت نفسه إلى تريم ، لزيارة من فيها من أكابر الصالحين ، ولكنه خاف من سلب أهل الباطن أهل الأحوال ، ومن إنكار أهل الظاهر ، لأن في تريم كثير من أهل الأحوال ، لا يأتيهم غريب من أهل الأحوال بلا رخصة المتقدِّم منهم إلا سلبوه ، حتى إن الغريب إذا وصل حد أعمال تريم وقف هناك ، وأرسل إلى المتقدِّم يستأذنه ، فإذا أَذِنَ دخلها ولا خوف عليه من سلب ولا إنكار ، فلما أذن له ضمن له أيضاً اثنين زيادة في تطمين خاطره : الشيخ أحمد بن الحسين العيدروس ، من أهل الأحوال أهل الباطن ، والسيد محمد بن حسن بن الشيخ علي بن أبي بكر ، من أهل الظاهر . وهو يعلم أنه إذا أذن له فلا خوف عليه من أمر يخافه ، لكن ذلك زيادة ، فأمره أن يدخل البلد ، ويقصد إلى مسجد بروم ، ويجلس فيه ثلاثة أيام لا يزيد عليها ولا يتعدَّاه ، وضمنها تطميناً لخاطره وتأميناً لخوفه ، لأن الشيخ أحمد بن الحسين هو مقدَّم أهل الباطن ، فلا يتعرَّض له معه أحد منهم ، والسيد محمد بن حسن مقدَّم أهل الظاهر ، فلا يتقدَّم معه عليه منهم أحد ، والشيخ باجحدب المتقدِّم على الكل .

وأهل الأحوال لا بد ما يصدر منهم ما ينكره ويستنكره أهل الظاهر وينكرونه ، فمكث في ذلك المسجد الثلاثة الأيام ، وجاءه في تلك المدة من أراد هو زيارتهم من الأحياء ، حيث علموا أن الشيخ أحمد هو الذي أمره بالجلوس في المسجد ، وزار أهل التربة في مروره مقبلاً وراجعاً ، وأخذ عنه كثير ممن أخذ ، ولبس منه ممن لبس كثير ، وتزاحموا عليه لذلك تزاحماً مفرطاً ، ثم عند تمام المدة خرج مسرعاً بلا مهلة هـ .

قال سيدنا : « وأهل الزمان إنما هم على التشبه والرسوم ، ومن تشبَّه ولا معه شيء من الدعاوي الكاذبة فهو على خير ، والأشياء التي تذكر عن الأولين قد طُوِيَت - أي زالت - إلا إن كان في الزمان خبايا . ولله تعالى أخلاف ما زال الدين قائماً والبيت قائماً لا بد منهم ، ولو إنهم حتى في القفار ، ما

ترى هنا ، القرآن يرفع والدين يرفع ، فهذه مع البقايا وإن اختفوا ، وما المؤمنون إلا سابق ومسبوق ، والمؤمنون على خير ، من لَقِيَ الله مؤمناً دخل الجنة ، أو عليه شيء من الذنوب أدخله الله النار بقدر ذنوبه ليطهره . والناس بالنسبة إلى الله أهل تقصير كثير ، وإن فعلوا ما فعلوا . فإذا كان النبي ﷺ يعترف ، فكيف بغيره ؟ وأنت اعبد الله بقدر ما عندك من العلم والنور ، واترك الإغترار والتعلق بصالحين قد مضوا ، كما يفعله كثيرون ، فالذين اعتمدوا عليهم لأي شيء لم يتركوا العمل ، كأنهم يظنون في أنفسهم أنهم خير منهم ، فإنهم لم يبلغوا ما بلغوا إلا بالعمل ، وهؤلاء يريدون أن يبلغوا بلا عمل » .

ثم قال يخاطب رجلاً من الحاضرين : « **والإنسان ينهى ولا ينأى ، بل إذا نُهيت وهناك خير الزَّمْهُ، إلا من يَرُدَّ الدين ، أو يعترض على أهل الدين ، فلا تخض فيه بل اتركه ، فإنه كالذي يريد أن يرمح . ومن الناس من لا يمكنك أن تجذبه إلى الخير إلا بترغيب في الرئاسة ، بأن تقول له : أنت فلان ، ومن رآك تفعل هذا سقطت من عينه ، أو إن لم تفعل كذا استحقرك الناس** » .

فقال ذلك الرجل : « لا تروا علينا ، فإن السكوت عن هذا أقرب إلى الأدب » ، *قال* : « **لا بأس بذلك ، فإنك تُحيِي المذاكرة وأنت كالصائد ، ونحن ما نحابي - أي نراعي - إذا كان المجلس وقت فسحة ويَحسُن ذلك تكلمنا ، وإلا قلنا له : اترك الكلام إلى وقت آخر** » هـ .

أقول : قوله : « **على التشبه والرسوم** » ، يعني يفعلون الأمور الظاهرة ، فيشبهونهم حيث مشوا على رسومهم الظاهرة ، وبينهم في الباطن بَوْن بعيد ، وهم يعتقدون في أنفسهم أنهم مثلهم ، وأن لهم ما وعد الله ورسوله على تلك الأعمال مثل ما لهم . وهيهات بينهم ، ومع ما فيهم من النقص - إن سلموا مما تمنيهم به نفوسهم من الدعاوي الكاذبة بسبب ما يرون من كمالهم - فهم على خير ، أي على سلامة من الشر ، مع قصورهم عن بلوغ الخير الموعود على ذلك العمل .

قوله : « **قد طويت** » ، أي زالت ، يعني ما يذكر عن الأولين من الأعمال الصالحة التي على قانون الشرع ، مع النيات الخالصة الموعود بالمواعيد الحسنة عليها .

فقد أضاع أهل الزمان النيات الباطنة المشروطة لحصول المواعيد ، وتشبثوا بظواهر الأعمال ، ثم هم مع ذلك اغتروا وطمعوا فيما طمع فيه أهل النيات الخالصة ، التي قال الله فيها لما خاطب خلقه فيما أنزل لهم في كتابه على لسان نبيه : ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ .

وما صدق على بعض الأحكام صدق على الكل ، بدليل قوله ﷺ : « **إنما الأعمال بالنيات** » ، فحصرت أداة الحصر جميع الأعمال في النيات ، لا يصلح عمل إلا بنية خالصة لله ، فكيف مع تغييرهم نية العمل عما وضعت عليه ، يطمعون في المشروط عليها ، وذلك أن النبي ﷺ قال : « **من توضأ في بيته**

ثم مضى إلى المسجد لا ينهزه إلا الصلاة ، فله بكل خطوة يخطوها ، تمحى عنه سيئة وتكتب له حسنة، وترفع له درجة » ، فانظر قول رسول الله ﷺ : « لا ينهزه إلا الصلاة » ، يعني لا ينهضه ويقومه إلى المضي إلى المسجد إلا الصلاة ، وأنت عكستَ هذا الشرط وأبدلته بغيره من أطماع الدنيا ، وأنت ترجو ما شرط عليه من محو السيئة وكتب الحسنة ورفع الدرجة ، وقد أبدلت قوله : « لا ينهزه إلا الصلاة »، فصرت لا ينهزك إلا الطمع في الوظيفة ، أو الطمع في الأجرة على الصلاة .

فقد صح قول سيدنا وصدق في هذا المعنى ، حيث قال في هذا الزمان : « **انعكست الأمور عن أوضاعها ورجعت إلى أضدادها** » ، وهذه الكلمة صدقت في معانٍ كثيرة ، من عبادات وعادات ومروءات وأحكام ، فكيف تطمع في المشروط وقد ضيَّعت الشرط ، ولم يَبْقَ لك حُجَّة إلا قولك : « فضل الله واسع ، ورحمته وسعت كل شيء ، وليس ببعيد في فضله أن يعطيني ما وعد على ذلك العمل، مع ردى نيتي » ، فأنت قد تركت الشرط ورجوت ، والرجاء مع ترك الشرط سوء أدب مع الرب ، فمع إساءتك كيف ترجو ، وقد قال الله سبحانه : ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ؟ فأحسن وارْجُ ، فإن الله ما قال : إن رحمة الله قريب من المسيئين ، إنما قال : ﴿مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، وأما المسيء فإنما يستحق العقوبة لا المثوبة . وما راح بالناس اليوم إلا رِكَّتهم في العلم ، وعدم إمعانهم فيه وتمكُّنهم منه ، فإن صحبه مع ذلك عدم التقوى فلا تعده رجلاً ، فيقع في الأمور المنكرة ، ومع ذلك يحاجج ، وإلا فكيف تكون هذه الأمور الفاسدة والبدع القبيحة تغلب في قلب المؤمن أمور الدين المؤسسة في الكتاب والسُّنة .

فإن أخذ الأطماع الدنيوية على الأمور الدينية من الأمور الحادثة والبدع القبيحة ، ولكن حيث لم يروا دليلاً يردها إلى أحد الأحكام الخمسة ، سكتوا عن إضافتها إلى أحدها ، فإن بالضرورة من الدين معلوم أن العبادات لم تشرع إلا للتقرب بها إلى الله ، كما قال تعالى في الحديث القدسي : « ما تقرَّب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضت عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه » ، فإذا كان الأمر كذلك ، فكيف تجعل وسيلة إلى طلب الدنيا ؟ إن هذا الشيء يضج منه العرش والكرسي والملائكة والسماوات والأرض ، وإن الذي يصلي بالناس مع تلك النية الفاسدة لجدير بالعقوبة من الله لا المثوبة ، وإن الذي يصلي خلفهم مع علمه بفساد نيتهم لجدير ببطلان صلاته ، أو أن لا تقبل منه .

وياللعجب كل الناس يعلمون ويعتقدون أن قولنا هذا هو الحق من ربهم وأنه الصواب ، ولكن لما كان خلاف ما أَلِفُوه ، وعكس ما تركَّبَت عليه أحوالهم ، صار تنفر منه طباعهم وتمجّه أسماعهم ، وتنكره قلوبهم ، فالعادة طبيعة خامسة ، وأنت مَيِّز بعقلك أنه لو سئل رجل معه مسكة عقل ، ولو لم يكن متمسكاً بالدين : أيما أفضل ، عمل مقرون بنية خالصة لله ، أو عمل مقرون بنية طمع دنيا ؟ ماذا

يجيب ؟ والله إنما يجيب : أن الذي لله أفضل وأنفع عند الله . وإنما الهوى ومحبة طمع الدنيا غطى على العقول ، حتى أخرجهم عن دياناتهم وفوتهم المحصول ، وأوقعهم في أوهام لا طائل تحتها ، وأعمال كسراب يحسبونها شيئاً ، وحتى إذا جاؤوها في وقت شدة حاجتهم إليها لم يجدوها شيئاً ، فلا يلوموا إلا أنفسهم ، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾. فلا ينبغي للمتدين الأواه الطامع في فضل مولاه ، أن لا يكون إنما تحرّكه إلى فعل العبادات الدينيات إلا الأطماع الدنيويات ، فقبيح يقبح جدًّا من كان هذا شأنه ومعاملته مع ربه ، نعوذ بالله من الإنعكاس، كما قال سيدنا : « **من تحرِّكه الرغبات الدنيوية ، لم يكن للرغبات الأخروية أهلاً** » ، وقد ذَكَرْنا فيما تقدَّم عند ذِكْر هذه الكلمة كثيراً من الإستشهادات والدلائل المهمات من الكتاب والسُّنة وأقوال الأئمة شيئاً كثيراً ، فانظره إن أردته ترى العجب مما لم يخطر في بالك ، حيث إنك لم تخالط إلا أهل وقتك ، ولا عرفت من خواص الدين وأسراره إلا ما رأيتهم عليه .

ولكن مع شدة هذا الفساد في الدين لا تخلو هذه الأمة من الخير ، كما قال : « **في الزمان خبايا ، ولله تعالى أخلاف ما زال الدين قائماً** » ، يعني أناس مخبيين مخفيين ، يخلفون من كان ظاهراً بالحق ، لما كان الوقت صالحاً ، فلما فسد أخفاهم الله ، وقال النبي ﷺ : « لا تزال طائفة من أمتي قائمين على الحق لا يضرهم من ناوأهم ، حتى يأتي أمر الله ، حتى إنهم ليقاتلون المسيح الدجال » ، وقال سيدنا علي كرم الله وجهه : « اللهم لا تخلو الأرض من قائم لله بحُجَّة » ، ولو لم يكن في الأمة كلها إلا رجل واحد قائم على الحق ، لصَدَق عليها أنها ما خلت من الخير ، فإن النهي عن المنكر والأمر بالمعروف من فروض الكفايات ، فلو لم يقم به إلا واحد ، سقط به الفرض عن كافة الأمة .

قوله : « **والبيت قائماً** » ، يعني بيت السادة آل باعلوي ، بل جميع أهل البيت النبوي ، ويُستَروَح من كلمته هذه : أن ما ذَكَر من البقايا والخفايا والأخلاف ، بل الطائفة المذكورة في الحديث القائمة على الحق ، على أنهم كلهم من أهل البيت النبوي وأتباعهم ، جعلنا الله منهم بالإفضال والمحبة . وأكَّد المعنى المذكور بقوله : « **لا بُدَّ منهم ، ولو هم في القفار** » ، يعني ولو لم يُرَوا ولم يظهروا للناس ولم يُعرفوا.

وقوله : « **ما نرى هنا** » ، أي في هذه المادة ، ورد إذا فسد الزمان إن القرآن والدين يُرفعان ، وكذلك البقايا وتلك الطائفة يختفون ، ومع رفع القرآن والدين وهم - الكل - موجودون .

وقوله : « **وما المؤمنون إلا سابق ومسبوق** » ، أي خواص سابقون ومقربون وهم أهل مقام عبادة الرضا ، الذي بَيَّنَهم في الحديث المتقدم : « اعبد الله على الرضا » ، « ومسبوق » ، وهم العامة الأبرار أصحاب اليمين ، أهل مقام الصبر ، على ما بيَّنه في هذا الحديث : « فإن لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خير كثير » ، أي إذا لم تستطع العبادة على الرضا فالزم العبادة على الصبر ، فالسابق من

المؤمنين أهل عبادة الرضا ، والمسبوق أهل العبادة على الصبر . ووَصَفَ الله تعالى كلًّا من الفريقين في كتابه ، وفَضَّل أهل مقام الرضا ، حيث قال سبحانه : ﴿وَفِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾، وقال في آخرين: ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾، ففرق بعيد بينهما ، لأنه وَصف أهل آية الذاريات، وهم الخواص الذين أرادهم سيدنا بقوله : « سابق » ، بأن كل ما وقع بأيديهم ولو عشاء أحدهم أو غداه ، ففيه حقٌّ للسائل والمحروم الذي لا يسأل . ووَصَفَ الآخرين الذين أرادهم سيدنا بقوله : « ومسبوق»، بآية سورة المعارج : ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾، يعني ما للسائل والمحروم في أموال هؤلاء إلا ما بلغ نصاب الزكاة ، وأخرج منه واجبها .

فشتان بين الوَصْفَيْن المفرِّقَيْن بين الفريقَيْن ، حتى صار أحدهما سابقاً والآخر مسبوقاً ، ولا مَيَّزَ بينهما إلا ذكر لفظة : ﴿مَّعْلُومٌ﴾في أحد الموضعَيْن ، وحذفها من الآخرين ، ووصف الفريقين معاً بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾، أهل السِّرِّ أهل مقام الرضا الذين وَصَفهم بلا معلوم ، لأن إنفاقهم نفل يستحب إسراره ، إلا من أنفق من الآخرين فوق الواجب فيدخلون معهم في هذا الوَصْف من هذا الوجه ، وهم أهل العلانية ، أهل مقام الصبر ، لأن إنفاقهم واجب يُستَحَبُّ إعلانه ، فإن أخرج أحد من الأولين واجباً دخل مع هؤلاء في وَصْفِهم من إنفاق العلانية ، والكل يرجو عند الله تجارة لن تبور ، حيث إنها تجارة آخرة ، ليوفيهم أجورهم كل منهم بحسب مقامه ، ثم نزيدهم كذلك بحسب المقام الجزاء الأصلي والزيادة، ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ﴾المذكور ، ﴿ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾، وهم هؤلاء الفريقان ، ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ﴾ يعني من هؤلاء العامة أهل مقام الصبر ، فمنهم مقصِّر ظالم لنفسه بإرتكاب مكروه أو شيء من الصغائر ، أو تاب توبة نصوحاً محت عنه ذنوبه ، وربما التحق هؤلاء بالسابقين ، ومنهم: أي هؤلاء المذكورين ؛ مقتصد : أي متوسط ، لا نزل إلى درجة المذكورين بالظلم لأنفسهم ، ولا ارتقى إلى درجة السابقين ، ثم قال : ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾، أي الذين هم السابقون أهل مقام الرضا المتقدِّم ذِكْرهم ، ﴿ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾، أي بإرادة الله لهم ذلك ، فما سَعِدَ من سَعِد إلا بإرادة الله له ذلك ، بمحض العناية منه سبحانه والجود والكرم ، وكذلك عكس ذلك بإرادته سبحانه لهم ذلك ، إتماماً لوعده وإظهاراً لفضله وعدله ، ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ۝ ﴾، أي السعادة الكبرى، ثم بَيَّن ذلك الفضل بقوله : ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾، إلى ما ذكر في هذه الآيات مما تفضل به عليهم وشكرهم له على ذلك ، ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ ، الآيات .

قوله : « والناس .. » ، إلى قوله : « وإن فعلوا ما فعلوا » ، يعني إن الناس لا يقدرون أن يقوموا بحق ربوبية ربهم من العبودية والعبادة التي خلقوا من أجلها ، ولو بذلوا فيها أرواحهم وأجسامهم

وأموالهم ، وبلغوا فيها ما بلغوا ، فما هم إلا في التقصير . كيف والنبي ﷺ الذي ما قام أحد بحق الله وعبوديته وعبادته مثله ، يعترف ويقول : « لا أحصي ثناءً عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك » ، فما بالك بغيره ؟ وكذلك الملائكة ، منهم الراكع والقائم والساجد والقاعد في عباداتهم ، قبل خلق السماوات والأرض إلى يوم القيامة ، ثم يرفعوا رؤوسهم ويقولون : « سبحانك يا ربنا ، سبحانك ما عبدناك حق عبادتك » ، فما تكون أنت أيها المدعي ، وعبادتك التي بعتها بطمع الدنيا ؟ ومع ذلك تَدِلُّ بها على ربك وتعجب بها ، وتظن في نفسك أنك قمت بواجب حق الله عليك ، وأنك فعلت شيئاً .

ثم قال سيدنا : « **وأنت اعبد الله بقدر ما عندك من العلم والنور** » ، يعني اعبد الله على قانون العلم الذي هو الوجه الشرعي ، مصحوباً ذلك بالنور الذي هو الخشوع والحضور والتواضع ورؤية التقصير في عبادتك ، باعتقادك أنك ما قمتَ بواجب حق الله عليك فيها ، وتستغفر وتطلب من الله أن يقبلها على ما فيها من الخلل - ولا يخلو منه - ولو هو عروض خواطر وقلة حضور ، ولا تغتر برؤية أعمالك هـ .

قال رضي الله عنه : « **الزمان زمان نكد وتشويش ، لا تكاد تسمع إلا ما يسوء ، وقد كانوا إذا أخبروا بشيء يتقدمه أشياء ومقدمات تسهل ذلك . وأما اليوم فيفجئك الأمر ، وكان الصالحون في أحوالهم، كلامهم كله ألَّا في الآخرة ، تشوفهم يتعاطون أموراً ما تدخل تحت طاقة البشر ، وانطووا في معرفة القضاء والقدر ، وهؤلاء يعرفون القضاء والقدر ، ولكنهم لا يصبرون كصبرهم ، طبع البشرية** » ، أي يغلب ذلك عليهم .

وذَكَر العيال والأولاد ، *فقال* : « **ما الإنسان إلا ضايق من الدنيا ، فإنه لا يرى ولا يسمع إلا ما يكره، ولو كنت في صفاء وطاعة شوشوها عليك . وقد رأيت البارحة أني في عينات زائراً ، وكأني مع سالم بن عمر خرجنا من داره معه إلى التربة ، وكأن الوقت أيام عيد عرفة ، وكأني قلت له : كيف تفعلون بعيالكم في العيد ؟ تعطونهم كل واحد رأساً من الغنم أم كيف ؟ فقال : لا ، إنما نعطيهم لحماً ، وقد تركت التعلق بتقسيم الرؤوس عليهم . وكأني في الزيارة بين رجُلَيْن : أبي بكر بن صالح عن يساري ، وعلي بن الحامد عن يميني ، وكأنهم خارجين معي مبتلين** » .

ثم قال سيدنا : « **وهذا زمان صبر ، القوي فيه ضعيف ، ولا مساعد هناك** » .

وذَكَر الصغار يوماً في غير هذا المجلس ، *فقال* : « **الله الحافظ ، ولكنك مؤاخذ بالإستطاعة ، وعندنا - أي في تريم - يقولون : الصغير إلى سبع سنين هو في رقبة أمه . وقد سقط صغار من سطوح عالية ولا**

يضرهم شيء بلطف الله ، وبنتنا سلمى سقطت من سطح الغرفة في الحاوي - أي ولا ضرها - ، وبقي الفصل في هذا أن تكلف ما كُلِّفت على قدر وسع الدائرة ، وما دخل تحت الأقدار فذاك بحر واسع فلا تلجه . وقد سأل رجل بعضهم عن القدر ، فقال للسائل : هل خَلَقَكَ لما أراد أو لما أردتَ ؟ قال : لما أراد ، قال : فيستعملك أيضاً فيما أراد ، لا فيما أردت . ولا يحصل للداخل فيه إلا الإحتجاج للنفس على الرب » هـ .

أقول : وفي هذا الجواب حُجَّة عجيبة على النفس المتمردة ، فينظر في حال نفسه ، فإن وجدها مستقيمة على الطاعة ؛ فيعرف أنه قد استعمله ربه فيما خلقه له ، فيحمد ربه على أن وفَّقه لذلك وأوقفه عليه ، وإن رآها على غير ذلك ؛ فيعلم أنه قد سلك خلاف ما خُلِق له ، فيعرف أنه مخالف للحق فيرجع منه ويتوب عنه ، ويعتقد تقصير نفسه وخلافها ، فإن فعل فقد هُدِي إلى صراط مستقيم ، وأُرشِد إلى الحق القويم ، ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ .

قال رضي الله عنه : « الصغير إذا فسد باطنه ، بأن تأمّل أحوال دنيا أو نساء أو نحو ذلك فلا - أي فلا ترجوه - ، كالدُّمّل إنما ينتظر افتقاشه ، فلا ينبغي أن يكون في المجالس التي لا تنبغي من أسواق أو مجالسة المبطلين ، ويعود ثمر هذا شوكاً ، وإنما ينبغي أن يكون ملازماً لمجالس الخير ، كالمساجد وأماكن القراءة ومجالس الصالحين » .

قوله : « ويعود ثمر هذا شوكاً » ، يعني ويكون آخر أمره ، ما يكون محصوله إلا شرًّا وفساداً ، فينبغي أن يُجنَّب ذلك لئلا يفسد ، وإنما هذا إذا كان الولد في رأي الأب ولا يخالف له أمراً ، وأما إذا كان في رأي نفسه ولا يطيع أمر أبيه ؛ فيفسد لا محالة . وفي الحقيقة ، إنما هي حظوظ وقِسَم من باريء النفوس .

وأُخبِر بصبي صغير أنه يريد الحج هذه السنة سنة ١١٢٤ ، *فقال له* : « لا تحج هذا العام ، وصحح أولاً أركان دينك ، التي هي عليك ألزم من الحج ، فصحِّح صلاتك وزكاتك وصومك ، فإذا صحَّحْتَ هذه كما ينبغي فأتمها بالحج ، لأن الحج إنما هو تكميل للأركان . قال الله تعالى للنبي ﷺ وأصحابه ، بعد ما تمت حجتهم : ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾، فمن لا يصحِّح الأركان الأُوَل ، ولم يأت بها على الوجه الأكمل ، فما يصنع بإتمامها قبل إحكامها » .

قال رضي الله عنه : « الأخلاق الأصلية ما فيها تغير ، لكن يؤكدها العمل بمقتضاها ، ويضعفها

العمل بخلافها ، وإذا عُرِفَ الإنسان بطبع يعطونه الناس على مقتضى طبعه - أو قال : على قدر طبعه- وما هي إلا ساعة ، فاجعلها في طاعة » هـ .

أقول : ذكر الإمام الغزالي : « إن الطبع الخلقي المذموم في الإنسان لا يؤاخذ به ، كالحسد مثلاً ، فإنه مخلوق فيه كأحد أعضائه ، وإنما يؤاخذ بالأفعال الإختيارية التي يدعو إليها الحسد ، كالسعي في إزالة نعمة المحسود ، وإذا عمل بمقتضاه اشتد » ، وهو معنى قول سيدنا : « **يقويها العمل بمقتضاها**» ، ويأثم بذلك ، أعني بالأفعال التي يدعو إليها الحسد .

ودخل عليه يوم الثلاثاء في البلاد بعض السادة من آل باحسن ، وكان قد خرج من مرض طال به ، فقال سيدنا له : « **الحق أَلَّا لكم علينا من الزيارة لعيادة المريض ، ولكن الناس تغيَّرت أحوالهم ، وكل واحد ادَّعى بنفسه وأعجب برأيه ، إذا جينا عند أحد لأمر مقصود ، طالبونا بأمور غير مقصودة** » .

فقال ذلك السيد : « لأن النفوس كبرت » ، *فقال* سيدنا : « **نعم ، ولهذا صغرت قلوبهم ، فلو كبرت القلوب وصغرت النفوس لكان أحسن** » ، وكان ذلك يوم ٩ من ربيع الثاني من سنة ١١٣٢ .

ثم لما خرج ذلك السيد خرج سيدنا إلى الحاوي ، ثم جاء إليه في الحاوي السيد زين العابدين العيدروس ، فجلس معه ودار الكلام بينهما فيما صدر من الكلام في المجلس الأول .

فقال سيدنا بعدما ذَكَر مجيء السيد باحسن عنده : « **كان آل باحسن هؤلاء أهل أحوال ، لكنهم قصروا عنها ، فلم تظهر لهم الأحوال ، فلو كملوا قليلاً - أو قال : لو كانوا في غير هذا الزمان - لظهرت** » .

وشكى رجل إليه من ظلم الدولة ، *فقال* : « **لا تَدْعُ على من ظلمك ، فإنك إن دعوتَ عليه انتصرت لنفسك ، وإلا عاد دعاؤك عليك ، ولكن ادْعُ له بالصلاح والهداية للصواب ، وأن يؤمنهم في أوطانهم، ليعود دعاؤك لك** » .

وذَكَرَ أحوال أهل الزمان في وضوئهم وصلاتهم ، *فقال* : « **لو أمسكتَ برأس الرجل في صلاته حتى يطمئن في الركوع والسجود القدر الذي لا بُدَّ له منه ، ما صلى الصلاة الثانية إلا باطلة ، فيأتي بها باطلة عمداً ، وسبب ذلك عدم الرغبة ، وإذا لم يكن رغبة ولا لذة ، كيف يأتي بها كما ينبغي ؟ فينبغي ويحتاج أن يُعَلَّم فضيلة الصلاة والوضوء ، ليرغب في ذلك فيحصل له في فعل ذلك رغبة ، وكانوا يأتون بذلك وقلوبهم مفتوحة راغبة في الخير ، ويربون صغارهم على ذلك ويعلمونهم إياه ، وأما هؤلاء فلا يعلمون صغارهم إلا الرغبة في الدنيا ومحبتها ، والصغير إذا فسد باطنه ، بأن تأمّل أحوال الدنيا أو**

النساء أو نحو ذلك ، فلا - أي فلا ترجوه - كالدمل .. » ، إلى آخر ما قال .

وتقدَّم قريباً في أول هذه الصافحة إلى قوله : « ومجالس الصالحين » .

وقال لرجل : « الله الله في الهمة والصبر ، فإذا لم تجيء الدنيا إلا بالصبر فالآخرة أولى ، فكيف تجيء بلا صبر ؟ هل يجيء سيل بلا مطر ؟ » .

وقال لآخر : « عليك بالصدق واتباع الشريعة ، والشريعة كالبحر ، من طبعها الإغراق كالبحر . فينبغي للإنسان أن يتطرف ، وإلا خُشِي عليه الغرق » .

أقول : يؤيد قوله هذا حديث : « أوْغِلْ في هذا الدين برفق ، فإن المُنْبَتَّ لا أرضاً قطع ، ولا ظهراً أبقى » ، وحديث : « خذ في هذا الدين بالرفق ، فما غالب أحد الدين إلا غلبه » ، أو كما ورد .

قال رضي الله عنه : « كانوا يحبون الخمول والخفاء مع وجود الشيء ، وهؤلاء يحبون الظهور والشهرة بلا شيء ، لكن بماذا يظهرون ؟ أبحب الدنيا والتنافس عليها ؟ وكان ساداتنا آل باعلوي ما طريقهم إلا الخمول ، حتى إن الفقيه المقدم كان يحمل السمك من السوق ، فيمر به على المجالس ، فإذا تعدى عليهم أعطاه أول من يلقاه من الفقراء .

وأول من سُمِّي منهم شيخاً الشيخ عبدالله باعلوي ، وكان يغضب إذا قيل له : يا شيخ . ويقول للقائل : الشيخ أبوك . وكان شيخاً في الحقيقة ، شيخ في العلم والنسب والسن » .

قال رضي الله عنه : « كل الأشياء بغت ميزان ، ولهذا كثر ذِكْر الميزان في القرآن » .

وذَكَر أقواماً سافروا ، *فقال* : « فرحتهم عند سفرهم ، كفرحهم عند مجيئهم ، لأن أمور الدنيا كلها موزونة ، ولهذا كثر ذِكْر الميزان في القرآن ، وهو معرفة مقادير الأشياء ، بأن تقابل الخير بالشر أو بالخير لتعرف قدره » هـ .

أقول : وهو معنى ما تقدَّم من قوله : « ليس العاقل من يعرف الخير من الشر فإن هذا كُلٌّ يعرفه ، وإنما العاقل من يعرف خير الخيرين وشر الشرين ، فيتبع الأرجح منهما فيسلكه » ، يعني إذا دُفِعَت إلى أمرين ، لا بُدَّ لك من سلوك أحدهما ، ولا يمكن جمعهما فعلاً وتركاً ، فتتبع أكثرهما خيراً وأقلهما شرًّا ، لأن قليله أهون من كثيره ، إذا لم يمكن ترك الكل ، أو فعلِ لخير الخيرين فأكثرهما إذا لم يمكن جمعهما ، كما قيل : « بعض الويل أهون من كله » ، وتقدَّم مع هذا الكلام في مبحثه تمثيله .

وذَكَر الدنيا وزَهَّد فيها ورَغَّب عنها ، فقال : « من عرف الدنيا زهد فيها ، ولو كان ما يؤمن بيوم الحساب ، ومثل الإنسان في الدنيا كمثل رجل جالس في بيت يُحذف بالحجارة ، فيُخاف عليه كل حين أن يرضخ رأسه ، فسبحان الله كيف يَقَر الإنسان ، وهو كل حين يشيع ميتاً . وكل الناس مجمعون على أن الدنيا فانية ، وكل المِلَل مجمعة على ذمها ، وكل الأمم التي بعثت إليها الملل مجمعون على محبتها ، ولعل ثلث القرآن جاء في ذمها ، وأبلغ آية في التزهيد فيها قوله تعالى : ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾ » .

ثم حكى : « إن رجلاً من أهل المشرق أصابته علة شديدة ، فطلب طبيباً ماهراً فَدُلَّ على طبيبٍ ماهرٍ نصراني في جهة المغرب ، وإنه لا يمكن أن يداويه إلا هو . فمضى إليه ، وحمل معه مالاً كثيراً ، وإذا به - يعني الطبيب - علة شديدة ، ولم يدواي نفسه منها ، فقال : لو هذا طبيب ، لداوى نفسه . وأراد أن يرجع ، ثم قال : إني عنيت له من بُعْد ، فأنظر ماذا عنده ، فذكر له عِلَّته ، فقال : لا أداويك إلا بنصف مالك .

وكان ذا مال كثير سار به معه ، فأبى أولاً ثم رضي لما لم يجد بُدًّا من ذلك ، ولم يسأله الطبيب حينئذ عن اسمه ، فداواه وصحَّ ، لكن بقي أثر من تحشيف ، وهو أثر العلة ، فقال له : هات المال ، فقال: هذا ما طاب ، فقال : ليس هذا عليَّ ، إنما داويتك بقدر ما أعطيتني ، فإن أردتَ أن أداوي هذا فاعطني نصف ما بقي من مالك ، وهو الربع ، فأعطاه وداواه منه وصحَّ ، وأراد الإنصراف ، فسأله الطبيب حينئذ عن اسمه ، ومن هو ؟ وما دينه ؟ فأعلمه وقال : ديني الإسلام ، فقال : من أعلمكم به ؟ فقال : بعث الله إلينا نبيًّا صفته كذا ، وعلَّمنا الدين والإسلام ، فقال : ما أخبركم نبيكم أنك ستموت ؟ فقال: بلى ، أخبرنا أن كُلًّا ميت ، وأن الدنيا فانية ، وأن الآخرة باقية وهي خير وأبقى .

وكان هذا الطبيب عاقلاً ، فقال له : أنت مع إيمانك وتصديقك بما أخبركم به نبيكم تحب الدنيا ، وتحب طول البقاء فيها، وتحب المال ، حتى أتيتني من مسافة بعيدة تطلب صحة بدنك ، وبذلت فيها مالك ، وأراك حريصاً ، وأنا - يعني هو مع كفره - لما جرَّبت الدنيا وعرفت أنها زائلة زهدت فيها ، فهذا بدني عليل ما داويته، وهذا مالك الذي أعطيتني خذه مني فلا أريده ، وسِرْ عافاك الله ، إنما أردت أن أختبرك » ، انتهت الحكاية ، بلفظه من فمه حرفاً حرفاً .

ثم قال : « والدنيا فانية بكل حال ، إما وَلَّتْ عنكَ وإما وُلِّيتَ عنها » .

وكثيراً ما نسمعه يقول : « من عرف الدنيا زهد فيها ، ولو كان ما يؤمن بيوم الحساب » ، ويشهد لذلك هذه الحكاية ، وربما استشهد لهذا المعنى في بعض المرات بهذه القصة ويذكرها .

وقال : « محبة الدنيا كلها سواء ، إن كان ذلك من مسلم أو من كافر ، وإن اختلفت المزية ، فالكل مذموم ، وهم في الذم سواء ، لأنهم اشتركوا في محبة العاجل وهو مذموم في جميع الشرائع » .

وقال لرجل فقير من أهل شبام ، عندما استخلف منه يريد المسير إلى بلده : « الحذر أن تغبط أهل الدنيا ، وتود أن تكون مثلهم ، فتحاسب في الآخرة حساب الأغنياء ، وأنت ما معك شيء » هـ .

أقول : جبل الله الآدمي على محبة الدنيا والإقبال بقلبه وقالبه عليها ، ثم أرسل الله إليهم الرسل يدعونهم من الدنيا إلى الآخرة - كما قال سيدنا : « إنما أرسل الله الرسل إلى الخلق ليدعوهم من الدنيا إلى الآخرة » ، انتهى كلامه - لِيَتَبَيَّنَ المجيب ممن لم يُجِب ، فتقوم الحُجَّة لمن أجاب ، ويتبيَّن كمال عبوديته لمعبوده ، بترك هوى نفسه وما جُبِلت عليه في موافقة مرضاة ربه ، واتباع ما يرضيه ، سيما في محبة الدنيا الذي اشترك في الذم عليها المسلم والكافر ، حتى استويا في الذم على هذه الخصلة القبيحة . ثم يفارق المسلم الكافر فيما عداها ، من حصول الخير ومرضاة الله للمسلم في الدنيا والآخرة ، ويبوء الكافر بالشر وسخط الله في الدارين ، ولو ما معه إلا هذه الخصلة المرذولة التي يحاسب الإنسان عليها ، ولا معه شيء منها هـ .

قال رضي الله عنه : « بشَّرنا جملة من الصالحين - سمَّى بعضهم - وكلهم يوصونا بالصبر ، فقلنا : إن هذه قصة عثمان رضي الله عنه لما بشَّره عليه الصلاة والسلام بالجنة على بلوى تصيبه ، لكن الحمد لله مَنَّ الله علينا بالصبر ، وجعل مؤنتنا على غيرنا ، فلما فعل بنا ذلك حصل لنا سعة الصدر والقوة ، كالجمل الذي يُجعل عليه الحِمل الثقيل ولا يعبأ به » هـ .

أقول : يعني يحمله ولا يستثقله ، ولا يعرف الحِمل الثقيل إلا من حمله ، فعند ذلك يحمله القوي ولا يبالي به ، ويعجز عنه أو يستثقله الضعيف . وهذا مثل عند العرب يُضرَب للكامل والناقص في الأمور كلها ، كما قال دغفل الشيباني النسابة لسيدنا أبي بكر رضي الله عنه ، في قصته معه أيام كان النبي ﷺ يعرض نفسه على قبائل العرب بمنى ، حين يجتمعون للحج أيام منى ، ويتسوقون فيها ، فذَكَر أبيات فيها : والعباء لا يعرفه ، أو يحمله . يعني لا يعرفه إلا من حمله .

وذَكَر سيدنا كما أخبَرَتْهُ والدته : أنه قد حصل عليه ليلة وُلِد ما فيه الإشارة الدالة على ما يصادف في وقته من شدة المحن والشدائد ، التي لا يحملها إلا الأقوياء في دين الله مثله ، من اختلاف الأحوال وبغتات الأمور بالسوء ، وأن الله تعالى يمده عليها بقوة منه ، ومدد إلهي كلي ، حتى لا يبالي بها ولا يهمه

شأنها ، لقوة توكله واعتماده على الله في كل أمر وكل وِرْد وصَدْر ، وهو معنى قوله : « **جعل مؤنتنا على غيرنا** » ، أي على الله ، اعتماداً على الله وتوكلاً عليه ، وجعل الدنيا خادمة له يسوق الله إليه منها كل ما احتاج إليه ، ولو في بعضه صورة تسبب ، جرياً مع أحكام الشرع ، كان النبي ﷺ يتسبب بالقرض ونحوه ، فسيدنا على قدمه ، وهو حال النبي ﷺ وحال نوابه في أمته ، كل في وقته ، وذلك كما يأتي نَقْله له عن والدته ، قالت له إنها : « **حين وَلَدْتُكَ ، لَفَفْتُكَ في ثوبي ، وبِتَّ تصيح ، ما هدأتَ من الصياح إلى الصباح ، فقلتُ لإمرأة حضرت الولادة ، وكانت هي القابلة المولدة : انظري هذا الولد ما شأنه ، ما سكت وهو يصيح ؟ فَفَكَّتْ لفافة الثوب ، فَوَجَدَتْ عقرباً ملفوفة معك في الثوب بينه وبين بدنك ، وإذا بدنك مُخبَّز أحمر من لدغها** » .

فانظر هذه الإشارة العجيبة إلى ما يلقاه من محن الدنيا ، حيث وقع عليه هذا في الحال حين وَضْعِه وصار في هذه الدنيا ، فدَلَّ ذلك أنه قاسى من البلايا والمحن في الدنيا ما لم يقاسه غيره ، وذلك مثل غطات جبريل الثلاث للنبي ﷺ ، ففيها إشارة إلى ثلاث شدائد حصلت له : أولها : حبس قريش له مع أقاربه بني هاشم وبني المطلب في شعب أبي طالب ثلاث سنين ، والثانية : وقعة أُحُد ، وقُتِل من أصحابه سبعون من جملتهم عمه الحمزة ، والثالثة : وقعة بئر معونة ، قُتِل من أصحابه ممن يحفظ القرآن سبعون . وأفكر في حال الرجل الكبير إذا لَدَغَتْهُ مرة واحدة ، ماذا يقاسي من لَدْغَتِها في هذه المرة ، فكيف حال الطفل حين ولد ؟ ولزوقها في بدنه طول الليل ، فسبحان اللطيف الخبير الحكيم العليم ، فأي إشارة أعجب وأوضح من هذه . ولقد قاسى مدة حياته من الشدائد كثيراً ، مما أومت إليه الإشارة وأبلغ وأعظم ، كما تقف عليه مما أشرنا إليه في هذا النَّقل .

وأنشد في حال المولود في صياحه ، حين وضعه وخروجه من بطن أمه :

لما تُـؤْذِنُ الدُّنْيـا بِـهِ مِـنْ هُمُومِهَـا ... يَكُونُ بُكَاءُ الطِّفْلِ سَاعَةَ يُوضَعُ

وَإِلا فَـمَا يُبْكِيـهِ مِنْهَـا وَإِنَّهَـا ... لَأَفسحُ مِمَّا كَانَ فِيـهِ وَأَوْسَعُ

قال رضي الله عنه : « **ما عمدة الإنسان إلا اليقين والصبر ، فإذا حصلا له ؛ تَحَمَّلَ من الشدائد ما لا يتوهم أنه يحمله** » .

قال رضي الله عنه : « **إذا لم يمكنك أن تقوم بالأمر كله ، فتوسط فيه . فإذا كانت الغايات لا تُدْرَك ، فالقليل منها لا يُتْرَك** » .

وقال : « **حُسْن الظن في غير محله ضحكة للشيطان ، كإساءة الظن في غير محله ، كمن يرى عاميًا**

يصلي ، وقد كان اطلع على حاله ، وعلم أنه لا يحسن شروط الصلاة ، ويخل في شيء من أركانها ، ثم إنه اقتدى به ، وقال : حسن الظن بالمسلمين واجب . وهذا من قبيله ، فليس كذلك ، بل إذا عَلِمَ منه ما ذُكِرَ ؛ لم يصح اقتداؤه به ، وهذا غالب في هذا الزمان السيء » .

وقال : « من حصلت له عقوبة مع السيئات ، حصلت له بعدها مثوبة ، لأن الله سبحانه لم يعاقب إلا ويثيب » .

وقال لرجل أعمى مسن يصبِّره : « لا يكره الإنسان ما يؤجره الله عليه من البلاء ، فإنه سبحانه لا يبتلي إلا ليؤجر ، ولو لم يكن في ذلك إلا تكفير السيئات » .

وقال : « إن الله لم يخرج عبده المؤمن من الدنيا حتى يضجره منها بمرض ونحوه ، ليخرج منها زاهداً فيها » .

وذُكِر له رجل أنه ينتمي إليه ، فيعظِّمه الناس لذلك ويراعونه لأجله ، سيما في الحرمين ، فقال : « إنه ليس إلينا ، ولا نحن إليه ، فقد جاء من الهند ولم يمر علينا ، واكتفى بالمصافحة بعد الجمعة ، وما هذا من الوفاء . وقد كان هذا الكلام في الخاطر منذ مدة أربع سنين ، ولم نَذْكُره إلا الآن لما ذَكَرْتوه ، وما يظهره للناس من دعوى الإتصال بنا ، نريد نعلمكم بمعاملته لنا ، ونحن مثل أهل الزمان نتكدَّر مما يتكدرون به ، ونحنق مما يحنقون منه ، وإنما غلبناهم بالصبر ، حتى يظنوا أنَّا لم نعلم بها ، ولم تخطر في بالنا ، ونحن عالمين بها ، ولكنا صابرون عليها » هـ .

أقول : قوله : « نحن مثل أهل الزمان نتكدر ، ونحنق مما منه يحنقون » ، يعني إن الأمور التي يغضب منها أهل الطباع السليمة المعتدلة ، فالناس في الغضب فيها سواء ، الخواص والعامة ، وإنما يُفَاوِت الخواصُّ العوام فيها بالصبر والإحتمال والإغضاء ، فالشأن في هذا أن يغضب ولا يعلم بغضبه أحد ، وليس الشأن ممن يغضب مع عدم العلم بما يُغضب ، بل مع العلم والتأثر بها ، ثم لا يُعرف ذلك منه ، وهذا معنى قوله المتقدم : « وحينئذ تبقى شائبة الطبع فيه ضعيفة » ، وإنما ظُنَّ عدمه منه ، وليس بمعدوم ، بل ضعيف جداً ، وقال الإمام الغزالي : « لو ذهب وانقطع عنه - أي الغضب - وجب تحصيله ، لأن مادة الغضب لله ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » .

قوله : « إنما غلبناهم بالصبر » ، فلا شك أن الغضب كالأسد الضاري ، وكالنار الموقدة ، وقليل من الرجال من يثبت معه ، ومن أيده الله عند ذلك حتى لم يظهر عليه أثره ؛ فقد بلَّغه غاية كمال الدين والعقل والمروءة ، وهذا يؤيد قوله كما تقدم : « لكن مَنَّ الله علينا بالصبر على أذى الناس » ، وكل صبر على غير ذلك فهو دونه .

ولما وصلت الحرمين رأيت هذا الرجل هناك ، وهو على دعواه النسبة لسيدنا ، ويُظهر ذلك وهو منتفخ من الدعوى ، ويتعاظم على الناس بسبب ذلك ، وهم يعظمونه ويكرمونه لذلك . فأخبرتهم بكلام سيدنا من جانبه ، وأنه لا نسبة له به ، فَقَلَوهُ بعد ذلك وهجروه ، ومجَّته قلوبهم ، وبقي يتلهف على فوات ذلك منهم ، فخاب عندهم بسبب كذبه ، كما خاب بمقتضى ذلك عند ربه ، ألا لعنة الله على الكاذبين . وإنما فعلتُ ذلك لقلة أدبه مع سيدنا ، وعدم وفائه معه ، ودعواه الإتصال به مع ذلك كذباً وزوراً ، وصبره عن السكوت عن هذا الرجل ، مع قلة وفائه معه وكثرة دعواه الإتصال به ، وتعظيم الناس له بسبب ذلك ، وهو ساكت عنه من عجيب الصبر ، وما تكلم في شأنه إلا لما أكثر عليه من جانبه ، فبين لهم شأنه ، وأنه كاذب ، لئلا يغتروا به .

ومما عجبت منه من أقل صبره بالنسبة إلى طباعنا أهل الزمان : أن موضعاً من داره في البلاد ، كان خادم له يقال له : عوض بن صَبَاح ، مُوَضِّعاً فيه ، ويجلس ويرقد فيه في النهار وقت القيلولة ، فما دخل سيدنا ذلك منذ كان فيه حتى مات . فدخله يوماً وجلسنا معه فيه ، ومعنا السيد الفاضل أحمد بن زين الحبشي ، فقال سيدنا يخاطبه : « عِلْمَنا بدخول هذا المحل ، من ولادة ولدنا علوي » ، وعلوي حينئذ له أولاد وعيلة . قال : « وكنا نقابل في هذا المحل في الإحياء كل ليلة ، ومنذ نزل فيه فلان ما دخلناه » .

وكان الرجل عند سيدنا مدة سبعين سنة ، وهذا من سيدنا عجيب ، مع شدة حاجته إلى الجلوس فيه ، سيما أيام الصيف ، ولم يدخله هذه المدة ، ولسيدنا من العمر نحو ٨٥ سنة ، وأيام مقابلته في الإحياء نحو ٢٥ سنة ، فيكون مدة ما لم يدخل ذلك الموضع من بيته نحو ٥٠ سنة ، والله أعلم .

وسمعته يقول : « الذي مرَّ علينا الإحياء بتمامه ، نحو خمسين مرة غير الأبعاض منه » .

ومن عجيب صبره وسعة احتماله : أنه أُهدِيَ له جزء من كتاب « الروضة » ، وهو مُعَظَّم ذلك الكتاب الجليل ، ووقع منه موقعاً جزلاً ، حتى إنه لم يسمح به أن يجعله في خزانة الكتب ، خوفاً أن يقع عليه ثقلاً من الكتب ، مع تداول رفعها وحطها ، فناولنيه من يده إلى يدي ، وقال : « احتفظ به ، واحذر عليه من الأرضة » ، واعتنيت به لوصيته لي به ، وما سمحت أن أجعله إلا فوق وتد مضروب في الجدار - جدار الخلوة - وأنا أنظر إليه داخلاً وخارجاً ، وأقلِّبه في بعض الأوقات ، وأتصفحه خوفاً عليه منها ، ولكن ما نفع حذر من قدر ، فغفلت عنه نحو خمسة أيام ، ثم أخذته أنظر إليه ، وإذا بها قد دَخَلَتْهُ من الجدار ، من نحو ثقب الإبرة من الجلد ، فغيَّرته تغيراً فاحشاً ، وما أَبْقَت فيه عوضاً ، لأنها في تلك الجهة تجور جداً ، لو تغفل حتى عن قميصك عَلِقَتْه . فأخبرته بأمر الكتاب ، ووضعته في يده، وأنا متوقع ومتخوف منه من كلام يلوم به ، فما زاد على أن قال : « اطرحه في الخزانة » ، ولا حسيت منه اكتراثاً ولا ضيق صدر ، وذلك خلاف طبع الناس المعروف منهم اليوم ، وهذا مصدِّق لقوله :

« والفرق بيننا وبين الناس ، أنّا ولو غضبنا لا يظهر علينا الغضب » .

فاعرف من هذا وأمثاله ، أنه ليس من أهل هذا الزمان ، كما تقدمت الإشارة إليه ، كيف وهو يقول في حِكَمِهِ : **« نازَعَ الأقدار من كَرِهَ من أخيه ما لا يدخل تحت الإختيار »** ، فإن قوله ممتزج بحاله وأعماله، وهذا هو لسان الحال ، الذي هو أبلغ من لسان المقال ، فإن لسان الحال من صَدَقَ الله في أقواله وأعماله وأحواله ، يعني كلها على الوجه الذي يرضي الله ، ومع ذلك أوتي نصيباً من ذلك السِّر ، الذي يقوى به الإيمان الذي أوتيه سيدنا أبوبكر ، حتى رجح إيمانه بسببه على إيمان الأمة كلها .

وليس لسان المقال كذلك ، بل إنما هو نطق باللسان لا غير ، وليس فيه شيء من ذلك السِّر ، ولا من السيرة الحسنة ، لا في قول ولا عمل ولا حال ، ولا يكون لسان الحال إلا للكُمَّل من العارفين ، وإنما لغيرهم لسان المقال فقط ، وهو لا يجدي شيئاً .

واستعار من سيدنا بعضُ الناس الجزءَ الأول من كتاب « مجمع الأحباب » ، وكان لسيدنا به اعتناء كثير جدًّا ، فلما أبطأ به سأله عنه مراراً ، ثم أمر أن يُؤتَى به من عنده ، فأتي به ، فجعل يقلبه ويتصفحه، وأنا متعجب في نفسي من شدة اعتنائه به ، فالتفت إليَّ فقال لي مكاشفة منه : **« أتحسب أنه لو تغيَّر أنَّا نعاتب عليه ؟ لا ، ولكن هذا مِنَّا حزم ، والحزم سوء الظن »** .

نفعنا الله به ، ورزقنا التخلق بشيء من أخلاقه ، ولا نطمع في الكثير فضلاً عن الأكثر فضلاً عن الكل ، وإنما ذلك منه حيث لم يَرَ فاعلاً إلا الله ، فهكذا كان شأنه باطناً وظاهراً ، وإن اعتنى بالأسباب وحثَّ عليها ، فإن هذا شريعة وذاك حقيقة ، وهما سيرته وحاله ، كما قال في قصيدته :

الشَّرْعُ سِيْرَتُهُ الحَقِيْقَةُ حَالُهُ   وَمِنَ العُبُودَةِ في المَقَامِ الحَافِلِ

وقد قيل :

إِذَا مَا رَأَيْتَ اللهَ في الكُلِّ فَاعِلاً   رَأَيْتَ جَمِيعَ الكَائِنَاتِ مِلاحَا

وهذا الكتاب « مجمع الأحباب » رآه في بلاد تعز من اليمن سنة حج ، وكان ثلاثة أجزاء بخط واحد ، فلما رآه وسمعه أعجبه ورغب فيه ، لكونه يستوفي التراجم كما ينبغي ، أبلغ وأشمل من غيره، فتعلق خاطره به ، فقال : **« إن شاء الله إذا رجعنا من الحج نشتريه »** ، فلما رجع ، وجد أنه قد بيع منه جزء ، وبقي اثنان فاشتراهما ، وبقي الآخر في نفسه ، فرآه بعض المسافرين من السادة إلى صنعاء ، فخطر له أن يشتريه ويهديه له ، ففعل . فاشتراه وأهداه له ، فرآه ثالث الثلاثة ، فقرت به العين ، وحمد الله على جمع شمل الثلاثة .

ويشبه قصة هذا الكتاب هذه ، قصة سبحة أرسلها بعض المحبين من السادة من بلاد آشي ، ألف حبة من عود الصندل ، أرسلها ونجارتها في كيس مع أناس حُجَّاج ، فطبعوا في البحر وسار بها الماء، ثم في السَّنة التي بعدها ، جاء من تلك الجهة أناس حجاج ، فرأوا السبحة طافية في البحر ، وقد اختلَّ منها خمسمائة ، وبقي خمسمائة . فأخذوها وقالوا : « لا يصلح أن ندفعها إلا للسيد عبدالله الحداد» ، فأرسلوها له ، ولم يعلموا أنها مرسلة لسيدنا عبدالله ، فأجرى الله ذلك لهم اتفاقاً . فكان تلك الإتفاقات في هذه الأشياء كلها كرامات خارقات للعادات ، وما ذَكَرْنَا هو ما سمعنا على هذا الوجه ، أو على وجه آخر .

وفي السنة بعدها ، جاء كتاب من الذي أرسلها لسيدنا يخبره بأمرها ، وأنه أرسلها وطبعت في البحر ، ثم إن سيدنا كتب له جواباً بأنها وصلت ، وفات منها خمسمائة . وحين وصلت ، أمر أن تُنشَر ليلة الخميس بعد الراتب ، ويتداولها الجماعة ومن حضر ، يقبض كل إنسان منها جانباً ، وتساق إلى جانب ، وهللوا بعددها خمسمائة تهليلة ، وبقي الأمر فيها على ذلك كل ليلة خميس ، إلى أن توفي .

ولعل الأمر كذلك بقي بعده هـ .

قال رضي الله عنه : « إن أهل الزمان في قلوبهم شياطين ، ولهذا يضيقون من قراءة القرآن والجلوس في المساجد ، ولولا ذلك ما ضاقوا ، ألا ترى إلى المصروع الذي دخله الشيطان - ومرة قال : الذي فيه الجني - إذا قرأتَ عليه القرآن كيف يصيح ؟ » هـ .

أقول : يعني إن صياحه لضيقه من قراءة القرآن ، فكذلك هؤلاء يتكلمون في المساجد وحال قراءة القرآن لضيقهم من ذلك .

قال رضي الله عنه : « أهل الزمان ليس في أجسامهم قلوب ولا أرواح ، إنما فيها نفوس شيطانية ، ويُعرف هذا بحركاتهم الظاهرة ، لأن الأمور الغيبية لا تُعرف إلا بالحركات الحسية ، على مقتضى ما تدعو إليه وعلى لسانها ، كما يتكلم المدخول من الجان على لسان الجني الذي فيه » .

وقال : « سُئل بعض السلف : هل شيء من العدل يكون بعد المائتين ؟ فغضب ، وقال : كيف ذلك وقد قال النبي ﷺ : من استطاع منكم بعد المائتين أن يموت فليمت » .

ثم قال سيدنا : « رأينا في حديث مشهور ، أنه تخرج شياطين بعد المئتين ، كان حبسهم سليمان عليه السلام ، فيُطلقون حينئذ ، ويحدثون الناس بما لا يعرفون ، فيأخذون ما يقولون لهم » .

قال رضي الله عنه : « لا تأمن نفسك وتطيعها ، وقدك معها على شفا ، فتهلك أنت معها ، ولا يَدَّعي القوة عليها إلا مغرور . وما معنى قولهم : ظلم نفسه ؟ مع أن نفسه هي التي ظلمته ، لكنه حيث يفعل الأسباب التي تقوده بها وتهيئها له » .

ومرة قال : « لا تأمن نفسك في الأمور التي بينك وبين الخلق ، حتى تتحقَّق صِدْقها في الأمور التي بينك وبين الله ، فإنها إذا لم تصلح وتصدق فيما بينها وبين الله ؛ فلا شك في عدم صدقها فيما بينها وبين الناس » .

وقال في وَصْفِ الرجل من أهل هذا الزمان : « إنه لا صِدْق فيه ولا تقوى ، فلا يُصَدَّق بوجود أحد فيه صدق وتقوى لعدم ذلك فيه . وإقدامهم على الحرام يضاهي إعراض الأولين عن الحلال ، لأن الأولين أعرضوا عن الحلال احتياطاً للسلامة ولا بالوا ، وهؤلاء وقعوا بالقصد في الحرام ولا بالوا . ومثلهم كالهرار في بعض الأماكن ، إذا شمَّت ريح اللحم هاجت ، ولم تستمسك ما لم تأكل منه ، حتى يدهنوا فمها بقليل من السمن ، فتسكن عند ذلك قليلاً » هـ .

أقول : يعني فهؤلاء كذلك ، ضراوتهم في محبة الدنيا والتلهف عليها ، لم يتمالكوا حتى يلقوا أنفسهم في الحرام والشر ، فإذا أمكن أحدهم أن يصيب من الدنيا شيئاً يسيراً من الحلال ، لعله أن يضبط به نفسه عن الوقوع في الحرام ، ويستعين على منعها منه بقليل من حلال ، فذلك أَلْيَق وأَصْوَن له ، فيحتاج إليه ضرورة .

وقال : « الإفراط في محبة الدنيا يغيِّر العقل والدين ، لأن طبعها الإسكار » .

أقول : يعني إن الدين متعلقه العقل وهو منوط به ، فإذا تغيَّر تغيَّر الدين ، فكل ما يغيِّره يغيِّره الدين ، فمحبة الدنيا تسكره ، فإذا أسكرته غيَّرت دينه ، كما ترى كثيراً من الناس إذا خلت يده من الدنيا اختلَّ عقله وجنَّ ، فاختلَّ لذلك دينه ، وما ذاك إلا لفرط محبته لها ، إذ لا يغيِّر عقل الإنسان إلا أمر اشتد عليه ، ومن هانت الدنيا عليه لا يشتد عليه فَقْدُها ، ولا يخل بعقله ذهابها .

فانظر عجيب كلمته هذه ، وكل كلامه عجيب نفع الله به .

قال رضي الله عنه : « لو مكَّنَنَا الناس من أموالهم ؛ أخرجنا منها ثلثها برضاهم ،لأنه لا يمكن دفع ما هم فيه عنهم من الشدائد والمصائب إلا بذلك ، لأنها لم تحصل عليهم إلا بسبب الأموال ، يتحاسدون

عليها ويتنافسون فيها ، ونضعها في أرحامهم وأقاربهم ، إذ الإنسان يبات قريبه جائعاً ، وهو يقدر أن يشبعه فلا يفعل ، وإذا تأملت أفعال الفقراء رأيتها أحسن من أفعالهم - أقول : يعني وأحوالهم أسْلَم من أحوالهم ، لأنهم سالمون مما ذَكَر عن الآخرين - وقد كان أهل الجاهلية إذا وقعوا في شدة ، جمعوا أموالاً وقالوا : دعونا نرضي ربنا ، فإنه سخط علينا ، حيث أوقع بنا ما وقع ، ثم يفرِّقونها على المحتاجين منهم والأقربين ، هذا وهم كفار . وأما هؤلاء أهل الزمان ، إذا وقعوا في شيء - أو قال : في شدة - تكالبوا على الدنيا وبخلوا ، وجعلوا يقبحون الأولياء والصالحين الأحياء منهم - إن كان أحد - والأموات ، وقالوا : أصابنا ذلك فلم يحمونا منه » هـ .

أقول : كان قانون الأكابر من كُمَّل المؤمنين ممن لديهم مال ، أن يُخرِجوا من أموالهم الثلث لوجه الله منه مقدار واجب الزكاة ، وباقيه نافلتها معها - كما تؤدَّى الصلوات المكتوبة مع نوافلها - هكذا ذُكِر عن كثير منهم ، كما ذُكِر عن صاحب الجنة المذكورة في سورة « ن » ، أنه رجل صالح كان يُخرِج منها الثلث ، فلما مات بخل أولاده أن يُخرِجوا شيئاً ، ﴿إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾﴾ . إلخ ما ذَكَر سبحانه . ثم أمر الله سبحانه جبريل أن يقتلعها من محلها ، وكانت قرب صنعاء ، ويجعلها في الطائف ، وهي « وج » ، وجعل الله تعالى لها حرمة كحرمة المدينة ، وهما كمكة في الحرمة دون الفدية ، فحُرِّمت لكرامة صاحبها ، وكرامة ما يُخرِج منها لوجه الله، ويروى هذا عن كثير من الصالحين . وكان سيدنا يُخرِج الثلث من الذي يحصل له من حرث بيت جبير، وهكذا سِيَر أكابر الصالحين ، ولهذا قال : « لو مكَّننا الناس .. إلخ » هـ .

قال رضي الله عنه : **« سبحان الله العظيم ، في صلة الأرحام خاصية في نماء الأعداد وفي نماء الأموال، ولو كان ذلك من كافر » .**

قال : **« هذا آخر الزمان ، والناس في دهليز القيامة ، إلا إنه سبحانه تفرد بعلمها ، والناس اليوم في علاماتها » .**

قال : **« يكفي الإنسان بعد الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر ، ذِكْرُ الوعد والوعيد ، عن الخوض في مسألة القضاء والقدر ، لأن فيها إشكالاً قويًّا لا ينحل إلى يوم القيامة ، وكل من تكلم في حَلِّها زادها إشكالاً ، فلا مطمع في حلها » .**

قال : **« إذا انْبَهَمَ عليك أمر ، فَسِرْ معه حتى ينقطع طرفه الثاني ، لأن الأول قد عُرِفَ ، فإذا عرفت السابقة فلا تَنْبَهِم عليك الخاتمة » هـ .**

أقول : هذه من كلماته الجامعة العسرة الفهم الغزيرة العلم ، ولا يُفهم معناها إلا منه ، ولا يطلع عليها إلا من فتح الله عليه ، وهو لا يجب أن يُسأل عن هذه وأمثالها ، لأن الكلام فيها ينجر إلى مواد غريبة هـ .

قال رضي الله عنه : « من الناس من أعطاه الله كمال الروح ، وهو الذي عليه العمل ، ومنهم من أعطاه الله كمال الجسم فقط ، وهذا ناقص . ومنهم من جمع الله له كمال الروح والجسم ، وهو النهاية والغاية ، وذلك لأن الله تعالى أراد أن يَعْمُرَ بهم مراتب الوجود ، وكثَّر أهل الأجسام لعمارة الدنيا بهم ، ولا يتم الكمالان إلا لمن أَهَّلَه الله للإرشاد ، وجعله داعياً إليه ، ولذلك لا يحصل إلا للآحاد من الناس » .

أقول : مراده بـ « كمال الجسم » : المحافظة على أحكام الشريعة ، و « كمال الروح » : التعلق بالحقيقة، ولا يكمل أحدهما إلا بالآخر ، فإذا كملا في إنسان فهو الكامل الداعي إلى الله .

قال رضي الله عنه : « لا عاد أحد من آل باعلوي يتعب نفسه ويرجو شيئاً من الولايات الظاهرة، فإنها لا تكون لهم ، وطريق سلفهم معروف ، وإن لم يعرفوه يجوا نحن نعلِّمهم إياه ، وطريقتهم الخمول، إذا ظهر اثنان ثلاثة منهم والبقية يمدونهم ، الفقيه المقدم ترك السلاح ، وأحمد بن عيسى خرج من البصرة فارًّا بدينه – وقال : اثنان لهما أكبر المنة على آل أبي علوي . وَذَكَر المذكورَين ، وفعلَيهما المذكورَين وقد تقدَّم تفصيله – وبدو يبحر ، ماذا وقع لهم ؟ صاروا بدواً » .

قال : « أهل الحق لا يزالون يتوارثون – أو قال : يتواترون – ويستترون إلى أن يخرج المهدي ، ولهم سير باطن إلى الله ، حتى منهم من يُرى كصفة المجانين وغيرهم ، بخلاف الجهال والعامة » هـ .

أقول : يعني الذين يشبهونهم فلا سير لهم .

قال : « من الخيانة في الأمانة أن يحدث بها وصاحبها لا يرضى بذلك ، وما زالت خيانته خفية فهو منافق ، فإذا ظهرت كان فاجراً ، فالخفاء نفاق والظهور فجور ، وعدم العدالة والأمانة تُسقِط الثقة به، وبكذبه تسقط الثقة بقوله » .

قال : « كثير من المنكرات العادية والمنكرات الدينية ، لو قدرنا على إزالته لأزلناه ، وما بقي من السُّنة مع ما حصل من الحوادث إلا كقدر الملح في الطعام » .

قال رضي الله عنه : « ذَكَر الإمام الغزالي أن العلم الذي هو نتيجة العمل ، وميراث التقوى أفضل من هذا العلم ، لأن ذاك هو الأصل ، وهذا وسيلة للعمل الذي ينتجه ، والعالم بهذا العلم ربما جرَّأ العامة على ارتكاب المنهي ، إذا رأوه يعمل على خلاف علمه » .

وقال : « ذَكَر الإمام الغزالي رحمه الله أنه لا فضل للعلوم العملية على العمل إلا من حيث التعدي، فإن لم يتعدَّ فالعمل أفضل منها ، وإنما يكون الفضل لمجرد العلم فقط ، فإنما هو في العلم بالله الذي يفيده العمل الصالح » ، ثم قال : « أصلح الصالحين من لا يرى أنه من الصالحين » .

وذكر أهل الغفلة ، فقال : « من كان منهمكاً في محبة الدنيا ، إذا وُضِع في قبره ومكث نحو ساعتين تنبه ، وقال : هاه ، هل أنَا مِتُّ ؟ من شدة غفلته » ، وتقدم قوله : « ومحبة الدنيا كلها سواء ، إن كان ذلك من مسلم أو من كافر ، وإن اختلفت المزية، فالكل مذموم ، وهم في الذم سواء ، لأنهم اشتركوا في محبة العاجل ، وهو مذموم في جميع الشرائع » .

وقال : « هنا الظلم يمحق » ، ثم تلا : « ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾، وإذا فعل من آمن مثل فعل من لم يؤمن، حصل فيما حصل فيه . والتكذيب يكون في القلب وفي الأقوال والأفعال ، وهؤلاء كذبوا بأقوالهم وأفعالهم ، والله أعلم بما في قلوبهم . وإذا ذبح الرعاةُ الغنمَ للذيب ، ما بالك ! وقد كان الرعاة يحفظون الغنم عن الذيب ، وهؤلاء ذبحوا الغنم للذيب ، ولكن الله يمهل ولا يهمل ، فقد قال الله تعالى : أنا الظالم إن لم أنتقم من الظالم . وجاء : إذا صلح الولاة والعلماء ؛ تمنى أناس من الأموات أن يكونوا في الأحياء ، وإذا فسد الولاة والعلماء ؛ تمنى رجال من الأحياء أن يكونوا في الأموات . والآن هنا هنا – لعله يشير إلى نفسه – أحد في الأحياء يتمنى أن يكون في الأموات » .

أقول : مراده إن المؤمن والكافر إذا اشتركا في فعل أمر مذموم في الشرع ، كالظلم أو محبة الدنيا، فإن فَعَلَهُ كلٌ منهما فيجزى كل منهما جزاه ، وإن اختلف حال كل منهما فيما عداه . ومراده بالرعاة : الحكام، فإنهم يحفظون الرعايا في أنفسهم وأموالهم ، وبالذيب : من يؤذيهم في أبدانهم وأموالهم ، وذبحهم: كونهم هم الذين يظلمونهم لمن يظلم : يشير بذلك إلى ولاة حضرموت ، بأنهم يظلمون المسلمين للظالمين – وهم يافع – حيث يوقعون لهم عليهم بأخذ أموال منهم لأنفسهم ، ظلماً وعدوانا . وفتنتهم هي الفتنة التي كوشف بها في مرضه في رجب وشعبان ، من سنة ١١١٦ ، وقال : « ما أوقعهم فيها بينهم إلا الربا والمداينات ، وقد نهيناهم عن ذلك فلم ينتهوا . وقد عُرِضت عليَّ هذه الفتنة منذ ليال ، ولكنني لم أتحقَّق ، هل هي على اليمن كله أو حضرموت ؟ » ، وهو يستعيذ بالله من شرها ، ويدعو بكفايتها ودفعها ، وأكثر تخوفه فيها من جهة الولاة . ذَكَر ذلك عبدون في نبذته في مرض سيدنا ذلك ، قال :

« فظهرت بعد ذلك في هذا العام فتنة ابن حبيش في اليمن ، وخروجه على الإمام ، فنهب كثيراً من بلدان اليمن وقراها ، وظهرت بهذا العام فتنة بدر ، وخروجه بيافع على سلطان حضرموت في ذي الحجة آخر سنة ١١١٦ ، ودخلوا تريم يوم الجمعة أول يوم في عاشور عام ١١١٧ ، فآذوهم أذى لا يحتمل من الظلم الفظيع الذي لا يمكن التعبير عنه » ، وهم فيهم إلى الآن ، وهو سنة ١١٧١ ، حتى تشردوا من شرِّهم في البلدان ، وأخذوا أموالهم ونخيلهم ودورهم .

وقوله : « **هؤلاء** » ، يعني الولاة ، وورد : « إن الله ليملي للظالم ، حتى إذا أخذه لم يفلته » ، وقال تعالى : ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ١٧٨﴾، وخصَّ الذين كفروا بالذِّكر في هذا ، ومعهم الذين ظلموا ، لأنهم شركوهم في ظلمهم ، فيجزون عليه مثل جزاهم ، وإن خالفوهم في غير ذلك إن ماتوا على الإسلام ، وإلا فهم كهم . فانظر قوله في هذا الحديث القدسي: « أنا الظالم إن لم أنتقم من الظالم » ، فأي توعد للظالم أشد من هذا .

وقوله في صلاح العلماء والولاة وفسادهم ، لأنهم العمدة في صلاح الدين والدنيا من الفريقين وفسادهم ، حتى إن الأموات مع صلاحهم يتمنون الحياة ، والأحياء مع فسادهم يتمنون الموت ، لما في صلاحهم من صلاح الدين والدنيا ، فيتمناه الأموات ليزدادوا صلاحاً ، لما رأوا من حسن عاقبته في البرزخ والآخرة ومع فسادهم يتمنى الموت أناس من الأحياء الصالحين ، خوفاً على دينهم من الفتن ، وشهد لذلك ما تقدم من قوله : « **ما أفسد على الناس دينهم إلا العلماء ، ولكن بعد فساد دينهم. وما أفسد على الناس دنياهم إلا الأمراء ، ولكن بعد فساد دنياهم ، لأن قوام الأمر بالرؤوس ، أهل الدين لأهل الدين ، وأهل الدنيا لأهل الدنيا ، فإذا فسد الرؤوس فسد المرؤوس** » ، يعني إن العلماء هم رؤساء أهل الدين ، يصلحون بصلاحهم ويفسدون بفسادهم ، والأمراء هم رؤوس أهل الدنيا ، يصلحون بصلاحهم ويفسدون بفسادهم ، ولا يصلح الدين إلا بالدنيا ويفسد بفسادها .

وقال : « ما غيَّر الناس إلا الناس ، حتى الدولة ما سبب غيارهم إلا هم ، وإلا فأحسن أن تسامح الغني لأجل الفقير ، ولا تطبخ الفقير في مرقة الغني » .

يعني إن الأحسن أن يسامح الغني لأجل قريبه الفقير الصالح ، ولا يُشرِكُ الفقير مع قريبه الغني في ظلمه له ، فيظلم الفقير كما يظلم الغني ، فإن ظلم الفقير الذي لا يقدر على شيء أشد عند الله من ظلم الغني الذي يقدر ، وإن كان كلاهما شرًّا هـ .

قال : « إذا فزع الانسان من شيء ، أو لقّي به أحد شيئاً ، أو هاب من وقوع الأشياء ، فيتوضأ ويصلي ركعتين ، لأن الله تعالى قال : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ » .

قال : « كان بعض المشايخ إذا أراد شيئاً أو دَفْعه ، طلب من المريدين الدعاء له بذلك ، وذلك لأن المشايخ الظاهرين بالمشيخة يغلب عليهم الرضا بالقضاء ، فلا ينزعجون لشيء ، وإنما ينزعج المريدون ويتضرعون إلى الله ، ولأن الدعاء بلسان الغير مستجاب ، لما جاء أن الله أوحى إلى موسى عليه السلام: ادعُني بلسان لم تعصني به . ومعناه اطلب من غيرك أن يدعو لك » .

قال في حديث أبي هريرة : « ثم ذَكَر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء .. » الحديث : « إن هذه المذكورة في الحديث كلها مما يقتضي إجابة الدعاء ، إذ ورد : إن دعاء المسافر مستجاب ، وكم من أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له ، لو أقسم على الله لأبرَّ قسمه ، ولكن مع أكل الحرام لم تنفعه تلك الأشياء في حصول الإجابة ، وإذا لم يُستَجَب دعاؤه لذلك ، فكذلك صلاته » .

قال له رجل من السادة : « ادعوا لنا » ، فقال : « أنتم ادعوا لنا ، فإنكم عادكم خفاف . وأما صاحب القافلة المحمَّلة ، أو السفينة المشحونة ، فإنما يسأل الدعاء من غيره ، وقد كان المشايخ المتقدِّمون إذا بدت لأحدهم حاجة ، سأل الدعاء فيها أحداً من المريدين » .

قال : « جاء في وصف المؤمن : إنه هَيِّنٌ لَيِّنٌ . أي حسن الأخلاق في غير معصية » .

قال : « كلما غلبت النفوس ضعفت القلوب والأرواح ، وبالعكس . وإن فعل خلاف ذلك فبالتكلف » .

وذَكَر صحيح البخاري ، فقال : « إنه لم يُعرف إلا من غيره ، فإن بعض العلوم يُعرف من نفسه، وبعضها إنما يُعرف بمعرفة غيره كالإحياء ، حيث قال مصنفه : إنما وضعته لسماسرة العلماء . من السمسرة ، التي تجمع الأمتعة ، وسُمِّي الدلال سمساراً لما يجتمع عنده من الأمتعة » .

قال رضي الله عنه : « الصالحات من النساء تكون في مرتبة الأبدال ، ولا تكون بدلاً » .

قال : « ولا تكون المرأة قطباً ولا بدلاً ، وإنما امتنعت سلطانة الزبيدية من الزواج بعد ما خطبها أناس من السادة ، لأن الصالحين لا يحبون أن يدخلوا في حكم الملكة والقهر ، لأن في التزوج حقوقاً كثيرة ، تصيِّرها كالمملوكة ، فلعل هذا هو المانع لها من ذلك » .

وأمر بعض الزائرين له - وكانوا جالسين في حضرته - بالتحول من محله إلى محل آخر ، ثم قال : « كانوا يكونون في الدار الواحدة خمس محال وأكثر ، وكانت عيونهم مغضوضة عن النظر ، وآذانهم

ممنوعة من الإستماع ، حتى إن الرجل لا يعرف زوجة أخيه وعمه ، فأعضاؤهم ملجمة عن المعاصي . وأما هؤلاء فيطلقون جوارحهم في المعاصي ، ثم هم يجحدون المعاصي ، ويجحدون الشهوات ، تجعلهم - أي تظنهم - من كبار الصالحين » .

قال : « الشر كالنار أو كالبحر ، يجر بعضه بعضاً ، فمن لم يتورع عن النظر مثلاً فلا يملك قلبه وفَرْجه ، وإن قال إنه يملكهما ولم يملك عينه يكذب ، فمن عجز عن القليل يعجز عن الكثير لا محالة ، ومن لم يتورع عن الدرهم الواحد ، فلا يتورع عن العشرة فأكثر » .

وذَكَر يوماً أهل الدنيا ، فقال : « في هذا الزمان قد ذهبت الدنيا عن أيدي الأخيار وصارت في أيدي الفجار - أو قال : في أيدي الأشرار - والفقراء كالمتاع في البيت هو الذي يحتاج أن يحفظ ، والأغنياء كالحجارة ، ولو أقبل الناس كلهم على الدنيا ما استاهلوا أن يحفظوا ، وإنما يحفظ الله خلقه بفقراء وصغار وشيبان ، قال النبي ﷺ : إنما ترحمون بضعفائكم ، وابغوني فيكم الضعفاء . وفي أحد الوجهين في قوله تعالى : ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾، ولو لا الضعفاء رحم الله بهم الكافة لأصابهم العذاب » .

وكلَّم إنساناً حطَّاء - أعني يخطي الثياب - فقال له : « أتُعلّم الناس الحظية وتحسّنون الدنيا ؟ والذي يحسِّن الدنيا أسفل وأخس عند الله من الذين يعمرون الدنيا ، لأن في العمران لها قد تدعو إليه الحاجة كالخياطة . وإذا قد ورد ذم عمران الدنيا فكيف بتحسينها ؟ » .

قال : « يقال : إذا أردت أن تعرف حال أحد ، فاسأل عنه أهل بيته وأهل خاصته ، لأنه ما يستحي منهم ، ويعاملهم بما يفعله في خلوته . والولي ما يكون مستوراً إلا عند العامة والمحجوبين ، وإلا فهو ظاهر عند أمثاله وعند نفسه ، والولي ما همه ومطلوبه إلا الخفاء ، وإن أحب الظهور سُلِب ، ولا تتبع إلا إن سهنت - أي رجوت - خيراً . وَدَع الناس تحت ستر الله ، والأولياء لا يحبون الإجتماع عليهم ، ومن أحب ذلك فعنده شبهة رياء ، حتى إن من أحب كثرة الجَمْعِ في جنازته فهو مرائي طالب شهرته بعد الموت » .

قال رضي الله عنه : « لا تعد شيئاً من يعد نفسه شيئاً ، وإنما الشيء من لا يعد نفسه شيئاً ، ومن قال: أنا أهل - وإن كان كذلك - قيل له : لست بأهل ، ومن قال : لست أهلاً ، وهو كما قال ، قيل له : أنت أهل . والطريق الباطنة غير الطريق الظاهرة ، هذه شيء وهذه شيء آخر ، كالذي قال : إن الشيخ عبدالقادر ما رأيت له في الملكوت شيئاً من الأمور ، ورُوحوا قولوا له . فكوشف به الشيخ ، فقال له : أنت تدخل في الدركات السفلى ، وأنا في الدرجات العليا ، فلم ترني ، وإنك ما وقع لك الأمر الفلاني

إلا بشفاعتي . فصدَّقه حينئذ ، وهذه أمور ينكرها الظاهر ، ولا هي منكرة » .

وذَكَر ابن الفارض ، فقال : « إنما عمره خمس وخمسون سنة . لأن أهل الأحوال الغالب إنهم ما تطول أعمارهم ، بل تأخذهم الأحوال ، كالشيخ أبي بكر السكران ابن الشيخ عبدالرحمن السقاف وابنه الشيخ عبدالله ، عمره نحو أربعين ، وغيرهما . والأحوال كغلبة شوق أو خوف ونحو ذلك ، فهذه هي الأحوال ، ومن لا معرفة له يحسب أن الأحوال غير هذا » .

قال : « قلة العناية - أي الإعتناء - بالشيء أمره مشكل جداً ، ولا يحصله وإن كان متأهِّلاً له ، وإنما يدركه بالعناية ، إنْ مَا أدركه في الزمن القليل أدركَهُ في الزمن الطويل » .

قال رضي الله عنه : « لولا فتنة تكون قبل خروج المهدي لأحببنا أن ندركه ، ولكنَّا نكره حضور الفتن » ، ومرة قال : « المتردد في الفتنة كالذي يتردد ماشياً وسط النهار » .

وذَكَر رجلاً ، كان بينه وبين آخر شيء ، فقال : « إنه سليم ، يصدِّق بكل ما سمع ، والأحسن للإنسان اليوم الإحتياط ، خصوصاً في هذا الزمان ، فلا يصدِّق من يمدح ولا من يذم ، فإنهم مفتونون، يصلحون الفاسد ويفسدون الصالح » هـ .

أقول : يعني يذكرون من أحبوا بالصلاح ولو كان فاسداً ، ويذكرون من كرهوا بالفساد ولو كان صالحاً ، لأن محبتهم وكراهتهم للعلل لا لله ، ولهذا تنقلب محبتهم بأدنى شيء ، هذا طبع أهل الزمان إلا من حفظ الله .

وقال : « لا يقال في النبي ﷺ إنه انتقل من حالة نقص إلى كمال ، بل هو في الكمال في جميع أحواله، ومسيره كله في الكمال ، حتى إنه عند ولادته وُلد رافعاً بصره إلى السماء ، وحتى مات في الكمال » .

وذَكَر شيئاً من أمور الدنيا وأحوال الناس فيها ، ثم قال : « إن الصحابة ما اغتروا بالدنيا ولا افتتنوا بها ، وأنا في ما أراه في نفسي ، لو أن رجلاً جاءني بحمول من ذهب ، وقال : خذها لك ، افعَلْ فيها ما أردت . لا أجدني أفرح بها ، ولكن لما حصل الكِبَر والأهل ، نأخذ ما تدعو إليه الحاجة ، وقد قال أنس بن مالك : لولا أولادي ، ما داريت الحَجَّاج . لأنه ظالم فخاف عليهم » ، أي من شرِّه .

وذَكَر الأمراء وأحوالهم ، فقال : « ما عاد يقوم الأمر إلا بالسيف ، ولا السيف إلا بالعدد والمعاونين، ولكن الحمد لله ، جعل الله في الأمر سعة ، فتُدرأ الحدود بالشبهات ، وإلا لو كان الحكم أن من عمل ما يوجب الحد ، فإذا علمت بفعله ذلك اسع في تحصيله ، وهاته كائناً ما كان ، وإلا فأنت مثله - أي يقام عليك الحد بدله - فلا عاد تفتش ، فكان إذا فَتَّشْتَ لحقت جواهر ، واليوم إذا فَتَّشْتَ لحقت بعراً .

وهؤلاء البدو الذين يقتلون بالقتيل رجلاً من قبيلة القاتل ، فما هم في طيب عيش ولا حياة ، ولو قتلوه بنفسه حصل الأمان ووافق الحق » .

ثم قال : « **اسْمَعْ ، لا عاد في أهل الملك ولا أهل المال بركة ، إلا إن كان قليل ، فلا يُستثنى إلا فيهم. وأما الفقراء والمساكين ، فلو قلت لأحدهم : تعال صَلِّ وأُعَشِّيك . جاءك ولا خالف ، إن لم يجِ للصلاة، جاء للعشاء** » هـ .

أقول : لعل معنى ذلك أنك لو تدعو الأمراء وأهل المال إلى أمر بمعروف أو نهي عن منكر لما انقادوا للإمتثال ، وأما الفقراء فإنك إذا أمرتهم ورغَّبتهم فيفعلون ولا بد ، إن لم يكن لامتثال الأمر، يكون للترغيب ، فالفعل للمأمور به حاصل ، وقد قال الفقهاء : « لو قلت لرجل ما يصلي : صَلِّ ، وأعطك درهماً . فصلى لأجل الدرهم ، سقط عنه الفرض ولم يستحق الدرهم » ، والمراد المقصود سقوط الفرض عنه وليس ذلك بقليل .

ولما ولي عمر بن عبدالعزيز الخلافة ، وقال له ابنه عبدالملك : « يا أبتِ ، ما تقول لربك إذا لقيته ، وقد تركت حقًّا لم تُحيِه ، وباطلاً لم تُمِته ؟ وما عذرك عنده ؟ » ، فقال : « يا بني ، إني لأريد أن أحيي الأمر من الحق ، وأميت الأمر من الباطل فأؤخر ذلك حتى أُخرِج معه طمعاً من الدنيا ، فإن نفروا من هذا ركنوا إلى هذا ، وإلا فلا يساعدون ، فإن أجدادك قد غروا الناس وخدعوهم عن الحق ، فأقبلَت إليَّ الأمور وقد ذهب خيرها وبقي شرها ، فصاروا لا يقبلون الحق الصرف إلا بشيء من أطماع الدنيا » .

وقد أشار سيدنا إلى هذا ، وذَكَرْنَاه فيما تقدَّم ، وهو أن قال : « **إن عمر بن عبدالعزيز لم يساعده الحال على القول الذي قاله له ابنه هذا ، وهو في القرن الأول ، أفيساعدنا الحال في ذلك ، ونحن في القرن الثاني عشر ؟** » ، فلما كان الأمر كذلك في وقت عمر ، لم يقبلوا أمور الدين إلا بطمع من الدنيا ، ولم يزل الناس مُدَرَّبون عليه ، حتى صاروا اليوم إنما يعملون ما افترض الله عليهم ، ولم يتقرَّبوا إليه بشيء أحب إليه من ذلك ، صاروا يعملونه لأطماع الدنيا ، فبئس وأبعد ما انعكسوا عنه رجعوا إليه ، وصَدَق عليه قوله : « **في هذا الزمان انعكست الأمور عن أوضاعها ، ورجعت إلى أضدادها** » هـ .

قال رضي الله عنه : « **العلم مشتمل على أصول وفروع ، فالفروع ترجع إلى الأصول ولا عكس . وأنت اعمل على ساقيتك ، واترك العمل على دجلة ، فإنك لا تصل في ذلك ، وإذا عملت على ساقيتك تيسر لك ، وإذا كان معها عشرون ساقية فلا تصل فيها كلها ، لأن فيها الكَدِرة والمالحة وغير ذلك، ولكن العمدة على الورع بالوسط ، من غير إفراط ولا تفريط ، إذ لا تحصل مع أحدهما . والأمور تشعَّبت وتوسَّعت ، فأين من وقتك إلى عهد رسول الله ﷺ ؟ فلا يمكنك أن تطلع إلى طالع الغيلة من هابط مرة واحدة حتى تقرقع مرتين ثلاث ، ثم يفتحوا لك ، ثم تدخل الضيقة وتجلس ، ثم تطلع شيئاً فشيئاً ، حتى تصل الغيلة** » هـ .

أقول : هذه المقالة كلها ضَرْب أمثلة وموازنة ، فيفسر بعضها بعضاً ، فافهم التمثيل والأوزان . وهذا مثل ما ذَكَر الإمام الغزالي في « الأربعين الأصل » ، من ضرب المثل لأحوال الناس في الدنيا، وما تؤول إليه في الآخرة . وَمَثَّل بالسفينة وهي سفينة النجاة ، لسلوكهم عليها إلى سبيل النجاة من العذاب والفوز بالثواب في الآخرة ، قال : « فالناس في الدنيا كمثل قوم في سفينة انتهت بهم إلى جزيرة، فأمرهم الملاح بالخروج إليها لقضاء الحاجة ، وخَوَّفهم المقام واستعجال السفينة ، فتفرقوا فيها . فبادر بعضهم لقضاء حاجته ورجع سريعاً ، فوجد فيها مكاناً خالياً واسعاً ، ووقف بعضهم ينظر في أزهار الجزيرة وأنوارها وعجائب رياضها ، فرجع فلم يجد إلا مكانا ضيقاً . وأكبَّ بعضهم على تلك الأصداف والأحجار ، وأعجبه حسنها ، فلم تسمح نفسه حتى استصحب منها شيئاً ، فلم يجد في السفينة إلا مكاناً ضيقاً ، وزادته الأحجار ثقلاً وضيقاً ، فلم يقدر على رميها ، ولم يجد لها مكاناً، فحملها على عنقه فهو يئن تحت أعبائها . ونزل بعضهم الرياض ونسي السفينة ، واشتغل بالتفرج وهو غير خال من خوف السباع ، ورجع إلى السفينة فلم يصادفها ، فبقي على الساحل فمزقته السباع والهوام . فهذه صورة أهل الدنيا بالإضافة إلى الدنيا والآخرة ، فتأملها واستخرج وجه الموازنة فيها إن كنت ذا بصيرة» .

والذي يظهر لي من قول سيدنا : « **العلم .. إلخ** » ، يعني إن الأصول وهي مباني الإسلام ، وكل ما وجب شرعاً يكفي في النجاة ، وحصول القرب من الله في الدار الآخرة عن الفروع ، وهي النوافل، ولا يكفي النوافل عنها في ذلك .

وقوله : « **أنت اعمل على ساقيتك** » ، مثل ما تقدَّم من قوله : « **اعمل على ما عندك من العلم والنور** » ، كما ذَكَرنا من معناه .

« **واترك العمل على دجلة** » ، يعني لا تنظر إلى أعمال من هم أكمل منك من الأكابر ، فإنك تعجز عنهم في إحكامها على غاية كمالها ظاهراً وباطناً ، « **فإنك لا تصل** » ، أي لا تقدر ، « **وإذا عملت على**

ساقيتك تيسر لك » ، أي حصل لك ما طُلِب منك على مقتضى حالك .

وقوله : « **وإذا كان معها عشرون ساقية .. إلخ** » ، يعني بالعشرين مبالغة في الكثرة ، يريد ولو بَذَلْتَ كل مجهودك ، ولو مثله عشرون مرة ، لا تصل إلى المقصود إلا بالورع ، فإنه عماد الدين وأساسه، وكل العمل بلا ورع كالبناء على غير أساس ، كما قال الحسن البصري لسيدنا علي ، لما سأله يريد يرى ما عنده من العلم ، حين رآه يقص على الناس ، فقال له : « ما مِلاك الدين ؟ » ، قال : « الورع » ، قال: « ما ذهاب الدين ؟ » ، قال : « الطمع » ، فأعجبه جوابه ، فقال له : « مثلك يحسن أن يقص على الناس»، فأمره أن يبقى يقص عليهم ، وطرد قُصَّاصاً آخرين .

قوله : « **لأن فيها الكَدِرة .. إلخ** » ، يعني إن الإنسان محل الخطأ لا يسلم منه ، لكن مع الورع معفو عنه .

وقوله : « **بالوسط** » ، يعني على القانون الحق ، من غير تنطع وغلو ، فإن دين الله الوسط ، بلا إفراط ولا تفريط ، والمتنطع لا بد أن يقع في أحدهما ، ولا يحصل المقصود مع واحد منهما .

قوله : « **والأمور تشعبت** » ، يعني وأقوال الناس وأفعالهم في أمر الدين قد كثرت وتفرعت ، وطال بهم العهد من حال السلف الصالح في الورع والتقوى ، حتى إن الناس اليوم مجمعين على أمور يحسبونها على قانون الدين في العادات والعبادات ، وليست عليه ، ومع ذلك يعمل عليها من هو منسوب إلى العلم والورع والتقوى ، كمعاملة بيع التطوع وغيرها .

ولهذا قال : « **فأين وقتك من وقت النبي ﷺ** » ، حيث الدين طري ، وسلوك الناس عليه على الوجه الشرعي ، بلا خلل ولا تغيير .

قوله : « **ولا يمكنك أن تطلع .. إلخ** » ، يعني إن الدين درجات ، من أدنى إلى أعلى ، فيسلك عليه الأدنى على دنوه ، والأعلى على علوه ، ولا يمكنك تصل إلى الأعلى إلا بعد إحكام ما دونه .

مثاله : ثلاث مقامات الدين : الإسلام ، الذي هو أعمال الجوارح الظاهرة من جملة الواجبات ، فتحكمها أولاً ، ثم ترجع إلى إحكام مجاري الإيمان الباطنة الستة : الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره ، فلا يُحكِم هذه حتى يُحكِم ما قبلها ، فإن كان في شيء من الأولى خلل فما أَحْكَمْتَ الثانية بعد . ثم ترتقي بعد إحكامهما إلى المقام الثالث ، الذي هو الإحسان ، كما فصَّله في الحديث : « أن تعبد الله كأنك تراه » ، فتكون في مرافقتك لربك في جميع أحوالك كرأي عين ، مع تحقق عقيدتك أن ليس كمثله شيء ، وأن لا يدرك ذاته ولا صفاته إلا هو ، ولا يدرك ذلك مخلوق قط .

والناس في الثلاث المقامات كُلٌّ على ما أعطاه الله من النصيب منها .

ومثّل لمعنى الترقي في درجات الدين : بطلوع الغيلة ، وهي الغرفة العالية ، يعني بها أعلى مقامات الدين ، وبهابط أسفل ، والأول : درجة الخواص . والثاني : درجة العامة مقام الصبر ، يتوصل منه إلى الأول : مقام الرضا . والتقرقع : مثّل به لقوة الإجتهاد في العبادة ، وبفتح الباب الحسي والدخول الحسي : مثّل لفتوح العارفين ، الذي هو مجرد وهب ، فيدخل به طريق السلوك إلى الله .

« حتى تصل الغيلة » ، يعني أعلى مقام في الدين ، وهو أعرف معرفة لله ، وهو مقام القطب ، فما دونه لخواص المؤمنين ، ثم إلى ما دونه لأصحاب اليمين ، كل على حسب حاله وما آتاه الله من النصيب في مقامات الدين الثلاث .

وأما كلام الإمام الغزالي الذي قال : « استخرج وجه الموازنة فيها .. إلخ » : فالسفينة : الدين الذي نجاتهم وفوزهم بركوبه ، مثّل له بسفينةٍ راكبين فيها ، والجزيرة : مَثَل للدنيا بكونهم فيها ، وهم مسافرون فيها إلى ربهم مدة أعمارهم ويزرعوا فيها ما سيحصدونه في دار إقامتهم ، فأمرهم الملاح: وهو الشارع . بالخروج لقضاء الحاجة : أي ليدأب كُلٌّ بما ينفعه إذا قدم على ربه ، وخَوَّفهم المقام واستعجال السفينة : أي خوفهم أن لا تنقضي أعمارهم وهم ما حَصَّلوا ما ينفعهم ، وحذَّرهم من التعرض لما يضرهم ، فتفرقوا : أي اختلفت أعمالهم ، كما ورد في الحديث : « كل الناس يغدو ، فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها » ، فبادر بعضهم بقضاء حاجته ورجع سريعاً فوجد فيها مكاناً خالياً واسعاً، وهذا مَثَلٌ لمن دأب مدة عمره فيما ينفعه عند الله في الدار الآخرة ، وهو البائع نفسه لله في الحديث .

ووقف بعضهم .. إلخ : وهو من تعلق قلبه بمحبتها ، وأعجبته زهرتها ، فاشتغل بذلك فلم يجد إلا مكانا ضيقاً : يعني بقي غافلاً عن العمل الصالح ، حتى قرب أجله فضاق وقته عن عمله ، وأكبَّ بعضهم : أي مع شدة محبته للدنيا ، جمع منها أموالاً من حجر الذهب والفضة ، فمات وتركها ، وبقي حسابها وعذابها في ظهره يئن به ، كحامل الحجارة الثقيلة على ظهره يئن بها ، فلم يجد له في سفينة النجاة - أي الشريعة - عذراً ، ولا بما دعته إليه عملاً ، فكثر عذابه وحسابه . ولم يقدر على رميها : أي ما قدر أن يفك نفسه من شرها ، مع اشتغاله بها في الدنيا عن العمل الصالح الذي ينفعه ، فلم يسلم من العذاب مع حرمانه من الثواب ، ونزل بعضهم الرياض ونسي السفينة واشتغل بالتفرج .. إلخ : هذا مثالٌ لمن لم يؤمن بالله ، ولا اتبع حكماً ولا تقيد بشرع .

وقال الشيخ : فهذه صورة أهل الدنيا ، بالإضافة إلى الدنيا والآخرة ، فتأمَّلها : يعني صورة أعمالهم في الدنيا وجزاهم عليها في الآخرة . فافهم ، فهذا وجه الموازنة الذي أمرك باستخراجه ، ولا تفهمه إلا إن كنت ذا بصيرة هـ .

* * *

قال رضي الله عنه : « ومن العلم العمل والإتصاف ، والإتصاف أشرف من العمل ، فإذا كنت تعلم أحكام الصبر وتفاصيله ، ثم إنك إذا وَقَعَت بك مصيبة قامت عليك القيامة - وهو كناية عن شدة الجزع - وجزعت ، فما نفعك ذلك - أي علمك بأحكام الصبر - وكأنك لم تعلم » .

قال لرجل : « لا تُقْدِم على أمر حتى تتفكر فيه ، وإتِ الأمر الذي تطلبه من وجهه الذي يُطْلَب منه، فإنَّ من دخل داره ، أو داراً فيها متاعه من غير بابه أُنكِرَ عليه في ذلك ، لا لكونه دخل داره أو أخذ متاعه، بل لكونه دخل من غير الباب . وقد تكون أمور مرتبة يُقَدَّم بعضها على بعض » هـ .

أقول : هكذا أخبرني الرجل الذي أوصاه بلفظه من لفظه .

قال : « ما عاد للناس هوى في الطاعة ، ولو إنك علَّمْتَ مُقَصِّراً في صلاته أو قراءته أو شيء من دينه ترك المكان الذي أنت فيه ، وإن علَّمْتَه في مسجدٍ ترك ذلك المسجد ، فما عاد معك أَلَّا تقيس فعله ذلك بتركه أيهما أحسن وأولى ، فتطلب ذلك وتراعيه منه - وافهم هذا مما ذَكَرَ وتقدَّم من قوله : العاقل من يعرف خير الخيرين وشر الشرين ، فيتبع الأرجح في ترك الشر إذا لم يمكن تركهما معاً ، وفعل الأرجح من الخيرين إذا لم يمكن فعلهما معاً - ولم يزل الناس يتناقصون حتى يبلغ الكتاب أجله ، ولو بقوا على حال واحد لما قامت الساعة » هـ .

أقول : يعني لعدم رغبته في أمور دينه ، لا يحب من يعرّفه بخطئه فيها ، ويبين له الصواب ، حتى إنه يكره مجالسة من يعلِّمه ، كمثل كراهته لمن يسأله شيئاً من ماله ، وذلك لما اشرأبَّ قلبه من الغفلة وعدم الإكتراث بأمور الدين ، هذا حال الكثير أو الأكثر من أهل الزمان ، سيما أهل النفوس .

وقوله : « لما قامت الساعة » ، يعني لو بقوا على الحال الجميل في دينهم ، لَدَلَّ ذلك على تأخر قيامها، لأنه موعود من الله ورسوله أن لا تقوم إلا على شرار الخلق عند ذهاب الدين وانقطاعه ، وذكر الإمام السيوطي لذلك مثالاً : « وهو أنه يكون الرجل حينئذ يواقع زوجته في الطريق بين الناس، وهم ينظرونه ولا ينكر عليه أحد ، غير رجل كان أطيبهم ، قال له : ادخُلْ في محل خال ، لا يراك أحد » ، قال: « ثم يَخْتَلّ حال الناس عن هذا ، ويفسدون أكثر من ذلك ، بحيث يكون الرجل يطأ المرأة الأجنبية زنا عياناً ، والناس ينظرون فلا يُنكَر ذلك » ، وهذا ما ورد من وصف الحال عند قيامها ، حتى يتهارج الناس تهارج الحُمُر ، فعند ذلك تقوم الساعة ، أي يُنفخ في الصور النفخة الأولى التي يموت بها كل حي ، وهذا هو التهارج كتهارج الحمر، وبين هذه النفخة الأولى والنفخة الأخرى التي يحيى بها كل ميت أربعون سنة ، فقرب تمامها يمطر الله مطراً كمني الرجال ، يطبق الأرض ، ثم ينبتون من الحبة

التي تسمى : عُجب الذَّنَب ، كحبة الذرة في عصعص الآدمي ، كنبت الطراثيث ، وتفصل الأعضاء ، فإذا تمت الأربعون ، فمن أول من يحيى إسرافيل ، فيأمره الله أن ينفخ في الصور النفخة الثانية ، نفخة البعث . وفي الصور ثقوب بعدد أرواح الخلائق ، فإذا نفخ طارت الأرواح ، وخرج كل روح من ثقب إلى جثته ، فتدخل من الخيشوم حتى تنتشر في الجسم كله ، ويخرجون حفاةً عراةً غرلاً - أي غير مختونين - أجوع ما كانوا قط ، وأعطش ما كانوا قط ، وأعرى ما كانوا قط ، فمن أطعم جائعاً في الدنيا لله ، أطعمه الله ، ومن سقى عطشاناً في الدنيا لله ؛ سقاه الله ، ومن كسا عرياناً في الدنيا لله ؛ كساه الله .

قال : « أمر الخير لا تخله ضَجِراً بك ، خذ منه ما استطعتَ ، فإن النفس تَمَلُّ حتى في أمور الدنيا إذا أكثرت منها ، فكيف بأمور الدين ؟ ومن كلام سيدنا علي : إن القلوب إذا أُكْرِهَتْ عميت ، وعماها عدم رغبتها في الخير » هـ .

قال رضي الله عنه : « الزهد في الدنيا والخلق عنوان الولاية » .

قال : « ينبغي أن يتوسط من الخوف والرجاء ، لأنه إذا اشتد خوفه انقطع ، ألا ترى لما ذَكَرَ النبي ﷺ بعث النار ، كيف جزع الصحابة ؟ حتى ذَكَر لهم يأجوج ومأجوج . ومن قد دعاه الله إلى الدين فهو على خير ، إذ لو لم يرد له ذلك لما دعاه إليه ، ولكن لا يغتر ولا ينهمك في شهوات الدنيا ، فإن أقل الحال يشتد عليه الموت بسبب ذلك » .

وسألته عن كلام ابن الفارض ، هل كان السادة متعلقين به ؟ ، **فقال : « نعم ، لأنه نظم ، والنظم سهل ولا عسر فيه ، وأين الحقائق الإلهية من يقين الموقنين ، فضلاً عن وهم الموهمين . وهذه الأشياء المشكلة تُنَزَّل إما على الروح أو على النفس الزكية ، أو ما أراده القائل ، وكم حد المخلوق ؟ ولا بُعْدَ فيها ، فإن الإنسان قد يذهل في أمور الدنيا فيشطح ، فكيف بأمور الآخرة ؟**

وأكثر ما يطلقون في تَغَزُّلهم على الروح المحمدية ، أو المقامات العلية ، لأنه عليه السلام مخلوق، والخطر في المخلوق سهل وإن عظمت منزلته عليه السلام ، مع الغاية في تعظيمه واحترامه ، ومن اعترض عليهم فإنما الشيطان لقي له مجالاً في قلوبهم - أي المعترضين - فلَبَّسَ عليهم ما هو سببٌ في الإعتراض ، كما ألقى في قلوب الكفار لما رأى منهم آذاناً مفتوحة ، لقوله حين تلى النبي ﷺ سورة النجم ، فتمثل لهم بذلك القول ، حتى سمعوا من قراءته عليه السلام بلا شعور من النبي لذلك ولا عَلِمَ ، فاعترض لهم ما بين لسانه عليه السلام وآذانهم ، وقلوبهم التي أذعنوا بها لعبادة الأصنام أضل من قلوبهم التي كَذَّبوا بها الأنبياء .

وكلام ابن الفارض أسلم خطراً من كلام ابن عربي ، لأن هذا النَّظم فيه تسامح وسلاسة تغطي ما فيه ، وذاك أكثره نثر وكلام غير منظوم ، والنَّظم فيه نادر بالنسبة إلى النثر » هـ .

أقول : ومن كثرة ما أسمع سيدنا يُحَذِّر من مطالعة كلام ابن عربي ، وكذلك السادة المتقدمون ، فدخلت يوماً على السيد زين العابدين العيدروس ، وكان جاء من الهند بكتب أجلاء ، كالصحيحين والإحياء وغيرها كثير ، نحو ست خزائن ، فرأيت قبالته كتاب ضخم كبير ، قال : « أهدته له امرأة في الهند » ، فسألته عنه ، قال : « كتاب الفتوحات المكية لابن عربي » ، فراودتني نفسي في مطالعته ، فأبيت وتوقفت ، ثم غلبني داعيها فأخذته ونظرت في خطبته ، فإذا هو يقول : « الحمد لله الذي خلق الإنسان من عدم وعدمه » ، فوضعته وتوقفت عن مطالعته ، واشرأبَّ قلبي هذه الكلمة ، فتفكرت في معناها ، واستعنت ببعض طلبة العلم من السادة ممن كان يقرأ على سيدنا ، وهو السيد عمر حامد ، وبقينا أياماً نتفكر فيها ، وَتَغَلَّق علينا معناها ، فإن عدم العدم هو الوجود ، فيكون المعنى خلق الإنسان من عدم ومن وجود ، فكيف يكون خلقه وهو موجود قبل خلقه ؟ فظهر لي بعد كثرة التفكر ، أن المعنى إنه كان موجوداً في علم الله قبل خلقه ، فَخَلَقُه حينئذ على ما هو في علمه ، لا يختلف عنه . فأخبرت السيد عمر بهذا المعنى ، فقال : « لا أرى معنى له إلا هذا ، وإنه الذي أراده » ، فَفَرَّجَ عني ، وعزمت على عدم مطالعته بعدها قط . وهذا من كرامات السادة نفع الله بهم ، أراد الله أن يبيِّن لي وجه تحذيرهم منه عياناً ، فالحمد لله على تأييده وتسديده .

وذَكَر ابن عربي يوماً ، **فقال** : « شرط العارف أن يمضغ بكل أضراسه ورحاه وشقَّيه ، كابن عربي يتكلم في الحقائق مع مبالغته في تعظيم الشريعة ومعرفته في كل علم . فإن من كان مثلاً يعرف الحِرَف كلها ، فهو حَيْك - أي حائك - وَصَبَّان - أي غسال - وحرَّاث وغير ذلك ، جامعاً للجميع ، فيجيه واحد ما معه - أي لا يعرف منهن - إلا واحدة ، فينكر عليه . فكيف ينكر على من هو أعرف منه في فنه، فضلاً عن غيره ؟ ومن أين علم المنكِر أنه في ذلك غير مغلوب ، ألا حملوا قوله على قول القائل حيث قال لما وجد الراحلة : اللهم أنت .. إلخ ، حيث أخطأ من شدة الفرح كما في الحديث - أقول : وهذا أيضاً في القول إن صحَّ عنه - وإلا ففي باطن الإنسان خواطر هي كفر صريح ، والرجل مستقيم في فعله غير مستقيم في قوله ، ولأنه إذا سَيَّبَ سُيِّبَ كالمدفع ، ومن دعا الناس إلى ذمه ، ذموه بالحق وبالباطل ، وعقيدته وفعله على غاية الإستقامة دون كلامه ، وكلامه أقرب إلى السلامة من كلام ابن الفارض ، لأنه ما يذكر حقيقة إلا ويذكر لها عشر كلمات في الإستقامة ، والحاصل إن الضعيف لا ينبغي أن يتعرض للبحور لئلا يغرق فيها » هـ .

أقول : وأول الحديث المشار أنه : « لله أفرح بتوبة عبده المؤمن ، من رجل ضلَّ راحلته ، وعليها ماؤه وزاده ، حتى إذا أيس منها نام تحت شجرة ، وقال : أنام تحت هذه الشجرة حتى يدركني الموت، فنام ثم انتبه ، فإذا راحلته واقفة عند رأسه ، ففرح بها فرحاً شديداً ، وقال : اللهم أنت .. إلخ » ، وقد ذَكَر كلمة مُنكَرة أخطأ فيها خطأ فاحشاً ، ذهولاً منه لشدة فرحه ، وإنما ضرب النبي ﷺ المثل بقصة هذا لشدة ترغيبه في التوبة ، ولأن ما يتوب عبدٌ إلا إذا تاب الله عليه ، لقوله تعالى : ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ﴾، فدلَّ على أنه ما يتوب حتى تتقدَّمه توبة الله عليه أولاً .

وقوله : « البحور » ، هم من وسَّع الله له في الوهب والعطاء بفضله وسابق عنايته ، ومن قلَّل له في الوهب والعطاء أو من لم يُعْطَ مما أُعطوا ؛ لا يجوز له أن يتعرض لأولئك الأكابر بإنكار واعتراض، فيهلك في دينه . وهو مراده بالغرق ، ومَثَّل بواجد الدابة بعد إياسه منها ، حيث أخطأ هذا الخطأ الكبير فعفى الله عنه ، ولو تعمده لكفر ، ولا يعفو الله عنه إلا بتوبة نصوح بشروطها ، وقوله ذلك يعرفه من يعرف العلم ، ولا ينبغي ذِكْره لمن لا يعرفه ، ولذلك أشار إليه سيدنا لأجل التمثيل ، ولم يذكره .

وقوله : « ففي باطن الإنسان خواطر هي كفر صريح » ، يعني لما كان خطأ هذا الرجل ، مع إنه تكلم به وظهر منه في الظاهر ، حيث إنه بغير قصد منه عفى الله عنه ، فكيف بالخواطر الكامنة بالقلب بلا ظهور إلى الظاهر ، فهي أولى بالعفو منه سبحانه ، وإن اشتدَّ خبثها وكفرها لو ظهرت .

قوله هنا : « وكلام ابن عربي أقرب إلى السلامة من كلام ابن الفارض » ، يعني إن في بعض كلام كل واحد منهما ما هو أقرب إلى السلامة من بعض كلام الآخر ، وبعض من كلاميهما عكس ذلك ، فأشار إلى كل منهما بذلك .

وقد أمرني سيدي بقراءة « رسالة القدس في مناصحة النفس » عليه ، لابن عربي ، وكان يمدحها كثيراً ، لأنها كلها فوائد ، وليس فيها مما يشكل شيئاً ، فلما أتممتها عليه ، قال لي : « **لا تعود تُمِرّ نظرك فيها ، لأن كلامه مظنة الفتنة ، وإن كان في نفسه في غاية الإستقامة** » .

وقد سأل بعضهم عن من يُنكِر على ابن عربي ، *فقال* : « **هو جدير بالإنكار عليه ، لكن ممن هو فوقه، لا ممن هو في السناديس . ولكن النفس تميل إلى كلامه ، وتنفر من الكلام الذي فيه دواها ، وبه يحصل لها شفاها ، وهو كلام الإمام الغزالي ، لأن من طبع النفس أنها تنفر عما ينفعها ، وتميل إلى ما يضرها ، كما تنفر من قول الطبيب الحاذق الناصح إذا وصف لها الدواء** » هـ .

قال هذا مع ما كان يمدح هذه الرسالة ، ويأمر بمطالعتها ، *وقال* : « ما في كتبه أوضح منها ، ولا أسلم من الشبه والخطر وأبين للصواب مثلها » ، ومع ذلك قال فيها ما قال ، شفقة منه رضي الله عنه ،

وقد قال مؤلفها فيها : « ولم يزل أكابر الأولياء مع الفقهاء في كل زمان كالفراعنة مع الأنبياء » .

فربما نهانا سيدنا عن مطالعتها لذلك وأمثاله ، مما يخاف أن يؤثر في القلب شيئاً هـ .

قال رضي الله عنه : **« لا تتعد في تنزيل ما تسمعه من الغزل نفسك ، بل تنزله على روحك ، أو على الكعبة ، لأنه لا خطر في ذلك ، ولا تتجاوزه إلى النبوة ، فضلاً عن الملائكة ، فضلاً عن الأمور الإلهية، فإن حد ما ينتهي إليه علم الملائكة سدرة المنتهى ، فيجدون أمر الله عندها ولا يتجاوزونها ، وقد ورد: إن على جوانب العرش مائتي شمس وقمر ، ينطمس في كل واحد منها نور الشمس والقمر ، لا يستطيع أكابر الملائكة كجبريل أن ينظر إليه . وهذه صورة العرش فما ظنك بغير ذلك ؟ وهذه الملائكة، فكيف بالآدمي مع ضعفه ؟ وقد قالت سيدتنا عائشة رضي الله عنها للنبي ﷺ : كيف رأيت ربك ليلة المعراج يا رسول الله ؟ ، فقال : نور ، أنّى أراه »** .

وذَكَر يوماً أناساً صحبوه أول العمر وقرأوا عليه ، منهم من قرأ « الإحياء » ، ومنهم من قرأ غيره، ثم تنفَّس الصعداء تنفس الحزين ، *ثم قال* : **« سبحان الله ، ما أطول الدنيا وما أقصرها »** ، ثم قال كما تقدم : **« ما عمدة الإنسان إلا اليقين والصبر ، فإذا حصلا له تحمل من المشاق والشدائد ما لا يتوهم أنه يحمله »** ، وقلت له : إنما يطلب الإنسان قوة اليقين ، والخروج من غوائل هذه النفس ، *فقال* : **« اليقين، إنما هو من السماء ، فاطلبه من الله تعالى ، ولا تعرف غوائل النفس إلا عند التجربة »** .

قوله : **« من السماء »** ، أي مجرد موهبة من الله ، لا يحصل بحيلة ولا بذل مجهود ، ولذلك قال : **« فاطلبه من الله »** ، ويرجى عند التفكر في مقوياته ، كما ذَكَر في « رسالة المعاونة » ، قال فيها : **« والأمور التي يقوى بها اليقين »** .

قوله : **« ولا تعرف غوائل النفس إلا بالتجربة »** ، يعني إنها قد تميل به بشدة شهوتها إلى أمور تضره في دينه ، فلا يفطن لها إلا بعد ذلك ، فيعرف بعد ما جرَّبها بها ربما قد دَهَته ، فإن ألهمه الله رشده تحذَّر منها وألقى إليها باله ، وخالفها في كل ما تدعوه إليه ، وذَكَر قول نبيه ﷺ : **« لا يُلدغ المؤمن من جحر مرتين »** .

وإن خذله الله ولم يجعل له نصيباً في الخير ، ولا في الوقاية من الشر ، اتَّبَعَ هواها في كل ما تدعوه إليه ، وصار لها عبداً مملوكاً ، كما هو غالب الناس اليوم هـ .

قال رضي الله عنه : « أمر الباطن إنما هو في لحظة » هـ .

أقول : يعني موهبة الله لمن أراد له ذلك وحضر وقته يكون كلمح البصر ، كما تقدَّم تمثيله في من حصل له ذلك ، كابن عبد ربه ، وابن عروس الملقب بالبهلول وغيرهما .

وتكلم في علماء الزمان ، فقال : « علماء الزمان ضحضاح ، وضحضاح من نار أيضاً ، وعلماء الزمان كحُجاج الزمان ، إذ يحجون للصلاح للأجرة ، فربما أن حجته للإسلام على هذه النية لا تصح، ولم يتعلم العلماء العلم إلا للدنيا ، قال بعضهم في علماء السوء يوم يذمون الدنيا ويُرَغِّبُون في تركها ويَرْغَبُون فيها : كأنهم يقولون للناس : اتركوا الدنيا لنا نأخذها نحن وحدنا . ومن تعلم علماً لا يحتاج إليه ولا ينتفع به هو ولا غيره ، فكأن العلم مات في صدره ، فينبغي أن ينظر في أول أمره العلم الذي ينتفع به ، وينتفع به غيره ، فيحصِّله ويدع ما سواه ، ولا أقل في العلم الظاهر من العمل به . وما مرادنا ممن يقرأ علينا إلا الإستعمال والإنتفاع والدعاء ، ونحن ندعو لهم بالإستعمال والإنتفاع ، فإن من توضأ غير مرتِّبٍ ما انتفع بالعلم ، وإن عرف ذلك » .

قال رضي الله عنه : « يحتاج أن يأخذ الإنسان العلم من المتأهِّل للتعليم ، ومن أخذ من غير متأهِّل ، له أن يعمل به في نفسه ولا يعلِّمه الناس ، لأنه يحتاج في تعليمه إلى قواعد ، ولا يمكن إيرادها إلا بالتأهل، ولا يتأهل له من لم يكن شيخه متأهلاً ، وإن تأهل لبعض العلم دون بعض علمه » .

ومرَّ في الدرس في قراءة الإحياء ذِكْرُ أركان المجاهدة والرياضة الأربعة ، التي قالوا : « بها صارت الأبدال أبدالاً » ، فقال عند ذلك : « إن الصوفية أمعنوا فيها ، وأخذوا بالحظ الوافر منها ، بحيث لا يكاد من يسمع ما نُقِل عنهم فيه أن يُصَدِّق به . ومن دخل طريقتهم فليأخذ منها بحظٍّ على قدره ، بحسب قوته واستطاعته ، فمن مُقِلٍّ من ذلك ومن مُكْثِرٍ ، وإلا فليكن إلى وَصْفِهِم أقرب من غيره » .

قال : « وقد أدركنا في جهة حضرموت من أهل الفضل الأخيار ناساً كثيراً ، أدركناهم وتبرَّكنا بهم وزرناهم من أشراف وغيرهم ، وأدركنا منهم في كل قرية من قرى حضرموت جماعة ، كشبام والغرفة وسيئون حتى المسيلة وعينات واللِّسك والواسطة ، وكنا نتردد لزيارة أهل الفضل من الأحياء والأموات ، وكان يتبعنا ناس كثير ، فإذا جئنا إلى بلد طلبونا ومن لَحِقَنَا ، فيلزم من هذا التثقيل على الناس ، حتى وصلنا مرة إلى الهجرين ومعنا نحو ستين رجلاً ، لكنَّا بعد قلنا : إن كان أُذِن لنا في التردد للزيارة مثل الشيخ عمر العطاس - لأنه كان كثير التردد لها - تخليت من جميع من يلحقنا ، وبقيت أنا وواحد ، الذي يمسك الدابة فقط ، لأجل التخفيف . ولو تركونا ولم يتعرَّض لنا أحد بالدعوة لما فعلت

ذلك » هـ .

أقول : قد تقدم قوله : « **قد حصل لنا إشارات وبشارات من أناس صالحين اجتمعنا بهم ، ما رأيناها إلا بعدهم ، فعرفناها من إشاراتهم** » ، وكذلك تقدَّم لنا منه رضي الله عنه إشارات كثيرة ، رأيناها بعده وعرفناها من إشاراته .

واعلم أن الولي في ابتداء أمره وحِدَّة إرادته يضطر إلى المدد من الله بواسطة أهل المدد من الصالحين، كاضطرار من اضطر إلى الغذاء الحسي حتى يباح له أكل الميتة ، فكذلك هم يضطرون لذلك المدد، ليحصل لهم به الزيادة في أحوالهم ، ويحصل لهم ذلك من الله سبحانه بواسطة أهل الولاية أحياءً وأمواتاً، فيترددون إليهم أحياءً وأمواتاً لذلك ، فيحصل لهم من فضل الله بواسطتهم من ذلك ما أرادوا . كما تقدم أن من اضطر في الحسِّ إلى تفريج كرب أو إغاثة ملهوف وإزالة الشدائد ، فيستغيثون بالأولياء أحياء وأمواتاً ، فيرسل الله تلك الأشخاص المتقدِّم ذِكْرها بالإمدادات وتفريج الكربات والشدائد على أيديهم ، فكلٌّ له وجهة إلى مقصوده وما يتمنى .

وربما اضطر أحدهم إلى الكشف عن مسألة ضرورية في مقتضى حاله ، كالثلاث المسائل لسيدنا ، لما اضطر إلى حلِّها ، فلم يجد من يحلها له ، فرأى رجلاً من أكابر آل باقشير من أهل القرن السابع – أظنه الحكم باقشير – فسأله عن المسائل الثلاث وقد قدَّمنا ذِكْرها ، فأجابه عن اثنتين وقال في الثالثة : « **أما هذه ، فلا يجيبك عنها إلا السقاف** » ، فخطر له أن مراده بالسقاف ، المرشد المسلِّك في ذلك الوقت من آل السقاف ، فسأل عنه فقيل له : « إنه السيد محمد بن علوي » ، فكتب له يسأله عنها ، ويسأله إلباس الخرقة ، فأجابه عنها وأرسل له الإلباس بأمر رسول الله ﷺ له بذلك مناماً أو كشفاً ، فوصلت سيدنا خرقته يوم وفاته بمكة ، وذلك إشارة إلى أنه خليفته ، ولم يجتمع به ، توفي قبل حج سيدنا بثمان سنين .

وهؤلاء الأكابر لا يعولون على الإجتماع ، فإن الوصلة حاصلة من دون اجتماع ، وإذا اضطروا إلى الجواب ، احتاجوا إلى إدراكه بسرعة بلا مهلة ، كما اضطر إلى ذلك تلميذ الشيخ عبدالرحمن بن علي من أهل شبام ، فكتب إليه كتاباً يسأله ، وما أرسل مكتوبه إلا مع طير ، أسرع له ليأتيه بالجواب في الحال ، فجاء الطير فوقف على حائط مسجد بامروان ، وكان الشيخ عبدالرحمن مع أصحابه فيه يقرأ في العلم، ثم طار الطير إلى جهة الشيخ وهو قابض الورقة بأحد كفَّيْه ، وحذف بالورقة عليه ، فنظر فيها ثم كتب جوابه في قفاها ، ثم رمى بها إليه ، فاختطفها وطار بها ووصله بها بسرعة .

فهكذا تُسَخَّر للأولياء الحيوانات ، وتنفعل لهم الأشياء كرامة من الله لهم .

وكذلك ابن عربي ، كان في خلوته ، واحتاج إذ ذاك إلى مسألة من شيخه أبي مدين ، وبينهما نحو

ثلاثة أيام ، فانشقَّ له الجدار فرآه ، وسأله فأجابه . وغير ذلك مما نُقِلَ عنهم في أمرهم هذا كثير ، ويعرف شأن ذلك من العلوم اللدنية الذوقية لمن مَنَّ الله عليه بها ، فذاقها على ما تقدَّم وَصْفه . فكذلك كان تردد سيدنا عبدالله نفع الله به في ابتداء أمره -على هذا الوصف - للزيارة للزيادة في الحال .

وكذلك قد يكشف الله لهم عن كيفية أصوات أذكار الملائكة في أماكنها على اختلافها ، زيادة لهم في أحوالهم ، فسمعوها مختلفة الأصوات ، منها كصوت الطار وكصوت الطبلة وكصوت دندنة الحديدتين إذا ضُرِبَتا وغير ذلك ، فإذا سمعوها زادوا بها زيادةً في أحوالهم ، لكن ذلك الكشف لا يدوم بل حُجِب عنهم ، وقد تعلَّقت به قلوبهم واشتاقوا إلى تلك الأصوات الشريفة ، وما صبروا عنها ، ففعلوا هذه الأصوات التي تشبهها وتحاكيها ، فإذا سمعوها تذكَّروا أنها تلك الأصوات الشريفة ، وذاقوا بها وازدادوا في أحوالهم بسماعها ، حتى إن الطار الذي يُضْرَب ونحوه ، إنما فعلوه لما سمعوا من أصوات أذكار الملائكة ما يشبهه ، ففعلوه ليتذكَّروا به ذلك ، للزيادة في الأحوال ، ولذلك دليل دال وشاهد :

أما الدليل : فمن قول الله وقول رسوله ﷺ ، فقول الله : ﴿ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ ﴾، فثبت بهذا أن صوت الرعد تسبيح ، وهو يشبه صوت الطار . وقول رسول الله ﷺ، ففي الصحيحين في بدء الوحي لما سئل النبي ﷺ : « كيف يأتيك الوحي ؟ » ، فقال : « يأتيني أحياناً مثل صلصلة الجرس ، فيفصم عني وقد وعيت ما قاله » ، وصلصلة الجرس : صوت من الأصوات، وهكذا أصوات الملائكة ، فيأتيه يخاطبه بمثل هذا الصوت ، فيعيه رسول الله ﷺ ، إما آية من كتاب الله نزل بها عليه ، أو خطاباً من عند الله أتى به إليه عن الله ، وأذكارهم على هذه الكيفية .

وأما الشاهد : فما ذُكِرَ عن سيدنا الشيخ عبدالله بن أبي بكر العيدروس نفع الله به : أنه كان يقبض الطار ويضربه ضربات مختلفة ، فمرة يضربه ويقول : « هذا صوت حملة العرش » - يعني صوت أذكارهم - ثم يضربه ضربة أخرى بصوت آخر ويقول : « هذا صوت أهل البيت المعمور » ، ويضربه ضربة بصوت غير الأول ويقول : « هذا صوت أهل سدرة المنتهى » ، ومثل ذلك ويقول : « هذا صوت أهل السماء السابعة » ، وهكذا مراراً ، ويقول : « هذا صوت كذا » . ويذكر ذلك على ما كشف الله له وأسمعه إياه ، من اختلاف تلك الأصوات الشريفة بأذكارها في أماكنها .

وهكذا ما كشف الله للأكابر من سماع أصوات أذكار الملائكة في طبقاتها ، وهؤلاء الذين يضربون الطِّيران ولا يعرفون أصلها ، ولا اطلعوا على هذا المعنى ، إنما هم إمَّعَة ، لا يعلمون أين هم سائرون ، وإنما هم معهم يسيرون ، يعني يفعلون كما يفعل غيرهم ، ولا ذاقوا بذلك ولا عرفوا معناه .

وقال بعض الفقراء من أهل وقتنا : « جلستُ يوماً بعد صلاة الصبح مستنداً إلى الجدار أذكر الله،

فأخذتني سِنَةٌ ، فرأيت كأني جالس مع جماعة متحلِّقين ومستديرين كالحلقة ، وكأنَّ فوقنا في السماء فُرْجَة مما يلينا ، وحول الفُرْجَة جماعة من الملائكة متحلِّقين دائرين عليها ، وهم بإزائنا ، لو مُدَّ خيط من نحوهم إلينا صار علينا . فقلت في نفسي : لأتسمعنَّ ما يقولون ، لعلِّي أسمع وأعرف كيفية أصواتهم في أذكارهم ، فإذا واحد منهم يقول : يكفيكم شاهداً ما تسمعون من صوت الرعد » ، يعني إنه تسبيح بنص القرآن ، وهو هذا الصوت الذي تسمعونه أحياناً كصوت الطار ، فإنكم ما تسمعون من أصواتهم إلا هو ، ولا تدركون منها غيره ، ففيه لكم شاهد ودليل هـ .

قال رضي الله عنه : « **ارفع رأسك إلى ربك وعامله ، ولا تقصِّر إذا قصر عنك الخلق ، فتكون إنما أنت معامل لهم ، واصفح عن تقصيرهم ، وإن كان يجوز لك مقابلتهم بذلك ، فقد سماه تعالى سيئة ، ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾** » هـ .

أقول : مراده بقوله : « ارفع راسك ..إلخ » ، يعني عَلِّق قلبك بربك ، وَذُدْهُ عن النظر إلى الخلق في أمر ما ، لكن كمال هذا ما يحصل إلا بموهبة من الله ، لا بإختيار العبد .

وإنما خاطب بقوله : « ارفع » ، كأنَّ ذلك باختيارك ، فإنه شأن الدعاة إلى الله ، يريدون منك أن تبذل مجهودك في مرضاة ربك ، وما وراء جهدك من مواهب ربك فذلك إليه لا إليك ، إذا أراده لك وأرادك له في سابق علمه بعنايته ، يَسَّرَه لك ويَسَّرَ لك أسبابه يقودك بها إلى ما أراده لك ومنك ، فانْوِ خيراً تَنَلْ خيراً .

وجاءت الآية المذكورة للرخصة في جواز مقابلة السيئة بمثلها ، وأكَّد ذلك مع الإشارة إلى الترغيب في العفو عنها ، كما أسس عليه الحكم الشرعي العام ، مِن طَلَبِ العفو بتسمية الجزاء باسم المجازى عليه ، فسمي سيئة باسم السيئة ، لأنه جزاء عليه ، وإنما السيئة هي الأولى ، وسمَّى جزاها باسمها تجوّزاً ، وهو من توسعات اللغة العربية ، كما سمَّى جزاء مكر الآدمي المقابل له من الله مكراً، كما قال تعالى : ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ۝﴾، ﴿ وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا﴾، وبيَّـن مكره بهم بقوله تعالى : ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝ ﴾.

فأراد سيدنا رضي الله عنه أن يترك الأمر الذي سُمِّي باسم مقابلِهِ السيء تورعاً واحتياطاً وتنزهاً عن فعل الأسوء وما شابهها ، وسُمِّي باسمها بسببها ، كما قال الله تعالى في حق سيدنا أبي بكر ، في شأن مِسْطح : ﴿وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ۝﴾، قال أبوبكر : « بلى، أحب أن يغفر الله لي » .

ومعناه أن الله سمَّى عفوه عن مسطح مغفرة ، استحقَّ بها أن يقابله عنها بمغفرة الله المسماة باسمها، ففي ذلك دليل على أن عدم مقابلة الشيء بمثله المسمى باسمه موجب لمغفرة الله ، وهذا من دقيق علمه ونصيحته وتعليمه رضي الله عنه ، وهذا جار ومطلوب في معاملات المسلمين بينهم ، سيما لذي القرابة ومن هو قائم في وظيفة دينية .

وكان مِسْطَح قرابة لسيدنا أبي بكر ، ابن خالة له أو نحو ذلك ، وكان من المجاهدين في سبيل الله ، ومن أهل بدر ، وكان سيدنا أبوبكر ينفق عليه لقرابته ، لكنه سمعه أو نُقِلَ له عنه أنه تكلم في الإفك ، وخاض فيه مع الخائضين ، فلما نزلت البراءة من الله في العشر الآيات في النور ، غضب سيدنا أبوبكر على مِسْطَح ، وقطع عنه النفقة ، وآلى - أي حلف - أن لا ينفق عليه . فتاب مِسْطح مما قال ، وكذلك كل من تكلم فيه ، وتبيَّن لهم إنما نشأ ذلك القول من المنافقين وكبيرهم الذي تولى كبرهم ، وهو ابن أُبَي الذي توعَّده الله بالعذاب العظيم ، فهو حقه ومستحقه ، لأنه أول من تكلم فيه واشتهر عنه ، فنهى الله سيدنا أبابكر عن قطع النفقة عن مِسْطَح ، وهو من أهل بدر ، وقد اطلع الله عليهم فقال : « اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » ، فأمر الله أبابكر بعود النفقة على مِسْطَح ، ووعده على ذلك بالمغفرة ، فقال تعالى : ﴿وَلَا يَأْتَلِ﴾، أي لا يحلف أن لا ينفق عليه ، ﴿وَلْيَعْفُوا﴾، فلما سمع قوله تعالى : ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾، قال : « بلى ، أحب أن يغفر الله لي » .

فالعفو والسماحة جاري في معاملات المسلمين بينهم ، ومشروع لهم في الدين ، وموعود لهم عليه بالخير ، وأما معاملات المسلمين للكفار ، ولا سيما في أمر فيه استهانة بالدين ، فلا عفو في ذلك ، ولو كان مع من كان ، وأما الرب في معاملاته لخلقه ، فيفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد .

ثم زاد المعنى المتقدم المذكور وضوحاً ، *فقال رضي الله عنه* : « **قوِّ همَّتك وارفعها واجعلها لله تعالى ، واخلص نيتك واصلح عملك ، واقصر نيتك على أمرين لا تتعداهما : الأول : أن يكون جميع أفعالك وحركاتك وسكناتك وأحوالك ظاهراً وباطناً لله تعالى ، أو فيما هو وسيلة إلى ذلك . والثاني : اجعل ميزانك في الآخرة يرجح بما هو لله تعالى على ما هو لنفسك لتكون ممن ثقلت موازينه ، ﴿فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾، ومن ثقلت موازين نفسه على ما هو لله ، ﴿فَأُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾.**

والنفس طبعها طبع الماء ، إذا سيَّبته إنما يسير إلى أسفل لا إلى أعلى ، ولكن يمضي عمر الواحد ما قهر نفسه لله ، ولا قام بحقه كما ينبغي منهم ، بل تركوا حقه وراحوا إلى أمور لا فائدة فيها ، لأن الشيطان قعد لهم على الصراط المستقيم ، فلا يَصِلون إلى الله إلا منه ، ولكن منعهم منه الشيطان ، فإذا كان لا يدخل الجنة داخلها ، ولا يدخل النار داخلها إلا بالصكاك لهم في ذلك - أي بكتاب لهم

بذلك - أفيحسبون الأمور سائبة ؟ ومعرفة الله خصوص لخصوص - أي فكذلك معرفته تعالى بالمكتوب لمن خص بها - والشيطان لما لعب بنفسه ، وعلم أنه ليس له توبة ، رجع يلعب ببني آدم ، حتى إنه لم يسأل الله إلا أن يُنظِرَهُ ، لذلك يلعب بهم حتى يحرمهم الخير ، ويلقيهم في الشر ، فلما لعب بأبيهم آدم حتى أخرجه من الجنة ، جعل يلعب كذلك ببنيه ، وإبليس يتنقل في سخط الله ، فيخرج من سخط إلى سخط ، من كبر إلى حسد إلى غير ذلك ، حتى إنه سأل الله الإنظار ليعمل في ذلك ، فأجابه لذلك زيادة في نكاله واستكثاراً له من غضبه ، فإنه قد أيسه من رحمته ، فلا مطمع له فيها . فلما علم أنه كذلك ، جَدَّ في ما يقربه إلى غضب الله ، ويدعو من اتبعه إلى ذلك . وأما آدم فإنه لا يزال يتنقل من رضا إلى رضا ، من بكاء على خطيئته ثم إلى إخبات ثم إلى تواضع » .

وتقدَّم قوله : « قعد الشيطان لكل أحد على طريقه التي يصل بها إلى الله ، لأنه عدوٌّ ممارس - أي مجرِّب - عارف بالطرق ، فجاء لبعضهم في البخل ومحبة الدنيا ، ولآخرين في الرياء والكبر وغير ذلك ، ومن كان من أهل أخلاق السوء هو متصف بها ويعمل بمقتضاها .. » ، إلى آخر ما تقدم .

وإنما أعدنا منه هذا هنا لمناسبة المحل .

قال رضي الله عنه : « إن لإبليس في أهل الشمال تمكيناً إلهياً ، وتسليطاً قوياً ، وإنه سأل الله التمكن من الفريقين : أهل اليمين وأهل الشمال . فلم يمكِّنه من أهل اليمين ، فقال تعالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ ، ومكَّنه من أهل الشمال ، فقال تعالى : ﴿ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ ، ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ » هـ .

أقول : قيل في معنى الآية : إن كل من ركب سائراً إلى معصية ، فهو من خَيْلِه ، وكل من سار ماشياً إلى معصية فهو من رَجلِه ، وما قهر عدو الله الناس العام منهم والخاص - خصوصاً في هذا الزمان السيء حال أهله - إلا بالخصلة التي أرضته من آدم ، وهي أن جعله الله يجري منهم مجرى الدم ، وأن جعل صدورهم مساكن له ، فأرضته منه هذه . والمرجو من فضل الله أن يقابلها بالخصلة التي أرضت آدم منه ، وهي قوله سبحانه لآدم : « أغفِرُ ولا أبالي » ، فقال آدم : « رضيت ، اكتفيت ، اكتفيت » ، ولهذا إن اللعين طغى على بني آدم ، فقال : « يا ربِّ ، بعزَّتك وجلالك لأغوينَّ ابن آدم ما بَقِيَت روحه في جسده » ، فقال الله تعالى : « وعزتي وجلالي، لأغفرنَّ لهم ما استغفروني » ، وفي الخبر : « إن إبليس قال : يا ربِّ ، أخرجتني من الجنة لأجل آدم ، وإني لا أقدر عليه إلا بتسليطك ، فقال تعالى : أنت مُسَلَّطٌ عليه ، فقال : زدني ، قال : لا يولد له ولد إلا وُلِد لك مثله ، قال : زدني ، قال : ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ﴾ قال : زدني ، قال : صدورهم مساكن لكم ، قال : رضيت.

فقال آدم : يا ربِّ ، سلَّطْتَه عليَّ فلا أمتنع منه إلا بك ، فقال : لا يولد لك ولد إلا وكلت به من يحفظه من الملائكة ، قال : زدني ، قال : الحسنة بعشر أمثالها ، والسيئة بواحدة ، قال : زدني ، قال : أغفر ولا أبالي ، قال : اكتفيت ، اكتفيت ، رضيت » .

وفي حديث : « إن إبليس يجري من ابن آدم مجرى الدم ، فضيِّقوا مجاريه بالجوع » ، فدلَّ ذلك على أن تمكنه من ابن آدم من شبعه من الأكل ، سيما إن كان من شبهة أو حرام . وتقدَّم قوله لمن شكى له من كثرة الوساوس ، أنه بسبب الطُّعمة والخِلْطة ، فبذلك يستقوي على ابن آدم ، فما أرضى عدو الله من آدم ، إلا أن جعلت صدورهم مساكن لهم ، ليتمكن بذلك من قلوبهم ، فيستمكن بذلك منهم ، فيُبطل عليهم عباداتهم التي يرجون نفعها عند الله في الآخرة بالوساوس ، فإن ما مقصوده منهم إلا أن يبعدهم من الله ، ويحرمهم ما ينفعهم عند الله . فلما أحرمه الله كل خير ، وأوقعه في كل شر ، فأراد أن يتشفَّى منهم بذلك ، ليكون منهم له مثيل ، ولا يكون منفرداً بغضب الله وسخطه وحده ، فأراد يشفي غليله منهم ، بتبطيل عباداتهم عليهم بكثرة الوساوس ، سيما في الصلوات ، حسداً منه ، حيث أبى من السجود لآدم لما رَكَّبَ الله فيه النور النبوي ، فيكون امتناعه معاداة لله ، حيث خالف أمره ، ومعاداة لرسول الله أيضاً ، حيث لم ينقد للسجود لأجله ، وقد انقادت له الملائكة وهو معهم ، ومُقَدَّمٌ عندهم، فطرده الله ولعنه ، وأبطل عبادته ثمانين ألف سنة ، ونودي عليه من مكان قربه بالخذلان واللعنة والطرد ، وذلك حين حضر وقت طرده المؤجل له في علم الله وتقديره .

وما أرضى آدم منه إلا أن وعده ربه أن يغفر الذنوب له ولبنيه ولا يبالي ، يعني ولو سعى اللعين بغاية جهده بوساوسه في عباداتكم ليبطلها عليكم ، فإني أغفِرُ لكم ذلك ، ولا أُبلِّغه مراده منكم بسبب ذلك ، فالحمد لله على ذلك ، فهذا غاية الرضا . ولهذا جاء في جميع الأدعية الواردة في التشهد الأخير عند ختم الصلاة وإتمامها ، طلب المغفرة والإعتراف بالذنب وطلب الرحمة ، كل ذلك لطلب إنجاز ذلك الوعد المرضي لآدم وذريته من عدوهم ، كدعاء سيدنا أبي بكر : « اللهم إني ظلمت نفسي .. إلخ» ، ودعاء : « اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم .. إلخ » ، وغير ذلك .

وذكر الشيخ ابن عِرَاق : « أن بعض الصالحين رأى إبليس في صورة رجل ، فقال له : لم تضل عباد الله ؟ فقال له : اِلزم الأدب ، وَقِفْ عند حدك من العبودية ، فإني مأمور فيما أنا فيه كما أنت مأمور فيما أنت فيه ، أما سمعت قوله تعالى : ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾؟ فهذا أمر عليَّ يلزمني امتثاله ، كما أنت في أمر يلزمك امتثاله » ، وفي كلام آخر عن هذا الصالح ، أو غيره من الصالحين ، لما قال له : « لم تضل عباد الله ؟ » ، فقال له : « تأدب ، لا تعترض عليَّ ، فإن كنتُ قد أضللتُ عباد الله ، فأنا من أضلني ؟ فإني كنتُ جالساً على سجادتي في عبادتي عند العرش ، فنوديتُ

من هناك : ﴿فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ٧٧ وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٧٨﴾ » ، نعوذ بالله من مكره وغضبه ، ومن الحَوْر بعد الكَوْر . وروي أنه عندما نودي بذلك النداء ، خاف خوفاً شديداً ، فبال من شدة الخوف ، فنبت من بوله شجرة الدخان التي يتعاطها كثير من الناس ، لعلها التنباك .

قال كاتبه : رأيت في بعض الكتب أن ذلك الذي يكلمه أنه سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه التقاه في صورة رجل ، وهو ماضٍ لصلاة الجمعة ، فقال : « أين تريد يا عمر ؟ » ، قال : « لصلاة الجمعة » ، قال : « إن صلاة الجمعة قد انقضت وفاتت ، فارجع » ، فعرفه سيدنا عمر ، فقبض بتلابيبه وقال له : « يا عدو الله ، ما لك تضل عباد الله ؟ » ، قال له : « تأدب .. إلى آخر كل هذا الكلام » .

وذكر الإمام الغزالي في كتاب الخوف من الإحياء : « أن جبريل عليه السلام جلس مع النبي ﷺ يبكيان ، فقال الله تعالى لهما : ما يبكيكما وقد أمَّنتكما ؟ فقالا : يا ربنا ، لا نأمن من مكرك . فقال تعالى: هكذا كونا ، لا تأمنا مكري » .

فانظر أيها المعجب بنفسه ، المدَّعي بعمله وعبادته ، كيف إبليس ما نفعته عبادته ثمانين ألف سنة، وما كان له من المنزلة أولاً ، وبعد ذلك كيف نودي بذلك النداء الفظيع ، المقتضي للخزي الوبيل في الدنيا والآخرة ، والويل الثقيل والنكال الشديد في الدارين ، وهذا جبريل طاووس الملائكة ومقدمهم، وأمين الله على وحيه ، مع ما له عند الله من المنزلة والمكانة ، وهذا رسول الله إلى كافة الخلق ، وأفضل الخلق عند الله ، وأكرم من مشى على وجه الأرض ، ومن خلق الله الخلق لأجله ، وشفيع الخلق يوم القيامة عند الله ، كيف لم يأمنا مكر الله ، وجَلَسا معاً يتناوحان ويبكيان خوفاً من مكر الله ، مع ما أمَّنهما، ومع ما لهما عنده من المنزلة والمكانة ، وأَمَرَهما مع ذلك أن لا يأمَنَا مكره ، وأن يكونا كما هما لا يأمَنَا مكره . وأنت مع كثرة ذنوبك واعتلال عبادتك وشوبها بالرياء ، وطلبك الأطماع الدنيوية عليها ، وعدم الإخلاص فيها لله ، من غير شعور منك بهذه الآفات فيها وغيرها لعدم إنصافك ، ولو أنصفتَ لاطَّلعتَ على ذلك ، كما قال الإمام الغزالي رحمه الله : « لو أنصف الناس ، لعلموا أن جميع ما هم فيه من العبادات فضلاً عن العادات ، إنما حملهم عليها إلا الرياء » ، وقال السيد عبدالله باحسن الحديلي – من أكابر السادة آل باعلوي – : « أيها المغرور ، إذا أنت صليتَ ركعتين في جوف الليل ، جلستَ تنتظر الوحي » ، أي بسبب ركعتيك ، لما أُعجِبتَ بهما ، فجَعَلْتَ تَمنّ بهما على ربك ، وترى إنك فعلت أمراً كبيراً .

أما ترى من هم أكثر منك عبادة ، وأصلح منك عملاً وحالاً ، كيف ما نفعهم عبادتهم حيث لم يرد الله نفعهم بها ، فإنما العبادة سبب يُرجى نفعها إذا وافقته الإرادة من الله ، فيفعلها العبد ويبقى راجياً، ويعلق رجاه وطمعه في الله دون نظر إلى ما عداه من الأسباب ، مع الإتيان بها ودونها ، فهو مغتر لا

يرجى له خير ، وهو معنى قوله : « قو همتك وارفعها » . فكيف يغتر جاهلٌ أحمقٌ بعبادته ؟

وأظن أن عبادة عدو الله إبليس كلها ، لم يكن فيها صلاة على رسول الله ﷺ ، وإلا لكان نفعته ، ولم يخل من نفعها ، كيف وهو مُعادٍ لرسول الله ﷺ ، بعدم انقياده للسجود لآدم ، لأجل نوره لما رُكِّبَ فيه ، وقد انقادت لذلك الملائكة وأذعنوا ، وأبى هو . فلذلك طُرِدَ وَلُعِنَ وَأُبطِلَ عمله ، فَسَدَّ الله عنه أبواب الخير ، فأراد الله حرمانه من الخير من كل الوجوه ، لما أراد له من تحتم الشقاء . وإلا فإن خليع بني إسرائيل الكِفْل ، المسمى عاصي بني إسرائيل ، عصى الله مائتي سنة ، ومات مُصِرًّا على الكبائر ، فرماه بنو إسرائيل بسبب عصيانه على مزبلة ، ولم يصلوا عليه ، فأوحى الله إلى موسى عليه السلام : « أن غَسِّلْه وَكَفِّنْه وصَلِّ عليه وادفنه » ، قال موسى : « إن بني إسرائيل زعموا أنه عصاك مائتي سنة، ورموا به لعصيانه » ، قال : « كذلك كان ، ولكنه كلما فتح التوراة ، ورأى اسم محمد قَبَّله وصلى عليه، فَشَكَرتُ له ذلك ، وَغَفَرتُ له ذنوب مائتي سنة ، وزَوَّجتُه بمائتي حوراء » ، فانظر إنه لما أراد الله سبحانه له من الرحمة ما أراد ، وَفَّقه لذلك وجعله له سبباً للمغفرة ودخول الجنة ، وذلك ببركة هذا النبي الكريم والصلاة عليه . فالسعيد من أحبه واتبعه ، وأما الشقي التعيس عدو الله وعدو رسول الله فقطع الله عنه أسباب الرحمة ، وسدَّ عنه أبواب الخير كلها من كل الوجوه .

حتى إنه جاء في الخبر : أنه شكى حاله إلى بعض الأنبياء ، فقال له : « ما تقول في من طُرِدَ وأُبعِدَ وأُبطِلَت عبادته ثمانين ألف سنة مجاناً ؟ اشْفَعْ لي عند ربك ، وانظر هل لي من توبة ؟ » ، فقال ذلك النبي: « يا ربِّ ، أنت أعلم بما قال عبدك ، وقد جاء معتذراً يطلب التوبة والإقالة » ، فقال سبحانه للنبي : « قل له : إن أراد التوبة يسجد لقبر آدم » ، فقال له : « يقول لك ربك : إن أردت أني أتوب عليك فاسجد لقبر آدم » ، قال : « ما سجدت له حيًّا ، أفأسجد له ميتاً ؟ » .

فانظر حال هذا الشقي الـمُمَكَّن في الشقاوة ، كيف لما سدَّ الله عنه جميع أبواب الرحمة وأسبابها من كل جانب ، حتى لم يمكنه من سبب للخير قط لتحتم الشقاء ، فإن الشقي لا يسعد ، والسعيد لا يشقى، كيف يكون له ذلك وهو عدو الله وعدو رسوله ، فإن قيل : إن الكِفْل مات على الإسلام ، فنفعه ما فعل ، ولولا ذلك ما نفعه شيء . فنقول : نعم ، من رحمة الله سبحانه له أن أماته على الإسلام، فنفعه ما ينفع من العمل ، وجَنَّبه عند الموت ما يضر من العمل ، ببركة ما ذُكِر عنه من صلاته على رسول الله ﷺ ، فإن المعاصي بريد الكفر ، فدفع عنه سوءها وختم له بحسن الخاتمة لذلك ، فلو أراد الله رحمة ذلك الشقي لجعل الله له سبباً لذلك ، فلو كان في مدة عمره صلى على النبي ﷺ صلاة واحدة لنفعته ، ولا تركته حينئذ عند مضيق من أمره ، ولكن لا فلا ، فإن النبي ﷺ مشهور عند كافة الخلق من الملائكة وغيرهم ، فقد عرفوا محمداً ﷺ وفضله قبل أن يعرفوا آدم ونسله .

فافهم من هذا كما تقدَّم من قول سيدنا ، وما تعلق به من الكلام ، أن ما العمل كله إلا على الإرادة منه سبحانه فقط لا غير ، والأسباب كلها تابعة لها ، لا يتعلق بها شيء من نفع أو ضر بمجردها ، إلا إن أراد . وإنما الطاعة والعبادة سبب وعلامة على الخير ، ترجيك وتطمعك فيه ، والمعصية سبب وعلامة تدل على الشر تخوفك منه وتزحزحك عنه لا غير ، كما قال الله تعالى : ﴿عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾، إلى قوله تعالى : ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾، وقال تعالى : ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُۖ وَإِلَيۡهِ تُقۡلَبُونَ﴾، فعلق ذلك كله بالمشيئة ، ولم يعلقه بعمل ، فإنما الطاعة والمعصية حُجَّة للعبد أو عليه ، كما قال سيدنا : « **إن الله لا يأخذ إلا بحُجَّة عليهم في إدخالهم النار ، ولا يدخلهم الجنة إلا بحجة لهم وهي الأعمال** » ، كما قال : « **لا يدخل الجنة والنار داخلهما إلا بالصكاك** » .

وانظر قوله تعالى : ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ﴾، أي خلقهم لها وأرادهم لها وأرادها لهم ، وجعل أعمالهم حُجَّة عليهم في إدخالهم فيها ، كما جعل لآدم أكله من الشجرة حجة عليه في إنزاله إلى الأرض ، فإن الله سبحانه أراد ذلك فاضطره بالسياسة وجرَّه بسلاسل القَدَر إلى أن أكل منها ، فعاتبه على ذلك فقال : ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾، وقال له : اهبط إلى الأرض ، فإنه لا يجاورني من عصاني . وتحرك بطنه لما أكل منها ، واحتاج إلى البراز ، فقيل له : أين تريد يكون ذلك ؟ أفوق فرش الديباج والإستبرق ؟ فاهبط إلى الأرض . كل ذلك ليكون حُجَّة عليه في إنزاله ، فإن الله سبحانه إنما خلقه ليجعله خليفة في الأرض ، كما قال تعالى : ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ﴾ ، لكن إخراجه من الجنة - مع ما هو فيه من النعمة واللذة في الجنة ، في جوار ربه مع الملائكة - لا يكون ذلك إلا عقوبة ، ولا تكون العقوبة إلا على ذنب ، فجعل أكله من الشجرة ذنباً يستحق عقوبة إنزاله إلى الأرض ، وجعله حُجَّة في ذلك ، وأكَّده بكثرة عتابه له عليه ، ثم قال له : اخرُج من جواري إلى دار الوحشة والغربة الأرض . وهو أراد له ذلك ، وما خلقه إلا لأجله .

فثبت بكل هذه الدلائل أن الأشياء كلها من الأسباب ومسبباتها بالمشيئة والإرادة فقط حقيقة، ولا بد للحقيقة من شريعة ، وهي الأسباب ، ولا تنفع حقيقة إلا بالشريعة ، ولا تفيد الشريعة إلا بالحقيقة، وإن الأسباب ناشئة عن الإرادة - وهي الحقيقة - وتابعة لها ، لإقامة الحُجَّة الشرعية لا غير، ولله الحُجَّة البالغة . فإن اقتضت المشيئة أن تعمل الأسباب بمسبباتها عَمِلتْ ، وإلا أبدل كلٌّ بضده الذي اقتضته المشيئة ، وعند ذلك لا حُكْم للأسباب ، وعمل الأسباب أيضاً بموافقتها ، ولو لم تقتضي مسبباتها زيادة في سرور من له الحجة ، وشدة حزن وثبور من عليه الحجة . فَأَجِلْ ذهنك في هذه المعاني من أمر آدم وغيره ، وكذلك في كل مطيع أُدخِل الجنة ، وفي كل عاصٍ أُدخِل النار ، فإنهم ما خُلِقوا إلا لذلك ، وإنما أُجرِيت عليهم الأسباب حُجَّة لهم ، وحُجَّة عليهم .

فافكر في أمر آدم ، كيف إنما خُلِق لعمار الأرض هو وذريته ، ولكن اقتضت الحكمة الإلهية أن يخلق في الجنة لتكون هي المنزل الأصلي لهم ، لمعان يعلمها الله ، وجعل أكله من الشجرة وعقوبته على ذلك بالإنزال المقرر عليه حُجَّة ، فكذلك الأعمال والجزاء عليها، وهو المراد منه في الخير لا غيره ، والأمرين إن اقتضته الإرادة ، وإلا عفي عنه ، وهذا من معاني كون رحمة الله سبقت غضبَه ، ويكون في أحد دون أحد .

وقد جاء في الحديث : « إن أهل الجنة عدد معلوم ، لا يزاد فيهم واحد ، ولا ينقص منهم واحد، وإن أهل النار عدد معلوم ، لا يزاد فيهم واحد ، ولا ينقص منهم واحد » ، وإن اختلفت الأعمال - حيث إنها مرادة ومكتوبة أيضاً - بأن يعمل كل عامل عمله من خير وشر ، فإن أراد الله جزاءه على عمله ، كان له ذلك ، وإلا جوزي كل عامل بضد عمله ، بحسب الإرادة كما اقتضته ، وعند الختم إن وافقت الإرادة أن يموت كل عامل على عمله ، فيختم لعامل الخير بالسعادة فيموت عليه ، أو لعامل الشر بالشقاوة فيموت عليه ، أو يبدل كل بخلافه . ولا بد أن يعمل قبل موته عنده عملَهُ الذي يختم له به فيموت عليه .

وعتاب الله لآدم على أكله من الشجرة هو الشريعة ، ووصوله إلى الأمر الذي أراده الله له وبه هو الحقيقة . فاعلم بذلك أن كل من خالف الشريعة فهو ملوم ومذموم عند الله ، وإن وافق الحقيقة، وهو الأمر الذي أراد الله له جزاه به ، إن خيراً فخير وإن شرًّا فشر . وقد عاتب الله آدم على خلافه ، وجعل خلافه سبباً لنزوله الأرض الذي أراد له ، فكذلك قد يعاتب على أمر ، ثم ينسخه بتبديل حُكْمِه إلى الحال الذي عاتب عليه ويكون إذ ذاك موافقاً ، والخلاف ضده الذي عوتب عليه ، فيتبيَّن أن ما العتاب والعقاب إلا على مخالفة الشريعة لا غير . فكن متبعاً لحكم الشرع ولا عليك ، وقد سَلِمْتَ من العتاب والعقاب ، وقد كان الحُكْم في رمضان أن من نام بعدما أفطر قبل صلاة العشاء لا يحل له أن يواقِع أهله، ففعل بعض أكابر الصحابة خلاف ذلك ، فنام ثم واقع أهله ، فمضى إلى النبي ﷺ معتذراً تائباً، فقال له ﷺ : « ما أنت حقيق بذلك يا فلان » ، ثم نسخ الله ذلك الحكم بضده ، فأنزل الله قوله : ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾.. إلخ . وكذلك كان أكل الغنائم محرَّماً، ومنه أخذ الفداء في الأسارى ، فاستشار رسول الله ﷺ أصحابه في أخذ الفداء من أسارى بدر ، فأشار أبوبكر بأخذه ، وأشار عمر بتركه ، فأخذ بقول أبي بكر ، فعتب الله عليهم بأخذه ، وعرض على رسول الله ﷺ عذابهم ، وأنزل الله قوله : ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾، يعني بأخذكم الفداء ، ثم قال تعالى : ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾، يعني أنه لا يعذب أهل بدر ، ﴿لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ﴾ من الفداء ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، فنسخ هذا الحكم بضده ، فقال : ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا

طَيِّبًاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٦٩﴾ .

وسألت سيدنا عن قول الإمام الغزالي في كتاب التوبة من « الإحياء » : « قد انكشف لأرباب القلوب أنه لا عفو عن عبد إلا بسبب خفي يقتضي العفو عليه ، ولا غضب إلا بسبب خفي يقتضي البعد عن الله .. إلى آخر ما قال » ، *فقال رضي الله عنه* : « **نعم ، لما أن أعطاه الله التوحيد والطاعة ، ورزقه ذلك ووفّقه له ، كان هذا منه تعالى لعبده من غير سبب ولا وسيلة استحقّ بها ذلك منه ، وعند ترتب المجازاة على الأعمال لا يكون شيء إلا بسبب** » .

أقول : قوله : « **ارفع رأسك إلى ربك .. إلخ** » ، وقوله : « **قَوِّ هِمَّتك وارفعها واجعلها لله .. إلخ** » ، كل ذلك يعني به : أنْ تُعَلِّق قلبك بالله في جلب كل ما ترجو من خير الدنيا والآخرة ، وفي دفع كل ما تخافه وتكرهه في الدارين ، ولا تلتفت بقلبك في ذلك إلى أحد سواه ، وأن تتجرد عن غيره بظاهرك فيما تقدر وفي باطنك ، وما لا تقدر عليه تعتمد فيه عليه أن يوصلك إليه ، فإنك لا تقدر على ذلك قط ، ولكن إذا أراده يسّره ، وحد مقدورك فيما ظهر ، وهو سببك الذي ترتبت لك عليه المجازاة ، وما عداه هو مواهبه سبحانه لعبده بلا سبب ، فإن تعلق القلب بمعالي الأمور موهبة من الله تعالى ، وأيضاً له إليها موهبة أخرى أعلى منها ، فإن اهتمامك بها ربما جرَّك إليها وجرَّها إليك ، كما قال معاوية : « هموا بمعالي الأمور تنالوها ، فإني كنت لست أهلاً للخلافة ، لكن هممت بها فنلتها » ، يعني بلغه الله إياها .

وحكى سيدنا عبدالله رؤيا رآها أعجبته ، وذلك إنه لما خرج يوماً لصلاة الظهر وجلس في الدهليز ينتظر اجتماع الجماعة ، كما ذَكَرْنا أن ذلك عادته ، *فقال* : « **رأيت ضحوة هذا اليوم عوض بن صباح – خادم له قد توفي – وكأني أسير في البلاد وهو يسير معي ، فمر في أرض سوداء من كثرة الوصح** » .

بالحاء المهملة ، وهو الماء المتغير من النِّيل من صبغ الثياب ، يراق في الميازيب فيقع في السكك ، ويسيل في الطرق .

قال : « **فيقول لي : لأي شيء ما نهيتموهم عن هذا ؟ وهو حنقان لذلك . فقلت له : أمر هذا سهل ، هو يجيء الآن مطر ، مرة مرتين فيغسله . ثم قلت له : إنا نحن ننظر إلى هنا – ورفع سبابته يشير إلى السماء – وأنتم تنظرون إلى هنا – ووضع السبابة يشير إلى الأرض – فبقينا نسير من طريق مديحج ، وكان أكثر ترددنا أيام الصغر فيها ، وكأنَّا نريد إلى دارنا ، وإذا بحفرة وطية غير كبيرة يخشى من سقوط رجل الماشي فيها ، فقلت له : مثل هذه ينبغي أن تدفن . فدفناها ومضينا** » ، *قال* : « **ففرحت بهذه الرؤيا**

لخصلتين : إحداهما ، إشارتي بإصبعي إلى فوق جهة السماء . والثانية ، ذكري للمطر » .

انتهت الرؤيا المباركة .

أقول : ما تشير إليه هذه الرؤيا : أما عوض بن صباح فهو خادم له ، مكث في خدمته نحو سبعين سنة ، وهو الذي ذَكَرتُ رؤياي له ، لما ذَكَرتُ زيارته للتربة ، وقوله : « من مات ما أحد رد عنه خبراً »، وسألته : كيف رأيت الأمر ؟ ، قال : « كما تسمعون وترون في الكتب » .

والأرض السوداء : إشارة إلى غلبة تعلق قلوب الناس بالدنيا ، ولهذا اشتغلوا بصبغ الثياب وبيعها طلباً للدنيا .

وقول الرجل : « لأي شيء ما نهيتموهم ؟ وهو حنقان » ، لما رأى الأمر عياناً ، وهو خلاف ما الناس عليه من تعلقهم بالدنيا ظاهراً وباطناً ، وكان ينبغي منهم الإقبال بكلِّياتهم على الله والدار الآخرة ، فراحوا إلى خلاف ذلك من تدنسهم بالدنيا ، وسواد قلوبهم بمحبتها ، على ما قال لي في الرؤيا : إن الأمر على ما ذُكِر في الكتب ، عن الله ورسوله من شرح حقيقة الأمر ، وإنه خلاف ما الناس متعلقين به من أمر الدنيا .

وقوله : « لأي شيء .. إلخ » ، يعني إنكم الدعاة إلى الله ، وما وعظتموهم لعلهم ينيبون إلى ربهم .

وقوله : « يجيء المطر فيغسله » ، وهذه التي فرح بها ، وهو إشارة إلى إنما الأمر بمشيئة الله لا غير ، وهو إشارته رفع مسبحته إلى السماء ، كما قال : « ارفع رأسك إلى ربك » ، وقوله : « قَوِّ هِمَّتك وارفعها واجعلها لله » ، وفيه إشارة إلى أن محو ما هم عليه من غفلتهم عن الله وعن الدار الآخرة ، ممحوٌّ عنهم ومُكَفَّر برحمة الله التي سبقت غضبه ، سيما وهم السادة أهل بيت رسول الله ﷺ .

قوله : « وأنتم تنظرون إلى هنا » ، يشير إلى الأرض ، يعني كنت أنت والناس اليوم على هذه الحال التي هم عليها ، من إخلادكم إلى الأرض - أي الدنيا - واتباع أهويتكم ، لكنك أنت رأيت الأمر عياناً حين قَدِمتَ على ربك ، فقابلك برحمته التي وسعت كل شيء ، فغفر لك ورحمك ، فكذلك هم أيضاً سيقابلهم برحمته ، فيغفر لهم ويرحمهم ، وكذلك من تعلق بكُمَّل السادة ، ومن تبعهم من محبيهم ومن يلوذ بهم ، كما كُشِفَ لبعض أهل الكشف منهم ، أنه رأى رجلاً من العوام مات ، فحين ما وضع في قبره ، جاءه الملَكَان فسألاه : « من ربك ؟ » ، فقال : « أنا خادم فلان من السادة » ، قال الملَك : « أنا أسألك من ربك ، فتقول أنا خادم فلان ؟ » ، فقال الملَك الآخر : « دَعْهُ ، فإنه خادم السيد فلان»، فتركاه وسارا عنه . أفتظن يا هذا أن محبة السادة وخدمتهم تروح سدىً ؟ كلا ، لا والله لنفعهم في الآخرة أبلغ بكثير من نفعهم في الدنيا ، وإن نفعهم في الدنيا خير بكثير من نفع غيرهم .

قوله : « وعند ترتب المجازاة على الأعمال ، لا يكون شيء إلا بسبب » ، يعني ترتب الأعمال الشرعية التي خاطب الله بها خلقه ، حيث بين الله لهم ما طلب منهم فعله ، وأمرهم بفعله ، ووعدهم على ذلك بخير الدنيا والآخرة ، وبين لهم ما كره منهم فعله ، ونهاهم عن فعله ، ووعد عليه بشرِّ الدنيا والآخرة ، ويبين ذلك ويدل عليه ، قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٌ ﴾ ، أي في أُحُد بقتل نحو سبعين منهم ، وكُسِرَت رباعية رسول الله ﷺ ، وهُشمت البيضة على رأسه ، وقُتِل عمه الحمزة ، ﴿ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا ﴾ ، يعني في بدر ، بقتل سبعين من الكفار ، وأسر سبعين منهم ، ﴿ قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ ﴾ ، أي من أين اصابنا هذا ؟ وبأي سبب وقع بنا ؟ ، ﴿ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ ﴾ ، يعني أنتم سبب وقوعه بكم ، على ما أشار إليه قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ إِذۡ تَحُسُّونَهُم بِإِذۡنِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ لِيَبۡتَلِيَكُمۡۖ وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝ ﴾ ، ما قصَّ الله من قصتهم في وقعة أُحُد ، وذلك أن رسول الله ﷺ رتبهم في أماكن ، وجعل الرماة في الطريق التي يسلكها العدو إليهم ، فكسروهم وقتلوهم ، وهو قوله : ﴿ تَحُسُّونَهُم ﴾ ، أي تقتلونهم بإذنه ، ووصَّاهم أن لا يتعد أحد موضعه ، إن رأيتونا غالبين أو مغلوبين ، فلما رأوا أصحابهم غالبين ، تركوا أماكنهم التي أمروا أن لا يتعدوها - وهو عصيانهم - وتراكضوا يريدون الغنيمة ، ونسوا الأمر ، وهو قوله : ﴿ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا ﴾ ، ولامَهم ناس منهم على المخالفة ، وما خالفوا ، وهو قوله : ﴿ وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ ﴾ ، فهذا من الجزاء في الدنيا المترتب على مخالفتهم ، وأما الجزاء المرتب عليها في الآخرة فمحاه الله عنهم ، فقال : ﴿ وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ ه .

قال : « غلبت الغفلة على أهل الزمان ، حتى عَمَّت في أمور دينهم ودنياهم وصلواتهم وسائر أفعالهم ، مع أنهم يسمعون الكتب ويقرأونها ، لكنهم إذا فتح أحدهم كتاباً ، كحجاب يريد أن يرفعه » ه .

أقول : يعني يفتحه وينظره قليلاً ، ثم يطويه لا يكثر في مطالعته ، ولا يتأمَّل معانيه ، مثل الحجاب الذي يتعلَّقه ولا يتعقَّله .

* * *

وذَكَر معنى حديث : « إن مَرَدَة الشياطين تُغَلُّ في شهر رمضان » ، **قال : « ولكن هذه الخواطر التي تعرض قد كانت معجونة في الإنسان من الشيطان قبل دخول رمضان ، وذَكَر ابن عربي أنها من النفس ، وذَكَرَ إن خواطر السجود في كل وقت من النفس ، وإن الشيطان إذا سجد ابن آدم يشتغل**

بنفسه ويعتزل يبكي » ، وقال : « سهر كل الليل في رمضان بدعة لم يفعله السلف الصالح » .

وتقدم أنه سئل عن حديث : « إن لله في رمضان عتقاء من النار » ، هل يشمل الأحياء والأموات والإنس والجن ؟ فقال : « هو للأحياء من الإنس والجن ، وأما الأموات فقد غفر لهم ، وليسوا في دار تكليف » .

وَذُكِر له جماعة وأثنى عليهم ، وأخ لهم مذموم الحال ، فقال رضي الله عنه : « الأمور بالأقدار ، فإذا قامت الأقدار فانظر الشريعة هي أين ؟ حتى تستقيم الشريعة مع الحقيقة » ه .

أقول : يعني إن المقادير تزعج الخلق قهراً لما يريده الله منهم ، كما قدَّمنا في قصة آدم ، وما معها من الكلام المتعلق بأفعال الخلق بالنسبة إلى إرادة الحق منهم ، وشاهِد ذلك إنك ترى الإنسان يتعمد فعل ما يعلم أنه يضره ، ويترك ما يعلم أنه ينفعه ، والعاقل لا يفعل ذلك وهو مختار ، كما قال في بعض المكاتبات : « والخلق مقهورون في عين اختيارهم لما يريده الله منهم ، ﴿فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾ » .

أقول : المراد إنك إذا علمت إزعاج المقادير لك قهراً ، فمع إزعاجها القهري لك ، مِلْ باختيارك يميناً أو شمالاً إلى موافقة الشرع ، فإن الميل منك اختياري ، وهو متعلق مطلوب الشرع منك ، فإن الشرع ما كلف إلا بما فيه الإختيار .

والإزعاج قهري ، وهو متعلق الحقيقة ، فإن الحقيقة تدبير الله في خلقه بما أراد الله سبحانه ، وإن كره الخلق ، لا بما أرادوا ، فالأكمل منهم من رضي ، والكامل من صبر ، على ما بيَّن الحديث المتقدم من مقامي العبادة من الرضا إن كَمُل ، أو الصبر إن قصر . ومثال ذلك : كما لو رُمِيت قهراً من فوق حائط طويل جداً ، وتحته موضع رملة دمثة ، لو وقعت عليها لم تضرك ، وآخر قوع صلب أو حصى صلد ، لو وقعت عليه تكسَّرَت عظامك وتقطَّعَت أعضاؤك ، ولك اختيار ، ويمكنك أن تنجو ، إلى أيهما شئت في هويك ؟ فالصواب أن تنجو إلى جانب السلامة ، وهو مثال اتباع أوامر الشرع ، والآخر المهلك الوقوع في مخالفته . وفي كلا الأمرين الحقيقة هي الغالبة والمتصرفة والفاعلة ، والمراد من كل ذلك أن تراقب ربك في جميع تصرفاتك وأفعالك وأحوالك ، أن تجري على الوجه الذي يحبه الله ، وتجتنب جميع مكارهه ، وقد استقمت على الصراط المستقيم الذي أمرك الله بسؤاله منه في الفاتحة ، وتطلبه في كل ركعة من صلاتك. وهذا معنى قوله : « الأمور بالأقدار ، فإذا قامت فانظر الشريعة هي أين ؟ » ، أي فاتبعها ، فإذا اتبعتها فقد اتبعت الحقيقة واجتمعا لك .

فكما قدَّمنا عن السيد أحمد الهندوان أنه قال : « من عمل بالشريعة فقد عمل بالحقيقة » ، يعني وليس كل عامل بالحقيقة عامل بالشريعة ، كما قال سيدنا : « من عمل بالحقائق وتبعتها طرائق سلمنا

له ، فإن لم تتبعها طرائق فهي أخت الزندقة » ، وقال السيد أحمد المذكور : « من عمل بمجرد الحقيقة تزندق » ، فقلت له : فإن عمل بمجرد الشريعة ؟ ، قال : « فإن عمل بها فقد عمل بالحقيقة أيضاً » .

وسيأتي قول سيدنا : « الخلق مكلوفون لما خُلِقوا له » ، أي مقهورون لذلك ، كما في الحديث : « كلٌّ مُيَسَّر لما خُلِق له » ، فمن خُلِقَ للخير يُسِّرَ لفعل الخير ، ومن خُلِق للشر يُسِّر لفعل الشر .

وفي هذا المعنى قال الشيخ زروق عن شيخه أبي العباس الحضرمي ، وهو الشيخ أحمد بن عقبة من تلامذة الشيخ عبدالله بن أبي بكر العيدروس ، من أهل شبام من آل بن عقبة المعروفين فيها ، وهو شيخه الذي عليه عمدته ، وانتفع به أكثر من غيره ، ويعنيه بقوله : « شيخنا أبي العباس الحضرمي »، كلما ذَكَرَهُ في كتبه ، قال : إنه كان يتمثل كثيراً بهذا البيت :

اتْبَعْ رِيَاحَ القَضَاءِ وَدُرْ حَيْثُ دَارَتِ وَسَلِّمْ لِسَلْمَى وَسِرْ حَيْثُ سَارَتِ

قال زروق : « وسلمى ، هي الشريعة ، فشَبَّهَ القضاء المزعج بالرياح الشديدة المزعجة ، وأَمَرَكَ أن تسير في انزعاجك مع الرياح ، أن تسير مع سلمى حيث ما سارت » .

واستأذن سيدنا رجل في السفر ، فقال : « ليس هذا وقته ، فاصبر حتى يأتي وقته . واحفظوا هذه الكلمة : إذا أردت أن تقطع فاقطع على مفصل ، فإن قطعت على مفصل قطعت ، وإن لم تقطع على مفصل كسرت » ، ويبيِّن معنى ذلك قوله : « ليس هذا وقته ، فاصبر حتى يأتي وقته » ، ومعناه : أنك إذا طلبت الشيء بسببه وفي وقته حصل - وهو مراده بالقطع على مفصل - وإن لم تطلبه بهذين الشرطين ، فهو القطع على غير مفصل ، فلم يحصل لك سوى التعب والعناء بلا حاصل ، وهو الكسر .

والشرط الثاني الوقت ، يدل على أمر ثالث ، وهو الأصل في وجود الموجودات وفي حصول كل شيء ، وهو أن يكون الشيء مقدوراً ، فالمقدور هو المؤقت بوقت . فالمقدورات لها أوقات ولها أسباب، فإذا كان مقدوراً على ما قال : « الأمور بالأقدار » ، ومعنى الأقدار : إرادة الله لذلك ، ووافق سببه وقته حصل في الحال ، ولا تفيد الأسباب في ما لم يقدر ، أي لم يرده منها له .

وقد قال غير مرة : « الأشياء بأوقاتها لا بأسبابها » ، فإنك ترى الشيء تتم أسبابه فلا يقع ، فإذا جاء وقته وقع ، أي يقع في وقته بسببه على وفق ما سبقت به إرادته بها وجرى به عادته سبحانه ولا بد ، وإلا فلا ، فإنه سبحانه جعل الأسباب وخص حصول الأغراض بأوقات ولم يطلقها ، بل علَّقها بالإرادة منه سبحانه ، فإن شاء أجرى تلك الخاصية وهي حصول الأغراض بتلك الأسباب التي رتب عليها حصول الأغراض ، وإن شاء نزعها منها فلا تفيد في حصول المراد ، وربما جعل الأسباب جالبة ضد

ما رتبها عليها إذا شاء ذلك ، فربما صحت الأجساد بالعلل .

ودعاني يوماً في رمضان بعد صلاة الظهر لكتابة ورقة ، وكنت إذ ذاك نائماً ، فقمت وتوضأت وأتيته وصافحته وقبّلت يده ، فأحسَّ البلل في يدي ، *فقال* : « **توضأت ؟** » ، قلت : نعم ، قال : « **نمت بعد الظهر ؟** » ، قلت : نعم ، قال : « **ونمت أيضاً قبل صلاة الظهر ؟** » ، قلت : نعم ، قال : « **إن الله يمقت على نومتين في اليوم ، إلا إن كان من شدة سهر ولم يحصل له قرار نوم في الأولى من تشويش** » ، وكان الأمر كذلك هـ .

قال رضي الله عنه : « **لا تطالب العبد في العبادات بإقامتها في الباطن حتى يقيم الصورة الظاهرة ، فإذا أقامها وأحسنها فَخُضْ معه في الباطن ، ولا يمكن إقامتها باطناً إلا بمقدمات ورياضات وترك الخوض في شيء** - أي من الكلام - **قبل فعلها . ولولا فضل الجماعة ما صلينا صلاتنا هذه ، لَكُنَّا نصلي في الخلوة** » هـ .

أقول : قوله « **ترك الخوض** » ، أي في كلام قبل فعلها ، لئلا إذا دخلها يخطر له ما قد تكلم به ، فيشوش عليه صلاته .

قال : « **وذلك مجرَّب لا بد منه** » ، أي مجرَّب خطور ما تكلم به قبل الصلاة ، أن يخطر في الصلاة، فلذلك كان رضي الله عنه يبالغ جداً في النهي عن الكلام حال انتظار الصلاة ، وينكر أشد الإنكار ، ويلوم حد اللوم على من يتكلم حال انتظار الصلاة ، يعرف ذلك منه كل الملازمين للصلاة معه من أولاده وجماعته وفقرائه ، نفع الله به ما أنصحه وأرغبه في صلاح المسلمين . حتى إني سلمت عليه في بعض الأيام ممن أوصاني له بالسلام عليه ، وبَلَّغتُه سلامه وهو خارج للصلاة ، فنهاني عن ذلك بعدها وقال : « **لا تَعُدْ قط تُسَلِّم عليَّ من أحد حال خروجي للصلاة ، فإنَّا نخرج للصلاة باجتماع وحضور وقطع الهم عما سوى الصلاة** » ، والمعنى أن منتظر الصلاة في صلاة ، والكلام منافي للصلاة .

قوله : « **لكُنَّا نصلي في الخلوة** » ، يعني فنطول فيها ، ونأتي بجميع أذكارها ونحو ذلك ، وأما مع الناس فلا نتمكن من ذلك ، لكن تفوق كل ذلك فضيلة صلاة الجماعة ، فآثرناها لذلك على ذلك .

وقوله : « **لا تطالب العبد .. إلخ** » ، يعني والإنسان أيضاً ينظر في نفسه كذلك ، فيطالب نفسه بإقامة الصلاة ، ظاهراً بكمال كل فروضها وسننها ، ويأتي بها على أكمل وجه ، ثم يطالب نفسه بإقامتها في الباطن على أكمل وجوهها من الحضور وغيره ، وينوي من ذلك ويعزم عليه ، لعل الله أن يبلغه ذلك إذا علم منه صدق النية ، وإلا فلا يقدر عليه إلا بتوفيق من الله لسابق عنايته .

ومعنى العناية : أن الله تعالى أراده لذلك وأراده له قبل إرادة العبد لذلك .

قال : « ينبغي أن يقرأ المأموم الفاتحة بعد ما يؤمن على قراءة الإمام الفاتحة ، في الحال من غير تخلف ، فإن أتى بها تامة في سكتة الإمام فهو الأحسن ، وإن بقي منها قليل يتمها بعد ما يشرع في السورة ، ثم يستمع قراءة الإمام ، ولا يمططها حتى يبطيء ولا يمكنه سماع قراءة الإمام السورة ، فمن فعل ذلك فهو عامي مخالف . وقد كنا أردنا أن نفعل نبذة في الصلاة للمصلين ، لكن رأيناهم معرضين عن الصلاة ، فتركناها » ﻫ .

أقول : قوله : « معرضين » ، أي معرضين عن فعلها بالكلية ، كما هو شأن كثير من الناس في تلك الجهة ، كالحراثين والبدو وكثير من غيرهم ، حتى إن ممن يصلي إذا أوجعه رأسه أو كسل ترك الصلاة وجعله عذراً ، أو معرضين عن الآداب المطلوبة فيها ممن يصلي .

وكثيراً ما ينهى ويبالغ في النهي عن الجهر بالقراءة خلف الإمام ، ويذم حال من يفعله ، وعن الجهر البالغ في تكبيرة الإحرام ، وعن التطويل والبطء بالنية ، سيما عندما يدرك الإمام راكعاً ، يريد أنه يكبر ناوياً بالتحرم فقط دون كلام آخر ، ويدرك الركعة لا تفوته ، ويترك ما يفعله العوام من الإشتغال بكلام آخر حتى تفوته الركعة . ومراده أن لا يشتغل بغير تكبيرة الإحرام ويدرك الركعة ، فإدراكها أولى من غيره ، وينهى كثيراً ويبالغ في النهي عن الكلام وقت الجلوس للحزب ، والجلوس لإنتظار الصلاة ، لما ورد : « إن منتظر الصلاة في صلاة » ، والكلام مبطل للصلاة .

وينهى عن التلهي عن الدخول في الصلاة بسرعة ، وينهى أن يشتغل حال الحزب بذِكْر أو غيره، حتى لا يشعر بالغلط ليرده ، ويقول إنه كذلك ، لا يمكنه الإجتماع في واحد منهما ، لا في ذِكْره ولا في الحزب ، أي فاشتغاله إذ ذاك ضائع . وأسمعه يقرأ في السكتة بين الفاتحة والسورة ، في الصلاة الجهرية في الركعة الأولى : ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾، وفي الثانية ، بعد ترضاه : ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾﴾، كما سيأتي في الخاتمة من ذِكْر السور والآيات التي واظب عليها في الصلوات المفروضات والمندوبات إلى الممات .

وقوله المتقدم : « **ولولا فضل الجماعة .. إلخ** » ، قال غير مرة : « **ما ثبت أن رسول الله ﷺ صلى صلاةً منفرداً ، ولا صلاة واحدة . حتى إن آخر صلاة صلاها بالجماعة أن صلى بهم في مرض موته صلاة المغرب ، قرأ في الركعة الأولى : المرسلات . وكان مرادنا لما حجينا أن نسأل عن رجلين : رجل متبحر**

في العلم الباطن ، فكل من توسمنا فيه وأردنا نأخذ عنه ، طلب منا الإلباس وقال : أنا أريد أن ألتمس منكم . ورجل متبحر في علم الحديث ، لأسأله كيف صلى النبي ﷺ السبعة عشر الصلاة التي لم يخرج فيها للناس حتى توفي » .

وتقدم ذكر سؤالات أراد يسأل عنها ، رأيتها مكتوبة في ورقة أعطانيها ، قال : « ضُمَّها عندك » ، قال : « وكاشفني في سفري إلى الحج ثلاثة رجال ، ما أحد كاشفني غيرهم ، واحد في الهجرين من آل بن نعمان ، أضمرت عنده : هل نعاود إلى الحرمين عودة غير هذه ؟ فقال : تعود بعد زمان طويل» ، ولهذا كان كثيراً ما يقول سيدنا ، وغير مرة : « نحن موعودين بالحج » ، ومرة قال : « بالعود إلى الحرمين» .

قال : « ورجل كاشفني في تعز من بلاد اليمن ، وذلك أنه سَايَرَنا رجل يدعي أنه شريف ، وفي نفسي من دعواه الشرف شيء ، فزرنا في تعز رجلاً صالحاً ، فأضمرت في دعواه الشرف في خاطري . فقال لي: إن الرجل غير شريف .

ورأيت في موقف عرفة رجلاً اسمه عبد الخالق ، يقال إنه من أهل الخطوة ، وطلبت منه الإجتماع به في خلوة ، فقال : إن طلعت الليلة إلى مكة حصل الإجتماع وإلا فالوعد المدينة . فلم يحصل لنا الطلوع إلى مكة تلك الليلة ، لاشتغالنا بالمناسك ، فحجَّ بالخطوة وأصبح سائراً إلى المدينة ، فاجتمعنا به فيها، فلما دخلنا عليه وإذا له بيت وحاشية ، وكُنَّا ظنناه متجرداً ، فجاءنا في بيته من أهل المدينة ناس كثير ، فسألني بعضهم عن مذهبي ، فأردت أن أقول : مذهبي الكتاب والسنة ، فخفت من إنكار أحد من الحاضرين ، فقلت : مذهبي شافعي . فقال عبدالخالق : كيف ما تحكي بما في نفسك ، وتقول مذهبك شافعي ؟ وإنما مذهبك الكتاب والسنة » .

هكذا حكى بالذين كاشفوه ، وما كاشفوه به ، وكلهم التمسوا منه وأخذوا عنه ، وقد أراد هو أن يأخذ عنهم ، حتى إن صاحب « المشرع الروي في مناقب السادة آل باعلوي » اجتمع به بمكة وأخذ عنه ، كما ذَكَره في كتابه المذكور ، وهو الذي أشار على سيدنا بعدم المجاورة ، وقال مراراً : « نُهِينا عن المجاورة » ، وكان سن سيدنا لما ترجم له في « المشرع » دون العشرين[1] ، وسن صاحب المشرع يزيد على السبعين ، كذا رأيت في ترجمته لسيدنا .

---

(١) هكذا في الأصل .

قال رضي الله عنه : « نحن مع الناس في فائدة عظيمة الحمد لله ، بسبب سلامة صدورنا منهم ، لأنا لا نعلم أحوالهم ، ولا نصدق أهل الزمان فيما ينقل بعضهم عن بعض ، ولو تحقَّقنا ما هم عليه من المذموم أبغضناهم لأجله ، وما معك يكفيك فكيف بالإطلاع على ما عندهم » .

وقال لبعض السادة ، وهو السيد أحمد با رقبة : « لا تشذ ، واتبع طريقة أهلك ، فمن شذ عما هم عليه شذ إلى النار . وتريم كانت مؤسسة على السُّنة ، وإنما تغيرت الأمور بسبب الحوادث القريبة ، فلا تشك في ذلك ، وسِر على الطريقة وَدَع السُّبُل ، وهي تتبع الرُّخَص وما يسهل ، أهو يصح أن يأكل اللحم ثلاث ليالي وصاحبه أو جاره لم يذقه ؟ سيروا مثل سيرة عبدالله باعلوي ، هذا هو العيش لا غير ذلك ، وكان يتلمس بطون المساكين ، يتحسس - بالمهملة - إن كان بهم جوع فيواسيهم ، وكان جيرانه من شدة حيائهم منه لكثرة عطائه لهم ، يوقدون التنور وهم طاوين ، يوهمونه إن عندهم عشاء ، وكان إذا درى بهم كذلك يغضب كثيراً ويلومهم ، ويقول : تريدون أن يخسف الله بنا ؟ الله لا يحلِّلكم يوم تباتون بلا عشاء ولا تخبرونا . وهؤلاء يخبون ما معهم ، ويجونك يطلبون » هـ .

أقول : كان السيد أحمد بارقبة هذا ذا ثروة ، وكان من ذرية السيد عبدالله باعلوي المذكور ، فنفره لفعل المعروف واتباع سيرة جدِّه في ذلك ، بقوله : « أهو يصح أن يأكل اللحم ثلاث ليالي .. » ، إلى قوله : « لا غير ذلك » ، ثم ذَكَر له من سيرة جدِّه ، زيادة له في الترغيب في المعروف ، وحثًا له على اتباع سيرته الحسنة في ذلك ، ثم مدح له تلك السيرة الجميلة ، فقال : « هذا هو العيش لا غيره » ، يعني إنفاق ما مَلَكَت يمينك فيما يرضي ربك ، لا في ما تهوى نفسك ، فهذا هو العيش الهني في الدنيا والآخرة .

وهذا القول من سيدنا على مقتضى حاله هو ، لا حال غيره ، فإن الحال الغالب من الناس اليوم خلاف ذلك ، لا يرغبون في معروف ولا ينتهضون لمروءة ، وإنما كلامه إخبار عن حاله المشكور ، ويستدعي الناس إلى ذلك ، فهناه الله بما أولاه من خصال الخير ، والتوفيق لأعمال الخير المثبِّت قلبه بما يرجوه من جزائه بالسعادة ونعيم الآخرة . وهذا بخلاف العيش بالإنفاق في مجرد هوى النفس ، فإنما يذكر منه إلا سوء الحساب وشديد العقاب المحزن للقلب بما يتوقعه من سوء عاقبته ، وهو عيش هؤلاء الذين يخبئون ويطلبون ، نعوذ بالله منهم ومن أعمالهم وأحوالهم وأموالهم .

وإنما ذكر له سيرة جدِّه ورغَّبه فيها وحثه عليها ، لأن النفس تستروح إلى أن تقتدي بالجد من أهل الخير ، أكثر من اتباع غيره ، ليحقق بذلك نسبته إليه . وذكر في « المشرع الروي » من سيرة هذا السيد الجليل عبدالله باعلوي غير ما ذَكَر سيدنا ، قال : « كان له ديوان مرتب بالعطاء الجزيل ، باسم الفقراء وأبناء السبيل ، وكان ينفق على جميع من في تريم من السادة ، ويموّنهم بأحسن ما جرت به العادة ، حتى إن السيد الجليل عمر بن محمد ، جمع من ودك لحم الغنم التي كان يرسلها له ثلاثين مَنًّا في شهر

واحد . وكان جميع جيرانه يتقلبون في جزيل إحسانه ، ويعيشون في فيض تفضلاته وامتنانه ، وكان الفقراء والمساكين حول داره مخيِّمون ، والغرباء بفناء مسكنه ينزلون ، وكان يسأل عن أحوال جيرانه ، ويتطلع على أصحابه وأعوانه ، وكان بعض جيرانه أوقدوا تنورهم ولم يكن لهم ما يخبزونه فيه ، حياءً من كثرة إحسانه إليهم ، فلما علم بذلك عاتبهم ، وصار - أي بعد ذلك - يسأل عنهم صبيانهم . وكان جماعة من أهل تريم تأتيهم نفقتهم إلى بيوتهم ، لا يدرون ممن هي ، فلما توفي فقدوا ذلك ، ثم ظهر لهم أن ذلك منه رضي الله عنه » .

- قال كاتبه : وهذه الخصلة كانت من سيرة سيدنا زين العابدين علي بن الحسين ، كان لما كان من شيمته الكرم ، وسجيته المعروف ، واقتداءً بجدِّه فيها ، إذ كان في وقته أناس كثير ، يرون كل ليلة يُرمى عليهم في بيوتهم أشياء لا يعلمون ممن هي ، فلما مات فقدوا ذلك ، فعروفوا أنها كانت منه . رضي الله عن الإثنين ، وعن أسلافهم الطيبين - .

« ووقف على مسجد بني علوي المنسوب إليه نخيلاً وأراضي وآباراً وعيوناً ، وعلى الواردين إلى المسجد المذكورين الضيفان بما قيمته تسعون ألف دينار ، ووقف على من يحفر قبور الأموات ، ويعمل اللَّبِن الذي يسد به القبر أرضاً ونخيلاً ، ووقف القُبَّان الكبير . وأعطى تلميذه الشيخ محمد بن علي باشعيب الأنصاري أرضاً واسعة ، فغرسها الشيخ محمد نخلاً ، وتسمى باشعيب ، ووقف على ضيف بلده المسماة بالواسطة نخيلاً وأرضاً ، وغير ذلك من العطيات التي تعجز عن مثلها الملوك ، وإيثار غيره على نفسه حتى العبد المملوك . وحكى تلميذه الشيخ علي بن سِلْم : أنه أتى له بخمسمائة دينار ، ففرَّقها في يومه ولم يترك لأهله منها شيئاً ، وحكي أنه تصدق بجميع ماله إلا قليلاً تركه لعياله ، إلى غير ذلك مما يفوق حاتماً وكعباً ، ويستقل عنده عدد الحصى .

وأما اجتهاده في العبادات ، وعمله في أنواع القربات ، فقد قام من ذلك بما لا يطيق أحد يحمله ، ولا يقوى مع التمسك بالسبب الأقوى من الهدى والتقوى ، وكانت أحواله تنزع إلى أحوال أبيه وجدِّه، وما سلكها مثل سلوكه أحد من بعده . فكان في أول سلوكه يأوي الجبال والقفار ، ويجاهد نفسه جهاد الأبرار ، ويكلفها مشاق العبادات وعزائم القربات والطاعات ، وكان بالليل يطوف المشاهد ، ويزور القبور والمساجد ، وكان كثير البكاء والعبرات والأذكار في ملكوت الأرض والسماوات ، لاهياً عن المراء والخصومات ، محافظاً على الخطرات واللحظات ، وكان لا يصرفه عن إتلاف المفسد صارف ، ولا يخرجه عن إتلاف المسترشد تليد ولا طارف ، وكان كثير التلاوة لكتاب الله العزيز ، ويأمر أولاده وأصحابه بكثرة تلاوته . قال بعض أكابر العارفين : إن أكثر ما يفتح الله على آل عبدالله باعلوي بتلاوة القرآن ، وأكثر ما يفتح على آل أخيه علي بن علوي بالذِّكْر .

وكان رضي الله عنه كثير البكاء من خشية الله عز وجل ، لا سيما عند تلاوة القرآن ، حتى كُفَّ بصره ، وربما مضى أكثر الليل عليه وهو يبكي على تفريطه » ، انتهى ما أردنا نقله من سيرة هذا الإمام الجليل ، وهو نقطة مما ذُكِر في ترجمته ، وذكره غيره أيضاً كالشيخ السيد محمد خرد في كتابه « الغرر » ، وهما من ذريته ، وذكره غيرهما كالخطيب صاحب « الجوهر الشفاف » وغيره .

استحسنًا ذِكْر ذلك لما قال سيدنا : « **سيروا على سيرة عبدالله باعلوي ، هذا هو العيش لا غير ذلك** » ، ليسمع السامع من سيرته شيئاً ولو قليلاً ، تنبيهاً بالقليل على الكثير منها .وإذا تأمَّلتَ السادة بني علوي نفع الله بهم ، رأيتهم كلهم كذلك ، وجملة ذلك إنهم كلهم كاملون بالله عارفون ، وعن الدنيا عازفون ، همتهم الخمول ويكرهون الشهرة وما يدني إليها .

وتقدَّم قول سيدنا أنه أول من قيل له يا شيخ من السادة من آل باعلوي ، وكان يكره أن يقال له ذلك ، حتى إنه كان يقول لمن قال له : يا شيخ : « الشيخ أبوك » .

قوله : « مسجد آل باعلوي المنسوب إليه » ، إنما نُسِبَ إليه لأنه جدَّد بناءه ، وأوقف عليه أوقافاً جزلة ، كما ذَكَره المؤلفون في تراجمه ، وبنى فيه زاوية للضيفان ، وأوقف عليها وقفاً للضيف يخصها . وأول من ابتدأ بناه ، أولاد الشيخ أحمد بن عيسى ، وكانوا أتوا بطينه وحصاه من أراضي لهم يملكونها ببيت جبير ، وكانوا ينقلونها إلى تريم على الجراديم ، وهي خشب تُجَر على عجل بدواب ، وكانت تحمل كثيراً وتجر عليها . وصفه القبلي واسطواناته كلها من بناهم البناء الأول ، وإنما جدَّد ما عداه ، ثم بناه محمد بن علي صاحب مرباط ، ومن بنائه المعصورة التي كان يعتكف عندها الفقيه المقدم وولده علوي، ويؤثر الناس اليوم لذلك الصلاة عندها زيادة على باقي المسجد ، وكل من اعتكف جلس عندها . ثم جدَّد بناه الشيخ عمر المحضار ، وهو بناه الموجود الآن ، وكان أراد هدمه وتجديده ، فمنعه من ذلك السادة ، وأرادوا التبرك بالبناء الأول ، فخاف الشيخ عمر سقوطه ، وما تمكن من هدمه إلا لما ساروا لصلاة الجمعة ، فأتى بالهدامين في غيبتهم فهدمه ، وأدركوا المعصورة قبل هدمها فمنعوه منها ، فبنى اسطوانة في جنبها وبَقِيَت من بناء صاحب مرباط . ومن وقت عبدالله باعلوي ، لما كان هو المتولي أمر المسجد ، صار المتولون عليه والمنتمون فيه آل حامد من ذريته إلى الآن .

وأراد سيدنا في قصيدته السيد عبدالله باعلوي المذكور ، وأمثاله من السادة ، وهي قوله :

يَاسَعْدُ رَاحَ الوَفَا وَاهْلُهْ وَرَاحَ الجميلْ ... وَرَاحَوا النَّاسْ ذِي كَانُوا هُدَاةَ السَّبِيلْ

وَذِي بِهِمْ يَصْلُحُ الفَاسِدْ وَيُشْفَى العَلِيلْ ... رِجَالْ كَانُوا هُمُ العُدَّهْ لِحِمْلِ الثَّقِيلْ

عَلَى الهُدَى وَالتُّقَى وَالخَيْرْ كَانُوا دَلِيلْ   كَالظِّلُّ وَالبَارِدِ الصَّافِي بِحَرِّ المَقِيلْ
وَكَانْ فِيهِمْ غِنَى المُعْدَمْ وَعِزُّ الذَّلِيلْ   وَفِيهِمِ الغُوثْ لِلْمَلْهُوفْ والمسْتَقِيلْ
صَارُوا إِلَى اللهْ نِعْمَ الرَّبُّ نِعْمَ الوَكِيلْ   وَليسْ فِي النَّاسْ بَعْدَ القومْ منهمْ بَدِيلْ
لله لله مِنْ عَبْرَهْ وَدَمْعَهْ تَسِيلْ   وَمِنْ تَحَسُّرْ عَلَيْهِمْ لَيْسَ يَشْفِي غَلِيلْ
وَلاَيَرُدُّ الَّذِي قَدْ فَاتْ حُزْنَ اوْ عَوِيلْ   وَالصَّبْرْ أَبْقَى وَأَتْقَى للإِلهِ الجَلِيلْ
وإِنْ تَقُلْ كَيفْ حَالْ المنزِلَهْ وَالنَّزِيلْ   وَكَيفْ حَالِ المَرَابِعْ وَالرُّبَا وَالمَسِيلْ
بَعْدَ الَّذِيْ قَدْ تَفَانَوْا جِيْلْ مِنْ بَعْدْ جِيْلْ   فَمَا بَقِيْ شَيْ وَلَكِنْ سِتْرْ رَبَّكْ جَمِيلْ
وَظَنُّنَا فِيهْ سُبْحَانَهْ وَامَلْنَا طَوِيلْ   نَرْجُوهْ يَرْحَمْ وَيَغْفِرْ كُلَّ ذَنْبٍ ثَقِيلْ
وَيَجْبُرُ الكَسِرْ فَهْوَ المرتجَى وَالكَفِيلْ   وَالمحسِنُ المنعِمُ المفضِلْ وَمُعْطِيْ الجَزِيْلْ
تَمَّتْ وَصَلُّوْا عَلَى المخْتَارْ هَادِيْ السَّبِيلْ   وَالآلْ وَالصَّحِبْ فِي غَدَوَاتِهَا وَالأَصِيلْ

وذَكَر أحوال الناس في طلب الدنيا ، وكثرة سعيهم لتحصيلها ، وقال : « **أحسن أحوالهم بعد الصدقة ، الراحة من متاعب الدنيا ، فإنه ليس لهم منها إلا فائدتان : إحداهما : التصدق في سبيل الله خالصين في ذلك لله . الثانية : الراحة فيها .**

وأهل الزمان خالفوا الله ورسوله ، ولا عدلوا في أنفسهم وأهليهم وجيرانهم وهم على هذا ويطلبون والياً عادلاً ، فمن أين لهم ذلك ؟ لو طلبوه في النار ما وجدوه ، لكن سلط الله عليهم ظالماً بلا كيل ، لأن والي الأمر لا بد له من نظر ، إن لم يكن نظر دين ، كان نظر دنيا » .

انتهى ما تكلم به بحضرة ذلك السيد أحمد بارقبة المذكور يخاطبه به ، وفي مشافهته له بهذا الكلام إشارة له ولغيره ، ممن بلغه كلامه هذا ، في الترغيب في المعروف وفعل الخير ، وعدم ارتكاب المحذور ، فإن فعل الخير عند الله باقي .

وقوله : « **لو طلبوه في النار ما وجدوه** » ، هكذا لفظه بحروفه ، ويشير إلى أنه ما أصابهم هذا الظلم الفظيع إلا من مخالفتهم لله ولرسوله ، وعدم عدلهم في من ذُكِر ، ومن تقصيرهم في فعل الخير والمعروف وارتكاب المحذور ، وهو عقوبة لهم على ذلك في الدنيا ، فليجتنب ذلك .

وأما في الآخرة ، فقد تقدَّم قوله ما معناه : « **إذا أصاب المؤمن في الدنيا عقوبة بسبب سوء فعله ،**

فهو كفارة له وكالحد » ، أي إذا لم يكن حد ، يعني لم يرتكب ما فيه الحد ، أو لم يبلغ الحاكم الذي يلزمه إقامته هـ .

قال رضي الله عنه : « إذا وُجِدَت الهمة انبسَطَت في البدن ، فيقوى البدن بسبب ذلك ، ويقوى الروح أيضاً » .

قوله : « انبسطت » ، أي انتشرت في البدن كله ، فيقوى في الأمر الذي حصلت فيه الهمة . يعني يقوى فيه بدنه وروحه معاً بسبب الهمة ، لأنها باعث من الله سبحانه عليهما كليهما في الأمر الذي يرضيه، ويسمى هذا التوفيق ، وهو اتفاق إرادة الله وإرادة العبد في فعل ذلك الأمر .

وذكروا تعريفه أنه في المطلوب : خلق قوة الطاعة في العبد ، ومدده من الله على أيدي الملائكة . وعكسه الخذلان وهو : خلق قدرة المعصية في العبد ، وهو بإرادة الله الأزلية دون الشرعية ، وجعل مدده على أيدي الشياطين ، إبليس وجنوده الذين سلطهم عليه بعدله ، والأولون عباده المخلصون الذين لم يجعل له عليهم سلطان بفضله ورحمته ، وجملة الفريقين ما وعد الله سبحانه أن يملأ بهم الدارين .

ومثال قوة البدن بوجود الهمة في الطاعة ، ما تجده من النشاط في العبادة في شهر رمضان - بسبب الهمة لها فيه - ما لا تجده منها في غيره ، انظر كيف يساعدك لها فيه ، بسبب الهمة نشاط البدن وقوة العزم والإجتهاد ما لا يحصل في غيره لخصوصية فيه ، حيث جعله الله موسماً للعبادة ، ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾.

قال : « من العجائب ، أن يتمنى الإنسان أهل الخير وهو ليس فيه خير ، وقد مضى جميع الناس ألا يتأسفون عليهم ، من تأمل الكلام وأشعار العرب عرف ذلك . وإذا رأيت الإنسان قائماً بنفسه لك فلا تطالبه بحقك » .

قال : « محبة الطاعة دليل العناية ، ومحبة الشر دليل الخذلان ، فعناية الله تظهر على الإنسان وكذلك خذلانه ، لأن أفعال الله باطنة ، ولا تُعرف إلا بظهورها » هـ .

أقول : أي بظهور علاماتها الدالة عليها من الطاعة والمعصية ، وهذا غالباً ، وإلا فالسابقة والخاتمة عند الله لا يعلمها إلا هو ، ولا يختلفان قط ، وإن اختلف العمل فيما بينهما ، وذلك نادر بأن جرى على السعيد عمل المعصية ، أو جرى على الشقي عمل الطاعة ، فإن ذلك مكتوب عليهم عمله ، ثم يرجع

يعمل كل منهما عمل سابقته وخاتمته ، فيختم له به ، كما دلَّ عليه حديث : « فوا الذي نفسي بيده ، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع .. » الحديث ، ثم لا يضر السعيد معصيته ، ولا ينفع الشقي طاعته ، كما لا نفع إبليس عبادته ثمانين ألف سنة ، ولا ضر آدم معصيته ، حيث رجع كل منهما إلى خاتمته هـ .

قال رضي الله عنه : « إذا رَفَعت الملائكة من الأرض إلى السماء أمراً لم يعرفوه ، نزلت من السماء إلى الأرض بأمر لم يعرفوه » .

أقول : يعني إذا رفعت الملائكة من الأرض إلى السماء من أعمال العباد من المنكرات ما لم يعرفه أهل السماء ، نزلت من السماء إلى الأرض من العقوبات بما لم يعرفه أهل الأرض ، فحيث استنكر أهل العلو تلك الأعمال ، كذلك استنكر أهل السفل جزاءها ، فالأعمال التي عليها الجزاء تصعد من الأرض وجزاها ينزل من السماء ، يعني من عند الله على أيدي الملائكة هـ .

قال رضي الله عنه : « تجبيز ، ولا تخلي الأمور الباطنة تظهر عليك ، وإذا وَقَعْتَ في مصيبة فاذكر النعمة تسهل عليك ، والأمور الباطنة كالغضب والحقد والحسد والعجب وغيرها » .

قوله : « **تجبيز** » ، أي كن جبزاً ، أي قوياً على هذه الأمور ، إذا أحسَسْتَ في نفسك شيء منها فاجتهد واستقوِ عليها حتى لا يظهر أثرها عليك ويفطن به منك ، فإن ظهورها عليك يشينك عند الله وعند خلقه . وأثره : علاماته الإختيارية الظاهرة في الحس ، وهي موضع التكليف الشرعي ، فيحرم عليك أن تعمل ما تقتضيه هذه الأخلاق الردية ، فربما دعاك الغضب والحقد أن تسعى في ضرر من لا يستحقه ، أو دعاك إلى السعي في إزالة نعمة المحسود ، وربما دعاك العُجْب إلى التكبر وإلى أمور باطلة، فالتكليف موضعه الإختيار .

وأما أصولها ومغارسها التي في الباطن فلا ملام عليك من قِبَلِها ، لأنها خلق من خلق الله ، كأعضائك الحسية ، فإن الإثم والملام إنما جاءك عند الله وعند خلقه من قِبَل آثارها الإختيارية الظاهرة، ولولا ذلك لكنت من حيث الأخلاق الجِبِلِّيَّة معذوراً عند الله وعند الخلق ، فلا يلحقك بذلك إثم ولا ملام ، وإخفاء آثارها بحيث لا تظهر للناس هو شأن أهل العقول الراجحة الكاملة ، خوفاً من سقوطهم من أعين الناس ، وإن لم يكن لهم اهتمام بشأن الدين في ذلك ، فإن كان ذلك بشأن الدين فهو أبلغ في علو منصبه ، فهم لأجل الدين أبلغ في كتمانه ، ولذلك دعاك سيدنا إلى هذا المنصب بقوله : « **تجبيز .. إلخ** » .

وتقدم قوله : « **إنا لنغضب مما يغضب منه الناس ، ولكن الفرق بيننا وبينهم أنا لا نظهره** » ، يعني لا يظهر علينا أثره ، وهذا شأن أهل الكمال ، وهو الفرق بين الكاملين والناقصين في المروءة والدين .

قال الإمام الغزالي : « إنك لا تلام ولا تأثم بسبب الحسد ، ولكن تأثم وتلام بإجابتك له فيما يدعو إليه » ، يعني ما كان جِبِلَّةً في القلب فأنت معذور فيه ومعفو عنك ، كغارية النساء ، لا عليك منه ، ولكن بإجابتك له إلى ما يدعو إليه ويقتضيه ، وفي الحديث : « ثلاث لا ينجو منهن أحد : الظن والطيرة والحسد ، وسأحدثكم بالمخرج من ذلك ، إذا ظننت فلا تحقَّق ، وإذا تطيرت فامضِ ، وإذا حسدت فلا تبغِ » ، فهذه خصال جبلية طبعية خلقية ، تتبعها أمور اختيارية مذمومة شرعاً وطبعاً ، منهي عنها شريعة وطبيعة ، ديانة وصيانة ، مكروهة في الدين والمروءة ، فمن حيث أنها خُلِقَت فيك فلا ملام عليك ، كما لو خُلِقْتَ أكمه أو أبرص أو أجذم ، وغير ذلك من الصفات الردية ، فلا يلحقك منها إثم ولا ملام ، ومن لام أو عَيَّرَ بها فهو معترض على القدرة والإرادة ، وأيضاً إذا لم تظهر فهي خواطر في النفس ، والخواطر معفو عنها ، لما ورد : « تُجُوِّزَ لي عن أمتي الخطأ والنسيان ، وما حدَّثَت به أنفسها » ، ويروى : « وما استكرهوا عليه » .

وكل ذلك يشمله العفو ، ومن اعترض في ذلك بملام فيرجع لوم اعتراضه عليه ، ولكن لهذه الأشياء دواعي طبيعية وأفعال اختيارية ، يأثم ويلام بسببها ، وهي التي علم الشارع في الحديث المذكور بالمخرج منها ، أي تجنب ما تدعو إليه ، بما ذكر من الدواء المستخرج منها ، لتسلم بذلك وتخرج من إثمها وملامها عند الله وعند خلقه ، وذلك المخرج الذي علَّمه لمن ابتلي بذلك من أمته، بقوله : « إذا ظننت فلا تحقَّق » ، يعني في طبيعة الآدمي وجبلته سوء الظن ، فلا يأثم بوجوده معه ، ولكن إذا حققه بالجزم والتكلم بمقتضاه ، ظهر إلى الحس . فتحقق : أي علم منه ، فوقع حينئذ في الإثم والملام ، وإلا قبل ذلك لا يطلع عليه ، فلا إثم عليه . والطيرة : هي التفاؤل بالشر ، فإذا عزمت على أمر ، فسمعت كلمة تكرهها فلا تترك لذلك ، وهو قوله : « فامض » ، فإن أجبتها وتركت فهو فعل أهل الجاهلية . قوله : « وإذا حسدت فلا تبغ » ، أي لا تقل ولا تفعل ما يقتضيه الحسد ، وهو تمني زوال نعمة المحسود ، أو تسعى في إزالتها ، فتجنب ما يدعو إليه بقول أو عمل ، ويؤكِّد هذه الأخلاق فيك إجابتها إلى ما تدعو إليه بقول أو عمل ، وعملك بخلاف ما تدعو إليه ، وهو البغي ، فلا تتبعه بقول أو عمل ، وذلك يضعفها وتسلم من ذلك ، ولو أنك تشتهيه .

فهذه الأدوية الثلاثة ، دواء للأمراض الثلاثة ، فخذها واحفظها عن طبيب الأطباء ، وسيد كل حكيم من الحكماء ، فإنه طبيب الدين والدنيا والآخرة ، واعمل بها لنفسك ، وعلمها لمن يعمل بها .

ومراد سيدنا ما هو أعم من ذلك ، كالغضب والحقد والعجب وغيرها فتقيسها عليها وتداويها بأدويتها فلا يظهر عليك أثر الغضب كما ذَكَر سيدنا عن نفسه حيث قال : « **نحن نغضب مما يغضب منه الناس ولكن ما يظهر علينا له أثر** » ، وكذلك لا يظهر عليك أثر الحقد والعجب وغيرها ، فلا تظهرها ولا تعمل بمقتضاها ، هكذا قوله ومراده .

قال : « والدنيا ما هي إلا كأس بكأس ، والدنيا منذ خَرَجْتَ من بطن أمك وهي وراك وأنت مُدبِر عنها ، والآخرة أمامك وأنت مُقبِل عليها ، ولا أحسن للإنسان في هذا الزمان من سلاسة الطبع والمَيْلة، فينبغي له أن يأخذ بذلك » ه .

أقول : « **سلاسة الطبع** » : حسن الخلق ، « **والميلة** » : تجنب المخالطة ، خصوصاً في زماننا هذا، حيث أنه قلَّ أن يسلم في المخالطة من الشر ، كذكر الغافلين بما يكرهون من الغيبة ، ومن الكذب واللغو وما لا فائدة فيه ، مما فيه تضييع الوقت بلا فائدة ، فبالميلة تسلم من ذلك وغيره ، وإن ابتُلِيتَ بالخِلْطة احتجْتَ معهم إلى سلاسة الطبع الذي هو حسن الخلق ، فإن سوء الخلق وكثرة الفضول واللغو ما يعرض إلا مع الخلطة ، ومع عدمها هو سالم من كل ذلك وغيره .

فافهم من هذا فائدة الميلة عن مخالطة الناس ، مع ما يحصل في الخلطة من المضار مع فوات المنافع أيضاً ، كفوات الأوراد وتضييع الأوقات بلا تمكن من ذِكْر الله ، بلا فائدة دينية ولا دنيوية ، بل مجرد هذر ولغو ، أحسن الأحوال فيه أن يكون مباحاً ، وأنّى لك بذلك . والعاقل الجازم لا يرضى لنفسه بذلك ، ولا يرغب فيه إلا الأحمق الجاهل الغافل ، لكن أين البصير لدينه ، الحريص على إشغال أوقاته وعمره بالعبادة .

قال رضي الله عنه : « بَلَغَنا أن بعض الناس قال : ما في تريم إلا الفقيه المقدم في التربة ، وفلان – أي السيد عبدالله – في الأحياء . فنعم الفقيه المقدم إنما هو قبر ، والذي هنا – أي الذي قال إنه في الأحياء – هو الباب ، وليس الباب كالقبر ، ولا يعرفون الباب حتى يفارقهم ويصير قبراً ، وبعدما تنفتح عليهم الأمور ، فإذا رأوه قالوا : هذا هو الباب الذي كانت تنفتح علينا الأمور منه » .

والأمور المذكورة أولاً هي التي تضرهم ، فتنفتح عليهم وتشتد بعده ، والأمور المذكورة ثانياً هي التي كانت تنفتح عليهم من الباب في حياته ، قبل أن يصير قبراً ، فتفرج لهم من تلك الأمور الضارة، فكأن الأمور الضارة تأتيهم في حياته ، فتأتي منه الأمور النافعة تفرج لهم منها ، وبعده تأتي الأمور الضارة وتشتد جداً ، ولا لهم ما يفرج لهم . وقد بلغنا ذلك عنهم بعده في أوراق ابنه الحبيب علوي رحمه الله ، وكذلك ما يشير إلى ذلك في كتاب وصل من ابنه الحبيب حسن حفظه الله ، فالله المستعان .

وهذا من إشاراته التي وقعت بعد موته ورؤيت بعد وفاته ، وقد رأيت منها معي هنا أشياء كثيرة يتعجب منها من فطنها وتأملها غاية العجب ، وذكرت منها في هذا النَّقل أشياء ، منها فيما تقدَّم ، ومنها فيما سيأتي .

ومراده بالباب : يعني باب فرج لهم من الشدائد الحالة بهم ، التي هي الأمور الأولى ، وينفتح منه لهم ما يفرج لهم منها ويدفعها عنهم من فضل الله ببركاته ، وهذه هي الأمور الثانية ، وكان الأمر بعده كما قال وأشار إليه ، من تغير الحال وتشوش البال من كل وجه .

وقد أشار في مجالس كثيرة إلى وفاته قبلها بنحو أربع سنين وأكثر ، وذلك على بُعْدٍ منها ، لئلا يفتجع بها لو كان ذلك على قرب منها ، فيتوقع حلولها في كل وقت ، ويكثر بسبب ذلك الحزن والتوجع منها ، وذلك من حِكْمَتِهِ وعجيب سياسته ، فكان الأمر بعده كما أشار إليه ، وقد نسينا ما قد أشار إليه ، وما ذَكَرْنَاه عنه مطابق لما أخبر . وأكثر ما وقع منه من الإشارات إلى وفاته ، سنة ١١٢٨ ، كقوله لي في ربيع الأول منها ، في كلام كثير ، وذلك في مجلسه في داره في البلاد ، ضحى يوم الجمعة ١٣ ربيع الأول ، وقد

طال به الكلام ، فذَكَر قصة قطب الدين الحنفي مع تلميذه في المشي على الماء ، ثم ذَكَر جماعة كل منهم يدَّعي مقاماً في المعرفة ، مثل عوض بامختار وغيره ، ورؤياه هو أو صاحب له ، كأنه هو وإياه يسبحان في البحر ، وأن السيد أحمد بن الحسين على الساحل ما دخل البحر ، فأخبر الآخر برؤياه ، فقال : « تأويلها أني أنا وأنت نسبح - أو قال : نخوض - في بحر من الباطل ، والسيد أحمد ما يخوض في الباطل » ، وهو في هذا الكلام . ثم التفتَ إليَّ وقال : « **وأنت لو قد رحت إلى بلادك ..** » ، وذَكَر كلاماً لا أستحسن ذِكْره ، وقد ذَكَرته في غير هذا الموضع ، ثم قال بعده : « **ولكن لا يظهر النور بوجود الشمس ، أما رأيت السيد أحمد بن زين ، وعمر العمودي وفلان وفلان** » ، ثم قال : « **لو سمعت قصة الذي ذَكَرَهُ اليافعي** » ، يعني العبد الذي ضربه بحزمة قصب الذرة ، ثم علَّمه الوضوء وصلى بهم بعض الفرائض ، قال : « **ثم فرش له الشيخ سجادته على البحر ، وأمره أن يركب عليها ، فركب ومشى على الماء ، فقال له تلميذه : لي معك كذا وكذا ، ما حصل لي هذا ، وهذا حصل له في لحظة . فالجواب ما قاله الشيخ : إنه ليس الأمر في ذلك إلا إلى الله** » .

ثم قال سيدنا : « **وهذا الأمر لا بد فيه من جذبة أو سلوك** » ، ثم قال : « **لو قد سافرنا إلى مكان، وقلنا لك : اجْلس أنت في تريم لا تسافر ، تجلس ؟** » ، قلت : لا بد لي من امتثال أمركم ، فأجلس بمشقة وتكلف ، قال : « **فإن قلنا لك : سافر أنت ؟** » ، قلت : أسافر أيضاً بمشقة وكلفة ، قال : « **فلو سافرت تكاتبنا ؟** » ، قلت : نعم ، ولكني لا أحب أن أسافر إلا إن عشت بعدكم ، لأني لو مكثت غائباً عنكم نحو سنة أو ستة أشهر ، اشتغل خاطري بألم الفراق ، قال : « **نعم ، لكن ليس الصادر كالوارد ، فسفر الآخرة مثل سفر الدنيا ، فلو قد متنا تسافر ؟** » ، قلت : نعم ، ولا أجلس يوماً واحداً إلا لعجز ، قال : « **فإن قلنا لك : ابْق لا تسافر ؟** » ، قلت : أمتثل ولا بد ، قال : « **فإن عَيَّنَّا لك مدة ؟** » ، قلت : لا عذر منها ، قال : « **نعم ، لا نأذن لك في السفر حتى يستقل من معك ، فلا نأذن لك تسافر حتى يستقل أحد من العيال ، ثم بعد ذلك نأذن لك** » ، وقد استقلوا بحمد الله حينئذ ، وخاب سعي من ناوأهم ، وهذا الكلام توطئة لما بعده .

وكذلك في شعبان منها ، قال لي في المدرس عشية يوم سبع وعشرين : « **أتحفظ أبيات لأبي تمام ذَكَرَها الشرجي في طبقات الخواص ، في ترجمة شيخه ؟** » ، فلم أحفظها ، ثم سأل عنها الحاضرين في المدرس ، فما منهم من يحفظها ، فقال : « **احفظوا وعوا ، وإلا فما ينفع رفع كتاب وحط كتاب ، وتسويد الأوراق ، فترى الأوراق مملوة سواداً كثيراً ، وقد جاء في الخبر : إنهم - أي الصحابة - كانوا يتعلمون القرآن على أربع آيات ، يُلَقَّنُها الرجل ولا يُلَقَّن غيرها حتى يتقنها حفظاً وعلماً وعملاً** » .

ففتحت الخزانة وأخذت كتاب « طبقات الخواص » ، واستخرجت ترجمة شيخه أبي بكر بن محمد

العسلقي ، بالضم قبيلة من عسلق عُك بن عدنان : وكانت أيامه كلها خضرة ، وأوقاتها كلها نضرة ، فالله المستعان على تلك الأيام ، كما قال أبو تمام :

كَانَتْ لَنَا أَعْوَامُ وَصْلٍ بِالحِمَى فَكَأَنَّهَا مِنْ طِيبِهَا أَيَّامُ
ثُمَّ اعْقَبَتْ أَيَّامُ صَدٍّ بَعْدَهَا فَكَأَنَّهَا مِنْ طُولِهَا أَعْوَامُ
ثُمَّ انْقَضَتْ تِلْكَ السُّنُونَ وَأَهْلُهَا فَكَأَنَّهَا وَكَأَنَّهُمْ أَحْلامُ

فانظر إلى هذه الإشارات القاطعة ، الجاعلة الشك يقيناً والخبر عياناً ، وغير ذلك من الإشارات التي أشار بها ، إلى وفاته كثيراً ، حتى إني لما رأيت ما دَهَم بعد وفاته من الهموم وتغير الأحوال ، وظهر لنا معنى هذه الأبيات التي أشار بها إلى ما ظهر ورأيناه عياناً ، لم أطق الجلوس في الحاوي ، ولا أقدر أن أمكث في مكان ألفته معه أيام حياته ، فأزعجني ذلك للسفر إزعاجاً لم أطق خلافه ، وكل الناس يلومون ، وبودي لو أقمت ولو نحو نصف سنة فلم أقدر .

وكل كلامه هذا المذكور يستخبرني مما أطلعه الله عليه من هذا الحال ، أن يكون ويصير علي منه هذا ، ولهذا ابتدأ به يستخبرني أولاً ، ثم رجع يسأل الجماعة ستراً للحال الخاص بي من ذلك ، ومشيراً لهم إلى أنهم أيضاً لنا لهم منه شيء ، حتى قال لي السيد زين العابدين رحمه الله : « أنا أعتقد أن ما أحد أصيب بالسيد عبدالله مثل مصابك ، لأنهم في وطنهم وبين أهاليهم ، وأنت غريب ، ما مقصودك هنا إلا حبيبك » .

فلما استخبرني عما أعرف من هذا الحال ، فأخبرته أني لا أجلس بعده يوماً واحداً ، حتى إني لما عزمت على الخروج من البلد والسفر في اليوم الذي تعين لي فيه السفر ، وهو يوم الخميس ١٤ عاشور أول سنة ١١٣٣ ، أراد مني الحبيب حسين أن أتريض إلى يوم السبت ، ليصعد معي مُبَتِّتاً إلى عند السيد أحمد بن زين ، فما طقت أن أتريض إلى ذلك اليوم ، ولا قدرت على الجلوس إلى ذلك اليوم ، وحبايبنا لي لائمون على السفر ، وأرجو منهم العذر والمسامحة ، والدعاء لي بصلاح الحال والمآل .

ورأيت ليلة يوم الخميس المذكور ، كأني زرت التربة ، ثم دخلت البلد وقصدت إلى بيت بعض المتعلقين بسيدنا والمترددين عليه ، وهو السيد علي عيديد ، وكأني في جمع كثير في بيته ، من جملته عيال سيدنا الخمسة ، فبينما نحن جلوس في السطح ، إذ جاءني رجل وقال لي : « هابط صبي يريدك » .

فنزلت إليه ، فناولني وريقة كالإصبع صغيرة ، وقال : « هذه أعطانيها لك رجل ، التقيت معه في طريق دمون ، وقال : ادفع هذه الورقة للحساوي ، تراه في بيت فلان مع جماعة » ، وإذا مكتوب فيها: « صح ، أنت عمر بن الخطاب » ، بهذا اللفظ لا زيادة ولا نقصان ، وأَجَلْتُ فيها فكري ، فما ظهر لي

فيها شيء ، وحرت في تأويلها، فلما وصلت إلى حضرة سيدنا الحبيب أحمد بن زين الحبشي رحمه الله ، أخبرته بالرؤيا وبهذا الذي رأيته في الوريقة ، فقال نفع الله به : تأويلها أنك أشبهتَ عمر بن الخطاب رضي الله عنه في كونك إذا جزمت بأمر أمضيته ولا تبالي بلوم أحد ، ويكون ما جزمتَ به وعملتَ عليه على خلاف قول اللائم ، حقًّا موافقاً للحق ، كما هو معروف من شأن عمر رضي الله عنه ، كما قد فعل أشياء وقالها وأُنكِرَت عليه، وتبيَّن أنها الحق .

هذا لفظه ومعناه ، مع ما انضمَّ إلى ذلك من قول سيدنا قبل وفاته بليلتين ، وذلك ليلة السبت ٤ ذو القعدة ، وكان في حالة عظيمة ، غائباً عن هذا العالم الإشهادي الحسي ، فجعل وهو في تلك الحالة يقول : « **أين الحساوي ؟ نبهوا الحساوي ، خلوه يجيء ، قولوا له يجلس هو والرجال في الضيقة إلى أن نفرغ** » ، واتصلت غيبته هذه بوفاته ، فلم يحصل له شعور إلى أن توفي إلى رحمة الله .

وحصلت عليه قبل الوفاة بنحو أربعة أيام ، ولعل هذا الرجل الذي ذَكَره ، هو الرجل المذكور في الرؤيا الذي أرسل لي بتلك الوريقة ، والله أعلم بما في غيبه .

ومن تلك الإشارات أنه قال يوماً في مجلس القراءة عشية : « **من منكم من يحفظ الأبيات التي سمعت في عمر بن الخطاب رضي الله عنه ؟ ، ويقال أن منشدها كان من الجن** » ، فلم يستحضرها أحد من الحاضرين ، فقرأتها عليه يوماً من كتاب « حياة الحيوان » ، وذلك لما خرج لصلاة عصر يوم الثلاثاء ٢٦ ذي القعدة من سنة ١١٢٨ . قال في ذلك الكتاب : أنشدها منشد من الجن في أيام منى ، فما لبث بعدما رجع إلى المدينة أن ضربه العلج ، وهي هذه :

عَلَيْكَ سَلَامٌ مِنْ أَمِيرٍ وَبَارَكَتْ ... يَدُ الله في ذَاكَ الأَدِيمِ المُمَزَّقِ

فَمَنْ يَسْعَ أَوْ يَرْكَبْ جَنَاحَي نَعَامَةٍ ... يُدرِكْ مَا قَدَّمْتَ بِالأَمْسِ يُسْبَقِ

قَضَيْتَ أُمُوراً ثُمَّ غَادَرتَ بَعْدَهَا ... سَوَابِق في أَكْمَامِهَا لم تُفَتَّقِ

فلمَّا قرأتها عليه من الكتاب المذكور ، قال : « **ما مرادنا إلا أنَّا نعلِّمك الإستحضار عند المذاكرة ، وأما إنك تجيبها في الكتاب فذاك سهل ، وكُلّن يعرفها** » .

فقال السيد عبدالرحمن بن أحمد عيديد - كما يعتاد من تعجرفه - وكان حاضراً : « ما أحسن فلان لو كان حاضراً لفهم » ، يعني له فهم وعلم ، يعني به سالم بافضل بلحاج ، وكان من ذرية صاحب المختصر ، فقال سيدنا نفع الله به عند ذلك ، لما سمع ما قال ، فقال : « **ما عليك ، لكن من ربيناه يفوق غيره ، إلا أنه لا يظهر أثره مع من رباه ، كالسراج في النهار ، لأنَّا نربِّيه تربية لا يعلم بها ، وإن كانوا أحسن منه بديهة ، فهو أحسن منهم بذلك - أي بالتربية - وإن كانوا خيراً منه في الكلام ، فهو خير**

منهم بالأوراد . والكلام فيه إظهار للنفس ، ثم إن التعلم ممكن ، ولكن إنما العلم بالعمل ، فإذا علمت شيئاً فاجهد نفسك بالعمل به ، لتعرف النفس أن العلم بلا عمل لا ينفع ، وإن ذلك هو المقصود منه. انظر إلى ابن علوان ، كيف لما اجتهد في تعلم العلم والأدب حتى أحكمه ، ليكون في منزلة أبيه عند السلطان ، وما نفعه إلا لما حصلت له من الله العناية ، رجع إلى العمل بعلمه فانتفع به » .

فقال عبدالرحمن عيديد - كما يعتاد من تعجرفه - : « نعم هكذا مليح ، إذا حصل بالغَرف من غير كد » ، فقال نفع الله به : « **نعم ، ولكن أصلح وعاءك من أسفله وغطه من فوقه ، لئلا يسقط ما فيه أو يتطير ، فيَسْلَم لك ما فيه ويحتفظ ، حتى إن احتجتَ إليه نفعك ، وإلا بقي لك عدة كالخزانة** » .

ثم قام إلى الصلاة ، وهذا كلامه على عادته في مجلسه هذا في الضيقة إذا جلس خارجاً ، وجاء للصلاة ينتظر اجتماع الجماعة ، فإذا نهض منها داخلاً للصلاة فلا يقبل الكلام ، ولا يريد أن يكلمه أحد حتى يَرِدَّ السلام ، كما تقدَّم أني سلَّمت عليه ممن وصاني له بالسلام ، وهو خارج للصلاة ، فقال : « **لا تُسَلِّم عليَّ من أحد وأنا خارج للصلاة ، فإني أخرج لها وقلبي متجرد لها عن كل شيء** » .

وما مرادنا من كل ذلك إلا ذِكْر إشاراته التي أشار بها إلى وفاته ، ولكن إذا جاء كلامه مرتبطاً ومتصلاً بعضه ببعض ، لا أحب تقطيعه أو ترك شيء منه ، بل أحب أن آتي به على ترتيبه واتصاله الواقع ، وإن انجرَّ إلى مواد أُخَر ، والحاذق يفهم الشاهد منه ولا عليه مما يتصل به ، فهو الزيادة ، ومن هذا يفهم معنى تكرير البخاري الحديث الواحد في أبواب متعددة ، لأن الكلام الزائد على الشاهد في الباب الأول فيه شواهد في تلك الأبواب ، ففيه لكل باب شاهد ، ويكرره بجملته فيها ، ومقصوده منه شاهده لكل باب ، وأما مسلم فيكرر الأحاديث في الباب ، والمراد منها شواهدها في ذلك الباب .

وكلام سيدنا المذكور ، فيه من المزاح الذي ينجر إلى معانٍ وعلوم أخر ، كما قدَّمنا في المقدمة ، فهذا الذي ذَكَرْناه من الإشارات الحاصلة منه بالتعريض لذلك في هذه السنة ، وهي كثيرة فيها وفي غيرها لمن ألقى السمع وهو شهيد ، وأكثر إشاراته لذلك فيها ، حتى أنه قال لي في شعبان منها : « **إذا حجَجْتَ فلا تجاور ، لأنا نُهينا عن المجاورة ، وسر إلى بلادك برًّا** » .

فكتبت ذلك في وريقة كالإصبع خوف النسيان ، ومن حين كتبتها من يومها لا علم لي بها ، وضاعت عليَّ ، فلما كنت عشية يوم بالمدينة المنورة من شهر صفر سنة ١١٣٣ ، والحاج العقيلي يريد السفر بعد صلاة الصبح ، وكان في عزمي الإقامة في المدينة أربعين يوماً وأسافر بحراً ، فتحرك خاطري إذ ذاك لتقليب كتبي ، فحين قلبتها والشمس حينئذ قد اصفرَّت ودنت للغروب ، وكنت ناسياً للوريقة ، وناسياً قوله : « **سِرْ برًّا** » ، وإذا تلك الوريقة واقعة في يدي من غير قصد مني لها ، فلما رأيت فيها ذلك ، ولا يمكن السفر إلا مع الحاج ، فعزمت على المسير معه ، وكنت مواعد أصحاباً لي أن أقيم معهم ،

ومرادي مدة الأربعين دون المجاورة ، فحُفِظَت الوريقة لوقت حاجتها ، حتى وقعت في يدي من غير قصد لها ولا شعور بها .

وفيها دليل لقول بعضهم : « إن كلام الأولياء مراهم شافية ، وإنها تُحفظ لوقت حاجتها » ، وفيها إشارة إلى أن كلامه أيضاً مراهم وأدوية نافعة يحتاج إليها في أوقاتها ، وأن الله يحفظها إذا لم تحضر حاجتها ، إلى أن يحضر ، فيظهرها إذ ذاك لحاجتها في وقتها . ومثل ذلك ما قدَّمنا من قوله في خاصية العنبر ونفعه سيما للدماغ ، وخصوصاً للمشايخ الكبار السن ، وإنه اتفق عندي في بعض الأوقات ، وما اتفق عندي مثل ذاك قبله ولا بعده ، أردته للتطيب به ، فاتفق أن بعض الإخوان مرض ، حتى لم يبقَ معه علامة للحياة ، وأرادت زوجته تدخل العدة ، فبخَّرته به ، ففي الحال انتبه وفتح عينيه وجلس طيباً ، وخَرَجْتُ من عنده وعاش ١١ سنة ، وتقدَّم تفصيل أكثر من هذا .

فاعجب لهذا العجب العجيب من إشارات سيدنا ، كيف يتيسَّر ما أشار إليه من غير قصد ولا تعمد ، وإن إشاراته مخبوءة لأوقاتها ، ومثل هذا أشياء كثيرة ، كما يقع على شيء منها من تأمل في هذا النقل . وما لذلك شبيه إلا ما جاء عن سيدنا أبي بكر رضي الله عنه : أنه سمع رسول الله ﷺ ليلة الغار وحدهما ، يقول : « كَفِّي وكَفُّ عليٍّ في العدل سواء » ، فلما ولي الخلافة ، أمر منادياً ينادي : « من له على رسول الله ﷺ دَين أو عدة فليأتني » ، فأتاه رجل ، وقال : « إن رسول الله ﷺ قد كان وعدني بثلاث حثيات من التمر » ، فأرسل إلى علي ، فأتاه ، فقال : « زعم هذا أن النبي ﷺ وعده بثلاث حثيات من تمر ، فاحثها له أنت » ، فحثا حثوة ، فقال أبوبكر : « ضعها هنا » ، ثم حثا الثانية ، قال : « ضعها هنا »، ثم حثا الثالثة ، فقال : « ضعها هنا » ، كل حثوة وحدها . ثم قال أبوبكر : « عدوها » ، فعدوها ، فإذا كل حثوة ثلاثة وستون ، ما زادت إحداها واحدة ولا نقصت واحدة ، ثم قال للرجل : « خذها » ، ثم قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « كفي وكف علي في العدل سواء » .

ورأى أن المراد كف رسول الله ﷺ ، يعني أنه وعده ثلاث حثوات بكف نفسه هو ، فسمعها منه وما سمعها منه أحد غيره ، فبقيت مدخرة في نفسه إلى وقت حاجتها ، ولم يعلم أنه سيحتاج لها كما ذكر، وما رأى سيدنا أبوبكر لذلك معياراً يقدِّره ، لكن رأى في خزانة حفظه هذا المعيار العظيم ، الذي ما مثله معيار ، مُدَّخَر لوقت حاجته ، أنطق الله لذلك رسوله في خلوته مع أبي بكر ، لما يعلم من حاجة أبي بكر إليه ، وفيه دليل قاطع على كونه خليفته بعده .

فافهم من سياق هذا الكلام عظيم سر وراثة سيدنا رضي الله عنه من جدِّه رسول الله ﷺ ، كما تقدم من قوله : « **فإذا أخذ الناس بسهم من العلم من ميراثه ﷺ ، أخذنا نحن منه بسهمَيْن** » ، وتقدَّم قوله : « **العلم مشتمل على أصول وفروع ، فالفروع ترجع إلى الأصول ، ولا عكس ، وأنت اعمل على**

ساقيتك .. » ، إلى آخر المقالة وهي قبل هذا بكراس .

ومرة قال : « وإذا أخذت بالأصول لا ترجع إلى الفروع » ، وتقدم قوله أيضاً قوله : « كل علم له أصول ، إذا ضبطها تكاد تنضبط له الفروع ، ومن أراد أن يتبحر في فن فليأخذ بأصوله لتتبعها الفروع».

وقوله : « ينبغي أن يعرف الإنسان العلم وقواعده، وبعد ذلك إن أراد الله له توفيقاً عَمِلَ بذلك وعَلَّم ، وإن لم يرد له ذلك وأراد له خذلان والعياذ بالله ، كان على الضد ، فلا يَعمل ولا يعلّم ، ولا يتحقق في معرفة العلم » .

وبعد إشارته المتقدمة في سنة ١١٢٨ ، ابتدأ به المرض يوم ٢٧ من رمضان سنة ١١٣٠ ، وبقي يتزايد عليه إلى ٨ القعدة منها ، ثم جعل يخف قليلاً قليلاً ، إلى ليلة عيد النحر ، فخرج ليلة العيد إلى المصلى ، وصلى فيه ما تيسَّر ، وحضر قراءة القرآن مع الجماعة من أول سورة الأعراف ، إلى مقرأ : ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾، من سورة « يونس » ، ثم دخل إلى البيت ، وبقي مدة السنتين طيباً متعافياً .

فلما كان ٢٧ من رمضان ١١٣٢ ابتدأ به المرض أيضاً ، وقت ابتدائه أولاً ، وبقي يتزايد ويختلف عليه أنواع من المرض ، على ما سيأتي تفصيله عند ذِكْر وفاته إلى ليلة ٨ ذي القعدة منها ، ثم انتقل في تلك الليلة إلى رحمة الله تعالى ، وقال لي ابنه السيد حسين : « إن هاتين السنتين اللتين عاشهما بعد المرض الأول كان أعطاهما لحسين بافضل لما استوهب له من أعمار أصحابه » ، فكل منهم أعطاه شيء من عمره ، وإن سيدنا أعطاه من عمره هاتين السنتين ، فعاش حسين المدة التي وُهِبَت له ، وإن مرض سيدنا الأول هو مرض الموت ، ثم ردَّ الله عليه تلك السنتين ، فعاشهما والحمد لله . ويشهد لما قال السيد حسين كون ابتداء المرض في المرتين لسابع وعشرين من رمضان ، وإنه في الأول بقي يتزايد إلى ليلة ٨ ذي القعدة ، ثم جعل يخف قليلاً قليلاً إلى ليلة العيد ثم خرج ، وفي الثاني بقي يتزايد ويختلف بأنواع مختلفة إلى ليلة ٨ ثم توفي فيها ، والله أعلم بحقيقة ذلك . فلما مَنَّ الله عليه بالعافية ، وعلينا بعافيته وحياته تلك السنتين ، جعلنا ننقل أيضاً ما تكلم به في مجالسه فيهما ، كما فيما قبلهما .

وطلبه صهر له أن يمر عليه إلى بيته ، فقال : « لا ، ما عاد نقدر على ذلك ، فتعالوا أنتم إلى عندنا لأنكم أخف منا ، فإنَّا اليوم في فَيْء العشوة . فاسأل فلاناً : كيف كنا في مراحنا ومجينا ؟ وهذه الأمور قد مضى حِلَّها ، وقد شبعنا من كل شيء إلا من أمور الدين ، وأما أمور الدنيا فلا رغبة لنا فيها ، ولكنا أيضاً قد شبعنا منها ، وما نحب اليوم من يتردد إلينا إلا لأجل أن يسمع كلمة ينتفع بها في دينه ، أو كلمة عظة أو عبرة تنفعه » ، أي ما نحب التردد إلينا .

قال رضي الله عنه : « بَلَغَنا أن رجلاً قال للسيد أحمد الهندوان : إن فلاناً سلبك . فقال : إذا لم يسلبني إلا فلان ، فبركة حيث لم يكن غيره ، وإذا كان ألا هو ، الحمد لله ، فحقنا عنده محفوظ . ونحن ما معنا إلا ما قاله اليافعي في قصيدته ، يصف نفسه : فقيرٌ ضعيفٌ يافعيٌّ مخلِّطٌ . وكل أهل الله يرون أنفسهم كذلك ، ومعنا محبة النبي ﷺ وأصحابه وأهل البيت والأولياء والصالحين ، وليس معنا ما نسلب به ، إذ لا يسلب صاحب السيف إلا من معه سيف أقوى منه » .

وسألته عن سبب تكرير الشيخ علي في « البرقة » إلباس الخرقة لعياله وأهله ومن ذُكِرَ معهم ، *فقال رضي الله عنه* : « لا بد في كل موضع من معنى ، لكن البليد لا ينتبه للمعاني ، فقد ذكر الإمام الغزالي أن البليد إذا أَكَدَّ نفسه فقد يدرك القليل في الزمن الطويل مع التعب الكثير . وإذا سمعت كلام أهل الخير ، فما دمت تجد له محملاً في الخير ؛ لا تخرجه منه حتى إلى المباح ، ونحن لو جاءنا رجل من أهل النفوس ، وصافحنا وكلَّمنا ، كلَّمناه ومررنا على حالنا ، ولكن لا بد ما يخطر في باله شيء ، فيقول : ما درى بي ، أو ما بالى بي ، وربما يعزم على عدم الإجتماع بعد ذلك ، فلا بد ما يخطر في بال الرائي شيء من هذا ، وكُلٌّ يُنفِق مما عنده ، مثل الأسواق والمخازن ، منها ما يباع فيه المسك ، ومنها ما يباع فيه الخمر ، فلا يستوي العطار والبيطار . والكلام يتفاوت بتفاوت الناس ، وتفاوت الحال وتفاوت المجلس ، وتفاوت حال المخاطب وتفاوت الزمان » هـ .

قوله : « مررنا على حالنا » ، أي لم نقف له ، ولا نلقي له بالاً .

وقوله : « كل ينفق مما عنده » ، مثل قولهم : كل إناء ينضح بما فيه .

قلت : لما ذَكَر - أي الشيخ علي - أنه ألبس أهله ، فماذا يلبسها ؟ أيضع القبع على رأسها ، وَيُعَدُّ أنه أَلبَسَها ؟ ، *قال* : « نعم ، يضعه للتبرك والإلباس ، والإلباس لا يُراد لذاته ، فمن لبس لذات الإلباس ما حَصَّل شيئاً ، وإنما هو لأجل المعنى الذي فيه ، وهو الرابطة » هـ .

أقول : أي الرابطة بين اللابس والذي ألبسه ، فبه يرتبط به ويُنْسَب إليه ، وَيُعَدُّ تلميذاً له وهو شيخه ، ويحل عليه نظره واعتناؤه به في الدنيا والآخرة ، بجلب كل خير ودفع كل ضير في الدارين ، مثل من له عقيدة صادقة في أحد من الأكابر بعلامتها الظاهرة ، فإذا ثبتت بذلك عنده ، وضع عليه نظره بعلامته الظاهرة أيضاً ، فصار بذلك في كَنَفِهِ وحياطته في الدنيا والآخرة ، فإنهم لهم مايشاؤون عند ربهم ، ولا يشاؤون أن يَنْضَر من ثبتت له فيهم المحبة والعقيدة .

وقد ذكرنا مثالاً لذلك أن امرأة من أهل الحساء لها عقيدة صادقة في سيدنا ، وأهدت له عباءة

- وهذه العلامة الظاهرة الدالة على صدق المحبة - فوضع نظره عليها ، وأرسل لها سبحة - وهذه العلامة الظاهرة منه الدالة على وضع نظره عليها - فاتفق أنها أصابها ضرر في عيونها ، ووجع يتعاودها في كل شهر عشرة أيام ، فيُتعبها جداً ، ثم تبرأ بقية الشهر ، وهكذا في كل شهر ، وأخذت على هذا سنين ، فرأيت سيدنا ليلةً ، التقيت معه في طريق ، فصافحته فقال : « إلى أين تريد ؟ » ، قلت: أريد أشتري لعيون فلانة دواء ، فقال : « افعلوا لها كذا » ، فانتبهت ثم سِرْتُ إليها ، فقالت - وكان ذلك أول يوم في الشهر - : « آلمتني أول الليل ، وبرئتُ آخر الليل ، وأصبحتُ بارئة على غير العادة »، ثم لم يعاودها الوجع إلى أن انتقلت إلى رحمة الله ، وأخذت بعد الرؤيا نحو ١٢ سنة ما أصابها الوجع ، من بركة اعتنائه بوصف الدواء هـ .

قال رضي الله عنه : « من وقت صغر الإنسان يظهر عليه خُلُقُه المطبوع عليه ، وطبع الإنسان الذي يُنسب إليه هو ما غَلَبَ عليه » ، ثم ذكر قصة الشيخ أبي بكر بن سالم ودفعه القروش إلى أولاده ليختبرهم هـ .

أقول : وفي القصة أنهم - ما عدا الحسين - لعبوا بها لعبة معلومة عند الصغار في ذلك الوقت، فأكلت عليهم ، وأما الحسين فربط ما أعطاه في طرف ثوبه ، وفي اليوم الثاني سألهم عما فعلوا بها ، فأخبروه أنهم لعبوا بها فأكلت عليهم ، وقال الحسين : « ها هو مربوط في ثوبي » ، فقال له : « أتضم الدنيا ؟ ستقع عليك الدنيا من السقف » ، ثم بعدما كبر ، وقام في مجلس أبيه ، فبينما هو جالس مع أصحابه في مجلسه ، إذ وقع في المجلس وجب تمر من أوجاب مصفوفة في الدار التي داخل المجلس إلى الروشن ، فوقع من الروشن إلى المجلس ، فقال الحسين : « اليوم تمَّ علينا ما وَعَدَنا به الوالد ، أنه ستقع عليك الدنيا من السطح » هـ .

قال رضي الله عنه : « لا تعد علماً إلا ما كان محفوظاً ، وما لم تحفظه فهو علم غيرك ، لأنك تنقله عنه، إنما يربي الناس علماؤهم ، وتربيهم ملوكهم ، وتربيهم شيابتهم ، واليوم ماشي من هذا ، وأكثر العلوم ما تلقيناها إلا من الأولين على ألسنتهم ، كحضور المجالس وإتيان الصلوات وإجابة الدعوات ونحو ذلك ، والتأدب مع الجلساء ، ومعرفة منازل الناس ، ومراعاة حقوقهم ومعرفتها ، وتنزيل كل إنسان منزلته » .

وذكر حضور المساجد مع أكل ذي الريح الكريه ، فذمه كثيراً وأنكره وشنع على متعاطيه ، وأنكر وذم من يتسبب في ظهور رائحة كريهة في الجابية ، وذم أيضاً حينئذ من يجهر خلف الإمام ، ثم قال : « هذه العلوم التي على الألسنة ، وإن كان في طاعة ، فيحصل بسوء أدبه ما لا تقابله طاعته ، والأدب ما هو إلا ما تربى عليه الإنسان من صغره ، وأخذه قليلاً قليلاً حتى تربى عليه ، ويتقنه ثم يقيس عليه ما في معناه ، والحاصل إن التغافل والتجاهل في هذا الزمان ما أمكن هو الذي ينبغي ويحسن ، لئلا يتربوا أو يخرجوا إلى الباطل » هـ .

أقول : يعني إن هذا أدب متأكد إلى الغاية في هذا الزمان ، لأنهم طُبِعوا اليوم على عدم الأدب ، فالذي يُنكره الآن معهم ، ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡىٌ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾، فإذا تغافلتَ وتجاهلتَ عما تسمع من سوء أدبهم ، كأنك ما علمتَ به ، فيعرفوا أنك ما علمتَ به ، ولو علمتَ لأنكرتَ ، فيقع في قلوبهم منه حزازة ، فلعلهم يرجعوا عنه فيما بعد ، ولو أنهم عرفوا أنك علمتَ به وسكتَّ ، لاطمأنوا به واستمروا عليه ، وظنوا أنك مقرِّرٌ له ، لأن السكوت إقرار وتقرير .

فافهم غُرَر معناه نفع الله به ، وينبئك عنها هذه الأمور التي ذَكَرها وقرَّرها ، فتراهم فيها على خلاف المطلوب والذي ينبغي منهم ، فإنهم كما تقدَّم من قوله : « الأمور في هذا الزمان انعكست عن أوضاعها ورجعت إلى أضدادها ، فينبغي أن يسمى الزمان مخيب الظنون » ، لأن الظن يخيب فيهم ، فتظنهم على النسق الأول ، وإذا هم على ضده ، وإنما هو وحده عليه ، كما قال : « ما تلقيناها إلا من الأولين » ، أي لأن هولاء أهل هذا الزمان مالوا منها ، وأعرضوا عنها ، وصاروا على ضدها هـ .

قال : « الأدب أن لا تؤذي أحداً ، وإن أوذيتَ صبرتَ ، وحسن الصحبة والمجالسة بها أمكن » ، ثم أنشد هذا البيت :

إذَا جَلَسْتَ مَجْلساً بلا أدَبْ   صَيَّرتَ ذاكَ الصَّدرَ صفَّ النِّعالْ

ثم قال : « علوم الأولين كلها سهلة ، إنما هي حديث وأثر وكلام السابقين ، فهذه كانت علومهم،

والعلم يزكو إذا كان من الطرفين ، وهو أن يأخذ ذو العلم القليل من صاحب العلم الكثير ، وهو أيضاً يعَلِّمه ولا يمتنع من تعليمه ، ما عاد اليوم إلا عد النخيل والتنخَّاش ، والتقصيف يسمى تقصيف الأظافير ، وهو إخراج التمرة من النحر ، ولو بَقِيَتْ أكلها طير فكانت من رزقه . ولو وُلِّيتُ أمر البلاد، أو أطاعني الوالي ؛ لطَرَّبت على أشياء من العبادات وأشياء من العادات أن لا تُفعل إلا في بعض الأوقات ، كالسرعة بتخبير النخل ، وأن يكونوا فيه كعادة السلف ، فإن المال مال الله مُستخلَفٌ عندهم، ويريدون يمنعونه الفقراء والمساكين ، بل حتى الطيور ، ويجمع الإنسان ما يكفي جماعة ، ويجعله عند إمرأة وتحت نظرها ، وما عاد الدين إلا لازق ، فعسى حسن الخاتمة . وأنا مؤمِّل مثل هذا يحصل من بعض من يلي أن يساعدنا عليه ، والناس اليوم إنما هم عبيد العصا ، وما معهم سيوف ورماح يقاتلون بها ، فيحصل منهم الرجوع إلى الصواب قهراً ، كما أطاعوا في أخذ أموالهم قهراً. وكنَّا مؤمِّلين مثل هذا ، لكن هذا الرجل ما لزق ، فإذا كان الولاة بأنفسهم يتعاطون الربا ، ويعينهم في ذلك علماء السوء ، كيف الحال ؟ وهؤلاء إنما هم أعداء الدين ، لا ممن ينصر الدين ، فالولاة طلبوا الولاية ليظلموا، والعلماء تعلموا العلم ليتولوا الأوقاف وأموال اليتامى فيأكلوها ، ويفتوهم بحِيَل يستحلون بها الربا ونحوه مما حرم الله عليهم » .

ومرة قال : « **وما عاد الدين إلا لازق ، كالطينة تلزقها في الحائط** » .

أقول : يريد أنها إذا يبست في الحال سقطت ، يشير إلى عدم تمكنهم في الدين ورسوخهم فيه .

قوله : « **وتحت نظرها** » ، لأن نظرها قاصر ، لا تعطي إلا لهوى ، ولا تعطي خالصة لوجه الله ، وهذا يدل على ضعف إيمان الجامع والمفرق ، ولهذا وصف الدين عندهم أنه لازق غير متمكن .

قوله : « **وأنا مؤمِّل مثل هذا .. إلخ** » يعني قوله : « **لطَرَّبت على أشياء .. إلخ** » .

قوله : « **إنما هم عبيد العصا** » ، يعني لا يرجعون إلى الحق والصواب اختياراً ، بل بالقهر والغصب، لضعف إيمانهم ، كما ورد : « **إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن** » ، معناه : أن الله يسوق إلى الحق والصواب بالسلطان ما لا يسوقه بالقرآن ، فإنما يسوق بالقرآن قوي الإيمان ، وأما الضعيف الإيمان فإنما ينقاد بخوف السلطان .

قوله : « **وهؤلاء .. إلخ** » ، يعني الولاة ومفتوهم بتحليل الربا .

وذمَّ إخراج التمرة من النحر ، وأنه يسمى « **التقصيف** » ، لأنه يدل على غاية الشح والبخل ، وهو مبغوض شرعاً وطبعاً ، وعادة السلف في التخبير : بعدما يكثر في النخل الرطب فيجنى ما فيها وتخبر، فيستمد من ذلك الآدمي والطير ، لأنه ورد : إذا أكل منها طير أو عافية - وهي الوحش - إن له في

ذلك أجراً عظيماً ، فلم يفوته ، كما يُفعل اليوم ، حيث تُخَبَّر قبل بدو صلاحها ، فذم ذلك لعدم انتفاع أحد منها قبل تخبيرها لا طير ولا غيره .

قوله : « **لكن هذا الرجل ما لزق** » ، يريد سلطان حضرموت عمر بن جعفر ، وكان مؤملاً فيه أن تجري هذه الأمور التي في نفسه على يديه ، وإليه يشير بقوله : « **وأنا مؤمِّل مثل هذا يحصل من بعض من يلي أن يساعدنا عليه** » ، وقال : « **وكنا مؤمِّلين مثل هذا ، لكن هذا الرجل ما لزق** » ، لكنه بعد ذلك ما حصل منه ذلك ، فتركه وقلاه بعد ذلك ، ولم يلتفت إليه ، ولم يراعه كالأول ، فتلاشى أمره وفرَّ إلى عمان ، وسقط عليه جدار في بلد صحار ، فمات شريداً ، وربما غريباً قتيلاً .

وإنما كان راجيه لأنه كان يحضر مجالسه ، ومواظباً لحضور الراتب ، فلما وُلِّيَ رجاه لتلك الأمور، حتى كان سيدنا إذا كان عنده وأتاه أحد يستأذن عليه ؛ لا يأذن له ، فاتفق أنه كان ليلة سبت بايتاً في البلاد ، وهذه عادته ، وعادتي آتي إليه من الحاوي إذا طلعت الشمس ، وأخرج معه إلى الحاوي ، فأتيته ذلك اليوم وهو عنده ، فجلست في الضيقة - أي الدهليز - وما صعدت إلى عند سيدنا وهو عنده ، فلما خرج من عنده نزل إلى الضيقة يريد الحاوي ، فصافحته فقال لي : « **يوم كان هنا ، قد جيت؟** » ، قلت : نعم ، ولم أجزم بالدخول وهو عندكم . فقال : « **نعم ، نحن الغناء ، وهو الفناء . إذا دخل علينا لم نخلي أحداً يحضر ، إلا إن كان العيال ، لأن الناس ليس فيهم أمانة في حفظ الكلام ..** » ، إلخ ما قال . وسيأتي بتمامه في محله .

قال : « **إن أهل الزمان نسوا الله بترك حقوقه ، فسلَّط الله عليهم ما يشغلهم ، حتى لو دعوا لم يستجب لهم ، وتنكر أصواتهم الملائكة ، لأنهم لا يألفوها بسماع ذِكْرٍ أو غيره من أمور الطاعة ، كما ورد في حديث : فأنّى يستجاب لذلك** » .

قال رضي الله عنه : « **قيل : إن المضطرب في المحنة ، كالمضطرب في الحبل ، كلما تحرك ازداد شنق رقبته** » ، وأنشد هذا البيت :

لَيْسَ لِـذِيْ مِحْنَـةٍ مُؤْذِيَةٍ   مُتْعِبَـةٍ خَيْرٌ مِـنَ الصَّبْرِ

أقول : يشهد لقول سيدنا هذا ، ما جاء عن الأحنف بن قيس التميمي ، من أصحاب سيدنا علي قال : « **ما سمعت بعد كلام رسول الله ﷺ ، أحسن من كلام أمير المؤمنين علي ، حيث يقول : إن للنكبات نهايات ، لا بد لأحد إذا نكب من أن ينتهي إليها ، فينبغي للعاقل إذا أصابته نكبة أن ينام لها حتى تنقضي مدتها ، فإن في دفعها قبل انقضاء مدتها زيادة في مكروهها** » .

قال الأحنف : وفي مثله يقول القائل :

الدَّهْـرُ يَخْنُـقُ أَحْيَانـاً قِلَادَتَـهُ فَاصْبِرْ عَلَيْـهِ وَلَا تَجْزَعْ وَلَا تَثِـبِ
حَتَّـى يُفَرِّجَهَـا فِي حَـالِ مُدَّتِهَـا فَقَدْ يَزِيدُ اخْتِنَاقاً كُلُّ مُضْطَرِبِ

وتقدَّم مثل هذا الكلام ، أو ذَكَرْنا هناك قصيدته :

وكَـمْ مِحْنَـةٍ كَابَدْتُهَـا وَبَلِيَّـةٍ إِلى أَنْ أَتَانَا الله بِالفَتْحِ وَالنَّصْرِ

قال رضي الله عنه : « إنه لم يبلغْنا عن رسول الله ﷺ فيما بَلَغَنا ، أنه توضأ بماءٍ سُخِّن على النار » .

وذَكَر الجابية وما يحصل فيها من القذر ، *فقال* : « اختيارنا أن لا يأتي بأدعية الأعضاء في الوضوء في المواضع القذرة ، ويقضيها بعد الوضوء إذا خرج من الموضع القذر ، فلا ينبغي أن يذكر اسم الله فيها لاستقذارها ، حتى إنَّا نرى أن لا يأتي فيها بأذكار الوضوء ، ولا بجواب المؤذن حتى يخرج منها ، فإذا خرج أتى بأذكار الوضوء وبجواب المؤذن على الترتيب » .

ثم قال : « اكتبوا ذلك واحفظوه منا ، وانقلوه عنا ، وأظهر أن ذلك اختيار فلان ، أن لا يُذكر الله في المواضع المستقذرة » هـ .

أقُولُ : وهذا خلاف ما رأيته منقولاً عنه ، بأنه قال : « إن الجوابي ليست مُعَدَّة للنجاسة ، فلما حصل ذلك فيها عارضاً فلا يُكره الذِّكْرُ فيها » ، فإن هذا من الخطأ الذي أشار إليه ، كما ذَكَرْناه عند أول هذا النقل من قوله : « قد نقل كلامنا أناس كثير ، نقلوه بالمعنى فأخطأوا في نقله ، فإذا سمعناه منهم رأيناهم مخطئين » ، فإنه بذلك يشير إلى هذا وأمثاله ، وإلا فإذا قال في معنى ما نقلنا : « اكتبوا ذلك واحفظوه منا وانقلوه عنا ، وأظهِروا أن ذلك اختيار فلان ، أن لا يُذكر الله في هذه المواضع المستقذرة » ، فماذا بقي فيه من التشكك ؟ هـ .

قال رضي الله عنه : « لا ينبغي أن يترك دخول السوق تكبراً ، لأن الله تعالى ذكر الأنبياء بدخول الأسواق ، وذكر الكفار بإنكارهم ذلك عليهم ، فيدخله لقضاء حاجته أو كان في طريقه عليه ، وإنما تركوه تجنباً وتنزهاً من أماكن الشياطين واللغو ، وقد كان السلف يدخلونه ويأخذون حوائجهم منه ، وشرى سيدنا علي منه قميصاً وسروالاً » هـ .

أقول : وذُكِرَ في مناقب سيدنا الفقيه المقدم ، أنه كان يشتري من السوق اللحم ، ويمر به بين المجالس رافعه في يده يراه الناس ، فإذا تعدى المجالس ؛ أعطاه لأول من يلقاه من الفقراء هـ .

قال رضي الله عنه : « متى فرحتَ بشيء من أمور الدنيا واطمأننتَ به ، فأنت ناقص عقل ودين ، وزيادة أحدهما أو نقصه يستلزم مثله في الآخر . ولا أَحْسَنَ أهلُ الزمان تدبير دينهم ولا دنياهم ، بل هم في دنياهم كالعين العوراء ضعيفة النظر ، وفي دينهم كالعين العمياء ليس تبصر أبداً ، وكلما دار الزمان قليلاً تغير أهله ، فترى الإنسان يقصُر عن مماثلة أبيه ، ويعجز في دينه ودنياه حتى في القوة والهمة، ويعرف الإنسان مرض قلبه ونقص دينه وعقله ، وهو أعرف به من غيره ، ثم لا يهمه ذلك أن يقصد طبيباً من أطباء القلوب يداويه ، ويسلِّم الأمر إليه ، ولو وقع له أدنى مرض في بدنه لاهتمَّ له وطلب المداوي ، ويقال : إن المريض أعرف بعلته من الطبيب » هـ .

أقول : قوله : « متى فرحت .. إلخ » ، أي فرحت به بمجرد وجوده في يدك تعززاً به ، وكراهة لخلو يدك منه ، أو فرحت به لتتمكن به من مآرب نفسك وحظوظها ، فإن هذا من وصف النساء القاصرات الناقصات العقل والدين ، وليس كل ذلك من شأن الرجال الكاملين . ولا تغتر بأوصاف رجال وقتك، فإن طبائعهم مثل طبائع النساء ، في نقصان الحظ من العقل والدِّين ، بل حتى إذا فكرت في حال أهل وقتك وحال أهل وقتٍ قبله ، ولو ما بينهم طول مدة ؛ رأيت سفهاء أهل ذلك الوقت ومن ينسب إلى خلاف الديانة أحسن ممن يُعَدُّ من طَيِّبي أهل وقتك مروءة وديانة في كثير من الأمور والأحوال . وأما إذا فرحتَ به لوفاء دين لتبري به ذمتك من حقوق الناس ، أو لمعاش ضروري لتستغني به عن الإحتياج إلى الناس ، أو لتفعل به معروفاً وتصل به رحماً ، وتتصدق منه على محتاج ونحو ذلك من أمور الخير التي يحبها الله ، بنية صادقة يعلمها الله منك ، لا دعوى بلا تحقيق . فإذا فرحت به لأجل ذلك صادقاً في ذلك ، من غير تلبيس من النفس وإبليس ؛ فلا يُخْرِجْكَ عن حال الرجولية إلى وَصْف النساء والطفولية - إن شاء الله - من نقص العقل والدين .

قوله : « **وزيادة أحدهما أو نقصه ، يستلزم مثله في الآخر** » ، يعني إنَّ نَقْصَ العقل مستلزمٌ لنقص

الدين ، وزيادته مستلزمة لزيادة الدين ، كما إن زيادة الدين مستلزمة لزيادة العقل ، ونقصه مسلتزم لنقصه .

وذمَّ أهل الزمان ، ووصفهم بأنهم لا يحسنون تدبير دينهم ولا دنياهم ، وإنه يعرف الواحد منهم نقص دينه وعقله ومرض قلبه ، ولا يَهُمُّهُم في ذلك ، كل ذلك لإشتغال قلوبهم بأمور الدنيا عن أمور الدين ، وإنهم كلما دار عليهم الزمان زاد بهم ذلك ، وعلى هذا النقص يزدادون منه إلى أن لا تقوم الساعة إلا على شرار الناس .

وذَكَر شأن من انتهض لذلك تقديراً ، أن لو وُجِد على بُعْد ، وإن ذلك من نوادر الزمان أن يوجد طالب ذلك ، فذَكَر أدبه ، فقال : « **لا ينبغي للطالب أن يقول : مروني بكذا ، أو اعطوني كذا . فإن هذا طالب لمطلوب نفسه ، بل يكون كالميت بين يدي الغاسل ، إن أقاموه في شيء ابتداءً منهم فليمتثل ، وإلا فليقف ، فإنه لا يدري بما يصلح له ، وهم أعرف بذلك منه ، فإن الناس مختلفون ، أحد لا يصلح له إلا خدمة الشيخ ، وأحد لا يصلح له إلا خدمة الفقراء ، وأحد يصلح له غير ذلك ، على حسب اختلاف غرائزهم وفِطَرِهم** » .

فقلت له : فإن أقام الطالب عند الشيخ ، وطالت المدة ولم يُقِمْهُ في شيء ؟ ، فقال : « **في الطاعة بركة، ولكن يمتثل ، فإنه ما دام يطلب شيئاً بنفسه لم يحصل له ، فإن الأشياء موزعة ، لكلٌ ما يصلح له** » .

ثم ذَكَر قصة الإمام الغزالي حين مضى يطلب شيخاً ، قال : « **فجاء إلى بعض المشايخ ، فقال : أريد عندكم خدمة ؟ فقال : ما عندنا لك إلا حجر الإستنجاء تغسله كل يوم** » .

قوله : « **في الطاعة بركة** » ، يعني إذا أبطأ عليه ، ولم يُقِمه في شيء ، فليصبر ولا يجزع ، فإن صبره امتثالٌ لأمره ، وهو عدم إقامته في شيء ، فإذا أمره بشيء لزمه الإمتثال ، فإن اللام في قوله : « **فليمتثل** » لام الأمر ، كما هي في قوله تعالى : ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾ ، وإنما قلت له ذلك لأني استغنمت عروض قوله هذا ، بعد طول المدة عليَّ ، فلم يُقِمْني في شيء ، وما طلبت منه ذلك بل سَكَتُّ ، وإذا عرضَتْ له حاجة وأمرني فيها بشيء بادرتُ ممتثلاً ، إلى أن أقامني في وظيفة الأذان وقراءة سورة يس مع دعاها له بعد كل صلاة مكتوبة ، بعد نحو أربع سنين ونصف ، وبقيت فيها إلى أن توفي .

وأرادني العيال في الإقامة فيها بعده ، وأن أقيم في البلد ، فما قدرت على الإقامة بعده ، وجزعت جداً من الجلوس فيها ، على ما تقرر في مخاطبتي معه في ذلك ، حتى ظنَّ العيال أنه أمرني بالإقامة بعده، ودعوني إلى الزواج فما أجبت ، فظنوا أني خالفت أمره ، والكلام المتقدِّم يبيِّن شأن هذا الأمر ، والله

أعلم بالحال هـ .

قال رضي الله عنه : « أكابر الأولياء كالشمس وقابس النار ، إذا أتاهم الطالب ، فإن كان متأهّلاً للشيء قدحوه في لحظة ، وإلا أقاموه حتى يتأهل ، ثم إنهم مختلفوا الأحوال : فمنهم من هو كالقبس الصالح العامل ، يُورِي من أول مرة ، ويؤثّر معه ذلك ، ولكنه لا يظهر عليه له أثر في حياتهم ، كما إنه لا أثر للسراج مع طلوع الشمس . ومنهم من لا يوري إلا بعد مرارٍ متعددة . ومنهم من لا يوري بحال ، كالعُطُب الدويل الذي ما فيه رائحة الدواء . ثم بعد الإيراء ، منهم من يثبت فيه ذلك كما تقدم ، ومنهم من ينطفي في الحال ، ومنهم من يقيم معه مدة ثم ينطفي ، على حسب الصلاحية لذلك وعدمها » .

وقد قال لي الأخ العزيز عوض بن صباح ، سمعت سيدنا الحبيب عبدالله يقول : « **من جاءنا وعنده السراج وفيه السليط والعشمة ؛ ما علينا إلا نعْلِق له ، لا غير ذلك** » هـ .

أقول : قوله : « **فإن كان متأهلاً** » ، أي مستعداً يكون بالأهلية ، والإستعداد في ثلاثة أمور :

أولها : لمن سبق له من الله حصول النصيب والقسمة من ما قُسِم للصالحين ، كلٌّ يُكتب له على ما كُتِبَ له بقدر ما قُسِم .

والثاني : بلوغه إلى حد الإستعداد له بالعمل الذي يربيه عليه المشايخ من الرياضة والعمل الكامل، على قانون الشرع ، وأكملها عزوف النفس عن الدنيا الصادة عن كمال الإستقامة ، والإقبال الكلي على الله ظاهراً وباطناً ، شرعاً وحقيقة بكلِّيته ، فإن مال إلى محبة الدنيا أقل قليل ، بطل عليه عمله وفاته أثره.

الثالث : حضور الوقت المؤقَّت لذلك ، فإن ذلك هو العناية ، وهو النفحة . والنفحات لها أوقات كما في الحديث : « **إن لربكم في أيام دهركم لنفحات ، ألا فتعرضوا لها** » ، فيُساق العبد إلى كمال تلك الأعمال بالباعث الذي هو من علامات البداية ، وهو الذي في أول « رسالة المريد » ، وإنه من جنود الله الباطنة .

فإذا تمت للعبد هذه الثلاثة على وجهها ، كان هو المستفيد الذي يقدحونه في لحظة ، وإلا أقاموه حتى يتأهل ، بكمال العمل وحضور الوقت ، وهو الذي كالقبس الصالح لدى المتأهل ، وهو الذي يثبت فيه وهو المستعد ، المراد بقوله : « **عنده السراج وفيه السليط** » : الدهن الذي يسرج به ، « **والعشمة**»: الفتيلة، والإعلاق : التلقيح في لحظة ، والعطب : القطن الدويل العتيق .

واختلاف أحوالهم على ما فصَّل من كامل في هذا المعنى وأكمل وقد ينقص .

وأكثر الخطر على متجردي هذا الزمان من الميل إلى محبة الدنيا ، بعد انمحاق ذلك الباعث الشريف من قلبه ، فإن محبتها في هذا الزمان متمكن من القلوب ، فربما خالط أحداً منهم فاسترقَّ طبعه من طبعه، وذهب عنه باعث الخير ، ومال إلى الدنيا ، كما هو الغالب على متجردي هذا الزمان ، قَلَّ من يثبت ويستقيم منهم ، بل عن قليلٍ ينجذب إلى الدنيا ويميل قلبه إليها ، ويُدبِر عن أمره المقصود ، حتى يصير يتطلب الحرام ، وبوده لو حصل له . هذا شأنه بعد ما كان زاهداً في الحلال ، نعوذ بالله من الإنعكاس ، فهذا كما ترى كثيراً من المنسوبين إلى الطريقة ، من نقشبندية وهم الأكثر ومن غيرهم ، حتى أن أناساً من النقشبندية توكلوا لأناس ظلمة من أعوان الدولة .

وقد سمعت سيدنا الحبيب يوماً ، بعدما فرغ القاريء من قراءته في « رسالة المريد » في درس العصر ، قال : « **إنما لم نُسَمِّ من ألَّفناها بسببه ، لأنه رجع بعد ذلك عن الإرادة** » ، فانظر شأن رجال أهل الزمان ، وقد كان في زمان أصلح من زماننا ، فما بالك بهذا الزمان ، ولهذا كان محبة الدنيا رأس كل خطيئة .

وأما الإعلاق المذكور ، فلا يعرفه إلا أهل العلوم اللدنية الذوقية ، فمن فتح الله عليه بها وذاقها عرفه وذاقه وإلا فلا يعرفه ، فإنه لا يُعرف بالتعريف به والتبيين له كما تقدَّم ، وإن توهَّم معانٍ ظنَّ أنه عرفه وإنها معناه ، فلا يعثر على حقيقته إلا من تلك العلوم الشريفة ، فإنه من العلوم الذوقية . ومثلوا لها كما قدَّمنا من كلامهم بشهوة الوقاع ، لو شرحت وبينت للطفل الصغير ما عرفها ، فإذا بلغ وقتها - وهو حد سن البلوغ - عرفها بنفسه من غير تعليم ، وذلك كما قدَّمنا من قوله : « **إن الله لا يترك المؤمن في الخير من إحدى همتين : إما همة العادة ، أو همة الفتوح** » ، وفَصَّل همة العادة وبَيَّنَهَا ، وقال في الأخرى : « **فمن ذاقها عرفها** » ، فوكل بيانها إلى ذوقها ، فإنها لو فُصِّلت وبُيِّنَت ما عُرِفَت ، وهكذا كل الأمور الذوقية ، لا تعرف بالبيان والتفصيل ، فلا يستعد لمعرفتها - أي العلوم الذوقية - إلا بالأمور الثلاثة المتقدمة .

* * *

وقال لي يوماً : « أوصيك بهذه الوصية ، وأَوْصِ بها أنت : إذا دخَلْتَ في أمر ديني أو دنيوي ، فاجتمع عليه » .

وقال لي يوماً : « الرجل الصالح لا يكلف أحداً إلا بما وافق عنده ، ما لم يكن إثماً . أما سمعت قول شعيب لموسى عليهما السلام : ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، إذ لم يُعيِّن على موسى ما يشق عليه ، بل ما هان وخف ، ولو قال : من الصابرين . لدل على أنه ما يراعي في

الأمر أحداً » هـ .

أقول : انظر في هذا - أو في غيره مما تقدَّم ويأتي - إلى دقيق فهمه وقوة تنبيه الله له في فهم كتابه ، مما لم يقع في بال أحد ، تفهم أنه مدده في علومه مُستَمَدٌّ من الحضرات الإلهية ، وفائض من العلوم النبوية والفيضات اللدنية .

وقلت له يوماً ، وذلك بعد الظهر يوم المولد من سنة ١١٢٥ في الغيلة في مجلس فراغ وانشراح بال، وحدي ووحده ولا هناك أحد ، في وقت بسط وانشراح : ما بالنا في البعد عنكم نحس للقلب إليكم ميلاً كثيراً ، فإذا كنا عندكم لم يبق لذلك أثر ؟ فقال : « إن الصالحين يحبون قلة تعلق الناس فيهم - أو قال : بهم - ويريدون منهم أن يجتمعوا لله ورسوله ، لأن الله تعالى يغار إذا رأى عبده متعلقاً بغيره ، وكذلك الرسول ﷺ ، وقد ذَكَر أهل الإعتقاد : أن المتعلِّق مع المتعلَّق به كالشمس ، يتمكن من النظر إليها مع البُعد أكثر منه في القُرب » ، ثم ذكر أبيات من قصيدة ناصر الدين ابن بنت الميلق ، وهو قوله :

وَالمرْءُ إِنْ يَعْتَقِدْ شَيئاً وَلَيْسَ كَما ... يَظُنُّـهُ لم يَخِـبْ وَاللهُ يُعْطِيـهِ

وَلَيْسَ يَنْفَعُ قُطْبُ الوَقْتِ ذَا خَلَلٍ ... في الإعْتِقَـادِ وَلا مَـنْ لا يُوَالِيـهِ

قلت : فعسى إن بَعُدْنا عنكم يحصل الإجتماع بعد ذلك ، فقال : « إن الجسد قبر الروح ، والقبر قبر الروح والجسد ، الجسد ماكث فيه والروح يتعهد ، فإن رأيتنا في القبر الأول ، وإلا ففي القبر الثاني. والسادة آل باعلوي يحبون تلك الجهات ، لأنها كانت أصل موطنهم ومهاجرهم ، وهم هنا أغراب ، حتى إن الشيخ عبدالله بن أبي بكر العيدروس في أوقات غيباته حالة السماع يذكرها ، يقول : حضرت في المكان الفلاني منها ، واسألوا فلاناً اجتمعت به في المحل الفلاني ، وبدن عندكم وقلب عندهم في العراقات والشامات . وأهل تلك الجهة من أصحاب سيدنا علي رضي الله عنه ، وهم الذين صبروا معه، ونحن نطرح الأمور على النبي ﷺ ، وهو يجعلها إلى الله » .

قلت : ونحن نجعلها عليكم ، قال : « إن شاء الله » هـ .

قال رضي الله عنه : « نود أن ننفع جيراننا وأصحابنا ونحوهم بما أمكن ، ولكن خالَفَت الظنون اليوم، ومن نعرفه لا نسمح به للنار والعار ، والزمان زمان حَيْرة ، فينبغي أن يُسمى مخيب الظنون ، وهذا بسبب أهله . وأما الزمان فهو ليل ونهار ، والميزان موجود بلا شوكة - أي عود - كلٌّ يطرح من الكفة هذه ومن الكفة هذه ، ولو تركوه من غير طرح عُرِف الوزن ، فعسى الله أن يلطف ، ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ﴾» هـ .

أقول : معنى هذا المثال أن الميزان - وهو قانون الحق - موجود بلا استقامة عليه ولا عدل وهو الشوكة ، يعني عود الميزان التي يُعرف بها اعتداله .

و « **كل يطرح من الكفة هذه** » ، من جانب الباطل بمقتضى هواه بإفراط ، « **ومن الكفة هذه** » ، بمقتضى هواه أيضاً بتفريط ، أي من مفرط بالباطل ، ومن مفرط في اتباع الحق ، حتى وقع في الباطل، كهؤلاء الدرسة المتنطعين الزاعمين أنهم يريدون الإحتياط في العبادات ، وذلك تزيين الشيطان ، فزين لهم سوء أعمالهم ، وكلهم وقعوا في الباطل ، أحد بتفريطهم وقصورهم ، وآخرين بتهورهم وإفراطهم ، و « **لو تركوه** » ، أي تركوا أعمالهم هذه على هذين الوجهين من التفريط والإفراط ، « **عُرِف الوزن** » ، أي تبيَّن استقامتهم على الصواب والحق .

ولكن كما تقدَّم قوله : « **إن الشيطان قائم لهم على طريق الحق الذي يَصِلون منه بردهم عنه** » ، فاعتدال الميزان : أن يعمل على قانون الحق بالإعتدال والصواب ، شرعاً ومروءة ، من غير إفراط - وهو الغلو وتعدي الوسط - ولا تفريط - وهو النقص عن الوسط والحد المطلوب - كما تقدَّم قوله: « **كل ما نأمركم به ونحثكم عليه إنما نريد به الوسط ، إن دين الله هو الوسط ، لما ورد في الحديث : أَوْغِل في هذا الدين برفق .. إلخ ، وما شادَّ الدين أحد إلا غلبه** » هـ .

* * *

وقيل له : « **إن الناس اليوم لا يسمعون كلام الأخيار** » ، **قال** : « **لأنهم ما هم أخيار ، وهل الحمار يساير الخيل ؟** » .

*

قال رضي الله عنه : « **طرق التصوف وإن تعدَّدت فهي طريقة واحدة ، وهي مجاهدة النفس والخروج من كل ما تدعو إليه ، وهذا أمر عسر ، ولكن ربما تكلم بعضهم في مسألة وأكثر فيها الكلام ، فنُسبت إليه** » هـ .

أقول : يعني كما ذَكَر أن الشيخ أبا الحسن الشاذلي تكلم في مقام الشكر ومقام الرضا والتسليم ، فنُسب ذلك إلى طريقته ، وصارت مبنية ومؤسسة على ذلك ، وصنَّفَ الشيخ ابن عطاء الله في تلك الطريقة كتاب « التنوير في إسقاط التدبير » ونحو ذلك ، وإن كان هذا في جميع الطرق أيضاً .

وتقدم قوله : « **إذا حصلت العناية الإلهية حصل السلوك** » ، وقوله : « **قاعدة : ما يكون شيخ الإنسان إلا من اجتمع عليه قلبه ، حتى لا يرى أن أحداً أفضل منه ، فذلك هو الذي ينتفع به** » ، وقد تقدم هذا مع قول السيد أحمد الهندوان : « إذا اعتقدتَ في إنسانٍ أنه أفضل أهل زمانك ، ولكن انظر أن لا يكون اعتقادك لهوى ، فإن كان خالصاً لوجه الله فهو هو شيخك الذي تصل إلى الله على يديه ، ولو كان أجهل خلق الله » ، فهما كافيان في الشهادة في هذا المعنى ، ويؤيِّد ذلك قول ناصر الدين المتقدِّم :

وَالمرْءُ إِنْ يَعْتَقِدْ شَيئاً وَلَيْسَ كَما ... يَظُنُّـهُ لم يَخِـبْ وَاللهُ يُعْطِيـهِ
وَلَيْسَ يَنْفَعُ قُطْبُ الوَقْتِ ذَا خَلَلٍ ... في الإعْتِقَـادِ وَلا مَـنْ لا يُوَالِيـهِ

فاعرف من هذا المعنى فائدة الإعتقاد في الصالحين ، أنه سبب لجلب كل خير ، وسبب لدفع كل شر ، وأن سوء الظن بهم وعدم الإعتقاد فيهم بضد ذلك ، سبب لجلب كل شر ، وسبب لدفع كل خير.

وتقدَّم أيضاً قوله : « **قال بعضهم : لا بد في كل عمل من الجذب ، ولولاه ما أمكن العمل** » .

وللشيخ علي بن أبي بكر هذان البيتان ، ذَكَرهما في بعض وصاياه بعد ذِكْرِه الجذبة ، وذَكَر أنها تفجأ صاحبها ، فتغيِّبه عن الأكوان فيفنى ويدهش ، وينسى عالَمَ ما يكون وما كان ، وهما هذان البيتان :

أُرِيدُ مِنَ الإلَـهِ خَفِيَّ لُطْـفٍ ... يُعَامِلُنِي بِجَـذْبِ مَـن عطَـاهُ
هُـوَ الملِكُ الجَوَادُ بِكُلِّ فَضْلٍ ... يُسَـامِحُنِي وَيُعْطِيـنِـي رِضَـاهُ

قال الشيخ علي المذكور رضي الله عنه ونفعنا به : « قد ينتفع الشخص بالشيخ ، بأن يلقاه كل يوم، وقد ينتفع به بأن يلقاه كل أسبوع وكل شهر وكل سنة ، وقد ينتفع به بأن يحبه في الله تعالى وإن لم يلقه ، فيَصِل إليه إرشاده وطريقه ، ويسري إليه سِرُّ بركات مؤثرات هممه وخوارق أحواله ، وذلك على قدر قوة محبته ، وشدة شغفه وكمال وده ، وحسن ظنه وصفاء قابليته وحقيقة مناسبته للشيخ ، يكون سراية حال الشيخ إليه ، وتأثير همته فيه . وقد يتربى المريد بنفس الشيخ ، وسراية حاله وتأثير

همته ، مع كمال صحة قابليته ومناسبة روحانيته ، من غير أن يدخل الخلوة ، وينحبس في موضع مظلم ، بل يسري إليه من باطن الشيخ ما يستغني به عن الخلوة ، ولكن الخلوة أصلح لبعض المريدين».

وتقدَّم قول الشيخ علي أنه إذا كان مكتوب لأحد أن يجتمع بأحد من الأكابر ، فتظهر لذلك الشيخ على يديه كرامات وخوارق عادات ، وهي لذلك الشيخ لا له ، ولو لم يره ولا سمع به . وكثيراً ما فُتِحَ لكثير من المريدين على أيدي أكابر من العارفين ، ونُسِبوا إليهم وعُدُّوا مشايخهم وهم تلامذتهم ، وما رأوهم وربما لم يسمعوا بهم . وذلك لما ذَكَر الشيخ علي وغيره في كمال صحة القابلية ومناسبة الروحانية، وكمال صحة المحبة والعقيدة ، والمشابهة في السيرة والحال ، كما ذَكَرنا من شأن سيدنا عبدالله مع شيخه السيد محمد بن علوي السقاف ، ولم يره ولا اجتمع به في الظاهر ، حتى إنه لما رأى في المنام المرأة التي أرادت تصافحه ، قال : « **فلَفَفْتُ يدي في كُمِّي لئلا تلامسني ، فصافحتني من وراء الثوب ، وقالت : ما أشبه هذا الكف بكف السيد محمد بن علوي** » ، وتقدَّمت القصة ، وأنها المدينة المشرفة تمثَّلت له في صورة امرأة .

ومرَّ في القراءة في قوت القلوب وقت الدرس ، ذِكْر التوكل وأحوال المتوكلين ، **فقال** : « **مثل هذا يتيسر للمتجردين عن العلائق كلها ، وما ذلك ببعيد في حقه ، ويمكنه أن يكون بحيث لو مرَّ على وادي ذهب لم يأخذ منه إلا قدر حاجته . وأما من وَرَّطَ نفسه في العلائق فلا يمكنه ذلك ، وإن حَدَّثَ نفسه كان مطالباً بأشياء دونها نزع الروح ، فليرضَ بدرجة أصحاب اليمين . والغالب أن الرجل المصلح اليوم في أول درجات أصحاب اليمين ، إلا إن كان أحد خامل مُضْمِرٌ للصبر واليقين وحسن الإفتقار** ».

قال رضي الله عنه في قولهم في المتوكل : « أن يكون بين يدي الله كالميت بين يدي الغاسل » ، **قال** : « **أي يكون كذلك في الباطن لا في الظاهر** » ، يعني لا يتحرك قلبه ولا يتكدر خاطره عند الطلب لما يريد ، والترك لما يكره .

قال : « **أمور الدين وأمور الدنيا كلها إذا رخصت هانت ، وقد ضعفت كلها ولا عاد بقي منها إلا رسوم ، كالعمل - أي الزرع - الذي صُرِب - أي حُصِد - وبقيت أصوله** » .

قال : « **الهلع مع الفقر عيب ، كالبطر مع الغنى ، وينبغي لفقير هذا الزمان أن يكون أخف من العُطُب - أي القطن - على الناس ، وإلا أثم فيهم وأثموا فيه ، وعلامة الزاهد في الدنيا أنه إذا دخل عليه شيء منها فوق حاجته يستوحش منه ، فيرد الزائد أو يخرجه في الحال بلا مهلة ، وهذا أقل الزهد. وعلامة الراغب فيها أن يستأنس بما يحصل له منها** » هـ .

أقول : « الهلع » ، كما فسَّره في القرآن من قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾، ثم فسَّره أنه الذي ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝﴾، ومراد سيدنا الذي يجزع في حالة الفقر ، أي يخاف من اشتداد الحاجة ، وذلك يدل على عدم ثقته بضمان الله الرزق ، وإن ذلك في حالة الفقر عيب شديد ، يضاهي البطر والمدح و الغفلة عن الله وعدم الشكر في حالة الغنى . وإذا كان الفقير مبغوضاً بالطبع إذا كثر سؤاله ، وقد ذكروا أنه يكون مُلحِفاً ولو بسؤال مرةٍ واحدةٍ ، فينبغي أن لا يسأل ولا يُعرف ذلك منه ، ليصير بذلك خفيفاً عليهم ، ويَسْلَم بذلك من إثمهم فيه إذا أبغضوه ، وإثمه فيهم إذا تسبب لبغضهم، ويدخل بذلك في مدح الله بقوله : ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾، وفي قوله سبحانه : ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾.

قوله : « يستأنس » ، أي بمجرد حصوله ، رغبةً في الغنى وكراهةً للفقر ، لا بسبب مما تقدَّم كوفاء دين ونحوه ، ولولا ذلك لما رغب ، فهذا لا يخرجه عن حالة الزهد إلى حالة الرغبة هـ .

قال : « ومن عرف الدنيا زهد فيها ، ولو كان ما يؤمن بيوم الحساب ، وقد أجمَعَتْ جميع الملل على ذمها ، وأجمعت جميع الأمم التي جاءت إليها الملل على حبها ، ومعظم آيات القرآن في ذم الدنيا » .

ومرة قال : « نحو ثلث القرآن في ذم الدنيا والتزهيد فيها ، وأبلغ آية في ذمها قوله تعالى : ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ۝ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ۝ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ۝﴾ ، ونحن بحمد لله لا نبالي بما يفوت منها مما في أيدينا ، إلا إن كان في غير محله ، غارة عُمَرية ، وما هي عندنا إلا كحيثة جربة سَهُلَ علينا إخراجها ، ولم نخشَ إلا من عدم الإخلاص » ، ومرة قال : « لو كان للدنيا عندنا قدر ما وليناها فلاناً » .

أقول : يعني خادماً له كان كثير النسيان ، فربما أعطاه قروشاً يشتري بها حاجة من ضرورات المعاش ، أو ليدفعها إلى ديان ، فيضعها في طاقة فينساها ، فتُسرَق وتفوت ، فيُعلِمُه بذلك فيسكت ولا يلومه ، ولا يعنِّفه على ذلك ، وهذا يحقِّق قوله المذكور .

وقوله : « حيثة جربة » ، الجربة في لغتهم حوض النخلة ، يحفر ويخرج منه التراب ، وهو الحيثة ، أي التراب الذي أخرج من حوض النخلة يسمونه الحيثة ، ويُغَوَّط حوضها ليجمع ماء كثير ، فيبقى في الحوض مدةً تتروى به على قدرها صغيراً وكبيراً ، يعني كما أن هذا التراب لا قدر له ، ولا تشح به النفوس ، كذلك قدر الدنيا في نفسه هو ، وإن عزَّت في نفوس الناس ، سيما أهل هذا الزمان ، فما هي

في نفسه ، وكذلك في نفوس الأكابر إلا كهذا التراب هـ .

قال : « الدنيا ، وما هي الدنيا ؟ قال بعضهم : إذا أردتَ أن تعرف الدنيا ، فاسأل عنها أحداً في سكرات الموت » هـ .

أقول : يعني إنه في تلك الحالة لا يلتفت قلبه إلى الدنيا ولا يبالي بها ، فيخبر عنها حينئذ بما يرى من شأنها ، وهو أنها ليست بشيء .

ولما جاء الطاعون في بلاد البصرة عام ١١٠٢ ، انقطع أمل الدنيا من القلوب ، فكل أحد معتقد في نفسه أنه ميت لا محالة ، حتى إن السارق يدخل البيت ، فيشل الصندوق بما فيه من المال والنفائس ، وصاحبه جالس ينظره ، ولو أراد أن يمنعه منه منعه ، فلا يمنعه وهو يقدر على منعه ، فيقول في نفسه : أنا ميت عنه ، فلا حاجة لي به ، ولو ما أخذه هذا أخذه غيره . ولكن غالب من يأخذ المال إذا ركب به في البحر مات عنه وتركه ولا ينتفع به ، وقع ذلك لأكثر ممن فعله أو للكل ، هكذا سمعنا .

ومرَرْنا بوادي في طريقنا سائرين من البصرة إلى الحساء ، وفيه من الجاموس ما يقدِّره الناظر يزيد على الألف ، ما لها من يدَّعيها ، مات أهلها عنها ، ولو أن إنساناً ساقها كلها ما رده عنها أحد ، وكذلك النخيل والأموال ما لها مالك . ثم جاء أناس من بغداد وغيرها ، ووضعوا أيديهم عليها ، وصارت تحت أيديهم ، مات عنها أربابها وما مكنوا ورثتهم منها ، حتى إن نخيلاً وأراضي وأموالاً لآل الرفاعي ، وهم أكبر المناصب بالبصرة ، تملكها أناس ووضعوا أيديهم عليها ، ومع شهرة منصب السادة الرفاعية هناك ما استردوا منها اليسير إلا بتعب كثير هـ .

قال *رضي الله عنه* **: « كانوا إذا دخل آذار يحبون التفرج والخروج من الديار إلى الخلاء والقفار ، تنزيهاً للخواطر وتروحاً للقلوب ، لأن الروح في الجسم محصور ، فإن انحصر الجسم أيضاً اجتمع حصران ، فيتولد من ذلك ضعف المزاج ، وهذا طبعنا نحن ، والذي نحبه ونفعله ، إلا إن حصل مانع منه .**

وينبغي للإنسان أن لا يستقر بمكان ، بل يسير في أرض الله ، لعله أن يرى أكمل منه ، فيقتدي به إن قدر على ذلك وساعده الحال والوقت ، أو يرى معتبراً فيعتبر أو يفيد أو يستفيد » .

ثم ذَكَر وأشار إلى هذه الأبيات :

تَغَرَّبْ عَنِ الأَوْطَانِ في طَلَبِ العُلَى   وَسَافِرْ فَفِي الأَسْفَارِ خَمْسُ فَوَائِدِ

تَفَـرُّجُ هَـمٍّ وَاكْتِسَـابُ مَعِيشَـةٍ ... وَعِلْـمٌ وَآدَابٌ وَصُحْبَـةُ مَاجِـدِ

وَإِنْ قِيـلَ فِي الأَسْـفَارِ ذُلٌّ وَمِحنَـةٌ ... وَقَطْعُ الفَيَافِي وَارْتِكَابُ الشَّدَائِدِ

فَمَوْتُ الفَتَـى خَيـرٌ لَـهُ مِـنْ حَيَاتِـهِ ... يَعِيـشُ لَـهُ مَـا بَـيـنَ وَاشٍ وَحَاسِـدِ

قال : « وأهل الزمان لو تعب أحدهم في شيء من أمور الدنيا غاية التعب ، وعرق فيه عشرين عرقة، ما عَدَّ هذا تعباً ، ولم يبال بذلك ، ولو كان في شيء من أمور الدين رأى السهل عسيراً ، والقليل كثيراً ، وقال : من يقدر على هذا ؟ » هـ .

أقول : قال الإمام الغزالي في هذا المعنى ، في كتاب الغرور من الإحياء ، وهو مؤيِّد لقول سيدنا هذا، لما ذكر أنواع الغرور وأصناف المغترين ، قال : « ولكن يجمعهم أربعة أصناف من الناس : من العلماء ، ومن العباد ، ومن المتصوفة ، ومن أرباب الأموال .

والمغترون من كل صنف فرق كثيرة ، وجهات غرورهم مختلفة ، فمنهم من رأى المنكر معروفاً ، كالذي يتخذ المساجد ويزخرفها من المال الحرام ، ومنهم من لم يميِّز بين ما يسعى فيه لنفسه وبين ما يسعى فيه لله تعالى ، كالواعظ الذي غرضه القبول والجاه ، ومنهم من يترك الأهم ويشتغل بغيره ، ومنهم من يترك الفرض ويشتغل بالنافلة ، ومنهم من يترك اللباب ويشتغل بالقشر ، كالذي يكون همه في الصلاة مقصوراً على تصحيح مخارج الحروف ، إلى غير ذلك من مداخل الغرور ، التي لا تتضح إلا بتفصيل الفِرَق وضرب الأمثلة . ولنبدأ أولاً بذكر غرور العلماء :

- وذكر فيهم ثلاثة عشر فرقة ، وأرباب العبادات ، وذكر فيهم عشر فرق ، والمتصوفة ، وذكر فيهم عشر فرق ، وأرباب الأموال ، وذكر فيهم ست فرق ، وبَيَّن كل فرقة وفَصَّلها ، وضرب فيها الأمثلة لتبيينها ، فتبينت واتضحت جزاه الله خيراً -

ثم قال : فإن قلت : فما ذكرته من مداخل الغرور لا يتخلَّص منه أحد ، ولا يمكن الإحتراز عنه ، وهذا يوجب اليأس ، إذ لا يقوى أحد من البشر على الحذر من خفايا هذه الآفات .

فأقول : الإنسان إذا فترت همته في شيء ، أظهر اليأس منه ، واستعظم الأمر واستوعر الطريق إليه ، وإذا صحَّ منه الهوى اهتدى إلى الحيل ، واستنبط بدقيق النظر خفايا الطرق في الوصول إلى الغرض ، حتى إن الإنسان إذا أراد يستنزل الطير المحلِّق في جو السماء مع بعده منه استنزله ، وإذا أراد أن يخرج الحوت من أعماق البحر استخرجه ، وإذا أراد أن يستخرج الذهب والفضة من تحت الجبال استخرجه ، وإذا أراد أن يقتنص الوحوش المنطلقة في البراري والصحاري اقتنصها ، وإذا

أراد أن يستسخر السباع والفِيَلَة وعظيم الحيوانات استسخرها ، وإذا أراد أن يأخذ الأفاعي والحيَّات ويعبث بها أخذها ، واستخرج الترياق من أجوافها ، وإذا أراد أن يتخذ الديباج الملون المنقش من ورق التوت اتخذه ، وإذا أراد أن يعرف مقادير الكواكب وطولها وعرضها استخرج بطريق الهندسة ذلك ، وهو مستقر على الأرض ، وكل ذلك باستنباط الحِيَل ، وإعداد الآلات ، فسَخَّر الفرس للركوب ، والكلب للصيد ، وسَخَّر البازي لاقتناص الطيور ، وهَيَّأ الشبكة لاصطياد السمك إلى غير ذلك من دقائق حيل الآدمي ، كل ذلك لأنه أهمه أمر دنياه ، وذلك معين له على دنياه .

ولو أهمه أمر آخرته فليس عليه إلا شغل واحد ، وهو تقويم قلبه ، فعجز عن تقويم قلبه وتخاذَل ، وقال : هذا محال ، ومن ذا الذي يقدر عليه ؟ وليس ذلك محال لو أصبح وهمّه هذا الهم الواحد ، بل هو كما يقال :

لَوْ صَحَّ مِنْكَ الهوَى أُرْشِدْتَ لِلْحِيَلِ   لَكِنَّ حُبَّكَ لي قَوْلٌ بِلا عَمَلِ

فهذا شيء لم يعجز عنه السلف الصالحون ومن اتبعهم بإحسان ، فلا يعجز عنه أيضاً من صدقت إرادته ، و قويت همته ، بل لا يحتاج إلى عُشْرِ تعب الخلق في استنباط حيل الدنيا ونظم أسبابها » .

وقوله : « فهذا شيء » ، إلى قوله : « ونظم أسبابها » ، مع ما يشبهه من لفظه ومعناه مما تقدَّم ، مما يدل على شدة رغبة الناس في الدنيا ، حتى إنهم لم يبالوا بالكثير من أعمالها ، ويستقلون الكثير من التعب في حصولها ، ويستغلون الكثير مما حصل منها ، كل ذلك لفرط رغبتهم فيها ، ولشدة غفلتهم عن أمور الدين وعدم رغبتهم فيه ، يستكثرون القليل مما حصل منه ، واليسير من أعماله ، وفي هذا كله وما اشتمل عليه كلام الشيخ ، شاهد لقول سيدنا : « **وأهل الزمان لو تعب أحدهم** .. » إلى آخر المقالة قوله : « **ومن يقدر على هذا ؟** » ، فانظره وتأمَّله .

ثم قال الشيخ بعد قوله : « ونظم أسبابها » : « فإن قلت : فقد قربت الأمر فيه بعد أن أكثرت في ذِكْر مداخل الغرور ، فَبِمَ ينجو العبد من الغرور ؟ فاعلم أنه ينجو منه بثلاثة أمور : بالعقل ، والمعرفة ، والعلم ، فهذه ثلاثة أمور لا بد منها :

أما العقل : فأعني به الفطرة الغريزية والنور الأصلي ، الذي به يدرك الإنسان حقائق الأشياء ، فالفِطنة والكَيس فطرة ، والحمق والبلادة فطرة ، والبليد لا يقدر على التحفظ من الغرور ، فصفاء العقل وذكاء الفهم لا بد منه في أصل الفطرة ، وهذا إن لم يُفطَر عليه الإنسان فاكتسابه غير ممكن . نعم ، إذا حصل أصله أمكن تقويته بالممارسة ، فأساس السعادات كلها العقل والكياسة ، قال رسول الله ﷺ : تبارك الله الذي قسم العقل بين عباده أشتاتاً إن الرَّجُلَين ليستوي عملهما وبرهما وصومهما

وصلاتهما ، ولكنهما يتفاوتان في العقل . كالذرة في جنب أحد ، وما قسم الله لخلقه حظًا هو أفضل من العقل واليقين ، وعن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه قال : يا رسول الله ، أرأيت الرجل يصوم النهار ويقوم الليل ، ويحج ويعتمر ويتصدق ويغزو في سبيل الله ، ويعود المريض ويشيع الجنائز ، ويعين الضعيف ، ولا يعلم منزلته عند الله يوم القيامة ؟ قال عليه الصلاة والسلام : إنما يُجزَى على قدر عقله. قال أنس : وأُثنِيَ على رجل عند رسول الله ، فقالوا خيراً ، فقال ﷺ : كيف عقله ؟ فقالوا : نقول من عبادته وفضله وخلقه ، فقال : كيف عقله ؟ فإن الأحمق يصيب بحمقه أعظم من فجور الفاجر ، وإنما يُقَرَّب الناس على قدر عقولهم . فالذكاء صحيح وغريزة العقل نعمة من الله تعالى في أصل الفطرة ، فإن فاتت ببلادةٍ وحماقةٍ فلا تَدَارُكَ لها .

الثاني المعرفة : وأعني بالمعرفة أن يعرف أربعة أمور : يعرف نفسه ، ويعرف ربه ، ويعرف الدنيا، ويعرف الآخرة ، فيعرف نفسه بالعبودية والذل ، وبكونه غريباً في هذا العالم ، وأجنبيًّا من هذه الشهوات البهيمية ، وإنما الموافق له طبعاً هو معرفة الله تعالى ، والنظر إلى وجهه فقط ، فلا يتصور أن يعرف هذا ما لم يعرف نفسه ولم يعرف ربه ، فليستعن على هذا بما ذَكَرْنَاه في كتاب المحبة ، وفي كتاب شرح عجائب القلب ، وكتاب التفكر ، وكتاب الشكر ، إذ فيها إشارات إلى وصف النفس ، وإلى وصف جلال الله، ويحصل به التنبه على الجملة ، وكمال المعرفة . فإن هذا من علوم المكاشفة ، ولم نطنب في هذا الكتاب - يعني الإحياء - إلا في علوم المعاملة ، وأما معرفة الدنيا والآخرة فيستعين عليها بما ذَكَرْنا في كتاب ذم الدنيا ، وكتاب ذِكْر الموت ، ليتبيَّن له أن لا نسبة للدنيا إلى الآخرة ، فإذا عرف نفسه وربه وعرف الدنيا والآخرة ، ثار من قلبه بمعرفة الله حب الله ، وبمعرفة الآخرة شدة الرغبة فيها ، وبمعرفته الدنيا شدة الرغبة عنها ، ويصير أهم أموره ما يوصله إلى الله تعالى وينفعه في الآخرة .

وإذا غلبت هذه الإرادة على قلبه صَحَّت نيته في الأمور كلها ، فإن أَكَلَ مثلاً أو اشتغل بقضاء الحاجة ، كان قصده منه الإستعانة على سلوك طريق الآخرة ، وصَحَّت نيته واندفع عنه كل غرور منشؤه تجاذب الأغراض والنزوع إلى الدنيا والجاه والمال ، فإن ذلك هو المفسد للنية ، وما دامت الدنيا أحب إليه من الآخرة ، وهوى نفسه أحب إليه من رضا الله تعالى ، فلا يمكنه الخلاص من الغرور .

فإذا غلب حب الله على قلبه بمعرفته بالله وبنفسه ، الصادرة عن كمال عقله فيحتاج إلى المعنى الثالث : وهو العلم ، أعني العلم بمعرفة كيفية سلوك الطريق إلى الله ، والعلم بما يقرِّبه إلى الله ، وما يبعده عنه ، والعلم بآفات الطريق وعقباته وغوائله ، وجميع ذلك قد أودعناه كتب إحياء علوم الدين، فيعرف من ربع العبادات شروطها فيراعيها ، وآفاتها فيتقيها ، ومن ربع العادات أسرار المعايش ، وما هو مضطر إليه ، فيأخذه بأدب الشرع ، وما هو مستغن عنه فيعرض عنه ، ومن ربع المهلكات يعلم

جميع العقبات المانعة في طريق الله .

فإن المانع من الله الصفات المذمومة في الخلق ، فيعلم المذموم ويعلم طريق علاجه ، ويعرف من ربع المنجيات الصفات المحمودة التي لا بد وأن توضع خَلَفاً عن المذمومة بعد محوها ، فإذا أحاط بجميع ذلك أمكنه الحذر من الأنواع التي أشرنا إليها من الغرور ، وأصل ذلك كله : أن يغلب حب الله على القلب ، ويسقط حب الدنيا منه ، حتى تقوى به الإرادة ، وتصح به النية ، ولا يصلح ذلك إلا بالمعرفة التي ذكرناها » ، انتهى ما أردت ذِكْره من كتاب الغرور .

وكفى بذلك سيرة حسنة ، ومؤيداً لقول سيدنا : « **أهل الزمان لو تعب أحدهم ..** » إلخ المقالة ، وإنهم لا يعدُّون التعب الكثير في طلب الدنيا تعباً ، وفي الدين يعدُّون اليسير أكثر من الكثير ، ومؤيداً لقول سيدنا أيضاً : « **طرق التصوف وإن تعددت فهي طريقة واحدة** » ، وهي مجاهدة النفس ، يعني يجاهدها أن تسير على هذه السيرة التي ذكرها الإمام الغزالي رحمه الله .

وذكر بدر الدين الزركشي في كتابه « تشنيف المسامع بشرح جمع الجوامع » : «ومما يرغب في الزهد في الدنيا ، خسة شركائها وقلة وفائها وكثرة بلائها ، ومن أعظمها الغفلة عن الله تعالى ، وما أحسن قول بعضهم لولده : يا بني ، لا تغبط أهل الدنيا على دنياهم ، فو الله ما نالوها رخيصة ، والله ما نالوها حتى فقدوا الله . وكان شيخنا العارف ولي الدين قدس الله روحه يقول : وجود الدنيا يضر بالقلب بالخاصية ، حتى في الفهم والذكاء وحسن الإستعداد لإدراك الحقائق من الهدى ودين الحق .

ولقد لقيت من ذلك آثاراً عجيبة في إقبال القلب وإدباره ، ورأيت أكابر أهل طلب العلم قلوبهم متعلقة بالدنيا ، تصير عقولهم من البلادة كعقول النساء والصبيان ، فالحذر الحذر من فضول الدنيا ، والزم القناعة باليسير منها ، ففيه راحة القلب ، وسلامة الدين والدنيا » ، انتهى .

قال رضي الله عنه : « إنما يستدل على كمال الشخص بتأدية الفرائض على كمالها ، لأنها عمود الدين، فمن أقامها بواجباتها وسننها وحضورها من غير وسوسة ، دلَّ ذلك على كماله وحسن عناية ربه به ، وإن عكس دلَّ ذلك على عكس ما ذكر » .

قال رضي الله عنه : « ثلاث مقامات الدين مترتبة ، لا يحصل للإنسان الثاني حتى يحكم الأول : مقام الإسلام ، ومقام الإيمان ، ومقام الإحسان . ولا يتكلم أهل الزمان حتى في التوكل والزهد أبداً، إلا إن مرَّ ذلك في كتاب ، ومن لا يحسن الإسلام ولا قام بواجب صلاة ولا زكاة ، كيف يمكن معه ذلك؟ ومن لم يكن معه لبن ، من أين يستخرج الزبد والسمن ؟ وتراهم يقصِّرون في إخراج الزكاة ،

أحد يعطيها للأشراف ، وأحد يجعلها ضيافات يتجمل بها ويحسبها من الزكاة ، ولا تحرك من رأيته في هذا الزمان يسيِّب أو ساكناً ، فقد كانوا إذا حركوا ، يخرج من تحريكهم قطعة الذهب والجواهر ، وأما هؤلاء إذا حركوا لم يخرج إلا العظام وجهمومة الشاة » .

أقول : قوله : « **يسيِّب** » ، أي ينسى ، مَثَّل به للعامي البليد ، البعيد عن فهم المعاني ، ولا يهمه أمر الدين ، « **وجهمومة الشاة** » : عظام رأسها .

أقول : وفي حديث : « اطلبوا العلم ولو في الصين » ، التعريف بالألف واللام للعهد والمراد هو علم مقامات الدين الثلاثة : الإسلام والإيمان والإحسان ، لقوله ﷺ لسيدنا عمر رضي الله عنه : « يا عمر ، أتدري من السائل ؟ » ، قال : « الله ورسوله أعلم » ، قال : « هو جبريل أتاكم يعلمكم أمر دينكم » ، يعني أنه أتاني في صورة رجل يسألني ، وأنتم تسمعون جوابي له ، لتعلموا به أمر دينكم ، أي ما شرحته له في سؤاله عن كل واحد منها ، فإنها هي علوم الدين المعَرَّفة في العلم المذكور ، وما خرج منها فهو آلة لها ووسيلة إليها .

قال سيدنا : « **وقد هَمَمْنَا بشرح حديث جبريل** » ، يعني هذا الذي فيه سؤاله ، قال : « **فمَنَعَنا عن ذلك ما رأينا من إعراض الناس عن ذلك ، وعدم رغبتهم فيه** » ، مع ما حث عليه رسول الله ﷺ من طلب علم الدين ولو في أقصى محل من الأرض ، وهو الصين أقصى المشرق ، ولا تبقوا جاهلين بعلوم دينكم . أما علم الإسلام : فهو علم الفقه المعرف للأحكام الشرعية ، وهي مباني الإسلام الخمسة وما تفرع منها من السُّنن ، وهي التي قال الله يعنيها : « ما تقرَّب إليَّ عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه » ، وهي هذه : الصلاة والزكاة والصوم والحج ، هذه الفروع الأربعة ، والخامس أصلها : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .

ثم قال : « ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل » ، يعني النوافل المتفرعة من كل واحد منها بعد إحكامها ، ثم علم الإيمان : وهو علم العقائد المعرف للأمور الإيمانية ، بمعرفة ما يجب اعتقاده مما يجب لله وما يجوز في حقه وما يستحيل عليه ، ثم علم الإحسان : المعرف لصفات القلب المعنوية المحمودة ، المنجيات بعد محو أضدادها المهلكات ، على ما أشار إليها في جملة الإحياء ، على ما نقلنا عنه من كتاب الغرور . وجملة الثلاثة هي علوم الدين المعرفة بآلة التعريف ، وما عداها من العلوم خادمة لها .

قال سيدنا في تعريفها : « **الإسلام مجرد عمل فقط ، والإيمان مجرد علم وتصديق والإحسان مشترك بينهما . والأول في الجوارح ، والثاني في القلب ، والثالث فيهما . والأول ظاهر الثاني ، والثاني باطنه ، والثالث خالصهما ، وهو الغاية من الإسلام والإيمان ، إذا اجتمعا صارا إحساناً** » .

قال : « وفي الحديث حث على طلب العلم ، وعلى تكرير المعلم على المتعلمين ليرسخ حفظهم ، وعلى تخصيص أكمل الحاضرين بالخطاب » .

وقال في قول الحديث : « وأتبع السيئة الحسنة تمحها » : « الحسنة المعروفة المكفرة لجميع السيئات ، هي التوبة النصوح الصادقة ، بجميع شروطها ومعتبراتها ، إن أتبعت بحسنة من جنسها بعد أن يكفرها فذلك أحسن ، وإلا فقد أتى بها عليه » ، وعند قوله : « أتبع السيئة الحسنة تمحها » ، قال : « إن أتبعت بحسنة من جنسها يعني بحسنة من عضو السيئة التي عملها به » .

قال : « لا يهاب من أمور الآخرة - أو قال : لا يجبن عن أمور الآخرة - والكرم إلا خسيس الأصل . والبخيل هو الذي لا يتصدق مما في يده ، ويقول : لو جاءني كذا من المال لتصدَّقت . فإنه كاذب ، لو جاءه ما أراده مَنَعَهُ منه ما مَنَعَهُ مما هو عنده الآن ، من وساوس النفس وتقدير الحاجة إلى كذا أو إلى كذا ، ويعزم على أمور لم يعزم عليها قبل ذلك » .

قال : « لم يتأسَّف الإنسان إلا على عمره إذا ضاع بلا فائدة دينية ، وأما أمور الدنيا فكلما أقلَّ منها كان أحسن » ، ثم أنشد هذا البيت :

يَـا وَارِداً صَفْـوَ عَيْـشٍ كُلُّـه كَـدَرٌ ضَيَّعْـتَ صَفْوَكَ في أَيَّامِكَ الأُوَلِ

« وإذا رأيت الشمس على الجبل ، عادتك تقول : أريد أسير إلى الوادي ؟ لا ، إنما تقول غدوة . والموت ما له غدوة ، وما غدوته إلا القيامة وليلةُ البرزخ » .

ودخل عليه بعض السادة ، فسأله : « كيف حالك وقوتك ؟ » ، ثم قال : « غصبة ، أيام القوة والراحة ما هي مثل أيام الشدة والضعف ، فتراك إذا حصل لك قبض في باطنك تحس أعضاءك ضعيفة ، وما فائدة العمر إلا الطاعة ، والشريف أدنى شيء يؤثر فيه ، فينبغي أن يبقى على طهارته ، ولا يتدنس بشيءٍ من الأمور - أي من الذنوب - ، وكانت الأوقات مضبوطة ، وكلٌّ لازمٌ طوره ولا يتعداه ، واليوم كلٌّ متعدي ، وكلٌّ غير مضبوط » .

ثم ذَكَر البرد ، وأنه حصل به بعض منفعة لحرث البر ، فقال : « إن الله سبحانه لم يدبر شيئاً إلا وفيه صلاح ، ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ﴾ ، ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ﴾ ، فإذا دبر الأشياء هو سبحانه فما لك أنت والتدبير » هـ .

أقول : قوله : « ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ﴾ ، ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ﴾ » ، يعني أن الله كرَّره في آيات متعددة .

قال : « إذا شكى المحب الجور من محبوبه ، فالجور إنما هو منه لا من المحبوب ، لأنه يطلب منه هوى نفسه ، وهو ما يعطيه كل ما يهواه . احفظوا ذلك » .

وذَكَر بعض الأشياء في علم الفلك واختلاف الزمان على الإنسان ، واختلاف الأحوال عليه بسبب ذلك ، ومعرفة شهور الروم وما تدخل به من نجوم الشبامي ، وما يناسب في كل شهر منها من المأكول وغيره ، على ما ذَكَره اليافعي في منظومته ، ثم قال : **« أردنا فلاناً - أي الحساوي - يحفظ هذه الأشياء فما أمكنه . والإنسان إذا حفظ في صغره يرجع ينتفع بمحفوظه في كبره ، سيما إذا صار له مظهر، وقد جعل الله للإنسان بداية ونهاية ووسطاً ، فيحفظ الإنسان المهم ويذاكر بغيره ، والأشياء لها عُسْر ويُسْر ، فخذ باليُسْر في الأمور التي تعرفها حتى يساعدك الناس ، لأن الطريق معك ، فساير أهلك وأصحابك بما يمكنك ، وفيما لا لوم عليك فيه . والسادة ألا طاهرين ، فلا تُنَجِّس نفسك - أي بالمعاصي - وهم خاملون ما يظهر أحد منهم إلا بالدين والزهد ، وأصل الإقبال والتوجه ، وبيتهم معمور ، وليس المعمور كالخارب ، وقد قال السقاف : أولادنا كمن يحفر في طينة طيبة قريبة الماء ، وغيرهم كمن يحفر في أصل جبل - أو قال : سبخة - أو نحو هذا »** .

قال رضي الله عنه : « إن فتن آخر الزمان مثل النار تحت الرماد ، فليفرح الإنسان ما دامت مندفنة تحته، ولا يحركها فتظهر ، وقد قال النبي ﷺ : الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها ، والفتن موعود بها في آخر الزمان ، وآخر ما تأتيه جزيرة العرب » .

وقيل له - القائل عبدالله بن فلاح - : « قد جاء إلى هنا السيد محسن العطاس ، فقلت له : اجلس إلى الظهر » ، فضحك سيدنا وسكت قليلاً على عادته ، وقد قرَّرنا مراراً إن هذه عادته ، ثم قال : « لا عاد تمصّع النصاب - أي الغزْل - المبلولة وإلا قيل لك : افتلها . وكل من كان عند أحد من المرموقين في الدين أو في الدنيا يحتاج إلى أدب ، وإلا ما حَصَّلَ شيئاً ، ونحن نعرف أهل الزمان ، وإنهم مثل الدابة إذا وردت الماء ظمآنة ، ما تلبث إذا رويت أن تبول فيه . وأنت وش لك في الفضول ، تقول للناس : اجلسوا . وما ذا عليك منهم ، اتركهم وما أرادوا ، ومن جاء عند أحد من أهل التصوف مستفيداً أو زائراً فجلس إليه يحادثه ، بطلت فائدته » .

قال : « فاعلمونا أنتم بالأدب ، وإلا فعقولنا ما تهتدي إليه » ، قال : « اترك كل ما لا يعنيك ، ولا تسأل عن ما لا يتعلّق بك ، فإن جاء أحد من جهة أحد تعرفه فاسأله عنه ، والزيادة على ذلك فضول » .

قال : « فإذا جاء أحد نحب له الإجتماع بكم ، ما نقول له ؟ » ، قال : « قولوا له : تعال العصر . وقد جعلنا لهم مجالس ، الله يبارك لنا ولهم فيها ، ونحن نيَّتنا فيهم برجاء أن ينفعنا الله بهم خير من نيَّتهم فينا، ومجالستنا مع الناس يلزمنا فيها أمور ليس تلزمكم ، أقل الحال نسأله : هل تزوج ، وهل جاءه أولاد ، وكيف هم ؟ ومثل ذلك تضييع وقت . وقد قال لنا بعض مشايخنا الذين أخذنا عنهم : إذا صافحكم أحد فلا تسألوا عنه ، فقلنا : إذا جاء إنسان من بعد يحتاج إلى السؤال عنه . وكل أحد يريد منَّا كلاماً ، والشيخ عبدالله العيدروس مع إنه ما عاش في الناس إلا خمساً وخمسين سنة ، ما مات حتى ترك زيارة التربة بسبب الناس وكثرة شاغلهم ، حتى إنه يصل طرف التربة ويقرأ الفاتحة ، ثم يرجع . فهل سمعتم عن من بلغ سِنَّنا هذا كان يجالس الناس كثيراً ويخالطهم مثلنا ؟ » .

فقال له ذلك القائل : هذا أمر قد اختاره الله لكم وخصَّكم به ، قال : « فالله يبارك لنا في ما اختاره لنا » هـ .

أقول : قال ذلك وهو جالس في الضيقة خارجاً لصلاة الظهر ، يوم الخميس ٢١ ذي القعدة ١١٢٨، وسِنُّه إذ ذاك ٨٥ تنقص شهرين و ٦ أيام ، وقد جمع له الأدب كله في الكلمتين المذكورتين: أن يترك كل ما لا يعنيه ، وأن لا يسأل عن ما لا يتعلق به . وهي وصية جامعة بلفظ وجيز ، وذلك مستمد من صاحب جوامع الكلم النبوية عليه الصلاة والسلام ، وسؤاله الناس عن ذلك ونحوه ،

هو أدب مقامه الذي أشار إليه بقوله : « **وبمجالستنا مع الناس يلزمنا فيها أمور ليس تلزمكم** » ، ثم ذَكَر تلك الأمور بقوله : « **أقل الحال .. إلخ** » ، وليس كل أحد أدبه كذلك إنما هو خاص به ، وذَكَر أنه مع كونه أدب مقامه ، أنه تضييع وقت ، وأن عدم الاجتماع بأحد - لئلا يتعلق به ذلك الأدب - كان أولى وأحسن ، وأن يكون بدل اشتغاله بذلك أن يشتغل بالله وبذكر الله ، لكن إذا ابتلي بالإجتماع توجه عليه أدب تلك الحال ، وإلا فإن اشتغاله بحاله بينه وبين الله أنفع وأوفق .

ومثاله كالمشتغل بورد لا ينبغي فيه الكلام ، فلو كان في خلوة دون اجتماع لكان أفرغ له لقراءة ورده، وأولى من أن يكون في الملأ ، في موضع يدخل عليه الناس فيشغلونه عنه ، ولتوجه عليه رد السلام عليهم وجوباً ، وكلام لمقتضى حال المجلس ، وأدبه المطلوب من طيب المعاشرة وتحسين الأخلاق مع الجلساء ، على ما أشار إليه أنه عرفه من أخلاق مشائخه الأولين الذين اجتمع بهم في صغره ، كما قال: « **الأدب ، ما عرفه الإنسان من صغره وتربى عليه** » ، فإذا ابتلي بمخالطة الناس ، وتوجه عليه أدب تلك الحالة ، ففي اشتغاله به نفع مُتَعَدٍّ أفضل من النفع اللازم ، من إظهار حسن خلقه وجبر خاطر جليسه، كما ورد في فضل ذلك في حديث : « إن الرجل ليبلغ أو ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم » ، وما عُبِدَ الله بأفضل من جبر الخواطر ، لكن عمدة ذلك على صدق النية .

ثم اجتمع به السيد المذكور ، فسأله عن الأمور المذكورة .

ونُووِل يوماً ماءً للشرب ، وكان الوقت شتاء ، *فقال* : « **سبحان الله ، أين تلك الحلاوة التي كانت في الماء أيام الصيف ؟** » .

ثم قال : « **الجنة ليس فيها برد ولا حر ، البرد والحر في النار ، الحر في مدنها والبرد في أوديتها . وأشبه شيء بالجنة وقت ما بعد صلاة الصبح إلى طلوع الشمس في أيام وقت الصيف ، أيام شدة الحر ، فإن هذا الوقت معتدل في الحر والقر ، وفي الحديث في وصف الجنة أنه تنعكس البكرة على الغداة ، وتنعكس الغداة على البكرة . ولا تلك الحلاوة فيه إلا إذا كان بارداً ، يمثل به في شدة الحلاوة : أحلى من الماء البارد للظمآن . ثم لا يُقَيَّد بكون ذلك في الصيف ، لكون المطلق في كلام العرب يُحْمَل على المُقَيَّد عرفاً وعادة، مفهوماً عندهم في لغتهم في كثير من الإطلاقات** » .

ثم قال له رجل من السادة : « فلان يسلم عليكم وادعوا له » ، وهو أخوه ، وكان ضعيف الحال ، وابتلي في ماله من بعض ظلمة الجهة ، *فقال* سيدنا في حقِّه : « **ما عاد ينفعه إلا الصبر ، وهو عماد المؤمن، ويُقَدِّر ما وقع أنه وقع بعد موته ، فإنه لا علم له منه ولا شغل ولا تعب ، ولو كان له تريم بأطرافها**

لا يبالي بذلك ، فلما أن حصل له ذلك وهو في الحياة ، فإنما ذلك ليثاب عليه ، لأن حصول الثواب إنما يكون في الحياة ، ولو كان ذلك بعد موته لم يحصل له الثواب ، ويقدر كل شيء نزل به أنه ما نزل .

كما قيل لحاتم طيء ، وكان مشهوراً بالسماحة والكرم : ما الذي يُسَهِّل عليك الكرم ؟ فقال : أُقَدِّرُ الشيء أنه ما كان . وبلغ من كرمه أنه أصابتهم سَنَة مقحطة ، أذهبت الخف والظلف ، ولم يبقَ معه إلا فرسه ، فورد عليه ضيف فلم يجد له ما ينحر له ، فذبح الفرس ، فقالت له زوجته في ذلك ، فقال : وما نكرم به ضيفنا ؟ فلم يبال بذبح الفرس لإكرام الضيف ، مع أنه ليس معه غيرها ، وكان يضرب به المثل في الكرم » .

ثم انجرَّ الكلام إلى ذِكْر علو الهمة ، فقال : « مع علو الهمة تصغر في عين الإنسان جميع الأشياء الدنية ، ولا يهمه إلا المقصود الأعظم ، وذلك كالشجاعة ، فإن الشاجع لا يبالي بما يعرض له ، ويحتاج إلى سعة الصدر ، فمع ضيق الصدر قَلَّ ما يحصل على شيء . وكان الشيخ عبدالله العيدروس كثيراً ما ينشد هذين البيتين :

عَلَى قَدْرِ أَهْلِ العَزْمِ تَأْتِي العَزَائِمُ ... وَتَأْتِي عَلَى قَدْرِ الكِرَامِ المَكَارِمُ
وَتَعْظُمُ في عَيْنِ الصَّغِيرِ صِغَارُهَا ... وَتَصْغُرُ في عَيْنِ العَظِيمِ العَظَائِمُ

والفرق بين التأني والتواني : أن التأني : التوقف حتى يتبين الأمر ، والتواني مع تبينه يتوقف عنه ويتساهل فيه ويتركه . والتأني في الخير محمود ، والتواني فيه مذموم ، وقد تبين لك الأمر ، ولكنك غير مستعد له عدته ، فلا ينبغي لك الإقدام عليه » .

ودخل عليه قاضي البلد ، فبعد السلام والتحية كَلَّمه بكلام يؤنسه ، ثم قال له : « لا بد للإنسان من أمرين - يعني لا بد لك من الأمرين - : الصبر والتقوى . لأنه ما يجيء عند القاضي إلا متخاصمون ، ولو تبين لهم الحق ، لأنه لو كان فيهم تقوى ما احتاجوا إلى الترافع للقاضي ، فلا يرفع إليه إلا من بينهم مشاقة وخصومة ، فالعمدة لك إنما هو الإصلاح ، فاعتمد ذلك وتجنب الحكم ما استطعت ، لأن الحكم عسر ، فاصلح بين المتخاصمين واصرفهما عنك متراضيين .

وقد كان القاضي باهارون في وقته جميع أحكامه ألا إصلاح بين الناس ، وقد قال فلان - سماه ونسيته - : تتبعت قضاياه سنة كاملة ، ما رأيت فيها حكماً واحداً وإنما كلها إصلاح . وأين أنت اليوم وحكم الشرع ؟ وقد قال الشيخ علي بن أبي بكر في وقته : لا يغرك قول من قال امش بنا إلى الشرع ، فإنهم أخرجوا من الشرع عينه ، فبقي شراً بلا عين . فإذا أَرَيتَ اللهَ من نفسك الصبر والورع والتقوى، يُرجى لك السلامة ، وَتَحَرَّ ما استطعتَ » .

وذكر قصة : « أن رجلاً كان يمشي في طين ووحل على طرف غدير ، وهو متحفظ على ثيابه ورافعها خوفاً عليها من النجاسة ، فزلقت رجله فسقط ، ووقع طرف ثيابه على الماء ، فَسَيَّبها كلها وجعل يجرها في الماء والطين » .

وقال : « هكذا الإنسان ما يزال يتحفظ في دينه ، حتى يقع في أمر ، ثم يغرق فيه بكله ، فينبغي أن يكون القاضي من حين يجلس على نية صالحة من إكشاف الحق وتبيينه ، وإصلاح بين المسلمين ، وما لم يظهر لك تتركه على غيرك ، كما كان بعض قضاة تريم ، يخلي واحداً يقوم عنه بسيئون » ، ثم انتهى هذا المجلس المبارك ، وختم بالفاتحة .

وقد مرت قصة الماشي في الوحل مراراً في مجالس متعددة ، يستشهد بها لمعان متكررة فيها ، لكل من تلك المعاني شاهد ، وقد تختلف بعض ألفاظها في بعض المرات التي يَذْكُرها ه .

قال : « لا تقل وأنت في عافية : لو ابتُليتُ صبرتُ . فإن الغالب أن من يدعي الصبر مع الله يبتلى، ولكن اسأل الله العافية ، فإذا ابتُليتَ فاصْبِرْ ، ولا تغترَّ في نفسك بأحوال أقوام بلغ بهم البلاء كل مبلغ فصبروا ، فلعلك لو ابتليتَ لم تصبر ، فكم من قائل : لو ابتلاني الله لصبرتُ . فلما حل به البلاء لم يصبر، فتراه إذا تحرك له ضرس أو ضرب عليه عرق بات سهران . وأما أولئك الذين صبروا ، فإنهم انكشفت لهم الآخرة فشاهدوها ، فلم يبالوا بالبلاء ، ودانوا لأنفسهم ، فلم يعبأوا بالرفاهية ، واستوت هي والشدة عندهم » .

واعتذر إليه بعض الفقراء ، ظن أنه رأى عليه في شيء ، *فقال* : « لا عاد يقع في خواطركم أن في خواطرنا عليكم شيئاً ، لأنا أصبر منكم وأوسع أخلاقاً منكم ، وقد جرَّبنا الزمان وجربنا الناس ، فمن فيه عشرة أخلاق ، وفيه خُلُقان تُعجِبنا منه عفونا عنه الباقي » .

قيل له : « فإن لم يكن في الإنسان شيء يُحْمَد ؟ » ، *قال* : « نرضى منه بقضاء حاجة أو فتح كتاب ونحو ذلك ، ولو درى الناس بصبرنا على فلان في قضاء الحوائج لكان تعجبوا منا ، فالحذر تظنون أنه يقع في خواطرنا على أحد شيء » .

أقول : مراده بفلان الخادم المتقدِّم ذِكْره ، أنه كثير النسيان ، فقد يدفع له القروش لقضاء حاجة ، أو يدفعها لمن له طلب عن قرض ، فيضعها في طاقة ويَصُب لنفسه من القربة ماء ليشرب ، فينساها ويتركها ويمضي ، فتؤخذ وتفوت . فيخبر سيدنا بذلك فلا يلومه ولا يعنفه ، ويوعده بدفع بدلها إن كان شيء حاضر ، أو إذا تيسَّرت .

والمعتذر هو الفقير الناقل للكلام وخطابه له .

وقوله : « نرضى منه بقضاء حاجة أو فتح كتاب » ، خطاب له بمقتضى حاله ، لأنه كثيراً ما يوصيه بقضاء حوائج ، ويأمره بفتح كتاب يطالع عليه فيه .

وقال له رجل من السادة : « خاطركم بالدعاء لفلان بالثبات » - وهو شخص كبير السن ، وهو أخو الطالب له الدعاء ، وهو السيد أحمد بارقبة المتقدِّم ذِكْره ، وترغيبه له بفعل المعروف واتباع سيرة جده الشيخ عبدالله باعلوي وقال له : « هذا هو العيش لا غيره » ، وأخوه السيد محمد بارقبة -

فقال له : « إذا أراد الثبات ، فَلْيَعُضَّ على قول : لا إله إلا الله . ويلازمها ، فإن الطريق قريب جداً ، وإن كان فيه مشقة ، كطريق العقبة ، يشق مع قربه ، وإنما البعد على من دار عن الطريق ، ولا ترى أحداً يفتن أحداً عن دينه ، إنما يَفتن من فتن أحداً في دنياه . فلا يكاد أحد من الرافضة ونحوهم من المبتدعة أن تسمعه يتعرض لأحد ليمنعه عن دينه ، ليدخله في مذهبه ، وهذه الكلمة سهلة قريبة ، فإذا رضي الله ورسوله يقولها مرة واحدة بعد كفر سبعين سنة ، فأحرى أن يقبلها ممن لازمها مدة عمره ، وإن كان عليه شيء من الكبائر ، فمن لقي الله بها يرجى منه تعالى المغفرة ببركتها ، وهي التي يشاغب الشيطان عليها ، ويحرص أن يقطع الإنسان منها . وقد طلب النبي ﷺ من عمه أبي طالب أن يقولها مرة واحدة، يشهد له بها ، وكذلك الدجال لعنه الله ، إذا جاء يدعي الربوبية مع كثرة ما يجيء به من الفتن ، إنما يرضى ممن تبعه أن يقول له كلمة واحدة، بأن يُقِرَّ له بالربوبية فكذلك جميع الفتن وإن كثرت ، ففي كلمة التوحيد للإنسان مخلِّص كاف من جميع الفتن » .

وسمعته يوصي بعض السادة ، **فقال** : « إن أردت تنوير قلبك ، فعليك بلا إله إلا الله في جميع أوقاتك ، واجعلها شغلك ، ولا تخرج منها إلا إلى قراءة القرآن ، أو قول : الله الله » .

أقول : وكفى لها بذلك فضلاً ، إذ كان الإشتغال بها أولى من الإشتغال بغيرها من جميع الأذكار والدعوات ، وأنه لا ينبغي أن يخرج منها إلا إلى قراءة القرآن ، وناهيك من فضلها أن القرآن كله شرحٌ لها ، وأن فروعها الأحكام الشرعية التي هي معها مباني الإسلام التي أُمِرَ النبي ﷺ أن يقاتل الناس عليها حتى يقولوها ويؤدوها ، أي يقولوا تلك الكلمة ويؤدوا تلك الأحكام . وأن مقامات الدين الثلاثة : الإسلام والإيمان والإحسان ، أصولها وفروعها وقواعدها وأطنابها ، فالإسلام ظاهرها والإيمان باطنها والإحسان خالصها . كذا سمعت سيدنا يقول .

* * *

وسمعته يوصي بعض الفقراء بملازمتها بعد صلاة العشاء ألف مرة ، ورَغَّبَه في ذلك ، *فقال* : « **كنا نقولها ألف مرة بعد العشاء ، ثم عجزنا عن ذلك ، فجعلنا نرتبها ألف بعد الظهر كل يوم ، وفي رمضان ألفين** » ، وقال لذلك الفقير أن يقولها ألفاً بعد العشاء يحصل له من الله الفتوح ونور القلب والخير الكثير هـ .

قال رضي الله عنه : « **ما مع الإنسان إلا جهده ، والأقدار تحكم عليه ، لا يحكم عليها ، والأعمال أحد يحمد عليها وأحد يذم ، والأسباب من فوق** » هـ .

أقول : وهذا تجديد للدين فيما بين الأمة ، قبل خروج المهدي ، وتجديده غير هذا ، لأن هذا تجديد لما عليه المذاهب الأربعة ، وتجديد المهدي للدين من غير نظر للمذاهب ، لأنه مجتهِد لا مُقلِّد ، كما ترى من وَصْف تجديده الآتي قريباً .

وأمرني بالإنشاد ، وذلك في مسجده الأوابين ، بعد صلاة العصر يوم الثلاثاء ٢٩ صفر ١١٢٨، فأنشدت بقصيدته : « **على ريم وادي الرقمتين سلامي ..** » ، إلى آخرها ، وفيها ذِكْر المهدي وبعض أوصافه وشؤونه ، *فقال* : « **هذه الأخبار التي وردت في المهدي ، وتقريب وقوعها ، بمعنى أنها واقعة لا محالة وإن بَعُدَت . ولما ذكر النبي ﷺ من أمر الدجال وقَرَّبَ فيه ، وبالغ في قرب خروجه ، ظن من سمعه أنه خارج في وقتهم ، بسبب تقريبه لهم . وكذلك ما أخبر الله تعالى من قرب الساعة ، وتفصيل ذلك وتقريبه ؛ وإخبار الله سبحانه على قدره لا على قدر الخلق** » .

وأمرني بالإنشاد بتلك القصيدة أيضاً بين يديه ، وقد حضره جماعة ، وذلك يوم الثلاثاء في دار آل فقيه ٢٤ محرم ١١٢٩ *فقال* لأحد الحاضرين : « **أَسَمِعْتَ ما فيها من البشارة بالمهدي ، وقد بُشِّرَ به من قديم ، ولكن أمر الله على قدره ، والزمان قد كثر فيه الظلم وتفاحش ، وسنة كثر الخريف قلنا : لولا أن في الخبر تتقدمه فتن كثيرة لقلنا تلك من سنين المهدي . ولكنه خارج ولا بد ، وإذا ظهرت الشمس ذهب الظِّلال – أو قال : الظلام – وناس يتمنونه ويدعون بخروجه ، كل ذلك لأجل الدنيا ، ولو كان يعطي الناس حق الناس ما كان عادلاً وكان جائراً ، وإنما هو يقسم بيت المال بين الناس بالسَّويَّة ولا يعطي أحداً حق أحد ، ولا أحسن من سؤال العافية مع ملازمة أمور التوحيد ، الخاص للخصوص والعام للعموم ، والمهدي جامع بين القطبية والخلافة كما – أي مثل – سيدنا علي ، على مقتضى الظاهر والباطن ، وهو مجدد لهذا الدين . ومعنى التجديد : تقرير أمور من الدين بين أيدي الناس طال بها العهد**

فيهم ، حتى اختلف فيها اجتهادهم ، فيقررها على الوجه الحق ، لا إنه يخترع من الكتاب والسنة أمراً لم يكن قبل ، فيحتاج إلى إلهام من الحق ، يعرف به الحق من الباطل أو تقرير الصواب » .

قال : « لكن كشف الأولياء لا يُعمل به في الشرع » ، قيل : « فالمهدي ؟ » .

قال : « أما المهدي فيلزم العمل بقوله ، لأنه مقرر من الشارع » هـ .

أقول : قوله : « والمهدي جامع بين القطبية والخلافة » ، يعني إنه في مرتبة الخلافة الظاهرة التي تتعلق بالقائم بها أحكام الشريعة ، من إقامة الحدود وتقويم الناس على منهاج الحق ، وتجديد الدين، وتقرير الأحكام الظاهرة المطلوبة من عموم الخلق . وهو أيضاً في مقام القطبية الباطنة التي فيها لله أوامر وأحكام يقوم بها خلفاء الباطن ، كما تقدم من قوله : « لله أوامر وأحكام في الظاهر يقوم بها خلفاء الظاهر في عامة الخلق ، ولله أوامر وأحكام في الباطن يقوم بها خلفاء الله في الباطن لأهل الباطن » .

وقوله : « ولكن أمر الله على قدره .. إلخ » ، يعني إذا أخبر سبحانه بأمر وقرَّب وقوعه ، فالمراد أنه واقع قطعاً لا محالة وإن أبطأ ، لا على مقتضى معقول الخلق من فهمهم استقراب وقوعه ، كما فهم الصحابة لما سمعوا قول رسول الله ﷺ من تقريب أمر الدجال ، أنه خارج في وقتهم ، وليس كذلك، بل كلُّ ما هو آتٍ قريب وإن أبطأ ، والبعيد ما ليس بآت ، انظر قوله ﷺ في تقريب أمر الساعة : « بعثت أنا والساعة كهاتين » ، وجمع بين إصبعيه المسبحة والوسطى ، فمقتضى العقول أنهما معاً في آنٍ واحد ، وهذا كما ترى من التفاوت . وقد كان الأمم السابقة يُسَمُّون النبي ﷺ نبي الساعة ، أي علامة وقوعها ، لما يعتقدون أنه معها جميعاً . ومثله قوله تعالى : ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾، أي الساعة ، ثم قال : ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾، يعني فلا تستعجلوه لما تفهمون من تقريبنا لها ، وهي آتية ولا بد ، فيصح في فصيح اللغة إذا تحقق وقوع الشيء بلا شك فيه أن يخبر عنه بالماضي ، كالذي قد وقع ، والمراد بتقريب وقوعه أنه واقع متحقق بلا شك فيه ، لا غير ذلك .

وسنة الخريف ، هي سنة [1] كثرت فيها الثمرة كثرة مفرطة على غير العادة ، حتى إني رأيت نخلة ميتة قد أحرق نحرها ، ونبتت جذعاً مركوزاً ولا خضر فيها ولا سعف قد أطلعت ، كغيرها من النخيل الحية ، ومع كثرته فيه بركة عظيمة .

قوله : « وإذا ظهرت الشمس .. إلخ » ، كقولهم : إذا جاء الحق زهق الباطل ، يعني إن الحق يعلو على الباطل ، فلا يبقى له معه أثر ، يريد أن المهدي يظهر بالحق فينطفيء بظهوره الباطل وتلبيسات الملبسين ؛ وإدخال أمور باطلة في الدين ليست من الدين في شيء ، منها شيء حادث ومنها شيء

---

(1) فراغ في الأصل .

من قديم ، حتى امتلأ الوجود من تلك الزخارف والأمور الباطلة ، حتى صارت عرفاً معروفاً لا يُستنكر ، ومن أنكرها أُنكِر عليه لمخالفته ما أَلِفُوه واعتادوه .

فالإلف والعادة طبيعة خامسة ، فمنها الاستئجار على فعل العبادات وأركان الدين من الحج وغيره ، واتخاذ ذلك حِرَفاً معاشية منها ، واعتقاد أهل الحِرَف والصنائع جواز الكذب والخلف في الوعد ، وقد قال النبي ﷺ : « ويل للمحترف من غد بعد غد » ، وغير ذلك كثير مما يخالف الشرع، فتنمحي إذا خرج المهدي بنوره ، وتنطفيء بظهوره ، كما تمتحي الظلمة بنور السراج ، وكما ينمحي ظلام الليل بنور النهار وطلوع الشمس .

ومن الأحاديث الواردة فيه ، قال النبي ﷺ : « لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد ، لطول الله ذلك اليوم ، حتى يبعث فيه رجلاً من أهل بيتي ، يواطيء اسمه اسمي ، واسم أبيه اسم أبي ، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً ، كما ملئت جوراً وظلماً » ، ذَكَره السيوطي في « العَرْف الوردي في أخبار المهدي » .

قال : « وأخرج أحمد عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : أبشركم بالمهدي ، يبعثه الله في أمتي على اختلاف من الزمان وزلازل ، فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً ، كما ملئت جوراً وظلماً ، ويرضى عنه ساكن السماء وساكن الأرض ، يقسم المال صحاحاً . فقال له رجل : ما صحاحاً ؟ قال : بالسوية بين الناس ، ويملأ قلوب أمة محمد غنى ، ويسعهم عدله ، حتى يأمر منادياً ينادي يقول : من كانت له في مالٍ حاجة ؟ فما يقوم من المسلمين إلا رجل واحد ، فيقول له : ائت السادن - يعني الخازن - فقل له : إن المهدي يأمرك أن تعطيني مالاً ، فيقول له : أُحْثُ . حتى إذا جعله في حجره وأبرزه ، ندم، فيقول : كنت أجشع أمة محمد نفساً ، أوَ عجز عني ما وسعهم ؟ قال : فيرد فلا يقبل منه ، فيقال له : إنا لا نقبل شيئاً أعطيناه . فيكون كذلك سبع سنين أو ثمان سنين أو تسع سنين ، ثم لا خير في العيش بعده - أو قال : ثم لا خير في الحياة بعده - وفي رواية بعد قوله سبع سنين : وما كان من الأوقاف وقفاً على وجوه البر ومصالح المسلمين ، والعلماء والقراء ، وذرية النبي ﷺ ، وأقاربه الفقراء والزمنى والمرضى والمنقطعين والمدارس والمساجد والحرمين وبيت المقدس وكسوة الكعبة ، وما شاكل ذلك ، فهو صحيح موافق للشريعة فيقره ، وما كان وقفاً على نساء الملوك والأمراء وأولادهم فهو وقف باطل مخالف للشرع فيبطله » ، انتهى ما أردنا نقله من كلام السيوطي .

ويُبطل أيضاً أشياء اتخذها الناس أحكاماً شرعية ، بإفتاء علماء مفسدين ، كما تقدم من بيع العبادات، فيأكل ناظر المسجد ما وُقِفَ على المسجد قل أو كثر ، ويستأجر للمسجد إماماً بشيء يسير ، ويقرأ القاريء القرآن مدة السنة كل يوم جزءاً أو أكثر ، كلما ختمه أعاده ، بتافه من التمر والحب ، أو أي عرض يسير ، وكذلك بيع العهدة المسمى ببيع التطوع وبيع الناس .

وغير ذلك مما أجمع عليه الناس وأَلِفُوه اليوم ، واتخذوه حكماً شرعياً ، ومن أنكره أُنكِرَ عليه إنكاره لمخالفته المألوف . وهذه الأشياء وإن أجمعوا عليها ، فلا بد في الأمة من ينكرها ، لأنها لا تجتمع على ضلالة ، ولا يبطلها إلا المهدي إذا ظهر .

وكان سيدنا عبدالله الحداد نفع الله به ينكرها جداً ، فإذا تتبعت مؤلفاته ، رأيت من كلامه ما يدل على إنكاره لذلك ، وكذلك إذا تتبعت كلامه في مجالسه في هذا النقل ، رأيت ما يدل على إنكاره لذلك البيع الخبيث - أعني بيع التطوع - وكان إذا تكلم في بيع العهدة وذمها ، يذكر عن الشيخ عبدالله بن عبدالرحمن بلحاج بافضل مصنف المختصر ، أنه سُئل عنها ، فقال : « هي مسألة مظلمة ، أرجو أن الله يُقَيِّض لها من يزيلها » ، فهذا كلامه فيها ، ولا يتبعون قوله لما تَحَكَّم فيهم من متابعة الهوى فيها ، وهم مع ذلك يقرأون في مختصره ويخالفونه . ولا يتوجه قول رسول الله ﷺ : « لعن الله آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهده » إلا إليها ، وهو دال عليها ، إذ لا ترى نوعاً من الربا فيه كاتب وشاهد إلا هي ، فتوجه أنها المراد ، وذَكَر سيدنا عبدالله في كثير من مجالسه ، أنه ما وقع هذا الفساد في الدين إلا من علماء فاسدين ، كما قال : « ما أفسد على الناس دينهم إلا العلماء ، ولكن بعد فساد دينهم .. » ، إلخ هذه المقالة كما تقدَّم .

ذكر خروج المهدي

عن ابن مسعود : « بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ إذ أقبل فتية من بني هاشم ، فلما رآهم النبي ﷺ اغرورقت عيناه وتغير لونه ، فقلت : ما نرى في وجهك شيئاً نكرهه ؟ ، فقال : إنَّا أهل بيت اختار الله لنا الآخرة على الدنيا ، وإن أهل بيتي سيلقون بعدي بلاء وتشريداً وتطريداً ، حتى يأتي قوم من أهل المشرق معهم رايات سود فيسألون الحق فلا يعطونه ، فيقاتلون فينصرون ، فيعطون ما سألوا ، فلا يقبلونه حتى يدفعوها إلى رجل من أهل بيتي ، فيملؤها قسطاً كما ملأوها جوراً ، فمن أراد ذلك منكم فليأتهم ولو حبواً على الثلج ، فإنه المهدي » .

عن طلحة بن عبيدالله عن النبي ﷺ قال : « ستكون فتنة لا يهدأ منها جانب إلا جاش منها جانب ، حتى ينادي منادي من السماء : إن أميركم فلان » ، وفي رواية ابن عمر : « يخرج المهدي وعلى رأسه عمامة ، فيها مناد ينادي هذا المهدي خليفة الله فاتبعوه » .

وعن علي رضي الله عنه أنه قال : « أَمِنَّا المهدي أم من غيرنا يا رسول الله ؟ » ، قال : « مِنَّا ، بنا يختم الله كما بنا فتح ، وبنا يُستنقذون من الشرك ، وبنا يؤلف الله بين قلوبهم بعد عداوة فتنة كما أَلَّف بين قلوبهم بعد عداوة الشرك » ، وفي رواية : « يختم الله بنا الدين كما فتح بنا ، وبنا يُنقذون من الفتنة كما انقُذوا من الشرك ، وبنا يؤلف الله بين قلوبهم بعد عداوة الفتنة ، كما ألف بين قلوبهم بعد عداوة الشرك، وبنا يصبحون بعد عداوة الفتنة إخواناً في دينهم » .

وعن أم سلمة : « قال رسول الله ﷺ : يبايع لرجل بين الركن والمقام عدة أهل بدر ، فيأتيه عصائب أهل العراق ، وأبدال أهل الشام ، فيغزوه جيش من أهل الشام ، حتى إذا كانوا بالبيداء خُسِفَ بهم»، وعن حذيفة قال : « سمعت رسول الله ﷺ يقول : ويح هذه الأمة من ملوك جبابرة ، كيف يقتلون ويهينون المطيعين ، إلا من أظهر طاعتهم ، فالمؤمن التقي يصافيهم بلسانه ، ويفر منهم بقلبه ، فإذا أراد الله يعيد الإسلام عزيزاً ، قصم كل جبار عنيد ، وهو القادر على ما يشاء ، أن يصلح أمة بعد فسادها . يا حذيفة ، لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد لطوَّل الله ذلك اليوم ، حتى يملك رجل من أهل بيتي ، يفتح القسطنطينية وجبل الديلم ، يجري الملاحم على يديه ، ويظهر الإسلام ، لا يخلف وعده وهو سريع الحساب » .

وعن ابن مسعود : « قال رسول الله ﷺ : لو لم يبقَ من الدنيا إلا ليلة ، لطول الله تلك الليلة ، حتى يملك رجل من أهل بيتي ، يواطئ اسمه إسمي ، واسم أبيه اسم أبي ، يملؤها قسطاً وعدلاً ، كما ملئت جوراً وظلماً ، ويقسم المال بالسوية ، ويجعل الله الغنى في قلوب هذه الأمة ، فيمكث سبعاً أو تسعاً ،

ثم لا خير في العيش بعده » .

عن مجاهد قال : « حدثني رجل من أصحاب رسول الله ﷺ : إن المهدي لا يخرج حتى تُقتل النفس الزكية ، فإذا قُتِلت النفس الزكية ، غضب عليهم من في السماء ومن في الأرض ، فيأتي الناس المهدي فيزفوه كما تُزَف العروس إلى زوجها ليلة عرسها ، فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً ، وتُخرج الأرض نباتها ، وتُمطر السماء مطرها ، وتنعم أمتي في ولايته نعمة لم تنعمها قط » .

عن محمد بن علي - أي الباقر - قال : « إن لمهدينا آيتين لم يكونا منذ خلق الله السماوات : يكسف القمر لأول ليلة من رمضان ، وتنكسف الشمس في النصف منه ، ولم يكونا منذ خلق الله السماوات والأرض » ، عن عبدالله بن عمرو : « إذا خُسِف بجيش في البيداء فهو علامة خروج المهدي » .

وعن أبي هريرة : « قال رسول الله ﷺ : يخرج رجل يقال له : السفياني ، في عمق دمشق ، وعامة من يتبعه كَلْب ، فيقتل حتى يفتق بطون النساء ، ويقتل الصبيان ، فتجتمع له قيس فيقتلها ، حتى لا يمنع ذنب تلعة ، فيخرج رجل من أهل بيتي في الحرة ، فيبلغ خبره السفياني ، فيبعث إليه جنداً من جنده ، فيهزمهم الله ، فيسير السفياني بمن معه ، حتى إذا صار ببيداء من الأرض ، خسف الله بهم ، فلا ينجو منهم إلا المخْبِر عنهم » .

وعن ابن مسعود قال : « إذا انقطعت التجارات والطرق ، وكثرت الفتن ، خرج سبعة نفر علماء من آفاق شتى - على غير ميعاد - ويبايع لكل رجل منهم ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً ، حتى يجتمعوا بمكة ، ويلتقي السبعة ، فيقول بعضهم لبعض : ما جاء بكم ؟ فيقولون : جئنا في طلب هذا الرجل الذي ينبغي أن تهدأ على يديه هذه الفتن ، ويفتح له القسطنطينية ، قد عرفناه باسمه واسم أبيه وأمه وجيشه . فيتفق السبعة على ذلك ، فيطلبونه فيصيبونه بمكة ، فيقولون له : أنت فلان بن فلان ؟ فيقول: لا ، بل أنا رجل من الأنصار . حتى يتفلت منهم ، فيصفونه لأهل الخبرة منهم والمعرفة به ، فيقال : هو صاحبكم الذي تطلبونه .

وقد لحق بالمدينة ، فيطلبونه بالمدينة فيخالفهم إلى مكة ، فيطلبونه بمكة فيصيبونه ، فيقولون : أنت فلان بن فلان ، وأمك فلانة بنت فلان ، وفيك آية كذا وكذا ، وقد أفلت منا مرة ، فمد يدك نبايعك. فيقول : لست بصاحبكم . حتى تفلت منهم ، فيطلبونه بالمدينة فيخالفهم إلى مكة ، فيصيبونه بمكة عند الركن والمقام ، فيقولون له : إثمنا عليك ودماؤنا في عنقك إن لم تمد يدك نبايعك ، هذا عسكر السفياني ، قد توجه في طلبنا ، عليهم رجل من حرام . فيجلس بين الركن والمقام فيمد يده فيبايع له ، فيلقي الله محبته في صدور الناس ، فيسير مع قوم أسد بالنهار ورهبان بالليل » .

وعن ابن عباس قال : « يبعث صاحب المدينة إلى الهاشميين بمكة جيشاً فيهزمونهم ، فيسمع بذلك السفياني بالشام ، فيبعث إليهم بعثاً فيهم ستمائة عريف ، فإذا أتوا البيداء فينزلونها في ليلة مقمرة، فيقبل راعي غنم فينظر إليهم ويتعجب منهم ، فيقول : يا ويح أهل مكة ، ماذا جاءهم . فينصرف إلى غنمه ، ثم يرجع فلا يرى أحداً ، فإذا هم قد خسف بهم ، فيقول : سبحان الله ، ارتحلوا في ساعة واحدة . فيأتي منزلهم ، فيجد قطيفة قد خسف ببعضها وبعضها على وجه الأرض ، فيعالجها فلا يطيقها ، فيعلم أنه قد خسف بهم ، فينطلق إلى صاحب مكة فيبشره فيقول صاحب مكة : الحمد لله ، هذه العلامة التي كنتم تخبرون . فيسيرون إلى الشام - قال أبو قبيل : لا يفلت منهم أحداً إلا بشير ونذير ، فأما الذي هو بشير ، فإنه يأتي المهدي بمكة وأصحابه ، فيخبرهم بما كان من أمرهم ، والثاني إلى السفياني فيخبره بما نزل بأصحابه ، وهما رجلان من كلب - قال كاتبه : أي رؤساء جيشه - وكان المهدي متوقِّف عن المبايعة حتى تظهر هذه العلامة بخسف هذا الجيش ، فبعده يبايع ، وبعد البيعة يظهر أمره » .

وعن أبي جعفر - أي الباقر - قال : « يظهر المهدي بمكة عند العشاء ، معه راية رسول الله ﷺ وقميصه وسيفه وعلاماته ونور وبيان ، فإذا صلى العشاء نادى بأعلى صوته يقول : أذكركم الله أيها الناس ، ومقامكم بين يدي ربكم ، فقد أنجز الحجة وبعث الأنبياء وأنزل الكتاب ، وأمركم أن لا تشركوا به شيئاً ، وأن تحافظوا على طاعته وطاعة رسوله ، وأن تحيوا ما أحيى القرآن ، وتميتوا ما أمات القرآن ، وتكونوا أعواناً على الهدى ، ووزراء على التقوى ، فإن الدنيا قد دنا فناؤها وزوالها ، فأذنت بانصرام ، فإني أدعوكم إلى الله وإلى رسوله ، والعمل بكتابه ، وإماتة الباطل وإحياء السُّنة . فيظهر في ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً ، عدة أهل بدر ، على غير ميعاد ، قزٌ كقزع الخريف ، رهباناً بالليل وأسداً بالنهار ، فيفتح الله للمهدي أرض الحجاز ، ويستخرج من كان في السجن من بني هاشم ، وتنزل الرايات السود الكوفة ، فتبعث بالبيعة إلى المهدي ، ويبعث المهدي جنوده في الآفاق ، ويميت الجور وأهله ، وتستقيم له البلدان ، ويفتح الله على يديه القسطنطينية » .

وعن الوليد بن مسلم عن محمد بن علي - وهو الباقر - قال : « إذا سمع المهدي والذين بمكة الخسف ، خرج في ثمانية عشر ألفاً فيهم الأبدال ، حتى ينزل إيليا ، فيقول الذي بعث الجيش ، وهو السفياني حين بلغه الخبر من إيليا : لعمر الله لقد جعل الله تعالى في هذا الرجل غيرة ، بعثت إليه من بعثت ، فساخوا في الأرض ، إن في هذا لعبرة ونصرة ، فيؤدي السفياني إليه الطاعة . ثم يخرج حتى يلقى كلباً وهم أخواله ، فيعيِّرونه بما صنع ، فيقولون : كسانا الله قميصاً من عز فخلعته . فيقول : ما ترون ، أستقيله البيعة ؟ فيقولون : نعم . فيأتيه إلى إيليا ، فيقول : أقلني . فيقول : بلى . فيقول له : أتحب أن أقيلك ؟ فيقول : نعم . فيقيله ثم يقول : هذا رجل قد خلع طاعتي . فيأمر به عند ذلك ، فيُذبح على

بلاطة باب إيليا . ثم يسير إلى كلب فينهبهم ، فالخائب من خاب يوم نهب كلب » .

عن أبي قبيل قال : « اجتماع الناس على المهدي ١٢٠٤ » ، وعن محمد بن علي : « إن المهدي والسفياني وكلب يقتتلون في بيت المقدس حين يستقيله البيعة ، فيؤتى بالسفياني أسيراً ، فيأمر به فيُذبح على باب الرحبة ، ثم تباع نساؤهم وغنائمهم على درج دمشق » .

وعن علي رضي الله عنه قال : « إذا بعث السفياني إلى المهدي جيشاً فخُسف بهم بالبيداء ، وبلغ ذلك أهل الشام ، قالوا لخليفتهم : قد خرج المهدي فبايعه وادخل في طاعته ، وإلا قتلناك . فيرسل إليه بالبيعة ، ويسير المهدي حتى ينزل بيت المقدس ، وتنقل إليه الخزائن ويدخل العرب والعجم وأهل الحرب والروم وغيرهم في طاعته من غير قتال ، حتى يبني المساجد بالقسطنطينية وما دونه ، ويخرج قبله رجل من أهل بيته بالمشرق ويحمل السيف على عاتقه ثمانية أشهر يقتل ويمثل ، ويتوجه إلى بيت المقدس ، فلا يبلغه حتى يموت » .

وعن محمد بن حميد قال : « المهدي أزج أبلغ أعين ، يجيء من الحجاز ، حتى يستوي على منبر دمشق » ، وعن علي رضي الله عنه : « المهدي مولده بالمدينة من أهل بيت النبي ﷺ ، واسمه اسم نبي، ومهاجره بيت المقدس ، كث اللحية ، أكحل العينين ، براق الثنايا ، في وجهه خال ، في كتفه علامة النبي ﷺ ، يخرج براية النبي ﷺ من مرط معلمة بربطة سوداء فيها حجر ، لم تنشر منذ توفي رسول الله ﷺ ، ولا تنشر حتى يخرج المهدي ، يمده الله بثلاثة آلاف من الملائكة ، يضربون وجوههم من خلفهم وأدبارهم ، يبعث وهو ما بين الثلاثين إلى الأربعين » .

وأخرج عن مطر أنه ذكر عنده عمر بن عبدالعزيز ، فقال : « بلغنا أن المهدي يصنع شيئاً لم يصنعه عمر بن عبدالعزيز . قلنا : ما هو ؟ قال : يأتيه رجل فيسأله ، فيقول له : ادخل بيت المال فخذ . فيدخل ويأخذ ، ويخرج ويرى الناس شباعاً ، فيندم فيرجع إليه ، فيقول : خذ ما أعطيتني . فيأبى ويقول : إنا نعطي ولا نأخذ » ، وعن بعضهم قال : « الخلفاء الراشدون ستة : أبوبكر وعمر وعثمان وعلي وعمر بن عبدالعزيز والمهدي » .

وأخرج عن كعب ، قال قتادة : « المهدي خير الناس ، أهل نصرته وبيعته من أهل كوفان واليمن وأبدال الشام ، مقدمته جبريل وساقته ميكائيل ، محبوب في الخلائق ، يطفيء الله به الفتنة العمياء ، وتأمن الأرض ، حتى إن المرأة لتحج في خمس نسوة ما معهن رجل ، لا يتقين شيئاً إلا الله ، يعطي الأرض زكاتها والسماء بركاتها » . قال كعب الأحبار : « إني أجد المهدي مكتوباً في أسفار الأنبياء ، ما في عمله ظلم ولا عيب » .

وأخرج نعيم بن حماد عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال : « يأوي إلى المهدي أمته كما تأوي النحل إلى يعسوبها ، يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً ، حتى يكون الناس على مثل أمرهم الأول، لا يوقظ نائم ولا يهراق دم » ، وأخرج عن أرطأه قال : « بلغني أن المهدي يعيش أربعين عاماً ، ثم يموت على فراشه ، ثم يخرج رجل من قحطان مثقوب الأذنين على سيرة المهدي ، بقاؤه عشرين سنة، ثم يموت قتيلاً بالسلاح ، ثم يخرج رجل من أهل بيت النبي ﷺ مهدي حسن السيرة ، يغزو مدينة قيصر ، وهو آخر أمير من أمة محمد ﷺ . ثم في زمانه الدجال ، وينزل في زمانه عيسى بن مريم » .

قال الإمام السيوطي : « هذه الآثار لخصتها من كتاب الفتن لنعيم بن حماد ، وهو أحد الأئمة الحفاظ ، وأحد شيوخ البخاري ، ولخصت هذا مما لخصه » ، قال : وبقي من أخبار المهدي ، ما أخرج ابن أبي شيبة عن ابن عباس قال : « لا تمضي الأيام والليالي حتى يلي منَّا أهل البيت فتى لم تلبسه الفتن ولم يلبسها ، قيل : يا ابن عباس ، يعجز عنها شيختكم وينالها شبابكم ؟ قال : هو أمر الله يؤتيه من يشاء»، وأخرج ابن الجوزي في تاريخه عن ابن عباس ، قال رسول الله ﷺ : « ملك الأرض أربعة: مؤمنان وكافران . فالمؤمنان : ذو القرنين وسليمان ، والكافران : نمرود وبخت نصر . وسيملكها خامس : المهدي من أهل بيتي » .

وأخرج ابن المناوي في الملاحم ، قال رسول الله ﷺ : « ليخرجن رجل من ولدي عند اقتراب الساعة حين تموت قلوب المؤمنين كما تموت الأبدان ، لما لحقتهم من الضرر والشدة والجوع والقتل وتواتر الفتن والملاحم العظام ، وإماتة السنن وإحياء البدع وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فيحيي الله تعالى بالمهدي - محمد بن عبدالله - السنن التي قد أميتت ، ويَسُرُّ بعدله وبركته قلوب المؤمنين ، وتتألف إليه نصب العجم وقبائل العرب ، فيبقى على ذلك سنين ليست بالكثيرة ، دون العشر ، ثم يموت » .

قال ابن المناوي : « وفي كتاب دانيال : فيصلح الله بالمهدي كلما فسد من قبله ، ويسعد الله به أهل الإيمان ، ويحيي به أهل السنة ، ويطفي به نيران البدعة ، ويكون الناس في زمانه أعزاء ظاهرين على من خالفهم ، ويعيشون أطيب عيش ، ويرسل الله تعالى السماء عليهم مدراراً ، وتخرج الأرض زهرتها ونباتها ، فلا تدخر من نباتها شيئاً ، فيمكث على ذلك سبع سنين ثم يموت » .

وروى ابن ماجة عن أنس : أن رسول الله ﷺ قال : « لا يزداد الأمر إلا شدة ، ولا الدنيا إلا إدباراً، ولا الناس إلا شحاً ، ولا تقوم الساعة إلا على شرار الناس » ، وقال أبو الحسن محمد بن الحسين السجزي : « قد تواترت الأخبار واستفاضت بكثرة رواتها عن المصطفى ﷺ بمجيء المهدي ، وإنه من أهل بيته ، وإنه سيملك سبع سنين ، وإنه يملأ الأرض عدلاً ، وإنه يخرج مع عيسى عليه الصلاة

والسلام ، فيساعده على قتل الدجال بباب لُد من فلسطين ، وإنه يؤم هذه الأمة ، وعيسى عليه الصلاة والسلام في طول قصته وأمره » ، وعن ابن عباس : « المهدي طاووس أهل الجنة » .

وأخرج أبو عمرو الداني في سننه عن جابر بن عبدالله : قال رسول الله ﷺ : « لا تزال طائفة من أمتي تقاتل على الحق ، حتى ينزل عيسى ابن مريم عند طلوع الفجر ببيت المقدس ، ينزل على المهدي وقد أقيمت الصلاة ، فيقال : يا نبي الله تقدم فصل بنا . فيقول : هذه الأمة أمراء بعضهم على بعض ، تقدم أنت فصلِّ ، فإنما أقيمت الصلاة لك . فيتقدَّم المهدي فيصلي بالناس ، ويصلي عيسى مأموماً ، وقد نزل معه بحربة ، فحين يسلم يأخذ حربته فيقصد الدجال عند باب لد ، فيضربه بها في بطنه ، فيخرجها من ظهره فيقتله ، ثم يمكث في الأرض أربعين سنة .

وظهور المهدي قبل الدجال بسبع سنين ، وتخرج الأشراط قبل ظهورهما مقدمات ، تكون في سنين كثيرة علامات لقرب الساعة » ، انتهى ملخصاً من « العرف الوردي » .

وقال في « الكشف » : « الذي دلت عليه الآثار أن مدة هذه الأمة ، تزيد على ألف سنة ، ولا تبلغ الزيادة عليها خمسمائة سنة » .

قال كاتبه : وقفت على أن المهدي إذا تمكن ودانت له الأمة يسير لفتح القسطنطينية الكبرى مدينة الروم ، وكان قد أسسها حكماء اليونان على أسماء وطلاسم ، حتى إن داخلها يمشي ثلاثة أيام ، ثم لم يع إلا وهو في محل حيث مشى ، فلذا عجز عن فتحها كثير ممن حاولوه ، حتى إن الصحابة لم يتعرضوا لها .

ومذكور في الأثر أن ما يفتحها إلا المهدي ، فإذا سار إليها تيسر له وصولها فإذا وصلها فحين يقف على أبوابها تفتحت له ، فيدخلها ويفتحها ويدين له أهلها ، ويبني فيها المساجد ، فإذا فرغ منها أتاهم الصريخ بأن الدجال قد خلفكم في أهليكم ، فيرجعون إلى أهليهم فيجدون الخبر كذباً ، فيمكثون ما شاء الله ، ثم يأتيهم ، فليلة وصوله إليهم ينزل عيسى بحربته وقت صلاة الصبح ، ثم بعد الصلاة يسير إليه فيقتله ، وفي الخبر : « إن الدجال يمكث في الأرض أربعين يوماً ، يوم كسنة ، ويوم كشهر ، ويوم كجمعة - أي أسبوع - وبقية أيامه كأيامنا ، فقالوا : يا رسول الله ، أيكفينا في اليوم الذي كسنة صلوات يوم ؟ ، قال : لا ، أقدروا لكل صلاة قدرها . أو قال : وقتها » .

علوم المهدي كلها وهبية ، يفتح الله عليه بجوامع علوم الكتاب والسنة ، فيقرر أحكام الشرع كلها على أكمل وجوهها المحبوب عند الله ورسوله ، وهذا هو علم أهل بيت رسول الله ﷺ ، كما قيل لسيدنا علي : « هل خصكم رسول الله ﷺ أهل البيت بعلم لم يُطلع عليه أحداً غيركم ؟ » . قال : « لا ، إلا فهماً يؤتيه اللهُ رجلاً في كتاب الله » ، أو كما قال .

قال بعض علماء الروم : « المهدي يرفع الخلاف ، ويجعل الأحكام المختلفة في مسألة حكماً واحداً ، وهو ما في علم الله ، وتصير المذاهب مذهباً واحداً ، لشهوده الأمر على ما هو عليه في علم الله تعالى ، لارتفاع الحجاب عن عين جسمه وقلبه ، كما كان في زمن رسول الله ﷺ » .

وأود أني كنت سألت سيدنا عبدالله عن أصل علومه ، لأن في وقته لا يمكن تعلم ولا تعليم ، لكن لو أراد أن يحكي لي ذلك على وجهه صريحاً ، لَذَكَره لمَّا قلت له : فيحتاج المهدي إلى إلهام من الحق ليعرف به الحق من الباطل ويقرر الصواب . فلم يذكُره ، وإنما ذكر أن كشف الأولياء لا يُعمل به في الشرع ، ويُعمل بقول المهدي لكونه مقرراً من الشارع . وما ذكر من أين أصل علومه ، لأن سيدنا لا يعلم كل أحد بكل علم ، بل يختص لكل أحد من العلم بما يليق به على حسب حاله ، وإنما يفهم أن إلهام المهدي خاصة يجب به العمل دون إلهام غيره .

وهذا يؤيد ما قدَّمنا من أن الله سبحانه إذا شاء أوصل ما شاء الله من العلم لمن شاء من الخلق ، على أي وجه شاء ، ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ الآية ، وإلى الأرض أن تحدِّث بأخبارها ، بأن ربك أوحى لها ، أي أَلْـهَمَها . وألهم عبدالمطلب أن يسمِّي النبي ﷺ بإسمه الذي سمَّاه به في سابق أزله قبل خلق المخلوقات وهو محمد ، وغير ذلك أشياء كثيرة . ومن شأن سيدنا أنه لا يحكي ويقرر أحواله لكل أحد ، إلا بقدر حاله ومقدار علمه ومنزلته من العلم ، كما قال في مثل هذا المعرض : « **ما كل قول له جواب ، جواب ما تكره السكوت** » ، كما قرَّرت ذلك مراراً ، كما ذكرت لما سألته عن معنى بيت قصيدته :

أَيـنَ أَيـنَ المُهمَـلاَنِ عُـلاً ... وَانْخِفَاضـاً فَـازِمْ بِالْبَـصَرِ

فأفكَرَ ساعة ، وقال : « **يعني كلمتين ، أول كل منهما حرف مهمل ، أحدهما غاية في العلو وهو العرش ، والأخرى غاية في السفل وهو الحوت الذي عليه الأرض** » ، وغير ذلك .

قال السيوطي : « قال الطيبي في قوله تعالى : ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ

ٱلتَّلَاقِ ﴾: أفاد به استمرار الوحي من لدن آدم إلى انتهاء زمن رسول الله ﷺ ، ثم اتصاله إلى قيام يوم التناد بإقامة من يقوم بالدعوة ، على ما روى أبو داود عن أبي هريرة عن النبي ﷺ ، قال : إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها . اتفق الحفاظ على أنه حديث صحيح » ، قال: « قال القرطبي في تذكرته : إن عيسى ينزل مقرِّراً لهذه الشريعة مجدداً لها. وهذا تصريح في أن المجدد على آخر المائتين هو عيسى دون المهدي » ، وعن ابن شورب قال : « إنما سمي المهدي ، لأنه يُهدَى إلى جبل من جبال الشام ، يستخرج منه أسفار التوراة ، ويحاج بها اليهود ، فيُسلِم على يديه جماعة من اليهود » . وأخرج الداني عن حذيفة : « قال رسول الله ﷺ : تكون وقعة بالزوراء وهي بغداد . قالوا : يا رسول الله ، وما الزوراء ؟ قال : مدينة بالمشرق بين أنهار يسكنها شرار خلق الله ، وجبابرة من أمتي، تُقذف بأربعة أصناف من العذاب : بالسيف وبخسف وقذف ومسخ » ، قال كاتبه : الزوراء هي بغداد، وذلك قبل أن تُخَط مدينة ، فإنها إنما خُطَّتْ في وقت المأمون ، هو الذي خَطَّها ، وصارت مدينة بعد ذلك ، فأطلع الله تعالى نبيه عليها ، وأعلمه بشأنها وبمن يسكنها .

وقال رسول الله ﷺ : « إذا خرجت السودان ، طلبت العرب ، يكشفون حتى يلحقوا ببطن الأرض - أو قال : ببطن الأردن - فبينما هم كذلك إذ خرج السفياني في ستين وثلاثمائة راكب ، حتى يأتي دمشق ، فلا يأتي شهر حتى يبايعه من كلب ثلاثون ألفاً ، فيبعث جيشاً إلى العراق ، فيقتل بالزوراء مائة ألف ، وينجرون إلى الكوفة فينهبونها ، فعند ذلك تخرج راية من المشرق ، يقودها رجل من تميم يقال له : شعيب بن صالح . فيستنقذ ما في أيديهم من سبي أهل الكوفة ويقتلهم ، ويخرج جيش آخر من جيوش السفياني إلى المدينة ، فينهبونها ثلاثة أيام ، ثم يسيرون إلى مكة ، حتى إذا كانوا بالبيداء ، بعث الله جبريل فيقول : يا جبريل ، عذبهم . فيضربهم برجله ضربة يخسف الله بهم ، فلا يبقى منهم إلا رجلان ، فَيَقْدُمَان على السفياني فيخبرانه بخسف الجيش ، فلا يهوله . ثم إن رجالاً من قريش يهربون إلى القسطنطينية ، فيبعث السفياني إلى عظيم الروم يبعث بهم في المجامع ، فيبعث بهم إليه ، فيضرب أعناقهم على باب المدينة بدمشق .

قال حذيفة : حتى إنه يطاف بالمرأة في دمشق في الثوب على مجلسٍ مجلس ، حتى يأتي فخذ السفياني فتجلس عليه وهو في المحراب قاعد ، فيقوم رجل مسلم من المسلمين فيقول : ويحكم ، أكفرتم بعد إيمانكم ؟ إن هذا لا يحل . فيقوم فيضرب عنقه في مسجد دمشق ، ويقتل كل من يتابعه على ذلك ، فعند ذلك ينادي مناد من السماء : إن الله قد قطع مدة الجبارين والمنافقين وأشياعهم ، وولاكم خير أمة محمد ﷺ ، فالحقوا به بمكة . فيلحقوا به واسمه أحمد بن عبدالله . قال حذيفة : فقام عمران بن حصين فقال: يا رسول الله ، كيف لنا أن نعرفه ؟ قال : هو رجل من ولدي ، كأنه من رجال بني إسرائيل ، عليه عباءتان

قطوانيتان، كأن وجهه الكوكب الدري في اللون، في فخذه الأيمن خال أسود ابن أربعين سنة، فيخرج الأبدال من الشام وأشباههم، وتخرج إليه النجباء من مصر، وعصائب أهل المشرق وأشياعهم، حتى يأتوا مكة، فيُبَايَع له بين الركن والمقام. ثم يخرج متوجهاً إلى الشام، وجبريل على مقدمته، وميكائيل على ساقيته، فيفرح به أهل السماوات وأهل الأرض، والطير والوحوش والحيتان في البحر، وتزيد المياه في دولته، وتمتد الأنهار، وتضعّف الأرض أكلها، وتستخرج الكنوز، فَيَقْدُم الشام، فيذهب له السفياني تحت الشجرة التي أغصانها إلى بحيرة طبرية، ويقتل كلباً. قال رسول الله ﷺ: فالخائب من خاب يوم كلب، ولو بقتال. قال حذيفة: يا رسول الله، كيف يحل قتالهم وهم موحدون؟ فقال رسول الله ﷺ: يا حذيفة، هم يومئذ على ردة، يزعمون أن الخمر حلال ولا يصلون».

وأخرج الداني عن شهر بن حوشب عن رسول الله ﷺ قال: «سيكون في رمضان صوت، وفي شوال معمعة، وفي ذي القعدة تحارب القبائل، وعلامته ينهب الحاج، وتكون ملحمة بمنى يكثر فيها القتل، وتسيل فيها الدماء، حتى تسيل دماؤهم على الجمرة، حتى هرب صاحبهم، فيؤتى بين الركن والمقام فيبايع وهو كاره. فيقال له: إن أبيت ضربنا عنقك. يرضى به ساكن السماء وساكن الأرض».

وأخرج نعيم عن كعب قال: «يطلع علم من المشرق قبل خروج المهدي له ذنب يضيء».

وأخرج نعيم عن شريك قال: «بلغني أنه قبل خروج المهدي ينكسف القمر في شهر رمضان مرتين». وأخرج أبو غنم الكوفي في كتاب الفتن، عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه قال: «ويحاً للطالقان، فإن لله فيه كنوز ليست من ذهب ولا من فضة، ولكن بها رجال عرفوا الله حق معرفته، وهم أنصار المهدي في آخر الزمان». وأخرج أبوبكر الإسكافي في فوائد الأخبار، عن جابر بن عبدالله قال: «قال رسول الله ﷺ: من كَذَّبَ بالدجال فقد كفر، ومن كَذَّبَ بالمهدي فقد كفر»، وأخرج نعيم عن جعفر بن يسار الشامي قال: «يبلغ مِن رَدِّ المهدي للمظالم، أن لو كانت تحت ظهر إنسانٍ انتزعه حتى يرده»، وعن ابن عباس: «المهدي طاووس أهل الجنة».

وأخرج أبو عمرو الداني في سننه عن جابر بن عبدالله: قال رسول الله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي تقاتل على الحق، حتى ينزل عيسى بن مريم عند طلوع الفجر ببيت المقدس، ينزل على المهدي، فيقال: يا نبي الله، تقدم فَصَلِّ بنا. فيقول: هذه الأمة أمراء بعضهم»، وفي رواية: «فيقول له أمير الناس: تقدم يا روح الله فَصَلِّ بنا. فيقول: إنكم معشر هذه الأمة أمراء بعضهم على بعض، تقدم أنت فَصَلِّ بنا»، فيتقدم فَيُصَلِّي بهم، فإذا انصرف أخذ عيسى حربته، وانصرف نحو الدجال، فضربه بالحربة في بطنه حتى تخرج من ظهره، وفي الحديث: «ينزل بين مَلَكين في مهرودتين بحربته، فيضعها حين يصلي، فحين يسلم أخذها ومضى إليه فيقتله».

وسئل المؤلف - أي السيوطي - : « هل ثبت أن عيسى بعد نزوله يأتيه الوحي ؟ » ، والجواب: « نعم ، رواه مسلم وأحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وغيرهم من حديث النواس بن سمعان قال: ذَكَر رسول الله ﷺ الدجال ، إلى أن قال : فبينما هم ، إذ بعث الله المسيح عيسى بن مريم ، فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق ، واضعاً يديه على أجنحة ملكين ، فيتبعه فيدركه ، فيقتله عند باب لد الشرقي ، فبينما هم كذلك أوحى الله إلى عيسى بن مريم : إني قد أخرجت عباداً من عبادي لا بد لك بقتالهم ، فحرز عبادي إلى الطور ، فيبعث الله يأجوج ومأجوج » .

قال الإمام السيوطي : « اشتهر على ألسنة الناس أن جبريل لا ينزل إلى الأرض بعد موت النبي ﷺ ، وهذا شيء لا أصل له ، والدليل على بطلانه ما أخرجه الطبراني في الكبير ، عن ميمونة بنت سعد قالت : قلت : يا رسول الله ، هل يرقد الجنب ؟ قال : ما أحب أن يرقد حتى يتوضأ ، فإني أخاف أن يتوفى فلا يحضره جبريل . فهذا الحديث يدل على إن جبريل ينزل إلى الأرض ويحضر موتة كل مؤمن حضره الموت وهو على طهارة » .

قال كاتبه : لخصت هذا الكلام من « العَرْف الوردي في أخبار المهدي » ، ومن « الدر المنثور في التفسير بالمأثور » ، كلاهما للإمام جلال الدين السيوطي .

جرَّ إلى ذِكْر ذلك قول سيدنا عبدالله الحداد نفع الله به لما ذَكَر التجديد للدين ، وذَكَر المجدِّدين ، وذَكَر أن المهدي آخر المجددين ، وأن عيسى يظهر في وقته ، وأنه مجدِّد بعدهم من سنين ، وأن المهدي قد بشّر به من قديم ، وإذا ظهرت الشمس ذهب الظلام ، ونحو هذا الكلام .

فلخصنا من قول الإمام المذكور ما يشير إلى ذلك ويبين ما هنالك ، وقوله : « لولا أنه تتقدمه فتن، لقلنا : أن تلك السَّنة من سنينه » ، ومراده الفتن المذكورة ، أي في الكلام المتقدم هـ .

***

قال رضي الله عنه : « الحق سبحانه إذا لم يُرِدْكَ لأمر ، قَيَّضَ لك سبباً ، وإلا فما الفاعل إلا هو سبحانه» .

أقول : حاصل ما لخصنا مما جمعه السيوطي وغيره أن أول علامات الساعة الكبار ظهور المهدي ، وتقدم هنا أنه يبايع له سنة ١٢٠٤ ، وفي الحديث : « إن مدته إن أسرع فسبع سنين ، وإن أبطأ فتسع » .

وفي رواية أرطاه : « بلغني أن المهدي يعيش أربعين عاماً ، ولسبع من خروجه يخرج الدجال ، فيمكث مدته المذكورة أربعين يوماً ، يوماً كسنة ، ويوم كشهر ، ويوم كجمعة ، وبقية أيامه كأيامنا، فإذا فتح المهدي القسطنطينية وعمرها ، وبنى فيها المساجد ، جاءهم خبر أن الدجال خلفهم في أهلهم، فيأتون سراعاً ، فإذا الخبر كذب ، ولكن قد تمت عند ذلك مدة الدجال ، فيأتي إليهم تلك الليلة ،

ويبات عند باب لُدٍّ شرقي دمشق .

وفي صبيحة تلك الليلة بعدما تقام صلاة الصبح ، ينزل عيسى بحربته ، فحين يسلِّم من صلاتها، يأخذ حربته فيقتله بها ، ثم يمكث بعده مع المهدي مدة ، ثم يتوفى المهدي . ويبقى سيدنا عيسى بعد قتل الدجال مدة أربعين عاماً ، ويتزوج ويولد له ولد ، ويأمره الله أن يصعد مع قومه جبل الطور ، فيبعث الله يأجوج ومأجوج ، ويأخذون أياماً ، ويملئون الأرض من كثرتهم ، ويتضرر سيدنا عيسى وأصحابه من انحباسهم ، فيدعو عليهم ويؤمِّن أصحابه ، فيرسل الله عليهم النَّغَفَ ، وهو دودة كدودة التمر ، تخرج بأنف كل واحد منهم واحدة ، وتقرصه في أنفه ، ففيها حتفه ، حتى تجيف الأرض وتمتلىء منهم نتناً . فيدعو سيدنا عيسى ربه ، فيرسل عليهم سيولاً هائلة تقذفهم في البحار ، ثم ينزل سيدنا عيسى وأصحابه ، وفي آخر وقته تكون الليلة السوداء ، التي في صبيحتها تطلع الشمس من مغربها ، وبعد قتله الدجال يمكث في الأرض بعد قتله أربعين سنة ، ويمكث الناس بعد طلوع الشمس من مغربها مائة وعشرين سنة ، ثم تقام الساعة ، أي النفخة الأولى، فيموت بها كل حي » .

روى ابن ماجة عن أنس عن رسول الله ﷺ قال : « لا يزداد الأمر إلا شدة، ولا الدنيا إلا إدباراً، ولا الناس إلا شحًّا ، ولا تقوم الساعة إلا على شرار الناس » ، وفي رواية : « يتهارجون فيها تهارج الحُمُر » ، وذَكَر الإمام السيوطي صورة تهارجهم : « أن الرجل يواقع زوجته في الطريق على مرأى من الناس ، كُلٌّ ينظر ، ولا ينهاه عن ذلك إلا رجل كان هو خيارهم ، يقول لفاعل ذلك : ادخل هناك حيث لا يراك أحد . ثم يشتد فسادهم إلى أن يواقع الرجل الأجنبية بالزنا ، حيث يراه الناس ولا له من ينهاه عن ذلك ، فعند ذلك تقوم الساعة ، فيأمر الله تعالى إسرافيل ، فينفخ النفخة الأولى ، فيموت بها كل حي ، حتى لا يبقى إلا الله الواحد القهار ، وبينها وبين النفخة الأخرى التي يحيى بها كل ميت أربعون سنة ، قال الله تعالى : ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ۝٦٨﴾ » .

وحضر عند سيدنا جماعة جاؤوا من الحج ، **فقال** : « **الناس مشتاقون إلى النبي ﷺ أكثر من شوقهم إلى البيت ، ولكن يمنع من ذلك الضعف وقلة الطاقة** » .

وذَكَروا من رخص أسعار الحرمين ، **فقال** : « **إذا صلحت أمور الحرمين صلحت جميع الجهات ، لأن جميع الناس إنما هم على الله ورسوله** » .

وذَكَر أشياء من أمور الأولين ، خلفاء وغيرهم ، **فقال** : « **أمور التواريخ لا يحتملها ذو العقل**

الضعيف ، لأنه يحصل له من ذلك عبر ومذكّرات ، فلا يبلغه عن أحد فاضل ولا مفضول إلا وله حُسَّاد وعليه نَمَّامِين ، وناس يريدون الغدر به ، مع أن الزمان صالح ، والناس أهل دين ، والخير ظاهر ، أظهر من الشر ، فكيف في زماننا هذا ؟ » .

فلهذا كان كثير من الصالحين في تلك الأزمان الصالحة مات مسموماً ، وأحد مقتولاً ، ومنهم محبوساً حتى مات ، لما معهم من الفضائل والمزايا اللازمة والمتعدية التي يُحسَدون عليها ، فالجزولي مات مسموماً في صلاة الصبح سنة ٨٧٠ ، وأخرج من قبره بعد سبع وسبعين سنة ودفن في بلد آخر، فلما أخرجوه وجدوه كهيئته يوم دُفِن ، لم تَغْدُ عليه الأرض ، ولا تغير جسده لطول المدة ، ووضع بعض الحاضرين يده على جبهته وارتكى عليها فاحمَرَّ موضعها وانحصر الدم ، فلما رفع يده رجع الدم كما يقع ذلك في الحي .

والشيخ عبدالله بن أبي جمره مات محبوساً ، والشيخ [1] مات مقتولًا ، وغير هؤلاء ممن لا يحصى كثرة ، وهذا حظ كل واحد منهم من تنغيص الدنيا ، فإن الدنيا لم تزل منغصة على المؤمن كما ورد .

ويكفي في ذلك أن النبي ﷺ وأصحابه الخلفاء الأربعة ، ما مات أحد منهم موتة عينه ، بل بسبب من أسباب أذى الأعداء ، فالنبي ﷺ سمته اليهودية بخيبر ، وأمره جبريل عن أمر الله بالحجامة منه، وما زال يعاوده أذى السم إلى أن حضره مرض الأجل ، فاشتدَّ عليه - أي أذى السم - وصار سبباً للموت كما قال ﷺ : « ما زالت أكلة خيبر تعاودني كل عام حتى كان هذا أوان قطع أبهري » .

وسيدنا أبوبكر أكل مع الحارث بن كلدة - المسمى حكيم العرب - طعاماً ، فلما فرغا من الأكل ، قال الحارث : « يا أبابكر ، أكلت أنا وأنت طعاماً مسموماً سم سنة ، وسأموت أنا وأنت بعد السنة في يوم واحد » ، فماتا بعد السنة في يوم واحد . وسيدنا عمر قتله أبو لؤلؤة المجوسي ، وسيدنا عثمان قتله الأعداء البغاة المصريون ، وسيدنا علي قتله الملعون ابن ملجم ، فخذ هذا دليلاً في المعنى ، فإن هؤلاء هم خيرة الله من خلقه . وغير من ذُكِر خلق لا يحصون كثرة قط ، وحديثاً كالخليفة العادل عمر بن عبدالعزيز مات مسموماً .

فلهذا كان سيدنا عبدالله نفع الله به ، حيث أموره وأحواله كلها مؤسسة على الإتباع ، لا يثق بأحد من أهل الزمان حتى يأخذ منه حذره ، فأخبر عن نفسه غير مرة قال : **« حصل لي مرة مرض في الدماغ والرأس ، فجاءني فلان بدهن الورد ، فلم أقبله منه ، وهو لنا صديق ، غير أني كرهته لما نعلم من ضعف**

---

(١) فراغ في الأصل .

عقله ، فلم أثق به » .

فقال الذي يخاطبه بهذا الكلام ، وهو السيد زين العابدين العيدروس ، وكان معه معرفة بالطب : « لا بد من أن يكون معه شيء من دهن السمسم ، وهو دواء مليح لهذا المرض » ، قال سيدنا : « نعم ، لكن لا نقبل من أحد دواء إلا أن يكون فيه خصلتان : العقل والنصيحة ، فلا ينبغي أن يأمن كل أحد. لأن الطباع تختلف ، والجهات تختلف ، والأدوية تختلف ، والمقاصد تختلف ، وقد حصل بيننا كلام وبين رجل عبر معنا في البحر ، عندما سرنا إلى الحج بسبب الماء ، لما رآنا نأخذ منه ، ويعطونا أكثر مما يعطونه، فقال الناخوذا له : هذا ماء حملوه معهم . وقد حملنا معنا ماء بجحلة - أو قال : أكثر - ، فقال الرجل: أريد النزول ولا صبر لي على هذا .

فنزل ليلاً ، فلما كان الصبح جاءني رجل في المركب بقدح فيه ماء مذاب فيه سكر أبيض ، وكان الوقت صيفاً ، وقال لي : هذا لكم ، هدية من بعض المحبين ، يبرد عليكم. فقلت : لعله أن يكون من ذلك الرجل . فأخذت منه مُجَيَّن ، ثم ناولته لآخر لعدم ثقتي به، لما وقع بيننا وبينه . فسألت عنه ، فقيل: قد نزل من الليل . وكان ذلك من غيره ، وكذلك الملوك لا يأكلون طعاماً ، ولا يشربون ماء حتى يأخذ منه الذي أتى به ، خوفاً من وقوع شيء ، وهذا في مقابلة ما يأخذونه من نعيم الدنيا ، فإنها مُنَغِّصَة ، وأيضاً فالوهم قد يعمل مع الإنسان في شيء ما منه شيء » هـ .

أقول : ما حكى سيدنا عن نفسه من هذه الأمور من باب الحزم المطلوب شرعاً ومروءة وطبعاً ، كما قالوا : « الحزم سوء الظن » ، أي تظن أن يقع بك سوء من بعض الأمور ، فتحزم بنفسك بأخذك بالحذر من غائلته ، فإن وقع شيء مما ظننت فقد تحذرت منه وسلمت إن أراد الله لك السلامة ، وإن لم يقع ، فما عليك في الحذر بأس ، وسلمت في الحالتين إن وقع مع أخذ القدر وقدر لك السلامة ، أو لم يقع . وإن وقع بك بعد أخذ الحذر فقد سلمت من الملام حقيقة وشريعة ، ووجب التسليم حينئذ للقضاء والقدر ، فما على من بذل وسعه ملام ، ولا ينفع الحذر عن القدر ، وإذا جاء القدر عمي البصر، فتبيَّن بهذا أن أخذ الحذر متعين ، سلمت أو لم تسلم ، فالمطلوب السلامة من الإنتقام ، والسلامة من الملام - أي شريعة وطبيعة - فالكل غيبي .

ومَثَّل سيدنا لهذا برجل سقط في بئر بحيث لا يشعر ، فمات ، فهذا شهيد ، يتبرك بالصلاة عليه، وآخر رمى نفسه عمداً ، فهذا شقي قاتل نفسه ، فالأول لعدم شعوره كالآخذ حذره ، وغُلِب على أمره، والآخر لعدم تحذره ذم حاله جدًّا .

وتناول هذا المعنى ، معنى قوله ﷺ : « ماكِسْ عن دينارك ودرهمك ، فإن المغبون لا مأجور ولا

مشكور » ، يعني لأنه لا نية له في الوضع عن باقي قيمة ما يسواه متاعه لوجه الله ، فيكون متصدقاً خفية، ويكون أحد السبعة الذين يظلهم الله بظل عرشه ، يوم لا ظل إلا ظله ، رجل تصدق بصدقة أخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، وفسروها بمن يبيع متاعه بأقل من قيمة متاعه ، وينوي أنه متصدق بما بقي ، نصفه أو أقل أو أكثر ، ولا ظهر منه لصاحبه أنه ترك له الزائد مروفة به ومروءة .

فالمغبون لا حصل له أجر صدقة فيكون مأجوراً ، ولا جميل مروة فيكون مشكوراً ، والمغبون هو من حُرِمَهما ، كما ورد : « أخسر الناس في الدنيا والآخرة من يصنع المعروف إلى من لا يشكره»، والمغبون كالمغصوب الذي لا اختيار له في الفعل ، فلا ينال إحدى الدرجتين من الأجر والشكر ، فالغبن فوات الشيء بلا فضيلة ولا جميلة ، والفضيلة ما طُلب شرعاً ، والجميلة ما طُلب مروءة ، وكلاهما إذا صحبته النية محبوب عند الله ، ودونه لا وزن له عند الله .

ودهن الورد المذكور ، ذكر الحكماء أن صفته أن يخلط دهن السمسم بنحو قدره ماء ، ويجعل معه ورق زهر الورد رطباً أو يابساً ، ويطبخ بنار لينة حتى يذهب الماء ويبقى الدهن ، فهذا هو دهن الورد الذي يُذكر للتداوي به لأوجاع الرأس والشواخص في سائر البدن ، والبثور والقروح والجروح وغير ذلك ، ومثله الأدهان الثلاثة ، ولعلها أبلغ منه في ذلك ، وهو مرهم عظيم للقروح والضوارب والجروح والأورام وتهيج البدن ، ومهما عتق كان أبلغ ، وهو أن يجمع دهن السمسم مع مثله دهن بقر ودهن ذوب سنام الإبل ، ويطبخ على النار اللينة إلى أن يحمى جداً ، وإلا فإنه لا يفوح كالماء ، ويحفظ في ماعون من خزف أو زجاج دون الصُّفر والخشب .

واعلم أن سائر الأسباب لجلب المنافع ودفع المضار ، والتحذرات من الوقوع في المكاره ، متوقف على موافقة المشيئة الإلهية لا مطلقاً ، ولو أُطلق في العبارات حصول المنافع بالأسباب ودفع المضار ، فهو مقيد بذلك ، وبالوقت المؤقت لذلك ، فيعمل العبد ويتحذر مما يضر ، ويرجو أن يوافق ما نواه ما أراده مولاه ، حتى يحصل له بذلك مقصوده ، ولا يقطع بأمر ، فهذا هو عين الشريعة والحقيقة .

والقاطع جاهل أحمق ، وكل عمل دون ذلك - أي الشريعة والحقيقة - فهو فسوق وزندقة ، كما تقدمت الإشارة فيه عن الشيخين : سيدنا عبدالله والسيد أحمد الهندوان .

فقال سيدنا : « **الحقائق إذا تبعتها طرائق سَلَّمنا لصاحبها ، وإن لم تتبعها طرائق فهي أخت الزندقة** »، ومراده بالطرائق أحكام الشريعة ، فإذا كانت حقائق دون أحكام ، فهو زندقة ، كالذي يستحل أموال الناس بغير مسوغ شرعي ، من هبة وبيع وإرثٍ ونحو ذلك ، ويقول : ﴿ لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾، فهذا حقيقة ، إذا انفرد لا يجوز العمل عليه أو المسوغ شريعة لا بد منه ، وهو القيام بأوامر الله .

وما طالبهم بالحقيقة ، وإنما أعلمهم بها ليعرفوها ، وهي نسبة الأمور إلى الحق ، والشريعة نسبة الأمور إلى الخلق ، وقال السيد أحمد : « من عمل لمجرد الحقيقة فقد تزندق »، قلت : فإن عمل لمجرد الشريعة ؟ قال : « من عمل به فقد عمل بالحقيقة أيضاً » ، وقلت لسيدنا : فإن عمل بالشريعة دون الحقيقة ؟ قال : « من عمل بالشريعة فقد عمل بالحقيقة ، فمن أمرك بالعمل بالحقيقة إلا الشريعة » ، وعلى هذا ، فمن عرف قوليهما رأى المعنى واحداً ، والوجه فيهما متحداً ، وكفى بهما شاهدَي عدل .

فافهم ذلك واعمل عليه أيها الطالب للتحقق بالدين ، والخروج عن غمار الجاهلين المخلين . ومن جملة العمل بالحقيقة الإسهاب في الأعمال على مقتضى ما جرى به القدر كما قيل :

إِنَّـما الدُّنْيَـا كَبَحْـرٍ زَاخِـرٍ   فِيْـهِ لِلْـوُرَّادِ وِرْدٌ وَصَـدَرْ
فَـدَعِ الحِيْلَـةَ فِيهَـا جَانِبـاً   وَتَدَحْـرَجْ مَـعَ تَيَّـارِ القَـدَرْ

وتقدَّم هذا النظم في مثل هذه المادة ، وأنه يلزم أن يكون في تدحرجك دائراً مع الشريعة .

ولما تحاجَّ سيدنا عمر وأبو عبيدة في دخولهم بيت المقدس وفيها الطاعون ، وذلك لما ساروا لفتوحها، فأحجم سيدنا عمر عن الدخول ، وهذا من أخذ الحذر ، وقد وافق الوارد المنقول ، فحاجَّه أبو عبيدة فقال : « أتفِر يا أمير المؤمنين عن قدر الله ؟ » - يعني لا مفر عن القدر ، وأراد أن الحُجَّة بالقدر غالبة لمقابلها ، وأن الحاجة به عامة لكل عامل ، من عامل خير أو عامل شر ، حقيقة وشريعة ، لكن لا عذر مع مخالفة الشريعة ، ولو كان الأمر كذلك كما قال الكفار : ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾، ولكن أكذبهم الله وأبطل حجتهم بقوله : ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾، ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾، يعني ليس معكم إيمان بذلك ، إنما أردتم تعذرون لأنفسكم ، ولا عذر مع مخالفة الأمر ، قال تعالى : ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟﴾، ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾، وفي الإحتجاج بالقدر رائحة لمذهب الجبرية القائلين بتعطيل الأسباب - .

فقال سيدنا عمر مُحَاجًّا أبا عبيدة بعموم الحجة بالقدر ، في الوجهين جميعاً الخير والشر ، وأن العذر بذلك عام فيهما جميعاً ، وحاصل من كليهما ، وفي ذلك قطع لتلك الرائحة الجبرية ، وإثبات للحجة الشرعية ، وذلك لاتساع علمه جداً على علم أبي عبيدة ، بإثبات الأعذار والأسباب الشرعية ، والأمور الجالبة التي تطلب شرعاً ، فقال سيدنا عمر : « نعم ، نفر من قدر الله إلى قدر الله » ، يعني ليس اتباع قدر الله نلقي أنفسنا في التهالك ، ونحتج بقدر الله ، بل نتبع أسباب السلامة منها ما أمكن ، فإذا حصلت فهي من قدر الله أيضاً .

وقال في جوابه : « نعم ، نفر من قدر الله إلى قدر الله » ، فبيَّن أن القدر شامل للخير والشر ،

وللمصيب والمخطيء ، ولكن الأحق والأولى أن تتبعه في وجه الصواب الموافق للشرع ، لا من وجه الخطأ والضُر ، ثم ضرب له المثل المبيّن للمعنى ، فقال : « أرأيت لو كنت في وادٍ له عَدْوتان : أحدهما خصبة كثيرة المرعى ، والأخرى يابسة عديمة المرعى ، وعندك إبل ، تحب لها المرعى الخصب وكثرة المرعى ، فإن رعت المخصبة وسمنت وطابت ، كان ذلك بقدر الله ، وإن رعت الممحلة وهلكت وضعفت كان ذلك أيضاً بقدر الله ، فنفر من هذا إلى هذا ، وكلاهما بقدر الله » ، فأسكته بهذا المعنى العجيب الذي لا يدركه إلا من كان واسع العلم كسيدنا عمر ، حتى فاق به غيره من الصحابة رضي الله عنه وعنهم ، ويحق له أن يكون ، كيف وقد حث رسول الله ﷺ على اتباع سنته وسنة الخلفاء الراشدين من بعده ، وأن يعض عليها بالنواجذ .

ثم إن عبدالرحمن بن عوف كان غائباً ، ثم حضر وسمع بتخالفهما ، فقال : « عندي في ذلك علم عن رسول الله ﷺ ، سمعته يقول : لا تدخلوا بلداً وفيها الطاعون ، فإن وقع وأنتم فيها فلا تخرجوا فراراً منها » ، فتبين لهم وجه الصواب في ذلك ، وأن الحق والصواب كان مع سيدنا عمر .

وفي هذا ترغيب شديد وحث أكيد في التحذر من الوقوع في المحذور ، من كل الأمور وجميع الوجوه شرعاً وطبعاً ، ومراعاة أسباب الخير والأخذ بها ، وتجنب أسباب الشر والتوقي منها ما استطاع ، مع اعتقاد أن لا يكون أمر إلا بقضاء الله وقدره ، فإذا أراد أمراً من أي الجانبين الخير أو الشر ، وقع بأسباب ظاهرة أو خفية أو بلا أسباب ، بل بمجرد القدرة والإرادة ، وهذه قدرته وتلك حكمته - أي الأسباب- وربما أسبابها لا تظهر للخلق ، فالواجب إذاً التعلق بالله ظاهراً وباطناً ، قلباً وقالباً، بأسباب وبلا أسباب ، سواء تكون أسبابها متعلقة بالخلق ، أو مجرد قدرة إلهية كخوارق المعجزات والكرامات هـ .

قال رضي الله عنه : « الأمور المباحة ينبغي أن يتحرى لها نية ، فإن لم يجدها من نفسه ، فليسأل عنها أهل العلم المأمونين ، وأَخبِرْهُ بأمرك الذي تريد فعله ، من بناء دار أو خلع نخل ، وغير ذلك . وكانوا يتحرون النية ، ويتعلمونها كما يتعلم الصغير القرآن ، وقد أدركنا منهم جماعة بَنَوا غرفاً كباراً بقَدْر حاجتهم إليها ، يبنون قدر ما يحتاج إليه في الحال الحاضر ، فإذا تزوج أحد من العيال واحتاج إلى منزل وحده ، بنى ذلك ، فإذا تزوج آخر فكذلك ، وعلى هذا حتى تصير الدار كبيرة ، بتكرر الإحتياج » هـ .

أقول : يعني لا ينبغي للإنسان أن يضيع وقته إلا في أمر واجب أو مندوب ويفعله ، يرجو في ذلك جزيل الثواب وكريم المآب . وأما المباح فيتحرى له نية صالحة تُصَيِّرُهُ مندوباً يثاب عليه ، لا يكون وقته فيه شراً ضائعاً ، ويسأل عنها من يعلّمه فيه النية ، فينوي بالأكل والنوم : الإستعانة به على العبادة،

والتقوي على قيام الليل ، وفي اللباس : ستر العورة في الصلاة وخارجها ، وبالنكاح : التسبب في حصول ولد ليعبد الله ، ونحو ذلك من المباحات ، كبناء دار ينوي بها أن يستتر فيها عن أعين الناس، ويصون حُرَمَه فيها ، ويستكن عن الحر والبرد وغير ذلك ، وقد جاء في الحديث : « إن الإنسان تُعرَض عليه ساعاته وأوقات عمره يوم القيامة خزائن كأبيات الصندوق ، فإذا رأى الخزانة الخالية التي مرت عليه في مباح بلا عمل يثاب عليه ، يتحسر تحسراً لو كانت جبال الدنيا له ذهباً وفاتت عليه ، لا يتحسر عليها كتحسره ذلك . وإذا رأى الخزانة التي مرت عليه في عبادة وعمل يثاب عليه ، ملآنة لؤلؤاً وجواهر ، فيفرح بها أشد من فرحه بجبال الدنيا تنقلب له ذهباً ، وإذا رأى خزانة الساعة التي مرت عليه في المعاصي ملآنة عقارب وحيَّات » هـ .

وذمَّ ما يتعاطاه بعض الناس من التهاون بالصلاة والزكاة ، *ثم قال* : « **قد قاسينا من أهل تريم من شرارهم مقاساة شديدة ، لأنّا جلسنا لهم مجالس لم يعرفوها ، ولو رأينا منهم قابلية بانتفاع في دينهم ، كنا جئناهم إلى بيوتهم ، وما معنا ومعهم شيء إلا إن كان بالعناية نحن وإياهم ، وإلا فقراءة الكتب ومطالعتها قد فعلنا من ذلك ما شاء الله ، وما جئنا بشيء . وما عاد مثلنا ومثلهم إلا مثل حكاية عن أحد من آل باكثير : ناموا في بيتهم ليلاً وتركوا الباب مفتوحاً ، فدخل سارق يدوِّر في البيت شيئاً يسرقه فلم يجد شيئاً ، فأحس به بعضهم ، فقال له : ماذا تريد ؟ نحن أعرف ببيتنا منك ، وقد دَوَّرنا فيه نحن قبلك في النهار فما وجدنا شيئاً ، وأنت إنما جئتَ تدوِّر بالليل فلا عاد تتعب نفسك بلا شيء . فقال السارق : أسحقكم الله ، فلأي جلوسكم في هذه الخرابة ؟ فهذا مثلنا نحن وهم ، وما رأيناهم إلا مخلِّين بصلواتهم وزكواتهم ، ومن أَخَلَّ بذلك فهو ظالم . ورأيناهم مرابين ، ومن لا ينتفع بما يسمع من العلم فلا عاد يروح يدور عالماً ينتفع به ، ويوم تُنَقِّبُون عليهم حتى يأخذوا منهم زكاة عشرة أرطال ، فمن أي شيء هذا ؟ إلا من ظلمهم ، فإن الله سبحانه لم يطرح حجرة على بعرة ، وستر الله جميل ، ولكن من لا عرف نفسه ما يعرفه أحد** » ، أو كما قال هـ .

أقُولُ : قوله : « **جلسنا لهم مجالس .. إلخ** » ، دلَّ قوله هذا أن مجالسه كلها التي يُقرأ عليه فيها وغيرها ، أنها أراد بها دعوة الناس إلى الله عند اجتماعهم ، وإرشادهم إلى ما فيه صلاحهم وانتفاعهم في الدنيا والآخرة ، وإنه مع ذلك ما حصل له من أهل الزمان ما أراد ، من غاية إقبالهم على الله وعلى الدار الآخرة ، وإعراضهم عن الدنيا .

وأنّى يحصل ذلك منهم مع شدة ميل قلوبهم إليها ، ومع هذا فلا أيس منهم ويطمع فيهم ، كما دل عليه قوله : « **إلا إن كان بالعناية** » ، يعني فهو يترجى بها لمن سبق له بها شيء لمَّا أن الأسباب ما أثرت

معهم ، مع معاملته لهم بها ، والمعنى : فلما رأيناها لم تؤثر ، قطعنا الطمع في صلاحهم من جانبها ، وما بقي لنا فيهم طمع إلا من جانب العناية ، فربما أحد له نصيب من ربه مقسوم لم يرتب على الأسباب ، مؤقت بوقت يكون في وقته إذا حضر .

فالعمدة اليوم إنما هو على ذلك في من تريد له الهداية والصلاح ، لمن ترغب له في ذلك ممن أحببت من أولاد وغيرهم ، فهذه كلمة عظيمة جامعة ، وهي من جوامع كلمه - أعني قوله : « **وما معنى ومعهم شيء إلا إن كان بالعناية** » - وفيها تسلية عجيبة وشاهد واضح ، أن الأسباب اليوم قد قصرت عن تحصيل مسبباتها وإن المطالب لذلك قد أكدت ، إلا بعناية رب العالمين في من أراد له ذلك ، وإنه مع ذلك لا يجوز ترك أسباب الخير أو ارتكاب أسباب الشر ، والإنتظار والإعتماد على المقادير دون الأسباب ، بل يستوفيها ، ثم يعتمد بقلبه على المقادير دونها .

وهذا معنى قوله كما سيأتي من قوله : « **ما يحيل على المقادير إلا العاجز ، فاعطِ الأمور حقها أولاً، فإذا أعجزتك فحينئذ كِلْها إلى المقادير** .. » ، إلى آخر المقالة ، أي اعْمَلْ الأسباب أولاً ، فإذا لم تفِدْك فاعتمد على المقادير ، فأفهم هذا أنه لا يَكِلْها إليها إلا بعد استيفاء أسباب الخير وتجنُّب أسباب الشر ، فإذا لم يؤثر ذلك تَرَكَها على المقادير ، واعتَمَدَ ما دبره الله في ملكه وأراده لعبده ، من جلب خير أو وقاية شر ، بسبب وبلا سبب فيما يظهر ، وكثيراً ما يوصي سيدنا من حضر بقول : « **لا تقل : ما في الناس خير، أو : ما في فلان خير ، بل قل : ما في الناس إلا خير ، أو : ما في فلان إلا خير ، فإن هذا يؤدي المعنى الذي أردت ، وتسلم بذلك من ذم المسلمين أو المسلم ، فإن معهم كلمة لا إله إلا الله محمد رسول الله، وهي الخير كله فافهم** » .

وهذا الحال عليه العمل قديماً وحديثاً - أعني استيفاء الأسباب أولاً ، ثم الإعتماد على المقادير مع ذلك لا بدونها - ولكن في القديم يظهر نفع الأسباب وأثرها في الحال ، لصلاح تلك الأوقات وصلاح أهلها ، لخصوصيات أرادها الله فيهم ، وحضر وقتها ، وهي العناية المذكورة . وهؤلاء لفساد الحال منهم ، ربما أحد لا خصوصية له ، وذلك أراده الله لهم ، أو لم يحضر وقتها إن أراد لأحد شيئاً ، كما تَرَجَّاه سيدنا فيهم ، فإن الأمور موقوفة على إرادة الله سبحانه ، عطاءً وحرماناً ، لا راد لما أعطى ولا معطي لما منع .

ومعنى حكاية السارق التي مَثَّل بها نفسه في تحصيله ما طلب من أهل الزمان من الإقبال على الله، وكونه مستبعداً منهم في الإستشهاد للمعنى المذكورة معه : أن أهل الزمان خَلِيُّون من أمور الدين، كخُلُوِّ أولئك من أمور الدنيا ، وهذا جَرْيٌ على الغالب ، وأن الذي يقصدهم وتهجم عليهم طالباً لذلك منهم لا يحصله ولا يجد له منهم أثر ، وأن الطامع في ذلك منهم طامع في غير مطمع ، وكطالبِ

أمراً محالاً وهو في ذَمَامته ، ورجاه الخير من غير أهله ، كالسارق الذي يدخل بيوت الناس ليلاً بخفية إلى محل خلي من الخير ليسرق ، فلا جرم لا يحصل له ما أراد ، هذا في باديء الرأي لتعذر الأسباب اليوم عن تحصيل مسبباتها ، ولكن القدرة والإرادة من الله سبحانه يعملان عملهما ، وإن أكدت الأسباب ، وهو معنى قوله : « **إلا إن كان بالعناية** » ، فكل أمر إنما هو بالقضاء والقدر والنصيب المكتوب ، وكل أحد ساعٍ قُدُماً إلى ما كُتِب لها ، وكل أحد متخلف قُدُماً عن ما لم يقدر له ، ومراد سيدنا بحصوله منهم، أن يلقى إلى أحدهم الكلمة البالغة من العلم النافع ، فينجذب بها وينخلع قلبه عن الدنيا ، وتعزف نفسه عنها ، ويتجرد ظاهره وباطنه لله ، ويُقبل على الله بقلبه وجسمه ، ويصير كما وصف في رسالة المريد من شأن المريد الصادق .

وهذا شأن كلام الحال ، من قهره السامع على العمل بما سمع ، كما ذكر عن من سمع كلام الشيخ عبدالقادر في وعظه ، أنه قد مات ألوف من الخوف ، وتاب ألوف ، وأسلم ألوف من اليهود والنصارى ، ومن كلام غيره ، ولكن كان أثر كلام الحال في الأزمنة المباركة المتقدمة ، النابتة لحوم أهلها على أكل الحلال ، بخلاف أهل هذا الزمان ، النابتة لحومهم على الحرام والشُّبَه ، فأنَّى للحمِ كانت النار أولى به أن يتنبه صاحبه للخير عند سماع كلام أهل الخير ؟ فلذلك لم يؤثر فيهم كلام الحال ، وهو كلام سيدنا عبدالله .

وتقدَّم وصف كلام الحال ، والفرق بينه وبين كلام المقال ، وتأثير كلام الحال قل ما يوجد اليوم، وكثيراً ما يوجد في الأوقات المتقدمة ، بسبب أن طعمة أولئك أصلح من طعمة هؤلاء ، فغلبة أكل الحلال في الأزمنة المتقدمة ، وقلته أو عدمه عند هؤلاء ، على أن حلال أولئك ما علم أصله ، وحلال هؤلاء ما جهل أصله . معنى علم أصل طعام أولئك أنه على وجه مسوغ في الشرع ، وجهل طعام هؤلاء ، ولو أنه على غير وجه مسوغٍ ، ففرق كبير وبون بعيد بين الحلالين ، وذلك لصلاح زمان أولئك لغلبة أكل الحلال عليهم . وتأثر القلب بسماع ذلك الكلام ، هي النفحات التي تقع في بعض الأوقات المأمور بالتعرض لها في حديث : « إن لربكم في أيام دهركم لنفحات ، ألا فتعرضوا لها » ، والأمر بالتعرض حث منه ﷺ على دوام مراقبة الله في الأوقات وأن لا يغفل عنها ، وهذا المعنى هو المضروب له المثل بهذه الحكاية ، حكاية السارق فافهم .

وقوله : « **إن الله سبحانه لم يطرح حجرة على بعرة** » ، هذا مثل يضرب في لغة أهل حضرموت ، معناه أن الله لم يترك الأمور سدىً ، بل لا بد ما يجازي كُلاً بعمله المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ، فلا بد إذاً أن ينتقم الله ممن عصاه ، ويعاقبه بما يستحق من العقوبة .

ودخل عليه بعض السادة يوم ثامن في النطح ، فقال : « في الوقت بُريد وفيه فائدة ، ولو لم يكن من فائدته إلا أنه يذكرك نعماً تحصل ، وقد كنت فيها . والفكر أفضل الأعمال ، وما محل الفكر إلا الدنيا ، وأما الآخرة فلا محل له ، وإن وُجِدَ فيها فما هو إلا حسرات كما حكى الله عنهم : ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾ ، لأنهم ضيَّعوا الفكر في وقته . والقرآن فيه كل شيء ، إلا أنه ما يعقله إلا العالمون ، وعهدة بيانه إلى النبي ﷺ على الإجمال ، وتفصيله إلى العلماء وهو الإستنباط . وش بَيَّنه للناس هذا البيان ؟ لأن الإستنباط ليس كالوحي ، والإنسان مأمور بالتفرغ للدينيات ، ويصطفي منها ما هو الأحسن ، لأن أمور الدين مختلطة تُستخلص بالفكر ، والأمور ما بغت إلا هِمَّة وفكر وفراغ ، وما قال تعالى : ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾﴾، إلا أن الله سبحانه أمرهم بأشياء ، وطلب منهم أن يتفرغوا لها، فلما لم يتفرغوا ، كافأهم الله بما يناسب حالهم - أو قال : مثل عملهم - » .

قوله : « وتفصيله إلى العلماء » ، أي تفصيل ما بَيَّنَه النبي ﷺ ، وتفصيلهم يسمى الإستنباط ، لقوله تعالى : ﴿ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾.

وبَيْن قوله : « الإستنباط .. » ، وبين قوله : « وش بَيَّنه .. » ، سَقَطَ بعض الكلام ، نسيه الناقل حال نقله ، ولعله : « الإستنباط ، الإستخراج بالفكر الصافي » ، والله أعلم .

وذَكَر ما يُتعارف بين الناس في لغاتهم وعوائدهم ، مما لا مخالفة فيه للشرع ، فقال : « اعمل على الأمر المعتاد بين الناس ، ولا تشذ عنهم حتى يتبين لك بطلانه ، فحينئذ فاتبع الحق ولا تشذ ، فإن من شذ شذ إلى النار ، لأنك ما عندك علم يعول عليه ، ومثل هذا يحتاج إلى علم . وأهل الجهة قِدْمُهُم مؤدَّبين في عقائدهم ، فقد كان فيهم علماء ، والعلم فيهم ظاهر ، ألا ترى العامي يقول لخصمه : حسيبك الله، والله مطلع عليك ، والنصيف الله منك ، ونحو ذلك ؟ فهذا هو الإعتقاد ، فيكتفى منهم بما اكتفى به النبي ﷺ من العامة وأجلاف العرب ، فلا تذكر لهم البرهان وكلام أهل الكلام ، فإن ذلك يشككهم .

وأين الناس اليوم ؟ فإنهم موتى ، لو جَرّيت برجل أحدهم ما علم ، فلا تخض مع الناس في أمور الإعتقاد وأمور الآخرة إلا فيما يوجب الخوف وتأكيد الإعتقاد » .

قال رضي الله عنه : « ما يحيل على المقادير إلا العاجز ، فاعط الأمور حقها أولاً ، فإذا أعجزتك فحينئذ كِلْها إلى المقادير ، فلو أعطى الأشياء حقها ، وساعدته بها المقادير ، وقام فيها على الوجه المطلوب ، كان محمود الحال إلى آخر الزمان . وأسباب الرجاء في الله ، الناس ألا يعرفون طرقها ، ما هو إنهم ما يعرفونها » هـ .

أقول : هذا إنكار منه على من يترك أسباب الخير فيفوت عليه ، أو يرتكب أسباب الشر فيقع به ، ثم يحتج ويقول : إنما الأشياء بيد الله ، وما يكون إلا ما أراد الله . فنعم ذلك كذلك ، وقوله مسموع وله به حُجَّة ، إذا كان على الحق ومتبع للحق ، وحاله محمود وكلامه على وجهه ، فإن كان مخالفاً للحق فكلامه ذلك يكون حقًّا أراد به باطلاً ، ولا حجة له به ، وحُجَّته داحضة ومنقلبة عليه ، ويكون مذموم الحال ، وهو محتج لنفسه بالباطل .

انظر قول الكفار فيما حكى الله عنهم : ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾، وقال الله : ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكُواْۗ﴾، ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًا﴾، ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَأٓتَيۡنَا كُلَّ نَفۡسٍ هُدَىٰهَا﴾، ولكن لما قالوا ذلك وهم على خلاف الحق أكذبهم الله ، وأبطل حُجَّتهم ، وردَّ الحُجَّة عليهم ، وقال ردًّا عليهم : ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ ١٤٨ قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُۖ فَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ١٤٩﴾ ، وكل هذه الآيات مُصَحِّحَة مُحَقِّقَة للمعنى من المؤمنين ، ومُكَذِّبة ومُبْطِلَة لمقصد الكافرين ، فيتبين بهذا أن من احتجَّ بحُجَّة شرعية وهو تابع للشرع أن حُجَّته قائمة ثابتة ، ومن كان غير تابع للشرع ، إذا احتجَّ بالحُجَّة الشرعية أن الحُجَّة عليه قائمة ، ولا حُجَّة له في ما احتجَّ به ، ولا عذر له بذلك عند الله ولا عند خلقه ، لا حقيقة ولا شريعة . أفهم قوله : ﴿تَخۡرُصُونَ﴾، أي تقولون ما لا تعلمون ولا تعتقدون ، وحُجَّتكم بذلك لذلك باطلة ، بخلاف المؤمنين المعتقدين ذلك ، فإنهم صادقون فيما قالوا واعتقدوا، فحُجَّتهم به صحيحة قائمة ، فافهم ذلك فإنه كما قال : « **تُستخرج أمور الديانات بالفكر الصافي** » .

قال ابن أبي جمرة : « إذا خاطبك أحد بالشريعة فخاطِبْه بالشريعة ، وإن خاطبك بالحقيقة فخاطِبْه بالحقيقة ، هذا هو الحق والصواب ، فأما إذا خاطبك بالشريعة فخاطبته بالحقيقة ، فإنما هو جدال لا فائدة فيه ، ومع ذلك تخصم صاحبك ، ولكن ليس لك في ذلك حُجَّة ، ذَكَره في حديث دخول النبي ﷺ على علي وفاطمة ليلاً ، وقال لهم : ألا قمتم تصلون ؟ ولامَهم أن لا كانوا قاموا يصلون، فقال سيدنا علي : يا رسول الله ، إنما نفوسنا بيد الله ، فإذا أراد يبعثها بعثها . فرجع عليه السلام ولم يرد له جواباً ، وجعل يضرب بكفيه على فخذيه ويقول : ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا﴾ » ، يعني أنه طلب منهما أمر شريعة ، فأجابه بجواب حقيقة ، من كون نفوسهم بيد الله ، وهو حق ومن

باب الحقيقة ، ولكن فاتهم قيام الليل حيث لم يصليا فيه ، ولا أعاضهم شيء عنه يقوم لهم مقامه، ورسول الله ﷺ أعلم بأمر الحقيقة منهم ، ولكن تغمض عليهم من وفاته عليهم ، ولكنه لما عرف أنه حق من باب الحقيقة لم يرد لهم كلاماً ، ولا خاطبهم بجواب ، وذَكَر أن ذلك مجرد جدال ، لقوله : ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾.

فانظر كيف لم يَقْبَل النبي منهم الإعتذار بالحقيقة في تفويت أمر مطلوب للشريعة . فافهم منه المعنى المتقدِّم عند ذِكْر مجادلة الكفار ، فإن الأمر الذي طلبه منهم ، هو سبب من أسباب الخير ، لا يعذر الإنسان في تفويته ، وإن شمله القضاء والقدر الحقيقي - أي شمل فواته - على ما احتجَّ به سيدنا عمر لأبي عبيدة ، وشملته مقالة سيدنا : « **الخلق مكلوفون..** » ، إلى آخرها .

وهذا السبب المذكور هو من أسباب الخير والرجاء الذي أراد سيدنا بقوله هنا : « **وأسباب الرجاء في الله ، الناس ألا يعرفون طرقها ، ما هي إنهم ما يعرفونها** » ، وهي ارتكاب أسباب الخير مع ترك أسباب الشر ، ليس على ما يقول المغترُّون المدَّعون الرجاء ، بترك أسباب الخير أو مع ارتكاب أسباب الشر كذباً وغروراً وأماني باطلة ، ولو ارتكب أسباب الخير وحصل له الخير كان أيضاً بقضاء الله وقدره ، الذي احتج به المغبون المفوِّت للخير بترك سببه . وتبين في هذا معنى المثل الذي ضربه سيدنا عمر لأبي عبيدة رضي الله عنهما ، في الوادي الذي له عَدْوتان ، خصبة وجدبة .

فافهم من هذين عموم القضاء والقدر في محصول الخير ومحصول الشر معاً ، فإن بذلك خلق الجنة وما وعدت به من ملئها ، وبه خلقت النار وما وعدت به من ملئها ، مع تضادد حاليهما وأحوال أهليهما، وفي خير الدارين وشرهما وكل شيء غيرهما هـ .

قال رضي الله عنه : « **اليوم ما يذوق بالفضائل إلا من هو من أهلها ، أو قريب من أهلها ، أعني الفضائل الظاهرة ، خلِّ الفضائل الباطنة ، فما فيها خوض ، والأشياء ألا بالحظوظ . حتى إن رجلاً من أهل الكشف ذَكَره الشعراوي اسمه الفرغل ، وهو عامي لم يقرأ ، فسمع قارئاً يقرأ ، فبعد ساعة قال له : غلطتَ ، قال : وما علمك ؟ قال : كان يخرج من فيك نور ، ثم بعد لم أره يخرج . فنظر ، فإذا هو قد انتقل من مقرأ إلى مقرأ . وهذه أمور السماع ما يذوق بها إلا من يعرف ، إن ما ذاق بالصوت ذاق بالمعنى** » هـ .

أقول : مراده بالفضائل الظاهرة : مباني الإسلام الخمسة وتوابعها من جنسها من النوافل .

ومعنى : « **يذوق بها** » ، أي يحس ويذوق في تعاطيها لذة ، وذلك بحسب كماله في إقامته بها ،

وبحسب ما قسم له من ذلك ، وهو معنى قوله : « **الأشياء بالحظوظ** » ، أي بالنصيب المكتوب لكل أحد ، وأهلها الكامل فيها بقسمه والقريب منه من له نصيب دونه ، وهذه هي « **الفضائل الباطنة** » .

وذَكَر بامخرمة ، *فقال* : « **في كلامه حِكَم ، ولو هو على هيئة كلام العامة ، فإنه عالم صوفي صاحب رياضة ، ما هو بصوفي جاهل** » .

قلت : هل كان في عسكر فلان الكثيري لما دخل تريم ؟ ، *قال* : « **نعم ، وقد قيل له في ذلك ، فقال: ما تبعته ، إنما تبعت السعد وهو معه . كما إن الشيخ عبدالرحمن** - أي السقاف - **كان من حيث الغيب في عسكر فلان الكثيري لما دخل شبام ، حتى قال الشيخ معروف باعباد لبعض جماعته : انظر من معه من الصالحين ، فنظر فقال معه : الشيخ عبدالرحمن . فأهل الباطن لهم أحوال تُعرف من قصة الخضر فاستمد منها** » هـ .

أقول : يعني تقع منهم أمور ظاهرها الإنكار ، وباطنها الإعذار ، كما أنكر سيدنا موسى على الخضر أولاً ، ثم تبيَّن له الأمر آخراً ، ثم قال له : ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِىۚ﴾، يعني إنما هو عن أمر الله ، فأباح له ما فعل الذي أنكره عليه سيدنا موسى ، ليريه أن من وراء علمه لله علماً ، في أحد من خلقه غيره ، حيث أنه لما سئل : « **هل على وجه الأرض أحد أعلم منك ؟** » ، فقال : « **لا** » . فعتب الله عليه، حيث لم يرد العلم إليه ، كان ينبغي أن يقول : « **الله أعلم** » ، لكنه أخذ بظاهر الحال ، وهو أنه رسول الله إلى أهل وقته ، ولم يكن في المرسل إليهم أعلم من المرسول إليهم .

قال رضي الله عنه : « **ينبغي أن يتبحر في فن من العلوم ، حتى يُنسب إليه ويُعرف به ، قال سيدنا علي: من أَكْثَرَ من شيء عُرِفَ به . ويتطرف في البقية من كل فن - أي يأخذ من كل فن طرفاً - ويأخذ مجامعها وجملتها ، حتى إذا سئل عن شيء فإذا هو معه فيه معرفة ، ولا يكون جاهلاً . ولهذا صنف الإمام السيوطي النقاية وشرحها ، وإذا حفظ علماً حفظ جميع العلوم المتعلقة به ، بحيث إذا اقتصدتَ واقتصرتَ فيه كنتَ فيها كذلك مقتصداً ومقتصراً .**

وقاعدة : من كان عارفاً بعلم ومتحقِّقاً فيه ، إذا سمع من يتكلم في ذلك العلم الذي يحسنه ، ينبغي له أن يسكت ولا يتكلم فيُظهر نفسه ، فإذا تكلم فإن ذلك يُعَدُّ منه سخافة ، وكثير ممن معه باب أو عشر مسائل يتكلم مع كل من سمعه يتكلم في شيء من المذاكرة ، وخير لك أن تحسن عشر مسائل وتتقنها، خير من أن تقرأ كتاباً تاماً لا تتقنه . وقد جاءنا رجل وكان يغلب عليه السكوت ، لا يتكلم ، مع أنه

يسمع المذاكرات فلا عُرِف ، فإذا هو يدرس في المذاهب الأربعة » .

وتكلم يوم الإثنين ٢٦ شوال سنة ١١٢٨ في رؤية الشهر ، وأطال في ذلك ، حتى قال : « هذا زمان شُبَه ، ينبغي الإحتياط فيها ، وقد قالوا : لا ينبغي للعالم أن ينظر مع اشتباه الأمور بين الخير والشر ، فإن هذا واضح كُلٌّ يعرفه ، ولكن لينظر بين خير الخيرين وشر الشرين ، فيأخذ بالخير من الخيرين إذا استبانت ، ويترك الشر من الشرين إذا اشتبهت . كمن أراد أن يضربك بعصا أو سكين ، فإن كان ولا بد فالعصا أخف الأمرين ، وكمن يريدك تركّبه معك وهو عاجز عن المشي وأنت قادر ، فإن نزلتَ وأركَبْتَه فهو الخير من الخيرين . ونحن هذا حالنا في هذا الزمان ، وهو من قواعد الدين ، وهو مأخوذ عن السلف كالإمام مالك بن أنس وأمثاله رضي الله عنهم ، ومن لا يعرف ذلك فهو جاهل ، وإن ظن مع ذلك في نفسه أنه عالم فجاهلٌ جهلاً مُرَكَّباً ، كمن يظن في نفسه أنه كريم وهو بخيل ، فهو الجهل المركب » هـ .

أقول : لأن الجاهل جهلاً مُرَكَّباً هو الجاهل الذي لا يعرف أنه جاهل ، ويظن مع ذلك بنفسه العلم، فتركَّبَ فيه جهلان ، أحدهما كونه جاهلاً ، والآخر جهله بأنه جاهل ، ويرى مع ذلك في نفسه أنه عالم .

واستخلف منه بعض السادة يريد السفر ، فقال له : « آل باعلوي ما هم ألا بالمسابيح والأوراد ، وما هذه - أي التسبب - إلا حق الضرورة الذي لا بد منه ، ومن خرج عن طريقة أهله صار مثيل الغراب ، أعجبه مشي القطاة ، فأراد أن يمشي مثلها فلم يحسن ، ثم رجع إلى مشيته فلم يعرفها ونسيها، وما يحسن بالإنسان إلا طريق أهله » .

فقال ذلك السيد : « قد بَعُدْنا منها » ، قال : « ما زلتَ قريباً منها ، فأنت عليها ، ومن تركها بالكُلِّية فهو الخارج منها ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾، وما على الإنسان أن يحفظ إلا دينه وطريقته ، والطريقة ما هي ألّا القراءة والتسبيح والصلاة الجائزة ، ما هو إذا نزل المنزل غفل وسها ، وجعل يهذي ، ويصلي صلاة غير جائزة ، أو أخرجها عن وقتها . وأَعِدَّ يس لكل مهم ، وفيها سر عظيم، وعليها مدار كبير ، حتى على ألسنة الناس » .

ومرة قال : « حتى إنه إذا سقط أحد أو زلَّت رجله ، قالوا له : يس عليك - أي يحصنونه بها - والسادة آل باعلوي ما يحسنون يربون الجاه ، لأن أصلهم الفقر والمسكنة ، وأهل الجهة لا يعرفون أمور الجاه ، وإن حصل شيء منه أتلفوه ، والجاه ما يكون إلا على جماعة مقتربة ، فإن كان على بلدان ، فما هو

إلا ولاية ، ما يقوم بها إلا ولاة الأمور ، والأمور اليوم انفلتت عن قواعدها المعتادة ، فالجاه بغى عرف، والمال بغى عرف ، فإن فات العرف فاتت الأمور . وقاعدة : أوائل الأمور تكون سهلة ، ثم يكون الإشكال في أوساطها ، كالبحر ، أول ما تدخله يصل إلى الكعب ، ثم إلى الركبة ثم إلى الوسط ، ثم تحتاج بعد ذلك إلى السنبوق ، ثم إلى المركب الكبير إذا توسطت فيه الغبة ، والغريق لا ينجِّي الغريق ، فإن طلب منه أن ينجيه راح هو وإياه » .

قيل : « فعسى ببركاتكم تتيسَّر الأمور » ، *فقال* : « لَهْ - كذا في لغة أهل حضرموت يلحقون الهاء بلا النافية - فبركات الفقيه خير ، وذاك مع انتظام الأمور ، وأما حكاية من يقول : أنا أمير وأنت أمير، فمن يرعى الحمير ؟ ولو كُنَّا في صنعاء - أي في مكان بعيد - ما زدناهم على هذا ، والإستعجال ما يحسن ، ومن في نفسه شيء ينبغي أن يطويه ، ومن كذب في شيء لغير غرض فأحرى أن يكذب إذا كان له غرض ، وإن الله لينتقم بالظالم من الظالم ، ثم يرجع ينتقم منهما اثنيهما ، كما قال الشيخ عمر بن أحمد: هي تقع ألَّا ما بين عاجل وآجل . فقد كان آل باغوث خيراً من هؤلاء بكثير ، ولا فعلوا عُشر فعلهم ، فجعلهم الله عبرة ، حتى صاروا طُلَباء يطلبون على الأبواب ، ولا أحد يرثى لهم ، والعقوبة ما شرطها أن تقع على يد من تسلط ، ولا بد من تسلط بسببه ، ولكن يكون ذلك لا محالة على يده أو على يد غيره. ونحن ما بيننا وبين آل فلان وحشة - أي النقيب - حتى في كلمة واحدة ، وما نسير معهم إلا على ما يريدون ، ونخليهم وما أرادوا ، ولكن طريقهم إلى النار ، حتى إذا كتبنا لهم نكتب فلان الفاعل التارك، وليس طريقنا الهتك والعنف ، وإنما طريقنا الرفق واللطف ، وما سلكنا مع أهل الزمان إلا بالرفق واللطف ، لا بالشدة والعنف ، وإلا لكنا خرجنا من بيوتنا بسبب ضيقنا منهم لا بسببهم » هـ .

أقول : وذَكَر مرة باغوث وأفعاله ، *فقال* : « كان السيد عمر بن أحمد خارجاً ليلة من التربة داعياً على باغوث ، وكان استبطأ إجابة دعوته عليه بسبب كثرة أذاه له ، فسمع هاتفاً يقول : عادها تقع ، ألا ما بين عاجل وآجل - يعني الدعوة - ، فمرة أخرى خرج من التربة داعياً عليه ، وكان باغوث ينزح من بئر الحصن يسقي فرسه ، فسمعه وهو ينزح ، وإذ بالحبل قد انفلت من يده وسقط مع الدلو في البئر، وصرخ صرخة شديدة بأعلى صوته يقول : آه ، قد أصابتني دعوة عمر بن أحمد . وأصابته الأكلة في يده، ثم عن قليل هلك ، وذلوا جماعته بعده ، وصاروا طُلَباء » .

وذَكَر من جملة أذاه له : أنه قطع ساقية نخله لما جرى بها السيل إلى نخل السيد ووجَّهه إلى نخله ، ولما أهلكه الله قيل للسيد عمر : « وَجِّه الماء إلى نخلك » ، فأبى وتركه . ومن أذاه له أن عنده في الحاوي مزرع قضب ، فكان ذلك الظالم يوجِّه بعيره في الليل مراراً كثيرة على قضب السيد ، فيخبره الخادم بذلك ، فيقول : « اصبر واطرده عنه » ، فكان ذلك منه مراراً كثيرة ، حتى جاء يوماً متغيظاً جدًّا، وأخبر

السيد بذلك ، فقال له : « إن رأيت البعير في القضب ، فوجِّهْه إلى شرق وانفخ في دُبُره » ، ففعل ذلك، ففُقِد البعير وما وُجِد بعد ذلك ﻫ .

قال سيدنا : « **وسمعنا عن إمرأة من جدَّاتنا عن أبيها ، وكانت حضرت وفاته ، وكان من أهل الكشف ، قالت : وكان يُغمى عليه عند موته ، فأفاق ذات مرة وقال : عادكم تقولون : يا حَيًّا دولة الكثيري . وكان قد حصل إذ ذاك في دولتهم خبطة لما وقع بينهم وبين بني ظنّة** » ، أو كما قال ﻫ .

أقول : أظن والله أعلم ، أن جدَّته هذه التي ذَكَرها ، هي الحبابة سلمى بنت السيد عمر المنفر المتقدِّم ذِكْره ، وهو القائل – أي السيد عمر – عند موته هذه الكلمة : « عادكم تقولون .. إلخ » ، والكلمة الأولى وهي قوله : « هي تقع .. إلخ » .

وسلمى المذكورة أم والد سيدنا عبدالله – علوي بن محمد الحداد – وكانت وارثة سر أبيها ، وهي من كبار الأولياء ، وهي التي ربَّتْ سيدنا عبدالله وحَلَّ عليه نظرُها ﻫ .

قال رضي الله عنه : « **وحكاية هؤلاء في الجهة مثل حكاية بخت نصر في بيت المقدس مع بني إسرائيل، إلا كل شيء على قدره من حيث الزمان والمكان والناس ، وإن كان الأمور لا بد فيها من التقدير ، فلما حصلت منهم تقصيرات وذنوب حصلت لهم العقوبات . وإن كان أولئك كفاراً ، وفي تلك الأرض أولاد الأنبياء ، فهؤلاء يقولون : لا إله إلا الله بألسنتهم ، وقلوبهم خلية منها ، وبين أظهرهم الأشراف، وأولئك قد جاسوا خلال الديار ، فكذلك هؤلاء ، بل نزلوا في الديار فزادوا عليهم بهذه** » ، ثم أنشد هذا البيت :

أتيأَسُ أَنْ تَرَى فَرَجاً ۝ فَأَيْـنَ اللهُ وَالقَـدَرُ

« **والدنيا كلها نقص ، ولكن قد ينقص في بعض الزمان الدين والدنيا . فانظر كيف صار أهل البدعة من الزيدية وأهل عمان – أي من الخوارج – في هذا الوقت خيراً من أهل السنة – أي في الأمان وقلة الظلم – لما في أرضهم من الأمان ، وشفقتهم على الرعية ، فأجِل ذهنك هل ترى اليوم أظلم ولا أجور ولا أزعل من حضرموت ؟ ولا عاد نقول إلا خير ، فإن هذه الأخبار قد سارت بها الركبان ، وانتشرت في كل البلاد ، فلا عاد تصيح إلا إلى ربك ، فقم له في آخر الليل ولا تنام ، ولا عاد تنفع الشكوى من ظالم إلى ظالم ، فتراك إذا اشتكيت إليه جعل يستهزيء بك ولا يبالي بك ، وهذه أمور لو رآها الإنسان في النوم استبعدها جداً ، ولو فُعِل من قِبَل هؤلاء بعضها لانقلبت عليهم البلاد .**

فكيف ناس من ضَعْفهم لا يعرفون الدراهم ، يُدَفِّعونهم قروشاً ، لكن عسى رحمة من الله ، لا تيأس من الله ، ما هو ألا إذا جاءك ما يسخطك من الخلق ، فافعل ما يرضي الله ، وابقوا على فقركم وهِجْرتكم ، حتى إن راح قليل من الدنيا ؛ بقي الدين سالماً » . أو كما قال ه .

أقول : هكذا في بعض الأوقات إذا طال به المجلس بعد فراغ الدرس ، وفي وقت سعة ، ومعه بعض شجن من أحوال الناس ، بأن كان عليهم جور من الدولة أو أمر يضر بهم .

هكذا يتكلم في أحوالهم ويمتد به الكلام وينسهب إلى أن يقوم من مجلسه ، ثم يختم بالفاتحة ، فننقله بحروفه بما اشتمل عليه من المعاني والعلوم والأمثلة والأشعار والحكايات والإشارات ، واللبيب يفهم المعنى والمراد ، ويَفهَم منهُ أموراً على حسب ذوقه ، رضي الله عنه ونفعنا به ، وجعلنا من مجالسيه في الدنيا والآخرة .

قوله : « **حكاية هؤلاء ..** » ، إلى آخر المقالة ، يشير به إلى فظيع ظلم دولة الجهة وغشم عسكر يافع ومنكراتهم .

وقوله : « **يقولون : لا إله إلا الله ، وقلوبهم خلية منها** » ، أي غير صادقين ولا مخلصين في قولها، حيث عطلوا أحكامها من الصلاة والزكاة ، لما ورد أن إخلاصها أن تحجزك عن محارم الله ، وإذا لم ينته عن المحارم وتعطيل الأحكام ؛ فما أخلصها ، وصار قوله لها كقول المنافقين لها ، فما نفعهم ذلك مع عدم ذلك الشرط ، حتى صاروا في الدرك الأسفل من النار ، أسفل من المشركين ، لمخادعتهم الله ورسوله . وأنشد ذلك البيت : « **أتيأس أن ترى فرجاً .. إلخ** » ، فكثيراً ما أسمعه ينشده في هذا المعنى وفي غيره غير مرة ، وربما كرر شطره الأخير فقط : « **فأين اللهُ والقدرُ** » ، مراراً متعددة في أوقات كثيرة، في أزمنة متطاولة . ولم أسمعه يذكر مع هذا البيت سواه من بقية الأبيات مما قبله أو بعده ، وكنت أرغب في تمامها ، ولا جسرت أن أسأله عنها ، فرأيته في بلد الأحساء في جملة أبيات وهي هذه :

يَا مَنْ أَلَحَّ عَلَيْهِ الهَمُّ وَالفِكَرُ ... وَغَيَّرَتْ حَالَهُ الأَيَّامُ وَالغِيَرُ

أَمَا سَمِعْتَ بِمَا قَدْ قِيلَ فِي مَثَلٍ ... عِنْدَ الإِيَاسِ فَأَيْنَ اللهُ وَالقَدَرُ

خَلِّ الخُطُوبَ إِذَا أَحْدَاثُهَا طَرَقَتْ ... وَاصْبِرْ فَقَدْ فَازَ أَقْوَامٌ بِمَا صَبَرُوا

فَكُلُّ ضِيقٍ سَتَأْتِي بَعْدَهُ سَعَةٌ ... وَكُلُّ فَوتٍ سَيَأْتِي بَعْدَهُ الظَّفَرُ

وما رأيتها منسوبة لأحد ه .

قال رضي الله عنه : « اعمل لله خالصاً لا لشيء آخر ، ثم إن أعطاك بعد ذلك شيئاً ؛ فهو من باب الفضل والمنة ، ولا يسع أمور الآخرة إلا هذا ، ومن خالفه ممن قال من أهل الشطح : بنقصِ مَن عَمِل رَجَاء الجنة أو خوف النار . ونَقَله الناس عنهم ، وسموهم لذلك زنادقة ، لأن هذا مذهب الزنادقة، وكلما كثر الشطح كثر الإعتراض ، والإخلاص ما يتبين إلا بالإمتحان ، ولو هو يسمع الكتب وما يُذكر فيها ، فإن الهوى لا يذهب ، إنما هو مختفي كاللص ولا يموت ، وإن اختفى قليلاً فما تحس به إلا وقد ظهر عند مقتضاه . انظر قصة الذي دعته نفسه إلى الجهاد ، فخالفها حتى تبين له أن موجب داعيتها أن يموت قتيلاً في الجهاد ، فيتحدث الناس أنه استشهد . ما هو إلا كن لربك على نفسك ، حتى يكون لك ، ولا تكن لنفسك فلا يكون لك . وقد دخل الرياء وغلب الهوى على الناس حتى في العبادات » ، أي كما ترى حالنا حينئذٍ هـ .

أقول : انظر إلى عجيب تعليم سيدنا هذا الأدب العجيب لمن وفقه الله لمعرفته والعمل به ممن سمعه، فإنه أدب عظيم في معاملة العبد لربه . بينه وبينه ، في عبادته وقيامه بأوامر الله ، والإجتهاد في خدمته ، بأن يعمل جميع ذلك امتثالاً لأمر ربه ، وقياماً بحقه ونصيحته في عبوديته ، ثم مع ذلك قلبه طافحاً برجاء مولاه ، وطامعاً في فضله وعطاه ، لا لمكان طاعته له ، وقيامه بحقه . وإنما يكون على الحال الأكمل في العبودية ، من طمع العبد ورجاه لمولاه ، ولا يكون خالياً من ذلك ، فإن خلوه من ذلك مذهب الزنادقة ، الذين لا يرجون ربهم ولا يطمعون في فضله ، ولو عَبَدوا مع ذلك ، فعبادتهم مدخولة وجديرة بالرد ، وأن لا يقبلها الله .

وأكابر الأولياء لما تجردت أعمالهم ونياتهم في ظاهرهم وباطنهم لمجرد الإمتثال وقلوبهم ملآنة من الرجاء والطمع في فضل ربهم ، وتكلموا في ذم من عمل لمجرد الطمع دون الإمتثال ، كان ذلك فيه تلبيس على العوام ، فعدم فهمهم المعنى المقصود فَعُدَّ ذلك شطحاً ، يعني يُفهم منه ظاهراً خلاف المقصود في الباطن ، فافهم المعنى لا يلتبس عليك ، وذلك هو مراد سيدنا .

وقوله : « لا يسع أمور الآخرة إلا هذا » ، يعني لا يكون العمل نافعاً في الآخرة إلا إن كان على هذا الوجه المذكور ، بأن يكون باعثه على العمل الإمتثال ، مع امتلاء القلب بالرجاء في فضل مولاه ، لا مجرداً عن الرجاء ، ولا الرجاء مجرداً عن العمل ، فإن الذي يعمل لمجرد ما جرت عليه العادة ، على ما يرى الناس يعملون ، خالياً عن الأمرين معاً : الإمتثال والرجاء ، فهذا غير متعبد ، بل كما يفعل المنافق .

قوله : « والإخلاص ما يتبين إلا بالإمتحان » ، أي الإختبار ، بأن يختبر نفسه في داعيتها إلى الطاعة، هل هي صادقة في ذلك ؟ فإذا صدق بينه وبين الله ، تبين له حقيقة دعواها ، كما تبين لصاحب القصة

دعوى نفسه ، لا إن غيره يختبره ، إلا إن كان شيخه اطلع منه على ما لم يطلع عليه من نواياه ﻫ .

ومرَّ في القراءة في شرح « الحِكَم » لابن عباد ، في قراءة السيد زين العابدين ، كلام يتعلق بمحبة المدح وكراهة الذم ، **فقال** سيدنا : « **المقصود من ذم النفس الذي يذكرونه ، أن يكون الإنسان أجنبيًّا من نفسه ، حتى لا يتبعها في باطل ، كالعدو لا يُؤمَن ، وإلا فلا حاجة إلى أن يذم نفسه ، أو يذمه غيره، بل إن كان ذا علم وصلاح فمدحه قربة ، ولا عبرة بذمه لنفسه ، بل الشأن إذا جاءه الذم من غيره بديهة** - أي لا يزعله ذلك حينئذ - **وإلا فكم إنسان يذم نفسه إظهاراً ، ثم لو ذممْتَه بما ذم به نفسه قامت عليه القيامة**»، أي زعل في جداً ، وهو رجل امتُحن في نفسه ﻫ .

قال رضي الله عنه : « **التواضع والخمول نعمتان ، ما يُغْبط عليهما أحد** » .

وتكلم في الأقدار ، **فقال** : « **إذا حَكَمَت الأقدار تيسَّرَت الأسباب أو تعسَّرَت ، وَقَعَت المسببات ، ولم يُعذر مع الإختيار . وأما إذا لم تسبق الأقدار فلم يقع ، فلا عذر له أيضاً مع الإختيار** » .

قال : « **وهذه مسألة قد تخفى ، فيحتج الإنسان بالأقدار مع ثبوته على المعصية** » ﻫ .

أقول : وتقدم شرح هذا المعنى قريباً عند قوله : « **ما يحيل على المقادير إلا العاجز** » ﻫ .

وذُكِر عنده بعض الناس بأدب ، **فقال** : « **أكثر هذه الآداب تكون عند الملوك ومن يتصل بهم ، وإنما يكون الشيء عند ظهور مقتضاه ، وقد يغلب الطبع الأدب عند ظهور مقتضاه ، فإذا ظهر ما يقتضي أحدهما ظهر** - أي الأدب وعدمه - **كما في قصة هِرٍّ بعض الملوك لما أدبه فتأدب ، حتى صار يطرح الشمعة على رأسه ، فلما رأى في بعض الأيام لحماً مطروحاً ، أو فأراً مرَّ به ، قفز له ورمى بالشمعة ، فقيل لصاحبه في ذلك فقال : غلب طبعُه أدبَه** » .

قال : « **كانوا ينظرون لمن يتولى شيئاً من الأمور من قضاء أو صدقة مسجد وغير ذلك ، ويعينونه، فصاروا اليوم ينظرون ويتتبعون له الزلات ، فغلبت العمومية** » .

وذم من يدخل الجابية يتغسل في وسطها ، **فقال** : « **إذا رؤي الماء بعد الدخول متغيراً تغيراً فاحشاً حكم بنجاسته ، كمسألة الظبية ، مع إن الإنسان لا يخلو في بدنه وعورته من نجاسة في الغالب ، خصوصاً في العوام والمحترفين كالضعفاء** - أي الفلاحين - **ونحوهم ، ولكن إذا ضاق الأمر اتسع** ».

قلت : وأيضاً فيه إسراف ، **فقال** : « **نعم ، والله لا يحب المسرفين . وإذا قال الله في شيء إنه لا يحبه**

فابحث عنه ما هو لتعرفه . وقد ضاعت من أيديهم الموازين ، حتى يقرأ الإنسان القرآن من أوله إلى آخره ما يعرف لآيةٍ مَعْنىً ، ولا يهمه أن يعرفه . وأعجب من ذلك أن رجالاً لا يقرأون القرآن ، يملُّون من سماعه ويضيقون منه ، وكان ينبغي لهؤلاء أن يشتاقوا لسماعه لعدم ممارستهم ، إذ من يقرأه فربما به ملل ، وأما هؤلاء فما عذرهم ؟ » .

مسألة الظبية : إذا جاء الماء طاهر ونجس ، ثم رؤي متغيراً واحتُمِل تغيره من أيهما ، رجح جانب النجاسة ، كما وقع أن ماءً مكث مدة وهو قلتان ، فبالت فيه ظبية ، واحتُمِل أن تغيره كان من طول المكث ، أو من بول الظبية ، فرجح جانب النجاسة من بولها ، وحَكَم به الشافعي وكان ذلك في وقته ، فسُمِّيَت المسألة بمسألة بول الظبية .

ثم قال : **« وما هو الميزان المذكور في القرآن ؟ أهي القفَّان أو موازين البيع ؟ إنما هو تقدير الأمور ومقايستها ، ونسبة الشيء إلى مثله ومقابلته بضده ، وأول ما حصل الغيار من مجيء الزيدية ، وبقيت كالنار تزيد ولا يدرون ، وكان حصوله باختيار أهل الجهة واختيار الزيدية ، وكان في الجهة عسف ، والزيدية مظهرين الدين ، وما كانوا أهل دهاء ، وأرادوا أن يولوا أحداً منهم ، فغلبوا عليهم ، لئلا يصير في الجهة ظلمان - أو قال : ظالمان - . وأما اليوم ، فما هو ألَّا شعق ، تلف الشيء بالكلية ، وما مثله ألا مثل الرضة ، أو مثل الفار - يعني في سرعة الإتلاف - فما عاد إلا لا تيأس من الله أن يأتي منه فرج ، كما قيل : إن أبا عمرو القاري خرج من بلاده فارًّا من الحجاج ، فسمع رجلاً ينشد :**

رُبَّمَا تَجْزَعُ النُّفُوسُ مِنَ الأَمْرِ لَـهُ فرجَـةٌ كَحَـلِّ العِقَـالِ

لا تَضِيقَـنَّ في أُمُـورِكَ ذَرْعـاً رُبَّ أَمْـرٍ أَتَـى بِغَـيرِ احْتِيَـالِ

أقول : يعني لما قال له الحجاج : « ائتني بشاهد من كلام العرب على قراءتك : ﴿إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةَۢ﴾ بفتح الغين المعجمة ، وإلا ضربت عنقك » ، فخرج إلى مكة هارباً خوفاً منه ، فبينما هو يطوف أو يسعى ، سمع رجلاً ينشد البيتين المذكورين ، فقال : « وله فَرجة » بفتح الفاء المعجمة ، ففرح بذلك لكون فَرجة كغَرفة بفتحهما ، ففيه شاهد لقراءته ، فقال للمنشد : « ما وراك لا فضَّ الله فاك » ، فقال: « مات الحجاج » ، قال أبو عمرو : « ولا أدري بأيهما أنا أُسَر ، بالشاهد من كلام العرب أو بموت الحجاج » ، وأرى من وقع في محنة فقصد بيت الله ، وزيارة رسول الله ﷺ ، فرج الله كربته وأزاح عنه محنته ، وأرجعه إلى وطنه وعزه سالماً مسلَّماً ، وهذا مجرَّب حتى في وقتنا هذا ، الذي قلَّت فيه الخواص عن تأثيراتها ، وانعكست فيه الأمور عن أوضاعها ، ورجعت فيه إلى أضدادها ، وقد تقدَّم ذلك من قوله .

والعسف الذي ذَكَر : اشتهار المعاملة بالربا الفظيع .

وأراد الزيدية في زعمهم يمحون الحق وينصِّبون منهم متقدِّماً ، فأبى عليهم ذلك المتقدِّمون والرؤساء ه .

ودخل على سيدنا بعض طلبة العلم من السادة ، وكان شاباً صغير السن ، وكان عنده أولاً قبله رجل إلى جانبه من السادة شيبة ، فجعل ذلك الصغير - لعلمه - بينه وبين الشيبة ، **وقال** له : « **اجْلِس هنا ، وفلان ما نحاذره** » .

قال ذلك الشاب : « هو كذلك ، لكن تقدم الكبير في المجلس من الأدب ، وإن كنتُ أريد القرب من مجلسكم » ، **فقال** سيدنا نفع الله به : « **الأدب يُعفى عنه في بعض الأوقات ، وفي بعض المجالس ، إذا عرف عند ذلك من أهل الأدب أنهم يؤثرون منه ترك الأدب ، فَتَركُ الأدب مع المحبة من حسن الأدب .**

فقد قال ابن عربي : جَلَسْتُ مرة مع جماعة ، وبقوا معي متأدبين ، حتى ضِقْتُ من تأدبهم معي، وكنتُ أريد منهم الإنبساط ، فلم يفعلوا ، فصنَّفْتُ كتاباً سميته : كتاب الإرشاد في خرق الأدب المعتاد. فذكرته يوماً لجماعة كانوا جالسين معي في بعض الأيام ، فقالوا : أَرِنَاه . قلت : ما هو حاضر الآن ، ولكني أحفظ منه الآن باباً . قالوا : ارْوِهِ لنا . قال : فناولتُ رجلي أكبرهم ، وقلت له : فُصَّها - يعني هذا باب من ذلك الكتاب - .

قال : وفي ذلك شاهد من السُّنة ، وهو أن النبي ﷺ لما كان جالساً في بعض الأيام في بعض الأماكن، وكان كاشفاً عن فخذه ، فدخل عليه أبوبكر ثم عمر وهو كذلك ، حتى دخل عليه عثمان ، فغطى فخذه، وكان لأبي بكر وعمر منه من الإنبساط إلى هذا الحد ، ولعثمان - أي من الحياء كذلك - وفي ذلك شاهد - أي لما ذُكِر - ثم لما دخل - أي في مجلس آخر - سيدنا علي ، والمكان غاص ، فلم يجد فيه محلًّا، فقام له أبوبكر وأجلسه بينه وبين رسول الله ﷺ ، فشكر ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه ذلك ، وقال له : يا أبابكر ، أنت من أهل الفضل ، فإنما يعرف الفضلَ لأهل الفضلِ أهلُ الفضل .

وإنما نزلت آية : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ﴾ في أهل بدر ، يتفسح لهم من ليس من أهل بدر . لأنه كان عليه السلام إذا جلس يسبق إلى مجلسه من يحضره من غيرهم ، فإذا أتوا إذا المجلس ملآن من غيرهم ، فأُمِروا بالتفسح لهم » ، أو كما قال .

وفي قوله : « **فإنما يعرف الفضل لأهل الفضل أهل الفضل** » ، قيل شاهداً :

إِنَّما يَعْرِفُ ذَا الفَضْلِ   مِنَ النَّاسِ ذَوُوه

وقبله :

مَنْ تَصَدَّى لِأَخِيهِ   بِالغِنَى فَهُوَ أَخُوه

فَإِنِ اضْطُرَّ إِلَيهِ   يَرَ مِنْهُ مَا يَسُوه

يُكْرَمُ المرءُ فَإِنْ   أَمْلَقَ اَقْصَاهُ بَنُوه

لَوْ رَأَى النَّاسُ نَبِياً   سَائِلاً مَا وَصَلُوه

وَهُمُ لَو طَمِعُوا في   زَادِ كَلْبٍ أَكَلُوه

لا تَرَاني أَبَدَ الدَّهْـ   ـرِ بِتِسْآلٍ أَفُوه

إِنَّ مَنْ يَسْأَل سِوَى   الرَّحْمَنَ يَكْثُرْ حَارِمُوه

وَالذِي قَامَ بِأَرْزَا   قِ الوَرَى طُرًّا سَلُوه

وَعَنِ النَّاسِ بِحَمْدِ   الله فَاغْنَوا وَاحْمُدُوه

أَنْتَ مَا اسْتَغْنَيْتَ عَنْ   صَاحِبِكَ الدَّهرَ أَخُوه

فَإِذَا احْتِجْتَ إِلَيْهِ   سَاعَةً مَجَّكَ فُوه

أَفْضَلُ المعْرُوفِ مَا   لم تُبْتَذَلْ فِيهِ الوُجُوه

إِنَّما يَعْرِفُ ذَا الفَضْلِ   مِنَ النَّاسِ ذَوُوه

وذُكر لسيدنا وهو خارج من البلاد إلى الحاوي ، أن عمر بن جعفر أتى بمحطة من القبلة على يافع، فخرج يافع إليهم ، فالتقوا معهم أو مع بعضهم بطرف حذيه فانكسر أهل القبلة ، وذلك في شهر ذي الحجة من سنة ١١٣٠ ، **فقال** لي : « أتحفظ هذا البيت ؟

زَعَمَتْ سُخَيْنَةُ أَنْ سَتَغْلِبُ رَبَّها   وَلَيُغْلَبَنَّ مُغَالِبُ الغَلاَّبِ

قال : « وسخينة لقب لقريش ، وكان مجيء يافع إلى حضرموت ، فدخلوا تريم أول يوم من عاشور سنة ١١١٧ » .

وقيل له : « فلان تولى وتفاسل معهم » ، فقال : « ولِمَ يدخل العار وقد جرب ولم يحسن ، والعار هو نار الدنيا ، ودخول الأمور من غير أبوابها عسر ، تريد تدبير أولاً » .

فقيل : « هذا بإرادة الله ، ومن أريد به شيء وصل إليه » ، فقال : « اللهم اجعل مرادك فينا خيراً » .

وتقدَّم ذِكْره لهذه الكلمة ، ثم ذَكَر بعدها ما بيَّن معناها ، وذَكَرنا هناك ما ظهر لنا من معناها ، وهو أنه قال : « اللهم اجعل مرادك فينا خيراً ، لكن ما المراد بالمراد بالخير ، والمراد قد سبق ، إلا إن كان بالرضا والتسليم ، أو ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ » ، هذا تمام قوله .

والذي ذَكَرنا على قوله أن قوله : « قد سبق » معناه ، أن كل شيء قد سبق في قضاء الله وقدره ، أي سبق حكمه بوقوع ما سبق ، ومن جملته مراده بالخير لمن أراد له الخير ، لكن القضاء السابق على نوعين: أحدهما : محتوم لا بد من وقوعه ، لا يرده شيء قط ، ولا يدخله المحو والإثبات ، ولا تفيده الأسباب وشفاعات الشافعين ، لا نبي مُرسَل ولا مَلَك مُقَرَّب ، فالخير المراد به في هذا النوع هو الرضا والتسليم الذي ذكر . والنوع الثاني من القضاء والقدر : المعلَّق الذي حكم بوقوعه ، وحكم بأسبابٍ ترده ، وهي محتوم وقوعها ، ويدخله المحو والإثبات ، وتفيده الأسباب والشفاعات والرُّقى والتداوي .

والمراد بالخير فيه : محو الشر وإثبات الخير ، فمراده بقوله : « اللهم اجعل مرادك فينا خيراً » ، أي إن كان محتوماً ؛ فبالرضا والتسليم ، وإن كان معلقاً ؛ فبمحو الشر وإثبات الخير .

وفائدة هذا التدبير العجيب ، ليظهر فضله سبحانه وعفوه بغفران الذنوب وإعطاء المرغوب ، كما يظهر بالمحتوم قهره وقدرته ، لتفهم أن لا مُعَقِّب لقضائه ، ولا رادَّ لِقَدَره ، ويجري هذا المعنى في جميع الأسباب ، من أسباب الخير وأسباب الشر ، فيفعل أسباب الخير ويرجو أن قد قُضِي له بها حتماً ، ويترك أسباب الشر ويرجو أن قد قضي له بالسلامة منها حتماً . وفائدة هذا أن لا يعجب فاعل أسباب الخير ، فيدَّعي ويشمخ ، فلعل أن قد قضى له بخلافها حتماً، فلا تفيده شيئاً ، وأن لا يقنط وييأس فاعل أسباب الشر ، فلعله قد قضى له بخلافها حتماً .

ويتبين كلٌّ من الحالين عند الموت ، فلا يموت إلا على ما خُتِم له من أي الأمرين ، سعادة أو شقاوة ، فإن كان ممن أراد الله له السعادة ، فلا يموت إلا عليها ، فيوفِّقه الله بعملها آخراً ويموت عليه، وإن كان عَمَلُ ذلك بخلافه ، وإن كان ممن أراد الله له الشقاوة ، فيخذله الله عند موته ، فيعمل عملها ويموت عليه ، والدليل على ذلك قوله ﷺ : « والذي نفسي بيده ، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار ، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل

بعمل أهل الجنة فيدخلها » . وقوله : « إلا ذراع » ، أي قرب موته ، وقوله : « فيدخلها » ، أي فيعمل بعمل أهلها فيموت عليه هـ .

قال : « **ونحن ما يُنكِر علينا إلا مكابر ، فإن كان في أمر باطن ؛ فما عاد هذا من الدين ، فإن كان في أمر يريد أن ينكر فيه الحق ؛ حاججناه بحُجَّة الله ، فيحكي لنا بما عنده** » .

وذَكَر الإقتداء عندما مرَّ في القراءة في « الأربعين الأصل » ذِكْرُ الأسرار الثلاثة ، *فقال* : « **الإقتداء على درجات ، وكل درجة فيها أعلى وأدنى ، وعموم وخصوص ، حتى ينتهي إلى أن يصير كالميت بين يدي الغاسل ، ودون ذلك درجات كثيرة ، ولو أن يشاور في أمر أراد فعله . ومن بقي يفعل كلما أراد من غير توقف على رأي أحد غيره ، ما يمنعه إلا العجز وعدم التمكن ، فهذا قلبه خارب** » هـ .

أقول : وعند ذِكْر هذا الكلام ، يحسن أن أذكر أمراً يدل على عجيب ما أعطى الله سيدنا من التصرف المكين ، وقوة الحال والتمكين ، وهو أنه قال لي : « **أَذِنَّا لك أن تزور الشيبان من السادة ، من أردتَ متى أردتَ إذناً عاماً ، وغير الشيابة إذا أردت زيارة أحد منهم استأذِن ، لا تسير إلا بإذن** » ، فزرتُ من علمتُ به منهم ، وسألتُ عن من لم أعلم ، وأُخبِرتُ بكثير منهم ، فزرتُ الجميع غير واحد ، متى ما عزمت على زيارته فَتَرَت الهمة عن المسير إليه ، وقد أصل إلى بابه ، فإذا أردت أن أقرع الباب ، فتر العزم وانصرفت ، وقد أنصرف من أثناء الطريق .

ومكثت كذلك أعالج نفسي على المسير إليه ، فلا أتمكن من ذلك ، نحو أربع سنين ، ثم قلت لسيدنا : قد أذنتوا لي إذناً عاماً في زيارة شيبان السادة ، فزرتهم إلا فلاناً فما تمكنتُ من زيارته ، فقال : « **الحذر الحذر تزوره ، فإنا لا نريدك تزوره** » ، وبعد أيام سألني : « **هل زرت فلاناً ؟** » ، قلت : لا ، كيف أزوره وقد نهيتوني عن زيارته ؟ وكنت أود أن أعرف سبب عدم إرادته لي زيارته ، فقال : « **إنه يأتيه بدو وعوام ، لا نريد لك حضوراً معهم** » ، فرضي الله عنه ما أعجب أحواله وأموره وإشاراته ، ولو أردت أن أحصي عددها ، ما أمكنني لكثرتها ، في حضرموت وفي الحرمين وفي الحساء وغيرها .

قال رضي الله عنه : « **ذهن الإنسان كالماء ، إنْ كَثُرَ صُرِفَ في أماكن كثيرة ، وإن قلَّ لا يحتمل إلا دون ذلك** » ، وذَكَر بعض المصنفين لما ذُكِر كتابُه ، *فقال* : « **إنه لم يتم له مقصوده في كتابه لأنه تبجَّح ، والعُجُبُ ما يحصل منه شيء – أو قال : معه شيء – سواء كان من عالمٍ أو عامي ، فينبغي لمن أُعجِبَ بنفسه ، أو بشيء مما يخصه ولو ثوبه ، أن يخفض من نفسه** » .

قال : « أشياء من القضاء لا من الأسباب ، والأسباب مظهر لها ، ومنه طول العمر بالبِرِ ، والأسباب وما تعلق بها من القضاء والقدر » ، وتقدم هذا بأبسط من ذلك .

قال رضي الله عنه : « الزمان هكذا ، كلما ابتنى فيه الأمر من جانب ، انهدم من جانب ، حتى إن بعض ملوك الجهة سَألَنَا ، وقال : ما أراكم قمتم بنا على سيرة الخلفاء الراشدين . فقلنا : إن هذا بسبب الزمان، لا بتقصير حصل ، فإذا كان عمر بن عبدالعزيز رحمه الله لم يمكنه أن يسير بسيرتهم من كل الوجوه ، بل قَرُبَ من سيرتهم جدًّا ، فكيف يمكن في هذا الزمان ؟ » .

قال : « أهل الزمان فيهم تَشَبُّح - أي دعوى - ومن لم يتشبح سَوَى تشبحوا له ، وعَاد ضررُ ذلك عليه » هـ .

أقول : التشبح ، الدعوى ورؤية النفس - هكذا هو في لغة حضرموت - وربما أظهر شيئاً من ذلك فيساعده أناس منقادون له ، ولا بد لمدَّعٍ من مُساعِد ، فيظهرون له من دعواه بين الناس أكثر مما يظهره هو ، فيغترون بذلك ، فيزداد طغيانه وفساده فلا يرده إلا دعواه . ادعى فرعون والنمرود من دعوى الربوبية ، وهو طلبه منهم غاية الإنقياد والإذعان لكل ما يراه في نفسه . وهذا ظاهر في هذا الزمان الفاسد بفساد أهله ، لطغيان نفوسهم ظاهراً وباطناً - أي بعضهم يُظهِر الدعوى وبعضهم يخفيها وهو أشد - كما تقدم من قوله : « الدعوى على نوعين : دعوى يظهرها صاحبها ، ودعوى يخفيها في نفسه لا يظهرها ، وهذا أقبح من الأول . وهم يتسترون بالدين عن فضيحة ذلك ، ومن لم يظهره خوفاً أو حياءً، أظهره له أعوانه المنقادون له ، وعاد ضرره عليه إن فرح به ورغب فيه » هـ .

قال : « لا تحسب الزمان كان صافياً فتكدر ، بل كان متكدراً من قديم ، وإنما زاد كَدَرُه الآن » هـ .

أقول : لأن طبع الزمان الذي خلقه الله عليه هو الكدر ، فلا يزول ولا يحول عن طبعه الذي خُلِقَ عليه وجُبِلَ ، ومع ذلك يزيد كدره دائماً كلما تأخر الزمان ، كما وعد الله ورسوله به ، حتى لا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق ، في أسوأ حال من الزمان ، ويتبين اختلافه في أقرب زمن ، حتى قيل : « لا تقيس الناس في يومك الحاضر على حالهم في اليوم الذي قبله » ، قاله الإمام الشعراوي .

قال : « هكذا الدنيا يستولي إدبارُها على إقبالها ، وأحسن ما ينبغي في هذا الزمان قطع العلائق ، لأن الزمان مظلم ، وخرجت فيه ظلمات الساعة » .

وقرىء عليه وِرْده الذي يقرأه بعد صلاة الصبح ، الذي فيه : « يا باسط عشراً » . في أوله ، وقبلها وهو ناشر يديه : « **يا الله ، يا واحد ، يا أحد ، يا واجد ، يا جواد ، انفحني منك بنفحة خير ، ثلاثاً** » ، ثم يرفعهما متصلتين ماداً بهما ذراعيه ، ويقول : « **يا باسط عشراً** » ، ثم يمسح بهما وجهه ، ثم يضعهما ويقول : « **ابسط علينا الخير والرزق ..** » ، إلى آخر الدعاء ، وبعد تمامه *قال* : « **هذا المكرر ثلاثاً وعشراً والدعاء ، هو من أذكارنا السِّرية ، التي لم نظهرها ، وإنما استرقه منا بعض الناس ، فلان أو غيره ، ولكن من أخذ شيء من الأمور السِّرية لا يبارك له فيها حتى يأخذه من صاحبه** » .

وأما قوله : « **ابسط علينا الخير .. إلى آخره ، فهو من أذكارنا** » ، أي إنه كان يسِر هذا الدعاء مع الكلمات ٣ وعشراً ويخفيه ، ولا يظهره للناس . وكنَّى عن الذي استرقه بلفظ فلان ، ثم أظهر التي تقال عشراً مع رفع اليدين ، أي أثناء الدعاء إلى قوله : « **منقلبنا ورجوعنا ومصيرنا** » .

قوله : « **من أذكارنا** » ، أي التي يظهرها ، فأظهره بعدما كان أخفاه ، إلى : « **مصيرنا** » ، ثم زاد على ذلك إلى آخر الدعاء سنة ١١٢٠ لنفع المسلمين . ولم يذكر التي تقال ثلاثاً ، ولا أثبتها أولاً ولا آخراً ، ولكنه إذا أراد يقرأه ذكرها وجهر بها ، فيسمعه الحاضرون . فإذا أراد أن يقرأه بعد صلاة الصبح ، وكيفية ذلك كما هي عادته التي نراه ، يرفع يديه أولاً قليلاً ضامهما كهيئة الداعي ، وقال : « **يا الله ، يا واحد يا أحد ، يا واجد يا جواد ، انفحني منك بنفحة خير** »، هكذا ثلاثاً ، ثم رفع يديه كثيراً مصفوفتين ، وقال : « **يا باسط عشراً** » ، ثم مسح بهما وجهه ووضعهما ، وقال : « **ابسط علينا الخير والرزق .. إلخ** »، وأراه لا يكلم أحداً حال قراءته ، ولو كلَّمَه أحد لا يجاوبه ولا يُكَلِّمه بكلمة ، حتى إنه ربما دخل عليه حكام وأمراء ووجوه الناس وهو يقرأه فلا يكلمه ، وإذا فرغ منه سأل عنهم وتكلم معهم .

وأراه يبادر به إذا رفع يديه للدعاء بعد الأذكار الثلاثة التسبيح والتحميد والتكبير ، لعل ذلك مبادرة قبل أن يكلمه أحد .

قال رضي الله عنه : « **اسْتَكْثِر من أعمال الخير ما استطعتَ ، وخذ منها ما تطيق المداومة عليه ، ولا تحتقر منها شيئاً ، فقد رؤي الإمام الغزالي في النوم بعد موته ، فقيل له : ما فعل الله بك ؟ فقال : غفر لي . فقيل له : بِمَ ذاك ؟ قال : بذباب برح على القلم وأنا أكتب ، فتركته حتى روي . فإن الخير كله في أمور الخير السهلة ، التي لا تراها النفس ولا تعدها شيئاً ، وأما التي تراها وتعتد بها ، فإنها يتطرق إليها البطلان ، إما من جهة الفاعل أو المفعول معه أو الحاضر بينهما** » هـ .

أقول : مثال ذلك في فعل الصدقة مثلاً ، إما الفاعل لها أو المعطي ، بأن يمدحه فتميل لذلك نفس

المعطي ، أو المرسل بها يمدحه ويذكره ، ولذلك عظم شأن المخفي لها ، بحيث لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، حتى صار من السبعة الذين يظلهم الله بظل عرشه . ومعنى لا تعلم شماله : يعني لو كان عن شماله أحد ما علم بها لشدة إخفائه ، ولكن الشأن في إخفائها عن النفس ، بحيث لا تخطر على باله ، وهو معنى ستر الأعمال عن عاملها ، وذلك أمر عظيم . ولذلك سأل بعضهم بعض الصالحين الدعاء، فقال : « استعملك الله بطاعته » ، قال : « زدني » ، قال : « وسترها عنك » ، قال : « كفاني » .

وقال بعضهم : « مهما خطر ببالي عمل من أعمالي فلا أعتد به » ، يعني ما أراه شيئاً ، ولا أطمع في جزاه ، لأن رؤيته في النفس أذهبت جزاه ، فإن ذلك نوع من الإعجاب المبطل لثواب الأعمال ، فقد تُبطِل لحظة من الإعجاب ثواب أعمال سنين ، نعوذ بالله منه هـ .

قال رضي الله عنه : « لو أن أحداً له قدرة على السياحة مثل الأولين من الصالحين خصوصاً السياحة في الحاضرة ، فإنها أسهل . لكن السياحة تريد قوة قلب وزهد ، وترجع السياحة في القلب ، فيسيح في قطع فلوات النفس حتى يصل إلى الحق » هـ .

أقول : قوله : « **لو أن أحداً .. إلخ** » ، يشتهي أن لو أن معه الآن في حالة النهاية نشاطاً في الجسم كحاله أيام البداية ، لكان يغيب عن أمور يراها حدثت يلزم القيام بها شرعاً ، من مناكر يلزم النهي عنها ، أو معروف مُضيَّع يلزم الأمر به ، فيغيب عن أن لا يراها ، ويسلم من أن تتعلق به أحكامها .

وكَنَّى عن ذلك بالسياحة ، لأن السائح لا يطَّلع على شيء من ذلك ، وذكر أن للسياحة شرطين : قوة القلب ، بأن يكون شجاعاً لا تهوله الأمور الهائلة ، فإنه قد تعرض له أمور تروعه ، والثاني : الزهد البالغ ، بحيث لا يكترث من ضيق معاش ولا تكدُّر حال .

فإذا كمل في ذلك رجعت سياحته « **في قطع فلوات النفس** » ، أي تتبع وجوه مطالبها فيقطعها ، أي يقطع هواها منها ، حتى تتجرد أهويتها الباطلة عن مطالبها إلى اتباع الحق ، فترجع أهويتها كلها إلهية ، كما قال النبي ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئتُ به » ، فهذا مراد سيدنا .

وقوله : « **خصوصاً في الحاضرة ، فإنها أسهل** » ، يعني إذا كان المراد من السياحة الغيبة عن ما ذكر، فتحصل السياحة بحصوله ، ولو في الحضر دون السفر ، والسلامة من تعبه ، ولذا قال إنها فيه أسهل هـ .

قال رضي الله عنه : « كلٌّ من أعمال الطاعة إذا كان فيه شيء من الهوى يخف على النفس ويسهل عليها ، إن قلَّ الهوى قلَّت رغبتها ، وإن كثر كثرت ، حتى يتجرد للحق فقط دون هوى ، فحينئذ يثقل عليها وتشمئز منه » هـ .

أقول : إذا كانت النفس على الوصف المذكور ؛ تجردت رغبتها للعمل المتجرد للحق فقط ، فإن سيدنا ذَكَر شأن طبع النفوس المنطبعة عليه ، فإذا كملت كمل عملها ، وما دامت في النفس فعملها في النقص ، فترى أحداً من الناس يبني المساجد ويعمر ما خرب منها ، ويصرف في ذلك مالاً كثيراً ، ولو أتاه فقير يطلب منه عشاء له ولعياله شحَّت نفسُه ولم يعطه ، وهو أفضل له ، فدل ذلك على أن ما باعثه على ما صنع إلا الهوى ، من الرياء ومحبة أن يذكر بذلك لكونه ظاهراً ، وتلك صدقة خفية هي أحب إلى الله تعالى مما بنى وعمَّر . كما قيل :

رَغِيفٌ مُشْبِعٌ في بَطْنِ جَائِعٍ ... لَأَفْضَلُ مِنْ بِنَايَةِ أَلْفِ جَامِعْ

وَأَفْضَلُ مِنْ كَسَا الكَعْبَةْ حَرِيراً ... وَأَلْبَسَها اللِّبَاسَ مَعَ البَرَاقِعْ

وَأَفْضَلُ مِن جِهَادٍ في سَبِيلِ اللهِ ... بَأَلْفِ مُدَرَّعٍ لِلْكُفْرِ قَامِعْ

وَأَفْضَلُ مِنْ سَمَاوَاتٍ وَأَرْضٍ ... رَغِيفٌ مُشْبِعٌ في بَطْنِ جَائِعْ

كذا رأيت هذه الأبيات ، وفيها مبالغة قوية في هذا المعنى ، ولا نسبت لقائلها وتحتاج إلى تأويلات.

وتقدم قول سيدنا لذلك الرجل الذي استأذنه في بناء مسجد ، فقال له : **« إن كان نيتك في ذلك خالصة لوجه الله فما نمنعك من بناء مسجد »** ، فقال : **« نيتي في ذلك خالصة »** . فلما ادَّعى الإخلاص، قال له ممتحناً له ، ليرى صدق دعواه : **« لو بنيتَه وصرفتَ فيه مالاً كثيراً ، ثم إنه إنما نُسِبَ لغيرك ، ولا نُسِبَ إليك ، ولا ذُكِرتَ فيه بشيء . ماذا تقول ؟ أترضى نفسُك بذلك ؟ »** ، قال : « ما أرى نفسي ترضى بذلك » ، فقال له : **« ليس نيتك خالصة لله ، فاتركه »** ، فتركه إذ ذاك ، وما بلغني أنه بناه بعد ذلك .

وقد ذُكِر عن بِشْر الحافي أنه استشاره رجل في الحج بعد حجة الإسلام ، فقال بشر له : « كم نويت أن تصرف في حجَّتك هذه ؟ » ، قال : « عشرون ألفاً » ، قال : « إن أَشَرْتُ عليك تصرفها في وجوه معلومة ، ويحصل لك أفضل من ثواب الحجة ، وتَسلَم من تعب السفر ومشقته » ، قال : « ماذا تريد تشير عليَّ به ؟ » ، قال : « أشير عليك أن تصرفها إلى ذي عيال ، فيصرفها على عياله ، ومُرَبِّي أيتام يصرفها في نفقتهم ، وعلى مديون يقضي بها دينه » ، وعَدَّ له عشرة وجوه من هذا القبيل ، ثم قال له : « وإن طابت نفسك أن تدفعها لواحد من هؤلاء فهو أفضل لك ، فماذا تقول ؟ » ، قال : « ما أرى نفسي

إلا عازمة على المسير إلى الحج » ، فقال له بِشْر : « إذا حصَّل الإنسان مالاً من خبيث المكاسب ، اقتضت نفسه أن تقضي به وطراً ، ثم أرادت أن تتجمل بالعبادة ، اذْهَب عني ، فما عليَّ منك » .

وقوله : « تتجمَّل بالعبادة » ، يعني تتسترَّ وتُغطِّي بها عوارها لئلا تُذَم لاتِّباع ما اقتضاه هواها ، سيما نفوس من ادَّعى الصلاح ، وأظهر التزيِّي بزي أهل الزهد والدين .

وذُكِر عند سيدنا رجل مات له ابن ، فتعب عليه كثيراً ، *فقال* : « **لا بد للإنسان من الصبر ، وإن لم يصبر رجع إلى التسلية ، فإن الإنسان يتسلى كما تتسلى البهائم ، فقد مات آباء الإنسان والأعزة عليه، والناس مع الموت ألا مثل القافلة ، هذا قد حط وهذا يسير وهذا يحمل . ومن مات ما عاد عُرِفَ له خبر، وغفل الناس عنه كأن لم يكن ، فإن الناس في دعوة الملائكة ، فإنه وَرَدَ : إذا وُضِعَ الميت في قبره قالت الملائكة لمن حضر : ارجعوا إلى دنياكم أنساكم الله موتاكم . والمصائب أول ما تبدو عظيمة ، ثم لم تزل تضمحل حتى تفنى كلها ، وهذه الدنيا كثيرة البلايا والمصائب ، ولهذا زَهِد فيها الصالحون** » ﻫ .

أقول : يعني إن أَمدَّه الله بالصبر والرضا والتسليم ، واستراح قلبه وطاب عيشه ؛ فلا يحتاج إلى تسلٍّ وتذكُّر ، وذلك ما يحصل إلا بموهبة من الله لمن أراد له ذلك ، وذلك دليل محبته لعبده ، وإن لم يحصل له ذلك وآلم قلبه جداً ، تسلى بها ذُكِرَ مِنْ ذِكْرِ من مات قبله من آباء الإنسان والأعزة عليه ، فبتذكر نحو ذلك يتسلى ، فقد قال في الحِكَم : « ما سُلِّيَ المصاب بشيء أحسن من ذِكْرِ من أصيب بمثل مصيبته » .

ودلَّ كلامه على أن التسلية إنما تكون مع عدم حصول الصبر ، فإذا حصل له ؛ استغنى عنها بحصول المقصود منها وهو الصبر ، فإن تحمَّل حاله فوق ذلك كان من أهل الرضا ، الذين فضَّلَهم رسول الله ﷺ في مقام العبادة على الآخرين ، حيث قال : « اعبد الله على الرضا ، فإن لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خير كثير » ، فذاك مقام الخاصة وهذا مقام العامة ، كما بَيَّنَّا الفرق بينهما فيما تقدَّم ، حتى إن أهل مقام الرضا يتلذذون بالبلاء كما يتلذذ الآخرون بالعطاء ، لعلمهم أن ذلك مراد الله بهم ، فَتَرَجَّحَ في قلوبهم بذلك مراد الله على مراد نفوسهم ، كما قيل :

وَخَفَّفَ عَنِّي مَا أُلاقِي مِنَ البَلَاءِ بأَنَّكَ أَنْتَ المبْتَلِي والمقَدِّر

وأَفْهَمَ قولُه أن التسلية إنما تكون لمن ضَعُفَ عقلُه أو عُدِم العقل ، لقوله : « **كما تتسلى البهائم** » ، لعدم عقلها وتسليها بإلفها لرؤية من أصيب منها ، فإنك تراها تجفل وتخاف وتهرب إذا رأت ذبح شيء من أمثالها ، فإذا أَلِفَت ذلك مراراً هان عليها ولم تجفل لرؤيته .

وذَكَرَ دعاء الملائكة ، ودعاءهم مستجاب ، ولذلك غفل الناس عن أمواتهم ونسوهم ، وفي ذلك لهم فائدة ، حتى يعمروا الدنيا ، وبعمارتها يعتمر الدين ، ولو خربت الدنيا خرب الدين لخرابها ، ولهذه الفائدة أمر الله الملائكة تدعوا على الناس بذلك ، فيستجيب لهم فيهم .

وتقدم منه كلام نحو كلامه هذا ، وذكرنا معه ما حصل ، ومن جملته رؤيتي لعوض بن صباح ، وسؤالي له : كيف رأيت الحال بعد الموت ؟ ، فقال : « على ما ترون مذكور في الكتب » .

وكلم رجلاً ذهب بصره ، رأى عليه أثر الجزع فصبَّرَهُ ، فذَكَر له قصة عروة بن الزبير ، **ثم قال** : « **إن الله يعطي عبده الكثير ، وقد يأخذ منه القليل يدَّخره له عنده ، وتَفَكَّرْ في نعم الله الماضية عندك والموجودة** . - وذُكِر أن ابن عباس لما ذهب بصره قال وأنشد :

إنْ يَأْخُذِ اللهُ مِنْ عَيْنَيَّ نُورَهُمَا ... فَفِيْ لِسَانِي وَقَلْبِي مِنْهُمَا نُورُ

- ومن طبع النفس أنها إذا أَلِفَت الراحة ثم حَصَلَت لها مصيبة أنها تجزع ، هذا الطبع موجود حتى في الأكابر ، إلا أنه فيهم ضعيف وفي غيرهم قوي ، وأصل الإيمان موجود في الكل ، إلا أنه عند ذلك يبقى في الأكابر قوياً ، وفي غيرهم ضعيفاً » .

قال في حديث : « أن لا تغضب » : « **إنه عليه السلام قال ذلك لرجل كان كثير الغضب ، وكانوا يغضبون غضباً شديداً ، حتى يفعل أحدهم أموراً ويقول أقوالاً مذمومة من غير ضبط** » .

وفي حديث : « إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب » ، **قال** : « **أي لا يملكها إذ ذاك إلا القوي ، قوي الإيمان والعقل ، فلا يقول ولا يفعل إلا ما ينبغي له** » .

وفي حديث : « ما جلس قوم مجلساً لا يذكرون الله فيه ، إلا كان عليهم تِرة » ، **قال** : « **يعني لأن المجلس لا يخلو أن يكون معموراً بحرام أو فضول في الغالب ، فإذا لم يحصل ذِكْرٌ يُكَفِّر ذلك ، كان عليهم تِرة وحسرة على فعلهم** » .

وأوصى رجلاً **فقال** له : « **الله الله في الهمة ، وفي الذكر بلا إله إلا الله ، فإذا خَرَجَت هذه الكلمة من الصادق مع الهمة يكون لها عمود ، حتى تبلغ إلى عند العرش ، قال الله تعالى** : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ ﴾، **وهو لا إله إلا الله** ، ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾، **وهي الهمة ترفعها إلى أن تبلغ بها إلى عند الحق تعالى** » هـ .

أقول : المراد بالهمة ، همة قائلها عن صدق إيمان وعزيمة ، وأن يقوم بجميع أحكامها ، ثم بعد

ذلك يوفق الله من أراد له بتمام ذلك ، ودونه ودون الدون على حسب مراتبهم ودرجاتهم عند ربهم، وذلك بحسب ما أراد لمن أراد ، لا بحول منهم ولا قوة ، وإنما حد مقدورهم بما أعطاهم الله من الإختيار أن يختار مما اختاره الله لهم ، بمقتضى الإرادتين الآتي ذكرهما : الإرادة الأزلية والإرادة الشرعية . ولا تكون الشرعية إلا باقتضاء الأزلية ، بالسعادة وخلافها باقتضائها لعبد بالشقاوة أو المعصية ، أعني بالخلود في النار أو دخولها ثم العفو بعده ، أو العفو قبله بلا دخولها ، وكل ذلك على ما تقتضيه ، لا شذوذ لعاملٍ أو عملٍ عن مقتضاها قط ، فالكامل منهم من أراد له الكمال ، والناقص من أراد لهم النقص ، فنسأل منه سبحانه أن يوفقنا لكمال كل ذلك من إيمان وعمل .

وقد رأيت في « تاريخ بغداد » للخطيب أحمد بن علي بن ثابت بن عساكر البغدادي ، من رواية أحمد بن محمد بن صالح أبو يحيى السمرقندي ، بإسناده عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾، قال : « إن لله عموداً أحمر رأسه ملوي على قائمة من قوائم العرش ، وأسفله تحت الأرض السابعة على ظهر الحوت ، فإذا قال العبد : لا إله إلا الله . تحرك الحوت ، تحرك العمود، تحرك العرش ، فيقول الله تعالى للعرش : اسكن . فيقول : لا وعزتك لا أسكن حتى تغفر لقائلها ما أصاب قبلها من ذنب . فيغفر الله له » ، ومن هذا الكتاب أيضاً من رواية أحمد بن محمد بن منصور الدامغاني ، بإسناده عن حميد بن عبدالرحمن بن عوف عن أبيه قال : « قال رسول الله ﷺ : إذا اصطنع أحدكم إلى أخيه معروفاً ، فقال: جزاك الله خيراً . يقول الله تعالى : عبدي ، أسدى إليك أخوك معروفاً، فلم يكن عندك ما تكافئه ، فأحلته علي ، والخير مني الجنة » .

وإنما ذَكَرتُ هذين الحديثين شاهداً لقول سيدنا في الكَلِم الطيب ، وفي العمل الصالح .

وفي قول الله سبحانه وتعالى : « والخير مني الجنة » لعبده المؤمن إذا أسدى إلى أخيه معروفاً ، وقال له ذلك القول بشارتان : بشارة لفظية ، وهي قوله : « والخير مني الجنة » ، وبشارة ضمنية ، وهي ما تضمنه وعده بالجنة ، وهي حسن الخاتمة ، فإن الجنة لا تحصُل إلا لمن مات على حسن الخاتمة ، فلما بشَّر الله سبحانه عبده بها ، كان مبشراً له بحسن الخاتمة .

وخوف الخاتمة هو الذي قصم ظهور الأكابر ، وأما الأعمال الصالحة المقرِّبَة إلى الله فما عليهم منها عوز ، فإنها هي همهم وشغلهم ، وما خَوْفُهم إلا من تَجاوُز تلك العقبة الكؤود ، إلا إن منَّ الله بتجاوزها بإحسان ، وقد ذكر أنه دخل عبدالله بن المبارك على سفيان الثوري ، وكانا متواخِيَيْنِ في الله، فرآه يبكي فقال له : « ما يبكيك ؟ فإن كان بكاءك خوف ذنوبك فهنيئاً لك » ، فأخذ سفيان نبتة من الأرض وقال : « إن ذنوبي ما تسوى عندي هذه النبتة ، وإنما بكائي من خوف الخاتمة ، ما أدري بماذا يُختَم لي » ، فلما سمعه ابن المبارك أخذه البكاء ، فبقيا يبكيان خوف الخاتمة .

وغيرهما من كل الصالحين ما يهمهم أمرٌ أشد من هَمِّ خوف الخاتمة ».

قال رضي الله عنه في معنى قوله تعالى الوارد في الحديث عنه سبحانه : « ما وسعني أرضي ولا سمائي ، ووسعني قلب عبدي المؤمن » ، **قال** : « **يعني وُسْع معرفة وحمل الأمانة** ».

أقول : المراد بالأمانة عهدة التكليف ، التي قال الله تعالى : ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ ، فعجز عنها من ذكر لعدم العقل فيهم ، وحملها الإنسان لما أعطاه من العقل والتمييز به بين الخير والشر، وبين ما يُحمَد ويُطلَب شرعاً ، وبيَّن ذلك له فقال تعالى : ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾، ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾، أي طريقي الخير والشر .

والقضاء والقدر يعني ما أراد سبحانه لعبده من خير أو شر له ، كاللجام للفرس يقوده إلى أيهما أراد له سبحانه ، ولذلك قال تعالى بعد قوله : ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾، أي بيَّنَّا له الطريقين ، فكان بحسب ما يقوده إليه لجام القضاء والقدر : ﴿إِمَّا شَاكِرًا﴾، أي سالكاً طريق الخير المشكورة المحمودة، ﴿وَإِمَّا كَفُورًا﴾، سالكاً سبيل الشر الكفورة المذمومة ، ثم ذكر جزاء من قاده إلى سلوك السبيلين إلى آخر السورة . ومعنى كونها أمانة ، إنها أوامر ونواهي بين العبد وبين الله ، لا يطلع عليها إلا الله ، ولو غدر فيها وخالف لا يعلم به إلا الله ، كما أن الأمانة شيء في ذمته وأمانته بينه وبين ربه ، لو غدر فيها وخان لا يعلم به إلا الله ، ولا يقوم بهذا الأمر على وجهه من كل الوجوه إلا الكامل في التقوى .

ولذلك عظم شأن التقوى والمتقين عند الله ، وكانت هي وصية الله للأولين والآخرين ، كما قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾، والتقوى هي سلوك سبيل الشاكرين المذكورة المبيَّنة بالهداية في الآيتين المذكورتين ، أي بَيَّنَ سبيلها وأعطى من كَلَّفَه الإختيار في سلوك أيها اختار ، وجعل الجزاء لهما في مقابلة الإختيار ، والله سبحانه القائد لهما بلجام القضاء والقدر، على حسب مراده للفريقين ، من شاء منهما بما شاء لأيهما ، كما شاء من الجزاء لهما من جزاء الخير لمن وفقه للطاعة ، وجزاء الشر لما خذله وقاده للمعصية ».

قال في حديث : « الأئمة من قريش » : « **يعني الأئمة في الدين والعلم ، ومن كان منهم ضعيف الدين جاهلاً بأي وجه يستحق التقديم ؟ بل يتعين عليه يجتهد أن يصير عالماً تقياً ، ليصير أهلاً للتقدم . وقد قال الشيخ علي بن أبي بكر رضي الله عنه : تَفَخْسَسْ تَسْلَم ، لا تكن عقرباً تُقتل ، كن ذَنَباً في الخير ولا تكن رأساً في الشر ، فإن الرأس أول ما يقطع** ».

أقول : ذَكَر ذلك لابنه الشيخ عبدالرحمن بن علي ، في رسالة أرسلها له ، وكان في بندر عدن من بلاد اليمن ، ومراده بذلك حَضُّه على غاية التواضع وعدم رؤية النفس ، ولا يكون كذلك إلا من بلغ الغاية في العلم النافع وكمال التقوى ، ولذلك استشهد سيدنا بهذا القول على حث السادة - لكونهم رؤوس قريش - على الإجتهاد أن يصيروا علماء أتقياء ، ليبلغوا مقام الإمامة التي خصهم بها رسول الله ﷺ في هذا الحديث ، وفي حديث : « قدِّموا قريشاً ولا تتقدموها » ، أي في مقام الإمامة والزعامة التي هم أحق بها من غيرهم ، لشرفهم عليهم بشرف كون رسول الله ﷺ منهم .

وقال الشيخ علي لابنه في تلك الرسالة : « تَأَنَّتْ تُلقَحْ ولا تتفحَّلْ تُقْمَح » ، وكان السيد عبدالله الشاطري لما سمع من الشيخ عبدالرحمن هذه الكلمة لما أعلمه بها ، يستعيدها منه مراراً ، وأعجبته جدًّا، قال : « فأعلمت والدي بذلك ، فقال : هذا كان حاله » .

وذَكَر سيدنا أهل حضرموت وكثرة سفرهم إلى الهند ، *فقال* : « **إن عليهم في مسير الهند دعوة ولي مستجابة بلا شك** - أي دعوة مستجابة في سفرهم إلى الهند لا عذر لهم منها - **وإلا فكم ذا يتمنى أحدهم رؤية حضرموت حين كان في الهند ما تحصل له ، فإذا وصلها ما ينشب أن رجع إلى الهند** » .

قال ذلك لما استأذنه رجل من السادة في مسيره إلى الهند ، وقد كان جاء منها عن قرب ، فاستأذنه في ذلك ، فأشار عليه أن لا يسير ، *وقال* : « **عادك ألا جيت منها ، فجلوسك في بلدك خير لك ، ولعل يجيك أجلك فتُقْبَر في بلدك خير لك أن تقبر في الهند** » .

فخالف ما أشار به وسافر ، فقال ذلك *ثم قال* : « **إنما الشور في الأمور الإختيارية وأما إذا صَمَّمَتْ نفسُك على أمر ولا بقي لك منه اختيار فما للشور فيه معنى ، وإن أشرتَ عليه خالفَكَ . فالخلق مكلوفين على ما خُلِقوا له ، فإن الله تبارك وتعالى أراد بهم وأراد منهم ، فالسعيد من وافق ما أراد به الحق وأراد منه، والشقي من اختلفت به الأمور** » ، ثم قال لي : « **احفظ هذه الحكمة إن كنت حافظاً** » ، قلت : إني حفظتها وأريد أن أكتبها . قال ذلك في الدار ضحى يوم الجمعة ١٥ ربيع الثاني من سنة ١١٢٧ .

والذي ظهر لي من معناها على ما وعدني ، حيث قلت له : إنا ننقل كلامكم وربما نفهمه ، لكنا نتحرى لفظكم ويفهمه من فهمه ، فقال : « **اكْتُبه ، وعادك تعرفه** » ، ومرة قال : « **اكْتُبه وعادنا نبيِّنه لك** » . وأرى إني إذا كتبته ظهر لي منه معنى ، وأرجو أنه ما وعدني به ، وأن الله بيَّنه لي ببركته .

وقوله : « **مكلوفين** » ، أي مُيَسَّرين لما خُلِقوا له ، كما في الحديث : « **كلٌّ مُيَسَّر لما خُلِق له** » .

وقوله : « **إن الله تبارك وتعالى أراد بهم وأراد منهم** » ، يعني إن لله سبحانه وتعالى إرادتين : إرادة

أزلية : أي صفة قديمة قائمة بذاته كسائر صفاته ، ولها في جملة الخلق وجهان : وجه إلى قوم بالسعادة والعبادة وحسن الخاتمة ، ووجه إلى آخرين بالكفر والشقاوة وسوء الخاتمة ، وإلى آخرين بالمعصية مع الإيمان ثم الموت عليه ، وإلى آخرين بالطاعة ثم الموت على خلاف ذلك ، لا يتعدى أحد عن هذه الإرادة الأزلية قط .

وإرادة شرعية : وهي نتيجة عن تلك الإرادة الأزلية ، نزلت إلى الخلق بعد إيجادهم ، تطلب منهم أن يقوموا بحقوق خالقهم ، من فعل العبادات وإقامة أوامره واجتناب نواهيه ، ويسمى هذا الأمر العبادة ، ولأجلها خلق الخلق ، كما قال تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ، أي يؤدوا ما يجب على العبد لمعبوده من العبادة ، وهي أن يفعل ما يرضي المعبود ، ويرضى بما يفعل به المعبود .

« **فالسعيد من وافق ما أراد به الحق** » ، أي من الإيمان والعبادة بالإرادة الأزلية من جانب طرف السعادة ، « **وأراد منه** » ، بالإرادة الشرعية من امتثال الأوامر واجتناب النواهي ، من جانب طرف العبادة .

قوله : « **والشقي من اختلفت به الأمور** » ، أي وافق الطرف الآخر من جانب الإرادة الأزلية بالشقاوة ، ولم يوافق الشرعية بطلب العبادة ، فاختلف منه الحال بموافقة الطرف الأسوأ من الإرادة الأزلية ، ولم يوافق ما طلبت منه الإرادة الشرعية المؤدية إلى السعادة ، فلذلك كان هذا هو الشقي المطرود عن رحمة الله ، أن حُرِمَ الإيمان والعمل الصالح ، لكن على ما تقدم من التفصيل على مقتضى حديث من قول النبي ﷺ : « من الناس من يولد مؤمناً ويعيش مؤمناً ويموت مؤمناً ، ومنهم من يولد كافراً ويعيش كافراً ويموت كافراً ، ومنهم من يولد مؤمناً ويعيش مؤمناً و يموت كافراً ، ومنهم من يولد كافراً ويعيش كافراً ويموت مؤمناً » .

فهكذا الحال منهم كما اقتضته الإرادة الأزلية ، فإنما السعيد من وافق الإرادتين ، والشقي من لم يوافق الإرادة الشرعية ، فإذا لم يوافقها فقد وافق الوجه الأسوأ من الإرادة الأزلية .

والقدرة صفة أخرى لله سبحانه ، تابعة للإرادة ومُتَعَلِّقَة بها ، فلا يكون شيء إلا بإرادته وقدرته سبحانه وتعالى ، فأراد سبحانه السعادة لقوم والجزاء لهم بالخير ، وأراد لقوم آخرين الشقاوة والجزاء لهم بالشر ، وأراد إيجاد كل ما هو كائن في الحال أو يكون في المآل ، فلا ينفك أحد من الصنفين ولا غيرهما عن ما اقتضته الصفتان منه سبحانه ، الإرادة والقدرة .

فاتباع الإرادة الشرعية هو علامة السعادة ، كما اقتضته الإرادة الأزلية في الجانب الأحسن ، وهو السعيد الذي أشار إليه ، ومخالفة الإرادة الشرعية هو اتباع الجانب الأسوء مما اقتضته الإرادة الأزلية،

هو الشقاوة وهو الذي أشار إليه بالشقي الذي اختلفت به الأمور . فلا يوافق أحد من الصنفين أحد الوجهين مما اقتضته تلك الإرادة الأزلية إلا باقتضائها به له ، كما قال بعضهم : « كل شيء بقضاء وقدر ، حتى قولي كل شيء بقضاء وقدر ، فهو بقضاء وقدر » ، وعلى هذا ، فإذا كان الأمر كذلك كان صاحب العقل الكامل من الراسخين في العلم ، لا يميل قلبه قط إلى خلاف ما هو كائن مما يحبه الطبع البشري أو يكرهه في العادة ، إذ كل ما هو كائن فهو مراد الله وكَتْبه في اللوح المحفوظ ، فلهذا يعبر عن كل ما أراده الله بالمكتوب ، فيقال : كتب الله لفلان كذا -إذا كان محبوباً طبعاً - وكتب الله عليه - إذا كان مكروهاً طبعاً - . والمعنى أراده الله له ، فالكامل يحب بطبعه كل ما أراده الله له من محبوب ومكروه في الطبع ، كما سلى الله بذلك خلقه وأمرهم ، حيث قال سبحانه : ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾، ثم قال : ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾، وصف الله بالفخر والخيلاء كلَّ من خالف بطبعه ذلك المأمور .

وقال تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾، أي أراد ذلك وكتبه وأجَّلَه إلى وقته هذا ، فما الحزن على شيء أراده الله وكتبه وأجَّلَه إلى أجله المكتوب ، فما يكون ذلك إلا من ناقص عقل ودين ، كما قال الإمام الغزالي : « لا أجهل ولا أحمق ولا أضعف ديناً ممن يريد الأشياء تكون على مراده لا على مراد الله » .

ثم اعلم علماً وذوقاً أن اتباع الإرادة الشرعية بحكم إرادة الله الأزلية ، فمن حَكَمَتْ له باتباعها تبعها وسعد ، ومن حَكَمَتْ عليه بمخالفتها خالفها وشقي ، وهذا معنى قوله : « **فالسعيد من وافق ما أراده به الله وأراد منه ، والشقي من اختلفت به الأمور** » ، لقوله تعالى : ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾، وذلك لإقامة الحجة لمن أطاع واتبعها ، وعلى من فسق عن أمر ربه وخالفها ، فمن وافقت له بالسعادة - أي كتب من السعداء - يعني أراد الله سعادته عمل عملها ، وهو عمل الإرادة الشرعية ، وسعد في الدنيا والآخرة، ومن وافقت له بالشقاوة عمل عملها وهو مخالفة الإرادة الشرعية وشقي في الدارين هـ .

قال رضي الله عنه : « كن أولاً رجلاً لآخرتك ، ثم كن رجلاً لدنياك » هـ .

أقول : أي كن على قانون علم الإرادة الشرعية في دينك ودنياك هـ .

قال : « أهل الزمان عُدِموا الصبر والإحسان ، فإن عُدِموا اليقين والعياذ بالله فقد فُقدت أثافي الدين، فانكفأت بُرْمَته » هـ .

أقول : أي عُدِموا الثبات على القيام على الوجه الأكمل في الأمرين المذكورين من شأن أمر الدين والدنيا ، على ما قال الله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾، والعدل : مقام العامة ، وهو القيام بواجب حق الله وحقوق عباده من غير إخلال وتقصير في أمرٍ ما وإن قل ، والإحسان : مقام الخاصة ، وهو كمال القيام بالواجب والمندوب في حق الله علماً وذوقاً ، وفي حق العباد كذلك ، لكن يسامحهم في تقصيرهم في حقه بلا ذم ، وما له عليهم من المال كُلاً أو بعضاً ، ويقوم لهم بالحقوق، ويزيدهم في ما لهم عليه من المال ، كما فعل بعض السلف كان ينقصهم من ما لهم عليهم ، ويزيدهم في ما لهم عليه .

واليقين هو العمدة في الإثنين المذكورين : الصبر والإحسان ، وهو ثالثهما ، وهو ما ذكرناه من شأن ذي العقل الكامل ، من تعلق القلب بالله واعتماده في كل شؤونه على الله ، ولا يختار إلا ما اختاره الله ، ويطلب من الله التوفيق لكمال العبادة والعبودية والعبودة . الأول : أفعال البدن الحسية الشرعية. والثاني : مجاري الإيمان القلبية الستة ، وكمال ذوقه في الستة المذكورة : « الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقضاء والقدر خيره وشره ، حلوه ومُرّه » . والثالث : اجتماع الأمرين على الوجه الأكمل . وذَكَر أن الدين مركب على هذه الثلاثة ، وإنها له كأثافي القِدْر ، لا يثبت إلا باجتماعها، لو زلت منها واحدة انكفأت البُرمَة ، كذلك لو فُقدت واحدة من الثلاث ذهب دينه ، وانكفأ كما تنكفيء البُرمة أو القِدْر بفقد واحدة من الأثافي .

قال رضي الله عنه : « طريقتنا إذا أردنا شيئاً فغالَبَنَا فيها أحد تركناه له » هـ .

أقول : هذا من كمال حسن خلقه ، وهوان أمور الدنيا على قلبه ، وهو عكس ما عليه الطبع الغالب في هذا الزمان ، حتى إن الإنسان يضايق والديه في ذلك فضلاً عن غيرهم ، وهذا خُلُقٌ خاص به هو رضي الله عنه ونفعنا ببركاته وأسراره في الدارين هـ .

قال رضي الله عنه : « الأولاد في هذا الزمان بَغَوا منك صبراً وإلا حُرِمتهم وأشغلتَهم ، والولد في هذا الزمان لا يؤمَن على الأهل فكيف بالأجانب ؟ لأن الدين ضعف جدًّا ، ومن لا دين فيه كيف يصح منه الورع ؟ والورع إنما هو خوف من الله ، ومن يفرق بين التمرة والجوهرة فلا تأمنه على الورع » .

ومرة كنت جالساً بحضرته وحدنا وما معنا أحد ، فرأيته يفكر ساعة ، ثم التفت إليَّ *وقال* : « العيال في هذا الزمان بغوا منك صبراً وإلا أشغلتَهم وحُرِمتهم ، وإن رجلاً قيل له : إن عيالك لا يخافون منك، قال : وأنا ما أخاف منهم . وإن رجلاً كان له حاجة خاصة مهمة جداً ، فجعل يوصي ابنه فيها ويأمره بالإعتناء بها ويحضه عليها ، وأكثر عليه الكلام فيها ، فلما سكت وظن أن الولد اعتنى كثيراً في حاجته تلك ، وإذا بالولد يقول : يا أبه إن كلامك دخل من هذه الأذن وخرج من هذه الأذن . فقال الأب : وبس ، فأحسن يوم دخل إذنك ، ظننت أن كلامي لم يدخلها » .

وعيَّب على رجل في ترك أهله من غير مراعاة لهم في أمر المعيشة وغيرها ، *فقال* : « فلان صالح ، يتزوج ويترك أهله ، ويقول : الله الرزاق . وكُلٌّ عارف بهذا ، حتى البهائم لو تكلمت أخبَرَتْ به ، والله سبحانه ما يعامل الناس بمقتضى الحقيقة ، ولو عاملهم بمقتضاها ما كان حراث يحرث أو تاجر يتَّجر، ثم إنه لو عاملهم بذلك ، إنما يريدهم يتفرغون لعبادته ، أيرزقهم ويتركهم يأكلون ويشربون وهم جلوس ؟ ما يتركهم كذلك » هـ .

أقول : قوله : « فلان صالح » ، هذه الكلمة في لغة أهل حضرموت معناها سفيه جاهل ، ولا شك في جهل من ارتكب ذلك وسفاهته .

وتكلم مع رجل غريب وهو الوفائي ، فقال الوفائي : « أنا غريب » ، فقال سيدنا له : « ليس مع الله ومع أوليائه غربة ، إنما الغربة مع النفس والهوى » ، ثم قال لي : « احفظ هذه الكلمة يا حساوي » . قلت : مرحبا . قال ذلك في الضيقة - أي الدهليز - خارجاً لصلاة العصر .

وتقدَّم هذا القول في غير هذا الموضع بزيادة كلام أنه قال : « أنا غريب ، ما أحد يعطيني شيئاً » . فقال له ذلك ، ثم قال له : « إن أُعطيتَ شيئاً من غير سؤال ولا استشراف فَخُذْ » ، قال : « فإن قيل لي: أتريد كذا ؟ » ، قال : « لا ، إنما هذه مشاورة » هـ .

أقول : معنى قوله هذا ، إن الأولياء قد تمكن فيهم دواعي الروح الداعية إلى الله ، والروح من العالم العلوي ، وهو في كل أحد ، لكنه أُهبِط إلى الجسم الكثيف لإقامة أحكام الله ، والنفس داعية الجسم ، ودواعيها مخالفة لدواعيه ، فلهذا كان معها غريب ، أي متباين معها كتباين الغريب مع من هو غريب

بينهم ، وتقدَّم قوله : « إذا بلغ الإنسان سن الكبر وهو بين أهله ، صار غريباً بينهم ، ومبايِن لهم في مطالبه ومآربه ، فيختارون غير ما يختار ، ويطلبون غير ما يطلب » ، أو كما قال هـ .

قال رضي الله عنه **: « إنما تمَّ النعيم لأهل الجنة لتمكن الأرواح منهم ، كما تمكنت الأجسام في الدنيا، لأن النعيم والراحة مع تمكن الأرواح ، والتعب والشدة مع تمكن الأجسام ، ولهذا كانت الدنيا سجن المؤمن » هـ .**

أقول : المراد بتمكن الأرواح والأجسام ، تمكن دواعيهما لمطالبهما ، فالنفس داعية الجسم ، تطلب له منافعه الدنياوية ، والروح دواعيه متمكنة في الجنة ، تطلب له ما ينفعه فيها ، فكل واحدة من الداعيتين متمكنة في عالمها ، تدعو إلى ما ينفع في داره ، فتم النعيم والراحة للروح ، وتم العذاب والتعب للجسم في الدارين . وفي الدنيا تتمكن مطالب النفس ، فيشتد بسبب ذلك التعب والإمتحان لعدم تأتيها للإنسان كما يريد ، فصارت الدنيا سجنه ، وفي الجنة تتمكن مطالب الأرواح وهي متيسرة لأهلها ، فلهذا تم لهم النعيم والراحة هـ .

قال رضي الله عنه **: « الزمان زمان ظُلْمَة وحجاب ، الطالب والمطلوب ، لأن الطالب محجوب بالظلمة ، ظلمة النفس والهوى ، والمطلوب محجوب بالنور ، نور العبادة والأذكار . وليس الأول كالثاني » هـ .**

أقول : وفي معنى هذا شرح لأربعة أبيات من نظمه ، وهي قوله :

فَاقْطَعِ الـحُجبَ الكَثِيْفَةَ بالـ ـــسَّيْرِ عَنْهَا غَيْرَ مُقْتَصِرِ
وَاقْطَعِ الحُجْبَ اللَّطِيْفَةَ بالـ ـــسَّيْرِ فِيْهَا غَيْرَ مُغْتَرِرِ
فَإِذَا جَاوَزْتَ مُرْتَقِياً سِدْرَةَ الأَسْرَارِ وَالقَدَرِ
فَتَوَقَّفْ وَانْتَظِرْ عَلَماً مِنْ عُلُومِ الأَمْرِ وَادَّكِرِ

فالحُجب الأولى « **الكثيفة** » ، حجب النفس وهي مراده في هذه المقالة بالظلمة كما بَيَّنَه ، والحُجب الأخرى « **اللطيفة** » ، وهي مراده بالنور ، وهي حُجب القلب بالعبادة ، كما ذكره وبيَّنه فيها أيضاً، يعني مطالبها . وشَرَطَ في الأولى السير عنها حتى يتعداها فيتركها كلها ، وهي مطالب النفس ، فيجاهد نفسه في قطع دواعيها عنها حتى تتجرد لله خالصاً . وَشَرَطَ في الأخرى – حجب نور العبادة – السير

فيها ولا يتركها ولا حدَّ لها ، فلا تترك ، فإنها العبادات والأذكار ، حتى يصل « **سدرة الأسرار** » والمواهب ، أي حتى تحصل له .

واستعار له لفظة سدرة المنتهى ، التي ينتهي إليها الأمر من الله تعالى ، وقد سألته مراراً وهو يشير لي بالسكوت عن هذا السؤال في كل مرة ، حتى أجاب في آخر سؤال ، وأنا أعرف أن المعنى الذي قصده وراء ذلك ، وإنما أجابني بهذا تسكيناً لخاطري ، وتسكيتاً لي عن السؤال بعد ذلك ، وذلك أني سألته عن معنى بيت في هذه القصيدة ، وهو قوله :

أَيـنَ أَيـنَ المُهْمَـلانِ عُـلاً   وَانْخِفَاضـاً فَـارم بِالبَـصَرِ

ثم قال بعده :

إنَّ سِرَّ الله مُسْـتَتِرٌ   في جَمِيعِ الكَونِ وَالبَشَرِ

« **إن سِرَّ اللهِ مستتر عن جميع الخلق والبشرِ** » ، فأَفْهَمَ أن هناك سِرًّا لا يطلع عليه الخلق ، وإنما هذا الجواب تسكينا لخاطري . قلت : ما المهملان ؟ ، فقال في جوابه بعد الثالثة أو الرابعة : « **هما حرفان مهملان من النقط ، كل حرف أول كلمة حاء مهملة ، أول حرف من اسم الحوت الذي عليه الأرض المسمى بالبهموت ، وعين مهملة أول حرف من اسم العرش** » ، فهما المهملان علاً وانخفاضاً ، وهو إشارة إلى أن هذا إلى الغاية في السفل ، والآخر الغاية في العلو ، وقد أشار إلى ذلك في مواضع من الديوان ، كقوله : « **شَاهَدْت مِنْ عَرْشٍ إِلى بَهْمُوتِ** » ، وقوله :

فَقُلْـتُ وَقَلْبِـي فِيـه أيُّ عَزِيْمَـةٍ   يُطَالِـعُ أَحْـوالَ الـذُّرَى وَالمَرَاكِـزِ

قال : « **يعني بالذرى العلو وهو العرش ، والمراكز السفل قوائمه** » ، يشير بالمراكز إلى حد منتهى سير السائرين ، وهو قطع حجب الظلمة ، وبالذرى إلى غاية علو همة الطالب ، وهو قطع حجب النور ، فإذا قطع الحجبين بلا إقامة في الكثيفة ، ولا غرور باللطيفة ، وصل إلى سدرة المواهب ، وحصل له غاية مطلوب الطالب .

وقد تقدم قوله : « **إذا صلحت النفس صارت مطالبها كلها إلهية ، مقربة إلى الله ، وصارت أهويتها كلها تابعة للحق وما جاء به رسول الله ﷺ** » ، وهذا هو المؤمن الكامل .

ولا يصل إلى هذا إلا بالشرطين الذَيْن شَرَطَهما في السياحة ، كما تقدَّم من قوله : « **لكن السياحة تريد قوة قلب وزهد ، وترجع السياحة في القلب ، فليسيح في قطع فلوات النفس حتى يصل إلى الحق** » ، يعني يسيح في قطع الحجبين المذكورة : حجب الظلمة وحجب النور ، على الوجه الذي ذَكَره ، من

قطع الحجب الكثيفة بالسير عنها ، وقطع الحجب اللطيفة بالسير فيها ، فإنها لا تنقطع ، لكنه يسير في كامل منها إلى أكمل ، فليس العبادة من كل أحد بمنزلة واحدة ، فرب ذرة من عمل أحد أعلى عند الله من أمثال الجبال من عمل أحد آخر ، ولهذا ورد : « سبق درهمٌ واحدٌ مائةَ ألف درهم » .

ولعل أمثال هذه المعاني من الديوان هي الأسرار التي قال : « **أودَعْنا فيه من الأسرار ما لم نودِعه في غيره من المؤلفات** » ، فافهم .

وإنما سمى نور العبادة حجب حيث قال : « **الحجب اللطيفة** » ، لأن ذوق لذة العبادة وهي التي أرادها بالحجب اللطيفة المذكورة إذا ركن إليه حجاب ، كما أن لذة مطالب النفس حجاب ، كما سماه بالحجب الكثيفة ، والسير عنها بقطع مرادها عن النفس ، ما زالت أمارة إلى أن تتجرد عنها فتصير مطمئنة ، وتظهر لها أنوار العبادة وتذوق لذتها ، فحينئذ لا تغتر بذلك ، فتفتر بل تُعرِض عن تلك اللذة، وتدأب وتجتهد إلى أعلى من ذلك ، إلى أن تصل إلى استحقاق مواهب الله ، فيتفضل بها عليه وهو الذي سماه « **سدرة الأسرار** » .

وقوله : « **القدر** » ، أي قُدِّر له ذلك ، حتى ناله بفضل الله لا بعمله ، فحينئذ توقف عن كل الدواعي التي تدعوه إلى أي أمر ، ويبقى منتظر لما يلقي الله على قلبه من الأمور .

قال رضي الله عنه في قوله ﷺ : « الناس معادن كمعادن الذهب والفضة ، وخيرهم في الجاهلية خيرهم في الإسلام إذا فقهوا » ، ***فقال*** : « **إذا كان هذا يجري في العموم ، ففي الخصوص أولى ، فمن عمل في صغره شيئاً من مكارم الأخلاق المحمودة شرعاً ، قبل أن يعلم كونه محمود ، أو لم يصدر منه عن قصد ، فهذا دليل على طيب معدنه ، فإذا كَبُر كان من ذلك في زيادة وغاية . ومن عمل في صغره خلاف ذلك على الوجه المذكور ، دل ذلك على خبث معدنه ، فكان في كِبَره في زيادة من الخبث وغاية من الشر . فمثال الأول : من ظهر من أول نشأته يحب الإحسان وصلة الأرحام وغير ذلك ، فكلما كَبُر كَثُر منه ذلك وازداد معه تمكناً . ومثال الثاني : من هو من أول بُدُوِّه متعلق بحب الدنيا ، ومنهوم بجمعها مع تكالبه عليها ، ولم يسمح بإخراج شيء منها ، فهذا كلما كبر ازداد شحاً وقساوة ونحو ذلك** » هـ .

أقول : فاعجب لعجيب فهمه في السُّنة ، وقياسه واستعارته مثال ، وهذا هو الميزان الذي يشير إليه على ما ذكرنا ، وتفصيله هنا شبيه بما ذكر فيما تقدَّم مما قاله في معنى حديث : « **إن العبد ليُحرَم الرزق بالذنب يصيبه** » ، وقوله : « **إذا كان عند العبد للرزق وجوهٌ متعددة ، فأذنب في واحدٍ منها ، حُرِم الرزق**

من ذلك الوجه الذي أذنَبَ فيه دون غيره الذي لم يذنب فيه ، كما إذا كان تاجراً وحراثاً ، فأذْنَبَ في جهة الحرث دون جهة التجارة ، فيُحرَم الرزق من جهة الحرث دون التجارة وبالعكس ، وكذا له أسباب كثيرة فلا يُحرَم إلا من جهة ما أذنب فيه » هـ .

قال رضي الله عنه : « كلما ازداد الانسان خسة ودناءة ، ازداد تكبراً وافتخاراً ، ووجود أحد هذين يدل على اتصاف الشخص بما ذكر » .

قال رضي الله عنه : « الدين كالطريق ، فمن رأى طريقاً متسعاً سلكه أحد من الأخيار فليسلكه ، أو ضيقة فذاك مشكل ، وفي الحديث : اضطروهم - أي اليهود والمنافقين - إلى أضيق الطرق » .

وقال : « كلما بَعُدَ ما أخبر به الأولياء من المغيبات كان ذلك أعظم للكشف » .

قال : « نصلي خلف كل بَرٍّ وفاجر ، كما في الحديث ، ولا نعيد ، لأن هذا تعنت وغُلُوٌّ في الدين ، وقد صلى الأئمة خلف الدُّوَل الظالمين والمبتدعين ، كدول بني العباس وغيرهم ، وإذا صلينا جمعة لا نعيد ظهراً » هـ .

أقول : أي كما صلى عبدالله بن عمر وغيره من الصحابة رضي الله عنهم خلف الحجاج ، وكفى به ظالماً ، صلوا خلفه جُمَعاً وغيرها ولا أعادوا ، وصلى الإمام الشافعي رضي الله عنه الجمعة في بغداد وفيها جُمَع متعددة وما أعاد . وتأويل أن ذلك لضرورة ، فمعلوم أن الجُمَع لا تُكرر إلا لضرورة ، وإذا زالت الضرورة فتبقى الجُمع على حكمها ، كما شُرِطَ في الجامع أن يكون متصلاً بالبلد، فإذا كان متصلاً ثم انفصل بعد ذلك بسبب ، كسيل أو غيره ، بقي على حكمه ، وتصح الجمعة بعد انفصاله، وكذا لو كانت حافات البلد بينهم عداوة ، وجُعِل في كل حافة جامع ، لئلا يدخل حافة الجامع الواحد خوف الفتنة ، ثم زالت العداوة بينهم وصاروا مصطلحين ، فيستصحب الحكم وتصح صلاة الجمعة، وهكذا في أحكام كثيرة. وما سُمِّي علم الدين بالفقه إلا لكونه تفهم منه أحكام كثيرة ، منها ما يستصحب الحكم فيه ، ومنها ما يقاس الحكم عليه وما يلحق به هـ .

قال رضي الله عنه : « اجتماعات الخير يحضرها ناس ما يشاهدونهم على مقتضيات نياتهم ، بخلاف اجتماعات الشر ، فلا يحضرها من حضر تلك ، وكفى في اجتماعات الخير شرفاً أن الله يباهي بهم ملائكته » .

قال رضي الله عنه : « وكل ما ذُكِرَ عن الأكابر من الكلام الذي ظاهره التبجح ، كقول الشيخ أبي الحسن الشاذلي : منذ أربعين سنة ما حُجِبَت عن الله . وقول أبي العباس : لو حُجِبْتُ عني جنة عدن لحظة ، ما عددتُ نفسي من المؤمنين . كل هذا مؤولٌ وليس على ظاهره » .

قال رضي الله عنه : « إحسانك إلى من أساء إليك أكمل منه إلى من أحسن إليك ، وتقديمك الإحسان إلى المحسن أولى وآكد » هـ .

أقول : أي أكثر ثواباً ، لما فيه من مخالفة النفس ، ولكون مقابلة الإساءة بالإحسان من أخلاق الأنبياء ، ولكن مقابلة الإحسان بالإحسان أحق ، لقوله تعالى : ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ .

قال : « لو شرحنا بعض الرسائل لبلغ ذلك كراريس ، لأن أكثرها حقائق وحِكَم وأسرار ، وقد قيل : إن أسرار أهل هذا الشأن في مراسلاتهم . وقد فني المتحققون بذلك ذوقاً لأنها من زمان بعيد ، ولم يبق إلا العلم بها لبعض الناس ، وهو النادر ، وأحوال المجتهدين مختلفة » هـ .

أقول : يشير بذلك إلى من ذكر ، يعني اجتهادهم إلى أن يبلغوا إلى التحقق بذلك ذوقاً وعلماً ، مختلف من كامل في الإجتهاد وأكمل منه ، فيحصل لكل بقدر اجتهاده ، ومواهب الله للعبد غالباً بقدر ما اجتهد . قال الإمام الغزالي في كتاب « سر العالمين » : « اعْلَم أنه ما فاضت على أحد سعادة من غير نَصَبٍ واجتهاد ، إلا نوادر من الناس ، وهذه حالة تشبه حال صاحب الكيمياء والفوز بالكنوز ، فما يترك العاقل مكاسبه اعتماداً على وجدان الكنوز ، بل يطلبون أرزاقهم بالحركات البدنية والنفسانية. قال تعالى : ﴿فَٱمْشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ﴾، فاخدِمْ حتى تُخْدَم . فإبريسم دودة القز بعد التعب والتدرج يصير دِراجاً للملك ، وبقدر الهموم تكون الهمم ، وينقلب الطبع بالمجاهدة إكسيراً ، فنيل الرتب لا ينال إلا بالتعب ، وأفضل الأعمال أحمزها » ، أي أشقها ، لقولهم : « رأيت في تعبي في تحصيل الأمر الموت الأحمر » ، ولهذا كانوا أشح ما يكونون في إظهار العلوم اللدنية الذوقية ، لاشتمالها على الأسرار الإلهية ، التي لا تظهر إلا بإذن من الله .

وتقدم قوله : « قد نسمح بشيء من هذا العلم في المجالس والمذاكرات ، ولا نسمح بذِكْره في المؤلفات والدفاتر ، فيكون عرضة للبر والفاجر . وأما في المذاكرات فلا يعيه إلا من هو من أهله ، وأما

من هو ليس من أهله ، فشيء مر عليه لا يبقى في يده منه شيء » ، تقدم ذِكْره في هذا النقل عما ذَكَره في بعض المكاتبات ، وأما قوله هنا : « **قد قيل : إن أسرار أهل هذا الشأن في مراسلاتهم** » ، يعني عند الإذن لهم في ذِكْر شيء منه في المراسلات - إذا دعى إلى ذلك داع - بقدر ما أُذِن ودُعِي إلى ذلك .

وذَكَر في تلك المراسلة أن صفة الإذن لا يُعرف إلا من علومهم ، وذَكَر أنه لا يذكُره لأحد إلا مشافهة لمن هو من أهله هـ .

قال : « **حصلت في نحو خمس سنين أو ست سنين مصائب ، ولم أرها إلا مختصة بأهل البيت ، وإن تمت هذه فهي آخرهن** » هـ .

أقول : يعني بأهل البيت السادة بني علوي ، ويعني بهذه : « **وهي آخرهن** » ، مصيبة يافع وفتنتهم، وامتحانهم للناس . ويعني بآخرهن ، أي أبلاهن وأطولهن ، وكان قبلهم فتنة الزيدية وعيثهم في البلاد وما أبطت مدتهم ، فتوسل في إذهابهم إلى الله بالقصيدتين التي في مدح النبي ﷺ ، وأولها : « **بنفسي أفدي خير من وطيء الثرى** » ، ونظمها يوم ١٧ جماد الآخر سنة ١١١٧ ، وفيها :

حَبِيبِي رَسُولَ الله إِنِّي قَصَدْتُكُم ... لِكَشْفِ مُهِمٍّ في مَرَابِعِنَا طَرَا

حَبِيبِي رَسُولَ الله قَادَتْهُ فِرْقَةٌ ... مُضَلِّلَةٌ لَيْسَتْ لِنُورِ الهدَى تَرَى

إلى آخرها . والأخرى التي في مدح الشيخ عبدالقادر الجيلاني ، وأنشأها يوم ١٩ من ربيع الثاني من تلك السَّنة، وفيها :

يَا شَيْخُ مُحْيِي الدِّينِ يَا أُسْتَاذَنَا ... وَمَلَاذَنَا أَدْرِكْ بِغَوثٍ حَاضِرِ

إِنَّ الكُرُوبَ وَكُلَّ خَطْبٍ هَائِلٍ ... قَدْ يَمَّمَتْ سُوحَ الفَقِيرِ القَاصِرِ

فَانْهَضْ بِهِ وَادْرِكْ لها مُسْتَنْجِداً ... مُسْتَنْصِراً مُسْتَنْظِراً لِبَوَادِرِ

إلى آخرها . فأخرجهم الله من حضرموت هراباً وأكثرهم ماتوا في الطريق ، ثم جاء بعدهم غيرهم، وبقوا يتواردون لأمر أراده الله ، وقد حذرهم في معاملاتهم من هذه فلم يمتثلوا .

وقد كان جاءها الزيدية نحو سنة ١٠٧٢ ، وخربوا في البلاد ، وتوسل إلى الله بالنبي ﷺ وبالسادة، في القصيدة التي قال فيها :

يَا سَيِّدَ الرُّسْلِ هَادِينَا ... هَيَّا بِغَارَةْ إِلَيْنَا الآنْ

وأزالهم الله بسرعة . وأما فتنة يافع هذه فأبطت ، حتى شرد الناس عن بلادهم إلى بلدان كثيرة ، فدخولهم إلى تريم من جهة حضرموت أول يوم من عاشور سنة ١١١٧ ، وكان يوم جمعة ، وإلى الآن، وهو سنة ١١٧١ ، وما انقضت ، فربما تبقى إلى خروج المهدي .

وكونها في عاشور ، وامتحان السادة بها ، كما إن الحسين رضي الله عنه قتل فيه في عاشره ، فلهم في ذلك أسوة حسنة . والأمور جرى بها المقدور ، وعند خروج المهدي يشتد الكرب على الأشراف خاصة أكثر من غيرهم ، ولهذا قال هنا : « **مختصة بأهل البيت** » ، يعني أنهم معروفون بخصوص اشتداد المحن سابقاً ولاحقاً ، فقرب خروج المهدي يخرج السفياني ، وهو من ذرية أبي سفيان بن حرب، ويتتبع السادة بالقتل والإيذاء ، لما بين بني أمية وبين بني هاشم من العداوة الخالدة التالدة .

ولم يعلم بذلك منهم أحداً ، إنما هو طبع وجِبِلَّة جُعِلت بينهم ، أصلها أن هاشماً - جد بني هاشم- خرج من بطن أمه مع أخيه أمية جد بني أمية توأمين ، وخرج هاشم أولاً ، والآخر في قفاه لازقاً به ، وما فك منه إلا بقصه منه بالموس ، على ما أشار به بعض حكماء العرب ، فخرجا متفاخرين متباغضين، وكان هاشم هو المقبول عند العرب ، لتشريفه برسول الله ﷺ دون الآخر ، وصار التباغض بين ذريتهما طبعاً ، ويكون لبني هاشم في الآخر النصر عليهم ، فإذا خرج السفياني جعل يتتبع السادة بالقتل والإيذاء ، حتى يرسل إلى ملك القسطنطينية الصغرى - وهي إسطنبول - أن يرسل لهم بمن عنده منهم ، مربطين في مجامع من حديد ، فيفعل ويرسلهم له كذلك فيقتلهم .

ثم يرسل جيشه إلى الحرمين ليستأصلهم ، فيعيث في المدينة أياماً ، ثم يسير إلى مكة لذلك ، فإذا وصل الجيش قرب مكة بقديد خُسِف بهم ، ولم يطَّلع عليهم إلا راعي غنم ، يراهم وكثرتهم أولاً فيستعظم شأنهم ويقول : لا تحملهم مكة . لكثرتهم ، فيغيب عنهم لحظة ، ثم يرجع إليهم فلا يجدهم، ولم يعلم بشأنهم ، حتى يرى قطيفة قد بلعتها الأرض إلا قليلاً منها ، فيجرها فلا يستطيع إخراجها، فيستدل بذلك على أنهم بلعتهم الأرض .

وهذا هو الجيش الذي قال النبي ﷺ : « يخسف بجيش ببيداء من الأرض » ، ولم يعلم بهم إلا راعي غنم ، ولم ينج منهم إلا فارسان ، أحدهما يرجع إلى السفياني ، فيخبره بأن جيشه ابتلعته الأرض، فيقع في قلبه موقعاً ويقول : إنه فعل أمراً منكراً . حتى إنه بايع المهدي ، والآخر يمضي إلى مكة ، فيخبرهم بأن جيشاً قصدهم فابتلعته الأرض ، وكان المهدي إذ ذاك قد خرج بمكة متخفياً ، ينتظر هذه العلامة ، وهو مجيء الفارس يخبر بأمر الجيش ، وكان قد اجتمع بمكة السبعة الأعيان .

وكل ذلك قد تقدَّم فيما قدَّمناه من أخبار المهدي ، على ما نقلناه من كلام الإمام السيوطي ، فانظره قبل هذا بنحو كراس هـ .

قال رضي الله عنه : « **أمور الدين والآخرة إنما هي على قدر المتكلم بها . قال الله تعالى : ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾** » ، *قال* : « **أي إنها عند الله تكون قريباً وإن بَعُدَت** » هـ .

يعني عند الخلق هـ .

وذَكَرَ امتداد مدة الظلمة في الجهة ، ولم يصبهم شيء ، *فقال* : « **هم مع ظلمهم ، وهؤلاء مظلومون يدعون عليهم ، وإنما زادهم الدعاء عليهم جراءة ، ولو أن دعاء المظلوم مستجاب ، لكن الله سبحانه حليم لا يَعْجَل ، فإذا أخذ ، أخذ بمرة واحدة . فعسى يحصل للناس فرج من السماء - أي من الله - فقد أفرط بهم الطمع ، حتى غيروا على أنفسهم ، وانجر الغيار على الناس ، وما هذه صفة من له عقل ، لأن العاقل ألَّا يجر لنفسه ما ينفعها - أو قال : لا يجر لنفسه ما يُنَفِّر عنها - وهؤلاء نَفَّروا الناس وأضعفوهم.**

وما عاد أهل الزمان إلا كحيتان البحر ، يأكل الكبير منهم الصغير ، والوعد القيامة ، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾﴾، وما عاد لهم وعد إلا القيامة ، ولم يبلغنا فيما سمعنا أن حضرموت صارت إلى هذه الأمور في وقت من الأوقات ، وكثرة الحركات وشدتها على الضعفاء والمساكين ، وهي حركة الفعل ، أفعال الخلق حركة ، لا حركة الباطن حركة المقادير ، وحركات الكامل .. - إلى آخره - .. وهذه هنا الجلد الثاني » هـ .

أقول : قوله : « **غيروا على أنفسهم** » ، يعني الدولة وأعوانهم ، حتى « **انجر الغيار على الناس** » ، يعني الرعية ، وكذا قوله : « **هؤلاء نفَّروا الناس** » ، يعني الدولة والناس الرعية .

وقوله : « **إلى هذه الأمور** » ، أي في وقت يافع ، من شدة الظلم وتعاطي الربا واضطرار الناس إلى الإقتراض منهم ، ويحسبون في كل شهر شيئاً زائداً على رأس المال ، حتى لا يتم الحول إلا قد بلغ أضعافه . حتى إن رجلاً من السادة اقْتَرَضَ من أحدهم ثلاثمائة قرش ، وفي ثلاث سنين بلغها نحو زائد على الألف ، ثم أخرج الشريف من نخل له يبلغ ذلك أو أكثر ، وحازه دونه ، وأي ظلم ومنكر أفظع من هذا ؟ ولو انقادوا لأشوار سيدنا وما يدعوهم إليه ، لقَوَّمَهُم على الحق ، وسَلِمُوا من الشر . وإلى هذا أشار بقوله : « **لو سمعوا لنا ، أو وُلِّيَ والٍ يسمع لنا ، لبيَّنَّا لهم أموراً من الحق ما سمعوها** » ، أو كما قال .

قوله : « **وهي حركة الفعل ..** » إلى آخر المقالة من قوله : « **الجلد الثاني** » ، هكذا رأيته في الأصل

الذي نقلت منه ، وفيه اشتباه يقومه الفطن بفهمه ، وقد نسيت فحوى الكلام لطول المدة ، فكتبته هنا على ما رأيت بحروفه حرفاً بحرف .

قوله : « **وما عاد لهم وعد إلا القيامة** » ، يفهم ما ذَكَرته في ما تقدَّم ، أنه ربما تتأخر مدة هؤلاء الظلمة يافع إلى قرب خروج المهدي ، وكذا قوله : « **إنها آخر الفتن** » ، لشدة ظلمهم وخبث معاملاتهم مع الناس ، ومعاملة الناس معهم ، فإذا كان لهم الآن نحو خمس وخمسون سنة .

وقد ذَكَر الإمام السيوطي أن المهدي إن أسرع فيخرج سنة ١١٨٠ ، وإن أبطأ ففي ١٢٠٠ ، ولا يتعدى سنة ١٢٠٤ ، وما بقي الآن من الثمانين إلا نحو ٩ ، ونحن الآن في رجب من سنة ١١٧١ ، فافهم من ذلك عظم كشف سيدنا حيث قال : « **إنها آخر الفتن** » ، وقوله : « **وما عاد لهم وعد إلا القيامة** » ، وقد قال كما قدمنا : « **كلما بَعُدَ ما أخبَرَ به الأولياء من المغيبات كان أعظم للكشف** » .

وتقدَّمت رواية لبعض الأحاديث أنه يُبَايَع للمهدي سنة ١٢٠٤ هـ .

قال رضي الله عنه : « **ما يُحتَج بالقضاء والقدر إلا بعد ما يقع المقدور ، وأما قبله فلا ، وإلا لتعطلت الأشياء** » .

قال رضي الله عنه : « **الأكابر في آخر أعمارهم يخلُون بأنفسهم ، لأن أمور الحق ما يسعها الخلق ، ويتروحون من ذلك بالمباحات إذا أحسوا غَلَبَة ، وفي المباح لهم راحة** » .

ثم ذَكَر قصة موسى عليه السلام بعد المناجاة وضيقه من الخلق ، *ثم قال* : « **وإذا كان صاحب تمكين لا بد له من تلوين مع الناس** » هـ .

أقول : أي يعني يخالق الناس كُلًّا بما يليق به ، ويكلم كل أحد بما يناسبه ، فهذا الإختلاف هو تلوينه مع الناس كل بحسبه هـ .

قال في قوله تعالى : ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾، *قال* : « **ومتى يشاء الله ؟ إذا كنت قادراً تفعل باختيارك ؟ فقد شاء الله ، والله سبحانه ما يسأل الناس إذا جاؤوه يوم القيامة إلا عن الأعمال، لا عن أمثال هذه الأشياء** » .

وقوله : « **ومتى يشاء الله ؟** » ، هو سؤال يخاطب به السامع ، وجوابه : « **إذا كنت قادر .. إلخ** » هـ .

قال رضي الله عنه : « مدة ما كُنّا في المدينة ، عزمنا على ثلاثة أشياء أنّا لا نستعملها : سماع الملاهي ، واستعمال الطّيب الأحمر ، وأكل الكُرّاث . ولما خرجنا إلى الحرمين تَجَنَّبْنَا ذِكْر الأوطان ، وأن لا تخطر لنا ببال ، ولا نسمع القصائد التي تذكرناها ، ولكن الخواطر التي يخطرها الله على القلب فما عاد ذلك إلينا » ، أو كما قال .

قال رضي الله عنه : « أول كتاب كتبه إلينا الشيخ أحمد القشاشي ، كان أول خطبته : بسم الله مجراها ومرساها ، من الله مبتداها وإلى الله منتهاها » ، قال : « وأجازنا في أشياء مخصوصة ، ونجيز فيها أناساً مخصوصين » ، وسمعته يقول : « مما أخذنا عنه من الأوراد ، قول : أستغفر الله للمؤمنين والمؤمنات سبعاً وعشرين مرة بعد كل صلاة من الخمس » .

قال : « وأما السيد محمد بن علوي ، فهو في كل كتاب يكتبه إلينا ، يقول في أوله : من الداعي بطول البقاء وعلو الإرتقاء ، محمد بن علوي ، إلى السيد الفاضل فلان بن فلان » .

قال : « وأجازنا إجازة عامة في الخرقة وغيرها ، ونجيز فيها عموماً . وأرسل إلينا يأمرنا بالخمول وعدم الشهرة ، وذَكَرَ أنه حصل عليه من ذلك تعب كثير » هـ .

أقول : كان الخمول هو مقصوده ، سيما وقد أمره شيخه المذكور به ، وقد سمعته غير مرة يقول : « لا أحب الشهرة لي ولا لمن أحب » ، ولكن أراد الله له الشهرة ، حتى أشهره عند الإنس والجن ، وما أراده الله لا بد منه ، ولا يكون إلا ما أراد سبحانه .

وقال سيدنا : « كان في نفسي أشياء أهمني السؤال عنها ، وسألت عنها كثيراً ممن أدركتهم من الصالحين في جهات حضرموت » ، وذكر منهم من حدرى : في اللسك ، والواسطة ، وقسم ، وعينات. وفي علوى : في سيؤون ، ومَرْيَمة ، وتَرِيس ، وشبام ، ومدودة وغيرها .

قال : « ولا أحد أجابني عنها جواباً شافياً . وهي ثلاث مسائل ، وطال علينا ذلك ، فرأيت الحَكَم باقشير - أو قال : أحداً من متقدمي آل باقشير - » ، وهم جماعة أهل بيت علم وصلاح ، ويذكرون أنهم من ذرية سيدنا عمر بن الخطاب .

قال : « فسألته عن المسائل ، فأجابني عن مسألتين جواباً شافياً ، وقال لي : وأما المسألة الثالثة ، فلا يجيبك عنها إلا السقاف . فخطر ببالي حينئذ أن مراده بالسقاف من هو من أهل تسليك المريدين في ذلك الوقت من آل السقاف ، فسألت عن من هو المسلك اليوم من آل السقاف ؟ فقيل لي : السيد محمد بن علوي . فكتبت إليه أسأله عن تلك المسألة ، وأطلب منه إلباس الخرقة » .

إلى هنا ما سمعت سيدنا يقول .

ثم قال لي ابن أخيه السيد عمر بن علي الحداد ، وقال : إني سمعته يقول : « **لما كتبت إلى السيد محمد أسأله إلباس الخرقة وجواب المسألة ، كتب لي يعتذر ويقول : لا يمكنني ذلك ، حتى يأمرني النبي ﷺ . وأرسل لي كتاباً معتذراً ، وبعدما أرسل كتابه ووصل حامله إلى جدة ، حصلت للسيد محمد الهمة على زيارة النبي ﷺ ، فسار إلى المدينة وزار ، ثم أرسل جواباً غير الأول ، بالخرقة وجواب المسألة** » .

ثم إني أقول - وأنا الفقير أحمد الحساوي - : أنّي زرت مع الحبايب عيال سيدنا عبدالله الحبيب علوي والحبيب حسن ، سرنا لزيارة السيد أحمد بن عيسى في ذي القعدة سنة ١١١٥ ، وحضرنا مع السيد أحمد بن هاشم الحبشي زيارة جده الشيخ أحمد الحبشي مولى الشعب ، يوم الجمعة ١٤ . ثم جلسنا معه مجلساً فسيحاً أنيساً ، وجعل يحكي لنا بما بينه وبين سيدنا من الخلطة والنسبة والصحبة ، فإن والدة سيدنا بنت عمه عيدروس بن الشيخ أحمد صاحب الشعب ، وكان السيد أحمد بن هاشم من جماعة السيد محمد بن علوي والملازمين له ، قال : « كنت مع السيد محمد لما سار إلى المدينة ، فلما وقف في المواجهة تلقاء النبي ﷺ حصل عليه حال عظيم وغيبة ، وجعل العرق يتصبب من جسده حتى سقط في الأرض ، ورمى بثيابه كلها ، وما بقي عليه إلا سروال ، حتى ترك رأسه مكشوفاً . ثم بعد ساعة سُرِّي عنه ولبس ثيابه ، ثم قال لي : هات دواة وقرطاساً نكتب للسيد عبدالله جواباً غير ذلك الكتاب، فأتيته به ، وجعل يملي عليَّ وقال : اكْتُبْ: إنك كتبتَ لنا تطلب إلباس الخرقة وجواب المسألة ، وإنَّا اعتذرنا عن ذلك إلى أن يأذن لنا النبي ﷺ ، وإن النبي ﷺ قد أَمَرَنا بذلك ، وها هي واصلة إليك . فوصلته » .

أقول : ولأجل هذه الأمور التي حصلت على السيد محمد ، اقْتَصَر سيدنا على الكلام المتقدِّم ، ولم يذكر هذا الكلام كله ، إلى تمام القصة .

قال سيدنا : « **فاتفق وصول الخرقة منه إلينا يوم وفاته** » ، فوصلت في اليوم الذي توفي فيه ، يوم رابع عشر من ربيع الآخر سنة ١٠٧١ ، ولكون وصولها ذلك اليوم ، كان فيه إشارة إلى أنه خليفته ، وهو تحقيق لا شك فيه . وأشار سيدنا إلى ذلك في القصيدة حيث قال :

رَعَى اللهُ جِيرَانَ الأَبَاطِحِ وَالصَّفَا ... فَقَدْ جَاوَرُونِي بِالجمِيلِ وَمَا جَارُوا

وَأَمَّا هَوَاهُـمْ وَالغَـرَامُ فَقَـدْ سَـطَا ... عَـلَيَّ وَ لاَ لَـوْمٌ عَلَيْهِـمْ وَلاَ عَـارُ

فَإِنِّي رَضِيتُ المَوْتَ فِيهِـمْ صَبَابَةً ... وَإِنِّيَ مُرْتَـادٌ لِـذَاكَ وَمُخْتَـارُ

بَقِيَّـةُ قَـومٍ قَـدْ مَضَـوْا وَخَلَفْتُهُـمْ ... وَهُمْ خَلَّفُونِي فِي الحِمَىَ عندمَا سَارُوا

وهذا الكلام بجملته حفظت بعضه من لفظه كما بينته ، وبعضه عن ابن اخيه عنه ، فإنه قد يمر

عليهم ضحى يوم الجمعة إذا جاء من الحاوي إلى البلاد لصلاتها ، فإذا جاءهم انبسط معهم في الكلام، فيذكر هذا الكلام وغيره ، ولزيارة بنته وهي زوجة ابن أخيه المذكور الكبرى أولاً ، واسمها : بهية ، ولها عنده موقع عظيم ، حتى إنه يشاورها في بعض الأمور ، فتوفّت وخَلَّفت وَلَدين وبنتاً ، ثم أخذ ابنته الصغرى واسمها سلمى على اسم أمه ، وتوفي ابن عمها عنها ، وخَلَّفَ أولاد أوبنات لا أعلم عددهم. وبقية الكلام المتقدم نقلته عن السيد أحمد بن هاشم الذي أمره السيد محمد يأتي بدواة وقرطاس ، وأملى عليه الكتاب الأخير الذي أرسل معه الخرقة ، وكان بينه وبين سيدنا مع القرابة عشرة وصحبة ، ومن جملة ما بينهما من الخلطة والصحبة والمحبة ، أن سيدنا أَلَّفَ له « رسالة المعاونة » يوصيه بها ، وهو المراد بقوله فيها : وعليك يا أخي بكذا و كذا ، كلما قال ذلك فيها ، فهو المشار إليه به .

وحكى لنا السيد أحمد في ذلك المجلس ، قال : « لما أمرني السيد محمد بكتابة ذلك الكتاب ، وأرسل الخرقة إلى السيد عبدالله ، أخذتني الغارِيَّة أن لو كان ذلك الإلباس لي ، كيف يلبسه وهو بحضرموت ونحن عنده وما ألبسنا ؟ » ، ولكن أبى الله إلا أن يكون حيث أراد ، ثم توفي السيد أحمد في عشرة ذي الحجة من السَّنة المذكورة ، واستأذنت سيدي في المسير إلى الصلاة عليه وحضور جنازته ، فأذن لي وحضرت ذلك ، وسمعت سيدنا قال : « رأيت في النوم كأنّي قابض بتلابيب السيد أحمد بن هاشم ، وقابضٌ على حَلْقِهِ أقول له : امْشِ أحاكمك إلى رسول الله ﷺ ، ولم أعلم لذلك سبباً » هـ .

أقول : ولعل ذلك بسبب تلك الغارية التي تقدمت من قوله لنا ذلك . ولسيدنا مع السيد أحمد بن هاشم كثير من المكاتبات والوصايا والإشارات .

وأما السيد محمد بن علوي فما رآه سيدنا ولا اجتمع به ، إنما هي المكاتبات بينهما ، وهو شيخه الذي عمدته عليه ، فإن هؤلاء لا يشترط في حقهم الإجتماع الحسي ، وإنما العمدة عندهم على الإجتماع بالأرواح ، كما ذكر الشيخ عبدالقادر بن شيخ العيدروس ووطنه سورت ، وأن شيخه الذي عليه عمدته السيد حاتم الأهدل ووطنه بندر المخا ، وما اجتمع به حسًّا قط ، إنما هي المكاتبات والإجتماع الروحي ، قال : « وآخر كتاب كتبتُه إليه ، أسأله عن سؤال خاص ، أطلب منه الجواب عليه ، وقلت لحامل الكتاب : إن أدركتَه وإلا ضع الكتاب على قبره » ، فحين وصل المخا رآهم راجعين من دفنه ، فوضع الكتاب على قبره ، قال الشيخ عبدالقادر : « فجاءني جوابه وفيه الجواب عن المسألة على أكمل وجه » ، ذكره في « الزَّهر الباسم في مناقب شيخه الشيخ حاتم » .

قال سيدنا : « ولم نجتمع بالسيد محمد بن علوي ، بل بالمكاتبة بيننا وبينه » ، وتوفي السيد قبل مسير سيدنا إلى الحج بنحو ثمان سنين ونصف ، فإنه توفي ١٤ ربيع ثاني ١٠٧١ ، وسيدنا حج ١٠٧٩ هـ .

قال رضي الله عنه : « ولما حججنا كان نيتنا بالمسير إلى مكة بعد نية أداء فريضة الله في الحج وإقامة مناسكه ، لطلب بحرين : بحر في العلم الظاهر ، عالم بالكتاب والسنة على الإطلاق . وبحر في العلم الباطن ، متبحر فيه . لأن في باطننا إذ ذاك سؤالات كثيرة في هذين العِلْمَيْن ، فلم نر في الحرمين أحداً منهما ، ولم نعلم أهما اختفيا في تلك السنة أم فُقِدا ، لكنا رأينا آثاراً يسيرة ، كالشيخ أحمد القشاشي والشيخ عبدالخالق المغربي ، وكان يقال أنه من أهل الخطوة » .

وتقدَّم ذِكْر اجتماعه به في موقف عرفة ، وأنه قال له : « أنت من رجال السِّر الذين سألت الله أن يجمعني بهم ، فأراني ثلاثةً أنت منهم . قال : أجل - أي نعم - وطلبت منه الإجتماع بمكة ، فقال : إن سِرْت الليلة إلى مكة ، يعني ليلة العيد حصل الإجتماع ، وإلا الوعد إلى المدينة . فلم يتفق لنا المسير إلى مكة تلك الليلة ، لاشتغالنا بالمناسك » ، *قال* : « إنه حج بالخطوة وقضى مناسكه ، وأصبح سائراً من يومه إلى المدينة » .

أقول : على هذا إنه ما أقام بمنى الأيام الثلاثة ، ولعله ذبح عن ذلك هدياً .

قال : « فلم نتفق به إلا في المدينة ، وكنا ظنناه متجرداً ، وإذا به له بيت وحاشية ، وطلب منا الإلباس فألبسناه ، وكان من أهل البيوتات . قال لي : إيش مذهبك ؟ وكنت أعتقد وأرى إنما مذهبي الكتاب والسنة ، وأردت أن أقول له ذلك ، فخشيت من إنكار بعض الناس ، فقلت : مذهبي شافعي ، فقال : لا ، إنما مذهبك الكتاب والسُّنة . ولم يكاشفنا أحد إلا هذا ، ورجل في الهجرين من أهلها ، من آل بن نعمان ، أضمرتُ بحضرته هل لنا عودة إلى الحرمين غير الأولى التي حججنا فيها الفرض ؟ فكاشفني ، وقال : يكون ذلك بعد مدة طويلة » هـ .

أقول : ولذلك كان كثيراً ما يقول : « نحن موعودون بعودة إلى الحرمين » ، يشير إلى مكاشفة هذا الرجل له هذه . ولعله حصل ذلك لسيدنا في الباطن ، كما وقع للشيخ سهل التستري لما حج ورآه ذلك الرجل الذي من بلاده ، وحلف بالطلاق أنه رآه ، وحلف آخر من أصحابه بالطلاق أنه رآه يوم عرفة في مكانه ، ولا فَقَدَهُ أصحابُه إذ ذاك ، وسألوه معاً ، فقال : « لا تأتوني معاً » ، فأتاه كل واحد وحده ، وأفتى كل واحد منهما أن يمسك زوجته ، وصدَّق كلًّا منهما ، وكذلك وقع ذلك لغير سهل من الصالحين ، كما اشتهر كثير من ذلك لكثير منهم .

وما اشتهر عن سيدنا شيء لعظم مكانته وتمكنه وكراهته لظهور مثل ذلك عنه حتى تعبير رؤيا رأيتها ، سألته عن تفسيرها ، فسألني عن شروطها ، ولم يذكر لي تفسيرها ، حين رأيت أني أسبح في ماء، وتكررت لي هذه الرؤيا نحو ستين مرة ، وذلك حين وصولي إلى حضرته ، فسألتُه فقال : « الماء

عذب؟» ، قلت : نعم ، قال : « **وأنت تحسن السباحة ؟** » ، قلت : نعم . ثم إنه سكت ، فألححت عليه في طلب تفسيرها فلم يرد لي جواباً – مع أنه يحب أن أعرفه من غيره – لكن من قوة تصرفه وتمكنه الذي أعطاه الله ، ساقني القدر إلى فتح كتاب « حياة الحيوان » لأراجع كلمة ، فحين فتحت الكتاب ، قابلني فيه خط أحمر كما هي عادته ، وإذا به يقول : « التعبير ، من رأى أنه يسبح في ماء والماء عذب وهو يحسن السباحة ، فإنه يخالط رجلاً من الأكابر » .

فلما إن سيدنا عرف هذا التعبير ، بدليل سؤاله عن الشرطين المذكورين : كون الماء العذب وكون أني أحسن السباحة ، ورأى أن الإشارة إليه ، بكوني أخالط رجلاً من الأكابر ، وما يكون إلا هو ، كره أن ينطق لي بتعبيرها . فإلى هذا الحد يتجنب الإشارة إلى نفسه ، كيف بمن يقول : أنا فلان ، وأنا أفعل ، فلما تحقق في هذا المعنى أشهره الله شهرة طبقت الخافقين عند جميع أصناف الخلق .

قال : وكاشفه رجل في بلاد تعز من بلاد اليمن عام سار إلى الحج ، قال : « **وذلك أنه كان معنا رجل يدعي الشرف ، وفي نفسي من دعواه الشرف شيء** » ، يعني أنه غير مصدِّق دعواه الشرف ، *قال* : « **فاتفق أن كنا عند هذا الرجل ، وكان يُذكَر بالكشف ، فأضمرتُ في نفسي أن يخبرني عنه بأمره ، فقال: الرجل ليس بشريف** » ، *قال* : « **ولم يكاشفني أحد إلا هؤلاء الثلاثة** » .

أقول : كل هذا تقدَّم ، وإنما أعدته لأجل ربما أن أحداً يقف على هذا الموضع ، ولا وقف على ذلك فيما تقدم ، وهؤلاء الثلاثة المذكورون هم الذين عناهم بقوله لعبد الخالق : « **فأراني ثلاثة أنت منهم، قال : أجل** » ، يعني الذين أراني الله منهم المكاشفة هؤلاء الثلاثة ، وأنت واحد منهم ، فأراني منهم الثلاثة المكاشفات المذكورة .

وأما مكاشفات سيدنا لي ولغيري فكثير لا تحصى ، من جملتها المكاشفة العجيبة لي بقصة زين العابدين الدمشقي كما تقدَّم ، وتفصيل شأنه ، وكنت أتطلَّع لحقيقة أمره مدة أربعة عشر سنة ، ولم أقف عليها حقيقة يتحققها خاطري ، لا منه ولا من غيره ، فغيره يقول : « لا علم لي به » ، وهو يقول قولاً ما دخل خاطري ، حتى كاشفني سيدي بحقيقتها وتفصيلها ، حيث أضمرت في نفسي في حضرته التطلع على حقيقة شأنه ، فذَكَرَ لي ذلك عنه على حقيقته ، وتقدَّم بيانه وكيفية تفصيل أمره كلمة بكلمة ، وإنها والله لأبلغ من مكاشفات الثلاثة له المذكورة بما ذكر ، وقَلَّ من يكاشف بهذا الكلام والتفصيل ، وإنما غاية ما يكاشفون به كلمة واحدة ، كمكاشفة الثلاثة كل واحد بكلمة ، وأما مكاشفة ذلك الدمشقي فتفصيلها ، وذَكَر أولها وآخرها ، فتأمَّلها لتعرف أنه قَلَّ من يكاشف بمثلها .

وكذلك مكاشفته لي من جهة سؤال السيد أحمد الهندوان لما قال : « **ما قط سألك السيد أحمد عن مسألة ؟** » ، قلت : بلى ، وقد سألني قبل ذلك بثلاثة أيام . وتقدَّم ذِكْر ذلك .

وكذلك مكاشفته لما ذُكِرَ له شدة جور عيسى بن بدر والي حضرموت على الرعية ، وطلبه منهم ما لا يطيقون ، ناوياً أن يجمع منهم مالاً ويشرد عن حضرموت من أذى يافع ، وكان ذلك يوم الإثنين ، فتوعده وقال : « **ما له إلا الكثيب الأحمر** » ، وكان عيسى بشبام ، فثاني يوم - وهو صبح يوم الثلاثاء - انْحَدَرَ إلى عينات ومات فيها من يومه ، وقُبِرَ في الكثيب الأحمر يوم الثلاثاء بعينات ، وتقدم ذِكْر قصته.

وكذلك كان يوعد عبدالله بن إسحاق ، بالحلول في وادي الدواسر ، كما أخبرنا ابن إسحاق بذلك في بلد الأحساء ، قال : وكان كثيراً ما إذا أراد أن يمازحني ، يقول لي : « **ما لك إلا وادي الدواسر** » ، فقلت لابن إسحاق : لا يكون هذا إلا توعداً لا وَعْداً - فإنه شبيه بقوله في حق عيسى بن بدر : « **ما له إلا الكثيب الأحمر** » - ، فكان مقدَّراً أن يكون قبره فيه ، قال : « لا إن شاء الله » . وطمع أن يكون ذلك منه وعداً ، حتى إنه سار إلى تلك الجهة على عزم الحلول فيها على ذلك الوعد ، مستشرفاً لأشياء كثيرة في نفسه من المطالب ، من الصيت والجاه والمال وخفض العيش ، ومُوَاتاة الأسباب ، والترأس من أجل ذلك الوعد ، فقرّى في الفقه وقال : « لأنهم عوام يحتاجون لمن يعلمهم » ، وطامعاً في الترأس ، وأخذ معه كتباً وخطباً ، فحين وصلها جاءه أجله وقُبِر بها ، فكان حلوله الموعود به حلولاً لا انتقال له منه إلا بالبعث يوم النشور ، وكان ظنه وعداً ، فتبيَّن أنه توعد ، وفحوى الكلام يدل على المعنى ، لكن الطمع غطى عنه فهم المعنى ، فاعجب لهذه المكاشفة العجيبة الدالة على وقوع الجد في معرض المزح . وكل هذه المكاشفات من الغرائب التي قَلَّ ما سُمِع بمثلها عن أهل الكشوفات المتقدمة .

ومن عجيب مكاشفاته ما ذَكَره عبدالله باشراحيل في ما جمع من كراماته ، أن محمد المغربي جلس يفص رجله ، وهو جالس ، وهم في الراتب ، فجعل يحك ظهره وقال : « يا سيدي ظهري يشراني »، قال له : « **ما هذا شرى** » ، وضربه على ذلك الموضع ، وقال يمازحه : « **إنما هذا إبراهيم في ظهرك** »، يعني ولداً ، فنادى بعض الحاضرين ، وقال له : « **سِرْ إلى أختك ، قل لها تأذن لك تعقد بها للزواج بهذا الرجل** » ، فسار إليها وأذنت له ، ولَقَّنَه لفظ العقد وعقد له ، وأمر بدخولها عليه تلك الليلة ، وبقي معها أياماً قليلة . ثم ذَكَرَ له أنه اشتاق إلى مكة ، وكان ينزح على زمزم ، وسُمِّي الزمزمي لذلك، فاستودع من سيدنا ، وما علم منها أنها حملت ، لم يتبين لها ولا لغيرها الحمل ، فقال سيدنا له عند الإستيداع : « **ترى زوجتك حبلت بولد ، فإذا وَلَدَتْ نُسَمِّيه إبراهيم باسم أبيك ، فإذا بلغ حجَّ بعض عيالنا ويحج معه ، فإذا جاءك اجْمَعْ له ما أمكنك من المال ، ثم بعد مدة يحج بعض عيالنا ، ويحج معه أيضاً ، ويجيك من عندنا بالكفن** » ، ثم بعد مدة تَبَيَّنَ حملها ، ثم ولدت ولداً وسماه إبراهيم .

ووصلتُ إلى حضرة سيدنا عام ١١١٥ ، وهو يلعب مع الصبيان ، أظن له نحو اثنتى عشر سنة .

وفي سنة ١١١٨ حجَّ السيد حسين بن الحبيب عبدالله ، وحج ابنه معه ، فجمع له نحو سبعين

قرش حجر ، فاشترى له منها نخلاً وتزوج منها ، وبنى له منها بيتاً وجاءه أولاد ، وبعد أحد عشر سنة حجَّ السيد حسين حجة أخرى ، وحج معه أيضاً ، وأعطاه سيدنا لأبيه شقة كان متجولاً بها تحت ثيابه تلي بدنه ، فلما سمع أهل المدينة - وكان جاور فيها بعد مجاورته بمكة بقدوم ولده - جعلوا يهنُّونَه بقدومه ، فقال لهم : « أتهنُّوني بالموت ؟ إنما ولدي جاء يخبرني بموتي ، وجاء لي بكفني معه من عند حبيبي عبدالله » ، وكان حين قرب إطعام النخل بالرطب ، فحين التقاه الولد جعل يحيي أباه ويحييه ، فقال له أبوه : « أما تأخرتَ عني قليلاً لأذوق الرطب ؟ ليتني ما رأيت وجهك ، هات الكفن الذي أعطاكَ لي حبيبك » ، فناوله تلك الشقة ، وأصابه مرض الموت في يومه أو ثانيه أو نحو ذلك ، وذُكِرَ لنا أنه توفي بعد نحو ثلاثة أيام .

فاعجب لهذه المكاشفات المتعددة الغريبة ، وتداولها على طول مدتها ، لعل أن يرزقك الله قوة العقيدة في السيد عبدالله الحداد ، فتنال سعادة الدارين .

وفي مؤلف عبدالله المذكور غير هذه من كراماته كثير ، وسمعت أن سيدنا لما أَلَّفَه غضب عليه ، وأمره أن يغُطَّهُ في الماء ، فدخل على سيدنا بجماعة أن يتركه ، من جملتهم السيد أحمد بن زين الحبشي ، وصهر سيدنا السيد عبدالرحمن بن علي فقيه ، فتركه وأمر أن لا ينظر فيه أحد لكراهته للشهرة ، وبقي عند الأولاد إلى أن وصلتُ هناك ، فأمر ابنه الحبيب علوي أن يدفعه إليَّ فأعطانيه .

ورأيت بمكة أيضاً مؤلَّفاً في كراماته لبعض تلامذته من آل باشراحيل ، فكتبتُه ، وكل ما فيه غير ما في الأول ، وما وقفنا عليه منها غير ما فيهما ، وفي ذلك دليل على سعة أحواله وكراماته ومكاشفاته .

ومن ذلك أنه فعل عزيمة كبيرة لختان أولاد ابنه السيد حسين : السيد محمد باقر ، والسيد أحمد بن حسين المتوفي ببلاد عمان ، ودعى فيها كثيراً من السادة وأعيان الناس ومن غيرهم ، وأرسلني إلى السيد شيخ بن مصطفى العيدروس أدعوه من الرملة ، وكان نازلاً بها ، فلما أقفيتُ من عنده سائراً ، قلت في نفسي : أسير إلى البستان بالسبير آتي بليمون أولاً ، ثم أسير إلى السيد . وسرت من عنده عازماً على هذا، فلما أبعدت جداً ، ناداني بأعلى صوته ، فرجعت إليه وقال : « **لا تقل : أسير إلى البستان أولاً ثم أسير إلى السيد . أَلَّا سِرْ إلى السيد أولاً ثم سر إلى البستان** » .

فهذا نزر من بحر يكفي اللبيب ، ويزيح الكرب عن الكئيب ، ولو لم نذكر إلا قصة واحدة لكفت ودلت على أكثر منها ، فما أمكن حصول الأقل منه ، أمكن منه حصول الأكثر .

وقد قال يوماً بعدما فرغت من القراءة في « روض الرياحين » ، وتكلم في كرامات أهل الروض ، فقال : « **ربما أن الواحد منهم ما حصل له في مدة عمره إلا كرامة واحدة** » .

وتقدم قوله : « قال لنا حسين بافضل : إن بدت لكم حاجة أو غرض ، الحذر ما تخبرني . فقلنا له: إن بدت حاجة تُطلب في الخلق فأنت أحق بها ، وإن قضى الله الحوائج فما بقي لنا كلام » ، يعني ما لنا حاجة نتكلم ، ولا ثَمَّ حاجة ، ثم قال لي : « اعلم هذا واعمل عليه » ، يعني إنه سيقول لك رجل مثل ما قال لنا حسين بافضل ، فقل له مثل ما قلنا لحسين بافضل ، يعني قوله له : « إن بدت حاجة تُطلب من الخلق فأنت أحق بها ، وإن قضى الله الحوائج فما بقي لنا كلام » .

ثم أقول : والله إني من حين دخلت بلاد الحساء ، لقد قال لي رجل مثل ما قال له بافضل ، قال: « بالله عليك ، وبروح حبيبك عبدالله ، إن أردت غرضاً أو حاجة أو سلفاً أنك تخبرني بذلك ، ولا تستقض حاجتك إلا من عندي » ، ولكني ما فهمت الإشارة أنها لهذا الإنسان ، لأنه ما قال لي هذا غيره ، وما ظهر لي أن الإشارة إليه إلا بعد ثلاث وثلاثين سنة ، فلما فهمتها قصدته إلى بيته ، وقلت له : إن قولك كذا ، ما قاله لي أحد غيرك ، وإن حبيبنا عبدالله قال لي كذا ، وما أرى الإشارة إلا إليك ، فعاد إن بدت حاجة تُطلب من الخلق فأنت أحق بها ، وإن قضى الله الحوائج فما بقى لنا كلام . فهذا كلامه الذي قاله لبافضل ، وأمرني أن أقوله لك . ففرح بهذه الإشارة جدًّا ، حتى إنه قال : « قال لك ذلك؟»، قلت : نعم ، قال : « الحمد لله » .

فاعجب أيها السامع واطرب من أحوال الأكابر وأقوالهم ومكاشفاتهم ، والعجب أنه ما بقي بعد ذلك إلا قليلاً من المدة ، وتوفي إلى رحمة الله ، وما زال إلى أن توفي يراعينا من هذه الحيثية ، ويسأل عن حالنا في أمر المعاش ويتقصى ، وما أشار سيدنا إلى شأنه إلا لكونه من أهل الخير ، وهو معروف بهذا عند عامة الناس ، حتى إنه كان عنده كثير من النقد من الذهب والفضة ، وكلها قدمها لنفسه ، وما ورث منها عياله شيئاً ، وإنما جعل إرثهم في أرضين يحرثان عند الأكارين ، ويحصل لهم منهما كفايتهم من التمر والأرز ، وجعل ثلثه في غنم له عند رجل ذا دِين من البادية .

وإشارة سيدنا بذلك إلى هذا الإنسان من أعجب المكاشفات والكرامات .

وقال في مجلس آخر وهو يوم الجمعة ٢١ محرم سنة ١١٣٠ : « لما وصلنا من مكة وتوصلنا إلى شبام، ما انمرَّت لنا الطريق من كثرة الناس ، وقد قلنا : إن كان أُذِنَ لنا في التنقل في الأرض ، ما أخَذْنا معنا إلا واحداً ، كما فعل الشيخ عمر العطاس ، ولكن بعد تلك الحركة ما وقعت لنا حركة إلا إلى هود ، مرادنا نتوقى الشهرة ، ويفعل الله ما يشاء ، ولا دخلنا بلد إلا وفيها أناس من أهل الصلاح مرموقين ، إلا في هذا الزمان ما تلقى حتى من يواظب على الصلاة . وكان في بلدان حضرموت ناس مكاشفون ، يقال إن في الهجرين آل العفيف كلهم إذ ذاك يكاشفون حتى أخدامهم ، وما كاشَفَنا إلا ثلاثة » ، يعني المتقدِّم ذِكْرهم .

قال : « واحد في الهجرين من آل بن نعمان ، وكان في خاطري من جهة الضعف فكاشفني كما في نفسي » هـ .

أقول : يعني إنه كان في نفسه ، هل مع هذه الحالة حالة الضعف يمكن له عودة إلى الحرمين ، فكاشفه بالعود إليها بعد مدة طويلة كما تقدم ، وهذا أحد الثلاثة المذكورين .

ومرة قال : « ما عاد يمكننا ذلك إلا إن خرج المهدي ونحن في الحياة ، وطلب منا المجيء إليه ، لا بد ما نخرج لمبايعته » .

قال : « وأقبل علينا الناس كثيراً - أي في الحرمين - ومرادنا السلامة منهم على طريقة سلفنا - أي الخمول - لأن الظهور فتنة . وأرسل إلينا السيد محمد شلية - يعني مؤلف المشرع الروي - قال للرسول: قل له : يسلم عليك ، ويشير عليك بعدم المجاورة . فقال له الرسول : إنه ما له نية في ذلك . فقال : ولو ، وعادك قل له زيادة . ونحن كنا عازمين على أن لا نجاور ، وكنا نخف أنفسنا خوفاً من أن تحصل لنا إشارة في المجاورة، ونحن عارفين أن المجاورة على هذا لا تنبغي ، ولا تنبغي إلا لأحد رجلين: إما واسع كالبحر ، لا يضيق من كثرة الناس وإقبالهم ، ولا يشغلونه عن الله ، مع تبحره في الكتاب والسنة ، وتحققه بالعمل بهما ، فيجاور في الحرمين ، فيأخذ مما فيهما من الخيرات ، ويَسْلَم مما فيهما من العوائد . وإما رجل سَيَّاح درويش لا يُعرف ، ولا يُطَّلَعُ على حاله ، وتراب ، لا يبالي بما يحصل عليه » .

وقال يوماً : « ما أحسن ذِكْر الحرمين ، ولو كُنَّا بجدة أو نحوها بالقرب من مكة لكُنَّا نعتمر في كل شهر ، ولكن كان أمر الله مفعولاً » .

فقلت له : أنتم مشتاقون ومشاوفون لوعدكم الذي أنتم موعودون به من العَوْدِ إلى الحرمين ، فقال : « لا ، ذلك قد مضى حِلُّه ووقتُهُ ، والوعد متوقف على شروطٍ ولا تمَّت ، ألا ترى إلى العشرة من الصحابة ، مع كونهم قد بشَّرهم النبي ﷺ بالجنة ومقطوع لهم بها ، ما ركنوا إلى الوعد ، وما زال بهم الخوف ، وإنما ذاك إن رجلاً كان يكاشف ، فكاشفنا بأشياء ووقعت صدقاً » هـ .

أقول : يعني كاشفه بأشياء رآها وقعت ، وهذا من جملتها .

وذَكَر السيد محمد بن سميط في مؤلفه في مناقب سيدنا ، أنه كاشفه لما وصل الهجرين قاصداً زيارة دوعن ، وكان بدوعن مَرَضٌ ، ومات منه خلق كثير ، ولما سمع بالمرض بها توقف عن الدخول ، وحصل معه تردد بين الدخول والرجوع ، ولم يبد ذلك أحد ، فقال له هذا الرجل : « تقدم وزر دوعن ولا بأس عليك ، ولا تخف من مرض ولا من غيره ، وعادك يطول عمرك وتصير كذا وكذا ، وتصير

أباً لجميع الناس » ، أو قريب من هذا المعنى . لكنه متوقف على شروط وما تمت فيه الشروط ، ولهذا لم يقع هذا خاصة ، فلا تظن أن مكاشفته كانت سدى ، فينجر بك الحال إلى أن تعتقد أن كرامات الأولياء ومكاشفاتهم تخطيء هـ .

قال : « وأَخَذْنا في الحرمين عن جماعة من آل الوفا وأخذوا عنا ، والحاصل أخذنا قواعد الإسلام الأربعة عن أربعة منهم » .

وفي مجلس آخر قال : « حَجَجْتُ ، وكنت إذ ذاك طالباً لرجلين فلم أرهما » ، ثم قال : « إنهما مقامان ليسا أشخاصاً ، وكل من سألته عنهما قال : ما يكون هذا إلا أنت . وأرسل لنا السيد محمد شلية يأمرنا بالمسير ولا نجاور ، فأجبناه بأن المجاورة ليست لنا على بال ، ولا نويناها أصلاً ، لما رأينا من أحوال أهل الحرمين » .

قال : « قلنا لأهل الحرمين : لو مكثنا معكم لتشاكينا معكم إلى السلطان ، لما نرى من أحوالكم »، ويوماً قال : « لا تنظر من الحرمين إلا إلى البيت الحرام والحجرة الشريفة ، ولا تنظر إلى ما عداهما » .

قال رضي الله عنه : « وما مثال من اهتم بطاعة من أهل الزمان إلا كالذي كان نائماً فانتبه من نومه فزعاً » .

قال : « لا تمنع السفيه مما يريد ، فإن ذلك عناء بلا شيء ، وينقلب عداوة فيما بعدُ . وأَمْرُ الصغار والحريم لا يحتمل البحث ، إذا قال : صلَّيت . لا تحك عليه ، فإذا حكيت الحجارة لا يخرج منها إلا التراب » ، ثم قال : « خذ هذه الكلمة واحفظها : أهل الزمان ما لهم نظام لا في دين ولا في دنيا ، تراك تراهم في صلاتهم لا يحسنونها ، ولا يحسنون زكاتهم ولا حجهم ، فهذه أمور دينهم ، فما بالك بأمور دنياهم . وفي بعض الأخبار : يأتي زمان تحج أمراؤهم للنزهة ، وأغنياؤهم للتجارة ، وفقراؤهم للسؤال. وكذلك أمور أهل الحرمين » هـ .

أقول : يعني كما إن هذه الأمور التي ذَكَرها من أحوال الناس في الأوقات المتأخرة عن وقته ﷺ ، كذلك ما ذَكَر في أهل الحرمين في الأزمنة المتأخرة ، من العوائد المذمومة ، من تكلفاتهم وعوائدهم في الحج ، بحيث لا يجسرون على تركها إذا حجوا ، فيمتنعون من الحج لأجلها ، حتى إن الرجل من أهل مكة يشيب وما حجَّ حجة الإسلام خوفاً من تلك العوائد ، وربما مات وما حجها .

قال : « ولكن خُذ من كل شيء أحسنه ، فاذكر من أحوال أهل الحرمين : البيت والحجرة النبوية،

ودع ما سواهما ، وعلى ذلك » .

وفي مجلس آخر *قال* : « **اذكُر البيت والحجرة النبوية ، فاذكر ذلك واترك ما هنالك مما يُستنكر ، وقد كنا أردنا المعاودة إلى الحرمين ، ولا نريد المجاورة ولا خطرت لنا على بال ، لما شاهدنا من أحوال وأمور أهل الحرمين ، وقد كنا راجين العود إليها أيام النشاط والقوة ، وأما اليوم فلا »** .

وتكلم في ذلك كثيراً حتى *قال* : « **قلنا لهم : لو جلسنا عندكم تحاكمنا معكم إلى السلطان مما نراه من أحوالكم »** ، وتكرر هذا الكلام لتكرره في المجالس .

وذَكَرَ مسائله التي أراد أن يسأل عنها في الحرمين مَن هو متبحر في علم الحديث كما ذكر ، وهذا أحد البحرين ، والآخر المتبحر في علم التصوف ، الذين ذكر أنه كلما سأل عنهما أحداً ، قال له : « ما يكون هذا إلا أنت » ، ورأى من هذا آثاراً يسيرة كالشيخ عبدالخالق والشيخ أحمد القشاسي ، وسمى هذين الحالين مقامين ، وقال : « **ليسا أشخاصاً** » ، يعني أنه أراد هذين الوصفين فيمن كانا فيه ، من غير نظر إلى المتصف بهما .

فذكر من مسائله في علم الحديث : أنه أراد أن يسأل عن كيفية صلاته ﷺ في مرضه ، قال : « **وكانت سبعة عشر صلاة** » ، وعن من صلى بهم الجمعة التي مرت عليهم في مرضه ، وكيف صلوا تلك الجمعة ؟ لأنه صلى بهم صلاة المغرب من ليلتها لما ابتدأ به المرض ، وقرأ في المغرب بالمرسلات ، ولم يصل بهم صلاة بعدها ، فكيف صلوها ؟ ومن صلاها بهم ؟ أبوبكر أو غيره ؟ أو صلوها ظهراً ؟ ولم يذكر أحد من أهل الحديث ذلك .

أقول : هكذا سمعته بلفظه يقوله .

قال : « **والعجب من كونه قرأ في المغرب بالمرسلات ، وهو في مرض موته ، فدل على أنه كان يطيل القراءة في الصلاة جداً ، وكذا ثبت عن الصحابة ومن تبعهم بإحسان رضي الله عنهم** » هـ .

أقول : رأيت فيما ورد عن سيدنا أبي بكر ، أنه قرأ في صلاة الصبح بسورة الأعراف بتمامها ، فما سلَّم إلا قرب طلوع الشمس ، فقال بعض من صلى معه : « يا خليفة رسول الله ، كادت الشمس أن تطلع » ، فقال : « لو طلعت لم تجدنا غافلين » .

وقال : « **ولم يثبت عنه ﷺ أنه صلى منفرداً ولا صلاة واحدة ، ولا أنه توضأ بماء سخن على النار** » .

وكانت مسائله تلك مكتوبة عنده في ورقة ، كان خابيها في كيس جوخ أحمر متحفظاً عليها ، فأعطانيها في الكيس وقال : « **احفَظه عن الأرضة** » .

وغلب على ظني أنه ما أعطاني الكيس وهي فيه ، إلا أرادني أن أقف عليها ، ففتحت الورقة ، فإذا فيها : « **الحمد لله وحده ، مسألة : هل نقل أحد من الحفاظ للحديث وحملة الأخبار ، كيف كانت صلاة رسول الله ﷺ في الأيام التي لم يخرج فيها إلى الناس ، في آخر مرضه الذي توفي فيه عليه الصلاة والسلام ؟ . مسألة : لما قُبِضَ رسول الله ﷺ في بيت عائشة رضي الله عنها ، ودُفِنَ فيه ، هل بقيت ساكنة في البيت على مثل حالها في حياته ؟ أم انتقلت منه إلى غيره ؟ . مسألة : الحديث الذي في صحيح البخاري ، من رواية عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال : ليس آل بني فلان لي بأولياء الحديث . هل بَيَّنَ أحد من الشُرَّاح آل بني فلان من هم ؟ وهل روى هذا الحديث أحد من الصحابة غير عمرو بن العاص ؟ وهل إسناد الحديث في غاية القوة والثبوت أم هو دون ذلك ؟** » ، وهذه من جملة سؤالاته التي أراد أن يسأل عنها في العلم الظاهر . وأما ما هو في العلوم الباطنة فكثير جداً .

ومما كتب الشيخ أحمد بن محمد المدني القشاشي الدجاني ، من ذرية أبي دجانة الأنصاري الصحابي رضي الله عنه ، إلى سيدي العارف بالله السيد عبدالله بن علوي الحداد نفع الله به :

« يا ذا الجلال والإكرام ، يا ذا الجلال والإكرام ، يا ذا الجلال والإكرام ، أسألك اللهم إجلالاً من إجلالك ، وإكراماً من إكرامك ، يعم السادة الأكرمين آل باعلوي أجمعين والمحبين ، ويخص الخواص بمزيد الإختصاص ، منهم السيد الأكرم عبدالله بن علوي الحداد ، أوقد الله بنور المحبة منه الجوانح والفؤاد . والسلام عليه ورحمة الله وبركاته ، بركة وسلاماً من الله رب العباد ، وعليه وعلى من عنده من جميع السادة والمحبين ، عن عبده أحمد بن محمد ما أوجب من حقه بين العباد للعباد ، إذ كل ذلك له ، ولو نسب إلى العباد فالمعبود به هو ، والمطاع به هو ، بما أوجب وندب ، وكل ذلك سبيل الحق والرشاد، أرشدني الله وإياكم إليه ، وأصدق في متابعة الصادقين منا الوجدان له والعثور عليه ، وبعد :

يا ولدي ، إن الله خلق العبادَ له لا لهم ، وهم في كل ما عبدوه به لا بهم ، ولا يضر المفرد فساد ما سواه إذا صلح ، ولا ينفعه صلاح ما سواه إذا فسد ، فبقي على هذا الطلب لكل أحد من الأجر بلا عدد، ولذا قال تعالى : ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ﴾، ونكَّرَها للعموم ، ﴿مَّا قَدَّمَتْ﴾، أي هي ، ولم يقل : ولتنظر ما قدم غيرها . فتأمَّلوا هذا جيداً وامشوا عليه خطوة وقدماً ، وامسكوه عروة ويداً على بصيرة ومن اتبعكم ، فهكذا هو الأمر ما كان على بصيرة ، لا كما قال الغافلون : ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾، فالإقتداء بالحق للحق في الحق من أهل الحق ، لا بمجرد جرد الخُطى ، ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾، يبين تمييز الخطأ ، فكل ما امتاز عن خطوات الشيطان فهو خطوات الرحمن عند أهل النظر والبيان ، فاستبقوا الحق وامشوا عليه ، وإن شق فعسى ان تكرهوا شيئا و هو خير لكم ، يبين المقصود لأهل الرقي والصعود .

وعليكم بدوام ذكر الله ، فإنه صقالة القلب متى صدأ أو غفل ، فالله الله فيه على كل حال من أحوالك ، لا تفتر عنه إما علماً أو عملاً ، لا يكون وقتك في غير هذين . والمباحات اِنْوِ بها العون على الطاعات ، تعود قربات مندوبات ، وإذا كُلّك عبادات لا عادات ، إن أحكمت هذا ربطاً على قلبك جيداً ، ووجدت الوقت كله بإذن الله لك لا عليك .

وعليك بتبديل الأخلاق من مذموم إلى محمود ، فإنه محل بذل المجهود للرجال ، ومحل ترس النفوس ، فبدِّل الكِبْرَ بالتواضع والتغافل بالحضور ، والحسد بالغبطة والمنافسة في الخير ، والحقد بالعفو والكظم وأدب النفس ، كما ذكره الإمام المقدام أبو حامد في الشطر الثاني من الإحياء ، إذ خلصه فيه وبدده في الأول وأومأ إليه .

والحاشية أيها الحبيب ما جعلتها على كله ، ولكنها فيما كثر منه فيها إشكال ، فجعلتها حلاً أو بياناً ، وكان السيد الأجل الأكمل عبدالله بن شيخ استجمعها غالبها ، فإن كان نقلها أحد منه ، لأني جردتها من جوانب الكتاب له لصدقه وصدق نيته ، ومعرفته بالحق وأهله ، فإذا وصل إليكم فسلموا عليه مني ، واسألوه إن كانت عنده ما سمح بها لأحد يمدكم بها .

ولو رأيت يا ولدي طالباً لتتبعت الكتاب كله ، ولكن الوقت دنا غروب شمسه وأفول يومه كأمسه ، وبعض رسائل لنا عند ولدنا الجليل عبدالرحمن المعلم بن عبدالله ، وعند غيره كذلك ، وشرح الحكم تم كذلك ، فاسألوه عن ذلك ، والمراد النفع لا المنع ، أثابكم الله أجمعين ، ووفقنا الله به وهدانا إلى سواء السبيل » ، تمت الرسالة . نقلتها من أصلها الذي نقلتها منه ، وقد تقطَّعت جوانبها ، وشيء منها كتبته بالظن .

والمعلم هو بالظن باجمعان معلم القرآن كان بتريم . والسيد عبدالله بن شيخ المقبور بالشحر ، وأدركنا من أولاده سقاف بن عبدالله ، وهو عبدالله بن شيخ بن عبدالله صاحب الرملة بن شيخ بن عبدالله بن شيخ بن الشيخ عبدالله العيدروس .

أحببنا نذكر رسالة الشيخ أحمد القشاشي هذه هنا ، مع مجالس سيدنا عبدالله لما قال : « **ولما حججنا كان نيتنا بعد نية أداء فرض الله في الحج ، لطلب بحرين : بحر في العلم الظاهر ، وبحر في العلم الباطن. ولم نر في الحرمين أحداً منهما ، لكنا رأينا آثاراً يسيرة ، كالشيخ أحمد القشاشي** » .

فهذا من بعض أثر ما رأى منه هـ .

قال رضي الله عنه : « **جمعنا من الكتاب والسُّنة ما لم يستطع حمله إلا المهدي ، فإن أدركناه أديناه إليه ، وسَلِمْنا من تلك الأمانة** » ، ومرة قال : « **عندنا أمانة لا يحملها إلا المهدي** » ، ومرة قال : « **أو أربعون من أصحابنا** » ، ومرة قال : « **أو ستون من أصحابنا** » ، ومرة قال : « **عندنا من عبدالله بن أبي بكر العيدروس أمانة لا يحملها إلا المهدي** » هـ .

أقول : والإشارة إلى هذه ما أذكره الآن : وذلك إني سِرتُ إلى مدينة شبام في بعض السنين ، لزيارة الصالحين في جرب هيصم وغيرهم ، ثم وصلت إلى المعيقاب لزيارة حسين بن عبدالله العيدروس ، فقال لي ابنه السيد عبدالله بن حسين : « إن أخي محمد بن حسين جاء من سورت بندر بلاد الهند ، قال: حكى لي السيد علي بن عبدالله العيدروس ، قال : كنت أنا والسيد عبدالله الحداد إخواناً وأصحاباً من صغرنا ، عند المعلم وفي طلب العلم وفي أخذ الطريقة ، وكان عادتنا نزور التربة كل ليلة ، وكان في ليلة معي كسل ، وأراد مني أن أسير معه على العادة ، فاعتذرت من المسير تلك الليلة ، وعالجني في ذلك فما وافقته ، فسار وحده يتخبط ، وقال : « **لأشكينك عند جدك عبدالله بن أبي بكر** » ، فشكاني عنده ، فكلَّمَه من قبره وقال : ما عليك منه . وناوله يده فصافحه وأعطاه الطريقة ، وأعطاه أمانة » ، وهي هاته التي ذَكَرها هنا ، وكان كثيراً ما ينوِّه بها ويذكُرها ، وما أحد سمعه يَذْكر الواقعة ، لكن عُلم شأنها من جهة السيد علي ، حيث كان له منه خصوصية واطلاع على شيء من باطن أمره ، لم يطلع عليه غيره .

وكان سيدنا كثيراً ما ينوِّه بذِكْره ، ويذكره كثيراً ويقول : « **أنا وإياه على الأخوة والمحبة من صغرنا ، وما افترقنا في حضر ولا سفر ، والمكاتبة مستمرة بيننا وبينه ، ونرجو أن نكون أحد السبعة الذين يظلهم الله في ظل عرشه ، رجلان تحابَّا في الله ، اجتمعا على ذلك وافترقا عليه** » ، وكان يطنب فيه إذا ذَكَرَهُ ، حتى قال : « **كنت أظن أن وفاتي معه في عام واحد** » .

ورأى تلك الرؤيا التي حكاها للسيد زين العابدين ليلة ثامن عشر شوال سنة ١١٣١ هي : « **رأيت كأني معه اجتمعنا مع جمع كثير في غرفة بالسبير ، لسبب موجب للإجتماع ، ثم تفرقنا . وسار مشرقاً يريد الهند ، وظهر لي منها أن لا نكون في عام واحد قط** » ، رأى كأن رجلاً أعجمياً دخل عليه الغيلة ، وصعد على كرسيه ، وصاح بأعلى صوته مراراً : « **الليلة مات القطب** » ، ثم تبين أن السيد علي توفي بسورت تلك الليلة ، ووفاة سيدنا بثامن من ذي القعدة من السَّنة التي بعدها ، بعدما خرج من عام وفاته بنحو ثلاثة أو أربعة وعشرين يوماً .

وسمعت غير مرة من غير واحد ، وكذلك رأيته أيضاً بخط بعض من كان ينقل كلامه ، يقول عن شيخه السيد الشيخ عمر بن عبدالرحمن العطاس نفع الله به قال : « **من جملة من يصل إلى الله على يد سيدنا عبدالله ممن اسمه عمر خاصة أربعون** » .

والذي سمعته أنا منه يقول : « رأى شيخنا الشيخ عمر بن عبدالرحمن العطاس باعلوي ، وهو بين النوم واليقظة قائلاً يقول : إن الذين يتخرجون على فلان ممن اسمه عمر سبع وعشرون ، أو ثلاثة وعشرون . فحكى بذلك لرجل ، فقال له الرجل : إني أخاف عليه أن يُغبط . فقال : لا ، ما عليه شيء. فحكى لنا ذلك الرجل بذلك » .

قال : « ونقل لنا عن الشيخ عمر المذكور أن أولاد فاطمة في آخر الزمان يفوشون » هـ .

أقول : أي يزيدون ويكثرون ، لقول رسول الله ﷺ عند زفاف فاطمة إلى علي رضي الله عنهما : « اللهم أخرج منهما الكثير الطيب » ، وإلى هذا أشار سيدنا في القصيدة العينية ، بعدما ذَكَرَ جماعة من السادة آل باعلوي بقوله :

فَهُـم الكَثـير الطَّيِّـبِ المَدعـو لُهـم ... مِنْ جَدِّهِمْ حِين الزِّفاف أَلا تَعي

ولذلك إن الخبيث السفياني الذي يخرج آخر الزمان ، لما كان أصله العداوة لهم لكونه من بني أمية، وعداوتهم لبني هاشم خالدة تالدة ، إذا رأى كثرتهم ذلك الوقت يتتبعهم بالقتل بغياً وحسداً ، كما قدَّمنا . وهم ببركة تلك الدعوة الشريفة لم يزالوا في كثرة ونماء أولاً وآخراً ، وآخر أمرهم أنهم على العز والقوة والنمو ، وعدوهم على النقص والهوان والقلة ، فيخرج المهدي منهم ، فيستأصل عدوهم بالقتل والدمار ، ويقتل السفياني ونصرته من أخواله بني كلب ، ويستأصلهم عن آخرهم ، حتى لم يبق منهم واحد كما تقدم هـ .

قال رضي الله عنه : « إذا اجتمعت بالطبيب فلا تستبعد أن تنال من حكمته شيئاً » .

قال : « لا نتحكم لأهل هذا الزمان ، ولا نتحكم فيهم ، فإن تحكمنا فيهم وضعنا على كُلٍّ قدر استطاعته بالتخفيف » .

قال : « ما بقي شيء من الأمور التي يحتاج إليها السالكون إلا وضعناه في كتبنا ، فمن أراد شيئاً من ذلك وجده فيها ، ومقصودنا أن نجعل لهم فيها بعضاً من أحكام » .

قال رضي الله عنه : « القيام بما أخذ المشايخ فيه العهد على المريدين ، كتمسك الأعمى بيد البصير ، فينبغي أن يكون لازماً لها حتى يصل حيث طلب ، فإن أخَلَّ بشيء من ذلك فقد فلت يده منه ، وراح عنه ، وضاع عليه الطريق » ، ومرة قال : « من نقض العهود فاتته الوعود » .

وقال لي يوماً نفع الله به : « لو نعمل بكل ما نعلم ، لملَّنا كل شيء حتى الثياب التي فوق أبداننا » .

ومرة قال : « لعادانا كل شيء حتى ثيابنا التي على ظهورنا » .

قال : « قد نعزم على الأمر نفعله فلم يتفق ، ولكن قد يجعله الله على يد أحد من الأولاد أو الأصحاب» .

قال : « السماع يدل على ما في ضمير صاحبه من خوف ورجاء ، أو شوق أو محبة ، وإذا خرج عنه يزيده من حاله ذلك ، ويحصل له بذلك تخفيف وتروح ، كما نقل عن سيدنا علي كرم الله وجهه أنه لما كثرت عليه العلوم ، ولم يجد من ينقلها عنه ، وقف على فم بئر وتنفس فيها ، فغاض الماء على جوانبها، فنبت منه اليَرَع » هـ .

أقول : اليرع شجر القصب . وفي الكلام الطويل الذي نقله عنه كميل بن زياد قال : « يا كميل ، إن ها هنا علوماً جمة ، لَوْ وَجَدْتُ لها حملة » ، ويشير إلى صدره ، كيف لا وهو باب مدينة علم النبي ﷺ ، كما ورد عنه ﷺ أنه قال : « أنا مدينة العلم وعلي بابها » ، ويشمل هذا العلم ، المكنون منه والمنقول .

فالمكنون : كما جاء عنه أنه قال : « إن من العلم كهيئة المكنون ، لا يعلمه إلا العلماء بالله » ، فبيَّن بقوله هذا أن المراد بالمكنون ما يكاشف الله به أولياءه العلماء به من حقائق معارفه ، لا يطلع عليه أحداً غيرهم ، وأما المنقول : فما يطلع عليه أكابر العلماء الفحول ، كما أفتى به هو في قصة الثلاثة الذين أكلوا الخبز ، وذلك أن رجلين جلسا يأكلان خبزاً ، مع أحدهما خمسة أقراص ، ومع الآخر ثلاثة ، فاستأذنهما آخر ليأكل معهما ، فأذنا له . فأكلوا جميعاً ، فلما قاموا رمى إليهما بثمانية دراهم ، وقال : « هذا جزاء ما أكلت من طعامكما » ، فاختصما في قسمتها ، قال صاحب الخمسة : « لي خمسة دراهم ، ولك ثلاثة على عدد أقراصنا » ، فقال صاحب الثلاثة : « لا ، إنما هي قسمة بيننا ، لكل منا أربعة » . واختصما في ذلك، فترافعا إلى سيدنا علي ، فقال لصاحب الثلاثة : « إقْبَلْ ما أعطاك صاحبك » ، قال : « لا أقبل إلا مُرَّ الحق » ، يعني لا أقبل إلا الحق ولو كان مُرًّا ، فقال سيدنا علي : « ليس لك في مُرِّ الحق إلا درهم واحد». قال : « كيف ذاك ؟ » ، قال : « نقسم أقراصكما أثلاثاً ، أقراصك الثلاثة تسعة أثلاث ، وأقراص صاحبك الخمسة خمسة عشر ثلثاً ، وأكلكم على السواء ، فأكلت أنت من تسعة أثلاثك ثمانية وبقي لك ثلث واحد ، وأكل صاحبك من خمسة عشر ثلثه ثمانية وبقي له سبعة ، وأكل صاحبكم المستأذن ثمانية، سبعة لصاحبك وواحداً لك » ، فلما تبين له الحق قال : « رضيت » .

فانظر الفرق بين أهل الوقت المتقدم ووقتك ، كيف هذا حيث لم يعلم لم يرض بالثلاثة الدراهم، ولما تبين له الحق رضي بالواحد ، ولم يرد أزيد منه ، فلو عرض عليه صاحبه الثلاثة لم يردها إذ ذاك ،

فلو كان من أهل وقتك لرجع يطلب الثلاثة الآن ولو لم يستحقها سوى الواحد . وانظر غوص سيدنا علي على هذا المعنى ، الذي لم يطلع عليه غيره ، وما ذاك إلا لكونه باب مدينة علم النبي ﷺ ، المشتمل من العلم على الوجهين معاً ، المنقول والمكنون ، أي الظاهر المنقول ، وهو العلم بأحكام الله ، والباطن المكنون ، وهو العلم بالله هـ .

قال رضي الله عنه : « سمع بعض أجلّاء السادة شريفاً يقول : أبي وجدّي . فقال له : قع كما جدّك ، وإلا فأنت سيرة وصورة ولا شيء في المقصورة » هـ .

أقول : يعني صورة وظاهر ، بلا حقيقة ولا معنى في الباطن .

قال رضي الله عنه : « مع الجراءة ما عاد انتفع الناس ، والغالب إنه لا يقع الإمهال كثيراً إلا للجريء » هـ .

أقول : يشهد لذلك أنه لا جراءة أشد من جراءة فرعون اللعين في دعواه الربوبية ، ولا أفضل في زمانه من سيدنا موسى نبي الله ، ومن كبار أولي العزم من الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وقد دعى على عدو الله فرعون ، وقد أخبره الله أنه استجاب له فيه دعوته ، فقال : ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ ، لكن قال الله تعالى : ﴿فَٱسْتَقِيمَا﴾، أي لا تعجلا ، وما وقعت عقوبة الله على عدو الله بدعوة نبي الله بعد استجابتها إلا بعد أربعين سنة ، مجازاة له في الدنيا على حسن معاملته لرعيته ورأفته بهم . فأي شاهد ودليل لقول سيدنا هذا أعظم وأعجب من هذا .

وذكر العلماء أن ماسبب ذلك إلا لرأفته برعيته ، حتى إنهم طلبوا من وزيره هامان أن يجري لهم خليجاً من النيل إلى بيوتهم ، ليستمدوا منه على قرب ، لبعد نهر النيل عنهم ، وأمدوه بمال كثير من أنفسهم بطيبة خاطر فيهم ، لينتفعوا به ويصرف ذلك في إجرائه لهم ، ففعل . فلما فرغ أخبره فقال له : « كل ما صرفته فيه خذه من خزانتي ، وادفع لكل واحد منهم ما أعطاك في ما صرفته » ، فأخذ ذلك ودفع لهم كل ما أعطوه ، فدفع لكل واحد منهم ما أعطاه .

وهذه خصلة عجيبة قَلَّ من يفعلها من ولاة العدل ، لكن لما نزل به العذاب المستجاب فيه من الله بدعوة نبي الله موسى عليه السلام ، وتحقق له عند ذلك صدق ما يدعوه إليه فقال : ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾، فلم ينفعه ذلك لما حكم الله به أنه لا يقبل إيمان من آمن بعد نزول العذاب به ، ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا﴾، وأنه لا يقبل توبة العاصي ولا

طاعة من أطاع بعد نزوله به ، وجعل طلوع الشمس علامة عامة لعدم قبوله لكل ذلك ، ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾، يعني طلوعها من مغربها ، ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ .

وغير ذلك وقائع في الإمهال بعدما استجيب الدعاء .

كدعوة سيدنا عمر المنفر باعلوي ، وهو جد أب الحبيب عبدالله ، حيث دعا على ذلك النقيب الذي ظلمه من آل باغوث ، في قطع ساقية نخله التي تأتي من وادي خيلة إلى الحاوي ، فقطعها ووجهها إلى نخله ، فدعا عليه ، وأبطت عليه الإجابة ، على ما قدمنا ، أنه سار إلى زيارة التربة لما استبطأ ، فسمع قائلاً يقول : « هي تقع ، ألَّا ما بين عاجل وآجل » ، يعني إجابة دعوته ، أي واقعة لا محالة ، لكن في وقتها التي وُقِّتَت به ، أسرع أو أبطأ . فكان راجعاً عشية يوم أو قال ليلة من الليالي ، بعدما استبطأ الإجابة ، وسار إلى التربة يدعو عليه عند قبور السادة ، فلما رجع ومَرَّ من تحت الحصن، وكان ذلك النقيب ينزح من بئر في الحصن يسقي فرسه ، إذ انفلت الرشاء من يده ، وسقط الدلو وصاح : « الآن قد أصابتني دعوة عمر بن أحمد » ، وطلعت الأكلة في يده وهلك وانقطع دابره ، وهلكت جماعته وصاروا بعد فخرهم وافتخارهم طُلَّبَاء يسألون على الأبواب ، ولا أحد رثى لهم ، وكان آخرهم رجل أعمى يدور على الأبواب ، يسأل ويقرأ الفاتحة لأناس يسميهم من السادة ، ويتجنب قراءتها للسيد عمر بن أحمد من أجل دعوته على جده .

كل ذلك بمعناه سمعته من سيدنا مراراً في مجالس متعددة ، فلذلك كررناه في مواضع كما هنا ، وكما تقدم أيضاً وكما يأتي ، وفي هذا شاهد لقوله هنا ، وله شواهد غير ذلك .

والقائل الذي سمعه يقول : « عادها تقع ، ألا ما بين عاجل وآجل » ، يعني الدعوة ، هاتف من الهواتف المبشرة بالفرج ، كما يقع كثيراً للصالحين من أي نوع من مخلوقات الله ، وإنما تتأخر هذه الأشياء مع استجابتها وتحقق وقوعها ، لأن الأشياء المقضية من الله ، أي التي حكم بوقوعها مقدرة ، أي مؤقتة في قدر الله بعد إمضاء وقوعها ، في أوقات لا تتعداها ، ولا تتقدمها كالآجال ، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾، ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾، وربما وافق إجابة الدعوة حضور الوقت المؤقت لها ، فكان في الحال أو قريباً أو بعيداً، فوقعت على قرب أو على بعد ، على حسب ذلك .

كالذي سأل من بعض الأنبياء أن يدعو الله له بذرة من محبته ، فدعا له بذلك ، واستجيب له وأخَّره إلى مدة للوقت ، فلما حضر الوقت حصلت فيه ، كما تقدَّم ذلك من قوله ، وذَكَرَ أنه لما حصلت له عجز عنها ، وشكى ذلك إلى ذلك النبي ، ودعا الله له بالتخفيف منها ، وقال الله سبحانه لذلك النبي : « إن

ألفاً سألوني مثل ما سألت أنت ، فأخرتهم إلى وقت ذلك ، فلما جاء الوقت قسمت بين الجميع ذرة ، والذي أصابه نصيبه منها » ، ويشبه ذلك ما قدمنا من قصة الذي سأل من سيدنا عمر المحضار ، وقال: « ما يأكُل كثيراً إلا البقرُ والحمير ، وإنه يخطر لي طلب الأكل وأنا في الصلاة ، فاسأل الله أن ينقلني من تلك الحالة » ، فقال له: « ابْقَ على حالك خير لك » ، فألحَّ عليه ، فأدخل رأسه في كمه وبقي لحظة ، ثم رفع كمه عن رأسه ، وإذا الرجل قد صار كالغشي ، فالتجأ إليه أن يُرجِعَه إلى حالته ، فأدخل رأسه في كُمِّه ثم رفع الكُمَّ عنه، فإذا هو على حالته الأولى . وهكذا ما صرف الله به عباده الصالحين .

ودليل المعنى المذكور من كون الأمر لا يختلف عن وقته ، الآيات المذكورة وغيرها ، كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ﴾ ، ومثل ذلك جميع الأسباب التي جعلها الله تعالى يتوصل بها إلى الأشياء ، من أسباب الخير وأسباب الشر ، ولكنه موقوف على المشيئة فعله وحصول المقصود منها ، إن شاء وقع مع سببه في وقته ، وإلا فلا يكون موجباً له . يعني كون من لازمه أن يكون إذا وجد السبب ، لا ، بل موقوف على الإرادة منه سبحانه ، فإذا حصل أي السببين، إما سبب الخير أو سبب الشر ، وأراد تعالى وحضر الوقت ؛ وقع ، فكان لذلك موجباً له ، فإن كان وقته المؤقت له متأخراً تأخر لا محالة إلى وقته ، كما قال سيدنا : « **الأشياء بأوقاتها لا بأسبابها** » .

فترى الأسباب تتم ولا تقع المسببات ، فإذا جاء وقتها وقعت – أي تقع بسببها الموجب لها – وهو الذي يوافق الإرادة الإلهية وحضور وقتها ، مثاله كما قال ﷺ : « ما زالت أكلة خيبر تعاودني كل عام حتى كان هذا أوان قطع أبهري » ، أي سبب موجب له على ذلك الشرط المذكور ، وهو أن يجتمع السبب المذكور مع وقته ، فلما كان الوقت متأخراً عن وقت السبب ، تأخر وقوع المسبب إلى وقته ، فحصل حينئذ ، فقال ﷺ ذلك القول .

فلهذا يقال : الأسباب علامة لمسبباتها لا موجبة لها . أي ليس من لازم وقوع السبب وقوع المسبب، إلا بذلك الشرط ، فلو كان من لازمه قلنا هو موجب له ، فلما لم يكن من لازمه وقوعه قلنا : هو علامة له يقع في وقته إذا شاء الله ذلك . فيكون حينئذ علامة دالة عليها ، وإلا فيكون علامة على ما جرت به العادة ولا يلزم وقوعه ، ولعدم عِلْمِها ، قلنا : هو علامة يمكن وقوعه وعدمه . فهذا الفرق بين كون السبب علامة فقط ، وبين كونها علامة موجبة فافهم ذلك .

وهذا جار في جميع أسباب الدنيا ، وأسباب الآخرة كلها ، في الخير والشر ، فلا كل مطيع يدخل الجنة ، ولا كل عاص يدخل النار إلا بالمشيئة الإلهية ، فلا نفعت إبليس عبادته ثمانين ألف سنة ، ولا ضرت آدم معصيته هـ .

قال رضي الله عنه : « من لم تُقَوِّمْه التقوى والقرآن لم يُقَوِّمْه إلا السيف والسنان ، وما بغوا أهل الزمان إلا السيف والنصال » .

قال : « لا يأمن الإنسان نفسه أبداً ، ولكن يجنبها الأمور التي يخشى عليها منها الفتنة ، ولا يغتر بقوته عليها ، فربما غلبته أو فتغلبه » هـ .

أقول : سيما نفوسنا أهل الزمان ، فإن الشيطان متحكم فيها ومتمكن منها ، والكلام في الخواص ودع العوام ، فكم رجع تائب بعد التوبة ، وكم أدبر مقبل بعد الإنابة ، وكم مالَ إلى الدنيا من قد كان مائلاً عنها ، وغير ذلك على ما تقدم من الكلام . حتى إنه ذَكَرَ في درس العصر عندما انتهت قراءة من كان يقرأ في « رسالة المريد » ، قال : « إنما لم نذكر من ألَّفناها له ، لأنه قد رجع بعدُ عن الإرادة » ، وكان رجلاً من آل كثير ، وهذا والزمان وقت تأليفها ، وأهله أصلح من زماننا وأهله اليوم هـ .

قال : « لا ينبغي للحاكم في هذا الزمان أن يحكم لأحد بمجرد دعواه ، حتى يحضر خصمه ويجمع بينهما ، لأنه غير مأمون عليه ، فقد قيل : إنه أتى شخص إلى ذي القرنين حاملاً عينه في يده ، وقال له : إن فلاناً قلع عيني ، فاحكم لي . فقال له : ادْعُه ، أخاف إنك قلعت عينيه كلتيهما . وكان الأمر كذلك » .

قال : « كلما جاوز حد الوسط والإعتدال فهو شر وبلاء ، وخصوصاً في العادات ، فإن ذلك في العبادات قد يُغتفر إذا زيد على القدر الممكن ، إما لشغفٍ بالعبادة أو للإحتياط » .

قال رضي الله عنه : « للروح مطالب ، وللنفس مطالب أخرى - أي بضدها - وقد يجتمعان ، فإذا اجتمعا في مطلب طاب للشخص عيشه في ذلك ، وزاد نشاطه ، ويحصل فيه من النشاط أكثر مما يحصل له في فعل شيء غيره ، لأن كلًّا من النفس والروح سَلِم من منازعة الآخر ، واجتمعا على ذلك . ولهذا قال عمر بن عبدالعزيز : إذا اجتمع الروح والنفس في شيء ، كان ذلك كالشهد بالزبد » .

وغير مرة قال : « والعجب من قلة خواطر النفس حالة الأكل ، ما لم يحصل مثل ذلك في الصلاة ، لأنها حينئذ مجتمعة على مطلوبها بخلافه في الصلاة » .

وذَكَرَ أمان الطرق ، فقال : « إذا أراد الله أمان الأرض ، وضع الأمان في قلب الخائف والمخيف ، فحصل الأمان ، هذا فعله وعليهم الأسباب ، ولهم الإختيار وإليه القدرة ، والفعل هذا في هذا العالَم لأنه عالَم الأسباب والحكمة ، فترى الإنسان لو أراد يسافر أو يفعل أو يترك ونحو هذا ، كل ذلك باختياره ، وأما في الآخرة ، فإليه تعالى الفعل والقدرة ، ولا عاد لهم اختيار ولا سبب ، بل لو أرادوا فعل شيء ما قدروا وتولته الملائكة دونهم » .

ثم تلى قوله تعالى : ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٍ﴾، وقال : « هذا في الآخرة ، لأن إذ ذاك ما عاد شيء أسباب ، ولأن الأسباب قد استوفوها في الدنيا . وقد فسر قوله تعالى : ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ﴾ : المطر ، ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ : الجنة ، لأنها في السماء ، فينزل لهم اليوم المطر من السماء الذي هو سبب الرزق ، ثم يسكنهم الجنة في الآخرة » .

وتقدَّم قوله : « الخير كله نزل من السماء ، فالقرآن غذاء الأرواح ، وهو نزل من السماء ، والماء غذاء الأشباح وهو نزل من السماء » ، وَبَيَّنَّا هنالك شاهد ذلك أن الماء كله أصله من السماء النازل منه والنابع، فإن النابع أيضاً أصله من السماء ، لقوله تعالى : ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ حُطَٰمًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾، وغيرها كقوله تعالى : ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٖ فَأَسۡكَنَّٰهُ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾، وغير ذلك .

وتقدم أيضاً قوله : « في الدنيا المقادير كامنة في الأسباب ككمون الأرواح في الأشباح ، فتظهر الأسباب وتخفى المقادير ، وفي الآخرة تظهر المقادير وتخفى الأسباب » .

قال : « والأسباب تقدمت في الدنيا » ، يعني والمقادير الظاهرة في الآخرة هي آثار الأسباب التي كانت ظاهرة في الدنيا ه‍ .

وذَكَرَ الدنيا فقال : « إن المحب لها كل ما ظفر منها بشيء غرق فيه على قدره إن قلَّ أو كثر ، لأنها كالبحر ، فأول ما يدخله تغرق فيه أقدامه ، ثم إذا دخل أيضاً غرقت ركبه ثم وسطه حتى يغرق كله، وسرورها يعود على حزنها ، وحزنها يعود على سرورها ، فإذا سَرَّتْهُ أَحْزَنَتْهُ ، وإذا أحزَنَتْهُ سَرَّتْهُ » .

ثم ذكر قصة المرأة التي مرَّ بها عيسى عليه السلام مع غنمها ، وهي في أسوء حالة من الجدب وضعف الغنم ، وهي فرحة مسرورة ، ثم بعد مدة مر عليها ، فوجدها على حالة حسنة من الخصب وسمن الغنم ، وهي ترحة محزونة ، فسألها عن أمرها في الحالتين ، فقالت : « إنها في الحالة الأولى فَرِحَة بتوقع الأخرى ، وحَزِنَة فيها لتوقع الأولى » ، وتقدم مثل ذلك من وصف الدنيا ، فقال : « إن خيرها مبشِّر بشرِّها ، وشرها مبشِّر بخيرها ، وهكذا » ، وفي مجلس آخر مثل ذلك ، وذَكَرَ القصة أيضاً .

وجرى ذِكر الرياء في المجلس يوماً ، فقال لي : « إن الإخلاص عسر ، تراك تعتقد في نفسك بينك وبين الله أنك على حالة مذمومة ، ثم لو قال لك أحد : يا كذا ، على الذي تعتقده في نفسك غضبتَ » .

فقلت لسيدنا : لقد تعجبتُ من ذلك ، *فقال* : « هذا غضب الطبع ، وقليل من يخرج منه ، فقد غضب النبي ﷺ ، ولكنك ارمِ أنت بنفسك في الأرض - أي تواضع - فإن كنت على حالة مرضية عند الله ، فيزيدك بذلك رفعة ، وإن كنت على خلاف ذلك فما تسوى الكلام » .

أي ما تسوى من يذكرك .

وقيل له : « إن الجراد أصاب حرث بعض البلدان » ، *فقال* : « قد أمرناهم يدعون ربهم بقلوبهم وألسنتهم ، متضرعين إليه بالدعاء كذلك ، لأن الإنسان ما له إلا ربه وما له من غيره من غياث ، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ ، وإن الله وَجَّهَ إليهم مصائب ، وأمرهم بأشياء من الخيرات ، إن فعلوها صرف عنهم تلك المصائب ، وسلط عليهم موانع تمنعهم من الخير ، سلط عليهم شياطين ، وأهواءهم ونفوسهم ، فإن جاهدوها وفعلوا ما أُمِرُوا به ، فَواسَوا محتاجاً وأقرضوا مستقرضاً ، وأطعموا جائعاً وكَسَوا عرياناً ونحو ذلك ، صرف عنهم ما حَلَّ بهم ، وإن لم يفعلوا ؛ ضاعفها ، فإن فعلوا زالت عنهم ، وهكذا ينبغي أن يفعلوا كلما عادت تلك إليهم عادوا إلى الخير ليزول عنهم » ، أو كما قال بمعناه .

قال رضي الله عنه : « للأسماء الإلهية سريان في المخلوقات ، من غير ما يدري الخلق بذلك ، أسماء الرحمة في أهل الرحمة ، وأسماء العذاب في أهل العذاب ، رحمة الله في عذابه ، وعذابه في رحمته . وقد يكون الشيء مما يرسله الله على بعض عباده ، يكون مظهره العذاب وباطنه الرحمة ، فهو في الظاهر عذاب ، وفي الباطن رحمة ، فظاهره العذاب وباطنه الرحمة ، ويكون رحمةً وتخفيفاً في حق أقوام ، وعذاباً في حق آخرين ، وهو شيء واحد ، كما جاء في الخبر ما معناه : إذا أرسل الله على قوم عذاباً فهو تعذيب للمعتدين وثواب للمحسنين . وفي قصة الذي يُخسَف بهم ، وفيهم أهلهم وأسواقهم ، فيُبعثون على نياتهم » ، *ثم قال* : « إن خمساً من الأمم الذين أهلكهم الله بالعذاب ، وقد ذكر الجميع في هذه الآية : ﴿فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ﴾ » هـ .

أقول : الذين أرسل عليهم حاصباً هم عاد ، والحاصب : الريح القوية التي تحصبهم ، أي ترميهم بالحجارة . كانت الأرض الرابعة هي خزانة الريح ، ففتح عليهم منها مثل حلقة الخاتم ، فزعزعتهم حتى كانت تطيرهم في الجو كالريش ، وكان القصير منهم طوله ستون ذراعاً ، والطويل تسعون ذراعاً ، ورأس أحدهم كالقبة ، وطولُ سِنِّهِ سِتَّةُ أشبار ، وعرض فكِّه من طرف حنكه إلى الطرف الآخر ستة عشر ذراعاً ، فترفعه إلى عند السحاب ، وتضرب به في الجبل الشامخ ، فيسيل دماغه كالقربة الـمُطلَق

وكاؤها . وكان مصب أدمغتهم في جبال شاخة جدًّا ، وإلى الآن يصعدها حُرَّاث حضر موت ، فيرى الرجل في أعلى الجبل كالطير يأخذ منها من تراب دمائهم وأدمغتهم ، يجعلونه في محافر وزنابيل ، ويُدلدَل في حبال طوال جدًّا ، يدفنون به حروثهم من البُر ، لا يصلح إلا به ، ولو تُرِك منه هلك زرعهم، والعجب إذا أخذوه وأخلوا منه مكانه يصعدون له في كل سنة ، فيجدونه كما هو ، تغذية يجعلها الله لزروعهم ، ولا ينوب لها عنه شيء ، وفيه أثر دمائهم وعظامهم . ووصف طول قامتهم في القرآن : ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾، ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾، وليس على وَصْف خلقهم أحد غيرهم ، ولهذا قالوا : ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾، وبعض جبابرتهم وصل إلى العراق ، فرأى خلقهم كما هي ، قاصرة عن خلقتهم ، فجعل يطبخهم في القدور كالجراد .

وكذلك أرسل الحاصب على قوم لوط : ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا ﴾، أي حجارة من سجيل مُسَوَّمة، يعني موسومة ، كل حجارة عليها مكتوب اسم صاحبها التي ترمى به ، وهذا لمن غاب منهم عن بلدانهم ، وأما من كان في البلدان منهم ، وتسمى قراهم المؤتفكات ، قال الله سبحانه : ﴿ جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا ﴾، أمر الله تعالى جبريل أن يقلعها من أصلها ، ويرفعها إلى محل السحاب ، حتى سمع هناك ثغاء البقر ، ونهيق الحمير ونباح الكلاب ، ثم حذفها منكوسة . والذين أخذتهم الصيحة ثمود ، أمر الله سبحانه جبريل ، فصاح في مساكنهم فانخلق وأصبحوا في ديارهم جاثمين، منكسين رؤوسهم في الأرضين ، ومنتصبين على ركبهم ، وهي الطاغية في قوله تعالى: ﴿ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴾ ، أي طغت الصيحة على قلوبهم ، فانخلق وأهلكوا . والذين خسف الله بهم الأرض قارون وماله ، ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ﴾قوم نوح بالطوفان ، وفرعون وقومه في بحر القلزم .

وقوله : « **للأسماء الإلهية سريان .. إلخ** » ، فيه إشارة لمن يفهم الإشارة لما يقع في الكون من المظاهر الإلهية .

وقد وقع بعد كلامه هذا بنحو أربعة أشهر إلا ثلاثة أيام ، وذلك يوم ٢٦ من شهر رمضان سنة ١١٢٣ من سريان مظاهر الأسماء الإلهية القهرية ، السيل الهائل العظيم - الذي سماه : « **النابر** » - سيل الحوت ، الذي نبر النخيل ومحاها ، وترك مواضعها أرضاً بيضاء صفصفاً ، لا أثر لها ولا كأن غرست فيها نخلة . فكلامه هذا مقدمة له وإشارة إليه ، كشفاً وذوقاً وتسديداً من الله عز وجل لقوله نفع الله به : « **ولكن أين من يفهم الإشارة ؟ وأين من تكون له عنها العبارة ؟** » ، وما فهمنا إلا بعد ما رأينا .

والظاهر أنه كما يكون الشيء مظهره العذاب وباطنه الرحمة ، فقد يكون أيضاً بالعكس ظاهره الرحمة وباطنه العذاب ، كما قد يُوسَّع على أقوام الرزق ، أو ييسر لهم ما يحبونه من أمور الدنيا ، استدراجاً ، كما نص عليه في هذه الآية : ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟

﴿أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ﴾، تفسيرها أسبغ عليهم النعم ، وسلبهم الشكر عليها ، فلو كان في أهل الإيمان والطاعة ، لكان ذلك لهم ظاهره وباطنه الرحمة ، فيصير رحمة لهم ظاهراً وباطناً ، فلما كان في أهل الكفر والمعصية ، كان ذلك ظاهره الرحمة وباطنه العذاب ، فصار عليهم عذاباً باطناً ، ولو كان ظاهره نعمة .

وقد فرق الله بين النعمة الظاهرة التي تصيب المؤمن والكافر في الدنيا ، بأنها في حق المؤمن نِعمة بكسر النون ، كما قال الله تعالى : ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾، وفي حق الكافر بفتحها ، قال تعالى : ﴿وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ﴾، وقال تعالى : ﴿كَمۡ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ۝ وَزُرُوعٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ۝ وَنَعۡمَةٖ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ۝﴾، فالبفتح هي ما تلتذ به النفس في الدنيا ، ثم تكون عاقبته إلى شر . وبالكسر في حق المؤمن في الدنيا كذلك مما تلتذ به النفس ، ثم تكون عاقبته إلى الخير ، قال الله تعالى : ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾، يعني يشارك المؤمنون غيرهم في نعم الدنيا ، ثم يختصون بنعم الآخرة دون غيرهم ﻫ .

قال رضي الله عنه : « قد يقابل الأمر من الله شيء من العوارض فيمنعه ، فإذا جاء أمر برحمة ؛ قابلتها حصول معصية فامتنعت ، أو حصول عذاب فقابله صدور طاعة فرجع ، حتى إنه جاء عن الله تعالى أنه قال : ربما وَجَّهتُ على أحد العذاب ، فيمنعني منه القائمون بالأسحار » .

ثم حكى : « أن رجلاً كان عابراً في سفينة في البحر ، فانكسرت بهم السفينة فألقاه البحر إلى جزيرة في البحر فصعدها ، فرأى فيها مسجداً ، وفيه سبعة من الأولياء منقطعين للعبادة ، فَهَبَّتْ ذات يوم رِيحٌ شديدة في البحر وفي الجزيرة ، فلما رأى شدتها قال : لا إله إلا الله . فلما قالها سكنت الريح في الحال، فالتفت إليه واحد منهم وقال له : هداك الله ، إن هذه الريح أرسلها الله ليغرق بها جملة مراكب من الكفار غاروا على المسلمين ليأخذوهم ، فلما ذكرت الله سكنت عنهم » ﻫ .

أقول : ويشهد لذلك حديث الجامع الصغير : « إذا أُذِّن في قرية أَمَّنَها الله من عذابه في ذلك اليوم»، قال المناوي في شرحه : « وهنا فائدة ذكرها الإمام الرازي : أن الماء زاد يوماً ببغداد ، حتى أشرفت على الغرق ، فرأى بعض الصلحاء كأنه وقف على طرف دجلة ، وهو يقول : لا حول ولا قوة إلا بالله ، غرقت بغداد . فجاء شخصان – أي مَلَكان – فقال أحدهما للآخر : ما الذي أُمِرتَ به ؟ قال : بتغريق بغداد ، ثم نُهِيتُ عنه . قال : ولِمَ ؟ قال : رفعت ملائكةُ الليل أن البارحة افتُضَّ ببغداد سبعمائة فرج حرام ، فغضب الله ، فأمرني بتغريقها ، ثم رفعت ملائكةُ النهار سبعمائة أذان وإقامة ، فغفر الله لهؤلاء

بهؤلاء . فانتبه وقد نقص الماء » ، انتهى ، كذا ذَكَرَه الشارح .

وتقدم أن طرف هذا البحر مما يلي بغداد يسمى دجلة ، وطرفه مما يلي البصرة ونواحيها يسمى الفرات ، وهو نهر واحد ، ولهذا اختلفت رواية حديث : « النيل والفرات وسيحان وجيحان كل من أنهار الجنة » ، وفي رواية بدل الفرات دجلة ، وكلاهما صحيح .

وقوله : « غفر الله لهؤلاء بهؤلاء » ، والغفر معناه ستر القبيح والعقوبة الذي يستحقه المسيء ، ومجازاته بالإحسان الذي يستحقه المحسن ، سواء كان ذلك خاصًّا أو عامًّا ، فيعم كلًّا مع المحسن غيره بالإحسان ، ويعم مع المسيء غيره بالعقوبة ، فلما كان عقوبة إساءة أولئك عامة ، أراد أن يعم ذلك البلاء الجميع ، ولما كان إحسان الآخرين عامًّا عمهم مع المسيئين وغيرهم ، بتأخير العقوبة وسلامتهم منها إلى الآخرة ، ثم يختصون بها هناك ، وهذه مثوبة عامة .

وهي من معنى : « سَبَقَت رحمتُه تعالى غضبَه » ، حيث دفع الله العقوبة العامة في الدنيا الواقعة بسبب معصية هؤلاء ، وأَخَّرَها إلى الآخرة ببركة طاعة هؤلاء المطيعين ، لأن هذه العقوبة عامة ، لو وقعت لشملت الفريقين ، قال الله تعالى : ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ﴾، لكن من فضل الله ورحمته أنه لما حصل من أحد ما يقتضي العقوبة العامة ، ومن آخرين ما يقتضي المثوبة العامة قوبلتا ، فغلبت الرحمةُ الغضبَ ، لأن رحمته سبحانه سبقت غضبَه .

ولهذا المعنى جعلت ملائكة الرحمة موكلين على ملائكة العذاب ، ولذلك إن ملائكة الرحمة يعملون عملهم بلا مراجعة ، وملائكة العذاب لا يعملون عملهم إلا بمراجعة ملائكة الرحمة ، كما في أمر الكاتبين ، لما ورد : إن كاتب الحسنات ففي الحال حين تصدر الحسنة من العبد كتبها بلا توقف ولا مراجعة ، وكاتب السيئة يراجع في كتابتها كاتب الحسنات ، لا يكتبها إلا بمراجعته ، فيمهله ست ساعات لعل أن يتوب ويستغفر ، فإن فعل لم يكتبها ، وإلا كتبها واحدة ، والآخر يكتبها عشراً .

وهذا أيضاً من معنى سبق رحمته سبحانه لغضبه وغير ذلك ، ولو كان أهل الطاعة بمعزل عن أهل المعصية ، لم يجمعهم معهم موضع ، لاختص كل منهم بجزاء عمله في الدنيا ، كما اختص به في الآخرة، كما دلَّ على ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَوۡلَا رِجَالٞ مُّؤۡمِنُونَ وَنِسَآءٞ مُّؤۡمِنَٰتٞ لَّمۡ تَعۡلَمُوهُمۡ أَن تَطَـُٔوهُمۡ فَتُصِيبَكُم مِّنۡهُم مَّعَرَّةُۢ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ لِّيُدۡخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ لَوۡ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبۡنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ . ولأجل ذلك أمر الله نبيه بصلح الحديبية ، وكان في الصحابة لهم القوة والمنَعَة ، ولذلك كرهه جماعة منهم وقالوا : « علام نعطي الدَّنِيَّة في ديننا ؟ » ، فقال لهم ﷺ : « بهذا أمرني ربي ، ولا أخالف أمر ربي » ، وإنما كرهوا قبل أن يعلموا سبب ذلك ، لأنهم إنما جاءوا بعدتهم وحدتهم لتعذيب أعداء الله خاصة ، فلما صار في وسطهم أناس مؤمنون لم يتميزوا منهم ، لم يستحقوا ذلك ، أمر الله

بالصلح ووعدهم بفتح مكة في العام القابل . ولذلك نهى الشرع عن مخالطة أهل المعاصي ومجالستهم ومؤاكلتهم ، مع إمكان مجانبتهم .

وقصة الثلاث الفرق من بني اسرائيل في اصطياد يوم السبت بعد النهي معلومة ، ففرقة استحلته وصادت ، وفعلوا لهم حيلة ، ظنوا أنها تحله لهم ، وذلك أن الله جعل ذلك حجة في زيادة نكالهم ، بأن أكثر الصيد يوم السبت خاصة ، المنهي عنه فيه ، ولم يروا منه شيئاً في غيره من الأيام ، وحيلتهم أن جعلوا يربطونه يوم السبت ، ليبقى مربوطاً إلى يوم الأحد ، فيأخذوه حينئذ ، فما نفعهم احتيالهم . وفرقة نهتهم عن ذلك ولم يفعلوا ذلك معهم ، ولكنهم خالطوهم وما اعتزلوهم وواكلوهم ، فعمهم الله معهم بعذابه لما أنزله بهم ، وهو أن الله مسخهم قردة وخنازير . وفرقة نهتهم وأنكروا عليهم وجانبوهم واعتزلوهم ، فنجاهم الله من عذابه .

ولهذا حث الشرع وأكّد في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ومجانبة العاصين والمتساهلين فيه، بتأويل هذه الآية على غير الوجه المطلوب : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ ﴾، قال سيدنا : « **قوله تعالى** : ﴿ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ ﴾، **ومن الهداية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر** » ، أي فإذا فعله فقد اهتدى ، فلا يضره حينئذ ضلال من ضل ، فقد شرطه في هذه الآية ، فإذا لم يفعله فقد ضلَّ أيضاً ، كما ضلَّ عامل المنكر .

والأثر عن سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه في الآية مشهور ، وهو أنه قال : « يا أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية ، وتأوِّلونها على خلاف تأويلها : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وذَكَرها ، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : ما من قوم يُعمل فيهم بالمعاصي وفيهم من يقدر أن ينكر عليهم فلم يفعل ، إلا يوشك أن يعمهم الله بعذاب من عنده ، فإذا رأيت هوى متبعاً وشحًّا مطاعاً ودنيا مؤثَرة ، فعليك حينئذ بخويصة نفسك » .

قال سيدنا عبدالله : « **وهذا وقتنا هذا فيه هذه الأوصاف - يعني في أهله - ولو أمر ونهى ما سمع له ولا قبل قوله ، فعلى الانسان بخاصة نفسه فيه - يعني فحينئذ - فعدم الخلطة أسلم له ، فإنَّ معها قَلَّ ما يَسْلَم من رؤية معاص وإنكارها منه ، إما واجب أو مستحب ، وسلامته من ذلك وعدم تعلقه به خير له** » ، وكثيراً ما ترى في هذا النَّقل في أماكن متعددة من أوصافه لأهل زمانه وأحوالهم ، وأما اليوم فقد تضاعف ما وصفهم به ، وكثر ما حذر منه ، وتفتحت فيه الأمور الثانية مما وصف ، وعدمت الأمور الأولى المنجية منها ، كما عرفت ذلك مما تقدَّم ذِكْره . وفيه اتسع الخرق على الراقع ، فالله المستعان وعليه التكلان .

وقوله المتقدم : « غفر لهؤلاء بهؤلاء » ، يعني أُخِّرَت العقوبة عنهم بمعاصيهم ببركة طاعة الآخرين

كما تقدَّم ، هذا في الدنيا ، ثم يوم القيامة يختص كلٌّ من الفريقين بجزاء عمله ، لا أن أحداً يُغفر له بطاعة غيره ، وإلا لاكتفى العاصون بطاعة آبائهم وهم أحق بهم .

وقوله المتقدم : « صعدت ملائكة الليل وملائكة النهار » ، فهذا تنزل من الله سبحانه لخلقه ، على مقتضى عقولهم ، لما رتب لهم في الدنيا من مراعاة الأسباب واتباع الحكمة التي رتبها بالنسبة إليهم. وأما بالنسبة للصفات الإلهية ، فهو سبحانه عالم بما تكنه صدورهم وما يعلنون ويعلم العاصي ومعصيته ، ويعلم المطيع وطاعته ، قبل وجود المطيع وطاعته ، وقبل وجود العاصي ومعصيته .

والقاعدة الشرعية : « أن لا تغفر المعصية - سيما التي فيها الحد - إلا بتوبة نصوح بشروطها في الدنيا ، أو بتفضل من المولى في الآخرة » ، وهو هناك في خطر المشيئة ، وأما ما ليس فيه حد فتكفر بلفظ الإستغفار ، وبفعل مباني الإسلام الخمسة ، ومن الذنوب ما لا يكفرها ذلك ، ويكفرها الهم بالمعيشة، وهذا من باب سبق رحمة الله تعالى لغضبه .

ومن ذلك ما كُشِفَ لبعض أهل الكشف ، وسمعت سيدنا مراراً يذكره ، أنه رأى بعض العَشَّارين قابضُهُ جماعةٌ من ملائكة العذاب يقودونه إلى النار ، وكان يحفظ قصيدة الشيخ أبي بكر العيدروس : « ببسم الله مولانا ابتدينا » ، فاعترضهم واحدٌ من ملائكة الرحمة ، فقال : « دعوه ، إنه يحفظ قصيدة الشيخ أبي بكر » ، فقالوا : « إنه يغلط فيها » ، فقال لهم : « أما يحفظ منها قوله :

وَذِكْرُ العَيْدَرُوسِ القُطْبِ أَجْلى عَنِ القَلْبِ الصَّدَى لِلصَّادِقِينَا

« دَعُوه » ، وفَكَّه منهم ، وهو واحد وهم جماعة ، فدلَّ على أنهم أقوى وأوجه عند الله منهم ، وذلك سبب سبق رحمة الله غضبه .

ومن عجيب ترتيب الله الأمور على أسبابها ، سيما في هذه الأمة ، والسكوت عن الأمور القدرية، أن شَرَعَ في دينه الجهاد في سبيل الله ، ليتحصل للمؤمنين المجاهدين أجر الجهاد الذي رتبه عليه ، ووصف أفضل من قام به من الأمة وهم الصحابة ، بأنهم أشداء على الكفار رحماء بينهم ، وأنهم جعلهم يغيظ بهم الكفار ، كل ذلك لترتيب الحكمة وإقامتها على قاعدة العبودية التكليفية ، وإلا كان في الأمم ، أي يعاملهم بمقتضى الصفات الإلهية القهرية ، فمن لم يتبع الرسل أرسل عليهم ما يهلكهم، كما فصَّله في القرآن من إيقاعه في الأمم السالفة .

والمراد ذكر كلام متعلق بالآية المذكورة : ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِۦ﴾، وهذا الموضع أنسب لذلك من غيره ، وهو ما ذكره صاحب كتاب « نزهة الناظر وتحفة المسامر » ، للشيخ عبدالعزيز البغدادي الشهير بالبابصري : « قال نيورس صاحب الهيكل في كتاب الجفر يوم قتل قابيلُ هابيلَ : كان على

رأس سبعمائة وثلاثة وأربعين يوماً وثلاث ساعات من خلق آدم عليه السلام . وكان نزول ماء طوفان نوح لثلاث ساعات من ليلة الجمعة ، بعد مضي ألفي سنة ومائتي سنة وأربعين ليلة خلت من خلق آدم . وكان هلاك قوم عاد على رأس ثلاثة آلاف سنة وسبعمائة سنة واثنين وثمانين سنة . ثم يكون فناء الدنيا في آخر درجة - أي يوم - من السرطان ، درجة قلب الأسد ، وذلك على رأس ستة آلاف سنة وسبعمائة سنة واثنين وثمانين سنة من خلق آدم عليه السلام ، ثم تبقى ثمانية عشر سنة لتمام سبعة آلاف سنة . فإذا صار قلب الأسد في آخر درجة من السرطان ، وذلك لتمام الدهر ، وهو ثمان وسبعون ألف سنة ، وتبقى الأرض معطلة مائتي سنة وخمسين سنة ، ربع الدور بوصول القلب إلى أول درجة من الفلك ، ثم يكون ما شاء الله كونه في العالم ، والله أعلم بما يكون بعد ذلك » ، انتهى .

قال سيدنا عبدالله نفع الله به : « كل ما مع الخلق من التدبير إنما هو من عند الله ، بواسطة وحي أو إلهام ، ولهذا طلب إقامة الإمامة والولاية ، لينتظم الأمر وتُؤدى حقوق الله وحقوق العباد . وما وقع من خلاف ذلك فإن الله لا يزال يعفو عن صغائر الأمور ، حتى يحصل شيء من كبارها ، فيعاقب عليه في الدنيا قبل الآخرة بخسف أو غيره ، فان لم يكن خسفاً ظاهراً كان خسفاً باطناً ، بخسف القلوب ، فلا تتأثر بموعظة ، ولا تخشع في عبادة ونحو ذلك ، وكل ما لا يحتمل أهل الله الصبر عليه والسكوت عنه، هو الذي يعاقب الله عليه » ، انتهى ، كما سمعته وحفظته من لفظه .

وتكلم يوماً بكلام كثير ، حتى انجرَّ به الكلام إلى أن قال : **« لا تُنكِرْ على أحد من أهل الحق ، ممن علم الله إخلاصه ونصيحته حتى تختبره »** .

ثم تكلم في أهل الزمان وأكثر ، ثم قال : **« إن شهود الزمان فسقة ، وكذا قضاته وعدوله ، وإنما تُقبَل فتاويهم للضرورة ، وإذا تأملت حال العُبَّاد فيه ، فضلاً عن غيرهم ، تراهم في كل مباح ، من أكل ونوم ونحو ذلك في غفلة ، أين الآداب ؟ أين الأذكار الواردة في هذه الأشياء ؟ هيهات ، ذهب الدين ولم يبق منه إلا الرسوم »** .

قال : **« والولاة كالحيَّات ، العافية في سكونهم ، وما يجيء من تحركهم إلا الشر . والناس في هذا الزمان ما معهم من الدنيا إلا الهم والتعب ، ولو أن أحداً معه شيء من الدنيا قال لك : خذه بما معه من الهم والنصب ؛ لأبيتَ منه ، واخترتَ الراحة من ذلك ، فقد قال عيسى عليه السلام : الدنيا قليل ، وما بقي من القليل إلا القليل ، قد شُرِبَ صفوُه وبقي كَدَرُه »** .

ونكلم في العلم ، فقال : **« من رأيته يُعَلِّم العلم النافع ، كعلم كتاب الله وسنة رسول الله ، وينطق**

بذلك ثم لا يظهر عليه العمل به ، فذلك عالم سوء ، فإن لم يكن ما علم من العلوم النافعة ، فلا يسمى عالما أصلاً . وأما العلم بأحكام الفقه ، لو كان كذا ، لو كان كذا ، مما لا يقع ، فإنما هذا صناعة لا علم ، ومن علم البيع والشراء ولم يبع ولا يشري ، لا له فضل بذلك ، لا ، بل إن فعل ؛ فائدته أن يتقي الله في ذلك ، فالفضل حصل من التقوى لا من ذلك » .

وتكلم أيضاً في أهل الزمان ، وكثرة اختلافهم ومخالفتهم في أشياء من ظاهر العلم ، *ثم قال* : « **إن أهل الزمان ليسوا بأهل مجادلة** » .

قال : « **أي بحيث يرجعون إلى الصواب إذا جُودِلُوا ، واستبان لهم الحق ، وإنما هم أهل شقاق ، فإذا قال تعالى في حق أهل الكتاب : ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾، فكيف بالمسلمين ؟ وهذا في أشياء من العلوم الظاهرة ، فكيف لو أظهرنا لهم كلمة صوفية** » ، أو قال : « **فكيف لو هو في التصوف**».

وصافحه رجل عشية الإثنين ١٦ من شعبان ١١٣١ ، فسأله عن اسمه ، وكان ذلك عادته إذا صافحه أحد وهو يعرفه ، قال له : « فلان » ، وإن لم يعرفه سأله عن اسمه ، واشتُهِرَ في هذه الجهات أنه يعرف كل من صافحه ويسميه عن معرفة ، فلعل سؤاله إذاً تورية لمن حضر وتستُّراً ، *ثم قال* بعد ما سأله : « **لنا في ذلك من السيد عمر - يعني العطاس - ، وله هو فيه طريقة من شيخه السيد عبدالله بن علي** » ، أظنه صاحب الوهط ، فكان من عادة السيد عمر والسيد عبدالله سؤال الإنسان عن اسمه واسم أبيه ، يعني عند المصافحة .

وغير مرة *قال* : « **لولا قرابتنا من رسول الله ﷺ ، ما تركنا أحداً يقبل يدنا** » .

يعني إنما يتركه لأجل يمس ويشتم رائحة البضعة النبوية الشريفة ، وهذا منه نية عظيمة ، مع اقترانها بنية المقبِّل أيضاً ، مما ظاهرها المحبة وقوة الإعتقاد هـ .

قال رضي الله عنه : « **إذا ابتليتَ بما يمكنك الصبر عليه فلا تخرج من الصبر إلى الجزع ونحوه ، بل إن خرجتَ منه فاخرج إلى الشكر ، وإذا دامت الشدائد أُلِفَتْ ، وكانوا لما ابتلاهم الله اتسعت قلوبهم ، بأن أنزل الله في قلوبهم السكينة ، فصبروا ولم يتزحزحوا** » هـ .

أقُولُ : قوله : « **بل إن خرجتَ منه** » ، أي من الصبر الذي هو مقام الخواص الأبرار أصحاب اليمين، « **فاخرج منه إلى الشكر** » ، وهو الرضا ، وهو مقام خواص الخواص السابقين عباد الله المقربين، وهما مقاما الدين ، وليس وراءهما من الدين شيء ، وما وراءهما إلا المقام الثالث ، مقام أهل الشمال، فلا تنزل من المقامين : الرضا والصبر ، إلى الثالث : الجزع والهلع ، مقام العامة أصحاب الشمال والعياذ بالله ، أمرك بالترقي إلى أعلى ، ونهاك عن النزول إلى أسفل . ومراده أن تقوم في مقام الشكر في السراء والضراء ، كما ستعرف ذلك هنا ، وهو العبادة على الرضا كما في الحديث ، فإذ عجزت عن ذلك فاصبر، ولا تخرج منه إلى الجزع .

وبيان ذلك : إن كنتَ من خواص الخواص فتعد البلاء نعماً ، لما فيه من جزيل الثواب ، وهو أيضاً مراد الله فيك ، وهو خلاف مراد نفسك ، فتحبه محبة أخرى لكونه مراده ، فإذا كنت كذلك فقد صرتَ من خواص الخواص أهل مقام الرضا ، وكنتَ إذ ذاك شاكراً ، فإن لم تقدر على هذا وقَصُرتَ عنه ، فتكون إذ ذاك صابراً ، فلا تجزع بأن تشكو ما بك إلى الخلق ، وتتكلف مرارته ، وترجو في كل ساعة أن يفكك الله منه . فإن قُمْتَ بشرط ذلك وهو حق الله عليك فيه - فإن حقه عليك في حالة النعماء الشكر، وفي حالة البلاء الصبر ، فالشكر في مقابلة النعمة ، والصبر في مقابلة البلاء - فإذا عديت البلاء نعمة فأنت في مقام الشكر .

وفَصَّل في الحديث المقامين ، وَفَضَّل مقام الرضا مع مدحه للحالين ، قال النبي ﷺ : « اعبد الله على الرضا ، فإن لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خير كثير » ، يعني عامل ربك في حالتَي النعماء والضراء بالرضا ، وعلامته أن تتلذذ بالبلاء بسبب ما ترجو فيه من جزيل الأجر ، وكونه مراد الله ، فإن عجزتَ هذا فتعامله بالصبر على ما خالف الطبع ، وترى أن ليس لك في نفسك تصرف مثقال خردلة، وإنما أنت عبد مملوك ، وسيدك المتصرف فيك ، وما يشكر على البلاء إلا من يتلذذ به ، فيكون حينئذ عابداً لله على الرضا ، فإن كره وصبر فقد حصل له مقام الصبر على ما يكره ، الذي له فيه خير كثير .

وكلام سيدنا مطابق للحديث ، لأنه أراد من السالك أن يرتقي من مقام الصبر على المكاره ، إلى مقام الشكر عليها إذا عَدَّها نعمة ، وهو مقام العبادة على الرضا المذكور في الحديث .

وحكي عن امرأة من أهل هذا المقام مقام الرضا ، أنها ضربتها حجارة في رجلها قطعت إصبعها ،

فرفعت رأسها إلى السماء وضحكت ، فقالت لها امرأة أخرى كانت تراها ماشية معها : « **أما أوجعتك الضربة ؟** » ، قالت : « بلى أوجعتني ولكن أنساني وَجَعها ما أرجو من ثوابها » .

ومثل ذلك من أخبار أهل مقام الرضا كثير ، وما بعد هذين المقامين - مقامي الرضا والصبر لأهل الدين - إلا المقام الثالث ، الخارج عن الدين ، مقام أهل الشمال ، وهو مقام أهل الجزع والهلع والكفار والعصاة ، كما قال تعالى : ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴾، ثم عدَّهم وذَكَرَ أعمالهم في الدنيا وأحوالهم عند الموت ، وجزاهم في الآخرة ، وفَصَّل كل ذلك في سورة الواقعة ، وقد سمعت سيدنا غير مرة يقول : « **لو كان الناس سواء ، ما فَصَّل أحوالهم في سورة الواقعة** » .

وامتحن الدولة الناس يوماً ، فخرجوا إلى الحاوي متجورين ، ***فقال*** سيدنا : « **هذه عقوبات وقعت بهم على ذنوب صدرت منهم ، وقد نسوها وأثبتت عليهم ، فحلَّت بهم عقوبتها ، وظنوا أنهم أصيبوا من غير جرم** » ، وقال لهم : « **هذه عقوبات لكم على أفعالكم السيئة** » .

ثم قال : « **إن المحن التي تصيب المؤمن في الدنيا ، جعلها الله له بمنزلة الحدود على ما عمله** » هـ .

أقول : أي مما ليس فيه حد ، يشهد لقوله هذا حديث : « من أصاب منكم حداً ، فأقيم عليه الحد في الدنيا ؛ فهو كفارة له .. إلخ » ، أو كما ورد ، هذا ما فيه حد . وغير ما فيه حد حديث : « ما يصيب المؤمن من هم ولا غم ، ولا نصب ولا وصب ، حتى الشوكة يشاكها ، إلا كفر الله من سيئاته » ، أي التي لا حد فيها ، وهي الصغائر حيث أُطلِقَت ، وكذلك حديث : « اجتناب الكبائر مُكَفِّرٌ للصغائر»، والكبائر التي فيها الحد ، والصغائر ما ليس فيه حد ، يعني إذا عرض له فعل الكبيرة فتركه خوفاً من الله ، كَفَّرَ ذلك عنه ما عليه من الصغائر . وكذلك حديث : « الصلاة إلى الصلاة مكفرة لما بينهما إذا اجتنبت الكبائر » ، وكذلك ذكر في : « رمضان إلى رمضان ، ومن الحج إلى الحج » .

وإطلاق التفصيل في ذلك خاص بالصغائر وإن لم يُقَيَّد بها ، كما هو معروف من القاعدة الأصولية: أنه إذا ورد أمر مُقَيَّد في موضع ، ثم ورد مطلقاً في موضع آخر ، إن ذلك المطْلَق محمول على ذلك المقيَّد ، كما ورد : « من قال : لا إله إلا الله ، مخلصاً من قلبه دخل الجنة » ، فقيَّده هنا بالإخلاص ، ثم ورد ذلك في مواضع كثيرة مطلقاً من غير قيد ، لحديث : « من قال لا إله إلا الله دخل الجنة » ، فهو محمول على ذلك الشرط من الإخلاص ، فكذلك هنا من تقييده باجتناب الكبائر أولاً ، وإطلاقه ثانياً ، فيُحمَل عليه ويكون مشروطاً في ذلك ، وهو شبيه بتفصيل ما ورد من حديث : « داووا مرضاكم بالصدقة»، و ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾، واستجابة الدعاء ، ونفع التداوي والرقى ، ومثل ذلك وأمثال ذلك ،

فكل هذه الأشياء وإن أُطلِقَت ، فهي مقيَّدة بالقضاء المعلَّق من أحد نوعي القضاء المعلَّق والمحتوم ، فتَقَيَّد في المعلَّق دون المحتوم الذي لا بد منه ، فإذا جاء المحتوم تخلفت هذه الأمور ولم تعمل شيئاً ولا تفيد شيئاً ، وجرى الأمر المحتوم وما له من دافع ، فكما أن الذنب المرتَّب عليه الحد لا يَحْكُم بغفرانه في الدنيا شيء سوى إقامة الحد ، فكذلك الأمر المحتوم لا يحكم عليه أن يُدْفَع أو يقع بأمر من الأمور .

وأما غيره فيحكم عليه أن يقع ما يطلب وقوعه ، وأن يدفع ما يطلب دفعه بشيء من تلك الأسباب، وغيرها مما ذكر الله ورسوله أن يقع به أو يدفع بها ، كما ورد : « من قال : أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق ، لا تضره عقرب » ، أطلقه من غير تقييد بأن حتم وقوع ضرره ضر ، كما عُلِم من القاعدة المطردة المعروفة من قوله تعالى لنبيه ﷺ لما منعه من الدعوة الثالثة المحتومة ، كما تقدم ذكر الثلاث ، فقال : « يا محمد ، إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد » ، أي إذا قضيت قضاء محتوماً ، فقيَّدَ إطلاقه هنا بذلك ، وإلا فقد ورد : « إن الدعاء يرد القضاء المبْرَم » ، أي المؤكَّد وقوعه من القضاء المعلَّق ، فإذا علق رده بالدعاء صار ذلك الدعاء محتوماً ، أي لا بد من وقوعه ليرده ، كاستجابة الدعاء والتداوي وغيرها. كما ترى أن قد نرى كثيراً من ذلك لا يفيد شيئاً ، وإذا وقع الدفع والنفع بشيء وقد أطلق القول فيه بلا قيد ، توجه إلى المقيد . يعني دل وقوعه على حتمه ، وإن لم يقع دل على حتم عدمه ، كما توجه الغفران لغير المرتب عليه الحد ، فافهم هذه الدقائق الغامضة .

وقول سيدنا : « إن المحن بمنزلة الحدود » ، يعني كما أن الحدود إذا أقيمت تكفر الذنوب التي الحدود فيها ، فكذلك المحن تكفر الذنوب التي لا حد فيها ، ولا فرق بينهما مع كونهما كليهما من عند الله - أعني إقامة الحدود - جاءت في شرع الله ، المرتب على أفعال الخلق ، المخاطب به الحكام الذين أقامهم الله لإقامة الأحكام ، والإبتلاء أفعال الله المرتب بمقتضى إرداته وقدرته ، والأول جاء في الدنيا فقط ، الجاري فيها أفعال الخلق ، ورُتِّبت عليهم فيها أحكام الحق ، والثاني الجاري بتصريف الرب في خلقه ، جاري في الدنيا والآخرة ، فكلا الدارين ملكه وفي تصريفه . ومن جملة تصريف إقامة الأحكام على المكلفين في الدنيا ، وجزاهم على أعمالهم في الآخرة ، وقد أجرى في الدنيا محناً كثيراً على من خالف أمره . بإهلاك ودونه ، وعلى من كره منه شيئاً ممن دخل في دينه .

وقد كان رجل من أهل تريم يكتب للدولة مظالمهم التي يظلمون بها الناس ، فسلطهم الله عليه بأن آذوه وانتهبوا ما في بيته ، فارتدع عن خدمتهم وتركها ، وابتلاه الله بألم شديد في أصابعه التي كان يمسك بها القلم ، فإذا اشتد عليه وأسهره جاء إلى سيدنا وقال له : « اتفل عليه فقد آذاني البارحة ، وما ذقت النوم » ، فيتفل عليه ، ويقول له : « هذا محل القلم السوء » هـ .

قال رضي الله عنه : « اثنان لهما أكبر المنَّة على آل باعلوي : الشيخ أحمد بن عيسى ، خرج بهم من البدع والفتن . والفقيه المقدم ، سلَّمهم من حمل السلاح والعمومية ، بكسره السلاح لما تَفَقَّر » .

وذكر في تراجم مناقبه أنه لما جاءته الخرقة من الشيخ شعيب أبي مدين ، كسر سيفه ودفنه في التراب ، وقال : « الفقر خير ، الفقر خير » . وكان السادة آل باعلوي كلهم حاملين السلاح ، ثم إنهم على طبقاتهم تبعوا سيدنا الفقيه المقدم على تركه له مرة كافية في جميع أحوالهم ، ممن تفقر ودخل طريق الصوفية ، وممن صار من أهل العلم الظاهر ، وغير ذلك على اختلاف أحوالهم وسيرهم هـ .

قال رضي الله عنه : « الطالب إذا أراد الجلوس معنا لا نتعذر منه على أي حال ، ولو أنَّا ما نقدر ، استندنا وجلسنا معه ، وإنما نتكلف لأهل الرسوم » .

قال : « أهل الدين ، مطمح نظرهم وسائر همومهم كلها في أمر الدين ، وغافلون عن أمور الدنيا، ومن لم يكن غافلاً عنها تغافل . وأما أهل الغفلة ، فمطمح نظرهم وهمتهم وأفكارهم في أمور الدنيا، وإن فَعلوا شيئاً ودَبَّروه وظنوه من الدِّين ، فما هو إلاَّ من أمور الدنيا ، فيرجع جميع ما يتعاطونه من أمور الدنيا » .

قال : « صار العقوق في هذا الزمان بِرًّا » .

قال : « من اعتقد في نَفْسه الأهلية ، نَقَص حظه ، وإن أَهَّلوه ، يكفيه علم الله بأهليته ، فإن اعتقدها كان بخلاف ذلك » .

قال : « من عامل الله على قَدْرِه تعالى ، جَازاه على قَدْره ، وإن عاملٌ عَمِلَ لله على قَدْرِ نفسه ، كان جزاؤه على قدْر نفسه » .

أقول : يعني إذا ثبت أن الله سبحانه وصف نفسه ووصفَ من حَمِدَ وَثَنَى وَشَكَر ونحو ذلك ، وأمر العبد بذلك فيفعله بحسبه ، والكامل من العباد إذا فعله ينوي أن يكون منه ذلك لربه ، كما كان منه سبحانه لنفسه ، ليكمل بذلك جزاؤه ، لتفاوت الأمور الإلهية على الأمور الخلقية ، وإن كانت لا تشبهها ولا نسبة لها بها ، لما ثبت عن الشارع من قوله : « لا أحصي ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك » ، فهو سبحانه أثنى على نفسه ، وأمر العباد بالثناء عليه ، فيثني العبد على ربه ، وينوي أنه أثني كما أثنى الإله على نفسه ، وبذلك الثناء بنيته يتضاعف له الثواب . هذا ما فهمته من معنى قوله هذا والله أعلم . ومن كلام سيدنا في هذا المعنى ، كما ذكره في بعض المكاتبات ، قال : « أحمد الله سبحانه ، وأسأله به أن يحمد عني نفسه بما هو أهله ، فإني لا أستطيع أن أقوم بحمده كما ينبغي لجلاله » ، انتهى .

وقوله : « **أسأله به** » ، يعني أسأل الله بالله ، مقسماً بالله أن يحمد نفسه عني بما هو أهله من الحمد، الذي لا يستطيعه البشر ، كما قيل في حق النبي ﷺ أن يقال : « جزاه الله ما هو أهله » ، وأن ذلك أبلغ من أن يقال : « جزاه الله خيراً » . فإن الخير يشمل ما دون حقه ، وأما حقه فلا يدرك إلا من كمال أوصاف الربوبية ، فافهم .

قال : « **إن النفس كسلانة عن الخير ، فليقهرها الإنسان على فعل الخير وما ينفعها ، وإلا جرَّته إلى الشر لأنها مجبولة عليه ، وفعل الخير يعسر عليها ، لأنه خلاف طبعها ، فليُكْرِهْها عليه ولا يَدَعْها وطبعَها** » .

قال : « **أهل الباطن على الدَّحقة في وَسَط الشَّريعة ، وأهل الظاهر على طرف الشريعة** » .

وتكلم في أحوال الناس في هذا الزمان ، فقال : « **فُقِدَت الأمانة ، وفُقِدَ الحياء ، وفُقِد الدين ، وفِعْلُ الخير ، يريدون أن يُغْنوا أنفسهم بقلة خَيْرِهم فما زادهم ذلك إلا فَقْراً** » هـ .

أقول : يعني شحوا أن يُعطوا الفقراء المحتاجين ما وجب من مالهم ، مدخرينه لحاجة أنفسهم ، خوفاً من الحاجة والفقر ، فنزع الله البركة من مالهم وأتلفه ، وقطع عنه مواد الزيادة ، فذهب واضمحل، فما عاد عليهم شُحُّهم إلا بالفقر ، ويشهد لذلك حديث : « ما تلف مالٌ في برٍّ أو بحرٍ إلا بمنع الزكاة » .

وذَكَر له رجل حالَه ، فقال : « **هي نفسُك إن أصلحتَها وقَوَّمْتَها فذاك ، وإلاّ قَوِّموها بالنَّار** » .

وذَكَرَ يوماً مرور الأيام والسِّنين على الغَفْلة ، وذَكَرَ هذا النظم :

تَمُـرُّ بِنَـا الأَيَّـامُ تَـتْرَى وَإِنَّـما ... نُسَـاقُ إلى الآجَـالِ وَالعَـيْنُ تَنْظُـرُ

فَلا عَائِدٌ ذَاكَ الشَّبَابُ الذِي مَضَى ... وَلَا ذَاهِـبٌ هَـذَا المَشِـيبُ المُكَـدِّرُ

فقلت له : ياسيدي ، ما سَبَبُ غفلة الإنسان ، وعَدَم اهتمامه بإصلاح أوقات عُمْره ، وَشُغلها بالطاعة ، مع أنه مُتَحقق ذهابها سُدَى من غير فائدة ؟ ، فقال ما معناه : « **سببه عدم شغله لها غاية الإشتغال بكمال الطاعة ، وعدم شغله لها بما يقدر عليه أولاً ، وضعف اليقين ، وقِلَّة رغبته في خَيْر الآخرة ، ومحبَّتُهُ لأمور الدنيا أكثر من أمور الآخرة** » .

وسمع صَوْت صَبي يتنَحْنَح ، سِنُّه نحو اثنى عشر سنة ، فقال : « **من هذا الصغير ؟** » ، فأُخبِر به وبأبيه ، وكان حاضراً ، فقال له : « **لِمَ تَرَكْته جالساً هنا ، ولَمْ تتركه يروح يلعب مع الصِّبيان ؟** » .

فقال : « نريده يستغنم الحضور في مجلسكم » ، فقال : « أنت استغنم عنه ، واتركه يلعب الآن ، ما دام وَقْت اللعب ، حتى يَنْفض جميع ما في الجراب من اللعب ويَرُوْح وقته ، وإلاَّ رجع يَطْلب اللَّعب في غير وقته ، وحيث لا يَنْبَغي له ذلك ، فقد حُكِي : إن رجلاً من الحَنَفيَّة جلس للتدريس وهو ابن عشر سنين ، فكان إذا جاع جَلَس يَبْكي . وشَكَى بعضهم ابناً له ، كان كثير اللعب ، إلى بعض الصَّالحين ، وأتى به معه إليه فأخذ الصَّالح بيد الصبي ، وقال له : انطلق العب . فقال أبوه : لِمَ ؟ ، فقال : دَعْهُ ينفض ما مَعَه من اللعب الآن ما زال أوانه ، وإلاَّ رجع يَطْلبه في غير أوانه .

والصَّغير ما دام في سِن الشباب ، سِيَّما قبل البلوغ ، فإنه يَنْزع - أي يميل - كثيراً إلى اللعب والحَرَكة ، ويكون كالقِدْر الذي يَفُور ، لا بد لك فيه من إحدى حالتين : إما أن تَنْزع منه الغطاء ، وإما تنزله من فوق النار . والإنسان تَـمُرُّ عليه أطوار مختلفة ، من طفوليَّة وشَبَاب وصِبَا وكهولة وشيوخة وهَرم ، فَيَنْبغي أن يكون في كل طَوْر على حالة تناسب ذلك الطَّور ، وإلاّ كان ناقصاً ، والتمييز والصَّبوة يسامح فيها أيضاً أكثر مما يسامح في غَيْرها » هـ .

قوله : « وإلا رجع يطلب اللعب في غير وقته » ، يشهد لقوله هذا أن رجالاً كباراً بلحاهم ، تراهم يحبون اللعب ويتصارعون ويتعافرون ، فهؤلاء ما فَرَّغوا اللعب في وقته . وهذه الأطوار التي ذكر هي جملة أطوار الآدمي التي أشار إليها قول الله سبحانه : ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾، وقد فصلها سيدنا في « سبيل الإدكار في ما يمر بالإنسان من الأعمار » ، والمسامحة في الطورين المذكورين ، لضعف العقل فيهما ، إذ هو مناطُ التكليف ، ومرة قال : « الإنسان خُلِقَ متحركاً ، حتى إنه في بطن أمه ما ترك الحركة، ثم إنه لم يزل كلما كبر في زيادة من عقله ، ونقص من حركته » .

وشكى إليه رجل من ولد له غير بار ، وليس هو في رأيه ، فقال له : « ما عاد معك إلا الصبر والمسامحة ، والصبوة في الصغر لا تُستنكر ، وفي الحديث : عَجِب رَبُّك من شابٍّ لا صبوةَ له . والصبا شعبة من الجنون ، وإذا غلبتك الأمور فاغلبها بالصبر ، ولا تَدَعْها تغلبك » .

أقول : المراد بالصبوة ، فعل السفاهة التي ينكرها العقل ، وذلك في الطَّورَين اللَّذيْن ذكر أنه يُسامَح فيهما أكثر من غيرهما .

قال رضي الله عنه : « أهل البيت ودائع نبوية ، فينبغي لكل إنسان أن يستوصي بتلك الودائع النبوية، وهم وإن كثروا لا يبلغون عشر معشار الخلق ، وأهل بلدتنا في بواطنهم تعظيم السادة ، ومن طبعهم

ذلك . ولكن هنا ناس - ذكرهم من أصحاب الدولة - لا يرون احترامَهم وتعظيمَهم ، فإذا أخذوا على هذا مدة ، فما يدرون إلا وقد جاءهم مثل هذا السيل العظيم ، وَنَبَرَهُمْ ، ولكن لا يعتبرون » هـ .

أقول : المعشار : عشر العشر ، وهم لا يبلغون عشر المعشار .

قوله : « **ونبرهم** » فلهذا سمى هذا السيل النابر ، فقال : « **يسمى هذا السيل النابر ، والله الجابر** » ، وسمي سيل الحوت ، لأنه جاء في آخر يوم من نجم الحوت للشبامي ، و ٢٩ شهر رمضان سنة ١١٢٤ ، لأنه نَبَر النخيل وسار بها إلى البحر في يوم وليلة ، وهو مسير ١٥ يوماً ، وترك أرضها بيضاء نقية ، كأنها لم تغرس فيها نخلة ، وكانت في بيت مسلمة ، مسيرة ثلاثة أيام ، لا ترى فيها الشمس لتزاحم نخيلها وقوتها ، وكان إنما بين النخلتين نحو ثلاثة إذرع .

وقوله : « **وأهل بلدتنا .. إلخ** » ، لما تقدَّم من قوله : « **بلدتنا مؤسَّسَة على علم ، قد أسسها عليه علماء متقدمون ، أسسوها على الصواب ، حتى إن العامي الذي لا يعرف شيئاً ، إذا دخل المسجد نوى الإعتكاف ، وإذا رأى مُتِمًّا أدرك بعض صلاته مع الإمام اقتدى به وصلى معه** » ، هذا على مذهب الإمام الشافعي ، ولا يُعرف في كل الجهة مذهب غيره . ومما أسس فيها على الصواب أن غير الشريف لا تقبَّل يده ولو بلغ في العلم والصلاح الغاية ، بل المصافحة بالأيدي فقط ، الذي هو السنة ، لما ورد في الحديث الصحيح : « إذا التقى المسلمان فتصافحا وتكاشرا ، قسم بينهما مائة رحمة ، تسع وتسعون لأحسنهما بشراً ، وواحدة للآخر » ، والتكاشر فتح الفم بالتبسم ، لما يدل عليه من البشاشة والبشر ، ولذا قسم الأكثر من المائة الرحمة للأكثر من البشر ، ولذلك قيل : « بشاشة وجه المرء خير من القِرى » . وإنما المتعارف عندهم أنه لا أحد تُقَبَّل يده إلا الشريف ، وهذا مما أسَّسه العلماء المتقدمون ، حتى صار متعارفاً عندهم ، ومن ذلك تعظيم السادة واعتقادهم ومحبتهم لله ورسوله ، وقد سمعت سيدنا عبدالله يقول : « **لولا قرابتنا من رسول الله ﷺ ، لما تركنا أحداً يقبِّل يدنا** » .

وكون أعوان الدولة لا يحترمون السادة ، لحسدهم لهم على ما أعطى الله السادة من الجاه والعز والرفعة ، وربما شيئاً من الدنيا ، وهم يرغبون في ذلك . وأما الدين فهو أصل في السادة ، وغيرهم فيه الفرع ، وعدم احترامهم لهم هو شيء من قديم ، حتى قال الشيخ علي بن أبي بكر : « لولا الكلاب ، لكنت كل يوم أصلي بمسجد الجبانة » ، يعني لكونه من بناء أولاد الشيخ أحمد بن عيسى ، ومراده بالكلاب هم أعوان الدولة ، لكونه يمر عليهم في الحصن على طريقه إذا مر مقبلاً من بيته في الحوطة إلى الجبانة ، وسماهم كلاب لعدم محبتهم للسادة فهم كلاب لذلك ، وكلاب دنيا أيضاً .

وقال رجل لسيدنا : « العيد مبارك » ، **فقال** : « العواد عادة لا سُنَّة ، ولكنه عادة حسنة ، يدخل في جملة التهنئة ، كما في قصة طلحة وكعب بن مالك ، ولكن لما قَلَّت المواصلة بالزيارات ، كان ذلك سبباً لحصولها ، سيما بين النساء ، فتعلقن به كثيراً » .

ومرة **قال** : « المعاودة في العيد بدعة ، قَوَّتها السنة الأصلية ، وهي الزيارة للإخوان ، محبةً في الله ، وقد عُدِمَت كما عُدِمَ غيرها من السنن ، كالهدي وإشعاره ، وعُدِمَت أيضاً عيادة المريض ، وجعلوها في الزيارة ، وإنما الزيارة زيارة الصحيح للصحيح في الله ، ومثل ذلك التَّهنئة بالمولود » .

ومَرّة **قال** : « إنما التهنئة بالولد لا بالبنت ، وكانوا يقولون : ليهنك الفارس » ، أي قوله ذلك على إنما محبتهم للولد لكونه مقابل لعدوانهم .

فقال بعض الحاضرين من السادة : « المدد يحصل من أيِّ من ذلك ؟ » ، **فقال** : « إنما يحصل المدد للمنخفض ، والمماثل يحصل له قليل من ذلك ، والمُرتفع لا يحصل له شيء أبداً ، قياساً على أماكن الماء ، فالذي يحصل له المدد الذي يرى نفسه دون المزور ، والذي يَرَى أنه مثله يقل نصيبه من ذلك ، ويُحْرَم من ظن أنه أفضل منه » هـ .

أقول : وهذا بيان لما ذَكَرَ من المنخفض والمماثل والمرتفع .

قال : « وزيارة الحي أبلغ في ذلك - أي في النفع - من الميت ، لأن الميت اندرجت بَشَريته في خصوصيته ، فلا معك منه إلا ما تسمع عنه من مناقب وكرامات ، فهو مُجَرَّد خصوصية . والحي إن كمُل فهو خصوصية مع البشريَّة ، وإلا - أي إن لم يكمل - فبشريَّة فقط ، ويَمْنع من المدد أيضاً إشتغال الخاطر ، حيث لا يكون معه اجتماع ، وراح بالنَّاس اشتغالهم بهموم معايشهم » .

أي أن ذلك أكثر ما أشغل الناس عن اجتماع الخواطر ، فمنعوا بسبب ذلك من حصول المدد ، إن كان ما يشغل الخاطر عن الإجتماع كثير لا يُحصى مما حضر ، وما يتحدد من ذلك .

ثم قال ذلك الشريف المذكور : « من علم بما فيه مما يمنعه من ذلك، ما يلزمه في حقه ؟ » ، **فقال**: « من بلغته الدَّعوة إنما يجب عليك أن تَدْعوه وتُذكِّره ، لا أن تُعَلِّمه ، فقد كان النبي ﷺ بمكة قبل الهجرة ، إنما يدعوهم إلى الإسلام فقط أكثر مما بعدها ، ومن رأيته يصلي ولا يَطمئن في صلاته ، وهو عالم بوجوب الطمأنينة ، لا يلزمك أن تُعَلِّمه ، إنما أكثر ما يلزم التَّذكيرُ . والإنسان يدَّعي بإختياره وبسَعْيه ، ولو وُكِّلَ الأمر إليه في تدبير نفسه لما أحسن ذلك ، ولا قدر عليه فضلاً عن غيره . ولو وجدت الموجودات على مقتضى عقل أعقل الخلق ، لو رجع بعقول جميع الناس ، لما اقتضى أن توجد أحسن مما

وجدت عليه » .

ثم أطال الكلام في الصلاة ، فكان من جملة ما قال فيها : « إنها عمود الدين ، وإنها تجر إلى أمور الدين ، لأنها تَنْهى عن الفحشاء والمنكر ، وآخر ما تكلم به النبي ﷺ يوصي بالصَّلاة ، فقال : الصلاة، وما ملكت أيمانكم ؛ لأنهم كانوا أهل حرب . وأما التهنئة بالبنت فلا نعرفه ، والدَّليل فيه مأخوذ من تهنئة كعب بن مالك بالتوبة ، وقوله ﷺ لأُبَيّ : ليهنك العلم » .

وقوله : « من بلغته الدعوة » ، يعني من علم ما يلزمه شرعاً ، ما عليك إلا أن تُذَكِّره إذا رأيته عمل بخلافه ، لا أن تُعَلِّمه ما هو به عالم ، وإنما يُعَلِّم الجاهل ، ومن عَلِمَ كمن بلغته الدعوة ، والجاهل كمن لا تبلغه ، والحُجَّة في ذلك كون النبي ﷺ في ابتداء أمره كان يدعو إلى الإسلام ، وبعد ذلك كان يعلم أحكام الإسلام .

قوله : « ولكن الإنسان يدعي .. إلخ » ، أي يعتد ويستصوب خطأه ، بسبب ما أُعطِيَ من الإختيار ، ولو جمعت جميع عقول الخلق كلهم في رجل واحد ، حتى صار أعقلهم وأكملهم وأرجحهم عقلاً ، لما اقتضى عقله الكامل أن تكون الموجودات على أكمل مما وجدت عليه ، مما هي عليه من خير وشر ، ونفع وضر ، وإيمان وكفر وطاعة وعصيان ، وكفران وإحسان ، وغير ذلك مما حَسُنَ وكُرِه ، فيقول صاحب ذلك العقل الكامل : ينبغي أن يكون مجرد خير فقط ، وإيمان فقط ، وطاعة فقط .

حتى إنَّ كُمَّل أولي العزم سألوا ربهم ذلك السؤال المتقدم ، على مقتضى عقولهم الكاملة ، فأجابهم بذلك الجواب الذي أسكتهم ، حيث قال كل منهم : « يا ربنا إنك ملك عظيم ، ولو شئت أن لا تُعصى ما عُصِيت ، وقد نَهَيْتَ عن المعصية ، وهذا أنت تُعصى ، فكيف ذلك ؟ » ، فأجابهم سبحانه : « لا أُسأل عما أفعل » ، يعني كل ما وقع في ملكي بإرادتي ومشيئتي الأزلية ، ولو خالف إرادتي الشرعية فلا تستنكروا من أمر يخالفها ، فإنه موافق إرادتي ومشيئتي الأزلية .

وقد بين سبحانه هذا المعنى في كتابه الناسخ لجميع الكتب ، وعلى لسان رسوله الذي هو خاتم الأنبياء والمرسلين ، فقال سبحانه : ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾، يعني حقت كلمته وثبتت عِدَتُهُ لكل واحدة من الدارين الجنة والنار بملئها ، وأنه لا يملأ الجنة إلا بالمؤمنين المطيعين ، ولا يملأ النار إلا بالكافرين العاصين مؤبدين ، وعصاة المؤمنين من أراد له ذلك منهم إلى حين ، هو في علمه معلوم ، فلا بد إذاً من وجود الفريقين العاملَين بعمَلَي الدارين وأعمالهم التي هي أسباب لهم في ذلك ، ليتم لكل واحدة ما وعدها ، فإنه سبحانه لا يخلف الميعاد .

فهو سبحانه له إرادتان : إرادة أزلية ، وهي صفة ذاتية له تعالى ، وقد اقتضت ذلك كله ، وصفة شرعية ، داعية للخلق لإجابة ربهم ، بتمام وعده للجنة ، ومخالفتها داعي لهم لإجابته لتمام وعده للنار ووعيده للفجار ، ووعده ووعيده كل ذلك اقتضته إرادته الأزلية ، فلذلك قال سيدنا كما قدمنا : « **فالسعيد من وافق ما أراد به الحق وأراد منه** » ، يعني ما أراد به بالإرادة الأزلية ، وما أراد منه أي بالإرادة الشرعية ، ثم قال : « **والشقي من اختلفت به الأمور** » ، أي وافق ما اقتضته الإرادة الأزلية في أهل الشقاوة الذين تم بهم وعد النار ، ولم يوافق ما اقتضته الإرادة الأزلية بعمل من أراده أن يتم بهم وعد الجنة .

وأوصى رجلاً ، ورَغَّبَه في مطالعة كتب الإمام الغزالي ، *فقال* له : « **أَكِب على مطالعة كتب الإمام الغزالي ، فإنها في كل الكتب كالخصار – أي الحلا – في الطعام بل أعلى من ذلك ، فإن الطعام إذا لم تشتهه في وقت تركته إلى وقت آخر ، وهذه لا تستغني عنها بحال ، لأنه جمع فيها الشريعة والطريقة والحقيقة ومواريث السلف ، وإذا جاء عند ذكر الحقائق ، حدَّ لها حدوداً ، وشرط لها شروطاً ، ليتحقق من أرادها أنه من دخل إليها من غير بابها أنه ضال مدع أو قالٍ مبتدع . وقد رأى بعضهم بعدما صُنِّفَ الإحياء الشيطان وهو يحثو على رأسه التراب ، فقال له : ما بالك ؟ قال : صُنِّفَ في الإسلام كتاب ، أخشى أن الناس يتبعونه . وعلوم الحقائق هذه رأيتها كالنار الـمُحْرِقَة ، أو كالمياه الـمُغْرِقَة ، إذا دخلها الإنسان إما غرق وإما احترق ، ويحسب الإنسان إذا نظر إلى الإحياء أنه كتاب مطول ، وهو ألا مختصر جداً بالنسبة إلى ما أومأ إليه ، ولو فَصَّل ذلك لبلغ مجلدات كثيرة . وقد قال الإمام النووي : كاد الإحياء أن يكون قرآناً** » .

ثم قال سيدنا : « **وهل ذلك لكثرة ما فيه من آيات القرآن للإستدلال بها ، أم لكونه مُعجِزاً ، فشابه القرآن من هذا الوجه ؟ وهذا أقرب . ومعنى كونه معجزاً ، أنه على منوالٍ لم يُسبَق إلى مثله ، ويَعْسُر على من أراد أن يصنف مثله الإتيان بمُصَنَّفٍ على نمطه** » هـ .

أقول : قول الإمام النووي : « كاد الإحياء أن يكون قرآناً » ، تمثيل ، والتمثيل بالـمُحَالِ جارٍ في لغة العرب ، إذا جُمع في الممثَّل والممثل به شيء من المعاني ، واجتمعت فيهما ، وهذا من توسعات اللغة العربية ، كما قال النبي ﷺ : « لو كان بعدي نبي لكان عمر » ، لما اجتمع فيه رضي الله عنه من صفات الأنبياء ، من كمال الزهد ، والتقلل من الدنيا ، و عزوف النفس عنها ، والورع والتقوى ، واجتهاده في دعوة الخلق إلى الله ، وكل هذه فيه أنموذج من صفات الأنبياء ، سيما مِن وَصْفِ نبينا ﷺ خاصة، ولهذا قال فيه ما قال . وقد يخاطب أخص الأحباب بشيء من هذا الخطاب – أي المحال – مما فيه تهديد ،

تخويفاً للغير وردعاً له ، إذ يقول هذا خطابه لحبيبه ، فكيف أنا وأمثالي ، فيزداد خوفاً وتقريعاً وخشوعاً، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ۝٩٤﴾، فأجاب ﷺ : « لا أَشُكُّ ولا أسأل»، يعني إنما يسأل من يشكُّ ، وأنا لا أَشُكُّ فلا أسأل .

وقد سألني سيدي عبدالله مرة ، ليرى ما عندي ، فقال : « **ماذا قال النبي ﷺ لما أنزل عليه قوله تعالى** : ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾؟ » ، فقلت : قال : « لا أَشُكُّ ولا أسأل » ، قال : « **نعم هكذا** » .

ومن ذلك - أي خطاب الحبيب بالمحال - قوله تعالى : ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ۝٧٣ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ۝٧٤ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ۝٧٥﴾ .

ثم إن كلام الإمام الغزالي عند سيدنا هو الراجح في كل فن تكلم فيه ، وكذلك عند جميع السادة آل باعلوي ، فكلما تكلم في مسألة وفيها كلام لغيره يقول : « **إن كلامه هو الراجح** » ، لأنه كما قال : « **لا يُستَغْنَى عنه بحال** » .

وما سمعته يقول في مسألة تكلم فيها قط لا يُسَلَّم له فيها ، إلا قوله في الموازنة بين القيامتين الصغرى وهي الموت ، والكبرى وهي البعث وما بعده ، وأنه يقال في الصغرى : ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ﴾، فقال : « **ليس هذا بمُسَلَّم له ، فإن الله سبحانه ذكر في غير موضع من القرآن ، أن ذلك إنما يقال في القيامة الكبرى** » ، وليس ذلك منه اعتراض عليه ، بل معناه أنه ذكره في هذه وهو في تلك ، فلعله استعاره في هذه مع ما ذكر فيها تعجيلاً للتخويف ، وهذا جار في اللغة . وفي قوله تعالى : ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ۝٩٣ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ۝٩٤﴾، ما يبين المراد من ذلك هـ .

قال : « **إذا قرأت الفاتحة على شيء تخاف عليه العين ، فاقرأ معها آية الكرسي ، فإنهما لدفع العين، كما ورد : ثمان آيات لدفع العين - أو قال : تنفع من العين - الفاتحة سَبْعٌ ، والثامنة آية الكرسي** » هـ .

قال رضي الله عنه : « **باعث الدين في الناس اليوم ضعيف ، فلا تُحِكَّ - أي تلح - عليهم ، فإذا قلت**

لأحدهم في فعل شيء أو تركه ، وقال : نعم . فاتركه ولا تلح عليه ، فإن تقصيت عليه ما رأيت من ذلك شيئاً » ، أي مما قال : نعم .

وفي مجلس آخر قال : « إذا قلتَ لأهلك أو لابنك : هل صليتَ ؟ فقال : نعم . فاتركه ، ولا تلح عليه . أو نهيتَه عن أمر وقال : ما فعلته . فاسكت عنه » ، وهذا معناه ، أعني معنى قوله في المجلس الأول ، فإنك إذا تأمَّلت كثيراً من كلامه في مجالسه ، رأيته يشرح بعضه بعضاً ، إما تصريحاً كهذا ، أو فَهْماً يُفهم منه ، وكما تقدَّم قريباً من قوله : « إنما يحصل المدد للمنخفض ، والمماثل قليل ، والمرتفع لا شيء له » ، ثم بَيَّنَ الثلاثة ، بأن المنخفض الذي يرى نفسه دون المزور ، والمماثل الذي يرى نفسه مثله ، والمرتفع الذي يرى نفسه أفضل منه ، وغير ذلك هـ .

قال : « الصغار اليوم ما عاد نرى عليهم ، إن جاءت منهم زينة برّكنا عليهم ودعينا لهم ، وإن جاءت منهم عوجاء زرطناها ، قال الله تعالى : ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ الآية ، ولو قابلت العوجاء بعوجاء مثلها جاءتك عوجاوان » هـ .

أقول : هذا لفظه بحروفه ، وتكلم به على هذا النسق تنزلاً للسامع . وقوله : « ما نرى عليهم » ، أي لا نلومهم ، كذا في لغة حضرموت . و « برَّكنا عليهم » ، أي قلنا: اللهم بارك فيه ولا تضره . وهذه عادته للصغار ، فيمسح على رأسه ويقبض بناصيته ويقولها ، فإن كان يتيماً ابتدأ بالمسح من مؤخره إلى الناصية ثم يقولها ، وإن كان غير يتيم ابتدأ بالمسح من مقدم رأسه إلى مؤخره ، ثم يرده إلى مقدمه ، فيقبض ناصيته ويقولها ، قال : « وإنما ذلك لمكان كسر خاطر اليتيم ، فيرهب إذا رأى اليد ممدودة إليه ، ولا يُخشى ذلك في غيره » ، و « العوجاء » ، الكلمة الخطأ ، والعمل غير الصواب .

وقوله : « زرطناها » ، أي ابتلعناها ، ومراده بذلك احتملناها مع كراهتنا لذلك ، ولا نكلمه من أجلها ، ولا نلومه عليها ، وقوله : « جاءتك عوجاوان » ، يعني إذا كلمته على كلمته المخطئة بكلمة واحدة ، قال لك عنها كلمتان مخطئتان .

قال : « طباع النساء والصبيان متقاربة ، وميل الكل عن الصواب واحد ، حتى إذا خرج الصغير إلى الكبر رأيته مشمئزاً » ، أي يشمئز مما كان منه من أحواله في أفعاله وأقواله في صغره .

وأُثنِيَ عنده على امرأة من السادة قد توفيت ، وذكر من جميل خصالها فقال : « هذه الأشياء إذا حَصَلت بوضع إلهي سَهُلَت ، فلا يحتاج فيها إلى كلفة ، وكل أمرٍ أَمَرَ اللهُ سبحانه به فهو تعالى يُعينُ

عليه ، وما كان من هوى الإنسان فيوكله فيه إلى نفسه ، وإذا تفكَّرتَ في كل ما يهواه النساء رأيته مخالفاً، فينبغي أن ينظر في كل ما يهوينه فيخالفه » .

أقول : قوله : « هذه الأشياء » ، أي الأخلاق الحسنة والأعمال الصالحة التابعة لها ، كما أُثنِيَ عليها بها .

قوله : « بوضع إلهي » ، يعني أنها مواهب من الله يختص بها من يشاء ، فإذا وُهِبَ العبد ذلك سَهُلَ عليه وخَفَّ ، فلا كلفة فيها ، ومع ذلك يمده الله بالمعونة فيه ، كما هي عادته أنه يعين عبده على فعل ما أَمَرَهُ به . وأول الإعانة إرسال الهمة التي تُنهضُه عليه ، ويستطيع لها تأدي ولا مهل ، وذلك مما أمده الله به من قوة الإيمان ، الحاثة له على فعل الخير ، وذلك غاية المعونة ، وهو وصف الصادقين . كما وصف به الفقراء المهاجرين ، ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾، وأما الذين يتعاطون أفعال الخير تَكَلُّفاً، إما حياء أو مراعاة أو خوفاً ، فذلك وصف المنافقين الذين يخادعون الله ورسوله ، ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ ﴾، إلى آخر ما وَصَفهم به في هذه الآية وغيرها . فانظر الفرق بين الحالين ، وكن آخذاً بأحسنهما ، فإنه لا تدوم مع الكلفة أُلفَة .

قوله : « وإذا تفكرت في كل ما يهواه النساء ، رأيته مخالفاً .. إلخ » ، يعني حتى ذكروا أنه ينبغي للعاقل أن لا يفعل أمراً حتى يشاور فيه عاقلاً ، ولو كان المشاوِر كامل العقل ، فيتعاون العقلان . قالوا: « فإن لم يجد عاقلاً كامل العقل ، فليشاور امرأة ويفعل خلاف ما تشير به » ، وهذا شاهد لقوله: « فينبغي أن ينظر في كل ما يهوينه فيخالفه » هـ .

قال رضي الله عنه : « ليس دنيا إلا بدين ، ولا دين إلا بمكارم الأخلاق » هـ .

أقول : يعني لا خير في دنيا إلا بدين ، فإن الدنيا مضمحلة فانية لا تبقى ، فإذا ذَهَبَت فيبقى في خير دينه في الدنيا والآخرة ، وأول الدين المصحوب بالدنيا ، أن تكون قد حصلت بوجه من وجوه الدين، وإلا فما هي إلا نار ليست ديناً ، فلا خير في دنيا تعقبها نار . فإذا حصلت بهذا الشرط كان الدين يدعوه فيها إلى أمور يطول تعدادها ، أولها إخراج ما وجب من زكاة ، وقيام بالوالدين ، وصلة الأقارب والأرحام ، ومواساة المحتاجين من إخوانه المؤمنين ، وكل هذه وأمثالها مكارم أخلاق ، لا يتم الدين إلا بها هـ .

قال رضي الله عنه : « **إذا لم يطعك الزمان فأطعه . قال الشيخ أبوبكر : لا تعادي زمانك يغلبك ، كن مساير يسايرك الزمان . ولا عاد في الزمان إلا التعلل ، كما قيل : ما أضيق العيش لولا فسحة الأَمَلِ** » هـ .

أقول : قوله : « **إذا لم يطعك .. إلخ** » ، هو كقول بعضهم : « إذا لم يكن ما تريد ، فأَرِدْ ما يكون»، يعني كن مسلِّماً لأمر الله في كل ما أجراه في الكون ، فإنه سبحانه له تدابير شتى مختلفات ، على مر الأوقات وتعاقب اللحظات ، فكن في كل ما جرى منطرحاً ، ولا تختر مع الله أمراً إلا ما أمرك به الشرع. وفي هذا المعنى كلام كثير لحكماء الآخرة وحكماء الدنيا .

وذكر من كلام حكماء الآخرة ، قول الشيخ أبي بكر بن عبدالله العيدروس : « **لا تعادي زمانك .. إلخ** » ، أمَر بالمسايرة لكل واحد بما يناسبه ، أي يعامله به في قول وفعل ، ولا يمكن هذا إلا ممن منَّ الله عليه بسعة حسن الخلق كالشيخ أبي بكر ، فإنه إنما تكلم مخبراً عن حاله .

وذكر من كلام حكماء الدنيا ، ما حكى من قول الطغرائي في قصيدته لامية العجم ، من قوله: « **ما أضيق العيش .. إلخ** » ، يعني مقتضى الحال في وقته ضيق الحال ، لولا التنفس منه بطول مدة الأمل . فإن طول الأمل منه رحمة ومنه نقمة ، فمن كان طول أمله مفرجاً له عن خوف الموت ، حتى تفرغ لعبادة الله وإقامة أحكامه وأوامره ، فهذا طول الأمل في حقه رحمة ، وهو الذي عناه صاحب اللامية . وإن كان لطول أمله ونسيان الموت سهى ولهى وضيع حقوق المولى ، فطول الأمل في حقه نقمة ، والتعلل الذي ذكره التسلي والتعزي ، بتذكر ما يريح خاطره من كل ما يشغل باله ، وهذا مقتضى جميع الأحوال في كل الأزمان ، لكن في هذه الأزمان المتأخرة أبلغ وأشد ، وربما اختص أحد بزيادة في ذلك لموجب له في أي وقت كان هـ .

واستأذن سيدنا رجل في أن يحج لأمه ، *فقال* له : « **حج لها** » ، *ثم قال* : « **أهل الجهة يتعاطون أمراً مستقبحاً ، وما هم دارين ، وهو أن أحدهم يحج لأبيه أو لأمه بأجرة يوصي بها ، وهذا غير لائق من الولد ، بل ينبغي أن يحج لهم متبرعاً ، أو يعطي الأجرة يحج بها غيره** » هـ .

يعني إذا أوصى أحد أبويه بأجرة عَيَّنَها يحجُّ له بها ، طمع في الأجرة فأخذها وحج بها لمن أوصى بالحجة من أبويه ، وهذا غير لائق من الولد . وهذا يتعاطاه كثير من الناس ، فينبغي إذا عزم على الحج لمن أوصى به منهما ، أن لا يأخذ ذلك ، فإن كان لا بد أخذه ، فليستأجر به غيره ، وأقبح من ذلك أن ينقص ما عَيَّن ، ويستأجر بأقل منه ، فينبغي أن لا ينقص ما نواه . وكثير من الناس في جهة حضرموت وغيرها ينقصه ، بل ربما نقض وصيته بها أو بغيرها ، وأبطل الوصية توفيراً للإرث ، ووقع في وعيد :

﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعۡدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ﴾.

وذمَّ سيدنا حج الأجرة، فقال: « غلبت على الجهة العمومية والبداوة، وصادفوا علماءً جهالاً، يستعملون لهم الحيل، ويحللون لهم الأموال الحرام بالنذور والحيل البطالة، فيوقعونهم في اعتقاد حليتها، فكانوا في حرام، ثم رجعوا في كفر باستحلالهم الحرام، وجميع من قال بجواز النذر، قالوا: إنما يجوز إذا كان النذر في قُربَة. والنذر بالمال أخو النذر بالصلاة والصوم، ولو وُلِّينا أمورهم، أو تولَّى والٍ رأيه إلينا ويسمع كلامنا، لأظهرنا لهم أشياء غريبة من الحق، لم يعرفوها إلا بعد ظهورها فيجدونها في الإحياء وغيره، وهذه الأشياء وأمثالها هي التي كنا نؤمل أن نظهرها، ولكن الزمان تنعكس فيه الأمور وتنقلب، كما ذكر الشعراوي ».

وقال غير مرة: « من أجل ذلك كانت نفسي تحدثني بأحد أمرين: إما حصول الخلافة الظاهرة، وإن لم تتم، كما طلبها الحسين، إذ لا يشترط إتمامها، ويبعد ذلك، لعدم تمامها لأسلافنا، وإذا حصلت ولو في بلد أو بلدين، نقيم الأمر فيهما على مقتضى الكتاب والسُّنة، وإن لم يكن الأمر بمباشرتنا. وإمَّا السياحة في الأرض، ولا منازع في ذلك، فترى ناساً ساحوا ولا معهم يقين، وانطوت لهم السنين » ﻫ.

أقول: قوله: « علماء جهالاً »، أي علماء عند أنفسهم، جهالاً بأحكام الله، ومع ذلك يلبسون على الناس بالتظاهر بالعلم، ليعتقدوهم ويتبعوا أقوالهم وما أفتوا به، فاتبعوهم في حيلهم، وعملوا بها، حتى استحلوا الحرام المجْمَع عليه فاعتقدوا حِلَّه واستعملوه، فوقعوا بفتاويهم في الكفر، فكانوا في حرام – أي معصية – فوقعوا في كفر باستحلالها. ولذلك قال كما قدمنا: « ما أفسد على الناس دينهم إلا العلماء، ولكن بعد فساد دينهم »، ويعني بهم هؤلاء العلماء الجهال المضلين، قاتلهم الله أجمعين، إذ لا أشد فساداً للدين أشد من الوقوع في الكفر. و« الزمان تنعكس فيه الأمور »، يعني إذا رجا الإنسان فيه أمراً يعود به الصلاح في الدين، انعكس، وما وقع إلا ما فيه ضرر في الدين، لاقتضاء حال الزمان ذلك، ودائما يتناقص الدين كلما مر به حين، إلى أن تقوم الساعة على شرار الخلق من الفجار والكافرين.

فكان سيدنا يتمنى التمكن من إقامة أحكام الدين، لكن لم يتمكن من ذلك، لانجذاب الأحوال إلى طبع الزمان. وأراد السياحة إذا لم يتمكن من ذلك، ليسلم في السياحة من الإطلاع على أمور يجب إنكارها وإزالتها، ولا يمكن ذلك كما ذكر هنا، فلم تحصل أيضاً، لما ذكر من انعكاس الآمال لانعكاس الحال لمقتضى حال الزمان. والسياحة تطلب قوة يقين، وفَعَل ذلك أناس مع ضعف يقينهم، فاستمر

بهم الحال وانطوت لهم السنين ، وهم بأهل اليقين متشبهين ، كما تشبه أولئك الجهال من المبطلين بأهل العلم والدين في فتاويهم للجاهلين هـ .

قال : « **الدنيا سِنِيُّها سبات** » ، أي تمر كنومة نائم .

وقال : « **أنت لنفسك ما لم تُعرف ، فإذا عُرِفْتَ فأنت لغيرك** » .

قال : « **الخمول نعمة والنفس تأباه ، والظهور فتنة والنفس تهواه . وما أثنى الله ورسوله حين أثنى إلا على الخمول ، فقال : ذو طِمْرَيْن لا يُؤبَه له . ولم يقل : ذا حلتين** » .

ثم أطال الكلام في ذمِّ الظهور ومدح الخمول ، **ثم قال** : « **خُصَّ البلاء بمن عرف الناس أو عرفوه**»، قال : « **وتروى هذه الكلمة حديثاً** » ، قال : « **وذكر بعض المفسرين : إن الأول مبتلى بنفسه ، والثاني مبتلى بربه** » .

قال : « **الحزم ترك الكلام ، لأن من كثر كلامه كثرت خطاياه ، فإذا تركه سلم من الإثم والفضول** » هـ .

أقول : قال بعض السلف : « من كثر كلامه كثر سقطه » ، وهو الخطايا المشتملة على الإثم والفضول كما ذكر .

وشكى إليه رجل - نبيهان - ضِيْق المعاش ، وكان يحفظ القرآن ، **فقال** له : « **اجْعَل المصْحف نُصْبَ عينيك ، ولا تزاحم أهل الدنيا ، وخَلِّهم هم الذين يجون إلى عندك ، لأن صاحب الدِّين لا يحتاج إلى صاحب الدنيا . هل يحتاج من معه جوهرة إلى من معه وَدْعَة ؟ ومن رأيته يتنعم في الدنيا ويتقلَّب فيها فهو كالمتمرغ في عَدانة - أي مزبلة - هل يُمْكنك أن تَغْبطه ، وتتمنى أن تتمرغ فيها مثله ؟ لا ، بل تَفْرح بالسلامة من ذلك . واصبر مع عيالك وخلهم هم يترقَّونك - أي يترضونك - بالعشاء والغداء إذا رأوك مهتماً بأمر دينك ، وغافلاً عن هَمِّ المعيشة ، ولكنك خُذْ منه ربع كفايتك ورد الباقي ، وقل: أنتم تَتعبون في تَحصيله ، وأنا جالس . فهذه هي الطريق لك ، ولحينك ما تعرف الطريق مع طول مجالستك لنا ، لا بَلْ تَعْرفها ، ولكنك نَفْسك غالبةٌ عَلَيْك ، فلا تَقْدر تَعْمل** » هـ .

أقول : انتهى ما نقلنا من كلامه في هذا المجلس ، وهو ضحى يوم الجمعة ثالث جماد أول سنة ١١٢٣ . فانظر هذا الكلام المزاح منه لهذا الرجل ، كيف جرَّ إلى جِدٍّ وسيرة حسنة وطريقة حق جميلة،

وهو من الذي ذَكَرنا في المقدمة من مزاحه الذي ينجر إلى جِد . وكان من عادته أن يتداعى به الكلام مع هذا الرجل إلى المزاح ، وإن كان في نفسه عليه شيء أظهر عليه الحنق والملام .

وهو الذي لامَه لمَّا تكلم بكلمة أبي ذر الصحابي وحنق عليه ، وأظهر عليه الغضب ، حتى قال له: « **إن عُدتَ تقول ذلك ما خليناك تدخل علينا ، ومنعناك من الدخول إلى مجلسنا** » ، وهو الذي لامَهُ أيضاً لما تخلف عن عزيمة العشرين ، وقد قدمنا كل ذلك فانظره في محله هـ .

قال رضي الله عنه : « **شاغل أهل حضرموت وراحتهم في أيام الخريف ، فتظهر في هذه المدة أشغالهم الباطنة على ظواهرهم ، ولكنها أشغال مستلذة عندهم** » .

وأشار على فقير من بعض فقراء الجهة أقام هنا ، بالمسير إلى بلاده ، *فقال* له : « **بلادك الآن خير لك، والخريف قرب** » ، فلم يمتثل ، واختار الإقامة بتريم . فتركه ، ثم بعد أيام أخبره رجل من أهل بلده أنه حصل بيع في نخيلات له ولإخوانه لغيبته عنهم ، فجاء يطلب الشور من سيدنا في المسير ، فقال له : « **ما عاد شيء شور الآن ، وقد سبقت لك الإشارة فلم تمتثل ، والآن افْعَلْ ما أردت** » .

فقال : « بل أريد الإشارة والدعاء » ، *فقال رضي الله عنه* : « **ما يصير الإنسان صالحاً إلا صاحب علم يعمل بعلمه ، أو صاحب حال يعمل على حاله ، وأما لَقْلَقْ ما ينفع ، وهذه لَقْلَقَة اللسان المذمومة، والإشارة ما هي إلا استماع وامتثال من غير اعتراض ، بل يسلم ويمتثل ، ولا يقيس بعقله ، ثم لا عليه. فلو قلت لك : رح اجْلِسْ في يَبْحُر . أما تقول : هاه ، من أين آكل ؟ وأنتم اجعلونا في الإشارة ألا كصاحب علم يشير بما يقتضيه علمه ، ولو ما عرفتم وجه الصلاح فيه ، وهو لا بد أن العالم ما يشير إلا على مقتضى العلم ، ولا عاد تجعلونا أهل صلاح نشير بمقتضى الصلاح . ومن اعترض على العلم اعترض على الصلاح أيضاً** » .

وقال في غير هذا المجلس : « **الإشارة ما تبرز في كل حين ، ولا لكل أحد ، إنما هي عارض** » هـ .

أي فالممتثل إذاً ينبغي له أن يغتنمها في الحين ، بالعمل بها ولا يتمادى ، ويعدها نعمة من الله مَنَّ بها عليه ، وعليه بالإعتماد عليها ساعة يسمعها ، فإن الله سبحانه ما نبههم لها وأنطقهم بها ، إلا لصلاحٍ عَلِمَه سبحانه لذلك الإنسان الذي يشيرون عليه . ثم قد يظهر وجه الصلاح في الدنيا ، كما قد ظهر وجهه لهذا الإنسان ، وقد لا يظهر إلا في الآخرة ، ففي استغنام العمل بإشارتهم الخير في الدنيا والآخرة، ثم هم يقبلون الممتثل قبل ظهور ذلك ويُقبلون عليه ، لأنه إيمان بالغيب ، وفيه بيان قوة اعتقاده ومحبته . وأما إذا لم يقبل الإشارة ولا امتثلها إلا بعد ظهور وجهها ، وبيان وجه الصلاح فيها،

فلا يعبأون به ، ولا يلقون له بالاً ، ولا يلتفتون بقلوبهم إليه ، كما يفهم هذا من قصة هذا الرجل ، وقول سيدنا له : « **ما عاد شيء شور الآن** » ، وتغيُّظ قلبه عليه ولومه على ذلك كل هذا الملام ، حتى طال به كل ذلك الكلام ، وقال ما قال .

فالسعيد من بادر الإشارة بالعمل بها في الحال ، وقد تقدَّم له كلام في الإشارة ، وقال : « **ليس كل حين تحصل الإشارة ، إنما ذلك نادراً** » ، أو كما قال . وتكلمنا على بيان كلامه ، ومثَّلنا لها حين حصولها، واستغنام العمل بها كهبوب ريح الوَلِم للمركب ، الذي يجب أهله مبادرة السفر عليها ، ولا يتخلفون عنها ويتمنونها ، ولا يدرون متى تحصل لهم ، فإذا حصلت ففي الحال علقوا الشراع مبادرة بلا توان، كما قال تعالى : ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾، ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾ . فافهم أيها السامع معنى كلامه السابق من معنى كلامه اللاحق ، لتهتدي إلى الحق ، وهو موافقة الحكم والصواب، وهو ما يقتضيه الشرع والعقل .

وهذه الإشارة الخاصة من الصالحين ، لما يشيرون به على من اختصوه بها بأمر من الله ، خصوصاً لذلك الإنسان ، كما أشار الشيخ أبوبكر بن سالم للسيد يوسف الفاسي بالبعد عنه ثلاث مرات ، مع تلهف كل منهما على الآخر ، حتى قال له في الثالثة : « لا تجِ حتى أرسل لك » ، فأرسل له فأتاه ، ثم ابتدأ بالشيخ أبي بكر مرض الموت من يومه ، ثم مات ورأسه على فخذ السيد يوسف ، وهذا أمر من الله لا يدركه العقل .

وهذه غير الإستشارة التي يُستشار فيها الكامل العقل لمعرفة الصواب من الخطأ ، فافهم .

وقال لرجل من السادة – علوي الجفري – تخلف عن صلاة العصر مع الجماعة خلفه ، وذلك يوم السبت ٤ شعبان سنة ١١٣٠ : « **ما الذي خَلَّفَكَ عن الصلاة والقراءة ؟** » .

قال : « جاءني فلان وفلان من السادة اجتمعت بهما في المسجد ، ثم سارا معي إلى الدار فقطعوا بي »، **فقال : « كيه ذا حَشَّموك – أي أعزوك – وهذه الأمور لا حرج عليكم إذا طلبتوها على الوجه المباح، الذي لا يتعدى إلى محظور . وقد وصّينا أصحابنا بأن يتوسطوا فيها ، ولا يبالغوا فيها ، ولا يترفعوا ولا يتكبروا على غيرهم ، بل نستحسن لهم فيها الوسط ، لأن في طبع أهل هذه الجهة ، إذا رأوا الإنسان يتواضع لهم دحقوا عليه ، وظنوا أنهم أفضل منه ، وإنه ما يبلغ حذاهم ، وإذا رفع نفسه عرفوا له حقه ، وهذا ما ينبغي . ولو أنهم رفعوا من تواضع لهم ، وظنوا أنه قد تَنَزَّل لهم دون ما يستحق؛ لكانوا قد أصابوا ، فلهذا نحب الوسط ولا نحب الغلو ولا التسفل »** .

أقول : وفي هذا المعنى قال الإمام الشافعي رضي الله عنه : « أظلم الظالمين لنفسه ، من تواضع لمن لا يُكرمه ، ورَغِبَ في مودة من لا ينفعه » .

وفي مجلس آخر ذكر الرئاسات وأهلها ، فقال : « الرئاسة الحقيقية لا اعتراض فيها ، وإنما المذموم الرئاسة الصورية الوهمية ، ولكن إذا حصلت الحقيقية في رجل ، جاء أولاده يطلبون الرئاسة الوهمية المذمومة كآل الشيخ فلان . وهذا أمر غريزي لا يكاد يسلم منه الأشراف ، حتى إنه شقَّ على السادة انتساب الشيخ أبي بكر بن سالم إلى معروف باجمال ، مع أن له مشايخ كثيرة غيره من السادة ، فلم يُظهر الإنتساب لأحد منهم » هـ .

أقول : ذَكَرَ في « المشرع الروي » : أنه صحب الشيخ عمر باشيبان ، والشيخ عبدالله بن محمد باقشير صاحب « القلائد » ، والشيخ عمر بامخرمة ، والشيخ أحمد بن علوي باجحدب ، ثم قصد الشيخ معروف باجمال ، ولعله لقصده له اشتُهرت نسبته إليه . قال : وتخرج به كثيرون ، منهم السيد أحمد الحبشي صاحب الشعب ، والسيد عبدالرحمن الجفري صاحب تريس ، والسيد محمد بن علوي صاحب المقيروبات والسيد عبدالرحمن البيض صاحب الشحر ، والسيد يوسف الفاسي المغربي ، والشيخ حسن باشعيب صاحب الواسطة ، والشيخ أحمد بن سهل صاحب هينن ، والشيخ محمد بن سراج . وذَكَرَ من مؤلفاته : كتاب « معراج الأرواح إلى المنهج الوضاح » ، وكتاب « فتح باب المواهب وبغية مطلب الطالب » وهو مجلد كبير ، وكتاب « معارج التوحيد » ، وكتاب « مفتاح السرائر وكنز الذخائر » ، وأتى فيه بعجائب المعاني الرضية ، ونشر فيه ما كان مطوياً من الكنوز المخفية . انتهى ما نقلته من « المشرع » .

وهؤلاء الذين تخرَّجوا به مشايخ مشهورون بجهة حضرموت ، والسيد يوسف هو الذي قدَّمنا قصته بطولها ، الذي قال فيه : « ما تبلعني الأرض حتى يأتيني من المغرب رجل شريف حسني ، يقرأ في مدينة فاس » ، وكاشفه رجال في المغرب بأن له شيخاً لم يعرفه .

وسمعت أن الشيخ أبابكر بن عبدالله العيدروس أرسل له من عدن مع رجل بمسبحة وسجادة وأظن وعكاز ، وقال له : « ادفع هذه للشيخ أبي بكر بن سالم ، تراه في مسجد باعيسى باللسك يتعبد فيه، ولا تعطه ذلك حتى يسألكه ويطلبه منك ويسميه لك » ، فالتقاه في ذلك المسجد ، وسأله إياه وطلبه منه وسماه ، فدفعه له .

ثم بعد ذلك تكلم في الحقائق كلاماً كثيراً ، وكان لسانه فيها مثل الشيخ أبي بكر العيدروس . فلما

أكثر من الكلام في الحقائق واشتهر عنه ، وسمع إنكاراً من بعض أهل الظاهر، فقال: « كلُّ ما تكلمنا فيه ، إنما هو كحبة أو كذرة من مائة ألف بهار مما وَهَبنا الله » ، أو كما وقع .

قال سيدنا : « **والمشيخة ألّا بالنسبة ، لا بالإجتماع اتفاقاً ، وفَعَلت أم الشيخ أحمد بن الحسين العيدروس قهوة ، وقالت له : رح بها إلى الشيخ أبي بكر** - أي ابن سالم - **وقل له يدعو لك ، وسلم عليه . فقال له : تسلم عليك الوالدة ، وقالت : ادع لي . وأرسلت هذه القهوة حق البركة . فقال : إنك ما تحتاج إلى الدعاء ، ولكني أسُلُّ منك حق آل العيدروس ، كما تُسَلُّ الشعرة من العجين** » .

أو كما قال ، وذلك يوم الثلاثاء ٢٠ جماد أول سنة ١١٢٨ .

وقوله لذلك الشريف : « **ذا حشموك .. إلخ** » ، هو من مزاحه الذي جرَّ إلى جِدٍّ كما ذَكَرنا ، ثم ساق ما بعده من قوله : « **وهذه الأمور لا حرج عليكم إذا طلبتوها على الوجه المباح ، الذي لا يتعدى إلى محظور** .. » ، إلى آخر ما قال من ذِكْر الرئاستين الحقيقية والوهمية .

ومراده أنه ينبغي للإنسان أن يعز نفسه بترك الأمور الدنية التي تضعه ، ومنها أن يذل لأحد لأجل الطمع ، ولا يتكبر ويشمخ بنفسه على الناس ، فلا يتواضع لمن إذا رآه متواضعاً دحق عليه ، أي يزدريه ويضعه دون قدره ، فيرفع نفسه عند ذلك ويعزها بلا تكبر ، وهو أن يرفع نفسه فوق قدرها ، أو يُزدرى ممن هو أعظم منه قدراً ، وهذا هو الوسط الذي قاله وأمر به ، ووصى به أصحابه .

والفرق بين الرئاستين ، أن الحقيقية التي قال : « **لا اعتراض فيها** » ، أنها حظ ونصيب من الله ، يخص به من يشاء ، فقد يكون في المريد ولا يكون في شيخه ، وقد يكون ذلك في عامي ويخلو منه قطب الزمان ، كما قال : « **إن القطب إذا لم يكن له نصيب في الظهور ، يستنيب من له نصيب في الظهور ، وقد يكون ذلك في من لا يريده ولا يشتهيه ، فيقع له قهراً عليه إذا كان له فيه نصيب ، فإن النصيب لا بد ما يصيب** » ، وذلك كسيدنا عبدالله نفع الله به ، فإنه يكرهه جدًّا ، حتى إني سمعته يقول : « **لا أحب الظهور لنفسي ، ولا لمن أحب** » ، حتى إنه سمع عني أني أفعل للناس عزيمة للحُمَّى مجربة ، واشتُهر صيتها مسيرة نحو ثلاثة أيام إلى دوعن ونواحيها ، حتى كانوا يرسلون إليَّ يطلبونها ، فأزعله ذلك ، وسألني عنها ، فأخبرته بها وقلت : عَلَّمَنيها فلان . فلما سمعها ، سكت ومضى إلى داخل البيت ، ولا كلمني فيها بشيء ، لا بأمر ولا بنهي ، ثم العجب العجيب أنها ذهبت بعد ذلك خاصيتها ونفعها ، وما أفادت بشيء ، فتركتها مدة حياته ، وبعده جعلت أتعبَّث بها رجاء أن يرد الله خاصيتها لنفع المسلمين .

فهذا ما أسمعناك من تصرف سيدنا عبدالله ، فهل رأت عيناك من يتصرف هذا التصرف ؟ لا والله، لقد عزَّ موجود وقلَّ نظير . ومع ذلك قد أشهره الله في الخافقين وفي الفريقين .

ومن تخصيص ذلك النصيب بمن خصه الله به ، حتى قد يكون في المريد ولا يكون ذلك في شيخه، أن سيدنا الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه كان تأتيه القوافل والقاصدون من أماكن بعيدة متعددة، يطلبون منه الأحاديث التي رواها عن شيخه الإمام ربيعة بن عبدالرحمن فرُّوخ ، ويتزاحمون عليه يروون عنه تلك الأحاديث ، وربيعة جالس في قرنةٍ من المسجد يسمعه حين يرويها لهم عنه ، فأتى إليه بعض الناس وقال له : « ما بال الناس يروون أحاديثك عن مالك ، ولا يروونها عنك ؟ » ، فقال : « مالك قد أوتي نصيباً وافراً من الظهور ، ومثقالٌ منه أبلغ في الظهور من ألف بهار من العلم » ، يعني يؤثر في الشهرة أكثر مما يؤثر فيها العلم بذلك القدر ، أو كما قال وذَكَر في القصة .

وقوله : « **جاء أولاده يطلبون الرئاسة الوهمية المذمومة** » ، يظنون أنها هي ، لعدم معرفتهم بتلك الرئاسة الجليلة ، فجاؤوا يطلبون هذه الرئاسة المذمومة ، وهي ما تطلبه النفس الأمَّارة بهواها ، طلباً للرفعة في الدنيا ، ونيل حظوظها المجردة لها ، بلا طلب نفع بها في الآخرة ، ويريدون التشبه بأبيهم بها ، يظنون أن الأمرين واحد ، ولا يعرفون الفرق بينهما ، بأن تلك خصوصية من الله يختص بها من يشاء .

وهذه شهوة نفس أمَّارة مقصورة على الدنيا ، وأن هذه الوهمية مبغوضة عند الله وتلك الحقيقية محبوبة عند الله ، ولذلك يخص بها خواص من عباده بغير اختيارهم .

وفي مجلس آخر ذَكَرَ أناساً مشغوفين بحب الجاه ، ويتكلمون في من يُذكَر بشيء من ذلك ، ولو من أقاربهم ، *فقال* : « **إذا لم تتمكن أن تكون رأساً ، فدع أخاك يكون لك رأساً ، ولهذا السبب إن الله عكسهم ، ووقع لهم مثل ما وقع للديك والحداة ، فإنه إذا رآها تأخر عنها خوفاً منها ، ثم لما كبر بقي كذلك ، فقيل له : تخاف منها وأنت أكبر منها ؟ فقال : قِدْنِي أخاف منها مذ كنت صغيراً . وعمَّال يطلبون يطلبون ، حتى يصير - أي أحدهم - مما حصل بلا شيء ، في مداراة من لا يستحق المداراة ، من عجم ونحوهم ، كيف تتكبر على أشراف وفضلاء ، وتتواضع لأراذل ؟** » .

وتكلم في هذا كثيراً ، *ثم قال* : « **ما عاد إلا هؤلاء الجماعة ، بُلُوا بنا وبُلِينَا بهم ، وإن كانوا ذوي رحم، وما عاد ألَّا أسير معهم بما يظهر لهم ، لا بما يظهر لي ، ولو سرتُ معهم بما يظهر لي ما وصلنا معهم إلى هذا الحد . وناس من الأشراف ما يُؤبه لهم ، يبلغون في التواضع لهم كل مبلغ ، ثم هم يتواضعون أضعافه لعجم ، والعجم لا نسب لهم إلى مهاجرين ولا أنصار ، ومن وصل مكاناً لحاجة فحقه أن لا يشتغل إلا بحاجته ، لكن إذا عميت بصيرته فعل مثل ما يفعل إذا عمي بصره . كما إذا قيل للأعمى : القِبلة من هنا . قال : لا ، إنما هي من هنا . ويكون أعمى البصيرة من اجتماع الكِبْر مع الجهل ، كما فعل فرعون وأمثاله ، فذهبوا وهم أكبر ممالك منهم ، في صفاء ولذة ، والدنيا دار امتحان كلها ، والممتَحَن**

أشكل حالاً من الممتَحِن ، ولكن لا يجيء في الأمور بالإفراط والتفريط .

وكل حرفة لا تُعرَف إلا من أهلها كحَدَّاد ونَجَّار ونحو ذلك ، فإذا كان كذلك في أمور الدنيا ، فكيف أمور الدين ؟ ويتسطر لهم أنه لا يستقيم لهم جاه إلا بالدحق على أصحابهم ، وبهذا السبب انظر كيف يتعاملون بعضهم مع بعض ، وهم فَخْذ واحدة ، والملوك أحدهم ، إذا ما وقع له هواه في أمر ، رجع بهواه في أمر آخر » هـ .

أقول : كل كلامه هذا انجرَّ في كلامه في الرئاستين ، ومن يطلب الرئاسة الوهمية من وجوه الناس من سادة ورؤساء وعلماء وأمراء وملوك ونحوهم ، ويتسببون فيها ، ومعلوم أن لا يكون المسبَّب مع السبب إلا بإرادة من الله لمن أراد ، وهذا جارٍ في كل أسباب الدنيا والآخرة ، بخلاف الرئاسة الحقيقة، فإنها مجرد وهب ونصيب من الله لمن جعل له ذلك ، ولا يفيد فيها السبب .

وأراد يوم الجمعة ثاني ذي القعدة سنة [1]، يركب من الحاوي إلى البلاد لأجل صلاة الجمعة ، فاعترضه ابن ابنه أحمد بن حسين بن سيدنا عبدالله ، وسنه إذ ذاك نحو خمس سنين ، وطلب أن يركب معه إلى البلاد ، فقال له : « ارْجع » ، فأبى ، فاعترضه مكتّب جاء بأوراق من الشحر ، فصافحه وناوله الأوراق ، ثم ناوله قرش حجر مرسل معه من الشحر ، فقال سيدنا لأحمد : « أترجع وتأخذ هذا القرش ؟ » ، قال : « نعم » ، فأعطاه إياه ورجع ، ثم ركب سيدنا وسار قليلاً ، ثم قال للخادم عكيمان : « كأنك حزنت عليه تريده للجعلاء . أما قلنا لك : قل : يا فتاح يا رزاق . فأبيت ؟ » .

فقلت : أنا أقبل الإشارة إذا لم يقبلها ، وأقول : يا فتاح يارزاق . وكان من أوراد سيدنا كل يوم بعد صلاة الصبح يقول مائة مرة : « يا كافي ، يا مغني ، يا فتاح ، يا رزاق » ، يقولها جهراً ، يسمعه كل من حضر .

ثم بعد قليل ونحن سائرون ، تكلم *فقال* : « ولو كنا نخبّي وندَّخر لغيرنا من الأهل والمحتاجين ، فطريقتنا عمرية ، إنما هي تقدير الأمور وترتيبها ، ووضع كل شيء في محله ، وإن كنا لا نحفل بها ، فإن عمر كان يرتِّب ويقدِّر لأبي بكر ، إذ أبوبكر من أراد منه شيئاً له وجه في أخذه أعطاه إياه ، وعمر ينظر من أولى منه ، وكان له قوة في تقدير ذلك ، إذ لا يريد شيئاً منه لنفسه ، ولو كنا متجردين من الأهل والعيال لكنا لا ندخر شيئاً ، ولا نبيت على معلوم » .

فقلت له : من فضل الله أنهم رأوا النبي ﷺ ، ومن بعدهم رأوهم وهكذا إلى زماننا ، وأننا أيضاً

---

(١) فراغ في الأصل .

رأيناكم ، فقال : « نعم ، والأولياء موجودون الآن وما عُدِمُوا ، ولكن يخفُون ويقِلُّون ، وظهورهم وخفاهم بحسب صلاح الزمان وفساده ، لكن انقسم الناس فيهم إلى مُحِبٍّ غالٍ يكاد يعبدهم من دون الله ، كما كان ذلك في حق سيدنا علي ، ومنهم عدو شاني حتى لعنوه على المنابر . ولكن المبغضون لم يزل أمرهم يضعف ويتلاشى ، وأمر الآخرين يقوى ، حتى في وقتنا هذا ، منهم المطبوع لنا على المحبة والتعظيم ، ومنهم العدو القالي وإن أظهر المحبة ، حتى إن أحدهم لم يطالع لنا كتاباً ، وإذا سمع لنا نظماً ضاق منه ، مع مجاورتهم لنا في النسب والبلد ، فلا هم ربَّوا ديناً ولا رئاسة . ولولا انقباضنا عنهم وعدم مخالطتنا لهم ، لكان آذونا وأشغلونا » .

فذكرت له حينئذ رؤيا وقعت لي البارحة ، وهي أني قلت له : رأيتكم البارحة وأنا معكم جئنا من مكان ، وإذا بكم تقولون : سر إلى المكان الفلاني - أي إلى بلادك - وكأني ثَقُل عليَّ ذلك لعسر فراقكم عليَّ ، فلم تعذروني في التَّرْك ، فلما رأيتُ منكم العزم ، قلتُ : فإذاً أكون معكم في الدنيا والآخرة . فقلتوا : نعم . ففرحت لمَّا قبلتم مني ذلك ، فقال : « ذلك لتعلقك بالسلسلة » هـ .

أقول : قوله : « لكن المبغضون لم يزل أمرهم يضعف » ، كما أضعف الله مبغضي سيدنا علي من بني أمية بإذهاب دولتهم ، بإقامة دولة بني العباس ، حتى تتبعوا مبغضيه وذويه بالقتل والإيذاء .

وكذلك كان بحضرموت إباضة ، ينكرون النسب النبوي ، فأنكروا نسب سيدنا أحمد بن عيسى وآذوه ، فحجَّ ابنه عبدالله ، فاجتمع مع نحو ثلاثمائة من أهل حضرموت من إباضة وسنة ، بنحو ثلاثمائة من أهل العراق ، وكان ذلك بمسجد الخيف من منى ، فسأل أهل العراق عن نسبه ، حيث هم يعرفون ذلك ، فأخبروه بنسبه إلى سيدنا علي ، والحضرميون يسمعون ذلك ، فشهدوا على ما سمعوا منهم ، واشتُهر ذلك في جهات حضرموت واليمن ، فلذلك ثبت وصحَّ نسب السادة بني علوي على بقية أنساب السادة ، وما زال أولئك الإباضة يضمحلون حتى ذهبوا ، ولم يبق لهم أثر . وهذا هو قوله: « لكن المبغضون لم يزل أمرهم يضعف ويتلاشى » ، كما تلاشى أمر مبغضي أوائلهم .

وكان أولئك الإباضة ، يقال لهم : « الخوقة » ، ولهم حافة معلومة في مدينة العرض ، القرية التي تحت مدينة شبام - شبام بقعتها متعلية عليها ، وبقعتها مستقلة عنها ، وبينهما المسيلة مسيلة وادي سَرْ - . وبنى الشيخ عبدالله باعباد القديم تلميذ الفقيه المقدم من أهل القرن السادس - وهو مؤلف دعاء ختم القرآن : « اللهم بلغنا بالقرآن » - في حافتهم مسجداً ، وقال : « أريد أُطهِّر تلك البقعة من نجاستهم بهذا المسجد » ، ويسمى ذلك المسجد الآن : « مسجد الخوقة » ، مشهور ببلدة شبام وجهة حضرموت .

وقوله : « **حتى في وقتنا هذا منهم المطبوع لنا على المحبة والتعظيم** » ، يعني من سادة وغيرهم .

وقوله : « **ومنهم العدو القالي وإن أظهر المحبة** » ، يشير بهذا إلى ناس من السادة . ويدل على ذلك قوله : « **مع مجاورتهم لنا في النسب والبلد** » ، يعني أناساً يحسدونا على الجاه والصيت لشغفهم بذلك، إذ رأوا وسمعوا أن الله ملأ بجاهه وصيته وذِكْرِه الوجود . وهذه الرئاسة الحقيقة ، فطلب هؤلاء الرئاسة الوهمية ، يحسبونها هي لعدم معرفتهم بفرق ما بينهما ، وهو قوله المتقدم : « **إذا حصلت الرئاسة الحقيقة لرجل ، جاء أولاده يطلبون الرئاسة الوهمية** » ، أي يتوهمون أنها هي ، حيث لا يفرقون بينهما، وهم على هذا كما قال : « **ما ربوا ديناً ولا رئاسة** » . وقد رأيت جماعة من آل العيدروس ممن وَصفُهم كما ذَكَر ، جاؤوا مراراً لزيارته ، فَرَدَّهم في كل مرة ، وقال : « **ما بالهم اليوم جاءوا للزيارة ، وهم طول العمر معنا في البلد قط ما جاءوا للزيارة ، ما الذي حدث لهم ؟** » ، وقد التقوا معه قبل ذلك بنحو يومين أو ثلاثة في الطريق ، أتينا من بيت مبيته ، فصافحوه وحياهم وحيوه ، فجاءه الوهم في زيارتهم إنما حركهم لها الإلتقاء به ، فرأى من ذلك ضعف نيتهم في الزيارة . فتوفوا قبله سوى واحد منهم ، تردد مراراً ، ولم يأذن له حتى أتاه في مرض موته ، فأذن له فدخل عليه واعتذر له ، وطلب منه الحل والدعاء، فحلله ودعا له ، وألبسه قميصاً ففاز بذلك دونهم ، وهو السيد سقاف بن عبدالله .

وزرت يوماً بعض شيبان السادة ، لما قدمنا من أمره لي بزيارة شيبانهم عامة ، فسألت ذلك الرجل: كم لك من رؤية سيدنا عبدالله ؟ فقال : « نحو سبعة عشر سنة » . فتعجبت ، وقلت : يا لله العجب، الناس يأتونه من جهات الأرض كلها ، من شرقها وغربها وشامها ومصرها ، وأنتوا معه في بلده تمكثون هذه المدة ما ترونه ؟ قال : « المحبة ثابتة ولا عبرة بغير ذلك » .

ولما بلغ أحمد المتقدم ذكره نحو سبع سنين ، ألبسه حبيبه - أي جدُّه ، كذا في لغة حضرموت - عمامة ، ومضى فَرِحاً بها إلى أبيه السيد حسين ، فأخذها منه ، فرجع إلى حبيبه يبكي ، فلام أباه السيدَ حسين أبوه سيدنا عبدالله في أخذها منه . فكتب أبوه[1] إلى أبيه أبياتاً يعتذر فيها إليه ، ويقول ما معناه: « الكبير أولى بالعمامة من الصغير » . فكتب أبوه سيدنا عبدالله إليه هذه الأبيات ، جواباً له على نمط أبياته يقول : « بسم الله والحمد لله :

وَلَيْسَ لَكُمْ عَلَى أَحْمَدْ مَلَامَهْ ... وَتَعْذُرُهُ الوِلَادَةُ وَالرَّحَامَهْ

---

(١) الحبيب الحسين بن الإمام الحداد .

وَحَسْبُكَ قَوْلُ مَنْ يَسْأَلُهُ كِسْرَى ... مِنَ الحُكَمَاءِ وَأَرْبَابُ الزَّعَامَهْ
وَحُبُّ المُصْطَفَى المُخْتَارِ صَلَّى ... عَلَيْهِ اللهُ مَا دَرَّتْ غَمَامَهْ
لإِبْنَيْهِ حُسَيْنٍ وَأَخِيهِ ... بَنِي الزَّهْرَاءِ فَاطِمَةَ الكَرَامَهْ
وَكُلٌّ تَابِعٍ لِلْكُلِّ مِنْهُمْ ... لأَنَّهُمْ مَصَابِيحُ الإِمَامَهْ

تمت الأبيات .

فأتى لي السيد زين العابدين ابن سيدنا عبدالله بالأبيات بأمر أبيه ، وهي بخطه مُمليها عليه ، وذكر لي قصتها المذكورة . وبعد وفاة حبيبه سيدنا عبدالله بأيام دون الأسبوع ، قال لي أحمد المذكور : « رأيت البارحة كأني دخلت على حبيبي عبدالله في قبره ، وكأنه أعطاني عمامته ودعا لي » .

وتوفي أحمد بعمان [1] ، وخلَّف ابناً أمه أم ولد ، جارية لعمه السيد زين العابدين المذكور ، وهبها له وأمره أن يتسررها ، فتسررها وجاءه منها هذا الولد وسنه الآن نحو العشر سنين . ويبلغنا عنه كثير من الكرامات وخوارق العادات على صغر سنه ، ما لم يشتهر عن غيره من السادة الذين كانوا هناك ، وهي في الحقيقة كرامات لجدِّه ، جد أبيه بلا شك ولا تمويه ، وهي مشهورة معروفة في عمان ، يتداول ذَكَرها أهل تلك الجهة ، ولذلك بلغتنا على أَلْسِنَة جماعة غير واحد .

وكذلك السيد زين العابدين ابن سيدنا عبدالله توفي هناك ، وخلف بنتاً تذكر بالحذاقة والفهم الكثير ، وتحفظ كثيراً من كلام جدها نظماً ونثراً ، وأمها من سادة من آل باعلوي ساكنين في بلد الجو من عمان ، وهم من آل العطاس ، ومنهم الآن رجل مذكور يقال له : حسن بن هارون . بارك الله فيها، وسترها بستر جميل .

ثم بعد وفاة السيد زين العابدين وابن أخيه أحمد ، جاء ابن للسيد حسين بن سيدنا عبدالله أخ لأحمد من الأب ، وهو السيد علي بن حسين ، فنزل بالجزيرة الحمراء جزيرة زعاب وتوطنها ، وتزوج بزوجة عمه السيد زين أم البنت المذكورة وجاءه منها جملة أولاد ، وهو الآن وذلك سنة ١١٧١ متوطن بها هـ .

وقيل لسيدنا عبدالله : « فلان يعرفكم » ، وهو من الملوك ، *فقال* : **« هو يعرفنا ونحن لا نعرفه ، ومن بدهنا من الولاة الظلمة وعنده الدنيا ما رجع بلا شيء – أي ما يخيب – أمَّا إنَّا نتعرف بهم فلا .**

---

(١) فراغ في الأصل .

ونحن على القدم المحمدي ، وسيرة سلفنا السابقين ما استطعنا ، ومظهرنا إنما هو مظهر علم لا مظهر رؤية شيء آخر ، لأن الرئاسة على أهل الدين إنما هي زرى بهم ، وعاد نحن في جميع أحوالنا مترخصين في حالتنا هذه على مقتضى العلم أيضاً لا على مقتضى الباطن ، ولو نظرنا وعملنا على ما نعرفه من العلم، ما ساغ - أي ناسب - لنا شيء . ونحن لا نستريح - أي لا نفرح - بما يحصل لنا من أمور الدنيا، لأنّا فيها أزهد ممن تأتينا من عندهم ، لأنهم يتعذبون في تحصيلها ويجتهدون في طلبها ، وطريقتنا طريقة الفقراء ، وهي غير طريقة المشايخ ، ونحن ما نريد أحداً يتقيد لنا ، وإن تقيد فمن غير علم منا » .

قال لرجل : « ما ترى لو وَقَعْتَ على كنزٍ أو على مالٍ ، ماذا كنت تصنع ؟ وانظر إن للنفس حالة قبل وجود الشيء ، وحالة عند وجوده ، وحالة بعد وجوده ، وإذا حَصَلت أمور الدنيا فاسأل من الله السلامة فيها ، وقبل حصولها سل الله السلامة منها ، فإنما هي فتنة » هـ .

قال رضي الله عنه : « لا تفعل شيئاً من أمور الدنيا إلا مع الحاجة الظاهرة إليه » .

وتقدَّمت هذه المقالة فلا نعيدها .

قال : « أكثر ما يشغلنا في المجالس كثرة المصافحة ، والكلام أكثر . ونحن لحقنا الناس خاربين ، قد خرَّبهم أناس قبلنا ، فجعلنا نحن نصلح بشدة ، لأن أكثر الناس قد طال بهم العهد ، ولو إنهم على ما كانوا عليه كان أسهل ، وإذا جاءك إنسان وبقيتَ ساكتاً ولم تتكلم خرج غضبان ، كأنك أخذت عليه شيئاً ، فكيف لو رددته ؟ ثم يلقاه أناس يضعفون عقيدته وحسن ظنه ، ويقولون له : لو قد جَبَرَك ، أو وَكَّد عليك - أي عزمك - وهل كذا وكذا ، وما كان الناس هكذا » هـ .

أقول : كلام الصالحين يشبه بعضه بعضاً ، ويتقوى بعضه ببعض ، ومقصدهم واحد .

وقد قال لي يوماً السيد الجليل الفاضل الحبيب أحمد بن عمر الهندوان رحمه الله : « يا الحساوي ، لو قد جئتَ إلى عندي ، فقلتُ لك : ارْجع ، ما أنا خلي لك ، هل تحنق ويقع في بالك ؟ فإن غضبتَ وكرهتَ ، فقد كرهتَ ما هو أزكى لك ، فقد قال الله تعالى : ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾، فلِمَ تكره ما هو أزكى لك ؟ » ، فقلت : يا سيدي ، إن كان مرادكم تفعلون معي هذه القصة فأخبروني ، حتى أبقى على حذر ، وإلا فإن فعلتوها لي على غفلة ، فإني لا آمن ثوران النفس عند ذلك . ومرة جاءه بعض الفقراء ، ممن قد يجيء لرجاء أمر ما ، فضرب الباب وما كان حاضره غيري ، فقال : « من هذا ؟ » ، قال : « فلان » ، قال : « إن كنت جئت لمجرد الزيارة فقط ، لا لرجاء أمر ، بل آيساً من طعامي وكسائي فتحتُ لك ، وإلا فارجع عني » ، قال : « ما جئت إلا لقصد الزيارة ، آيساً

من طعامك وكسائك » ، فأمرني أن أفتح له ، فدخل .

ووقعت فتنة في دوعن بين آل العمودي ، فجاء خبرها ليلة السبت ١٧ شعبان سنة ١١٣٢ ، وما ندر يوم الأحد إلى السبير على عادته ، وجاءه السيد زين العابدين بن مصطفى العيدروس يوم الثلاثاء في الحاوي ، فسأله السيد زين العابدين : « كيف حالكم ؟ » ، *فقال* : « **نحن بحمد الله بعافية ، ولكن ما مع الكِبَر صحة ، وأنا أُبقي على نفسي لمكان العجز القليل ، لئلا إذا حصلت الكلفة يقع القليل كثيراً. وقد كُنَّا يوم الأحد باننذر السبير ، لكن كَمَخْنا خبر آل العمودي ، لأن هذا الرجل سقوطه سقوط الوادي كله ، ولكن هؤلاء منهم الذين أقاموا الفتنة ما يقع لهم خير ، وقد ولي هذ الوالي منهم أربع سنين ما شفاه منهم أحد** » .

قال السيد زين العابدين : « ما فيه مما يُذم إلا البخل » ، *فقال* : « **البخل في آل العمودي معروف ، وقد طلب جدهم الشيخ سعيد من الفقيه المقدم الدعاء لهم بالبخل ، وكلهم بُخَّال بأموالهم . وليلة جاء خبرهم ، رأيتُ كأني جالس بين رَجُلَين ، وأني أُصَلِّي ، وأحد الرَّجُلَين الشيخ عمر المحضار ، والآخر الشيخ علي بن أبي بكر ، وقلت : يوم الشيخ عمر في الجانب ، والشيخ علي في الجانب الآخر ، وهو صاحب علم شريعة ، يكون الأمر مفرَّجاً ، ولو كان ألَّا الشيخ عبدالله في الجانب الآخر مقابل الشيخ عمر لكنا نخاف من ذلك ، لكونهما أصحاب أحوال وأهل حقائق** » هـ .

أقول : هذا المجلس كله إنما مجاراة لكلام بينه وبين السيد زين العابدين وحدهما وأنا مع العيال نستمع لما يقولان .

وقوله : « **أبقي على نفسي** » ، يعني أفعلُ معها من القول والفعل بعض ما تستطيعه ، وأبقي بعض ما تستطيعه ، ترويحاً مني لها بالنشاط ، حتى إذا ملت من ذلك استراحت بباقي نشاطها ، لا إني أكلفها كل استطاعتها ، حتى إذا ملت ولا نشاط معها وقعت في المرض والإعياء . وهكذا العرب تعبر بهذه اللفظة لهذا المعنى ، ومنه قوله هو في القصيدة : [1] .

وقوله : « **كَمَخْنَا** » ، والكمخ الضرب على الرأس ، وهو أصعب ما يقع عليه الضرب من سائر البدن ، يستعار لما يضرب القلب من الأخبار التي تسوء .

وكان شيخ آل العمودي محمد بن سعيد ، وكان له ولوالدته عقيدة ومحبة في سيدنا خصوصاً ، وفي بقية السادة عموماً .

---

(١) فراغ في الأصل .

وفتنتهم أن رجلاً من جهالهم تلاغى مع عمه ، فقتل عمَّه ، فوقعت بينهم الفتنة ، فأراد محمد بن سعيد أن يعدل بينهم بمقتضى الشرع والعرف ، فما انقادوا له في ذلك .

وقوله : « **لا يستنكر البخل فيهم** » ، لمكان تلك الدعوة الشريفة المقبولة ، فصار البخل لذلك عرفاً معروفاً عندهم ، ومن رأوه منهم خارجاً عنها ، بأن تَبَيَّن فيه كرم أو سماحة اعتقدوا صلاحيته . وإنما سألها جدّهم الشيخ سعيد من الفقيه ، لأن أرضهم ضعيفة المعاش جداً ، زائداً على الطبع المعروف من حضرموت ، فلو سمح وأخرج ما في يده ، احتاج لمن لا ينفعه ، والحاجة تشين الإنسان في دينه ومروته، فأراد أن يبقى الإنسان مستغنياً بما في يده عما في أيدي الناس ، والبخل فيه كغيره لا يستنكر عليه .

وقوله في رؤياه أنه يصلي بين رجلين ، فالصلاة تدل على الراحة من السوء ، كما جاء في الحديث : « أرحنا بها يا بلال » ، ونظر إلى الرجلين ، وإذا هما : الشيخ عمر والشيخ علي ، فظهر له في تعبيرها أن الأمر مفرج .

وقوله : أن الشيخ عمر والشيخ عبدالله أنهما أهل حقائق وأصحاب أحوال وأن الشيخ علي صاحب شريعة ، يعني أن الثلاثة كلهم أهل حقائق وأصحاب أحوال ومتقيدون بالشريعة ، لكن الإثنين مُقامان في مقام الحقيقة وأمر الباطن ، والشيخ علي مقام في مقام الشريعة وأمر الظاهر ، وإنما خصهما بما ذكر ، لكونهما تبحرا أولاً في علم الشريعة في صغرهما ، ثم دخلا في الطريقة من صغرهما، ثم ظهرت عليهما الأحوال والحقائق في الصغر ، فصارا في الأكثر من أعمارهما في الحقيقة ، فلذلك نُسِبا إليها ، وما مضى من أعمارهما في علم الشريعة إلا القليل . فقد كان الشيخ عمر يحفظ « المنهاج » في الفقه، كما يحفظ الرجل الفاتحة ، وكان الشيخ عبدالله كذلك ، وكان يحفظ « الخلاصة » للغزالي في الفقه، وكذلك « العمدة » لابن النقيب ، وكثيراً ما يحث عليهما .

وأما الشيخ علي فمضى أكثر عمره في العلوم الظاهرة الشرعية وتوابعها ، حتى تبحر فيها ، فلذلك نُسِبَ إليها ، وما رجع إلى علم الطريقة إلا بمعالجة من أخيه الشيخ عبدالله ، وسياسة منه له بسلاسة، وذلك أنه قال له : « يا أخي ، يكفيك من العلوم الظاهرة ، فادخل في الطريقة وعلم التصوف » ، فأبى، وقال : « ما التصوف إلا العلم والعمل به خالصاً لوجه الله لا غير » ، قال : « نعم ، لكن النفس تُدخل في الأعمال دسائس تُبطلها ، ولا تعلم دسائسها إلا بمعرفة علم التصوف وسلوك الطريقة ، فتعرفها حينئذ ، وتأخذ حذرك منها لتسلم منها » ، فما التفت إلى ذلك ، فقال له : « فطالع إذاً في الإحياء » ، فأبى إلا العلوم الظاهرة ، فأرسل الشيخ عبدالله بعض كتب الإحياء - أظنه كتاب التوحيد والتوكل - إلى الهند ، وأمر أن يُكتب بماء الذهب في قرطاس مليح ، كتابة حسنة جداً ، فكُتِبَ كذلك وجيء له به ،

فدفعه إلى أخيه الشيخ علي ، لما يعلم من محبته للخط الحسن ، وقال له : « انظر إلى هذا الخط ما أحسنه». ومراده أنه ينظره ، ويتأمل معنى عبارته ، لعل أن يجذبه بأمر الله ببركة نظره إلى ما أراد منه .

فلما أبصر الخط وتأمل العبارة ، انجذب إليه ودخل في الطريقة ، وشَغُفَ بقراءة الإحياء حتى مر عليه بجملته قراءةً وإقراءً نحو خمسين مرة - كذا سمعته من سيدنا عبدالله بمعناه - فوصل إلى الحقيقة إلى آخر عمره ، وهو أقل مما مضى .

وكان يوماً مع أخيه الشيخ عبدالله في السبير في غرفته - التي صارت الآن للسيد علي الصليبية وورثته - جالسَيْن يتحدثان ، فقال الشيخ عبدالله للشيخ علي : « أما تذكر يوماً وكنا أنا وأنت عند عمنا الشيخ عمر جالسَيْن في هذا المحل ، فقال الشيخ عمر : إن ابن اخي علي من كبار الأولياء . وإلا هذه محلوقة » ، فقال الشيخ علي : « أستغفر الله ، أستغفر الله ، أستغفر الله » ، كذا رأيته في بعض الكتب .

ورأيت أيضاً في بعضها عن بعضهم أنه رأى رجلاً مُقعَداً عربيًّا ، جاء إلى تريم وهو يزحف ، ويسأل عن بيت الشيخ علي ، فقال له : « من أنت ؟ ومن أين جئت ؟ » ، فقال : « أنا من بلاد سمرقند، خرجت منذ ثلاث سنين قاصداً إلى هذا البلد ، أريد زيارة رجل فيها يقال له الشيخ علي بن أبي بكر السكران ، قد له ثلاثة أيام منذ دخل مقام القطبية » ، فدلّه على بيته ، فجاء إليه وسلم عليه ، فنظره ورجع من موقفه ، واكتفى منه بنظرة أغنته .

وللشيخ عمر بنتان : إحداهما عائشة ، تزوجها الشيخ عبدالله فجاءته بالشيخ أبي بكر بن عبدالله العيدروس صاحب عدن . والأخرى فاطمة ، تزوجها الشيخ علي فجاءته بالشيخ عبدالرحمن بن علي. فهما أبناء عم وأبناء خالة ، وليس هذا الموضع يسع ذكر أخبار الثلاثة رضي الله عنهم .

فمن مناقب الشيخ عمر أنه سُمِّي المحضار ، لأنه يحضر عند الشدائد بسرعة ، بمعنى أنه ما استغاث به مكروب إلا فَرَّج الله كربته في الحال ، وهو القائل : « نرد موسومتَنا ولو بالصين » ، يعنى من عليه وَسْمُنا ، وهو المحبة و العقيدة . وقد قال لي سيدنا عبد الله لما أخبرتُه بقصتنا في البحر في غُبَّة قمر ، لما كدنا أن نغرق ، فتوسلتُ بالسادة في بيت قصيدته : « **ناد المهاجر صفي الله** .. » ، إلى آخر القصيدة ، فنجَّانا الله من تلك الشدة ، فقال لي سيدنا عبدالله : « **قال الشيخ عمر المحضار : نرد موسومتنا .. إلخ**»، يعني أنه يقول ذلك أيضاً .

ومكث أربعين سنةً لا يأكل الرُّطَب ، فقيل له في ذلك فقال : إنه أحب شهوات نفسي إليها ، فتركته لله . وقال أبوه الشيخ عبدالرحمن السقاف : « عندنا جوهرة مخبية ، ما اطلع عليها أحد ، اطلع عليها عمر فأخذها » ، يشير إلى أنه ورث عنه مقام القطبية نفع الله بهم .

وأما الشيخ عبدالله ، فكوشف به بعض أعمامه - أظنه شيخ ابن السقاف - أنه سيولد لأخيه أبي بكر مولود يرث أسرار آل باعلوي المتقدمين منهم والمتأخرين ، وكان يقول : « ليت شعري من ذا المولود الذي يولد لآل عبدالرحمن ، يرث أسرار جميع آل باعلوي » .

ونظر إليه الشيخ عبدالله بن طاهر الدوعني من أهل بلد الدوفة ، من لِيسَر من دوعن ، وهو ابن سبع سنين ، وكان ابن طاهر من أهل الكشف ، فقال : « ياالله العجب ، ماذا يحملون السادة أولادهم وهم صغار ؟ » - مما رأى فيه من الأحوال والأسرار - وقال لأبيه الشيخ أبي بكر : « احْمِل عن ابنك لا تحمِّله ما لا يطيقه » ، قال : « إذا حملت عنه الآن ، فمن يحمل عنه بعدي ؟ » .

وكان للسادة مُقَدَّم في كل زمان ، ينقادون له ويشاورونه في الأمور ، وكان في وقته المقدم الشيخ محمد بن حسن جمل الليل ، فطلب السادة منه أن يُقَدِّم عليهم واحداً ينقادون له ، قالوا : « فإن لم تقدم علينا أحداً ، ما انقدنا لأحد » ، قال : « اجتمعوا لأرى من فيكم أهلاً للتقديم » ، فاجتمعوا كبارهم وصغارهم ، وفيهم أهل الأحوال والمكاشفون ، وأهل الظاهر وأهل الباطن ، فقدَّمه عليهم وقال : « هذا هو المقَدَّم عليكم » ، قالوا : « أتُقَدِّم علينا هذا الطفل دون الكبار ؟ » ، قال : « ما رأيت التقدمة في أحد منكم » ، قالوا : « لا ننقاد له » ، قال : « تريدون علامة لذلك ؟ » ، قالوا : « نعم » ، فإذا قد دخل عليهم رجل عليه زي العلماء ، فتقنع بإحرام أبيض ، وصافحهم واحداً بعد واحد ، وكلهم قاموا وشَمُّوا على يده ، فلما وصل إلى الشيخ عبدالله انتهره وشتمه ، وتفل في وجهه ، فغاب عنهم . فقال الشيخ محمد : « أعرفتم من هذا ؟ » ، قالوا : « لا » ، قال : « أخبرهم يا عبدالله » ، قال : « ذاك الشيطان الرجيم » ، قال : « كيف هو عرفه ، وأنتم ما عرفتوه ؟ » ، فعرفوا حينئذ أنه أحقهم بالتقديم .

ولُقِّب بالعيدروس ، لأن الشيخ أبابكر بقي مدة لم يُحمل له بولد ، فاتفق أن جاء الشيخ عبدالله بن طاهر المتقدم ذكره مع جماعة من الصالحين لزيارة تربة السادة ، فطلبهم الشيخ أبوبكر إلى بيته ، وطلب منهم أن يقرأوا الفاتحة ، ويدعوا أن الله يرزقه ولداً صالحاً ، فقرأوها ودعوا بذلك . فلما كانوا في حالة الدعاء ، صرخ رجل من آل بارشيد ، وهو ابن عم زوجة الشيخ أبي بكر فاطمة بنت الشيخ أحمد بارشيد ، وكان من أهل الكشف ، وقال : « سمعت قائلاً يقول : قد استجيب دعاؤكم » ، فألَـحُّوا في الدعاء ، ثم ختموا الدعاء وتفرقوا .

وواقع الشيخ أبوبكر زوجته فحملت بالشيخ عبدالله ، ورأى ذلك الصارخ النبي ﷺ تلك الليلة في النوم ، وقال له : « بشِّر الشيخ أبا بكر ، إن زوجته حملت له بولد صالح » ، ومن تلك الليلة إلى أن وُلِد ، كل ليلة يرى هو أو غيره قائلاً يقول له : « أبشر بولد صالح » ، أو يقول : « بشِّر الشيخ أبابكر بولد صالح » ، فلما كان ليلة ولادته ، رأى الشيخ أبوبكر الخضر ، وقال له : « الليلة وُلِدَ لك وَلَدٌ

صالح» ، أو قال : « يولد لك ولد صالح ، فإذا وُلِدَ فَسَمِّهِ عبدالله ، ولقِّبْه بالعيدروس » ، قال له : « ما معنى العيدروس ؟ » ، قال : « معناه : كبير الصوفية » .

انتهى ما عنَّ لنا من ذكر الثلاثة الذين ذَكَرهم سيدنا عند ذكره الرؤيا ، ومن اشتاق إلى تفصيل أحوالهم ، فلينظر تراجمهم في « المشرع الروي في مناقب السادة بني علوي » ، وربما لم يذكر شيئاً مما ذَكَرناه ، لأني وقفتُ على ذلك في كتب نادرة ، ككتاب باهارون ونحوه .

وكان الشيخ بارشيد كان يُسمَّى تاجر الدنيا والآخرة ، لأنه كان في يده شيء من الدنيا ، فأنفقه كله في الخير والمعروف ، ومن جملة ذلك أنه بنى الجبَّانة ، التي يُصَلَّى فيها صلاة العيد وصلاة الجنائز، وكان ابتدأ بناها من مسجد آل جديد ، المسجد الذي ابتدأ بناه أولاد الشيخ أحمد بن عيسى ، الذي كان الشيخ علي كثير الصلاة فيه وحده ، لولا ما يعرض له من الكلاب الذي ذَكَر على ما قدَّمنا عنه ، وزاد على هذا المسجد إلى قبليه زيادة كبيرة متسعة ، وجعل ذلك المسجد متحداً شرقيه ، يعرفه من رآه .

وخرج سيدنا إلى السبير يوم الأحد ٢٥ شعبان المتقدم ذكره من سنة ١١٣٢ فكان مما تكلم به أن سأل عن أحوال فلان وفلان من صغار أهل بيته ، **فقال : « أحسن أحوال أهل هذا الزمان ، أن لا يكون له حاسية ، بل يكون سليم القلب ، لا يدري إلا بما هو حاضره في الحال الحاضر ، فإن الحاسية في هذا الزمان ما تدعو الانسان إلا إلى الرغبة في الدنيا والمنافسة فيها ، لضعف وقتهم وجهتهم ، فالله يُحَسِّن أوقاتهم ويرحم جهتهم ، وإلا فما هم إلا ضعاف مساكين »** .

وذَكَر السيد محمد بن علوي ، والسيد علي بن عبدالله ، **فقال : « ما تظهر بركات الصالح على من صَحِبَه إلا بعد موته » ، قال : « وكان الناس أهل حسن ظن ، وما الناس بالناس الذين عهدتهم »** .

وذَكَر الرحمة ، **فقال : « ما أبداً رتبنا ثلاث أربعينيات يس لأجل الرحمة إلا هذه السَّنة - يعني سنة ١١٢٨ - ولقد خشينا أن يكون ذلك من الإلحاح على الله ، وقد بقي بعض موانع - ذَكَرَ من جملتها: - الربا والظلم وقلة إخراج الزكاة وغير ذلك »** .

قال : « ثم رأينا أنه ورد عن الرسول ﷺ : أن الإلحاح على الله في الدعاء مطلوب ، سواء كان الإلحاح في أمر محمود تريده ، أو أمر مكروه تخافه . فإن كان في أمر مطلوب فهو من باب الشكر ، أو مكروه فهو من باب الصبر ، وكل منهما مطلوب ، مع أن الضعف جِبِلَّة خِلْقَة الإنسان . وقاعدة : إذا وقعت الأمور المحمودة ، فقل : هذا من الله . وإذا وقعت الأمور المكروهة ، فقل هو من الناس . ولا تحتج ، وتذكر القضاء فيهما ، وإن كان لا بد منه في الأمرين ، كما ورد . ومثال ذلك كقُفَّة لها عروتان ،

إحداهما إلى الله وهي بيد المَلَك ، والأخرى بيد الآدمي ، فإذا سَيَّب الإنسان الذي إليه؛ فالتقصير منه ويُنسب إليه ، والله سبحانه هو المقدِّر لجميع ذلك ، ولكن يُذكر بالأمر المحمود ، ولا يُذكر بالأمر المكروه » هـ .

أقول : ذَكَرَ ابن أبي جمرة أنه : « ما كان الإختيار باقياً مع الإنسان ، بحيث يود وقوع الخير ، ويكره وقوع الشر ، فالدعاء مطلوب منه ومستحبٌّ في حقه ، فإن مطالب الشرع من العبد الأمور الإختيارية، فإذا ذهب منه الإختيار فالمطلوب منه الإنطراح تحت أحكام القدر ، وهو حكم الله حتماً بوقوعها خيرها وشرها . لكن ورد أنه ينبغي إضافة الخير إلى الله بحكم التقدير والإرادة الأزلية ، وأن يضاف الشر إلى العبد ردعاً له وترغيباً له في اتباع أعمال السعادة ، باتباع ما تدعو إليه الإرداة الشرعية، وهو الخير المطلوب منه ، المضاف إلى الله ، فإن خالف ما تدعو إليه فهو الشر المضاف إلى العبد ، وهو أعمال الشقاوة ، ولا يضاف إلى الله ، كما ورد : والخير كله في يديك ، والشر ليس إليك . وهذا أدباً، ولو أن الهداية والضلال كلاهما يُنسبان إلى الله ، كما قال تعالى : ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾، وقوله تعالى : ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾، وقوله تعالى : ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا ﴾الآية ، وغير ذلك كثير لا يحصى » .

والمثال الذي ذَكَرَ كما ورد في وصف القرآن ، ومعنى ذلك شامل لمعاني جميع معاني صفات الله، وما ورد منها في الكتاب والسُّنة ، من الإستواء والنزول والتعجب والضحك وغير ذلك ، وذلك الوارد هو قوله ﷺ : القرآن حبل الله الممدود بين الله وبين خلقه ، طرفه بيد الله وطرفه الآخر بيد الخلق . إلى هنا الوارد . والقول في هذا أن الطرف الذي بيد الله هو كما يعلمه ويليق بجلاله ، ووَصْفُه لا يطلع عليه مخلوق قط ، لا نبي مرسل ولا مَلَك مقرب ، ويجب علينا في ذلك الإيمان والتسليم ، ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَاۗ ﴾.

وأما طرفه الذي بأيدي الخلق فكما هو هذا المرئي بالأعين ، المكتوب في المصاحف ، المقروء بالألسنة ، المحفوظ في القلوب .

وخذ هذا المعنى في جميع الصفات المذكورة في الكتاب والسنة أن لها طرفين ، طرف عند الله بوصفٍ منها يليق بجلاله ووصفه ، وطرف آخر بيد الخلق ، وهو الذي خوطبوا به وأُسْمِعوه ، فافهم. ولا تفهم من صفات الله ما تفهم من صفات نفسك ، لأن الله سبحانه لما ذَكَرَ صفاته للناس نزهها عما يفهمونه منها ، وقطع طمعهم عن اعتقاد ما يفهمون منها في حقه ، فإن أفهامهم وأذهانهم مخلوقة، وجَلَّت صفات الخالق عن أن تدركها أذهان الخلق ، ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾، ولا يحسبون أن ما فهموه من صفات الله سبحانه التي يعرفون من أوصافهم ما يسمى

بإسمها ، أن ذلك المعنى الذي فهموه هو المراد من معنى صفات الله ، كلا ، بل ذلك الذي أدركوه من معناها إنما هو وصفهم هم .

وأما معناها في وصف الله فلا يعلمه غيره ، وقد نزه نفسه عما يفهمون بقوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾، يعني ليس سمعه وبصره كما تفهمون من أسماعكم وأبصاركم ، فتكونوا مُشَبِّهَة ، وإذ عجزتم عن ذلك فلا تنفوها فتكونوا مُعَطِّلَة ، بل أثبتوها له وسلموا معرفة معناها في حقه إليه سبحانه لتكونوا موحدين ، فليس كمثله شيء مما تفهمون ، ومع هذا هو السميع البصير ، فافهموا ذلك واعرفوه واثبتوه ولا تنفوه . وكذلك باقي الصفات من الحياة والقدرة والإرادة والعلم والكلام على هذا المنوال ، وقد بين هذا المعنى الإمام جعفر الصادق رضي الله عنه ، بقوله : « كلُّ ما خطر ببالِك فهو هالِك ، والله بخلاف ذلك » ، وقال سيدنا أبوبكر : « العجز عن دَرْك الإدراك إدراك » ، يعني إذا عرفتَ واعتقدتَ أنك أنت وجميع الخلق عاجزون عن إدراك معنى تلك الصفات في حق الله ، فقد أدركتَ العقيدة الحق التي أُمِرت بها أنت وسائر الخلق ، فامسك عليها ولا تختلف عنها .

واعلم : إن القرآن كلام الله حقيقة ، ولكنه مُيَسَّرٌ باللغة العربية ، كما قال تعالى : ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ ﴾، ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾، وقال تعالى : ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ ، فأكَّده بالمصدر ، والعرب لا تُؤكِّد بالمصدر إلا ما كان حقيقة ، ولا تؤكد بالمصدر ما كان مجازاً . كذا قاله الإمام ابن أبي جمرة ، ومراده الرد على من قال : أن القرآن كلام الله مجازاً ، لدلالته على كلام الله ، لا أنه كلامه حقيقة. ويُستدل لهذا ببيت الأخطل النصراني ، وهذا منكر من القول وزوراً ، نعوذ بالله منه ومن قائله ، والقائل لهذا القول ، والذي يقول أن ما تفهمه العقول من معاني تلك الصفات ، أنه كذلك في حق الله .

وكلا الفريقين في خطأ مضير ، وعمى كبير ، وهو الإختلاف الواقع بين طائفة من الحنابلة ، وطائفة من الأشاعرة ، تلك الطائفة من الحنابلة تصف الحق بما تفهمه من الصفات ، كما قد سمعتُ واحداً من طلبتهم يقول : معنى استوى استقر . وهذا ما أدركه العقل من معناه .

وتلك الطائفة من الأشاعرة تقول : إنما القرآن كلام الله مجازاً ، لدلالته على كلام الله . ومرادهم بذلك الفرار من الحرف والصوت .

وكلا الطائفتين قد أُركِسَ في الخطأ ، والأكثر من الفريقين على الحق ، من كون القرآن كلام الله حقيقة ، كما قالت عائشة رضي الله عنها : ما بين دفتي المصحف كلام الله .

وكون تلك الصفات ثابتة لله تحقيقاً ، ومعناها في حقه لا يعلمه إلا هو ، إذ هو سبحانه العالم بما يختص به من الصفات .

ولما يُسِّر لنا كلام الله بلغتنا العربية ، وفيها الحرف والصوت ، خوطبنا بذلك ، فقيل لنا من قول رسول الله ﷺ : من قرأ القرآن فله بكل حرف عشر حسنات ، لا أقول الم حرف ، بل ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف . ولما سمع رسول الله ﷺ سيِّدَيْنَا أبي بكر وعمر يقرآن القرآن ، قال لأبي بكر : ارْفَع صوتك قليلاً . وقال لعمر : اخْفِض صوتك قليلاً .

ومع هذا فلا يجوز أن يقال حروف القرآن والصوت به حادث ، خوفاً من الوقوع في بدعة القول بخلق القرآن ، وأول من قال هذه البدعة وأظهرها الخليفة المأمون بن هارون الرشيد ، وحمل الناس عليها ، وورَّى فيها له الأئمة فسلموا .

وأما الإمام أحمد فجاء الخضر وقال له : لا تورِّ كأصحابك ، فإنك إمام متبع فإن وَرَّيْتَ انقلب الناس إلى هذه البدعة . فلم يُوَرِّ ، وامتحنه غاية الإمتحان ، وعهد في امتحانه إلى الخليفة بعده ، فأهلكهم الله ونجاه ، وسلم الناس منها .

فكان الطريقة المثلى التي قال الله تعالى فيها : ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾، وهو المحجة البيضاء التي عليها أكثر الطائفتين من الأشاعرة والحنابلة ، أن هذه الطريقة الوسطى بين الطريقين ، من أن تلك الصفات الواردة في الكتاب والسنة أن لها طرفين – أي معنيين – معنى إلى الله يليق بجلاله لا يعلمه غيره ، ومعنى إلى الخلق الذي خوطبوا به عن الله .

وإن القرآن كلام الله حقيقة لا مجازاً ، ولكنه يسَّر لنا باللغة العربية ، فيؤمنوا بتلك الصفات على هذا الوجه ، وينزهوه عن ما يخطر لهم .

ويحيط بهذه الطريقة طريقتان ضالتان ، وهما من السبل التي قال الله تعالى : ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾، وإحداهما أن يصفوا الله سبحانه بما تدركه عقولهم ، وواقعة فيها فرقة قليلة من الحنابلة . والأخرى يقولون : إن القرآن كلام الله مجازاً لا حقيقة ، لدلالته على كلام الله الحقيقي .

وواقع في هذه فرقة قليلة من الأشاعرة ، والفرقة الموسومة بقوله ﷺ : لا تزال طائفة من أمتي ، قائمين على الحق لا يضرهم من ناوأهم ، حتى يأتي أمر الله ، حتى إنهم ليقاتلون المسيح الدجال . وهي الطائفة العظمى الوسطى المذكورة بين الطائفتين والله أعلم » ، انتهى .

تنبيه : ما تقدَّم لنا من أن سبيل السعادة اتباع ما أجمع عليه الإرادتان الأزلية والشرعية ، من امتثال أوامر الله من فعل ما أَمَرا به ، وترك ما نهى عنه ، والرضا بما فعل ، فهل يُحكَم على من اتبع ذلك بالسعادة مطلقاً ؟ وأن من خالف ذلك ، هل يُحكم عليه بالشقاوة مطلقاً ؟ فاعلم أن أعمال السعادة

كذلك لا يحكم له بالسعادة بها مطلقاً ، بل بالتوقيف على المشيئة الإلهية ، فالحكم عليها قطعاً ، فإن وافقت عمل السعادة حكمنا عليه بالسعادة قطعاً مطلقاً ، ومثل ذلك في عمل الشقاوة إن وافقت المشيئة العمل ، حكم عليه بمقتضاه ، فالحكم متوقف على المشيئة ، فمن أسعدته سعد ولو كان عاصياً، ومن أشقته شقي ولو كان مطيعاً ، فما نفع إبليس عبادته ثمانين ألف سنة ، لما أشقته المشيئة الإلهية شقي، وما ضر آدم معصيته مع ما شنع عليه ربه بها ، فقال : ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ۝١٢١ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ۝١٢٢﴾ ، ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾.

ودلَّت الآيات والأخبار أن الله سبحانه إذا أراد أن ينقل عبده من دائرة الشقاوة بعملها أن يجره إلى عمل من أعمال السعادة ، ثم يختم له به و يموت عليه ، كما جرَّ آدم إلى التوبة ، فتاب ثم ختم له بها ومات عليها ، وجر إبليس من أعمال السعادة التي هي العبادة إلى عمل الشقاوة بالمعصية ، وتأبّيه عن امتثال الأمر بالسجود لآدم ثم بقي على إصراره وعناده إلى أن يموت عليه ، وكذلك وقع لكثيرين ممن جُرَّ من إحدى الطريقين إلى الطريق الآخر بعمل أهله ويموت عليه . والسعادة هي الفوز بالجنة والنجاة من النار ، وقد قال النبي ﷺ : « لن يدخل أحداً عملُه الجنة » ، قالوا : « ولا أنت يا رسول الله ؟ » ، قال : « ولا أنا ، إلا أن يتغمدني الله برحمته » ، فدلَّ ذلك على أن لا نفع لعمل إلا برحمة الله الحاصلة عن مشيئة الله ، أي إرادته .

وقصة العابد لله في الجزيرة ستمائة سنة ، ما عصى الله طرفة عين ، فأوحى الله إلى نبي وقته أن يقول له : « إن ربك يقول لك : إني سأدخلك الجنة برحمتي » ، قال : « بل بعملي » ، قال له ذلك النبي : « بل برحمة الله » ، قال : « بل بعملي » ، فابتلاه الله بوجع عينه حتى أقلقه الوجع ، قال الله لذلك النبي : « قل له : أتشتري عافية عينك بعبادتك ستمائة سنة ؟ » ، فتوقف أولاً ، ثم أزعجه الوجع ، فباع عبادته بعافية عينه فعافاه الله ، فقال له : « قل له : قال ربك إني سأدخلك النار » ، قال : « بل فليدخلني الجنة برحمته » . فتبين بقصته له ولغيره أن ما الفوز والسعادة إلا بمشيئة الله وفضله ورحمته هـ .

قال رضي الله عنه لإنسان يُذكر بالأدب : « **خذ مني : هذه المراتب تعطى الإنسان سواء كانت مراتب الدين أو مراتب الدنيا ، ألا ترى في مراتب أهل الدنيا ساعة يُعزل عنها يكون على أخس حال ، لأن المراتب على أصل الخلقة ، والخلقة من فعل الله ، بخلاف مراتب العمل ، فكل مرتبة تعطي صاحبها ما يناسبها ، سواء كانت المرتبة محمودة أو مذمومة** » .

ثم قال : « **ونحن ما أنكرنا على فلان أنه يشرب الخمر أو يزني ، وإنما قلنا : إنه ما يعرف أمور المرتبة. لأنها تحتاج إلى رصانة ، وتحتاج إلى رزانة ، وتحتاج إلى سر ، وتحتاج إلى معرفة ، والبخت من وراء ذلك، فمن كان له بخت انقلبت سيئاته حسنات ، ومن لا بخت له بالعكس انقلبت حسناته سيئات . وفَتْكُهُ إنما كان في لسانه لا في فعله ، فلو كان فتكه في فعله لتم له أمره ، ولكنه في قوله ، ومن كان فتكه في لسانه فإنه يهتك ولا يفتك ، ولكن وقع ما قدره الله ، والمملكة الدينية والمملكة الدنيوية لا بد لهما من تحفظ ، ومَن تأمل وله علم رأى جميع هذه الأمور قد سُبِق إليها** » هـ .

أقول : قوله : « **فلان** » ، هو سلطان الجهة عمر بن جعفر الكثيري .

قوله : « **تعطي صاحبها ما يناسبها** » ، يعني إن كان في مراتب الدين تعطيه آدابها وما يناسبها، كالورع والتقوى ومراقبة الله تعالى في سره وعلنه ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ومراعاة أعضائه السبعة أن تنفلت في معصية ، بل يفلتها في الطاعة . وبالجملة فيهتم بفعل جميع ما يحبه الله ، ويترك جميع ما يسخطه ، وأن تكون سريرته خيراً من علانيته ، وتكون علانيته صالحة ، وإن كان في مراتب الدنيا فيهتم بما تدعوه إليه المروءة والسماحة وحسن الخلق ، ومخالقة كل أحد بما يناسبه ، مع حرصه على حفظ دينه واتِّباع أوامره وتجنُّب نواهيه .

وقوله : « **على أصل الخلقة** » ، أي طبيعة خلقته ، كالأعضاء ، بخلاف مراتب العمل ، يعني في الآدمي طبائع خَلْقِيَّة - أي جِبِلِّيَّة - إما محمودة كحسن الخلق والتواضع ، أو مذمومة كسوء الخلق والتكبر ، ولا يأثم على الخَلْقي الجِبِلِّي إلا بإجابته الاختيارية الحسية ، وفيه طبائع عملية ، جَرَّه إليها مرتبته ، محمودة أو مذمومة ، أي إن عَمِل المذموم ذُمَّت مرتبتُه وعملُه ، وإن عمل المحمود حُمِدَت مرتبتُه وعملُه .

وقوله : وما أنكرنا على المذكور إلا « **إنه ما يعرف أمور المرتبة** » ، أي ما عليه الملوك من الهيئة والهيبة والفتك بالعمل ، بإذلال العدو وقهره .وأما قوله باللسان افعل واترك ، فهذا لا يفيده في مقصوده .

والرزانة : ثبات العقل ، والرصانة : سداد القول ، والعمل والسر الذي يستعان به على قضاء الحوايج ، وهو الكتمان الذي ورد : « **استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان** » .

قوله : « **ولكن وقع ما قدره الله** » ، أي قدره عليه من إذلاله وتمكين العدو منه ، لعدم امتثاله لما أمره سيدنا به ، وترك ما نهاه عنه . وآخر ذلك أن جاء إلى عمان يطلب عسكراً ، ليُخرِج بهم يافع عن حضرموت فما حَصَّل أحداً ، وجلس يوماً بصحار تحت جدار يستظل به ، فسقط الجدار عليه فطمَّه وأهلكه ، وقبل ذلك جاء لهم بعساكر من القبلة من اليمن ، لا طاقة ليافع بهم ، فتحصنوا منهم بمدينة شبام ، وما خرجوا لهم ، فغلبوهم بالحيلة إذ عجزوا عنهم حتى تفرقوا عنه . وقد آذى المسلمين بالظلم لإطعامهم حتى عجز ، فعجز عن إخراج يافع من حضرموت ، حتى تفرق أهلها عنها من شدة ظلمهم وأذاهم ، وتشتتوا في كل صقع وبلاد . وهم من أول يوم من عاشور سنة ١١١٧ إلى الآن، وهو يوم ٢٧ شوال من سنة ١١٧١ ، وذلك مدة أربع وخمسين سنة تنقص شهرين ويومين ، وهم في هذه المدة كلها يفسدون في حضرموت .

وتقدَّم قوله : « **قد نهيناهم عن تعاطي الربا والمداينات ، وقد وقعوا بسبب ذلك في بلايا ومحن ، ويوشك أن تكون هذه آخرها وأطولها - يعني فتنة يافع - وربما امتدت إلى خروج المهدي** » .

وكان سيدنا بعد ذلك لا يصرِّح لأحد بأمر ولا بنهي ، خوفاً من الخلاف ، ومخالفة أمر الله ورسوله، مع مخالفة ذلك إذا أمر به القطب الداعي إلى الله تتضاعف به العقوبة ، وإذا امتثل تضاعفت به المثوبة ، وقد قال لي يوماً : « **أتحفظ الدعاء الذي بعد سنة العصر ؟** » ، قلت : نعم ، قال : « **كيف هو ؟** » . فقرأته عليه ، فلما أتممته وسمعه ، قال : « **كان** » . ومراده بذلك أن يقول لي استعمله ، فاكتفى بهذه الإشارة عن التصريح بالأمر بالعبارة ، فافهم أيها السامع هذه السياسة العجيبة ، فما يُعرف شأنها إلا منه .

وقوله : « **والبخت من وراء ذلك .. إلخ** » ، يعني بالبخت النصيب للعبد من ربه المكتوب له ، ويسمى الحظ والجد والإستعداد من أي أمر كان ، وفي هذا المعنى أبيات للإمام الشافعي رضي الله عنه، وهي قوله :

لَـوْ أَنَّ بِالحِيَـلِ الغِنَـى لَوَجَدْتَنِـي	بِنُجُـومِ أَفْـلاكِ السَّـمَاءِ تَعَلُّقِـي
لَكِـنَّ مَـنْ رُزِقَ الحِجَا حُـرِمَ الغِنَـى	ضِـدَّانِ مُفْتَرِقَـانِ أَيَّ تَفَـرُّقِ
إِنَّ الـذِي رُزِقَ اليَسَـار فَلَـمْ يُصِبْ	حَمْـداً وَلَا أَجْـراً لَغَـيْرُ مُوَفَّـقِ
وَالجَـدُّ يُـدْنِي كُلَّ شَيءٍ شَاسِـعٍ	وَالجَـدُّ يَفْتَـحُ كُلَّ بَـابٍ مُغْلَـقِ
فَـإِذَا سَـمِعْتَ بِـأَنَّ مَجْدُوداً حَـوَى	عُـوداً فَأَثْمَـرَ فِي يَدَيْـهِ فَحَقِّـقِ
وَإِذَا سَـمِعْتَ بِـأَنَّ مَحْرُومـاً أَتَـى	مَـاءً لِيَشْرَبَـهُ فَغَـاضَ فَصَـدِّقِ

وَأَحَقُّ خَلْقِ اللهِ بِالهَمِّ امْرُؤٌ   ذُو هِمَّةٍ يُبْلَى بِرِزْقٍ ضَيِّقِ
وَمِنَ الدَّلِيلِ على القَضَاءِ وَكَوْنِهِ   بُؤْسُ اللَّبِيبِ وَطِيبُ عَيشِ الأَحْمَقِ

وما أحسن ما قاله الشيخ عبدالغني النابلسي رحمه الله في هذا المعنى :

رُبَّ شَخْصٍ تَقُودُهُ الأَقْدَارُ   لِلْمَعَالي وَمَا لِذَاكَ اخْتِيَارُ
غَافِلٌ وَالسَّعَادَةُ احْتَضَنَتْهُ   وَهوَ مِنْهَا مُسْتَوْحِشٌ نَفَّارُ
يَتَعَاطَى القَبِيحَ عَمداً فَيَلْقَا   هُ جَمِيلاً وَفَلْسُهُ دِينَارُ
كُلَّما قَارَفَ الذُّنُوبَ أَتَتْهُ   تَوْبَةٌ طَهَّرَتْهُ وَاسْتِغْفَارُ
وَعَلَيْهِ إِنْ زَلَّ عَينٌ مِنَ اللَّـ   ـهِ تَقِيهِ وَيَسْتُرُ السَّتَّارُ
فَهوَ بِاللهِ دَائِماً يَتَرَقَّى   لا بِهِ حَيثُ تُشرِقُ الأَنْوَارُ
وَفَتىً كَابَدَ العِبَادَةَ حَتَّى   مِنْهُ قَدْ مَلَّ لَيلُهُ وَالنَّهَارُ
يَتَسَامَى بِالذِّكْرِ وَالفِكْرِ قَصْداً   وَهوَ نَاءٍ وَعَنْهُ شَطَّ المزَارُ
يَفْعَلُ الخيرَ ثُمَّ يَلْقَاهُ شَرًّا   وَإِذَا رَامَ جنَّةً فَهْيَ نَارُ
حِكَمٌ حَارَتِ البَرِيَّةُ فِيها   وَحَقِيقٌ بِأَنَّها تُحْتَارُ
وَعَطَايَا مِنَ المهَيْمِنِ جَلَّتْ   إِنَّهُ اللهُ فَاعِلٌ مُخْتَارُ

ومن معاني قوله : « **المراتب تعطي صاحبها ما يناسبها** » ، قول السيد يوسف الفاسي تلميذ الشيخ أبي بكر بن سالم : « إني حيث قابلت الشيخ محمد البكري ، دخلتني منه هيبة ، لأنه في زي الملوك » . والملوك عليهم هيبة الجبروتية ، للمظهر الذي أقامهم الله فيه ، كما قيل في الإمام مالك بن أنس رحمه الله :

يَدَعُ الكَلَامَ فَلا يُرَاجَعُ هَيْبَةً   وَالسَّائِلُونَ نَوَاكِسُ الأَذْقَانِ
سِيْما الوَقَارِ وَعِزُّ سُلْطَانِ التُّقَى   فَهوَ المهِيبُ وَلَيْسَ ذَا سُلْطَانِ

فكان الشيخ محمد البكري هكذا من الهيبة التي عليه والجلال . وهي الرئاسة الحقيقية التي قال : « **لا اعتراض فيها** » ، وهي بالبخت كما قال : « **والبخت من وراء ذلك ..** » ، إلى آخر المقالة ، ومعناه يكون من كل أمر ما كتبه الله لعبده .

وذُكِر له بعض الأشراف ، وفيه بعض خربطة ، *فقال* : « **هذه الأمور ما تسلك إلا بشيَّك - أي مالك - أو بدينك . إما معك مال يحملك ، وإما أن تكون صاحب دين يحسن بك الظن . وهذا الرجل ما مَرَّ تلك الطريق التي مَرَّ بها إلا باسمنا ، ولا كَلَّمَه الناس إلا لذلك ، والآن إن مَرَّ بها لا يُعرف ولا يكلمه أحد ، وهذه حالة الجنون . وآل باعلوي معروفون في الجهات كلها بالصلاح ، والسِّيَر المحمودة، ومجنونهم صالح ، وما كانوا يعرفون مثل هذه التفتفات التي أهلها يدلهم الشيطان على مواضع الغلط ، ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ الآية ، والحق له صولة ، والباطل له دولة** » .

أقول : أي وصولة الحق دائمة وفي زيادة ، ودولة الباطل مضمحلة زائلة ، كما قد أسمعناك من أحوال أناس على باطل فاضمحلوا وزالوا ، كما قال : « **لم يزل أمرهم يتلاشى** » ، يعني بهم أناس كانوا ينكرون النسب النبوي ، ومرتكبي الباطل .

وذُكِر له بعض السادة بحسن عقيدة ، فتبسم وسكت ساعة ، ثم أنشد متمثلاً هذين البيتين :

لِـكُلٍّ إلى شَـأوِ العـلا حَـرَكَات ... وَلَكِـن عَزِيـزٌ في الرِّجَـالِ ثَبَـات

وهذا البيت :

كُلُّ مَنْ في الوُجُودِ طَالِبُ صَيدٍ ... غَيرَ أَنَّ الشِّبَاكَ مُخْتَلِفَاتُ

وذَكَرَ محبة الناس للبنين وترجيحهم على البنات ، *فقال* : « **هذا من طبع أهل الجاهلية ، والطبائع دائمة على حالها الأول ، فكل أمة طبائع آخرها كطبائع أولها ، وإنما يهوِّنها قوة الإيمان والرياضة** » .

وأكثر الكلام في ذلك ، حتى قال : « **إن بامخرمة قال :** » ، وسقط عليَّ هنا بعض كلام ، لعل معناه ما ذكر من أن طبع الآخرين كطبع الأولين . ثم ذَكَرَ قول بامخرمة :

خَافْ شَيْ لِلْحَنَّاتِ الدَّوِيْلَهْ ... كُلْ من لا يزيلِ المنكرَ اللهْ يزيلَهْ

ثم قال : « **وفي كلامه حِكَم ، ولو هو على هيئة كلام العامة ، فإنه عالم صوفي صاحب رياضة ، ما هو بصوفي جاهل** » هـ .

أقول : فلما إن محبة الدنيا كلما مرَّ الزمان زادت في قلوب الناس ، فيتزايد عمَّال ، وبزيادته في القلوب تنقلب العوائد المتعلقة بالأطماع وتنعكس فتختلف . وكان مثلاً من عوائد أهل الجاهلية ، أنَّ قاصد الحرم لا يُتعرَّض له بسوء ، ولو أنَّ الرجل يطلب قاتل أبيه ، فإذا وجده قاصداً الحرم تركه ولا يكلمه

بأمر يؤذيه قط . فانظر اليوم كيف انعكس الطبع ، وصار إنما طمعهم وضررهم وأذاهم وقصدهم السوء لقاصد الحرام زيادة على غيره ، لما يغلب على ظنهم أنه أقمن بحصول المال عنده أكثر من غيره ، وليس في قلوبهم احترام للحرم ، فصار هذا الطبع من طباع أهل الجاهلية خير من طباع من يخالفه من أهل هذه الأوقات المتأخرة . ولو اختلفوا في الدين يكون أولئك كافرين ، ويكون هؤلاء يدعون كونهم مسلمين ، كما تقدم من قول سيدنا ما معناه : « **إذا فعل المسلم ما يفعل الكافر من الخصال المذمومة ، كانوا في الذم بها سواء ، وإن اختلف حالهم** » ، ويفهم من هذا أن لو فعل المسلم أردى من فعل الكافر، كهذا الحال المذكور ، فالمسلم يذم بها بحسبها لكونها مذمومة ، والكافر ممدوح بها بحسبها لكونها محمودة .

وزار التربة ليلة الثلاثاء ٢١ ربيع الأول ١١٢٧ ، فلما انصرف من الزيارة بعد خروجه من التربة ، ذَكَرَ الصالحين في الأزمنة المتقدِّمة وظهورهم فيها ، وفي هذا الزمان وخفاهم فيه ، *فقال* : « **كان الزمان صالحاً وبضاعتهم مطلوبة فظهروا لذلك ، وأما اليوم فالزمان فاسد وبضاعتهم مرغوب عنها ، فلذلك لم يظهروا . ألا ترى لو أن رجلاً معه بضاعة لا يطلبها منه أحد ، فإنه لا يُظهِرها ولا يذكرها لأحد ، ومن معه مسك أيروح يجلبه للزبالة ، ولو أن رجلاً انفرد بطلب شيء لم يطلبه أحد غيره لم يجده ، ولو كان له طالب غيره ، وللناس فيه رغبة لَوَجَدَهُ** » .

قال : « **من يحب الطاعة فالله يحبه ، ومن يبغضها ويستثقل منها فالله يبغضه ، ومن يحب المعاصي فالشيطان يحبه . والشيطان لا يعبأ بهؤلاء ولا يهتم بهم ، لأنهم في حوزته وتحت يده ، وإنما يهمه أمر المتمسكين الملازمين للطاعة ، وله حبال طويلة وحبال قصيرة ، فمن كان في حباله الطويلة فإنه بعيد جدًّا ، كالذي يميل في مسيره عن الطريق مَيْلاً كثيراً ، حتى لا يراها ، فما معه ممن يدعو إليها إلا السماع من غير ما يعلم أين هو ، وأما من هو في حباله القصيرة ، فإنه قريب عندك ، بيدك تأخذه من قرب. وله معاليق يصيد بها العُبَّاد ، حتى إن يحيى بن زكريا رآها ، فقال له : هل لي فيها شيء ؟ فقال : نعم ، شبعتَ ليلة من الطعام فَثبَّطناك عن قيام تلك الليلة . فقال : لا جرم ، لا شَبِعتُ بعدها أبداً** » .

وذَكَرَ الإلباس والتلقين ، *فقال* : « **إن هذه الأمور لا تتكرر ، ولا هي عادة السادات تَكْريرها ، لأنها إذا كُرِّرَت - أو قال : كثرت - هانت ، ولهذا لا يَنْبغي أن يأكل مع الشَّيخ ، لئلا يرى بشريَّته ، بل يَنْبغي أن يَعْرف - أي يعتقد - خصوصيته ، ولا تُعْرف إلاَّ بالإيمان . وهذه الأشياء قد دَرَسَت ، وإنما نحن جَدَّدناها ، ولا يَنْبغي أن تُعْرف إلا مِنَّا وقد قالوا : أقلُّ من ينتفع بالإنسان أهله ومخالطوه ، لعدم احترامهم له بسبب المخالطة** » هـ .

أقول : هذا في من لم يكن له منه نصيب ، وإلا فهم أحق بالإنتفاع به من غيرهم ، كما تقدم نحو معنى ذلك . فقال له رجلٌ : « كيف لنا بالقرب منكم ؟ عسى يحصل الإجتماع بكم عن قريب » ، *فقال* : « **إن أردتَ الإنتفاع فتقرَّب بقلبك ، بأن تعتقد وتجتهد في الاقتداء** - أي بالظاهر بالأعمال ، وبالباطن بالأخلاق - **وترى أناساً تحت الرِجْل ما انتفعوا** - أي ما اقتدوا كذلك ، لأن سيرته لا يقدر عليها غيره- **وقد رأى أبو يزيد رجلاً يمشي خلفه ويضع رجله على دحقته ، يريد أن يسير على سيره ، وطلب هذا أو غيره منه أن يلبسه من ملبوسه ، فقال : لو لبستَ جلدي ما نفعك حتى تسير بسيرتي** » .

وفي مجلس آخر ، *قال* : « **إنه قال له : لو سلختُ لك جلدي ولبستَه ، ما نفعك حتى تسير بسيرتي التي سرتُ عليها إلى الله** » هـ .

أقول : معناه أي تقتدي بي في سيرتي من أفعالي وأقوالي وأخلاقي ، وهذه هي التي وصلتُ بها إلى الله . وفي هذا دليل على أن ما الانتفاع إلا بالاقتداء بالشيخ في ما ذكر ، والاجتهاد في ذلك ، بأن يتقيد في هذه الأمور على قانون الحق ، ولا يعرف ذلك بالأوصاف التي تذكر عن الأكابر ، بل حتى يرى واحداً منهم فيتقيد به ويشاهده بعينه وينظره ويعرف سيرته ويتحققها ويسير عليها ، فحينئذ يحصل له الإنتفاع بالتقيد بالسيرة النبوية ، على ما رأى الشيخ متقيداً به ، فليس الخبر كالمعاينة ، وفي هذا الإجتهاد والمحصول ، وكلٌّ يحصل له من ذلك على قدر همته وتوفيقه وما قُسِمَ له . وما هو إلا بالبخت والنصيب ، والبخت من وراء ذلك كما قال ، فيجري أمر البخت في كل أمر يرجى ، ويخشى منه في كل أمر يخاف ، ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ .

وتقدم قوله : « **إنما المشيخة بالنسبة ، لا بالإجتماع إتفاقاً** » ، أي اتفقوا على أنه لا نسبة بين المريد وشيخه إلا باقتدائه به ، لا باجتماعه به من غير اقتداء . فيدخل فيه من اقتدى بشيخه وإن لم يره ، كهو مع الشيخ محمد بن علوي ، كما تقدم الكلام في ذلك ، ومثله كثير من الأكابر ، اقتدوا بمشايخهم وانتفعوا بهم ولا رأوهم ، كالشيخ عبدالقادر بن شيخ العيدروس ، إقتدى وانتفع بشيخه الشيخ السيد حاتم بن أحمد الأهدل وما رآه ، وتقدم الكلام فيه أيضاً . ويخرج بهذا من خالطهم ولم يقتد بهم ، كما تقدم قريباً قوله : « **وترى أناساً تحت الرجل ما انتفعوا** » ، أي ما اقتدوا به على الوجه المذكور .

قال رضي الله عنه : « **والإلباس إنما يتكرر إذا حضر واحد لم يتقدم له إلباس إلا حينئذ ، فيحصل معه المشاركة للباقين ، وإن تقدم لهم ذلك ، أو رجل ختم كتاباً فيُلبس أيضاً ويُلَقَّن ، وإن كان قد تقدم له ذلك ، ويكون معه للباقين كذلك** » .

أي وإن تقدم لهم ذلك من الإلباس والتلقين . أي كما وقع منه ذلك مراراً ، منها مَرَّةً وقد ختم السيد أحمد بن زين الحبشي كتاب « صحيح البخاري » ، فألبسه وألبس كل من حضر من العيال وغيرهم تبعاً له ، وكان منهم من قد لبس قبل ذلك .

وقال حينئذ : « **وهذه الخرقة ، خرقة أبي مدين ، وخرقةُ الشيخ عبدالقادر ألطف منها بقليل ، والإلباس رابطة بين اللابس والمُلبِس . قال الشيخ عبدالله العيدروس ، أُذِنَ لي في التحكيم لربع أهل الدنيا . ولم ندر ، أهو حكم للربع أم لا ؟** » .

ومرة في مجلس آخر ، *قال* : « **وما حَكَّم ربع أهل الدنيا ؟ وإنما أُذِن له ، لأنه جاء في غريب الحديث، أن سيدنا علي أمهر فاطمة ربع أهل الدنيا** » .

أقول : قوله : « **وهذه الخرقة ، خرقة أبي مدين** » ، يعني القبع .

وكان سيدنا لمَّا ألبس الحاضرين إذ ذاك ، وضعه على رأسه أولاً ، ثم وضعه على رأس السيد أحمد، ثم وضعه على رأسه ، ثم وضعه على رأس أحد العيال ، ثم وضعه على رأسه ، وهكذا إلى آخرهم . وهكذا عادته على هذا عند إلباس من ألبسه ، حتى إنه لما أراد أن يلبسني قميصه الذي هو آخر إلباساته لي ، وذلك في مرضه الذي توفي فيه ، أدخل رأسه فيه من ذيله ، إلى أن أدخله في جيبه ثم رده وألبسنيه ، وقال : « **ألبسناك ، ألبسناك ، ألبسناك ، وعادنا نلبسك** » ، يعني وبعد ذلك سنلبسك ، وأرجو أن يكون ذلك في الجنة ، ليتم له وعده لي بذلك .

وقوله : « **ألطف منها بقليل** » ، أي إنها كوفية توضع على الرأس ، مثل القبع وهي ألطف من القبع، وكان سيدنا لا يتقيد إلباسه بالقبع ولا بالكوفية ، بل بهما وبغيرهما ، من قميص وعباءة وشقة وملحفة وغير ذلك ، وكل هذه الأنواع وغيرها وقعت لنا منه بفضل الله ، حتى بُرْنُس المغاربة .

وقوله : « **ربع أهل الدنيا** » ، قد تكرر منه هذا القول مراراً متعددة في مجالس كثيرة ، وقدَّمنا ذِكْره مراراً بحسب تكرره في المجالس ، وما ظهر لي معنى المناسبة بين المهر والتحكيم ، والله أعلم بذلك ، وما جَسُرت أن أسأله عن ذلك .

ومرَّ يوماً في القراءة في كتاب ذم الدنيا من الإحياء ، وذلك في درس عصر كل يوم ، قال فيه : « **فإن قلتَ : أيما أفضل ، السعي في تحصيل المال وإنفاقه في الخير ، أو ترك ذلك والإشتغال بالذِّكر ؟** »، ثم ذَكَر المصنف : « **أن كل واحد من هذين القولين رجَّحَه جماعة من السلف** » ، *فقال* سيدنا عند ذلك: « **فإن حصل المال من غير سببٍ ولا تعبٍ كَوَرثٍ ، فما الأفضل ؟ فنقول : الأفضل أن يأخذه إن وثق**

بنفسه ظاهراً ، ويتصدق به سراً ، ولا يتمتع به ، بل يأخذ منه ما يضطر إليه ويقدمه للآخرة ، لأنه إذا كانوا أرادوا أن يعطوه في الجنة بيوتاً من ذهب وفضة وجواهر ، وترابها مسك ، وهو في الدنيا لعله ما رأى المسك ولا الذهب ولا الفضة ولا الجواهر بعينه ، فماذا يريد بمتاع قليل ؟ فليقدِّمْه إلى ما هو خير له » هـ .

أقول : وقد رأيت مرة في المنام : كأني في جمع ، وسيدنا الحبيب عبدالله نفع الله به حاضر ، وفي جنبي رجل - أحمد بن رزق - من طلاب الدنيا المتسببين في حصولها وكأني معه نتجادل في أيها الأفضل من الأمرين ، عدم المال مع عدم الصدقة والمعروف ، أو وجود المال مع الصدقة والمعروف ؟ فيقول ذلك الرجل : « إذا كان عندي مال أفعل به خيراً ، من بناء رباطات ومدارس ومساجد وغير ذلك ، خيرٌ من أن أبقى لا أقدر على شيء ، ولا أفعل من ذلك شيئاً » . فقلت له : سلامتك من الدنيا ، ولو ما فعلت من ذلك شيئاً أفضل . فلم يوافق ، فقلت في نفسي : فلم لا أسأل الحبيب ونعمل على قوله ؟

فسألته ، وقلت : يا سيدي ، أيُّ الحالَيْن أفضل ، أن يكون معي مال فأتصدق منه وأبني رباطات ومساجد ومدارس ونحو ذلك ، أم أبقى خلياً من المال لا أقدر على فعل شيء ؟ فقال : « **أتريد أن تفعل تلك الأشياء لترائي بها ، ولِيُقَال ؟** » ، فقلت : لا ، إنما أفعلها خالصة لوجه الله ، فقال : « **ما فعله الله بك ، وأجراه عليك من تلك الحالتين هو الأفضل** » ، وهو جواب عجيب .

وعند حال الضرورة ، فيُعذر الإنسان بحسبها ، حتى إنه يُعذر في السؤال ، وهو كما ورد من الفواحش كالزنا والسرقة ، ما أبيح منها سواه عند الضرورة ، ولأن آخذ بتلك الإباحة عند الضرورة وأعمل بها ، أحب إلي من أن أبيع عباداتي وديني بمعاشي ، بأن أبيع صلاتي التي هي من جملة أحب ما تقربت به إلى ربي ، كما جاء عنه سبحانه أنه قال في الحديث القدسي : « **ما تَقَرَّبَ إليَّ عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه** » . فانظر اليوم انعكاس الزمان ، كيف صار المتشبهة ، الذين يُظن بهم أنهم أقمن بالإحتياط في الدين من غيرهم ، كيف صاروا يبيعون عباداتهم التي هي أحب ما يتقربون به إلى ربهم ويتعيشون بها ، فيصلي أحدهم الصلوات الخمس بأجرة يأخذها من الخلق في الدنيا ، ويحج بالأجرة ، ويقرأ كتاب الله طول السنة بتافهٍ من التمر والأرز ونحو ذلك .

والله إن هذه من البدع المنكرة الحادثة في الدين ، وإن كلمة سيدنا عبدالله فيهم ، حيث قال : « **في هذا الزمان انعكست الأمور عن أوضاعها ، ورجعت إلى أضدادها فينبغي أن يُسمى الزمان مخيب الظنون** » ، وسيأتي قريباً : « **الزمان معكوس ، فجاء أهله على طبيعته** » .

وهم مع أخذهم طمع الدنيا على الدين ، يغترون بغرور الشيطان ، وتمنيهم نفوسهم الخبيثة أن أجرهم على عباداتهم التي عملوها بنية طمع الدنيا ، وأخذوها عليها في الدنيا أن ثوابها الموعود عليها

في الآخرة ، بشرط الإخلاص أنه حاصل لهم ، وهيهات ، ما وعد الله في شرعه أنه يعطي على عمل واحدٍ أَجْرَيْن ، أجراً في الدنيا وأجراً في الآخرة ، ويحتجون بكرم الله وقدرته أنه قادر على أن يعطيهم ذلك ، وأن فضله يسع ذلك . وحاشا أن يخلف شَرْطَهُ الذي شَرَطَه على ما وعد به على العبادات ، لأجل أماني نفوسهم الخبيثة، مع ما غرهم به الشيطان العدو بمتابعته ، وقد أَمَرَهُم ربُّهم أن يتخذوه عدواً بمخالفته ، فاتخذوه صديقاً بموافقته ، وليت شعري حيث قال سبحانه : ﴿ وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾، وهي النية الخالصة، ماذا يناله منهم بهذه النيات الفاسدة . وما ذكرت أنه ورد أن السؤال من الفواحش ، وأنه أُبيح عند الضرورة ، وأن اتباع إباحته أولى للإنسان من بيع عبادته ، ومع ذلك - أي إباحته - لأجل ذلك - أي كونه من الفواحش - رَغَّب الشرعُ كثيراً في مجانبته وتركه ، فقال ﷺ : « من يضمن لي أن لا يسأل أحداً شيئاً أضمن له بالجنة »، فكان للذين سمعوه إذا سقط سوط أحدهم وهو راكب ، نزل وأخذه ولا يسأل أحداً يناوله إياه ، محافظة على التعفف عن السؤال .

وكان من جملة من سمعه سيدنا عمر ، فاتفق أن جاء النبي ﷺ شيء من المال ، فأرسل لكل واحد من أصحابه منه بسهم ، وأرسل من جملتهم لسيدنا عمر بسهم ، فَرَدَّه ، فأخذه النبي ﷺ بيده وسار به إليه ، وقال له : « لم رددت شيئاً بعثتُ به إليك ؟ » ، فقال : « لأنك رَغَّبتنا أن لا نسأل أحداً شيئاً » ، قال : « ذاك إذا جاءك عن سؤال أو استشراف نفس ، أما إذا جاءك من غير سؤال ولا استشراف نفسٍ فردَدْتَه ، فإنما تردُّه على الله » ، وقد كان السلف الصالح يردون ما استشرفت إليه نفوسهم ، وقال ﷺ : « من فتح على نفسه باب مسألة ، فتح الله عليه سبعين باباً من الفقر » ، وورد : « ثلاثة ذُلُّهم ذل ، منها السؤال ، ولو أين الطريق»، أي ذُلُّهم شديد هـ .

ومرَّ في الدرس حديث : « إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده » ، *فقال* : « **إذا كان واجداً ، فلا ينبغي أن يُقَتِّرَ على نفسه ، إلا إن كان بِنيَّة زهدٍ ، وكان من أهله** » .

وفي الحديث : « إن الله يحب أهل البيت الخصيب » ، *قال* : « **أي في المعيشة ، إذا كان هناك شيء بغير إسراف** » .

وفي حديث : « **هل بقي من بر الوالدين شيء ؟** » ، فقال ﷺ : « **نعم ، أن تَصِل الرحم التي لا توصَل إلا بها ، وأن تَصِلَ أهلَ وُدِّ أبيك** » ، *قال* : « **هذا إن عهد إليه في شيء من ذلك** » .

أقول : وقول الحديث : « **لا توصل إلا بها** » ، **أي أقاربك من جهة أبيك ومن جهة أمك** .

وفي حديث : « إن الله يلوم على العجز ، ولكن عليك بالكيس » ، **قال** : « **أي الحذق في الأمور ، بأن يأخذ فيها كما ينبغي ، ولا يجلس ويَتَسَهَّن - أي يترجى - من الناس . وهذا في أمور الدين ، وأما في أمور الدنيا فالعجز أحسن** » هـ .

أقول : أي إن لم يكن محذور .

وفي حديث النهي عن الحلف بالآباء ، **قال** : « **أي من ليس فيه صلاح ، فإن كان فيه صلاح فإنما هو حلف بالله ، إذ لا ينبغي أن يحلف به تعالى كل حين ، فيبتذل الاسم الكريم . وفي الغالب إنك لا ترى من يحلف بأحد من آبائه ، إلا إن كان فيه صلاح ، إلا إن كان أحد من النساء . لو حلف حالف بما كان يحلف به النبي ﷺ مثل : والذي بعثني بالحق ، فيقول : والذي بعث محمداً بالحق . فيَحْسُن ، إذ يحصل به التعظيم له عليه الصلاة والسلام ، والتبرك بذكره ، والسلامة من اليمين ومن خطر الحلف بالآباء** » هـ .

أقول : قوله : « **فإنما هو حلف بالله** » ، في هذا توسعة من توسعات اللغة العربية كما في حديث : « لا تسبوا الدهر ، فإنما الدهر الله » ، أي فعل الله . إذ الدهر هو الزمان ، الليل والنهار ، وهو خلق الله وفعله ، والصلاح أيضاً خلق الله وفعله ، يجعله الله في من أَحَبَّ من عباده ، فالحالف بأحدٍ بسبب الصلاح حالفٌ بوصف الله ، أي بقدرته وإرادته .

وفي حديث : « لا أجمع على عبدي خوفَيْن ولا أَمْنَيْن ، فإن هو خافني في الدنيا أَمَّنْتُه يوم القيامة، وإن هو أَمِنَنِي في الدنيا أَخَفْتُه يوم القيامة » ، **قال** : « **أما خوفه في الدنيا ، فبأن يجتنب ما نُهِيَ عنه من حرام ومكروه وفضول ونحو ذلك ، وأَمْنُه بالغفلة عن الله وتضييع ما ذكر ، ويتناول كل ما يشتهيه ، ويقول كل ما أراد ولا يبالي ، ولا يمنع نفسه مما يُذَم** » ، أي من قول أو فعل .

وتكلم يوماً بكلام كثير ، وما أمكن حفظه ، فمن جملة كلامه أن ذكر العلم والمال ، **فقال** : « **العلم الظاهر هو دَرْبُك الذي تسير عليه ، لا بد لك منه ، فإذا صَلَّيْتَ مثلاً على ما سمعت** - أي علمت - **ودُمْتَ على ذلك رَسَخ ، وبعد رسوخ العمل تظهر ثمرته** - أي فائدته ، يعني إذا دام عليه في الدنيا ثبت له جزاؤه في الآخرة ، والرسوخ الدوام - **وأما المال ، فإن المال الحرام يروح في الحرام ، والشبهة يروح في الشبهة ، وذلك أكثر ما تروح فيه أموال أهل الزمان ، وهو دليل على أصله . فترى أحدهم يُخْرِج في**

هوى نفسه أموالاً غلط ، من غير طرف ، ومن غير حد ، وإذا جئنا إلى فعل الخير لحقنا ساقيته يابسة ، وفي الحقيقة هو الدائم ، وذاك هو الفائت » .

وذَكَر الشُّحَّ المطاع ، والهوى المتَّبَع ، والإستغناء بالرأي ، وقد مرَّ الثلاثة في الحديث وقت الدرس، *فقال* : **« قد يكون في الإنسان الشح ، ولكن لا يضره إلا إن أطاعه ، بأن أطاعه في ترك واجب كالزكاة، أو فعل حرام كأخذ مال حرام ، فلا شك أن ذلك يضره ، والشح هو الذي جَرَّه إلى ذلك . كذلك الهوى، كلٌ فيه هوى ، لأنه من طبع النفس ، فإن اتَّبَعَه حتى وقع في حرام مما تدعوه إليه نفسُه ، أو ترك ما يَلزمه ، فلا شك أن ذلك مما يهلك الإنسان . والإستغناء بالرأي ، لكونه يمنعه من أن يستشير من هو أعرف منه ، فيقع هو في المحذور » هـ .**

أقول : كلامه هذا يشير إلى القاعدة المطَّرِدَة ، من أن الطبائع الخَلْقِيَّة في الآدمي لا لوم ولا إثم عليه فيها ، لأنها خَلْقٌ من خلق الله خَلَقَها فيه ، لا مدخل له فيها ، كأعضائه الحسية ، ولكن لها فيه دواعي اختيارية محرمة عليه يأثم بتعاطيها . وقد أشار إلى ذلك الإمام الغزالي رحمه الله ، كالحسد والكِبْر والعُجُب وغيرها ، فإن أجاب الحسد مثلاً إلى ما يدعو إليه ، من السعي في إزالة النعمة عن المحسود ، وفعل ما يضره حَرُمَ عليه وأثم ، ولو لم يفعل ما يدعوه إليه لم يأثم . وكذلك إذا أجاب الكِبْر إلى التكبر على عباد الله والترفع عليهم ، واعتقاده أنه خير منهم ، وإذا لم يفعل ذلك لم يضره ، وإذا فعل ما يقتضيه العُجُب من استعظام طاعاته والدعوى إليها ، فكل ذلك حرام يضره .

ولذلك أدوية يعرفها المخلصون الصادقون في عبادة الله ، من المحبة لأخيه المؤمن ما يحب لنفسه، والتواضع ، ورؤية المِنَّة لله ، وكذلك يجري في أمثالها ، كما جرى في الحديث المشار إليه من الثلاثة المذكورة ، كما فَصَّلَها سيدنا في قوله المتقدم .

والحديث من رواية سيدنا أبي بكر رضي الله عنه ، كما تقدم فيما سبق من قوله : « يا أيها الناس، إنكم تأولون هذه الآية بغير تأويلها : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر ، أو ليوشكن الله أن يأخذكم بعذابه ، فإذا رأيتم شُحًّا مُطاعاً وهوى متبعاً وإعجاب المرء برأيه ، فامرئ عليه بخويصة نفسه » ، أو كما قال .

ثم قال سيدنا بعدما سمعه : « وهو وقتنا هذا » هـ .

وقال لرجل يأمره بالحج ، وذكر حديث : « إنما الأعمال بالنيات »، *ثم قال* : **« الإنسان ينوي**

ويتحرك ، ويتم الله ما أراد ، فقد تُوافِق الحركة القضاء والقدر ، فإن وافقتها تم العمل ، وإن لم توافق ذلك لم يتم العمل ، ولكن يبقى الإنسان على ما نوى من خير وشر » .

قال : « الزمان معكوس ، فجاء أهله على طبيعته . وقد قال الشيخ عبدالرحمن بن علي في زمانه : يا ابن الفقيه هذا زمان معكوس . فإن كان ذلك الزمان معكوساً ومنكوساً ، فاليوم قد زاد الإنعكاس والإنتكاس » .

قال : « السر في السر ، فإذا أتى المريد بالإستعداد ، فما على الأستاذ إلا أن يورِّي المصباح ، وإذا تنورت النفس صار الليل نهاراً ، وإذا أظلمت صار النهار ليلاً » هـ .

أقول : يعني العمدة على صلاح السر ، الذي هو القلب ، فإذا صلح صلحت أحوال الإنسان ، كما في حديث : « إن في الجسد لمضغة .. إلخ » ، فإذا صلح صارت دواعيه - في الجسد المجبول على طاعته - كلها في مراضي الله ، وهو النهار . وإذا فسد كان الأمر بالعكس ، وهو الليل . شبه الحالين بضوء النهار وظلام الليل ، وهو معنى قولهم : صار النحاس ذهباً إبريزاً ، إشارة إلى الفرق بين الحالتين في الكمال والنقصان .

والإستعداد عبارة عن الحظ - أي النصيب المكتوب - مع حضور الوقت المؤقت ، فإذا قابل الأستاذ الموَقَّف حصوله على يده ؛ انقدح فيه ، وعَلق كما يعلق المصباح ، كما ذكرنا من قصة ذلك المُقْعَد الذي جاء يزحف من بلاده مدة ثلاث سنين ، قاصداً للشيخ علي بن أبي بكر ، فالتقاه وهو واقف ، وفي لحظة رجع ، وقد اطلع على دخول الشيخ علي في مقام القطبية قبل وصوله إليه بثلاثة أيام ، فاعرف أنه من الكُمَّل الذين يكفيهم النظرة في لحظة .

ومراد سيدنا بالمصباح : القلب ، وإيراه : أن يقذف فيه الحق الذي ينوره ، فيصيِّر حينئذ الدواعي المذمومة التي تُسمَّى النفس دواعي محمودة تُسمَّى القلب ، وهما الليل والنهار هـ .

قال : « في القرآن غُنْيَة وكفاية عن كل شيء ، وإنما عليه إذا أشكلت عليه كلمة أن يسأل عنها فقط، لأن فيه موجود : التواتر والصحة والإعجاز ، وفي غيره ربما يقال : هل صح أم لا ؟ » .

قال : « قلَّ ما نقل عن النبي ﷺ قراءة القرآن إلا في الصلاة » .

قال : « ما كان من أمور الدنيا لا تتعلق به ، واتركه لغيرك من خادم ونحوه ، واشتغِلْ أنتَ بأمور الدين والأمور الإلهية ، وأمور السماء ملكوتية ، وإن كان فيها مَلَك ، لأنها من قول كن ، وإن كان فيها مثل أنهار وغيرها من أمور المُلْك ، وأما هذه الأرض العليا فهي مُلْك ، وما فيها كله مُلْكٌ ، من الحرث

وغيره ، وفيها الإحتياج إلى كثرة الأكل والمعاش ، وما أسفل منها لا يحتاجون إلا إلى قليل كالجن » هـ .

أقول : ومراده بأمور الدنيا - كما بيَّنه في مجلس آخر - كخدمة البيت من كَنْسٍ وطبخٍ وغسلِ ثوبٍ، ونحو ذلك من حوائج البيت . يعني اتركه للخادم يفعله ، لئلا يشغلك ذلك عن الإشتغال بالعبادة ، فاشتغل أنت بعبادتك وما ينفعك في آخرتك ، ودع ذلك على غيرك .

وعالم الملك : هو عالم الشهادة ، وهو ما يُشاهَد بالبصر ويُدرَك بالحواس . وعالم الملكوت : هو عالم الغيب ، وهو ما غاب عن البصر وعن الإدراك بالحواس ويُدرَك بالبصيرة هـ .

قال رضي الله عنه : « ما يجمِّل أحداً ويستُره في هذا الزمان إلا الصبر ، وفي الحديث : وفي الصبر على ما تكره خير كثير . وكم من الضرر في فلتات اللسان ، والرجل العاقل هو الذي يَسَعْ ، وهو الذي يصبر، وأما النساء فلا يحتملن ذلك ، وبين عقولهن وألسنتهن برزخ » هـ .

أقول : أي حاجز يحول بين عقولهن وألسنتهن ، فلذلك قَلَّ ما ينطقن بما تقتضيه العقول .

ومرة قال : « ما يستر الإنسان إلا العافية ، والعافية هي الستر للإنسان وعليها الـمُعَوَّل في طلب الدين والدنيا » .

قال رضي الله عنه : « اللسان لها طغيان كطغيان الميزان ، من غير أن يشعر الإنسان ،كرجل يظن أنه يملك لسانه أن يتعدى إلى المكروه ، فتكلم بما يحسُن ، فلم يشعر إلا وقد تكلم بكلمة تضر ولا تنفع . وكذلك من يظن أن في نفسه سماحة ، بحيث لا يبالي بما نقص مما يوزن له من الحق ، فإذا حضر الوزن تمنى في نفسه أن يزيد الذي له على الآخر ، وربما فرح بغبار يثقل مقابله . ليس هذا من طبع المؤمن ، بل المؤمن إنما يحب أن ينقص حقه قليلاً ، فإنْ ذلك احتياط له وسلامة من التطفيف المحذور ، وصدقة له يحتسبها في موازين حسناته » هـ .

أقول : ارْعِ بالك أيها السامع هذه الدقائق الغريبة واعمل بها ، فإنَّ الله سبحانه ما ألقاها في قلبه وأجرى بها لسانه إلا دعوة للخلق من حضيض النقصان ، إلى يفاع الكمال ، حيث نصبه داعياً إلى الله ، يدعو عباده إلى بابه ، ويقودهم إلى جنابه ، ثم يوفق الله من شاء ، فمن فهم كلامه وعمل به ودعا إليه ، سعد في الدنيا والآخرة ، وصار نائباً عنه ومبلِّغاً إليهم ما أمَّنَهُ .

وكنت ليلة في مجلس الراتب بحضرة سيدنا ، وأسمعه يتكلم مع السيد سالم بن عمر بن الشيخ أبي بكر بن سالم ، ثم بعد القيام من الراتب ودخول سيدنا إلى الدار ، قال لي السيد سالم المذكور : « كان كلامي مع الحبيب ، أني قلت لسيدي الحبيب رضي الله عنه : أخبروني بإسنادكم في الخرقة » ، *فقال* : **« إذا قدك تسير على الماء أخبرناك بذلك »** ، فقلت : « ومتى يكون ذلك ؟ » ، *فقال* : **« إذا انتَفَت عنك الـحُجُب »** ، قلت : « فكيف ذلك ؟ » ، *فقال* : **« لو مر عليك رجل ولم يصافحك ، أَتَحْنَقْ ؟ »** ، أي تغضب . قلت : « لا » ، *قال* : **« فإن شتمك أحد وأنت تسمع ، هل يقع في خاطرك ؟ »** ، فقلت : « لا » ، *قال* : **« فلو ضاع عليك شيء من الدنيا له قدر ، أَكُنتَ تشتغل بسببه ؟ »** ، فقلت : « لا » ، فقال رضي الله عنه : **« إن صدقتَ فقد قَرُبْتَ »** .

وكان ذلك وقت الراتب ، ليلة الإثنين ٢٢ ذي الحجة سنة ١١٢٥ ، وكنت أسمع كلامهما ولم أعه، حتى أخبرني بذلك . وكان السيد سالم هذا سليم القلب صافي الذهن ، يمكن أنه صَدَقَ في الأحوال الثلاثة هـ .

قال رضي الله عنه : **« ما تَأَسَّفَ العرب ما تأَسَّفُوا على شيئين : فَوْت الشباب ، وفُرْقة الأحباب »** ، ثم تمثل بهذين البيتين :

شَيْئَانِ لَوْ بَكَتِ الدِّمَاءَ عَلَيْهِما ... عَيْنَـايَ حَتَّـى تَأْذَنَـا بِذَهَـابِ
لم يَبْلُغَـا المِعْشَـارَ مِنْ حَقَّيْهِـما ... فَقْدُ الشَّبَابِ وَفُرْقَةُ الأَحْبَابِ

قال : **« إذا وقع للنفوس التي لم يكن لها رياضة مظهر ظهرت »** هـ .

أقول : يعني إذا حصل لها بين الناس ذِكر وصيت ، وقبول عند الناس ، انتفخت كِبْراً وعُجباً ورياء ودعاوي كذباً وزوراً ، كما ترى من غرباء كثيراً ، حيث لم يُعرفوا ، طالت دعاويهم وعرضت ، وادَّعَوا مشاركة الله في ملكه ، وزعموا بأنهم يحيون ويُميتون ، كما ادَّعى النمرود ، ودعاويهم تُبَيِّن سخافة عقولهم ، وتدل على خُلُوِّهم من الدين ، وربما اغتر بهم بعض الناس وصدَّقوهم في دعواهم ، وادَّعوا لهم ما ادَّعوا لأنفسهم ، وتَمَثَّلوا بين أيديهم قياماً ، لِظَنِّهِم فيهم ما ادعوه ، وازدادوا بذلك كِبْراً وعُجباً، ثم بعد ذلك فضحهم الله وأخزاهم بين الناس وأظهر كذبهم . وكل ذلك يُبَيِّن صدق قول سيدنا وصحته وأنه واقع ، ولقد رأينا ذلك منهم عياناً ، وكلهم غرباء مستشرفون للجاه والمال هـ .

ولما خرج لصلاة الظهر ، يوم الخميس ٣ شهر رمضان سنة ١١٢٨ ، جلس في الضيقة كما هي عادته ، وسكت ساعة ، ثم قال ترغيباً في الإجتهاد في العبادة في هذا الشهر الشريف ، كما ذلك دأبه ومقامه ، وهو مقام دعوة الخلق إلى الله ، *فقال* حثًّا على ذلك : « **النفوس في هذا الزمان مثل غرماء السوء، خذ منها ما جاء ، ولكنك اَخْلِص** » .

فقلت : إن الغرماء قد ينقادون بالبينة وبأمور أخرى ، وأما النفس فلا تكاد تنقاد ، *قال* : « **نعم ، لأنها عدو محبوب ، فإذا كان غريمك ابنك الذي هو أحب الناس إليك ، أو أحد من أهل بيتك ، فماذا يكون الحال وأنت تريد منها لها ؟ وهي مع ذلك تنفر** » .

فقلت له : وهذه الأعمال القليلة الحاصلة منها ، الله أعلم ماذا يكون الحال فيها وقرائن الأحوال تدل على أنها لا شيء ، *فقال رضي الله عنه* : « **الأعمال حيث وُجِّهَتْ ، فإذا حذفتَ بحصاة إلى جهة المغرب ما ترجع إلى جهة المشرق** » هـ .

أقول : يشير إلى أن الإنسان ينبغي له أن يجاهد نفسه في هذا الشهر الشريف ، على كثرة العمل والإجتهاد في العبادة والعمل الصالح المرضي عند الله سبحانه ، فإن حصل له منها الكثير فهو المراد، وإن لم يحصل له منها بعد المعالجة إلا القليل ، ولو معشار ما أردت منها ، فاستغنمه منها كما يستغنم من الغريم السوء المماطل من الألف الدرهم عشرة دراهم ، فذاك خير من ما شيء . فالمراد أنك تنظر إن انقادت للعمل من غير معالجة ، فحُثَّها على الكثرة ما أمكنها ، وإن لم يحصل منها ذلك إلا بالعلاج والمجاهدة ، فقم عليها في ذلك ، ثم إن لم يحصل منها إلا عشر العشر - الذي هو المعشار - فاغْتَنِمْهُ وَاخْلِصْ فيه ، لئلا يضيع تعبك معها في ذلك باطلاً .

وقوله : « **الأعمال حيث وُجِّهَتْ .. إلخ** » ، يعني إنما الأعمال بحسب النيات ، فإذا نَوَيْتَ خيراً لا ينقلب شراً ، وإن نَوَيْتَ شراً لا ينقلب خيراً . وهذا معنى قوله : « **فإذا حذفت بحصاة إلى جهة المغرب، ما ترجع إلى جهة المشرق** » ، وعكسه فيهما هـ .

قال رضي الله عنه : « **ثلاثة أنا متحسف عليها ، وما حصلت لنا إلا إن كان بالنية : التشفيع في صلاة التراويح ، وصلاة الصبح بوضوء العشاء ، وتخلي العشر الأخيرة من رمضان** » .

قلت : قد فعلتوها فيما مضى وقت نشاطكم ، فيكفيكم ذلك من فعلها الآن ، *قال* : « **نعم ، لكن ذلك الحين أيام البداية والبصيرة ضعيفة ، لأن العمدة على البصائر ، ولكن الصبر في ذلك الوقت قوي، والآن كَلَّت القُوَى وضَعُفَت ، والبصيرة أقوى ، لأن المريد حال بدايته الصبر فيه قوي ، والبصيرة**

أضعف ، وفي النهاية البصيرة أقوى والصبر أضعف . ونحن ألّا من شواغل الناس وعلائقهم أكثر ما كان ، فإنَّ هؤلاء المترددين إلينا أحس في باطني لكل واحد خاطراً ، فأقول : هذا جاء لكذا ، وهذا جاء لكذا . وأريد مراعاة كل واحد على ما في نفسه ، فربما واحد جاء يستشير ، وآخر يطلب شيئاً ، وعلى هذا . وهذه الأمور مع الضعف شاغل كبير ، وهي مع النشاط وتراجع القوة أسهل ، وما حال الإنسان إذا كان ضعيفاً ، واحتاج مع ذلك إلى أن يدبر الأمور ، ويضع كل شيء موضعه .

وقد كان بعض خلفاء بني العباس ، أُفْضَتْ إليه الخلافة وهو ابن ثمانين سنة ، فبقي يتحسف في نفسه ويتحسر ، ويقول : أيُّ خِلافةٍ في هذا السن ؟ ويود لو حصلت له في صباه » .

فقلت لسيدنا : فلو انتبه الإنسان في بلوغ سنه وحال كِبَرِه ، أكان يتحسف أن لو كان ذلك في الصغر ؟ فقال : « نعم قد يتحسف ، وقد ذكر ابن عربي أن بعض أعمامه دخل في الطريق وهو ابن ثمانين سنة ، ولكن الإنسان إذا استيقظ في تلك الحال ، وأقبل على الله ، يعطيه الله سبحانه عوض ما فات عليه من الأعمال ، لأن خزائنه سبحانه مملوة من الأعمال ، وما قَدْر عمل ابن آدم ؟

فإذا كان الملائكة مع كثرتهم ، للواحد منهم كذا كذا رأس ووجه ولسان ، يعبد ويسجد ويُسَبِّح بكل واحد ، فما عمل ابن آدم بالنسبة إليهم ؟ ولكنه تعالى شَرَّفَ بني آدم بعبادته ، وللآدمي مزية وخاصية ، إذا أقبل على الله عَوَّضَه الله عما فات ، كما وقع لآدم حين أقبل على الله في كِبَرِه ، وتاب وأناب إلى الله ، تاب الله عليه وعوضه عما فاته ، فكانت هذه المزية منه في ولده » هـ .

أقول : تمنى تلك الخصال الثلاث أنها تمكنه في حاله الحاضر ، بدفع الموانع له عنها ، وذلك لأنها أكبر خصال الصالحين التي تُذكَر عنهم .

و « التشفيع » ، قراءة القرآن كله في صلاة التراويح ، و « صلاة الصبح بوضوء العشاء » ، يعني مراده أنه أحيى الليل كله بالعبادة ، ما فتر فيه عنها لحظة ، كما يدل عليه دوام الوضوء حتى صلى به الصبح ، و « التخلي » في العشر ، يعني اعتكاف العشرة الأخيرة من رمضان ، كما هو السُّنَّة ، الثابت من فعل رسول الله ﷺ . وتمناها أن تكون منه في النهاية حال كمال البصيرة ، كما كانت منه في البداية ، لما ذكر من حالة الكمال في النهاية دون البداية .

وقوله : « وما حصل لنا إلا إن كان بالنية » ، أي ما حصلت له في النهاية ، مع حرصه عليها إذ ذاك ، بسبب ما ذكر من كثرة الشواغل عنها ، التي أبلغها أشغال الناس ، وإنما ذاك في نهايته ، لتعلقه بمقامه حينئذ ، الذي هو مقام دعوة الخلق إلى الله ، وكان في بدايته بمعزل عن ذلك ، وإن ما منعه من ذلك في وقته الحاضر إلا شواغل الناس وضعف القوى حينئذ .

ولأنه الآن رَتَّب أوقاته ، وَعَيَّن لكل وقت عملاً ، فلا يمكنه يخالف أموراً رتبها وعين أعمالها ، وهذه هي حالة الإستقامة ، وهي أفضل من حالته الأولى ، لأن هذه فيها دعوة الخلق إلى الله ، وإلى الأعمال التي تجذبهم إليه ، ويعود عليهم نفعها ، فنفعها مُتَعَدِّي .

وأما حالته الأولى فنفعها لازم خاص به ، فإنَّ اجتهاده وسعيه في نفع نفسه خاصة ، ففعل فيها تلك الأعمال الثلاثة ، ولا تعلُّق له حينئذ بغير شأن نفسه ، والآن في حالة الكمال ، لما تعلق بشأن غيره فما أمكنته إلا بالنية ، ولذلك قال : « **ونحن ألَّا من شواغل الناس أكثر ما كان** » ، يعني هو من أكبر عوائقه عنها ، ولعل ذلك خير له منه مع تمام نيته له ، وأيضاً ليس النفع المتعدي كاللازم ، كما قيل : « وكان خيراً من الممنوع ما منحا » .

أما التشفيع ، وهو قراءة القرآن كله في صلاة التراويح ، وتوزيعه عليها مدة الشهر ، كما أقام سيدنا عمر ، أبي ابن كعب يصلي بالناس صلاة التراويح ، وأمره أن يقرأ فيها بكل القرآن ، وإنما خصه بذلك لما يعلم من حفظه للقرآن .

وصلاة الصبح بوضوء العشاء ، بأن يبات طول الليل في صلاة وعبادة ، دون أن يتخللها حدث ، حتى يصلي الصبح بالوضوء الذي صلى به العشاء .

وكذلك نُقِل عن كثير من الصالحين ، وكان بعضهم يقرأ كل القرآن في ركعة ، كما ذكر الشعراوي قال : « إنه قام في ليلة وأحرم بركعتين ، وابتدأ يقرأ بالبقرة ، وأحرمت خلفه زوجته أم عبدالرحمن ، وحين أحرمت ضربها الطلق ، قال : وبَقِيَتْ متصبرة إلى أن وصَلْتُ سورة الكهف ، ثم نوت المفارقة وتمت ركعتين وسَلَّمَتْ . قال : وبقيتُ أنا إلى أن ختمتُ القرآن ، ثم سَلَّمْتُ ، قال : فانظر يا أخي لا تكون امرأة في حالة الطلق ، وَقَفَتْ في الصلاة قدر قراءة نصف القرآن ، فلا تكن أنشط منك في عبادة الله » ، وسمعت عمي عبدالله رحمه الله يقول : « حَضَرتُ رجلاً بالشام أحرم بركعتين ، قرأ فيهما القرآن كله ، وما سمعته غَلطَ إلا في سورة : ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝﴾» .

وقد كان شيخنا الشيخ الفاضل محمد بن صالح بن دوغان ، يتوضأ من آخر الليل ، حين يبقى نحو الثلث أو الربع ، ويتهجد بوضوئه ذلك ، ثم يصلي به الصبح ، ويبقى عليه حتى يصلي به صلاة الظهر ، فإذا طلعت الشمس صلى صلاة الإشراق في المسجد ثم دخل المدرسة ، وبقي في إقراء العلم ومدارسته ومذاكرته ، فإذا ارتفع الضحى أمر بتمر ولبن ، وأكل الجماعة الذين يقرأون ومن حضر ، وأكل معهم ما تيسر ، وإن حضر أحد أجنبي ، أو جاءه زائر أشار إلى عياله بفعل قهوة ، ويقول لهم: « مائة وخمسة »، فيفهمون ويفعلون . وهكذا حتى يؤذن الظهر ، ثم يقوم ويدخل المسجد وهو على ذلك الوضوء، ونتوضأ نحن يا جملة الحاضرين ، ثم تقام الصلاة ويصلي بنا الظهر بذلك الوضوء ،

وهكذا دائماً ، فواظبت مجلسه نحو ثلاث سنين ، من سنة ١١١٠ إلى سنة ١١١٣ ، فما رأيته يوماً قام من مجلسه ذلك إلا ودخل المسجد وصلى بالجماعة . وهذا ديدنه ، وما رأيته يوماً قط توضأ إلا يصلي بوضوئه ذلك، وله إذ ذاك نحو أربعين سنة ، مواظباً على الوضوء ، وكان يحذرنا ويقول : الحذر أن يجالس أحدكم أحداً من الأكابر إلا متوضئاً . وذكر قصة وقعت له .

والثالث من الثلاثة التي ذكر سيدنا ، بقوله : « وتخلي العشر » ، يعني اعتكاف العشر الأخيرة من رمضان ، كما هو السُّنَّة الثابتة من فعل رسول الله ﷺ .

وما فاتته الثلاثة بحمد الله ، فقد فعلها أولاً ، وقام في كل من الحالين بوظيفته التي هي أحبُّ إلى الله أن تُعمل فيه ، ولكن وَدَّ أن يدوم على فعل الثلاثة إلى الخروج من الدنيا ، وما أحد ممن عملها دام عليها ، إلى أن خرج من الدنيا . فحصل لسيدنا أولاً أجر العمل وأجر النية ، وآخراً حصل له أجر النية، ونية المؤمن خير من عمله .

ولما خرج لصلاة العصر ٩ شهر رمضان المذكور ، وجلس في الضيقة سكت ساعة ، ثم ذكر حديث: « ذهب المفردون بالأجر » ، ثم ذكر حديث : « فاز المخفون » ، **ثم قال : « ليس مراده عليه الصلاة والسلام في هذا ولا في غيره أمر الدنيا ، وحاشاه من ذلك ، ولكن إذا أخذ اللبيب من كلام نبيه ﷺ معنى لأمر دنياه فلا حرج عليه . وما في شيء من أمور النبوات من أولها إلى آخرها أنَّ أمر المعاش أصلٌ في شيءٍ أبداً ، وإنما هو عارض ، وإنما بعث الله الأنبياء ليدعوا من جعل أمر المعاش أصلاً إلى الله».**

قلت : ومعظم الناس مع ذلك جعلوا أمر المعاش اليوم هو الأصل الذي عليه المعوَّل ، وغيره تَبَعٌ له ، **فقال : « ولهذا بعث الله الأنبياء ، ليدعوهم من الدنيا إلى الآخرة » .**

قيل : « فهو مع ذلك يضطر إليه جداً » ، قال : « نعم ، لهذا مَيَّزَ اللهُ سبحانه بين المخلوقات ، وفَضَّلَ بعضها على بعض ، وإلا لاشْتَبَهَت الملائكة وبنو آدم والدواب ، لا فضل لشيء منها على آخر ، فلو لم يضطر الحيوان إلى المعيشة لاشتبه المخلوقات ، وقد أحوج الله الناس بعضهم إلى بعض في جميع حِرَفِهم، ليعمروا الدنيا وينتظم أمر المعاش إلى حين » .

قلت : وقد يحب الإنسان أن يكون متجرداً للآخرة ، وزاهداً في الدنيا ، ولكنه يعجز عن ذلك ولا يحصل له ، **قال : « قد ذكر الإمام الغزالي أنه لو أكل الناس الحلال أربعين يوماً ، لخربت الدنيا ، ولو شاء الله لهدى الناس جميعاً . والرجل من أهل العلم يتمنى أن يكون شجرة أو حَطَبَة أو نحو ذلك ، كما قد سمعت في ترجمة إبراهيم بن أدهم والفضيل ، ولا يرون أنفسهم شيئاً » .**

قلت : وهم مع ذلك في أحسن الأحوال ؟ ، قال : « **نعم ، عند غيرهم ، لا عند أنفسهم** » هـ .

أقول : قوله : « **وقد أحوج الله الناس ..** » ، إلى قوله : « **إلى حين** » ، يعني ينتظم أمر المعاش فينتظم به أمر الدين ، فإنه لو خرب أمر المعاش خرب بخرابه أمر الدين ، فلذلك أقام الله لأسباب الدنيا من يقوم بها ويعتني بها ويسعى لها ، كل ذلك لصلاح الدين . ودل عليه أيضاً ما ذكر من قول الإمام الغزالي : « لو أكل الناس الحلال أربعين يوماً لخربت الدنيا » ، يعني لَتَنَوَّرَت بذلك قلوبُهم ، وزهدوا في الدنيا ، فتركوا أسبابها فخربت ، وخرب الدين بخرابها . وقد زهد في الدنيا الجم الغفير من الخلق ، وما أثَّر ذلك في خرابها ، فإن عُمَّارها أكثر منهم بأضعاف كثيرة ، والقيام بأسبابها من فروض الكفايات، يُكتفى بهم عن المتجردين عنها ، ولو فُرِضَ أن يتركها كثير من الخلق ، بحيث يختل أمر المعاش بذلك؛ وجب على الإمام القائم عليهم أن يجاهدهم على ذلك لاستقامة الدين .

قوله : « **والرجل من أهل العلم** » ، أي العلم بالله ، لا العلماء الفسقة الذين يُعَلِّمون الناس الحِيَل في تحليل الحرام .

وقوله : « **كما قد سمعت في ترجمة إبراهيم والفضيل** » ، وقد مَرَّت علينا في الدرس قراءة تراجمهم في تلك الأيام من شهر رمضان ، وذلك سنة ١١٢٨ في قراءة ابنه السيد علوي ، في كتاب « مجمع الأحباب » للشيخ محمد بن الحسن الواسطي .

وشكى إليه رجل من قلة الرحمة ، فقال : « **اِبْنِ أمورك كلها على حسن الظن بالله ، مع التعلق بطاعته . وقد جاء في بعض الأخبار : إن الله لَيَعْجَب من قنوط ابن آدم مع قرب الفرج منه ، ولو قد أردف لهم السيل مرتين أو ثلاث لضاقوا وتبرموا ، وقد انتشرت الرحمة في أماكن ، وهذا ما هو قليل ، والمرجو من فضل الله وكرمه أن يتم ويعم . والقليل من الله كثير ، فاشكروا واعرفوا موضع القليل ، لئلا تُبخَسوا في الكثير فإذا شكرتم على القليل أعطاكم الكثير ، وإن لم تشكروا منعكم الكثير** - هذا معنى قوله : لئلا تبخسوا في الكثير - **ولم ينفعكم الذي معكم ، وما هو إلا لحظة من كرم الله ويعم الكافة في ساعة واحدة** » .

قوله : « **إن الله ليعجب** » ، هذه من الصفات الواردة في حق الله .

وتقدم تفصيل ذلك ، وأنَّ كل ما ورد عن الله ورسوله وصح ، أنَّ ذلك حق وصدق ، وأن معناه الذي يُراد في حق الله عِلْمُه خاصٌّ بالله ورسوله ، وأن ما تدركه أذهان الخلق منه من المعنى ، ليس مراداً في حقه سبحانه ، وإنما خوطبنا بذلك اللفظ تنزلاً لنا على مقتضى عقولنا ، لنفهمه بمعناه على ما فهمنا

في حقنا ، ونعتقد تنزيه الله عنه ، وأن له معنى آخراً يليق بالله ، لا يعلمه إلا الله ، وبفهمنا ما ذكر حصل المقصود من خطاب الله ورسوله لنا بذلك ، ويصير ما فهمناه مثالاً لما لم نفهمه ، مثالاً يؤدي المقصود لنا، ويكتفى به منا عن ذلك الخطاب .

فإن الأمثال تؤدي المعاني إلى القلوب ، ويكتفى منها بما فهمنا من المعاني بالأمثال كما قال تعالى : ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾، أي ما يعقلها على وجهها بإضافة ما يجوز على الحق إلى الحق ، وبإضافة ما يجوز على الخلق ، ولا يجوز على الحق إلى الخلق ، فما يفهم هذا هكذا إلا العالمون بالله ، الذين أشار إليهم أن الرجل منهم يتمنى أن يكون شجرة ، والدليل على المعنى الذي ذكرنا ، قوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، وكلما خطر في أذهاننا فمثله شيء ، ويدل على ما ذكرنا قول سيدنا أبي بكر وقول سيدنا الإمام جعفر ، المتقدمين بتفصيلها وبيانها .

وذكر التفريط في الأمور المبيِّن لمعنى مسألة القضاء والقدر ، وقد *قال* : « **إنها مسألة صعبة ، غامضة لا تتضح إلا يوم القيامة ، وكل من تكلم فيها وأراد توضيحها ما زادها ذلك إلا غموضاً** » ، *فقال* : « **الحزم لا يرد القدر ، فكيف التضييع ؟ وأنت اِبْقَ على المطلوب منك حتى يغلبك القدر ، وأما إنك ترمي نفسك في البئر ، وتقول : مقدر علي . أستغفر الله ، هذا لا يجوز** » هـ .

أقول : قد تقدم قوله : « **الأشياء كلها بالقضاء والقدر** » ، ولكن لا حجة لأحد في ذلك ، إذ لا جَبْرَ، بل يجب أن يفعل المأمور ويجتنب المنهي ، امتثالاً لأمر الله ، ولا يخالف ذلك ويحتج بالقضاء والقدر ، فإن هذا لا يجوز ، ولهذا استغفر عند ذكره ، ولو أن الأمر كذلك وقوعه ، أي لا يكون كائن إلا بالقضاء والقدر ، ومع ذلك لا حُجَّة فيه ، ولا يجوز الإحتجاج به ، ومرةً قال : « **ومن عمل معصية واحتج بالقضاء والقدر ، فهو معصية أعظم من الأولى** » ، فلا نفع الكفار قولهم ، كما حكى الله عنهم بقوله : ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ ، ولذلك عَسُرت معرفة هذه القضية ، ولا تنجلي إلا في الآخرة ، كما ذكر ذلك غير مرة ، ونقلناه عنه في هذا النقل في غير موضع .

ودلائلها في الكتاب والسنة - أعني القرآن والحديث - كثيرة ، منها قوله تعالى : ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ الآية ، ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾، ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾، وغير ذلك ، وفي هذا كفاية .

وقد أبهرت عقول العقلاء ، وحيرت ألباب العلماء ، حتى تحير منها كبار الرسل وخيار الأنبياء من أولي العزم ، وسألوا ربهم عنها فما أجابهم عنها بشيء ، سوى أن قال لهم : « لا أُسأل عما أفعل » ،

كما تقدم بيانه وتفصيله ، وتَهَدَّدَ بعضَهم حيث كرر السؤال عنها مرتين ، فقال سبحانه وتعالى : « إنك لا تقدر على جواب سؤالك ، ولئن تلجلج هذا في صدرك ، لأمحونك من ديوان الأنبياء » .

وكثيراً ما تعرض في كلام سيدنا ، ويتكلم فيها كلما عرضت على حسب الحال في ذلك الوقت ، على الوجه الذي يجريه الله على قلبه ، وينطق به لسانه ، كما يليق بمنصبه وجليل قدره ، وحق لها أن يتكلم فيها كثيراً فحول العلماء وأكابر الأولياء ، من أرباب العلوم الكسبية النقلية ، وأهل العلوم الوهبية اللدنية ، فليعرف العاقل اللبيب عظيم أمرها وجليل قدرها .

وإياها عنى الإمام الغزالي بقوله : « لا يجوز إفشاء سر القدر » ، وقال في « الإملاء على مشكل الإحياء » ، في ذكر كلمات من اصطلاحهم ، قال : « ومن ذلك سر القدر ، وكيف تحكَّم في الخلائق وقادهم ، بلطف في عنف ، وبشدة في لين ، وبقوة في ضعف ، وباختيار في جبر ، إلى ما هو في مجاريه ، لا يخرج المخلوقون عنه طرفة عين ، ولا يتقدمون ولا يتأخرون عنه » .

وقال سيدنا في بعض المكاتبات : « **والخلائق مقهورون في عين إختيارهم لما يريده الله منهم ، ﴿فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾** » ، وقال في تلك المقالة المتقدمة : « **الخلق مكلوفون لما خُلِقوا له، لأن الحق أراد بهم وأراد منهم ، فالسعيد من وافق ما أراد به الحق وأراد منه ، والشقي من اختلفت به الأمور** » ، ثم قال لي : « **احْفَظْ هذه الحكمة إن كنت حافظاً** » ، لشدة اعتنائه بحفظ هذا المعنى ، وإشهاره وتبليغه لمن لا يفهمه هـ .

أقول : إنما صعب فهمها ، لأنها ينتج منها أمران : أفعال السعادة من الإيمان والعبادة ، وأفعال الشقاوة من الكفر والمعصية .

وكل ذلك ما وقع إلا بقضاء الله وقدره ، وهو حكمه بوقوع الأشياء ، فتستصعب العقول ذلك وتقول : كيف حكم بوقوع المعاصي وقد نهى عنها ؟ فيقول ذو العقل القاصر : لما أن حكم الله سبحانه بوقوع أفعال الشقاوة ، ينبغي أن لا يعاقب عليها ، وأن يعفو عن متعاطيها ، فيُجاب بالحق الذي لا محيص عنه ، ولا يتخلف حكمه . فنقول : إن الله سبحانه خلق بقدرته الجنة ، ووعدها بملئها ممن يفعل أفعال السعادة ، وخلق النار ووعدها بملئها ممن يفعل أعمال الشقاوة ، وحكمه ووعده لهما لا يتبدل قط ، ودعا الخلق إلى طاعته ، ووعد من أطاعه بجنته ، ووعد من عصاه بالنار ونقمته ، واختار لكل واحدةٍ من الدارين أناساً من خلقه ، وأن يعمل أهل كل واحدة منهما بعملها .

والقضاء والقدر ، وهو إرادته لكلِّ ما أراد ، كالمصراع للفرس ، يقود كل أحد لما أراد الله له من أعمال الدارين ، وهو الذي ذكر الإمام الغزالي فيما قدمنا عنه ، أنه سر القدر الذي تحكَّم في

الخلائق، وقادهم بلطف في عنف .. إلى آخر قوله فيه ، وأنه لا يجوز إفشاؤه ، لئلا يقول الجاهل : إذا حكم الله عليَّ بذلك ، فلا لوم عليَّ في تعاطيه . ويتجرأ على المعاصي ، ويقول : لو شاء الله ما عصيته ، فقد شاء لي المعصية فلا حرج عليَّ في ذلك ، كما قال الكفار : ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾. فيقال : نعم ، شاء الله للكفار والمشركين الخلود في جهنم ، فكان ذلك . وشاء للعصاة عذاب تلك المعاصي وجزاءها ، فكان منهم ذلك ، وجرَّتهم إليه كلاليب القضاء والقدر القهرية ، ليتم وعد الله للدارين . فافهم هذه المسألة على صعوبتها ، وتفاصيل الكلام فيها ، وكثيراً ما يمر الكلام فيها في مجالس سيدنا هـ .

قال *رضي الله عنه* : « حال المشيئة فيه تفصيل طويل ، ما هو حال الجبر ، وفيه كلام يعرفه من أفعاله الإختيارية والإضطرارية ، فلينظر الإنسان كل أمر إذا شاء فعله ، وإذا شاء تركه ، فهو محل التكليف والثواب والعقاب ، وهو غير كلام أهل الجبر : إنه مكتوب علي ومقدر علي . وكلهم محجوجون ، فمن أين علموا أنه كُتِبَ عليهم ، وقد احتج إبليس لعنه الله بين يدي الله تعالى بهذه الحجة ، فما نفعته ، قال الله سبحانه له : لأي شيء ارتكبتَ معصيتي وعصيتَ أمري ؟ قال : يا رب ، هذا أمر قد كتبتَه عليَّ وقدَّرْتَه. قال الله سبحانه : متى عَلِمْتَ أني كتبتُه وقدَّرْتُه عليك ، قبل الفعل أم بعده ؟ قال : بل بعده . قال تعالى: بهذا أخذتُك . والتفاصيل الغامضة ما يعرفها إلا العالمون ، ولكن الله من الله » .

قال : « والمسألة مذكورة من زمن النبي ﷺ بوجوهها الثلاثة ، كما في قصة الذي أُتِيَ به إلى النبي ﷺ مراراً لِيُحَدَّ في الخمر ، فلم يقل : كُتِبَ علي » هـ .

أقول : قوله : « **ولكن الله من الله** » ، هكذا هو في الأصل الذي نقلتُ منه ، ولعل معناه أن تلك العلوم جاءت عن الله ، ولا تُعلَم على وجهها وتحقيقها وحقيقتها إلا من الله ، بأن يُبيِّنَها على لسان رسوله ، فذكره لنا فعلمناه منه ، أو فهمه مَن هو مِن أهل العلوم اللدنية ، ففهمناه عنه ، والله أعلم .

قوله : « **وهذه المسألة** » ، يعني مسألة القضاء والقدر المذكورة ، ووجوهها الثلاثة يعني المتقدمة: وأولها : اعتقاد أن لا يكون كائن ، من خير أو شر ، أو نفع أو ضر ، أو إيمان أو كفر ، أو طاعة أو عصيان، أو أي أمر كان ، إلا بقضاء الله وقدره .

ثانيها : أن لا يحتج مع ذلك بالقضاء والقدر ، ويجعله عذراً له .

ثالثها : أن يتبع أمر الشرع في كل ما دَقَّ وجَلَّ ، ويتبع القانون الشرعي في كل أمر ، وعلى كل حال، ولا يطيع أمر عدوه الشيطان فيما يخالف الشرع ، في أي أمر كان .

وهذه الأمور الثلاثة بَيَّنَها النبي ﷺ ، وحفظها عنه الصحابة ، وانعقد إجماع الأمة عليها ، ومما بين أمرها قصة هذا المحدود في الخمر ، حتى إنه لم يحتج هو ولا غيره بالكتبة والتقدير ، بل طلب أن يقام عليه الحد في الدنيا ، ليسلم به من عقوبة الآخرة .

وما رأيت كلاماً قط ، بَيَّن شأن هذه المسألة ، أبلغ من مقالة سيدنا التي أولها : « **الخلق مكلوفون لما خُلِقوا له ..** » ، إلى آخرها على ما فَصَّلنا وبَيَّنَّا من معانيها ، فإنها بَيَّنت أن إرادة الله الأزلية ، التي هي أحد صفاته الذاتية ، أي إنها من صفات ذاته ، أنها اقتضت خلق جنةٍ ونار ، وأنها اختارت لكلٍّ من الدارين أهلاً تختص بهم ويختصون بها ، وأنَّ لكلٍّ من الفريقين عملاً يخصهم يستحقون به دخول دارهم التي اختصتهم بها تلك الإرادة الأزلية .

ثم اقتضت تلك الإرادة الأزلية إرادةً أخرى ، تُسمَّى الإرادة الشرعية ، تُبَيِّن بها أعمال الفريقين التي استحقوا بها دخول الدارين ، لأجلها أرسل الله الرسل إلى كافة الخلق يدعونهم إلى الله ، وإلى عبادته وطاعته ، فمن أجابهم وأطاعهم واتبع أوامرهم ، فهو عمل أهل الجنة التي استحقوها بها ، فمن واظب على ذلك حتى مات عليه ، فهو من وُعد بالجنة ووُعِدَت به ، وهو السعيد الذي وافق ما أراد به الحق بالإرادة الأزلية ، وأراد منه بالإرادة الشرعية .

ومن خالف الرُّسُل ولم يتَّبِعهم فيما أمروا به ، ولم يجتنب ما نهوا عنه ، فهذا هو عمل أهل النار التي استحقوها بها ، فمن دام على ذلك حتى مات عليه – والعياذ بالله – فهو ممن وُعِد بالنار ووُعِدَت به ، وهو الشقي الذي اختلفت به الأمور ، فوافق الإرادة الأزلية له بعمل أهل النار ودخولها ، ولم يوافق الإرادة الشرعية بعمل أهل السعادة من الإيمان والعبادة . وكلٌّ من الفريقين مكلوفٌ على عمل داره ، كما هو مكلوفٌ على دخولها ، فمن وافق الإرادتين الأزلية والشرعية ، فهو السعيد حقًّا كما أشار إليه .

ولا يتأتى للإرادة الشرعية أمر من موافقة لها لما دعت إليه ، أو اختلاف عن ذلك إلا بمقتضى الإرادة الأزلية ، متقيدة بها على الدوام ، لا تنفك عنها لحظة طرفة عين ، واقتضت أن يعمل بعض أحد الفريقين بعمل الآخر ، ولكن اقتضت أن لا يموت أحد إلا على عمل أهل داره التي أراده الله لها ، وأن السعيد من وافق الإرادتين ، وأن الشقي من تخلف عن الإرادة الشرعية ، وإنه لا يتبعها أحد إلا إن شاءت الإرادة الأزلية ، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ۝٢٧ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝٢٩﴾، فافهم ما ذَكَرْناه هنا ، مما اشتملت عليه تلك المقالة غير ما ذَكَرْناه من ذلك فيما تقدَّم هـ .

قال رضي الله عنه : « ما الرضا إلا بالأقضية الـمُرَّة ، وأما من وقع له ما يريده فرضي به ، فلا يظن أنه رضي بذلك عن الله ، وكذلك من يعمل على ما يهواه ويقول : هذا مُقَدَّرٌ عليَّ . فإنَّ هذا مبتدع ، واللازم عليك أن تُسَلِّم لقضاء الله فيما كَرِهْتَ ، وتعمل بطاعته » .

قال : « في أوقات الشدائد لا ينبغي للإنسان أن يشفق إلا على دينه ، لأنه الذي يبقى معه في قبره وفي الآخرة ، وأما الدنيا فزائلة ، ولا بد من زوالها ، إن شئتَ أو كَرِهْتَ ، إمَّا زالت عنكَ وإما زِلْتَ عَنْها ، فإمَّا زالت عنك اليوم ، وإما زالت عنك غداً » .

قال رضي الله عنه : « إذا رجعت إلى خيرة الله ففيها كل شيء ، والأشياء التي على أيدي الناس كلها عنده موجودة ، وإلا فالعلامات علامات سوء ، إذا نظرت إلى أحوالهم في أمور دينهم ودنياهم ، من صلاتهم وزكاتهم ومعاملاتهم . وما تُذكَر هذه الأمور إلا لتُعرف أواخرها ، لأنه سبحانه لا يأخذ بِغِرَّة، ولا بد للشيء من مقدمات ، وهذه الأمور مقدمات الساعة ، وكل أمورهم ما شيء منها وقع في محله ، وكلها عسعسة ، ولا تكون العسعسة إلا في الغدراء - أي الظلام - ووصفه تعالى نفسه بقوله : ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾، في غير محل من القران ، تعرف أن التدبير أمره مهم ، ولا شيء يستقيم إلا به ، وأين الرجل الصالح اليوم ؟ ما عاد إلا شر وشر منه » .

أقول : كلامه هذا كله يشير به إلى ولاة الجهة مما يرى منهم ، ويشمل غيرهم ممن هو مثلهم من ولاةٍ وغيرهم ، لأنهم في أقوالهم وأفعالهم وسائر أحوالهم ، هم فيها كالذي يمشي في ظلام ، لا يعرف الطريق ، وربما وقع في حفرة لا يشعر بها . كذلك هذا المخبِّط بجهله لا يعرف الحق من الباطل ، ولا الصواب من الخطأ ، ولتشابه الحالَيْن سمي عسعس ، كالذي يعسعس في الطريق لا يعرفه ، ومثل هذا لا يعرف الصواب من الخطأ ، بل على وهم ، كما لا يعرف الأعمى والماشي في ظلام الطريق إلا على وَهْمٍ وَتَعَسْعُس ، ولو اعترض له ما يضره ، وقع فيه ولا يعلم به كذلك طالب العلم أُلْحِقَ ، بسبب جهلِه . ولو علم الحق والصواب وقصده بنية ، فيثاب على نيته وعمله ، ومن جهلهما - أي الحق والصواب - حرمهما - أي ثواب النية والعمل - ولو وقع في الحق والصواب أيضاً ، لأن إنما الأعمال بالنيات، ومن لا علم له لا نية له .

ومسألة الفقه تبين هذا المعنى ، وهي ما إذا اشتبه عليه الوقت ، فاجتهد وصلى على ظنه حضور الوقت ، فأصابه صحت صلاته ، وأثيب على عمله ونيته ، ولو تَهَجَّمَ وصلى بلا اجتهاد وصادف الوقت ؛ لا تصح صلاته ، ولا يثاب على عمله ولا نيته ، فكان الإجتهاد هنا في مكان العلم هناك ، لأن الإجتهاد يفيده ظناً يكفيه عن العلم ، وقد عبر به في القرآن ، ويراد به العلم ، ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ﴾، أي يعلمون ، ﴿أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ۝٤٦﴾، فافهم .

وقال الإمام الغزالي ما معناه : « إنه لا يكمل عقل العاقل حتى يعرف ثلاثة من ثلاثة : أن يعرف الصدق من الكذب في الأقوال ، ويعرف الصواب من الخطأ في الأفعال ، ويعرف الحق من الباطل في العقائد » ، ومن قام منهم بعد القائم قبله ، ما يقوم إلا على حالٍ أشر من الأول .

وأما الصالح الذي يقوم بطريق الحق عن علم وهدى وبصيرة ، فلا يكاد يوجد ، وما وُجِد في أزمنة خالية أصلح من وقتنا هذا ، فكيف به ، فليعرف الإنسان من ذلك حال نفسه ، هل هو على بصيرة من أمره في سيرته في دينه ودنياه ؟ وهل هو في صواب وحق ، أو هو على خلاف ذلك ؟ فالعارف لا يُعَرَّف، ولا يهم أحداً إلا شأن نفسه في كل أمره كما أشار إليه ، فلا ينفعه ولا يضره إلا أمر نفسه دون غيره ، ﴿ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ﴾. وإنما يُفهم ذلك ويهتم به بمعرفة العلم النافع ، الذي يجر الإنسان من الدنيا إلى الآخرة ، ومن الغفلة عن العاقبة إلى الإهتمام بها ، ولا يكون ذلك إلا بتنور القلب وجذبه ، وإنما ذلك وَهْبٌ من الله، ما للعبد فيه مدخل إلا بالتعرض لنفحات الله المودَعة في الأوقات ، مع تسديد الله وسابق عنايته . وأما العلم الغير النافع ، أو مع القلب المظلم ، فلا يزداد بذلك إلا ضرراً في دينه ودنياه ، وعلامته تعلق القلب بالدنيا سوى الضروري منها . فافهم فكلُّ هذا مما اشتمل عليه كلامه وعمومه ، يدل على دعوته إلى الله لكل أحد ممن حضره أو غاب عنه في المجلس والزمان ، وكلام الاولياء وإن قل لفظه واختص بالخطاب ، فإن معناه كثير وعام لمن حضر أو غاب زماناً ومكاناً ووقتاً ، كما أشرنا إلى شيء من ذلك في غير موضع فيما سبق ، سيما عند قوله : « من تحركه الرغبات الدنيوية لم يكن للرغبات الأخروية أهلاً » هـ .

قال رضي الله عنه ، وذلك يوم الجمعة ١٨ شهر رمضان المذكور سنة ١١٢٨ يحث على العمل في هذا الشهر الشريف ، مثل ما تقدم من حَثِّه أول الشهر ، وهذه المقالة قد تقدمت كلها أو بعضها أول هذا النقل ، لمناسبة لذِكرِها هناك ، ثم أعدناها هنا أيضاً لمناسبة المحل لها ، وهي **قال** : « **اعْمَلْ في هذا الزمان من الخير ما لا يشق عليك ويمكنك المداومة عليه ، فقليلٌ دائمٌ خيرٌ من كثيرٍ منقطع ، واشكر على القليل يعطك الله الكثير . ولا تنظر إلى مثل أحوال بِشْر والفُضيل وأمثالهما ، فإن هؤلاء حتى الصحابة رضي الله عنهم لم يعملوا مثل عملهم ، لكن معهم نور النبوة . وقد سُئِل بعضهم عن ذلك ، فقال : كان الصحابة أكثر إيماناً والتابعون أكثر أعمالاً ، وأين زمانك اليوم من زمانهم ، فإنك في القرن الثاني عشر . ولو بُعِثَ اليوم من هؤلاء واحد - أي الصحابة والتابعين - لتعجَّبَ وقال : ما ظننا أن الوقت يمتد قبل قيام الساعة إلى الآن . والزمان يتناقص من ذلك الوقت إلى الآن** » هـ .

أقول : وقد تبين أثر النقص من حين توفي النبي ﷺ في الحال ، حتى قالت عائشة رضي الله عنها :

« لو علم رسول الله ﷺ ما أحدث النساء بعده لمنعهن الخروج إلى المسجد » ، يعني بعدما كُنَّ يشهدن الصلاة مع رسول الله ﷺ ، ولهذا منع الزبير زوجته أسماء بنت أبي بكر من الخروج إلى المسجد ، فأبت عن تركِ عادةٍ تَعَوَّدَتْها من وقت رسول الله ﷺ ، ففعل لها تلك الحيلة فانكفت . وهكذا الدهر في النقصان دائماً هـ .

قال سيدنا : « ولما رأينا الزمان يتناقص ، وأثر النقصان ظاهرٌ على أهله ، بَنَيْنَا أمرنا في الإبتداء على ثلاثة أشياء : الأول : أن لا نَتَحَكَّم لأحد حتى نرى فيه أهلية التحكيم . فلهذا صَحِبْنا كثيراً من مشائخنا من غير أن نتحكم لأحد ، بل صُحْبَة مجردة كما هي عادة السلف ، صحبة بلا تحكيم كعادة الحسن البصري وغيره ، كما يقال : صَحِبَ فلاناً ولَقِيَ فلاناً . والثاني : أن لا نُحَكِّم أحداً إلا من نراه أهلاً ، فإذا رأيناه متأهلاً لذلك وألقى إلينا نفسه منطرحاً حَكَّمْناه على مقتضى حاله . والثالث : لا نُفيد ولا نستفيد إلا من مُتَأَهِّلٍ للإفادة والإستفادة . والناس إذا سمعوا بأحوال الصالحين ؛ يظنون أنهم مطلعون على الغيب ، فمتى أرادوا كاشفوا الناس بخواطرهم » .

قلت له : فما يطلب الإنسان إلا أن يستيقظ من غفلته ويتوب من إساءته ، فما السبب الذي يتسبب به لتحصيل ذلك ؟ **قال : « اعْمَلْ بما تقدر عليه ويمكنك ، واتَّقِ الله ولا تتعرض لما يبطله عليك ، فإذا عملتَ واتقيتَ يكون عندك شيء لم تعلمه ، وتكون كالذي يدور إقليده وهو معه . والإستتار في هذا الزمان أسلم ، كما في قصة إبراهيم الأعزب أنه أخذ أحوال أصحابه ، وقال : هذا أَسْلَم لكم في الدنيا، ونردها لكم بعد الموت » .**

قلت : فما ينفع عمل لا ذوق فيه ولا حضور ، قال : « ذلك ليس إليك ، ويكفيك الحديث الذي ضربه رسول الله ﷺ مثلاً لليهود والنصارى مع المسلمين ، وفي آخره : هل ظلمتكم في حقكم شيئاً، ذلك فضلي أوتيه من أشاء ، وعسى أن تكون التوبة ، ولو هي كتوبة صاحب القرية الذي قتل مائة نفس، ثم قصد قرية الخير تائباً » .

قلت : فكيف صَحَّتْ توبته وعليه دماء الناس ؟ ، قال : « صحت ، ويقال لها توبة بالنسبة إلى حاله ومقامه ، لا إلى حال الخواص ، وربك من وراء ذلك يفعل ما يشاء ، ودرجات التوبة كثيرة ، وليست على درجة واحدة ، فكذلك درجات الجنان ودركات النيران » هـ .

أقول : الكلام من أول هذا المجلس من يوم الجمعة المذكور ١٨ رمضان إلى هنا مرتبط ومفصل بعضه ببعض ، وهذا المذكور جملته ، وهذا آخره .

والحديث المتقدم مروي في الصحيحين ، والشاهد فيه قوله : « **ذلك فضلي أوتيه من أشاء** » ، لما قلت له : فما ينفع عمل لا ذوق فيه . ومعلوم أن الذوق بالعبادة لا يحصل مع سلب الحال ، فاستشهاده بقوله تعالى في الحديث القدسي : « **ذلك فضلي أوتيه من أشاء** » ، يعني أن الذوق شيء آخر غير العبادة، وأن الذوق في العبادة مجرد فضل من الله ، لا يلزم وجوده بوجود العبادة ، إلا إن تفضل الله سبحانه به على عبده ، والمرجو أنه علامة القبول ، ووجوده هو الفرق بين عبادة الخاشعين وعبادة الغافلين .

وأما قول ذلك المسؤول : « أن الصحابة أقوى إيماناً » ، أو قال : « أكثر إيماناً والتابعين أكثر أعمالاً »، فالصحابة رضي الله عنهم جُلُّ أعمالهم الجهاد في سبيل الله ، لا يقاربه شيء من الأعمال ، سيما إن حصلت به الشهادة وهي غاية مطلبهم ، ومن هو كذلك مثلهم رضي الله عنهم ، مع أن ذرة من أعمالهم أفضل عند الله من أمثال الجبال من أعمال غيرهم لقوة إيمانهم ، فإن الأعمال قَدْرها بحسب الإيمان قوةً وضعفاً . فليس أعمال الكاملين الصادقين كأعمال الجاهلين ، وإنما كَمُلَ إيمان الصحابة لما شملهم من مشاهدة نور النبوة ، فلذلك كَمُلَ إيمانهم ولكماله كَمُلَتْ أعمالهم ، يدل على ذلك معنى حديث : « لو أنفق أحد من غيرهم مثل أُحُد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه » .

ومن الحكمة في قبول توبة القاتل مائة نفس ، أن لا يعود يفعل ذلك ، كما في القصة أنه سأل رجلاً هل تصح له توبة ، وقد قتل تسعة وتسعين نفساً ، فقال له : « لا تصح لك توبة » ، فقتله ، فتمم به المائة. ثم سأل آخر : « هل تصح له توبة وقد قتل مائة نفس ؟ » ، قال : « نعم ، ومن يحول بينك وبين التوبة؟ ولكن سِرْ عن بلدك هذه ، فإنها بلد سوء ، إلى بلاد كذا فإنها بلد خير ، وفيها من يعبد الله ، فاعبد الله معهم » ، فسار إليها فلما انتصف في الطريق جاءه الموت فمات ، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، فالتقاهم ملك في صورة رجل ، فجعلوه حكماً بينهم ، فقال : « قيسوا من محله إلى البلدين ، فإلى أيهما كان أقرب فله حكمها » ، فقاسوه ، فرأوه إلى التي قصد أقرب بشبر ، وقيل : أن صدره زحم إلى التي قصد بشبر ، فاحتملته ملائكة الرحمة ، وهذا معنى سبق رحمة الله غضبه .

قال كاتبه : وربما إن الذين قتلهم كانوا كفاراً كلهم أو بعضهم ، ولذلك خف أمرهم ، كما أن سيدنا موسى لما قتل القبطي وكان كافراً ، فاستغفر وقال : ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾﴾، أي ظلمت نفسي بقتل نفس بغير أمرك .

قال سيدنا لبعض الناس يُسَلِّيه عن شيء ذهب عليه من المال ، *فقال* : « **الدنيا كلها ما تسوى شيئاً، وإنما فيها صيانة المؤمن وستره واستغناؤه عن الناس ، ويعمل منها صالحاً إن وفقه الله ، وإلا فما هي شيء أصلاً** » .

ومرة قال : « الدنيا كلها ما تسوى هم ساعة » ، يعني إن هذه الأمور هي المقصود من الدنيا ، فمن طلبها فقد عرف المقصود منها ، ومن لا فلا .

وسأله رجل إلباساً ، فقال له : « قد معك إلباس ، ولكن بقي عليك الإنتظام والسلوك ، فالله في السلوك - أي القناعة - والإنتظام ، واطلب العلم لا تجلس سبهللاً ، فإنه قبيح بالرجل ، سيما إن كان خطيباً أو معروفاً ، أن يجلس المجلس ليس معه شيء من العلم ، لو سُئِلَ عن شيء ما عرفه ، وينبغي أن يتطرف من كل شيء » هـ .

أقول : وكان الرجل خطيباً . وقوله : « ويتطرف » ، أي يأخذ من كل شيء طرفاً .

والسبهلل : فَسَّرَه في الحديث بالبَطَّال ، الذي لا هو في عمل دين ولا دنيا ، ويؤيده حديث : « إن الله يبغض الشاب البطال » ، وفي رواية : « الشاب السبهلل ، الذي لا هو في عمل دين ولا عمل دنيا » .

وشكى إليه ذلك الرجل كثرة الخواطر والوساوس ، فقال : « ذلك بسبب الخِلْطَة والطُّعْمَة إذا لم تَطِب ، فإن طاب لك ذلك ، وإلا فإن كان ولا بد فخذ منه القليل » هـ .

قوله : « القليل » ، أي كما يأخذ المضطر ، ويريد بالقليل من الأمرين معاً ، الطُّعمة إذا لم تطب والخلطة .

قوله : « وإلا » ، أي فاتركه ، « فإن كان ولا بد فخذ منه القليل » ، الذي تدعو إليه الضرورة .

قال : « ورد أنه لا ينتشر مجلس رسول الله ﷺ ولا يتفرقون إلا عن ذواق ، ورأينا المناسب هنا الإنتشار عن ماء ، فهو الأصل والسبب فيما يعتاده من شرب الماء عند القيام من المجلس » .

وذَكَرَ الملائكة عليهم السلام ، فقال : « إنهم تجردوا عن هذا العالم السفلي ، فلا يحتاجون لأكل ولا شرب ولا نكاح وغير ذلك للعالم العلوي ، وبقوا في مقام الخصوصية والترقي في الأفضلية ، بمعنى أن بعضهم أفضل من بعض ، فليس جبريل في ذلك كأدنى واحد منهم .

والكل قائم بما كلفه الله من فضل خواص الآدميين عليهم ، فإنما ذلك من وجه وباعتبار ، من حيث أنهم قاموا بما أمرهم الله به مما لم يكلف به الملائكة ، مع أنهم في قواطع كثيرة عن القيام به ، وأولئك مُجَرَّدون لما كُلِّفوا به ، ثم إن الآدميين في قيامهم بما أُمِروا به مع العجز بسبب البشرية ، إنما مددهم من الملائكة ، كما وقع في بدر وحنين . والأمور الإلهية لا تُكَيَّف ، بل تُوكَل الأمور إلى المقدور ، كما حكى

النبي ﷺ عن حال المعراج وتردده إلى موسى عليه السلام مرات متعددة في ساعة واحدة ، وهو في السماء السادسة ، ويقول له في كل مرة : ارجع إلى ربك واسأله التخفيف . مع أنه غار من كثرة من يدخل الجنة من أمة محمد ، فغيرته لذلك ، لا لكونه فُضِّل عليه ، وهذا أعجب ، وإلا لكان قال : ارجع إلى أمتك بالخمسين الصلاة » .

أقول : قوله : « **الأمور الإلهية لا تُكَيَّف** » ، واستشهد لذلك بقصة المعراج ، يعني أن الصفات الإلهية حقها أن يؤمن بها ويصدق بها ويكل معانيها إلى الله ، وما ورد وصح به الخبر يعتقد أن لها وجهاً إلى الله لا يعلمه إلا الله ، وأن أفعاله التي يعجز عن إدراكها العقل كذلك يؤمن بها وينسبها إلى القدرة، التي لا يعجزها شيء .

كما ذَكَر أشياء من ذلك مما رآها ﷺ ليلة المعراج ، كما ذكر البحر الذي رأى ممتدًّا في الهواء بين السماء والأرض ، فأين العقل من إدراك ذلك ؟ فإنما يُكَيَّف ما يدركه العقل ، وما لا يدركه لا يُكَيَّف، حتى كرامات الأولياء ومعجزات الأنبياء لا تُكَيَّف ، إذ لا تدركها العقول فيؤمن بها، كما تقدم قوله ذلك وينسبها إلى القدرة .

قوله : « **وإلا لكان قال : ارجع إلى أمتك بالخمسين الصلاة** » ، يعني على ما نعرف من غيرة طباعنا، ولكن لو ظهر من طباع الأنبياء ما يشبهها في الظاهر ولو سُمِّيَت باسمها ، فإنها ليست هي.

وفَرْقٌ بَعِيدٌ بينهما ، فإن صفات الأنبياء تلك لله مجردة ، وفي وصفنا للهوى مجردة . وإخبارنا بذلك تنزل لعقولنا لتمام التشريع ، فإن التصديق والإيمان بما أخبر به مما لا تدركه عقولنا ، دالٌّ مِنَّا على كمال الإذعان والإنقياد، الذي هو غاية مطلوب العبادة .

حتى إن من اشتد تكبره اشتدت عداوة الله له وأشقاه ، كما أشقى أمَسَّ الناس قرابة من رسول الله ﷺ ، مع اشتداد ذلك عليه ، كما قال تعالى : ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ الآية ، وناهيك من هذا التنزل ما ذُكِرَ لنا من صفات الله التي نراها خاصة بالمخلوق ، كالضحك والتعجب والفرح والغضب ، حتى الإستقراض والنزول والإستطعام والإستسقاء ، لكن فَسَّر الأخيرين في الحديث أنَّ معناهما استطعمك واستسقاك عبدي فلان .

وكلها من هذه وغيرها لها معانٍ تليق بالله ، يعلمها أعلم العلماء به ، الذي أخبرنا بها ، ولا نعلمها نحن ، ويجب علينا التصديق بكل ما أخبر به منه ، وما نرى من ذلك أنه لا يجوز في الشرع أن يُنسب إلى الله ، نصدق به ونعلم أن له معنى في جانب الله يليق ، ولا يعلمه إلا الله ورسوله ، وننزهه عما نعرف من معناه في حقنا .

قوله : « **مع أنه غار** » ، يعني أنَّ غيرته لأمته لا بأس بها ، وترجع لله ، لأنه يريد أن تكون أمته فاضلة لا مفضولة ، وأما لو كان لنفسه ، فذلك لا يليق بمقامه ، ولا يجوز أن يقال ذلك في حقه ، وحاشا مقام النبوة من ذلك ، ولو كان ذلك على فرض المحال لقال : « ارجع إلى أمتك بالخمسين » ، ولم يأمره بسؤال التخفيف . وهذا القول من سيدنا تَنَزُّلٌ منه لعقول السامعين ، فإنَّ مقام سيدنا موسى عليه السلام للنبي ﷺ في هذا المقام ، وأمره له بذلك بأمر من الله تعالى ، لما كتب وقضى عليه من الخمسين الصلاة ولم يُحَتِّمها ، بل حَتَّمَ الخمس فقط ، فأرصده هناك سبباً ليخفف سبحانه عن نبيه وعن أمته ، فيحصل من الله سبحانه التفضل ، ومن النبي ﷺ الطلب والتضرع ، ومن سيدنا موسى التسبب في دعاء الخير ، فسبحان الله تعالى ما أحكمه وألطفه وأرحمه .

وتقدم عن سيدنا كلام مثل هذا ، وهو قوله : « **ومن عظيم لطف الله أن جعل الحسنة بعشر أمثالها والسيئة بواحدة** » ، وذكرنا عند ذكرنا له سبب تخصيص سيدنا موسى بكونه المتعرض له بطلب التخفيف ، وأن ذلك لكونه طلب الرؤية ، فلم تحصل له ، وأن لسان الحال يقول : « يا من طلب أن يرانا ، تمتع برؤية من قد رآنا » ، وأنه في كل مرة يرجع إليه ، إذا نظره حصل له بذلك لذة . وذَكَرْنا الأبيات التي أُنشِدَت على لسان الحال ، وأولها :

وَأَسْتَنْشِقُ الأَرْوَاحَ مِنْ نَحْوِ أَرْضِكُم لَعَـلِّيْ أَرَاكُـم أو أرَى مَـن رَآكُـمُ

وكذلك ذَكَرْنا إلى أين كان ينتهي في كل مرة ، ويحصل له التخفيف ، وبيان أن القضاء والقدر على نوعين :

أحدهما محتوم لا علاج في دفعه قط ، ولا تنفع فيه الأسباب ، ولا يدخله مَحْوٌ ولا إثبات ، ولا بد من وقوعه ، كالأجل والرزق والسعادة والشقاوة ، ومنه الصلوات الخمس .

والنوع الثاني من القضاء والقدر : معلق تنفع فيه الأسباب ، وهو محل المحو والإثبات ، ومنه ما زاد على الخمس الصلوات إلى الخمسين ، فلهذا أفاد في محوها طلب التخفيف ، وأن الرؤية لما كانت محتومة أن لا تكون في الدنيا إلا لسيدنا محمد ﷺ ، لم تحصل لموسى عليه السلام بدعائه ، مع أن دعاءه مستجابٌ قطعاً .

وقال ابن الجوزي في كتاب « المنتخب » والخطاب للسان الحال ، بعدما أطال الكلام في طلب موسى الرؤية ، وعقد هذا الباب فقال في قوله تعالى : ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ الآية، وتكلم كثيراً ثم قال : « يا موسى لا تتعدَّ طَوْرَك فتطلب ما ادُّخِر لغيرك ، أما سمعت قولي القديم : ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ﴾ » ، انتهى كلام ابن الجوزي .

فإن قيل : فما معنى تكرر الرجوع وتخفيف البعض في كل مرة ، ولو أراد سبحانه خفف كل ما خفف في مرةٍ واحدةٍ ، ولو أراد النبي ﷺ سأل التخفيف في موضعه ذلك ، أو حيث افتُرض عليه ، أو في غيره ، أو في الأرض ؟ يقال : هذا فيه سر إلهي ، لا يعلمه إلا الله .

وإنما المعنى الذي يظهر لنا أن المراد : مقابلة الواقع بمثله ، فإنه تعالى لم يفترض الصلاة في الأرض ولا في السماء ، وإنما افترضها في ذلك الموضع الخاص ، الذي مَثَّل له في غاية القرب بقاب قوسين أو أدنى ، ثم قال له سبحانه : « يا محمد ، انظر بعينك في أي موضع كَلَّمْتُك ، وَفَعَلتُ ذلك أن لا بيني وبينك حجاب ، ولا رسول ولا ترجمان » .

وقال سيدنا في كلام سيأتي : « **فلم يزل سبحانه يُرَقِّيه في عجائب الموجودات شيئاً فشيئاً ، حتى بلَّغَه درجة التكلم معه بقاب قوسين أو أدنى** » ، أي فهذه خصوصية له دون سائر المرسلين .وفي افتراض الصلاة هنالك في ذلك الموضع خصوصية لها دون سائر الأحكام ، فيكون المعنى :

ارجع يا محمد متحركاً بجسمك ، ساعياً في طلب ما ينفعك وينفع أمتك ، إلى ذلك الموضع الشريف العظيم ، الذي ما ناله أحد غيرك ، ولا حصل لأحد سواك ، الذي افترض ربك عليك الصلاة فيه ، واسأل منه تخفيفها ليخفف عنك منها ما قضاه عليك وعلَّقَه ولم يُحَتِّمه وهي الخمسون، إلى أن يبقى عليك منها ما قضاه وحَتَّمَه وهي الخمس ، مع ما في حركته من السعي والتسبب فيما ينفعه وينفع أمته، وفي ذلك زيادة الفضل وغاية المحصول ، كما جعله يجاهد في سبيل الله وإقامة أمره ويقاتل أعداء الله، ولو شاء الله لانتصر منهم ، وأهلك عنه كل من خالفه ، قال : ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ .

وهل رجع في كل مرة إلى ذلك الموضع الجليل ، قاب قوسين ، أم إلى موضع دونه ؟

رأيت في نسخة من المعراج ، وكان غالب نَقْله من الصحيحين ، قال في المرة الأولى : فرجع سريعاً، أي بعد قول موسى له أول مرة : « فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف » ، فرجع سريعاً قاصداً طلب التخفيف ، حتى انتهى إلى الشجرة ، فلعلها سدرة المنتهى ، ويفهم ذلك أنه في كل مرة ينتهي إليها ، قال : « حتى انتهى إلى الشجرة ، فغشيته السحابة ، فخرَّ ساجداً لله تعالى ، وقال : ربِّ خفِّف عن أُمَّتي » ، قال : « وَضَعْتُ عنك خمساً » ، ثم انجلت السحابة ورجع إلى موسى ، وقال : « وضع عني خمساً » ، قال : « ارجع » .

وهكذا في كل مرة خمساً ، إلى أن بَقِيَتْ خمس ، وقال تعالى : « هُنَّ خمس صلوات في كل يوم وليلة، بكل صلاة عشراً » ، فتكون خمسين صلاة ، لا يبدل القول لدي ولا ينسخ كتابي ، ومن هم بحسنة ولم يعملها فهي له حسنة ، فإن عملها فهي له بعشر إلى سبعين إلى سبعمائة .. إلى آخر الحديث .

ففهم من قوله تعالى : « لا يبدل القول لدي ، ولا ينسخ كتابي : تحتمها » ، ففهمنا أنها محتومة لا علاج فيها ، وأنه لا يدخلها طلب التخفيف ، فلهذا لم يدخلها ذلك ، وفي رواية قال الله تعالى : « قد جعلت ثواب الخمسين في الخمس » ، وفي رواية : « وضع في كل مرة عشراً » ، وكذلك كل ما قُضِيَ محتوماً لا يدخله المحو والإثبات ولا الرُّقى ولا التداوي ، ولا يدفعه شيء ولا بد من وقوعه ، وإنما يدخل ذلك في المقضي معلَّقاً .

ويكفيك دليلاً وشاهداً في هذا المعنى ، أن النبي ﷺ في مواقف الحج سأل من ربه ثلاث خصال، إحداها محتومة ، وثنتان معلقتان أعطيهما دون الأخرى ، والدعاء هناك مستجابٌ من غيره ، فكيف هو ؟ روى مسلم : عن سعد بن أبي وقاص ، عن النبي ﷺ قال : « سألت ربي ثلاثاً فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة : سألت ربي أن لا يهلك أمتي بالسَّنَة فأعطانيها ، وسألته أن لا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها ، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها » ، وفي رواية بعض لفظ الحديث لما أعطاه الثنتين تلطف له بالجواب عن الثالثة فقال : « يا محمد ، إني إذا قضيتُ قضاء فإنه لا يُرَد ، أعطيتك الإثنتين فدع عنك هذه » ، أو كما هو لفظ الحديث .

فهذه التي منعها من الثلاث من القضاء المحتوم ، لا علاج فيها ، فكل ما جرى بين المسلمين - سيما خيار الأمة من الصحابة من خواص الأمة وعمومها - فكلُّه من جانب هذه الدعوة المحتومة التي لا بد من وقوعها . وقد قال الله لآدم لما أنزله من الجنة إلى الأرض : ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًاۢ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾، والحمد لله على تبعيضه ، حيث جعل العداوة بين البعض ، ولم يجعله بين الكل ، وإلا لكان لا يلتقي اثنان من بني آدم إلا وهما متعاديان هـ .

قال رضي الله عنه : « قال النبي ﷺ بسبب يهودي : لا تُفَضِّلوني على يونسَ بنِ متى . ولا ينبغي تأويله بأن ذلك كان قبل أن يعلم أفضليته ، بل السكوت عن التأويل أحسن » .

ثم قال : « ومن هذه الأشياء يتطرق للأولياء الإنكار فيما يقولون ، لأن مقام الولاية لا يبلغ مقام النبوة » ، ثم انجر الكلام إلى ذِكْر القدرية والجبرية فذَكَرَ : « إن بعض الصالحين جاءه قَدَرِيٌّ ليُحَاجَّه، فقام القدري وقعد فقال : ها أنا قمتُ بنفسي وقعدتُ . فقال له الصالح : فقم إذاً . فرام القيام فلم يستطع فانقطعت حُجَّتُه . وأما الجبرية المحتجون على الله ، فإذا قام أحدهم للمعصية وقال : إنما أقامني الله لها . فنقول له : تكذب على الله ، إن الله نهاك عنها ولا نراك مُكْرَهاً عليها ، ومن قال لك افعلها ؟ ولكن الله تركك من حفظه ، فأخذ بيدك الشيطان وجَرَّك إليها » هـ .

أقول : ونقول له أيضاً : إن الله قضى عليك قضاء حتماً أن يجازيك جزاء تلك المعصية بالعقوبة ، ولذلك تركك من حفظه ، حتى قادك الشيطان إليها ليجزيك بذلك الجزاء .

وكذلك كل من أراد الله سبحانه أن يجزيه جزاء المعصية بالعقوبة ؛ تركه من حفظه وقاده الشيطان لذلك ، ليجزيه ما أراد له جزاءه ، فإن الله تعالى جعل الشيطان قائداً لكل من خَتَمَ عليه جزاء المعاصي بالعقوبات ، كلٌّ بحسبه من كفر وعصيان ، كما جعل الأنبياء قُوَّاداً إلى الخير ممن ختم له أن يجازيه بالإحسان ، وهم الذين قال الله فيهم : ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾، أنّى له ذلك وقد أضافهم إلى نفسه في العبودية . وقال في حق الآخرين الذين تركهم من حفظه وسلطه عليهم :﴿إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ۝ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ۝﴾، ثم قال في أولئك عباده المخلصين المضافين إليه : ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ ۝ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ۝ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ۝ * نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝﴾، ثم عطف القول على المذكورين الذين أغواهم اللعين فقال : ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ۝﴾، أي الذي أردته لهم ، فسَلَّطتُ الشيطان عليهم يقودهم إلى عمله الذي استحقوه به ، على ما أجرى به حكمته من ترتيبه الأشياء على أسبابها خيراً وشرًّا ، ونفعاً وضرًّا ، وجعل أسباب الدنيا فيها وجعل أسباب الآخرة في الدنيا ، كما رَتَّب جزاء الفريقين في الآخرة من عباده المخلصين، وأتباع الشيطان الغاوين على حسب أعمالهم في الدنيا ، فإنهم لم يستحقوا ما جرى لهم وعليهم إلا بأعمالهم في الدنيا .

قال الشيخ عبدالله بن أبي جمرة الأندلسي رضي الله عنه في هذا الحديث : « لا تفضلوني .. إلخ » : « يعني بذلك نفي التكييف والحدود ، على ما قاله أبو المعالي ، لأنه قد وُجدت الأفضلية بينهما في عالم الحس ، لأن النبي ﷺ أُسرِيَ به إلى السبع الطباق ، ويونس عليه السلام نُزِلَ به إلى قعر البحر ، وقال

النبي ﷺ : أنا سيد ولد آدم ولا فخر ، وقال : آدم فَمَن دونه تحت لوائي يوم القيامة ، وقد اختُصَّ بالشفاعة الكبرى التي لم تكن لغيره من الأنبياء .

فهذه الأفضلية قد وُجِدَت بالضرورة ، فلم يبق أن يكون قوله ﷺ : لا تفضلوني على يونس بن متى . إلا بالنسبة إلى المسافة ، فمحمد ﷺ وإن أُسْرِيَ به لسبع الطباق واختراق الحجب ، ويونس عليه السلام وإن نُزِلَ به لقعر البحار ، فهما بالنسبة إلى القرب من الله تعالى على حَدٍّ واحد . والمراد بقوله عز وجل : ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝﴾ ، أي أنه لو كان لله عز وجل مسافة يُمشى إليه فيها ، لكان النبي ﷺ منه بذلك القرب ، إشارةً منه عز وجل إلى قرب نبيه منه وتشريفه ، فَتَحَصَّل من هذا أن ليلة الإسراء كانت خيراً خاصًّا به ، وفَرْض الصلاة فيها عليه وعلى أمته مشترك بينه وبين أمته » ، انتهى كلام ابن أبي جمرة بحروفه .

وكأن قول سيدنا : « **ولا ينبغي تأويله** » ، بأن ذلك كان قبل أن يعلم بأفضليته ، وقد أوَّله بذلك كثير من العلماء ، وسيدنا لم يرض بهذا التأويل ، واستحسن السكوت عن ذلك وهو أسلم للدين وأقرب إلى الأدب . ومراده بقوله هذا : الرد على من أوله به ، ومشيراً به إلى صحة المعنى الذي أشار إليه ابن أبي جمرة ، وأنه الأصح المتبع الذي ينبغي أن يقال به ولا يُعدَل عنه .

وقوله : « **ومن هذه الأشياء .. إلخ** » ، يعني ما تقدَّم ، وما وقع لموسى مع النبي ﷺ من الغارِيَّة ، ومن عدم حصول الرؤية لموسى وحصولها للنبي ﷺ ، وقال ابن الفارض :

وَإِذَا سَـأَلْتُكَ أَنْ أَرَاكَ حَقِيقَـةً ... فَاسْمَحْ ، وَلَا تَجْعَلْ جَوَابِي : لَنْ تَرَ

فأُنكِرَ عليه ، إذ لم يحصل لموسى في مقام النبوة ، فكيف يحصل له في مقام الولاية ، فأنكر عليه قوله ذلك ، لأن مقام الولاية لا يبلغ مقام النبوة ، فكيف قال ؟ لكن كان مغلوباً ، والمغلوب معذور . ونحو ذلك من أقاويلهم التي أُنكِرَت عليهم .

وإنما ذَكَر مَذهَبَي القدرية والجبرية مقرِّراً لإنكارهما ، وإنكاراً على من يعمل على مقتضى المذهَبَيْن كائناً من كان ، ولو كان سُنِّيًّا .

وإنما انجرَّ به الكلام إلى وصف المذهبَيْن ، لأن الشاطح والمنكر بلا تَحَرٍّ للصواب ومعرفة حكمه ، وأحوال أهل المذهبين وأعمالهم ؛ كلها أهوية متداعية ، يَجُرُّ بعضها إلى بعض ، وقد قالوا : « إن الشاطح ما يشطح إلا لغلبة هوى في النفس ، وإن كان في مقام عالي وفي حال غيبة » هـ .

وسألته رضي الله عنه عن ما جاء أن الملائكة لهم أجنحة يلتحفون ببعضها ويفترشون ببعضها ، وأن الواحد منهم كالجبل ، ونحو هذا مما يوهم أنهم صور حسية ، مع إنما هم أرواح معنوية ، *فقال* : **« هم كذلك إذا تمثلوا صوراً على الصور التي يتمثلون فيها ، كما رأى النبي ﷺ جبريل عليه السلام، وقد سد الأفق ، وقال إنه كثيراً ما يراه على صورة دِحْيَة ، وكذا في القرآن ﴿أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٍ﴾، وأما حالتهم الأصلية فهي الروحية ، والآدميون إنما يتمثلون كذلك بعد السلوك ، فحينئذ يمكن منهم ذلك، وأما الملائكة فهذه حالتهم الأصلية »** .

قال : **« الروح ما يتغذى بالأكل ، وصاحب الأمر إنما غذاء روحه في الأمر والنهي في قوله : افعلوا كذا ، واتركوا كذا ، وحطُّوا كذا وأخِّروا كذا »** هـ .

أقول : يعني من شدة محبته للجاه صار غذاء روحه بالعلو والمنزلة والتأمُّر على الناس ، ففي ذلك غذاه ، ويَقِلُّ غذاءُ بالأكل والشرب هكذا غالباً ، وسبب ذلك من جانب الروح الأمري الإلهي ، كذا أفهمه كلام الإمام الغزالي ، وهو كذلك للإنسان الخفيف الروح الرقيق الطبع . وأما من كَثُفَ روحُه وغَلُظَ طبعُه ، فصار طبعه قريباً من طبع الدواب ، فإنما غذاؤه في الأكل والشرب ، كما قيل :

وَذُو النَّباهَـةِ لا يَـرضى بِمَنقَصَـةٍ   لَـو لَمْ يَجِد غَـيرَ أَطرافِ القَنا عِصَـما
وَذُو الدَنـاءَةِ لَـو مَزَّقـتَ جِلدَتَـهُ   بِشَـفرَةِ الضَيـمِ لَمْ يَحسس لَهـا أَلَمَـا

قال رضي الله عنه : **« لِيَجْهَد الإنسان في سلامة نفسه أولاً ، ثم في سلامة غيره . ومن هو غارق في بحر ، كيف ينجي غيره ويغرق نفسه ؟ ما عاد إلا اعمل في نفسك ، واشكر الله على ما أعطاك ، ولا تَقُلْ في الناس إلا خيراً ، إنما ذاك إذا صادف الإنسان وفيه داعية إلى الخير من نفسه ، وأما عند التكلف فلا يمكن شيء ، ولكن ما دام يرجو الإنتفاع لنفسه لا يُقَصِّر ، وتعرَّفْ ما يجوز السكوت عليه – أو قال: عنه – وما لا يجوز ، ومثل ذلك كمن رأيتَه في تقصير ، فإذا طَلَبْتَ منه الصواب فلم يفعل ، جَعَلْتَ تغتابه فتقع في الحرج ، كمن رأيتَه في وَحَلٍ أردتَ تخرجه منه فغرقتَ عنده في الوَحَل »** .

وقال في مجلس القراءة بعد العصر : **« ما عاد ألَّا يأخذ الإنسان ما تيسر على قدره مع المسامحة ، عسى تحصل المسامحة من فوق بالنسبة إلى نفسه وإلى زمانه ، وإلى إعراض الخاص والعام »** .

قال بعدما فرغ قاريءٌ كان يقرأ في « منهاج العابدين » : **« إن هذه الأشياء لا تظهر إلا بالتكرار والتأمُّل ثم الإستعمال ، فطالِعْهُ مرةً ومرتين وأكثر ، وتأمَّلْ ثم اعمل ، وإلا كنتَ كالذي يعرف الدواء وهو مريض ولا يستعمله »** .

قال : « غداً يوم القيامة التحاكم بيننا وبينهم ، إذا رأيتَ صلواتهم وزكواتهم ومعاملاتهم الباطلة، وقد يكون رأساً ، فَبِماذا يحسن الظن فيهم ؟ غاية حسن الظن بالمسلم العاصي ، أن يعتقد فيه أنه لا يبقى على ذلك ، ولا يصر على المعصية . وانظر ذلك في نفسك ولا تحدد في هذا الزمان ، فإنك إن فعلتَ رأيتَ ما يسوؤك وفي الزمن السابق إذا حدَّدتَ رأيتَ ما يَسُرُّك . وما راح بالناس إلا الأماني ، يُمَنِّي نفسه بالتوبة وبمن يشفع له ، وهذه أماني باطلة ، وأما محبة البقاء فطول أملٍ يُشغِل عن العمل الصالح .

وشفاعة الأولياء ذكروا إنما هي لمن شابههم ، فبسبب المشابهة لهم يحصل الشفاعة منهم المغناطيس، والأمور قد بَعُدَت ، فيأخذ في درجة أصحاب اليمين ، وإذا أردتَ تعرف تباعد الأمور فانظر بين حال أهل وقتك وحال من قبلهم ، فيكون حال كل متقدم أزهد في الدنيا وهَلُمَّ جَرًّا . لأنه لولا النزول لما قامت الساعة ، لأنها يوم تقوم ما يبقى إلا شرار الناس ، يتهارجون فيها تهارج الحُمُر ، ولا تقوم إلا بغتة، لكن تتقدمها علامات ، في الحديث : إذا ظهرت علاماتها تبقى الساعة في قربها كالحامل المقرب » هـ .

أقول : قوله : « غداً يوم القيامة التحاكم بيننا وبينهم » ، يعني أقواماً مخالفين للأمر أعمالهم باطلة ، مرتكبين للمعاصي مصرين عليها ، وإن عملوا طاعات فعلى غير شروطها فلا تصح ، وفيهم رؤساء متَّبعون ، لهم أتباعٌ يفعلون كفعلهم ويحتجون بهم ، فلا لحسن الظن فيهم وجه ، وأنت ترى ما هم عليه مما ذكر من أحوالهم . وانظر ذلك في نفسك ألا تكون مصرًّا على مثل عملهم ، إن كان فأنكره على نفسك أولاً واتركه، ثم انصحهم لوجه الله ، وإلا فلا يسمعون لقولك وهم يرونك تعمل مثل عملهم، كما ترى من هو منهمكٌ في الدنيا وليس في قلبه تقوى ، وهو يُزَهِّد الناس في الدنيا ويقول : « اتقوا الله » ، فلا يجدي قوله ولقلقة لسانه وفي قلبه خلافه ، ولا يخفي ذلك .

وقوله : « فلا تحدد في أهل وقتك » ، أي لا تمعن النظر فيهم ، فربما تَطَّلِع منهم على أمور منكَرة يلزمك إنكارها ، وقد كنت غافلاً عنها . وكان في ما مضى من الزمان إذا أمعنتَ وتقصَّيتَ ، فلا ترى إلا خيراً وجميلاً ، بخلاف اليوم ، وفاعل المعاصي اليوم يَغُرُّه الشيطان ويَحُثُّهُ على فعلها ، فيقول له : افعلها . فيفعلها ، ويقول : أَفْعَلُها وأتوب ، والعمدة على شيخي أو جدي ، ينفعني ويشفع لي . فيغتر بخواطر الشيطان هذه وأمثالها ، فيقع في المعصية .

وقوله : « إنما تحصل الشفاعة من الأولياء لمن شابههم » ، أي بالإقتداء بهم في أعمالهم فيشبههم بذلك ، وإن المشابهة كالمغناطيس في جذب الحديد ، تَجُرُّه إلى من شابَهَهُ ، كما يجذب المغناطيس الحديد إلى نفسه ، للمناسبة بينهما . وذكر الإمام الغزالي : « أن خاصية جذب المغناطيس للحديد لم يَطَّلِع عليها أحد من الخلق » ، أظن قال : « لا مَلَك مُقَرَّب ولا نبي مُرسَل » ، حتى الأنبياء لم يَطَّلِعوا عليها،

ولم تُذكَر عن أحد منهم .فالمشابهة بالإقتداء يجذبه إلى الذي اقتدى به ، لِسِرِّ المناسبة بوجود المشابهة ، كما يجذب مَلَك الموت الروح بالمناسبة والمشابهة ، لأن الروح من عالم الملائكة ، ولهذا هو فيك ، وإنما حياتك به ، ولا تراه ولا تحس به ، فإذا تراءى ملك الموت للروح عند الموت طار إليه وانجذب له .

والمشابهة على نوعين : إما في الأعمال ، بأن يعمل مثل أعمالهم .

والأعمال نوعان : أعمال الخواص ، فربما شيخه أو جده الذي اقتدى به من كبارهم ، وفي أزمنة مباركة صالحة قد مضت ، فلا يقدر عليها من كل وجه في زمانه هذا ، الرديء برداءة أهله ، لعموم الحرام فيه . وأعمال العامة ، والزمان قد بَعُدَ عليه عن عمل الخواص ، فيأخذ بعمل العامة أصحاب اليمين : أداء الواجبات بشروطها ، وترك المحرمات ، وفعل ما أمكنه من النوافل ، كذا ذكر ذلك غير مرة ، أنه أعمال أصحاب اليمين ، كما قد تقف عليه في هذا النقل في غير محل ، وأن من عمل عليه في هذا الزمان وأحكمه بلغ ما بلغه الخاصة المقربون ، لانقطاعها فيه وعدم سالكيها .

قال : « **وأما الخاصة ، فهي الفراغ عما سوى الله في الظاهر والباطن ، والتخلي عن الصفات المذمومة بتفصيلها ، والتحلي بالصفات المحمودة بتفصيلها . والعامة طريق أصحاب اليمين ، والخاصة للمقربين، ولا ينالها قبل إحكام الأولى ولو عاش عمر نوح** » .

قوله : « **وكل متقدم أزهد في الدنيا من كل متأخر** » ، وهذه أقوى العلامات في التفرقة بين المتقدم والمتأخر ، وإلا فالعلامات غيرها كثيرة ، ولكن هذه أبلغ العلامات ، فكل متقدم تكون الدنيا في نفسه أهون ، ولو في الجاهلية ، وكل متأخر تكون نفسه أحرص عليه وأشح وأقبح ، ولو في الإسلام ، وكلما تأخر زاد شحه ، كما قدمنا من أحوال أهل تلك المناصب فيما تقدَّم ، وأحوال أهلها اليوم ، كيف كانوا يُضرب بهم المثل في السماحة والمعروف والمروءة ، وكيف هم اليوم يُضرب بهم المثل في شدة شح النفوس وعدم المعروف وذهاب المروءة ووجود اللآمة من أماثل أهل الزمان .

ولذلك قال سيدنا تلك المقالة لما رأى الفرق بين الحالين ، حال من مضى ، وحال الموجودين في هذا الزمان ، وهي قوله : « **في هذا الزمان انعكست الأمور عن أوضاعها ورجعت إلى أضدادها ، فينبغي أن يسمى الزمان مخيب الظنون** » ، يعني إذا رأيت أهل ذلك الزمان الماضي وأماثله ، في علمهم وورعهم وتقواهم ، ثم أدركت أماثل هذا اليوم ، فتظنهم على ما عليه أولئك ، وإذا بك تراهم على أقبح حالة من شدة الشح وقلة التقوى والمروءة والخير ، فخاب ظنك فيهم ، كما قيل :

مَـرَرْتُ عَـلَى المـُروءةِ وَهْـيَ تَبْكِـي   فَقُلْـتُ : عَـلامَ تَنْتَحِـبُ الفَتَـاةُ

فَقَالَتْ : كَيْفَ لا أَبْكِي وَقَوْمِي جَمِيعاً دُونَ خَلْقِ الله مَاتُوا

حتى إن السَّوَقَة والقصاصيب في ماضي الزمان أسمح من أماثل هذا الزمان - أعني المناصب - فما بالك بعمومهم . فمما رأينا من ذلك في الماضي من الزمان ، أن رجلاً اشترى لحماً من قَصَّاب ، ونَقَدَ له الثمن ، فانكسر خاطره ورده إلى مدة . وأن رجلاً في هذا الزمان شرى لحماً من عند قصاب ، ووعده بالثمن في غد ، فجاءه صاحب اللحم وقد وضعه في القدر ، وجعل القدر يفور فقال : « أعطني ثمن لحمي وإلا هات اللحم » ، قال : « اللحم في القدر وهو على النار يفور » ، قال : « أَخْرِجْه من القدر واعْطِنيه أو قيمته ، حتى أقترضه له » .

فانظر هذا المثال في الفرق بين الوقتين الماضي والحاضر ، ثم إن الزمان زاد رداءة إلى هَلُمَّ جَرًّا ، والمثل إنما يُضرب في ما عَظُمَ أمره في الحالين جودةً ورداءةً ، ولو في رجل واحد في أي وقت ، فيُعرَف من شأنه شأن أهل وقته في الطيب والردى ، ولو لم يكونوا كلهم كذلك ، لكن العبرة بالأكثر ، فإن في الغالب أن حال القليل ولو واحداً يدل على حال غيره ، ويُقاس عليه قَلُّوا أو كَثُروا .

وتشمل كلمته المتقدمة في انعكاس الأمور عن أوضاعها على هذا المعنى من جميع وجوهه ، وذَكَرَ لنا علامة نزول الناس وتناقصهم عن الأول ، والفرق بين الأولين وأهل وقتك ، أن الأولين أزهد في الدنيا ، وأنها أهون في قلوبهم من هؤلاء ، وأن هؤلاء متولعون بها إلى الغاية مما لم يحط به الوصف .

بل انظر في نفسك وأَنْصِف ، ترى الفرق بين حالك العام وحالك الحاضر في محبة الدنيا ، ويكفيك ذلك مثالاً ، ولا ترى في ذلك فرقاً بين المسلم والكافر ، فإن الناس كانوا في الجاهلية الجهلاء على كفرهم لا يتعرضون لنهب قاصد الحرم ، ولو كان الرجل يدور قاتل أبيه ليقتله ، فإذا لقيه قاصداً الحرم كفَّ عنه ولا تعرض له بسوء ، فما بالهم اليوم وهم في الإسلام إنما طمعهم وقصدهم السوء لقاصد الحرم ، فيقصدونه بالنهب والأذى أكثر من غيره ، لطمعهم فيه أكثر ، فما بال أهل الجاهلية فاقوا هؤلاء بهذه الخصلة ؟ ، فهذه من علامات قرب الساعة ، فإنها موعودٌ أن لا تقوم إلا على شرار الخلق ، بل على أشر خلق الله ، بعدما ينقصون شيئاً فشيئاً ، حتى يبلغوا حد النقص ، فإن هذا حد النقص ، فإذا بلغوه ولا تقوم إلا بغتة ، وعدد هذه اللفظة لفظة « بغتة » : ألف وأربعمائة وسبعة ، وقال بعضهم : إذا انقضى هذا العدد قامت الساعة ، وإنما علمها عند الله .

وتهارج الحُمُر تقدم معناه عن قول الإمام السيوطي : وهو أن يقوم الرجل من المجلس ، فيلتقي بزوجته ، فيواقعها والناس ينظرون ، وما أحد أنكر عليه سوى رجل هو أطيب أهل ذلك الوقت ، قال له : « لو أنك دخلتَ بها في محل لا يراك الناس » . ثم ينزل الزمان والناس وينقصون ، إلى أن يصير

الرجل يلتقي بالمرأة الأجنبية ليست زوجة له ، فيواقعها والناس ينظرون لا ينكر عليه أحد ، فهذا تهارج الحمر كما ذكره الإمام السيوطي . فإذا صاروا إلى هذا الحال قامت الساعة ، وصارت كما تقدم في الحديث : « كالحامل المقرب » . فعند ذلك تقوم ، وهي النفخة الأولى في الصور التي يموت بها كل حي من الخلق .

فاعرف الفرق بين ما تقدم من الزمان وما تأخر بالعلامة التي ذَكَر ، وهي هوان الدنيا على النفس وشحها ، وما مثَّل بهذه العلامة إلا من غزير علمه ، وعظيم معرفته بأحوال الأزمنة وأهلها ، من تقدم منهم ومن تأخر هـ .

قال رضي الله عنه : « **من رأيتَه على معصية فقد أبدى صفحته ، فلا معنى لحسن الظن به ، إلا أن تظن به التوبة وعدم الإصرار ، وأما إذا كان ظاهر فعله طاعة أو يحتملها ؛ فلا وجه لسوء الظن ، وفي الحديث: من أبدى صفحته فلا غيبة له** » هـ .

أقول : معنى « أبدى صفحته » : أي أعلن بمعصيته .

وذَكَرَ أهل الوقت ، *فقال* : « **إن الإنسان لا يقيس إلا على نفسه ، فإذا رأى صالحاً في وقته ظنه مثله لوجود بشريته ، وإن كان فيه خصوصية ، ومن مات إنما يسمع بخصوصياتهم دون بشرياتهم ، فيعتقد فيهم لا محالة ، وبُدُّك من يطوي البشرية وينظر إلى مجرد الخصوصية ، وهؤلاء ما يريدون الصالحين لأجل التعلم منهم والإقتداء بهم ، وإنما يريدون منهم أن يبرهنوا لهم فيما يزيد دنياهم ، ويريدون الفقهاء لأجل أن يُعَلِّموهم الحِيَل والرُّخَص في أمور الدنيا ، ويَوَدُّون لو مات الفقراء كلهم ، حتى لا يبقى فقير يسألهم ، أو يقف عند أبوابهم ، ليتفرغوا منهم ويستقلوا بدنياهم ، ومثل هذا فجميع مطالبهم الدنيا فقط ، لا عناية لهم بأمر الدين البَتَّة** » هـ .

أقول : قوله : « بُدُّك » ، بضم الباء الموحدة من تحت ، وتشديد الدال المهملة ، كلمة في لغة أهل حضرموت ، معناها القليل النادر جداً الذي لا يكاد يوجَد هـ .

قال رضي الله عنه : « **الناس في العمل مَن هو مجتهد بالنسبة إلى من قبلهم ، كالأعرج في أسفل الدرجة، والآخر صحيح في أعلاها ، وهو يراه ويتأسف إن لم يكن عنده فيمسكه ، وأما غير المجتهد فالعياذ بالله يتكلم بكلام فظيع . ومَن طَالَعَ في كتابٍ ما عاد يقنع بالجنة – أي هذا مبالغة في التكبر – وهو ما يسوى**

شيء - أي يطلب أعظم منها لاستعظامه في نفسه - وبعض أصحابنا قال : أستريح بالأماني ، ولكنني ما يبقى في يدي منها شيء ، فقلنا له : ما بلغك شيء مما قيل في الأماني ؟

أَمَانِيُّ إِنْ تَصدُق تَكُنْ غَايَةَ المنى وَإِلا فَقَدْ عِشْنَا بِهَا زَمَناً رَغْدا

قال : بلى » .

قال رضي الله عنه : « أمور الدنيا مَنْ قُدِّر له منها نصيب ، وصبر على أوائلها ارتقى إلى أعلاها ، لكنه سمح - أي سريع - ونشغ به - أي حُذِف به ، أي يموت عنه - هذا في أمور الدنيا . وأما أمور الدين، فإذا ارتقى فيها إلى منزلة عالية ؛ فإنه لا يزال في علو وارتقاء » .

قال : « الإنسان ضعيف ، إذا وقع في أمر من خير أو شر ، ظن أن هذا هو هو - أي يستعظمه جدًّا- فإذا كان بعدُ تبين له أن ما هناك شيء » .

قال : « في إعانة الله العبد في الأمور ، ما يعين الله الإنسان في أمر يفعله أو يتركه حتى يَهِمَّ به ويَشْرَعَ فيه ، فإذا شرع أعانه ، سواء كان ذلك في الفعل أو الترك » .

وذم أحوال أقوام ، فقال : « فرط الشهوة والفعل يشتد في الإنسان ، حتى يقيم الحجة لنفسه على ربه ، وحقائق الدين قد خرجت من الباطن ، وإنما بقيت صور ، لا أن الصور الظاهرة تدل على الصور الباطنة ، إلا أهل الدوائر من الأولياء - أقول : يعني أن صور ظاهر العبادة في هؤلاء لا تدل على كونهم متحققين بالعبودية باطناً ، بخلاف الداخلين في دائرة الولاية ، فإن ظاهرهم في ذلك يدل على ما في باطنهم مما ذكر - ولو قلتَ لواحد : تَصَدَّق وافعل الخير ؛ أتاك بمائة علة ، ثم يشتهي أن يكون من أولياء الله ، وهو من أولياء الشياطين ، وأرادوا الكرامات يتزيدون بها في دنياهم ، وإذا هم إلا هكذا ، فترى الدجال فيه كفاية ، وتتبعه الكنوز . فليحرص الإنسان في تصحيح أصول الدين ، وفعل الظواهر التي لا عذر في تركها ، ويعتقد في نفسه التقصير ، ويعتبر في يومه وليلته ، ويرى أي الأكثر ، من صار إلى الله أو إلى الدنيا ، فيعرف لما يرى، مع إن المصير إلى الله هو الذي عليه المعوَّل ، فليناقش نفسه ، إذ هو أعلم بها من غيره ، والناس في ستر الله ، لا اطلاع لأحد على أحد ، والعلماء يفرحون بعدم اطلاعهم على الناس ، ويحمل الدين من كل خَلَفٍ عُدولُه » هـ .

أقول : قوله : « فرط الشهوة والفعل » ، هكذا وجدتُ في الخط الذي نقلته تلقاءه ، ولعله : وضعف العقل ، والله أعلم . والمانع للناس من الصدقة والمثبط لهم عنها ، الشح المفرط الذي أنزل في قلوبهم في هذا الزمان ، ، فلا ترى ولا تجالس إلا شحيحاً ، وسرت مجالستهم إلى بعضهم البعض بالشح الفظيع، مع قلة الرغبة في طلب الثواب بالمعروف ، وعدم المروءة الحاثَّة على ذلك ، وتبدُّلها بالشح واللآمة ،

﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾، فدلَّ ذلك على عدم فلاحهم . وقد صار اليوم المعروفون فيما تقدم بالمعروف والكرم والسماحة أشح وأخس من أهل اللآمة والقباحة ، وهذه هي العلامة التي ذكرها ، وهذا الشح الشديد الذي حدث من علامات الساعة ، وعضَّد ذلك في قلوبهم - كما قال : « **أتاك بمائة علة** » - أمران : الجهل وضعف الإيمان .

أما الجهل : فإنهم لا يعلمون ما جاء عن الله ورسوله في المعروف وقضاء حاجة المؤمن لوجه الله، والتيسير على المعسر ، والصدقة الخالصة لله ، من الثواب والنفع في الآخرة . وأما ضعف الإيمان : فإنهم لو علموا بذلك لم تنبعث منهم داعية للعمل رغبة في ثواب الله ، لعدم رغبتهم في ذلك لضعف إيمانهم، وأما لو علموا أنه ينفعهم في الدنيا ، لعملوا لأجل ذلك .

وقد تقدم قوله : « **مَن تُحرِّكه الرغبات الدنيوية لم يكن للرغبات الأخروية أهلاً كمن سمع أن من صلى الضحى تَيَسَّرَ رِزقُهُ ، ففعل لذلك ، فلا يقُل : أرجو به الجنة ..** » ، إلى ما تقدم ، وطَوَّلنا عليه الكلام ، وأن هذا إذا طلب على العبادة الجزاء من الله ، فكيف إذا طلبه بنيته من الخلق ، وأخذه منهم جزاءً لعمله ذلك في الدنيا .

كما ذا ترى أناساً لهم معرفة بالعلم ونسبة إلى الدين ، كيف هم هذا يبيعون عباداتهم وطاعاتهم التي يرجون نفعها في الآخرة بأطماع دنيوية ، ومع نيتهم هذه الفاسدة وأَخْذِ طمع الدنيا عليها يطمعون في توفر ثوابها لهم في الآخرة ، فأدخلوا في دين الله غير ما شرعه الله ، فإن الله سبحانه وعد على العمل الخالص جزاءً حسناً في الآخرة ، وما وعد عليه أن يؤخذ عليه أجران ، أجراً في الدنيا وأجراً في الآخرة. وهم مع فساد نيتهم وعدم الإخلاص ، يطلبون الأجرين غروراً من الشيطان ، وأماني باطلة ، وإنما الأعمال بالنيات ، فلولا غرورهم وأماني نفوسهم بغير ما شرعه الله ، ما إنَّ رسول الله ﷺ قال في الحديث الصحيح : « من توضأ في بيته ومضى إلى المسجد للصلاة لا ينهزه إلا الصلاة ، فله بكل خطوة يخطوها تُكتب له حسنة ، وتُمحى عنه سيئة ، وتُرفع له درجة » ، فالشارع شَرَطَ في حصول ذلك أن لا تنهزه إلا الصلاة ، وهؤلاء لا تنهزهم إلا الوظيفة أو الأجرة على الصلاة ، أو غير ذلك من الأطماع الدنيوية ، فألغَوا ذلك الشرط ، وبقوا طامعين في الوعد . وهم مع ذلك يعتقدون في أنفسهم أنهم على حق ، مع مخالفتهم لكلام الله ورسوله ، وإلغاء ما شرطه الله ورسوله على ما وعد الله العاملين المخلصين، وخالفوا بذلك كلام وسِيَرَ الأولياء والصالحين . وأي فساد أقبح وأفظع من هذا في الدين، وكل هذا من فساد العلماء المفسدين ، الذين أدخلوا في الدين ما ليس فيه ، فهم أشر على الدين من الدجال اللعين ، وهم الذي عناهم سيدنا بقوله : « **ما أفسد على الناس دينهم إلا العلماء ، ولكن بعد فساد دينهم** » .

فأما الذي يداوى به هذا الجهل من داء البخل ، فهو كلام الله وكلام رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ، قال الله تعالى : ﴿وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾، ﴿إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ﴾، ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ ، وغير ذلك . وحديث رسول الله ﷺ ، وهو ما أسنده الإمام السيوطي في كتابه « الكشف عن مجاوزة هذه الأمة الألف » وبنى عليه كتابه هذا ، بإسناده إلى أنس رضي الله عنه قال : « سمعت رسول الله ﷺ يقول : من قضى حاجة المسلم في الله، كتب الله له عمر الدنيا سبعة آلاف سنة ، قيام ليلها وصيام نهارها » ، فاعجب لهذا الوعد العظيم العجيب ، الذي ما يعطيه الله إلا من أحبه ، ولا يوفق لعمله إلا من اختصه ، كيف ما يسوى عند الأحمق الجاهل الضعيف الإيمان عشرة دراهم يخرجها في قضاء حاجة مؤمن لوجه الله .

وذكر حديثاً رواه مسلم ، قال رسول الله ﷺ : « أول من يستظل بظل عرش الله يوم لا ظل إلا ظله، رجلٌ أَنْظَرَ مُعسِراً أو محا عنه » ، أي أبرأه . فالعجب كيف هذا الرجل الفاعل لذلك ، يستظل بذلك الظل العظيم ، قبل أولئك السبعة المبجلين الموعودين به على خصالهم المذكورة في حديث الصحيحين: « أول من يستظل بظل عرش الله يوم لا ظل إلا ظله ، سبعة » ، وذكرهم وخصالهم الشريفة إلى آخر الحديث ، وهذا الرجل الفاعل ما ذُكِر يسبقهم إلى ذلك الظل ، ويستظل به قبلهم ، فأكرم بهذه من خصلة ما أجلها ، ومن منقبة ما أشرفها ، وما يوفق الله لها إلا من أحبه .

أقول : ذكر في « الدر المنثور في التفسير بالمأثور » ، عن بريدة بن الحصيب الأسلمي رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من أنظر معسراً فله كل يوم بمثله صدقة . ثم بعد ذلك بمدة سمعته يقول : من أنظر معسراً فله كل يوم بمثليه صدقة ، فقلت : يا رسول الله ، سمعتك أولاً تقول: فله كل يوم صدقة بمثله ، وسمعتك الآن تقول : فله كل يوم بمثليه صدقة . فقال : إذا كان إلى أجَلٍ ، فأنظره إلى الأجل ، فله كل يوم بمثله صدقة ، فإذا حَلَّ الأجَلُ وأنظَرَه بعد ذلك ، فله كل يوم بمثليه صدقة » ، فانظر هذا الفضل العظيم الدائم التكرار ما تكرر الليل والنهار ، وتكرهه نفوس الغافلين المنهومين بالدنيا ، حيث أنه تجارة الآخرة ، فأحب إليه يقبض ثمن سلعته التي باعها بعشرة دراهم ، ولا يصبر بها مدة شهر ، فتصير عند الله بثلاثمائة أو ثلاثة أشهر وعشرة أيام ، فتصير عند الله بألف ، ولا فرق إلا أن المضاعفة في الآخرة ، ورأس ماله التي هي العشر في الدنيا ، ففي ذلك دلالة قطعية على أنهم يؤثرون الدنيا على الآخرة أضعافاً كثيرة بقدر تلك الأضعاف .

وإنما تَضَاعف أجر عامل ذلك المذكور ، لخروجه بذلك عن طور أبناء جنسه وهم أكثر الناس ، بل الكل إلا خواص لله مستورين تحت ستر غيرة الله ، وهم الطائفة التي أشار إليهم رسول الله بقوله: « لا تزال طائفة من أمتي قائمين على الحق لا يضرهم من ناوأهم » ، أي خالفهم . فأي خلاف أشد من

هذا ؟ وأمور كثيرة غير ذلك ، غالبه ما يتعلق بسماحة النفس وشحها ، كما تقدم ضربه ذلك مثلاً لمعرفة الأخيار والأشرار في متقدم الزمان ومتأخره .

فافهم ذلك وقِسْهُ ميزاناً لمعرفة أحوال الناس في كمالهم ونقصانهم ، ومع ما ذكرنا من شح النفوس في هذا الزمان وانْهِمَاكِهم وقلة رغبتهم في المعروف ، تراهم يصبرون المدة الطويلة ، وربما بلغ الحول والحولين في دَيْن السَّلَم ، لأجل الطمع في زيادة ، لعلها لا تبلغ ربع رأس المال ، ولا فرق إلا أن هذا عاجلاً في الدنيا ، والآخر آجلاً في الآخرة ، فأين كمال الإيمان ؟ ، ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝ ﴾.

وأحسن أحوالهم أن يَسْلَموا في معاملاتهم من الربا ، سيما هذه المسألة الخبيثة التي عمت الأرض، ولها في كل جهة اسم - وهي الصَّبِرَة - قاتل الله من سَنَّها للمسلمين وأدخلها في شرع الله ، فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة ، وهم يكذبون على الأئمة ، ويقولون تصح في مذهب فلان ، وحاشا الأئمة ، فإنها ما حدثت إلا بعدهم ، وما أفتى أحد منهم فيها بشيء ، وسمعت سيدنا عبدالله الحداد نفع الله به يقول : « **سئل عنها الفقيه عبدالله بافضل صاحب المختصر : ما تقول فيها ؟ فقال : هي مسألة مظلمة ، أرجو أن الله يقيض لها من يزيلها** » ، وهم يقرأون علم الفقه في كتابه، ولا يعملون بقوله هذا فيها .

وذكر أيضاً - أي الإمام السيوطي - حديث : « إذا أسدى المؤمن إلى أخيه المؤمن معروفاً ، وقال له : جزاك الله خيراً ، أن الله تعالى يقول : يا عبدي ، أسدى إليك أخوك معروفاً فلم تجد ما تكافئه به ، فأحَلْتَه عليَّ ، فخيري الجنة » ، يعني الخير الذي طلبت مني أن أجازيه عنك به الجنة . وفي هذا بشارتان: لفظية : وهي ذِكْر الجنة ، وضمنية : وهي ما تضمنه الوعد بالجنة ، وقد بشَّر ربك بالجنة ، وهي حسن الخاتمة ، فإن الجنة لا تحصل إلا لمن مات على حسن الخاتمة ، وخوف الخاتمة هو الذي قصم ظهور الأكابر .

وتقدَّم في بيع العهدة وهي الصبرة ، كلام أكثر من هذا .

قال رضي الله عنه : « أهل الدنيا المحبين لها ، إن كان جعل الله في قلوبهم شيئاً من الزهد ، تخف في قلوبهم بسببه ، استقاموا على الأحسن ، وإن حصل لهم هواهم وغرضهم ، تعبوا في أنفسهم ، وأتعبوا غيرهم ، إلا إن كان حصل لهم مانع ، والأموال الحرام ما تروح إلا في الحرام » .

ومرة قال : « المال الحرام يرجع - أي إلى الحرام - من حيث أتى ، كالحية التي دخلت جحراً ليس له إلا ثقب واحد ، ولم تدخله إلا تلك المرة » .

وقال رضي الله عنه : « الزمان زمان أثقال وأشغال ، فينبغي أن يخفف فيه عن نفسه ، فلا يُثقِل عليها فيهلكها ، ولا يتكلف ما يشق عليه ، كالبعير المحمل ، إذا ثَقُل عليه يُخَفَّف عنه ، والمركب المشحون إذا احتاج إلى التخفيف يرمون ثقله في البحر ، خوفاً عليه من التلف . ولا يجوز أن يلقي نفسه في التهلكة ويغرقها ، لأنه لا يملكها بالتصرف فيها ، ومن يرمي نفسه في البحر مختاراً ؟ وإن كان يمكن أن يسبب الله سبباً ينجيه ، لكنه ملوماً معتدياً بذلك ، فلا يجوز له ، لأن نفسه ليست له ، إنما هي لله ، فلا يجوز له إتلافها » .

وقال في قولهم : « يبنون ما لا يسكنون » : « أي إذا أردتَ أن تَسْلَم من آفات الدنيا ، فلا تَبْنِ قبل أن تدعوك الحاجة إلى البناء من ضيق ، وكذلك في أمر المعيشة ، لا تقدر الحاجة إليها قبل وقوعها ، لئلا تكون من الذين يخبئون ما لا يأكلون » هـ .

قال رضي الله عنه : « العمل القليل مع الإحسان ، خير من الكثير بلا إحسان ، قال الله تعالى : ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ﴾، أي حال العمل ، ﴿فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ﴾، أي كيف عملكم له ، للمطالبة بالإحسان ، ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾، للمجازاة عليه بما وعدكم به إن أحسنتم فيه . ولا تكتب الملائكة - أي ما تكتب العمل الصالح - إلا ما كان مصحوباً بالإحسان - والمعنى ما تكتب الملائكة إلا ما كان عليه الجزاء حسناً أو سيئاً - والقراءة مع العجلة لا تُكتب ، وكذا الصلاة والدعاء لا تُكتب - أي إن كان ذلك مع العجلة - ولو خاطبتَ مخلوقاً واستعجلتَ في الكلام أعرضَ عنك ، فكيف بالخالق ؟ والملائكة في هذا الزمان من حيث النظر لا من حيث العلم ، يَحِيرون في طاعات أهل الزمان ، إذ لا فيها إحسان ، فيكتبونها حسنة ، ولا هم لم يفعلوا شيئاً منها فلا يكتبون شيئاً ، إلا إن كان فيها داعية رياء ، فيكتبونها سيئة .

وقيل : إن فاعل الطاعة مع عدم الإحسان ، أحب إلى الشيطان من التارك لها أصلاً . لأن التارك أمره ظاهر وسلم من التعب فيها ، والفاعل بلا إحسان أتعب نفسه ، وأُعجب لظنه أنه فعل طاعة . وصدور أهل الزمان تضيق من الحق ، لأنهم لم يألفوا إلا الغفلة ، لأن مجالستهم مع بعضهم بعضاً - أي غافل مع

غافل ، ولم يجالسوا أهل اليقظة الملتفتة قلوبهم إلى ذكر الله ، وهذا طبع أهل الزمان - **ولو تَذَكَّرَ مُتَذَكِّرٌ منهم ، ومال قلبه إلى الخير ، رأى أنه زاد على أقرانه ، فأُعجِبَ ورجع** - أي إلى الغفلة والبعد عن الخير بإعجابه - **من حيث أتى فعلى قلوبهم شياطين تمنع دخول الخير إليها . والموعظة لا تصل إلى القلب إلا بيد مَلَكٍ ، فإذا أراد أن يُدخِلَها إليه صادف الشيطان قاعداً عليه** - أي يردها - **فأحسِن ، فالقليل مع الإحسان ، خير من الكثير بلا إحسان ، فذُرَّة واحدة خير من عشرين حمل وَدْعٍ** » ، أو كما قال .

انتهى ما حفظناه بلفظه ومعناه في هذا المجلس الشريف المبارك ، بعد راتب عشاء ليلة الأربعاء ١٥ محرم سنة ١١٢٣ .

قال رضي الله عنه : « **ما قطع أهل الزمان من معرفة العلم العَجْزُ ، إنما قطعهم الزمان ، لأن من عَلَّم شيئاً لم يُحفَظ منه ، ولو أملاه** - أي ليُكتب ، **فكُتِب** - **لم يُحفظ ، وإن حُفِظ نُسي ، فيبقى مصراً عليه** - أي بلا مذاكرة فيه - **فينساه ، فلو ألقيت في الأرض دراهم ، فلم تجد من يلتقطها ، لم تَرْمِ مرة أخرى** » .

قال : « **خذ مع أهل الزمان بالرفق ما أمكنك ، ولا تُشَدِّد عليهم ، فإنَّ حبالهم رامَّة** - أي بائدة ، وهو كناية عن هممهم الضعيفة في طلب الخير - **وما كنتَ تعلِّمه أحدهم في يوم ، اجْعَلْه في ثلاثة أيام ، لأن قلوبهم مائلة** - أو قال : منصرفة - **وخصوصاً الصغار ، ما معك معهم إلا الترقوة** - أي المراشاة-**واللطف بهم والرفق . ومثال أهل الزمان** - أي في إعراضهم - **كالبعير الشارد ، فلا تضربه فتزيده شروداً** - أي لا تُثْقِل عليه فتزيده نفوراً - » .

قال : « **شمخ الإنسان بأنفه ، إن كان من كِبْر أو سوء خُلُق ، فإنَّه شُؤمٌ يبَغِّضُه إلى الخالق والـخَلْق ، والأخلاق الحسنة قسمة** - أي موهبة - **من الله لمن أراد ، ويتولاها النبي** ﷺ ، **والأخلاق السيئة أيضاً قسمة** - أي لمن أرادها له - **من الله لمن أراد ويتولاها الشيطان** » ، ثم تمثل بهذا البيت :

العِلْـمُ حَـرْبٌ لِلْفَتَـى المتَعَـالي كَالسَّيلِ حَـرْبٌ لِلْمَكَانِ العَـالِي

قال رضي الله عنه : « **من تهاون بطاعة الله الظاهرة ووقع في معصيته ، لا بد له من الموت عاجلاً وآجلاً، وأولّ ما يموت منه قلبه** » .

وتكلم في قطيعة الرحم ، *فقال* : « **إذا أراد الله بامريءٍ سوءاً ، سلط عليه قطيعة الرحم ، فعند ذلك يُسْرِع إليه الذهاب والدمار والهلاك ، وقد ورد : صِل رحمك وإن قَطَعَتْ** » .

قال : « **المبتديء الذي لم يتبحر في العلوم ، إذا نظر إلى الخلاف في العلوم ، تَفَرَّق قلبُه وتشتت**

همَّه، وفاته التحصيل ، سيما في الإلهيات والنبوات ، وربما يقع في شبهة ولا معه من العلم ما يزيلها به ، وأما إذا تمكن في العلوم ، فلا بأس أن ينظر في الخلافيات ليعلم ذلك . وذكر حجة الإسلام : أن العلم كالسلطان ، إما ملك وارتفع إلى أعلى المراتب ، وإما لم يتمكن من ذلك ورجع إلى أسفل المدينة . ثم تمثل بهذا البيت :

بِقَدْرِ الصُّعُودِ يكُونُ الهُبوطْ   فَإِيَّـاكَ وَالرُّتَـبَ العَالِيَـهْ

قال : « وأصول الإعتقاد ثلاثة : التوحيد ، والنبوة ، واليوم الآخر » هـ .

أقول : « **التوحيد** » : معرفة ما يجب اعتقاده في حق الله من صفات الكمال ، وتنزيهه عن ما يستحيل من أضدادها ، وما يجوز في حقه من إيجاد ممكن وعدمه .

و « **النبوة** » : معرفة ما يجب في حق رسول الله ﷺ ، من كونه بَلَّغَ رسالة الله بتمامها وأنه يجب تصديقه بكل ما أخبر به عن الله من أوصافه وأحكامه ، وما بعد الموت وأخبار الآخرة ، وأن وعد الله فيها حق ، مما أخبر من الجنة ووعدها بملئها من السعداء أهل الطاعة ، والنار ووعدها بملئها بالكفار والعصاة ، وأن من مات على الإيمان والإسلام لا يُخَلَّد فيها ، وربما عفا الله عنه .

قال رضي الله عنه : « ذُكِرَ أَنَّ إبراهيم بن أدهم وسفيان الثوري كانا في سفر صائمين ، ففُتِحَ لهما بشيء، فأخرجه إبراهيم ولم يدَّخره إلى الإفطار ، وقال له سفيان : تحتاج إلى شيء من العلم يا إبراهيم. فسكت إبراهيم ولم يَرُد له جواباً ، فلما آن وقت الإفطار ، جاء أحدٌ إليهما بطعام كثير ، من خبز وتمر ، فالتفت إبراهيم إليه وقال : يا سفيان ، تحتاج إلى شيء من اليقين . لكن هؤلاء قلوب مجردة في الأبدان بلا نفوس ، أبدانهم في الدنيا وقلوبهم في الآخرة » .

أقول : يعني أن كُلًّا من الإثنين نيَّتُهُ مُجَرَّدة لله ، لكن سفيان غَلَبَ عليه أمرُ الشريعة ، وهي القيام بأمر الله ، وإليه الإشارة بقوله : « **تحتاج إلى شيء من العلم** » ، وإبراهيم غَلَبَ عليه أمرُ الحقيقة ، وهي الإعتماد على الله ، ونسيان ما سواه ، فلا يرى نافعاً ولا ضارًّا إلا الله ، كما أشار إليه بقوله : « **تحتاج إلى شيء من اليقين** » ، وهذا مقام الخواص المقربين السابقين ، أهل مقام الرضا ، والآخر مقام العامة الأبرار أصحاب اليمين ، أهل مقام الصبر ، كما بيَّن المقامين في حديث : « أعبد الله على الرضا ، فإن لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خير كثير » ، فبيَّن أن العبادة التي خلق الله الجن والإنس لأجلها هي على هذين النوعين ، ومعنى العبادة أن يفعل العبد ما يرضي المعبود ، ويرضى بما يفعل به المعبود ، وإن العبادة على هذين الوجهين ، وما خرج منهما فهو خارج عن الدين ، وهو

مقام أصحاب الشمال من الكفار والفجار ، كما بينه الله سبحانه بقوله : ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴾، وعدها .

« وقراءة أحوال هؤلاء إنما هي للتبرك ، وإلا فلا مطمع في العمل بمثل عملهم ، لأن الناس كلهم ناشبين مخاليبهم في الدنيا ، وهم فيها كعرق الموقف ، بعضهم إلى ساقه ، وإلى ركبته ، وإلى حلقه ، وإلى رأسه » .

وأمرني بالإنشاد ليلةً بعد الراتب ، فأنشدتُ بقصيدته التي فيها ذِكْر القطب ووَصْفِه ، وأولها :

أَهْـلاً وَسَـهْلاً بِالحَـبِيبِ الوَاصِـلِ ... مِـنْ بَعْـدِ مَانَامـتْ عُيُـونُ العَـاذِلِ

إلى أن قال :

فَـاشْرَبْ شَرَابَ الْعَارِفِـينَ الأَوْلِيَـا ... الجَامِعِـينَ لِـكُلِّ وَصْـفٍ فَاضِـلِ

وَاخْضَعْ لِسَاقِيهِمْ وَقُطْبِ مَدَارِهِمْ ... وَإِمَـامِ سَـالِكِ سُـبْلِهِمْ وَالوَاصِـلِ

غَـوْثِ البَرِيَّـةِ كُلِّهَـا وَمُغِيثِهَـا ... عـَنْ إِذْنِ سَـيِّدِهِ المَلِيـكِ الْعَـادِلِ

إِنْ شِـئْتَ تَعْرِفُـهُ وَتَعْلَـمُ وَصْفَـهُ ... بَطَرِيقَـةِ الإِجْمَـالِ فَاسْـمَعْ سَـائِلِى

هُـوَ سَـيِّدٌ مُتَوَاضِـعٌ مُتَخَشِّـعٌ ... وَرِعٌ تَقِـيٌّ زَاهِـدٌ فِى الْعَاجِـلِ

الـشَّرْعُ سِـيرَتُهُ الحقِيقَـةُ حَالـهُ ... وَمِـنَ الْعبُـودَةِ بِالْمَقَـامِ الحافِـلِ

بَـرٌّ رَحِيـمٌ بِالخَلاَئِـقِ كُلِّهِـمْ ... يَرْعَى الْوُجُـودَ بِعَيْنِ لُطْفٍ شَامِلِ

يَمْتَـدُّ مِـنْ بَحْـرِ البُحُـورِ مُحِيطِهَـا ... خَـيْرِ الأَنَـامِ بِعَاجِـلٍ وَبآجِـلِ

إلى آخرها . فلما أتممتُ القصيدة ، سكتَ قليلاً ثم قال : **« هذا وصف جامع لصفات القطب ، حتى يعلم الواقف عليه أن من خالف ذلك لم يكن قطباً ، إلا إن كان بالمعنى الأعم ، لأن القطب : السيد في كل طائفة ، وهذا الوصف إنما هو في القطب الذي هو أفضل أهل زمانه من الأحياء ، ولو عَلَتْ درجات أحد منهم - أي الأحياء - ولا يقوم في مقام القطبية إلا ظاهر ، فإن لم يكن فيه أهليَّة للظهور - أي لم يقسم له فيه نصيب - يستنيب أحداً ممن فيه أهلية - أي قسم له فيه نصيب - للظهور »** .

فقلت له : أيكون القطب المتقدِّم أفضل من المتأخِّر ؟ ، فقال : **« لا يُشترط ، فقد يكون في المتأخِّر مزايا لم تكن في المتقدم ، لاختلاف الزمان ، ولا يكون في كل زمان إلا واحد ، وما ذُكِرَ عن جماعة في زمان واحد أنهم أقطاب ، فلعل أن يكون كل واحد منهم قطباً في جهة »** هـ .

أقول : أوصاف القطب التي ذكرها ، إذا تأملها العاقل العارف ، عرف أن كلها خاصة به ، وأنه إنما أخبر عن نفسه ، كما قال الشيخ أحمد بلحداد - رجل من أهل مكة - وما أدْرَكْتُه ، قال :

هُـوَ عَابِـدٌ لله وَابْـنُ وَلِيِّـهِ   العَلَـويْ الحَـدَّادِ فَاقْبَلْ نَاقِلِ

الوَصْـفُ فِيـهِ وَحَـائِزٌ بِفِنَائِـهِ   حَقًّا وَدَعْ قَوْلَ الجَهُولِ الغَافِلِ

وقد أشهره الله بذلك في الخافقَين ، بين الخاصة والعامة ، والجن والإنس ، مع كراهته لذلك ، وهي الرئاسة الحقية المتقدم ذكرها ، فلا تلقى أحداً من الخلق إلا وهو معتقد القطبية للسيد عبدالله الحداد .

وتقدم ما نقلنا عن العلامة السيد محمد بن أبي الطيب المغربي ، أنه قال : « **اجْتَمَعْتُ في أقصى بلاد المغرب برجل من أكابر الأولياء ، فحين نَظَرْتُه خطر لي أنه القطب اليوم ، ففي الحال التفت إلي وقال : يا ولدي ، ما أنا بالقطب اليوم ، إنما القطب اليوم السيد عبدالله الحداد باليمن** » ، قال : « **فاعتقدت في السيد عبدالله من حين قال لي ذلك** » .

وقوله : « **ولا يقوم في مقام القطبية إلا ظاهر** » ، يعني أن شأن هذا المقام الظهور لأجل دعوة الخلق إلى الله ، والظهور إنما هو بالقسمة والنصيب من الله ، يعني أنه حظ من الله لمن قُسِم له ذلك ، فإن كان القطب قُسِم له منه حظ ، ظهر بقَدْر حظه المقسوم له منه ، من مُوَفَّرٍ له كالشيخ عبدالقادر والشيخ عبدالله العيدروس رضي الله عنهما وغيرهما ، وإن لم يكن للقطب نصيب من الظهور ، كسيدنا الفقيه المقدم باعلوي ، اسْتَنابَ مَن له منه نصيب ، وهو الأهلية التي ذكر .

قوله : « **فقد يكون في المتأخر مزايا** » ، أي فضائل تكون فيه بحسب زمانه ، قد توفرت في سيدنا عبدالله في زمانه .

قال رضي الله عنه في حديث : « من عادى لي وليًّا فقد آذنتُه بالحرب » : « **أي أعلمتُه أنّي مُحَاربٌ له ، وذلك لأن الولي لا ينتصر لنفسه ، فيكون الله سبحانه هو المنتصر له** » ، ثم أنشد هذين البيتين :

إنَّ الأَمِـيرَ هُـوَ الـذِي   يُضْحِي أَمِـيراً يَـوْمَ عَزْلِـهْ

إنْ زالَ سُـلطَانُ الولايَـةِ   لم يَفُـتْ سُـلْطَانُ فَضْلِـهْ

ثم قال لي : « **احفظهما واكتبهما** » ، فكتبتها وحفظتهما . وأنشد هذا البيت :

رُبَّما تَجْزَعُ النُّفُوسُ مِنَ الأَمْرِ   لَـهُ فَرْجَـةٌ كَحَـلِّ العِقَـالِ

وتقدمت قصة هذا البيت ، فيما وقع بين أبي عمرو بن العلاء ، أحد القراء السبعة وبين الحجاج، لما قال له الحجاج : « ائتني بشاهدٍ من كلام العرب على قراءتك ﴿إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غَرْفَةً﴾ بفتح الغين ، وإلا ضربت عنقك » ، فهرب منه إلى مكة ، فسمع يوماً رجلاً ينشد هذا البيت : « ربما تجزع النفوس إلى آخره » ، وقال : فَرجة . بفتح الفاء ، وهو شاهد لقراءته ، غَرفة بفتح الغين ، ففرح به جداً ، وإذا به يسمع قائلاً يقول : « مات الحجاج » ، فقال له : « ماذا تقول لا فض الله فاك ؟ » . قال: « مات الحجاج»، فقال : « ما أدري بأيتهما أنا أفرح ، بموت الحجاج أو بالشاهد لي على قراءتي من كلام العرب » هـ .

قال في معنى قول الفضيل رحمه الله : « تَرْكُ العمل لأجل الناس رياء » : « أي إن الشيطان مراده منك بطلان العمل بالرياء أو العجب أو غير ذلك ، حتى لا يحصل لك منه نفع ، فإذا تركتَه بالكلية فذاك مراده منك » .

أقول : وتمام قول الفضيل بعد ذلك : « والعمل من أجل الناس شرك ، والإخلاص أن يعافيَك الله منهما » ، أي من العمل والترك من أجلهم هـ .

قال رضي الله عنه : « إذا رأيت الله قد عدل عن كلمة إلى أخرى في شيء من الألفاظ ، إما في ذِكْرِ أو غيره ، فَخُذْ بما ذَكَر ، وإن كانت الأخرى تماثلها في اللفظ أو مع المعنى ، كما في ذِكْر الوضوء : ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ » هـ .

أقول : يعني إذا قلت في أدعية أعضاء الوضوء ، عند غسل الوجه : « اللهم بَيِّض وجهي بنورك ، يوم تَبْيَضُّ وجوه أوليائك ، ولا تُسَوِّد وجهي بظلماتك يوم تَسْوَدُّ وجوه أعدائك » ، فتأتي بلفظ الكلمتين: تَبْيَضُّ وَتَسْوَدُّ ، على لفظ القرآن مفتوحتين الأَوَّلَيْن مع سكون الثاني وضم آخرهما مشدداً ، وهكذا لفظ القرآن ، فتأتي بهما كذلك فعل لازم ، ولو قلتهما بضم أوَّلَيهما وفتح ثانيهما وتشديد ثالثهما - فعل متعدي - وفيهما ضمير الفاعل المخاطب ، جاز ذلك وتأدَّى به المعنى ، ولكن أَمَرَك أن تنطق بهما على ما ذَكَر الله ونطق به القرآن هـ .

قال رضي الله عنه : « ينبغي إذا مات أحد فجأة ، أو بمرض خفيف ، أن لا يُسْتعجَل بتجهيزه حتى يتحقق موته ، إما بتغير أو علامة تفيد اليقين ، أو معرفة طبيب حاذق ماهر في الطب . ورأينا في بعض كتب الطب ذكر علامة ، وهي أن يُجعل عند أنفه قطنة مندوفة مهباة منفوشة ، فإن تغيَّرت بنحو حرارة أو غيرها ؛ دلَّ ذلك على حياته ، لأن ذلك من أثر النفس » .

ثم أطال الكلام في ذلك ، وذمَّ أحوال الناس في استعجالهم بالجنائز ، وهذه عادته كلما عرض الكلام في هذه المادة ، أنه يلوم على ذلك كثيراً ، حتى قال : « إنهم يقولون أنه يُستحب السرعة بتجهيز الموتى ، أوَ ما وجدوا ما يعملونه من المستحَبَّات إلا هذا ؟ كيف وهم يفرطون في الواجبات ، ويتعللون في هذا بالإستحباب » ، أو كما قال .

ثم قال : « إنما نحن إذا عرضَت مسألة تكلمنا فيها وبَيَّنَّا تساهل الناس فيها ، ولا أحسن للإنسان من اتِّباع سلفه - أي من السادة - لأن للناس سلفاً هم أهل علم وصلاح ، ويكفيهم الأمر في تجهيز النبي ﷺ ، ما جهزوه إلا لثالث من موته . أوَ هُمْ ما رأوا سنة يعملون بها في زعمهم إلا هذه ؟ والتجهيز بعدما يُتَحقق موته لا في الحال ، فَرُبَّ من يحصل له سكتة أو إغماء ، يُظَنُّ أنه مات ، حتى ذُكِر أنَّ رجلاً خرج من قبره بعد أن دُفِنَ عاضًا بإبهامه ، دُفِنَ حيًّا ، وقصته مشهورة يُسمى عاضُ الإبهام ، وآخر سُمع صياحه في قبره ، فلما بحثوا عليه رأوه في آخر رمق فمات . وذكروا أن الإنسان قد يموت من شم ريح الكافور ، فيقرعه ذلك وهو حاله ضعيفة فيموت، وليس عملهم من عمل الدين ، ولا من أعمال أهل الجهة ، فإن البلد - يعني تريم - مدوَّلة ، دولة علم، ما هي دولة جهل ، فينبغي إذا مات عَشِيَّة ، أن يُنتظر

به إلى الصبح ، أو ضحوة يُنتظر به إلى عشية ليُحقق موته ، فإنما التجهيز للميت لا للحي . أوَ ما رأوا سنة يعملون بها إلا هذه ؟ فلأي شيء ما يطمئنون في الصلاة ، ويتركون الهَذْوَة في المساجد وفي الحزب، كيف هذا ؟ ويريدون يعملون بالسنة ، فينبغي أن يشبه الماعون الماعون » ﻫ .

أقول : معنى هذا إذا كانوا على دعواهم العمل بالسنة ، أن يعملوا بالواجب الذي هو ألزم من السنة ، كما ذكر من عدم الطمأنينة في الصلاة وغير ذلك ، ثم يعمل بجميع السنن أو أكثرها ، حتى يُعرف من شأنه اتباع أوامر الله ، فتشبه أحواله بعضها بعضاً ، ولا يدَّعي اتباع السنة في هذا فقط بلا تحقق بالإتباع . ثم ذكر في هذا قصصاً وحكايات كثيرة ، كقصة هارون الرشيد لما ظنوا موته ، وأرادوا تجهيزه ، فدخل عليه طبيب ، فأمر بجريد فأتي به ، فضربه به فجعل يتحرك قليلاً قليلاً حتى تَوَعَّى وانتبه من حالته ، ثم برئ بعد ذلك وصحَّ ، وذكر غير ذلك .

ومما ذكر *قال* : « **حكاية نسمع بها ، أن امرأة حبلى رأوها كأنها أُسكِتَت ، فظنوها ماتت ، فأرادوا تجهيزها ، فجاء إليها طبيب ، فقال : إئتوني بإبرة . فأتوه بها ، فغرزها في بطنها ، فتنفست** – أي من محل الغرز – **وتحققوا حياتها ، فسألوه عنها فقال : إن ابنها وضع يده على موضع نَفَسِها ، فتنفست من مغرز الإبرة ، فصحت** » ، أو كما قال ، وذلك عشية الأربعاء ٢٢ محرم ١١٢٣ .

أقول : ويشبه ما حكى ومؤيِّداً لما قال ، ما ذُكِر أن الإمام البيضاوي المفَسِّر حصل عليه مثل ما ذَكَر ، فجُهِّزَ ودُفِن حَيًّا ، فانتبه مما جرى عليه في قبره ، وعرف أنهم ظنوا موته ، ففعلوا به ذلك ، فنذر حينئذ إن أخرجه الله سالماً لَيُفَسِّرَنَّ القرآن ، فجاءه نَبَّاش كان ينبش القبور يأخذ الأكفان ، فنبش عليه حتى إذا وصل إليه تنَحَّى له عن الكفن ، وقال له : « امْضِ إلى بيتنا ، إئتني منه بقميص وخذ الكفن » . فارتاع النَّبَّاش وغشي عليه ، فقال له : « إنهم ظنوني ميت ، فَسِرْ إليهم بَشِّرهم ، وآت لي بثوب ألبسه ، وخذ هذا الكفن » ، فذهب إلى البيت وأتى له بقميص ، فلبسه وخرج ، ثم فسر القرآن التفسير المشهور ، وكان البيضاوي من أهل شيراز .

وكان السيد أحمد الهندوان ، دعاه رجل من جماعته آل الهندوان – قبيلة من قبائل السادة آل باعلوي ببلد روغة ، بقرب تريم نحو فرسخين – فسار إليهم ماشياً بلا داء ولا علة ، من إشراق يوم الخميس ١٩ صفر سنة ١١٢٢ ، فلما كان بعد صلاة العشاء من ليلة الجمعة ، أتوا به محمولاً في نعش قد توفي .

فمروا به على الحاوي ، وأُخبِرَ سيدنا بأمره ، فناداني ووصى ابنه السيد حسن ، وقال : « **سيرا إلى بيت السيد أحمد ، وادعوا له صلاح الحجَّام ، يُركِّب فيه محجمه ، فإن خرج منه دم فاعرفوا أنه حي ،**

وإن لم يخرج شيء فهو ميت » ، فسرنا إليهم ، وذكرنا لهم قول سيدنا عبدالله ، فدعوا بالحجام وركب المحجمة ولم يخرج منه دم ، فتحقق موته .

وسألت جماعة ممن حضر معه ببيت السادة آل الهندوان ، قال : « إن عندهم عزيمة على ختان ، فجلس للناس وطال به الجلوس من الضحى إلى المغرب ، وناس يخرجون وناس يدخلون ، إلى أن صلى المغرب ، وطلبوا له فرساً فركب عليه . فلما قرب من روغة ، قرية أخرى متصلة بالأولى وبينهما حصاة من جبل فاصلة بين القريتين ، رأوه تصاغى فوق الفرس ، فقبضوه وحملوه ، وأدخلوه بيت السيد عيدروس بن عمر في هذه القرية روغة ، فقال : أَدَخَلَ وقتُ العشاء ؟ قالوا : نعم . وكان على وضوء ، فكَبَّرَ مُحرماً في الحال بصلاة العشاء ، وصَلَّى قاعداً ، فحين سَلَّم اضطجع وتشهد وتوفي من حينه ، وأتوا له بنعش وحملوه فيه » .

وقد رأيت قبل وفاته - أظن بنحو سنتين أو أكثر - كأني وسيدي عبدالله نسير في أرض بين جذوع نخيل كثيرة ساقطة ، وكان قابضاً بيدي ، وكل حين نتخطى جذور أعجاز نخل كان راميها سيل قوي، وإذا السيد أحمد يسير قدامنا ، ويسير بين تلك الجذوع ويتعداها سائراً بينها ، وإذا سيدي يناديه مراراً يقول : « يا سيد أحمد ، يا سيد أحمد ، قف » ، فالتفت ، فلما عرف أن سيدنا عبدالله هو الذي يناديه ، أَعْجَلَ في المشي سائراً عنا ، فلما رأيتُه وعلمتُ منه ذلك غضبت غضباً شديداً ، وقلت في نفسي : سيدنا يناديه ، وهو معرض شارد عنه ، والله لولا شفقته عليه لتصرف فيه ومنعه من المشي . فأنا أتحدث بهذا في نفسي وإذا به قد خر ساقطاً وعالج النهوض ليقوم فما استطاع وجعل يحاول القيام وما قدر عليه ، حتى وصلنا إليه ، فأكب سيدنا عليه وقبض بأذنه وجَرَّهُ ، حتى قام بِجَرِّهِ أُذُنه ، فسارَّه في أذنه بكلام ، فبَعَّدتُ رأسي عنهما حتى لا أسمع كلامهما ، ثم أفلَتَه وتَرَكَه ، فسار إلى جهة ، وسرنا إلى جهة أخرى .

فقصصت على سيدي عبدالله هذه الرؤيا ، فقال : « **إن صَدَقَتْ رؤياك ، يموت السيد أحمد قبلنا** » . فمات السيد أحمد قبله ، وكان بين موتهما عشر سنين تنقص ثلاثة أشهر واثنا عشر يوماً .

ثم جاء السيل النابر الذي نبر النخيل ، وجعلها مُلقَاة ، كصفة ما في الرؤيا ، وذلك في رمضان سنة ١١٢٤ ، وجرى بأكثرها إلى سيحوت مسيرة خمسة عشر يوماً في يوم وليلة ، حتى رؤيت امرأة - مرَّ بها من جهة السبير - راكبة على جذع صبيحة يوم الأربعاء ، ورؤيت داخلة البحر فوق الجذع في سيحوت صبيحة الخميس ، وسَلِمَت .

وذَكَرَ يوماً الإمام الغزالي ، *ثم قال* : « **هو والسهروردي والمحاسبي يتواردون على منهل واحد،**

وإن اختلفت الموارد ، ولكن مَن في قلبه دَغَل يتعلق ببيت العنكبوت ، ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ » هـ .

أقول : يعني يتعلق بأوهام ضعيفة باطلة ، لا حاصل تحتها ، ويُنكِر عليهم ، وذلك دليلٌ على جهله وقلة تقواه هـ .

قال : « **إنَّ أهل الزمان قد بعدوا من الدين جداً ، حتى إنهم إذا سمعوا شيئاً على قاعدة الشرع لم يطرق أسماعهم ينكرونه ، لعدم اطلاعهم على ذلك ، بسبب همتهم في الدنيا وعدمها في الدين ، ولو تولَّينا مثلاً شيئاً من الأمور ؛ لرأيتم ما لم تَطَّلِعوا عليه ، إلا إن كان قد سمعتوه** » .

وتقدم قوله : « **لو وُلِّينا أمور الناس لأظهرنا لهم أموراً من الحق لم يعرفوها ، إلا إن كان رأوها في الإحياء ونحوه** » هـ .

أقول : قوله : « **بسبب همتهم في الدنيا .. إلخ** » ، أي لأجل ذلك اشتغلوا بها ، أي بمحبتها وبطلبها عن طلب علوم الدين ومعرفتها ، فلم يطلبوها ولم يعرفوها ، ومضت أعمارهم على الجهل ، حتى لو سمعوا من تلك العلوم شيئاً أنكروه ، لأن من جهل شيئاً أنكره .

وقوله : « **لرأيتم .. إلخ** » ، أي لرأيتم من العمل ما لم تألفوه ، ومن العلم ما لم تعرفوه ، فترون وتسمعون علماً وعملاً لا عهد لكم به ، ولا إِلْف ولا سماع لكم به ، لأن العلم معرفة القوانين ، والعمل معرفة الكيفية ، ولا تعرف إلا من عمل العامل إذا نظرته عرفته ، ولو كان ذا علم ، كما ذُكِرَ عن الإمام البكري رحمه الله ، أنه لما حَجَّ ودخل المسجد الحرام ، أتاه صبي ليطوِّفه ، فامتنع من تطويفه به ، وجعل الصبي ينظر إليه ماذا يصنع ، فأحرم بركعتين تحية المسجد ، فقال له الصبي : « يا شيخ ، إن هذا المسجد إنما تحيته الطواف » ، قال : « صَدَقْتَ ، فتعال طَوِّفني » ، فجعل يُطوِّفه .

فانظر الإمام البكري مع جلالته في العلم ، كيف غلط في هذا ، حيث كان ذلك منه أول مرة ، ولم يألفه قبل ذلك .

قال رضي الله عنه : « أدركنا زمناً إذا وَقَعَتْ على الناس شدة وابتلوا ، رجعوا إلى الله وتابوا واستغفروا ، ولزموا الطاعات وتركوا المنهيات ، وخافوا أن قد عُجِّلَ عليهم من العذاب في الدنيا ، ثم يرجعون على أنفسهم باللوم على التفريط . وأهل هذا الوقت إذا نزل بهم شدة ، تركوا الواجبات فضلاً عن المندوبات وارتكبوا المحرمات ، ثم إنهم يتمنون ما لم يستحقوا ، فهيهات ، أنى يكون لهم ذلك » هـ .

أقول : يعني يتمنون أن يكونوا صالحين وأولياء ، لإعجابهم بأنفسهم ، سيما من له سلف صالح يتمنى أن يكون مثله ، وربما ادَّعى ذلك .

قال رضي الله عنه : « اعطوا المحن أحكامها ، فإن من أعطاها إياها كانت عليه نعمة ، وإلا صارت كل محنة محنتين أو ثلاث » .

أقول : أحكامها : ما رتبه الله عليها من الأحكام ، وهو الصبر والرضا في المحن والبلايا ، والشكر على النعماء والسراء .

قال : « الدنيا كالبقرة الصعبة ، إن أمسكها الإنسان برأسها كسعته - أي نطحته - وإن أمسكها بذيلها رمحته ، فلا أجدر بالعاقل من تركها » .

ورأيت بخط ابنه السيد علوي بن سيدنا الحبيب عبدالله ، مما نقله من كلام والده قال سيدي : « أهل هذا الزمان أخذوا السيوف ألَّا ليقطعوا بها الطريق ، ما أخذوها ليؤمِّنوا بها الطريق » ، ويشير بذلك إلى العلماء . انتهى ما نقلته من خطه ، ووقف على نقلي له وأقرَّه .

ورأيت أبيات على مقتضى أحوال أهل الزمان في العلم ، إلا من وفقه الله ، وهي للشيخ الإمام العلامة مرعي بن يوسف الحنبلي ، مصنف كتاب « دليل الطالب » وكتاب « الغاية » ، وغيرهما في مذهب الإمام أحمد ، وكان الشيخ مرعي أشعريًّا في الإعتقاد ، وهي هذه الأبيات :

أَرَى النَّاسَ في هَـذَا الزَّمَانِ تَعَلَّمُوا ... الْعُلُـومَ بِـلا عَمَـلٍ فَمَا فِيـهِ فَائِـدَهْ
أَلَا إِنَّ تَـرْكَ العِلْـمِ خَـيرٌ لمِثْلِهِـمْ ... لِأَنَّ نَوَاصِيهِـمْ عَـنِ الخَـيرِ شَـارِدَهْ
لَهُـمْ عِلَـلٌ في القَلْـبِ وَالمكرُ عِنْدَهُم ... وَأَنْفُسُـهُم بِالظُّلْـمِ وَالسُّـوءِ زَائِـدَهْ
أَضَلُّـوا وَضَلُّـوا لِلْعِبَـادِ بِفِعْلِهِـمْ ... وَفِكْرَتُهُم بِالظَّنِّ في النَّاسِ فَاسِدَهْ

أَبَاحُوا لِعِرْضِ النَّاسِ بِالغِيْبَةِ التي بِتَحْرِيْمِهَا قَدْ جَاءَتِ الكُتْبُ وَارِدَهْ
فَلَا تَقْتَدِ فِي الدَّهْرِ يَوماً بِفِعْلِهِمْ فَقَدْ سَلَكُوا طُرُقاً عَنِ الخَيرِ بَاعِدَهْ
فَلَاَ بُشِّرُوا بِالخَيرِ عَنَّا فَإِنَّهُم شَيَاطِين إبْلِيسَ أَعَانُوا مَصَائِدَهْ

انتهت الأبيات هـ .

قال سيدنا : « **قد قلنا لرجل تَفَقَّه ، فقال : الفقهاء أَلَّا كذا – يعني يذمهم – فقلنا له : إلْزَم التقوى والورع ، فإنَّ أهل التقوى والورع يعظِّمهم الناس ويعتقدونهم ، فَخُذْ لك سراجاً ولا تُبْرِزْه للهبوب ينطفي ، ولا تُعْلِقْه في النهار فلا يبقى له أثر ، لأن الأمر أَلَّا نبوة** » هـ .

أقول : قال ذلك يوم ٢١ محرم عاشور سنة ١١٣٠ ، وقد غَمُضَ علينا معناه ، لأنه كله استعارات ، ولعل مراده بالسراج – أي النور – الذي هو العلم ، حيث أنه أمر الرجل الذي يخاطبه ، وذكره بالعلم الذي هو التفقه .

وذم الرجل الفقهاء من أهل وقته ، حيث رأى خطأهم في فتاويهم وأفعالهم من التحيُّل ونحوه ، والمراد بنور العلم نور معنوي باطني من الإحتياط للدين ، لمعرفته بطرقه واعتباراته ، وذلك إذا صحبه الورع والتقوى ، ولذلك أمره بذلك ، فيصير العلم حينئذ علماً نافعاً ، وإذا فقد ذلك كان علماً ضاراً ، لأنه حينئذٍ يكون تابعاً بعلمه للأهواء المضلة ، كما أنكره الرجل من علماء وقته .

واستعار لهذا النور الشريف المعنوي لفظ السراج الحسي ، لأن العمومية غالبة في هذا الوقت ، ولا يعرف العامي إلا ما تدركه حاسته من سمعه وبصره ، والمعنوي لا يعرفه إلا الخواص ، ويكتفي في ضرب الأمثال بما يفهمه العموم عما يفهمه الخصوص ، وتقدم لنا من إظهار الصفات الإلهية ، التي لا يفهم الخلق معنى وجهها المنسوب إلى الله ، ولكن يفهمون منها معنى آخر يليق بهم هم ، ويصير هذا ضرب مثل لذاك ، ويحصل به مقصود تبليغ الرسالة عن الله إلى الخلق ، فافهم .

قوله : « **ولا تبرزه للهبوب** » ، وهو الهواء ، يعني الأهواء المضلة لعموم الناس وللعلماء خاصة ، أي فلا تتبع بعلمك الأهواء ، كما هو غالب أحوال أهل الزمان ، فينطفي نور علمك فلا يُعَدُّ علماً ، ولا تُعَدُّ أنت عالماً ، ولعل مراده بالنهار ، يعني إذا حصل لك نصيب من ذلك النور على ذلك الوجه بذلك الشرط ، فلا تُظْهِرْ نفسك بحضرة من هو أكمل منك نوراً ، فلا يكون لنورك مع نوره أثر ، كما لا أثر للسراج في النهار مع نور الشمس .

ويشهد لذلك قوله : « لأن الأمر ألّا نبوة » ، فكل من كَمُلَ في اتباع النبوة ، فهو أكمل نوراً ممن دونه ونوره أكمل ، أي الكامل أضوأ من نور غيره . ولا يكون أكمل وأضوأ من كل نور إلا نور سيدنا عبدالله في وقته ، وما بعده إلى خروج المهدي ، فإن اتباعه لجده أكمل ، ونوره أنور ، كما يعرف ذلك من خالطه ومارس سيرته ، كما ذكرنا من ذلك فيما تقدم .

ودليل تسمية سيدنا للعلم نوراً وللجهل موتاً وظُلْمة ، قول الله تعالى : ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَـٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ ، وكذلك قال الإمام مالك رحمه الله : « ليس العلم بكثرة الرواية ، إنما العلم نور يضعه الله في القلب » ، انتهى قول الإمام مالك . وإنما يصير نوراً في القلب إذا كان معه التقوى والورع اللَّذَيْن ذَكَرَهما لذلك الرجل ، وهذا المعنى شبيه بمعنى ما تقدم ، من كون العبادة شيء والذوق فيها شيء آخر من مواهب الله ، يهبه لمن يشاء ، واستدل لذلك بقول الله في الحديث المتقدم ذِكْره : « ذلك فضلي أوتيه من أشاء » ، كذلك هنا العلم شيء ، والنور فيه شيء آخر ، يهبه الله لمن مَنَّ عليه بالتقوى والورع ، فلما كانا شرطاً في حصول نور العلم ، أمر الرجل بلزومهما مع العلم ، الذي هو التفقه في الدين .

فيا للعجب من مواهب الله لسيدنا عبدالله ، من الحقائق والمعرفة له ولقواعد دينه هـ .

قال رضي الله عنه : « التوسع في علم الفقه زيادة مليحة ، ولا تضر إلا من قلبه مظلم ، وإلا فالعلم نور وحياة . وقد ذكر الإمام الغزالي أنه لم يختلف أحد في أن قوله تعالى : ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ﴾ أن المراد به العلم ، ولكن العلم يحتاج إلى نور ، ﴿وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ﴾ » هـ .

أقول : ومراده بالنور ما أشار إليه في المقالة قبلها من التقوى والورع ، ويجمعهما ما ذكروه من معنى العبادة التي خلق الجن والإنس بل جميع الخلق لأجلها ، أنها فعل العبد ما يرضي المعبود ، ورضا العبد بما يفعل المعبود ، حتى جاء في الأثر عن سيدنا موسى عليه السلام أنه قال : « يا رب ، متى أعلم رضاك عني ؟ » ، قال تعالى : « رضاي عنك في رضاك عني » .

قال رضي الله عنه : « من طلب الدنيا للدنيا لا وزن له ولا ينتفع بها ، ولا يحصل له بها الستر ، ولو حصل له منها ما عسى أن يحصل ، فهو مذموم الحال ، ومن طلب الدنيا للدين ، ولو سأل على الأبواب لا يضره ذلك ، بل يعظمه الله وملائكته » ، *قال* : « من استوى عنده هاك وهات فهو من الزاهدين » .

فقلت : هذه رتبة شديدة ، ومن يقدر على أن يستوي عنده من يريد أن يعطيه ومن يريد أن

يستعضيه؟، **قال** : « **ورتبة أخرى أعلى من هذه وأشد منها وهي أمثل ، أن يكون هات أحب إليه من هاك ، وهي أشد** » ، ثم تبسم ضاحكاً ، ثم قام ليدخل المصلى للصلاة .

أقول : كل كلامه هذا من قوله : « **من طلب الدنيا .. إلخ** » ، تكلم به لما جلس في الضيقة أي الدهليز - ينتظر اجتماع الجماعة على عادته .

ثم لما أُخبِرَ باجتماعهم دخل ليصلي بهم ، وهذا المسجد قال : « **ما أوقفناه مسجداً خوفاً أن ينام فيه أحد وهو جُنُب ، أو أحد يكثر فيه الكلام** » ، يعني لما ورد أن الكلام في المسجد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب ، « **وإنما أوقفناه مُصَلًّى** » ، يعني موضعاً للصلاة « **يُصَلَّى فيه** »، ونَبَّهَ بهذا حتى لا أحد ينوي فيه الإعتكاف ، والغالب أنه لا يجلس في هذا المحل إلا في صلاتي الظهر والعصر .

وفي مثل هذا المجلس في هذا المحل ، **قال** : « **والصديق إذا قضى لك حاجة بعد السؤال ، فلا خطر لقضائها ، وإنما المليح أن يقضيها إذا علم احتياجك ، وأما إذا سألته إياها فلم يقضها فلا تعده حتى من المعارف** » ، أي الذين ليسوا أصدقاء .

وذكر أقواماً يعسر عليهم قضاء الحاجة ، حتى سمعت أنهم احتاجوا إلى قيمة أوقية ذري - أي بذر - لما شَرِبَت بيت جبير ، وأرادوا زرعها ، وكانوا حافظين لذلك من محصولها ، لكن قَصُرَ عليهم ذلك القدر ، وكان رجل ممن أشار إليهم من يعسر قضاء الحاجة عليهم ، وهو أيضاً من السادة عنده ذلك يبيعه ، فأرسل سيدنا إليه ليبيعهم بأوقية ويصبر فيها إلى أن تتيسر ، فقال : « ها هو حاضر ، ولا أبيعكم إلا بالأوقية حاضرة » ، فقال الرسول لسيدنا ما قال الرجل ، فسكت وكان في مجلس الدرس أيام كان مجاوراً في الهجيرة ، وذلك من سنة ١٠٦١ إلى سنة ١٠٧١ .

ثم بعد ساعة دخل عليه في المجلس رجل جاء من شبام ، ودفع لسيدنا أوقية ، وقال : « هذه من عند فلان من أهل بلد شبام ، أرسلها لكم معي » ، **فقال** : « **إدْفَعْها للخادم** » .

وقال سيدنا للخادم : « **خذها وادفعها لبَيَّاع الذري ، وخذ منه حاجتكم** » .

فقال : « **فلان** - يعني ذلك الذي يبيع الذري - **له أكثر من عشرين سنة ما استقضينا منه حاجة ، ولو بالثمن حاضراً ، لأنَّا لا نصحب اللئام ولا نداخلهم ، ولا نستقضي منهم حاجة ، فإن طلبوها منا قضيناها . وكان واحد عندنا له خمس أواق ، وطَلَبْنا منه حاجة بقيمة مثلها ، فقال : تلك الخمس ما فيها خوض ، يعني تاركها ولم يقضها ، فأرسلنا له دراهمه ولم نقبلها ، لأن ذِكْره لها لا معنى له ، ولو اعتذر بأن ما معاه شيء في تلك الساعة كان أحسن** » هـ .

أقول : يعني ذِكْره للخمس يدل على لآمته . ولعله الرجل الذي أشرنا إليه بياع الذري ، وأفهم كلامه أن كل من ذكر مثل ذلك فهو مثله في اللآمة وعدم المروءة ، فينبغي للشهم اللبيب أن لا يستقضي حاجة ممن مثل ذلك ، ويترك ما ترك من ماله ذلك ، كما ترك سيدنا ما ترك له من الخمس أواق ، فإن ذِكْر ذلك من المنّ والأذى المبطل للصدقة ، كما قال تعالى : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ .

قال : « **وآخر طَلَبْنَا منه كذلك ، وقلنا : نرهنك شيئاً في مقابلته . فقال : ماذا ؟ قلنا : كذا . قال : ما أريد إلا كذا . فتركناه ، وأمثال هؤلاء أجعلتم أن الله سلط عليهم الدولة سدى ، ما سلطهم عليهم إلا بسوء أعمالهم ، كما قال السيد أحمد الهندوان : الدولة ما هم الظلمة ، ما الظلمة إلا أهل البلاد . والحاصل إن اللئيم ما هو ممن يعرج عليه في شيء ، فلا تستقض منه ، فإن استقضى منك فاقض له** » .

أقول : وما ذَكَر سيدنا من أحوال المشار إليهم ، إلا ليبين من أفعالهم هذه لآمة ، وإذا ثبت في أحد اللآمة فلا تستقض منه حاجة ، فإن حاجته تعود بالنكد في الدنيا والآخرة ، فاتركها رأساً ، ولكن إن استقضاك حاجة فاقضها بلا تنكيد ، من فعل لئامة ونحوها ، فإن قضاء حاجة المؤمن فيها فضل كبير هـ .

أقول :قوله عن السيد أحمد : « **الدولة ما هم الظلمة ، ما الظلمة إلا أهل البلد** » ، يعني الرعية لا السلطان وأعوانه . قال الإمام الشعراوي : « لا تدعو على الظلمة إذا جاروا ، فإن جورهم لم يصدر عنهم ، وإنما صدر عن المظلوم حتى تَحَكَّمَ فيه أو عليه مظهر ظلمه ، فالحكام مسلطون بحسب الأعمال، ﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾، والحاكم الجائر عدل الله في الأرض ينتقم به ، ثم يصير إلى الله عز وجل، فإن شاء عفا عنه فإنه آلة له هنا ، وإن شاء انتقم منه لأنه حقه » ، انتهى كلام الشعراوي .

وقال سيدنا عبدالله الحداد نفع الله به : « **ما يقع بالناس من ضر وأذى وظلم فإنها عقوبات لهم على معاصي صدرت منهم نسوها ، وأُثْبِتَتْ عليهم وأصابتهم عقوبتها ، فظنوا أنهم أُخِذُوا بلا ذنب** »، أو كما قال ، قال : « **وهذه لهم كالحدود** » ، أي مكفرات لمعاصيهم ، كما تكفِّر الحدود الذنوب التي حُدُّوا عليها .

ويبين قول الشعراوي قول الله تعالى : ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝﴾، يعني إنما حل بهم سوء أعمالهم ، فهم ظلموا أنفسهم وما أحد

ظلمهم، ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ ، وهو معنى قول الشعراوي: « والحاكم الجائر عدل الله في الأرض » ، وقال النبي ﷺ : « كما تكونوا يولّى عليكم » ، يعني إن صلحتم جاءكم الصلح وعدم الظلم ، وإن ظلمتم حل بكم الظلم والأذى .

وقد قال بعض السلاطين لوزيره : « أرني في هذا الحديث مثالاً أنظُرْه بعيني » . قال : « مَكِّنّي من خزانتك حتى أريك ذلك » ، قال : « مَكَّنْتُك منها » . فأظهر أنه مجنون ، وتعرى من ثيابه كلها ، حتى رأسه وبدنه كله لم يكن عليه شيء ، وما عليه إلا ما يستر عورته ، وعَلَّق مخلاة في عنقه وملأها دنانير، ودار على أهل الحوانيت وجعل يقبض ملء كفه من المخلاة ، ويدفعها لصاحب الحانوت ، ويقول له : أعطني بهذا زبيباً . وللآخر كذلك ، ويقول : أعطني بهذا كذا من حمص وجوز ونحو ذلك . وهو يعرف عدد ما أعطى كل واحد ، حتى لم يبق عنده إلا ديناران ، فدفعهما لصاحب دكان ، وكان على قدم من التقوى ، وقال له : أعطني بذلك كذا . فقال له : « يا عزيزنا ، ما بقي عندي إلا بمقدار نصف دينار » ، فأعطاه ذلك ، ودفع له منه قدر نصف دينار ، وما أخذ الدينار الآخر ، فعرف أنه رجل صالح له سريرة صالحة بينه وبين ربه ، وأما الأولون فعرف فجورهم ، أن كل واحد منهم يعطيه ما لا يسوى ربع دينار ، ويأخذ الدنانير .

فأتى إلى السلطان ، وقال : « رعيتك فجرة ، ما يعطون الحق ، ومعاملتهم مع الله باطلة ، وما رأيت فيهم من معاملةٍ صحيحةٍ إلا واحد ، فادعهم واسألهم كلهم فانظر ماذا يقولون ، ثم ادع ذلك الواحد وانظر ماذا يقول » ، فدعاهم واحداً بعد واحد ، وسأل كل واحد وقال له : « كيف رأيتم سيرتنا معكم ، وحكمنا عليكم ، وأحوال عسكرنا معكم ؟ » ، فكل واحد يقول : « والله إنَّا معكم في تعب ، ومظلومون منكم ، وعسكركم يظلمون ، ويأخذون أموالنا ظلماً وعدواناً » .

ثم نادى ذلك الرجل وقال : « كيف حكمنا فيكم ، وسيرتنا معكم ، وكيف عسكرنا معكم ؟ »، فقال : « والله يا سيدنا ، ما رأينا منكم شراً ولا ظلماً ، وإنما نحن معكم في راحة ولا خلاف يلحقنا من عسكركم » ، فقال الوزير للسلطان : « انظر كيف هؤلاء الظلمة الفجار ، حصل عليهم الظلم والأذى من ظلمهم وشرهم ، وهذا المسكين المستقيم في معاملته وديانته ما أصابه شر ولا ظلم ولا أذى ، تعرف بذلك قول رسول الله ﷺ المذكور : كما تكونوا يولّى عليكم . يعني إن صلحتم واتقيتم ما جاءكم ظلم ولا بلاء ، وإن ظلمتم وفجرتم جاءكم الظلم والبلاء » .

فتعجب السلطان من هذا التمثيل المبيِّن لمعنى الحديث ، ثم رجع الوزير على الذين أعطاهم الدنانير ، وانتزعها منهم وردها إلى الخزانة بتمامها وأغلقها ، ولبس ثيابه ورجع إلى حالته الأولى ، وقد بين للسلطان معنى الحديث بمثال رآه بعينه .

و « **الذري** » المذكور في كلام سيدنا : هو البذر الذي يبذر في الأرض حين حرثها .

وكان لسيدنا في بيت جبير أرض واسعة ، تحرث إذا جاءها سيل المطر ، وقد يحرث معها شيئاً من ذبر ضعفاء السادة ، الذين يعجزون عن تقويمها ، ومعتاد عندهم أن أجرة الأرض قدر عشر ما يخرج منها ، يسمونه عجيز الأرض ، وسيدنا يحرث مع أرضه أماكن للسادة بقدر عشرها ، ولا يعينه منها ، بل يعطيهم بقدره من غيرها غالباً ، وليس لهم إلا قدر عشر ما يخرج من أرضهم .

وعادة سيدنا أن ما حصل له من الحبوب من بيت جبير أو غيرها ، يقسمه أثلاثاً : ثلث يُضَم لمؤن الأرض وقت زرعها ، وثلث في مصروف البيت ، وثلث وهو ثلاثة أعشار الكل ، وثلث عشره يخرج منه أحد الأعشار الثلاثة للزكاة الواجبة ، للفقراء والمساكين وابن السبيل والغارمين والمحتاجين من غير السادة ، وهم غالب ما يوجد من الأصناف الثمانية في سائر البلاد ، ولو وجد غيرهم أيضاً دفع إليهم ، والخمس وثلث العشر للفقراء والمحتاجين من السادة صدقة مندوبة لوجه الله ، وقد يحتاجون فيأخذون من ثلث الأرض بعضه أو كله .

فاقتد بهم يا من يدعي محبتهم واعمل كما يعملون ، وأخرج ثلث مالك زكاة وصدقة لوجه الله، وإلا فدعواك محبتهم مجرد دعوى كاذبة بلا بينة ، وكل حجة ودعوى بلا بينة لا تستقيم ولا تثبت .

وما ذكرنا من قوله في من يعسر عليهم قضاء الحاجة .. إلخ ، ففي ذِكْر ذلك وأمثاله فوائد جمة عظيمة ، يعرفها من ذاقها ، إذ في كل كلمة يلفظ بها ، سواء تعلقت بعبادة أو بعادة فوائد متعددة ، فلا أرى متنطعاً يقول : لا فائدة في ذِكْر ذلك ، وأنَّ تَرْكه أولى . ومن الفوائد في ذلك أن حثَّك على التشيم عن استقضاء الحاجة من اللئام ، فإنَّ ذلك ليس من شيم الكرام ، وأن ترفع همتك عن الحاجة إليهم، ورفع الهمة وعلوها والشيمة الحسنة من أفضل خصال العقلاء ، وهي أنواع من المروءة ، وبيَّن لك أنَّ من علامات اللآمة أن يُذَكِّرَك معروفه أو يَذْكُرَه لأحد ، وأن يرد الصديق عن قضاء حاجة وهو يقدر عليها ، سيما إن كان يبيع شيئاً ، وأراد منه يبيعه على ما يبيع ويصبر في ذلك ، فأبى فذكر لك أنَّ كل هؤلاء لا يُعَدُّون من المعارف ، فضلاً عن الأصدقاء ، لأنهم كلهم أَبَوْا عن قضاء الحاجة . ودل على أنك إن استقضيتَ حاجة من لئيم ، فقد هَتَكْتَ دينك وعرضك ، وتعرضتَ للإثم والملامة .

ومن الفوائد في ذلك أن تعرف به كمال زهدهم وصبرهم ورضاهم وتعلقهم بالله ، كيف ترهقهم الحاجة ، وتلجئهم الضرورة إلى هذه الحالة ، وهم زاهدون في أمتعة الدنيا ، لا يلتفتون إليها ، وهي أهون في نفوسهم من الماء البارد ، مع ما يقاسون من محنها وبلائها ، ولذلك جُعِلَت سجناً للمؤمن .

وهم في هذه الحالة على أكمل حالة من العفة ، وصون النفس عن السفساف وعن مراعاة الناس ،

وعن الطمع فيهم ، والترجي لنوالهم والتذلل لهم من أجل ذلك ، وهم على هذا الحال على أكمل حالة في الإقتداء بالنبي ﷺ ، حيث يبات الليالي طاوياً ، ويمكث ثلاثة أشهر لا يوقد في بيته نار لطعام ، والجبال تراوده أن تنقلب له ذهباً ، وهو مع الضرورة يأباها .

وَأَكَّـدَتْ زُهْـدَهُ فِيهَـا ضَرُورَتُـهُ إِنَّ الضَّرُورَةَ لا تَعْدُو عَلَى العِصَمِ

وإنما قَوَّى حرص أهل الزمان ، وشَدَّدَ رغبتهم في الدنيا ، ما أرهقهم من ضرورات المعاش ، مع قلة صبرهم أو عدمه ، إذ ليس فيهم صبر كصبر الأولين ، ولا قوة رغبة في ثواب الآخرة ، مع عدم الإحتفال بأمور الدنيا ، كرغبة الأولين في ثواب الآخرة ، مع عدم الإحتفال بأمور الدنيا ، وكلما تأخر الزمان قَلَّت رغبتهم في الآخرة ، واشتدت رغبتهم في الدنيا . ولا فرق في ذلك بين العلماء والعوام ، فكلهم فيه سواء ، ولذلك اشتد من الجميع الحرص والتكالب عليها ، حتى منعهم عن أداء الواجب والمندوب شرعاً ومروءة ، وأظهر ذلك منهم لآمتهم، وفضحهم بين الناس . والصالحون في كل زمان إنما يحرصون عليها لإنفاقها لوجه الله ، أو للإستعانة بها على طاعة الله لا غير ذلك هـ .

ومرَّ في طريقه سائراً من الحاوي إلى السبير يوم الأحد على عادته ، فلما وصل الموضع المسمى باجبهان ، وإذا بنساء ضعاف سُوَّال ، ومنهم عميان ، فسألوه ، فقال للخادم عكيمان : « **إعْتَنِ بهم** - يعني أعطهم زاداً يأكلون - **إذا وصلت البيت ، أما لك عناية بالمساكين ؟ أما ترانا بعد كل صلاة ندعو أن الله يحبب إلينا المساكين ؟** » ، يعني ما يعتاد الدعاء به بعد كل صلاة ، وهو الدعاء الوارد بعد الصلوات : « اللهم إني أسالك فعل الخيرات .. » إلى أن قال : « وحب المساكين » .

فقلت : إنهم مساكين بلا دين ، أي بلا صلاة ، *قال* : « **ولو ، لأن الله يحب المساكين ، ولو أن غنياً بلا دين وآخر مسكيناً بلا دين ، يكون هذا المسكين أحب إلى الله من ذلك الغني ، ففيه وصفٌ مما يحبه الله . ولو قلت له : لم لا تصلي ؟ لقال : ما عليَّ ثوب** » هـ .

أقول : يعني يعتذر بذلك ونحوه ، ولا يقول ما علي صلاة فينكرها ، وكذلك يقولون : لا إله إلا الله ، ويذكرون الله ويسبحونه ويُقِرُّون له بالتوحيد .

وبيت جبير المتقدِّم ذِكْرها : جهة متسعة بين جبال حائطة عليها من جوانبها الثلاثة شمالاً وشرقاً وجنوباً ، وقبليها مجرى الوادي المسمى عدم ، قد تجري فيه سيولاً هائلة ، كسيل الإكليل الأول - سنة ١٠٩٠ - والثاني ، والنابر الذي نبر النخيل ، وكانت بلاداً مستقلًّا للسادة ، لكل قبيلة من السادة منها ناحية ، فجاءها مرة سيل كبير ، فأتلفها فحلوا بعدها في تريم وتوطنوها ، وبقي أسهم السادة منها

مواضع بيوتهم ، مواريث في ذرياتهم تزرع ، ويأخذون محصولها لكل قبيلة منهم موضع منها .

قال في « المشرع الروي » : « وهي مدينة لطيفة الهواء ، عذبة الماء ، نزلها السادة بعد وفاة عبيدالله بن أحمد بن عيسى بِسُمَل سنة ٣٨٣ ، وذلك بعد مخرجهم من البصرة بست وستين سنة ، ثم نزلوا ببيت جبير وأسسوا مسجد التقوى ، يعني مسجدهم الذي عنده بئر محمد ، ومشهور إلى الآن ذلك المسجد ، بناه أولاد أحمد بن عيسى ، والبئر حفرهم ، ولهم حارة تسمى العلوية . ثم حلوا مدينة تريم سنة ٥٢١ ، وذلك عام ولد الفقيه المقدم ، وأول من سكنها الإمام العارف بالله علي بن علوي خالع قَسَم ، وهو الذي اختط مدينة قسم وخلعها - أي غرسها نخلاً - وسمى الموضع قَسَم باسم بستان كان لجدهم أحمد بن عيسى بالبصرة ، فصار ذلك الموضع بلداً يسمى بذلك الإسم وينسب إليها ، واشتهر بنسبته إليها ، حتى لا يعرف إلا بتلك النسبة » .

وذَكَر سيدنا عبدالله يوماً حديث المَلَكَين : « يصبحان يناديان صباح كل يوم ، أحدهما ينادي : اللهم اعط مُنفِقاً خَلَفاً ، والآخر ينادي : اللهم اعط مُمسِكاً تَلَفاً » ، *ثم قال* : « **هذا في من لم يُخرِج الزكاة، فيمنع حق الله الواجب ، أو لم يتصدق مع قدرته على ذلك ، بل يبخل عن ذلك ويخبيء المال ويُنَمِّيه ويحرص عليه ، ويحب زيادته** » هـ .

أقُولُ : ولما ذَكَر سيدنا الصَّدِيقَ وقضاء الحاجة على يده ، وأنَّ من لم يقضها مع القدرة بلا سؤال فليس بصديق ، ولا يُعَدُّ حتى من المعارف غير الأصدقاء ، فإن قضاها بسؤال فلا وَقْعَ لها ، وإن لم يقضها مع السؤال فَعُدَّه من الأعداء ، وعلى هذا المعنى . فلما أجرى الله هذه المادة على قلبه ، وأنطقَ بها لسانه أحببتُ أن أذكر هنا كل ما حضرني في هذا المعنى وفي هذه المادة ، لأنه عرض لي بهذه الحالة ، وأشار إليَّ بها مكاشَفةً منه ، قبل وفاته بنحو عشر سنين أو أكثر ، كما كاشفني بكثير غيرها ظهرت لي لما وصلت الأحساء .

وقد ذكرت كلامه في هذا النقل في غير هذا الموضع ، وذكرت معه شواهد تُحقِّق ما قاله ، كقصة حسين بافضل له وجوابه له ، وذلك أنه قال لي : « **قال لنا حسين بافضل : إن بَدَتْ لكم حاجة أو غرض ، الحذر ما تحكون لي بذلك . فقلنا له : إن بدت حاجة تُطْلَب من الخلق ، فأنت أولى بها ، وقِدْنا في بيتك ، وإن قضى الله الحوائج فما بقي كلام** » ، ثم قال لي رضي الله عنه : « **فاعْلَمْ هذا واعْمَلْ عليه** » .

وما فهمت معناه إلا لما وقع ، وذلك أني حين قَدِمتُ بلاد الحساء - أظن في مدة الثلاثة الأيام - وإذا رجل يقول لي : « بالله عليك ، وبروح حبيبك عبدالله ، إن أردت قضاء حاجة أو سلف أن تعلمني

بذلك ، ولا تستقض حاجتك إلا من عندي » .

وما زلت حافظاً لكلام سيدي عبدالله ، وما فهمت أن الإشارة إلى هذا الرجل إلا بعد نحو ثلاثين سنة ، ونحو أربعين من نُطْقِ سيدنا به ، ففهمت حينئذ أن معناه : أنه سيقول لك إنسان مثل ما قال لنا حسين بافضل ، فقل له مثل ما قلنا لحسين ، فحين فهمت الإشارة ، قصدته إلى بيته ، وقلت له : إن سيدي قال لي كذا ، وما أحد قال لي كذا إلا أنت ، وما أرى الإشارة إلا إليك ، فعاد جوابك أقول لك: إن بدت حاجة تطلب من الخلق فأنت أولى بها ، وإن قضى الله الحوائج فما بقي كلام . ففرح جداً بهذه الإشارة إليه من سيدنا ، وقال : « جزاك الله خيراً » ، وما أبطأ بعد ذلك وانتقل إلى رحمة الله .

وكان كلامه لي ذلك في شهر ربيع الأول سنة ١١٣٤ وما فهمت أن الإشارة إلى ذلك الإنسان إلا في شهر رمضان سنة ١١٦٤ ، بعد نحو أربعين سنة أو أكثر من قول سيدنا ، وقد تقدم قوله : « **كلما بَعُد ما أخبر به الأولياء من المغيبات كان أعظم للكشف** » .

ولما رأيت اختلاف أحوال الناس في قضاء الحاجة ، خطر لي هذا الكلام ، وإنما حرك الخاطر ما رأيتُ من اختلاف الأحوال في هذا الوقت ، حيث صار فيه مَن كان يُضرَب به المثل في المروءة والمعروف والجود وحسن الظن ، صار اليوم يُضرَب به المثل في ضد هذه الأشياء ، من اللآمة وعدم المعروف وشدة البخل ، كما قيل :

مَرَرْتُ عَلَى المُروءَةِ وَهيَ تَبْكِي فَقُلْتُ : عَلامَ تَنْتَحِبُ الفَتَاةُ
فَقَالَتَ : كَيفَ لا أَبْكِي وَأَهْلِي جَمِيعاً دُونَ خَلْقِ الله مَاتُوا

فأرى الإنسان يُبْتَلى بصداقة من يُمْتَحَنْ جداً في صداقته وصحبته ، بلا مثقال ذرة من نفع في دين ولا دنيا ، وهذا غاية الإمتحان ، كما قيل :

وَمِنْ محَنِ الدُّنيا عَلَى المرْءِ أَنْ يَرَى عَدُوًّا لَهُ مَا أَنْ لَهُ مِنْ صَدَاقَتِهِ بُدُّ

فأقول : اعْلَمْ أنَّ صديق أهل هذا الزمان في الغالب أنه صديق لك ما زلت عنه في غنى ، فأما متى احتجتَ إليه ولو في أقل قليل فلا ترى عليه علامة الصديق من اهتمامه بما يهمك ، والمبادرة إلى السعي في قضاء حاجتك وتفريج كربتك ، وبذل محصوله ومجهوده فيما يصلح شأنك ، هذا هو في الأكثر ، بل إذا طلبتَ منه حاجة تبين لك منه أثر العداوة ، من عدم اكتراثه لشأنك ، وعدم اهتمامه بما يهمك ، وتبين لك أن لا صداقة صادقة ، بل كذب ودعوى باطلة بلا حقيقة .

ومنهم من صداقته ما دام محتاجاً إليك ، فإذا استغنى عنك فلا كأنه يعرفك ، ولا رآك يوماً من

الدهر ، فضلاً عن أن يقضي لك حاجة ، أو يهتم بأمرك فيهمه ما يهمك ، فحسن الظن في كثير من الناس في هذا الوقت ضائع في غير محله ، فكل من تظن به خيراً ثم تختبره تجده بخلاف ما تظن ، كما قال بعض العرب : « ما من أحد من الناس إلا وأَبْلِهِ تَقْلِهِ » ، يعني إن تختبره تبغضه ، بسبب ما تطَّلِع عليه منه من سوء حاله ، وفي الحديث : « أَبْلِهِ تَقْلِهِ » ، فحسن الظن فيهم غير صادق ، وسوء الظن فيهم أصدق وأحق . وأعني بسوء الظن ، أن تظن أنه لا يقضي حاجتك ، فتتوقف عن طلبها منه ، لأنك ما تطلب حاجة إلا ممن تحسن ظنك به وتظن أنه يقضيها لك ، فإذا لم يقضها تبين لك كذب حسن ظنك فيه ، ولو أنك أسأت به ظنك وظننت عدم قضائها منه لصدق ظنك .

وغالب الناس اليوم هكذا إلا القليل ، فيعتذر وهو يقدر عليها ، ولا مانع له إلا البخل الشديد ، مع عدم الرغبة في ثواب قضاء حاجة المؤمن ، كما قدمنا من حديث أنس ، لكن ذاك موهبة من الله ، ما يخص به إلا من يحب ، وما كل أحد محبوب عند الله يخصه الله بجزاء سبعة آلاف سنة ، صيام نهارها وقيام ليلها . فإذا أسأت الظن بهذا المعنى توقفت عن سؤالها منه ، وذلك أصون لك وأستر لعرضك، كما قال : « **أتظنون أنا نستقضي حاجة من اللئام** » ، فإذا أحسنت الظن به وسألتها منه ، تبين لك ضد حسن ظنك ، وما حصلت منه إلا إن أهرقت ماء وجهك ، وهتكت عرضك لمن لم يستحق السؤال، حيث لم يصن عرضك بإسعافك بما طلبت منه ، بل ربما مع عدم النفع منه لا تسلم من أذاه وكسر خاطرك .

وقد جرب من أهل ذا الزمن أنك لا تحسن الظن بأحد منهم وتختبره ، إلا وجدته بخلاف ما تظن، ولا تسيء الظن بأحد منهم وتختبره إلا وجدته فوق ما تظن ، لا سيما من هو منهم منسوب إلى علم أو طريقة ، أو منصب من المناصب ، الذين يقبِّل الناس أيديهم . فالعجب من حال أهل الزمان ، كيف صاروا بعكس ما يظن بهم من الخير وفوق ما يظن بهم من الردى ، فسوء الظن بهم كهانة ، فهم كما قال على ما قدمنا : « **الأمور في هذا الزمان انعكست عن أوضعها ورجعت إلى أضدادها ، فينبغي أن يسمى الزمان مخيب الظنون** » ، يعني ظنون الخير لا الشر ، فإنه فيه بزيادة ، فصديقهم لا ينفع ، وعدوهم شديد الضرر ، زيادة تزيد على العادة المعروفة من ضرر العدو . ولو سُئِلتُ : أيما أفضل : صديقٌ لا ينفع أو عدوٌّ لا يضر ؟ لقلت : العدو الذي لا يضر خير وأفضل بكثير من الصديق الذي لا ينفع ، بل هو بالنسبة إلى فعله هو الصديق ، والآخر بالنسبة إلى فعله هو العدو .

وبيان ذلك أن النفع هو ما يجلو همك ويُسِرُّ قلبك ، وهو من شيمة الصديق صدقاً لا دعوى ، بل لا يكون ذلك إلا من ذلك الصديق ، والضُّر بالعكس ، هو ما يجلب همك ويحزن قلبك ، وذلك من شيمة العدو ، بل لا يكون ذلك إلا من العدو ، فإذا احتجت إلى النفع الذي هو من شيمة الصديق

والتمسته من صديقك فلم يسعفك به وهو يقدر ، فقد جلب لك همًّا إلى همك ، وحزناً إلى حزنك ، بل يكون ذلك أشد من الحزن الأول ، حزن الإحتياج قبل الْتِماسك منه النفع ، لأن الأول هجم على القلب على سعة ، وهذا هجم عليه على ضيق ، وبعد ما أَرَقْتَ ماء وجهك له فلم يَصُنْهُ بإسعافك بما تريده منه وهو يقدر ، فثقل على خاطرك وزاده تشويشاً على ما به من التشويش ، وهذا والله أبلغ من أذى العدو ولو آذى .

وإذا خفت من الضر المتوقع من العدو ، فرأيته كَفَّ عنه وهو يقدر عليه ، حصل لك من السرور بسبب عدم ما توقعت من الضر ، وسلامتك منه أضعاف ما يحصل من السرور بسبب النفع إذا حصل من الصديق ، وزاد له محل في قلبك ، وصار له في قلبك محبة ومودة ، وصارت له عندك منزلة فوق منزلة الصديق ، على حسب ما يقع لك من السرور منهما ، أعني سرورك من الصديق بقضاء حاجتك ، وسرورك من العدو بعدم الضرر وبكف الأذى ، وهذا الأخير أبلغ من الأول بكثير فربما صار بذلك صديقاً . والصديق إذا لم ينفعك وحصل منه بعدم النفع ذلك الأذى المتقدم وصفه ، ربما صار عدوًّا . فإن النفوس مجبولة على محبة من أحسن إليها ، بكف أذى أو جلب نفع ، بل الكف عن الأذى أبلغ من جلب النفع ، لأن القاعدة الشرعية : « إن درء المفاسد أولى من جلب المنافع » .

وإن كان لكل منهما أبلغ عناية في الشرع والطبع ، أعني أن الشرع بَالَغَ وَوَعَدَ على ترك المعاصي من الثواب ، وأوعد على فعلها من العقاب أبلغ مما وعد ، وأوعد من ذلك في المأمورات ، تعرف ذلك إذا تتبعت الآيات والأحاديث وتعقلتها ، كآية : ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝﴾، ووجه المبالغة أنه تعالى وعد هنا على الطاعة ، وهي الإيمان وتوابعه دخول الجنة والخلود فيها ، وأوعد على المعصية وهي الكفر وتوابعه النار والخلود فيها، وزاد في هذا زيادة وعيد ، وهي أن قال سبحانه : ﴿وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾، فافهم . وأخذ بعضهم من هاتين الآيتين معنيين : أحدهما ، أن الداخلين الجنة على ما وعدهم ، أكثر من الداخلين النار على ما توعدهم ، حيث ساق ذكر أهل الجنة بصيغة الجمع ، وذكر أهل النار بصيغة الإفراد .

قال كاتبه : يبين ذلك أنه تعالى أطلق صيغة الجزاء فيهم ، مبالغةً في التهديد بالوعيد ، ردعاً لهم وزيادة في تخويفهم لعلهم ينتهون ، وإلا فالثابت في العلوم الشرعية ، أنه تعالى يعفو عن أكثر المعاصي مع الايمان ، وأنَّ رحمته سبقت غضبه وأنَّ الكثير ممن يدخل النار وهم من مات على الإيمان ، يخرج منها ولا يُخَلَّد ، فيتجرد الخلود فيها لمجرد الكافرين .

وأما الجنة ، فكل من أُدخِلها لا يخرج منها ، فلهذا ساق الإخبار عنهم بصيغة الجمع والكثرة ،

وقد وعد كُلَّا من الدارين بملئها ، سواء تساويا في الكثرة أو اختلفا فيها . وأما الطبع ، فإن في العادة الجارية والطبيعة الغالبة ، أن رغبة الناس في السلامة من الشر أكثر من رغبتهم في حصول النفع ، فتبين لك من هذا أن العدو الذي لا يضر ، مع قدرته على ذلك والتمكن منه ، هو الصديق بالحقيقة وأقمن بالصداقة، حيث أسرَّ خاطرَك بعدم ما تتوقعه منه من الضرر ، حتى إنَّ من كان مِن لازِمه أن يبغضك في العادة ، فرأيت منه المحبة ظاهراً ، أنك تحبه زائداً على العادة ، كزوجة أخرى لزوج ابنتك ونحو ذلك .

وإنَّ الصديق الذي لا ينفع وقت الحاجة للنفع منه ، وهو قادر ومتمكن ، هو العدو حقيقة ، حيث ساءك وغَمَّك بعدم مساعدته لك في ما رُمْتُه منه ، بل ما زادك ذلك منه إلا أن أَهْرَقْتَ ماء وجهِك له، وأطلَعْتَه على ما خفي من أمرك ، وكشفتَ سترك وقد كان مستوراً ، نعوذ بالله من كشف الستر ، وإماطة غطاء الحياء . فقل لي الآن بعدما تبين لك أمر الرجلين : أيها أحب إليك منهما ، عدوٌّ يقدر على الضر فيعف ، أو صديق يقدر على النفع فيكف ؟ والله إن الأول هو الصديق ، وإن الآخر هو العدو .

فاعرف بعد هذا عدوك من صديقك ، ولا تركن إلى كل أحد إذا عرفت سبب العداوة وسبب الصداقة ، وإن قائل هذا البيت مصيب فيما قال :

وَمَا أَكْثَرَ الإِخْوَانَ حِينَ تَعُدُّهُمْ ... وَلَكِنَّهُمْ فِي النَّائِبَاتِ قَلِيلُ

كل هذا مع القدرة والتمكن من الجانبين ، وأما عند العجز وعدم التمكن ، فالصديق معذور ، والعدو غير محمود ولا مأجور .

انتهى ما أردنا ذِكْرَه من وصف الصديق الصادق ، وقضاء الحاجة على يديه ، ووصف اللئيم وعدم قضائها منه ، ووصف العدو وتوقع الضرر مما لديه ، وكل ذلك تَبَعٌ لقول سيدنا عبدالله نفعنا الله به وما أشار إليه .

ومرادنا ذِكْر أحاديث نبوية في المعنى ، منقولة من « الجامع الصغير وشرحه للمناوي » ، هي :

« ص :قال النبي ﷺ : اطلبوا الحوائج إلى ذوي الرحمة من أمتي ترزقوا وتنجحوا . ش : أي الرقيقة قلوبهم السهلة عريكتهم ، يعني طبيعتهم ، أي تصيبوا حوائجكم وتظفروا بمطالبكم .

ص : فإن الله يقول . ش : أي في الحديث القدسي .

ص : رحمتي في ذوي الرحمة من عبادي . ش : أي أَسْكَنْتُ المزيد منها فيهم .

ص : ولا تطلبوا الحوائج عند القاسية قلوبهم . ش : أي الغليظة أفئدتهم .

ص : فلا ترزقوا ولا تنجحوا فإن الله تعالى يقول : إن سخطي . ش : أي كراهتي وشدة غضبي .

ص : فيهم . ش : أي جعلته فيهم .

ص : اطلبوا الحوائج عند حسان الوجوه . ش : أي الطَّلِقَة المستبشرة وجوههم ، فإن الوجه الجميل مظنةٌ لفعل الجميل ، إذ بين الخَلْق والخُلُق تناسب قريب » .

قال كاتبه : فَسَّره ابن عباس ، بأن المراد الحسنة وجوههم عند سؤال الحاجة ، فإن ذلك يدل على السماحة والكرم وحسن الخلق ، ولو كان قبل ذلك ليس بحَسَنِ الوجه ، وأما البخيل اللئيم السيء الخُلُق فإنه يشين وجهه عند سؤال الحاجة ، ولو كانت صورته قبل ذلك حسنة .

فاعرف بهذه العلامة التي ذكرها رسول الله ﷺ ، من يستحق أن يُسأل الحاجة ومن لا يستحق ذلك ، ولا ترِقْ ماء وجهك لنذل قط ، وهو من يرى أن الإحسان جالبٌ للفقر ، وعلامته أن يكلح وجهه ويشين عند السؤال ، ويحك رأسه ويتحير ويتفكر فيما يجيبك به ليدفعك عنه ، وهو الغالب من أحوال الناس اليوم ، بل أجمعهم إلا القليل ، لعدم خلو الأمة من الخير ، كما بشر به الأنبياء عليهم الصلاة والسلام للنبي ﷺ ، حيث قالوا له : « أبشر يا محمد ، فإنا نرى الخير فيك وفي أمتك إلى يوم القيامة » ، وهذا المعنى يصدق على هذه الأمة المكرمة ، ولو لم يكن فيها مَن فيه الخير إلا رجل واحد ، فيصدق على أن الخير فيها باقٍ لم ينقطع ، وقليل ما هم ، وإن بلغ من العلم والعبادة والجاه إلى حد ما يمكن اليوم ، وإن أراد أحد أن يقضي لك حاجة نادراً ، تذكر غرضاً ما له إليك ، إعانةً له على ذلك ، وإلا فتدعو غير مصمت ، ولا يَرِقُّ عليك ، ولا تدركه رقة ورأفة أخوة الإيمان لضعفه في قلبه ، ولو علم باضطرارك ، فمثل هذا هو القاسي قلبه ، الذي نهى النبي ﷺ عن سؤال الحاجة منه ، وأيضاً إن كان في نفسه أدنى زعل من جانبك ، فلا يطيعه قلبه ، ولا تساعده قواه وأعضاءه على كمال النصيحة في حاجتك ، ولو سعى واجتهد . فهذا ما رأيناه وقطعت به التجربة ، والظن كهانة ، والتجربة قسم من العقل . هذا آخر كلام كاتبه المشار إليه آنفاً .

وذكر في كتاب أخلاق النبوة من الإحياء حديثاً عن علي كرم الله وجهه قال : قال النبي ﷺ : « يا عجباً لرجل مسلم ، يجيه أخوه المسلم في حاجة ، فلا يرى نفسه للخير أهلاً ، فلو كان لا يرجو ثواباً ولا يخشى عقاباً ، لقد كان ينبغي له أن يسارع في مكارم الأخلاق ، فإنها مما تدل على سبيل النجاة » هـ .

قال رسول الله ﷺ : « إذا سبقت للعبد من الله منزلة لم ينلها بعمله ، ابتلاه الله في جسده ، وفي أهله وماله ، ثم صَبَّرَه على ذلك ، حتى ينال المنزلة التي سبقت له من الله عز وجل » . شرح الحديث : « أي إذا منحه في الأزل مرتبة عالية ، لم ينلها بعمله لقصوره عن إبلاغه إليها ، لِقِلَّتِهِ وسُمُوِّها ، ابتلاه الله في

جسده بالآلام ، وفي أهله بالفقد أو عدم الإستقامة ، وتَلْوِيَتِهِم عليه ، وفي لفظ : وتأَبِّيهم عليه . وهو بمعناه ، وماله بإذهابٍ وغيره ، ثم صبّره بالتشديد ، وسبقت له أي استحقها بالقضاء الأزلي والتقدير الإلهي ، فأعظم بها بشارة سنية لأهل البلاء الصابرين على الضر والبأساء » . انتهى الحديث في الجامع الصغير ، وشرحه للمناوي . تم ما أردنا نقله .

وذَكَر سيدنا جماعة كانوا يترددون إليه من آل الشيخ أبي بكر بن سالم ، ثم انقطعوا ، *فقال* : « **ما كان بيننا وبينهم شيء من أمور الدنيا ، ولا نالنا منها منهم شيء ، وهم عالمون بذلك ، ولو أرسلوا لنا بشيء ردّيناه ولا قبلناه ، وإنما مرادنا منهم أن يتربوا ويتخلقوا بأخلاق سلفهم ، ما هم داريين أنَّا نُرَبِّي الرجل من أولادنا على الخُلُق الواحد سنين** » .

وسُئِلَ عن الشيخ علي ، *فقال* : « **وأما الشيخ علي فجوهرته محفوظة ، ولم يزل لنا على المحبة ، وخاطرنا من جانبه طيب** » ، أو كما قال هـ .

أقول : إنه لما صار يتردد على سيدنا ، ترك ما كان عليه من أمور يافع ومخالطتهم ، والجري في ميدان السفاهة معهم وتوسطاته بينهم ، وعزم عزماً صادقاً أن لا يدخل في شيء من أمورهم ، وقال : « من طلب منا شيئاً من ذلك ما أطعناه ، وما علينا إلا أن ندعو بما فيه صلاح المسلمين » ، ثم حصل له جاذب من الحق ، ودواعي دعته ، ورأى النبي ﷺ مراراً يشير له بالإقبال على الله ، فترك لذلك أمور يافع ، وأقبل على الله ، وأتى إلى سيدنا عبدالله وأخبره بما رأى ، واعتذر إليه مِن تَأَخُّر مجيئه ، وجعل يتردد عليه . وكان إذا جلس بحضرة سيدنا عبدالله يغيب عن حسه ، ويذهل عن شعوره ويغير على رِجْلِ سيدنا يقبلها ، فيمد له يده ليصافحه ، ولا يغير إلا على رجله فيقبلها ، وقد حصل له منه نظر تام، وشدة عناية واعتناء ، فيهنيه ما أوتيه .

وأمره الحبيب أن يقرأ في كتاب « فتح باب المواهب » لجده الشيخ أبي بكر بن سالم ، ثم لما ختمه أمره يقرأ في كتاب « الأربعين الأصل » للإمام الغزالي ، ثم لما أتمه أراد أن يقرأ في كتاب « معراج الأرواح » لجده الشيخ أبي بكر ، وذلك أن جملة آل الشيخ آل أبي بكر ، من آل الحسين وآل الحامد ومن حضرهم، مرتبين قراءته بعد صلاة الجمعة إذا اجتمعوا كلهم لصلاتها ، حتى يحضر ذلك أكثر من حضر الصلاة ، وحضرناه عندهم مراراً ، وكلما ختموا يعيدون وهكذا دائماً . وكان سيدنا عبدالله ما يحب قراءته في الملأ ، لما فيه من كلام الحقائق ، إذ كله في الحقائق ، وكان سيدنا ينهانا عن كثرة مطالعته .

فلما طلب السيد علي القراءة فيه لقوة اعتنائهم به أشار بقراءة كتاب آخر ، وكان إذا جاء امتحنه

الناس ، ولَزَّموا عليه أن يصلح بين يافع وبين عمر بن جعفر ، فثقل عليه ذلك جداً ، فانقطع عن المجيء من كثرة إلحاحهم عليه في ذلك ، قبل يبتديء في الكتاب الذي أشار له به ، وكتب للحبيب - معتذراً - كتاباً يعتذر إليه ، ويذكر عذره ، فعَذَرَه ودعا له وقال فيه ما تقدم من قوله : « **جوهرته محفوظة .. إلخ** » ، وإنما كره أن يتعرض لما دعوه إليه ، لأنه حلف وعزم أن لا يتعرض في ذلك ، وقال: « شيئاً تركته لوجه الله لا أعود أتعرض فيه » ، وهم رأوا أن ذلك أصلح للمسلمين ، وأنه لا يمكن ذلك ويثبت إلا على يديه فامتنع منه ، وكان ذلك سبباً لامتناعه من المجيء ، خوفاً من تعرضهم له بذلك، وإلا فهو متعطش للحضور بحضرة سيدنا عبدالله ، وليس في خاطره عليه شيء قط ، وقَبِلَ عذره .

وكان ابن اخته سالم يتردد قبله ، وله قراءة على سيدنا عبدالله ، قرأ « شرح الحكم للحجازي » ، ثم صار يتردد مع خاله حين تردده ، ثم انقطع عن المجيء بانقطاعه ، وهم الجماعة المشار إليهم فيما قدمنا أنه ذكرهم ، وقال من جانبهم ما تقدم ذكره ، انتهى .

واستأذن على سيدنا بعض السادة من أهل بلد شبام ، فأذن له بالدخول ، وذلك بعد إشراق يوم الثلاثاء ١٥ صفر سنة ١١٣٢ ، فكان مما تكلم به معه أن قال له سيدنا : « **أهل شبام لهم عقيدة وحسن ظن في السادة ظاهراً عليهم ، ليسوا كأهل تريم ، فإنَّ لهم أيضاً كذلك ، لكنهم مستبطنينه ، لا يظهر عليهم إلا عند الإختبار . كما ترى إذا كانوا في سفر ، أو رأوا أمراً نزل بالشريف ، فيظهر عليه أثر التعب حينئذ ، وما ذاك إلا لكثرة الأشراف ومخالطتهم لهم ، كالمسك إذا قَلَّ عَزَّ ، وإذا كَثُر هان** » .

وسأله سيدنا عن رجل بشبام ، كيف هو وأهله ؟ ، وامتد به الكلام إلى أن قال : « **وأرسل أهله إلينا نأمره بالفراق ، ونحن كلامنا ما عاد نسيِّيه لأهل الزمان لقلة امتثالهم ، وماذا ينفع الكلام مع قلة الإستماع له والعمل به ؟ كالذي يعجن الطحين بلا ماء ، كيف يمكنه عجنه بلا ماء ؟ لأن فيهم مباهتة وكذب ، إن ذَكَرْتَ له حال نفسه وما فيه من مذموم الخصال ، لأجل نُصْحِهِ وتبيين عيوب نفسه ، حقد عليك ، وربما أَقَرَّ على نفسه بذلك وقال مثلاً : نحن ألَّا كذا أو كذا . فإذا وصفتَه بما وصف به نفسه ، ثقل عليه ذلك ، وأضمر لك الحقد ، وما يحسن في هذا الزمان إلا الإنفراد عنهم إن أمكن ، أو المجاملة معهم وهي المداراة المطلوبة في الشرع** » ، ثم أنشد أبياتاً للزمخشري ، وهي هذه :

إِنْ كَانَ لَا بُدَّ مِنْ أَهلٍ وَمِنْ وَطَنٍ ... فَحَيْثُ آمَنُ مَنْ أَهْوَى وَيَأْمَنُنِي
يَا لَيْتَنِي مُنْكِرٌ مَنْ كُنْتُ أَعْرِفُهُ ... فَلَسْتُ أَخْشَى إِذاً مَنْ لَيْسَ يَعْرِفُنِي

لا أَشْـتكِي زَمَنِـي هَـذَا إِلى أَحَـدٍ وَإِنَّـما أَشْـتكِي مِـنْ أَهْـلِ ذَا الزَّمَـنِ
هُـمُ الذِّئـابُ التِي تَحْتَ الثِّيـابِ فَلَا تَكُـنْ إِلى أَحَـدٍ مِنْهُـمْ بِمُرْتَكِـنِ
قَدْ كَانَ لِي كَنْزُ صَبرٍ فاضطررتُ إلى إِنْفَاقِـهِ فِي مُـدَارَاتِي لَهُـمْ فَفَنِـي
وَقَدْ سَمِعْتُ أَعَاجِيْبَ الحَدِيثِ فما سَـمِعْتُ يَوْمـاً بِحُـرٍّ غَـير مُمْتَحَـنِ

تمت الأبيات . فقال له ذلك السيد : « أهو معتزلي ؟ يعني الزمخشري » ، **فقال** له : « **نعم ، في العقائد دون الفروع ، فإن مذهبه حنفي** » .

ثم انجرَّ به الكلام إلى ذِكْرِ أبي طالب واجتهاده في نصرة النبي ﷺ ومنافعه له ، **ثم قال** سيدنا : « **لكن ما نفعه ذلك ، لأنه كان لمجرد العصبية ، ولا كتب له إسلام حيث عَرَّضَ له النبي ﷺ بكلمة التوحيد ، وطلب منه أن يقولها ، وعنده أولئك الرجلان من كفار قريش** » ، حتى كان آخر ما قال : « **هو على ملة عبدالمطلب ، ومات** » .

ثم قال : « **ما يحصل للعبد التثبيت إلا إن ثبته الله ، وإلا أدنى خاطر يخطر له يزلزله** » .

فقال ذلك السيد : « ادعو لنا بالتوفيق » ، **فقال** سيدنا : « **إذا جرى شيء في خاطرك فهو با يقع لك ، لأن الله سبحانه لا يُخطِر في خاطرك رجاءَ حُصولِ أمرٍ إلا ويريد أن يعطيكه ، لأنه سبحانه لا يؤمل أحد منه أمراً فيقطع به عنه ، لأنه تعالى كريم رحيم ، وما خلق الخزائن إلا ليعطيها عباده ، مع قوله تعالى : ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾** » .

ثم سأل ذلك السيد : « **في أي شيء من الكتب تطالع ؟** » ، قال : « في الأربعين الأصل ، والمنهاج» ، أظنه « منهاج العابدين» ، كلاهما للإمام الغزالي .

فقال سيدنا له : « **كتاب الأربعين الأصل فيه أشياء ليست في الإحياء ، وهو كتاب جليل ، وسماه الشيخ عبدالله العيدروس الصراط المستقيم . وفي كتب الإمام الغزالي خاصية ، وهي أنها تجلب إلى القلب الحضور مع الله ، بالخاصية لا بمجرد العلم ، وقد ذكر الشيخ عبدالله لذلك مثالاً ، قال : كما يحصل السواد لمجرد اجتماع الماء والزاج** » .

ثم أمر بالقهوة ، وبعدها بالدخون ، ثم قرأ الفاتحة ، ثم دعا ، ثم خرج ذلك السيد ، ثم فرغ ذلك المجلس المبارك هـ .

أقول : قوله : « **لا نسيب كلامنا** » ، لأن طلب أهل ذلك الرجل من سيدنا يأمره بفراقها ، أمرٌ لا يجوز إلا إن كان أمر شرعي يقتضي ذلك ، فلو كان ذلك ، وأمره بذلك ، المتبادر عدم امتثاله ، فلأي

شيء يضرب في حديد بارد . وغالب من يشار عليه بأمر كذلك ، كما تقدم شوره على رجل أقبل من الهند أن لا يعود إليها ، فعاد وخالف قوله ، ومن أجل ذلك قال تلك المقالة العجيبة ، المبينة وجه الشريعة والحقيقة ، وهي قوله : « **الخلق مكلوفون لما خُلِقوا له .. إلخ** » .

وقوله في الزمخشري أنه معتزلي في الأصول ، يعني العقائد دون الفروع ، فإن أول ما تبين من اعتزاله ثم اشتهر به أن قال في خطبة كشافه ، كما ذكره اليافعي في تاريخه « مرآة الجنان » : « الحمد لله الذي خلق القرآن » . فَشَنَّع الناس عليه بالإنكار والإبتداع ، فرجع وأصلحه : « أنزل القرآن » ، فذكر أنه تاب من ذلك ، وله أبيات تدل على رجوعه وتوبته عن ذلك ، وهي قوله :

هُمُ أَيقظوا رُقْطَ الأَفَاعِي وَنَبَّهُوا   عَقَـارِبَ لَيْـلٍ نَـامَ عَنْهَـا حُوَاتُهَـا

وَهُـمْ بَلَّغُـوا عَنِّـي الـذِي لم أَفُـهْ بِـهِ   وَمَـا آفَـةُ الأَخْبَـارِ إلا رُوَاتُهَـا

وله أيضاً هذه الأبيات ، وهي دالة على توبته ورجوعه عما كان ، لكن اشتهاره بذلك ما انقطع عنه، وعسى له في ذلك خير ، وهي :

يَـا مَـنْ يَـرَى مَـدَّ البَعُـوضِ جَنَاحَهَا   في ظُلْمَـةِ اللَّيْـلِ البَهِيـمِ الأَلْيَـلِ

وَيَـرَى مَنَـاطَ عُرُوقِهَـا في لَحْمِهَـا   وَالمـخَّ مِـنْ تِلْـكَ العِظَـامِ النُّحَّـلِ

امْنُـنْ عَـلَيَّ بِتَوْبَـةٍ أَمْحُـو بِهَـا   مَـا كَانَ مِنِّـي في الزَّمَـانِ الأَوَّلِ

وقول سيدنا : « **إذا جرى شي في خاطرك .. إلخ** » ، مطلق كلامه هذا مقيد بما تفيده باقي عبارته ، من كون حصول ما يخطر وهو خاص بالرجاء في الله ، فإن راجيه لا يخيب قط ، وهذا إذا كان في أمور الآخرة ، ودعوت الله فيه ورجوته منه ، ففضله واسع لا يخيب من رجاه ، ويحققه قوله تعالى : ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝﴾، أي ما تشاؤون الإستقامة على أوامر الله إلا بمشيئة الله .

ولما في حديث اجتماع المسلمين لصلاة العيدين أنه سبحانه يقول :« يا أمة محمد ، وعزتي وجلالي لا تسألوني في موقفكم هذا شيئاً من أمر آخرتكم إلا أعطيتكم إياه ، ولا تسألوني شيئاً من دنياكم إلا نظرت لكم » ، أو كما في الحديث . فهم إذ ذاك مجتمعون وراغبون وراجون وداعون ، فمن كريم فضله ورحمته وتدبيره ، أَطلَقَ الإجابة في أمر الآخرة ، وقَيَّدَه في أمر الدنيا ، فقال : « إلا نظرت لكم » ، يعني أنهم في أمور الدنيا متلهفون وطامعون مطلقاً بلا تقييد ، لِتَفَجُّعِهِم عليها ما يميزون فيها بين ما يضرهم وما ينفعهم ، فميَّزَ سبحانه لهم ذلك ، ونظر لهم ، تدبيراً منه تعالى ، ولا تركهم وما يرون على حسب تدبيرهم لأنفسهم بمقتضى طبعهم ، فما يراه منها ينفعهم يعطيهم إياه ، وما يراه يضرهم يرده عنهم

ويمنعهم منه ، بلطفه ورحمته وحسن تدبيره وجميل نظره ، وكذلك ورد أن الله تعالى لا يخيّب من دعاه، إما أعطاه ما سأله في الدنيا ، أو ادَّخره له في الآخرة ، فهو لا بد له منه ، وكفى بهذا شاهداً لقوله .

وذَكَر أهل شبام ، فقال : « كان فيها ناس زُهَّاد ، لا رغبة لهم في الدنيا ، وهم أهل خير ، فصاروا اليوم كلهم مشغولين بالدنيا ، فصاروا إلى لهو ولعب ، فإن كان في أحد خير فهو اتفاق ، وكان منهم الفقيه بامجبور ، إذا جاءه حكمان يبكي أولاً قبل الحكومة ، ثم يفتي . فانظر الآن ، وهكذا كانوا ، وما يستجري العامة إلا باستجراء العلماء ، وأدركنا كثيراً من أهل الأحوال في الجهة ، مساتير ومشاهير، ولكن انطفى ذلك النور ، واشتعلت بدله نار ، ولو كان هنا أحد من أهل الكشف لرآها ناراً ، من أعمالهم لا من غيرها » هـ .

أقول : قوله : « وهم أهل خير » ، يعني أنهم مع زهدهم في الدنيا ، في أيديهم قليلٌ منها ، ويُخرجونه في وجوه الخير والمعروف والإحسان إلى الفقراء والمحتاجين ، وهم ما سعوا في تحصيله ، وإنما صار إليهم إرثاً .

وأقول : أدركت من أهلها أخياراً ، ولو أنهم دون من ذَكَر ، من جملتهم أن رجلاً من متسببيها - فضلاً عن المتعبدين - كنتُ أراه كثيراً يتردد إلى تريم على سرعة ، ربما في الشهر مرتين أو ثلاث - وعادة الزوار إنما يأتي أحدهم في السنة مرة أو مرتين - وهذا الرجل مع كثرة تردده ، كلما جاء بَثَّ معروفاً كثيراً إلى فقراء السادة رجالاً ونساء ، ويفرحون كثيراً بمجيئه ، ويبث أيضاً إلى محتاجين غير السادة ، فقلت له : « إن الزوار يأتون للزيارة مرة واحدة في السنة ، وأنت تجيء في كل شهر ؟ » ، فقال: « إذا جئت يشفي غِلِّي كثير من الفقراء سادة وغيرهم ، وأريد أن أجيء حتى يشفوا غِلِّي ، فأقوم بِشفْيَتهم » ، وهذه والله نية عظيمة وعمل جليل ، لا يقدر عليه إلا أهل الكمال من كمل الرجال ، ولذلك حُرمه الأكثرون ، وخسره المدّعون .

وفي بعض الأيام ، وهو يوم السبت ٢٣ ربيع آخر سنة ١١٣٢ ، دخل عليه بعد صلاة الصبح عمر بن جعفر سلطان البلد من آل كثير ، وكان سيدنا في البلاد بايتاً فيها ليلة السبت ، وكان في العادة إذا جاء إلى البلد يوم الجمعة لأجل صلاتها ، يظل في داره ، وإذا صلى الجمعة جلس في الدار ، واجتمع عنده جماعة ، وينشد المنشدون إلى قرب العصر ويتفرق الناس ، ويبقى ومعه العيال وتبعيته من الفقراء إلى أن يصلوا معه صلاة العصر ومن حضر ، ويصلي بهم هو ، وبعد الصلاة مرتب على

ابنه السيد علوي يقرأ فيما تيسر من الكتب ، فإذا فرغ من القراءة قرأ الفاتحة وتفرقوا ويخرج العيال ، وأخرج معهم إلى الحاوي ، ويبات في البلاد ، فإذا صليت الصبح خرجت إليه ، وخرج بعد الإشراق إلى الحاوي ، وأخرج معه ، وإن سار إلى بيت مبيته بات فيه ، وإذا أصبحنا خرجت إليه فيه ، هكذا هو مرتبه ، وعلى ذلك عادته . فأتيت إليه في هذا الوقت ، وإذا السلطان عنده ، وأعرف أنه إذا كان عنده لا يحب أن يحضر أحد ، سوى العيال ، فجلست في الدهليز إلى أن خرج ، ثم خرج سيدنا بعده ، فصافحته *فقال* لي : « **يوم هو هنا ، قد جئت ؟** » ، قلت : نعم ، ولم أجزم الدخول إليكم وهو عندكم .

فقال : « **نعم نحن الغِنى ، وهو الفَناء ، إذا دخل علينا لم نُخَلِّ أحداً يحضر إلا إن كان العيال ، لأن الناس ليس فيهم أمانة في حفظ الكلام ، وأيضاً إذا كل من جاء حضر ، فما فائدة في كلام الخلوة . وكذلك إذا كان عندنا سماع ، إذا خَلَونا لا نمكِّن أحداً من الحضور ، إذا كان السماع خاصاً في خلوة ، فإن كان ظاهراً فلا نمنع أحداً** » . أو كما قال .

وتقدم ذِكْره قاعدته وعادته في أمر السماع ، في مجلس السماع المتقدم ذِكْره ، الذي دعاني لحضوره ولم يَدْعُني لحضور سماع قبله ، وما فعل سماعاً بعده إلى أن توفي ، وكأنَّ لسان الحال يقول : إنما دعوناك لحضور هذا ، لكونه خاتمة سماعاتنا قبل الموت .

وتقدم أيضاً قصة مجيئي ، وذلك المذكور عنده ، وقوله المذكور : « **نحن الغنى .. إلخ** » ، وأنه إنما خصه بالخلوة به والإقبال عليه بالكلام ، لما كان أَمَّلَ فيه أن ينقاد لكلامه ، ويعمل بكل ما يأمره به وينهاه عنه ، وأنه يجتهد في القيام بأمور يرتبه عليها من الحق ، من أمور يحييها من الحق ، وأمور يميتها من الباطل ، وهي التي أشار إليها على ما تقدم من قوله : « **وهذه الأمور التي كنا نؤمل أن نحييها إن وُلِّينا ، أو وُلِّيَ والٍ يسمع لنا ، وكنا راجين فلاناً ، لكنه ما لزق وما انقاد** » . يعني هذا السلطان عمر المذكور .

وتقدم مثل هذا من الإشارة ويأتي ، ومراده يُحيي أموراً من الحق دَرَسَتْ وتُرِكَت اليوم ، وقد أشار إلى ذلك مراراً كثيرة في مجالس متعددة ، ثم إنه خالف قوله ولم يعمل به ، بل لم يعمل بأمرٍ واحد ، وكان يعتني به ، راجياً منه ما أَمَّلَ فيه ، فلما خالفه تركه ولم يعتن به ، بل ذكره ووصفه بشدة الظلم والخلاف وعدم الصواب ، فمما قال فيه : « **فلان وفلان** – يعنيه ويعني حسن بن مطهر والي دوعن – **قد سكرا بخمر الظلم ، فما يفيقان إلا في القبر** » ، ثم إن عمر هذا مات في صحار بلاد عمان ، غريباً شريداً ذليلاً قتيلاً ، بلغنا أنه جلس تحت جدار يستظل تحته فسقط عليه فقتله ومات أخس ميتة .

وشكى إلى سيدنا بعض السادة من ألم ضرس قد أضَرَّ به وآلمه ، فقرأ عليه ، ومن جملة ما قرأ هذه الآية : ﴿ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٣ ﴾، *ثم قال* : « **يقال بئس الصاحب الضرس إذا رأيتَه ما نفعك ، وبئس الصديق الدرهم ، ما ينفعك حتى يفارقك** » ، ثم قال لي: « **احفظهما** » هـ .

قال : « **أكثر زلات أهل الزمان في ألسنتهم ومعاملاتهم الفاسدة ، ويظن أحدهم أنه يتعدى شحره - أي حده - إلى فوق ، يريد الجنة ، وعاد العلم وعاد العمل - أي ليس عنده علم ولا عمل فبأي شيء يدخل الجنة - وإذا نظر الإنسان إلى أهل طبقتين وتفاوتهم ، يرى بينهم بُعْداً ، حتى إنهم ما يتعارفون ، فإن الزمان إلى نزول** » .

وذُكِر عنده جماعة من صالحي الزمان ، فَجَرَّحهم كلهم ، *فقال* : « **فلان كذا وفلان يجي عند الدولة**»، *ثم قال* : « **كانوا أهل يقظة وانتباه ، فقد كان بعض الصالحين له صاحب ، فرأى صاحبه أنه يناوله شيئاً يأكله ، فتأمله فإذا هو خري الجرذان . فحكى له بالرؤيا فقال : نعم ، إن لنا جماعة مالهم غير حلال ، يجيبون لنا شيئاً فنرده ، ولكن قد دختنك بشيء من دخونهم . ثم امتنع منه ولا عاد عالقه ولا صارمه** » هـ .

أقول : إنما جرحهم غاريةً على الصلاح ، حيث نُسبوا إليه وفيهم هذه الخصال التي جرحهم بها، ليُعرَف أن هذه منافية للصلاح ، وإنما الصالح من سلم منها ، ثم ذكر أن الصالحين شأنهم اليقظة والإنتباه لما يقربهم إلى الله ، من الزهد في الدنيا من الحلال ، فكيف يطلبون الحرام من السلاطين بمسيرهم إلى بيوتهم هـ .

قال رضي الله عنه : « في نفسي من أيام البداية أن لا أضع لَبِنَةَ على لَبِنَةَ للبناء ، ولا أتزوج إلا على عربية لتقع راضية ، وما منا شيء لِشَرَه الأشراف ، ولكن ما قَدَّرَ الله إلا ما وقع . وأمور الدنيا يُحاسَب عليها من نواها ، وإن لم يكن عنده شيء منها ، ونحن خائفون من أن يحاسبنا الله عليها ، لكنا منطرحين له وجاعلين أنفسنا بالقاع ، ولا ندَّعي أنَّا قائمين له بشكر ، ولا مخلصين له في عبادة .

وأول ما تأهلنا على امرأه عربية عند الهجيرة ، وما علم الوالد إلا بعد ذلك في آخر السنة ، وكان ذلك في أولها ، وهي سنة ١٠٦١ ، وكان مرادهم البركة وعِلْقَة ولد ، ما هم مثل هؤلاء القناتير ، وكان بين ذلك الوقت وهذا الوقت ، وهي سنة ١١٢٦ مدة بعيدة ، نحو ٦٦ سنة ، قد تبدلوا فيها وتغيرت أحوالهم ، وقد ظهرت طبقات بعد طبقات ، وفي كل طبقة شيء غير ما في التي قبلها » هـ .

أقول : سنة زواجه المذكور ، وسنه إذ ذاك ١٧ سنة ، وهي أول سنة جاور بخلوة مسجد الهجيرة ، ومدة خلوته فيها ١١ سنة إلى سنة ١٠٧١ ، وكان في هذه المدة له مجالس دروس وإقراء ، وله مُفَطَّرون في شهر رمضان على يد خادمه عليوان بن دامس ، يفعل الفطور في بيته ، ويأتي به إليه في تلك الخلوة، ويمده في أمر ذلك ، ويحضره المتفطرون فيها ، وذلك في حياة والده ، وبعد وفاته سنة ١٠٧٢ إلى أن نزل الحاوي سنة ١٠٩٩ هـ .

وذَكَر جماعة من السادة معهم شيء من الدنيا ، فذم دنياهم وضَعَّفَ أمرها ، وقال : « من رأيته من السادة معهم دنيا تحسب أن معهم منها شيئاً ، وما معهم شيء منها ، لأنه قاعدة : من دخل في أمور الدنيا وليس آباؤه وأجداده من أهلها فلا يحسنها ، ولا يعرف مواقعها وتدبيرها ، كالشجاع الذي أهله ليسوا شجعاناً ، فإنه لا يحسن أمور الحرب وتدبيره ، وكذلك في كل شيء ، كما قيل في المثل : ولد الصانع - أي العارف - خير من متعلم سنة » .

وذَكَر جماعة نقلوا من كلامه شيئاً ، قال : « فلم يعجبنا نقلهم ، فإنهم قد كانوا يأخذون بالمعنى ، ولا عرفوا مقصود الكلام . وقد نهى بعض العلماء عن نقل الحديث بالمعنى ، لكن ضاق عليهم الأمر واحتاجوا لذلك ، والكلام له أول وآخر ، وعلى مقتضى السؤال يكون الجواب ، وقد قال لنا رجل : إنكم مرة تذمون فلاناً من سلاطين الجهة ومرة تمدحونه ، ولا عرفنا كيف حاله ، فقلنا : إذا ذُكِرَ بظلم تكلمنا بما يناسب ذلك ، وإذا ذُكِرَ بنفع تكلمنا كذلك . أوَ نسكت مع ما نُسأل ؟ وكثيراً إذا سَألَنا أحدٌ مسألة في المجلس ، أود أن أخلِّف جوابه إلى بعد المجلس ، والجواب أوسع من السؤال ، وقد قالوا لا ولد أكبر من أبيه إلا الجواب ، فهو الولد والسؤال الأب » .

أقول : وذلك لأن السؤال قد يكون عن كلمة واحدة تتفرع إلى تفاصيل كثيرة ، يحتاج إلى إيرادها في الجواب ، فالسؤال أصلها وهي فرعه ، كَثُر لفظها وقَلَّ لفظه ، وهذا إذا كان السؤال عن مسألة في علم، فقد يتفرع فحوى معناها إلى معانٍ كثيرةٍ تطرد إلى لغة وإلى اصطلاح ، وإلى معنى في لفظها ، ومعان تؤخذ من اللفظ ، ومعان يتضمنها اللفظ . بخلاف ما إذا كان السؤال عن اسم أو كلمة لها معنى واحد لا تتعداه ، فسأل عنه ، فلا يلزم فيه تطويل إلا لزيادة معنى خارج عن مقصود السؤال فلا بأس به .

كما في قصة رؤيا الشيخ أبي الحسن الشاذلي - وقد تقدمت بطولها - لما اجتمع الأنبياء والمرسلون صفوفاً ، والنبي ﷺ فوق كرسي مقابلهم ، فقام سيدنا موسى قائماً ، وقال : « يا محمد ، إنك تقول : علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل ، أخرج لي واحداً من علماء أمتك أكلمه » ، فقال ﷺ : « أين الغزالي؟»، فقام في الحال ، كأنه كان حاضراً ، فقال : « لبيك يارسول الله » . قال : « كلم موسى » . فأتى إليه وسلم عليه وقَبَّلَ يده ، فقال له موسى : « ما اسمك ؟ » ، قال : « إسمي محمد بن محمد بن محمد الغزالي»، فقال سيدنا موسى : « ينبغي أن يكون الجواب مطابقاً للسؤال ، وجوابك غير مطابق لسؤالي ، أنا سألتك سؤالاً واحداً ، وأنت أجبتني بأربعة أجوبة ، كيف هذا ؟ » ، قال الإمام الغزالي: « اعتراضك عليَّ واردٌ عليك أنت ، لما سألك ربُّك وهو أعلَم بك وبعصاك ، فقال سبحانه : ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝١٧﴾، قلت : ﴿هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾، كيف تُعلمه بذلك وهو أعلم به منك ؟ فالتفت سيدنا موسى إلى رسول الله ﷺ وقال : « صَدَقْتَ يا محمد ، علماء أمتك كأنبيائنا » .

قال : « **وقد كتب لنا** - يعني ذلك السلطان الذي قال له ذلك الرجل : إنكم مرة تمدحونه ومرة تذمونه - **وقال : إنكم تشددون في نقل الكلام ، ولا يمكننا نحضر مجلسكم مع ذلك** » .

وتقدم مثل هذا الكلام ، عن رجل أنه قال : « لا يمكننا نحضر مجلسكم » ، قال : « **فقلنا له : إن المجلس لا يتعطل بعدم حضورك** » ، ولعله هو هذا .

وقيل لسيدنا : « فلان يريد أن يكلمكم » ، وذلك عندما خرج لصلاة العصر ، يوم الخميس ٢٧ صفر سنة ١١٢٨ ، **فقال** : « **للكلام وقت غير هذا ، وأما مع اجتماع القلب للصلاة فلا يَحْسُن الكلام ، وما شُرِعَت النوافل قبل الصلاة إلا ليحصل فيها اجتماع القلب على الله ، حتى يدخل الصلاة بحضورٍ وإقبالٍ على الله ، وقد كِدتُ أمس أن أسهوَ في الصلاة ، لكون قد صافحني جماعة وأنا خارج إليها** » .

وقال في حديث : « غَيْرتان ، أحدهما يحبها الله ، والأخرى يبغضها الله ، وتخِيلتان أحدهما يحبها الله، والأخرى يبغضها الله » ، وفَصَّلَهما في باقي الحديث ، **فقال** سيدنا : « **المخيلة روحنة يجدها المتصدق في نفسه عند الصدقة ، يفرح لكونه وُفِّقَ لذلك ، وعندما يُسأل فيَرُدُّ السائل يرى في نفسه انقباضاً ، إن كان هو بصيراً بأخلاقه ضد ذلك** - أي ضد تلك الروحنة - **وكذلك المخيلة في الجهاد مثل ذلك ، يفرح إن وُفِّقَ لذلك** » هـ .

أقول : قوله : « **إن كان بصيراً بأخلاقه** » ، أي إن كان لطيف الطبع والغالب عليه فعل الخير والمعروف ، فهو يفرح عند فعله ، ويحس انقباضاً عند رد السائل ، حيث تعذر عليه ذلك ، كما قال الإمام الشافعي رحمه الله :

يـاَ لَهْفَ نَفْسِي عَلَى مَالٍ أَجُـودُ بِـهِ ... عَـلَى المِقلِّـينَ مِـنْ أَهْـلِ المـرُوَّاتِ

إِنَّ اعْتِـذَارِي لمـن قَـدْ جَـاءَ يَسْـأَلُنِي ... مَا لَيْسَ عِنْدِي لَمِن إِحدَى المِصِيْبَاتِ

ومن مِثْلُه رضي الله عنه ؟ ، وأما الجَلِف الكثيف الطبع الذي الغالب عليه البخل والشح وقلة المعروف وعدم فعل الخير ، فلا يحس بذلك عند ذلك ، لا بالروحنة عند الفعل ، لأنه بتكلفٍ ومشقة، ويتفكر في خروجه من يده ، ويتأسف على ذلك ، ويود لو بقي له ، من شدة شح نفسه ، ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾، ومن لم يوقَه فليس بمفلح ، ولا يحس بالإنقباض عند الترك بسبب العجز ، كيف ومن شُحِّهِ لو قَدَر ما فعل ، فأنَّى يجد هذا ذلك وقد قال النبي ﷺ : « اطلبوا حوائجكم عند الرحماء من أمتي ، تعيشوا في أكنافهم ، ولا تطلبوها عند القاسية قلوبهم ، فإن اللعنة تنزل عليهم » ، ذكره في « الجامع الصغير » ، وتقدم قريباً مع شرحه .

ومن هو على هذا الوصف المذكور فليس من الرحماء ، بل من القاسية قلوبهم ، النازل عليهم ما ذُكَر، والرحماء الذين يرحمون المحتاج ، فيعطونه ما سأل من حاجته ، والقاسية قلوبهم الذين لا يرحمونه، بل لا يلتفتون إليه ، ويردُّونه ولا يعطونه وَهُمْ يقدرون ، بل يتفجعون ويعتذرون ، ويدَّعون أنهم من حاجتهم مقترضون ، وهم في ذلك يكذبون ، فهم بنزول اللعنة عليهم جديرون . وفي حديث سيدنا علي كرم الله وجهه ، أن النبي ﷺ قال له : « يا علي ، إن الله تعالى خلق المعروف وخلق له أهلاً ، فحبَّبَ إليهم فعاله وَوَجَّهَ إليهم طُلَّابه ، كما وَجَّه الماء في الأرض الجدبة ، لتحيا به ويحيا به أهلها ، إنَّ أهل الفضل والمعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة » . هذا تمام الحديث ، ومن شرحه : الكنف : الجانب ، والفضل : الزيادة والتوسعة . واللعنة : الأمر بالطرد والإبعاد عن منازل أهل الرشاد . وقوله: « **أهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة** » ، يعني من بذل معروفه في الدنيا للناس آتاه الله

يوم القيامة جزاء معروفه ، ومفهومه أن أهل الشر في الدنيا هم أهل الشر في الآخرة . وفي الحديث : « أبى الله أن يرزق عبده المؤمن إلا من حيث لا يحتسب » ، أي المؤمن الكامل ، لا يحتسب ، أي من جهة لا تخطر بباله ، ولا تتخالج في آماله ، وذلك أَسَرُّ وأهنى .

أقول : وقوله : « أهل المعروف في الدنيا » – مع مفهومه في أهل الشر – يعني إذا أُعطي في الآخرة جزاء ما عمل في الدنيا من معروف ، وشر : اشتهر أمره هناك أنه من أهل أيِّ العَمَلَيْن ، فالعمل مُحَصِّلٌ لصاحبه في الدارين ، الجميلة والفضيلة ، والإساءة والرذيلة هـ .

قال في حديث : « الرجل يحب القوم ، ولمَّا يلحق بهم » ، *قال* : « أي يحبهم ويتشبه بهم ولم يبلغ درجتهم ، فلا بد في ذلك – أي في المحبة لهم – من التشبه بهم ، وهو أنك إذا سمعت عنهم أن أحدهم يصلي الصبح بوضوء العشاء أربعين سنة مثلاً ، ومثل ذلك مما لا يكاد يدخل في قوة البشر ، فتقوم من الليل ما تيسر ، فهذا التشبه بهم في صلاتهم كذلك – أي في الليل – وأما من نام الليل كله حتى يكاد يُفَوِّت صلاة الصبح ، ويعتلُّ بالمحبة لهم ، فقد احتج به بعض الناس ، فأجابه بعض الصالحين بأن اليهود والنصارى يحبون أنبياءهم وهم مخلدون في الشقاء ، ما نفعهم ذلك لعدم تشبههم واقتدائهم بهم » .

***قال* : « إذا سار الإنسان في الدنيا إلى ربه في طاعته ، سار إليه في الآخرة إلى جنته ، والجنة فوقهم ، فهم يمشون في الدنيا تحتها ، وهي فوقهم ، فإذا كانوا في الآخرة صعدوا إليها ، والعصاة يمشون فوق النار في الدنيا وهي تحتهم ، فإذا كانوا في الآخرة نزلوا إليها » .**

***قال رضي الله عنه* : « الصعلوك إذا أطاع الله نال رتبة الملوك ، وحصلت له الآخرة وجاءته الدنيا ، فتكون من خلفه ، لأن الدنيا كالظل ، إذا استقبلها الإنسان صارت خلفه » .**

***قال* : « كل ما منع من المباح فهو محمود ، وما المذموم إلا ما منع من الخير الصريح ، ولكن ينبغي أن يعرف الفرق بين الأمور . فما كان من الأمور بسبب الضعف ، يعذر الله تعالى فيها ، كما تعذر الشريعة، فإن الشريعة من عند الله أيضاً ، وما استنبطه العلماء فيها فهو من هذا القبيل ، وهكذا في جميع الأرواح المقتضية للرقي ، والمقتضية للنزول ، بحسب الأخلاق ، فترقى إلى أعلى عليين ، وتنزل إلى أسفل سافلين ، تصعد وتنزل في مراقي الصعود والإنحطاط » .**

ثم ذكر قصة الشيخ أحمد الصياد من أهل زبيد ، لما رأى كشفاً في حالة الكشف وهو بزبيد ، أن الإمام الغزالي صُعِدَ به من قبره ، ثم ذكر حديث معاذ : « تصعد الحفظة بعمل العبد .. إلى آخره » ،

ثم قال : « **وهكذا في سائر أحواله ، فإن مات ولم يتب صار على مثل هذا الحال** » ، *ثم قال* : « **قد تطول بنا المذاكرة ، ونخاف على دماغنا منها ، وإذا طالت بنا في المدرس ، نود أن القاريء يكون واحداً ، ولكن كل واحد يريد لنفسه قراءة . وإذا كان أحد من السادة فيه فضيلة ، نريد عيالنا أن يتباركوا عليه بقراءة الفاتحة فقط ، لأن مدد آل باعلوي من بعضهم بعضاً ، فإن جاء شيء من غيرهم كان كالسيل ، يجيك منه رِدف ، فقد كانوا متعلقين بالأخذ ، كل واحد عن غيره ، حتى الصلاة ، فإن كل واحد تعلمها من أبيه عن أبيه إلى سيدنا علي ، إلى النبي ﷺ** » هـ .

أقول : وقصة الشيخ أحمد الصياد : أنه رأى في كشفه أن رجلاً توفي بطوس من أرض العجم وقُبِر بها ، فتناولته الملائكة من لحده ، وصعدوا به وعرجوا به من سماء إلى سماء ، إلى السماء السابعة إلى ما بعدها ، ولم يعلم بعد ذلك إلى أين بلغوا به فسأل عنه من هو ؟ فقيل : « هو الإمام الغزالي » ، ذَكَرَهُ في ترجمة الشيخ أحمد محمد الصياد من « طبقات الخواص » للشرجي .

وذكر في ترجمة الإمام الغزالي عن أخيه أحمد الغزالي أنه قال : « قال لي ليلة وفاته : يا أحمد يا أخي، ائتني بالكفن ، فإني أريد الليلة أن أَرِد على الملِك » ، قال : « فأتيته بالكفن ، ووضعته عند رأسه ، وكان عادته لا يخرج من خلوته إلا بعد الإشراق ، ينتظره الطلبة حتى يخرج إليهم ، فأصبح صبيحة تلك الليلة واستبطوه للخروج » ، قال : « ففتحت الخلوة ، ودخلت عليه ، فوجدته ملتفاً بالكفن متوفياً ، وعند رأسه قصديته التي أولها :

قُــلْ لإخْــوَانٍ رَأَوْنِي مَيِّتــاً   فَبَكَــونِي وَرَثَــونِي حزنَــا
أَتَظُنُّــونَ بِــأَنِّي مَيْتِكُــم   لَيْسَ هَذَا الميْت - وَالله - أَنا

إلى آخرها . فجهزناه وكفناه بذاك الكفن ، فلما وضعناه في قبره ولَحِد ، رأينا يداً تناولته من اللحد، وبقي اللحد فارغاً ليس فيه شيء » ، والقصتان كل منهما تؤكد الأخرى هـ .

ولما فرغ القاريء يوماً في حضرة سيدنا عبدالله في مجلس القراءة ، من قراءته في شرح حِكَم ابن عطاء الله لابن عَبَّاد ، وقد مرَّ فيه كلام يتعلق بإخلاص العمل لله ، امتثالاً لأمر الله ، وفي ذكر الرضا والتسليم ، *فقال* سيدنا : « **القصد أن يكون متعلقاً بالله ، وإلا فمعلومٌ أنه لا غنى به عن ربه ، حتى في عشاه وغداه ، وكثيراً ما يستبعد الإنسان أشياء من نفسه وهي موجودة عنده لا يعلم بها ، وترى من هو في خدمة ملك متى رأى منزلته ، واختار شيئاً لنفسه عُزِلَ عنه ، وإنما المراد أن يقوم بما أقيم فيه تحقيقاً للعبودية ، لا ليختار ما شاء** » .

وذَكَر يوماً واقعة علي بن موسى الرضا مع زينب الكذابة ، حيث لم يضره الأسد *ثم قال* : « **الكرامة وخوارق العادة لا تأخذ بها تجربة ، لا في نفسك ولا في غيرك ، فإن الله سبحانه يحب المضطرين ولا يحب المتكبرين ، والله تعالى إنما يقبل المخلصين . واختلفوا في أن الإخلاص ما هو ؟ فقالوا : إنه ما ليس للنفس فيه حظ ، وهذا عزيز . وللنفس دسائس خفية ، حتى لو كان اثنان في مرتبة واحدة ، لَدَعَت أحدَهما نفسُه أن يسعى في إزالة صاحبه عن مرتبته لينفرد وحده** » هـ .

أقول : وقصة زينب المذكورة : أن امرأة اسمها زينب ، كانت في وقت الخليفة المأمون ، زعمت أنها شريفة ، وجاءته تطلب منه الصلة ، لكونها من أهل البيت النبوي ، فلما ادَّعت عنده أنها شريفة من أهل البيت ، فقال لها : « **نجمعك مع علي بن موسى في موضع مع أسد ، فإن أكلك فأنت كاذبة في دعواك النسب ، فإن الأسد لا يأكل أهل بيت رسول الله ﷺ ، وإن لم يأكلك فأنت صادقة** » ، فأمر بأسدٍ كان مُضِرًّا بطريق المسلمين أن يُصاد ، فصيد له ، وَضَرَاه - أي جَوَّعَه ثلاثة أيام - حتى اشتد جوعه، فوضعه بموضع ثلاثة أيام ، وسَدَّ عليه ، ثم أشرف عليه من السطح ، وأمر بإلقاء علي بن موسى عليه ، فجعل الأسد يتمسح به ويتشممه ، ثم أمر بإلقاء زينب ، فحين رآها وثب عليها ، وافتقش رأسها ، فسُمِّيَت زينب الكذابة . وخرج علي بن موسى ، وما ضره بشيء . ذكر القصة في كتاب « الفرج بعد الشدة » .

قوله : « **لا تأخذ بها تجربة** » ، أي لأنها مجرد قدرة ، وفعلٌ لله خاصة ، لا مدخل للخلق فيها ، ولا لمن كانت كرامة له ، كما أفهمناك معنى ذلك فيما تقدم عند قوله : « **إنَّا لا نترك ولا ندع المتصل بنا** » ، فإن الله سبحانه يفعل ما أراد متى ما أراد هو ، لا متى ما أراد غيره ، فهو تعالى في مراده لا في مراد غيره، والملك ملكه والأمر كله له .

فأين التجربة التي تقبض عليها ، فليس في فعله تعالى تجربة ، فربما أجرى شيئاً كرامة لولي في وقت، ولم يُجْرِهِ كذلك في وقت آخر ، فلا يدَّعي ذو كِبْرٍ ودعوى ، ممن إنما همه وكل مقصوده الجاه والمال أنه يفعل شيئاً قط سوى ما أراد الله وفَعَله ، فقد ادعى ذلك قوم من الكفار ، كدعوى نمرود أنه يحيي ويميت ، فأكذبهم الله ومقتهم ولعنهم وأهلكهم وقطع دابرهم ، ثم جعل مصيرهم إلى النار خالدين فيها ولبئس القرار . وقد رأينا ناساً يدَّعون مع الله فأكذبهم الله وفضحهم هـ .

∴ ∴ ∴

قال سيدنا رضي الله عنه لي يوماً في معرض المزح ، ومزحه يتضمن معاني كثيرة غزيرة ، عَلِمَها من عَلِمَها وجَهلها من جَهلها ، *قال* : « **وهل لو جاء رجل إلى بعض الناس ، وقال له : ابْسُطْ سجادتك**

على الماء - أو قال : على الهواء - ولم يألف ذلك ، ولم يعرف القائل له ، هل يطيعه أم لا ؟ » .

ثم قال : « ما أظن أن أحداً يجيب إلى ذلك إلا إن كان فلان - الحساوي - لأن الإنسان لا يدري هل ذلك القائل من الصالحين أم شيطان » ، ثم التفت إليَّ وقال : « لو قال لك أحد : تعال أوصلك إلى بلادك في ساعة ، تطيعه ؟ » ، قلت : أشاوركم ، وأشْرُطُ عليه الإعادة على قرب ، ويحطني في جوانا ، قال : « لا ، إنه لو جاءك وحدك ؟ » ، قلت : لا أجيبه .

قال : « قد قيل إن كرامات الأولياء وغاراتهم قد طويت ، حتى إنه رؤي أن بعضهم جاء بحزمة سيوف إلى آخر ، وقال : هذه أحوال الصالحين طويت » ، ثم قال : « ما الإنسان يريد الصلاح ولا الصالحين لأجل هذه الأمور ، إنما يريد ذلك لطاعة الله والدار الآخرة » هـ .

أقول : وأول هذا الكلام مقدمة لآخره ، ولهذا ذكرته .

ولما قام من المجلس ودخل الضيقة - أي الدهليز - يريد الدخول إلى داخل البيت ، وكان إذ ذاك ماسكاً بيدي ، قابضاً على ذراعي ، ولم يكن هناك أحد حاضراً غيره وغيري وحدنا ، فأعاد عليَّ ذلك الكلام المذكور آنفاً ، وهو قوله : « لو قال لك أحد تعال أوصلك إلى بلادك في ساعة » ، فأعدت عليه الجواب المذكور ، لما قلت : أشاوركم إن أمكن ، وإلا فلا أجيبه إلى ذلك . ومراده يرى ما عندي ، هل أنا مشتاق إلى بلادي أم لا ، وقد علم أني لا أريد أن أفارقه ما دام حياً ، وبعده لا أجلس يوماً واحداً ، ولكن له مقصد في إظهار ذلك هـ .

وذَكَر التقوى فقال : « التقوى يريد ورع وقناعة ، فلا يفتح بطنه ، فإذا فتح بطنه امتلأ ناراً ، فلا يملؤه إلا النار » .

وسأل عن رجل غائبٌ ابنه ، هل أموره متيسرة أم لا ؟ فقال : « لا » ، فقال مازحاً : « هو ما يبرهن مثل أبيه » ، وكان أبوه مقبولاً عند الناس ، يعني ويعطونه معتقدين فيه .

ثم قال : « ولو أن كل من جاء نَجَزْ ، ما بقي في الوادي شَجَر ، بل ولا حجر ، وما كل الناس يبرهنون ، واحد يبرهن لنفسه ، واحد يبرهن له غيره ، ومَن هو يبرهن لا يُعِدُّ هذه الأمور شيئاً » هـ .

أقول : قوله : « يبرهن » ، أي يفعل الله أموراً - كرامات وخوارق عادات - له بها نسبةٌ ما ، عَلِم بذلك أو لم يعلم .

قوله : « لنفسه » ، أي يفعلها الله كرامة له .

وقوله : « غيره » ، أي يفعلها الله كرامة لذلك الغير ، ينتفع بها من له به نسبة ، ومن هو من أهلها. أي الذين يفعلها الله له ، لا يعدها ولا يعتد بها ، لأنه لا يراها استعظاماً لنفسه ، إنما يعتقدها مجرد فعل الله ، لا مدخل له فيها ، لا نسبةً ولا فعلاً ، ومن خالف ذلك ورأى له فيها نسبةٌ ما ، أو كانت من أجله فهو مرائي متكبر جبار أسير نفسه ، هَمُّه الجاه والمال ، وفي سرعة يخذله الله ويفضحه بين الخلق .

وهكذا جرت عادة الله في من رأى نفسه فلا بُدَّ ما يبيِّن الله له عجزه ، ولو علت منزلته عند الله ، كما قدمنا من قصصٍ في ذلك ، حتى للملائكة ولرسلٍ من أولي العزم ، ولناس من كبار الأولياء ، فانظره عند قوله : « كلُّ مدَّعٍ مخذول .. إلخ » .

وذكر الشيخ علي بن أبي بكر ، أن من كتب الله له أن يجتمع برجل من الأكابر ، أنه يُظهِر له كرامات على يد ذلك الذي يجتمع به ينتفع بها ، وليست كرامات له بل كرامات لذلك الذي من الأكابر ، وهذا تصديق لقوله : « واحد يبرهن له غيره » .

فوالله لقد رأيت من كرامات سيدنا عبدالله ، قبل أن أراه - براً وبحراً - ما يحيِّر العقل .

قال رضي الله عنه : « ما معك من أهل الزمان إلا خير ، وليس شيء بهيِّنٍ إذا قامت النفوس والأهواء، وأما أمور الدين والتقوى وأمور الآخرة ، فقد تخلفوا عنها ولا بالَوا بها ، فإذا انخلع الإنسان من الدين والتقوى ، فماذا يبقى فيه من الخير » .

وقيل له : « خَرَجَت بفلان خارجة في لوح كتفه » ، **فقال : « هل خرج أذاه ؟ »** ، أي أذى الخارجة بانفقاشه وخروج قَيْحِه .

فقيل : « نعم » ، فقال : « فيسهل الآن . والدنيا ما هي إلا محل بلاء ونكد ، وما سمعنا أن أحداً ذكر أن الدنيا محل لَذَّاتٍ وراحة ، ولكن الإنسان يغالط نفسه ويغفل عن ذلك وينساه ، وأراد الله منه ذلك ليهناه العيش » .

وسأله بعض السادة الدعاء ، **فقال : « جعل الله فيكم البركة والخلافة الحسنة ، ونحن أردنا البركة تعم ، والحملة لو اجتمعت لواحد ما طاقها ، لأنها مجمَّعة لأناس كثير » .**

قال : « من الشياطين شيطان صغير وشيطان كبير ، وفلان شيطان صغير ، والله سبحانه يعطي من الدنيا الصغير والكبير » .

قال : « إذا سألتَ الله شيئاً فاسأله البركة ، والأشياء بالمقادير ، ويقال : الأشياء بالمقادير . ولا يقال:

المقادير بالأشياء . لأن الأشياء تابعة للمقادير ، وليس المقادير تابعة للأشياء » .

قال : « **إذا أردت أن تعرف مالاً هل هو حلال أم حرام ، فانظر فيم ذا يُصرَف ، أفي حلال أم حرام، فإن المال الحرام يأبى أن يُصرَف إلا فيما هو أصله** » .

وذَكَر السفر وذم الرثاثة فيه ، ومدح الحزم والنباهة ، فقال : « **ما السفر إلا نظر ، ولو أن الرزق مقسوم ، لكن الحركات بها البركات ، والأسباب موزعة على المسببات ، فكم من جالس من غير سعي يبقى جائعاً ، وساعياً قد نال ما يطلبه ، وهذا جرياً على الغالب ، وإلا فكم من ساعٍ محروم وجالسٍ مرزوق ، وذلك بحسب الأقسام المقدرة ، فإن الرزق نوعان : مضمون ومقسوم . فالمضمون : ما به قوام بِنْيَة البدن ، وذلك لكل موجود إلى مدة أجله . والمقسوم : ما زاد على ذلك . والناس فيه مختلفون، فمنهم الموَسَّع عليه والمقتَّر** » هـ .

أقول : ذكر الإمام الغزالي أن المضمون ليس بشرط أن يكون زاداً يأكله ، وإنما الضمان في قيام البِنْيَة بزادٍ أو بقوةٍ تُقِيمه ، ولا أذكر الآن أنه أراد ذلك لكل أحد ، أو لأحد دون أحد هـ .

وذُكِر عند سيدنا أن قد سُرِق شيءٌ منسوبٌ لبعض السادة ممن تقدم ، فقال : « **تغيَّر الناس اليوم، وانقلبت قلوبهم ، ودخلتها دواخل ، فهم كما قيل : لو قطعت الإنسان قطعتين ما بالى . وأهل هذا الزمان دَخَلَت بواطنهم شياطين ، فما عادهم ناس ، فلا عاد تلوم فيه الآخذ** - أي السارق - **وإنما تلوم المضَيِّع** » ، أي الذي لا يتحفظ ولم يكن ذا حزم .

قال : « **إن الله لا يؤاخذ الإنسان بوسواس الشيطان إذا كان كارهاً له وعقيدته بخلافه ، وهذا الوسواس ما نقيم له وزناً ، لأن عندنا كل ما خرج عن الإختيار لا نرى فيه حرجاً ، وهذا منهي عنه ، حتى في حق الرجل مع زوجته ، وفي الحديث - ما معناه - : لا تكونوا كالعيرين . وقد قال لنا يوماً فلان: ما أنا مشغول إلا من الورود ، ما أدري كيف نكون ؟ فقلنا له : لا تشغل نفسك بهذه الأمور ، وأمور الآخرة ألَّا قصِّرها ، ولا تطوِّلها على نفسك ، فكيف يكون دخول القبر وسؤالُهُ** » .

وقال سيدنا : « **سبحان الله ، يسْهَن الإنسانُ الأمرَ يأتي من جانب ، فيأتي من جانبٍ آخر ، فلهذا وجب التسليم** » ، قوله : « **يسْهَن** » ، أي يرجو .

قال : « **لا يخلو الزمان من الأفاضل من آل باعلوي حتى يخرج المهدي ، إما خامل مستور أو ظاهر مشهور** » هـ .

أقول : يعني إما مَن له نصيب في الظهور فظهر ، وهي الرئاسة الحقيقية المتقدم ذِكْرها ، أو مَن ليس له منها نصيب فاستتر وخمل لذلك هـ .

قال : « المريد أو المعتقِد في أحد ، إذا سمع منه كلمة فيعمل على مقتضاها إن أراد العمل ، ولا يثنِّي فيها الكلام » هـ .

أقول : يعني هذا شأن المريد المنطوي في أحد من الأكابر ، ما يصدِّق يسمع منه كلمة يستفيدها ، فيعمل بها ولا يتردد فيها ، ولكن هذا الذي وصفوه بأنه يكون بين يديه كالميت بين يدي الغاسل ، أو المعتقِد الذي له عقيدة تامة ، لا يبلغ إلى هذا الحد يعني ذلك المريد .

قوله : « **ولا يثني فيها الكلام** » ، أي لا يتردد فيها ، ولا يتوقف عن العمل بها ، هذا وصف المذكورَين ، ومَن لم يكن كذلك فليس على حقيقةٍ مما ادعى من الإرادة والعقيدة هـ .

قال في حديث – ما معناه – : « أن لا تغضب » : « أي إن أمكنه أن لا يغضب فذاك ، وإلا فله أدوية فليستعملها ، ولا يجري على ما يقتضيه الغضب ، والأدوية : إن كان قائماً قعد ، أو قاعداً قام ، أو كان يتكلم سكت ، أو ساكتاً تكلم ، أو يفعل شيئاً تركه ، أو يتوضأ ، أو يغتسل ، أو يقوم من مكانه ذلك ، وأمثال هذه الأشياء » هـ .

أقول : كل هذه المذكورات ورد بها الحديث .

قال : « وإذا سألتَ في الحديث عن شيء ، فقل : ما الحكمة في كذا ؟ ولا تقل : ما العلة فيه ؟ إنما العلة في الفقه » .

وذَكَر الحروف ، فقال : « ما يأخذ الإنسان معرفة الشيء وأحكامه إلا من أهله ، ومن لا نفعته التجارب .. » ، ثم سَكَت .

أقول : **أي ما نفعه شيء .**

ثم قال : « ولا تنفع التجربة – أو قال : لا تقع التجربة – إلا ممن له عقل غريزي ، لأنه الأصل والتجربة فَرْعُه ، ولا تنفع تجربة الأحمق ، وإذا جرب شيئاً فينتفع به في نفسه لا في حق غيره ، إلا إن أعلمه – أي أعلم الغير – بأنه جرب الأمر كذا قبلُ ، فإن أخذ الأحمق بتجربة العاقل ، فإن انتفع فمليح.

لكن الشيطان لا يرى الإنسان في أمر إلا أمره بأمر آخر ، حتى يشتت عليه أمره من أمر الدنيا والدين ، لكن يأخذ في أمر الدين بما اتضح عنده ، ويترك ما اشتبه عليه » ، ثم ذكر هذا البيت من لامية العجم :

خُـذْ مَـا رَأَيْـتَ وَدَعْ شَـيْئاً سَـمِعْتَ بِـهِ   في طَلْعَـةِ الشَّـمْسِ مَـا يُغْنِيـكَ عَـنْ زُحَـلِ

ومعنى الغريزي : طبعي .

ثم قال : « **العقل على أربع درجات ، أعلاها أن يزهد في الدنيا ويرغب عنها ، وكل من لا يعرف شيئاً أنكره ، فلو قلتَ لأحد : إنه يمكن أن يبلغ الإنسان إلى حالةٍ يستوي عنده الذهب والحجر ؛ لم يُصَدِّق . فلينظر إلى حالة الذي في سكرات الموت ، كيف لا يلتفت إلى شيء في حق نفسه ، لكنه يريده لولده ، ومن هو في تلك الحالة فهو في الآخرة بقلبه ، وإن كان جسده في الدنيا ، والكرامات التي تظهر عليهم ما عادها من أمور الدنيا ، بل من أمور الآخرة** » .

قلت : أفمن لازِم العاقل أن يجرب الأمور ويعرفها بالتجربة ؟ ، *قال* : « **إن لم يكن فيه هوى ، وكلما قوي الهوى ضعف العقل ، وكلما ضعف الهوى كثر العقل** » هـ .

أقول : إنما ذكر من درجات العقل أعلاها ، دون ما تحتها ، إذ لا حاجة له إليها ، لأن فنه وحاله ودعوته إلى ما تقتضيه العليا من درجات الزهد الكامل في الدنيا ، وما وراء ذلك من درجات الأولياء والصالحين . ويؤيد معنى قوله ما أفتى به الإمام الشافعي رضي الله عنه ، أنه لو أوصى موصٍ بمالٍ أن يُصرف إلى أعقل الناس ، إنما يُصرف للزهاد في الدنيا ، وإنما صَدَق زهد الزاهدين في الدنيا ، لصِدْق انقطاع أملهم منها ، وإلا لو كان لهم فيها أمل لرغبوا في المال ، لحاجتهم في ما أمَّلوا من البقاء في الدنيا .

والعجب من انقطاع أمل الناس من الدنيا ، كما رأيته في وقت الطاعون في البصرة ، بحيث أن الصناديق المملوءة مالاً ، يدخل السُّرَّاق عليها فيحتملونها من البيوت وأهلها ينظرون إليهم ، ويمكنهم ردهم عنها ، فلا يردونهم لكون كلٍّ منهم متحققٌ أنه يموت عنها ، فماذا يريد بها ؟ فانظر كيف انقطاع أملهم أدَّاهم إلى عدم حفظ أموالهم ، مع ما كانوا حراصاً على حفظها ، ولو تلفت فيه نفوسهم ، كل هذا لعدم أملهم .

وفي هذا تحقيق معنى قول سيدنا : أن أعلى درجات العقل أن يزهد في الدنيا ، وأنه يمكن أن يبلغ في ذلك في مقام الخصوص ، إلى أن يستوي عنده الذهب والحجر ، ولكن عامة الناس ما يصدقون بهذا ، لعدم ذوقهم له ، ولا رأوا من ذاقه ومن جهل شيئاً أنكره ، ومن انقطع أمله يراه في نفسه ، وفي من هو مثله ، فإذا كان ما ذكرنا من انقطاعه أيام الطاعون في شأن العامة والجهال ، ومن لا مسكة له بالدين ، فهو في شأن الخاصة أهل الخصوص في انقطاع آمالهم من الدنيا ، وكون الآخرة نصب أعينهم

أولى ، فلا تستبعد إذاً ما ذكره .

وذَكَر المجدِّدِين من أهل القرن الحادي عشر ، فقال : « ما عاد عليهم إلا يقبلون من غير دعاوي ولا بلاوي ، ما عاد في ذولا مجدِّدين ، إنما هم مقدِّدين » .

وضرب مثلاً لدعاء أهل الزمان إلى الخير ، وأنهم لا يجيبونه ، قال : « هم كمثل نائم غَلَبَ عليه النوم ، فتُنَبِّهه ليقوم للصلاة وتَجُرُّ برجله ثم يخالفك وينام ، فإن كان نومه إلى أمة - أي مدة - أشكل ممن نومه إلى الموت ثم ينتبه حينئذ ، وكُلٌّ ينتبه إذ ذاك » ، قال : « العمل إذا رُفِع أو نُسِخ نُسِي ، وربما يؤخر عمل الخير ليزداد صاحبه عُجباً ، وكذا العمل السوء ليزداد صاحبه ندماً » هـ .

أقول : قوله : « أمة » ، أي مدة .

وقوله : « ليزداد صاحب عمل الخير عجباً » ، أي فيحبطه الله ، وذلك عمل من يبغضه الله .

وقوله في عمل السوء : « ليزداد صاحبه ندماً » ، أي فيُكتب بأمر الله ليؤجره عليه ، وذلك في حق من يحبه الله .

وقال : « كان السادة آل باعلوي إذا ظهر واحدٌ منهم انطوى فيه الباقون ، وخملوا هم ، حتى لا يبقى لهم وجود ، لأن النسب واحد ، ولهم في بعضهم العقيدة التامة ، ولا رغبة لهم في جاه ونخوة ، ومناقبهم لم يدون أكثرها ، وإنما عرفنا منها ما عرفناه بطول مطالعتنا في الكتب من سابق الوقت ، وكثيراً عرفنناه ممن أدركناه من شيابتهم » هـ .

أقول : تقدم قوله : « من حين كنا في سن أربعة عشر سنة ونحن في مطالعة الكتب » ، وأنه في هذا السن كان ابتداء قراءته على باجبير .

وقوله : « انطوى فيه الباقون » ، كما تقدم قوله : « إن الشيخ عمر المحضار كان من خلفه عشرون، وقدامه عشرون ، كلهم في مقامه ، وإنهم قدموه وخملوا » ، أي ظهر هو لوفور نصيبه من الظهور ، وخملوا لعدم نصيبهم منه ، واكتفوا به ، وكفى عنهم وانطووا فيه . ومعنى : « خلفه » و « قدامه » : أن أهل الخلف أبلغ في الخفاء من أهل القدام ، كذا ذُكِر .

قال : « وقد أجاد الشيخ علي في ذِكْرِه المناقب في البَرْقَة وأفاد ، لأنه أتى بهم من أوَّلهم ولم يذكر الكرامات ، وكل بيت آل باعلوي بيت مناقب ، ولكن تؤخذ مناقب كل بيت من أهله ، إذ كلٌّ يحفظ

مناقب أهله . ولا يعرف مناقب غيرهم إلا إن كان واحد ظاهر كثيراً ، ولا لوم عليه إذا لم يعرف غير ذلك ، وهذا بسبب نقصها في التواليف ، حيث ذكر مؤلفوها ما سمعوه من مناقب غيرهم ، ولم يسألوهم عنها ، ولكن أين المناقب اليوم ؟ إنما المناقب اليوم والمناصب الحرف والكسب - أي أسباب الدنيا - والأولون قد صححوا بهما المناصب والمناقب - أي أمور لا حاجة إليها - فأنفقوهما في سبيل الله وطاعته ، ومثلهم اليوم كالذي قيل له : ما مهنة أبيك ؟ قال : مفلِّح . قيل له : قد خرج رمضان - أي أمور لا حاجة إليها - ويسلم للإنسان في معرفة أهل بيته ما لا يسلم له في غيرهم » .

قال : « المناقب هي السِّيَر الحسنة والأفعال المحمودة شرعاً ومروءةً » .

وقال : « لا نأذن لمن وَصَفَنا ، ولا نحب أن نُذكَر بأكثر من أنَّا من أهل البيت ، ومتمسكين بالعلم، ولنا إلمامٌ بأهل التصوف . ونحن لا نريد الظهور ، وعسى في تريم لو بات إنسان فيها بلا عشاء ما عَشُّوه، ولو اجتمع عندنا فقراء محتاجون ما سلَّفونا شيئاً لنفقتهم » .

قال : « والدنيا لا تخلو أن تكون سجناً للمؤمن من كل الوجوه أو بعضها ، ولو لم يكن إلا أنَّ الروح فيها مسجون في الجسم » .

وذَكَر العلوم وما يُشغِل عنها من طلب المعايش ، فقال : « المعاش شَغَل الناس عن قراءة العلوم وعن العمل بها . وقد قال سفيان الثوري : لو اشتغلتُ ببصلة ما حفظت - أو قال : ما فهمت - مسألة. وما جعل الله لِرَجُلٍ من قَلْبَيْن في جوفه ، فعسى السكون والصلاح ، فإنه لا تصلح أمور المسلمين حتى تسكن ولاتهم » .

وقال : « كل شيء يمكن فيه التعلم وإن كان الطبع بخلافه ، فَطَبْعٌ وتَطَبُّع ، فالعلم بالتعلم ، والحلم بالتحلم ، فلو غَضِبَ مرةً وحَلُمَ مرةً عاد أسهل . ومن الناس من يعجز عن القيام ، فإذا قُوِّم قام ، ومنهم من فيه حركة ويقوم من نفسه بقوة . فالحاصل أن طبع الإنسان قابلٌ للتعليم ، إلا إنَّ ما كان مطبوعاً أهون ، ويتكلف به المكتسِب ، ولهذه الأشياء نهاية ، إذا انتهت إليها فلا تعاوده ، وغالب الحركات في الصغر ، وكلما كَبُرَ قلَّت ، والأشياء في الأكثر مستطاعة ، فليوطن نفسه عليها ، ويقايسها في الخلوة » .

قال : « ونحن منذ طالعنا في العلوم ما أخذنا منها إلا كلِّياتها وجُمَلَها والأصول التي يُعتمَد عليها ، وأما الفروع النادرة التي لا يحتاج إليها ، ويرتبون عليها واجباً وحراماً من غير دليل ، لا يقبلها خاطري إلى الآن ، وخصوصاً الفقهيات ، كنت غير مائل خاطري إليها » .

ومرة قال : « رأيت الإمام النووي يقول لي : اترك القراءة في الفقه ، فإنا ما رأينا أحداً جاء منه بشيء » .

وذَكَر الكتب والمطالعة فيها، فقال: « لا ينبغي أن ينظر فيها إلا لطلب الفائدة، لا للهوى والفضول، بأن يريد أن يقف على كُنْهِ ذلك الكتاب، من غير أن يقصد منه تحصيل فائدة، لأن الفضول ما هو في الدين، إلا إن كان كتاب أدبٍ يريد يقف للفرجة فلا بأس، ككتاب الفرج بعد الشدة أو كتاب نحوٍ أو لغة، فكتب الأدب شيء، وكتب علوم الدين شيءٌ آخر، ولكن لو جعل المطالعة في كتب الأدب إعانةً على معرفة العلوم الدينية فهو أحسن من ذلك، فيرجع فضوله دينياً، وذلك نادر، كون الفضول يرجع دينياً، وأما الدين فلا يرجع فضولاً، إلا إن كان عند سفساف الناس ».

وذَكَر العلوم واختلافاتها، فقال: « أكثَرُوا من كل شيء، ولكن ينبغي أن يأخذ منها ما تحتمله بَدِيهَتُهُ. وقد ذكروا أنه ينبغي أن يأخذ في فَنٍّ واحد، يُحْكِمه ثم يتطرف - أي يأخذ من كل شيء طرفاً - من كل شيء، وقد تفننوا في كل فن، حتى أعجزوا الطالب فإذا كان الكتاب عشرين مجلداً أو أكثر، فمتى يتم مطالعته، ولا يتمه حتى ينسى أوله، وهذا الجمع بتسخير إلهي، وقد يمكث في تصنيف كتاب من أول عمره إلى آخره، كالإمام النووي في المجموع، فإنه يؤلفه من صغره. وقال فلان: لو ذَهَبَت الكتب كلها وبقي المجموع كفى منها. فنقول له ولأمثاله: وأما المبتديء فما يفعل بالمجموع؟ » هـ.

أقول: يعني أن المجموع يكفي لهذا القائل ولأمثاله المنتهين في العلم لا للمبتديء، والمجموع شَرْحٌ للمهذب لأبي إسحاق الشيرازي، وعادته في مؤلفه المهذب في كل باب، إذا ساق مسائل الفقه، ألْحَقَ بها دلائلها من الكتاب والسُّنة على مذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه، فيطول المجال في الكلام على ذلك مما يتعلق بالفقه ونظائر مسائله، وما يتعلق بالأحاديث النبوية ورواياتها، كما قد طول في ذلك في شرح مسلم هـ.

قال رجل لسيدنا: « لا تَرَوا علينا » - أي لا تلومونا في قلة الأدب -، فتبسم وقال: « ونحن وإياكم، وما نرى أنفسنا أن نستاهل حسن الأدب، إنما هو لأهل العلم الذين هم في الكتب مذكورون، وعدم رؤية النفس هو الذي يرفع الإنسان، فإن كان هناك شيء كان - أي بذلك - متواضعاً، وإلا سَلِمَ من الدعوى، ويقبح جداً أن يدَّعي من غير حقيقة، كالمرأة التي تدَّعي الجمال وهي في غاية القبح، وإنما يرى الإنسان نقْصَ نفسِه إذا تأمل أحوال السابقين وما كانوا عليه من الجد والإجتهاد، فعند ذلك يعترف ويتحقق أنه ما هو شيء، ولا ينظر إلى أهل زمانه المُتَشَبِّجِين - أي يرون أنفسهم - من غير شيء، فما حَصَّلوا من ذلك على طائل » هـ.

أقول : قوله : « وعدم رؤية النفس هو الذي يرفع الإنسان » ، مفهومه أن رؤية النفس هو الذي يضع الإنسان ، فخذ مما علمك علماً نافعاً .

وقاعدة مُطَّرِدَة : أن من رأيته يتَّضِع في نفسه ولا يراها شيئاً ، ولا يراها أهلاً لشيء ؛ فاعتقِدْهُ وجالِسْهُ ، ففي مجالسته الخير والبركة ، فلعل طبعك يسترق من طبعه بمجالسته ، فتمَسَّك به ، فإن المرء من جليسه ، واقبض عليه قبضاً باليد وتعلق به ، ومن رأيته يرى نفسه شيئاً أو أنها أهلاً لشيء ، أو يدَّعي شيئاً ، ويلوم مَن قصَّر في حقه بشيء ، ويدل على ذلك أن يقول : « نحن » ، مشيراً بذلك إلى نفسه ، فارفضه إلى النار ولا تُعَرِّج عليه ، واتركه عنك بمعزل ، ولا تعده شيئاً ، فإن هذا عبدٌ مملوكٌ لنفسه ، مقهورٌ في أسْرِ هواها ، لا خير فيه ولا بركة ، ولو زعم وادَّعى ، فافهم هـ .

قال : « ثلاثة يتجاوزون الحد : المعتقد والشاعر والعدو . لا يقفون على حد الوسط - أي العدل- فيما يتكلم به المتعقِد في معتَقَده - أي في من يعتقده - ولا الشاعر في من يذمه أو يمدحه ، ولا العدو إذا تكلم في عدوه . ورُبَّ رجلٍ حصل له مدد من بعض المشايخ ، فاعتقد أفضليته على من عداه ، وإن كان هناك من هو أفضل منه » .

قال رضي الله عنه : « ما نحب مجيء الناس إلينا ، ولا نحبهم إلا لأجلهم ، ولا نكرههم إلا لأجلهم، وأهل الزمان يفتحون أقفال الفتنة وهي مقلودة ، ولا يفتحون أبواب الخير إلا بزعمهم هذا يفتح باب الفتن من طرف وهذا من طرف » .

قال : « هذا مقرأ فيه عبرة ، لو تأمل الناس فيه لكفاهم ، قص الله فيه أحوال قوم ، ودعا فيه قوماً لاستجابة الله ورسوله ، وحذَّرَ الله فيه أقواماً عن الوقوع في الفتنة ، وأخبر كلَّا أنَّ الله مع المتقين ، ورَغَّبهم في التقوى ، وهو : ﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴾، إلى آخر المقرأ ، وهو قوله تعالى : ﴿وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ۝٣٠﴾» .

قال رضي الله عنه : « إذا تتابعت شهادة الناس على رجل بالخير ، فلا يخلو ذلك من سِرٍّ فيه ، ولو أن شهادة أهل الزمان لا تُقبل إلا بالإستفاضة » .

قال في قوله ﷺ : « يشيب ابن آدم ، وتَشِبُّ فيه اثنتان : الحرص وطول الأمل » : « هذا خاص بأن من كانت في قلبه من صغره ، كلما كبر ازداد حرصه عليها ، وأما من عاش في صغره بالزهد ونحوه فبالعكس من ذلك ، ودليل ذلك من الحديث الآخر : يموت المرء على ما عاش عليه . أو أن معناه أن صاحب الدين والزهد في الدنيا ، كلما كبر ازاداد زهداً فيها وتقللاً منها ، وصاحب الدنيا المحب

لها ، كلما كبر ازداد ضعفاً في بدنه وعجزاً عنها وعن التمتع بها ، وفي قلبه تعلق بها ورغبة فيها وطلباً لزيادتها » ، أو كما قال هـ .

أقول : وهذا الأخير هو الظاهر اليوم من أحوال الناس ، من ضعفه عنها ، وشدة تعلق قلبه بها .

ولقد رأيت في هذا الوقت عجباً ، وهو من انقلاب الأمور والأحوال فيه عن أوضاعها إلى أضدادها، كما تقدم ذلك من قوله غير مرة ، وهو أني رأيت من جماعة غير واحد ، أنهم مرضوا مرضاً شديداً أشرفوا فيه على الموت ، وأيسوا من الحياة ، ثم إن أحدهم في قضاء الله وقدره لم يحضر أجله، وبقي لهم شيء من العمر ، فعوفي وصح من مرضه ذلك ، فأقبل كل واحد منهم حينئذ على الدنيا بوجهه وقلبه وكُلِّيته ظاهراً وباطناً ، إقبالاً مفرطاً ، وشَحَّ بها شُحًّا متلِفاً ، أشد من حاله قبل المرض، ولو أنه كان قبل ذلك شديد الحرص عليها ، فأقبل عليها إقبال من لا يظن أنه يموت ، وصار من البخل والحرص أشد من الأول أضعافاً مضاعفة . وما كان ينبغي منه هذا ، بل ينبغي كما أَيِسَ منها أن يكون عائداً إليها بسماحة نفسٍ وقناعةٍ ، وأن تهون على قلبه ، إما زاهداً فيها وإلا قانعاً منها ، فصار الأمر في أهل هذا الزمان بالعكس ، فياللعجب منهم ومن أحوالهم .

فاعرف بذلك تحقق قوله رضي الله عنه في هذا ، وفي غيره أن الأمور تنعكس في هذا الزمان إلى أضدادها ، فينبغي أن يُسَمَّى الزمان مخيب الظنون ، فانظر مثل هذا وغيره كثيراً ، فاسأل به بصيراً هـ .

قال : « الرجوع في العلم إلى الأصول، وجميع الفروع والنوادر ترجع إليها ، والتصانيف على مقتضاها ، وإن اختلفت العبارات فهو قصد كل منهم ، ولهذا يقول بعضهم : يفهم من قول فلان كذا . وتُحمَل العبارة الفلانية على كذا ، ونحو ذلك . وقد قررها المتقدمون كما ينبغي ، فأتى هؤلاء المتأخرون ورأوها محرَّرَة ، فأرادوا أن يضربوا بسهم معهم ، فألَّفوا وعرَّضوا وطوَّلوا ، منهم مَن قارَبَ ومنهم مَن أَبْعَدَ » ، أو كما قال .

قال : « ينبغي للإنسان أن يقتصر من الملبوس والمأكول والنوم على ما لا بد له منه ، لأنه على هذا درج السلف والأخيار ، وخصوصاً في هذا الزمان الذي كثر فيه الحرام ، وقَلَّ الحلال والنيات الصالحة، فإن كان ممن وُسِّع عليه فينفق منه إن وفَّقَه الله في كل الأوقات ، وإلا ففي بعضها ، وإن كان ممن قُتِّر عليه فما معه إلا ذلك » هـ .

أقول : أي ما أمكنه ، وتقدير الكلام أن يقتصر مما ذُكِر ، ومما هو في معناه من المباح ، على ما لا بد له منه ، سيما في هذا الزمان الذي كثر فيه الحرام ، وقَلَّ فيه الحلال . وعلى هذا - أي الإقتصار على ما لا بد

له منه - درج السلف الصالح في أزمنتهم الصالحة ، التي كان فيها الحلال كثيراً والحرام قليلاً . فكيف في هذا الزمان الذي هو بالعكس ، من كثرة الحرام وقلة الحلال ، وقلة النية الصالحة بنية استعمال المباح للإستعانة به على فعل الأوامر واجتناب النواهي ، كما قال ابن مسعود الصحابي رضي الله عنه : « إني لأستَجِمُّ نفسي بشيء من اللهو ، لأستعين به على الحق » . يعني بلَهْوٍ من الكلام المباح، ويجري ذلك في كل مباح ، ومراده أن الإقتصار على ما ذكر في هذا الزمان ألزم ، لما ذكر من حاله وأحوال أهله .
والمراد بصلاح الزمان ما كثر فيه الحلال ، وكثر فيه الصالحون الآكلون منه بنية الإستعانة به على الخير ، وبفساد الزمان ما كان على العكس من قلة الحلال ، وقلة النية الصالحة أو عدمها ، وكثرة الحرام، وإن كانت الأزمنة كلها لا تخلو من كل ذلك ، ولكن تختلف بالكثرة والقلة ، كما بشر به المرسلون النبي ﷺ ليلة المعراج بقولهم : « أبشر يا محمد ، فإنا نرى الخير فيك وفي أمتك إلى يوم القيامة» ، فلا تخلو من ذلك قط . فمن خواص هذه الأمة المكرمة أنها لا تخلو من الخير ، ولا تجتمع على ضلال ، وإن اشتهر وانتشر بعض الأمور المنكرة كالصَّبِرَة ، فليس ذلك في جميع الأمة بل في بعضها ، وكرامتها لكرامة نبيها هـ .

قال رضي الله عنه : « **أصلح الصالحين من لا يرى أنه من الصالحين** » .

وذَكَر التقوى فقال كما تقدَّم من قوله : « **التقوى يريد ورع وقناعة ، فلا يفتح بطنه ، فإذا فتح بطنه امتلأ ناراً ، فلا يملؤه إلا النار** » ، يعني إذا فتحه لكل ما يريد ، أوقع فيما يوقعه في النار من أكل الحرام ، فإن الحلال لا يحتمل السرف ، إلى قوله : « **فلا يملؤه إلا النار** » ، تقدم قبل هذا بنحو ورقتين هـ .

قال لرجل : « **اللهَ اللهَ في السكون وترك الحركة ، واستعن بالله وبكتابه ، فإن الله تعالى خلق الإنسان متحركاً ، وقال له : اسْكُن** » .

ومرة ***قال*** : « **خلقه متحركاً وأمره بالسكون ، فلم يدع الحركة ، حتى في بطن أمه يتحرك ، ثم بعد أن يولد لم يزل متحركاً ، لكن كلما كبر كان في نقصان من حركته وزيادة في عقله** » .

ثم التفت إلى الذي يخاطبه ، ينهاه عن كثرة سؤاله الناس ، ***فقال*** له : « **فَقَدِّرْ أنَّ الذي أردتَه من الناس قد أعطوكه أمس ، وبقيت الآن بلا شيء منه** » ، ثم ذكر الأبيات التي أولها :

أُقْسِمُ بِالله لَرَضْخُ النَّوَى ... وَشُرْبِ مَاءِ القُلُبِ المالحةْ
أَحْسَنُ لِلْمَرْءِ مِنْ حِرْصِهِ ... وَمِنْ سُؤَالِ الأَوْجُهِ الكَالحةْ

فَاسْتَغْنِ بِـالله تَكُـنْ ذَا غِنـىً   مُغْتَبِطـاً بِالصَّفْقَـةِ الرَّابِحَـةْ
اليَـأْسُ عِـزٌّ وَالتُّقَـى سُـؤْدَدٌ   وَشَـهْوَةُ النَّفْـسِ لهـا فَاضِحَـةْ

أقول : ذكر هذه الأبيات في « رسالة المذاكرة » ، وخطابه هذا مع رجل فقير من آل بافضل كان كثير السؤال ، وكان مغفلاً ذا بَلَهٍ صافي القلب ، فنهاه عن السؤال ، وكان سيدنا يتنزل للبُلْه ، ويحب مكالمتهم لصفاء قلوبهم ، كهذا وأمثاله ، وصغار الولدان ممن ليس له حاسية ، وتقدم قوله : « **يعجبنا كلام من ليس معه حاسية ، لأن الحاسية في هذا الزمان تجر إلى شر** » ، ومرة قال : « **من فيه حاسية من أهل هذا الزمان ما تجرُّهُ حاسيته إلا إلى شر** » ، أو كما قال .

ومراده بالحاسية : التفطن لدقائق الأمور والأحوال من الأقوال والأفعال ، فربما فهم من بعض الأفعال أو بعض الأقوال معنى مذموماً ليس هو في خاطر القائل والفاعل ، بمقتضى طبعه الخبيث ، فإن من خَبُثَ طبعُه خَبُثَتْ ظنونُه ، فكل إناءٍ ينضح بما فيه ، كما قال القائل :

إِذَا سَـاءَ فِعـلُ المرْءِ سَـاءَتْ ظُنُونُـهُ   وَصَـدَّقَ مَـا يعْتَـادُهُ مِـنْ تَوَهُّـمِ

قال : « **أهل الزمان كبرت جسومهم وصغرت عقولهم** » هـ .

أقول : ومعنى : « **صغرت عقولهم** » ، أي عجزت عن إدراك دقائق أمور الدين من دقة الورع ، ودقائق أمور التقوى ، كالتي تورعت لا تغزل في الليل على نور مسارج الحكام ، وإذا جعل الله التقوى في قلب عبد أطلعه على دقائق أمور الورع وإنما قصر بالناس اليوم عن دقائق الورع عدم التقوى .

فمراده إذاً بقوله : « **صغرت عقولهم** » ، يعني خلت عن التقوى .

وذُكِرَ له شاب مات صغيراً ، **فقال** : « **الإنسان في هذه الدنيا مغرور ، يجرُّونه ويُنَبَّه وينام ، فكلما جَرُّوه انتبه ، وإن تركوه نام** » .

وذَكَر الميراث ، **فقال** : « **كلما ذَكَر الإنسان في مرض موته شيئاً من النخل ونحوه ، يريد يجعله لله ، ذَكَر أولاده وأهله فآثر أن يكون لهم ، ولا يجعل لله شيئاً** » هـ .

أقول : وأهل الزمان لشدة بخلهم وحرصهم ، وعدم رغبتهم في ثواب الله ، يَسْتَصْوِبُون ذلك ويشيرون عليه به ويرغبونه فيه ، ولو كان ناسياً له وله رغبة في الثواب ذَكَّروه به ، فقالوا له : أولادك

أولى من غيرهم ، ويرون أنَّ تَرْكَه لهم أفضل ، فما ينفعه إذا تركه لهم ، وقدم على ربه مفلساً من المعروف والإحسان ؟ فابدأ بنفسك ثم بمن تعول ، قال الإمام الغزالي : « فما ينفعه إذا ترك عياله بخير ، وقدم على ربه بشر ؟ » انتهى .

فإذا كان أكثر ماله صار لهم وهو الثلثان ، وإنما أُعطِيَ له منه الثلث يتصرف فيه ، فإذا نوى به أن يُخرِجَه لله فهو لا شك أفضل وأنفع له عند الله ، فلْيُخْرِجْه كله لله وإلا بعضه ، ولا يقمح نفسه ويدعه لأولاده ، وربما كان أولاده غير مصلحين فيستعينون به على غير ما يرضي الله ، فيدخل عليه إثمه في قبره يُعذَّب به ، حيث يمكنه أن يجعله لله ، فتركه لهم يستعينون به على غير مرضاة الله وفي ما يسخطه .

وليس أهل هذا الزمان الجهلة أعلم بما يحبه الله من السلف الصالحين ، كما ذُكِر أنه قيل لعمر بن عبدالعزيز : « لِمَ تَركتَ أولادك بلا مال ؟ » ، فقال : « أولادي أحد رجلين ، إما تقي فسيجعل الله له من أمره يسراً ، ويرزقه من حيث لا يحتسب ، وإما فاجر ، فلا أترك له مالاً يستعين به على الفجور » . ودخل عليه ابن عمه مَسْلَمة وهو في مرضه الذي مات فيه ، فقال : « يا أمير المؤمنين ، ألا توصي؟»، قال : « وهل لي من مال فأوصي فيه ؟ » ، قال : « أوصِ إلى بنيك » ، فقال عمر : « أوصي بهم إلى الله الذي نَزَّل الكتاب ، وهو يتولى الصالحين » .

وروى أبو الفرج بإسناده أن الخليفة المنصور ، قال لعبدالرحمن بن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه : « عِظْنِي » ، قال : « أَعِظُك بما سَمِعتُ أو بما رَأيتُ ؟ » ، قال : « بما رأيتَ » ، قال : « مات عمر بن عبدالعزيز وخلَّفَ أحد عشر ابناً ، وبلغت تركته سبعة عشر ديناراً ، كُفِّن منها بخمسة ، واشتُرِيَ موضع قبره بدينارين ، وأصاب كل واحد من ولده تسعة عشر درهماً . ومات هشام بن عبدالملك ، وخلف أحد عشر ابناً ، أصاب كل واحد من تركته ألف ألف دينار . ورأيتُ رجلاً من ولد عمر بن عبدالعزيز قد حمل في يوم واحد على مائة فرس في سبيل الله ، ورأيتُ رجلاً من ولد هشام يُتَصَدَّق عليه » ، ويروى : « يسأل على الأبواب » ، وذَكَره في « مجمع الأحباب » .

وأما قوله ﷺ لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه : « إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالةً يتكففون الناس » ، يعني يمدون أكفهم إلى الناس يسألونهم هو إشارة إلى الحاجة إليهم ، فإن سعداً استشار النبي ﷺ ، هل يُخرِج ماله كله لله ؟ فأشار عليه بالصواب ، وهو أن يُخرِج الثلث ويذر لهم الثلثين ، فلما استَقَلَّهُ وَوَدَّ أن يُخرِج الكل ، قَنَّعَه به فقال له : « الثلث ، والثلث كثير » . يعني كثير مما تخرج من مالك ، فيكفيك واترك الباقي لورثتك ، فلذلك اقتصر للميت باختياره على الثلث ، وبما زاد على إذن الورثة ، والثلث كثير إذا صحت فيه النية يكفيه عن إخراج الكل ، ويبقي لهم الباقي .

وكلامنا في من يجعل ماله كله لهم ، ولا يجعل منه لله شيئاً ينفعه عند الله ، فإن هذا مذموم الحال

عند الله ، وعند أهل التقوى من خلق الله ، دون أهل الفجور ، فلهذا يسعى الفجرة في تبطيل الثلث ، ويساعدهم من الطلبة من هو فاجر مثلهم ، سيما في هذا الزمان السيء حال أهله ، وقد قال الله تعالى : ﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعۡدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ۝١٨١﴾، بل لو صحت النية في إخراج الكل ، كما فعل عمر بن عبدالعزيز وتركهم معتقداً أن الله سبحانه كما خلقهم وضمن لهم أرزاقهم أنه لا يضيعهم كما فعل رضي الله عنه ، فإن الله تعالى ببركة نيته الصالحة ، وَسَّعَ على ذريته الرزق ، وضَيَّقَ الرزق على أولاد ابن عمه ، حتى صاروا يستجدون الناس ويطلبون على الأبواب بسوء نيته ، فأعطى الله كُلًّا منهما في ذريته بحسب نيته .

وقد رأيت في وقتنا هذا عجباً ، وهو أن أناساً صح لهم قدم الزهد في الدنيا ، أدركناهم ، وهم من مشايخنا ، تركوا الدنيا اختياراً ، فرأيتُ ذريتهم أغنياء ، وأناساً آخرين يتظاهرون بالعلم والزهد وليسوا مثلهم وعندهم دنيا ، رأيتُ ذريتهم فقراء يودون مَن يُحسِنُ إليهم ، والله سبحانه وتعالى فَعَّالٌ لما يريد ويفعل ما يشاء ، ولا تجربة في فعل الله . وقد قال الله تعالى : ﴿وَلۡيَخۡشَ ٱلَّذِينَ لَوۡ تَرَكُواْ مِنۡ خَلۡفِهِمۡ ذُرِّيَّةٗ ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيۡهِمۡ فَلۡيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡيَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدًا ۝٩﴾، أي فليخافوا الله ويتقوه من قولهم هذا وظنهم ذلك ، فإن خوفهم عليهم ذلك لضعف إيمانهم وقلة تقواهم ، فمعنى الآية عكس ما عليه غالب الناس اليوم ، ولا نقول كلهم لعدم خلو هذه الأمة من الخير ، فتراهم من خوفهم ذلك يسعون في طلب المال كثيراً ، حتى منهم من يضيع دينه في طلب ذلك ، كل ذلك ليغنوا أولادهم ووَرَّثوهم إياها . والله لقد رأيتُ أناساً تركوا لأولادهم أموالاً أرادوهم يستغنون بها ، فما انتفعوا بما خلفه لهم آباؤهم وعاشوا بدونها .

وذَكَر البيع و الشراء ، *فقال* : « **البيع فيه بركة ، خصوصاً إن حمل الطعام من مكان إلى آخر وباعه بسوق وقته من غير اختباء إلى أن يغلى ، فإن الإحتكار لا بركة فيه ، إذ لا خير في اغتنام الناس . وقد نهى بعضهم عن بيع المأكول ، خوفاً من أن يتمنى الغلاء على المسلمين ، وكذا عن بيع الأكفان وعن الذبح، لأن ذلك يُقَسِّي القلب ، لأنه إذا اعتاد الذبح وتمرن عليه ، ربما لا يبقى في قلبه رحمة . فقد نُقِلَ لنا عن رجلٍ من آل بافضل ، وكان يبيع الأكفان ، أنه ماتت له أخت أو بنت أخت ، فترك حضور جنازتها وراح القنيص ، وكان سليم القلب** » هـ .

أقول : رأى أن عدم حضوره لقلة رحمته ، لتأثر قلبه بقلة رحمته من بيع الأكفان ولكن عَذَرَه لسلامة قلبه .

ودخل عليه يوماً بدر - سلطان البلد من آل كثير - مع بعض أعوانه ، فذكر لهم ولاة الأرض وتغير أحوالهم ، *فقال* لهم : « **أنتم اليوم والرعية أموات ، ما الحي إلا آل فلان ويافع ، ولكنهم أول من يخرب ، لأن من عمر نفسه بخراب غيره خرب ، وهذا سلف مجرب ، إما أسرع وإما أبطأ . فقد كان بعض السادة معه ساقية ماء ، وفي البلاد نقيبٌ متسلطٌ في وقته ، فأراد أن يقتطع من ساقية الشريف شيئاً ، فجمع لذلك جماعة من العمارين ، وأمرهم بذلك ، فقالوا : لا نفعل حتى تبتدي أنت . فأزال بيده حجرات ، ثم فعلوا كفعله ، حتى أخذ منه الذي أراد ، فلما أُخبِرَ الشريف بذلك قال : خرَّبَ الله دياره في الدنيا والآخرة . فمكث أياماً لم يصبه شيء ، فتعجب السيد وقال : هذا تعدى علينا عدواناً ، ثم لم يصبه شيء ، هذا عجب . فمر يوماً مقبلاً من التربة ، فسمع قائلاً** - أي هاتفاً - **يقول : هي** - أي الدعوة - **تقع ، إما عاجلاً وإما آجلاً . فكان ذلك النقيب في تلك الليلة أو اليوم** - أي حين ما مر ليلاً أو نهاراً - **ينزح على بئر الحصن ، يريد يسقي فرسه ، وحوله جماعة ، إذ أفلت الدلو من يده حتى سقط منه في البئر ، فقالوا له في ذلك ، فقال : قَطَعَتْ يدي يدُ القدرة ، أصابتني دعوة السيد عمر بن أحمد . فخرج في يده جرح ، وهي التي قطع بها الساقية ، ثم خرج إلى ذراعه ، ثم إلى حلقه ، ثم هلك .**

وهكذا سُنَّة الله في خلقه ، ينتقم الله بالظالمين ثم ينتقم منهم ، وإذا تعدى الإنسان ضَرَّ نفسَه وضَرَّ غيرَه ، وإذا بقي على حشمته ولم يتعد حده نفع نفسه ونفع غيره ، ما هو أَلَّا إذا رأيتَ إنساناً مائلاً عن الحق ، انْصَحْهُ بما أمكنك ، إما بالإشارة أو بالتعريض ، فإن قَبِلَ فذاك ، وإلا مِلْ عنه وخَلِّه لربك ، فإن ذلك حظه منه ، فكلُّ مَن رأيتَه على غير الطريق خله لربك » .

هذا آخر كلامه معهم ، ثم طلبوا منه الفاتحة فقرأها ودعا ، ثم انصرفوا .

ثم دخل عليه السيد زين العابدين بن مصطفى العيدروس بعدهم في مجلسه ذلك بعد انصرافهم ، وكان يتبسط معه في الكلام ، *فقال* له : « **جاءنا فلان** - يعني بدر وجماعته - **فقلنا له : أنتم اليوم والرعية أموات ، ما الحي إلا آل فلان ويافع ، ولكنهم أول من يخرب ..** » ، إلى أن ذكر قصة السيد عمر بن أحمد مع ذاك النقيب .

ثم قال له : « **جاء إلينا هؤلاء يلوحون مثل من يلوح بعود على عِلب** - أي سدر - **ليسقط له منه شيء ، وتسييب أوائل الأمور ، ثم طلب الذيل بعد ذلك أمرٌ عَسِر ، ما عاد أَلَّا من جاء يستشيرك في مثل ذلك ، تبعَّد منه وخلِّه على ما هو عليه ، أو قل له : اسْعَ فيما أردتَ . فإن حصل شيئاً فأنت معه شريك ، وإلا سلمت من التوسط ، مثل حجة الصيد . وهذه الأمور في هذا الزمان أَلَّا بالبخت والنصيب ، فلا تعتمد اليوم فيها إلا على البخت والنصيب ، وإلا فالأسباب اليوم ضعفت وقَلَّت .**

ومما جربناه في هذه الأيام ببركة السادة أنه إذا جاءنا أحد يستشيرنا في شيءٍ لا نريد أن نشير به عليه، نقول له : على ما أنت عليه ، ولكن الله الله في الدين والصلاة والطاعة وقراءة القرآن . ولا نزيدهم على ذلك ، ولكن بعد ذلك ما يحصلون إلا على خير » .

وذَكَر عجلة الناس في نقل الكلام ، وعنده السيد المذكور ، *ثم قال* : « ما عاد أحسنوا السكوت ولا الكلام ، وإذا لم يحسنها كأن لا شيء ، وما عاد مع الإنسان اليوم ألّا يطوي لسانه ، حتى إن لم تقع سلامة يقع أقل منها ، ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾ » .

ثم ذكر الدولتين الأموية والعباسية ، *ثم قال* : « الحاصل أنه لم يكن فيهما مثل عمر بن عبدالعزيز » .

ثم امتدَّ به الكلام ، إلى أن ذَكَر الأئمة الأربعة ، وقوة العلم والدين في ذلك الزمان ، *ثم قال* : « وما عاد الناس اليوم إلا في الذيول والكبول ، ما عاد شيء نور ، وإلا كان اهتدى الإنسان ، لكنها ظُلْمَة لا يُهتدى فيها ، ولكن رحمة الله مَرجُوَّة ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : في كل زمان من أمتي سابقون، ولَيَجِدَنَّ ابنُ مريم من أمتي قوماً هم مثل حوارييه . وآية من كتاب الله تكفيك ، فإن لم تعرف معناها فاسأل عنه أهل العلم به ، وإذا كان في الأمر شيء عن النبي ﷺ ، فلا لأحد عنه معدل ، وما كان عن الصحابة فيُتبع ، وما كان عن غيرهم فيؤخذ منه ويُترك ، كما قال أبو حنيفة : قد كان الذي عليه المعول شيء قليل ، إما آية يحفظها ويعرف معناها أو حديث ، كذلك وهذا هو الذي كان من قبل . وإنما اتسع الأمر بعد ذلك ، حتى صار الكتاب الواحد في مجلدات ، ثم نقحه الإمام النووي رحمه الله بعد ذلك ، هو وحجة الإسلام المجدِّدين للدين » .

ثم قال : « لا يهمك في هذا الزمان إلا نفسك ومن يهمك ، كصاحب السفينة الذي هو الربان ، فإنه إنما يراعي نفسه خوفاً من الغرق ، وكذلك من معه ، لأن نفوسهم وأموالهم عنده » .

إلى هنا انتهى كلامه في هذا المجلس ، من حين جلس مجلسه هذا ، وكلامه مع أولئك المذكورين إلى حين جاء السيد زين ، وكلامه معه من قوله : « جاء إلينا هؤلاء .. » ، إلى قوله : « لأن نفوسهم وأموالهم عنده » . يخاطبه به ، وهو يسمع ويسمعه الحاضرون ، وهم العيال والفقير ناقله .

ثم أمر السيد زين بالشروع في قراءته في شرح حِكَم ابن عطاء الله لابن عباد ، ثم بعد قراءته ختم المجلس بالفاتحة ، ثم دعا ، ثم خرج السيد زين العابدين ، ثم انقضى هذا المجلس المبارك هـ .

* * *

شرحٌ لبعض كلام من هذا المجلس : قوله لبدر ومن معه ما ذكر من أحوال الولاة ، تخويفاً لهم أن لا يفعلوا كما فعلوا ، فيحَلَّ بهم ما حَلَّ بهم ، وقد فعلوا ما فعلوا من الظلم والطغيان وتعدي الحدود،

فحَلَّ بهم الذل والهوان وعدمِ التصرف في الأرض بعد تمكنهم ، وتخويفه وهو قوله : « **أنتم اليوم والرعية أموات** » ، يعني لا تَمَكُّن لكم ، ولا صِيْتَ بعدما كنتم عليه من ذاك ، وإنما ذلك اليوم لآل فلان ويافع ، وسيقع لهم ما وقع لكم ، ويَحِلُّ بهم ما حلَّ بكم .

ثم استشهد لهم على ذلك بقصة ذلك النقيب الظالم مع السيد الفاضل عمر بن أحمد المنفر صاحب الحاوي ، وخوفهم العقوبة بقوله : « **إن ذلك سلف مُجَرَّب** » ، أي عادة سالفة ، وأمر مجرب جرت به عادة الله ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾، وقد رأيتم صِدْق ذلك حتى في أنفسكم وما اعتبرتم ، وقد قيل : « رحم الله من اعتبر بغيره ، قبل أن تَحِلَّ العبرة به » ، ولكن ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾، ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴾.

وذكرنا فيما تقدم من شأن ولاة حضرموت الذين أدركناهم ، ورأينا أحوالهم في عزهم وذلهم ، ثم تنكيل الله بهم ما فيه غاية العبر ، كما نُقِلَ له من ظُلم عيسى بن بدر بشبام فغضب عليه ، وقال : « **ما له أَلَّا الكثيب الأحمر** » ، وهو مقبرة عينات ، وبينهما أكثر من مسيرة يوم . فثاني يوم نُقِلَ له عنه ذلك ، غَبَش إلى عينات ، وفعل السادة له عزيمة ، وذبحوا له ذبيحة ، فبينما هو يأكل ، شكا إلى سيدنا رجل من شبام شدة ظلمه ، فقال سيدنا : « **إذا ظلمكم حاكمكم ، ماذا تريدني أفعل به ؟** » . فقال ذلك الرجل : « أريدك تقبض بحلقه ، فتخنقه وتريحنا منه » ، فغصَّ بلقمةٍ أو لحمة فاختنق ومات على الصحن ما تم أكله ، وقُبِرَ في الكثيب الأحمر ، كما أشار إليه بالأمس . وكذلك عمر بن جعفر ، كان متمكناً في حكم الجهة ، فحسد ابن عمه بدر المتقدم ذِكْره ، وجاءه بيافع ، فأذَلَّه بهم وذَلَّ هو وما اعتز ، فأشار عليه – أي عمر – سيدنا بأمور كان فيها عزُّه لو امتثل ، فخالف وراح إلى عمان ، مراده يجيء بعسكر على يافع ، فسقط عليه جدار ، فمات ذليلاً شريداً . وجاء بدر إلى سيدنا بجُبَّة هذا ، ليستشيره في أمره ، فما أشار عليه بشيء ، ولهذا ذكر للسيد زين العابدين أمر الشور ، ويلوح له بأمرهم .

وأما السيد عمر بن أحمد ، فإنه جد والد الحبيب لأمه ، فأم السيد علوي الحداد سلمى بنت السيد عمر المذكور ، وكانت من كبار الأولياء ، وورثت سر أبيها ، وحل نظرها على سيدنا عبدالله من صغره وربته ، وقد يشير في بعض كلام مجالسه إليها كقوله : « **سمعنا عن بعض جداتنا أنها حضرت وفاة أبيها ، فكان له عند ذلك غَيْبَات ، وكل غَيْبَة يتكلم فيها بكلام ظهر بعده ، فمن ذلك أنه قال : عادكم تقولون : يا حَيَّا دولة الكثيري** » ، وقد قالوا معنى ذلك في وقت يافع .

والحاوي الذي قطع ساقيته ورثته بنته المذكورة منه ، وورثه منها ابنها السيد علوي الحداد ، وورثه منه ابنه سيدنا عبدالله ، وشرى أسهم إخوانه ، ونزل فيه واستوطنه ، وجعله محل إقامته ، وبقيت داره في البلاد ، يوضِّعُون فيها حوائجهم .

وقلت لسيدنا يوماً : فلما أهلك الله ذلك النقيب وقطع دابره ، كان يمكن للسيد عمر يسترد ما أخذ من الساقية ، فلم يسترده ، قال : « **ما استرده** » .

أقول : وكأنه ما استحسن أن يسترده ، وهو كان يمكنه ، لما وقع عليه من العقوبة جزاء ما فعل ، فأراده مكافأة له ، كالسارق إذا سرق وقطعت يده ، ثم استُرجِع منه المسروق ، صار الحكم الواقع عليه بلا مقابلة ، ولو رَدَّه قبل القطع ما ثبت عليه الحكم بالقطع ، كذلك لو رد هذه المظلمة قبل الجزاء ، لما ثبتت عليه ذلك ، لكن ذلك كان له جزاءً وفاقاً ، ولو أن التهجم ذنبٌ ، لكن لا يوجب القطع ولا العقوبة مع الرد . وقد تقدم ذِكْرُ هذه القصة مراراً ، وتقدم تفصيلها عند قوله : « **والغالب أنه لا يقع الإمهال كثيراً إلا للجريء** » ، فَذَكَرَها هناك استشهاداً بها على إمهال الجريء كثيراً ، كفرعون على شدة جراءته في ادعائه الربوبية ، فما أُهلِك إلا بعد أربعين سنة ، مع استجابة الله دعاء موسى وهارون عليه بالهلاك ، وقوله تعالى لهما : ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا﴾، أي ولا تعجلا .

وذكرها هنا استشهاداً بها على أن الله ولو أمهل الظالم كثيراً ، لا بد ما يأخذه ، كما أخذ فرعون بعد الإمهال ، وذلك الإمهال كان لأجل عَدْلِه في رعيته ، لأن الله تعالى يجازي الكافر على إحسانه في الدنيا، ومِنْ عَدْله : أنهم أعطوا وزيره هامان مالاً كثيراً ليجري لهم خليجاً من النيل إلى بيوتهم ، ففعله ثم أخبره بذلك ، فقال له : « رُدَّ عليهم ما عطوك من خزانتي » ، فرده عليهم منها ، فإن الله تعالى يُمهِل للظالم ليزداد إثماً ، كما قال تعالى : ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ١٧٨﴾، ثم لا بد ما يأخذه ويهلكه ويعاقبه .

ومن كلام سيدنا *قال* : « **وكان ذلك النقيب وهو باغوث مؤذياً للسيد عمر المذكور أذى كثيراً ، حتى إنه يأمر صالي بعير له بإطلاقه كل يوم على قضب للسيد فما يصبح صباح يوم في كثير من الأيام إلا وهو يرعاه ، ويشكو خادم السيد له من أذاه ، فيأمره بالصبر عليه ، حتى كثر شكاه منه ، فشكاه إليه يوماً، فقال له السيد عمر : وجِّهْهُ إلى جهة شرق ، وانفخ في دُبُره ، ففعل ، ففُقِدَ البعير بعد ذلك من يومه وما وُجِد ، إلى أن وقع منه ما وقع من قطع الساقية ودعائه عليه ، فأصابته دعوته ، وأراد الله أن يرى السيد ما حل به حين ما حل به ، وذلك أنه لما استبطأ استجابة دعوته ، سار إلى التربة يستحث استجابة دعوته** » .

أقول : وسمع الهاتف يقول له : « **هي تقع** » – أي الدعوة – ، ثم خرج من التربة ومر تحت الحصن، ورآه ينزح لفرسه ، فوقعت به إجابة دعوته وهو يرى ، وحصل عليه ما حصل ، وسمعه يقول ما قال من قوله : « **آه ، أصابتني دعوة عمر بن أحمد ، ثم هلك ، وذل قومه الذين كانوا يتعززون به ، حتى صاروا طُلباء على الأبواب** » . وكل هذا بمعناه سمعناه من قول سيدنا ، وسيأتي أن بئر الحصن – يعني

رناد - ، كما يذكره في كلام باخرمة .

ولما ذهبوا آل باغوث بعد إهلاك ذلك الظالم منهم ، ولم يبق منهم بعد ذلك من باقية ، نشأ منهم بعد ذلك في وقت سيدنا عبدالله رجل ، وصار نقيبا ظالماً ، وسمعنا أنه آذى رجلاً في تريم كان خادماً لرجل من رؤساء آل كثير أرباب الدولة ، من أهل جعيمة - بعض بلدان حضرموت - فأرسل له ذلك الخادم يشكو من ذلك النقيب ، فجاء إلى تريم عازماً على قتله ، ومَرَّ إلى الحاوي ، واجتمع بسيدنا عبدالله وقال له : « اقرأوا لي الفاتحة على ما في نفسي » ، فقرأها له . وعادته إذا طلب أحد منه الفاتحة قال له : « **على ما يرضي الله ورسوله** » ، غير هذا ، نسي أن يقول له ذلك .

فمضى إلى الرجل فرآه محتبياً في سكة الصَّوَغ من طرف السوق ، منتفخاً من كِبْرِه ، فضربه بجنبية في جنبه ، فأمرقها من جنبه الآخر ، ثم ذَكَر سيدُنا أنه ما قال له تلك الكلمة ، فأرسل رسولاً إليه يقول: « **قل له : ترى الفاتحة التي قرأناها لك على ما يرضي الله ورسوله** » ، وما وصل إليه إلا بعد ما قتل ذلك الرجل من آل باغوث ، فقال له : « قل للحبيب : الله يحفظكم ، قد انقضى الأمر » . هكذا بمعناه سمعناه مستفيضاً يُحكى .

قوله : « **يلوح إلى عِلب** » ، العلب السدرة .

وقوله : « **تسييب أوائل الأمور ، ثم طلب الذيل** » ، يعني أن طلب الأمور ما ينجح إلا بضبطها من أوائلها فتنضبط ، وأما ترك ضبطها أولاً وإهمالها فَقَلَّ ما يمكن تداركها . كقصة هؤلاء - بدر وأصحابه- فإنهم سَيَّبوا سياسة حكمهم ، فلما جاءهم يافع ولا بقى لهم معهم تصرف ، أرادوا يتداركون فما أمكنهم ، فلما أعجزتهم الحيلة معهم جاءوا يستشيرون سيدنا ، فتَبَرَّأَ من شأنهم وما أشار عليهم بشيء، ولذلك قال للسيد زين العابدين : « **تسييب أوائل الأمور .. إلخ** » .

وقوله : « **ما عاد ألا من يستشيرك .. إلخ** » ، فكأنه يحكي بذلك عن نفسه ، يعني أنهم استشارونا في أمرهم فتبعدنا عن أن نشير عليهم بشيء ، فإن حصلوا أشياء كنا معهم شركاء ، وإلا سَلِمْنا من التوسط بينهم .

وقوله : « **مثل حجة الصيد** » ، يعني إنما يحصل بالمداراة ومراعاة أموره وأسبابه ، فكذلك سلوك الأمور الصائبة في تحصيل مقاصدها ، فاعتن بالإيصاء بأمور الدين ، ولو ما أشرت بشيء فتكون شريكاً في الخير سالماً من الشر .

قوله : « **هذه الأمور ..** » ، إلى أن قال : « **فلا تعتمد فيها إلا على البخت والنصيب ..** » ، إلى قوله: « **ضعفت وقَلَّتْ** » ، **هو بمعنى قوله : « نحن اليوم مع الناس ألَّا بالعناية ، وأما الأسباب فقد أتينا**

منها بما أمكن فما حصَّلنا شيئاً » ، وبيَّن أنه قد جرب أن من استشاره في ما لا يريد أن يشير به عليه ، أن يوصيه في دينه فقط ، ثم إنه لا يحصل بعد ذلك إلا على خير . وأن من لا يحسن السكوت فيسكت عن قول الشر - أي لا يصبر عن ذِكْره - ولا يحسن الكلام بأن يتكلم على ما قيده الله من الثلاثة الأمور ، حيث قال تعالى : ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ فإن هذا لا شيء ، أي لا يُعَدُّ من الرجال ، بل من البهائم التي ما ديدنها إلا الأكل والروث والنوم ، بل تزيد عليه بالإنتفاع بها من حمل ، ومن الأنعام بأكل وشرب لبن . فالأحسن اليوم إذا لم يتكلم بخير أن لا يتكلم بشر ويطوي لسانه - أي عنهما - حتى إن لم تقع سلامة من شر مع فعل خير ، يقع أقل منها - أي لا خير ولا شر - .

قوله : « ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾ » ، أي هذه الخصلة ، وهي السلامة من الشر مع عدم الخير ، لم تعلموها هو معنى : ﴿لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾، ومعنى : ﴿قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾ ، أي عَلِمَها ولم يعلموها ، وهي خير من فعل خيرٍ وشرٍ معاً .

فهي ثلاث حالات وأعلاها فعل الخير مع سلامة من الشر ، ودونها ترك الشر مع عدم فعل الخير، ودونها ترك الأمرين معاً .

يعني المطلوبَيْن ، وذلك عدم فعل الخير مع عدم فعل الشر ، وكان المطلوب فكلا الأمرين من فعله الخير دون الشر ، فالسلامة إحدى الغنيمتين ، وفي الحقيقة كلٌّ مُيَسَّرٌ لما خلق له ، وأن لا يجريه أحدٌ إلا فيما أراد الله له ، فإن سلاسل القضاء والقدر تجرُّهم إلى ذلك قهراً ، ولكن المُكَلَّف إذا وفقه الله راقب نفسه في كل أعماله يقودها إلى الخير ويذودها عن الشر ، فإن وافقته جواذب العناية تم له ذلك ، وإلا حُذِفَ به في مهواة الخذلان .

واعلم أن أعمال الخلق الجارية على أيديهم اختيارية أو اضطرارية كحركة المرتعش كل ذلك خلق لله وفعل له ، لقوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ۝﴾، والإختيارية تُنسَب إلى من أجراها الله على يديه، كسباً واكتساباً ، والكسب ما فيه الأجر والثواب ، والإكتساب ما فيه الإثم والعقاب ، لقوله تعالى : ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾.

وأفعال العبد الإختيارية هي وُسْعُه الذي كَلَّفه الله به ، فليجتهد أن يجعله حَسَناً لينفعه جزاه ، ولا يجعله سيئاً فيضره جزاه ، هذا في ما هو في مقدور البشر ، الذي هو محل التكليف ، وأما ما لا قدرة لهم ولا اختيار لهم فيه - كالمعجزات والكرامات - فهي مجرد فعل الله ومنسوب إلى الله ، ولا مدخل للخلق فيه ، لا فعل ولا نسبة ، أينسب معجزة انشقاق القمر ، وكرامة المشي على الماء لغير الله ؟ حاشا لله .

وكلها نوع واحد - أي مجرد قدرة - وإنما اختلفا في الإسم لاختلاف محليهما ، فالمعجزة للنبي دالَّةٌ على صدقه في دعوى النبوة ، والكرامة للولي دالَّةٌ على صدق نبيه ، وعلى صدق متابعته لنبيه ، وإضافتهما إليهما مجازاً لا حقيقة ، بل لأجل أن الله خلقهما تصديقاً لهما في ذلك لا غير ، كنسبة المسبب لسببه ، كما تنسب الكتابة للقلم كقولك : هذا القلم يكتب كتابة حسنة . وأنت تتحقق أن القلم لا يكتب ، إنما يجريه الكاتب فيكتب به ، ومن نسب الكتابة للقلم حقيقة فلا عقل له ، كيف وأنت تسمع قوله تعالى لمريم : ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ﴾، وذلك لما جعل الله الهز سبباً في هذه الواقعة فقط ، كان ذلك به ، وكذلك يجري هذا في كل أمر أراد الله وقوعه ، بأي سبب أراد كان ذلك ، كضرب البحر بالعصا من موسى عليه السلام بأمر الله ، فانفلق وجُعل كالأرض يمشى عليها .

فاعجب لأمر الله واعتمد عليه بقلبك في كل أمر ، ولو استبعده العقل ، إنما أراده الله سبحانه فوقع، ولذلك عجزت عقول الخلق عن إدراك الأسباب التي جعلها الله لإدراك المقاصد ، لا يعلم أحد غرضه بأي أمر ينقضي ، فلا يختار أمراً دون الله ، فيفوض أموره كلها إلى الله ، ضروريها ورفاهيها .

وإنما أراد الله سبحانه أن يخفي قدرته في الأسباب في هذه الدنيا ، وأجرى العادة بذلك ، وإلا فما تأثير الهز لنخلة ميتة والوقت شتاء ليس وقت رطب ، فَعَيَّنَ لمريم هذا السبب فعرفته ، وبقيت الأسباب مخفية لا يعلم بها إلا الله ، وإنما حصول مقاصدها بالإرادة والقدرة لا غير ، فخفَّى الله سبحانه ذلك في الأسباب ، فتكون فيها كالأرواح في الأجساد ، فلما أظهر تعالى قدرته في الهز ، نسب الهز إلى مريم مجازاً . والحقيقة التي أَوْجَدَت ذلك هو القدرة والإرادة الإلهيان ، وخذ على ذلك في كل الأسباب في مسبباتها ، أن الأسباب هي الأفعال الجارية على أيدي الخلق ، أنه اسم سَعيٍ إلى المقصود ، والمقصود - الذي هو الرطب مثلاً - إنما هو بالإرادة والقدرة ، وقس على هذا .

وعليه جرت حكمة الله في كل الأسباب الدنيوية والأخروية ، فنسبة المعجزة للنبي والكرامة للولي، نسبة السبب إلى المتسبب ، لكن هنا فرق ، وهو أن الأسباب فيها سَعيٌ وعملٌ للمكَلَّف ، والمعجزة والكرامة لا سَعْيَ ولا عَمَلَ له فيهما ، إنما السبب فيهما والعمل مجردان للقدرة والإرادة الإلهيين ، وإنما نسبتهما إليهما كون أن الله خلقهما لهما لأمرٍ يعلمه هو سبحانه ، وإنما يظهر لنا من ذلك ظهور نظر الله لهما ، وجعل الله ذلك دليلاً ظاهراً .

فإذا كان الأمر كذلك ، فليتجرد العبد بجسمه وقلبه لعبادة الله ، وضروراته قد تحقق له ، أنها موقوفة على إرادة الله وقدرته ، لا تقيدها الأسباب ولا تنتجها الأبواب ، وأن الأمور كلها موكولة إلى الله ، فليتجرد للعبادة التي خُلِقَ لها ، وجُعِلَت له الأشياء كلها إعانةً له عليها ، ويطلب أن يهديه الله فيها لطريق الإستقامة ، وجَعَل له في الفاتحة الدعاء بها ، وأن يهديَه طريق الإستقامة في العبادة ، المفضي به

إلى نيل السعادة . وتقتضي الإستقامة فيها إلى ثلاثة أمور : الأول : أن يؤديها على قانون الشرع ، الثاني : أن يقبلها الله منه ، الثالث : أن يميته على حسن الخاتمة .

فهذا طريق الاستقامة المطلوب الدعاء به في سورة الفاتحة ، ووجب قراءتها في كل صلاة لطلب ذلك ، وطريق الإستقامة على كمال العبادة اليوم مُتَعَذِّر من كل الوجوه ، كما قال : « ما عاد الناس اليوم إلا في الذيول والكبول » ، جمع ذيل وهو طرف الشيء ، بحيث لا يتمكن منه ، بخلاف المتوسط فيه فإنه يُتَمَكَّن منه كما في الزمن الأول . والكبول : المكَبَّل في الشيء ، المقَيَّد عن بلوغ كماله ، يشير بذلك إلى ذلك . ودل عليه قوله : « ما عاد شيء نور ، وإلا كان اهتدى الناس » ، كما ضرب الله لذلك مثلاً بقوله تعالى : ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾، والميت : الكافر ، والحي : المؤمن ، والكافر في الظلمات ، والمؤمن في النور ، لكن كلما ضعف إيمانه ضعف نوره . وكلامه مشيراً به إلى ذلك النهي ، ولكن هذه الآية لا تخلو من الخير ، ودلَّ عليه قوله : « ولكن رحمة الله مرجوة .. » ، إلى آخر قوله هـ .

قال رضي الله عنه : « ينبغي إذا ظُلم الإنسان أن يدعوَ الله ، ويَكِل أمْرَ الظالم إلى الله حتى يتنصر له ، فلعل الإنتصار لا يحصل إلا بالسكوت - أو قال : متوقف على السكوت - » .

وقال لرجل : « اسْتَعِدَّ للنوائب سورة يس . وإذا ظُلِمْتَ فلا تنتصر لنفسك وسَلِّم الأمر لربك لينتصرَ لك ، فإن من انتصر لنفسه لا يكون له من الله نصير » .

وقال لبعض القُرَّاء : « تَأَن » ، قال له مرات متعددة ، ثم قال له في بعض المرات : « تكرير الكلام لا يُحتاج إليه ، فإنه إذا تكرر سقط وقعه على النفوس ، ولهذا ترى عيال العالِم أكثر تساهلاً في كلامه من غيرهم ، لتكرر كلامه معهم ، ونحن ما عاد نعاقبهم كما كان الأولون يعاقبون ، لأنا مدبرون وهم مقبلون ، وهم من طبقة ونحن من طبقات » .

وقال : « نريد منهم أن يأخذوا ما تيسر مع الإصغاء والإستماع ، وفي الحديث : في آخر الزمان خير العيال البنات . لأن الولد إذا كبر ما يريد لك معه وجود ، لا في مال ولا في أمر ، فإن كثروا كان أكثر لذلك ، والبنت تكون في ميزانك بسبب اهتمامك بها وبمعاشها ، والولد تكون في ميزانه » .

قال : « الزمان مفتون ، وكان الزمان الأول إذا أردت خيراً نفعك فيه الآخر ، واليوم لا اهتمام في ذلك » .

قال : « والعلم يؤخذ إلا من أهل العلم المتعلمين وأهل الإستقامة المستقيمين وأما هؤلاء الذين لم يتعلموا كذلك فهم ضرر على الناس ، فنصف العالِم لا ينفع ، وإذا قَصُرَ نظرُك خلِّ غيرك ينظر لك طريقك ، إن كان فيها شَخر - أي غصون شوك - أو شوك » .

ومَرَّت القراءة في حِكَمِه في مجلس القراءة عشية ، فقال : « هذا على التحقيق هو الأصل ، ولكن أهل الزمان تاركون له ، ولو كان في شيء من أمور الطب تزاحموا عليه ، والدنيا على الحقيقة هي التي لا شيء. الأول أنها مضمونة ، والثاني أنها ذاهبة » ، ثم التفت إلى القاريء ، وهو بعض الفقراء ، فقال : « وأخرى أن ذَنَبَها أملس » ، بمعنى إن طلبها الفقير لا يمكنه أن يتمكن منها ، فإنها تأتي لمن تركها زُهْداً، وتُدبِر عن من طلبها رغبةً . أو كما قال .

ومرة قال : « المضمون منها قدر الكفاية ، وعمومها عبارة عنه » هـ .

أقول : أي عموم إطلاق القول أن الرزق مضمون ، فإن لفظ الرزق عام يشمل المضمون والمقسوم، على ما تقدم بيانها ، فإذا وُصِف الرزق بِذِكْرِ الضمان ، وهو خاص بما تقوم به البِنْيَة ، وهو قدر الكفاية، فهو المضمون .

وقوله : « تأتي لمن تركها زهداً » ، يعني ما زاد على المضمون وهو المقسوم غالباً ، فإنما تأتي لكل أحد بالقسمة ، زاهداً أو راغباً ، بحسب ما قُسِم ، ولا تأتي لمن لم تُقسَم له ، لا زاهداً ولا راغباً ، فحيث لم تأته حيث لم تُقسَم له أتت ولده إذا قُسِم . فافهم الإطلاقات في هذا المعنى ، وقَيِّدْها بهذه القيود المذكورة .

ويريد بقوله : « إنها مضمونة وذاهبة » ، أي لا تهتم بها تضطر إليه وهو مضمون لك ، ولا تهتم بالزائد المقسوم وهو ذاهب ، فاشتغل بربك عما سواه .

قال في معنى قوله في بعض الوصايا : « ولا تدخل في شيء من العبادات إلا بنية صالحة ، وكذلك المباحات ، تنوي بها الإستعانة على الخير ، إن كان يصلح وأنت صادق في ذلك ، بأن تأكل مثلاً أكلاً متوسطاً ، لأن شرط النية أن لا يخالفها العمل ، وأما إن أكثرت الأكل وشبعت فلا استعانة بذلك ، بل يكثر عليك النوم » .

قال في حديث : « ماء زمزم لما شُرِبَ له » : « يعني من شَرِبَه لمرض شفاه الله ، أو لجوع أشبعه الله، أو لحاجة قضاها الله » .

قال : « أي لأنها في الأصل للإستغاثة ، أغاث الله بها إسماعيل عليه السلام ، وقد جَرَّبَه الأئمة في المطالب فوجدوه صحيحاً من خبره عليه الصلاة والسلام ، ولكن يحتاج لنية وإخلاص ، ما هو لكل الناس » .

أقول : ومما جُرِّبَ أن الإمام السيوطي قال : « شربتُ من زمزم بنية أن أكون في علم الحديث كشيخي ابن حجر العسقلاني ، فأعطاني الله ذلك » ، وقد اشتهر وشاع وطبق البقاع ، ما أعطاه الله في ذلك خاصة ، وفي كل العلوم عامة .

قال : « للأنبياء معجزات ، وللأولياء كرامات هي من بركات النبي أو الأنبياء ولا ينبغي أن يُقال أكثر من ذلك ، ولم يُذكَر عن ولي في كرامته أنه أشبع أناساً كثيراً من طعام قليل ، كما جاء معجزةً » .

وذَكَر الطريق ، **فقال : « كل علم الطريق علمٌ واحدٌ ، وإن اختلفت الطرق ، وإنما مَن تعلق بمسألةٍ منهم نُسِبَ إليها ، وإلا فهو علمٌ واحدٌ هو علم التصوف ، وهو الذي قرره الشاذلية ، وقرره الإمام الغزالي والقشيري والسهروردي » .**

وتكلم على بعض القراء وقت القراءة ، **فقال : « لِيَعْرِف أحدكم اللفظ أولاً ، ثم المعنى ، ثم يعمل**

ويُعَلِّم ، ولو تركناكم على هذا ما فهمتم ، وليس المراد مجرد القراءة بل المراد شيء آخر » .

فحاك في صدر الرجل خوف أن قد تغير خاطره عليه ، *فقال* عند ذلك : « **إني لا أغضب على أحد إذا تعاطى مَعَنا ما يُغضِب ، إلا إن تكلمت كلمة أو كلمتين ، وإلا فلا ، وذلك لعدم المخالطة ، وهذا من طبعي ، والإنسان متردد في الخطأ إلا إن عصم الله** » .

قال : « **وكان عندنا خادم إذا غضبتُ عليه ، أعطيتُه شيئاً ، ليزول عني الغضب عليه ، فيقول : ليته يغضب كل حين** – أي ليعطيني شيئاً – . **وهذه عادتي إذا تكلمتُ لأحد بما يُغضِبه ، أنّي بَعْدُ أَتَرَضَّاه بما يرضيه من قول أو عطاء** » .

ثم التفت إليَّ ، *ثم قال* : « **مرادنا العيال والجماعة وأنت تتباركون ، وإلا كان جعلنا السيد أحمد إذا جاء يقرأ وحده ، والباقون يستمعون ، نخاف أن العيال يحتاجون إلى أحد في ذلك ، أو أنت إن أردتَ تقرِّي** » ، وهذا قوله لي ، والقاريء المذكور غيري .

أقول : وهذا معروف منه ، ورأيتُه منه مراراً ، وقد وقع لي ذلك منه ذلك حين قَدِمتُ إلى حضرته ، وذلك في سنة ١١١٦ ، وكنتُ يَشتَبِه عليَّ شيء من كلامهم ، فقال لي كلمةً يريد معنى ، وفهمتُ غيرَه ، فتكلم عليَّ كلام ملام ، فضاق صدري جداً حتى بكيت ، وما كان إلا ابنه السيد حسن . فلما دخل بعد حزب الصبح ، وكان مُرَتِّباً عليَّ يقبض ذراعي إذا دخل للصلاة ، فنزع كوفيته من فوق رأسه ، ورفع كوفيتي ووضع كوفيته على رأسي وفركه بها ، وقال : « **ألبسناك ، ألبسناك ، ألبسناك** » .

وذَكَر الرحمة ، *فقال* : « **في بعض الآثار عن الله سبحانه يقول : عَجِبْتُ من يأسِ الآدمي وقرب الرحمة منه ، لأن الإنسان ظاهر فعله أن يقنط وييأس لعدم حصول الرحمة له ، وظاهر أمور الحق سبحانه حصول الرحمة منه عن قرب ، لأن الرب تعالى على قَدْرِه ، والعبد على قَدْرِه** » .

وسقط عليَّ هنا بعد هذا بعض الكلام ، وهو في وصف أرض تريم وحضرموت ، *ثم قال* : « **وهذه أرض كَدٍّ ، ولا تستقيم أرض الكَدِّ إلا بمساعدة أمور السماء ، ويُسَمَّى وادي العَجَل ، لكونها أرض مسنى وليس فيها أنهار ، وقد ضعفت الآن جداً لقلة مساعدة السماء وعدم القَطْر** » .

ثم أطال الكلام في ذِكْر أناس قد مضوا ، وذكر ما فيهم من الخصال المحمودة شرعاً ومروءة وأفعال الخير ، *ثم قال* : « **إن شاء الله الخلَف في بركة السَّلَف ، وإلا فالوقت اليوم والدنيا أَلَّا مُضَادَّة للحال الأول ، ما هي مخالفة بل مُضَادَّة ، إذا تأملتَ أحوالهم وقِسْتَها بأحوال السابقين** » هـ .

أقول : الفرق بين المخالفة والمضادة ، أن المخالفة أن ينتقل من الخير الذي كانوا عليه إلى خير آخر

خلاف الأول ، والمضادة أن ينتقل من الخير إلى الشر الذي هو بضده . على ما قال في تلك المقالة ، وهي قوله : « **الأمور في هذا الزمان انعكست عن أوضاعها ورجعت إلى أضدادها** » ، فاعرف بهذا غُزْرَ معرفته بأحوال الناس وطبائعهم في أوقاتهم وسِيَرِهم ، محمودها ومذمومها ، وما هم عليه في طبقاتهم .

ويشهد لقوله : « **يُسمى وادي العَجَل** » ، قول بامخرمة في القصيدة المذكورة آنفاً :

هَبَّتْ النُّوْدْ وَنَا حَب الأنْوَادْ هَبَّتْ لَنَا   مِنْ قَدَا وَادِيْ الْعَجَلْ وَقْتْ الابْرَادْ

والنود : اسم للريح الطيبة المعتدلة ، المسماة في لغتهم العلياء ، ويسميها العرب النَّعاما - كذا سمعت سيدنا يقول - .

والأبيات الغلط فيها مني ، لأني ما وقفت عليها مكتوبة ، وإنما هو من سماع من كان ينشد بها في حضرة سيدنا عبدالله نفع الله به ، وهو باضريس من أهل دوعن ، وإنما أنشأها تذكراً منه لتريم ، ولسكانها من أكابر الأكابر من السادة والصالحين .

وتقدم أن الرناد للبئر التي في الحصن ، كما ذكرنا ذلك في قصة السيد عمر بن أحمد ، لما مر على الرجل الذي كان دعا عليه وهو ينزح بها ، فأصابه عنده ذلك ما دعا به عليه ، حتى إنه قال : « آه ، أصابتني دعوة عمر بن أحمد » ، وسمعه يقول ذلك ، وتعدد ذكر سيدنا للقصة مراراً ، وتعدد ذكرنا لها بحسب تعددها في المدارس .

و « **وادي العجل** » : هو وادي حضرموت ، سُمِّيَ بذلك لكثرة مساقيه على العجل ، وهي الدراريح التي تُجَرُّ عليها حبال دِلاء السواني .

وذَكَر من يبخس في المكيال والميزان ، وبالغ في ذمه ، وذَكَر ما تَوَعَّد الله به من فعل ذلك ، *ثم قال* : « **هو من بقية مَدْيَن ، أهل البخس والتطفيف ، فكل من يعمل بعمل قوم فهو منهم** » ، ثم أطال الكلام حتى *قال* : « **لما تفردوا بها وأقبلوا عليها نُسِبُوا إليها - أي تلك المناكر - والكبائر حتى في الجنة محرمة ، كإتيان المحارم والزنا وغير ذلك ، وإن كانت الأخت في بعض الصور حلالاً في وقت آدم** » هـ .

أقُولُ : لضرورة التناسل حينئذ أُحِلَّت أخت كل بطن لذكر البطن الآخر ، لأن حواء كانت تلد في كل بطنٍ ذكراً وأنثى ، فحَرُم أن تُزَوَّج أنثى بتوأمها ، أو ذكر بطن بتوأمته ، بل كل ذكر أو أنثى بتوأمة البطن الآخر وتوأمها ، هذا ما أشار إليه هـ .

قال : « **قاعدة : إذا عزمنا على أمرٍ لا نُظهِرُهُ ، خوفاً من عدم الوقوع ، ولكنَّا نعلقه بالمشيئة ، ولكنهم ينسون المشيئة ويتعلقون بالقول** » هـ .

أقول : هذه قاعدة ذَكَرَها تُبَيِّن أنَّ كل قولٍ يقوله مطلقاً أنه مُقَيَّدٌ بالمشيئة والنصيب ، ولكن ما يعرف ذلك إلا من اتسع في العلم والفهم ، فلجهلهم ينسون ذلك وينقلون القول .

ومن ذلك قوله المتقدم آنفاً قريباً حيث قال : « **والدنيا تأتي لمن تركها زهداً ، وإن لم تأته أتت ولده** »، فهذا الإطلاق مقيداً بالقسمة ، فإن كان مقسوم له منها شيء ؛ أتاه وإن كان زاهداً أو راغباً ، وإنما مراده هذا غالباً أنها تأتي مَن زَهِد فيها إن قُسِم له ، وإن لم يُقسَم له أتت ولده إن قُسِمَ له ، وإلا لم يأته منها شيء، فالعمدة في حصولها إنما هو على القسمة لا غير .

والمراد بالمشيئة هي القسمة ، والناس عنها غافلون ، وبالقول متعلقون ، فيقولون : قال السيد عبدالله : مَن زَهِدَ في الدنيا أتته ، وإن لم تأته أتت ولده . وليس مراده إطلاق القول في هذا ، وإنما مراده تقييده بالمشيئة التي هي قسمته تعالى لمن قسم له وأراد .

فالعالِم الذائق في علمه يعرف أن هذا المعنى جارٍ في كل شيء ، ولا يتخلف عنه شيء .

ووقعت في بعض الأيام مشاجرة بين بعض الناس في الحاوي ، فبلغه ذلك ، **فقال** : « **إن أناساً يقيمون عندنا ولم يكن فيهم أهلية للجلوس ، فمن حَسُنَ خُلُقُه واستقام على الصواب فذاك ، ومن خالفه فهو في حبل المقصورة ، وحسبه الله ، والنبي ﷺ ما وَرَّثَ إلا العلم ، وما كان له من ذلك مطلقاً كان لورثته مُقَيَّداً ، وإذا أخذ الناس من ذلك بسهمٍ أخذنا منه بسهمَيْن ، سهمٌ من جهة العلم ، وسهمٌ من جهة النَّسب** » هـ .

أقول : قد تقدم هذا الكلام أول هذا النقل ، مع ما عليه مما ذكرنا من الإستشهاد عليه من أبيات الأبوصيري في قصيدته الدالية ، التي يمتدح بها شيخه أبا العباس المرسي ، مع شيخه أبي الحسن الشاذلي نفع الله بالجميع ، حيث قال :

يَا وَارِثاً بِالْفَرْضِ عِلْـمَ نَبِيِّهِ ... شَرَفاً وَبِالتَّعْصِيبِ غَيرَ مُفَنَّدِ

اليَـومَ أَحْمَـدُ مِـنْ عَـلِيٍّ وَارِثٌ ... سَـهْمَيْ عَـلِيٍّ مِـنْ وِرَاثَـةِ أَحْمَدِ

وكيفية تخصيص سيدنا عبدالله بمعنى الإرث منه ﷺ ، وكذلك لورثته هـ .

قال رضي الله عنه : « عَجِبْتُ من أهل الزمان ، إذا طلبت منهم الإستقامة على الحدُّ العدل الذي هو الحق المشروع الذي يرضي الله وهو الوسط ، بلا إفراط ولا تفريط ، لم يمكنهم ذلك ، وتعدوا منها - أي الإستقامة - إلى الإفراط والإعوجاج ، وذلك لأنهم تبعوا نفوسهم ، ووَلَّوْها ، وصاروا منقادين لها . والنفس خبيثة كالمرأة السوء ، وقد قال عليه السلام : لن يفلح قوم وَلَّوا أمرهم امرأة » .

قال : « خذ من الدنيا ولا تتركها تأخذ منك ، وإن كان ولا بد فخذ منها وتأخذ منك ، والحذر الحذر أن تأخذ منك ولا تأخذ منها » هـ .

أقول : الذي ظهر لي من معنى الأخذ منها ، كما جاء في حديث : « خذ من صحتك لسقمك ، ومن حياتك لموتك ، ومن غناك لفقرك » ، وهكذا يغتنم من كل حال من أحواله فيها ما ينفعه فيها في آخرته ، مما يمكنه في ذلك الحال ولا يمكنه بعده ، فيجتهد في حياته ويعمل الأعمال الصالحة التي تنفعه عند الله ، ولا يقدر عليها بعد الموت ، ويعمل في صحته ويجتهد في العمل بصالح العمل ، مما لا يقدر عليه إلا في حال الصحة ، ويجتهد في العمل الصالح والمعروف والإحسان إلى المساكين وقضاء حاجة المحتاجين ، مما يقدر عليه في حالة الغِنى ويعجز عنه في حالة الفقر ، كما قدمنا في حديث أنس ، الذي أسنده السيوطي وصححه ، قال : « سمعت رسول الله ﷺ يقول : من قضى للمؤمن في الله حاجة، كتب الله له مثل عمر الدنيا سبعة آلاف سنة قيام ليلها وصيام نهارها » ، ولعمري لا يوفق الله لهذا العمل إلا مَن أراد أن يعطيه هذا الثواب العظيم ، ولا يعطيه إلا مَن أحبه ، ولهذا حرمه أكثر الناس ، إذ ما كل أحد يحبه الله . فحرمه كل من لم يحبه ، ووفق له كل من يحبه ، فاعلم ذلك . وأَخْذُ الدنيا من الإنسان ، أن لا يأخذ من أحواله المذكورة ما ذكر ، ويترك عمره ضائعاً خالياً من أعمال الخير هـ .

قال رضي الله عنه : « عَجِبْتُ كل العجب من رَجُلَين : أحدهما ، من يستعير الكتب ، فإذا غفل عنها صاحبها أخذها . والآخر ، من يزني ويغتسل من الجنابة ، أقدم على هذه الكبيرة ولم يراقب الله فيها ، ثم هو يغتسل من جنابته » هـ .

أقول : يعني أن مستعير الكتب ظاهرُ حالِهِ أنه أراد باستعارة الكتب أن يزداد منها علماً ، فيزداد به تقوى وخوفاً من الله ، ثم إنه ما زاده ذلك إلا جراءة على الله ، وانخلاعاً عن ربقة التقوى والعياذ بالله ، كل ذلك لفساد قلبه وخلوه من التقوى ، لسوء حظه عند الله ، وإرادته له جزاء عمله السوء ، وقد قال النبي ﷺ : « من ازداد علماً ولم يزدد هدىً لم يزدد من الله إلا بعداً » .

والذي أقدم على الفاحشة ثم اغتسل ، وذلك لعدم إيمانه تلك الساعة ، لقوله ﷺ : « لا يزني الزاني

حين يزني وهو مؤمن » ، قالوا : إنه يُنزَع عنه الإيمان حينئذ ، ثم بَعْدُ يرجع عليه . فالعجب أنه ما خاف من الله في ارتكاب هذه الكبيرة ، وخاف من عدم الغسل . فشأن كل من الرجلين عجيب .

وقد أراني رجلٌ كتاباً مجلداً مجموعاً وقال : « إن هذا الكتاب استعاره مني فلان ، ثم إنه طمع به عليَّ ، وجَلَّدَه مع كتب له في هذا المجموع ، وقد استعرته منه لأطالع فيه ، ولُمْتُهُ على ذلك ولا بالى باللوم، فتركته وما تعرض له ، وسأرده عليه بجملته » . يعني كتابه الذي طمع به الرجل مع ما جمع معه هـ .

قال رضي الله عنه : **« مع كِبَر السن وخشونة العيش ؛ قلَّ ما تحصل في البدن قوة ، بل لا يكون مع ذلك إلا الضعف ، ألَّا بين ضعيف وأضعف . أما مع ليونة العيش ، فقد يكون بعض قوة ، أو مع صغر السن** - أي يكون فيه قوة ، وإن كان عيشه خشناً - **اللهم إلا إن كان معه قوة روح ، فيحصل فيه قوة مع كبر سنه وخشونة عيشه . لكن قوة الروح ، أعني الروح الإلهي الأمري ، إنما تكون بأمْرٍ آخر ، فقُوْتُه الذِّكْرُ لا الأكلُ ، فإنه قوت الروح الحيواني ، وهو النفس التي تطلب منافع البدن من اللذات »** .

وهو عبارة عن الشهوة والغضب - يعني النفس - فالشهوة الداعية إلى طلب منافع البدن ، والغضب ما يرد عنه مضاره ، فقلت له : فكثرة الخواطر من أي شيء تكون ؟ ، *قال* : **« من غبار النفس»** ، فقال رجل كان مكث مدة في ريدة المشقاص قال : « كنت هناك مطمئن الفؤاد وقليلاً ما تخطر لي الخواطر ، فلما جئتُ إلى الحاوي تَشَعَّبَتْ عليَّ من كل وجه ، ولا أراها تكثر عليَّ إلا فيه » .

فقال سيدنا له : **« لأنك فيه في طاعة ، وفي معزل عن الشيطان ، ولا له قدرة عليك ، فلما كنتَ أو كان كذلك جعل يوسوس ، حيلة العاجز لما لم يقدر على غير ذلك ، وأما هناك فأنت في قبضته ، كالمقبوض في اليد . وقد حُكِيَ أنَّ رجلاً صالحاً مرَّ بالشيطان قائماً على باب مسجد ، فيه رجل نائم وآخر يصلي ، فقال له : يا لعين ، ما تفعل ها هنا ؟ قال : أردتُ أن أدخل على هذا المصلي ، فأُفسِدَ عليه صلاته، لكن منعني نَفَسُ هذا النائم عن الدخول عليه »** انتهى .

قال ذلك في مجلسٍ جَلَسَهُ في الضيقة خارجاً للصلاة بين الأذان والإقامة ، لصلاة ظهر يوم الأحد ١٢ شهر رمضان سنة ١١٢٥ .

ومرة *قال* : **« إن الطاعات والمعاصي تختلف باختلاف العاملين ، وهم فيها مختلفون ، أحدٌ أوفرُ حظاً منها من أحدٍ ، تختلف المعاصي باختلاف نياتهم ومقاصدهم وكذلك الطاعات ، وقد تحصل منها واحدة وقد تكون مضاعفة ، والعاملون بما ذُكِر مختلفون من حيث الصدق وعدمه . حتى أن بعض الأكابر مر على الشيطان وهو واقف على باب بعض المساجد وداخل المسجد رجل نائم وآخر يصلي ،**

فقال له : يا لعين ، ما أوقفك ها هنا ؟ فقال : أردتُ أن أدخل على هذا المصلي أغويه ، وإنما منعني من الدخول عليه نفس هذا النائم . لأن النائم كان شأنه الصدق فيما بينه وبين ربه ، بخلاف الآخر ، فبهذا السبب لا تقع طاعة هذا ، وما عمل من أعمال البر كذاك ، بل ذرة من عمله أفضل عند الله من أمثال الجبال من أعمال الآخر مثلاً ، لأن الصدق هو الأساس ، وما لا أُسَّ له لا ثبات له » ه .

أقُولُ : يشهد لقوله هذا ، ما ورد في الحديث من قوله ﷺ : « سبق درهمٌ مائةَ ألفِ درهم » ، فالمعنى الذي قَدَّمَ الواحد عند الله على المائة ألف ، هو الذي قَدَّمَ أعمال الخواص على أعمال الأبرار بأكثر من مائة ألف درجة .

وإنما ذَكَرتُ قصة ذلك الرجل الصالح في مروره على الشيطان ، مع قرب ذكرها هنا ، ليعلم الواقف على نقلنا هذا أنّ ما رأى مكرراً مراراً هو لتكرره في المجالس ، مع اختلاف لفظه وتكرر معاني استشهاده بالحكاية الواحدة على معاني متعددة ، كما كرر هذه القصة مرتين : الأولى ، في غلبة الشيطان على العبد فَرَدُّهُ عنه سبب من الأسباب ، كما قال للرجل : « **أنت هناك - أي في بلدك - في قبضته ، كالمقبوض في اليد ، وعندنا محفوظ ولا له عليك يد** » ، ورده نفس النائم عن المصلي . وذكرها هنا مرة أخرى استشهاداً بها على أن كامل الصدق بينه وبين ربه لا يقربه الشيطان ، بل يفر من نَفَسه إذا كان نائماً، كما منعه نَفَس هذا النائم عن الدخول على هذا المصلي . وكان ذلك النائم إبراهيم بن أدهم ، وكفى به في الصدق ودفع الشيطان ، فإن الشيطان لا يقرب ممن هجيراه ذكر الله .

وذكر في « روض الرياحين » في تفضيل عبادة الفقير الزاهد على عبادة الغني الراغب حديثاً ، أن لو قال ذلك الفقير : سبحان الله ، مرةً واحدة ، وقالها ذلك الغني مراراً ، وأخرج معها مائة ألف درهم، ما عادلتها ، قال : « وكذلك ورد : سبق درهمٌ مائة ألفِ درهم » ، لأن صاحب الدرهم ما معه إلا هو، فأخرجه مُؤثِراً على نفسه ، فحصل له مع التصدق مقام الإيثار ، الدال على كمال الصدق ، كما مدح الله أهله بقوله تعالى : ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ ، ودلَّت الآية أيضاً أن الله وقاه شُحَّ نفسه - ولو في هذه فقط - وأنه من المفلحين ، فكل هذه الخصال حصلت له ، فكيف لا يسبق درهمه مائة ألف درهم ، أُخرِجَت من جملة مال أكثر منها . وقد سُئِلَ رسول الله ﷺ : « ما أفضل الصدقة ؟ » ، فقال : « جُهْدُ من مُقِلٍّ ، مشى به إلى فقيرٍ سرًّا » ، ولذلك كان أحد السبعة الذين يظلهم الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله ، فعدَّهم وعَدَّ منهم رجلاً تصدق بصدقة فأخفاها ، حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، بمعنى لا يعلم بها مَن هو على شماله.

وذكر في كيفية إخفائها ، أن يبيع محتاجاً بأقل مما يبيع عليه ، فبقدر ما ترك هو ، هذه الصدقة الخفية، ولا يعلم بذلك المشتري ، بل يظن أنه باعه على بيعه .

وورد في صحيح مسلم : « أول من يستظل بظل عرش الله يوم لا ظل إلا ظله رجل أنظر معسراً أو محا عنه » ، أي أبرأه ، فهذا يستظل بظل العرش قبل أولئك السبعة السعداء المكرمون ، لمكان خصلته هذه الدالة على كمال الصدق بينه وبين ربه ، فبظهور هذه العلامة كان أبلغ ، ولهذا سبقهم مع تحققهم بذلك . فدل أن لها عند الله كبير موقع ، لما فيها من الخصال المتعددة ، فحازت ثواب قضاء حاجة المؤمن، كما مرَّ في حديث أنس ، وثواب إنظار المعسر ، لما ورد : « من أنظر معسراً فله كل يوم بمثله صدقة » ، هذا إذا أنظره إلى أجل ، فإذا تعداه وأنظره بعده ، كان له كل يوم بمثليه صدقة ، كما تقدم ذِكْرُ ذلك ، ثم بعد ذلك إن محى عنه فقد حصل له مع ذلك ثواب الصدقة ، فلجمع هذه الخصلة كل هذه الخصال قَدَّمَتْ صاحبها ، حتى سبق إلى الإستظلال بذلك الظلال الشريف ، أولئك السبعة المُعَدُّ لهم ومُعَدِّين له .

فانظر كيف زادت هذه الخصال السبع في ثواب الأعمال على غيرها ، وتضاعفت أضعافاً مضاعفة بسببها ، لكونها دالة على كمال الصدق كما ذكر ، وكيف تقدمت هذه عليها ، يتبيَّن لك قوله : **« إن العمال مختلفون ، أحَدٌ منهم أوفرُ حظاً من أحد ، تختلف باختلاف نياتهم ومقاصدهم ، وقد تحصل منها واحدة، وقد تكون مضاعفة من حيث الصدق وعدمه » ﻫ .**

قال رضي الله عنه : **« إذا أردتَ محبة القوم والانتفاع بهم ، فَلِنْ لهم ، وتَخَلَّقْ معهم ، ولا تناكرهم، وتأدَّبْ معهم حتى يثبتوك ، ويتأدب معك غيرك ، وينتفعوا بك . وإن بَقِيتَ مثل الحجارة تباعدوا عنك، ونبا عنك كل من قربت منه ، فقد قال معاوية في خلافته : لو أن ما بيني وبين الناس إلا شعرة أقودهم بها لما انقطعت بيني وبينهم ، لأني إن رأيتُهم اشتدوا لِنْتُ لهم ، وإن لانوا اشتددتُ معهم . وإيش تكون الشعرة ؟ وما قدرها حتى يقود الناس بها ؟ وإنما هذا مثال حتى صارت مثلاً يتداول بين الناس ، يُضرب لمن لَانَ وحَسُنَ خُلُقه ، فيقال : فلان ألين من الشعرة . واللين والشدة لكل منهما مَحَالٌّ ومواضع ، فاللين مع الأكابر ووجوه الناس إذا لم ينفع معهم إلا ذلك ، والشدة والعنف مع أداني الناس إذا لم ينفع معهم إلا ذلك . وكُلٌّ من اللين والعنف مع أحد الفريقين ليس هو مع الفريق الآخر »** .

وذَكَر كثرة الشواغل من الناس في زياراتهم ومصافحاتهم ، ومطالبات من بَعُدَ بالأوراق ، *ثم قال* : **« أهل الزمان يطالبون الإنسان بالحظوظ لا بالحقوق ، وفَرْقٌ بين الأمرين ، فإنَّ طالب الحق يطلب الشيء لله ، وطالب الحظ يطلب الشيء لنفسه ، وما عاد مِنَّا لهم إلا المسامحة ، نسامحهم لعل الله أن يسامح الجميع ، كما في قصة الذي كان يعامل الناس ، ويأمر خدامه بالتجاوز عن المعسر والصبر على الموسر ، حتى قال الله تعالى : نحن أحق بالتجاوز منه ، فتجاوز الله عنه »** .

وصافحه بعض الولدان الصغار ، فلما أحَسَّ به ذَكَر هذا المثل ، فقال : « إن هؤلاء غلبت عليهم المصرخية » ، ثم ذكر لهذا حكاية قال : « إن النبي سليمان عليه السلام كان ذات يوم في حَرٍّ شديدٍ ، والطير تظله بأجنحتها ، فأمرها أن يرفع كل واحد منها جناحاً ويخفض جناحاً ، ليحصل الظل من المرتفع ، ويدخل الهواء من المنخفض ، فمكث كذلك فلما رآها هكذا قال : غلبت عليها المصرخية . ومعناه أن المصرخية اسمٌ لطير معروف ، هو أكبرها ومعها أصغر منها ، فغلبت هذه لكِبَرِها على تلك لصِغَرِها » هـ .

أقول : قوله : « فغلبت عليها » ، أي لم يظهر لها كثيرُ أَثَرٍ معها ، والشاهد فيه : كون المصافحين فيهم الكبير وفيهم الصغير ، إلا أن الكبار أغلب وأكثر من الصغار . ورأيتُ في الصحاح من كتب اللغة ، أنها بالضاد المعجمة والحاء المهملة ، جمع مضرحي ، وهو طير الصقر ، والياء فيه ليست ياء النسبة .

ولما أحس بذلك الصغير ، جرى هذا المثل في خاطره فذكره بقوله ذلك .

واستخلف منه رجل يريد الحج ، فأوصاه بالتقوى وملازمة الطاعة ، والدعاء في الأماكن الشريفة ، فقال ذلك الرجل : « اعفوا عنا ولا تَرَوْا علينا في ما قَصَّرنا به من حقكم » ، فقال رضي الله عنه : « لا ، إنما نحن نخاف أن نكون قَصَّرنا في حق الوافدين والزائرين ، فكلنا نسأل من الله المسامحةَ في التقصير » .

وخرج إلى مسجده مسجد الأوابين ، يوم الثلاثاء ٧ ربيع ثاني سنة ١١٢٥ ، فمما تكلم به أو معناه ، أن ذكر رجلاً كبير السن بأنه في عشر السبعين ، قال : « ومن لم يبلغها ففيه قوة ، وإنما الضعف منها وفيما بعدها . ومن العجيب أن النبي ﷺ نحر في حجة الوداع ، وسِنُّهُ نحو ثلاث وستين سنة ، ثلاث وستين بدنة ، ونحر سيدُنا علي بقية المائة ، وإن الرجل من أهل هذا الزمان يعجزه ذبح اثنتين » .

ثم قال : « أما مَن عادته الحركة وإن كَبُر سناً ، فهو أقوى من المتجمل ، وإن كان دونه ، فالرياضة خير له من القوة ، ويحتاج إلى الكَدِّ على نفسه وأهله في المعيشة ، وفي تحصيل الأعمال الصالحة حاجة شديدة » .

ثم امتد به الكلام إلى أن قال : « إن خزائنه تعالى مملوءة من كل شيء ، مملوءة بالرزق والأعمال والرحمة ، وإنما أراد سبحانه من العبد أن يملأ خزائنه هو مما ينفعه وهو الطاعة ، فإنَّ أوقات الإنسان التي تمر به تُعرَض عليه في الآخرة خزائن ، التي مرت في الطاعة مملوءة نوراً ، والتي في المعصية مملوءة ناراً - أو قال : ظلمة - والتي مرت بلا شيء فارغة ، فتتقطع كبده من التحسر على الفارغة أن لو كانت مملوءة نوراً ، فكيف بالتي فيها المعصية ؟ وهذا في حق المؤمن الذي ثبت له أصل الإيمان ، وأما

الكافر فيجازى بما عمل من خير في الدنيا ، لأن الله تعالى عَدْلٌ ، لا يأخذ بلا حجة ، ولهذا بعث الرسل وقال : ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ . وعرض جبريل عليه السلام لفرعون في صورة رجل ، فقال له : ما تقول لي : عبدٌ أنعمتُ عليه وأعطيتُه وفعلتُ به كذا وكذا ، فلما تمت نعمتي عليه ترك أمري وادَّعى أن له مثل ما لي . فقال فرعون: لو أن هذا عبدٌ لي أغرقتُه في بحر القلزم ، فقال له : اكْتُبْ لي هذا في ورقة . ففعل ، فأخذها وانصرف، فلما كان وقت غرقه في البحر - أي بحر القلزم - عرض له جبريل ، وأراه كتابه ، وقال له : هذا حكمك على نفسك . أي فأغرق في بحر القلزم كما حكم على نفسه ، فإنه ذلك العبد المضروب به المثل، ولهذا اشتد حرص الأكابر على ثبوت أصل الإيمان وتقويته ، واشتد خوفهم من زواله » .

وقال : « حكى لنا بعضهم أنه رأى في النوم باباً ، وكأنه باب الجنة ، وهو خارجه ، قال : ففرحتُ، وقلتُ : الحمد لله ، قد صح لي أصل الإيمان . ثم المفاضلة في الأعمال ، وتُعرَف في الآخرة بالميزان ، فمن كثرت حسناته على سيئاته دخل الجنة ، ومن كثرت سيئاته على حسناته دخل النار ، إلى أَجَلٍ معدود، إلا أن يغفر الله ، ومن استوت حسناته وسيئاته جُعِلَ في الأعراف ، إلى أن يأذن الله له بدخول الجنة . فَتَفَكَّر في هذه الأشياء ، لكن إبليس قائم للناس بالمرصاد ، ويوسوس لهم بخواطر لا حاصل لها ، فلو كانت نافعة لنفعته هو ، كيف ضل في نفسه ولم ينتفع ، ولا نفعته وساوسه هذه التي يوسوس بها ، بل ضَرَّتْهُ وهو يريد أن ينفع بها غيره ، وهو أنه يُمَنِّي الإنسان مع المعصية أو عدم العمل الصالح بفضل الله وعفوه ، وهذا هَوَسٌ وباطل . أيظن المغرور أن العفو والفضل يتعدى من جميع الأمة وفيهم أهل الطاعة ، ومن لم يتعمد معصية إلى هذا المغرور ، وهو وغيره في كرم الله تعالى سواء ، لترتب على الجزاء على الأعمال . وأما أمر القضاء والقدر فخفيٌّ جداً وأمرٌ دقيق ، لا شيء أخفى منه ، وينبغي أن تُفطَم عنه العامة بالكلية ، حتى لا يخوضوا فيه أبداً ، فإن الخوض فيه زندقة ، ولئلا يغتروا ، فإن هذه أمور دقيقة جداً ، ولا أخفى منها ، أَدَقُّ من بيت العنكبوت ، لأنها تنزلت قليلاً قليلاً ، وكل ما لها تدق ، حتى انتهت إلى العلماء وهي في غاية الضعف والدقة ، فلا وصلت إلى العامة إلا وهي شيء لا يكاد يُدرَك بسبب ذلك - أي بسبب الضعف والدقة - وفي الخوض فيها خطر عظيم ، لا ينبغي أن يُفْشَى ، ومنه فَرَّت القدرية حتى سقطوا من الجانب الآخر ، وقد قال بعضهم : إن القدرية مُعَظِّمِين للحقِّ » أو كما قال ، انتهى .

ثم ختم هذا المجلس - وهو مجلسه في مسجده المسمى مسجد الأوابين المشار إليه آنفاً - بقراءة الفاتحة ثم دعا بهذا الدعاء ، وفيه مناسبة للمجلس ولم أكتبه إذ ذاك ، بل بعد ذلك لما وصلنا الحاوي:
« اللهم أرِنَا الحقَّ حقًّا وارزقنا اتِّباعه ، وأرِنَا الباطلَ باطلاً وارزقنا اجتنابه ، اللهم إنا نسألك الهدى

والتُّقى والعفاف والغنى والعافية واليقين ، والثبات على الحق ، والوفاة على الإيمان . اللهم إنا نسألك العفو والعافية ، والمعافاة الدائمة ، في الدين والدنيا والآخرة » .

وغالب مجالسه يختمها بهذا الدعاء : « اللهم اقسِم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معصيتك، ومن رحمتك ما تدخلنا به جنتك ، ومن اليقين ما تهوِّنُ به علينا مصائب الدنيا ، اللهم مَتِّعْنا بأسماعنا وأبصارنا وحولنا وقوتنا أبداً ما أبْقَيْتَنَا ، واجعلها الوارث مِنَّا ، وأرِنَا في العدوِّ ثأرَنا ، وانصرنا على من عادانا ، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا ، ولا تسلط علينا بذنوبنا من لا يرحمنا ولا يخشاك ولا يتقيك يا رب العالمين » ، وما كان من غلط فهو مني ، وقد طال به العهد مني .

قوله : « وأمر القضاء والقدر » ، يعني مما يتعلق بالمشيئة ، دون ما يترتب عليه الجزاء ، لا يُذكَر للجُهَّال لئلا يغترُّوا ، فيطمعون فيما لا يعملون ، ويتمنون المغفرة من غير توبة ، وفي الثواب من غير عمل .

وقوله : « خفي جداً » ، أي خفي حتى على أكابرِ من أولي العزم من الرسل ، وسألوا الله عنها فلم يُجِبْهُم كما تقدم .

قوله : « وفي الخوض فيها خطر عظيم » ، يعني مما يوجب الاغترار المذكور ومما يُخِلُّ بالإعتقاد ، من كون الأمور كلها جرى بها من الله القضاءُ والقدر ، مما اشتمل على الطاعات المأمور بها والمعاصي المنهي عنها ، فَفَرَّت القدرية من اعتقاد ذلك خوفاً من اعتقاد تناقض الأمور الإلهية بالأمر والنهي ، فاعتقدوا أنما الأمور أُنُفٌ ما سبق بها قضاء وقدر ، فتكون المأمورات ثابتة على ما هي عليه ، والمنهيات مبتدأةً من الخلق ما سبق بها قدر ، وأخطأوا في ذلك ، إذ اعتقدوا أن يكون في ملك الله غير ما يريد ، وهذا منكر من القول وزوراً . فإن الله تعالى أراد الطاعة من المطيع ليتم بذلك وعده للجنة بملئها ، وجعل الرسل دعاة إلى ذلك ، وأراد المعصية من العاصي ليتم بذلك وعده للنار بملئها فلا يملأها بأهل الطاعة ، وجعل إبليس داعياً لأهل المعصية إليها ، لتمام وعده للنار .

ودليل ذلك قوله تعالى : ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾، يعني من العاصين من الفريقين ، فصار القدرية باعتقادهم ذلك في جناب الله مخطئين عتاة فاسقين ، وسماهم رسول الله ﷺ مجوس هذه الأمة ، فقال: « القدرية مجوس هذه الأمة ، إن مرضوا فلا تعودوهم ، وإن ماتوا فلا تشهدوهم » .

وذُكِروا لعبدالله بن عمر فقيل له : « إنَّ أناساً خرجوا في هذا الوقت يقولون : إن الأمور أُنُف لم يجر بها قدر » ، فقال : « أخبِرْهُم أني بريء منهم ، وأن الله ورسوله بُرآء منهم ، وأني سمعت رسول الله

ﷺ يقول : إن الله قَدَّرَ الأشياء قبل خلق السماوات والأرض بألفي عام ، فما من كائنٍ يكون إلا وقد جرى به من الله قضاء وقدر » هـ .

وحصل في وقت شدة برد ، وذلك في نجم الطرف ، فقال : « إنه إنما يُعتاد عندنا أن البرد بعد دخول الطرف يفتر ، وكان العرب في هذا الوقت يُخرِجون الغنم من الزرايب ، لأنهم حينئذ قد أَمِنُوا شدة البرد ، ولكن لعل ذلك لأمرٍ أراده الله ، فإنه سبحانه يُحدِثُ الحادث للحادث مما لا يعلمه إلا هو سبحانه - أي أحدثه لأمر حدث من الخلق - أو بعض ملائكته . أعني الموكَّلين بتلك الأمور ، لا كلهم، فإنه بَلَغَنا أن الله تعالى خلق ملائكةً مُوَكَّلين بالأشجار والثمار ، وشدة البرد عندنا في ستة نجوم، أولها الثريا وآخرها النثرة » هـ .

أقول : يعني النجوم الشبامية ، وهي معروفة عندهم لغالب الناس ، حتى الفلاحين وكثير من الصغار والعوام والنساء . وأهل الحرث أكثر اعتناء بمعرفتها ليعرفوا بذلك أوقات زروعهم بذراً وحصاداً ، وأوقات نفع سقيها أكثر من غيرها . وأصلها إذا ابتدأ النجم يغيب الفجر هو دخوله ، لكن يختلف في كل مائة واثنين وسبعين سنة ، يتأخر عن ذلك يوماً ، حتى صار الآن إذا دخل نجم ، صار الذي قبله يغيب الفجر هـ .

قال : « أكثر العلم إلا فعل وتروك ، ما المقصود إلا أن يعمل ويترك ، حتى إذا ظهر له شيء يسأل عنه ، فيعلم ويعمل ، فاعلموا لتعملوا ، والعلم إلا بالعمل ، وإلا كان ضياعاً وينسى . وأما الأخلاق فيحصل للإنسان فيها نصيب مع الرياضة ، هي مجاهدة النفس على متابعة الكتاب والسنة ، عبادةً وعادةً ، ودرسة الوقت لبَّسوا على الناس ، فأخفوا عنهم ، مثل سيرة الشيخ سعد بن علي باعبيد المعلم ، وهو مذكور في الجوهر ، كان يرتب ليله ونهاره ، وكان يصوم ولا يفطر إلا بالماء ، مشغولاً بالمذاكرة ، لأن عندهم الاستقامة ما يخاف منها الاستدراج ، بخلاف الكرامة فإنه يخاف منها الاستدراج، وكانوا مُوَزِّعين أوقاتهم » .

وقيل له : « خاطركم ، ادعوا للناس بالرحمة ، فإن الدواب أدركها التعب » ، فقال : « لعل الرحمة تحصل لأجل الدواب ، فإن في بعض الأخبار إنما يُسقَى الناس بسببها ، لعدم تكليفها ، ولو رحموا لم يرجعوا إلى الطاعة ، فقد كانوا إذا قحطوا يشغلهم أمر المعاش عن الذكر والطاعة ، وما مطلوبهم إلا السلامة من ذلك ليتفرغوا لهما ، وأما اليوم فلا . ولكن ادعوا ربكم فإنه كريم رحيم ، إن أعطى ؛ أعطى

برحمة ، وإن منع ؛ منع بحكمة » .

قال : « كلما ثار السحاب رجا الناس الرحمة ، وكلما ثار اضْمَحَلَّ ، فكأنَّ الناس يَهِمُّون بفعل الخير، ثم لم يفعلوا » .

قال لرجل يباسطه : « هل عندك الآن واحدة من كافات الشتاء ؟ فإذا كان عندك ثنتين أو ثلاث ففيه كفاية ، لأن الدنيا كلما عَلَتْ منها كفَّةٌ تَوَطَّت منها كفَّةٌ ، فإن ارتفعت كلها انحطَّتْ كلها » .

ومرة قال : « الدنيا كرِجْلَيْ المِحْوَاك ، كلما ارتفعت منها كفة انحدرت منها كفة » .

أقول : وكافات الشتاء ذَكَرَها الحريري في « المقامات » ، ومرت على سيدنا مراراً كثيرة ، لأنه مرتب لقراءة عصر الثلاثاء كتب الأدب والمقامات على ابنه الحبيب علوي ، و « ربيع الأبرار » للزمخشري ، وكتاب « الفرج بعد الشدة » ، وهذه الكتب تتناوب إذا تم أحدها قرىء في الآخَر ، ومرتب عليَّ ديوان ابن الفارض ، ومن غاب أو بدا له عذر ناب عنه الآخَر .

فكنتُ يوماً أقرأ في المقامات ، وابتدأتُ من حيث وقفتُ ، فَمَرَّ علينا ذِكْرُ الكافات ، وذَكَرَها في بيتين فقال :

جَاءَ الشِّتَاءُ وَعِنْدِيْ مِنْ حَوَائِجِهِ ... سَبْعٌ إِذَا القَطْرُ عَنْ أَوْطَانِنَا حُبِسَا
كِنٌّ وَكِيسٌ وَكَانُونٌ وَكَأْسُ طِلاً ... مَعَ الكَبَابِ وَكُسٌّ نَاعِمٌ وَكِسَا

فتوقَّفتُ من قراءتها خجلاً ، فأتى سيدنا بالبيتين كما هما هـ .

قال لرجل : « نفسك منطوية فيك ، أدنى كلمة تخليك تفور ، ولهذا ثَقُلْتَ على الناس ، فإن الناس ما يلينون إلا على الْوَطَا » .

وذَكَر العلماء ، فقال : « سبحان الله ، قد يجيء العالم يريد أن ينكت على أحد من العلماء ويستدرك ويعترض ، فلا تحس به إلا قد وقع في أمر ، كل ذلك طلباً للكمال ، ولا كمال للإنسان ، لأن الله منعه الكمال خوفاً من الكِبْرِ والإعجاب ، وخصوصاً بالعلم ، لأنه أشرف الأشياء ، فإذا كان يتكبر ويعجب بالذهب والفضة ، وهما مثل الحجارة ، فكيف بالعلم الذي هو أعز الأشياء ؟ » .

قال رضي الله عنه : « الشكر في حال الشدة ؛ الصبر وترك الاعتراض . والشكر في حال الرخاء ؛ البذل وتعظيم النعمة . وأما أهل هذا الزمان فشكرهم مجرد لفظ : الحمد لله . وتوبتهم قول : أستغفر الله . في اللسان فقط ، مع خلو القلب من التحقق بذلك » .

قال : « الفقيه من فهم أسرار الدين ، والذي عِلْمُه ألّا أيها أفضل من كذا ، فما هذا إلا موسوس » .

قال : « ما تظهر بركات الصالح على من صَحِبَه إلا بعد موته » .

قال : « لا يُفتح على أحد في العلم حتى يطلبه ، ويعتقد أنه خَلِيٌّ منه ، لأن المظاهر الدنياوية قد تنقص من المظاهر الأخراوية » هـ .

أقول : كلامه هذا يجري في مواطن كثيرة ، ومواد متعددة ، فمنها ما ورد : « من أوتي حظًّا من الدنيا نقص بقدره من حظه عند الله » ، ولو كان ذا منزلة عالية عند الله ، ولهذا زهد فيها خيار الخلق من الأنبياء والأولياء ، حتى كان رسول الله ﷺ تراوده الجبال أن تنقلب له ذهباً ، وهو يأبى ذلك ويبيت مع أهله الليالي المتتابعة طاوين . ونحو هذه المادة ، ومادة كلامه أن من اعتقد في قلبه حصول أمر خير، وهو خَلِيٌّ منه حُرِمَ ذلك ، ويشمل معناه معان ومواد كثيرة غير ذلك هـ .

قال رضي الله عنه : « علوم الغيب تتفرع إلى أمور كثيرة ، وعلم الغيب المطلق هو لله خاصة » هـ .

أقول : قوله : « **أمور كثيرة** » ، أي منها ما أطلع عليها أحداً من الملائكة المقربين دون ما أطلع عليه آخرين منهم ، وكذلك في الأنبياء والمرسلين والأولياء أجمعين ، ودون ما استأثر بعلمه رب العالمين، ومطلق العلوم المستأثَرة والموهَبَة هو خاصٌّ به سبحانه ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ﴾ ، الآية ، وقد يُطلع ما أراد على من أراد ، على أي وجه أراد ، من حيٍّ وجماد خاص أو عام ، أوحى إلى الأرض تحدث أخبارها ، وأوحى إلى أم موسى أن ألقيه في اليم ، وألهم عبدالمطلب أن يُسَمِّيَ النبي ﷺ بما سماه الله به قبل خلق كل مخلوق وهو اسمه محمد ﷺ هـ .

قال : « من شأن أهل الحق ترك الجدال ، وإن جادلوا فبكلمة واحدة ، لقوله تعالى : ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ » .

قال : « أكثر ما يُدخِل الناسَ الجنة التقوى وحُسنُ الخُلُق ، وأكثر ما يدخلهم النار الأجوفان : البطن والفرج ، وقد ورد : أشقى الناس من أدخله أجوفاه النار » .

قال رضي الله عنه : « إن الله يُذَكِّر عباده في الدنيا بذكر الوعد والوعيد ، فإذا كان يوم القيامة جمع الخير كله في الجنة لأهلها ، وجمع الشر كله في النار لأهلها » .

وصافحه مَكَّاسُ بلدة شبام ، وقد يُجعل مكاساً في تريم ، فقال له : « لا تكن عذاباً على أهل بلدك،

ثم تكون أيضاً عذاباً على أهل تريم ، إذا أُمِرْتَ بذلك فاعتذِر ، فإنك إن كنت في خيرٍ فيكفيك ما أنت فيه ، وإن كنت في شرٍّ فلا تجمع شرًّا إلى شر » .

وأوصاه كثيراً بالمساكين وكافة المسلمين ، قال : « ما غَيَّرَ الناسَ إلا الناس ، حتى الدولة ما سبب غيارهم إلا هم ، وإلا فأحسن أن تسامح الغني لأجل الفقير ، ولا تطبخ الفقير بمرقة الغني ، والظلم يمحق » ، وتلا هذه الآية : ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾.

ثم قال : « وهؤلاء كذبوا ، وإذا فعل مَن آمنَ مثل فعل من لم يؤمن حصل في ما حصل فيه ، والتكذيب يكون في القلب وفي الأقوال والأفعال ، وهؤلاء كذبوا بأقوالهم وأفعالهم ، والله أعلم بما في قلوبهم ، وإذا ذبح الرعاة الغنم للذئب ، فما بالك . وقد كان الرعاة يحفظون الغنم عن الذئب ، وهؤلاء ذبحوا الغنم للذئب ، ولكن الله يُمهِل ولا يُهْمِل ، وقد قال الله تعالى في بعض ما أنزل : أنا الظالم إن لم أنتقم من الظالم . وجاء أيضاً أنه تعالى قال : لو كان الظلم حجراً ملقىً في الجنة ، لخربت الجنة بسببه . مع أن الجنة لا تخرب ، وجاء أيضاً : إذا صلح الولاة والعلماء ، تمنى أناس من الأموات أن يكونوا في الأحياء ، وإذا فسد الولاة والعلماء ، تمنى رجال من الأحياء أن يكونوا في الأموات . والآن هنا أحد في الأحياء يتمنى أن يكون في الأموات » هـ .

أقول : أظن أنه يشير بهذا الأخير إلى نفسه ، لتبرمه من أحوال الناس اليوم ، من ضعف إيمانهم وقلة تقواهم ، وتناهي فساد الولاة والعلماء ، على ما تقدم من قوله : « ما أفسد على الناس دينهم إلا العلماء ، ولكن بعد فساد دينهم ، وما أفسد على الناس دنياهم إلا الأمراء - وهم الولاة - ولكن بعد فساد دنياهم ، لأن قوام الأمر بالرؤوس - أهل الدين لأهل الدين ، وأهل الدنيا لأهل الدنيا - فإذا فسد الرؤوس فسد المرؤوس » ، فإذا ثبت بهذا الكلام فساد الدين والدنيا ، وفساد العلماء والأمراء ، فماذا بقي في الدنيا من الخير ؟ فليس ببعيدٍ إذاً أن يتمنى هو أن يكون في الأموات .

قوله : « وإذا فعل من آمن مثل فعل من لم يؤمن ، حصل في ما حصل فيه » يعني أن العقوبة على الذنب أمرٌ معلوم ، يقع على من فعله من مؤمن أو كافر ، لكن الكفر يؤكد ويقوي العقوبات الواقعة بعامل المعاصي ، والإيمان يخففها حال الجزاء ، وربما بسببه يُعفَى عنها ، لأن الله سبحانه لا يتعاظمه غفران معصية ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾.

وهذا هو الذي أشار إليه بقوله : « وأمر القضاء والقدر خفي جداً » ، أي لا يعلم سبب الغفران إلا الله المتولي لذلك ، ولا خطاب للخلق فيه بطلبٍ لهم أو طلبٍ منهم ، وإنما خطابهم أمراً لهم وطلباً منهم للجزاء عليه فيما يتعلق فيه . وأما المذكور فمحض اختيار ومشيئة من الله ، كما قال : ﴿يَغْفِرُ لِمَن

يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ﴾.

ويشهد لقوله : « وإذا فعل من آمن .. إلخ » ، أن سيدنا عمر قال في قوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ﴾، الآية : « أن هذا ليس خاصاً بالكفار ، بل المسلم إذا فعل كفعل الكافر ، يقال له مثل ما قيل له » .

و « **الرعاة** » : هم الولاة ، و « **الغنم** » : هم الرعايا ، و « **ذبحوهم** » : أي ظلموهم ، والذئاب هم العساكر الفجرة الظلمة ، الذين يضرون ولا ينفعون ، فإذا أخذ أموال المسلمين وأعطاهم إياها فهو ذبح الغنم للذئب ، وذلك عكس ما كان يفعل الرعاة الأولون من حفظهم أموال المسلمين ونفوسهم عن المفسدين المجترين .

قوله : « **والتكذيب يكون في القلب .. إلخ** » ، يعني وعنوانه يظهر على الجوارح وفيه يكون الإيمان قوياً أو ضعيفاً ، وفيه يكون الكفر والنفاق ، فإن قَوِيَ الإيمان في القلب ظهر على الجوارح الأعمال الصالحة الخالصة ، وإن ضعف ظهر عليها ما ذكر من الأفعال والأقوال الغير الصادقة ، وإن كان فيه الكفر ظهر عليها المحادَّة لله ورسوله ، والمعاندة لدين الله ، وإن كان فيه النفاق أظهر من هذا في وقت مع أهله ، ومن هذا في وقت آخَرَ مع أهله ، كما حكى الله عنهم بقوله : ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾، فجازاهم الله سبحانه حيث قال: ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾، وهو على الوجه الذي قال وبالمعنى الذي أراد . وإنما يظهر لنا من معناه أنه يجازيهم جزاءً يستحقونه عليه . وقس على هذا كلما أخبر الله عن نفسه في المجازاة ، كقوله سبحانه: ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ﴾ ، ﴿ وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ ﴾، ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ ، وغير ذلك مما يختص بالمخلوق كقوله سبحانه : ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾، أي ألهمناه أن يفعل ذلك مع أخوته ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ ﴾، ﴿ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴾، يدل على أن المراد بمكر الله مجازاتهم على مكرهم بما يستحقون في الدنيا والآخرة .

وحيث يَذْكُر المؤمن والإيمان في القرآن والحديث ، فالمراد به المؤمن الكامل الإيمان ، والإيمان الكامل الذي يرد عليه الخطاب من الله ورسوله ، يرد به الخطاب من الله ورسوله ، كقوله تعالى : ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾الآيات ، وليس كل المؤمنين كذلك إلا الكاملون، وكذلك قوله تعالى : ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ﴾إلى آخر الآيات ، وكل آيات القرآن كذلك ، يراد به ذو الإيمان الكامل . وكذلك في الحديث ، كقوله ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » ، وليس كل مؤمن كذلك ، فلا نحكم لمن لم يحب لأخيه ما يحب لنفسه أنه ليس بمؤمن ، بل

نحكم بالإيمان لكل من أتى بمباني الإسلام ، ولو لم يحب لأخيه ما يحب لنفسه . وأن المراد بالمؤمن إذا ذُكِرَ في الكتاب والسنة كامل الإيمان دون ناقصه ، فافهم .

فإنك إذا تأملت نفسك بما وصف به المؤمن ما رأيتَها عليه ، فهل تُخرِج نفسك عن دائرة الإسلام لذلك ؟ فهل تحب لأخيك ما تحب لنفسك ؟ لا والله هـ .

قال رضي الله عنه : **« إذا فزع الانسان من شيء أو لَقَّى به أحدٌ شيئاً ، وهاب من وقوع الأشياء ، فيتوضأ ويصلي ركعتين ، لأن الله تعالى قال : ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ » .**

قال : **« كان بعض المشايخ إذا أراد شيئاً ، أو دفعه أمرٌ ، طلب من المريدين الدعاء له بذلك ، وذلك لأن المشايخ الظاهرين بالمشيخة يغلب عليهم الرضا بالقضاء ، فلا ينزعجون لشيء ، وإنما ينزعج المريدون ويتضرعون إلى الله ، ولأن الدعاء بلسان الغير مستجاب ، لما جاء أن الله سبحانه أوحى إلى موسى عليه السلام : ادْعُني بلسانٍ لم تَعْصِني به . ومعناه اطْلُب من غيرك أن يدعو لك » هـ .**

أقول : يعني لأنك ما عصيتَ ربك بلسان غيرك الذي طلبتَ منه أن يدعوَ لك . وذكر الشيخ عبدالله بن أبي جمرة في شرحه على أحاديث البخاري ، فإنه جمع من صحيح البخاري ثلاثمائة حديث وشرحها ، فقال في شرحه ذلك : « إن الإنسان له حالتان ، حالة الدعاء له أفضل من تركه ، وحالة تركه أفضل ، فما زال في حالة الفرق ملتفتاً لحوائجه وأغراضه وراغباً فيها ، وناظراً إلى الأسباب الجالبة لها ، وملتفتاً إلى الموانع الدافعة لها ، فالدعاء له أفضل ، وهي حالة المريدين المذكورين .

وفي حالة الجمع للكُمَّل ، حيث يغلب عليهم شهود رؤية الفاعل الحق ، ﴿يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ ولا التفات لهم إلى الأسباب والموانع ، ولا يرى إلا الله ، ويغلب عليهم الرضا والتسليم ، فالأفضل له في هذه الحالة ترك الدعاء ، والتسليم لتقدير العزيز العليم أفضل ، وهي حالة المشايخ المذكورين»، وقد أشار سيدنا إلى هَذَيْن المقامَيْن في القصيدة التي امتدح بها شيخه الشيخ عبدالله بن أبي بكر العيدروس رضي الله عنه ، وهو قوله وهي :

هَيَّا يَا عَيْدَروسُ هَيَّا بِغَوْثٍ ... غَـارَة مِنْكُـمُ تَحُـلُّ عِقَـالِي

وَتُزِيـحُ الكُرُوبَ عَنِّيْ وَتُدْنِي ... مَـا أُرَجِّي مِنْ صَالِحِ الأعْمَالِ

وَرَسِـيسٌ عَـلَى الفُـؤَادِ مُقِيْـمٌ ... مِـنْ قَدِيـمٍ يَلُـوحُ لِي في المَثَالِ

عَلَّ يَبْدُو في الحِسِّ في خَيرِ حَالٍ ... وَكَفَـاني عِلْـمُ الإلَـهِ بِحَـالي

غَـيرَ أَنّـا إلى الدُّعَـاءِ نُدِبْنَـا وَأُمِرْنَـا بِـهِ وَبِالإبْتِهَـالِ

انتهى . يعني حسبي علم الإله بحالي في تلك الحالة الكاملة ، حالة الجمع ، حالة الرضا والتسليم بكل ما يفعله العزيز العليم ، ونُدِبْنا إلى الدعاء وأُمِرْنا به في الحالة الثانية ، حالة الفرق ، والنظر إلى تأثير الأسباب في الجلب ، وتأثير الموانع في الدفع والمنع .

وانظر إلى العجب العجيب من الحالتين في قصة زكريا في سؤاله من الله الولد كما حكى الله عنه: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝﴾، إلى أن قال : ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا﴾، فهذا في حالة الجمع ، ومع هذه الموانع من اشتعال الرأس بالشيب ووهن العظم منه ، والعقر من امرأته ، ما ترك السؤال ولا التفت إليها ، وغاب عنها بشهود رؤية من يخلق ما يشاء بلا توقف على حصول سبب أو دفع مانع .

ثم لما بُشِّرَ بالولد وانتقل إلى حالة الفرق ، اِلْتَفَتَ إلى شهود تأثير الأسباب والموانع ، كل منهما ما يقتضيه ، فقال : ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ۝﴾، فذكرها في الحالتين وما التفت إلى تأثير منعها عند السؤال ، لاستغراقه إذ ذاك ، وذكرها ثانياً في الحالة الثانية والتفت إلى تأثيرها في المنع ، وتعجب مستبعداً من تخلف تأثيرها وحصول الولد معها ، فذَكَّره الله حاله في الحالة الأولى بأنه على الله هَيِّن ، والذي خلقك وخلق كل مخلوق ما منعه عن خلقه مانع، ولا أعانه عليه سبب . فإن الموانع والأسباب إنما تأثيرها بمقتضاها في أفعال الخلق ، وأما في أفعال الخالق فلا تتوقف عليها ، بل إنما هي بحسب مشيئته وقدرته لا غير . وهو الذي عناه بقوله المتقدم : « **وأما أمر القضاء والقدر فخفي جداً ، وأمر دقيق لا شيء أخفى منه** » ، أي لا تدركه عقول الخلق، لأن حد معقولها ما تؤثره الأسباب من الحصول ، والموانع من عدم الحصول . ولهذا استبعده عقل النبي زكريا في الحالة الثانية ، حالة الفرق ، واستبعدته مريم لما وهب لها الغلام الذي هو عيسى عليه السلام حيث : ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ۝﴾، فتبين بالقصتين وقصة خلق آدم أنَّ ما الأسباب والموانع إلا في أفعال الخلق فقط ، دون أفعال الحق هـ .

ومرَّ في القراءة في مجلس الدرس ذكر آداب الطعام ، ***فقال*** : « **إذا أكل القوم بقصد الكفاية بلا شَرَهٍ مع اعتقاد الإيثار ، ولا يَكرَهُ أحدهم أن يأكل صاحبه أكثر منه ، نزلت عليهم البركة ، وإلا نزعت البركة من طعامهم . وقد ذُكِرَ أن جماعة من الأخيار جلسوا للأكل ليلاً ، وكلُّ واحدٍ منهم معتقدٌ للإيثار - أي عازماً عليه - من غير ما يعلم بذلك أصحابه ، فأطفأوا السراج وجلسوا قدر مدة الأكل، وكلٌّ منهم**

يُوهِمُ أنه يأكل ، ثم قاموا وإذا بالطعام على حاله ما نقص منه شيء . وكذلك قصة الرأس في سبعة من الصحابة أو من التابعين وهي أنه أهدي لواحد منهم رأس ، فدفعه لواحد من أصحابه ، ودفعه الآخِذ لواحد وكانوا كلهم محتاجين ، فدفعه لآخَر حتى رجع إلى الأول . فهكذا كانت سِيَرهم، فقُل لهؤلاء الذين يجلس أحدهم يأكل ويقطع اللحم ويسمع الطَّلَّاب ما يعطيه شيئاً ، وهو يتبلَّع بالطعام . والإيثار شيءٌ والمواساة شيءٌ آخر ، فالإيثار أن تُمسك وأنت محتاج وتعطيه محتاجاً آخر ، والمواساة أن تعطيه شيئاً منه . وقد قلنا لهم في أيام الأزمنة الشديدة : أنقِصُوا من طعامكم المعتاد قليلاً ، بحيث لا يُنقِص كل واحد من عادته إلا نحو ثلاث أو أربع لُقَم ، وتواسون بذلك محتاجاً » .

قال : « إذا أردتَ تفعل الخير هَوِّنْهُ على نفسِك حتى يَسْهُلَ عليك ، وأكْثِرْ منه ما استطعتَ » .

ومرة قال : « باللُّقَم تُستَدْفع النِّقَم » ، وقال : « إذا أخذت شهوة فَقَدِّمْ قدَّامَها - أي قبلها - أو بعدها ذِكْرَ الله ، حتى ترفعه الملائكة ، شوبوا مجالسكم بذكر الله » هـ .

أقُولُ : يشهد لذلك ما ورد من حديث : « أذيبوا طعامكم بذِكْرِ الله ، ولا تناموا عليه فتقسوا قلوبكم » .

وذَكَر الصدقة ، فقال : « إن الآخذ قد يكون من الأنبياء والأولياء والأبدال ، وأهل هذه المراتب متجردين لا يأخذون من الدنيا إلا كفايتهم ويردون الزائد ، وإن احتاجوا عند الفاقة سألوا بقدر الحاجة ، وجعلهم الله يبتلي بهم أهل الجِدَة والسَّعة ، وكذلك قد يبتلي بملائكة ، خصوصاً عند المَساغِب والأزمنة الشديدة ، فإذا رأيتَ فقيراً يسأل فبادِرْ إلى إعطائه ، فلعله ساقه الله إليك اختباراً لك » هـ .

أقُولُ : قوله : « قد يكون من الأنبياء » ، يعني في وقتهم قبل تختم النبوة بمحمد خاتم النبيين ﷺ .

وفي ما ذَكَرَ من الإختبار قصصٌ كثيرة تشهد لقوله ذلك ، كما في حديث قصة الثلاثة : الأبرص والأجذم والأعمى . والقصة التي حكاها الفضيل عن بعض الفقراء : أنه أعطته زوجته غَزْلاً يبيعه، ويشتري بثمنه لهم عشاء ، فباعه بدرهمين ، فلما أراد أن يشتري ، رأى رجلاً ملبِّباً رجلاً يسطوه ، فقال: « لم تفعل به ذلك ؟ » ، قال : « عنده لي درهمين وأبى أن يعطنيهما » ، فقال له : « أعطه درهميه»، قال : « ما عندي شيء ، وأريده يصبر عليَّ بها فأبى » ، فأعطاه الدرهمين وقال : « فك بهما نفسك » ، فأعطاهما صاحبه وفك بهما نفسه ، فمضى وأخبر زوجته بالقصة ، فأعطته غزلاً آخر أضعف من الأول ، فكَسَدَ عليه ، فمضى إلى الساحل عند صيادي السمك ، فرأى واحداً منهم باع سمكه كله إلا واحدة متغيرة كسدت عليه ، فقال له : « هذه كسدت علي ، وهذا كسد عليك ، بعني هذا الكاسد بهذه الكاسدة » ، فباعه ومضى بالسمكة إلى زوجته ، فَلَامَتْهُ وقالت : « لِمَ اشتريتها على ما بها ؟ » ، قال : «

شُقِّيها وأَخْرِجِي ما في بطنها وارمي به ، واغسليها وبزريها » . فشقت بطنها ، فرأت فيه لؤلؤة كبيضة العصفور، فأضاء من نورها المكان ، فقالت له : « هل تعرف قيمة اللؤلؤ ؟ » ، قال : « لا ، ولكن أعرف من يعرفه »، فمضى بها إلى صديق له يعرفه ، فقال له : « أنا أعطيك فيها أربعين ألف درهم ولكن امْضِ بها إلى فلان، فهو أثمن لك مني » ، فمضى بها إليه ، فقال : « أنا أعطيك فيها مائة وعشرين ألف درهم، ولا أرى أن أحداً يزيدك على هذا » . وكل منهما نصحه ، وباعها منه بما ذكر ، ومضى بها في اثني عشر بدرة، في كل بدرة عشرة آلاف درهم ، فلما وصل بها بيته جاءه سائل فسأله ، فقاسمه إياها ، فأعطاه منها ست بدر فيها ستون ألفاً ، فأخذها ومشى بها قليلاً ، ثم رجع بها وقال له : « ما أنا بسائل ، إنما أنا مَلَكٌ أرسلني الله إليك في صورة رجل سائل ليختبرك فهذا جزء من عشرين جزء من ثواب الدرهمين، قدم الله لك منها في الدنيا جزءاً واحداً ، وادَّخَر لك عنده تسعة عشر جزءاً ، تُسَرُّ بها يوم القيامة » .

ففي هذا شاهدٌ على أن الله إذا رضي عمل عبد قدَّم له منه أو بسببه ما ينفعه في الدنيا ، وادَّخر له أوْفَرَهُ عنده لِيُسِرَّه به يوم القيامة ، وفيه دليل على أنه ما حصل لعبد من حظٍّ في الدنيا ، نقص بقدره من حظه في الآخرة ، ولو كان ذا منزلة عالية عند الله . وقد ورد بهذا اللفظ والمعنى في الحديث ، وفيه أيضاً شاهد لقول سيدنا : « **قد يبتلي الله بملائكة** » ، فلأجل كون ما زاد من حظ في الدنيا تنقص بقدره في الآخرة ، فلذلك زهد فيها وفي حظوظها الأنبياء والمرسلون والأولياء والصالحون .

وذَكَر الشاهد العدل الذي تقبل شهادته ، *فقال* : « **لا بد في العدل من المعرفة لما شهد به كما هو ، فلو حضر مجلس بيع مثلاً ، ولكن ما عرف البائع أو المشتري أو المبيع ونحو ذلك ، لا تصح شهادته وإن صدق في حضور العقد ، وفيما رآه ، كشهادة الهلال ، حتى يكون مع العدالة عارفاً بالمطالع والمنازل . وأكثر شهود الزمان ما هم بعارفين بما شهدوا به ولا فيهم عدالة ، الواحد منهم تمر عليه ثلاث صلوات فأكثر في مجلس واحد ، إما حايك أو ضعيف – أي فلاح – أو غير ذلك ، وإذا لم يقع الإحتياط في صيام أمة ، فبم ذا يكون ؟ في بيع دارٍ أو ميسمةٍ أو في حساب قرش ؟ وإذا ما عرفوا فينقلون كلام عارفين وعلماء ، ولو كتبوه كتابة ، ما ترى كان هنا ناس أهل علم ومعرفة ، فإذا لم يتأدبوا مع الله ورسوله والأكابر فمع من يتأدبون ؟** » ، *ثم قال* : « **احفظوا هذا : أن كل من تهاون بأصول الدين وبالتوحيد ، من الإيمان بالله ورسله واليوم الآخِر ، وفعل الواجبات من صلاته وزكاته ، ويرتكب المحرمات فلا يُؤْمَن** » هـ .

أقول : أي لا يُؤمَن على الشهادة ، أي لذلك لا تقبل شهادته شرعاً .

وقد وقع بتريم في دخول شهر رمضان وخروجه سنة ١١١٧ اختلاف شنيع وأمر فظيع ، رأى

القمر عند دخوله وقت الصبح من شرق جماعةٌ كثيرة ، رؤية محقَّقَة قيل إنهم يبلغون نحو ثلاثين رجلاً ، ثم شهد عند القاضي وقت المغرب برؤيته إثنان من الحاكة العوام ، ممن لا ثبات ولا تَثَبُّت عندهم ، بل تهافت طغام كالأنعام ، وحكم بشهادتهما ، فأصبح الناس صائمين . فلما كان عند خروجه وقعت بسبب ذلك الداهية الدهياء ، التي لا تدخل في العقل ، ولا يصدق بها إلا من شهدها ، وهي أنهم رأوه الصبح من شرق كالرؤية الأولى في دخوله ، رآه جماعةٌ عددهم كعددهم منهم ومن غيرهم ، ثم وقت المغرب شهد برؤيته الشاهدان المذكوران عند القاضي ، وحكم بها ، وأصبح الناس مفطرين ومعيِّدين ، واختلال فطرهم من اختلال صيامهم .

أما سيدنا عبدالله فصام وأمر أهل بيته وفقراءه ومن اتبعه بالصيام ، فلما كان وقت المغرب ليلة ثاني من إفطار الناس ، وقف لرؤيته ستة رجال ، وكلهم طلبة علم أثبات وتبصر في الدين ، ومنهم سادة ومنهم عرب ، ووقفت معهم أنظر ، ومن جملتهم السيد علوي بن شيخ الجفري ، وكان في تلك الأيام قدومه من الهند ، فشهد كل أولئك الستة برؤيته ، وقالوا كلهم : هو هذا قطعاً لا نشك فيه ، وكلٌّ منهم يقول : « لو أردتُ لحلفتُ عليه » ، ومنهم من قال : « لو أردتُ أن أحلف بالطلاق حلفتُ أنه هو هذا» . وأما أنا فما رأيت شيئاً ، وكان نظري إذ ذاك أقوى من نظرهم .

فلما كانت الليلة القابلة ، وهي ليلة ثالث من إفطار الناس وقفت أنظر أيضاً ، وإذا أنا لا أرى شيئاً ، فدعوت أولئك النفر الستة الذين قالوا إنهم قطعوا برؤيته في الليلة قبلها ، وقلت : انظروا ما زعمتم برؤيته البارحة . فنظروا وأمعنوا النظر ، وتأملوا طاقتهم ، ولا شيء هناك من كدورة ولا سحاب ، فما منهم من رآه ، فتعجبوا وتعجب مَن عَلِمَ بأمرهم ، فتحقق بذلك إنما كان ما رأوا خيالاً لا أصل له ، تَحَكَّمَ في صدورهم ، فكأنَّ الخيال يتصور بصورة العيان . فهؤلاء مع ثباتهم وتبصرهم ، فكيف وما ظنك بأولئك الحاكة الجهلة الذين لا يؤبه لهم ، ولم تقبل شهادتهم ، وإنما أخطأ القاضي بقبولها ، وإذا تبين الخطأ لا يجوز اتباعه ، فلما كانت الليلة الرابعة من إفطارهم ، وإذا به واضح كهلال الوفاء .

وما استحسن سيدنا أن يخالف الناس بأكثر من صيام يوم ، وإلا فخطأهم في أيام واضح ، وما تركَنَا أن نصوم ست شوال إلا من خامس يوم من إفطارهم ، وأمَرَنا بقضاء يومين من أول الشهر قبل الست ، ولا خرج لصلاة العيد ، ولا جلس مجلسه المعتاد يوم العيد للعواد ، وإنما كان اختلافهم في دخوله هو سبب اختلافهم في خروجه ، فصاموا من آخر شعبان أياماً أفطروا بقدرها من آخر رمضان.

وسياق في هذا الكلام هذه القصة يدل على ذلك ، أي على أنهم صاموا من شعبان أياماً وأفطروا بقدرها من رمضان ، نعوذ بالله من الخذلان ، ومن عمى القلوب في الدين .

فاعجب لهذه القصة الغريبة ، التي من سمعها استمحلها ، وما ذكرتها على استبعادها على العقول

إلا ليتعجب من الحوادث الواقعة في هذه الأوقات ، وفيها شاهد لقوله فيما ذكر من لزوم الإحتياط في الشهود بالشروط التي ذكر ، وتصديقاً لقوله المتقدم : « **الأمور في هذا الزمان انعكست عن أوضاعها ورجعت إلى أضدادها ، فينبغي أن يسمى الزمان مخيب الظنون** » .

فانظر إلى شدة تخييب الظنون عما تعهده في هذه الواقعة ، وسبب هذا الإختلاف في آخر الشهر ما حصل من الإختلاف في أوله ، فإنهم لما رأوه الصبح رؤية محققة لا شك فيها ، ثم جاء هذان فشهدا به خيالاً ، قَطَعَا به عياناً ، لغلبة الوهم والخيال عليهما ، ويحقق ذلك عليهما ما وقع من الستة الأثبات المذكورين ، حيث قطعوا برؤيته ثاني ليلة من فطر الناس ، ثم ثالث ليلة لما أمعنوا النظر ، فتحققوا أن لا شيء ، وأن ما رأوا كان خيالاً تخيل لهم ، فيقاس على ذلك ولا يعقل عنه ، فلو كان لهم معرفة بمنازل القمر لتبين لهم ، فصَحَّ بذلك قول سيدنا وحُكمه ، فإن الشيطان قد يخيل للإنسان خيالات تتعبه في نفسه ، وتضره في دينه ، وربما تعدى الضرر إلى الناس في أديانهم كهذه الشهادة ونحوها ، مما يضر الإنسان في دينه ، يعتقدها يقيناً لا شك فيها ، كما يخيل إليه أنه قد خرج ما ينجسه يقيناً بلا شك ، فإذا نظر موضع خروجه ما رأى شيئاً . وغالب هذه الخيالات والأوهام تحصل حالة الكِبَر ، حيث تضعف حواسه وإدراكاته ، وتقل نباهته للأمور .

وذَكَر سيدنا يوماً رؤية الهلال واختلافهم في رؤيته ، ***فقال*** : « **لما اختلفوا في أول الشهر ، اختلف عليهم آخره ، والأشياء لها أوائل ومقدمات تحتاج أن تُضبَط ، فإذا لم تنضبط الأوائل لم تنضبط لك الأواخر ، وهكذا في أمور الدين والدنيا ، وهؤلاء لا يعرفون ، وإذا عُرِّفوا لا يَسمعون** » هـ .

أقول : وضَبْطُها أنهم إذا تحققوا رؤيته صباحاً لا يمكن رؤيته من ليلته ، لأن الشهر لا بد أن يَكْنِس إن كان ثلاثين ليلتين ، وإن كان تسعاً وعشرين ليلة . ومعنى كنوسه أنه لا يكون في شيء من المنازل، فإنه قد قطع المنازل الثمان والعشرين ، ويبقى إلى أن يرجع إليها بعد ليلة أو ليلتين ، فيتفاوت ما بين رؤيته في الصبح ورؤيته في المغرب هذا القدر ، ليلة أو ليلتين لا يُرى ، فلذلك كان ذلك الإختلاف لعدم الضبط .

وكانت بلاد الأحساء لا يُعرَف فيها الإختلاف في الأهِلَّة ، لا دخولاً ولا خروجاً ، إلا في هذه الأوقات ، لانعكاس الأمور فيها عن أوضاعها ورجوعها إلى أضدادها ، كما أشار إلى ذلك ، حتى إن أناساً من أهل الهفوف أفطروا قبل أهل المبرَّز بيوم ، وذلك في سنة ١١٦١ ، وفي السنة التي بعدها سنة ١١٦٢ رآه أهل المبرَّز بالجمعة ، ورآه أهل الهفوف بالسبت ، وأفطر الجميع بالأحد ، المتقدم منهم في الرؤية صاموه ثلاثين ، والمتأخر صامه تسعاً وعشرين . وما بين البلدين من المسافة إلا نحو قدر ما

يسمع صوت ضربة البندق .

وكثيراً ما يقع بينهما بعد ذلك من الاختلاف في الرؤية في هذه الأزمنة ، كما أشار إليه ، وهذا يحقق ما ذكرناه من قصة أهل حضرموت ، من كون هذا الإختلاف الفظيع لا عاد يُستنكر في هذه الأوقات التي انقلبت فيها الأمور عن أوضاعها ورجعت إلى أضدادها . فاعجب بصدور هذه الحكمة العجيبة التي أجراها الله على لسانه ، تعريفاً لمثلي أهل هذا الزمان بالحال الواقع مخالفاً للأزمنة السابقة ، والوقائع الواقعة في هذا الزمان تُصَدِّق قوله هذا ، بل كل أقواله ، وتُبيِّن أقواله أيضاً أن الحوادث الواقعة في آخر الزمان أنها تعم الجهات كلها ، لا تختص بجهة دون غيرها ، ويُصَدِّق ما قال في أحوال الزمان وأهله : « **الأمور تنعكس .. إلخ** » ، وغير ذلك كقوله : « **هذا زمان شُبَهٍ ينبغي الإحتياط فيها** » .

قال : « **وقد قالوا : لا ينبغي للعالِم أن ينظر مع اشتباه الأمور بين الخير والشر ، فإنَّ هذا واضحٌ كلٌّ يعرفه ، ولكن لينظر بين خير الخيرين وشر الشرين ، فيأخذ بالخير من الخيرين إذا استبانَتْ ، ويترك الشر من الشرين إذا اشتَبَهَتْ ، كمن أراد أن يضربك بعصا أو سكين ، فإن كان ولا بد فالعصا** » .

أي هي أهون من السكين ، وما زال الإختلاف بعد تلك الواقعة بحضرموت يكثر في خروج رمضان ، وسيدنا يبالغ في الإنكار عليهم ، ويطنب فيه في كلامه في مجالسه ، وفي مكاتباته وأجوبته لأوراق المرموقين من الناس في العواد وغيره في إنكار إثبات الحكم بشهادة هؤلاء وأمثالهم ، حتى يتثبتوا في الحكم ويشهد به ذو البصيرة والمعرفة .

وذَكَر أقواماً مخالطين للدولة ، *فقال* : « **تكدرت أحوالهم ، لأن الصفا يتكدر بمخالطة أهل الكدر، والناس معهم منذ عشر سنين ، وهم يذوبون كما يذوب الملح في الماء والشجر في النار . وقاعدةُ أهل هذا البيت الخراب . وإلا فقاعدة : من له حيلةُ ضَبْطٍ في مكان ، حتى إذا رؤي منه ذلك انضبط له المكان الآخر . ولكن هذا آخر ملكهم ، لأنه مُلكٌ شيبةٌ ، ووقع خرابه بأيدي أهله ، وهو كالضرب في الشجرة، وما عاد مع الجزَع ثوابٌ ، بل عقاب آخر** » .

وكلم رجلاً من أهل دوعن يستفهمه عن إرادة السفر ، *فقال* سيدنا له : « **الزائر لأحد فهو في كنفه. وقاعدة : من هو في كنف أحد ، لا ينبغي للمزور أن يقول له : رح . ولكن الزائر إذا خطر في خاطره شيء يخبره ، وإذا أَمَرْتَ أحداً بما في نفسك وهو خلاف ما عنده ، أتريده يوافقك ويترك ما يريده ؟ أترى صاحب السفينة إذا أراد السفر ، فقال له بعض الراكبين : أريد أن تتخلف إلى غدوة ، يطيعه ؟ وقد قلت**

لكم غير مرة : إنا لا نشير على أحد بخلاف رأيه ، ولكن نرد الرأي إليه ، فإن وافق فذاك ، وإن عمل بما يريد لا بأس ، وَنَسْلم نحن من اللوم ، ورمضان أَلَّا مقبل ، والسكون فيه خير من الحركة . وقد ذكر الله السكون في عدة مواضع من القرآن ، ولم يذكر معه الحركة ، من ذلك قوله تعالى : ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ﴾ الآية ، كل ذلك للأمر بالسكون وترك الحركة » .

ثم قال هذا البيت لابن الفارض :

فِي هَوَاكُـمْ رَمَضَـانٌ عُمْـرُهُ　　　يَنْقَضِي مَا بَيْنَ إِحْيَاءٍ وَطَيْ

ثم قال : « فلان - يعنيني - قد مر القصيدة مرات كثيرة ، ولو سألته عن البيت الذي قبله ما عرفه » .

يشير إليَّ بذلك ، لكثرة ما قد مررتها عليه في قراءة الديوان ، وقد كان موظفاً عليَّ قراءة ديوان ابن الفارض في قراء عشية يوم الثلاثاء ، فمررته عليه كله مراراً كثيرة ، ما عدى التائية الكبرى فمرة واحدة، وبعدها قال : « تعدها ، لا تقرأها » ، فكنت كلما وصلتها تعديتها .

وموظَّف في قراءة هذا الوقت على ابنه الحبيب علوي قراءة كتاب « ربيع الأبرار » للزمخشري ، ومراراً كتاب « الفرج بعد الشدة » ، وعلى السيد عمر حامد القراءة في « مقامات الحريري » ، وقد ينوب أحد من المذكورين عن أحد في قراءة ما يقرأه ، فهذه الكتب التي هو كان مرتباً قراءتها يوم الثلاثاء ، لأنها كتب أدب ، وقد قال : « رتبنا قراءة كتب الأدب يوم الثلاثاء للفُرجَة ، لأنه يوم تعطيل، ولنقف على أمور الأدب ، فربما تدعو الحاجة إليه » .

أقول : وأما الكتب المجدة فهي سائر الأيام من كتب الحديث والتصوف والتفسير وغيرها ، وفي رمضان في هذا الوقت كتب الرقائق والأوراد ومناقب الصالحين ، فرَتَّبَ على ابنه السيد علوي كتاب « مجمع الأحباب » ، وعلى السيد عمر كتاباً في الحديث لبعض أهل اليمن ، وعليَّ كتاب «روض الرياحين في حكايات الصالحين » ، أو كتاب « الإرشاد والتطريز في فضل ذِكْر الله وتلاوة كتابه العزيز» كلاهما للشيخ عبدالله بن أسعد اليافعي رحمه الله .

فلما قال سيدنا ما تقدم ذِكْره ، قلت : الله يحفظكم ، ولو سألتوا أحداً في آية من القرآن عما قبلها ما علمها ، إلا أن يتأمل كثيراً ويتفكر ، فقال : « دريت - أي تحقق الأمر - وقد نزل الناس اليوم نزولاً كثيراً ، نزلوا إلى الأرض ، ولو ماشي أرض ظاهرة ، لكن مَن تَخَلَّقَ بِخُلُقٍ مذموم أو عَمِل عملاً مذموماً فقد نزل ، ولم نر في الزمان إلا رجلاً له نفس غير مطمئنة أو قلب مضطرب أو روح منزعج » هـ .

أقول : فاعرف معنى كل واحد من الثلاثة ، من الأمر الذي أضافه إليه ، والمراد دواعيها . فاعرف أن النفس المطمئنة التي تجردت دواعيها لمصالح الآخرة عن طلب منافع الدنيا ، ولم توجد اليوم . والقلب هو الذي يَفقَه عن الله فيُطْلِعُه الله على دقائق العلوم العرفانية ، ولم يوجد أيضاً . والروح هو الداعي إلى طلب معالي الأمور ، وهو غير موجود .

وكل هذه دواعي في الآدمي ، فانقلبت كلها اليوم عن معالي إدراكاتها إلى أسافلها التي رآها هي اليوم عليه ، وما رآها على ما طلب منها ، فلهذا قال عنها اليوم ما قال .

ثم قال : « **ومن استقام منهم – أي من أصحاب الثلاثة – كان في درجة أصحاب اليمين ، فهو شأن من صلح من أهل هذا الزمان ، وأما السابقون فقد تقدم زمانهم ، ولو خرج اليوم منهم واحد لأنكروه ولم يعرفوا حتى كلامه . وأصحاب اليمين ما هم كالسابقين ، ولو كانوا سواء لَمَا فاوت في ثوابهم في سورة الواقعة** » هـ .

أقول : السابقون هم أهل مقام الرضا ، الذين بَيَّنَهم رسول الله ﷺ في حديث : « اعْبُد الله على الرضا » . وأصحاب اليمين هم أهل مقام الصبر ، الذين بَيَّنَهم بعد ذلك فقال : « فإن لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خيرٌ كثير » ، فبَيَّنَ أن الذين على هذين المقامين السابقين ، وهم الأعلون في الأعمال في الدنيا وفي الجزاء في الآخرة ، وأن جملة بني آدم على ثلاث مقامات : المؤمنون على هذين المقامين ، وما خرج عنهما هم أهل المقام الثالث ، وهم أصحاب الشمال ، كما عَدَّهم في سورة الواقعة ، وهو قوله تعالى : ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ۝٧﴾ إلخ ، وقد فاوت بين أعمال الفريقين وفرق ما بينهما في الدنيا ، وما بينهم وبين ربهم من المعاملة ، وفي أحوالهم عند الموت حين خروجهم من الدنيا ، وفي جزاء أعمالهم وثوابهم وما تفضل به عليهم في الآخرة .

ولهذا قال : « **وأصحاب اليمين ما هم كالسابقين** » ، أي فرق بعيد بينهم ، فقال تعالى في أعمال السابقين : ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝١٨ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ۝١٩﴾ ، يعني كلما دخل في أيديهم ففيه حق للسائل والمحروم ، وهو الذي لا يسأل ، وقال في أعمال أصحاب اليمين أهل مقام الصبر : ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝٢٤﴾ ، يعني ليس للمذكورين حق في أموالهم إلا في مال معلوم ، وهو قدر النصاب يخرج منه قدر معلوم واجبُ الزكاة، فهذا الذي فيه حق من أموالهم للمذكورين .

فانظر تفاوت ما بين العملين تعرف به تفاوت جزاهم وتفاوت حال الفريقين . وقال مثل ذلك

في آيات كثيرة ، وقال تعالى : ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ۝٢٧﴾ إلى آخر ما ذكر من جزاهُم ، ثم قال : ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١﴾، إلى آخر ما قال في شأنهم ، فإذا فكرت فيما ذكر سبحانه مما وعد الفريقين ، ومما وصف من أعمالهم ، رأيت عمل السابقين وما ذكر من جزاهم أبلغ بكثير ، حتى في الماء الذي يشربون منه ، فقال تعالى : ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ﴾، وهم أصحاب اليمين أهل مقام الصبر ، ﴿يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝﴾ ، أي ممزوجة من ماء عين الكافور ، وبين تلك العين فقال : ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾، وهم السابقون الذين وصفهم بعبوديته ، وأضافهم إلى نفسه ، أي يشربُ بها عباد الله أولئك ، خالصة بلا مَزْج . وذكر لهذه العين أربعة أسماء : الكافور ، فقال تعالى : ﴿كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾، أي تلك الكأس ، وهو اسم للذي فيه ما يُملأ ، والتسنيم : ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ﴾، والزنجبيل : ﴿كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا﴾ ، والسلسبيل: ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾.

فالأبرار يشربون من كأس ممزوجة من ماء تلك العين الجليلة ، والمقربون يشربون الكأس منها خالصاً لا ممزوجاً بغيره ، فتلك العين لهم خاصة خالصة ، ولغيرهم من المخصوصين مزاجٌ منها .

وأما عند خروج الفريقين من الدنيا ، فقال تعالى في سورة الواقعة مفاوتاً بينهما : ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝٨٨ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ۝٨٩ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ۝٩٠ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ۝٩١﴾، أي نعم من حالهم وشأنهم . ثم ذكر الزوج الثالث الخارج عن الدين ، فقال سبحانه : ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ۝٩٢﴾ ، إلى آخر ما ذكر من حالهم ، ثم قال تعالى : ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾، أي تحقق هذا يقيناً لا تشك فيه هـ .

وذَكَر رجلاً من أهل الدار خرج إلى الخلاء ، ومكث أياماً ، ***قال*** : « **نحن من عادتنا أن من كان في كنفنا فخرج من عندنا لا نكلف عليه ، ولكن لا بد ما يخلف الله علينا خلفاً خيراً منه ، أقله الصبر عنه**» .

وذَكَر رجلاً وأنه كان مجذوباً منظوراً ، ***قال*** : « **لكن فيه تَمَسُّك** » ، ثم ذَكَر عيال الرجل ، وأنهم يَقْصُرون عنه ، ***ثم قال*** : « **ليس بول الإنسان كنفسه لأن الولد من البول ولا يكون كأبيه ، فلا يساوي البول من بال** » .

ثم قال : « **هذا الزمان الصالح فيه من لم يحصل منه أذى ، فمن كان كذلك فهو من صالحي الوقت، وأما حصول النفع فَقَلَّ أن يكون** » .

قال لرجل به ألم : « **ما يتم الأمر إلا بالصبر والشكر ، فإنَّ أمور الدنيا ما لها تمام أبداً ، طال الأمر أو قصر ، لأن الدنيا مبنية على النقصان** » .

وقال لرجل : « أتعرف الحديث الوارد في يا أرحم الراحمين ؟ » ، فلم يعرفه . وقال لآخر : « هل تعرف حديث : يا ذا الجلال والإكرام ؟ » ، فلم يعرفه . فقال : « راح بالناس الاهتمام بالمعيشة ، حتى اشتغلت بذلك بواطنهم وظواهرهم وهم في ذلك كما قيل :

أَتَانِي هَوَاهَا قَبْلَ أَنْ أَعْرِفَ الهَوَى ... وَصَادَفَ قَلْباً فَارِغاً فَتَمَكَّنَا

تربوا على ذلك من صغرهم حتى كبروا ، كبروا ورأوا أقرانهم على مثل ذلك . والدنيا لئيمة ، إذا وقعت في القلب ارتحلت عنها الآخرة ، لأنها كريمة ، فلا تكاد تخطر له الآخرة على بال ، إلا إن كان نادراً حق الإيمان » .

قال : « صاحب القلب يأخذ العطاء بشرطين : أن يراه من الله ، وأن يستعين به على طاعة الله في قضاء الحاجة » .

قال : « ارْفَعْها إلى الله ثم أنزِلْها إلى من جعلها الله على يديه ، مع تعلق قلبك بالله » هـ .

أقول : يعني اعْتَقِد أن قضاء الحاجة بيد الله ، إن شاء قضاها على يد من أراد ممن احتسبته وسألته ، وإن أراد قضاها على يد من لم تحتسبه ولم تسأله ، وهو الذي جعلها على يديه ، فتراك ربما تسأل من أحد حاجة ولم يقضها ، ودل ذلك أن الله لم يجعلها على يديه حظه هو ، ولم تُكتَب لك أنت على يده ، فلهذا أوجب تعلق القلب بالله . ثم إن الناس على قسمين : منهم من قَوِيَ يقينُه وصبر على قسمة الله ، ولم يسأل ، ولم يجزع إن تعسَّر عليه الرزق ، وهذا من المتوكلين . ومنهم من اعتمد بقلبه على الله وسأل ، أو تسبب راجياً أن قد جعل الله قضاء حاجته على يَدِ مَن سأله ، أو في سببه الذي فعله ، ولا يعتمد بقلبه على من سأله ولا على سببه . وما خرج عن هذين الحالين فهو حال الهلع والجزع .

وقد اختلف كلام سيدنا عبدالله وكلام السيد أحمد الهندوان في معنى الفقر الذي استعاذ منه رسول الله ﷺ ، فقال سيدنا : « هو المقرون بالتضجر والتبرم والتسخط لقضاء الله » ، وقال السيد أحمد : « هو خوف الفقر » ، يعني أن النبي ﷺ استعاذ من خوف الفقر ، وهذا يكون مع الغنى هـ .

وقال لي سيدي عبدالله يوماً : « قال لنا حسين بافضل : إن بدت لكم حاجة أو غرض ، الحذر ما تخبروني به ، فقلنا له : إن بدت حاجة تطلب من الخلق فأنت أحق بها ، وإن قضى الله الحوائج فما بقي كلام » ، ثم قال لي : « اعْلَم هذا واعمل عليه » .

فهذا يبين معنى قوله : « صاحب القلب .. إلخ » ، يعني إن يَسَّر الله الأمور التي تحتاج إليها من غير تعرُّضٍ مِنَّا لأحد ، كان ذلك كافياً عن التعرض ، وإن بقي علينا من ذلك عَوَز ذكرنا لك على رجاء أن

قد جعلها الله على يديك ، لا أنك مُستَبِدٌّ بقضائها .

فقال لي : « **اعلم هذا .. إلخ** » ، وقد رأيت إشارته بذلك عياناً ، وبينته في هذا النقل في غير هذا الموضع ، وذلك أني حين دخلت الحساء ، قال لي رجل : « بالله عليك ، وبروح حبيبك عبدالله ، إن بدت لك حاجة أو غرض ، أو أردت سلف ، أنك تعلمني ولا تستقضي حاجتك إلا مني » . وما زال يراعي ويقول : « هل أنت محتاج لشيء ؟ » ، فإن لم يكن حاجة فأقول : لا . فيقول لي : « بالله عليك » .

ومع هذا ما فهمت أن الإشارة إليه إلا بعد ثلاثين سنة ، فحين عرفتها مضيت إليه ، وقلت له : إن بدت حاجة تُطلب من الخلق فأنت أولى بها ، وإن قضى الله الحوائج فما بقي كلام .

فإن هذا كلامه الذي قال : « **اعْلَم هذا ، واعمل عليه** » ، يعني اعْلَم أنه سيقول لك رجل مثل ما قال لنا حسين بافضل ، إن بدت لكم ، فقل له مثل ما قلنا لحسين : « **إن بدت حاجة .. إلخ** » ، فلما فهمت الإشارة مضيت إليه إلى بيته ، فقلت له ذلك ثم ما أبطأ بعد ذلك وتوفي رحمه الله .

فاعجب جداً من إشارات سيدنا عبدالله نفعنا الله به . وتقدم في قضاء الحاجة من قوله كلام كثير، وأردفته بكلام مني ونقولٍ عن الصالحين هـ .

قال رضي الله عنه : « **وما مثال من اهتم بطاعةٍ من أهل الزمان إلا كالذي كان نائماً فانتبه من نومه فَزِعاً** » .

قال : « **لا تمنع السفيه مما يريد ، فإن ذلك عناء بلا شيء ، وينقلب عداوة فيما بعد . وأمْرُ الصغار والحريم لا يحتمل البحث ، إذا قال : صليت . لا تُحك عليه ، فإذا حَكّيت الحجارة لا يخرج منها إلا التراب** » .

ثم قال : « **خذ هذه الكلمة واحفظها : أهل الزمان ما لهم نظام ، لا في دين ولا في دنيا ، تراك تراهم في صلاتهم لا يحسنونها ، ولا يحسنون زكاتهم ولا حجهم ، فهذه أمور دينهم ، فما بالك بأمور دنياهم. وفي بعض الأخبار : يأتي زمان يحج أُمَراؤُهُم للنزهة ، وأغنياؤهم للتجارة ، وفقراؤهم للسؤال. وكذلك أمور أهل الحرمين** » هـ .

أقول : يعني كما تقدم من قوله : « **كلما قرُب الناس من الساعة زاد الشح في القلوب** » ، وكثر الطمع وذهبت المروءة ، بحيث لا يبالي الرجل بذهاب دينه ومروءته في طلب المال ، فيحجون عند تقارب الزمان كما ذكر في الحديث ، حيث ذهبت الديانة والمروءة ، وكما أن هذه التي ذكر أمور مذمومة، فكذلك تكون في أهل الحرمين أمور مذمومة من تكلفاتهم ، حتى إنه يشيب الرجل من أهل مكة ما

حج حجة الإسلام ، خوفاً من تلك العوائد ، ولا يجسر على تركها إذا حج .

قال : « ولكن خذ من كل شيء أحسنه ، فاذكر من أحوال أهل الحرمين البيت والحجرة النبوية ، ودع ما سواهما وعلى ذلك » .

وفي مجلس آخر قال : **« اذْكُر ذلك واترك ما هنالك مما يُستنكر . وقد كنا أردنا المعاودة إلى الحرمين ولا نريد المجاروة ، ولا خطرت لنا على بال ، لما شاهدنا من أحوال وأمور أهل الحرمين ، قد كنا راجين العود إليها أيام النشاط والقوة ، وأما اليوم فلا » .**

وتكلم في ذلك كثيراً حتى قال : **« قلنا لهم : لو جلسنا عندكم تحاكمنا معكم إلى السلطان ، مما نرى من أحوالكم » .**

وذكر مسائله التي أراد أن يسأل عنها في الحرمين ، وكانت مذكورة في ورقة عنده ، وكان خابيها في كيس من جوخ أحمر لا يريها أحداً ، ولا أطْلَعَ عليها أحداً ، فأعطاني ذلك الكيس ، وقال : **« إحْفَظْهُ عن الأرضة »** ، وغلب على ظني أنه ما وضع هذه الورقة عندي إلا مراده أن أفتحها وأنظر ما فيها، ففتحتُ الورقة ، فإذا فيها : **« الحمد لله وحده . مسألة : هل نقل أحد من الحفاظ للحديث وحملة الأخبار ، كيف كانت صلاة رسول الله ﷺ في الأيام التي لم يخرج فيها إلى الناس ، في آخر مرضه الذي توفي فيه عليه الصلاة والسلام ؟ ، مسألة : لمَّا قُبِض رسول الله ﷺ في بيت عائشة رضي الله عنها ودُفِنَ فيه ، هل بَقِيَتْ ساكنة في البيت على مثل حالها في حياته أم انتقلت منه إلى غيره ؟ ، مسألة : الحديث الذي في صحيح البخاري ، من رواية عمرو بن العاص ، أن رسول الله ﷺ قال: ليس آل بني فلان لي بأولياء، الحديث ؛ هل بَيَّنَ أحد من الشُرَّاح آل بني فلان من هم ؟ وهل روى هذا الحديث أحد من الصحابة غير عمرو بن العاص ؟ وهل إسناد الحديث في غاية القوة والثبوت أم هو دون ذلك ؟ » هـ .**

وهذه من جملة سؤالاته التي أراد أن يسأل عنها في العلم الظاهر في الحرمين .

وأما ما أراد أن يسأل عنها في العلم الباطن فكثيرة جداً ، وهو قوله : **« لما حججنا كان قَصْدنا بعد أداء فريضة الله في الحج أن نجتمع بِرَجُلَيْن : أحدهما متبحر في العلم الظاهر ، فنسأله عن سؤالاتٍ اختلجت في القلب - أقول : وهذا المذكور من جملتها - والرجل الآخر متبحر في العلم الباطن ، فنسأله عن أمور عَرَضَت لنا . فكل من توسمنا فيه وأردنا أن نسأله - كعبدالخالق - قال : أنا مُلْتَمِسٌ منكم، وأطلبُ منكم تعطوني الطريق . فنعطيه على حسب نيته »** ، ومرة قال : **« حججنا ومرادنا أن نلتقي ببحرين »** ، ومرة قال : **« هما مقامان ، ليسا بِرَجُلَيْن » .**

أقول : يعني مقامين ، كل واحد منهما مقام للآخر ، والله أعلم .

وسَمِعْتُ ، لا أدري سمعتُه منه أو عن أحد عنه ، كابن أخيه السيد عمر بن علي الحداد قال :

سمعت سيدنا الحبيب يقول : « **اشتبهت عليَّ في الطريق ثلاث مسائل ، فسألتُ عنها كثيراً من الصالحين الذين أدركناهم بجهات حضرموت وبلدانها ، من حَذْرَى المسفلة كعينات وقَسَم والواسطة والعِجز واللِّسك ، وعَلَوَى كسيؤون وتريس ومَدُودة وشبام والغرفة وغيرها ، وما أحد منهم أجابني عنها جواباً شافياً ، فرأيت من متقدمي آل باقشير الحكم باقشير - أظنه من أهل القرن السابع - فسألته عنها فأجابني في ثنتين جواباً شافياً ، وقال : أما الثالثة فلا يجيبك عنها إلا السقاف .**

فخطر ببالي أن مراده بالسقاف من هو المسَلِّك اليوم من آل السقاف ، فسألتُ : من هو اليوم المسلك منهم ؟ فقيل لي : السيد محمد بن علوي بمكة . فكتبتُ إليه أسأله عن المسألة وأطلب منه الإلباس ، فكتب في جوابه معتذراً يقول : لا يمكننا نلبسك إلا بأمر من النبي ﷺ ولا يمكننا أيضاً جواب مسألتك ، فلما أرسل جوابه ووصل حامله إلى جدة ، تحرك خاطره بنية زيارة النبي ﷺ فزاره » ، فحكى لنا من حضره ، وهو السيد أحمد بن هاشم الحبشي ، وكنا اجتمعنا به في شعب السيد أحمد حبشي ، في زيارة جده السيد أحمد المذكور قال : « زُرْتُ مع السيد محمد بن علوي رسول الله ﷺ ، فلما كان في المواجهة قبالة رسول الله ﷺ ، حصل عليه حال عظيم ، وخلع ثيابه كلها ورمى بها ، وما بقي عليه إلا سروال ، وجعل العرق يصب من بدنه ، حتى سال على الأرض ، وبقي على هذا ساعة ، ثم سُرِّيَ عنه وصحى فقال لي : هات دواة وقرطاساً نكتب للسيد عبدالله جواباً غير الأول ، فكتبتُ وهو يُملي عليَّ : وَبَعْدُ ، فقد جاء كتابكم تطلبون الإلباس واعتذرنا ، بأنَّا لا يمكننا ذلك إلا بأمْرٍ من رسول الله ﷺ ، وإنه أَمَرَنا بذلك ، وهذه خرقة الإلباس صدرت إليكم . وكان قبعاً ، وهي خرقة السادة » ، وفي كلام السيد عمر الذي قال سمعته من الحبيب : « تطلبون الإلباس وجواب المسألة ، وهاهما صدرا إليكم » ، قال السيد أحمد : « فغبطتُ السيد عبدالله بالإلباس ، وقلتُ : يُلبِسه وهو بتريم ، ولا يُلبِسنا ونحن عنده » .

وسمعت سيدنا عبدالله يقول : « **رأيتُ كأنِّي قابضٌ بتلابيب السيد أحمد بن هاشم - أو قال : قابضٌ بِحَلْقِهِ أقوده - وأقول له : امْشِ بنا نتحاكم وإياك إلى رسول الله - أو قال : أحاكمك إلى رسول الله ﷺ -** » ، قال : « **ولا أعلم سبب ذلك** » ، ولعل سببه هذه الغَيْرة منه .

فَوَصَلَتْ خرقتُه إلى سيدنا يوم انتقاله بمكة ، فكان ذلك إشارة إلى أنه خليفته . وقد أشار سيدنا في بعض القصائد إلى ذلك ، فقال :

رَعَى اللهُ جِيْرَانَ الأَبَاطِحِ وَالصَّفَا   فَقَدْ جَاوَرُونِي بِالجَمِيْلِ وَمَا جَارُوا

إلى أن قال :

بَقِيَّةُ قَوْمٍ قَدْ مَضَوْا وَخَلَفْتُهُمْ   وَهُمْ خَلَّفُونِي فِي الحِمى عِنْدَمَا سَارُوا

وأمر سيدنا منشداً أن ينشد ، فأنشد ثم قال : « كلُّ ما في النظم من المدح فَنَزِّلْهُ على الروح أو الكعبة - ومرة قال : أو الجنة - وكلُّ ما فيه من الذم ، فَنَزِّلْهُ على النَّفْسِ والدنيا ، والحذر من تنزيله على ما تنزله العامة عليه ، من كونهم ينزلونه على الحق سبحانه أو على النبي ﷺ ، فهذا لا يجوز . فإذا صَرَّحَ المخلوق بالمخلوق فهو بالمخلوق أَقْمَن وأحق ، ويكون في معشوقٍ حلال ، وإن احتمل ذا وذاك فيمكن حمله على شيء من الحضرات الإلهية » .

وذَكَر أن لابن عربي نظماً ، ثم قال : « لكنه يرتفع في نظمه ، وآخرون - وإن كان معهم حقيقة - يتنزلون في نظمهم للناس ، لقوله عليه السلام : كَلِّمُوا كلَّ إنسانٍ بما يعلم ، أتريدون أن يُكَذَّب الله ورسوله . وهذه الأشياء - أي علوم الحقائق - يستحيون بها ، لكونها لا تتعلق بعملٍ ولا حكم ، ومن حق النظم أن يكون في وعظ أو تذكير أو حث على خير ، أو تحذير من شر ، أو تزهيدٍ في الدنيا وترغيبٍ في الآخرة » .

وقال لبعض المنشدين : « ما فيه ذِكْرُ النساء وأوصافهن ، انشد به في محاضر الأعراس ، وما كان فيه غزل ونحوه في مجالس الضيافات ، وما فيه ترغيب في خير أو مدح للنبي ﷺ وما جرى مجرى هذا ففي مجالس الأخيار » .

قال : « إن باخرمة قصد إلى السودي واجتمع به ، وكان إذ ذاك قد حصل في حضرموت قحط شديد ، فأنشأ السودي فيه هذه القصيدة مكاشفاً له : غُرَيِّب مُطِّرَت بلادك . والشيخ - أي باخرمة - قد يفعل قصائد على أَلْسِنَةِ العامة ، يطلبون ذلك منه » .

وذُكِرَ عنده يوماً - أي السودي - وباخرمة ، وقيل : كان وقتهما صالحاً ، كثير الخير والأخيار ، فقال: « كان في وقتهم سحاب يمطر ، أما الآن فكما قال الجنيد لما قيل له : ألا تفعل السماع ؟ فقال : لمن؟ قيل: لنفسك . فقال : مع من ؟ وهذا لأن الأشياء إنما هي في أوقاتها ومع أهلها » .

قال : « الغزل حجار الساس يُبْنَى عليه النظم ، ولا يحسن النظم إلا بالغزل ، وقد جرت به عادة العرب ، ولا بد فيه من ذِكْرِ أوصاف النساء ، ولما كان العشق إنما يعرف في النساء حتى جرت العادة

بالتغزل فيهن ، جرت عادة الصالحين أيضاً في قصائدهم بالتغزل بهن ، وإن كان مقصدهم غير مقصد غيرهم » .

قال : « الرجاء أوسع من الخوف ، لأن النفس مغرورة ، ومن لا معه معرفة بقدر خوفه يُخشى عليه الإنقطاع » .

ثم قال : « إنْ وَضَعَ على عبده عدلَه ؛ ما نفعه عملُه ، وإن عَامَلَهُ بفضله ؛ يُرجى له السلامة بأدنى شيء . والخوف أهم من الرجاء ، لأن فقده مضر ويسوق إلى المعاصي . والنَّفْسُ كالمرأة السوء ، كن شديداً عليها في الظاهر مع التحنن عليها في الباطن ، وهي قط لا تدعو إلا إلى الشر . ومِن لازِم الرجاء الخوفُ ووُسْعُ المعرفة ، وأما هؤلاء فيرجون بلا خوف - أي رجاءهم تمني - ولا معرفة ، وقد قيل : الخوف كله للراجين ، والرجاء كله للخائفين . وطبيعة النفس طبيعة أجنبية ، ما هي من طبائع الدين، بل هي طبيعة جاءته من جهة الطين ، وأحوج الإنسان إلى قدر الضرورة من الدنيا ، ولو اكتفوا مثل الملائكة لاستراحوا ، وأولئك - أي الصالحون - قد كانوا ضعفوها بكثرة الأعمال الصالحة وأعمال الدين ، وأنت اليوم كلما لك تجدد على نفسك ما يشغلك ويؤذيك - أي بطلب زائد على الضرورة - وما زاد على الضرورة فهو عندك بمنزلة الأمانة ، وعاد متعلق به شواغل وأمور أخرى ، ولكن لم يتم لك شيء ، فإن الإنسان خُلِقَ محتاجاً ، وخُلِقَ مُبتلىً ، ومثل ذلك قد أسسها لهم آدم ، إذ أخرجه الشيطان من الجنة ، ولكن عليك بتذكر ما يُسَلِّيك ، فإذا لم يُعزِّك أحدٌ فعزِّ نفسك » هـ .

أقول : قوله : « كلما لك تجدد على نفسك ما يشغلك ويؤذيك » ، أي بطلب زيادة على الضرورة، بل تريد التوسعة وكثرة المال ، ويأبى الله أن يكون لك إلا ما أراده لك ، ولو كان لك ذلك الذي أَرَدْتَ، لكان أَشْغَلَكَ وآذاك ، إن كان حراماً فبالعذاب ، وإن كان حلالاً فبطول الحساب ، والقصور عن منازل الصالحين ، وأي شُغلٍ وأذىً أكثر من ذلك ، فإن من نوقِشَ الحساب عُذِّب .

قوله : « وأولئك قد كانوا ضعفوها » ، يعني الصالحين .

وقد كان عمر بن عبدالعزيز رحمه الله كثيراً ما يتمثل بهذين البيتين ، مشيراً إلى المعنى المذكور :

حَلَالُهَا حَسْرَةٌ يُفْضِي إلى نَدَم وَفِي المحَارِمِ مِنْهَا السُّمُّ مَذْرُورُ

ويحسن أن نذكر هنا ما ذكر سيدنا قال : « هذان البيتان لأبي الدرداء الصحابي رضي الله عنه ، ولم يُرْوَ له من النظم سواهما ، وهما قوله :

يُرِيدُ المرْءُ أَنْ يُعْطَى مُنَاهُ وَيَأْبَى اللهُ إِلَّا مَا أَرَادا

يَقُـولُ المـَرْءُ : فَائِـدَتِي وَمَـالِي   وَتَقْوى اللهِ أَفْضَلُ مَا اسْتَفَادا

قال : « الطاعة في الأماكن بركة ونور ، وقد جاء : أن أماكن الطاعة تتراءى لأهل السماء كما تتراءى النجوم لأهل الأرض » .

وذكر الحيوانات والدواب ، فقال : « جميع المخلوقات تُسَبِّحُ خالقها ، وهي لا يتعارف بعضها مع بعض » .

وذُكِرَ له مجلس يجتمع فيه رجال ونساء فقال : « هذا مجلسٌ من حَضَرَهُ يغضبُ اللهُ عليه » .

وتكلم كثيراً في الزمان وأهله ، فقال : « هل سمعتم أحداً ذَكَرَ القرن الثاني عشر قط ؟ لا ، ما ذكره أحدٌ ، إنما آخر ما ذُكِرَ القرن العاشر ، وقد كنا لما كنا صغاراً يعيِّرنا الكبار ، يقولون : اسكتوا ، إنما أنتم أهل القرن الحادي عشر » .

ثم قال مشيراً إلى نفسه : « وقد قال بعض آل باعلوي : إنا في طرف البساط ، فلو قَدْ مِتُّ لَطُوي البساط ، أعني بساط العمل ، ولو سُئِل إنسانٌ : أأنتَ من الأولياء ؟ فقال : لا . وسُئِلَ آخر ، فقال : نعم . لاحتُمِل صدق كل واحد منهما ، وأنَّ كلاً منهما ولي ، فالعلم واسع لا طرف له » .

ثم قال لي : « إنشِدْ » ، فأنشدتُ بقصيدة الشيخ أحمد بن علوان :

أَلَا عَرِّجْ أَضَـاءَ لَـكَ السَّبِيلُ   عَلَى رَبْـعِ الأَحِبَّـةِ يَـا رَسُـولُ

وبعدها بقصيدة سيدنا :

اللهُ لا تَشْـهَدْ سِـوَاهُ وَلَا تَـرَى   إِلَّاهُ فِيْ مُلْـكٍ وفِي مَلَكُـوتِ

إلى آخرها ، قوله : « اللهُ أكبرُ غارَ بحر الحوتِ » .

وكان ذلك في مجلسه بعد الراتب ، فلما فرغتُ سَكَتَ سويعة ، وليس هذه عادته السكوت بعد الإنشاد ، بل عادته في الحال يقول الفاتحة ويقرأها ، ثم يدعو ويختم المجلس ، ثم بعد سكوته ذلك أنشد هذا البيت :

اللهُ أَعْظَـمُ مِنْ إِشَـارَةِ عَارِفٍ   وَاللهُ أَكْـبَرُ مِـنْ إِشَـارَةِ عَـالِمِ

ثم بعده هذا البيت أيضاً :

عِبَارَاتُنَا شَتَّى وَحُسْنُكَ وَاحِدٌ وَكُلٌّ إِلَى ذَاكَ الجَمَالِ يُشِيرُ

ثم قال : « إن الحوت إذا غار عنه الماء هلك ، وعكسه الضب ، إذا وقع في الماء مات » ، ثم ذكر النظم المقول في ذلك ، وهو قول القائل:

إِذَا كُنْتَ قُوْتَ النَّفْسِ ثُمَّ هَجَرْتَهَا فَكَمْ تَلْبَثُ النَّفْسُ الَّتِي أَنْتَ قُوتُهَا
سَتَبْقَى بَقَاءَ الضَّبِّ فِي المَاءِ أَوْ كَمَا يَعِيشُ بِبَيْدَاءِ المَفَاوِزِ حُوتُهَا

فقلت لسيدنا : قوله : « الله أكبر غار بحر الحوت » ، هو إشارة إلى ماذا ؟

فتبسم ضاحكاً وسكت قليلاً ، وهذه عادته إذا سُئِل عما لا يود أن يُسأل عنه ، ثم قال : « ولما تجلى الحق لموسى ، كيف كان حاله ؟ ألا خَرَّ صَعِقاً والجبل صار دكًّا . وأهل الحق يرمزون في النظم ويشيرون فيه إلى أسرار وأمور تقع في خواطرهم ، ولا يمكنهم التصريح بها ، ولكنهم يتنفسون بمثل ذلك ويتسلون به » ، ثم قرأ الفاتحة وقام ، وكل هذا في مجلسه المذكور بعد الراتب .

أقول : قوله : « وأهل الحق يرمزون في النظم ، ويشيرون فيه إلى أسرار .. إلخ » فلهذا لما وصاني للسيد محمد بن زين بن سميط المستدعي لهذه المجالس ، قال لي : « قل له : من عنده الديوان لا يحتاج لغيره ، لأنهم أودعوا فيه أسراراً وعلوماً لم تكن في غيره من المؤلَّفات » ، كهذه الإشارة وغيرها. وقد جاءنا من السيد محمد المذكور مكتوبٌ ذكَرَ مادة هذا الكلام ، لما استدعانا وطلب هذه المجالس ، ثم قال : « الحمد لله ، قد كان ذلك » ، يعني حصل له ما أشير إليه به من أسرار الديوان ، ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾.

وقوله : « وقد قال بعض آل باعلوي : إنّا في طرف البساط ، فلو قد مت لطوي البساط ، أعني بساط العمل » ، ففي سياق هذا الكلام ما يدل على أنه هو المشار إليه في قوله : « قال بعض آل باعلوي»، وأنه القائل : « لو قد مت .. إلخ » ، فافهم ذلك ، فقد تَبَيَّنَ به القول الـمُعَمَّى ، واتضح به المعنى الـمُغَطَّى لمن يفهمه .

وذَكَرَ أفعال الناس في المقادير الكائنة بها ، وحركات الناس على مقتضاها ، فقال : « المقادير أرواح، وأجسادها الأفعال الصادرة من الخلق ، فالأجساد تُرى ويُدرَك كنهها ، والأرواح لا تُرى ولا يُعرف ولا يُدرك كنهها ، فكذلك الأفعال في المقادير ، فيسافر الرجل ويقول : أريد مكان كذا . ولا يعلم ما قُدِّرَ له ، فربما مات قبل مقصده ، وربما وافق القدر فوصل إلى حيث أراد ، فالمقادير لا يُعلَم بما جرت

به ولو عُرِفَت الأفعال ، ففي الدنيا تخفى الأقدار وتظهر الأسباب ، وفي الآخرة تظهر الأقدار وتخفى الأسباب » هـ .

أقول : فالأسباب لما جعلت على أيدي الخلق ، لتُجعَل الأقدار فيها كامنة ، إخفاءً لها عن اطلاع الخلق عليها ، وتبياناً لخواص المؤمنين الذين مطمح نظرهم وغاية تعلق قلوبهم بالأقدار ، ولا التفات لهم إلى نَفْعٍ من الأسباب ، لكنهم يفعلونها امتثالاً لأمر الشرع وتعلقهم بالمقادير ، ويرجون أن قد جعل الله لهم فيها نفعاً ، فإن كان حصل المقصود ، واجتمع الروح والجسد ، والسبب والقدر ، وإلا ففعله لمجرد امتثال الأمر ، كالذي يطلب ولداً فتزوج ، وفعل ما يتوقف عليه ، فهذا هو السبب الذي إليه، وحصوله بعد ذلك بقدر الله ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ ، والإبتغاء هو التسبب، والكَتْبَة هي القدر ، فدل على أن لا ينفع سبب إلا فيما كتب وقدر ، وهذا جارٍ في كل الأسباب، أسباب الدنيا وأسباب الآخرة ، فلا يفيد أحد السببين مقصوده إلا بالكَتْبَة وهي القدر، فلا يفيد سبب أخروي بحصول ثواب ونجاة من عذاب إلا بالكَتْبَة من الله ، فإذا كَتَبَهُ يَسَّرَ سببه ، وجعل فيه القدر كامناً ، فيحصل ذلك به لا بمجرد السبب فقط . كما تسمع عن أقوام عملوا الأسباب وأكثروا منها ، فما حصل لهم مقصود ، بل عقبه بسببٍ ضده ، وأكْمَنَ فيه قدره ، فوقع بهم ضد النفع والخير ، وهو الشر والضرر ، فعقب عبادة إبليس ثمانين ألف سنة بمعصية الإمتناع من السجود لآدم، وأكمن فيه قدره له به بالشقاوة والحرمان ، فوقع به ذلك بمعصية واحدة فَوَّتَتْ عليه نفع عبادة تلك المدة الطويلة، وإبدالها له بضدها ، وذلك لشدة أمر هذه المعصية ، لأن الله سبحانه إنما أمر الملائكة بالسجود لآدم حين رَكَّبَ فيه نور رسول الله ﷺ ، فسجدوا امتثالاً لأمر الله ، وإكراماً للنور النبوي ، فخالف بامتناعه أمر الله، ولم يِقُم بإكرام النور الشريف ، فحاق به من مكر الله ما كتبه الله عليه ، وجرى به حكمه عليه، فإذا كانت الأسباب هكذا لا تفيد بالقطع ما رتب عليها من الجزاء إلا بموافقة القدر وكذلك إنما هي على أيدي الخلق ، وما عملهم وتصرفهم إلا في الدنيا ، فهي خاصة بالدنيا - أعني الأسباب - وظاهرة فيها، فالدنيا موضع أعمالهم وعلى أعمالهم أحكام الشرائع وأمور التكاليف ، وهي على حسب المقادير، ثم يكون لهم ما وعدهم به ربهم على أعمالهم تلك في الآخرة جزاء منه ، مجرد فعله سبحانه بمقتضى وعده ، بحسب تقديره ، لا مدخل فيه لسواه ، فيقول سبحانه : ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ فلا يجيبه أحد، فيجيب نفسه ويقول : ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾، إنما أعمالهم الأسباب ، وقد استوفوها في الدنيا، وبقي هناك الجزاء .

والأقدار متعلق بها الأمران في الدارين : الأعمال في الدنيا ، والجزاء في الآخرة . ولكن فعل العبد ظاهر في محله ، وفعل الرب ظاهر في الأمور القَدَرِيَّة في الدنيا ، وخافٍ فيما يريد ، وظاهر في الآخرة

مطلقاً في كل أمر ، فإذا جاء إلى المؤمن الطير النضج يطير حتى يقع بين يديه ، فيأكل منه بغيته ، ثم يطير، ومتى عَنَّ له ذلك أتاه وهكذا ، فهل هذا إلا مجرد قدرة ، لا مجال للعقول فيها فافهم هـ .

قال لرجل يريد السفر : « **المقدورات لا بُدَّ لها من أوقات ، المقدورات لا بُدَّ لها من أوقات** » ، كذا كرر الكلمة مرتين ، *ثم قال* : « **وما ليس بكائنٍ فلا قَدَر ولا وقت ، اللهم خِرْ لنا واختَرْ لنا** » .

وتقدم قوله : « **اللهم اجعل مرادك فينا خيراً** » ، *ثم قال* : « **لكن ما المراد بالمراد الخير ، والمراد قد سبق ؟ إلا إن كان بمعنى الصبر والرضا ، أو يمحو الله ما يشاء ويثبت** » .

وذَكَرْنا هناك عند ذِكْرِ ذلك : أن هاتين الكلمتين منه يدلان على أن القضاء والقدر على نوعين: أحدهما : محتوم لا علاج في رده ، فالمراد الخير في هذا الرضا والصبر ، والنوع الثاني : مُعَلَّق يدخله الأسباب من الرُّقَى والتداوي ، ويدخله المحو والإثبات ، فالمراد الخير في هذا أن يمحو الله ما يشاء ويثبت ، وقد ذكر ذلك للوجهين معاً ، فتأمل فيه . والدليل على ذلك قول رسول الله ﷺ : « سألتُ ربي في مواقف الحج ثلاث خصال ، أعطاني ثنتين ومنعني الثالثة » ، كان الثنتان من المعلق ، والثالثة من المحتوم . ومَثَّلوا لذلك بفرض الصلاة الخمسين أن ما زاد على الخمس من المعلق ، فلهذا أفاد في دفعها سؤال التخفيف ، والخمس محتومة لا علاج في دفعها هـ .

قال لرجل رآه مهتماً بأمر معيشته : « **طالعْ في كتاب الفرج بعد الشدة ، وواظب على** : ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ۝﴾، **ولو ثلاثاً بعد كل صلاة ، ومبنى الكتاب على هذه الآية** » ، *ثم قال* له : « **إبْنِ أمورك على حُسْن الظن بالله حتى ينشرح صدرك ، فإن الأمور إذا بُنِيَتْ على حسن الظن بالله تيسرت ، والإنسان ضعيف ، جَبَلَهُ الله على ذلك . وما ذَكَر اللهُ قصة آدم وقَصَّها إلا لِيُنَبِّه بها على ضعف ابن آدم ، فإن الله سبحانه جعل له جنة وغيرها ، فلما نهاه عن أكلٍ من الشجرة عجز عن الإمتناع** » هـ .

أقول : في قصة آدم معنيان : الأول : أن الله سبحانه أباحه جميع ما في الجنة ، ونهاه عن هذه الشجرة فقط ، وليست بشيء بالنسبة إلى ما سواها ، فأَبَتْ نفسُه إلا أن يتناول منها ، كما قيل : « لو نهوا الناس عن فَتِّ البعر لَفَتُّوه » . فصار هذا طبعاً في الآدمي ، تَوَلُّعه بما نُهِيَ عنه ، أنه لِـمَ ذا كان النهي ، وأنه ما نهي عنه إلا لأمر ، فتكرر ذلك في نفسه ، وتعالجه النفس بتسويل الشيطان مع شهوة النفس بجاذب القدر إن قُدِّرَ ذلك ، فهو الذي يغلبه ويجره إليه إلى أن يقع فيه ، ولولاه ما قدر الشيطان ولا النفس على

ذلك فبسببه المقدور وَقَعَا في المحذور وظهرت نتيجته بعد ذلك . فَزَيَّنَهُ الشيطان لهما ، ﴿وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ﴾ ، إلى قوله : ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾، أي غَرَّهُما بِقَسَمِه ، وما ظَنَّا أن أحداً يحلف بالله كاذباً ، حتى جرى عليهما ما قَدَّر الله ، ليجعله سبباً لنزولهما إلى الأرض التي خلقهما الله تعالى لعمارتها. وعادته تعالى أنه لا يأخذ إلا بحجة ، فإنَّ إنزالهما من الجنة ونعيمها إلى الأرض ومحنها عقوبة ، تكون على ذنب ، فكان ذلك الأكل ذنباً ، وهذا الإنزال عقوبته ، فأنزلهما ليرجعا إلى ما أراد لهما .

فانظر كيف أجرى الله عليهما السبب الذي يجرهما إلى ما أراده الله لهما وبهما ، وقِسْ عليه جميع الأعمال، من أعمال السعداء القائدة لهم إلى السعادة ، وأعمال الأشقياء القائدة لهم إلى الشقاوة ، وكيف مدح أسباب الخير وأعمال الخير وعامليها ووعدهم ، وذم أسباب الشر وأعمال الشر وعامليها وتَوَعَّدَهم ، فالكل منه وإليه ، ولذلك جاء عنه سبحانه في الخبر أنه قال : « خَلَقْتُ الخير وخَلَقْتُ له أهلاً ، وأجْرَيْتُ الخير على أيديهم ، وخَلَقْتُ الشر وخَلَقْتُ له أهلاً ، وأجريت الشر على أيديهم ، فطوبى لمن خَلَقْتُهُ للخير وأجْرَيتُ الخير على يديه ، وويلٌ ثم ويلٌ لمن خَلَقْتُهُ للشر وأجْرَيْتُ الشر على يديه » ، ولما كان هذا المعنى سرٌّ غامضٌ من أسرار القَدَر لا يجوز إذاعته بين الناس ، خوفاً من استجراء الجاهلين ومن لا تقوى معهم على محارم الله ، ولذلك ما أجاب الله سبحانه الأنبياء لما سألوه تعالى عنه إلا بقوله سبحانه : « لا أسأل عما أفعل » ، حَسْماً لمادة الكلام في هذا الميدان ، وقد أوضحه سبحانه في كتابه المنزل على خير خلقه ، حيث قال تعالى : ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾﴾.

وسر المعاملة بين العبد وبين ربه قد يخالف في الظاهر بين سر إجراء الناس على أمر المقدر باطناً، كقصة الخضر مع موسى ، وكما ذكر الامام الغزالي قال : « رُوِيَ أن نبياً كان يتعبد في جبل ، وكان بالقرب منه عين ماء تجري ، فاجتاز بها فارس وشرب ، ونسي عندها صرة فيها ألف دينار ، فجاء آخر فأخذ الصرة . ثم جاء رجل فقير على ظهره حزمة حطب ، فشرب واستلقى ليستريح ، فرجع الفارس في طلب الصرة فلم يرها ، فأخذ الفقير وطالبه وعذبه ، فلم يجد عنده شيئاً فقتله . فقال ذلك النبي : إلهي ، ما هذا أخذ الصرة ، وإنما أخذها ظالم آخر ، وسلطت هذا الظالم على هذا الفقير فقتله، فأوحى الله تعالى إليه أن اشتَغِلْ بعبادتك ، فليس معرفة أسرار الـمُلْك من شأنك ، فإنَّ هذا الفقير قتل أبا الفارس ، فَمَكَّنْتُهُ من القصاص ، وإن أبا الفارس كان قد أخذ ألف دينار من مال أب آخذ الصرة ، فردَدْتها إليه من تركته » ، قال : « فمن أيقن بأمثال هذه الأسرار لم يتعجب من أفعال الله تعالى، ويتعجب من جهل نفسه ، ولم يقل لِـمَ وكيف ، فيرضى بما دبر الله تعالى في ملكه وملكوته » .

ذكره في أصل الرضا بالقضاء ، قال : وها هنا وَجْهٌ رابعٌ يتشعب من محض المعرفة بكمال الجود

والحكمة ، ويكفيك ترتيب الأسباب المتوجهة إلى المسببات ، ومعرفة القضاء الأزلي الذي هو كلمح البصر ، ومعرفة القدر الذي هو سبب ظهور تفاصيل القضاء الأزلي ، وإنها رُتِّبَتْ على أكمل الوجوه وأحسنها ، وليس في الإمكان أحسن منها وأكمل .

فوقوع آدم في النهي دليل على ضعفه ، الدال على ضعف ابن آدم ، إلا إن عصمه الله ، فنبه بهذا أن الأب الذي هو الأصل هكذا وقع منه مع كونه نبياً معصوماً ، فكيف بغيره من ذريته ، وأن مَن حُفِظَ من الوقوع في المحذور أو وقع فيه وتاب إلى الله منه ، وكذلك من لم يتب ، فكل من صار في خير وإلى خير ، أو في شر وإلى شر دينياً أو أخروياً ، أن كل ذلك جارٍ بحكم القضاء والقدر ، لا يشذ منه قدر ذرة أو خردلة ، وأن أحوال آدم كلها أساس لأولاده .

- كما تقدم من قوله : « **وهذه الأمور قد أسسها لهم آدم .. إلخ** » -

فبيَّن بهذا ما يدل على ضعف الآدمي ، وأن ﴿لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ﴾، ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌۚ﴾، يعني عباده المضافين إليه ، أضافهم إلى نفسه تعالى بقوله: ﴿عِبَادِي ﴾، وأقرَّ إبليس بعجزه عنهم وأضافهم إلى عبودية الله ، وأنه لذلك عجز عنهم لما عَجَّزَه الله عنهم ، حيث قال سبحانه : ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌۚ﴾، كما حكى الله عنه إذ ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾، وهم المذكورون الذين سبقت لهم من الله السعادة والسلامة من الشيطان الرجيم . بخلاف غيرهم الذين أشار إليهم بقوله تعالى : ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴾، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ ﴾، ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ ، ثم مع ذلك أضاف ما حل بهم إلى أعمالهم ، ليدل أنها مراده لله ، وأن العبد حاله وجزاه بحسبها ، فقال تعالى : ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَآ﴾ ، أي نسيتموه فلم يثبت في قلوبكم الإيمان به ولا على جوارحكم العمل به فأنساكم ذلك - أي تركتموه - ﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمۡۖ﴾، أي تركناكم وأنسأناكم عن المعاملة بالفضل والإحسان كما قال الله تعالى : ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ﴾، أي نسوا الله بعدم الإيمان والعمل الصالح فأنساهم أنفسهم أن يفعلوا ما يقيها من العذاب ويلقِّيها من الثواب، وقال تعالى : ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ﴾، ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾، ﴿إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾، ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ ﴾، وغير ذلك .

فالعمدة إذاً في الحالين وحصول ما يقتضي كلًّا منهما على المقَدَّر المكتوب لا غير ، وهو الروح وهو الحقيقة ، وما عدا ذلك من أفعال الخلق والجزاء المرتب عليها من خير أو شر ، بحسبها تابعٌ لذلك ، وهو لها كالغَرْسِ وهي نَبْتٌ له ، وأن الجزاء منسوبٌ للعمل ، وأن العبد بحسب ذلك يُمدَح أو يُذَم، ويُثاب أو يُعاقَب ، حتى إن قصته على المنكرين البعث زيادة على جرمهم، فقال تعالى : ﴿فَوَيۡلٌ

لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ۝ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴾، أي إذا كان الفريقان لا يبعثون .

المعنى الثاني من معنى قصة آدم : هو أن الأمر العجيب والعجب العجاب ، أن الله تعالى إنما خلق آدم في أصل خلقته ليجعله خليفةً في الأرض ، كما قال تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾، وأن يجعل له فيها ذرية وأن يعمر به وبذريته الأرض وتمتليء منهم ، وأن يجعل منهم فيها أنبياء ومرسلين يرسلهم إلى الخلق برسالته وشرعه ، يأمرونهم وينهونهم . ثم إن الله تعالى خلقه في الجنة ، وأنشأه فيها ليرى نعيمها وخيراتها ، ويبقى مشتاقاً إليها ، حتى لو خرج منها إلى الأرض التي أراد منه أن يعمرها وما خُلِقَ إلا لعمارتها ، ويعمل الأسباب الموصلة له إليها وهي الإيمان والطاعة ، ويجتنب الأسباب المبعدة له عنها ، وهي الكفر والمعصية .

وهو معنى قول سيدنا في القصيدة :

وَعُدْ هُدِيتَ فَقَدْ نُودِيتَ مُطَّرِحاً ... هَذَا الوُجُودَ وَمَا فِيهِ مِنَ الغِيَرِ
وَاسْلُكْ سَبِيلاً إِلى الرَّحْمَنِ قَيِّمَةً ... بِهَا أَتَاكَ إِمَامُ البَدْوِ وَالحَضَرِ
مَشْرُوحَةً في كِتَابِ الله وَاضِحَةً ... فَسِرْ عَلَيْهَا وَكُنْ بِالصِّدْقِ مُتَّزِرِ

فحينئذ لو أُخرِجَ منها إلى الأرض التي ما خُلِقَ إلا لعمارتها ، وأريد منه أن يعمرها ، لكان ذلك عقوبة في حقه ، إذ أخرج من دار الراحة والهناء إلى دار المحنة والبلاء والعناء ، والله سبحانه ما يعاقب إلا بحُجَّة ، كما تقدم ذلك من قول سيدنا ، فنهاه الله عن الأكل من الشجرة ، ثم جَرَّهُ إلى الأكل منها بكلاليب القضاء والقدر إلى أن يواقع تلك المعصية ، ويرتكب تلك المخالفة ، ليخرجه من الجنة بحجةٍ إلى الأرض التي ما خُلِقَ إلا لعمارتها ، وما وصل إليها وما حصل ما أريد منه إلا بسبب المعصية، فبسببها أوصله الله إلى ما أراده الله به وأراد منه . ومع ذلك عاتبه الله عليه لمخالفته الحكم ، وأشهره به بين ملائكته ، فقال سبحانه : ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾، وذلك أنه لما نفخ فيه الروح أخذ عليه العهد أن لا يخالف له أمراً ، ولا يرتكب له نهياً . فلما وقع فيها وقع فيه قال له في جملة عتابه : « يا آدم ، ما أسرع ما عصيتني وخالفتَ أمري ، يا آدم ، خَلَقْتُكَ بيدي ونفختُ فيك من روحي ، وأَسْجَدْتُ لك ملائكتي ، وزَوَّجتُكَ حواء أَمَتِي ، فعصيتني وخَالَفْتَ أمري » ، كل ذلك لثبوت الحجة عليه في إنزاله إلى الأرض، لِما أراده منه وخلقه لأجله من عمارة الأرض .

فاعجب للقضاء والقدر كيف يجر العبد قهراً عليه لما يريده الله منه ، ثم رتب عليه الأمور الشرعية الإختيارية ، ظاهراً لثبوت الحجة له إن اتبع ، أو عليه إن خالف وابتدع ، والقضاء والقدر فيها كامنٌ

كمون الروح في الجسد ، يجر العبد إليها لما يريده الله به ويريد منه ، كما يجر سُكَّانُ المركبِ المركبَ بحملته ، وكما يقود المصراعُ الفرسَ وخطام الناقةِ لها . وبهذا تبين أن الحكم الظاهر لا عذر له منه ، وأن الأمر المقدور المحتوم عليه لا بد له منه ، إن كان خيراً أو شراً ، وسواء كان من خواص الخلق أو عامتهم أو خيارهم أو شرارهم ، وهذا هو معنى قوله: « **وهذه الأمور قد أسسها لهم آدم** » ، يعني فتبين من قصته هذه المعاني ، وهو أيضاً معنى قول سيدنا المتقدم : « **وأمور القضاء والقدر خفي جدًّا ، وأمر دقيق لا شيء أخفى منه ، وفي الخوض فيه خطر عظيم لا ينبغي أن يُفْشَى ، ومنه فَرَّت القدرية** » – أي من هذا الخطر – ، قال : « **حتى قيل إنهم لأجل ذلك معظمون للرب ، لكنهم وقعوا في بدعة منكرة من الجانب المقابل** » ، أو كما قال بمعناه .

وكذلك قال : « **إذا أردت من الإنسان أن يعتدل عن التفريط إلى الوسط ، تعدى الوسط إلى الغلو والإفراط من الجانب المقابل ، وكِلَا طَرَفَي قَصْدِ الأمُورِ ذَمِيمُ** » .

يعني أن القدرية فروا من التفريط ولا وقفوا على الوسط المعتدل ، بل تعدوا إلى الإفراط ، وكلا الحالين بدعة ، وإنما السُّنَّة والحق الوسط ، وهكذا طبع الآدمي إلا من وفقه الله ، إما إفراط أو تفريط، وفي ذلك دليل قاطع على أن الله سبحانه مريدٌ للطاعة ، ممن أطاع حقيقةً وشريعةً ليوافق ما أراد به من السعادة ، وأراد له من الخير ، وأنه مجرور إلى ذلك بكلاليب القدر قهراً عليه ، « عَجِبَ ربُّك من قومٍ يُقادون إلى الجنة بالسلاسل وهم كارهون » . ومريد للمعصية ممن عصى حقيقة لا شريعة ، وأنه مجذوب إلى ذلك بمصاريع القضاء والقدر ، ليوافق ما أراد به من الشقاوة وأراد له من جزاء الشر ، إما أبداً وإما أمداً . وهو معنى ما تقدم من قول سيدنا : « **الخلق مكلوفون لما خلقوا له ، لأن الحق أراد بهم وأراد منهم ، فالسعيد من وافق ما أراد به الحق وأراد منه ، والشقي من اختلفت به الأمور** » انتهى، والتفت إليَّ وقال : « **احفظ هذه الحكمة إن كنت حافظاً** » ، قلت : قد حفظتها وكتبتها .

فالإرادة التي يسوق القضاء إليها قهراً ، خيراً أو شراً ، تُسَمَّى الإرادة الأزلية وهو معنى قوله : « **أراد به** » ، وهي صفة من صفات الله ، إن أراد بأحد السعادة وأعمالها ساقه إليها قهراً ، وإن أراد بأحد الشقاوة وأعمالها ساقه إليها قهراً .

وله سبحانه إرادة أخرى تفرَّعت من هذه تسمى الإرادة الشرعية ، وهي طلب الإيمان والطاعة من جميع الخلق ، طلب حق لازم لِحَقِّ الربوبية على العبودية – حق الإيجاد والإمداد – وبها ولها أرسل الله الرسل وبين الأحكام ، وموافقتها هو معنى : « **ما أراد منه** » ، يعني أن السعيد هو من وافق الإرادتين الأزلية والشرعية ، وهو معنى قوله : « **فالسعيد من وافق ما أراد به الحق** » ، أي بالإرادة الأزلية ، « **وأراد منه** » ، أي بالإرادة الشرعية ، « **والشقي من اختلفت به الأمور** » ، أي وافق ما أراد

به بالإرادة الأزلية من الشقاوة وأعمالها ، ولم يوافق ما أراد منه بالإرادة الشرعية من الطاعة وأعمالها . ولكن ما يحصل موافقة الإرادة الشرعية أو مخالفتها إلا على وفق مقتضى تلك الإرادة الأزلية كائناً ما كان ، إن أرادت بأحد السعادة وأعمالها بموافقة هذه الإرادة الشرعية حصل ، أو أرادت بأحد الشقاوة وأعمالها بمخالفتها بالكفر والمعصية حصل .

فاعتبر بهذه المعاني وما تبين منها بقصة آدم في جميع أعمال العباد ، فإنه أول مخلوق من جنس الآدمي، وما وقع منه وعليه فهو وأموره أساس لهم ولأعمالهم ، ليوافق ما أريد بهم ولهم من السعادة والخير ، أو الشقاء والشر ، أو مخالفة بعض الأحكام الشرعية المتوقف عليه نسخه وإبداله بحكم آخر خير منه ، مع العتاب على مخالفة ذلك الحكم الحاضر ، وإن كان أراد سبحانه أن يرتب على مخالفة ذلك الحكم حكماً آخر ، كما رتب على مخالفة آدم أن ينزله إلى الأرض ، وهو مرادٌ لله سبحانه .

وكما رتب على أخذ الفِداء يوم بدر ، حيث كان محرماً فنسخ تحريمه ، وأبدله بتحليله ، لكن حصل على مخالفة الحكم الحاضر عتاب مثل ما حصل على آدم ، فقال الله تعالى : ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ، أي يُكثِر القتل في الأعداء ، فتمتلي القلوب من الهيبة والخوف ، ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾ ، بأخذكم الفداء ، ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ، أي قاهرٌ في أمره ، حكيمٌ في تدبيره ، ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ ، أي أنه لا يُعذِّب أهل بدر ، ﴿لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ﴾ ، أي من الفداء ، ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ، ثم نسخ الله سبحانه ذلك الحكم من تحريمه بحكم آخر بتحليله ، فقال تعالى : ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٦٩﴾ . فانظر أنه لما أراد سبحانه أن يبدل هذا الحكم بحكم آخر ، ورتب إبداله بالوقوع فيه أولاً ، ثم بالعتاب على الوقوع فيه ثانياً ، ثم إبداله بحكم آخر ثالثاً .

وعلى هذا جَرَتْ الحكمة والتقدير ، فجَرَّهم إليه بكلاليب القدر ، ثم عاتبهم على مخالفة الحكم الحاضر ، وقد رتب على الوقوع في تلك المخالفة حكماً آخر متوقفاً على حصولها أراد أن يثبته ، فلما حضر وقته بعد ذلك الفعل أثبته ، كقصة آدم . واقض العجب أن أولئك الذين أخذ منهم الفداء، كلهم أسلموا وجاهدوا في سبيل الله ، وثبتت لهم الصحبة ، وتحقق في شأنهم سابقة السعادة التي لا شقاوة بعدها ، حتى أن من جملتهم العباس عم رسول الله ﷺ ، وعقيل بن أبي طالب ابن عمه وغيرهما. فانظر كيف جَرَّتهم سلاسل القدر إلى ما أراد الله بهم ولهم من سابقة السعادة وجزاء العمل الصالح، فَسَلَّمَهُ من القتل مع المعاتبة على تركه ، فاعجب لعجيب صنع الله فيما أراد وفيما حكم ، فاشرب أيضاً من رَيِّ هذه المعاني إلى ما تَرَوَّيت منه مما تقدم .

ومثل ذلك أنه كان في شهر رمضان تحل المفطرات من الأكل والنكاح ، من غروب الشمس إلى أن تصلى صلاة العشاء أو ينام قبلها ، فإذا صلاها أو نام قبلها حرم جميع ذلك إلى الليلة القابلة ، فاتفق

أن بعض كبار الصحابة واقع أهله بعد صلاة العشاء ، فلما اغتسل بكى ولام نفسه ، فأتى النبي ﷺ فقال: « يا رسول الله إني أعتذر إلى الله ثم إليك من نفسي الخاطئة » ، وأخبره بما فعل ، فقال له رسول الله ﷺ : « ما أنت بحقيق بذلك يا فلان » ، فقام رجال واعترفوا بمثله ، فنزلت فيهم : ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ الآية .

وكذلك قيس بن صرمة ، فعل ذلك بعدما نام ، فغُشِيَ عليه من الأسف على ذلك ، وذكره للنبي ﷺ ، فنزلت الآية ، ففرح المسلمون بها فرحاً شديداً ، فنسخ الله ذلك الحكم : التحريم ، وأبدله بالحكم الآخر : التحليل ، بعدما جرت منهم تلك المخالفة ، لما أراد الله سبحانه حينئذ إبداله ووقفه على ذلك ، جرتهم تلك الكلاليب القدرية إلى ما أراد ، ليثبت الحكم الذي أراد ، ولكن وقعت المعاتبة مراعاةً للحكم الحاضر قبل النسخ ، ثم نسخ .

فقس على ذلك كل ما صَدَرَ من أفعال الخلق ، ممن أراد الله سبحانه جزاء الخير أو جزاء الشر ، أو العفو إذا أراد أن يعفو عن أحد ، أُوقِعَ في ذلك حتى يعفو عنه . وهذا يكون اعتقاداً لا تعمد فعل المخالفة ، فما يدريه أنه ممن يُعفَى عنه ، أو ممن يجزى بسوء العمل .

واستجرار الأقدار لا تعلق له بجزاءٍ على عمل ، بل هو سَوْقٌ لمحض الإرادة الإلهية بما خصَّت كل أحد به ، ثم إنما الجزاء على العمل ، فخصت أحداً بالسعادة وعمل الخير ، لإرادة الله له جزاه به ، أو عفواً عن ذنب بلا وسيلة منه ، وأحداً بعكس ذلك بلا جريمة ، فاسْتَجَرَّتْ إبليس بعد عبادة ثمانين ألف سنة إلى ما أريد به وله من الشقاوة والشر ، واسْتَجَرَّتْ برصيصاً بعد الإيمان والعبادة إلى ما أريد به وله من الكفر والمعصية ، واسْتَجَرَّتْ كثيراً من الخلق من الكفر والمعاصي إلى ما أريد بهم ولهم من الإيمان والطاعة ، وكم وكم من غيرهم ممن لا يحصى .

فالخوف كل الخوف من استجرارها لما أريد به وله ، لا يعلم هو إلى أي الأمرين أي لا أحد يدري بماذا أريد به وله من سعادة أو شقاوة ، فلو كان العمل موجباً لغايته لعرف بالعمل أنه على أي الحالين يكون ، ولكن ليس موجباً ، وليس بالإرادة المحضة ممن يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، ولا يبالي بهلاك أحد ولا نجاته ، ولا ينقص من ملكه ذرة بهلاك أحد ، ولا يزيد ذرة بنجاة أحد ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾، وبقوله عليه السلام: « وأعوذ بك منك » ، أي أن تريد بي أن أكون ممن تملؤها بهم وهو فرض محال ، يشير إلى تخصيص وقوع الأمور بالإرادة الإلهية ، من غير نظر إلى سبب ، وورد في القنوت : « وقني شر ما قضيت » ، وإنما يتعلق الجزاء بما جَرَّ إليه من الأعمال من خير أو شر .

وكذلك لا يحتج بالمقادير ، حيث لا تَعَلُّق لها بعمل ، ولا بها حُجَّة لِمُحْتَجٍّ إلا في بابها ، أعني إذا

انتفى الإختيار المتعلق به التكليف ، حيث قال تعالى : ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، وما لا فيه اختيار لا وسع فيه ، فإذا بقي مجرد قدر ، كالمرتعش في الصلاة ، لو له اختيار بطلت بثلاث حركات، فلما انتفى الاختيار صَحَّتْ مع الحركات الكثيرة ، فقس على ذلك . وله أن يحتج فيه بعدم الإختيار ، وأما الإحتجاج ففي الأمور الشرعية ، فإن وافق القدر العذر الشرعي كهذا احْتُجَّ به وإلا فلا .

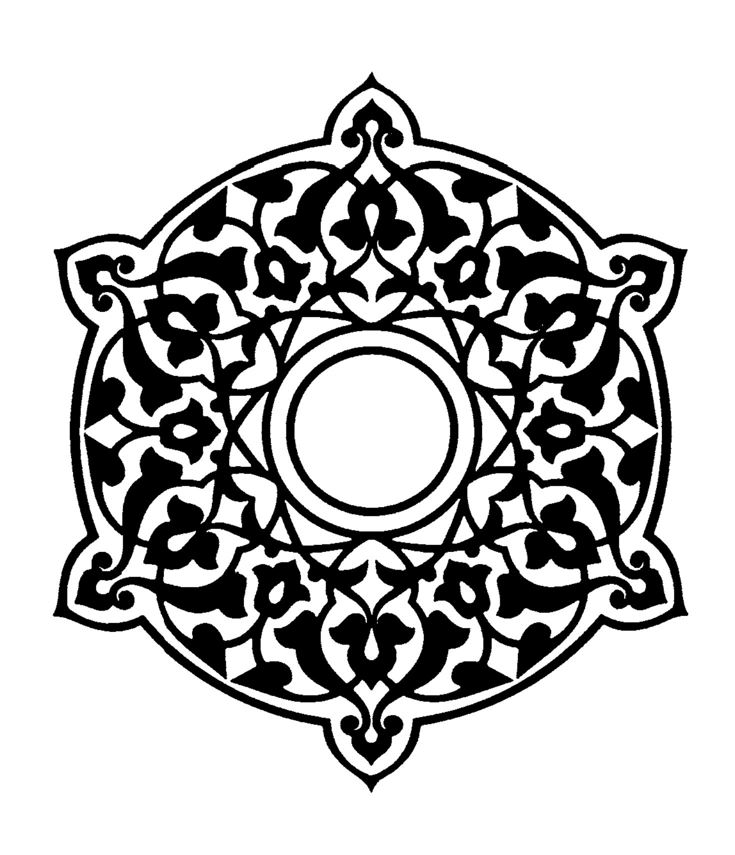
قال لذلك الرجل المهتم بمعاشه المتقدم ذِكْره : « **وأَعِدَّ يس ولا إله إلا الله دواء لكل شيء ، وإن تعسرت عليك السورة كلها ، فاقرأ إلى : يبصرون . لأنها قلب القرآن ، وشأنها عند المؤمنين عظيم ، حتى إنهم إذا مرض الإنسان أو عثر أو ذُكِرَ بعيبٍ أو سقط ، أو وقع عليه شيء من المصائب ، أو أي شيء يترحم له منه ، يقال له : يس عليك . يحصنونه بها ، لمكانها من المؤمنين لما كانوا عليه من التعظيم لها ، وعاد أثر ذلك إلى الآن** » ، أي إن هذه الألفاظ قد تقال الآن ، وهي من ذلك الأثر الذي كان به .

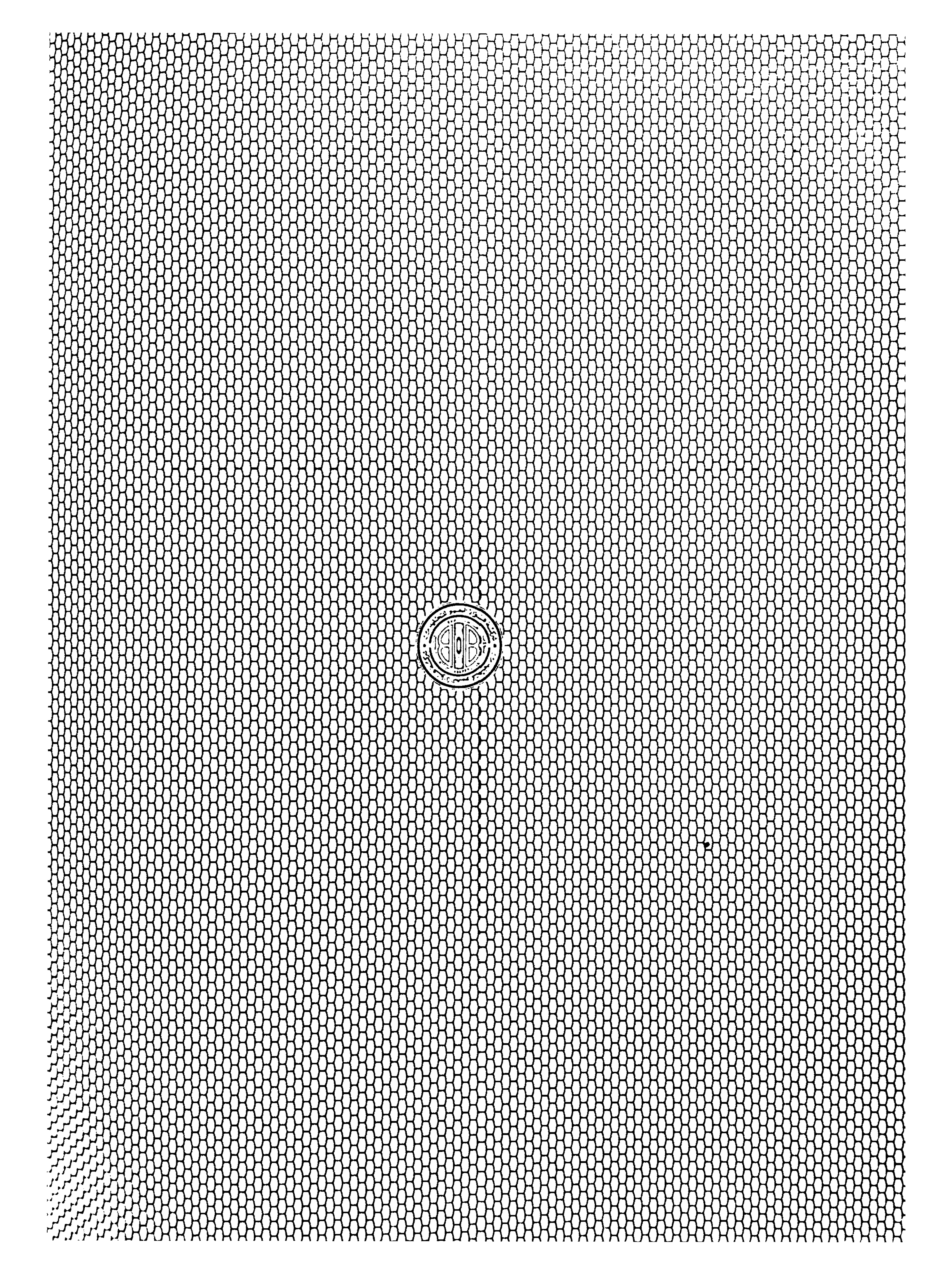
ثم قال له : « **وعادنا نكتب لك الأحرف النورانية تكررها ، وهي أربعة عشر حرفاً : ا ، ل ، م ، ر ، ك ، هـ ، ي ، ع ، ص ، ط ، س ، ح ، ق ، ن . من أوائل سور القرآن** » .

أقول : هي أول ست سور : « الر » ، « كهيعص » ، « طس » ، « حم » ، « ق » ، « ن » . وكذا أول أربع سور : « كهيعص » ، « طس » ، « ق » ، « الرحمن » .

وكان عبدالرحمن بن عوف وجماعة من الصحابة يكتبونها على أمتعتهم لسلامتها في بر أو بحر ، ويقولون : « اللهم بحق كذا وكذا سَلِّم هذا المتاع » ، ويُسَمِّيه .

انتهى الجزء الثاني من الكتاب ، ويليه الجزء الثالث وأوله : (قال رضي الله عنه : ما عاد مجالستنا لأهل الزمان ومداراتنا لهم إلا كمداوي الجرحى ..)





(٢)

تنقَّلْ بهٰذا الرَّوض واقطف زهوره — وعِش مطمئنَّ البال في حاوي الخيرِ
هنيئاً لطلاب العلوم بهٰذه الـ — ـموائد قد مُدَّت لديهم بلا عُسرِ
موائد حداد القلوب تنوَّعت — لذائذُها مُدَّت على رفرفٍ خُضرِ
زرابيّها مبثوثةٌ ونمارقٌ — وأكوابها موضوعةٌ للورىٰ تُغري
فكُلْ وتذوَّقْ سرَّه في طعامه — إذا شئت أن تحيا سعيداً مدى العمرِ

لقد آذن المولىٰ له الحمد ربنا — بإظهار هٰذا السِّفر يبزغ كالفجرِ
ينير لنا ما كان من قبل خافياً — علينا ويهدينا إلىٰ طرق السيرِ
ففيه علومٌ لم نجدها بغيره — لدنِّيَّةٌ من بحر حدَّادنا تجري
تلقَّفها الشجَّارُ منه بقوةٍ — لينشرها فينا . . فلله من نشرِ
فدونك هٰذا السّفر فاغنمه يا أخي — إذا شئت أن تحيا سعيداً مدى العمرِ

من أبرز مواضيع هٰذا المجلد

تشديد الإمام علىٰ عدم نقل شيء من كلامه إلى الآخرين إلَّا بعد مقابلة جيدة • العوادات بدعة ما لها أصل في السنة • سند الإمام إلى ابن حجر • صفة ختم القرآن لحفيده محمد الباقر بن الحسين بن عبد الله الحداد • خمسة أنواع من المال تأكل أصحابها • شرط مطالعة « الإحياء » • نهيه عن التواجد والتحرك أثناء الذِّكر • ثلاث إن لم تظلمهم ظلموك • التطويل بالنية عند تكبيرة الإحرام • الانشغال بالكلام بعد إحرام الإمام حتىٰ يركع • الحبيب أحمد بن زين يفسر رؤيا للحساوي • ماذا قال الإمام الحداد قبل وفاته بيومين وهو في حالة اصطلام ؟ • العلاج بالعنبر وواقعة الأحسائي في ذٰلك • قصة سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه وتصديق قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم : (كفي وكف علي في العدل سواء) • كيف ينتفع المريد بالشيخ • الحث على الخروج للنزهة والتفرج وترويح القلوب في الأوقات المناسبة • ما المراد بالتجديد في الدين ؟ • أصل المقولة المشهورة : (ياسين عليه) • ماذا تعرف عن مسألة الظبية ؟ • ما هو الميزان المذكور في القرآن ؟ • قصة حفيده أحمد بن حسين عندما ألبسه جدُّه عمامة • بناية جبانة تريم • عادة الإمام الحداد في حراثة أرضه في بيت جبير • كلامه عن المساكين وهو في طريقه من الحاوي إلى السبير • نهيه عن كثرة المطالعة في كتب الحقائق مثل كتاب « معراج الأرواح » أو قراءتها في المجالس العامة • بيان الكتب التي كانت تقرأ في مجالس الإمام الحداد وأسماء القرّاء • وغير ذٰلك كثير .

ISBN: 978 - 9933 - 39 - 085 - 3